مقدمات العلوم والمناهج

المجلد الخامس

٥

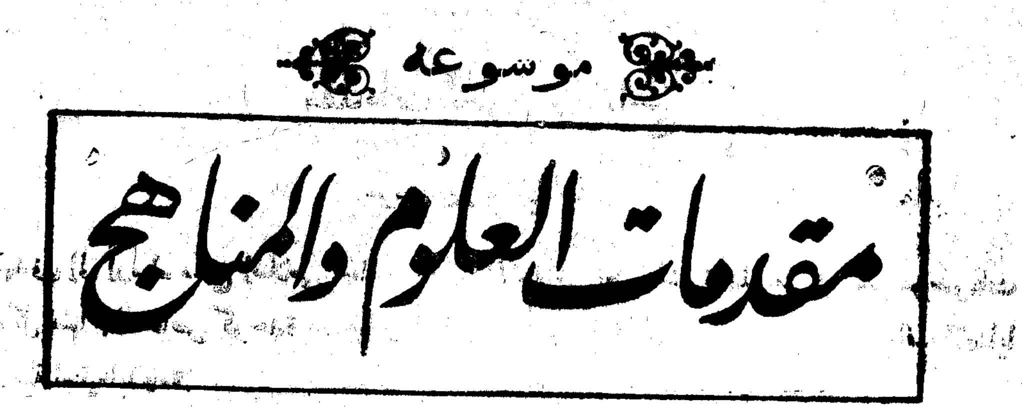
التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة



دار الأنصار بالقاهرة

محاولات لبناء منهج إسلامي متكامل

بقلم أنور الجندي



محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل

المجلد الخامس

التبشير والإستشراق والدعوات الهدامة

يتناول هذا المجلد بالبحث مخططات الغزو الفكرى والثقافى والعقائدى فى ثلاث موضوعات كبرى :

الأول : التبشير والاستشراق وأثرهما فى الفكر والأدب والاجتماع .

الثانى : المؤامرة على تاريخ الإسلام : وأثر الاستشراق فى تزييف عدد من حقائق التاريخ الاسلامى .

الثالث : الدعوات الهدامة : تاريخها وأهدافها وشبهاتها وبالجملة فإن مجموعة الأبحاث تكشف عن المخاطر والمحاذير والأهواء التى أثارها الاستشراق والتغريب والشعوبية فى أفق الفكر الاسلامى فى العصر الحديث مع ردود تفصيلية تدحض هذه الشبهات وتكشف عن مصادرها وزيوفها .

أنور الجندى

دار الأنصار
مكتبة . طباعة . نشر . توزيع
٨١ ش البستان . ناصية ش الجمهورية
أمام قسم عابدين ت ٩٣١٥٨١

رقم الإيداع ٤١٥٠ / ١٩٨٣
الترقيم الدولى ٩٧٧-٤٣٢-٠٠٨-٠

مقدمات العلوم والمناهج

موسوعة إسلامية جامعة

تهدف إلى إرساء منهج إسلامي جامع للفكر الاسلامي تضم عشرة مجلدات في عشر موضوعات كبرى كل منها مجلد خاص كوحدة مستقلة وتتكامل في مجموعها العام بحيث تستوعب مختلف القضايا الاسلامية استيعابا كاملا

المجلد الأول : الفكر الاسلامي

يتناول بالبحث الجذور الأساسية للفكر الإسلامي التي بناها القرآن الكريم والسنة المطهرة وما واجهه من محاولات في العصر الأول وفي العصر الحديث وخاصة ما يتصل بحركات التغريب والغزو الثقافي عن طريق الاستشراق والتبشير وانبعاث الفكر الوثني الهليني والشرق القديم

المجلد الثاني : تاريخ الاسلام

ويتناول بالبحث دراسة مستوعبة لتاريخ الإسلام منذ بزوغ فجره إلى اليوم مروراً بمراحله المختلفة وأحداثه الكبرى وتوسعاته في قارات آسيا وأوربا وأفريقيا إلى العصر الحديث وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين عالم الإسلام والغرب وبين العرب والدولة العثمانية وسقوط الخلافة وقيام القوميات والأقليات

المجلد الثالث : عالم الاسلام المعاصر

ويتناول البحث تاريخ العالم الاسلامي المعاصر وأقطاره وقضاياه والتحديات الموجهة إليه وقضية الجامعة الاسلامية والوحدة العربية والتضامن وموقف العالم الاسلامي من القوى الغازية الثلاث : الاستعمار الغربي والصهيونية والشيوعية ودراسة قضايا العالم الاسلامي على أبواب القرن الخامس عشر الهجري وما يتصل بالعلاقات بين الشيوعية والصهيونية والدعوات الهدامة كالبهائية والقاديانية والمخططات التي تستهدف غزو المجتمع الاسلامي

المجلد الرابع : اللغة والأدب والثقافة

(١) اللغة العربية العظمى لغة القرآن والتحديات التي تواجهها في العصر الحديث

(٢) الأدب العربي : خصائصه المستمدة من القرآن والسنة وارتباطه في العصر الحديث بمفاهيمه الأساسية .

(٣) دراسة الثقافة العربية ذات الانتماء الاسلامي وخصائصها ووجوه الخلاف بينها وبين الثقافات الغ...

الفهرس

الرسالة الأولى :
مخططات التبشير والاستشراق

مدخل

ظهرت فى السنوات الأخيرة وثائق كثيرة كانت خافية على المسلمين والعرب لها أثرها الكبير فى مصائرهم ومقدراتهم واليها يمكن تفسير أسباب هزيمتهم ونكبتهم ومنها يوجد المنطلق إلى الأصالة الحقة بعد هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وجنوحه إلى التأمل فى نتيجة خطته التى جرّت عليه الهزيمة والاعتقال فقد كتب مذكرة خطيرة أشارت إليها مراجع عديدة من كتب التاريخ الفرنسى وذكرها مؤرخه جوانفيل يحدد بها الموقف من العالم الاسلامى بعد هذه السنوات الطويلة من الحروب الصليبية والمعروف أن لويس كان يقود الحملة الثامنة . لقد أشار لويس التاسع فى وثيقته إلى أنه لا سبيل إلى السيطرة على المسلمين عن طريق الحرب أو القوة ، ذلك لأن فى دينهم عامل حاسم : هو عامل المواجهة والمقاومة والجهاد وبذل النفس والدم رخيصاً فى سبيل حماية العرض والأرض وأنه مع وجود هذا المعنى عند المسلمين فمن المستحيل السيطرة عليهم لأنهم قادرون دوما إنطلاقاً من عقيدتهم إلى المقاومة ودحر الغزو الذى يقتحم بلادهم ، وأنه لابد من إيجاد سبيل آخر من شأنه أن يزيف هذا المفهوم عند المسلمين حتى يصبح مفهوماً أدبيا أو وجدانيا وإيجاد ما يبرره على نحو من الأنحاء بحيث تسقط خطورته وارتفاعته وأن ذلك لا يتم إلا بتركيز واسع على الفكر الاسلامى وتحويله عن منطلقاته وأهدافه حتى يستسلم المسلمون أمام لقاء القوى الغربية وترويض أنفسهم على تقبلها على نحو من أنحاء الاحتواء أو الصداقة أو التعاون وحتى نحصل على نص وثيقة لويس التاسع التى لم نتمكن من الحصول إلا على مقتطفات منها فيما أورده الأستاذ محمد على الغتيت فى كتابه من الحروب الصليبية إلى حرب السويس فإن الضرورة تقضى بدراسة هذا الهدف الذى كان له أثره فى ذلك المنحنى الخطير الذى تحولت إليه علاقات الغرب مع عالم الاسلام ، هذا الهدف الذى جندت له قوى التبشير والاستشراق والتغريب والغزو الثقافى فى خطة محكمة مدبرة ما زالت مفروضة على العالم الاسلامى منذ عام ٥١٥ هجرية الموافق ١١٢١ م ، هذه الخطة التى سيطرت عليها من بعد قوى الصهيونية العالمية مما ستفسره فيما بعد الهدف هو : إيقاف توسع الإسلام ومحاصرته من ناحية واحتوائه فكريا حتى يصبح عجينة طيعة فى يد : الفكر العالمى الأممى تمهيداً للوثوب عليه ومن الوسائل إنشاء مؤسسة لحرب الكلمة واستخدام من يمكن إغرائهم من أقليات الشرق وإنشاء قاعدة للغرب فى قلب الشرق الإسلامى يتخذها الغرب نقطة ارتكاز ومركزاً لدعوته السياسية والدينية وقد عين لويس التاسع مكان تلك القاعدة فى الأراضى الممتدة على ساحل البحر المتوسط من لبنان إلى فلسطين والاردن وسوريا ولا ريب أن أولى علامات وصية لويس التاسع بعد هزيمته فى المنصورة إنما توحى بنهاية خطة وبداية خطة أخرى أشد عنفاً وإن كانت أطول معركة . بما يؤمن إن الحروب الصليبية وعبرتها كانت تتمثل فى إنطلاق المخطط الجديد :

الغزو الثقافى والفكرى الذى يستهدف دحر الإسلام كفكر بعد العجز عن دحر أمته أو فى العمل على دحر هذه الأمة بعد دحر فكرها ، لقد تبين للغرب من خلال مراجعة لويس التاسع لتجربة الحروب الصليبية : ان المعركة مع المسلمين يجب أن تبدأ أولا من تزييف عقيدتهم الراسخة التى تحمل طابع الجهاد والمقاومة والتى تدفع بألوفهم إلى ساحات الاستشهاد فى سبيل الدفاع عن الحق وعن الأرض وعن العرض ، إذن فهذه هى بداية المعركة ولابد إذن من تزييف هذه العقيدة وامتصاص ما فيها من قوة وجهاد وإيمان وذلك بالتفرقة بين العقيدة والشريعة أو تصوير الإسلام بصورة دين عبادى كالمسيحية وفصل الدين عن الدولة ، حتى يفقد المسلمون ذلك السر الخطير الكامن فى اصالة عقيدتهم وجوهر دينهم وعندئذ يصبحون قطيعاً من السائمة التى تنطوى وتقهر ومن هنا بدأت معركة أطلق عليها :

التبشير ، الاستشراق ، التغريب ، الغزو الثقافى ، الاحتواء .

وقد وجدت هذه المعركة اقلاماً إسلامية بالوراثة تخدمها وتقول ما يريد لويس التاسع على نحو ما قال طه حسين وعلى عبد الرازق من دعاوى الفصل بين الإسلام والمجتمع وبين العقيدة الدينية والأدب والسخرية بما أورده القرآن ودعوة الشباب إلى نقده والنظر إلى الصحابة على أنهم من محترفى السياسة ، كما جاء فى الفتنة الكبرى على النحو الذى عاش على خدمته صاحب كتاب الشعر الجاهلى وحديث الأربعاء وإذا راجعنا وقائع التاريخ العربى فاننا نجد أن وصية لويس التاسع قد وضعت موضع التنفيذ بعد سنوات قليلة من هزيمته وقتله فى الحملة الصليبية التاسعة على تونس فقد بدأت حركة أوربا المعروفة إلى ترجمة القرآن والتعرف على الإسلام وبدأت نواة التبشير والاستشراق فى المعاهدة الأوروبية: دراسة اللغة العربية والإسلام والقرآن من منطلق الرد عليه وانتقاصه وإثارة الشبهات حوله وقد ظاهرت هذه الحركة عملية خطيرة هى « سرقة » التراث العربى الإسلامى من البلاد العربية والإسلامية بواسطة القناصل والتجار ، وهى سرقة بمعنى الكلمة ولأن محاولة الإستيلاء على مراكز الفكر الإسلامى فى جامعات الأندلس وطرد المسلمين منها كانت ايضاً « سرقة كبرى » بالرغم من أن المسلمين كانوا يؤمنون بأن العلم للبشرية كلها ، حتى العلم التجريبى الذى هو الآن من أسرار الأمم الحديثة ، والذى عجز المسلمون والعرب خلال قرن ونصف قرن إلى الآن عن الحصول على أصوله ومعادلاته ، أما المسلمون فكانوا يعلمونه فى جامعات الأندلس وجزيرة صقلية فى حرية تامة ولكل الناس ، أما الغرب فانه فى تناهى حقده لم يقف عند حد « مصادرة » العلم الإسلامى ومعامله وكتبه ووثائقه فحسب بل إنه أخرج منه المسلمين الذين هم من أهل الأندلس بعد ثمانمائة عام اخراجا حتى يكونوا عاجزين عن مواصلة تجاربهم فى أى أرض أخرى إذا هاجروا إليها وإذا كانت الحروب الصليبية قد توقفت عام ٦٩٠ هـ ١٢٩١ فإن أوربا لم تتوقف عن الحرب . فقد بدأت حركتها كرة أخرى بعد سقوط الأندلس على الطريق الأفريقى من ناحية الغرب دون توقف : الاسبان والبرتغال ومن وراءهم الهولنديون والانجليز والفرنسيين إنتقاماً من المسلمين الذين قدموا لهم نور العلم والحضارة فى الأندلس . أما فى أفق البلاد العربيه فإن عام ١٨٢٠ م كان علامة الخطر حين بدأت فرنسا فى غزو (الجزائر) وامتدت المعركة

إلى تونس لمصر والسودان ، منذ ذلك اليوم بدأت نتائج الغزو العسكرى تبرز ، وأخذت طلائع التبشير تعمل ، فإنه فى نفس الوقت كانت قوى محمد على تنسحب من الشام ١٨٤٠ حيث سيطرت قوى الغرب على هذه المنطقة التى اختارها لويس فأقامت فيها ما أطلق عليه حكومة خاصة داخل الدولة العثمانية وكانت معركة ١٨٦٠ التى اثارها الفرنسيون بتأييدهم للموارنة والانجليز بتأييدهم الدروز منطلقاً إلى إنشاء هذا الكيان الذى تلاقت فيه قوى التبشير الكاثوليكية الفرنسية والبروتستانتية الأمريكية والذى ما زال قائماً حتى الآن فى الفترة الأولى من مخطط لويس ١١٢١ م إلى ١٨٣٠ كان الاستشراق يضع السموم ومن ١٨٢٠ إلى ١٩١٨ كان التبشير يجتاح البلاد عن طريق الارساليات : معاهد وجامعات فى أستانبول والقاهرة ولبنان لها نفوذ داخل فى نفوذ الامتيازات الأجنبية . ولها مناهج دراسية قائمة على تدمير الإسلام وتاريخ الاسلام ولغته وعقيدته وإذابة الأجيال الجديدة فى سموم الغرب وتعظيم تاريخه ، واحتقاره لأمته ودينه . ومن هذه الأجيال جاء الأمراء والسادة والقادة والوزراء الذين سيطروا فى ظل حكومات الاستعمار والاحتلال والذين أخذوا مناهج التعليم التى وضعتها معاهد الإرساليات فجعلوها مناهج المدارس الوطنية وفى عديد من مصادر اللقاء بين الشرق والغرب نجد الإشارة مدسوسة إلى وصية لويس التاسع حتى لا يتنبه إليها المسلمون ، هذه الوصية التى تدعو إلى تجنيد المبشرين الغربيين فى (معركة سلمية) لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنوياً ، واعتبار هؤلاء المبشرين فى تلك المعركة أعظم جنود الغرب). إذا كان هذا هو تصورنا لوثيقة لويس التاسع التى ظلت خافية سنوات طويلة حتى تكشفت هذه الأعوام ، فإنما مثلها مثل بروتوكولات صهيون التى حجبت عن المسلمين والعرب منذ ظهورها ١٩٠٢ حتى عام ١٩٤٨ وهو عام قيام إسرائيل عندما سمح الإعلام الصهيونى للصحافة العربية بأن تشير إلى هذه البروتوكولات التى لا توجد عنها إشارة واحدة فى مجلات الهلال أو المقتطف أو المنار أو غيرها قبل هذا التاريخ . أقول : إذا كان هذا تصورنا لوثيقة لويس التاسع ومدى أبعاد الخطر الكامن فيها فإن الأستاذ نبيه أمين فارس أحد كبار أساتذة الجامعة الأمريكية فى بيروت) قد كشف عن هذه الصفحة بكل جرأة وقوة فى بحث له نشر عام ١٩٥٨ فى مجلة الأبحاث : يقول هذا المؤرخ العربى : « بينما كان الشرق الأدنى مطمحاً لأفكار بناة الامبراطوريات كان أيضاً مطمح انظار جماعة أخرى من الناس تنشد أن تنجز عن طريق « الكلمة » ما عجز أجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف . وبعبارة أخرى تنشد احتلال مهد المسيحية وإخضاع العالم كله للمسيح ، إن هذا الحلم المسيحى قديم قدم المسيحية ذاتها وهو يستمد وحيه الدائم من الوصية العظيمة كما سجلها أول المبشرين : القديس لويس . ولعل سبب سيطرة هذه الوصية كرة أخرى على عقول المسيحيين يعود إلى اليقظة الدينية التى عمت انكلترا فى أواخر القرن الثامن عشر ، واليقظة الدينية المقابلة لها فى الولايات المتحدة لتى تمثلت فيما سمى بروح انكلترا الجديدة . وعلى ذلك فقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من الجمعيات التبشيرية التى كرست نفسها لحمل الانجيل إلى جميع البشر ، ويمكن أن يضاف إلى هذين العاملين ؛ عامل آخر هو ازدياد المطامع السياسية والاقتصادية فى ممتلكات رجل أوروبا المريض (يقصد الدولة العثمانية

الإسلامية) ومن المحتمل أن يكون لهذا العامل الأخير علاقة باختيار الشرق الأدنى ميداناً مفضلاً للنشاط التبشيرى . ومن أهم هذه الجمعيات التبشيرية التى ظهرت فى هذه الفترة : الجمعيه التبشيرية الكنسية التى أسست فى لندن ١٧٩٩ والمجلس الأمريكى لمندوب البعثات التبشيرية وقد أرسل المجلس الأمريكى بعد تسع سنين من تأسيسه أول مبشرية إلى الشرق الأدنى ، ولما كانت المشكلة الأولى التى واجهت أولئك المبشرين هى اختيار مركز ملائم لهم ، وقدم سوريا عام ١٨٢٣ مبشران آخران وانتقلوا إلى بيروت ، وكان غرض البروتستانتيون ان يتمكنوا بالاشتراك مع كنائس الشرق الناهضة من كسب (الكفار) الى دين المسيح ، غير أنهم سرعان ماوجدوا : أن الإسلام لم يكن قد فقدسيطرته على قلوب المؤمنين ، وصمم المبشرون منذ البداءة على استعمال (الكلمة) حيث فشل استعمال (السيف) وفى سبيل هذه الغاية أسسوا المطبعة الأمريكية أولا فى مالطة ١٨٢٢ وفى بيروت ١٨٢٤ وأخذوا يفتحون مدارس البنين والبنات بصورة منتظمة حتى بلغ عدد هذه المدارس ثلاثا وثلاثين فى أقل من هذا العدد من السنين وعكفوا على إنجاز تلك المهمة العظيمة : مهمة اعداد ترجمة عربية صالحة مقروءة التوراة ، وعدوا فوق ذلك حمل لواء الحرية الدينية بصورة عامة ، الخ . ولقد كان أبرز ما استهدفته وثيقة لويس التاسع : القضاء على فكرة الجهاد ويكشف الدكتور محمد تقى الدين الهلالى هذا السر فى مقال نشره عام ١٩٣١ فى مجلة (الفتح) عن سير هذا المخطط فى الجزائر : أن هؤلاء الأوربيون الفاتحون المبعدين الأحرار المخربين الديار ما زالوا يحرمون عبيدهم من كلمة (الجهاد) ويعدون ذكره فضلا عن فعله من أعظم الذنوب وهو عندهم آية الهمجية ، والتعصب الدينى الممقوت ، وبلغ ببعضهم الأمر ان حرموا تفسير آيات الجهاد فى كتب الفقه ، وبعينى شاهدت صحيفة الأذان الفرنسية . التى حصل عليها شيخنا محمد بن حبيب الله الشنقيطى رحمه الله فى مدينة المشرية قسم وهران من الجزائر وفيها ما يلى : «ان الإذن بتدريس علوم الدين مقيد بأن المدرس لا يفسر اى آية أو حديث يدل على الجهاد ، وأن لايدرس شيئاً من أبواب الجهاد فى كتب الفقه » ولما راجت دعاية هؤلاء فى الشرق سار المسلمون ينفرون من لفظ « الجهاد » ونقول بل أن الأمر قد بلغ غايته فى تنفيذ وثيقة لويس التاسع فقد أعان الإنجليز فى الهند على ظهور نحلة تدعى الإسلام وتلغى الجهاد وتنكره إنكاراً هى نحلة «القاديانية» والأحمدية» الذين يفسرون الجهاد تفسيراً مؤولا ، والذين يدعون إلى الخضوع للحاكم المستعمر ويعدون ذلك من مفهوم الإسلام فى نحلتهم وبعد فإن فى تقديرى وتقدير الكثير من الباحثين اليوم أن المسلمين إنما طعنوا من طريق التعليم الذى بدأته معاهد الإرساليات وسارت على مناهجه أغلب المدارس الوطنية والذى تنقل الدول العربية مناهجه اليوم من نفس المصدر الأول الذى أنشأه تلاميذ لويس التاسع وأتباعه ، وبخاصة ما رسمه (دنلوب) وما زال سارياً وما رسمه طه حسين فى مناهج الجامعات مستمداً إياه مما وضعته الجامعات التبشيرية فى بيروت ولهذا الأمر حديث طويل فى تفصيله ولكن العبرة الآن هى : أن هذا هو (مدخل) الغزو الثقافى وسيطرة التيارات الوافدة وهو أيضاً فى نفس الوقت (المخرج) الى فهم تعليمى اسلامى لا سبيل إلى النجاة إلا به . ولا شك أن التبشير والاستشراق هما وجهين لعملة واحدة وهما متكاملان : الأول فى ميدان التربية والثانى فى ميدان الثقافة ، والمهمة مشتركة ، يقدم الاستشراق

الشبهات والسموم ثم تجىء وسائل التبشير الظاهرة والخفية فتنشر هذه الشبهات فى أفق الفكر الاسلامى سواء عن طريق مناهج التعليم أو المذاهب والأيدلوجيات المطروحة للدراسة والبحث فى مجال الصحافة والثقافة وقد تخفف التبشير من أسلوبه القديم فى الدعوة الجهرية إلى عمليات التنصير ولكن ذلك لم يكن إلا خطوة لأحكام عمله بالتخفى وراء أساليب التربية والثقافة. بدأت هذه الحركة بعد خروج الصليبيين من العالم الإسلامى ١٢٩١ م وما زالت تعمل إلى الآن، وقد غيرت جلدها أكثر من مرة. وتلونت وتحولت وغيرت أساليبها بما يوصلها إلى تحقق الغاية وهو تاريخ طويل، وكان الاستعمار الذى غزا العالم الإسلامى هو ثمرة هذا العمل، فكان استعمار هولندا لأندونيسيا وانجلترا الهند وفرنسا الجزائر ثم انجلترا لمصر وفرنسا لتونس والمغرب، وسقوط بقية أجزاء العالم الإسلامى فى أيدى النفوذ الاستعمارى خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ وإعلان وعد بلفور بتمكين الصهيونية من فلسطين هو علامة على استجاشة هذه الحرب الخطيرة واستفحالها، ولقد كان هذا العمل المشترك (التبشير والاستشراق) قد وجد من النفوذ السياسى والعسكرى الغربى وسيلة وأداة وقوة على تركيز قواعده وإنشاء أجيال معتنقة لفكره متأثرة بسمومه، وبرزت فى مرحلة الثلاثينات خطة التبشير التى قاومتها حركة اليقظة فى مصر وغيرها مقاومة مكشوفة، حتى أعلن زويمر عام ١٩٣٥ أن مهمة التبشير ليست إدخال المسلمين فى المسيحية وإنما هى إخراجهم من الإسلام وجاء هاملتون جب بكتابه (وجهة الاسلام) فى نفس الوقت فكشف عن أن هذا العمل الذى يقوم به الاستشراق والتبشير والغزو الثقافى فى العالم الإسلامى إنما يستهدف تذويب الإسلام والمسلمين ونقلهم إلى دائرة الأممية والفكر الغربى فى مختلف أساليب حياتهم ومجتمعاتهم : وخاصة فى مجال التعليم والتشريع والثقافة والإقتصاد. وغير أنه لم يلبث أن تكشف أن هناك مخططات أخرى يقوم بها النفوذ الروسى والصهيونى فى مجال الاستشراق والتبشير. تحقيقاً لمطامع الصهيونية فى السيطرة على البلاد العربية ومطامع الشيوعية فى غزو عالم الإسلام وظهر الإستشراق الروسى والصهيونى إلى جوار الاستشراق الغربى المسيحى وتعددت الخطط ولكنها كانت تستهدف غاية واحدة هى قلع جذور الإصالة الاسلامية واحتواء الفكر الإسلامى والسيطرة عليه وإدخاله الدائرة المغلقة التى تحول بينه وبين تحقيق وجوده أو بروز ذاتيته أو إتمام رسالته فى الدعوة العالمية إلى الله وتلك هى أخطر المراحل التى يواجهها العالم الإسلامى. وقد تضاعفت بعد الحرب العالمية الثانية هذه المخططات استعملت أساليب جديدة وجاءت الهزيمة والنكبة والنكسة فى خلال مرحلة تزيد عن ربع قرن عاملا هاماً فى تمكين هذا الوجود الزائف الخطير :

وتبين أن خطة التبشير ليست خطة دينية خالصة تستهدف إخراج المسلم من دينه وإدخاله فى دين آخر ولكنها عملية ثقافية واسعة تستهدف إخراج المسلم من المفاهيم والقيم الإسلامية وإدخاله فى دوامة الفكر البشرى وصهره فى مفاهيم الوثنية والمادية والعلمانية والأممية وفتح الطريق أمام فكرة لتقبل كل ما تطرحه أعاصير الليبرالية والماركسية والتلمودية والوجودية وغيرها من سموم، المهم هو إخراج المسلم من الإسلام دون إدخاله فى أى دين آخر وحبسه فى الدائرة المظلمة المفرغة : دائرة التيه الذى لا تجعل منه قوة صالحة للتوجه إلى الاتجاه الصحيح.

القسم الأول

مخططات التبشير

الباب الأول

صفحات من تاريخ التبشير

(١) من تاريخ التبشير (٢) مرحلة جديدة فى خطة التبشير (٣) بعد الحرب العالمية الأولى
(٤) مؤتمرات التبشير (٥) أخطر تحول وأكبر خطورة .

الفصل الأول

كانت الإرساليات التبشيرية هى مقدمات الاستعمار وطوالعه والممهدة له . وحيث مد النفوذ الأجنبى ظله على العالم الإسلامى كانت هذه البعثات هى القوى المتقدمة فمنذ أوائل القرن التاسع عشر تقريباً بدأت عملية الغزو التبشيرى فى بطء وأناة متصلة بخطوط أخرى كالاستشراق والصحافة كأجهزة مترابطة لتحقق السيطرة الاستعمارية . ولقد وجدت حركة التبشير الطريق أمامها مفتوحاً وميسراً مع العوامل التى أعدها لها النفوذ الاستعمارى وأهمها : الامتيازات الأجنبية ونفوذ القناصل . وسيطرة الدول الأجنبية على كثير من الأمراء كالشاه ناصر الدين فى إيران والخديو اسماعيل فى مصر وغيرهم ممن فتح لهم باب الاستدانة . وفى خارج الدول العثمانية تركز الاستعمار فى فارس وأندونيسيا (جاوة) والهند الإسلامية ولما كانت الدولة العثمانية هى أكبر أهداف التبشير كمقدمة لتمزيقها وتوزيعها فقد ركزت القوى الاستعمارية على حملات تبشيرية انطلقت من مختلف الدول الأوربية وبعثات من دول فرنسا وانجلترا وألمانيا وايرلندا والسويد والدنمارك والروس . ولما كان المخطط قد رسم أساساً للسيطرة فقد عمد النفوذ الاستعمارى أولا للقضاء على القوى الشابة الجديدة وفى مقدمتها : الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية والنهضة المصرية التى قادها محمد على . وكان ان حرص الاستعمار على دفع إحدى القوتين للقضاء على الأخرى ، ثم تفرغ بعد للقوة الأخرى فكانت عملية التدخل العسكرى فى سوريا ١٨٤٠ التى مزقت الوحدة التى كونها ابراهيم ، وبذلك أهلت سوريا لعملية من أخطر عمليات السيطرة الأجنبية فى صراع بين النفوذين الفرنسى والبريطانى مما دفع الدولتين إلى إثارة الصراع بين الطائفتين : الموارنة والدروز وقد أخذت فرنسا جانب الموارنة وأمدتهم بالأسلحة وفعلت بريطانيا مثل ذلك بالنسبة للدروز ، ومهد ذلك للاصطدام الذى وقع بتحريض الدولتين عام ١٨٦٠ وكان ذلك مقدمة لتنفيذ الخطة التى أعدتها الدول الأجنبية من إتخاذها رأس جسر لنفوذها فى الشرق كله وذلك بوضع نظام يكفل إقامة كيان خاص فى لبنان وحماية خاصاً فى حماية الدول الأوربية ، وفى ظل هذا الوضع الذى أهل لبنان

لتكون منطلقاً للغزو الاستعمارى سياسياً وثقافياً حيث بدأت الإرساليات التبشيرية فى الوصول إليها لتعمل فى حركة مطلقة وتتخذ منها حقلاً لكل مخططات النفوذ الأجنبى وفى مقدمته :

(١) القضاء على الرابطة الإسلامية الجامعة للمسلمين فى العالم كله .

(٢) إعداد خطط الفصل والوقيعة بين العرب والترك .

(٣) إعداد خطط الفتن والخلاف بين المسلمين والمسيحيين .

(٤) تمكين الصهيونية من السيطرة على فلسطين .

(٥) تخريج طبقة مثقفة تفتح أمامها وسائل الحكم والسلطات فى مختلف أجزاء العالم العربى .

وكانت المدارس الأجنبية وإرساليات التبشير فى مختلف صورها من معاهد وجامعات قد احتضنت نفوذ فرنسا وأمريكا فى نفس الوقت الذى تقدمت كل دولة من ذات المطامع إلى الدولة العثمانية معلنة نفسها حامية لطائفة معينة : فالفرنسيين لحماية الكاثوليك والبريطانيين لحماية البروتستانت والروس لحماية الأرثوذكس . وهكذا بدأ الغزو الاستعمارى للعالم الإسلامى باسم العلم ورصدت لذلك الميزانيات الضخمة . وكان لهذه البعثات أثرها الهام فى حل المسألة الشرقية على حد تعبير أحد أساطين السياسة الغربية وكان لها دورها فى تمزيق الوحدة السياسية التى ظلت قائمة بين الترك والعرب خمسة قرون وفى المرحلة الأولى حملت الإرساليات لواء الدعوة إلى العروبة وتدريس اللغة العربية والإلحاح على عبارات الحرية ومقاومة الاستبداد كوسائل مرحلية حتى سقط السلطان عبد الحميد وتسلمت الدولة العثمانية جماعة الاتحاديين ثمرة الارساليات والنفوذ الاستعمارى وهنا تحول اتجاه هذه المؤسسات والجامعات من الدعوة إلى العروبة وحماية اللغة العربية إلى اتخاذ اللغات الأجنبية أساساً للتدريس والحملة على الوحدة العربية واللغة العربية وتغليب العامية والحرف اللاتينى عليها وتغريب التعليم وجعله علمانياً خالصاً . ومن الحق أن يقال أن النفوذ الاستعمارى قد اختار فى الدولة العثمانية ثلاث مناطق من أخطر المراكز الأساسية لعمله الأولى هى لبنان والثانية مصر والثالثة سالونيك فى تركيا . وفى كل منها قام بدور ضخم ، أما لبنان فقد غطت منطقة الشام جميعاً والعراق ، أما مصر فقد كانت تمثل القيادة الفكرية باعتبارها مصدراً قيادياً للعالم العربى كله وذلك على أساس التركيز فى مجالات التعليم والثقافة والصحافة موجهة لخطط النفوذ الاستعمارى فى العالم العربى بل الإسلامى كله ، أما سالونيك فقد كان مقر المخطط التبشيرى الاستعمارى الذى خلق القوة التى صارعت الخلافة والدولة العثمانية وقضت عليها نهائياً .

(١) التركيز على لبنان

تجمع المصادر على أن مراكز التبشير بدأت عملها فى جزيرة مالطة فى أواخر القرن السادس عشر واعتبرت الجزيرة قاعدة هجوم على الشرق الإسلامى كله . ثم انتقلت إلى بلاد الشام ١٦٢٥ وكان فى هذه المرحلة محدوداً ، وفى ١٨٣٤ انتشرت البعثات التبشيرية فى سائر بلاد الشام ففتحت مدرسة فى قرية عنتورة فى لبنان ونقلت الإرسالية الأمريكية مطبعتها من مالطة إلى بيروت وحينما انسحب ابراهيم باشا ١٨٤٠ من بلاد الشام . بدأت عملية التدخل واستثارة الطوائف وخلق أسباب الاحتكاك بينها وتوالت الاضطرابات حتى انتهت إلى الفتنة الكبرى ١٨٦٠ حيث وجدت الدول الغربية الفرصة سانحة فأرسلت البوارج البحرية إلى شواطىء سوريا ثم تركزت إرساليات التبشير وانسحبت القوة العسكرية . وقد أشارت بعض المراجع إلى أن المجلس الأمريكى لمندوبى البعثات الأجنبية أنشأ فى بوسطن ١٨١٠ وأرسل بعد تسع سنوات (١٨١٩) أول مبشريه إلى الشرق الأدنى ، واتخذوا من مالطة مركزاً لهم واستعانوا بالمطبعة ١٨١٥ فى إعداد المطبوعات اللازمة ثم بدأ التجول فى شاطىء البحر وذهب بعض المبشرين إلى القدس ثم انتقل التبشير إلى بيروت . وكان عمل الإرساليات فى مجالين أساسيين : إنشاء المدارس وتأليف الجمعيات وفى مقدمة هذه الجمعيات جمعية الفنون والعلوم ١٨٤٧ التى اصطفت العاملين فى سبيل خدمة أهداف التبشير وكان أبرز أعضائها : نصيف اليازجى وبطرس البستانى وإيلى سميث وفان ديك وكانت هذه الجمعية تظاهر نشر العلوم بين الكبار كما تنشر العلوم فى المدارس بين الصغار وتوجه الشباب إلى الثقافة الغربية وفق الخطة التبشيرية المرسومة . ولما فشلت هذه الجمعية، لم يتوقف السعى لإنشاء جمعية أخرى باسم الجمعية الشرقية أسسها اليسوعيون تحت رعاية الأب (هنرى دوبرونير) ولما اختفت تأسست عدة جمعيات وكان آخرها وأعمها الجمعية العلمية السورية ؛ وكان أبرز رجالها إبراهيم اليازجى وبطرس البستانى وكان مظهرها التوفيق بين الطوائف وبعث القومية العربية .

وتجمع المصادر على أن الدعوة إلى القومية بدأت فى الكلية البروتستانية فى بيروت ١٩٧٥ عن طريق جمعية سرية كانت تهاجم الدولة العثمانية وتدعو إلى فصل الدين عن الدولة وتتهم تركيا بأنها اغتصبت الخلافة الإسلامية من العرب . وكان هذا العمل الأول للبعثات التبشيرية فى مواجهة التجمع الإسلامى الذى دعا إليه السلطان عبد الحميد باسم الجامعة الإسلامية فى مواجهة النفوذ الغربى الزاحف . وعاون التبشير فى هذه المرحلة ثلاثة : فارس الشدياق ونصيف اليازجى وبطرس البستانى الذين عملوا على تصحيح تراجم العربية وترجمة التوراة إلى العامية العربية (وطبعت الترجمة ١٨٥٧) ووضع الخطط التبشيرى لهم على أن يبتعدوا عن اللغة الفصحى ، وقد أشرف الشدياق على تصحيح منشورات المطبعة الانجليزية فى مالطة والتوراة فى لندن وله تعريف خطير المستشرقين ومدى علمهم وفهمهم ودورهم فى الثقافة العربية . وكان أبرز المبشرين فى هذه الفترة : فانديك فى لبنان وزويمر فى البحرين والعالم العربى وويلكوكس ودنلوب فى مصر . والدكتور كرنيلوس فان ديك اختاره مجمع المراسلين الأمريكيين مراسلا طبياً للديار السورية وصل بيروت ١٨٤٠ وتعلم اللغة العربية وتزوج ابنة قنصل انكلترا فى بيروت وأنشأ مدرسة عبية الشهيرة بمساعدة صديقه البستانى وعمل على ترجمة التوراة والإنجيل وأتم

التزجة ١٩٦٤ بدأت الجامعة الأمريكية فى بيروت ١٨٦٦ باسم المدرسة السورية الإنجيلية ، وقد اتخذت العربية لغة التدريس بها بادىء الأمر فى محاولة سياسية لمحاربة الدولة العثمانية والتودد للعرب ، وبعد التمزق السياسى الذى أصاب العالم الإسلامى بسقوط الدولة العثمانية وسيطرة انكلترا وفرنسا على العالم العربى ، تحولت فى ثوب جديد باسم الجامعة الأمريكية وكذلك فى القاهرة فقد اتخذت الانجليزية لغة العلم والدرس بها ، وذلك لتلقى فى روع تلاميذها من العرب أن لغتهم قاصرة عن استيعاب المصطلحات العلمية الحديثة (راجع لويس شيخو : الآداب العربية فى القرن ١٩ جـ ٢ ص ٦٤/٤) وقد أصبحت فروع الجامعتان الأمريكية والقديس يوسف الفرنسية مراكز هامة فى الشرق الأوسط كله ، ليس للثقافة وحدها بل للسياسة العالمية حيث يتعلم بها طلاب من الشام والعراق والسودان وهكذا كانت لبنان بتركيبها الطائفى منطلقاً خصبا لحركة التبشير وأهم المناطق التى تصلح مركزاً للتدخل الأجنبى وفيها ظهرت حركة التنافس الشديد من الإرساليات التبشيرية ، ومنها حرك الاستعمار التنافس الدرزى المارونى والتنافس الفرنسى . ومن خريجى هذه الإرساليات انطلقت الجمعيات التى قدمت القاهرة وانبثقت فى مختلف أنحاء العالم العربى وخاصة المغرب وسيطرت على وسائل الثقافة والصحافة وكان لها دورها الخطر . لقد قدمت الإرساليات التبشيرية فى لبنان إلى مصر شخصيات حملت لواء الفكر العربى وقادته وكان لها أثرها البعيد المدى وفى مقدمتهم يعقوب صروف ، فارس نمر ، جرجى زيدان ، وأديب اسحق ، وفرح أنطون ، الدكتور شبلى شميل مترجم دارون .

كان هدف البعثات التبشيرية فى هذه المرحلة الأولى : إثارة العداء بين العرب والدولة العثمانية وفك الرابطة والقضاء على هذا الكيان الذى قاوم النفوذ الاستعمارى ، وبالتالى القضاء على فكرة الجامعة الإسلامية وتشجيع قيام الكيانات المستمدة على الدم والعرق كالقوميات التركية والعربية ثم برز الهدف فى نطاقه الكامل : إسقاط الخلافة وشجب القيم الإسلامية كأساس للفكر والثقافة ، وإحلال الفكرة العلمانية اللادينية ، بديلا المفهوم الإسلامى واتخاذ القومية سلاحا لهدم الإسلامية ، والخلافة . فإذا التف العرب حول الوحدة العربية بدأ التبشير فى رسم مخطط لضربها ومقاومتها وهدمها وخلق مفهوم جديد لاحتوائها مستورد من المفهوم الغربى للقومية ، وعندما يجرى استعراض تاريخ التبشير فى العالم الإسلامى ، يرد اسم لبنان على أنها أخطر معقل فى الشرق بين المعاقل الثلاث : مصر واستانبول ، غير أن الصورة تبدو فى نظر أصحابها بعيدة عن كل شبهة . فلبنان بلد يجمع مختلف الطوائف وقد أدخل منذ ١٨٦٠ فى نظام قرب بينه وبين الغرب الذى أمد هذه الطوائف بالتعليم والتثقيف فأنشأ المعاهد البروتستانتية والكاثوليكية فتلقفت أولا أبناء هذه الجاليات وأخرجت طائفة من المستنيرين أصبح لها قيادة الفكر ليس فى بيروت وحدها ، بل انتقلت جموعهم إلى القاهرة التى يعدها الاستعمار قاعدة العمل كله فقبضوا على ناصية الصحافة والثقافة جميعاً ، ويمكن القول أن جميع الصحف التى صدرت فى تونس وطرابلس

والمغرب كان يشرف عليها لبنانيون . وفى لبنان تصارعت وتلاقت وتعاونت كل القوى المتصدرة للثقافة والتعليم : بين أمريكية وفرنسية وانجليزية ومنها نشرت الترجمة العربية للتوراة) التى كانت من الوسائل الرئيسية فى بث الدعوة للمذاهب الانجيلية) وقد شهد الباحثون من رجال هذه المعاهد أن قدوم البعثات التبشيرية كان له أثره فى اذكاء الخلاف الطائفى بين المسلمين والمسيحيين كذلك فإن المسلمين واجهوا هذه المدارس بالشك فى رسالتها « فأوربا فى ظنهم لم تتجشم هذه المشاق رحمة بالشرق وإنما رغبة فى أن تحمل لمشربها السياسى حزبا لها » وغاية ما تقرره فى عرض الباحثين لهذه الإرساليات ومعاهدها هو قولهم إن « الكنيسة هى المسئولة الأولى عن تنظيم التعليم والإشراف عليه » والمعروف أن الارساليات عملت أولا على نشر اللغة العربية لتكون سلاحاً عاملا فى تمزيق الوحدة بين العرب والترك فلما تحقق ذلك تحولت إلى الدراسة باللغات الأوربية وقد أشارت فى هذه الفترة إلى تيارات أربع خلقت الصراع السياسى الذى مزق العرب المسلمين وأثار بينهم تباينا ما زال قائماً إلى اليوم تلك هى : (التيار العثمانى — التيار السورى — التيار اللبنانى (الكيان) التيار العربى) أى أنها عمدت إلى الفصل بين رعايا الدولة العثمانية : إلى عرب وترك وإلى مسلمين ومسيحيين ، وإلى الفصل بين أهل الشام : لبنانيين وسوريين وخلق طابع الكيان بين أهل لبنان فى محاولة فصلهم عن السوريين والعرب والمسلمين جميعاً .

المرحلة الثانية : عام ١٩٠٨

مرحلة حاسمة فى طريق التبشير

اعتبر المبشرون عام ١٩٠٨ من الأعوام الحاسمة فى حركة التبشير فى العالم الإسلامى كله وأن الانقلاب الذى قاده الاتحاديون والذى انهى حكم السلطان عبد الحميد كان بعيد الأثر فى توسيع حركة التبشير فى الدولة العثمانية كلها . تقول مصادر التبشير « إن حدوث الانقلاب فى غرب آسيا كانت موجباً للإعجاب والاستغراب ، فقد بددت معالم التجسس وأقامت الحرية على انقاض الاستعباد وصار التجول فى البلاد العثمانية والعربية الفارسية غير ممنوع وأصبح عبد الحميد سجينا فى سالانيك وقالت : إن السلطة السياسية على أكثر المسلمين قد انتقلت من يد الخلافة الإسلامية إلى يد انكلترا وفرنسا وروسيا وهولندا ، وأن عدد المسلمين الذين تحت سلطة كل واحدة من هذه الدول يفوق عدد المسلمين الموجودين فى كل أرجاء السلطنة العثمانية » . ونتيجة لهذا الموقف عقد المبشرون فى هذه الفترة عدداً من مؤتمرات التبشير لمواجهة الموقف الجديد فى أدنبرج ١٩١٠ فى لكنو ١٩١١ ووضع خطط جديدة للعمل . كما كان للانقلاب العثمانى أثره الذى أشار إليه « زويمر » من انتعاش مدارس وكليات التبشير ففى كلية بيروت ١٠٤ من المسلمين وفى كلية الآستانة ٥٠ وفى كلية المبشرين فى ترك باشا فى الآستانة أيضاً ٨٠ . كما أصبح الآن بيع كتب التبشير مباحاً بسبب حرية النشر التى أعطاها الدستور العثمانى حتى لقد بيع عام ١٩١١ للمسلمين ما يزيد عن ٩ آلاف نسخة من هذه الكتب .

٣ — وفى مصر بدأت حركة التبشير عقب الحملة الفرنسية مباشرة ، ومن جزيرة مالطة

١٨١٥ امتد نطاق العمل إلى مصر والحبشة واليونان وبلاد الدولة العثمانية وفلسطين . وفى خلال حكم الخديو إسماعيل اتسع نطاق هذه البعثات ، وعمل اسماعيل على تشجيعها إرضاء للدول الأجنبية التى كانت تمده بالقروض . ويروى توفيق حبيب (هامش الأهرام ١٩٣٧/٤/٢٩) أنه فى أوائل القرن الماضى حضر إلى مصر خمسة من رجال الكنيسة الإنكليزية للوعظ والتبشير ثم غادروا إلى بلادهم الواحد بعد الآخر ولم يبق منهم إلا رجل واحد هو المستر (ليدر) وسكن بالدرب الواسع ، وذكر الواعظ والمبشر الإنجليزى الأسقف جوين الانجليزى الذى أنشأ مجلة الشرق والغرب ومسقطه فى هرتمل فى مصر القديمة وقال : كانت لهم دار فى ميدان الأزهار (الملكى) للمساجلات الأدبية والبحث فى العقائد ، لم تلبث أن عطلت نتيجة لما كان يقع فى بعض اجتماعاتهم من مشاغبات ، وكان القس (جاردنر) من ابرز رجال الإرسالية الانكليزية وأعرفهم باللغة العربية ، والقس جاردنر كانت له اليد الطولى فى تأسيس فرع مصر لجمعية اتحاد الكنائس وانشاء أقسام مصرية لجمعية اتحاد الشبان المسيحية ويقول أيضاً فى هامش ١٩٣٣/٦/٢٤ إن جماعة المرسلين الأمريكيين للانجيليين أوفدت الارسالية الأمريكية على مصر ١٨٥٥ . ويرجع أولى إنشاء المؤسسات الدراسية الأجنبية فى مصر الى عام ١٨٤٠ وأول ما ظهر منها مدرسة الآباء (لارنست) بمدينة الاسكندرية وأطلقوا عليها الكلية الفرنسية ، وفى نفس العام اسست الجمعية الأنجيلكانية البروتستانتية بالقاهرة التى تعتبر أولى مدارسها التى انتشرت بعد فى أنحاء القطر وأقدمها عهداً .

وفى عام ١٨٥٠ ظهرت مدارس الفرير ثم تبعتها بعض مدارس أخرى يونانية وإيطالية فى القاهرة والاسكندرية : وفى ١٨٦٠ بدأت الإرساليات الامريكية تؤسس مدارس لها لا فى القاهرة بل فى جميع أنحاء القطر وخصوصاً فى أسيوط حيث أنشأت هناك مدرسة كبيرة ظلت تحتكر تعليم أكبر عدد من أبناء المصريين وخصوصاً الأقباط الذين يؤثرونها على مدارس الحكومة . وبدأت مدارس الآباء اليسوعيين عام ١٨٨٠ وأعقبها مدارس أخرى فرنسية والساكر كير والمرديديه والليون باستير وغيرها وبعض هذه المدارس يقتصر على تعليم أبناء الجاليات الأجنبية والبعض الآخر يعمل بصفة عامة . وقد بلغ عدد هذه المدارس ١٩٣٧ بمناسبة عقد اتفاقية مونترو وإلغاء الامتيازات الأجنبية ٧٠٠ مؤسسة من فرنسية وانجليزية وإيطالية ويونانية وأمريكية وغيرها ومما يذكر أن موضوع حرية هذه المدارس كانت هى النقطة الخطرة فى مختلف المفاوضات التى أجريت بين مصر وبريطانية بشأن الاستقلال وكانت الدول الأجنبية تصر على ضمان حريتها فى العمل وتحاول الاحتفاظ بامتيازاتها فى إدارة هذه المدارس وحماية أوجه الامتيازات المختلفة التى كانت تحصل عليها وقد كان لإسماعيل دور ضخم فى تركيز هذه المؤسسات ومدها بالمعونات وقد اتسع نطاق هذه المؤسسات بعد الاحتلال عام ١٨٨٢ فقد جاء فى الإحصاء أن مدارس الإرساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية بلغت ١٥٢ مدرسة تضم ٢٢٤٧ طالباً وقد جاء هذا التوسع بناء على توصيات « دوفرين » الوزير البريطانى الذى زار مصر بعد الاحتلال ووضع مخطط العمل الاستعمارى فى مصر وفيما يتعلق بدور الاحتلال فى التعليم قال : إن الأمل فى نجاح تهذيب العامة فى مصر نجاحاً عظيما مازال ضعيفاً ما دام الصبيان لا يتعلمون اللغة العامية بدلا من

تعليم لغة القرآن الشريف كما يفعلون الآن ، فإن نسبة العامية إلى الفصحى فى اللغة العربية كنسبة اللغة الإيطالية الحديثة إلى اللغة اللاتينية القديمة ، وقد اتسع نطاق التبشير فى عهد اللورد كرومر : الذى شجع المبشرين فى مصر وحمى المؤسسات الأجنبية . ورددت جريدة التيمس والصحف البريطانية : أن مصر قد أصبحت تحت سلطة انجلترا المسيحية واستقدمت بريطانيا « المبشر القس دوجلاس دنلوب » الذى استخدم معلما فى مدرسة البعثة الاسكوتلاندية فى الاسكندرية ، ثم نقل إلى نظارة المعارف مفتشا ثم أصبح مسيطراً على الوزارة تماما وعمل معه يعقوب أرتين الأرمنى ثم ولى وزارة المعارف سعد زغلول وكان له دوره الخطير فى تأكيد بقاء اللغة الانجليزية. وقد حمل عبد الله نديم فى جريدته [الأستاذ] عام ١٨٩٣ على التبشير فى مصر وأشار إلى كتاب المبشر يوحنا هورى الألمانى الذى وزعه فى القاهرة وسماه الإسلام وتأثيره على تابعيه وهاجم فيه الإسلام وقال نديم : لو أن مسلما الف هذا الكتاب لقامت على المسلمين قيامة أوربا وقالوا هذا دعاء الحرب الدينية وصعبوا قناصلهم ونادوا بين أتباعهم المقيمين فى الشرق بالرحيل بدعوى فقدان الأمن العام وتوحش المسلمين ولملأوا أعمدة التيمس وغيرها بالحديث عن تعصب المصريين وقد أشار كثير من الباحثين إلى الدور الذى لعبته إرساليات التبشير فى مصر منذ الاحتلال البريطانى وقال إنها إعتمدت اساساً على قول اللورد سالسبرى : « إن مدارس المبشرين أول خطوات الاستعمار فإن أول عملها هو إحداث الشقاق فى الأمة التى تبشر فيها » وأول من فطن لهذه الحركة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ـ وذلك قبل الاحتلال ـ كانت أول حادثة « أن إرسالية التبشير الأمريكية نصرت فتى مصرياً وصارت تعرضه للوعظ العام الذى يحضره كثير من المسلمين فى كنيستهم بحى الأزبكية فكبر ذلك على جمال الدين فعهد إلى جماعة من الإيرانيين بخطفه من الكنيسة ووضعه فى مكان خفى ، ففعلوا ، وذهب هو وتلميذه (الشيخ محمد عبده) إلى ذلك المكان واستتابا الفتى واقنعاه بأن الاسلام هو دين الله ثم سعيا لتلافى هذا الأمر لدى الحكومة فلم يسمع لهما أحد وكان الشيخ محمد عبده تبعاً لذلك أول من فكر فى خطر المدارس الأجنبيه فى مصر فاقترح على مجلس المعارف الأعلى الذى ألف فى مصر عام ١٨٨١ أن تقرر جعل جميع مدارس الأجانب فى مصر تحت مراقبة الحكومة وتفتيشها غير أن هذا العمل الذى سعى اليه الشيخ محمد عبده قد توقف بعد الاحتلال وحيث فقدت الحكومة المصرية كل سلطان لها على التعليم وغير التعليم والقيت مقاليد وزارة المعارف فى مصر فى يد قسيس إنجليزى (مبشر) جعل سكرتيراً لها فمستشاراً (القس دوجلاس دنلوب) وقد بلغ من مساعدة الاحتلال الانجليزى لدعاية المبشرين لسيطرتها على الحكومة أن أمر اللورد كتشنر وزير الأوقاف بإلغاء المستشفى الذى بنته الوزارة فى مصر القديمة بجوار مستشفى هرمن (هرمل) التبشيرى لأنه يصرف كثيراً من فقراء المسلمين عنهم فيحرمون من التبشير بالنصرانية ، كما أمر اللورد بتعطيل مجلة « المنار » لأنها ترد على المبشرين ، وقد طلب المختصون من الشيخ رشيد رضا أن يتوقف عن الرد على المبشرين فأجاب : إنى لن أدع الرد على المبشرين ماداموا فى الاسلام ويدعون المسلمين إلى دينهم لأن الرد عليهم وتفنيد شبهاتهم فرض من فروض الكفاية ، حيث لا أرى فى البلاد مجلة ولا جريدة تقوم بها فان تركتها كنت آثما كجميع القادرين عليها وسجل السيد رشيد رضا فى عام ١٩١٥ أن المبشرين فى مصر عدة مدارس

ومستشفيات وصحف وقد ساعدتهم الحكومة المصرية على إنشاء مدارسهم ومستشفياتهم باسم نشر العلم وهم ينشرون فى كل عام عدة كتب ورسائل فى الطعن فى القرآن والنبى ، وتنفير المسلمين من الإسلام فضلا عن النشرات والأوراق الصغيرة التى ينشرونها فى المستشفيات والخطب التى يلقونها فى سائر معاهد التبشير ولكن هذه الخطوط التى تتجمع عن حركة التبشير فى مصر لا يمكن أن تعطى صورة كاملة وحقيقية إلا إذا أضفنا إليها خطة العمل الذى رسمها لورد كرومر للتبشير ، والتى ضمها إلى تقريره السنوى عام ١٩٠٤ ، هذا التقرير الذى يلقى الضوء على الخطة التى اتبعت خلال إقامته فى مصر (١٨٨٣ - ١٩٠٧) وهى الخطة التى سار عليها العمل فيما بعد وقتا طويلا .

((تقرير كرومر))

قال اللورد كرومر: من البين الجلى أنه ليس من أغراض الحكومة البريطانية دعوة الناس للانتقال من مذهب إلى مذهب لا فى ممالكها ولا فى البلدان التى لها فيها شىء من السلطة والأدلة على ذلك كثيرة ولا سيما فى بلاد الهند كما يظهر من سياسة الحكومة فيها مدة أكثر من قرن فان أعمال التبشير فيها لاتتجاوز أناسا مخصوصين والحكومة لا تعطيهم أقل عناية مالية ، وإنما تطلق الحرية لكل الأديان وتراقب أعمال المبشرين مراقبة تكفل أنهم لا يستخدمون لتنصير غير المسلمين إلا بالوسائل المحلية التى لااعتراض عليها ومن الجرى على هذه المبادىء فى مصر والسودان لابد من قسمة البلاد إلى ثلاثة أقسام تختلف بعضها من بعض من حيث المعاملة التى تعامل بها فالقسم الأول (القطر المصرى) وهذا أكثر سكانه مسلمين وجانب كبير من المسلمين متعلم مهذب وقد طال اختلاطه بالأوربيين فعرف كثيراً من آرائهم وأساليب حكوماتهم والقسم الثانى (شمال السودان) وسكانه الأصليون مسلمون كلهم وهم فى غاية الانحطاط من حيث العمران بالنسبة إلى إخوانهم المصريين وليس منهم الآن فريق متعلم ، ولم يختلطوا بالأوربيين لمعرفة آرائهم وأساليب حكوماتهم إلا منذ عهد قريب . وقد دل الاختيار على أنهم مائلون لتصديق كل شىء ومعرضون للتحمس الدينى ينقادون لكل رجال كما حدث فى زمن المهدى (وهذه دعوى باطله) والقسم الثالث يشمل كل (جنوبى السودان) وسكانه وثنيون كلهم لم يروا أحداً من المسيحيين إلا منذ عهد قريب ماعدا بعض السياح الذين مروا فى بلادهم واتصالهم بالمسلمين إنما يذكرهم بفظائع الدراويش والنخاسين من العرب وبديهى أن كل قسم من هذه الأيام يجب أن يعامل معاملة خاصة ففى القطر المصرى يجب أن نطبق الحرية ليدعو المسلمين إلى دينهم وليدعو المسيحيين إلى دينهم على السواء بشرط ألا تستعمل إلا وسائل الاقناع المحلية ، وكل ماتطلبه الحكومة من هذا القبيل إنما هو ألا يحدث شىء مخل بالراحة العمومية وألا يستعمل أهل الديانة الواحدة ماينتهك به حرمة الديانة الأخرى ، وقد جرى العمل بموجب هذا الأمر فجاءت النتائج مرضية بوجه العموم إلا أن هذه السياسة لا يمكن العمل بها فى القسم الثانى أى فى شمال السودان من غير التعرض لخطر جسيم فإن جمهور السكان هناك لا يزالون فى حالة من الجهل تمنعهم من التمييز بين أعمال الحكومة البريطانية وبين مايفعله أى شخص أوربى مهما كانت حريته إذا أطلقت أيدى المرسلين لم تأت بأعمال مثمرة بل أثارت الشبهات والأحقاد وقد تصل

على الإخلال بالراحة العمومية وقد قلت فى تقريرى ١٩٠٢ إنى أوافق السير (رجنالد ونجت) حاكم السودان تمام الموافقة على رأيه وهو أن الزمان الذى يسمح فيه للمبشرين بالتبشير هناك ويكون تبشيرهم مأمون العاقبة لايزال بعيداً ولم يستثن مكان من القسم الثانى من الشروط المتقدمة . إلا مدينة الخرطوم فإن سكانها ليسوا مسلمين بل فيها كثير من المسيحيين مستوطنون فيها، وهم من طوائف مختلفة وهى مركز الحكومة فيسهل مراقبة أعمال المبشرين بالتدقيق وسكانها المسلمون مختلطون برجال الحكومة ثم إن الحاجة شديدة إلى تعليم أولاد المسلمين وأولاد المسيحيين ، ولا تستطيع الحكومة أن تلبى كل ما يطلبه الأهالى من هذا القبيل ، فلهذه الأسباب أبيح للمرسلين ان ينشئوا مدارس فى الخرطوم ولهم أن يدخلوا فى مدارسهم ما شاءوا من التعاليم الدينية ولكن الحكومة توجب عليهم أن يخطروا آباء التلامذة المسلمين وآباء التلامذة المسيحيين الذين هم من طائفة غير طائفتهم عن أنواع العلوم التى تعلم فى مدارسهم قبل أن يرسلوا أولادهم إليها . أما فى القسم الثالث الذى يسكنه الوثنيون فقد كتب سير رجنالد ونجت يقول : إن أعمال المبشرين جنوبى (كودك) فاشودة سائرة سيرا مستمرا وأعمال المبشرين الأمريكان والكاثوليك يقصد بها تمدين الأهالى وتهذيبهم أكثر مما يقصد بها إدخال الديانة المسيحية بين القبائل الوثنية، وعندى أنهم مصيبون فى اتباع هذه الخطة ولاشبهة فى أن التعليم الصناعى الذى يعلمونه لقبائل السلوك والدنكا وغيرهما نافع جداً فى نظر الحكومة والعمل جار بسرعة فى بناء دار للمرسلين فى لول وقد أقاموا داراً أخرى فى طنبها وأقيمت داران فى بحر الغزال والمطران السيد جاير باذل أقصى جهده فى توسيع نطاق رسالته والعمل الذى عمل إلى الآن مفيد لتمدن الناس ، ويقال مثل ذلك عن المرسلين الأمريكيين . ويقول كرومر : وقد قلت فى نوفبر سنة ١٩٠٢ ومما يستوجب الأسف أنه لم توجه جمعية من جمعيات المرسلين الإنجليز أنظارها إلى أقاليم السودان الجنوبية التى يسكنها الوثنيون ولكن ندائى لم يأت بفائدة فأرسلت كتاباً إلى جمعية التبشير فى ٩ ديسمبر ١٩٠٣ أخبرها أن قسما كبيراً من البلاد خصص لها فى الوقت الحاضر ، وقد عينت أقسام من البلاد للمرسلين النمسويين والأمريكيين وسألتها عما إذا كانت تريد ان ترسل مبشريها ثم علمت أن المسألة فى معرض البحث ولم يطلب أحد حتى الآن رخصة لإنشاء مدارس فى جنوب السودان على نفقته تعلم فيها فرائض الإسلام ولو طلب أحد ذلك لحل طلبه محل القبول ، أقول ذلك إظهاراً لخطة الحكومة ودفعاً لكل وهم .. (اهـ) .

الفصل الثانى

مرحلة جديدة فى خطة التبشير

تحول أخطر وخطوات أعمق

عندما أحس الاستعمار أن مخطط التبشير قد فشل وحورب بعنف وفضح أمره وكانت الحملة التى ساقتها الصحف العربية فى مصر عليه عام ١٩٣٢ و ١٩٣٣ ضخمة وبعيدة المدى وكسبت إلى المد الإسلامى كثيراً من دعاة التغريب أمثال الدكتور هيكل، بدأ فى تعديل أسلوبه ونقل قيادته نقلا مباشراً إلى كتاب يكتبون باللغة العربية وبعضهم مسلمون جغرافيا وبذلك اختفى اسم التبشير ظاهريا وراء دعوة التجديد والعصرية وحرية الفكر وهى الكلمات التى حمل لواءها طه حسين وسلامة موسى وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى. وفى هذه المرحلة أعلن التبشير بعد أن فشل فى تحويل المسلمين إلى أديان أخرى أنه لا يطمع إلى إدخال المسلمين فى أديان أخرى فإن ذلك من الاستحالة بمكان (باعتراف دهاقنة الاستعمار) ولكنه يهدف إلى إخراج المسلمين من دينهم نفسه فيصبحوا لادينيين ومادى الفكر وبذلك يسرى فيهم الانحلال وتتحطم مقومات الفكر الإسلامى وقيمه من ناحية التطبيق على الناس، ويغلب طابع التفرنج الذى يقضى على الذاتية الإسلامية والشخصية العربية ثم أشار مخطط التبشير إلى أن العمل بين المسلمين إنما يكون عن طريق دعاة منهم ومن هنا ركز الاستعمار على بعض أسماء وأكسبها شهرة ولمعانا ودفع بها فى خضم الثقافة والصحافة وأبرزها حتى تصدرت وأصبحت قوة لها وزنها حيث تولت كبريات المناصب فى الجامعات والأعمال الرسمية ولما كانت هذه الأسماء قد كشفت عن هدفها ووجهت إليها الاتهامات فقد كان من الضرورى فى هذه المرحلة من عودة، إلى مرحلة إرضاء الشعور الإسلامى والجماهير الساذجة بطبيعتها سهلة النسيان، وأذيع من حول هذه الأسماء أنها عادت إلى الاسلام والايمان وكانت أبرز عوامل هذه المرحلة هى القفز فوق موج التيار الاسلامى نفسه. ومن هنا برزت الكتابات الاسلامية عن السيرة والحضارة الاسلامية وتراجم الرسول والأعلام ولقد هز فعلا كتاب عن السيرة لواحد من هؤلاء الذين تكشفت خططهم فى كلياتهم وفى مؤلفاتهم — هز كثيراً من النفوس بأسلوبه الرائع وخدع كثيراً من المثقفين. وكان ذلك جريا على المخطط المرسوم وهو إعادة الثقة إلى هذه الأسماء حتى تعمل هى مخطط التغريب ولتكون البديل الزائف عن الدعوة الإسلامية الأصيلة، التى كانت تحملها الشخصيات التى وصفت إذ ذاك بالجمود والتخلف أمثال: شكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب ورشيد رضا وحسن البنا ووصفت بالتخلف أيضاً أسماء حملت ألقاباً عالية من جامعات برلين والنمسا وبريطانيا أمثال الدكتور يحيى الدرديرى والدكتور على مظهر وعبد العزيز جاويش وفى هذه المرحلة أيضاً حرص النفوذ الاستعمارى أن يغالب التبشير تحت أسماء أخرى كثيرة. وكان حرصه إلى إيجاده البديل، عاملا هاما فى وقت انكشفت فيه خطط التبشير وزحف المد الإسلامى بإنشاء جمعيات الشبان والإخوان والهداية

منها تفرعت عشرات المجالات والهيئات . في هذه المرحلة برزت دعوة إلى الكتابة الإسلامية وتصدرها هيكل وطه حسين وتوفيق الحكيم وهم نفس الكتاب الذين كانوا يهاجمون الكتابات الإسلامية قبل سنوات قليلة لمصطفى الرافعي وشكيب أرسلان وجاد المولى ويصفونها بأنها كتابات قديمة رجعية وهذا هو ماوصفه الباحثون باسم « البديل » أي ظهور كتاب لهم أسماء لامعة في نفس السوق ، ببضاعة جديدة تلفت النظر ولكنها لاتحمل نفس مواصفات البضاعة الأصليه . ذلك أن هؤلاء الكتاب الذين تصدروا الكتابة الإسلامية كان فهمهم للإسلام فهماً غربياً خالصاً ، فهو لديهم دين روحاني ، تعبدي ، لا صلة بالمجتمع ولاعلاقة له بالسياسه أو الاقتصاد أو التربية ويصور العلامة « مالك بن نبي » هذا الهدف من خطة الاستعمار حين يقول : « عندما تظهر فكرة مجردة فان مراصد الاستعمار ترصدها قبل أن يدركها الشعب الذى يريد صاحبها أن ينشرها بينه ، فيبدأ الاستعمار بتوجيه مدفعيته إليها ، وبما أنه لاقدرة له على مجابهة الفكرة المجردة صراحة والقضاء عليها فإنه يوجه قذائفه نحو الكتاب لتصيب فكرته ، والاستعمار يحاول تجسيد الأنظار المجردة حتى ينصب نقده على الشخص وحتى تصبح العلاقة عاطفية لاعقلية . أو يعمل على طبخ الدعوات بسرعة لإخراج مولود ضعيف يسهل قتله . أو لا يمثل الفكرة الأصلية ، أو إيجاد بديل سريع لكل فكرة شريفة وتحويل الرأى الأول بالثانية ، أوشن غارة على الفكرة وصاحبها واتهام صاحبها من جهات ذات نفوذ . وإذا تبين له أن الفكرة التى أراد إقصائها قد بعثت بصورة فكرة مجردة استقرت فى ضمير الشعب فإنه يتبع خططاً أكثر دقة فهو يجتهد فى امتصاص القوى الواعية بأية طريقة ممكنة حتى لا تتعلق بفكرة مجردة ويحاول تعبئتها لفكرة متجمدة حيث تصبح أقرب منالا ، لأنه يستطيع مقاومتها بوسائل الإغراء أو القوة وفى الوقت نفسه يحاول حربه ضد الفكرة المجرده بوسائل ملائمة مرنة ، ويستعين بخريطة نفسية للبلاد المستعمرة ، ويجرى عليها التعديلات اللازمة كل يوم رجال متخصصون بذلك ، مكلفون برصد الأفكار — والاستعمار لايكشف عن وجهه النقاب بل يظهر وكأنه بعيد عن المعركة فى الوقت الذى يدير ويشرف على كل صغيرة وكبيرة فيها » . وهذا يكشف بوضوح عن دورين مختلفين لرجل واحد ، كاتب يقول أن العلم هو الأساس البحث فى الأدب ، وأن الأدب الذى لا يخضع للعقل لايعتد به ، يقول هذا عام ١٩٢٦ ولكنه لا يلبث عام ١٩٢٦ أن يقول : أنا أعلم أن قوماً سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم محدثون يكبرون العقل ولا يثقون إلا به ولا يطمئنون إلا إليه ، وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التى لا يسيغها العقل ويرضاها ، هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشيء لأنهم سيقرءون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التى نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها فى نفوس الناس ، وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء وأن للناس ملكات اخرى ليست اقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل وان هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل ، ولم يرضها المنطق ولم تستقم لها اساليب التفكير العلمى ، فإن فى قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها مايحبب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها وأحب ان يعلم الناس انى وسعت على نفسى فى القصص ، ومنحتها من الحرية فى رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم اجد به بأسا » هذا التحول : يجب ان يكون موضع

التقدير فى خطط التغريب نفسه ، فإن الرجل الذى حمل على القرآن وشكك فيه وأعلن الجرأة على النظر فيه بوصفه كتاب أدبى وبصرف النظر عن أى قداسة له ، وضاق به الناس ، إنما يعود مرة أخرى ليخدع البسطاء بالحديث عن السيرة ، ولكنه يقف عن هامش السيرة ويولى الاهتمام بالأساطير مما يدفع أكبر أصدقائه أهمية لأن ينذر بخطر هذا الاتجاه : يجب فى رأيى أن لا يتخذ ما اتصل (بسيرة النبى) مادة لأدب الأسطورة ، فالنبى وسيرته دعوة تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً بل هى فلذة من هذه الحياة ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً فى توجيهها ، (والمؤلف) يعلم أكثر مما أعلم أن هذه الإسرائيليات إنما أريد بها إقامة أساطير ميثولوجية إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب والتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبيه . وقد كانت هذه غاية الأساطير التى وضعت عن الأديان الأخرى ، ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المسلمين الدينيين فى مختلف العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام . هذا جانب من التحول الأخطر : محاولة جديدة لخدمة أغراض التبشير بإذاعة الأساطير المتصلة بحياة النبى والتوسع فيها (بنص عبارة المؤلف) وإحلالها بديلا للسيرة نفسها التى يستهدف المسلمون من إذاعتها الانتفاع بها فى فهم أهداف الإسلام ومقاصده فى بناء مجتمع كامل وفق النظام الذى أقام عليه محمد ﷺ المجتمع الأول . وهذا الأسلوب الإنشائى الموسيقى المتصل بالخيال إنما يهز نفوس البسطاء ويخدع عقولهم ويحدث فيهم نشوة « شعراء المقاهى القصاصين المتحدثين عن أبى زيد الهلالى والزناتى خليفة » وهو فى الوقت نفسه ينشر فى نفوس الناس الإعجاب بالكاتب الذى يتحدث عن الرسول ويعيد الثقة حوله . ولا يقف التحول عن هذا الحد . بل إن الكاتب نفسه لا يلبث أن ينقلب على الحزب السياسى الذى نشأ فى أحضانه ويتحول إلى حزب الأغلبية الذى ظل يحاربه وله فى الحديث عن رئيسه « سعد زغلول » أبلغ عبارات السخرية والنقد كان يقولها فى أوج شهرة هذا الزعيم السياسى ، ولكن لماذا تحول الكاتب ؟ . من الحق أن يقال أنه تحول لكى يضمن استقراراً فى أحضان الأغلبية ويزحف من جديد إلى أكبر منصب سياسى يحقق له تنفيذ مخططاته الاستعمارية والتبشيرية وهو ما تحقق فعلا بعد ذلك . « الحديث هنا عن طه حسين » . هذا نموذج من تحول خطة التبشير إلى أعمق فى مجال الثقافة والتعليم والنفوذ السياسى القادر على إحداث أبعد الآثار فى المناهج الدراسية . كانت أبرز هذه الآثار : مايتصل بالأدب العربى وتغليب الأدب اليونانى عليه بالعرض المقارن وإثارة الشبهات التى كانت قاصرة على الدراسات الجامعية إلى مناهج التعليم الثانوى . وقد أشار المستشرقون إلى أهمية هذا العمل بالنسبة لوسطائهم . إذ أشار جب إلى أن هذا النفوذ فى الدوائر الرسمية من شأنه ان يوطد « المبادىء » التى يدعو إليها هؤلاء وقد صور عباس حافظ ما أدخله (كتاب المجمل فى تاريخ الأدب العربى) الذى وضع بإشراف الدكتور طه حسين إلى الأثر الخطير حين قال : « إن الكتاب قد عرض فى تاريخ الأدب العربى جملة من القضايا والنظريات والتخريجات والآراء الخطيرة التى لم تثبت بعد ولم يستقر العالم الأدبى منها على أحكام حاسمة ، فالتشكيك فى الشعر الجاهلى واستباق الشعر النثر وأثر الحضارات الأجنبية فى حضارة العرب قد ألقيت إلى الناشىء طالب الثانوية كقضايا مفروغ منها وأحكام نهائية وهو منهج خطر على الناشئين ، مضلل العقول الصغيرة . ويضاف إلى هذا

ما أثار الباحثون من المقارنات التي أجريت بين الخطابة في الأدب العربي والخطابة اليونانية . وفيما يتصل بهذا التحول أن جميع القضايا التي أثارها التبشير كشبهات لم يلبث أن وجد كتاب يكتبون باللغة العربية قد حملوا لواءها : (أولا) إثارة الشبهات حول الشريعة الإسلامية ومفهوم الإسلام بحسبانه نظام مجتمع كانت تثيرها أقلام شبلي شميل وجرجي زيدان . فأصبحت تثيرها أقلام مثل علي عبد الرازق ومحمود عزمي (ثانياً) إثارة الشبهات حول اللغة العربية والاهتمام بالعامية والدعوة إليها بعد أن كان يحمل لواءها ولمور وويلكوكس أصبح يحمل لواءها لطفي السيد وقاسم أمين . (ثالثاً) إثارة الشبهات حول الحديث النبوي وكانت من اهتمامات المبشرين والمستشرقين أمثال برنجر وجولد زيهر ، أصبحت من كتابات بعض المسلمين وكان هذا أخطر تحول في طريق التبشير إلى دعم حركة التغريب . وهناك تحول آخر فقد استطاع الاستعمار أن يكسب إلى صف الدراسات الإسلامية بعض من كانوا يناقضونها أولا يتصلون بها كالعقاد واسماعيل مظهر وغيرهم ، وذلك في ظل التحدي الذي واجهه الغرب نتيجة لزحف الشيوعية فقد اتجه هؤلاء الباحثين إلى الكتابة عن الإسلام ، ليس تقديراً له ولكنه بحسبانه عاملا مدافعاً لأخطار الشيوعية ، وهي كتابات لا تصل إلى جوهر الإسلام ومقاصده الأصلية وإنما تكتفي بأن تعلن شعارات الإسلام كعامل سياسي في مواجهة النفوذ الشيوعي . وقد يخدع هذا الاتجاه بعض البسطاء ويظنونه تحولا من الكتاب أو دفاعاً عن الإسلام ولكن حين تمعن النظرة إلى هذه الظاهرة يمكن وصفها بأنها : « حق يراد به باطل »

الفصل الثالث

بعد الحرب العالمية الأولى

أخطر مرحلة في تاريخ التبشير

حققت الحرب العالمية الأولى نتائج هامة في مخطط التبشير فقد قامت الانتدابات البريطانية والفرنسية على معظم أجزاء البلاد العربية التي قسمته إلى أقطار يقع كل منها تحت نفوذ غربي مختلف (أولا) مصر والسودان والعراق والأردن تحت النفوذ البريطاني (ثانياً) سوريا ولبنان والجزائر وتونس والمغرب تحت النفوذ الفرنسي . أما فلسطين فقد قام فيها نظام انتداب بريطاني ومشروع إنشاء دولة يهودية صهيونية معاً وقد وجد التبشير في هذه الخطوات الجديدة مجالا واسعاً للعمل ، إذ راعت الدول المنتدبة أعمال الارساليات وكانت حامية لها ، كما أتيح لهذه الإرساليات من النفوذ والخطر أمرين هامين : (الأول) التنازلات الخاصة بالأرض وإقامة المؤسسات والإعانات والإعفاءات الجمركية (الثاني) سلطة الامتيازات الأجنبية في إطلاق الحرية لها في العمل دون أن يكون في مقدور الحكومات إلزامها بشيء أو الإشراف عليها أو محاكمتها . ولم يتوقف على التبشير عند مجال التعليم وحده بل شمل مجالات كثيرة واتخذ من المستشفيات ستاراً خطيراً ، وبالرغم من التباين وجهات النظر السياسية بين البعثات التبشيرية ،

فقد كانت جميعها متفقة في الغاية ، وهي بث الروح الاستعمارية في الشرق ، وتشكيك المسلمين في دينهم ، واحتقار تاريخهم وتمجيد الغرب وحضارته ، وفي هـذه المرحلة ضغط المبشرون بقوة في عدة مواقع : وركزوا على مصر تركيزاً شديداً إلى الحد الذي كشف عن دخيلة عملهم وفضح مخططاتهم كله ، بل لقد تجرأ المبشر زويمر فاقتحم الأزهر في خلال الدراسة ووزع منشوراته على الأساتذة والطلبة وتحدث معهم في جرأة ، كما عمد المبشرون إلى تنفيذ جرائم خطف الأطفال والأحداث وتعذيبهم وإخضاعهم بالتنويم المغناطيسي وأثبتت محاضر التحقيق التي أجريت أن موظفي الإدارة وقسم الأديان في محافظة مصر كانوا يعاونون المبشرين في تسهيل إجراءات تنصير أي مسلم ويحولون بينه وبين أهل دينه ، بل بينه وبين أبيه وأمه ، غير أن هذا العمل قد فجر طاقات حية وتصدت صحيفتين كبيرتين في مصر هما السياسة والبلاغ لفضح هذه الأعمال والكشف عن أهدافها الأساسية . وكان الدكتور هيكل دور كبير في هذا العمل وساعده أحمد نجيب في جريدة السياسة حتى عدت كتاباته هذه من علامات الطريق في دراسة مخطط التبشير فهو الذي قال صراحة أن هدف التبشير هو توهين الروح المعنوية في قلوب المسلمين من جميع طبقاتهم ، وقد فصل ذلك حين قال : إن إضعاف العقيدة في نفوس المؤمنين بها ، هي استمرار النضال التاريخي القديم بين الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ، حيث يتخذ اليوم أساليب الغزو الحديث بطريق الدعوة والإغراء والوسائل الاقتصادية والاجتماعية ، ويعتقد خصوم الإسلام من الأحبار والساسة أنهم قطعوا في سبيل إضعاف العقيدة الإسلامية في نفوس الشعوب المسلمة خطوات لا بأس بها ، وقال: هذه هي الغاية التي تعمل لها الأمم الأوروبية وترصد لها الأموال الطائلة وتجند لها من الدعاة جيش ضخم في صور المعلمين والمبشرين والمبشرات والأحبار. على أن إضعاف العقيدة الإسلامية هي الخطوة الأولى لغاية أخطر ، فالشعوب التي تنحل عقائدها القومية وتضعف تغدو فريسة أيسر للغزو الفكري والديني . فإذا تم هذا الوهن المنشود في عقائد الشعوب الإسـلامية استطاع الاستعمار الإجهاز على الفرائس وغاضت الخواص والعقائد القومية التي ما زالت تتكسر عليها جرار الاستعمار . ومن الأسف أن الشعوب الإسـلامية لم تفطن حتى اليوم إلى هذه الحقيقة ولم تتنبه لفداحة الخطر ولم تفعل شيئاً لرده ، وإذا كان الإسلام ما يزال يناضل بقوة وصلابة فإنه إنما يرد جيوش الغزاة برسوخ وقوة عقيدته لا بعمل أبنائه ولا بجهوده » . وقد استطاعت الصحف في هذه المرحلة أن تحصل على إحصائية خطيرة تكشف عما ينفق في العام الواحد بالنسبة للإرساليات الإنجليزية والأيرلندية على النحو الآتي : (عام ١٩٣٢) ٩٫٣٨٨ مبشر تحت سلطتهم ٨١ مدرسة جامعة وكلية فيها ٧٩٩١ طالباً و ١١٣ مدرسة روضة أطفال بها ٣ ٤ و ٥٠٠ مستشفى و ١٠٢٤ صيدلية لها ٤ مليون من الزبائن ، تبلغ عدد إرساليات التبشير العامة ٣٨٣٨ درجة أولى و ٣٤٧١٩ درجة ثانية ، وجملة المبلغ الذي أنفق في هذا العام خمسة ملايين جنيه . كما أشارت التقارير الواردة من جمعية التوراة ومركزها ١٤٦ شارع الملكة فيكتوريا في لندن : عن توسيع نطاق حركة التوزيع في اليابان والصين ومصر وأنه قد تم توزيع ١٥٠ نسخة في السودان الإنجليزي والعربي والحبشة وفلسطين وسوريا وقبرص بجوار مصر . وذكر التقرير أن جمعية نشر التوراة البريطانية أنشئت عام ١٨٠٤ ووزعت حتى عام ١٨٩٩ = ١٦٠ مليون نسخة لـ ٣٦٤ لغة

كما ظهر بوضوح الاهتمام البالغ بحماية معاهد التبشير كلما ورد ذكر الاتجاه إلى عقد معاهدة، وبلغت نفقاتها السنوية ٢٣٠ ألف جنيه بين بريطانيا ومصر (هذه المعاهدة بدأت المفاوضات من أجلها منذ ١٩٢٠ وانتهت ١٩٣٦)، قالت جريدة التيمس فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٧ بمناسبة المفاوضات الجارية بين مصر وبريطانيا «إذا كان هناك شىء يخشى منه فهو خلو المعاهدة من نص يتعلق بحماية معاهد التبشير ولكنها تعود فتطمئن النفوس إلى أن بريطانيا ستظل تحمى جميع معاهد وإرساليات التبشير. وأشارت التقارير فى هذه الفترة إلى الدور الذى تلعبه أضخم مؤسسة لأعمال التبشير وهى: «جمعية الشبيبة المسيحية الدولية فى مدينة نيويورك» والتى تضم ٩ آلاف فرع فى العالم ويبلغ جملة أعضاؤها مليونى عضو ولها فروع فى مختلف العالم الإسلامى وقد رافق هذه الخطوات الضخمة ضربات قوية كانت بعيدة المدى. ففى السودان أغلقت المناطق الجنوبية فى وجه التاجر المسلم وسمح فيها للبعثات التبشيرية وحدها بحرية الحركة. وفى تونس عقد المؤتمر الإفخارستى الذى جمع مؤسسة الآباء البيض المبشرين وجرت محاولات تجنيس التونسيين بالجنسية الفرنسية، وفى المغرب صدر الظهير البربرى سنة ١٩٣٠ الذى فصل البربر المسلمين عن العرب ووضع لهم أنظمة خاصة فى القضاء والتعليم مستمدة من قوانينهم العرفية القديمة. واستهدف استخراج القبائل البربرية من حظيرة الشريعة الإسلامية وإلغاء العلوم التى تعلم اللغة العربية فى مناطق القبائل.

وفى مصر وعديد من بلاد الشرق اقتحم دعاة «البهائية» المجال وبشروا علناً وكتبوا فى الصحف وأقاموا محافلهم، وكذلك اندفع دعاة «القاديانية» فى الهند الإسلامية وفى غيرها كما انطلق دعاة التبشير فى مجال الجامعة والثقافة والصحافة وظهرت كتابات مستمدة من مؤلفات المبشرين أهمها: الشعر الجاهلى لطه حسين والإسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق. ولقد كان من أحداث ما بعد الحرب العالمية الأولى وأخطارها إسقاط الخلافة. وقد وجدت هذه الخطوة تقديراً كبيراً فى دوائر التبشير حتى إن زويمر فى مؤتمر عام ١٩٢٤ الذى عقد فى القدس أشار إليها إشارة التشفى وقال: «أصبحت الروح القومية تدحر روح الجامعة الإسلامية وتحل محلها، وكان لإلغاء الخلافة تأثير عميق». وأشار إلى أنها أحدثت ما أسماه «انحلال الرابطة الإسلامية» أو «العروة الدينية فى الإسلام» وبالجملة فقد رأى المبشرون أن الأحوال فى العالم الإسلامى كله تقريباً «قد أصبحت ملائمة لأعمال التبشير وأن العراقيل التى كانت تنشأ فيما مضى قد أزيلت تماماً» «وبعض الحكومات الاستعمارية التى كانت فيما مضى مضادة للتبشير قد تغير حالها وباتت صديقة للتبشير وعضده القوى تمده بالمدونة اللازمة للقيام بالأعمال الطبية والاجتماعية التبشيرية الخاصة» وأشار إلى أن «الدستور الجديد الذى أنشىء فى مصر قد اشتمل على نصوص قاطعة تكفل الحرية الدينية».

﴿ أولا ﴾ فى مصر

ركز التبشير تركيزاً كبيراً على مصر بعد الحرب الأولى لأمرين: (الأول) أن مصر هى مركز الثقل فى العالم العربى كله وكل ما يثار فيها من تيارات إنما يكون عاملا هاماً للتأثير على مختلف الأجزاء. (الثانى) أن مرحلة العمل الأولى فى مصر قبل الحرب عن طريق الإرساليات التبشيرية الأولى قد

آتت أكلها وخاصة عن طريق الصحافة التى أبرزت ألمع نجومها من الصحفيين الغربى النزعة خريجى هذه الكليات من زيدان إلى صروف إلى فرح أنطون إلى سركيس إلى شبلى شميل بالإضافة إلى الصحفيين الذين عملوا فى فرنسا وبريطانيا، وقد تركز العمل فى هذه المرحلة على عدة مراكز هامة (١) الصحافة (٢) الجمعيات الأدبية (٣) الجامعة المصرية (٤) مدارس الإرساليات (٥) المدارس المصرية الخاضعة لبرامج كرومر ودنلوب. وكان لمعاهدة لاتران التى عقدت عام ١٩٢٩ أثرها الواضح حيث عقدت هذه المعاهدة بين الكرسى البابوى والحكومة الإيطالية التى حصلت بموجبها على تعويض ضخم وأعلن أن الجانب الأكبر منه سيوجه لدعم الحركة التبشيرية، فإنه لم يمض على ذلك عام وبضع عام حتى اجتاحت مصر والسودان حملة تبشيرية ضخمة عن طريق بعض المعاهد الكبرى للإرساليات وبعض مستشفياتهم، ولم تلبث الحركات العنيفة أن كشفت عن أحداث خطيرة تمثلت فى إغراء بعض الشباب والفتيات المسلمين بالتنويم المغناطيسى لترك دينهم. وحملت الصحف المتحررة من نفوذ العهد السياسى الحاكم حملات عاصفة على هذه الحركة، وكانت جريدتى البلاغ والسياسة هى أجرأ هذه الصحف وكان الدكتور محمد حسنين هيكل ورفيقه أحمد نجيب فى جريدة السياسة من أعمق الدارسين والباحثين للظاهرة الخطيرة وتقديم إجابات صريحة عنها، كما تحدثت الصحف لفترة طويلة استمرت أعوام ١٩٣٢ و١٩٣٣ عن اتساع نشاط المبشرين الذى كان يشار إليه فى بعض الصحف والمجلات وخاصة الإسلامية منها كالفتح والمنار إشارات سريعة على فترات متباعدة، وقد امتد هذا النشاط من القاهرة إلى بورسعيد إلى أسيوط، وتحدثت عن وسائل الإغراء التى يلجأ إليها المبشرون لحمل السذج على ترك دينهم وإغراء الأطفال من أبناء الفقراء. ويقول هيكل «كنت من أشد الأعضاء تحمساً لمقاومة هذا التبشير اقتناعاً منى بأن هذه الحركة يقصد بها إضعاف ما فى النفس من ثقة بدين الدولة، ولما تنطوى عليه من قصد سياسى هو إضعاف معنويات هذا الشعب بإضعاف عقيدته، وكان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقفى منها أن وجهنى للتفكير فى مقاومتها بالطريقة المثلى التى يجب أن نقاوم بها، توجب أن أبحث حياة صاحب الرسالة الإسلامية ومبادئه بحثاً علمياً، كان هذا الحادث الذى روعت له مصر. حادث النشاط التبشيرى، سبب متابعتى خلال أربع سنوات تمحيص حياة النبى العربى وتعاليمه». وفى خلال هذه الحركة إندفع المبشر زويمر فدخل الجامعة الأزهرية ووزع منشوراته بها، وتألفت فى إثر ذلك جمعية الدفاع عن الإسلام من العلماء والكتاب، ووقفت الحكومة المؤيدة بالنفوذ الاستعمارى فى وجه هذه الجماعة التى كان يرأسها الشيخ المراغى. وكان من أثر الضربات الضخمة التى وجهت إلى الحركة التبشيرية السافرة أن اختفت هذه الحركة من المسرح وخلعت أثوابها واستترت وراء أثواب أخرى أشد خطراً بحيث لم يعد الكشف عليها ميسوراً، ورافقت هذه الحركة فى مصر حركات مماثلة فى السودان وتونس والمغرب أهمها حركة الظهير البربرى فى المغرب وحركة التجنيس فى تونس وعقد المؤتمر التبشيرى الأكبر فى القدس وفى تونس، وهاجمت الصحف الأجنبية فى مصر حركة المقاومة للتبشير، بل إن بعض الصحف اليومية العربية، والمجلات التى يرأس تحريرها طه حسين وتوفيق دياب وعلى عبد الرازق قد هونت من شأن هذا الخطر، وصادرت الحكومة هيئة الدفاع عن الإسلام ومنعتها من الحركة. وفى خلال هذه المرحلة تبين أن عدد المبشرين فى مصر يبلغ ٣٩٢ مبشراً وأن الحكومة تمنح لهيئات التبشير تسهيلات

جركية فى حدود ما لا يقل عن مائة ألف جنيه . وقد أهدت جمعية الدفاع عن الإسلام النصح إلى المصريين لسحب أبنائهم من المعاهد التبشيرية ، ودعت إلى انشاء معاهد ومدارس لفقراء المسلمين وكشفت عن الفارق بين دعوة كل صاحب دين إلى دينه وبين الإكراه ، وأعلن الإمام المراغى أن المعترض عليه هو طرق التبشير التى يبرأ منها العقل والعلم وتبرأ منها الفضيلة .

٣ — فى السودان

يرجع بدء العمل التبشيرى فى السودان إلى عام ١٦٩٨ عندما وصل إليها الأب زامبيرى دى برفدنت بقصد التبشير فيه وفى الحبشة ، وان أول بعثة تبشيرية أرسلت إلى السودان كانت عام ١٨٤٦ وعلى رأسها القس (أورفالدر) وقد بقيت بالعمل حتى عهد الثورة المهدية . وفى عام ١٨٧٧ جاهر (غوردون) الذى تولى منصب حاكم السودان قبل عام ١٨١٩ بضرورة تنصير السودان . وما أن استردت بريطانيا السودان بعد القضاء على حكومة التعايشى حتى نشطت حركة التبشير وكانت خطتها الثأر لغوردون الذى قتل عام ١٨٨٥ والانتقام له وتحقيق هدفه ، وقد تعهدت الإدارة الإنجليزية فى مصر والسودان بالتشجيع المادى والأدبى وفى عام ١٨٩٩ أرسلت الكنيسة الإنجلكانية بانجلترا الرهط الاول من المبشرين التابعين لها فأنشأوا مراكز فى الخرطوم وأم درمان . وفى عام ١٩٠٥ دعا اللورد كرومر إلى إنشاء مراكز للتبشير فى مديريات جنوب السودان للعمل بين قبائل الدنكا والقبائل الوثنية ، وبذا بدأت أضخم خطوة فى مجال التبشير . فتأسست مقرات فى مديريات جوبا وبالى أورتاى ولوى وبامبيو ، وقد قامت بالعمل فى السودان بعثات نمساوية وإنجليزية وأمريكية واسترالية لها مراكز فى مختلف المناطق الهامة ، وكتب «زويمر» على أثر زيارته للسودان : إن من أدلة نشاط المبشرين أنه فى منطقة تل دوليب التى يشتغلون فيها منذ ربع قرن تمكنوا من جمع ١٩٠٠ من الأهالى فى مدارس الآحاد ونصروا منهم بضع مئات ، وفى أم درمان نفسها تعقد الجمعية الأمريكية اجتماعات تبشيرية فى سرادقات تقام على بعض أمتار من قبر المهدى ، وهناك من يقومون بالدعوة ويوزعون المنشورات ، وقال إن هناك مائة وعشرون تلميذاً مسلماً يلقنون قصص النصرانية وكتب الأسقف جوين فى المجلة الكنسية التبشيرية وأن من دواعى الغبطة أنه قد تم فصل مديريات جنوب السودان ليكون أسقفية جديدة تتحد مع جزء من أوغنده ، ومتى تم ذلك فسيصبح أول رئيس لها «كنشن» الذى قضى أكثر من خمسة وعشرون عاماً فى التبشير فى أوغنده ، ولا بد أن يؤول الأمر إلى تدعيم هذه المجهودات بخطط ومشروعات جديدة ليتم التبشير فى كل هذه المناطق ، وقد تم الاتفاق بين مصلحة المعارف السودانية والإرساليات على أن يترك لها مسألة التعليم فى الجنوب مقابل إعانة تدفع لها . وقد عمدت حكومة الاحتلال فى السودان رغبة فى دعم مخطط التبشير إلى تحريم سفر أهل الشمال إلى الجنوب ووضع قيود التنقل داخل الجنوب إلا بتصريح كتابى ومنع التجار المقيمين من أهل الشمال من التحدث مع أهل الجنوب باللغة العربية وإلزامهم بتعلم لغة أهل الجنوب . وقد ركز المبشرون جهوداً ضخمة على جنوب السودان حيث يكثر الوثنيون ، ولما لم يقبل الوثنيون دعوتهم كان عمل المبشرين قاصراً على منع انتشار الإسلام ، وقد أشار ولسون كاش فى كتابه السودان المنفير أنه ما من قائد أو رائد أرسلته مصر إلى أعالى النيل فى القرن التاسع عشر

بإيعاز من الدول إلا كان من رواد التبشير على وجه من الوجوه ، وقال إن الحكومات (المحتلة) في السودان والأقطار الإفريقية تيسر نشر التبشير في بلاد الوثنيين فتفتح لهم السفر إلى أقصى الجهات وتحرمه على الجلابة والفقهاء وأصحاب الخلوات . وقد جعل الاستعمار من منطقة الجنوب مباحاً التبشير والنفوذ الأوربي دون الإسلامي ، وفيها نشروا اللغة الإنجليزية دون العربية ، وعملوا بذلك على إيقاف تيار الإسلام صوب الجنوب والحد من زحف السيل العربي المتدفق بقفل الجنوب وفصله عن الشمال وبذر بذور الشقاق والتفرقة بين العرب وإخوانهم أهل الجنوب . ومن الخطوات الهامة في تاريخ التبشير في السودان ، تلك الحركة الضخمة التي قامت عام ١٩٢٩ حين وجه حاكم السودان العام (وهو بريطاني) وشاركه ستة عشر قائداً النداء بمناسبة ذكرى غوردون إلى توسيع نطاق العمل التبشيري وفتح باب الاكتتاب لهذا الغرض فجمع أكثر من ٦٠ ألف جنيه ، ودعا إلى إنشاء مراكز التبشير في بور سودان وغوردون ووادي مدني ، وقالت جريدة التيمس الشهيرة في هذه المناسبة : إن «غوردون» بذل حياته في سبيل التبشير ولا بد أن تكون ذكراه حافزاً إلى العمل ، والمعروف أن غوردون كان يعتبر رسالته إدخال هذه المناطق كلها في النفوذ الغربي عن طريق التبشير . وقدرت ميزانية الإرساليات في هذه الفترة بمبلغ ٢١٠ الف جنيه بينما كان المعهد الديني الإسلامي في أم درمان يصرف له ٢١ الف جنيه وقد نشرت الصحف في (٩ يوليو ١٩٢٣) تقريراً عن أعمال المبشرين في السودان ذكرت فيه أنه يجري الحيلولة دون المسلمين ومخالطة أهل الجنوب أو التجول في أرضهم أو الظهور أمامهم بأي مظهر من المظاهر الدينية ، كما منع توظيف السودانيين في بلاد الوثنيين . وقد توغل الإنجليز في هذا السبيل فأرسلوا إخصائيين في اللغات لدرس لغة هؤلاء الزنوج لجعلها لغة رسمية في بلادهم وذلك لمقاومة اللغة العربية والحيلولة دون انتشارها لأنها لغة المسلمين ، وإذا وصلت باخرة أو سفينة إلى بلاد الزنوج منع المسلمون من أن يقيموا الصلاة خارج السفينة بحيث يراهم هؤلاء الزنوج ، فقد جربوا وكانت تجربة قاسية عليهم أن المسلم إذا ظهر مصلياً لا يلبث أن يختلطوا به ويسألون عن عمله وطفقوا يقلدونه وانتشر الأمر بينهم . ونشرت جريدة السودان ٢٥ / ١٢ / ١٩٣٦ أن المبشرين يتمتعون في جنوب السودان بحماية الحكومة السودانية ولهم كامل السلطة في إبعاد من يرون إبعاده من التجار والموظفين غير المرغوب فيهم من جهة المبشرين ، وأن المسلمين هناك يلقون عنتاً وتضييقاً في سبيل إقامة شعائر دينهم . ومما يذكر أن الحاكم العام في السودان حاول أن يدافع عن هذه الإجراءات فادعى أن مافرض في جنوب السودان من القيود على صغار التجار وأمثالهم إنما قصد به منع استغلال الأهالي الذين هم في أبسط حالات الفطرة استغلالا غير مشروع . ومن يتابع تقرير اللورد كرومر عن التبشير يعرف إلى أي حد وجه العميد البريطاني أنظار الحركة التبشيرية إلى العمل في جنوب السودان حيث الميدان خصيب وبكر ، وقد نفذت الحكومات السودانية خطته بدقة فأوجدت فاصلا بين الشمال والجنوب وأطلقت على تلك الأجزاء « المناطق المقفلة » وحالت بين المسلمين الشماليين وبين التحرك في الجنوب واستقدموا لهذه المناطق جيوشاً من المبشرين ، وكانوا يأخذون الأطفال الجنوبيين إلى مدارسهم منذ نعومة أظافرهم حتى المرحلة المتوسطة عملا بخططهم التي تهدف إلى إشراب هؤلاء الأطفال دعوتهم

فى وقت مبكر، وكانت وزارة المعارف السودانية تقوم بدفع ٩٨ ٪ من نفقات مدارس التبشير دون أن تشرف عليها . ولما إستقل السودان أحس المبشرون بأن عملهم أصبح محفوفاً بالمخاطر ولذلك فقد عمدوا إلى حياكة المؤامرات وتشجيع السكان على الثورة والتمرد مما دفع الحكومة السودانية إلى إقصاء بعضهم إلى خارج الحدود، وثارت الفاتيكان واتهمت الحكومة بأنها اضطهدت الدعاة وقد كشفت السودان عن التفرقة بين المسيحية كدين هو موضع احترام الحكومات الإسلامية وبين المبشرين كطلائع للاستعمار وخدام لمطامعه . والمعروف أن جمعيات التبشير فى جنوب السودان كانت قد بلغت ٥٠٠ جمعية لها فروعها المثبتة فى جميع نواحى الجنوب يعيش القوامون عليها فى بحبوحة العيش فى الغابات وغيرها ولديهم وسائل التبريد والتدفئة والمواصلات، وقد خلقوا جيلا جديداً مثقفاً ثقافة استعمارية جملته متعصباً ضد الإسلام واللغة العربية ودفعته إلى كراهية إخوانهم فى الشمال، ويصور الأستاذ على السيد جعفر عمل المبشرين فى مدينة (واو) عاصمة بحر الغزال حيث النفوذ الضخم الواسع للإرساليات التبشيرية فيقول « ومن المألوف أن ترى الأطفال فى حوزة المبشرين كأن لا صلة لهم بأهل أو أقارب، ولقد هالنى أن أرى هناك فى مركزهم على النيل قرب الحدود الأوغندية كثيراً من الأطفال يفترقون ويتلاءون مع المبشرين تحت ظلال الأشجار، فهم مدد متجدد تحت أيدى صنائع الاستعمار ورسله، وبما شاهدته طائفة من النساء والبنات العاريات تلقنهن التراتيم نصف عمياء بالمجتمع المتوطنة على حين تقدم لهم الطعام فتاة مراهقة تؤدى عملها عارية كما ولدتها أمها ، والهدف هو « خلق جيل منعزل يخشى كل ما فيه رائحة الشماليين » . . ويقول الكاتب : إن الجنوب بهذه الحالة سيكون نقطة الضعف التى يستغلها المستعمرون فى إثارة الفتن والقلاقل بل طلب الانفصال عن الشمال » .

(٤) فى شمال أفريقيا

بدأت حركة التبشير فى المغرب (مراكش) بالدعوة إلى الفصل بين العرب والبربر وهما مسلمين وذلك بإنشاء أنظمة خاصة ومعاهد ومحاكم تفصلهم عن الشريعة الإسلامية ومعاهد القرآن مع إلغاء تعلم اللغة العربية فى المناطق البربرية . وكان أخطر ما وجه الحركة التبشيرية إلى شمال أفريقيا عقد المؤتمر الأفخارستى التبشيرى فى تونس الذى عقد فى قرطاجنة عام ١٩٣١ وقال عنه أسقف قرطاجنة أنه حملة صليبية وقال المؤتمرون إن الدافع لهم على عقد هذا المؤتمر هو تحقيق الفكرة التى كانت تدور بين جنود لويس التاسع والتى حملها بعده الكردينال لافيجرى، وليست هذه الفكرة سوى ما كان يقصده لويس التاسع من حملاته الصليبية على هذه الديار، وهو إرجاعها إلى الصليب الذى أجبرت على قبوله بعسف الرومانيين، كما أوصى المؤتمر فرنسا بتعميم التبشير، وذلك لتوحيد عقيدة شمال أفريقيا . وفى تونس أيضاً ظهرت حركة تجنيس السكان بالجنسية الفرنسية وتقديم الإغراءات والتهديدات لتحقيق ذلك الغرض وكان الهدف أن لا يحتكم السكان إلى شريعة الإسلام بل يحتكمون إلى القانون المدنى الفرنسى وإدماج أهل تونس فى الجنسية الفرنسية وسلخهم من عروبتهم ودينهم الإسلامى وإقامة الحواجز والفوارق بينهم وبين جامعتهم الوطنية والدينية .

وقد استعانوا فى ذلك ببعض العملاء الموالين للنفوذ الأجنبى وفتحوا لهم الطريق إلى المناصب الكبرى حتى أن أحدهم أصدر فتوى تبيح للمسلم التجنس بالجنسية الفرنسية، وفى الجزائر احتفل المبشرون عام ١٩٣٠ بمرور مائة سنة على قرار النفوذ الغربى المسيحى وكان (لافيجرى) عميد التبشير قد أنشأ (جماعة الآباء البيض عام ١٨٦٩) عندما اختار أن يجعل من مدينة بسكرة فى منتصف الطريق بين جبال الأوراس وبحيرات شط الغرب مقراً لإقامة زوايا للتبشير ليس المبشرون فيها لباس رواد الصحراء الأبيض وقد قاوم المسلمون هذه الحركات بقوة وقامت جمعية العلماء الجزائريين بزعامة الامام عبدالرحمن ابن باريس كرد فعل لهذه الحركات التى لم تستطع تحويل المسلمين عن دينهم وتنبه المسلمون إلى التصريحات التى كشفت عن أهداف المبشرين من أمثال قول الأب ميينز أن حركة التبشير حرب صليبية هادئة بدأها المبشرون فى القرن السابع عشر ولاتزال مستمرة إلى يومنا هذا فقد كشف كتاب المسلمين ومفكريهم عن هدف التبشير فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى وفى المغرب بالذات الماثل بها وجود الأمة بالقضاء على مقوماتها ومشخصاتها من لغة وأدب ودين وذلك تنفيذ مخطط يهدف إلى إزالة سلطان المسلمين من هذه الأرض . وفى نفس الوقت استطاعت الطرق الصوفية فى المغرب والسنوسية بالذات اقتحام المناطق الوثنية وإدخال أهلها فى الإسلام بالرغم من نفوذ الهيئات التبشيرية وملايينهم الكثيرة. وماتزال الإرساليات التبشيرية تسيطر بنفوذها على مجال التعليم فى تونس والجزائر والمغرب على نحو مايزال بالغ الخطورة، بل إن فرنسا قد زادت نفوذها فى مجال التعليم التبشيرى خلال معركة التحرير التى دارت سبع سنوات بين الجزائر وفرنسا وأنشأت فى خلال سنوات قليلة عدداً من هذه المدارس يوازى ماأنشأته فى تاريخ احتلالها كله . وما تزال عملية التعريب عاجزة عن التأثير فى نفوذ التعليم التبشيرى والأجنبى فى تونس والجزائر ومراكش .

(٥) التبشير فى قلب أفريقيا

زحف الاستعمار منذ منتصف القرن الخامس عشر إلى أفريقيا وكان أوائل الرواد الغربيين مبشرين من أمثال ولفنسون وستانلى وغيرهم من الذين فتحوا الطريق أمام هذه البعثات ، وكانوا يعلنون عن خطط تقدمهم إلى قلب أفريقيا باسم التبشير ويرون أن كلمة الفتح إنما تعنى خضوع أفريقيا وأهلها للإرساليات ومعاهدها وأهدافها ، وقد كانت شرق افريقيا وغربها ووسطها مجالا للصراع والمنافسة لمختلف البعثات التبشيرية الكاثوليكية واليسوعية والبروتستانتية السويدية منها والإنجليزية والألمانية ، وتمد الإرساليات البريطانية أضخم هذه البعثات وماينفقه الإنجليز يقدر بثلث نفقات الإرساليات ويصف رولاند أوليفر فى كتابه بالعوامل التبشيرى فى شرق أفريقيا ، رائد التبشير «ولفنجستون» الذى تخطىء الكتب المدرسية الخاضعة لنفوذ الاستعمار فى العالم الإسلامى حين تحاول أن تصوره مكتشفاً فمن الحق أن يقال أن هذه المناطق التى رادها لم تكن مجهولة وقد وردت فى مختلف كتب التاريخ العربى ، يقول رولاند أوليفر « ولقد أعد ولفنجستون نفسه منذ سنوات حياته الأولى حينما كان يعمل فى جمعية التبشير اللندنية للاطلاع بأعباء التبشير الخاصة بأفريقية الاستوائية وبالعمل بين شعوب فطرية لم يمكن قد

سكنها الأوربيون . وفى عام ١٦٥٩ كان ولفنجستون لا يزال يفكر بطبيعة الحال فى التجارة أكثر من الاستعمار ، وبما أنه كان أولا وقبل كل شيء مبشراً مسيحياً فلقد اختار كعضو فى الحركة التبشيرية أن يبحث عن نهر تستطيع السفن أن تمخر فيه إلى داخل البلاد . لقد أراد ولفنجستون أن يكتشف طرقاً فى أفريقيا للمبشرين لا المدنية ، وبالجملة فقد كان ولفنجستون مبشراً قبل أن يكون رحالة ولم تكن رحلاته المشهورة إلا تمهيداً للبعثات التبشيرية ويقول ولفنجستون فى أحد تقاريره (إن نهاية الاكتشاف الجغرافى هى بداية العمل التبشيرى ، وهذه حقيقة كلية إذ أنه من المحال أن تكتشف أرضاً جديدة دون أن ينبه ذلك فينا شوق دعوة أهلها إلى الإنجيل) ثم قدم إلى أفريقيا بعد ذلك ستانلى الذى كان لكتابه الموجه إلى كليات أكسفورد وكامبرج ودبلن والجمعيات التبشيرية فى أوربا سنة ١٨٧٨ أثر كبير فى تحرك هذه الهيئات إلى العمل فى أفريقيا ، ولم يلبث حتى عقد فى ١٨٨٥ مؤتمر فى برلين لتقسيم أفريقيا بدعوة من البرنس بسمارك ، وفى هذا المؤتمر تعهدت الدول بحماية إرساليات التبشير المتجهة إلى أفريقيا والساعية إلى تهذيب السود ! ولكن حركة التوسع الإسلامى استطاعت أن تنفذ إلى قلب أفريقيا منذ ١٨٥٠ — ١٩٠١ على أيدى مشايخ الطرق الصوفية وزاحمت البعثات التبشيرية وكسبت منها أرضاً كثيرة بالرغم من ضعف إمكانياتها المادية ونفوذها السياسى مما أزعج هذه البعثات ودفعها إلى تعزيز اعتماداتها وإلى تحريض الحكومات المختلفة على إيقاف خطوات التاجر المسلم والشيخ المسلم والحيلولة بينه وبين التحرك فى قلب أفريقيا . وكانت أبرز الطرق العاملة فى هذا المجال (السنوسية والمهدوية والقادرية والشاذلية والتيجانية) . ومما يذكر فى هذا الصدد أن حركة التبشير قد اهتمت اهتماماً كبيراً باحتلال الجيش الفرنسى لمقاطعة (واداى) الأفريقية ، ونوه بذلك مؤتمر ١٩١١ فى لكنو (الهند الإسلامية) وقال إنه أهم حادث سياسى فى هذا العصر ، لأن واداى كانت أهم مركز فى إفريقية للاتجار بالرقيق وانتشار الإسلام » « وأن احتلال واداى سيقلل من نفوذ مشايخ الزوايا السنوسية بحيث لا يستطيعون الوقوف فى طريق تقديم الاستعمار . وقد رافق التبشير نفوذ الاستعمار ووجد الطريق أمامه ممهداً للعمل ، غير أن المبشرين لم يجدوا أمامهم نفوساً مستعدة لتقبل دعوتهم بالرغم من المال والنفوذ ، وقد أشاروا إلى ذلك فى مختلف مؤتمراتهم ، وقال زويمر وهو يستعرض حالة الاستعمار فى أفريقيا عام ١٩١١ « أن الموقف صار حرجاً لسرعة تقدم الإسلام من مركزه الواسع فى الشمال ومعاقله التى فى السواحل إلى الجنوب والغرب الأفريقى ، وأشار إلى أن « المبشرين قد أخطأوا فى تقديراتهم السابقة » « لأنه تبين لهم فيما بعد أن بعض البلاد التى كانوا يحسبونها خالية من الأديان المعروفة قد ظهر أنها إسلامية محضة أو أنها على أهبة الدخول فى الإسلام » . وقد تناولت لجان المؤتمر التبشيرى البحث فى الأمور التى تمهد السبيل لبعثات التبشير « ودعت جمعيات التبشير إلى توسيع نطاق التعليم الذى يشرف المبشرون عليه » . وقد اعترف « رولف إيتاليا ندر » فى كتابه (أفريقيا الجديدة) بخطأ السياسة التى اتبعتها الدول الأوربية فى فرض التبشير على هذه المناطق وقال « لقد اعتدنا على اعتبار ديننا هو المثل الأعلى للقيم الروحية دون أن نحاول تفهم ما فى الأديان الأخرى من فضائل ، وساقنا الغرور إلى محاولة فرض المسيحية على كثير من الشعوب الإفريقية المسلمة عن طريق سياسة تبشيرية حمقاء ، كان التبشير

يسير فيها مع الاستعمار فى ركاب واحد ، لقد تدخل المبشرون فى السياسة بشكل مباشر وأصبحت مهمتهم هى تخدير الأفريقيين واتخاذ نشر الدين ذريعة لمد السيطرة الاستعمارية عليهم وإبقائهم خدماً إن لم نقل عبيداً للرجل الأبيض ، أترانا نعجب إذا رأينا الأفريقيين يسعون فى أول عهدهم بالاستقلال إلى طرد هؤلاء المبشرين الذين لا يمثلون إلا ظل الاستعمار وطغيانه ، أما المسيحية فإنها منهم بريئة .

وتدل التقارير الواردة فى السنوات الأخيرة على أن فى افريقيا اليوم ميدان واسع للتبشير الصريح الواضح ، غير أن الإسلام ما زال بالرغم من ذلك النفوذ الخطير للإرساليات التبشيرية يجذب الوثنيين إليه لأسباب مختلفة أهمها بساطته وبعـــده عن التعقيد ودعوته إلى الحرية ، وما زالت الإرساليات التبشيرية منقسمة على نفسها تتصارع وتتنافس ، مما يفقدهم ثقة من يدعونه إليهم ، فضلا عن ارتباط البعثات التبشيرية بالنفوذ الاستعمارى الذى ينفر منه الوطنيون ويحاربونه .

٦ — فى الهند

ركز النفوذ الاستعمارى البريطانى على الهند وأفسح للبعثات التبشيرية فيها منطلقاً واسعاً ، فقد وفد المبشرون إلى الهند قبل وصول بريطانيا ، وفى ظل النفوذ البريطانى المتزايد أنشأ المبشرون فى مختلف بلاد الهند المدارس والكليات والمستشفيات وأسسوا مراكز التبشير وترجموا التوراة إلى معظم لغات الهند ووزعوا منها الملايين من النسخ . وقد نجحوا فى اجتذاب بعض الهندوس والمنبوذين الذين ركز المبشرون عليهم ، وفشلت محاولات التبشير بين المسلمين ولكنها استطاعت أن تؤثر فى مفاهيم التعليم وبرامجه وأن تخلق بعض المدافعين عن مفاهيم الغرب المضللة والمنحرفة والتى تحاول أن تغرس فى الأجيال المختلفة أن الإسلام دين عبادة فقط لا دين حكم وحياة ونظام مجتمع ، ومن هنا برزت الدعوات التى نادت بإلغاء الجهاد الإسلامى أو تأويله . وقد أشارت تقارير المبشرين فى مؤتمراتهم المختلفة إلى الجهود الضخمة التى توالى بذلها ، وكيف أنهم فتحوا فى « لاهور » باب الجدل فى مسائل التوحيد والتثليث وكيف عارضهم المسلمون وكيف نشروا عدداً من الكتب التى يحاولون بها تأييد دعواهم ومنها « ميزان الحق . طريق الحياة . مفتاح الأسرار » ولم يتوقف دعاة التبشير عن إثارة المجادلات الشديدة مع علماء المسلمين فى دلهى وأكرا ولكنو كما تناول المبشرون بالدراسة الدور الذى قامت به حركة الإصلاح فى الهند والدور الذى قام به « أحمد خان » وما تبذله كلية عليكرة وجمعية العلماء فى لكنو .

وقد أشار المرحوم العلامة « عبد العزيز الثعالبى » إلى التبشير فى الهند فى تقريره عن المسلمين الذى كتبه عقب زيارته لها عام ١٩٣٦ فقال إن عدد الإرساليات التبشيرية بها بلغ ٣٧٧ إرسالية بالإضافة إلى ٥٠ كلية و ٣١٨ مدرسة ثانوية و ٧٨ مدرسة اجتماعية و ٦٥ مدرسة زراعية و ١١ مدرسة المبشرين و ١٠ مدارس لتخريج معلمين و ١٧٠ صحيفة وجريدة ونشرة ، وقال إن النفقات السنوية للإرساليات بلغت ٢٢٧ر٢٣١ مليون روبية . والمعروف أن المسلمين واجهوا حركة التبشير بالمقاومة الشديدة فأكثروا من المدارس القرآنية وإن كان الاستعمار البريطانى مساعدة منه للمبشرين عمد إلى التضييق على هذه المدارس . كما واجه المسلمون الحركة التى تزعمها (مالويه — غاندى — سرداننك)

بالمعارضة الشديدة وردوا بعنف على الحملات التى وجهت إلى دينهم والطعون التى تناولت الرسول الكريم. وكان للشهيد القاضى عبد الرشيد دوراً ضخما فى الانتقام من رجال جمعية سانفين التى كانت تعمل لهدم الإسلام تحت ستار الثقافة والتبشير.

٧ — فى آسيا الإسلامية

بدأت البعثات التبشيرية تقتحم آسيا الإسلامية قبل أوائل القرن التاسع عشر، حيث نفذت إلى الهند وفارس والأناضول والآستانة التى صارت منذ ١٩٤٦ مركزاً عاماً آمناً لأعمال للمبشرين، وفى الملايو توزعت البعثات التبشيرية وشغلت مختلف الأنحاء. وأولت هذه البعثات اهتمامها للساحل الشرقى من الجزيرة إلى جاوه وسومطرا وفى مختلف المدن حيث بدأت بعثات التبشير ١٨١٣ انتشر المبشرون والأطباء التابعون لهم وركزت اهتمامها الرجل الشرقى من الجزيرة وإلى جاوه وسومطرا.

٨ — فى الجزيرة العربية

وأولت حركة التبشير الجزيرة العربيه باهتمامها الواسع جرياً على ما قاله وليم جيفوود بالكراف «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب حينئذ زى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمداً وكتابه». ولذلك فقد ركز التبشير على الجزيرة العربية وطمع فى الوصول إلى مختلف أجزائها، وقد استغل وجوده فى البحرين وفى عدن لهذا العمل، كما وصلت بعثاته إلى البصرة والشيخ عثمان، وقد اتخذ المبشرون فى جزيرة العرب مراكز تمهد لهم سبيل التوغل فى داخل الجزيرة وتعمل كل الإرساليات على اختلاف نزعاتها وأشكالها ومعاهدها الطبية والتعليمية فى سبيل الهدف المحدد وقد عمد المبشرون إلى الإنبثاث فى هذه المناطق ومعهم الفانوس السحرى يجمعون الناس كل مساء حول قصص تبشيرية مستمدة من التوراة، وتضم صوراً لعظمة أوربا وارتقائها وانحطاط الممالك الإسلامية فضلا عن توزيع المؤلفات التبشيرية مجاناً فى كل. وقد أذاعت بعثات التبشير نداء حاراً عام ١٩٢٧ إلى مراكزها فى أوربا تدعوهم إلى إرسال مبشرين إلى بلاد العرب: ويقول هذا النداء الذى أعلنه القس باركلين «إن بلاد العرب تبلغ مساحتها مليون ميل مربع لم يدخلها التبشير بعد، وفيها من السكان أربع ملايين إلى إثنى عشر مليوناً، وبلاد العرب هى مهد الإسلام ومنبعه وفيها مكة التى هى القبلة لملايين المسلمين يتوجهون نحوها كل صلاة، إن الحاجة شديدة الآن إلى مائة مبشر يذهبون إلى بلاد العرب المهملة التى لم تبلغها الدعوة بعد، هناك نحو مائة قبيلة فى بلاد العرب يمكن تبليغهم الدعوة وهم يسكنون بلاداً مساحتها ثلث مساحة الهند وهم يعيشون فى الخيام، اذهب بنفسك إلى بلاد العرب، أرسل غيرك أيضاً، احمل الكتاب إلى بلاد العرب، ادع العرب وبلاد العرب إلى ديانتك

«الجمعية العالمية الصليبية للتنصير فى العالم وبلاد العرب»

١٩ اهيكندر رود — ابرواورود (لندن)

٩ — فى إيران

منذ وقت بعيد عمد التبشير إلى العمل فى المملكة الفارسية (إيران) وكان التعليم التبشيرى هو أبرز هذه المعالم فقد أنشأت الإرساليات مدارسها عام ١٨٨٢ فى مختلف مدن إيران : طهران . ميناء بهلوى كرماشاه ، تبريز ، همدان وقد تم لهم شراء أراضى شاسعة خارج مدينة طهران جرى العمل فيها على إنشاء كلية ضخمة افتتحت عام ١٩٢٨ ودخلها ثمانمائة طالب وقد عمد المبشرون منذ عام ١٨٩٢ إلى إنشاء جمعيات وإرساليات ومستشفيات واستطاعوا عن طريقها توسيع نطاق عملهم فى الطبقات الفقيرة وإثارة المناقشات الدينية .

١٠ — فى العراق

تنافست بعثات التبشير الكاثوليكية والبروتستانتية منذ وقت بعيد ، غير أنه فى الربع الأول من القرن التاسع عشر بدأت الحركة التبشيرية تعمل من جديد ، وكان بطل العمل « جروفر » ، أول مبشر يصل العراق ١٨٢٩ وقد عمد إلى ما عهد إليه « زويمر » فى البحرين من بعد بفتح مدرسة ومكتبة ، ثم توالت البعثات البريطانية وكانت بريطانية تهدف من هذا التركيز التبشيرى فى هذه المرحلة إلى إقامة جبهة مواجهة الوحدة التى قامت بين مصر وسوريا والسودان وشبه الجزيرة العربية فى عهد محمد على . وكان هدفها قطع الصلة بين العراقيين والمصريين وكان العمل التبشيرى فى العراق دوره فى تقويض هذه الوحدة وهدمها . واستغلت هذه البعثات جماعات النساطرة للإيقاع بينهم وبين المسلمين والعرب وإيجاد فتن ومذابح دموية على نفس النسق الذى اتخذه النفوذ الإستعمارى فى لبنان بين الدروز والموارنة عام ١٨٦٠ وبه استطاع أن يدعم وجوده فى المشرق كله ومعنى هذا أن الإنجليز استخدموا التبشير فى هذه الفترة كقاعدة لمقاومة التوسع المصرى فى شبه الجزيرة العربية وفى العمل أيضاً على تمزيقه .

١١ — فى عدن

ما أن استولى الإنجليز عليها حتى اتخذ فيها المبشرون مراكز يرسلون منها نشراتهم التبشيرية إلى قلب بلاد العرب .

١٢ — فى أندونسيا

غزا التبشير البلاد منذ أربعمائة عام تقريباً وأعانتهم حكومة هولندا المسيطرة إذ ذاك على مقادير البلاد وأفسحت لهم المجال لنشر التعليم عن طريق إرسالياتهم ، وإن لم تتوقف أعمال التبشير الأخرى عن طريق المستشفيات والانقضاض على الطلاب والشباب وقد واجه المسلمون أعمال المبشرين بإقامة الجمعيات الوطنية وإنشاء المدارس الأهلية والرد على الشبهات فى مجتمعاتهم وصحفهم بالرغم من نفوذ

الاستعمار العاصف المؤيد للتبشير وقد أشار إلى ذلك الدكتور سنوك هرجرنجه زعيم التبشير الذي أقام سبعة عشر عاما فى الهند الشرقية مستشاراً لحكومة هولندا حين قال فى تقريره : المبشرون لايزالوا يتوقعون إنضمام كل الأديان إليهم . ولا تتحقق أحلامهم فيما يتعلق بالإسلام سيظل دينا نشيطاً قوياً ، والمسلمون لايقصدون أن يغيروا دينهم وقد احتاطوا أعظم احتياط لهذا الأمر الذى أدركه كل المبشرين الذين عملوا فى أرض الإسلام ، فى الهند الشرقية الهولندية ، حيث قضيت سبع عشرة سنة ملتصقاً تمام الالتصاق بالمؤسسات الإسلامية لايستطيع المبشر الدينى أن يربح تابعين لدينه .ولا أعتقد أبداً أن الإسلام يسقط أمام النصرانية ، لأن المسلم محتاط أشد الاحتياط لمقاومة النفوذ الغربى المسيحى ، وهو يرى أن النصرانية شيء مضى وأن تدينه بها هو خطوة إلى الوراء . زد على ذلك أن الإسلام يربح تابعين له من الوثنيين فالذى يصير مسلما لايطالب منه شيء كثير ، إذلا يوجد تقديس ولا طقوس دينية ولا تعليم طويل ، فكل مايطالب منه أن يعترف بالله ، وعندما يصير مسلما يتغير مركزه الاجتماعى ولكنه إذا تنصر فإنه يبقى دون غيره ويظل المرسل الدينى غريباً متنحياً عنه ». ولكن هذه التصريحات الجزئية من المبشر هرجرنجه ، إنما تعنى التماس وسائل أخرى لتبشير المسلمين وتغيير مفاهيمهم وقيمتهم الأساسية ، وقد ركزت هذه الإرساليات على التعليم وحققت فى مجاله نتائج خطيرة كان أبرزها ظهور زعامات دعت إلى الفصل بين الإسلام والمجتمع وآمنت بمخطط الاستعمار الذى يقول بأن الإسلام دين عبادة ولاصلة له بالمجتمع ، وما تزال مخططات التبشير تركز على أندونيسيا وتعنى فى عملها بكل أسلوب واليوم تكشف مجلة تايم الأمريكية عن أن أندونيسيا هى مسرح لأكبر حركة تبشيرية فى العصر الحديث ففى غضون الأشهر العشرين الأخير التى أعقبت حركة أندونيسيا الأخيرة نشطت أعمال المبشرين حتى بلغ الذين تخلوا عن دينهم الإسلام ٢٥٠ ألف نسمة ، وقد كشفت التقارير المختلفة أن هناك تحالفاً لمحاربة الإسلام فى أندونيسيا بين الإلحاد والإستعمار ، حيث يجرى العمل لهدم الإسلام فى نفوس المسلمين وهو غرض مشترك فى تحالف القوى المعادية للاسلام وهم يرون أن تردى المسلمين إلى الإلحاد أو المادية هو كسب للعمل التبشيرى أيضاً ومن هنا فهم يساندون الدعوات الإلحادية المادية فى هذا الغرض ويقول أحد الباحثين الأندونيسيين : « إننا لم نكد نشعر بفرحة انتصارنا على المادية الملحدة والتخلص من كابوسها حتى نشطت الطوائف والإرساليات التبشيرية على اختلاف مذاهبها لمحاربة الاسلام ونشر الفساد بين المسلمين ورافق ذلك نشاط مريب من الدول التى تقلص نفوذها وبرز تحالف بين القوتين حيث وجهت الإرساليات نداء إلى الدول بطلب المساعدات فوصلت الإعانات السخية بالمراكب البحرية وطائرات الهليكوبتر لتساعدها على تأمين راحة المبشرين فى تجوالهم ونشاطهم بين مختلف المناطق كما قدمت المطابع والنشرات والكتب وغيرها ، وقررت ألمانيا الغربية التبرع ببناء أربعين مستشفى بأندونيسيا تدار من قبل المؤسسات التبشيرية ، وقد تمكنوا بواسطة هذه المساعدات من تحقيق نتائج خطيرة لم يسبق لها مثيل . وقد استطاعت الإرساليات أن تستميل أكثر من ربع مليون مسلم كاد الجوع والعرى والمرض أن يفتك بهم . وقد تمكنت المادية الملحدة مع التبشير فى تضييق الخناق على كثير من المناطق الاسلامية لتزيد فى إفقارهم وإرغامهم على الالتجاء إليهم والاستعانة بهم واتباعهم ،

ذلك إلى جانب نشر وسائل الفساد والانحلال الخلقي في الشباب كمرحلة لاستدراجهم إلى شباكهم ومصائدهم ودعا الكاتب المسلمين إلى العمل على توحيد الهيئات الاسلامية والجمعيات الإسلامية في العالم والعمل على قيام جامعة إسلامية تعيد للأمة الاسلاميه كيانها وقوتها .

الفصل الرابع

مؤتمرات التبشير

عقدت حركة التبشير في خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية عدداً من المؤتمرات الكبرى العلنية التي أشارت اليها الصحف ونشرت التقارير التي تضمنت مادار فيها من دراسات وأبحاث ومن أهم هذه المؤتمرات :

(١) مؤتمر ١٩٠٦ في القاهرة عقد في منزل أحمد عرابي في باب اللوق . (٢) مؤتمر ١٩١٠ في ادنبرج (انكلترا) . (٣) مؤتمر ١٩١١ في بيروت . (٤) مؤتمر ١٩١٣ في لكنو (الهند) (٥) مؤتمرات ١٩٢٤ في القدس ، وبرمانا (لبنان) وقسطنطينية في الجزائر وحلوان في مصر .

(٦) مؤتمر ١٩٢٨ في القدس . (٧) مؤتمر ١٩٣١ في تونس (المؤتمر الافخارستي) .

(٨) مؤتمر ١٩٣٥ في القدس .

وفي مؤتمر القاهرة ١٩٠٦ ألقى عميد المبشرين زويمر رئيس إرسالية التبشير العربية في البحرين تقريراً ضافياً يمكن الرجوع إليه في كتاب (الغارة على العالم الاسلامي) الذي أصدره السيد محب الدين الخطيب عام ١٨٣١ ونشر في المؤيد ١٩١١ وهذا هو المؤتمر الأول الذي عقد بناء على اقتراح مقدم من زويمر وقد افتتح المؤتمر في أبريل ١٩٠٦ في القاهرة في منزل أحمد عرابي في باب اللوق وحضره مندوبون من إرساليات التبشير في الهند وسوريا والبلاد العثمانية وفارس ، وقد عقدت المؤتمرات التبشيرية في مناطق حساسة من العالم الاسلامي كالقاهرة والقدس (التي عقدت بها ثلاث مؤتمرات) وكذلك في لكنو معقل الثقافة الاسلامية في الهند ، كما كان مؤتمر تونس من اخطر هذه المؤتمرات وقد تناولت هذه المؤتمرات بالدرس حالة المسلمين وإحصائيات عن تعدادهم وانتشارهم وعن حالة العالم الاسلامي السياسية وخاصة في العالم العربي وافريقية وتضمنت توصيات وتوجيهات وقد رأس هذه المؤتمرات عديد من كبار الساسة وحضرها كثير من المبشرين امثال موريسون وجوردين وموط وعدد من المستشرقين والكتاب الغربيين ذوى الأسماء اللامعة وقد بلغ عدد الهيئات التي إشتركت في كل مؤتمر اكثر من مائة من اربعين دولة . وقد وقعت في هذه المؤتمرات حوادث عامة تدل على مدى خطورتها. ففي تونس اقتحم الآباء البيض المدينة في استعراض اثار مشاعر المسلمين . وقد

دفعت خزينة تونس التابعة للنفوذ الاستعمارى الفرنسى مليون فرنك مساهمة منها فى تكاليف المؤتمر كما وضعت الأسرة فى المساجد ليرقد عليها الرهبان الذين جاءوا من أطراف الأرض وقد واجه المسلمون والعرب هذه المؤتمرات بالاعتراض والاحتجاج وحفلت الصحف ببرقيات الرفض وخاصة فى مؤتمر القدس سنة ١٩٢٨ . وقد كان للمؤتمرات التى عقدت بعد الحرب العالمية أهمية خاصة فقد استعرضت الوسائل التى تحقق غاياتها فى ظل حكومات الانتداب بعد سقوط الدولة العثمانية ، أما مؤتمر سنة ١٩٢٩ فقد كانت له أهمية خاصة إذ أنه جاء بعد توقيع معاهدة لاتران بين الدولة الايطالية والفاتيكان (٧٥٠ مليون ليرة) وما أعلن عن دعم هيئات التبشير بقدر كبير من المبالغ التى حصل عليها الفاتيكان وصدر فى نفس الوقت (الظهير البربرى) فى المغرب وهو المرسوم الخاص بإخراج القبائل البربرية من حظيرة الشريعة الإسلامية وردها إلى ما سمى « العرف البربرى » وقد كانت هذه المؤتمرات تحاول أن تكشف الطريق للهيئات التبشيرية مرحلة بعد مرحلة ، حتى أنهم أطلقوا على حملاتهم « فتح العالم الإسلامى » فى وجه الثقافة الغربية المسيحية بحسبانه أصبح عالما ممزقاً مغلوباً على أمره تسيطر عليه حكومات الانتداب وحكومات لها ولاية للنفوذ الاستعمارى وفى ظل الاحتلال الفرنسى والبريطانى والهولندى لأغلب أجزاء العالم الاسلامى . وقد أولت هذه المؤتمرات دراسات واسعة لعملها فى المجالات الثلاث :

(١) المدرسة (٢) المستشفى (٣) الصحيفة والكتاب .

وكانت دائماً تغير أساليبها بما يحقق الغاية وفق ما تسفر عنه المرحلة السابقة وكانت هذه المؤتمرات تذكر دائما بما فى أيديها من قوى : (أولا) معاهدة فرساى التى نصت فى المادة ٤٣٨ على جواز التبشير فى سورية . (ثانيا) الامتيازات الأجنبية فى الدولة العثمانية ومصر . (ثالثاً) الوضع الخاص الذى فرضه النفوذ الأجنبى على لبنان منذ عام ١٨٦٠ وقد وصلت هذه المؤتمرات إلى خطط محددة أهمها : (أولا) أن التعليم هو أنجح الخطط فى تحقيق الأهداف وذلك بوضع الشباب المسلم العربى تحت تأثير التعليم (الغربى المسيحى) وأن يشمل هذا التأثير أولئك الذين سيصبحون يوما قادة فى دولهم ، كما أولت هذه المؤتمرات اهتمامها بالتوصيات إليها من وزارات المستعمرات فى المغرب ، كما تضمنت التوصيات إلى الدول المستعمرة ومن أهم هذه الرغبات ما طالبته إحدى المؤتمرات من إغلاق البلاد الافريقية أمام التاجر المسلم والعالم المسلم المتنقل فى البلاد أو أداء الصلاة الاسلامية أمام الوثنيين . كما اهتمت بدراسة المطبوعات اللازمة للتبشير ، وترجمات التوراة وتوزيعها بين المسلمين وإنشاء المعاهد اللازمة لتخريج المبشرين والإضافات اللازمة للمناهج التى تدرس فى المعاهد والجامعات التابعة للإرساليات التبشيرية ووضع الخطط للقضاء على كل مقاومة أو مناعة فى مواجهة حركتهم كما عمدت هذه المؤتمرات إلى دعم المخططات الأخرى الفرعية وفى مقدمتها :

(١) دعوات الفرعونية فى مصر والبربرية فى المغرب والبحر المتوسط فى سوريا والفينيقية فى لبنان (٢) تنشيط دعوات القاديانية والبهائية . (٣) الانتفاع بنشاط المحافل الماسونية .

٤ — الإنتفاع بالصحف والأندية والجمعيات وفى هذه المؤتمرات دائماً دعوة إلى الصبر والتحمل والمثابرة على العمل مهما بدت النتائج غير مشجعة وقد أجمعت معظم التقارير التى درست فى هذه المؤتمرات على صعوبة تحويل المسلم من معتقدة إلى دين آخر، وأن معظم ما حققته بعثات التبشير إنما حدث اعتماداً على ضعف بعض المسلمين وليس على قوة المبشرين وقد أولت هذه المؤتمرات اهتمامها بالخطوات التى تحققت بالدعوة إلى العامية التى قام بها ولكوكس، وبالآراء التى عرضها طه حسين فى كتابه الشعر الجاهلى والمأخوذة من آراء المبشر جورج سال وبما تحقق من استعلاء النظرة الإقليمية على النظرة الإسلامية فأصبح المسلم فى مصر مصرياً قبل أن يكون مسلماً وفى تركيا تركياً قبل أن يكون مسلماً، قد أشار (زويمر) فى كتابه (الإسلام. ماضيه. حاضره. مستقبله) إلى أهمية الإنتفاع بالدعوة إلى القومية والإقليمية. كما اهتمت المؤتمرات بنهضة الإسلام عن طريق إصلاح الطرق الصوفية وتجدد مناهج الإسلام وعن اتساع انتشار الإسلام فى أفريقيا ودعا إلى اتخاذ الخطوات فى سبيل افساد هذه الخطط الاصلاحية. وركزت هذه المؤتمرات على أهمية العمل للحيلولة دون حدوث «وحدة» بين المسلمين أو بين العرب واتخاذ الوسائل حتى يبقى المسلمون متفرقين وحتى لا يكون لهم وزن ولا تأثير وعندها أن تجمع العرب يساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية ولذلك فإن على المؤسسات التبشيرية أن تكسر شوكة هذه الحركة. كما دعت هذه المؤتمرات فى توصياتها إلى الاهتمام بالأزهر وقد قرر المبشرون فى أحد هذه المؤتمرات أن الأزهر يعتبر أهم عائق فى وجه التبشير وبالتالى فى وجه الاستعمار فى مصر والعالم الاسلامى ولذلك فلا بد من إيجاد مؤسسة علمية ثابتة يبثون منها أفكارهم ويطبعون جيلا من المسلمين بطابعهم حتى يقف هذا الجيل أمام الثقافة الاسلامية ويشكك فيها وقد تحقق ذلك بإنشاء بعض الجامعات التابعة للإرساليات التبشيرية وقد شملت تقارير مؤتمرات التبشير خطوطا عامة أهمها (١) التصور بأن اقتباس المسلمين للأوضاع الأوربية الجديدة سيحملهم إلى الانطباع بالطابع الغربى المسيحى، من حيث أن الثقافة الغربية لها طابعها المسيحى، وأن توسع هذا الجانب سيضيق الجانب الاسلامى، وفى هذا يقول زويمر «أن المسلمون يقتبسون من حيث لا يشعرون شطراً من المدينة النصرانية ويدخلونه فى ارتقائهم الاجتماعى» ويترتب على هذا أن التحول سيدخل الاسلام فى شكل جديد من الحياة والعقيدة، ويرى: أن طلب العلوم يكون الآن «عقلية جديدة» فى المسلمين، من مظاهرها قيام الثورة ضد كل ماهو مأثور قديم، ويرتبون على ذلك أن يزداد المسلمون قابلية للإلحاد، ويقول: إن هدم الاسلام فى نفوس المسلمين له أهمية كبرى فى شىء واحد هو قبول الفكر الغربى كصديق دولى (٢) الاهتمام بعوامل نمو الاسلام ومحاولة إيقافها: ويرد هذا بالنص: «إن الوقوف على أسباب نمو الاسلام يمهد للحصول على وسائل توقيف تياره» كما ركزت تقارير التبشير على أن إلغاء الخلافة كان له أثر عميق ليس فى تركيا بل فى جميع أنحاء العالم الاسلامى قوامه «انحلال الرابطة الاجتماعية فى الاسلام» (٣) ركز المبشرون على ما أسموه «الانقلاب النسائى» ومن ثماره العدول عن الزواج الباكر والتوسع فى حرية المرأة بحيث صار فى وسعها حضور الحفلات (٤) الاهتمام بالدعوات الاقليمية وقال عنها أنها أخذت تدحر الوحدة الاسلامية (٥) التركيز على كل ما يؤدى

إلى تعدد وجهات النظر ومما يحول دون قيام وحدة فكرية بين المسلمين وتشير التقارير إلى الخلاف بين السنة والشيعة والأتراك والهند والفرس والعرب وإذا كانت تقارير المبشرين قد هللت لهذه المحاولات فإننا نستطيع أن نقول الآن أنها جميعها باءت بالفشل، وأن المسلمين أصبحوا على وعي بحقيقة الإسلام وفهمهم الصحيح له اليوم من أنه دين ونظام حياة، وأنه أصلح الأنظمة لقيام مجتمعاتهم بعد أن فشلت الأنظمة الأخرى فى بلادها ولم تحقق لأهلها ما كانوا يتطلعون إليه، وقد أصبح فى استطاعة المسلمين اليوم التفرقة بين العلم والثقافة. وبين الحضارة والثقافة وقد جرت أقلام كتابهم فى السنوات الأخيرة بتصوير الفوارق والعلائق بما يدحض ما ذهب اليه زويمر وطه حسين وأحمد أغايف وما كان يستهدفه النفوذ الاستعمارى من أن دخول الأفكار الغربية يؤدى إلى القضاء على مفهوم الإسلام ومقوماته الأساسية، فالمسلم الآن يأخذ تجارب أوربا وعلومها ولكنه لا ينفصل عن الإسلام، وأصبح المسلمون الآن يأخذون تجارب أوربا وعلومها ولكنهم لا ينفصلون عن الإسلام، وأصبح المسلمون الآن يجارون الحضارة مع الاحتفاظ بمبادىء القرآن وتعاليمه وأن القصور فى هذا المجال لا يرجع إلى أنهم لا يريدونه بل لأن قوى النفوذ الأجنبى والتغريب ماتزال تحول بينهم وبين ذلك. والتشريع الإسلامى قد شهدت له محافل القانون العالمى جميعاً واعترفت باستقلاله واكتماله وإيجابيته وصلاحيته للإنسانية كلها. ووحدة المسلمين اليوم تسير فى طريق مضىء، ولعل أكبر ما حققته أنها كشفت خدعة المستعمر ومؤمراته فى تأريث نار الخلاف بين المسلمين وإثارة المذاهب والآراء القديمة لتمزيق وحدتهم، لقد حدث تقارب كبير بين السنة والشيعة وبين العرب والترك والفرس والهنود فى عشرات من المؤتمرات الإسلامية الكبرى وستحقق خطوات أخرى أكثر صلابة مما يقضى على آمال النفوذ الإستعمارى فى استدامة تسلطه. وتعود اليوم مناهج الدراسة فى مختلف بلاد العالم الإسلامى إلى مادة الدين بعد أن انتزعها منها زعماء التبشير والإستعمار وهللوا بأنهم كونوا أجيالا مجردة من إيمانها، وسوف لا يقف أمرها عند هذا الحد بل أنها سوف تجد نفسها مضطرة إزاء هذا الضعف الإستعمارى الهائل إلى التماس مفهوم التربية الإسلامية فى بناء شبابها وفتياتها ولم تعد الدعوات الإقليمية اليوم قادرة على تحقيق أهداف التبشير والاستعمار منها فقد اتضح أن الفراعنة عرب والبربر عرب والفينيقيون عرب هذا من ناحية، وبدأت «وحدة الفكر» تكون «الأساس» لأى وحدة سياسية واقتصادية ووحدة الفكر عند العرب مستمدة من ثقافتهم ذات الجذور الإسلامية بحسبان أن الفكر الاسلامى هو القاسم المشترك الأعظم للثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية، وأن الثقافات الدينية والفلسفات المختلفة قد انصهرت فيه فهو أساساً فكر الشرق كله، أقول هذا واستشهد فى هذا بآراء غير المسلمين قبل أن استشهد بآراء المسلمين أنفسهم.

الفصل الخامس

أخطر تحول فى تاريخ التبشير

قال الدكتور زويمر سنة ١٩١٠ فى مؤتمر التبشير العالمى :

لقد جربت الدعوة إلى النصرانية فى أنحاء الكرة من الوطن الإسلامى وأن تجاربى تخولنى أن أعلن بينكم على رؤوس الاشهاد أن الطريقة التى سرنا عليها إلى الآن لا توصلنا إلى الغاية التى ننشدها، فقد صرفنا من الوقت شيئاً كثيراً وأنفقنا من الذهب قناطير مقنطرة وألفنا ما استطعنا أن نؤلف وخطبنا ما شاء الله أن نخطب ومع ذلك فإننا لم ننقل من الإسلام إلى النصرانية إلا عاشقاً بنى دينه الجديد على أساس الهوى أو نصاباً سافلا لم يكن داخلا فى دينه من قبل حتى نعده قد خرج عنه بعد ذلك، ولا محل لدينه فى قلبه حتى نقول أنه دخل فيه ومع ذلك فالذين تنصروا لو بيعوا بالمزاد لا يساوون ثمن أحذيتهم فالذى نحاوله من نقل المسلمين إلى النصرانية هو اللعب أشبه منه بالجد فلتكن عندنا الشجاعة الكافية لإعلان أن هذه المحاولة قد فشلت وأفلست . وعندئذ يجب علينا قبل أن نبنى النصرانية فى قلوب المسلمين أن نهدم الإسلام من نفوسهم حتى إذا أصبحوا غير مسلمين سهل علينا أو على من يأتى بعدنا أن يبنوا النصرانية فى نفوسهم أو فى نفوس من يتربون على أيديهم . إن عملية الهدم أسهل من عملية البناء فى كل شىء إلا فى موضوعنا هذا ، لأن هدم الإسلام فى نفس المسلم معناه هدم الدين على العموم وهى خطة مخالفة لما ندعو إليه لأنها خطة إلحاد وإنكار للأديان جميعا ولكن لا سبيل إلى تخليص المسلمين من الإسلام غير هذا السبيل وقال الدكتور زويمر فى مؤتمر سنة ١٩٢٧ : أن التبشير قد وصل إلى أسمى غاية فى مهاجمة الإسلام وأدى المهمة على أكملها وانتهى إلى نتائج لم يكن أحد يحلم بها منذ الحروب الصليبية ليس عمل التبشير إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين من دينهم ، ليكونوا مسيحيين ، لقد برهن التاريخ من أبعد أزمنته على أن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقا . والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة المسيحيين على استحالة ذلك ، ولكن الغاية التى نرمى إليها هى إخراج المسلمين من الإسلام فقط ليكون إما ملحداً أو مضطربا فى دينه وعندها لا يكون مسلماً أى لا تكون له عقيدة يدين بها ويسترشد ضيره بهديها ، وعندها لايكون للمسلم من الإسلام إلا الاسم ، عندها لايكون مسيحياً ولا يهودياً ، بل ملحداً لا يؤمن إلا بالمادة أو مضطربا يحتقر الإسلام والمسلمين ، لقد قضينا على برامج التعليم فى الأقطار الاسلامية فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الاسلام ، ومن ثم أخرجنا الشباب والفتاة المسلمين من الوسائط التى تخلق فيهما العقيدة والوطنية والاخلاص والرجولة والدفاع عن الحق الواقع أن القضاء على الاسلام فى مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وقد جنينا منه أعظم الثمرات المرجوة .

أكبر خطوة للتبشير فى العصر الحديث (معاهدة لتران)

غير أن أكبر خطوة حقيقية فى سبيل اتساع نطاق التبشير بعد الحرب العالمية الأولى تفسر ذلك الدعم المادى الخطير الذى واجهته إرساليات التبشير المختلفة فى العالم الإسلامى وارتفاع المد التبشيرى وبلوغه الذروة إنما ترجع إلى معاهدة « لتران » الذى عقدتها الحكومة الإيطالية مع الفاتيكان . والمعروف أن خطوات التبشير فى العالم الإسلامى قد تلاحقت منذ مطالع القرن الثامن عشر غير أن خطواتها الضخمة قد تمت فى فترة ما بين الحربين ، هذه الفترة التى يطلق عليها فترة « انضاج » الثمار التى سيكون لها الصدارة فى مجالات القيادات السياسية والثقافية فى العالم الإسلامى كله ، ولذلك فقد حرص الاستعمار أن يبقى فى هذه المرحلة حارساً لهذه المؤسسات ومدعما لها حتى تتم مهمتها وتركز أقدامها بحيث يصبح من المستحيل بعد ذلك إجلاءها عن قواعدها . أما معاهدة « لتران » الذى عقدت بين الفاتيكان والدولة الإيطالية فقد حققت أن تستولى الفاتيكان بمقتضاها من الحكومة الإيطالية على ٧٥٠ مليون ليرة إيطالية كتعويض عن حقوقها المالية التى توقفت منذ عام ١٨٧١ عندما وقع الخلاف بينهما وكذلك على ربح قدره خمسة فى المائة لقرض إسمى قدره ثلاثة مليارات ليرة تصدره الحكومة الإيطالية . وقد صرح الكردينال جسبارى كبير البطارقة أن الفاتيكان تعتزم أن تستخدم القسم الأكبر من هذا المال فى تقوية نفوذ الكنيسة المعنوى وبث الدعوة الكاثوليكية وتقوية البعثات التبشيرية فى المشرق وأفريقيا وقد أولت الصحف اهتماما كبيراً بعقد هذه المعاهدة فى ١٠ فبراير ١٩٢٩ فقالت أنها تحل مشكلة دولية لبثت مدى مائتى قرن تشغل رجال الدين ورجال السياسة » ، فضلا عن كونها تنظم علائق الكنيسة والدولة على قواعد جديدة تعيد إلى الكنيسة الرومانية دولتها السياسية القديمة وتعيد إليها شيئا من سلطانها الزمنية » وقالت مجلة الرابطة الشرقية : إن تقوية البعثات التبشيرية فى المشرق وأفريقيا فى مقدمة المسائل التى تعمل الفاتيكان على تنفيذها ، إذن فلن تمضى شهور قلائل حتى نرى غزوة جديدة للكنيسة الرومانية تنفذ بالدعوة النصرانية إلى الأمم الآسيوية والأفريقية ، وحتى نرى طائفة جديدة من الجمعيات التبشيرية تقوم فى هذه الأمم تحت ستارها المعهود وهو حجاب الأعمال الخيرية من حيث التعليم والثقافة وإنشاء المستشفيات ، ونرى الحكومة الفرنسية تبذل جهوداً خطراً لتقوية البعثات التبشيرية فمنذ أيام صادق مجلس النواب الفرنسى على التعديل الجديد الذى أدخل فى قانون القروض المالية بالاعتراف بالبعثات الدينية خارج فرنسا وتنظيم ملكيتها ومعاونتها المالية لتستطيع القيام بمهمتها ومعروف أن فرنسا كانت قد أنكرت صفة البعثات الدينية منذ ١٩٠١ واستبدلتها ببعثات مدنية ، ولكنها تعود اليوم فتعترف بطائفة من الجمعيات الدينية يعينها القانون الجديد وهى تسعة طوائف كبيرة منها اثنتان للراهبات وسبعة للرهبان وهى تقوم بجهودها التبشيرية فى الأغلب فى أفريقيا وبلاد الشرق وخصوصا مراكش ومصر وفلسطين وسوريا والصين واليابان ومنها طائفة الفرنسيسكان الشهيرة وطائفة القلب المقدس وغيرها وهى تعمل لغايتها فى مصر جهاراً بين جدران مدارسها ومعاهدها المختلفة المنبثة فى أقاصى البلاد . ومن الغريب أن الحكومة الفرنسية تعترف بهذه الجمعيات فيما يتعلق بعملها خارج فرنسا فقط ولا تسمح لها بمزاولة دعوتها فى فرنسا ذاتها لأنها لا تسلم بنظام التعليم الدينية

وهذا ما يصرح به التقرير الذى وضعته اللجنة المالية لمجلس النواب ، فقد ورد فيه « أن الجهود التبشيرية التى تبذلها فرنسا فى الشرق وأفريقيا قد اضمحلت كثيراً وأن البعثات أخفقت فى مهمتها لأنها لا تضم سوى عشرة آلاف طالب وطالبة ، بينما تضم مدارس البعثات الدينية فى الشرق ٣٠٠ الف وفى أفريقيا وحدها ٢٠٠ ألف وقال المسيو هريو مقرر اللجنة فى خطابه أمام مجلس النواب .. « إن الجمعيات الدينية قد أدت إلى الحضارة والتعليم ونشر اللغة الفرنسية والروح الفرنسى من الخدمات مالا ينكره كل من يعرف أحوال البلاد التى تعمل فيها » والواقع أننا — وهذه الجماعات الدينية تعمل بيننا وتحت سمعنا وأبصارنا — نعرف ماهى الجهود والخدمات التى تصاغ دائماً فى أثواب الألفاظ الخلابة كالمدنية والثقافة والتربية وأمثالها ، أجل نعرف أن هذه الألفاظ يقصد بها جميعاً كلمة واحدة هى النصرانية ، فهى فى نظر الداعين إلى بثها فى الشرق علم كل رقى ومدنية . هذا ولم ننس بعد أمر « المؤتمر التبشيرى» الذى عقد منذ أشهر قليلة فى بيت المقدس لتنظيم وسائل الدعوة إلى النصرانية والجهود التى تنفق لنشرها فى آسيا وأوربا لتبعث بذلك روحا جديدة فى الجمعيات والبعثات الدينية التى تعمل فى مختلف الأقطار لهذه الغاية حيث تنظم الأمم الغربية هذه الحركات والجهود جهاراً بمالها من سلطان سياسى فى الشرق وفى الأمم الإسلامية وتشهدها الأمم الإسلامية وتشهد نشاطها وآثارها جامدة، فإذا ما ارتفعت صرخة فى مجتمع إسلامى لمقاومتها وفضح أعمالها انكرت فى الحال ووصمت بالجهل والتعصب ، إن على الأمم الشرقية وحدها واجب التأهب لمقاومة هذه الغزوة الجديدة محافظة على تراثها الدينى وإحباط ما يريده التبشير من مشاريع لهدم عقائدها وتقاليدها الاسلامية » اهـ . وقد كشفت هذه التعليقات عن أهمية العمل الذى بدأ بحيث لم تمض أكثر من ثلاث سنوات حتى رأينا فى القاهرة أخطر عمل تبشيرى هز المسلمين فى العالم الاسلامى كله وقد بلغ من أهمية هذه المعاهدة أن وصفها الأمير شكيب أرسلان بأنها من أعظم الحوادث التاريخية التى سجلها القلم فى هذا العصر . وقد استتبع ذلك أن أعلن « الفاتيكان إنشاء معهد خاص لدراسة الفقه الاسلامى والعقيدة الاسلامية وذلك حتى يتمكن المبشرون من مهاجمة الاسلام فى بلاده كما نشرت الصحف أن جمعية المبشرين العامة عقدت اجتماعها السنوى فى مدينة بلفاست وقالت المس سميث : « إن معظم آمالنا ستنحصر فى مصر الحديثة » وقال وزير خارجية فرنسا وهو يقدم ميزانية الجمعيات الدينية فى البرلمان « إنه يعلق على صرف هذه الاعتمادات آمالا كبرى وأن العمل الذى يقوم به المبشرون ليس دينياً محضــــا وإنما هى وسائل نشيطة لنشر الدعاية الفرنسية فى أنحاء العالم »

الباب الثاني

أهـــداف التبشير ومخططاته

الفصل الأول

أهداف التبشير ومخططاته

السؤال الأول الذي يواجهنا ونحن ندرس مخطط التبشير وغاياته هو : ما هو هدف التبشير أساساً؟ الحق : أن خطة الاستعمار الأساسية في غزوه للعالم الإسلامي والاستيلاء عليه إنما تستهدف أساساً تثبيت هذا الوجود وبقائه في الصورة التي تضمن للنفوذ الأجنبي موارده وأسواقه وخاماته . ومن ثم فإن صورة هذا الوجود الاستعماري يمكن أن تتطور وتتشكل على النحو الذي يحقق بقاءها واستمرارها في جو من الطمأنينة والتقبل . ولذلك فإن الصورة الأولى صور الاستعمار العسكري والسياسي المسيطر عن طريق الاحتلال والجيوش والأساطيل ونفوذ الممثلين والمندوبين الساميين إنما كانت تمثل في نظر الاستعمار مرحلة إعداد وتجهيز الأقطار المحتلة حتى تصهر في البوتقة التي تجعلها خاضعة إلى أبعد مدى .

وكانت هذه المرحلة في الأغلب هي مرحلة الاحتلال الذي انتهى في أوائل الحرب العالمية الثانية وما بعدها عن عشرات من الأقطار والبلاد . هذا الاحتلال لم ينته بصورته الأولى في الحق إلا بعد أن أتم رسالته كاملة ، وربما يظن البعض أن الاحتلال حين انتهى قد انتهت آثاره وانطوت صفحته ، وإن مرحلة الاستقلال قد فتحت صفحة جديدة مختلفة عن مرحلة الاحتلال ، وفي هذا قصور في الرؤيا . ذلك أن مرحلة الاحتلال كانت قد رسمت لها خطة تتم في مرحلة لا تقل عن عشرين عاماً وربما زادت عن ذلك ففي مصر استمرت مرحلة الحماية أكثر من أربعين عاماً . واستمرت مرحلة الاحتلال بعدها ثلاثون عاماً وفي لبنان استمرت مرحلة النفوذ الاستعماري من عام ١٨٦٠ إلى عام ١٩١٨ أي أن مرحلة التجهيز للاستعمار بلغت ٥٨ عاماً وهي المرحلة التي تقدمت فيها قوى التبشير وسيطرت وتوالت أعمالها التمهيدية حتى سيطر الاحتلال الفرنسي عام ١٩١٨ واستمر حتى ١٩٤٨ وفي الجزائر استمر الاحتلال الفرنسي ١٨٣٠ إلى ١٩٥٤ ، والمعروف أن النفوذ الأجنبي قد انطلق للعمل في مراحله السابقة للاحتلال عن طريق قوتين استطلاعيين كبيرتين هما قوة التجار والمرابين وشركات الاحتكار وقوة التبشير المتمثلة في الإرساليات والمدارس والجامعات والمعاهد والمستشفيات والكتب والصحف والنشرات ، وكانت

قوة التبشير تعرف طريقها وعملها أساساً ، فإذا كانت قوة التجار والمرابين وشركات الاحتكار تعمل للاستيلاء على الاقتصاد والثروة القومية فإن قوة التبشير والإرساليات كانت تعمل للسيطرة على ما هو أخطر من ذلك : السيطرة على العقل البشرى وإعداده لتقبل النفوذ الاستعمارى والترحيب به والتعاون معه بل الدعوة عليه وتمجيده والإعجاب بأهله وتاريخهم ودورهم فى تحضير الشعوب وتمدين الأمم وفى نفس الوقت الانتقاص من شأن أممهم المتأخرة وتاريخها ولغتها ودينها وثقافتها وتراثها . تلك خطة التبشير الطليعية الكبرى أمام النفوذ الاستعمارى ، والعامل الكبير فى سبيل تحويل الاستعمار العسكرى السياسى القابض على الأمور بسلطة الأجانب من خبراء وقناصل ومستشارين ومستشرقين ومبشرين إلى نفوذ مستقبل ، وذلك بتسليمه إلى أيدى الوطنيين أنفسهم ليداغموا عن بقائه بمفاهيمه ويربطوا وجودهم به ويكونوا أحرص عليه من الاستعمار نفسه : تلك هى خطة التحول الخطيرة التى يسعى إليها الاستعمار عن طريق التبشير والتى نفذها بدقة فى خلال مرحلتى التجهيز للاحتلال ومرحلة الاحتلال نفسه ويمكن القول دون تحفظ أن النفوذ الاستعمارى العسكرى والسياسى لم ينسحب من أى وحدة من وحدات العالم الإسلامى إلا بعد تأكد أنه قد ترك ركائزه وأعد هذه المدرسة المؤمنة به ، الدائرة فى فلكه ، المتقبلة له تقبلا نفسياً وعقلياً ، هذه المرحلة هى مرحلة تقبل الاستعمار والتحرك فى فلكه ، والعمل من خلال دائرته الصماء ، دون القدرة على الخروج منها إلى دائرة اليقظة الإسلامية المرنة لقد قامت فى مختلف هذه الوحدات الإسلامية حركات يقظة إسلامية وطنية ، قوامها القيم الأساسية للفكر الإسلامى متصلة بالحلقات المتواترة من المصلحين والمجددين ودعاة التحرر والمقاومة ، ولكن الاستعمار استطاع أن يوجد عن طريق التبشير دائرة أخرى تستمد وجودها منه ، وتستعلى بنفوذه على دائرة اليقظة الإسلامية ، وهى فى الأغلب من ثمار الإرساليات الأجنبية ومن الذين كونتهم هذه الإرساليات عقائدياً وفكرياً على مفاهيم الإيمان بالاستعمار وتقبله والإعجاب به والتعاون معه ، وقد أتاح الاستعمار لهذه الدائرة الصماء القوة والسيطرة والتبريز وأنهى إليها أمور السلطة والنفوذ ، وبذلك حجب بها الدائرة الأخرى الأكثر أصالة والأصدق إيماناً بفكرها ووطنها . لقد كان قادة اليقظة أساساً هم قواد الحركات المختلفة التى اندلعت فى العالم الاسلامى لمقاومة النفوذ الاستعمارى الزاحف، وكان هؤلاء يجمعون بين الاسلام والوطنية ، ويتخذون من القيم الاسلامية مثلهم الأعلى فى الجهاد والمقاومة والعمل، ولكن النفوذ الاستعمارى الذى يعرف أن خططهم ستقضى على وجوده وتنهى بقائه وتدمر كيانه ، قد عرف كيف يحجبهم ، فاذا كانت أداته فى ذلك ، كانت أداته الارساليات التبشيرية بنفوذها فى ثلاث مجالات : التربية والتعليم والثقافة ، وقد تمكنت هذه المؤسسات فى خلال فترة حضانة الاستعمار للأوطان أن تشكل هذا الجيل القادر على حمل أمانة المستعمر باسم الحضارة والتقدم والمدنية والذى كان يرى دائماً حركة اليقظة الأصيلة بالجمود والتعصب والتخلف فى حملة ضارية لا تتوقف قوامها إثارة الشبهات الاتهامات من حول الاسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث . وقد أتيح لبعض الأقطار التى مرت بهذه المرحلة أن تثور عليها وأن تحطم هذا النفوذ الأجنبى المسيطر وأن تتحرك بعيداً عن هذا الخط المرسوم ، بل أن تقاوم هذا الخطط وتصفى نفوذ هذه المؤسسات وتفرض عليها المناهج المقررة فى بلادها ، وفى مقدمة هذه الأقطار مصر . وهكذا نرى مدى خطورة الدور الذى يقوم به التبشير :

الذى اختفى فى العالم العربى فى هـذه المرحلة خلف واجهات المعاهد والجامعات ودور الصحف ومراكز الثقافة ، وإن ظل فى أجزاء كبيرة من العالم الإسلامى جهيراً صريحاً يعمل فى جرأة وعلانية . والسؤال هو : لمـاذا اختفى التبشير فى العالم العربى وفى بعض الدول الإسلامية ، والاجابة هى أنه قد أدى دوره فى إعداد ا ثورة التى تسلمت زمام القيادات الفكرية أو السياسية ، إذن فالدور الصريح الجهير قد انتهى . أما الدور الحالى فهو أنجح وأقدر على النفاد على النحو الذى يتم به اليوم فى الخفاء ومن خلال النظريات المذاعة والدعاوى الجريئة والشبهات المثارة التى لا تتوقف عن البث فى إحكام دقيق ، ولسنا نحن وحدنا الآن الذين تنبهنا إلى هدف التبشير ولكن كثير من المفكرين الواعين قد لفتوا أنظار أمتهم منذ وقت طويل إلى ذلك ولعل أخطر ما قرأت فى هذا المجال ما ذكره محمد على علوبه فى الثلاثينات حين قال : إن الأمم المستعمرة قد تبينت بعد التفكير الطويل والتجارب العديدة أن أقوى سلاح لبث الاستعمار لم يعد الحديد والنار كما كان من قبل ، وإنما هو اليوم هذا التبشير الخفى تحت أستار المعاهد والجمعيات الخيرية والأدبية والعلمية لهدم العقيدة قبل كل شىء ، حتى يصلوا بهدمها إلى إطفاء تلك الشعلة شعلة العاطفة الدينية والوطنية وطريقة التبشير فى البلاد الاسلامية تتركز فى إنشاء معاهد تسبغ على نفسها صفات المعاهد العلمية وتستتر وراء هـذا الستار ، والحقيقة أنها معاهد تبشير ينتمى إليها مبشرون وظيفتهم تضليل البسطاء والسذج ، هذه المعاهد تكلف تلاميذ المسلمين الحضور فى الصلوات وتستغل نفوذها القوى فى نفوس الأطفال خاصة من بنين وبنات فيخرج الطفل المسلم من هذه المدارس وهو إما فاقد الإسلام كلية أو متشكك فى دينه على الأقل ، وهم يفتحون نوادى وقاعات للخطابة والمحاضرة وجماعات تسمى نفسها جمعيات الشبيبة ، تبذر بذور التشكيك فى أفهام المسلمين ، وهم ينفقون على هذه المعاهد فى سخاء ، ويتحررون لذلك من المبشرين من يعرفون بالدهاء المسمم واللين الخطر ، حتى ليدعى بعضهم أنهم كانوا مسلمين ثم (تحولوا) للإيقاع بالسذج والجهلاء . الحق أن الاستعمار حين عاد إلى العالم الاسلامى فى دوره الجديد كان قد أعد مخططه على النحو الذى يكفل له العمل على « تغيير العقلية الاسلامية » والقضاء على مقوماتها الأساسية عن طريق التبشير الحامل لواء التعليم والتربية والثقافة .

وقد اعتبر أن هذه المعركة القائمة على الغزو الثقافى والاستعمار الفكرى والتغريب هى كبرى معاركه وأعظم عوامل تثبيت قواعده . وقد أجمعت خطط المبشرين ودراساتهم وأبحاث مؤتمراتهم على أن الهدف من التبشير هو : « إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الاسلامى وإبعاد العناصر التى تمثل الاسلام عن مراكز التوجيه » فإذا لم تنجح الدعوة إلى الخروج من الاسلام إلى دين آخر جرى تشكيكهم فى الدين المطلق . لقد استهدف التبشير نقل المسلمين من الاسلام وخطا فى سبيل ذلك خطوات واسعة ، فلما انكشفت خططه وافتضحت أساليبه غير المبشرون ملابسهم وتخفوا فى أزياء العلماء والفلاسفة والمفكرين وظهرت جماعات جديدة وغيرت أسماء الهيئات القديمة والمعاهد الأولى ، وكلها بارعة المظهر ولكنها تحمل نفس الأغراض والأهداف . منها : جماعة الشرق الأوسط للتعاون الاسلامى المسيحى ، وهم جماعة من المبشرين يعملون لهدم الاسلام وجعله آلة بيد السياسة الغربية الاستعمارية التى يراد فرضها على العالم الاسلامى والأمة العربية لتمزيق وحدتها وتدمير قوتها .

ومنها : (١) جمعية الشبيبة المسيحية الدولية فى نيويورك ولها ٩ آلاف فرع فى أنحاء العالم . (٢) هيئة التوراة . (٣) معاهد الدراسات الشرقية والإسلامية . وقد تأهب التبشير للعمل فى مختلف الميادين . فاتصل بالمتعلمين عن طريق المدارس والجامعات ، واتصل بالناس عن طريق الصحف والمحاضرات والجماعات ، وكانت المدارس الأجنبية التى فرضت نفسها على العواصم الكبرى فى العالم الإسلامى قد قادت حركة التعليم بواسطة النفوذ الأجنبى المتمثل فى نفوذ الدول المحتلة ، أو المتحالفة ، وهذا النفوذ لم يقف عند حد هذه الجامعات والمعاهد وحدها ، بل إنه تطرق إلى وزارات التعليم والمعارف فى مختلف هذه الأقطار ففرض فيها مناهج دراسية خالية من لباب الفكر الإسلامى والثقافة العربية وهو الإسلام والقرآن ، وقد أعلن ذلك صراحة دكتور زويمر ، كبير المبشرين فى العالم العربى ، فى تقرير مؤتمر التبشير العالمى عام ١٩٢٥ حين قال « إن السياسة الاستعمارية لما قضت منذ نصف قرن على برامج التعليم فى المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الإسلام ، وبذلك أخرجت ناشئة مضطربة مادية الأغراض ، لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً فلا الدين كرامة ولا الوطن حرمة . وأشار إلى هذا مدير إحدى الجامعات التابعة للإرساليات التبشيرية الكبرى حين قال : « إننا نراقب سير القرآن فى المدارس الإسلامية ونجد فيه الخطر الدائم ، إن القرآن وتاريخ الإسلام هما الخطران العظيمان اللذان نخشاهما سياسة التبشير » . وإذا كان بين التصريحين زمن لا يقل عن عشر سنوات إلا أنهما ينبعان فى مورد واحد كأنهما يصدران من رجل واحد ، ويؤكدان نفس الغاية . ونستطيع أن نؤكد أن خطة التبشير خطة شاملة وموحدة وذات مراحل وحلقات وقد أشرف عليها رجال ذوى خبرة وثقافة واتصال كامل بمخططات الاستعمار ، ويمكن أن يقال أن هنالك ثلاث قوى تعمل فى تناسق عجيب :

(الأولى) وزارات المستعمرات والخارجية فى الدول المستعمرة للعالم الإسلامى .

(الثانية) مؤسسة التبشير الكبرى بفروعها المختلفة وإرسالياتها ومعاهدها فى العالم الاسلامى .

(الثالثة) جماعة المستشرقين المنبثين فى مختلف الجامعات الأوربية والمتاحف والمكتبات العامة والمعاهد المعنية بالدراسات الشرقية والاسلامية والعربية .

ويمكن النظر إلى مدى التناسق بين هذه الهيئات حين نرى أن وزارات المستعمرات تستخدم مؤسسة التبشير فى العمل داخل البلاد الاسلامية وتؤكد أهمية عملها ، وحين يتولى رجال السياسة الكبار الإشراف على مؤتمرات المبشرين أمثال لورد بلفور الذى أعلن أهمية مؤسسات التبشير فى خدمة أهداف السياسة . والمبشرون فى نظر الاستعمار هم عيونه التى تقوم بتعريف الدول الغربية بالنواحى الهامة التى يتطلع إليها المسئولون فى وزارات الاستعمار من عقائد المسلمين وآدابهم والثقافات التى يتأثرون بها . ويتجلى ذلك حين نرى أن مؤتمر التبشير فى أدنبرج سنة ١٩١٠ يعنى بدراسة قرار محول إليه من المؤتمر الاستعمارى المنعقد فى برلين فى نفس العام ، يقول هذا القرار : « إن ارتقاء الاسلام يهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم ، لذلك فإن المؤتمر الاستعمارى ينصح الحكومة بزيادة الأشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة ، ويشير المؤتمر الاستعمارى على من فى أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الاسلام وأن يزيلوا العراقيل عن طريق « انتشار التبشير » .

أما جماعة المستشرقين فإنها تمد المؤسسة التبشيرية بالشبهات التي تصنعها ، والاتهامات والأفكار والثغرات التي يمكن استخدامها لإثارة الشكوك حول الإسلام ، ومن ركائز هذا العمل إنشاء مجلة العالم الاسلامي بالإنجليزية والفرنسية والألمانية (كل منها على حدة) وإصدار دائرة المعارف الاسلامية المحررة بثلاث لغات ويشرف عليها أساطين التبشير والاستشراق ولا تخلو مادة واحدة منها من دس وإثارة شبهة وتحطيم القيم الاسلامية فضلا عن مئات الشبهات على المستويين التعليمي والثقافي التي تدرس في مئات الكتب التي توزع في المعاهد والجامعات والمدارس من أندونيسيا إلى المغرب وكلها تحمل تصويراً شائناً الإسلام والقرآن .

وليست بواعث التبشير وأهدافه بخافية ، ولا هي موضع الاستنتاج ، بل إنها صريحة وواضحة في خطب وأبحاث عداء التبشير أمثال : (شاتلية ، وزويمر ، ولويس ماسيون) . أما شاتلية وهو يمثل النفوذ التبشيري الفرنسي . فإن ملخص فكرته تتمثل فيما يلي :

(أولا) ينبغي أن يكون عمل الاستعمار مبنياً على قواعد التربية العقلية (التأثير على عقول المسلمين وقلوبهم) وعلى التعاليم في فرنسا أن يبث في دين الاسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الفرنسية .

(ثانياً) إن عجزت إرساليات التبشير عن زحزحة العقيدة الإسلامية في نفوس معتقديها فإنها تستطيع أن تقضي لباناتها من هدم الفكرة الاسلامية ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية ، فتنشرها باللغات الانجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية ، بتبعية الاسلام لصحف أوربا وتمهيد السبيل لتقدم إسلامي مادي وبذلك تقضي إرساليات التبشير لباناتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية التي لا تحفظ قوتها وكيانها إلا بعزلتها وانفرادها .   (ثالثاً) لا ينبغي لنا أن نتوقع من جمهور العالم الاسلامي أن يتخذ له أوضاعاً وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية .

٢ — أما « بلس » وهو من كبار رجال التبشير فيرى : أن الاسلام هو العقبة القائمة في طريق التبشير في أفريقيه ، والمسلم فقط هو العدو اللدود ، وليس خصمنا إلا ذلك العربي الذي يرتاد البلاد للاتجار ، بل إن هذا الخصم المعارض هو الشيخ أو الدرويش صاحب النفوذ في افريقيا .   (٣) أما زويمر فهو يرى أن أرساليات التبشير في البلاد الاسلامية لها ميزتان : مزية تشييد ومزية هدم . ويقول : « الأمر الذي لا مرية فيه هو أن حظ التبشير من التغيير الذي أخذ يدخل على عقائد المسلمين ومبادئهم الخلقية هو أكثر كثيراً من حظ الحضارة الغربية منه . ويرى زويمر » أن القضاء على الاسلام في مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير ، وقد جنى منه أعظم الثمرات ، أن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً ، والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة على استحالة ذلك . ولكن الغاية هي إخراج المسلم من الاسلام فقط ، ليكون إما ملحداً أو مضطرباً في دينه وعندها لا يكون مسلماً ، وهذه أسمى مراتب الانتقام من الاسلام وأعظم الغايات الاستعمارية . ومجمل آراء هؤلاء الدعاة من المبشرين الفرنسيين والأمريكيين هو استهداف تغيير عقيدة المسلم عن طريق الفكر الغربي واللغات الغربية والأديان الغربية وهم يحاولون غزو العالم الاسلامي بأسوأ مظاهر حضارتهم إيماناً بأن هذا الغزو سيخرج المسلمين من معتقداتهم وجعلهم يستسلمون استسلاماً كاملاً للتطويق الغربي العقلي والاجتماعي وبذلك يصبح المسلمون في العالم الاسلامي كله أذلاء عبيداً للغرب عقلياً واجتماعياً واقتصادياً وتصبح بلادهم مبذولة بالرضا والتقبل للغرب .

وهذا هو اتجاه التبشير وهدفه : إخضاع العقل الإسلامى كله للاستعمار الغربى والفكر الغربى خضوع ذوبان وانصهار فى بوتقة الحضارة العالمية . ولكن هل ذاب المسلمون اليوم فى بوتقة الغرب وفقدوا مشخصاتهم وقيمهم الأساسية وقد مضى على العمل الدائب المتصل أكثر من مائة عام . الواقع أن المسلمين لم يسقطوا بعد تحت سنابك الخيل ، ولكنهم على خطر عظيم ، وعليهم أن يتنبهوا إلى أن كل ما يواجههم الآن من أخطار إنما يتصل اتصالا وثيقاً بهذا المخطط التبشيرى المرسوم بدقة والذى كان يمكن أن يصل إلى غايته لولا صلابة الإسلام نفسه وعمق جذوره وعلى المسلمين أن يفرقوا تفريقاً واضحاً بين الثقافة والعلم وبين الحضارة والثقافة ، فالعلم من حق الجميع وهو ملك البشرية كلها وكذلك الحضارة . أما الثقافة فهى من حق كل أمة وحدها ، ولذلك فالمسلمون فى اتجاههم نحو النهضة واليقظة والتحرير لابد أن يأخذوا العلم والتكنولوجيا . ولكنهم يجب أن يحفظوا ذاتيتهم الأساسية وشخصيتهم الأصيلة وجذور ثقافتهم وفكرهم وعليهم أن يقاوموا كل محاولة لإخراجهم منها ، ولقد كان للانفجار التبشيرى الذى وقع فى مصر عام ١٩٣٢و١٩٣٣ أثره فى إيقاظ هذه المفاهيم ، ولكن يبدو أيضاً أن المسلمين عادوا مرة أخرى إلى النسيان ، ذلك أن التبشير نفسه لم يلبث أن بدل خططه وغير جلده وتخفى وراء هيئات جديدة . لقد توصل المفكرون المسلمون فى هذه المرحلة إلى حقائق هامة نشرتها الصحف فى هذه الفترة وشارك فيها عشرات الباحثين فى مقدمتهم رشيد رضا ومحب الدين الخطيب وشكيب أرسلان وتقى الدين النبهانى وعمر فروخ ومجمل النظرات هى : (١) أن هدف التبشير زلزلة العقيدة فى النفوس وتشويه المفاهيم الإسلامية (٢) أن هدف المبشرين إضعاف القيم الإسلامية عن طريق شرح معالم الإسلام ومبادئه شرحاً يضعف عقيدة المسلم فى تمسكه بالإسلام ويقوى فى نفسه الشك فيه كدين أو كمنهج سلوك . (٣) وجد المفسرون أن الإسلام لم يكن قد فقد سيطرته على قلوب المؤمنين فصمموا على استعمال الكلمة حيث فشل استعمال السيف (٤) الذى حمل الأوربيين على إنشاء الجمعيات التبشيرية فى الشرق ماعانوه فى الحروب الصليبية من صلابة المسلمين وصبرهم على الجهاد ووحدتهم فى المقاومة ، وقد بحثوا عن السر فى ذلك فوجدوه فى الإسلام لأن عقيدته هى منشأ هذه القوة العظيمة عند المسلمين وإن تسامح المسلمين أوجد هذا التماسك العظيم بين النصارى والمسلمين ، ومن هنا كان مفهوم التبشير هو تشكيك المسلمين فى تاريخهم وزعزعة عقائدهم (٥) محاولة إنجاز ما عجز أجدادهم الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف وإخضاع العالم كله للغرب المسيحى (٦) يمكن أن يقال أنه بعد أن فشلت الحروب الصليبية كانت الخطة هى تحويل العالم الاسلامى إلى المسيحية أو القضاء على الاسلام فيه كقوة أساسية هى مصدر الانتصار والمقاومة ، ومن هنا انطلقت الدعوة إلى إخضاع العالم الاسلامى كله للتبشير بالمسيحيه لتطويعه للغرب أو إخضاعه للثقافة الغربية والنفوذ الغربى (٧) تحقق لهم أن إخضاع العالم الإسلامى لا يتم إلا عن طريق الثقافة والدين ، ومن هنا وضعت الخطة على مستويين متتابعين : مستوى التبشير ومستوى التغريب وعمل الاستشراق والشعوبية فى خدمة الهدفين معاً (٨) الحرب التى يشنها التبشير على الإسلام فى قلب دياره إنما تقصد الإسلام ذاته وترمى إلى إضعاف العقيدة فى نفوس المؤمنين بها ، وهذه السياسة هى استمرار للنضال التاريخى القديم بين الشرق والغرب والإسلام والنصرانية حيث تتحد اليوم

أساليب الغزو الحديث بطريق الدعوة والاغراء ، وحيث يعتقد خصوم الاسلام من الأحبار والرهبان والساسة أنهم قطعوا فى سبيل إضعاف العقيدة الإسلامية فى نفوس الشعوب المسلمة خطوات لا بأس بها وهذه هى الغاية التى تعمل لها الكنيسة الرومانية وترصد لها الأموال الطائلة فى كل عام فى ميزانية الكنيسة وفى ميزانيات الدول المستعمرة وتحشد لها ذلك الجيش الضخم من المعلمين والمبشرين والأطباء . إضعاف العقيدة الإسلامية إذن : هى الخطوة الأولى لغاية أخطر ، فالشعوب التى تنحل عقائدها القومية وتضعف تغدو فريسة يسهل الغزو الدينى والفكرى (السياسة ٢٢ يوليو سنة ١٩٣٣)

(٩) يواجه الإسلام اليوم حركتين من أخطر الحركات الهدامة : الأولى حركة المبشرين والثانية حركة الملحدين . الحركة الأولى تتجه نحو تحويل المسلمين عن دينهم . والثانية ترمى إلى تجريدهم من الدين تقوم بالحركة الأولى جمعيات منظمة ، تحميها حكومات متعصبة ، والحركة الثانية يقوم بها رجال تعلموا فى الغرب وأحكموا طريق الدعاية ومرنوا على أساليب التمويه ومن ورائهم قوم أولو نفوذ يحمون ظهورهم ويدفعون عنهم ما يصيبهم ، مهمتهم إفساح المجال لدعاة الإلحاد كما يباشرون مهمتهم والغاية هى هدم الإسلام فى قلوب أهله وتجريد المسلمين منه (١٠) ليس هدف التبشير فى الأغلب نشر المسيحية بقدر ما هو هدم الإسلام ، ونشر الدين أمر ثانوى جداً فى جميع الحركات التبشيرية ، فالدين وسيلة والسياسة هى فى غاية معناها استعباد الغرب للشرق ، والباعث الحقيقى فى رأى القائمين على التبشير إنما هو القضاء على الأديان غير النصرانية توصلا إلى استعباد أتباعها ، وأشد الأديان قوة فى إباء الاستعباد إنما هو الاسلام ، والتبشير قد يتناول البوذيين والبرهميين ولكن المقصود الأول بالجهود التبشيرية هم المسلمون. استوى فى هذه الرغبة جميع المبشرين على اختلاف طوائفهم وتباين الأقنعة التى يرفعونها على وجوههم (١١) ليس التبشير دعاية دنيويه استعمارية كما يظن بعضنا ولكنهم يدأبون لنشر دينهم وثقافتهم . الدول المستعمرة تعتقد أن نشر المسيحية فى مستعمراتها يكون عاملا عظيما فى توطيد الحكم الادارى ، والارساليات فى جميع الأمم الافرنجية تجاهد فى نشر الدين المسيحى بنشاط يجل عنه كل وصف ، ولكنى أحب أن لا ينخدع المسلمون بكلمة أن هؤلاء إنما يعملون للدنيا وأن الدين إنما هو ستار لها فإن ذلك يكون من قبيل تشخيص المرض بغير حقيقته ، وعند ذلك يتعذر كفاحه ، إن الحكومة الفرنسية عندما تسهل للقسيس والرهبان الاتصال بالقبائل وتمنع دخول الفقهاء وحفاظ القرآن ومشايخ الطرق الصوفية من البرابر إنما ترمى إلى غرض توطين استعمارها للمغرب (شكيب أرسلان)

(١٢) ليس التبشير هو الانتقال إلى المسيحية بقدر ما يؤدى إلى الانتقال عن الاسلام نفسه .

(١٣) إن حركة التبشير فى الشرق نظمت لأغراض مخصوصة ، غذيت بالأموال والتأييد لتحل محل الحروب الصليبية القديمة (١٤) هدف التبشير هو توهين القيم الاسلامية وتفتيت الشعوب العربية والاسلامية ، فى علاقاتها وصلات بعضها ببعض وبعثرة القوى الوطنية فى كل بلد عربى ، وخلق جبهة من ضعف المواجهة والفض من اللغة العربية الفصحى والتنديد بحالة الشعوب الاسلامية الأخرى والازدراء بها فى المجالات الدولية العالمية (١٥) هؤلاء المبشرون يقصدون بالتبشير إلى غاية سياسية ليس غايتهم تنصير المسلمين او سائر الشرقيين وإنما غايتهم توهين أمر العقيدة وأمر الدين باسم الانسانية

وباسم النقد العلمي للدين الإسلامي . الغرض السياسي الذي يلبس ثوب التبشير . كان من أثر هذه الحملة أن حولت كثيراً من دعاة التعريب وفي مقدمتهم الدكتور محمد حسنين هيكل الذي كان أبرز خدام الفكر الغربي في مصر عن طريق مجلة السياسة الأسبوعية وجريدة السياسة اليومية ، ولعل أبرز ما ظهر في تطوره الفكري بعد انفجار حملة التبشير في مصر أنه كتب أكثر من خمسين مقالا في مهاجمة التبشير ومهاجمة الغرب نفسه بعد انكشاف الحقيقة أمامه كاملة : إن التبشير ليس إلا وسيلة أكيدة لتوهين القيم الإسلامية والعربية في نفوس المسلمين والعرب وذلك لإحكام سيطرة النفوذ الأجنبي والاستعماري على العالم الاسلامي . ولا شك أن رؤوس موضوعات هذه المقالات تكشف عمق ما بلغه فهم الدكتور هيكل (١) تغريب الشرق وهل تعتبر حركة التبشير بعضاً منه (٢) حلقة من سلسلة الغارة على العالم الاسلامي (٣) المبشرون رسل التجارة والاستعمار الغربي (٤) غزو العقيدة الاسلامية غاية التبشير وقد وصل الدكتور هيكل أخيراً إلى قرار حاسم في موقفه من الحضارة الغربية والاستعمار قال : إن الذين درسوا في أوربا ـ يقصد نفسه ومجموعة من زملائه (طه حسين ومحمود عزمي ومصطفى عبد الرازق) كانوا هم رسل الحضارة الغربية الداعين إليها في مصر ، ظنا منهم أن ذلك هو السبيل إلى نهضتنا . هؤلاء الشباب تفتحت أعينهم على حقيقة الأمر بعد الحرب فقد أدركوا أن كل ما بذلت الشعوب العربية من تضحيات لم يكن إلا في سبيل الاستعمار ، وأدركوا أن الدول الأوربية التي تزعم أنها قد تحررت من التعصب الديني هي دول متعصبة تعصباً مسيحياً لم تنس معه الحروب الصليبية ، حتى أن قائداً كبيراً من قوادهم هو (اللنبي) قال يوم استولى على القدس أن الحروب الصليبية قد انتهت ، ثم أن هذه الدول الأوربية شملت بحمايتها الجماعات التبشيرية المنبثة في كل مكان ، وعند ذلك غضب هذا الشباب لاسلامه الذي تريد الدول المسيحية أن تمحوه ، وجعل كل منهم يفكر في وسيلة الخلاص من الغرب »

وكانت الصحف في الوقت نفسه تفيض بأخبار العدوان الفرنسي والايطالي في شمال أفريقيا وفي سوريا واستغاثة المنكوبين من أهلها بالعالم الاسلامي ونشر مسلموا المغرب صيحة حارة جاء فيها :

أيها المسلمون : هل يرضيكم أن يمحى دينكم من الأرض التي أنجبت رجالا عظماء وعلماء وقواداً وملوكاً مخلصين ، الأرض التي سار أبناؤها مع طارق بن زياد وعبد الرحمن الغافقي فافتتحوا الأمصار ونشروا دعوة الاسلام ، وإذا نجح الفرنسيون في هذه التجربة فسيفتح العالم الاسلامي فتحاً دينياً لهم ، وهو أقبح وأنكى من فتحهم الاقتصادي السياسي ، فخذوا حذركم أيها المسلمون وانصروا الله .

* * *

وقد ظهرت في هذه الفترة كثير من الأبحاث في مقدمتها :

١ — التبشير والاستعمار للدكتورين الخالدي وعمر فروخ .
٢ — التبشير والاستشراق للدكتور محمد البهي .

ولكن يبدو أن تغيير المبشرين لأساليبهم وانصرافهم عن أساليب الخطف والتنويم المغناطيسى وغيرها ، قد أخفى خطرهم وصرف المسلمين عن تعقب أخطارهم ، ولكن الواقع يؤكد أن العمل مازال مستمراً وأن الثعبان لم يفعل أكثر من أنه غير جلده وانسجم مع التطورات المختلفة وحول كل مفاهيمه إلى مجالات الثقافة والتعليم والمعاهد والجماعات الأدبية والثقافية والصحف والمجالات نعم إذا قيل أن كلمة التبشير قد إنتهت قلنا إنما إنتهى مظهرها وبقى مخبرها .

وأن مخطط التغريب والشعوبية والإلحاد قد استوعبته مؤسسة التبشير بكل مخططاتها فى داخلها وماتزال تحمل نفس الأهداف والغاية وإن غيرت الأساليب .

الفصل الثاني

وسائط التبشير وأنظمته

كان العمل على إعداد مبشرين للعمل فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى من أهم أهداف التبشير وذلك لتركيز قواه وبث مفاهيمه . وقد تم هذا العمل على مرحلتين : (الأولى) تمت فى بلاد الغرب حيث قامت المعاهد الخاصة بإعداد المرسلين الذين سيوفدون إلى العالم (والثانية) تمت فى بلاد المسلمين فقد قامت المدارس والجامعات التابعة للإرساليات التبشيرية بإعداد الدعاة الذين عملوا فى ميادين الصحافة والتعليم والثقافة وقد إندفع الاستعمار بالشباب الطموح الذى سافر فى البعثات المختلفة إلى الغرب واستطاع أن يكسب منه دعاة ومبشرين، وقد أوردت العديد من مؤلفات المبشرين تلك المناهج والخطط. وأشارت إلى مهمة هذه المدارس التى أنشأت فى روما وباريس وطليطلة بأسبانيا والمناهج الخاصة التى ترمى إلى « تفهيمهم روح الشرق » وتقوم هذه المناهج على تصوير الشرق بصورة التأخر والسوء ، وتتصل طرق التبشير بصناعات الطب والتعليم والوعظ ونقل الكتب من لغة إلى لغة وشمارها ، « جميع الوسائل تستغل فى سبيل التبشير حتى أعمال البر ، وأن التطبيب والتعليم من وسائل المبشرين ، مع ترك الطرق المباشرة فى نشر آرائهم والتماس أساليب أخرى أكثر التواء وخفاء ، وهم يلبسون لكل حالة لباسها » فعليهم أن يطمئنوا الرأسمالية إذا كان ذلك يفتح لهم قلوب الخاضعين قهراً لها ، وهم فى بعض البلاد الإسلامية ينسقون خططهم مع الصهيونية ومع الشيوعين وتنصح لهم الوصايا بالتلون فى سبيل الوصول إلى قلوب الناس . ويقول مؤلف كتاب طرق العمل التبشيرى فى المسلمين : « لنجعل هؤلاء القوم المسلمين يقتنعون فى الدرجة الأولى بأننا نحبهم ، فنكون قد تعلمنا أن نصل إلى قلوبهم ، يجب على المبشر أن يحترم فى الظاهر جميع العادات الشرقية والإسلامية حتى يستطيع أن يتوصل إلى بث آرائه بين من يصغى إليها والمعروف أن التبشير تحول بعد مؤتمر ١٩٠٦ من التبشير الفردى إلى التبشير الجماعى، وبعد الحرب العالمية الأولى إستفادت حركة التبشير من الدول المنتدبة التى أفسحت المجال لها وقد تولت المعاهدات

التى عقدت فى ظل النفوذ الاستعمارى حماية الإرساليات التبشيرية ، ولم يفت مؤتمر أدنبرج الذى عقد عام ١٩١٠ أن يدرس كيفية تعليم المبشرين وتربيتهم وتعليم المبشرين فى العالم الإسلامى لغة البلاد وأوصى بانشاء مدارس تبشير خاصة بتعليم مبشرى الأقطار الإسلامية والتخرج الكامل فى اللغات السامية والقبض على ناصية اللغات العامية والفصحى وفهم روح المسلم وخصائص عقليته ، كما عرض المؤتمر التبشيرى عام ١٩٢٤ لهذا الأمر وأورد آراء جديرة بالنظر والإعتبار تحت عنوان « باب تخريج المبشرين » قال : إن تخريج العدد اللازم من قادة التبشير المحلى من الوطنيين تجرى غالباً على طريقة التخصص والتضلع تأمر ضرورى لا غنى عنه ، فن الضرورى أن يكون المبشرون حائزون على مقدار من الكفاية والإستعداد الوافى من جميع الوجوه هذا مايلزم المبشرين من الإستعداد فى الثقافة العامة وقال : أن هناك طريقتين فى الإعداد والتجهيز : (١) التخريج فى اللغات بما يكفل التوسع والقبض على ناصية اللغات العامية منها والفصحى ، (٢) التخريج الكامل فى العلوم الإسلامية بما يجعل المتخرج يفهم روح المسلم وخصائص عقله فى هذه الأيام فهما تاما مستندا إلى الحقائق مباشرة مع دراسة تاريخ الاسلام وعلى ماهو حى فى الاسلام المعاصر من المذاهب والطرق الصوفية ، (٣) التخصص فى الشئون الاسلامية تخصيصاً صحيحاً يؤهل أربابه بعد حين لتولى أعمال الدراسات والأبحاث التى ينطوى عليها موضوع الاسلام ، ويمكن أن نستخلص الوسائط التى يستخدمها التبشير من نصوص تقريراته لا من خارجها .

لقد تعرض كتاب (العالم الاسلامى اليوم) وكتاب (الاسلام : ماضية . حاضره . مستقبلة) بقلم زويمر كما تعرضت مختلف المؤتمرات التبشيرية لهذا العمل وذكرت الوسائل التى يمكن إستجلاب المسلمين بها ، وأهمها ، (أولا) دعوة المبشرين لتعليم اللهجات العامية واصطلاحاتها نظريا وعملياً ودراسة القرآن والوقوف على مايحتويه وأن يخاطب عوام المسلمين على قدر عقولهم ومستوى علمهم ، وأن تلقى الخطب عليهم بأصوات رخيمة وبفصاحة وأن يخطب المبشر وهو جالس ليكون تأثره أشد على السامعين وأن يكون خبيراً بالنفس الشرقية وأن يستعمل التشبية والتمثيل أكثر مما يستعمل القواعد المنطقية والاستعانة بالموسيقى والفانوس السحرى ، (ثانياً) كسب ثقة الشباب وذلك بالحديث فى موضوعات إجتماعية وخلقية وتاريخية ومنها يستطردون إلى مباحث الدين ومحاولة كسب القلوب بتظاهرهم بالميل إلى مطامح المسلمين من الاستقلال السياسى والاجتماعى ، (ثالثاً) توزيع الكتاب المقدس والمؤلفات التى تضم المناظرات التاريخية وترجمة الكتاب المقدس إلى لغات المسلمين . (رابعاً) يجب أن يكون تبشير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم ، وعلى المبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الاوربيين وتحرر النساء . (خامساً) على طبيب الارسالية ألا ينسى ولا لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شىء وطبيب بعد ذلك ، وغايته إستغلال فرص المرض والسيطرة على المرضى وانتهاز فرصة الضعف والحاجة وعدم القدرة على التفهم والاقتناع والمس العقل الباطن بالايحاء . (سادساً) يجب أن نستخدم كتابهم (القرآن الكريم) وهو أمضى سلاح ضد الاسلام نفسه ، يجب أن نرى هؤلاء الناس أن الصحيح فى القرآن ليس جديداً وأن الجديد ليس صحيحاً . (سابعاً) الخطأ هو بث مبادىء المدنية مباشرة ثم

نشر الدين ثانياً لأن إدخال الحضارة والمدنية لا تحمد مغبته بل تنجم عنه مبادىء كثيرة تفوق المبادىء التى كانت قبلا . (ثامناً) منع طلبة الأزهر المتخرجين فيه من الوصول إلى جنوب إفريقيا (عاشراً) الاعتماد على الصحف والكتب والسينما والمسرح فى إذاعة الآراء التى تحقق إخراج المسلمين من مقومات فكرهم . (حادى عشر) الاعتماد على تدفق الطلاب على أوربا (خاصة العمال والصناع من شمال أفريقيا إلى فرنسا) . (ثانى عشر) نقل الذين يصل المبشرون إلى قلوبهم إلى بيئات أخرى ذلك لأن المسلم فى حياته الاجتماعية محوط بكثير من الأحوال والظروف التى تربطه بأخيه المسلم فى كل موضع من مواضع حياته العملية . وقد أجمعت المراجع المختلفة على أن العمل فى سبيل مكافحة الاسلام إنما يتم بوسائل مختلفة أهمها :

(١) إثارة الشبهات حول الاسلام وتعاليمه : (تعدد الزوجات ، الحجاب ، الربا ، المرأة) .

(٢) محاولة القول بأن الاسلام منسجم مع الحضارة الغربية غير أن الفقهاء والعلماء يجمدون دون تأويله وتفسيره وهذا عندهم أمضى سلاح لمقاومة الاسلام . وعلينا أن تتنبه إلى مرمى هذا القول ، فالاسلام منهج كامل لا يخضع للمناهج الأخرى ، ولكنه يتقبل الصالح والايجابى من الوسائل والأساليب التى تتفق مع نسيجه ، ولذلك فإن فكرة تأويل الاسلام وتفسيره بما يتفق مع الفكر الغربى لايقرها الاسلام بحال ، فإنها إنما ترمى إلى إعطاء تنازلات تتلوها تنازلات دون أن تتوقف عند حد ، وليس كذلك الاجتهاد فى مفهوم الاسلام ، وليس كذلك انفتاح الاسلام على الحضارات . ليس الحق هو النظرة الغربية وليس على الاسلام أن يتفق معه أو يتأول أصوله الربانية لتقبل هذا الاتجاه أو ذاك . (٣) قد يترك المبشرون مجال المبادىء الاسلامية نفسها ، ويتجهون إلى الغض من شأن الضوابط الأخلاقية ، والعمل للقضاء على الشعور الأخلاقى وبيان أن ما أقامه الاسلام فى سبيل تنظيم علاقات المرء ورفعا عن الانحدار إلى الغرائز الجامحة ، إنما هى أغلال باطلة ، ويتمحلون هنا بعبارة العقد النفسية وهذه فى الحق ليست إلا وسيلة لإقصاء المسلم عن قيم الاسلام ويتصل بها إقامة حفلات الرقص والموسيقى لاثارة الغرائز ودفع الشباب إلى إقتحام العقبة الأولى فى طريق الشهوات كالكأس الأولى ، والاتصالات المحرمة . من هنا وقد وضحت أمامنا هذه الحقائق أن ننتبه لها وأن نحاول أن نكون من اليقظة فلا تخدعنا الكتب اللامعة الفاخرة ، والصحف الواسعة الانتشار ، وأسماء الكتاب اللامعة ذات الألقاب الفخمة ولتكن نظرتنا دائماً إلى هدف أى قول ولابد أن نصنف الكتاب وفق قاعدة « الجرح والتعديل » فكل من إتصلت به شبهة التبشير أو التغريب أو الشعوبية فعلينا أن نكشف هدفه دوماً ونفضح خطته .

الفصل الثالث

عمداء التبشير وخلفاؤهم

لا شك أن أبرز المبشرين على الإطلاق هو « كرينليوس فانديك » الكبير الذى وصل بيروت عام ١٨٤٠ وتخرجت على يديه أجيال وهو الذى أشرف على ترجمة التوراة وساعده فى العمل ناصيف اليازجى وفارس الشدياق وبطرس البستانى وعاش بها طبيباً ومبشراً حتى توفى ١٨٩٥ أما فى مصر والبلاد العربية فقد كان أشهر المبشرين « صمويل زويمر » وهو صاحب فكرة مؤتمرات التبشير وقد بدأ عمله فى البحرين عام ١٩٠١ تقريباً وانتقل منها إلى الإحساء ثم عاد إلى البحرين وكان يلقب نفسه بضيف الله ، والأهالى يدعونه ضيف الشيطان ، وقد فتح أول أمره حانوتاً فى السوق لبيع الكتب المختلفة ، ثم تخصص بالتدريج فى بيع الكتب التبشيرية وساعدته القنصلية الإنجليزية فى بناء مدرسة ومستشفى . وعنى بالكتابة عن الإسلام وأذاع آراء المبشرين وشبهاتهم ومن أهم كتبه : « الإسلام : ماضيه ، حاضره ، مستقبله » الذى دعا فيه أوربا إلى إثارة حملة من الدعوة إلى العالم الإسلامى لتمزيق وحدته الفكرية وخلق قضايا قومية ذات جذور تاريخية لتفريق الصف وسيادة النفوذ الاستعمارى وله مؤلفات أخرى خلط فيها خلطاً كبيراً بين الوقائع والأهواء ، ومن ذلك رسالته عن الوهابية التى ألقاها فى جمعية فكتوريا الفلسفية عام ١٩٠٢ وانتقد فيها ابن القيم المتوفى عام ٧٥١ لأنه يقول عن نفسه أنه حنبلى ولا يقول أنه وهابى ، أى أنه يعيب على ابن القيم أنه لا ينتسب إلى عالم جاء بعده بأربعمائة وخمسة وخمسين سنة وهو الإمام محمد بن عبد الوهاب الذى أطلق الاستعمار اسم الوهابية على حركته التى تسمى أصلا بدعوة التوحيد ولقد كانت لزويمر آراء متعددة فى دفع الحركة التبشيرية إلى العمل ، تقوم على أساس خبرة دقيقة وتعصب بالغ ، وأبرز آرائه إيمانه بأن هدف التبشير ليس إدخال المسلمين فى دين معين ولكنه إخراجهم من الإسلام أولا وقد كان من جرأته البالغة أنه اقتحم الأزهر فى ١٨ أبريل ١٩٢٨ وطاف بحلقات الدرس ومعه بعض زملائه ، وتباحثوا مع الطلاب والأساتذة بما يمس الإسلام ، ثم هاجم الطلاب فى دارهم بتوزيع منشورات مطبوعة عن التبشير المسيحى وفى هذه المنشورات يدعو المسلمين إلى العودة بالصلاة إلى قبلة بيت المقدس ويقول أن محمد ﷺ ماتحول عنها عن وحى وإنما تركها تبرما من اليهودية ، وقد أحدثت زيارته اضطرابا شديداً وهياجاً شاملا فى نظام الدراسة وكتب بعض الأزهريين فى الصحف يندد بهذا التصرف وتقدم بعض شيوخ البرلمان بالسؤال وتبين أن زويمر كان قد حصل على تصريح من وزارة الأوقاف لهذا الغرض وأن الوزارة استردت منه هذا التصريح وكان من آثار ذلك التفكير فى إنشاء جمعية الشبان المسلمين فى كل بلد من البلاد العربية والإسلامية . وقد حرر زويمر كتباً متعددة كلها حملات على الإسلام والقرآن والنبى . وهو يؤمن بأن التعليم التبشيرى هو المصدر الأساسى للعمل بين المسلمين ، ويرى عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية بل الاتصال بهم عاطفيا واستمالة أهوائهم ويدعو إلى توحيد هيئات التبشير حتى تتمكن من الإطباق على العالم الإسلامى وفتحه . ومن أعماله ترجمة كتاب الأب لويس شيخو أسماء

خرافات القرآن وهى واحدة من الرسائل التى تردد عشرات الشبهات المعروفة والمتداولة والتى واجهها كتاب المسلمين بالرد والإسقاط وقد زار زويمر مختلف المناطق الإسلامية فى الجزيرة العربية ومصر والسودان وكانت له مساجلات ومجادلات مع العلماء فى كل مكان ، وهو فى كل مايكتبه يعرض بالإسلام فهو حين يتحدث عن الغزالى يربط بين آرائه وبين بعض الآراء فى المسيحية ولذلك يضع لكتابه عنوانا غريباً هو « يسوع فى إحياء الغزالى » ، موهما بأن آراء الغزالى مقتبسة من الإنجيل مستغلا ذلك التشابه والإتصال الذى يمكن أن يلتقطه فيما بين الإسلام والمسيحية فى جوانب التسامح والرحمة وغيرها ومن المعروف أن مصدر الأديان السماوية واحد وأن الإسلام جاء جامعاً لكل ما فى الأديان السماوية من فضائل ، ويذكر الأستاذ حسن نجيلة أن زويمر أتى فى السودان محاضرة عن عمر بن الخطاب ، ودهش الناس لذلك ولكنهم تبينوا أنه كان يحاول من طرف خفى أن يصور سيدنا عمر وكأنه صاحب آراء أخذ بها النبى وأن القرآن قد نصره فى غير موضع وأيد رأيه الذى كان مغايراً لرأى النبى وهذا هو منهج التبشير كما وضعه زويمر: العمل دائماً على إثارة الشبهات والتشكيك فى الحقائق المقطوع بها واستغلال النصوص .

٢ — أما المبشر وليم ويلكوكس فهو فى الأصل مهندس رى عريق استقدمه الإحتلال البريطانى إلى مصر وكان له دور كبير فى تأريث النفوذ البريطانى وتوزيع أراضى الدائرة السنية على الباشوات أعوان الاستعمار ، هؤلاء الذين خلق منهم « كرومر » الطبقة الجديدة التى أطلق عليها « أصحاب المصالح الحقيقية » وهم الذين تكون منهم عام ١٩٠٧ حزب الأمة ، وأصدروا جريدة الجريدة وكانوا يمثلون القوة الفعلية التى يسيطر بها النفوذ البريطانى فى مصر ، وعليهم ركز كرومر فى بناء « مصر الحديثة » فمنهم خرج رجال الأحزاب السياسية وكان لأبنائهم دور كبير بعد الحرب الأولى . وكانت هذه المدرسة تؤمن بأن الاستعمار البريطانى باق ولا بد من التعاون معه على أساس مفاهيمه وفلسفته التى عبر عنها لطفى السيد فى الجريدة من إعلاء الوطنية الضيقة والإقليمية المحدودة ، ورفض الوحدة العربية والجامعة الإسلامية ، والايمان بالثقافة الانجليزية والفكر الغربى فى مفاهيمه السياسية والاقتصادية والولاء الرأسمالية الغربية والديمقراطية الغربية وقد تحول هذا المهندس « ولكوكس » بعد أن أحيل إلى المعاش إلى مبشر فأخذ يدعو إلى استعمال اللغة العامية وله خطاب مشهور ألقاه فى نادى الأزبكية (يناير ١٨٩٣) دعا فيه المصريين إلى التماس نهضتهم فى ظل العامية وكان عنوان خطابه : لماذا لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين حتى الآن ؟ قال فيه : إن من جملة العوامل فى فقد قوة الاختراع عند المصريين استبقاءهم اللغة العربية الفصحى وأشار بإغفالها واستبدالها باللغة العامية اقتداء بالأمم الأخرى وذكر بنوع خاص الأمة الانجليزية وقال : إنها استفادت فائدة كبيرة بإغفال اللغة اللاتينية التى كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الانجليزية الحاضرة . ولم يتوقف ولكوكس عند هذا الحد بل اشترى ترخيص مجلة إسمها الأزهر وراح يردد فيها هذه الدعوة ، ومضى ، فاتجه إلى التوراة فترجمها إلى اللغة العامية وكان يذهب إلى القرى النائية يحمل الأدوية والتبشير وظل يعمل فى مستشفى مصر القديمة (هرمل) وله كتاب الأكل والايمان باللغة العامية وزعه مجاناً على العامة فى المدن والقرى . وبعد ويلكوكس أستاذ سلامة موسى فى الدعوة إلى العامية فقد حمل لوائها بعده وكتب عنه كثيراً وردد آرائه . ولقد وجد ويلكولس فى دعوته إلى العامية مقاومة شديدة ومعارضة صامدة هزمته ودفعته إلى التخلى عن آرائه ودعوته .

٣ — دنلوب : ويعد المبشر (دنلوب) أخطر هؤلاء جميعاً ، فقد استعان به كرومر على تكريس برنامج التعليم فى المدارس الأميرية على نمط المدارس الأجنبية ومدارس الإرساليات بحيث رفع منها تعليم القرآن ومناهج التاريخ والتعاليم الإسلامية ، هذا العمل الذى أشار إليه (زويمر) فى أحد تقاريره عندما قال : « لقد قضينا على برنامج التعليم فى الأقطار الإسلامية فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الإسلام ومن ثم أخرجنا الشباب والفتاة المسلمين من الوسائط التى تخلق فيهم العقيدة والوطنية والأخلاق والرجولة والدفاع عن الحق » . ثم عقب بقوله « إن القضاء على الإســـلام فى مدارس المسلمين هو أكبر واسطة التبشير وقد جنينا منه أعظم الثمرات » . وقد كانت أبرز أعمال دنلوب :

(أولا) محاربة اللغة العربية والإســلام والأزهر ، وقد عمد إلى اضطهاد معلمى اللغة العربية من الأزهريين .

(ثانياً) نشر لواء اللغة الإنجليزية وتأهيلها للسيطرة الكاملة على كل شئون التعليم وذلك القضاء على نفوذ اللغة العربية .

(ثالثا) إعداد برامج تقضى على شخصية الأمة ، ويهدف إلى تصويرها بصورة البلد المحتل للفرس والرومان والعرب والإنجليز واتهام الحضارة الإسلامية بالضعف ، واللغة العربية بالتخلف والإسلام بالجمود

(رابعاً) تجاهل الروابط والجذور التى تربط المصريين بالعرب والمسلمين دماً وجنساً ولغة وديناً وخلق جو من الإقليمية وعرض صور الخلاف والحروب والصراع بين المصريين والعرب وبين العرب والمسلمين .

وقد أبطل دنلوب عدداً من الكتب التربوية النافعة لأنها تتحدث عن القيم الإســلامية ، ومنها كتب عبد العزيز جاويش ، وعلى مبارك وحمزة فتح الله ووضع بدلا منها مؤلفات خالية من القيم التى تستمد من الإسلام أو العروبة أو اللغة العربية أو التاريخ الإسلامى والتى تتسم بالبطولة أو الكرامة .

وبذلك خلت المناهج من روح الإســلام فى التربية وروح القرآن فى الفكر ، وجرد المدارس من التربية الإســلامية التى تربى الرجولة وتعد الشباب للجهاد فى سبيل دحر المستعمر وتخليص الأوطان من الغاصبين .

— ٢ —

خلفـاء المبشرين

وقد تابع دعاة التبشير جيل من الذين تعلموا فى الإرساليات والمدارس والجامعات الأجنبية وفق المنهج الذى رسمته مخططات الاستعمار بقصد إنشاء أجيال تغض من قدر ثقافتها الأصيلة وتاريخها وتراثها وماضيها جملة . وكان أغلب البارزين فى هذا الجيل قد اتجهوا نحو القاهرة باعتبارها المركز الأول الذى تنطلق منه الثقافة للعالم الاســلامى والبلاد العربية جميعاً عن طريق أقوى صحافة برزت بقيادة تقلا وصروف ونمر وزيدان وسركيس ، ومن خلال هذه الصحف ظهرت سموم فرح أنطون وشبلى شميل وأديب إسحاق وجورجى زيدان وآراء الدكتور صروف ونمر ومكاريوس حيث تكونت الملك الدائرة

الصباح التي حاولت أن تسيطر على قيادة حركة اليقظة الفكرية الاسلامية العربية بالاتصال بالسيد جمال الدين والشيخ محمد عبده وكان من حولهما كثير من هؤلاء أمثال سليم عنحوري ويعقوب صنوع ، وأديب إسحاق وقد قلب هؤلاء جميعاً ظهر المجن لفكرة جمال الدين بعد خروجه من مصر وتعاونوا مع النفوذ الأجنبي. ومن هذا الرعيل صابونجي ومراشي وآخرون سافروا إلى لندن وباريس وروما وأصدروا صحفاً بالعربية لم يكن لها هدف غير تفكيك الوحدة القائمة بين العرب والمسلمين في مواجهة الزحف الاستعماري الضاغط.

وقد طرح فرح أنطون وشبلي شميل وجرجي زيدان عديداً من الآراء التي تمثل الاتجاه التغريبي الوليد والتي تابعت مخطط اللورد كرومر ومفاهيمه عن الإسلام والعرب واللغة العربية ، ثم انضم إليهم بعد قليل حزب الأمة والجريدة ولطفي السيد ، وكان سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وغيرهم يتابعون توجيهات كرومر ويشيدون بها في مجال الإقليمية وقصر التعليم على اللغة الإنجليزية وعلى أولاد الأعيان ولكن آراء هؤلاء واجهت ردوداً دحضت شبهاتها ، فقد رد الإمام محمد عبده على كتابات فرح أنطون واتهاماته للفكر الإسلامي ، ورد فريد وجدي على الفلسفة المادية التي أذاع بها شبلي شميل ودكتور صروف ورد شبلي النعماني على مغالطات جرجي زيدان وقاوم مصطفى الغلاييني وعبد العزيز جاويش وعلي يوسف ومصطفى كامل وفريد وجدي مختلف الآراء الغربية التي ألقيت في حقل الثقافة العربية في هذه الفترة وفيما بعد الحرب العالمية الأولى ظهر جيل جديد قوامه طه حسين وسلامه موسى ومحمود عزمي وعلي عبد الرازق واسماعيل مظهر وساطع الحصري . وقد واجهه عدد من أعلام مدرسة اليقظة الفكرية الإسلامية وردما عرض هؤلاء من شبهات. وقد عرض لطه حسين وآرائه كثيرون في مقدمتهم الخضر حسين وفريد وجدي ولطفي جمعه والدكتور محمد أحمد الغمراوي وساطع الحصري ودكتور هيكل ومصطفى صادق الرافعي ومحب الدين الخطيب وشكيب أرسلان ، وعرض لآراء سلامه كثيرون في مقدمتهم : الدكتور أحمد الحوفي وزكي مبارك ومحب الدين الخطيب وعرض لآراء علي عبد الرازق : الطاهر بن عاشور ومحمد بخيت والخضر حسين . وتصدى لآراء ساطع الحصري : محب الدين الخطيب وعمر فروخ وغيرهم ، وبالجملة فإن رأياً من آراء المبشرين التي جرت على أقلام هؤلاء الكتاب لم يمر دون أن يجد دحضاً من أقلام واعية أصيلة الإيمان بالفكر الاسلامي والثقافة العربية وإن ظل لهذه الآراء قدرة على التشكل والظهور مرة بعد مرة نتيجة لسيطرة النفوذ الأجنبي الذي يحركها على بعض المجالات التعليمية والصحفية والثقافة في العالم العربي . وكانت بيروت في السنوات الأخيرة مقراً لهذا اللون وانطلاقه الانبثاق في مواجهة المثقفين العرب جميعاً ، ومن القاهرة ظهرت مجلات متوالية لمصارعة هذا الاتجاه ودحض شبهاته وشجب مخططه ، وقد ظلت المجلات العربية والإسلامية تعنى كثيراً بالمؤلفات التبشيرية التي تصدر في أوروبا وأمريكا وبلغ غاية الجهد في ذلك الأمير شكيب أرسلان والدكتور زكي علي وعجاج نويهض ، وقد أولت حركة التبشير التي أطلقت على نفسها من بعد حركة التغريب اهتماماً كبيراً بالشباب الذي تصدره الارساليات على أسلوب المبشرين ، وبرع منهم عدد كبير في أداء دوره ، وقد أعانهم على ذلك أن المبشرين وضعوا عشرات المؤلفات التي ضمنوها رءوس الموضوعات التي تثار بين حين وآخر وتحفل بالطعن على العرب والاسلام واللغة العربية والقرآن والتاريخ الاسلامي العربي .

وقد غض هؤلاء الطرف عن المؤلفات والأبحاث التى انصفت تاريخ المسلمين وحضارتهم وتراثهم بل إن الأسماء اللامعة التى دافعت عن الفكر الاسلامى والثقافة العربية هى لديهم موضـــع التحقير والازدراء أمثال : جوستاف لوبون ، وتوماس كارليل والدكتورة هونكه واسين بلاثيوس

ومن أبرز أعمال هذا الجهاز أنه يسارع — كلما وجد حركة مد لإعلاء شأن التراث الإسلامى واللغة العربية والإسلام — إلى إثارة قضايا وخلق مقارنات بين الآداب العربية والآداب الغربية فى مجال إعلاء الثقافات الغربية واتهام الثقافة العربية بالقصور والتخلف وذلك فى محاولة دائمة من النفوذ الإستعمارى للحيلولة دون خلق نفسية عربية أو إسلامية متميزة ، والعمل دوما على إخضاعها للنفوذ الغربى الثقافى وإقناعها بأنها غير قادرة على الابريز ، هؤلاء خلفاء المبشرين وأتباعهم الذين لبسوا الثياب الجديدة وأخفوا وراءها أنياب المبشرين الكاسرة وأظافرهم الجارحة وهم الذين تصدر بإسمهم صحف أنيقة فى عواصم عربية ، تدفع أجوراً ضخمة لكتابها وتعرض بالسموم لكل مقدراتنا ، وهم الذين يدعون إلى المؤتمرات المختلفة فى الغرب ، وتكون كلماتهم المحررة بتوجيه خاص هى الكلمات المنسوبة إلى المسلمين وكأنها تردد أفكارهم ومفاهيمهم ولقد حرص النفوذ الاستعمارى على إذاعة أسمائهم وخلق هالات من الضوء حولهم كما أفسح لهم مجال الشهرة والغنى ، وهم المتصدرون للمعارك فى جرأة المطمئن إلى سناده الذى يحميه . ولقد كان هؤلاء دائما كلما ثارت الثائرة حول عمل من أعمال التبشير يقولون تلك الكلمة البسيطة الخطيرة : « إن الإسلام الراسخ لا يمكن أن تؤثر فيه مثل هذه الأحداث » تسمع هذه الكلمات كلما ضبط كتاب فى جامعة أو معهد ممتلىء بالإساءة إلى الإسلام ونبى الإسلام ، وكلما حدثت حادثة تبشير بإخفاء شاب أو تنويمه تنويماً مغناطيسياً ، وهؤلاء الأعوان قادرون دوما على إنقاذ سادتهم إذا وقعـــوا فى مأزق ، وعندما ثارت ثائرة التبشير فى مصر وهزت دوائر الاستعمار والمبشرين لشهور طويلة تقدم شيخ له عمامة مهيبة فاقتحم هذه المؤسسة الضخمة ، التى تهاوت ، أمام الضربات فافتتح موسمها وتحدث فى جرأة بالغة عن التبشير فى معقل التبشير ، ومما قاله الشيخ على عبد الرازق : « إن هذه الحركة لا يمكن أن تؤثر فى الإسلام أو تضعف من شوكته فهى ليست بأقوى ولا أخطر مما لقى الإسلام فى بدأ ظهوره من مظاهر العداء والكيد ، وأن الحركة التبشيرية إنما هى وسيلة من وسائل المستعمرين تتصل بسياستهم اتصالا متيناً ولكنها مع ذلك لن تفيدهم فى مصر شيئاً وأن الإسلام سيظل برغمها كما كان دين الحضارة والمدنية . ومضى يقول : إن أولئك المبشرين أقل شأنا من أن يصلوا بكيدهم إلى حمى الإسلام أو ينالوا من الإسلام منالا ، فالإسلام دين قد صهرته الحوادث وتقلبت به الفتن وعصرته التجارب ، إن خطر المبشرين سياسى وخلقى أكثر مما هو دينى . هكذا يتقدم التبشير بأحد خلفائه وأجنحته ، هو الشيخ على عبد الرازق صاحب الإسلام وأصول الحكم الذى يصور الإسلام على أنه دين روحانى لا علاقة له بالدولة أو المجتمع أو الحكم وهو رأى المبشرين أنفسهم كانوا يقولونه من قبله فلا يجدن نصيراً له فإذا بشيخ من الأزهر يقرر ذلك ويستمد له نصوصا جمعها بالتحريف والتأويل لتحقق لهم آمالا أصبح الآن له مكانة ضخمة عندما يعرضون لمفهوم الاسلام فيستشهدون به وقد قبس الشيخ على عبد الرازق هذه الآراء من كتب المبشرين كما قبس طه حسين آرائه فى كتابه « فى الأدب الجاهلى » الذى مازال يدرس فى الجامعات وتتوالى طبعاته من المبشر جرجس

سال بكل ما أورده فيه من شبهات . وفى المرحلة الأولى وقبل الحرب العالمية كان المبشرون ينشرون آرائهم بأنفسهم : زويمر ، وكرومر ، ودانلوب ، ومرجليوث ، وهانوتو . ثم جاء فرح أنطون وصروف وشبلى شميل وجورجى زيدان وداود بركات وفارس نمر (فتصدروا منصة التبشير وحملوا لوائه فى صحف ضخمة منشورة) وهم أبناء الارساليات التبشيرية وخريجو معاهدها ومدارسها . غير أن النجاح الذى حققه التبشير بحق هو ذلك الجيل الذى جاء قبيل الحرب العالمية الأولى وبعدها ، من أمثال لطفى السيد وسعد زغلول وطه حسين وعلى عبد الرازق وسلامة موسى وساطع الحصرى ومحمود عزمى على اختلاف فى الآراء وتعارض فيما بينهم أشبه بتعارض أصحاب الغنائم ومقتسمى الأسلاب ، وبذلك حقق النفوذ الاستعمارى عن طريق التبشير واحدة من أهم توصياته وخلق قاعدة من أكبر ركائزه ، تلك التى صورها عميد التبشير زويمر حين قال « إن تبشير المسلم يجب أن يكون بلسان من أنفسهم ومن بين صفوفهم فإن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أبنائها » .

— ٣ —

عملاء التبشير وأتباعهم

من أخطر أعمال التبشير فى مجال التغريب هو وضع خطة شاملة لغزو الفكر الاسلامى والتأثير فيه بالاعلاء والخفض ، والاكبار والتصغير ، وفق مفهوم واضح هو تحطيم القمم العالية التى يعتز بها المسلمون والعرب وإخفاء معالم البطولة عن الشخصيات الأصيلة وإضفاء بطولة زائفة على الشخصيات الشعوبية المضللة فى تاريخ الاسلام والثقافة العربية ويحمل اليوم الشعوبيون ودعاة التغريب على الامام الغزالى متابعين خطة أسلافهم المبشرين والمستشرقين ، وكان ذلك قد بدأ فى وقت مبكر عند ما أغروا الدكتور زكى مبارك بتأليف كتابه الأخلاق عن الغزالى عام ١٩٢٥ وإن كان الدكتور مبارك قد قاد معارك أخرى حول وحدة الوجود والحلول وأثار شبهات كثيرة ضارة ، كما أنه تحدث عن القرآن فى النثر الفنى حديث المبشرين أنفسهم الذين يرون أن محمداً هو صاحب القرآن وذنب الامام الغزالى القديم المتجدد أنه أوقف تيار الفلسفة الالهية اليونانية المستمدة من علم الأصنام والقائمة على أصول وثنية تختلف اختلافا جذرياً عن الفلسفه المستمدة من الاسلام ، ويردد خصوم الغزالى عبارة واحدة يجعلونها معقد اتهامه وهى معقد شرفه هى أن الغزالى وقف فى وجه الفلسفة الوثنية وهاجمها ومن الحق أن يقال : أن الغزالى لم يهاجم الفلسفة بعامة ، وقد اعترف بصحة آراء الفلاسفة فى مجال المنطق والطبيعيات ولكنه أنكر عليهم النتائج التى حصلوا عليها فى البحث فيما وراء الطبيعة وفى الالهيات وبذلك حفظ للإسلام مقومه الفكرى الأساسى : « التوحيد » . ومن الشخصيات اللامعة فى تاريخ الاسلام والفكر الاسلامى التى هاجمها التبشير : شخصية « المتنبى » وقد حاول الدكتور طه حسين أن يصل فى كتاب ضخم إلى إثارة الشبهات حول نسب المتنبى بغرض تحقيره وتصغيره فى نفوس المسلمين والعرب حين ادعى أنه لقيط وساق على ذلك شكوك وشبهات كان قد أوردها (بلاشير) فى كتابه عنه وقد تصدى له الأستاذ

محمود محمد شاكر فى فصول متوالية نشرت فى الصحف (راجع كتابنا : المساجلات) فند فيها هذا الاتهام الظالم . ولقد عنى الدكتور طه حسين أيضاً بمحاولة تحطيم شخصية « ابن خلدون » فى أطروحته التى تقدم بها إلى جامعة باريس عام ١٩١٤ والتى كتبها تحت إشراف رجل يهودى هو « دوركايم » الذى كانت آراؤه حملات تعصب على هذا العلامة المؤرخ العملاق . وقد كذبت الدراسات المتوالية وأشارت بالاتهام إلى الدكتور طه حسين وأستاذه بعد أن وضعت أكاليل الغار على رأس شيخ المؤرخين ومؤسس علمى التاريخ والاجتماع وكان للدكتور منصور فهمى موقف قديم فى مجال متابعة المبشرين والمستشرقين حين وضع أطروحته عن (المرأة المسلمة) فى باريس بإشراف عالم يهودى هو « ليفى برايل » وحين تعرض بالاتهام للرسول وزوجاته وقد رجع منصور فهمى عن آرائه هذه وتحول تحولا خطيراً نحو مفاهيم الاسلام واهتم الدكتور طه حسين كثيراً بالأدب الماجن وحاول فى كتابه (حديث الأربعاء) أن يصف (زيفاً وبطلاناً) أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثانى بأنه عصر شك ومجون وكان ذلك اتهاماً خطيراً كشف الباحثون عن خدعته وتضليله ومتابعة ركاب المستشرقين (لا جهلا ولا غفلة) ولكن متابعة فهم كامل للهدف وعمل كامل على تحقيقه فى مختلف المجالات الثقافية والتعليمية وقد كان طه حسين أول من دعا إلى اعتماد كتب المحاضرات والفكاهات كمصدر للدراسة وقد اعتمد هو فى هذا الرأى على كتاب الأغانى ، كما اعتمد جرجى زيدان فى اتهام المسلمين والعرب على كتاب العقد الفريد (الذى أورد حجج فريق المتعصبين للعرب وحجج خصومهم) وكان معظم ما نقله جرجى زيدان من آراء خصومهم . وحين حكم طه حسين على عصر الإسلام الأول بأنه عصر شك ومجون من خلال خمسة من الشعراء المتهالكين على المجون أمثال بشار وأبى نواس وصفهم بأنهم يمثلون عصرهم تمثيلا صحيحاً ، كان قد ترك مختلف طوائف الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والرواة وعلماء اللغة والزهاد . فبظلم البحث العلمى اتخذ من حياة خمسة شعراء ماجنين ميزاناً للعصر كله . واعتبر شعرهم صورة عامة للعصر وقد أولى الدكتور طه اهتمامه إلى مختلف وسائل إذاعة الشعوبية والتشكيك وليس أدل على ذلك من اهتمامه بطبع رسائل إخوان الصفا بعد عودته من أوربا ، وطبع هذه الرسائل عمل أدبى خالص إذا ما قصد به وجه العلم وقام على أصول البحث العلمى وكشف عن حقيقة أهداف هذه الرسائل ، أما إذاعتها بالتمجيد والتكريم بدعوى أنها عمل من أعمال حرية الفكر فهذا هو هدف التبشير والتغريب من إثارة الشبهات وإذاعتها ، والمعروف أن جماعة إخوان الصفا الذين ظهروا فى القرن الرابع الهجرى (٣٣٤ — ٣٧٣) فى البصرة إنما هم جمعية سرية من الباطنية والمجوس والزنادقة الحاقدين على الإسلام والعرب واللغة العربية ولهم صلات أكيدة وواضحة بالحركات السرية التى كانت تعمل على تقويض المجتمع الإسلامى والدعوة الإسلامية — وليس الحكومة الإسلامية فقط — وكانوا قد وجدوا أن الطريق إلى دعوتهم يمكن أن يكون أكثر إيجابية إذا قام على الشبهات الفكرية المتصلة بالتوحيـــد وصميم روح الإسلام وجوهره ، وقد اتخذوا لدعوتهم السرية السياسية ظاهراً فكرياً أخفوا وراءه غاياتهم وطابعاً علمياً وفلسفياً زعموا به أن الشريعة قد دنست بالجهالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة . وهم إنما اتخذوا من رسائل إخوان الصفا منهجاً لقلب الإسلام نفسه ، وإدخال الفلسفات الوثنية إليه

وإبدال طابعه إبدالا ينتهى به تماماً ، وإلا فلماذا أخفى هؤلاء العلماء الأجلاء أسماءهم لو كانوا حسنى النية طيبى القصد . وكان شرفاً لهم أن يعلنوا ذواتهم كمصلحين ! وما زال التاريخ الحديث ملىء بالثغرات والأخطاء التى تجرى اليوم مجرى الحقائق ، وأهمها ما بين العرب والترك ، وفى مقدمة ذلك السلطان عبد الحميد خصم الصهيونية والماسونية والاستعمار البريطانى وحامل لواء الوحدة الاسلامية فى وجه النفوذ الغربى الواحف . وما تزال الحملة على السلطان عبد الحميد التى أثارها الاستعمار والتبشير لخدمة النفوذ الأجنبى والصهيونية ما تزال مستمرة على أقلام الذين يكتبون باللغة العربية دون محاولة صادقة لتحقيق الأصول التى اعتمد عليها هذا الاتجاه . وأعتقد أن الوقت قد حان لتحقيق هذا الموقف وتصحيحه ، وقد كشفت الظروف حقيقة السلطان عبد الحميد وموقفه المشرف فى مسألة فلسطين وموقفه من الصهيونية ومن الاستعمار جميعاً فى هذا الصدد . والحق أن ما وجه السلطان عبد الحميد كان غالباً مسرفاً ولم يكن كله حق ، فلم يكن عبد الحميد على الأقل دكتاتورياً على الصورة التى عرفت من بعد عن الاتحاديين الذين علقوا العرب على المشانق ولا عن مصطفى كمال . وغيره من ديكتاتورى الشرق .

وقد استغل التبشير والاستشراق فى هذا الصدد كتابات « الكواكبى » الذى لو كان يعرف الى أى حد ستصبح كتابته سلاحاً ضد الإسلام والأمة العربية نفسها لتحفظ كثيراً فيما ذهب إليه . والمعروف أن الحملة على عبد الحميد بلغت مداها عندما كادت دعوته إلى الجامعة الإسلامية تؤتى ثمرتها ، وأن الذين حملوا لواء الحملة عليه هم كتاب تخرجوا من الإرساليات التبشيرية وآمنوا بالأهداف التى بثتها فى العالم الإسلامى وهم حين هاجموا عبد الحميد وأثاروا حوله هذه الشبهات لم يكونوا يستهدفون إسقاطه إلا كمقدمة لتمزيق الدولة العثمانية نفسها . وقد عمل دعاة التغريب وأتباع المستشرقين فى مجال الدعوة إلى التبشير بمخطط واضح ، وأفسحوا الطريق للإلحاد والإباحة والشعوبية وهى أهم ثمار التبشير وأبرز دعائم مخططه فى مجال الثقافة ، وهؤلاء الدعاة قد مرنوا على أساليب التمويه فى الغرب وأحكموا طرق الدعاية « ووقف من ورائهم قوم لهم نفوذ يحمون ظهورهم ويدفعون عنهم ما يصيبهم » وذلك فى سبيل الغاية الكبرى : « هدم الإسلام فى قلوب أهله وتجريد المسلمين منه » . فالدكتور كامل حسين على الصلب وأثره فى كتابه قرية ظالمة . وعلى عبد الرازق : حاول أن يتخذ من النصوص المقطوعة عن أصولها ما ينفى عن الإسلام أنه دين حكم ونظام مجتمع . وطه حسين : عمد إلى تحطيم قدسية النص الدينى والفصل بين الدين والأدب فى الفكر الاسلامى . ولقد عرض كثيرون لكتاب الشعر الجاهلى وقالوا : إن طه حسين يردد نظرية مرجليوث فى أن الشعر الجاهلى موضوع ، وهو مغمز يدين طه حسين كباحث ولكن الهدف الأخطر من الشعر الجاهلى الذى لا يزال يقرأ تحت إسم الأدب الجاهلى هو دعوته إلى « نسيان القومية والدين كشرط أساسى من شروط البحث العلمى » . ويصور خطر هذه الدعوة المستشرق (كامفاير): إن المحاولة الجزئية التى قام بها طه حسين ومن يشايعه فى الرأى لتخليص دراسة العربية من شباك العلوم الدينية هى حركة لا يمكن تحديد آثارها على مستقبل الاسلام مهما أسرفنا فى التقدير فإنك لا تجد كلمة عنها . ذلك أن عملية الفصل بين أجزاء الفكر الاسلامى المتقابلة الملتقية ، هو الهدف الأول الذى يهدف إليه التبشير والاستعمار وهو الذى يجعل الأديب جريئاً على كتابة الأدب المكشوف دون أن

تخطى قيود الأخلاق ، وأن يصبح النص القرآنى عرضة لأن يوضع موضع النقد ، وهذا هدف كبير .
أما سلامة موسى فقد كان مفهومه واضح وعمله صريح : عبر عنه فى حرية كاملة حين قال « هذا هو مذهبى الذى أعمل له طول حياتى ، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب فى كل ما أكتب ، أحاول أن أجعل قرائى يولون وجوههم نحو الغرب وينفصلون من الشرق ، وليس هناك حد يجب أن نقف عنده فى اقتباسنا من الحضارة الأوربية ، ولا ريب أن هذا من أكبر أهداف التبشير والنفوذ الاستعمارى . وقد ردد طه حسين الدعوة إلى تكوين الصفوة المثقفة . وأشار إلى أن السبيل لتحقيق ذلك هو أن نفتح الطريق أمام مختلف العناصر الأجنبية وقال : إما أن نقتصر على ثقافة بعينها أو يقتر علينا فى الثقافة فلا تدخلها العناصر الأجنبية إلا بمقدار ، فهذا هو الشر الذى لا يتفق مع كرامتنا » وقال : هناك أشياء لا بد منها لتكوين المثقف الممتاز أهمها أمران : فتح الأبواب الثقافات الأجنبية لتتزوج بثقافتنا والعناية بجعل اللغة العربية لغة مصرية » . ومعروف بالطبع ما يقصد إليه طه حسين .

وقد احتفلت دوائر التبشير إلى أبعد حد بالآراء التى أعلنها « على عبد الرازق » فى كتابه عن الإسلام وأصول الحكم التى حاول بها أن يجعل الإسلام ديناً روحياً محضاً لا علاقة له بالحكم والتطبيق للشريعة الإسلامية ، فقد كانت هذه الآراء التى أكدها عالم من الأزهر عام ١٩٢٦ هى نفس الآراء التى ألقاها اللورد كرومر إلى المثقفين من المصريين الطامحين إلى تولى شئون بلادهم عام ١٩٠٦ وفى مقدمتهم سعد زغلول ولطفى السيد وعبد العزيز فهمى ، غير أن أحداً لم يجرؤ فى هذه الفترة أن يواجه هذه المسألة فى صراحة ، وكانوا جميعاً يدورون حولها فى رفق ومكر حتى جاء هذا القاضى الشرعى فوضعها موضعاً علمياً زائفاً على طريقة المستشرقين والمبشرين فى فهم النصوص واستغلالها . ذلك أن على عبد الرازق كان قد حدد لنفسه أو حدد له ذووه الغاية قبل أن يبدأ البحث : الغاية هى مقاومة محاولة الملك فؤاد فى الحصول على الخلافة . هذه المحاولة التى لم يكن فى الإمكان معارضتها سياسياً ولذلك فإن السلاح الماضى لتحقيقها هو سلاح (النص الدينى) ومن هنا أجرى على عبد الرازق هذه المحاولة معتمداً على نصوص ممزقة من هنا وهناك وعلى كتب(١) مؤلفة فى تركيا حاول ذووها تأييد الاتجاه الذى قرره الاستعمار ونفذه مصطفى كمال بإلغاء الخلافة ومحاولة إيجاد عقلية لهذا الغرض تقوم على أن الخلافة ليست أصلا من أصول الاسلام .
و « فيليب حتى » واحد من المبشرين الذين عملوا فى مجالات الدراسات التبشيرية فى الغرب وقد حملت كتبه جميع الشبهات والنظريات التى قصد النفوذ الاستعمارى إلى ترويجها وإذاعتها . وهو من الذين يردون النهضة الفكرية واليقظة العربية إلى دور إرساليات التبشير والحملة الفرنسية وغيرها من الآراء التى ثبت كذبها وضلالها . ومن آرائه التى أذاعها فى جماعة من العرب عام ١٩٤٦ قوله : « لا بد لتحقيق النجاح من فصل الجامعة العربية كل الفصل عن الجامعة الاسلامية ، فالأولى تجعل اللغة والثقافة أساساً للتعاون والثانية تجعل الدين . ثم يروج الدعوة التبشيرية الغربية لفصل الدين عن السياسة (وهو ما لا يقره الفكر الاسلامى) فيقول : ومن الواضح أنه ما لم يتم فصل الدين عن السياسة فصلا تاماً فلا تستطيع البلدان العربية الاجتماع على مستوى واحد ، ويجدر بالبلاد العربية أن تقتفى أثر لبنان . وساطع الحصرى له آراء جيدة فى موضوعات كثيرة من الثقافة العربية ولكن خطأه الوحيد الذى يترتب عليه كثير من

أخطائه فى قضية القومية العربية التى ركز عليها وسلطت عليه الأضواء من أجلها — هذا الخطأ هو أنه (استورد) المفهوم الغربى للقومية وحاول تطبيقه فى مجال ثقافة ترتبط بالاسلام أساساً والاسلام أساس من أسس فكرها الذى لا ينفصل فى مجال التاريخ واللغة والتراث . وساطع الحصرى متأثر فى هذا الاتجاه كله بالمفهوم الغربى « العلمانى » الذى يفصل بين الدين والمجتمع ، وهو إلى ذلك يفهم الاسلام فهماً قاصراً فهو يتناوله على أنه (دين تعبدى لاهوتى) قائم على العلاقة بين الله والإنسان ، ومن هنا فهو يستبعده كأرضية للثقافة ، وهذا الفهم خاطىء أساساً فليس الإسلام كذلك ولكنه فى اعتقادى خطأ مقصود ، ومستهدف ، وهو نفس المفهوم الذى روجت له حركة التبشير وحركة الاستشراق ، واعتبره الاستعمار أساساً جذرياً لتعامله مع التعليم والتربية والثقافة فى العالم الاسلامى ، وهو نفس المفهوم الذى اعتنقته حركة الاتحاديين التى حكمت الدولة العثمانية منذ ١٩٠٨ إلى ١٩١٤ وكان ساطع الحصرى هو المسئول عن التعليم فى تركيا خلال هذه الفترة . وقد نقل مفهومه هذا إلى العراق خلال الفترة التى حل بها مشرفاً على شئون التعليم بها حتى وصف بأنه (دنلوب العراق) . ومن السهل جداً على الباحث المثقف أن يرد آراء طه حسين وسلامة موسى وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى وآراء الشعوبيين ودعاة التغريب إلى يومنا هذا إلى « الكود » الأصلى ، الذى كتبه المبشرون والمستشرقون فى مختلف جوانب الرأى فى اللغة العربية والاسلام والتاريخ والحضارة الاسلامية . ولقد تعجب لدقة هؤلاء فى الكتابة عن مختلف الشبهات حتى لقد عنى باحث مثل بارتولد بكتابة ترجمة واسعة مستفيضة لمسيلمة الكذاب نشرتها مجلة الرابطة الشرقية فى مصر عام ١٩٢٨ كما تخصص بلاشير فى المتنبى لهدفه وتخصص ماسنيون فى الحلاج لاحيائه ولكن كتابات أتباع المستشرقين والمبشرين فى اللغة العربية لم تمر دون رد عليها وكشف عن أخطائها وأهوائها . وقد تناول الرد على طه حسين عشرات من الكتاب : الرافعى ولطفى جمعه وفريد وجدى والخضر حسين ومحمد أحمد الغمراوى . وتناول الرد على عبد الرازق : محمد بخيت والخضر حسين والطاهر ابن عاشور وغيرهم . ورد على قاسم أمين : طلعت حرب وفريد وجدى . ورد على فرح أنطون الامام محمد عبده . ورد على شبلى شميل : العلامة فريد وجدى . ورد على جرجى زيدان : العلامة شبلى النعمانى ورد على لطفى السيد رجال أكرام أمثال : فريد وجدى وعبد العزيز جاويش والرافعى ، فعلى الباحث المسلم المتفطن الذى يقرأ كتب هؤلاء التابعين للتبشير والتغريب أن لا يتقبل آراءهم كقضايا مسلم بها وأن يعرف وجهة النظر الصحيحة الأصيلة .

---

(١) تبين للدكتور ضياء الدين الريس من نص الشيخ بخيت أن كتاب على عبد الرازق له مصدر أصلى هو كتاب مرجليوث . إقرأ كتاب (الاسلام والخلافة للدكتور الريس) .

الفصل الرابع

الصحافة التبشيرية

كانت الصحافة من أخطر الوسائل التي استعان بها التبشير على إبلاغ دعوته إلى المسلمين ، ليس ذلك فقط عن طريق الصحف التبشيرية الصريحة — فالمعروف أن هذه الصحف كانت معروفة وكانت موضع الامتهان والتحفظ . ولذلك فقد عمد التبشير مدعماً بالنفوذ الاستعماري إلى السيطرة الفعلية على الصحافة إبتداء ، ولقد كانت مصر باعتبارها أبرز الدول العربية هي المركز الأول الذي حرص الاستعمار على أن يبعث منه إلى العرب جميعاً أهدافه ومخططاته ، ولذلك فقد نشأت الصحافة في مصر في كنف التبشير والنفوذ الاستعماري، وكانت أهم الصحف وأخطرها وأكثرها انتشاراً وأطولها عمراً هي الصحف ذات الولاء الاستعماري التبشيري وفي مقدمتها : الأهرام والمقطم . ومن المجلات : المقتطف والهلال . ومن عجب أن أصحاب هذه الصحف ومحرريها كانوا من اللبنانيين المارونيين الذين تخرجوا في الإرساليات التبشيرية أو لهم ولاء لها أو صلة من قريب أو بعيد . وكان الأهرام واضح الهوية في الولاء للفرنسيين والدفاع عن معاهدهم وآرائهم وحضارتهم واستعمارهم حتى أنه أطلق على الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ م اسم الشغب وعلى أصحابها العصاة ، كما أطلق هذا الوصف من قبل على الثورة العرابية ودافعت عن غوردن ، وكانت كتاباتها تقطر سماً حتى أنها تعرضت مرة لحدثين مختلفين متباعدين وقرنتها معاً في أسلوب ماكر لئيم، فقد كانت الحركة الوهابية في الحجاز تستعيد الحرمين، وحدث أن بعض المصريين اتهموا في مصر بالشيوعية . فكتب « داود بركات » الصحفي التبشيري الحصيف مقالا تحت عنوان (الوهابية والشيوعية على أبواب مصر) . وقد كانت الأهرام تهاجم الانجليز تأكيداً لنفوذ فرنسا في مصر وكانت تحارب اللغة الانجليزية والثقافة الانجليزية والمعاهد الانجليزية تأييداً للغة الفرنسية والثقافة الفرنسية وكانت تغمره بالخلاف والخصومة والتفكك وإيقاع الفتن بين الدول العربية . أما المقطم فقد كان حامل لواء الاتحاد بين الأتراك وخصوم الجامعة الاسلامية والوحدة . وطالما دس الدسائس لتمزيق وحدة العرب والترك . وهاجم السلطان عبد الحميد خدمة للنفوذ الأجنبي والصهيونية وطالما استرضى القلوب والنفوس على اليهود المظلومين !. وقد واجهت الصحف المصرية حركة التبشير (١٩٣٢-١٩٣٣) مواجهة تدل على مدى خضوع بعض الصحف للنفوذ الاستعماري والتبشير نفسه . فقد حملت جريدة الجهاد وصاحبها توفيق دياب على الصحف التي فضحت التبشير ، وقريباً من هذا فعلت كوكب الشرق ورئيس تحريرها طه حسين ، بل إن طه حسين حين كتب يقول في عبارة ساخرة : « إن الإسلام لا يضيره أن يخرج منه واحد أو أكثر » . وقد كشف المبشرون في مؤلفاتهم « عن أنهم استغلوا الصحافة المصرية للتعبير عن آرائهم أكثر مما استطاعوا في أي بلد إسلامي آخر » وقد ظهرت مقالات كثيرة في عدد من الصحف المصرية إما مأجورة في أكثر الأحيان أو بلا أجر في أحوال نادرة . وقد أشار الأستاذ محمد محمود بدير أن بعض الصحف المصرية حصلت على مبالغ طائلة من جهات متعددة في سبيل نشر مقالات

معينة وأن أهم هذه الصحف هى السياسة الأسبوعيه والمصور (وأضيف المجلة الجديدة لسلامة موسى ومجلة الرابطة الشرقية التى كان يشرف عليها على عبد الرازق) أقول : « وتحدث المطلعون على مقدار الصلة بين بعض المصريين المشتغلين بالصحافة وبين زعماء تلك الجمعيات فى الخارج وعن الإمدادات المالية التى ترد تباعاً تنفيذاً لمبادىء الجمعيات المذكورة التى تقضى بمديد المساعدة لكل فرد أو هيئة تعمل لنشر مبادئها، حتى إذا كان النصف الأخير من سنة ١٩٢٧ وقعت مشادة بين محمد باشا رئيس حزب الدستوريين ورئيس تحرير جريدة السياسة وسبب المشادة هو تألم أنصار الحزب من الخطة الإلحادية التى تسلكها جريدة السياسة الأسبوعية وعلى أثر ذلك بدأت هذه الجريدة تخفف من حملاتها على الأديان والتعاليم وقد نشرت السياسة الأسبوعية جملا وتصريحات لطه حسين وعلى عبد الرازق وسلامة موسى فى مهاجمة الإسلام والتشكيك فى الأديان بالقول بأن التبشير شىء هين أمام حركات الإلحاد والملحدين، وقال : إن هذه الجمعيات تعنى أكبر عناية بمصر وتعتقد أنها قلب الشرق ومعقل الإسلام فإذا تمكنت من تضليل عدد كبير من أبناء مصر ونزعت من نفوسهم مبادىء الإسلام سهل عليها تحقيق غرضها .

الفصل الخامس

المنهج الذى تدرسه معاهد تخريج قادة المبشرين

هذه صورة للمناهج التى تدرس فى معاهد تخريج المبشرين مستخلصة من تقريرات المبشرين :

(أولا) يجب أن يكون معلوما أن العالم الإسلامى هو الخطر الماثل أمام الغرب ، وأنه إذا تيقظ وتوحد كان خطراً على مصالح أوربا ، فالغرب يتخذ من العالم الإسلامى منطقة نفوذ سياسية واقتصادية هامة ، فهو مصدر الخامات وسوق المبيعات وبه منابع البترول والمواقع الاستراتيجية العسكرية التى تجعل من يملكها مسيطراً على مقدرات السياسة العالمية . والمسلمون قوم لهم كتاب يثقون به ثقة لا حد لها وقد حلت تعاليمه لهم عوامل الوحدة والقوة وهو يدفعهم إلى مقاومة الغاصب والمعتدى والدخيل ويشن أعنف حركة مقاومة هى الجهاد ويجعل الاستشهاد فى سبيل الدفاع عن الأرض دفاع عن الإسلام نفسه . وقد كانوا على طول تاريخهم قادرين على هذه المواجهة فيهم صلابة وعناد وقدرة على الفداء والبذل والتضحية . وهم فى مختلف معاركهم كانوا الفريق الأقل عدداً وعدداً ومع ذلك فقد كانوا ينتصرون بذلك الإيمان العجيب الذى يملك قلوبهم والذى يصدر من شىء واحد هو الاسلام . وقرآنهم يرسم لهم منهج حياة كامل فى القانون والسياسة والاقتصاد والاجتماع ويقدم نظاماً شاملا يقوم على التوحيد والأخلاق والوحدة والمساواة والعدل الإجتماعى والشورى ويجمع الاسلام بين الدين والدولة وهم إذا اتبعوا هذا المنهج فمن المحتم أن تكتب لهم السيادة ولابد أن يزيلوا نفوذ الغرب عن بلادهم . ولقد رأينا فى الحروب الصليبية من المسلمين قوة وصبراً على الجهاد ووحدة فى المقاومة مصدرها الاسلام . لذلك فإن أصلح طريق للسيطرة عليهم وإدامة هذه السيطرة إنما يكون عن طريق المحاولة دون تنفيذ خطط

الإسلام الاجتماعى والسياسى ، هذه الحيلولة لن تكون قادرين عليها إلا بتربية جيل يكره هذه المفاهيم ويحتقرها ويسخر منها وبها . (ثانياً) إن أهم عمل لاخضاع المسلمين لا يتم عن طريق الجيوش والاحتلال وإنما يتم عن طريق الثقافة والدين بإخضاع المسلمين للثقافة الغربية وبذلك ينتزع منهم أبرز ما فى الإسلام من علامات القوة والجهاد والمقاومة والوحدة . ولذلك فإن علينا أن نضمن مناهج التعليم والثقافة ما يؤدى إلى هذا الإتجاه ، على أن ينفذ ذلك بدقة ومرونة وعلى آماد طويلة ، وأن نقيم مدارس ومعاهد تجذب المسلمين إليها . حيث يتعلمون فيها كيف يعجبون بأوربا ودينها وفكرها وعظمائها ، وبذلك يتحول ميزان النفسية الاسلامية والعقلية العربية من المقاومة والجهاد والحذر إلى التقبل والولاء والاعجاب . وبذلك يصبح هذا الجيل هو القادر على قيادة الحركة الفكرية بفضل توجيهنا وحمايتنا فإذا فرض علينا الجلاء وترك مواقعنا العسكرية والسياسية كان لهذا الجيل القدرة على حماية مخططنا ومفاهيمنا . ولابد من مثابرة دائمة عن طريق المثقفين أصحاب الولاء لفكرنا وأمتنا ، على إثارة الشبهات والشكوك حول الاسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث والقرآن ومحمد وعلينا أن نحول دون قيام ثلاثة أشياء :

(١) الجامعة الاسلامية (٢) الاسلام دين ودولة (٣) التعليم والأخلاق والدين — ولابد من دفع قدر ضخم من عوامل المتعة واللذات أمام الشباب عن طريق القصة والمسرح وفتح النوادى الليلية ومعاهد الرقص وحانات الخمر ، وذلك للقضاء على مقومات الشخصية المسلمة وتدميرها وهدمها وإحلال روح من الفساد والتحلل والميوعة بين الرجال والنساء. ولابد من الدعوة إلى حرية المرأة . أما حرية الفكر فهى التى تفتح الطريق أمام النظريات المضللة والهدامة للإسلام والفقه والتاريخ أما حرية المرأة فهى التى تفتح الطريق امام انحلال المرأة والأسرة وهدم الأجيال القادمة من الشباب والطبقات (ثالثاً) إن هدفنا هو تغيير العقلية الاسلامية والقضاء على مقوماتها الأساسية عن طريق التعليم والثقافة وتوهين عروة العقائد الاسلامية والحضارة الاسلامية والأخلاق الاسلامية لفرض حضارة الغرب وفلسفة حياته على المسلمين. إن علينا أن نخرج المسلمين من دينهم وواجباته ، ومن ناحية أخرى أن نصور لهم الاسلام دينا رجعياً ليس له أثر فى تطور الحياة الانسانية . وأن نعمل على تشويه الحركة الاسلامية وتهوين المقومات الانسانية والروحية والاسلامية وإظهارها بأبشع صورة فى المجتمع ، وشن حملة على رجال الدين واتهامهم بالتخلف والجمود ولابد من إقصاء الاسلام عن المناهج الدراسية ، وإذا كان لابد فليكن على أنه دين عبادة ، دين روحانى ، عبارة عن صلوات وتسابيح ولاشىء غير ذلك ، أما إنه نظام إجتماعى أو اقتصادى أو تربوى فذلك مايجب إبعاده وانتقاصه وتوجيه حملات التشكيك إليه وإثارة الخلافات التى وردت فى كتب المسلمين ، وضرب النصوص بعضها ببعض وإذا كان لابد من تعلم التاريخ الاسلامى فلابد أن يكون بأقلام كتابنا ولدينا مئات الكتب عن الاسلام وتاريخه تصلح للتدريس فى المعاهد والجامعات والاستعانة بما أورده المستشرقون فى دراساتهم من شبهات وما قدمه كتاب الغرب الأحرار فى مواجهة الأديان ونشر المذاهب الفوضوية والاباحية ونقل آراء نيتشة وداروين ورينان وغيرهم بما وجه إلى المسيحية ،إلى الاسلام نفسه والاهتمام بالدور الذى لعبه تاريخ أوربا الحديث فى مجال الديمقراطية الليبرالية وإثارة روح الاعجاب والتقدير للدور الذى قام به العقل الأوربى فى

مجال الحضارة والنظم الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والتربوية ونشر الدعوة إلى عالمية الحضارة الأوربية وانصهار الثقافات والحضارات المختلفة منها ، وأن أوربا هى التى يجب أن تخضع لها النظم العالمية القائمة فى المجتمع البشرى كله وخلق عقيدة فى نفوس المسلمين بأن نظم أوربا طوداً شامخاً وأنه لاسبيل لحرية أو نهضة إلا إذا اعتنق المسلمون أسلوب العيش الغربى ، فيجب أن يخضعوا لنفوذها ويسيروا فى ركابها أولا حتى تتحقق لهم الحرية ، (رابعاً) إن على رجالنا أن يكونوا غاية فى الجرأة ولا يخافوا شيئاً فإن هناك الامتيازات الأجنبية تحميهم فلا يحاكم أحد منهم أو تستطيع أى حكومة أن توجه إليه أى لوم غير أن مقاومة الاسلام بالقوة تزيده انتشاراً . أما الوسيلة الفعالة لهدمه وتقويض دعائمه فهى تربية بنيه فى المدارس التبشيرية أو المسيحية ونفث جراثيم الالحاد فى صدورهم منذ نشأتهم من حيث لايشعرون مالم يتنصروا فيصبحوا لامسلمين ولامسيحيين. (خامساً) أن نحول بين المسلمين وبين الوحدة فإذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً أما إذا ظلوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير ، إن الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السود وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية لذلك فإن التبشير عامل هام فى كسر شوكة هذه الحركات فهو يعمل على سلب الحركة الاسلامية عنصر القوة والتمركز وبذلك تتفتت وحدة المسلمين وندرأ خطر امتداد سلطانهم باستغلال الشعوب الأوربية لهم واستنزاف ثرواتهم . (سادساً) إن مهمة المبشرين هو تأجيج الخلاف بين الطوائف ، وخلق تخاذل روحى وشعور بالنقص فى نفوس المسلمين وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية الغربية . (سابعاً) لابد من الاهتمام بالمبعوثين إلى الغرب وتدريبهم على أساليب الكتابة المرنة الدقيقة الماكرة التى تدخل السم فى أسلوب من البراءة والبساطة . وعلينا أن نغريهم بالزواج من الأجنبيات حتى يكونوا خاضعين لنا ولحضارتنا وأفكارنا خضوعاً كاملا ، وعلينا أن نقدم لهم دائماً تلك الشبهات الماحقة لينشروها بين قومهم فإن كتاباتهم ستكون أكبر أثراً فى نفوس أبناء أمتهم من كتابات كتابنا ، وعلينا أن ندربهم على أسلوب التمويه والبراعة فى عرض الشكوك والشبهات ورفضها وإعادتها وتقبلها مرة أخرى حتى تحدث زعزعة لايمان المسلمين بقيمهم الاسلامية ، (ثامناً) إن نزع الاعتقادات الاسلامية ملازم دائما للمجهودات التى تبذل فى سبيل التربية الغربية ذات الطابع التبشيرى .

الباب الثالث

أبعاد التبشير مع القوى المختلفة

الفصل الأول : التبشير والاستعمار — الفصل الثاني : التبشير والتغريب
الفصل الثالث : التبشير والاستشراق — الفصل الرابع : الدائرة المرنة والدائرة الصماء

الفصل الأول

(١) التبشير والاستعمار

إن « العالم الإسلامي » اليوم يمر بمرحلة دقيقة من حياته تختلف اختلافاً كبيراً من المرحلة السابقة: مرحلة الاستعمار ، فقد أصبح معروفاً وواضحاً أن الاستعمار تخلى عن احتلاله لأغلب وحدات عالم الاسلام وأصبحت هذه الوحدات « مستقلة » بعد أن رحلت قوات الاحتلال وتركت الأوطان لأصحابها يديرونها . هذه المرحلة الجديدة هي مرحلة ما بعد الاستقلال قد أعطت الناس شعوراً بالحرية والأمن ونقلتهم من مشاعر المقاومة والخطر والتحفز التي كانوا يعيشونها خلال فترة الاحتلال وإبان حكم الاستعمار إلى شعور بالدعة والطمأنينة دفعهم إلى الانطلاق إلى مختلف مجالات المتعة واللهو حيث لم تعد هناك قضية من قضايا التحدي تشغلهم أو تستوعب جهودهم . وهذا هو الخطر الحقيقي الذي يواجه شبابنا وأمتنا في هذه المرحلة ، ذلك أن النفوذ الاستعماري عندما أجلى قواته وعساكره ، إنما كان قد اطمأن إلى أن له نفوذاً دائماً أصبح قادراً على الحركة بدلا منه ، وهو في نفس الوقت أخفى من الخفاء ، وأدق من الدقة نفسها ، ذلك النفوذ هو « الغزو الثقافي » والاستعمار الفكري أو ما نطلق عليه نحن عبارة « التغريب » ويجب أن يكون موضع التقدير ، إن الاستعمار لم يحقق الجلاء العسكري إلا وقد حقق أكبر أهدافه في فرض نفوذ دائم مستمر ، لن ينقطع مع هـذه الوحدات التي استعمرها طويلا . هذا النفوذ هو النفوذ الفكري والثقافي . والمعروف أن حركة اليقظـة الإسلامية العربية حين استهلت في منتصف القرن الثامن عشر ، ومضت طوراً بعد طور ، وحلقة بعد حلقة ، إنما كانت جعلت من أكبر أهدافها مقاومة النفوذ الاستعماري بأسلوب إسلامي عربي صميم ، هذا الأسلوب هو تجديد طوابع الفكر الاسلامي بالتماسه مفاهيمه الأساسية وجذوره الأولى التي كانت مصدر قوته ، والتي تخلفت وضعفت فاستطاعت القوى الاستعمارية أن تنفذ إليه يوم تخلف عن مفاهيمه وقيمه ، وأتاح لنفسه في نفس الوقت التماس أساليب الغرب ومناهجه وأخذ علومه والجوانب الجادة من حضارة كان هو مصدراً من مصادرها أساساً . غير أن هذا المنهج وهذا الأسلوب لم يكن مقبولا من الاستعمار والنفوذ

الغربي ، الذى لم يكن ليسمح لهذه الأمة أن تستيقظ وتقوى وهو إذ كان حريصاً على استمرار نفوذه واستدامة بقائه فقد خرق هذه الدائرة المرنة وكون دائرة أخرى قوامها منهج جديد هو التماس حضارة الغرب وفكره معاً ، والذوبان فى الفكر الأممى . والحضارة العالمية ، حتى يفقد المسلمون خصائص ثقافتهم وملامح شخصيتهم ويتقبل النفوذ الاستعمارى تقبل إيمان وثقة وصداقة ، ومن هنا أراد أن يؤكد الاستعمار وجوده بالقضاء على الدائرة المرنة وتصفيتها وإنماء الدائرة « الصماء » وفرضها وفرض ثمارها على مختلف مجالات القيادة الفكرية والاجتماعية والسياسية . وقد كان على الاستعمار وهو يطمع فى البقاء الطويل أن يقضى على عوامل المقاومة ، والمسلمون والعرب يستمدون عوامل مقاومتهم من أساس فكرهم الإسلامى العربى الذى يرفض الدخيل والنفوذ الأجنبى ويقاومه بالجهاد وحد السيف ، فلا بد إذن لهذا النفوذ أن يقضى على هذه الأسس من المفاهيم ولذلك فلا بد من القضاء على أبرز مقومات الفكر الإسلامى . ولم يكن ذلك يسيراً طالما أن هذا الفكر حى يتجدد ، وهذه الثقافة ما تزال مرتبطة بجذورها الاسلامية ، لذلك فقد كانت أخطر خطوة يخطوها النفوذ الاستعمارى هى العمل على فصل الثقافة العربية عن أمها الفكر الغربى الذى يحمل قيماً ومفاهيم وأسساً تختلف اختلافاً كبيراً .
وكان للاستعمار لكى يحقق هذه الغاية أن يلجأ إلى وسيلتين هامتين : الأولى : التربية والتعليم . والثانية : الثقافة ، فمن طريق التربية والتعليم يستطيع أن يلتقط الشباب المسلم فى المراحل الأولى من حياته وقبل أن تنمو مفاهيمه الاسلامية وجذوره العربية ويعمل على بنائه فى مدارس التبشير ومعاهد الارساليات الأجنبية وفق منهج دقيق الخطر وضعه دهاقنة الاستعمار والنفوذ الأجنبى بحيث يخلق منه إنساناً لا يحمل أى معنى لحب وطنه أو الغيرة لدينه أو التعلق بأمته أو التقدير لتاريخه أو الإعتبار للغته وإنما هو إنسان متطلع إلى الغرب ، هواه هناك ، وتقديره للحضارة الغربية بالغ ولأبطال الغرب كبير ولتاريخ الغرب ولغته وثقافته بالغ الخطر ، ومعه إيمان وعقيدة بأن وطنه المتأخر المتخلف المستعمر لا يستطيع أن يشق طريقه فى الحياة إلا أن يكون تابعاً لهذا الغرب ، مصادقاً لهذه الحضارة ، عبداً لهذا النفوذ ، لا يرى فى الإستعمار خطراً ، ولا يوليه خصومة بل يراه صداقة وتقديراً وإعجاباً مؤمناً بدور الغرب ودور الرجل الأبيض فى تمدين الأمم المتخلفة ونشر رسالة الحضارة هذا هو ما تبثه هذه المعاهد والمدارس والإرساليات المفتحة الأبواب فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى والوطن العربى لغير القادرين على الإلتحاق بالمدارس الأميرية ذات المصروفات الكثيرة ، ومن ثم فإن أجيالا كبيرة متعاقبة ، ورجالا كثيرين من المسلمين والعرب قد تخرجت من هذه المعاهد والمدارس والجامعات وقد صيغ فكرها على هذا النحو وصنعت عقليتها وفق هذا المخطط ، ثم أتيح لها من بعد أن تتصدر مراكزها فى الحياة الإجتماعية والسياسية والتربوية ، وأن تحمل من مفاهيمها هذه عقائد ، ومن النظريات هذه التى بثها الاستعمار عن طريق الإرساليات فى أنفسها حقائق تؤمن بها وتدافع عنها وتذود من أجلها . (٢) وفى مجال الثقافة كان عمل الإستعمار عن طريق الصحيفة والكتاب والفيلم السينمائى والقصة المسرحية بالغ الأهمية والخطر ، فقد حملت هذه الأدوات كلها أفكاره التى قدمت بأسلوب غاية فى الدقة والفن وأضفى عليها قدر كبير من البراعة والطلاوة ، وكان قوامها خلق جو المتعة والتحرر والانطلاق عن طريق ملذات الجنس والإباحية والكلمة الجريئة والصورة العارية والعبارة المكشوفة ووراء ذلك كله نظرية فلسفية

تدعمها تقول أن الكبت هو مصدر الشقاء والمرض وأن إطلاق الغرائز ، وتحريرها . والكشف فى الثواب والكلمة أن الحرية فى التماس متعة الشراب والمخاصرة والرقص، عن طريق هذا المخطط التبديدى استطاع النفوذ الأجنبى أن يخلق ركائزه التى اعتمد عليها فى بناء أجيال ترضى عن الإستعمار وتتقبله فكراً وحضارة وبذلك يمتد بقائه ويصبح شرعياً متقبلا ، وليس خصما يحارب أو يقاوم ، وهذا أخطر مايواجه مرحلة مابعد الاستقلال من تحديات : فالعرب والمسلمون يجب أن يكونوا قادرين على ربط ثقافاتهم بجذورها من الفكر الإسلامى . مصدره وأساسه ، لقد مرت الثقافة العربية بمرحلتين متواليتين أولاهما مرحلة الجمود والتخلف ، حين توقفت الأساليب الأدبية والمضامين الفكرية عن النمو ، والثانية حين بدأت معالم اليقظة العربية الإسلامية مجددة للمناهج والأساليب مستمدة مفهوم الإسلام نفسه ومقوماته الأساسية ، وحين طغت تيارات الفكر الغربى تحمل عشرات من النظرات والفلسفات والدعوات وقد كان للاستعمار والنفوذ الغربى أثره البعيد فى فرض هذه النظرات التى تأثرت الثقافة العربية والفكر الإسلامى بها ، حيث جرت معركة ضخمة بين التبعية والأصالة، وبين المحافظة على مقومات الفكر الإسلامى والشخصية العربية الإسلامية ببعث التراث الإسلامى وتجديده والتماس منابعه من القرآن والسنة وبين عوامل الترجمة والنقل والاقتباس . وعاش الفكر الإسلامى والثقافة العربية بين نظريتين : نظرية مستمدة من حركة اليقظة الإسلامية تدعو إلى بناء الجديد على أساس القديم والمواءمة بين إحياء التراث وترجمة الفكر الغربى :ونظرية قادها دعاة التغريب وحملة النفوذ الأجنبى وقوامها : تقبل الحضارة الغربية والفكر الغربى تقبلا كاملا وظل الصراع ممتداً بين النظريتين : حتى جاء الوقت الذى أصبح من الحق فيه أن يقال أن العالم الإسلامى والأمة العربية قد بلغت مرحلة الرشد الفكرى ، وأن الفكر الإسلامى الذى كان طوال تاريخه قادراً على تأكيد ذاته ووجوده ودعم مقوماته وقيمه وفتح الأبواب أمام الثقافات المختلفة يأخذ منها مايزيده قوة وحيوية ، هذا الفكر قد أصبح اليوم على أبواب مرحلة هو فيها أكثر قدرة على أن يبنى قاعدة الأساس مستمدة من مقوماته الأصيلة ، التى هى عصارة مزاجه وشخصيته ومفاهيمه ، وأن يتقبل من الثقافات الانسانية مايزيد هذه القاعدة قوة وهذه الشخصية حيوية دون أن ينصهر فى الفكر الأممى أو يضيع فى ثقافات الغرب أو الشرق على السواء ومن شأن هذه النظرة الجديدة ، نظرة الأصالة والرشد الفكرى أن تعيد النظر فى كل المؤسسات والقضايا التى قد تركت منذ وقت طويل آثارها وبصماتها على حركة تطور الثقافة العربية والفكر الاسلامى وذلك حتى تتحرر من آثارها التى تحاول أن تقضى بمرور الزمن على مقومات الفكر الاسلامى والثقافة العربية وكذلك على الشخصية العربية الاسلامية نفسها ذات الوجود المتميز الصريح ومن هنا فإن أبرز ما تتجه إليه نظرة المثقفين فى سبيل تحرير الفكر الاسلامى والثقافة العربية وتأصيلهما هو مواجهة هذا الخطر الكامن الخفى الذى خلفه الاستعمار قائماً فى أوطاننا بعد أن سحب جيوشه وقواه العسكرية ونفوذه السياسى : هذا الخطر المتمثل فى الاستعمار الثقافى أو الغزو الفكرى أو التغريب . هذا الخطر الذى ركز عمله على دعامات ثلاث : هى التعليم والتربية والثقافة . إن الحقيقة التى يجب أن تكون ماثلة فى كل عقل ونفس ، هى أن النفوذ الاستعمارى الذى ماتزال مصالحه قائمة فى العالم الاسلامى والأمة العربية إنما يريد استبقاء هذا النفوذ عن طريق « تغريب » الثقافة العربية والفكر الاسلامى وسلخ مقوماتها

وإضفاء مقومات الفكر الغربي والثقافة الغربية عليها بحيث ينتزع من هذا الأمة مقدرتها النفسية والعقلية على مقاومته أو معارضته أو التخلص منه وإحلال روح من التقبل له والتشبع به والصداقة له والدفاع عنه بل والإعجاب به، هذه الروح تحمل في طياتها أيضاً الغض من شأن التراث العربي واللغة العربية والتاريخ العربي الإسلامي والشريعة الإسلامية وإثارة الشبهات والاتهامات حولها جميعاً. إن أمتنا كي تحقق ذاتها لابد أن تكشف هذه الصفحة الهامة من صفحات النفوذ الاستعماري وهذا التحدي الخطير الذي واجه الإسلام واللغة والثقافة جميعاً: هذا الخطر المتمثل في حركة التبشير ومراحلها وتطوراتها التي إن تكن قد اختلفت مظاهرها من العالم العربي اليوم فإنها لاتزال حية في أعماق مناهج الدراسة والجامعات والثقافة، فضلا أنها لاتزال حية على الصورة الصريحة في أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي وخاصة في قلب إفريقيا وجنوب شرق آسيا. لابد للمثقف العربي من إحاطة بهذا الدور الذي يلعبه التبشير كقوة أمامية زاحفة مقتحمة تقدمت النفوذ الاستعماري ومهدت له الطريق وخلقت له الركائز الأساسية التي استطاع بها أن يجلي جيوشه وقواته ونفوذه السياسي إعتماداً على بقائها مؤثرة من بعده. ومن حق أن يقال أن أخطر تحد يواجه العالم الإسلامي والأمة العربية اليوم في هذه المرحلة التي نعيشها إنما هو التغريب المتمثل في التبشير الخفي المستتر، في الوطن العربي، والواضح الصريح في كثير من أجزاء العالم الإسلامي وعلى قدر تفهم هذا الخطر والتماس الوسائل للتحرر منه يتشكل مستقبل العالم الإسلامي والفكر الإسلامي جميعاً والمعتقد أن المستعمر قد أنهى مرحلة النضال السياسي بالجلاء السياسي والعسكري ليفسح المجال أمام استعمار فكري وغزو ثقافي هو المختفي اليوم وراء التبشير الذي هو أداة الاستعمار والتغريب ثمرته، لقد ترك الاستعمار أندية السياسة وركز جهوده في الجامعات والمدارس والصحف وأندية الثقافة بعد أن وجد أن حركته فيها حرة غير مقيدة ومتوارية عن الأنظار. قال الشاعر الفيلسوف محمد إقبال عام ١٩٣١ . « أن الإسلام مهدد بخطرين مصدرهما الغرب . « أولهما الإلحاد وثانيهما الاستعمار وإن مستقبل الإسلام رهن بمستقبل العرب ومستقبل العرب فإذا تمت الوحدة العربية علا شأن المسلمين في كل أنحاء الأرض » . ولقد ظل المسلمون يقاومون الاستعمار السياسي فلما بدأ ينكشف، ظهر الاستعمار الثقافي من ورائه أشد قوة وتبين أن الاستعمار لم يكن ليخلي مكانه إلا بعد تأكد من وجود دعائم له وركائز يعتمد عليها في تأصيل وجوده. والحق أنه من بالغ السذاجة أن يظن الرجل المثقف المحيط بالتيارات المختلفة للسياسة العالمية أن الاستعمار قد انتهى أو أنه في طريق النهاية. وخاصة فيما يتعلق بسيطرته على العالم الإسلامي. إنما الذي انتهى هو صورة الاستعمار التي بدأت في أوائل القرن التاسع عشر . لقد أتمت هذه المرحلة دورها وحققت نتائجها. فكان لابد أن تختفي، والاستعمار هو أحرص الناس على إنهائها حتى يستطيع أن يحقق استمراره من غير أن يخدش مشاعر الناس بعد أن ظلت هذه الصورة تزعجهم طويلا فإذا اختفت هذه الصورة اليوم فمن السذاجة أن يظن أن الاستعمار قد انتهى فهذا مايطمع الاستعمار بعد أن حقق أهدافه في « تثبيت البقاء » أصبح الآن قادراً على التخلي عن « أسلوب » العمل الذي يظهر به أمام الناس، فقد أتم أداء الدور الصريح الواضح الذي سيطر فيه برجاله وقواته وجيوشه، وأصبح الآن قادر على أن يختفي وراء قوى قادرة على أن تؤدي دورها دون أن يظهر الاستعمار عياناً وهو حين يختفي اليوم يخفف عن الناس شعور التحدي ويتحول القوى الوطنية

كلها إلى الإنصهار تحت أضواء الحضارة والسنوات والإضمحلال ، ثم اختفى الاستعمار بصورته الصريحة بعد أن أقام دعائم نفوذه ، هذه الدعائم التى صنعها التبشير عن طريق التعليم والثقافة فى مجالين من أخطر مصانعه المدرسة والصحيفة . وقد خرجت من قلب هذه الحركة قوى تعمل ، وفق مخططه ، وترتبط وجودها بوجوده وتواجه التحديات الموجهة إلى الاستعمار بأقوى مما كان يواجهها الاستعمار نفسه ، لأنها تدافع عن بقائها وترى أن فى محاولة تحطيم هذا النفوذ تحطيم لوجودها : وهذا الدور يمكن أن يسمى مرحلة الاستعمار الفكرى والغزو الثقافى فى سبيل الوصول إلى غاية كبرى هى « تغريب الشرق أو تغريب المسلمين أو تغريب العالم الإسلامى ومن عجب أن يرضى الناس عن إنتهاء مرحلة الاستعمار ، ولا يقدرون الخطر الذى ظهر نتيجة ذلك ، ذلك أن وجود « الاستعمار » واضحاً صريحاً على مسرح الحياة السياسية فى العالم الإسلامى ، إنما كان عاملا من عوامل التحدى الذى يجب أن تعبء كل القوى لمقاومته أما خروج الاستعمار فإنه يبعث فى النفوس عامل الأمن والدعة ويدع لقوى الاستعمار الثقافى الحرية فى الحركة والتأثير ، وللاستعمار مؤسسات أساسية ضخمة تقوم بالعمل فى سبيل تثبيت وجوده وتأكيد بقائه ، أهمها : التبشير والاستشراق وهذه المؤسسات تحمل دعوات مختلفة إلى التغريب والشعوبية ولكنها لا تظهرها بأسمائها هذه وإنما تخفيها وراء أسماء كثيرة براقة أغلبها تحتجب تحت أسماء ثقافية أو حضارية . وأقوى القوى العاملة هى : « المدرسة » فى مجال التعليم والتربية وتكوين النشء والأجيال الجديدة و « الصحيفة » فى مجال الثقافة والقراء . وقد أكدت تقارير المبشرين المختلفة على الدور الخطير الذى قامت به المدرسة والصحيفة وماتزال تقوم به فى سبيل تحقيق غايتين أساسيتين هما : (١) تمزيق وحدة العرب والمسلمين والحيلولة دون التئامها (٢) تدمير القيم الأساسية العربية والإسلامية الفكرية والحيلولة دون سيطرتها ومحاولة فرض مفاهيم أخرى غربية المصدر على الثقافة العربية والفكر الإسلامى رغبة فى القضاء على : (١) الرابطة بين الدين والمجتمع (٢) أخلاقية التعليم والتربية والمجتمع والسياسة (٣) إذاعة أسلوب من التحرر فى مجال الفكر يصل إلى الالحاد وأسلوب من مجال الحياة يصل إلى الإباحة . ولكن لماذا يهدف الاستعمار عن طريق أدواته : التبشير والاستشراق إلى هذا الغرض ، والإجابة يسيرة : وهى إخراج المسلمين والعرب من القيم التى تدفعهم إلى الحرية ومقاومة النفوذ الأجنبى وعدم الانصهار فى الأممية وإقامة مجتمعهم الخاص من قيمهم وتاريخهم ولغتهم وعقيدتهم . فإذا استطاع الاستعمار إذابة المسلمين والعرب فى بوتقة الأممية وصهرهم فى الثقافة العالمية وإخراجهم من ثقافتهم وقيمهم لم يعد هناك مجال لتشكلهم بصورة خاصة ، بصورة الذات والشخصية الخاصة ، عندئذ تصبح الحضارة الغربية وقد حققت أكبر انتصاراتها بأن أحالت المسلمين والعرب إلى عبيد فى القطيع التى يسود فيه الجنس الأبيض الغربى صانع الحضارة .

الفصل الثانى

التبشير والتغريب

تجمع الوثائق والنصوص التى بين أيدينا وتؤكد حقيقة واقعة هى أن هدف التغريب وأداته التبشير والاستشراق ، هو إخراج المسلمين من مقومات فكرهم وأهمها مقومات الإسلام ثم إخراج الإسلام من مقوماته أيضاً وذلك بتفسيره تفسيراً يقضي على قيمته الأساسية ويجعله ديناً تعبديا خاصاً ليس له صلة بالمجتمع والإنسان ، وليس لهذا من هدف إلا إبعاد الإسلام كنظام مجتمع وعامل حضارى وثقافى مؤثر عن فاعليته مع المجتمع والسياسة والاقتصاد والتربية والتعليم وقد كانت محاولة التبشير لخدمة النفوذ الأجنبى تتركز فى إقصاء مفهوم الإسلام الحقيقى وإبقاء مفهوم الإسلام كدين تعبدى ، وتشكيل أجيال جديدة لا ترى إلا هذا الرأى . وبذلك يقضى على أهم عناصر القوة فى فكر المسلمين وحياتهم وهو القدرة والإيمان بمقاومة أى نفوذ أجنبي عليهم . ومحاولة صهرهم فى الأممية انصهاراً يفقدهم شخصيتهم وذاتيتهم الأصيلة . والهدف من التغريب كما ذكره الغربيون فى كتاباتهم هو : « إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية بل الشرقية وإبعاد العناصر التى تمثل الثقافة الإسلامية عن مركز التوجيه » ويقوم التغريب على تحريف التاريخ الإسلامى وتشويه مبادىء الإسلام وثقافته وانتقاص الدور الذى قامت به الحضارة الإسلامية والفكر الاسلامى بقصد إيجاد شعور بالنقص فى نفوس المسلمين والشرقيين عامة يحقق قبول ذهنية الغرب والخضوع لها ، ويغرس مبادىء غربية فى نفوس المسلمين حتى ينشئوا مستغربين فى حياتهم وبعيدين عن موازين القيم الإسلامية . وليس ما نقوله هذا استنتاجاً وإنما هو ثابت مما تحت أيدينا من عشرات من النصوص الصريحة الواضحة التى تكشف فى مجموعها الأهـــداف النفسية العميقة التى تكمن وراء السيطرة الغربية والنفوذ الاستعمارى وتكشف عن تكتل هذه القوى جميعها (التبشير والاستعمار والتغريب) على احتواء فكر العرب والمسلمين ودينهم ولغتهم . من أجل هذا الهدف الواضح الصريح وكل هذه النصوص لباحثين لامعين يعدهم الناس فى مقدمة البارزين :

(١) يقول الفرد كانتل سميث : إن الغرب يوجه كل أسلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية إلى العالم الإسلامى بغرض إذلاله وتحقيره وإشعاره بالضآلة والخنوع ، وأن الغرب وقف فى صف الصهيونية ضد العرب المسلمين متأثراً بتلك العداوة القديمة بين المسيحية والاسلام .

(٢) يقول لويس ماسنيون : إن هؤلاء الطلاب المسلمين المغاربة الذين يصلون إلى فرنسا يجب أن يصاغوا صياغة غربية خالصة حتى يكونوا أعواناً لنا فى بلادهم (٣) ويقول هنرى دى كاسترى : إن أحد علاج يستأصل به العرب وأمضى سيف يقتلون به هو « الخمر » وقد جربنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبوا أن يتجرعوه فتضاعف نسلهم ، ولو قبلوا لأصبحوا أذلاء كتلك القبيلة التى شربت خمرنا وتحملت إذلالنا (٤) يقول المارشال ليوتى (كروس المغرب) وعميد الحماية الفرنسية فى مراكش : إن فرنسا تعد العدة لانشاء جيل جديد لا صلة له بالماضى . هذا الجيل تصنعه وتنشئه على الإيمان بها

فيفهمها ويقدرها ، وبذلك يتم لها عن طريقه وضع يدها على البلاد (٥) يقول روم لاندو: إن الصهيونية في أوربا بالمرصاد لما يذيع من الانصاف عن العرب والاسلام ، ومن هنا فقد خشي بعض المؤلفين تعطل كتاباتهم ، فأغفلوا أثر العرب والمسلمين وأفضليتهم على التاريخ والحضارة (٦) يقول هاملتون جب: إن الجزء الأكبر من مؤلفات الغربيين عن الاسلام قد صدر عن أولئك الذين يتحكم في تفكيرهم كراهية الاسلام والحقد عليه (٧) يقول م . كويت في كتابه الاسلام والدولة البريطانية : إن الكثيرين منا شبوا على كراهية الاسلام وقد ارتضعوا ذلك مع لبان أمهاتهم (٨) ويقول لويس ماسينيوس عن كلمة « التجديد » : لقد جردنا المسلمين باسم مدنيتنا وصاروا لا يعرفون إلا ما نقصده بكلمة « التجديد » التي سمموها ، لقد دمرنا كل ما هو خاص بهم ، فدمرنا فلسفاتهم ولغاتهم وأديانهم ، والمسلمون ليسوا من السذاجة حتى يعتقدوا بكرم أخلاقنا وقد تحققوا بالشواهد أننا نرغب في أن نبقيهم ضعفاء .

(٩) ويقول جوستاف لوبون : إن حرية التفكير في الغرب تختفي لدى الأوربي عندما يمتد فكره إلى بحث فكر العالم الاسلامي ، حيث لا يزال هو المفهوم الناتج من الحروب الصليبية وهو عميق الأثر في النفس الأوربية يحول دون حرية الرأي في الاسلام (١٠) قال مسيو شاتليه إن هدف بعثات التبشير تثبيت الأفكار الأوربية . قال زويمر : إن الغرض من التبشير قتل الاسلام لاستعباد المسلمين . وما أعتقد أن هذه النصوص في حاجة إلى إفاضة أو شرح فهي واضحة صريحة في هدفها الواضح الصريح (إخراج المسلمين من الاسلام ليكونوا أداة طيعة في يد النفوذ الاستعماري) ومن أجل هذا الهدف عمل التبشير والتغريب في مختلف المجالات . وكان التعرض للإسلام ومحاولة إثارة الشبهات حوله عملا جريئاً استخدمت فيه كل أساليب الخداع والتضليل ويبعد بعداً كبيراً عن الانصاف والمنهج العلمي الصحيح ، وكان المسلمون يستطيعون أن يردوا بعمل مماثل لولا أن المسلمين يكبرون كل الأديان السابقة لهم ويعترفون بها ويكرمونها ويرون أن حقائق الاسلام الصريحة في حاجة إلى مثل هذا الاتجاه — ويقول الدكتور عمر فروخ : لو أننا تعرضنا للأديان كما يتعرض الغربيون للإسلام لوجدنا متسعاً كبيراً للموازنة) وتقوم حملة التغريب على أساس استخلاص الثمرات النهائية للتبشير ، وهي تحويل العقلية الاسلامية والنفس الاسلامية والمزاج الاسلامي تحت تأثير فرص الحضارة والقيم الفكرية الغربية والأخلاق والعادات والأساليب المختلفة ذات الطابع الغربي الوثني وتغليبها على الطابع الاسلامي العربي الخالص . وبهذا الالحاح المستمر الذي يستمد قوته من النفوذ الأجنبي ومن الدعوة إلى التحضير والتقدم وحرية الفكر يمكن أن يتحقق التغريب ويصل إلى قمته فيصبح العالم الاسلامي أمة غربية الطابع قد فقدت مقوماتها الاسلامية في مجال السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية، وانصهرت في بوتقة الأممية والحضارة العالمية . وأبرز ما ينصب عليه إلحاح التغريب هو تصوير الاسلام بأنه دين لاهوتي عبادي كالمسيحية وليس نظام مجتمع ومنهج حياة يرتبط بمختلف شئون الحياة والمجتمع والفكر . وكل المخططات التي رسمها دهاقنة الاستعمار وأساطين التبشير والتغريب كانت تدور حول هذا المعنى وحده الذي يتحقق من النجاح في فرضه أمرين : (١) القضاء على وحدة المسلمين وهي القذى الكبير في عين النفوذ الاستعماري . (٢) القضاء على مناهج حياة المسلمين وقيمهم ومفاهيمهم الفكرية والاجتماعية . وإذا رجعنا إلى جميع الشبهات التي أثيرت ، والمحاولات التي جرت عن طريق الارساليات والمؤسسات والصحف والثقافة ،

فهي لا تخرج عن حيز هذا التحدي الخطير. ومن هنا نجرى دائماً على ألسنة دعاة التغريب كلمة «العلمانية» وهي تعني إقصاء الدين عن المجتمع، وإقصاء منهج الاسلام نفسه عن الثقافة العربية. وقد أشار زويمر في كتاب له: إن مبدأ (القومية المحدودة) يعد أهم عامل للقضاء على الاسلام. وقد وضعت الأمم المستعمرة هذا المبدأ نصب أعينها، ومن ثم انفصلت الوطنية عن الدين، وانفصل التعليم المصرى عن التعليم الاسلامى، وظهرت دعوات الفرعونية والآشورية والبابلية والفينيقية والبربرية. وتقرير (وزارة الخارجية البريطانية ١٩٠٧) يكشف عن هذا المخطط كشفاً صريحاً حين يقرر أن الخطر ضد الاستعمار إنما يكمن في البحر المتوسط، حيث يعيش شعب واحد لو أتيح له قدر من اليقظة والقوة، فستحل بالاستعمار الغربي الضربة القاضية، ولذلك فقد جرى التركيز على المنطقة بكل أساليب التمزيق والتغريب والاذابة في الأممية. ولقد استغل التغريب في سبيل تحقيق هدفه وسائل متنوعة ودعوات مختلفة: (١) الدعوة الاقليمية ممثلة في الفرعونية في مصر، والفينيقية بلبنان. ولكى تعرف لماذا ركز التبشير والتغريب على الدعوة الفرعونية في مصر، علينا أن نراجع أصول العقائد الفرعونية المستمدة من الوثنيات المختلفة. وليس الغرض في الحق هو إعادة حضارة تحجرت بقدر ما هو إخراج المسلمين عن قيمهم ومفاهيمهم القائمة على التوحيد، والباحث في أصول الوثنية اليونانية والفرعونية والمسيحية الغربية يجد تفاوتاً واضحاً وتداخلا صريحاً، لحين يعلى من شأن الفرعونية إنما يراد به القضاء على قيم التوحيد وتغليب قيم الطقوس والاكليروس ونظام الطبقات والكهنة وموسيقى المعبد والقرابين وغيرها. وفي لبنان قال أصحاب الدعوة الفينيقية أنها سيكون فيها للنصرانية مكاناً أوسع. ولقد سقطت الآشورية والفرعونية والبابلية والبربرية ولم تجد مكاناً في النفس للعربية الاسلاميه.

(١) كما اهتم التبشير والتغريب بالطائفية وأولاها اهتمامه واحتضانه ونص عليها في المعاهدات حين أعلن حمايته للأقليات. ولقد كانت هذه الطوائف والأقليات تحيا مع المجموع الكبيرة من الغالبية المسلمة قبل الاستعمار في صفاء ووفاق ولم يكن بينها خلافات ما إلا تلك التي أثارها النفوذ الاستعمارى عند ما أعد عدته للانقضاض على العالم الاسلامى. فلما وقع الاحتلال احتضن الاستعمار هذه الأقليات ونماها وجعلها سلاحه. ولعل أخطر أثر حققه هذا العمل هو اعتماد النفوذ الأجنبي على الأقليات في تحطيم الامبراطورية العثمانية تمهيداً لبسط نفوذه على العالم الاسلامى وكان للأقليات الأرمنية واليهودية على الأخص دور كبير في التأليب على العثمانيين وكان دور (الدونمة) وهم اليهود الذين أعلنوا الاسلام تقية وأقاموا في سلانيك دوراً هاماً في المخطط الذى نفذ وما تزال هذه الأقليات في مختلف أجزاء العالم الاسلامى قادرة على إثارة القلاقل السياسية والاجتماعية في كل وقت مما يمكن النفوذ الأجنبي من التدخل لتوطيد مركزه. ويشير إلى هذا المعنى الدكتور أنيس صايغ في كتاب (الفكرة العربيه في مصر) فيقول: «ثم نزل الانجليز في مصر والسودان، واحتاج الانكليز إلى موظفين أكفاء يتقنون لغتهم ويقبلون أن يتعاونوا معهم، وسد اللبنانيون والسوريون الفراغ، لذلك وصفهم اللورد كرومر في مذكراته بأنهم منحة من السماء وأنهم خيرة البلاد ومنهم من أنشأ صحفاً وأشهرها صحيفتا المقطم والمقتطف، وكانت الصحيفتان اللسان الناطق للسلطات والاحتلال باللغة العربية فأيدتا ذلك الاحتلال وهاجمتا الحركة الوطنيه».

ويقول كابتن غوردون كانتج . إن الأقليات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام خير معاملة في البلدان الإسلامية إلى أن تأتى دولة أوربية وتستخدم تلك الأقليات لقلب الحالة كما حدث في مسألة الأرمن والأتراك ، ويقول بيير روندو « كان في وسع الإسلام حل مشكلة الأقليات في الشرق بالقضاء عليهم دفعة واحدة ، ولكنه لم يفعل ، لأن دعوته لم تقم على الفتح في الأساس ولم يكن ثمة إكراه في الدين لهذا لم يتعرض الإسلام للنصارى واليهود ولم يخيرهم بين الموت واعتناق الدين الجديد بل تركهم يمارسون طقوسهم دون أن يفرض عليهم شريعته (٣) واستغل النفوذ الاستعمارى في مجال التبشير والتغريب (نظرية دارون) وعمل على توجيهها لتكون سلاحاً من أسلحة معارضة الفكر الإسلامى ومنازلته في أهم قيمه وهي « التوحيـــد » وقد تنبه لذلك السيد جمال الدين الأفغانى حين ألف رسالة « الرد على الدهريين » وحين وجد أن التبشير الاستعمارى في الهند لم يثمر بين المسلمين لتحويلهم عن الاسلام ، فتحول عن دعوته إلى إذاعة نظرية (النيتشرية) التى تقول إن الكون مادى ولا صانع له ، وذلك رغبة في إخراج المسلمين من إيمانهم بالله . ولم يكن دارون في الحق قد قال ذلك أو تعرض للتوحيـد أو الأديان ، وليس في منطوق نظريته ما يتصل بذلك ، ولكن النفوذ الاستعمارى وحركة التبشير ومن ورائها قوى التغريب استغلت هذه النظرية لإثارة جو من الشكوك والريب وفلسفة النشوء والارتقاء تنافى الإسلام في جانها ، كما أشار إلى ذلك السيد رشيد رضا ولكن الخطر هو في الآثار التى ترتبت على نظرية دارون حين حاول هكسلى وسبنسر وغيرهم استغلالها في شئون الاجتماع والتاريخ ، وإخراجها من مضمونها العلمى الخالص لتكون نظرية عامة تطبق على الجنس البشرى كله . ومعنى هذا أن خلفاء دارون من الفلاسفة — لا العلماء — أخذوا مذهب النشوء فنقلوه من تفسير توالد أنواع الحيوان والانسان بعضها من بعض إلى توالد الأخلاق والشرائع والقوانين وكل أعمال البشر . وقد مضى شبلى شميل خلف هؤلاء مقلداً وناقلا آراءهم ونظرياتهم التى لم تكن قد نضجت بعد أو تبلورت إلى اللغة العربية فأثار بها شبهات كثيرة . وقد عارضه الدكتور صروف في هذا الاتجاه ووصفه بأنه ليس عالماً متخصصاً في العلوم الطبيعية ولكنه طبيب ، ويقول دكتور صروف : إن شميل لم يدرس العلوم الرياضية وكان حاد الذهن سريع التصور فيبادر إلى المجاهرة بما يعتقده صواباً ولو لم تكن له أدلة قاطعة على تأثيره . ويقول السيد رضا إن الدكتور شميل قد كشف له عن حقيقة خطيرة تتصل بتحوله على هذا النحو إلى الدعوة المادية بعد أن كان مبالغاً في الدين مواظباً في العبادة ، وأن فكرة التعطيل ما طرأت عليه إلا بعد سفره إلى أوربا فقد لقى في فرنسا عالماً مادياً قال له كلمة هدمت عقيدته الدينية هدماً ، ولم تكن دعوة شبلى شميل خالصة لوجه العلم أو تقدم الأمة العربية فقد سجلت له مواقف تأييد صريح للاستعمار البريطانى ، وقد أيد مد امتياز قناة السويس ، وله كتابات يقول فيها (الإنجليز يصلحون فلماذا يكرهون وأن مصر تحت سيطرة الانجليز انتظم ريها واتسعت زراعتها وأثرى فلاحها وبعثت فيها الحرية وتفتحت لها أبواب السجون ، وأن اللورد كرومر لا يسمح باهتضام الحقوق (البصير ١٨٩٨) وقد هاجم إسماعيل مظهر اتجاه شبلى شميل وقال إنه اتخذ مذهب النشوء والارتقاء منسوباً إلى دارون ذريعة لاثبات المذهب المادى الذى اعتنقه طوال حياته وأن حملته على الدين هى متابعة لرأيه المادى وجرياً وراء غاية محدودة ، تلك الغاية هى أن يتبدل الناس بدينهم الأول ديناً آخر ، ذلك الدين هو

عبادة المادة ، وقد أشارت بعض مصادر التغريب إلى أن الاستعمار والغزو الثقافى قد استغل نظرية داروين لخلق تيار المادية التى رزئ فيه من بعد وتمثلة فى نظريات لورنس وفرويد ودوركايم وماركس .
وفى مقدمة الذين استغلوا نظرية داروين : « نيتشه » الذى اتخذ من (زرادشت) مؤسس المجوسية معلماً مثالياً وضع على لسانه ما أراد نشره من آراء قوامها الإلحاد والإباحة فى كتابه (هكذا قال زرادشت)
(٣) وجرت محاولات التبشير والتغريب إلى إعلاء شأن التاريخ القديم على تاريخ الإسلام أو خلط قيم الاسلام بالعادات القديمة المتوارثة ، ويصور هذا دكتور محمد عبد الرءوف فيقول : إن المستعمرين أرادوا أن يصدوا الناس عن مبادىء الاســــلام بالمغالاة فى تمجيد العادات التى ورثوها عن أجدادهم وأسلافهم وأدخلوا فى روعهم أن لها قداسة حيث أنها تمثل تراث أسلافهم ، وكأن مبادىء الاسلام دخيلة أجنبية جلبها الأجانب من العرب ، وكانت المحاولات تستهدف رفع شأن العادة التى اكتسبت تدريجياً أهمية وقداسة تضارع ما للدين ومبادئه حتى ليكاد يجهل الكثير أن مجموع ما خلفه الآباء ديناً كان أو عادة وحدة غير متميزة كما عمل الاستعمار ما استطاع ويعمل ما يستطيع نحو إيهام البعض أن إسلام القوم إسلاماً خاصاً بهم : أى إسلام عربى أو صينى أو غير ذلك (٤) ومن أهم الدعاوى التى أثارها التغريب لتشويه الحقائق : دعوى الأثر الذى تركته « الثورة الفرنسية » فى المسلمين والعرب . ولقد آن الوقت لأن يعرف الكتاب الذين يتشدقون بالكلمات التى توضع على أقلامهم خدمة لأهداف التبشير والاستشراق والاستعمار حقيقة الثورة الفرنسية ودور الماسونية ، تلك المنظمة التى استترت وراء الصهيونية فى القيام بها لتحقيق هدف خطير هو إعلان مساواة اليهود الذين كانوا إلى ذلك الوقت يعيشون فى أحياء الجيتا المنعزلة — إعلان مساواتهم بأهالى الأوطان ومنحهم حق الاشتراك فى الحياة السياسية والوصول إلى كبريات المناصب ، وحين يقول الدعاة إن الثورة الفرنسية محت الفوارق التى كانت قائمة بين طبقات الشعب الفرنسى فإنما يعنون أنها أنهت عزلة اليهود وفتحت لهم الطريق إلى ما حققوه اليوم فى العالم كله من السيطرة على كثير من المراكز الكبرى فى مجال السياسة والاقتصاد والثقافة والصحافة والمال . وخير ما فى الثورة الفرنسية إنما يعود إلى غلبة الفكر الاسلامى فى أوربا فى هذه الفترة وتأثر الغربيين بمفاهيم الاسلام فى الحرية والشورى والعدل والمساواة . ولقد أكثرت دوائر التبشير والاستشراق ترديد القول بفضل الثورة الفرنسية على النهضة العربية والاسلامية ، وهذا القول الظاهر الخطأ ما زالت ترده أقلام دعاة التغريب والشعوبيين تأييداً لخطط الاستعمار الذى يحاول أن يوهم المسلمين والعرب أن يقظتهم لم تبدأ إلا بوصول النفوذ الغربى إليهم ، ومن الحق أن يقال أن يقظة العرب والمسلمين بدأت قبل الثورة الفرنسية بكثير وقبل الحملة الفرنسية على مصر بوقت طويل أيضاً ، وأن هذه الحملة الفرنسية لم يكن لها أى أثر فى النهضة العربية أو المصرية التى كانت قد بدأت فعلا قبل ذلك واتخذت خطواتها الثابتة .
إن ربط اليقظة فى العالم الاسلامى أو البلاد العربية بالحملة الفرنسية هو من كلام المبشرين والمستشرقين أصلا وكل من يردده عن وعى إنما يؤكد هذا المعنى . والاستعمار فى هذا يريد أن يخلق فهماً باطلا هو أن العالم الاسلامى لم يبدأ نهضته ولم يستيقظ من هجعته إلا عندما جاء الأوربيون فأيقظوه . ومن هنا فإن كل فضل فى هذه النهضة يرجع إليهم . وهذا رأى باطل بواقع التاريخ نفسه وقد تناوله كثير من

الباحثين ، وتناولناه في كثير من مؤلفاتنا (٥) وقد عمل التغريب والتبشير على اتخاذ الدعوة العربية سلاحاً لتمزيق الدولة العثمانية فلما تحقق ذلك غمض الدعوة العربية وغلب عليها نزعات الإقليميات الضيقة فلما بلغت الدعوة العربية مكانها بحسبانها وحدة فكر مصدره الإسلام ظهرت الفلسفات والدعوات إلى تمزيق هذا المفهوم وإحلال مفهوم آخر قوامه وحدة عربية علمانية تقوم على التاريخ واللغة وحدهما. وجرى ضرب الإسلام بالعروبة والعروبة بالإسلام والقول بأن الدين ليس عنصراً من عناصر القومية هو مفهوم إحدى النظريات الغربية التي حاول ساطع الحصري وغيره فرضها على الثقافة العربية. والقول بأن الدين ليس عنصراً من عناصر القومية ينطبق على مفاهيم الفكر الغربي ولكنه يحتاج إلى بيان في مفاهيم الفكر الإسلامي والثقافة العربية ، وإذا كان يراد بالدين هنا الإسلام رغبة في عزله فإن الإسلام ليس ديناً لاهوتياً تعبدياً فحسب ، ولو كان كذلك لأمكن عزله عن أي حركة فكرية ، سواء أكانت قومية أم اشتراكية أم ديمقراطية ، ولكن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع ، فهو بوصفه هذا يعد الأرضية الطبيعية لمفهوم الوحدة ، وما اللغة والتاريخ من عناصره الجامعة إذ ليس هناك انفصال حقيق بين تاريخ العرب وبين الإسلام ، كما أنه لا سبيل إلى فصل اللغة العربية عن الفكر الإسلامي . والعربي هو من يفكر عربياً لا من يتكلم عربياً وما تزال اللغة هي أم الفكر وبوتقته ، ومن الأسف أن تستورد نظرية القومية من الغرب وتطبق نفس مضمون النظرية الذي طبقته شعوب وأمم تختلف في واقعها وطبيعتها ومزاجها وظروفها عنا . وهناك رأى قاطع يكاد يكون موضع الإجماع بين المسلمين والمسيحيين في العالم العربي : أن الفكر الإسلامي هو فكرهم جميعاً ، وأن ليس للمسلمين فكر مستقل عن فكر المسيحيين وأن كان هناك دين مختلف . وأمامي نصوص كثيرة كتبها كتاب مسيحيون عرب منصفون في هذا الصدد تحدوا بها محاولة التبشير والتغريب في إثارة الشبهات حول هذه الوحدة الفكرية ، وفي هذا يقول عيسى البندك : إن العربي مسلماً كان أم مسيحياً يرتبط بالإسلام والعربية اللغة التي يتكلم بها والأخلاق التي يتخلق بها والتقاليد التي يزاولها وما يعتز به من إباء وشهامة ومروءة ، إننا نؤمن بأن كيان النصارى العرب جزء من كيان إخوانهم المسلمين العرب . وفي أوربا حاول التبشير والتغريب أن يفرض مفهومها القومية المنفصلة عن الدين حيث يوجد الدين عاملاً أساسياً في القومية: فالبروتستانتية جزء لا يتجزأ من القومية الهولندية والإنكليزية والأرثوذكسية جزء أصيل من القومية اليونانية والبلغارية . ومن الحق أن يقال إن التبشير والتغريب في كل هذه المحاولات يهدف إلى تمزيق القوى المتجمعة ، وإحلال الخلاف محل الوحدة ، ولذلك فهو لا يتوقف عن بذل الجهد في إحلال نظرية مكان أخرى ، ولما فرض الفرعونية والفينيقية ثم تبين أن الفراعنة والفينيقيون عرباً، عاد يدعو إلى تعزيز الاقليميات بطوابع جديدة ، ولما ظهرت دعوة العروبة حاول إلباسها ثوباً جديداً تكون فيه مناهضة للإسلام ومناقضة له ودعا إلى عروبة علمانية أو عروبة مجردة من الاسلام . وقد كذبته الوقائع والأحداث فإن كل الحركات التحررية لما وان تنفصل فيها العروبة عن الاسلام وتشهد بذلك ثورة الجزائر التي أكدت الجانب الإسلامي في كفاحها وكان الاسلام - لا ريب - هو العامل الفعال في قتال الجزائريين لخصومهم. والفكر الاسلامي حين يتقبل العروبة إنما يتقبلها بمفهومه ووفق قيمه الأساسية حيث لا خلاف بين المسلمين والمسيحيين في وحدة الفكر والتقاليد والقيم ، وإن اختلفت الأديان من جانبها العبادي وليست

الامة العربية مستطيعة أن تكون أمة منفصلة عن الاسلام تاريخاً ولغة . ولا تستطيع اللغة العربية ولا التاريخ أن يكونا بمفردهما مقوماً للعروبة دون أن يرتبطا بأرضية الفكر الاسلامى الذى انبثقت منه الثقافة العربية . وكما أثار التبشير والتغريب الالتباس بين فكرتى العروبة والاسلام أثار الالتباس بين فكرة اللبنانية والنصرانية (٦) كما حرص التبشير والتغريب على وضع هالات من البطولة حول كثير من الشخصيات الاستعمارية التى عملت على خدمة أهدافه ، فهناك لورنس ملك العرب غير المتوج ، وهناك غردون بطل تحرير السودان ، وهناك ولفنجستون وستانلى المكتشفين العالميين ، وهناك فلورانس بانتجيل وهنرى الملاح وهم جواسيس أو مبشرين . ولقد كشفت صفحات التاريخ الحديثة خدعة هذه الأسماء اللامعة بعد أن عنيت صحف التبشير والاستعمار بتمجيد هؤلاء . والمعروف أن لورنس كان جاسوساً بريطانياً خطيراً دفع العرب إلى الانفصال عن الترك لحساب بريطانيا والصهيونية ؟ وكان يعلم مقدماً مدى هذه الخدعة الكبرى التى تكشفت فيما بعد وهى احتلال الوطن العربى والحيلولة دون قيام الدولة العربية الموعودة . وقد سجل ذلك فى مؤلفاته وكتاباته . وكذلك أمر غوردون داعية تحويل السودان بالتبشير إلى النفوذ الغربى . أما هنرى الملاح وولفنجستون وستانلى فهؤلاء مبشرون كشفت هويتهم تصريحاتهم وملابسهم التى كانوا يرسمون عليها الصليب .

الفصل الثالث

التبشير والاستشراق

لا شك أن الاستشراق حركة مستقلة والتبشير حركة أخرى مستقلة والواقع أن مصدرهما بدأ فى أول أمره واحداً ثم اختلفا فى طريقهما ولكن التعاون والتنسيق بينهما ظل مستمراً وقائماً ومتصلا ، وما يزال ، ويمكن أن يوصف الاستشراق بأنه المصنع والتبشير بأنه المصدر أو الموزع الشىء الذى يصنعه الاستشراق . والاستشراق بعضه متصل بالنفوذ الاستعمارى وبعضه متصل بالثقافات الغربية المسيحية ، وبعضه نزيه وبعضه متعصب . ومن هذا فقد كانت معطياته فى الأغلب نافعة لتغذية حركة التبشير وكانت آراؤه وملتقطاته مادة ، خام يستطيع التبشير استعمالها فى دعم خططه وفى إثارة عوامل الخلاف وتأريث الشبهات بما يحقق خططه . والاستشراق إذا كان خاضعاً لنفوذ دينى أو سياسى فإنما هو يدرس القضايا بوجهة نظر مسبقة وبأحكام مقررة وبأهداف واضح فيها سوء النية فى الأغلب الأعم قوامه تعصب واتهام الشرق والاسلام والعربية . ومهما صيغت كتاباته فى أسلوب له طابع علمى فإنها تكشف عن عدم الحيدة وطابع الانحياز . وقد عمل عدد كبير من رجال الاستشراق فى مجال التبشير وكانت كتاباتهم وقوداً خصباً فى أيدى زويمر وأصحابه . من هؤلاء : مرجليوث وماسنيون وهنرى لامنس ولويس شيخو وفنسنك وجولدزيهر وهم من أشد المستشرقين تعصباً على الاسلام واللغة العربية . ويكاد مجال العمل واتجاهه أن يجمع بين حركة التبشير وحركة الاستشراق الخاضع للنفوذ السياسى

والديني الغربي فهو يلتمس نفس الأهداف وهي الحيلولة دون وحدة المسلمين باستمرار تمزيقها والحيلولة دون الالتقاء على مقومات فكرهم بالطعن فيها وإثارة الشبهات حولها . وربما أعطت كلمة الاستشراق طابعاً من التكريم ، وما زالت في نظر الكثيرين تحتفظ بشيء من التقدير من حيث وجود طبقة من المستشرقين الذين يعملون في نزاهة ، ومن هنا أيضاً يمكن أن يقال أن حركة التبشير قد اعتصمت بعد الحرب العالمية الثانية بحركة الاستشراق بعد أن اسودت صفحتها وكرهها الناس ونفروا من المتصلين بها وبعد أن كشفت الأحداث أعمالها المهينة . ومن هنا فقد خلعت حركة التبشير أثوابها في السنوات الأخيرة واختفت وراء ستار الاستشراق ، ولذلك فنحن في أشد الحاجة إلى التنبه والالتفات إلى الفوارق التي يجب أن تكون واضحة في تقدير الباحثين المسلمين لكتابات المستشرقين والمنصفين منهم وهم قلة قليلة ـ وبين المبشرين الذين لبسوا ملابس الاستشراق . ومما يذكر في هذا الصدد عن المستشرق ماسنيون الذي كان تابعاً في عمله لوزارات الاستعمار قد عاد في السنوات الأخيرة من عمره فعمل جهده في معسكر المبشرين معتمداً على اسمه اللامع المحاط بقدر كبير من سمت العلماء . وقد تبلورت في السنوات الأخيرة مراكز العمل بين التبشير والاستشراق ، فالأول قد ركز في مجال التعليم المدرسي والجامعات والهيئات الإرسالية المختلفة وأهمها دور الحضانة ورياض الأطفال والمراحل الابتدائية بحسبانها المجال الأسهل والأقدر على صياغة الأطفال المسلمين صياغة تجعلهم مرنين في حياتهم الجامعية وفي تقبل آراء التغريب والشعوبية وتقبل النفوذ الاستعماري على أنه حضارة ، وتقدير فضل الغرب على الأمم والشعوب وصاحب الحضارة وانتقاص أمته ووطنه ودينه بحسبان أن بلاده المتأخرة إنما يرجع تأخرها إلى دينها وثقافتها القديمة . هذا هو ما تريد أن تركز عليه المعاهد والجامعات والمدارس التابعة للنفوذ الأجنبي وإرساليات التبشير ، وهي دعوى خطيرة يجب أن يكشف عنها في التعريف بالفارق البعيد بين الحضارة والاستعمار ، وقد حرص التبشير في مخططاته المدروسة على تلقف الأطفال قبل أن تتكون فيهم مفاهيم الإسلام بحكم البيئة الطبيعية الإسلامية . وبينما عمل التبشير في مجال التعليم والمستشفيات والملاجيء والجمعيات الأدبية وجماعات الشباب عمل الاستشراق في مجال البحث باسم المنهج العلمي ، وقد استخدم الاستشراق الكتاب والمقال وكرسي التدريس في الجامعة والمشاركة في المؤتمرات العلمية العامة . ومن هنا يقع التلاقي والتنسيق بين العملين في دور العلم والصحافة بين الدعوة الصريحة في التبشير وبين الدعوة المستورة في الصحافة والكتاب والدراسات ذات الطابع العلمي ، وهكذا يشترك التبشير والاستشراق في العمل من خلال أهم الجوانب التوجيهية الهامة في التعليم والثقافة بوسائلها المختلفة . ولم يعد عمل التبشير واضحاً صريحاً اليوم . بعد أن تكونت الأجيال الأولى الذي عملت ومهدت طريق المسرح والقصة والسينما فأمكن عن طريقها اليوم تقديم الآراء ووجهات النظر التغريبية في لباقة ومرونة من خلال هذه النصوص سواء من حيث دعم المفاهيم الغربية أو تحطيم المفاهيم العربية الاسلامية ، وما تزال المجلات والأفلام السينمائية ترد إلى العالم الاسلامي من مختلف دول العالم باسم التبادل الثقافي . وهذه الدول ذات المصالح الاستعمارية في العالم الاسلامي لا تقدم إلا أنواعاً معينة من هذه الأفلام والكتب والقصص التي كتبت خصيصاً لتنفذ إلى أعماق النفس العربية والاسلامية لترويج هذه المفاهيم . حتى تصبح حقائق موحى بها تصل إلى مرحلة الاقتناع بتوالي ترديدها ، وقد وصل الدكتور محمد البهي

فى بحثه إلى أن التبشير والاستشراق كلاهما دعامة الاستعمار فى مصر والشرق الاسلامى « فكلاهما دعوة إلى توهين القيم الاسلامية والغض من اللغة العربية الفصحى وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية وكذا بين الشعوب الاسلامية والتنديد بحالة الشعوب الاسلامية الحاضرة والازدراء بها فى المجالات الدولية العالمية » . ولما كان الاستشراق معنياً بالتراث القديم فهو يستطيع أن يخدم التبشير حين يولى اهتماماً كبيراً إلى شخصيات مضطربة فى الفكر الاسلامى أمثال الحلاج السهروردى وأبو نواس وبشار وإعلائها . وكذلك اهتمامه بكتاب الأغانى وألف ليلة وشعر عمر الخيام (وهو فى الحق منسوب إليه) وذلك بالاضافة إلى ما يستطيع أن يحصل عليه من الروايات الغامضة أو المضطربة زوراً وبهتاناً التى يتصيدها من كتب المحاضرات التى كانت جماع ما يرويه القصاصون فى عصور الاضطراب والضعف وتقديم هذا كله على أنه حقائق علمية يمكن استغلالها كأسلحة لاثارة الشبهات حول حقائق الاسلام والفكر الاسلامى . والمعروف أن التبشير والاستشراق نشآ معاً بعد الحروب الصليبية فى حضانة الكنيسة وكان الاستشراق يستهدف ترجمة القرآن إلى لغات أوربا للرد عليه وإثارة الشبهات حوله مما يصل إلى أن يكون أداة طيعة فى يد المبشرين الذين انبثوا فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى يجادلون المسلمين . وإذا كان لنا أن نأخذ برأى واحد من أتباع المبشرين هو فارس الشدياق فلربما استطعنا إلقاء الضوء على حياتهم العلمية . يقول فى كتابه (ذيل الفارياق ص ٢) . إن هؤلاء الأساتيذ لم يأخذوا العلم من شيوخه وإنما تطفلوا عليه تطفلا وتوثبوا توثباً ، ومن تخرج فيه بشىء فإنما تخرج على القسس ثم أدخل رأسه فى أضغاث أحلام وتوهم أنه يعرف شيئاً وهو يجهله ، وكل منهم إذا درس فى إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئاً منها يخبط فيها خبط عشواء فما اشتبه عليه منها رفعه من عنده بما شاء ، وما كان بين الشبهة والتبين حدس فيه فرجح منه المرجوح وفضل المفضول » . وهكذا نرى فساد عمل الأساتيذ الذين يعول عليهم كثير من باحثينا وأساتذة الجامعات عندنا ، حتى أنهم يأخذون آراءهم حقائق مقررة ويرددونها كالببغاوات . وقد أكد الدارسون المنصفون أن أعمال البعثات التى قام بها المستشرقون إلى بلاد الشرق والعالم الاسلامى لم تكن بعثات علمية خالصة وإن قامت باسم العلم وحملت أسماء الجامعات والمعاهد العلمية ، وإنما هى بعثات سياسية ذهب محصولها إلى وزارة المستعمرات ، ولا زلنا نذكر البعثات العلمية التى وردت إلى العالم العربى قبل الحرب العالمية الأولى والتى ساحت فى صحراء سينا وجزيرة العرب وكيف أنها كانت فى الحقيقة بعثات سياسية حربية أرادت أن تكشف عن الطرق والمياه والسكك الحديدية ومواقع الجيوش وتحركات العدو ، وقد جاء الجاسوس (لورنس) على هيئة عالم مستشرق ، ثم تبين من بعد من هو لورنس الذى قاد العرب فى قتال الترك شركائهم فى الاسلام ، ثم تبين كيف خدع الاستعمار العرب بعد أن حاربوا الترك واستولى على أرضهم التى وعدهم بأن يحقق لهم فيها قيام دولة عربية . وعن طريق الاستشراق ظهرت مختلف النظريات التى استخدمها التبشير والتغريب والاستعمار فى توهين القيم الاسلامية وتفتيت الشعوب العربية الاسلامية ، فمن طريق الاستشراق ظهرت نظريات السامية والآرية من ناحية والفرعونية والفينيقية والبربرية من ناحية أخرى ، وقد كانت مؤتمرات الاستشراق ولا تزال لا يدعى إليها فى الأغلب إلا أصحاب الولاء الواضح

النفوذ الاستعماري والتبشير . وقد وجد فى الأعوام المتقدمة من كان يقف فى مؤتمرات المستشرقين فيرد عليهم ويكشف اتجاهاتهم ويصحح أخطاءهم أمثال عبد العزيز جاويش وأحمد زكي باشا ، أما الآن فإن الأعلام الذين يحضرونها فإنما هم من يرددون ما قاله المبشرون والمستشرقون جميعاً لأنهم من تلاميذهم وأتباعهم .

(٢) الاستشراق فى خدمة التبشير : إن أبسط تصوير للاستشراق وأعمقه هو أنه استخدام العلم فى خدمة السياسة . ولقد يتحدث الكتاب ببساطة عن الدور الذى حققه الاستشراق فى التراث العربى والاسلامى ، ونحن نقول إن مصدر اهتمام المستشرقين بالشرق والاسلام ووضع الدراسات المختلفة إنما يرجع إلى أن العالم الاسلامى واقع فى قبضة استعمارهم ، فهم يدرسون تاريخه وأدبه ليدرسوا نفسية هذه الأمم ليكيفوا موقفهم معها ويعرفون من أى جهة يستطيعون إخضاعها وما هى جوانب الضعف فيها للانتفاع بها وما هى جوانب القوة للقضاء عليها وذلك بقصد أن يبقى نفوذهم ويستمر ، وهم فى كل ما كتبوه قد عمدوا إلى وضع الاسلام واللغة العربية والثقافة والتاريخ فى قفص الاتهام وحاولوا على أن نقف موقف الدفاع ورد السهام : ومن أجل هذا الهدف يركز الاستشراق فى جوانب معينة فهم يركزون على التصوف الفلسفى وأعلامه وإذاعة آرائهم وآثارهم وذلك غرض خبيث ولا شك فقد وصل الفكر الاسلامى إلى تصفية مثل هذه الموجات التى مرت بالعالم الاسلامى نتيجة اتصاله بالفكر اليونانى والفارسى والهندى منذ وقت طويل ، وللإسلام مفهومه الأصيل فى التصوف ، فمحاولة الاستشراق لبعث لون معين واحد هو اللون المشبوه المتصل بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود أمر لا يقره الإسلام أصلا وإنما يكشف عن الغرض الخبيث . ويبدو هذا الاتجاه من الاستشراق فى الاهتمام بشخصيات بعينها فى تاريخ الإسلام والأدب العربى : كالاهتمام بالحلاج فى التصوف وأبو نواس فى الأدب (اهتم لويس ماسنيون بدراسة موسعة للحلاج واهتم بلاشير بدراسة المتنبى) . وفى نفس الوقت تساق التهم وأعمال الانتقاص إلى الشخصيات الأصيلة التى أضافت إلى الفكر الإسلامى إضافات هامة ولها مكانها الأصيل : كالحملة الموجهة إلى ابن خلدون والمتنبى والغزالى . وقد أصدر أولياء الاستشراق والتبشير من الكاتبين باللغة العربية دراسات فى هذا الصدد جروا فيها وراء أهداف الاستعمار والتغريب ، وهناك ثلاث رسائل معروفة : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطه حسين ، ومع المتنبى لطه حسين ، والأخلاق عند الغزالى لزكى مبارك . وهى فى مجموعها ترديد للاتهامات والشبهات التى أثارها المستشرقون والمبشرون وهناك محاولة دائمة لتصوير الفكر الاسلامى بأنه واجه الاضطهاد وحيل بينه وبين الحرية وأن هناك « أبطال » استشهدوا فى هذا الصدد ، وتلك محاولة باطلة لا أساس لها ، فإن الفكر الاسلامى ظل حراً قادراً على التعبير ، ما لم يصطدم المتكلمون باسمه صراحة بالخيانة ، أو الاتهام بموالاة أعداء المسلمين ، وهم يقدمون دائماً فى هذا السبيل : أسماء الحلاج والسهروردى . ومن الحق أن يقال إن الحلاج ظل متمتعاً بحريته فى أن يقول ما يشاء إلى اليوم الذى ثبت فيه أن بينه وبين رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة ، عندئذ قتل لخيانته لا لحرية فكره ، وكذلك الأمر بالنسبة للسهروردى . فليست هناك فى الحق قضية اضطهاد لحرية الفكر فى الاسلام كما حاول الذين كتبوا عن الحلاج وغيره أن يشوهوا الحقيقة . ثم إن هناك محاولات تغريبية دائمة إلى تدمير أعلام الإسلام وإحياء خصومه

والمشوهين من أسماء أمثال بشار وابن الراوندى وأبو نواس والزنج والقرامطة . وقد ركز الاستشراق على الأفكار الدخيلة على الإسلام ومن ذلك اهتمامه بفكرة وحدة الوجود والحلول والاتحاد . وفكرة وحـــدة الوجود معناها تأليه المخلوقات واعتبار الكون هو الله ، وهذا هو سر اهتمام المستشرقين والمبشرين بابن عربى والحلاج . أما مفهوم الإسلام فهو أن الموجود إثنان : واجب الوجود وممكن الوجود . وواجب الوجود هو صانعها الواحد الفرد الصمد ، وممكن الوجود هو هذه الكائنات كلها التى ندركها بحواسنا الخمس مباشرة . أما أصحاب مذهب وحدة الوجود فيقولون : إن كلاهما واحد ، ومعنى هذا أن الكون هو الله ، وقد أنكر الإسلام عقيدة الاتحاد : أى حلول الخالق فى المخلوق واستغراق المخلوق فى الخالق والإسلام يميز طبيعة كل منهما ولهذا أنكر الإسلام فكرة الحلول والاتحاد والتجسيد . ولا يتقبل الإسلام (وحدة الوجود) لأن فيها انتقالا من عقيدته الأصلية (لا إله إلا الله) إلى مايقوله الفلاسفة (لا موجود فى الحقيقة إلا الله) وشتان بينهما وسياق كل منهما ينتهى إلى نتائج مختلفة أشد الاختلاف لنتائج الأخرى والتصوف فى مفهوم الإسلام يبدأ من القرآن والسنة وينتهى إليهما . وهكذا فإن فلسفة وحدة الوجود والحلول والاتحاد هى مفاهيم غير أصيلة فى الفكر الإسلامى ومستمدة من فلسفات وافدة وثنية ومجوسية ، وهذا هو ما يعجب المبشرين والمستشرقين فى الصوفية ، وهو الذى يدعوهم إلى الاهتمام بها . وقد كانت للمستشرقين جولات جريئة يهاجمون فيها الإسلام واللغة العربية فى مؤتمراتهم . وكانوا يجدون من أمثال عبد العزيز جاويش وأحمد زكى باشا وغيرهم قوى عاتية تقف فى وجوههم وتكشف شبهاتهم . ولا نزال نذكر ماوقع فى مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام ١٩٠٥ حين نهض مسيو فولار وتحدث عن اللغة العربية الفصحى وهون من شأنها . وأعلى شأن اللهجة الدارجة وقال : « إنه لا يرى أن لغة القرآن هى أفصح لغات العرب أو اللغة العربية المحضة الناصعة التى تتخذ قاعدة من بين اللغات العربية وقال إذا أردنا أن نطلب اللغة الأنصع فصاحة والأصح أصلا وتركيباً فعلينا أن نرجع بالبحث إلى العصور التى سبقت ظهور الإسلام . وقال إن القرآن مدبج على طراز خاص من النثر . وقد رد عليه العلامة عبد العزيز جاويش باللغة الإنجليزية ودحض شبهاته وأتى بياناً مطولا عن اللغة العربية والقرآن وقال : « أين لكم وأنتم الأغراب عن اللغة العربية أن تحكموا على الفاسد والفصيح والأفصح فإن صحة الحكم فى اللغة تستوجب وجود ملكة اللغة راسخة فى الحس عريقة فى النفس وهو ما لايؤتى بالكسب إلا بعد انقضاء السنين الطويلة » . وقد اصطدم المفكرون المسلمون بالتبشير والاستشراق وقادته عندما رشح أحدهم وهو فنسنك رئيس تحرير دائرة المعارف الإسلامية ليكون عضواً فى المجمع اللغوى فى مصر وهاجم هذا الإجراء : الدكتور حسين الهراوى وقدم صورة لآراء فنسنك فى رسول الله وكشف عن اتجاهه واتجاه زملائه فى النيل من الإسلام . وقال إنه إذا « أراد أن ينال من الإسلام أمراً فإنه يفرض فرضاً ، ثم يبحث عن الآيات التى قد تتناسب مع هذا الرأى الذى فرضه فإذا وجد آية تدحض رأيه حذفها حذفا وأنكرها إنكاراً حتى يخرج بالنتيجة التى تزرع الشك فى فؤاد من يطلع على أقواله من غير تمحيص ، وقال إن هذه هى طريقة المبشرين التى يتبعونها عند بحثهم فى الإسلام نفسه أو فى حياة محمد ﷺ أو عندما يريدون أن يستقصوا مسألة فى القرآن ، وهذه الطريقة لم يبتدعها « فنسنك » بل هى طريقة قديمة فى أقدم ما ورد فى كتب المستشرقين والغرض منها ظاهر جلى

وهو ترويد جماعة المبشرين والمستعمرين بحجج شبه منطقية يشوهون بها عقائد المسلمين ويقللون من تمسكهم بدينهم، وهى إحدى الطرق التى وضعها رواد الاستعمار من زمن قديم، وكانت إحدى وسائلهم مع تقوية اللغات العامية حتى لا يتفاهم بها المسلمون ولا يفهمون لغة قرآنهم. وفى تقرير لجنة العمل المغربى يقول المستشرق سيكارد: إن الإسلام فى روحه الخاصة قوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغائبنا ونزعاتنا فمن مصلحتنا التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطاننا. وقد نقل التقرير فقرة من كتاب برنيو الذى يدرس لفريق من طلبة أوربا اللغة العربية حيث يقول: « أتريد يا صاح أن تتعلم الكلام مع الأهالى الذين حولك.. إلى أن يقول: لا تظن أنى سأعلمك لغة القرآن، هذه اللغة قد ماتت ولا يتكلم بها أحد فهى (لاتينية) العرب، وهى اللغة المستعملة فى جنة محمد وسأحبب إليك دراستها فى المستقبل إذا أردت أن تتذوق حلاوة الاجتماع بالحور العين. ويقول الدكتور الهراوى: ويتمثل لك نتيجة عمل المستشرقين جلياً فى كل كتاب علمى أو عمرانى أو اجتماعى يكتب شيئاً عن الشرق وعن الاسلام فإنك ما تكاد تقرأ أى هذه الكتب حتى الافرنجية منها حتى ترى إجماعاً على الجهل بالإسلام أو إجماعاً على الطعن فى النبى الكريم، وقد أنتج ذلك أن بعض المتعلمين من المسلمين الذين لم يلموا إلماماً كافياً بدينهم أخذوا يتبعون خطا المستشرقين ويقتفون أثرهم بالطعن فى نفس دينهم واخترعوا لنا إسماً غريباً فى هذه الحالة هو حرية الفكر والتجديد فى الأدب العربى ومباحث الشعر الجاهلى إلى غير ذلك من التفنن فى أنواع الجهالة المشعوذة بلباس سطحى من القيم لا تكاد تلمسه حتى يتمزق وينهتك سر لابسه، إنه قليل الثقة عالة فى معلوماته عن دينه على جماعة المستشرقين ». وضرب الدكتور الهراوى مثلا بما ورد فى دائرة المعارف الإسلامية فى مادتى « إبراهيم والكعبة » من شبهات ومغالطات. ودائرة المعارف الإسلامية: هى فى ذاتها عمل من أعمال التبشير والاستشراق لوضع الشبهات المختلفة التى توصل إليها خصوم الإسلام فى ثوب له مظهر علمى، ولذلك فإن مراجعة مواد هذه الموسوعة يحتاج من الباحثين المسلمين إلى حذر شديد. وقد عرض كثير من الباحثين لأخطاء دائرة المعارف المتعمدة، وأشار العلامة فريد وجدى إلى سيطرة البدع الدخيلة على الإسلام على مواد هذه الدائرة باستفاضة مثيرة، فقد أمعن مؤلفو الدائرة فى تسجيلها وشرحها كأنها حقائق مقررة. وتورد هذه (البدع) على أنها من المعارف الإسلامية بينما يبرأ الإسلام منها، وهو ما جاء إلا ليحاربها، وقد اعتمد المبشرون فى إيراد ذلك على كتب ليست علمية قاصدين التمويه بإدخال الأساطير والبدع إلى حقائق الشريعة كأنها كلها مواد الإسلام وقيمه. ومن أهم الكتب المشبوهة التى اعتمدت عليها دائرة المعارف الإسلامية كتاب (شمائل المصريين المحدثين وعاداتهم) التى كتبه إدوارد وليم لين عام ١٨٢٥ عن المصريين، وقد كان كاتبه من الخصوم القاصدين إلى تشويه الحقائق، ثم جاء مبشرو دائرة المعارف فنقلوا عنه خرافاته كأنها حقائق مقررة. وكتاب (شمائل المصريين المحدثين وعاداتهم) يدرس الآن فى بعض المعاهد والجامعات فى العالم العربى. ألفه المستشرق المبشر (إدوارد وليم لين) الذى قدم مصر ١٨٢٥ بهدف واضح هو جمع عدد من الشبهات والصور المثيرة لصياغتها على نحو يوحى بأنها أخلاق المصريين، وتحقيقاً لهذه الغاية الماكرة فقد أخفى حقيقته وسمى نفسه منصور افندى وتزيا بزى الأتراك وادعى الإسلام ليتمكن من محادثة المسلمين

فى أسرار معتقداتهم (كما يقول) وجعل يغشى المساجد وحفلات الذكر وموالد الأولياء ويستمع إلى أحاديث المعجزات والخوارق حتى يتسنى له أن يكتب مؤلفه الذى اهتمت به دوائر الاستشراق فى أوربا وتناقلته وترجم إلى اللغات المختلفة فى الشرق والغرب وأصبح بتوجيه الاستعمار والتبشير ونفوذهما مرجعاً شعبياً لمن يدرس العادات والتقاليد ، كما أصبح أحد المراجع الهامة التى اعتمد عليها مؤلفو دائرة المعارف الإسلامية الذين كانوا ينقلون عنه هذه الخرافات على أنها حقائق . وكذلك فعل التبشير والتغريب بكتابى الأغانى وألف ليلة إذ جعلهما من المصادر العلمية التى يعتمد عليها ، ولا شك أن من أخطر أعمال التبشير هو وضع موسوعات كاملة أمام الباحثين العرب والمسلمين تمكنهم من أن يجدوا فيها ما يريدون البحث عنه فى سرعة وسعة ، فيلجأون إليها دون أن يكلفوا أنفسهم مؤنة البحث عما يتضمنه من حقائق أو أباطيل وذلك اعتماداً على طبيعة بعض المؤلفين والباحثين والعلماء من الثقة بالكلمة المطبوعة ومن الاعتماد على شهرة الأسماء التى وضعت على صدر هذه الأبحاث ، ومن هذه المراجع المشبوهة دائرة المعارف الإسلاميه والمنجد والموسوعة العربية وبروكلمان وغيرها . ونظراً لتقصير المفكرين المسلمين فى وضع مثل هذه الموسوعات فإن دائرة المعارف الإسلامية هذه تجد مكانها لدى الباحثين الذين لا يتنبهون إلى بعض التعليقات القصيرة والهوامش التى وضعها بعض ذوى الغيرة للكشف عن الشبهات المدسوسة فى تلك النصوص . والهدف الأكبر من مثل هذه الأعمال القاصدة إلى تشويه الحقائق هو خلق شعور بالنقص وإحساس بالازدراء من شأنه أن يسيطر على نفوس المسلمين والعرب .
ويصدق فى هذا قول الدكتور عرفان عبد الحميد من أن هدف الاستشراق هو خلق جيل يتنكر لتراث هذه الأمة ليصير إلى حيرة واضطراب فكرى فيسهل عنده غزو المجتمع الإسلامى بالفكر والمبادىء والمفاهيم والتصورات الغربية . وقد أشار مالك بن نبى إلى أنه فى كل قضية أو مسألة أو معضلة تواجه المسلمين فإن الاستعمار والتبشير والاستشراق والتغريب قادر على طرح إجابات من محاولاته المستمرة لتغيير مجرى التفكير الإسلامى . ولقد يغرى هذا الاهتمام الذى يوليه المستشرقون للتراث العربى الإسلامى إلى إنصافهم ، وقد يغيب عن بال هؤلاء أن مصدر اهتمام المستشرقين بالإسلام والشرق إنما ينصب أساساً على دراسة نفسية هذه الأمة للتعامل معها بما يحقق لهم هدفهم فى إذلالها وتغيير مجرى فكرها بحيث تصبح مستسلمة خاضعة لهم . وقد أجمعت كتابات المستشرقين على أنهم لم يتخلصوا بعد من تعصبهم وأن علمهم لم يتحرر من الهوى وقد سجل برنارد لويس وجب هذا المعنى حيث أشار برنارد إلى ظاهرة التعصب الدينى الظاهرة فى مؤلفاتهم وأشار جب إلى ظاهرة الأحكام المسبقة على الإسلام التى لاتزال تحكم هذه الأعمال بالرغم من محاولات التحرر منها ولاشك أن زعم المستشرقين بأن أبحاثهم قد أخذت شكل الموضوعية والتجرد من الأهواء والأخذ بأسباب البحث العلمى ، هذا الوهم لايثبت أبداً أمام الصور المشوهة والعبارات الحاقدة الدفينة التى تظهر هنا وهناك من وراء الوعى بالرغم من محاولة إخفائها . ويجمل القول أن آراء المستشرقين منحرفة وهى منصبة على القرآن والرسول والإسلام فالقرآن عندهم صورة من الكتب الأخرى وأن له لغة فى مكة تختلف عن لغة المدينة والإسلام صورة مستقاة من الديانتين اليهودية والمسيحية . وإن الرسول كان راهباً رومانيا غضب على البابوية وخرج

عليها . وما تزال كتابات ورسوم دانتي وفرجيل وفولتير وديدرو وهي من أوائل الكتابات المبغضة ، ماتزال تؤثر في كتابات من تبعهم من أمثال لامنس ومرجليوث ولويس شيخو وسنوك وفنسنك وقد انتقلت آرائهم إلى طه حسين وعلى عبد الرازق ومحمود عزمي وسلامه موسى وحسين فوزي وزكي نجيب محمود ولويس عوض وتوفيق الحكيم .

الفصل الرابع

الدائرة المرنة والدائرة الصماء

إن هناك قوى ثلاث خطيرة تعمل في مجال الفكر الغربي وتلقى ظلالها على الفكر الإسلامي والثقافة العربية وهي :

[الشعوبية — التبشير — التغريب]

وجميعها قوى استعمارية فكرية تتخفى خلف الطامعين : النفوذ الغربي والصهيوني والشيوعي ولابد — إزاء ذلك — من اليقظة التامة في تقويم الآراء والمذاهب ، والدعوات التي توجه إلينا كالسهام ، ولابد أن يكون لدينا قاعدة عريضة مستمدة من مقومات فكرنا وذاتنا وعقائدنا وشخصيتنا أساساً . وعلينا أن لانقف موقف المبهورين أمام ضخامة الصحف أو جلالة الأسماء والألقاب ذات الشهرة المادية فإن أغلب هذه الشهرة التي حصل عليها المفكرون إنما صنعت لهم صنعا لإغراء البسطاء بهم ، فيستسلموا إلى آرائهم وكأنها حقائق صحيحة ، وعلينا أن نلتمس مفهوم فكرنا في هذا ولو أن كل كلام يؤخذ منه ويترك إلا القرآن والسنة الصحيحة ، وقاعدة الحق الذي نقبله أن يطابق « التوحيد » ومنهج القرآن وأن نقره عقلياً ونثق ثقة كاملة بأن قائله ليس ممن ينطبق عليهم قانون « الجرح والتعديل » أي أن يكون اسمه نقيا بعيداً عن شبهة الولاء الثقافي والتبشير أو الإستشراق أو الاستعمار وفي ضوء هذا علينا أن ننظر في هذه الحقائق . (أولا) أن اليقظة العربية الإسلامية قد طلعت بوا كيرها في منتصف القرن الثامن عشر (١٧٤٠ م تقريباً) بدعوة التوحيد التي قادها الإمام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية ومن هذه الدعوة تفجرت كل هذه الدعوات والحركات التي توالت والتي كانت استمداداً واستمراراً لمفهوم اليقظة ، كانت الحركات السنوسية في طرابلس الغرب والمهدية في السودان امتداداً لها ، كما كانت حركة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من بعدها . وعندما جاء النفوذ الفرنسي إلى العالم الاسلامي واجهته حركة اليقظة النامية التي بدأت تعمل في مجال مقاومته بالاضافة إلى عملها في مجال تحرير الفكر الاسلامي وإعادة تشكيله من جديد . وقد أزعج النفوذ الاستعماري ذلك الأسلوب العنيف الذي بدأ به « الجهاد» والمقاومة : فقد واجهه السلطوق الجنود في سنة ١٨٧٥ في مقاومة عارمة كانت تستمد مفهومها من

حركة التوحيد التى قادها محمد عبد الوهاب فى الجزيرة العربية ، وفى مصر واجه الانجليز أحمد عرابى ، الذى تعلم فى الأزهر ، وفى القرم واجه الاستعمار الروسى الشيخ شامل . وفى الجزائر واجه الفرنسيون الأمير عبد القادر الجزائرى وكان جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده يؤلبون عليهم فى كل مكان وحمل السلطان عبد الحميد لواء الدعوة إلى الجامعة الاسلامية لمواجهة الخطر الزاحف واستجاب له المسلمون خارج الدولة العثمانية والسنوسى فى ليبيا والمهدى فى السودان إلخ . هذا هو الخطر الذى واجهه النفوذ الاستعمارى الزاحف ، ولذلك فإن العمل الأول الذى اتجه إليه هو خلق قوة تؤمن به ولامانع أن تكون معارضة له شريطة أن تحمل لواء التفاهم معه . واستطاع كرومر فى مصر خلال ربع قرن تنمية هذه الدائرة التى خدعت الناس وموهت عليهم بأن اتباعها من تلاميذ جمال الدين ومحمد عبده ، فلما تمت هذه الدائرة الصماء واستحدت قضى الاستعمار على الدائرة المرنة الأصيلة وصفاها قبل الحرب العالمية الأولى وأفسح الطريق لدائرته الصماء لأن تتولى أمور الحكم وتتصدر . وأعتقد أنه فعل مثل ذلك فى كل أجزاء العالم الاسلامى وكان من نتيجته ظهور : رضا شاه ومصطفى كمال وأمان الله خان وسعد زغلول . وقد استطاع النفوذ الاستعمارى بدهائه ومكره إسقاط الوهابية ١٨١٨ فى الجزيرة العربية وإسقاط محمد على فى مصر ١٨٤٠ وإسقاط عبد الحميد فى تركيا ١٩٠٩ .

وبذلك صفى كل القوى الشابة التى ظهرت خلال القرن التاسع عشر ثم مهد لعملية أمكن إتمامها من بعد وهى إلغاء الخلافة الاسلامية ١٩٢٤ وإقامة إسرائيل ١٩١٨ — ١٩٤٨ . (ثانياً) أن النفوذ الاستعمارى لم يقبل أن تتحرك اليقظة من خلال هذه الدائرة وحدها وفرض دائرة أخرى استمدها من معاهد الارساليات الأجنبية التى تركزت فى استانبول والقاهرة وبيروت . ومن هنا فقد ظهر جيل جديد من دائرة اليقظة ، وجيل مساو له من دائرة النفوذ الغربى . وقد أطلق على الجيل الأول اسم المحافظين ، وأطلق على الجيل الآخر دعاة الحضارة الغربية غير أن هذا الجيل الذى وصف بالمحافظة لم يكن كذلك إلا بمعنى إقامة النهضة على قاعدة الفكر الإسلامى وقيمه الأساسية وإخضاع النقل والاقتباس من الحضارة والفكر الغربى لهذه القيم أما الجيل الذى ظهر فى الدائرة الصماء (الغربية) فأبرز دعاته فرح أنطون ويعقوب صروف وشبلى شميل وجرجى زيدان وأديب اسحق من اللبنانيين . ولطفى السيد وسعد زغلول من المصريين وظهر فى دائرة اليقظة الإسلامية العربية : رشيد رضا والكواكبى ومصطفى الغلايينى وعلى يوسف وعبد العزيز جاويش ومصطفى كامل وطنطاوى جوهرى وفريد وجدى وقد تطعم هذا الجيل بعدد كبير من الباحثين المسلمين الذين أحرزوا أرقى الدرجات العلمية فى أوربا من أمثال : فريد وجدى وعبد العزيز جاويش والدكتور يحيى الدرديرى والدكتور محمد أحمد الغمراوى والدكتور مظهر والسيد محب الدين الخطيب والدكتور عبد الحميد سعيد فكل هؤلاء تعلموا فى الجامعات الحديثة .

أما فى المرحلة التالية بعد الحرب العالمية الأولى فقد ظهر فى الدائرة الغربية : طه حسين وسلامة موسى ومحمود عزمى وإسماعيل مظهر وعلى عبد الرازق وساطع الحصرى . وظهر فى دائرة اليقظة العربية الإسلامية : مصطفى صادق الرافعى ومنصور فهمى والدكتور محمد حسين هيكل

وعباس العقاد ولطفي جمعه وشكيب أرسلان . (ثالثاً) إن مختلف النظريات والشبهات التي يرددها المبشرون والشعوبيون ودعاة التغريب قد أوردها « لورد كرومر » في تقاريره السنوية التي كان يصدرها كل عام ويحملها رسالته إلى الجيل الجديد من المثقفين الذين كان يعدهم لتسلم زمام الحكم من الاحتلال البريطاني . وفي هذه التقارير سجل كرومر الخطوط العامة لتهديم كل عوامل الإيمان الوطني والاعتزاز العربي الاسلامي . وكان أول من ساق الأكذوبة الضخمة التي تقول إن المصريين كانوا خاضعين أكثر زمانهم فقد حكمتهم دول الفرس فاليونان فالرومان فعرب جزيرة العرب وبغداد فالجراكسة فالترك آل عثمان . وهذا بالضبط الذي كتبه كرومر ١٩٠٦ ردده الدكتور طه حسين عام ١٩٢٩ ومن قبله سلامة موسى ولطفي السيد . ولقد كان كرومر وطه حسين ولطفي السيد جميعاً يعلمون أن صلة المصريين بالعرب لم تكن صلة استعمار وأن الرابطة بين العرب والدولة العثمانية لم تكن احتلالا . وخلق كرومر فرية تقول بأن مصر لم تبق جزءاً من آسيا أو من أفريقيا أو من الشرق وهو ما ردده سلامه موسى من بعد . وتحدث كرومر عن الحكومة الاسلامية ووصفها بالحكومة الثيوقراطية وهي العبارة التي ما زال يرددها الشعوبيون ودعاة التغريب والمبشرون وكذلك فإن كرومر هو الذي شن الغارة على الجامعة الاسلامية ورماها بعبارات الازدراء ، ونسب إليها التعصب . وقد أشار كرومر في هذا المجال إلى أن أوربا ستحول بكل ما تملك دون وحدة المسلمين حين قال « إني واثق من قوة أوربا واقتدارها عند الاقتضاء على تلافي هذه الحركة من الجهة المادية وإن تكن غير قادرة على ذلك من الوجهة الروحية (تقرير ١٩٠٦) . وفي تقارير كرومر : منهج كامل الحلة على الإسلام والتشريع الاسلامي وما تزال عبارات كرومر هي نفس العبارات التي ترددها حتى الآن كتابات المبشرين ودعاة الشعوبية والتغريب ، ومن ذلك قوله : « إن الجامعة الاسلامية تستلزم السعي في إصلاح أمر الاسلام على المنهج الاسلامي والسعي في القرن العشرين في إعادة مبادىء وضعت من ألف سنة صدى لهيئة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة هذه المبادىء مناقضة لآراء أهل العصر » وقد رد الكثيرون من كتاب المسلمين على شبهات كرومر ودحضوا اتهاماته وكشفوا عن عالمية الشريعة الاسلامية وقدرتها الخارقة على منح الانسانية في كل عصر ومصر حاجتها وحل معضلاتها وقد شهدت بذلك مؤتمرات القانون والتشريع ، وعديد من أعلام الفكر الغربي المنصفين وبالرغم من تحذيرات كرومر فإن الدعوة إلى الجامعة الاسلامية استمرت ولم تتوقف وأن الحركات الوطنية والقومية في العالم الإسلامي كله إنما هي مستمدة من مفهوم الوحدة الإسلامية . وفي تقارير كرومر توجيهات إلى الجيل الذي أعده لتسلم مقاليد الحكم في البلاد وفي مقدمة الأذكياء الذين استجابوا إليه : لطفي السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمي وقد كان لهم مكان الصدارة عام ١٩٠٦ قبل أن يبارح كرومر مصر فتولى سعد زغلول وزارة المعارف وأصبح مشرفاً على شئون التربية والتعليم وتولى لطفي السيد قيادة الحركة الفكرية والصحفية رئيساً لتحرير « الجريدة » لسان « حزب الأمة » وهو صاحب الفلسفة الإقليمية الأرستقراطية المجافية للعروبة والإسلام وقيم الفكر الإسلامي نفسه وهو يحدث هؤلاء الطامعين حين يقول : لا ريب أن أحداث المصريين يبدأون يصيحون للحصول على نصيب أعم في حكومة بلادهم وإدارتها ، إني صديق المصريين أصدق من أن أتملقهم أو أغشهم ولذلك

أسأل نفسي قائلا : ما الذي يروق الأحداث المصريين، فهم يريدون أن يرتقوا إلى مناصب الحكومة العالية التي يتقلدها الأوربيون الآن وليس عندي كلمة ضد هذه الأمنية » . ثم أشار توا إلى ما أسماه اتباع الشيخ محمد عبده الذين يشبهون في آرائهم أحمد خان مؤسس مدرسة عليكرة وقال عنهم إنهم يرغبون في ترقية مصالح أبناء بلادهم وأبناء ملتهم « ولكنهم يجردون من صيغة الجامعة الإسلامية » وهكذا حدد كرومر مفهوم مدرسته وهدفها حين قال من بعد . وبيان مقاصدهم ومطالبهم لا يتضمن معارضة الأوربيين في إدخال تمدين الغربيين إلى بلادهم بل معاونتهم في ذلك ولهذا حقق كرومر هدفه في بناء جيل على نفس المخطط الذي رسمه الاستعمار (رابعاً) حاول كثير من الكتاب أن يصف حزب الأمة الذي تصدره لطفي السيد عام ١٩٠٧ بأنه حزب وطني خالص الوطنية وأنه كان خصما للاستعمار ولقد قدمنا في منصف كتبنا الدليل بعد الدليل على أن كرومر هو منشىء هذا الحزب ومخطط فلسفة أستاذ الجيل وأن سعد زغلول هو أبرز تلاميذ هذه المدرسة . ونورد هنا عبارة اللورد لويد في هذا الصدد من كتابه (مصر منذ عهد كرومر) الذي صدر عام ١٩٣٣ وترجمته الصحف المصرية ونشرت فصولا منه يقول اللورد : كان كرومر يعمل على إيجاد خطة تكون الغاية فيها في رأيه إيجاد عقبة أو حائل دون حملة الحزب الوطني وكان يعرف أن في مصر عدداً كبيراً من المعتدلين ذوي النفوذ والمكانة الذين كانوا أوسع مدارك وأبعد نظراً وكانوا يريدون تحقيق الرقي جذرياً بالوسائل الدستورية وكان كرومر يسعى بينهم لكي يؤلف منهم هيئة تنشر آراءهم . وكان من نتائج ذلك أن ألف حزب الأمة في أكتوبر ١٩٠٧ وصدرت جريدته الجريدة وكان أحد أعضاء هذا الحزب الذي ينبىء عن مستقبل عظيم ذلك الرجل الذي أصبح اسمه أعظم الأسماء في تاريخ مصر الحديث وهو سعد زغلول « وكان قد اشتغل بالمحاماة وتولى قضايا الأميرة نازلى وكانت هذه السيدة هي التي شجعته على تعلم اللغة الفرنسية التي لولاها لما اشتغل بالسياسة وكانت خطوته الثانية زواجه بابنة رئيس الوزراء صديق كرومر « فهمى باشا » . وكان إذن متصلا اتصالات حسنة من هذه الناحية وكان قد انبرى بصفات تميزه من ناحية الاعتدال والشجاعة وكان إذن من الطبيعي أن يعمد كرومر وهو مقتنع بضرورة تشجيع الآراء المعتدلة ثم لسروره بأن يؤدي لصديقه مصطفى فهمي باشا معروفاً بترقية سعد زغلول فيجعله وزيراً لوزارة المعارف الجديدة وكان هذا العمل افتتاحا لخطة جديدة غايتها تقوية الرابطة بين مصر وانجلترا » .

الباب الرابع

التبشير وآثاره فى بناء الفكر والثقافة

الفصل الأول : التعليم فى أحضان التبشير . الفصل الثانى : الشبهات التى أثارها التبشير .
الفصل الثالث : التبشير والفكر الإسلامى . الفصل الرابع : التبشير واللغة العربية
الفصل الخامس : أثر التبشير فى الثقافة العربية والتراث . الفصل السادس : التبشير والأدب العربى .
الفصل السابع : التبشير وتاريخ الاسلام . الفصل الثامن : التبشير والوحدة الاسلاميه .

الفصل الأول

التعليم فى أحضان التبشير

اتخذ التبشير من التعليم أكبر أهدافه وأبعدها مرمى وأعظمها أثراً فى تشكيل أجيال المسلمين والعرب الجديدة على النحو الذى يضمن له استسلامهم لنفوذه وتقبلهم واعتناقهم لمفاهيمه وقيمه وإذا كان التبشير بوصفه أداة الاستعمار الأولى والكبرى قد عمل فى ميادين الثقافة واللغة والتأليف والصحافة فإن مكانة الأول هو التعليم على حد قول عميد المبشرين : (المبشر الأول هو المدرسة) . وقد سجل دعاة التبشير هذه الحقيقة فى كثير من تصريحاتهم ومؤلفاتهم . ففى المؤتمر التبشيرى العام الذى عقد عام ١٩٢٤ حسبما تسجل محاضره المنشورة يوجه العمل إلى الأطفال : « فى كل حقل من حقول العمل يجب أن يكون العمل موجهاً نحو النشء الصغير من المسلمين وموزعاً فيما بين المسلمين باعتبارهم البذرة الجديدة النامية القطوف ليحيط بهم وليكونوا منه على صلة مباشرة ، ويجب أن يقدم هذا على كل عمل سواء فى الأقطار الاسلامية . فإن تنور روح الاسلام فى الناشىء الحديث تبتدىء باكراً من عمره ، فيجب والحالة هذه أن يؤتى بالنشء الصغير من المسلمين إلى (الارساليات) قبل أن يتكامل نمو عقليتهم وأخلاقهم على القوالب الاسلامية فتقسو عقليتهم وأخلاقهم وحينئذ تستعصى على المبشر . ومن الأدلة والبراهين الجديدة التى تؤيد هذه الحقيقة ما تقرر وسجل فى سجلات بعثات التبشير فى الجزائر وفى شمال إفريقية ويمكن أن يكون من القضايا المسلمة أن الجرى على قاعدة للعمل فى النشء الصغير من المسلمين هو أفضل الأعمال وأعودها بالخير وحسن الثمار . وتقول المبشرة أنا مليجان : ليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة ، فإن المدرسة أقوى قوة لجعل الناشئين تحت تأثير (الغرب والمسيحية) ، وهذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً ما قادة أوطانهم»

وهذا هو الهدف فى الحقيقة : السيطرة على الجيل الجديد منذ مطالعه لإعداده على النحو الذى يكفل له عندما يصبح فى مكان القيادة السياسية والاجتماعية والثقافية فى وطنه أن يكون صاحب ولاء فطرى وإتفاقى قوامه الحب والإعجاب والتقدير للذين علموه ونشئوه . ومن هنا اهتمت الدول المستعمرة خلال فترة مابين الحربين بتثقيف أبناء الأمراء والعظماء وكبار رجال السياسة ونقلهم إلى التعليم فى المعاهد الأجنبية وذلك لخلق هذه الطبقة وإعدادها وقدكان بإغرائهم عجيباً لكثير من أصحاب ، المراكز العالية - حتى بعض كبار المسئولين فى مجال الاسلام - على تعليم أبنائهم وبناتهم وقد أشارت تقاريرهم إلى ذلك بما أسمته « نزوع الطبقة الراقية إلى المدارس الأجنبية » وقد أكد المراقبون النتائج الخطيرة التى حققها التعليم التبشيرى فى تقريب المسافة بين الاستعمار وأهل الأوطان الاسلامية وماحققه من حل كثير من المشاكل ، وأهمها المسألة الشرقية وقيام إسرائيل فى قلب العالم العربى ، وليس أدل على أهمية ذلك من أن الذين حملوا لواء التبشير بالدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد وعملوا على تمزيق الرابطة بين العرب والترك وتمكين الدول الاوروبية من تقسيم الفريسة فيما بينها كانوا من الذين تعلموا فى معاهد الارساليات التبشيرية وهؤلاء الذين خدموا النفوذ الأجنبى فى مصر وكانوا على إخلاص لكرومر والاستعمار وهم أصحاب الصحف الكبرى فى مصر (المقطم والهلال والأهرام) إنما كانوا من هؤلاء ومنهم من دعا عام ١٩٣٥ إلى إنشاء دولة يهودية فى فلسطين ودولة مسيحية فى لبنان ، ومنهم من عاود الدعوة عام ١٩٤٥ إلى أن تكون لبنان وطناً قومياً للنصارى فى الشرق الأدنى ومنهم الدعاة إلى العامية والحروف اللاتينية وكل الدعوات التى تعمل على تعميق الاقليمية وتمزيق وحدة العرب والمسلمين الفكرية وإيقاع الخلاف بين العروبة والاسلام بعد أن تحقق إيقاع الخلاف بين العرب والترك وترجع أهمية مدارس الارساليات التبشيرية والمعاهد الأجنبية إلى أنها لاتدرس الاسلام ولااللغة كلية ولكنها تدرس اللغات الأجنبية المختلفة والثقافة المسيحية المستمدة من التوراة والانجيل فى أبواب الأخلاق وبعضها علمانى محض ينظر إلى الاديان والأخلاق والعروبة والاسلام والتاريخ الاسلامى نظرة احتقار وتشكيك ويتناوله تناول النقد المشوب بروح الازدراء . والمعروف أن المعاهد الفرنسية تعلم منهجاً فلسفياً استعمارياً فى كل شىء ، يعرف فيه الطلبة جغرافية فرنسا وتاريخ فرنسا والكتب التى تدرس هى كتب فرنسا ولايعرفون فى نفس الوقت أى شىء عن وطنهم العربى أو عالمهم الاسلامى والمعاهد التابعة لبريطانيا تفعل نفس الشىء وكذلك المعاهد التابعة لأمريكا وقد فرضت أغلب هذه المعاهد على الطلبة المسلمين الالتزام بتقاليدها الخاصة وأرغمتهم على حضور الصلوات يوميا فى الكنيسة . ولما احتج الطلبة أصدرت إحدى الجامعات سنة ١٩٠٩ منشوراً قالت فيه « إن هذه الكلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحى هم اشتروا الأرض ، وأقاموا الأبنية وأنشأوا المستشفى وجهزوه ولا يمكن المؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما يكون الانجيل من مادته فتعرض منافع المسيحية وعلى كل تلميذ وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقاً ماذا يطلب منه ، إن الكلية لم تؤسس للتعليم العلمانى ولا لبث الأخلاق الحميدة ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التى فى التوراة وأن تكون مركزاً للنور المسيحى والتأثير المسيحى وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به

وفى هذا القدر كفاية عن أهداف التعليم التبشيرى ، وفضلا عن ذلك فقد أشارت تقارير المبشرين المختلفة إلى أن التعليم التبشيرى ما زال أفضل طريقة للوصول إلى عقول المسلمين وأن الحاجة إلى توسيع هذا التعليم وزيادة نشره تتزايد وتعظم يوماً فيوماً من كل جهة ويكاد يكون هناك إجماع بين المفكرين المسلمين والعرب ، وبين دعاة التبشير وكتاب الغرب من ناحية أخرى وبين خريجى هذه المعاهد من ناحية ثالثة على هذا الهدف الواضح الصريح وهو تحويل المسلمين والعرب عن قيمهم ودينهم وتاريخهم وأخلاقهم . (١) أما المفكرون والمسلمون العرب فإنهم يعتقدون « أن أول هم للمبشر هو هدم الاعتقاد فى تلميذه فيصبح الطالب مستخفاً بالمعتقدات . أما الخطوة الثانية فهى محاولة غرس تعاليم جديدة فى أرض لم تمهد صالحة للاعتقاد ، وذلك يؤدى إلى أشد النتائج فظاعة ، وهو حض المبشرين الطلبة على المراءاة فالسلوك (المصرى الغربى المسيحى) هو مقياس الاستقامة التى يتوقف عليها تمهيد الطريق الراغب فى النجاح المدرسى . هذا ما سجله أحد خريجى هذه المعاهد إذ قال : إن قولى ذات مرة إنى لا أوافق على هذه الأخلاق فى مناقشة مع مدير المدرسة وكان يحثنى على التمسك بها كاد يدخلنى مستشفى المجاذيب لشدة الاضطهاد الذى واجهته فى وقت كنت فيه تحت رحمة المدرسة . وقد أشار ساطع الحصرى إلى تصريح المارشال ليوتى مؤسس الامبراطورية الفرنسية فى إفريقيا الشمالية فى خطبته عن اختياره عضواً فى الأكاديمية الفرنسية الذى قال فيه « أعترف بأن فرنسا قد استفادت من مدارس المستعمرات استفادة كبيرة ، فإن أبناء المستعمرات الذين جندوا فى الحرب العالمية قد وفروا على فرنسا بما قدموه من تضحيات بأرواحهم ملايين من الأنفس الفرنسية . ويصور جبران خليل جبران أثر مدارس الإرساليات التبشيرية فى نفسه وفى جيله فيقول « فى سوريا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة وقد كنا ولم نزل نلتهم (خبز الصدقة) لأننا جياع متضورون ولقد أحيانا ذلك الخبز ولما أحيانا أماتنا أحيانا لأنه أيقظ (بعض) مداركنا ونبه عقولنا (قليلا) وأماتنا بأن فرق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب كل مستعمرة منها تشد فى حبل إحدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها » فالشاب الذى يتناول لقمة العلم من مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكى ، والشاب الذى تجرع رشفة من العلم من مدرسة يسوعية صار سفيراً فرنسياً ، والشاب الذى لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلا لروسيا ، إلى آخر ما هنالك من المدارس وما تخرجه كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء . وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع . فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانجليزية يريدون أمريكا أو انكلترا وصية على بلادهم ، والذين درسوها بالفرنسية يطلبون فرنسا تتولى أمرهم ، وقد يكون ميلنا إلى الأمة التى تتعلم على نفقتها دليلا على عاطفة عرفان الجميل فى نفوس الشرقيين ، ولكن ما هذه العاطفة التى تبنى حجراً من جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى ، ما هذه العاطفة التى تستنبت زهرة وتقتلع غابة ، ما هذه العاطفة التى تحيينا يوماً وتميتنا دهراً . ومفكر آخر تعلم فى الإرساليات التبشيرية هو ميخائيل نعيمة : يقول رأيه : فماذا يقول : « لقد عرفت سوريا غزاة كثيرين فلم يكن من شذاذ عليها دخل الشرقية أن هدم القوة فوق قوتها ، إلا أنه

منذ أواسط القرن الماضي اتخذت مهداً لغزاة ما عرفت مثلهم من قبل ، غزاة جاءوها لا ليمتلكوا جسمها بل يقبضوا روحها، فقد شنوا عليها الغارة بالتوراة والإنجيل والريالات والمقاتير . فكانوا أشد قسوة عليها من كل من سبقهم ، افتتح هؤلاء سوريا باسم الدين ، كان على المبشرين أن يزينوا مدنيتهم للسوريين كما لو أنها صفوة الكمال ، لحملوهم على احتقار مدنيتهم واحتقار أنفسهم ، ومن ثم فقد صوروهم للغرباء الذين أرسلوهم فى حالة تقارب الهمجية فمسلمهم جاهل ونصرانيهم وثنى وكلهم كذبة ضد المدنية . . . »

أما الغربيون فقد كشفوا عن هدفهم واضحاً : قال الكاتب الفرنسى إبتين لامى : « إن مقاومة الإسلام بالقوة تزيده انتشاراً ، أما الوسيلة الفعالة لهدمه وتقويض دعائمه فهى تربية دينية فى المدارس التبشيرية أو المسيحية ونفث جراثيم الإلحاد فى صدورهم منذ نشأتهم من حيث لا يشعرون ، فإن لم يتنصروا فقد أصبحوا لا مسلمين ولا مسيحيين » . والمستشرق هاملتون جب يكشف فى جلاء ووضوح عن أهمية التعليم فى خطة تغريب المسلمين والعرب فى كتابه (وجهة الإســـلام) فيقول : التعليم أكبر العوامل الصحيحة التى تعمل على الاستغراب ، والحق أنه العامل الوحيد إن فهمنا من كلمة التعليم ما تدل عليه ولا نستطيع الحكم على مدى الاستغراب فى العالم الإسلامى إلا بمقدار دراسته للفكر الغربى وللمبادىء والنظم الغربية . إن انتشار التعليم (الغربى) سيبعث بازدياد فى الظروف الحاضرة على توسيع تيار الاستغراب وتعميقه ولا سيما لاقترانه بالعوامل التعليمية الأخرى التى تدفع الشعوب الإسلامية فى نفس الطريق . وقد ذكر الدكتور زويمر كبير المبشرين فى العالم الإسلامى أهمية ما قام به الاستعمار من إخراج القرآن وتاريخ الإسلام من برامج التعليم مما أخرج ناشئة لا هى مسلمة ولا هى مسيحية ولا هى يهودية « ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة » وقد علق دكتور واطسون على هذا التصريح بعد أكثر من عشر سنين فقال : « إننا نراقب سير القرآن فى المدارس الإسلامية ونجد فيه الخطر الدائم : ذلك أن القرآن وتاريخ الإسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير . (٣) أما خريجى هذه المعاهد فإن أكبر حدث فى هذا المجال هو موقف عبد القادر الحسينى الذى كان طالباً بإحدى هذه المعاهد وتخرج منها . فقد وقف فى يوم الاحتفال بتخريج زملائه وتخريجه ، وفى يده الشهادة التى أحرزها ، وقال إن لديه كلمة يريد أن يقولها « إن هذه الجامعة تظهر أمام الناس فى مظهر المدرسة العلمية ولكنها فى الحقيقة بؤرة إفساد العقائد الدينية وهى تطعن فى الإسلام ، ولذلك لا يصح للمسلمين أن يبقوا أولادهم فيها ، وكشف عن عدد من الكتب المقررة التى تمس النبى والإسلام . وقال مدير الكلية إن هذه الكتب ليست مقررة على الطلبة وإنما هى من بين أربعة عشر ألف كتاب فى مكتبة الجامعة ، وبعضها يشتمل على الطعن فى الدين المسيحى وقد نشرت الصحف فى هذه الفترة فقرات من هذه الكتب ونصوصاً تثبت صدق ما قاله عبد القادر الحسينى . وأشار الدكتور عمر فروخ فى كتابه التبشير والاستعمار إلى الموضوعات التى تدرس فى بعض معاهد الإرساليات ومنها ما يأتى : (٩) نصارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية .

(٢) يقول آرنست رينان : إن الفلسفة العربية ليست إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية وقال « الويل للتلميذ الذى ينتصر للفلسفة العربية انتصاراً ظاهراً ، أما كلمة الإسلام وحدها فقد تفسح للطالب المجال ليجرب حظه مرة أخرى فى دورة تالية . »

(٢) التعليم التبشيري والمرأة المسلمة

لم يقف أمر التبشير عند الإرساليات والتعليم الأجنبي وحسب ولكنه سيطر أيضاً بغاياته ومفاهيمه على التعليم الحكومي وغزا وزارات التعليم والمعارف في العالم الإسلامي كله حيث فرض على هذه الوزارات عدداً من المبشرين ، وفي مصر أولى الاستعمار اهتماماً كبيراً بالغزو التبشيري للتعليم فكانت خطط كرومر التي نفذها المبشر دنلوب ودعمها رجلان من تلاميذ المدرسة العربية هما لطفي السيد في الجريدة وسعد زغلول وزير المعارف . وقد استهدفت خطة كرومر التي نفذها دنلوب ومن بعده : « عزل مصر عن الأمة العربية وعن العالم الإسلامي وعن جذور الفكر الإسلامي المستمد من القرآن » وقد جيء بالقس دنلوب من مدارس إرساليات التبشير الإنجليزية إلى وزارة المعارف المصرية وسرعان ما أصبح مستشارها النافذ الرأي وقد عرف عنه أنه « كان إذا رأى الرأي الذي يحقق غرضه دعا إليه موظفاً مصرياً من موظفي وزارة المعارف فذاكره فيه واستدرجه لاستحسانه ، ومن خلق الموظف أن يستحسن ما يستحسنه رئيسه ، ولو لم يكن مقتنعاً به ، فإذا أعرب لدنلوب عن استحسانه ذلك الرأي اقترح عليه أن يكتب له فيه تقريراً ثم يعرض التقرير على الجهات المختصة مع التوصية بترويجه ، ثم يقال : « إن الموظف المصري فلاناً هو مقترح هذا الرأي ويكافيء (خيال الظل) على الدور الذي مثله بترقيته إلى درجة أعلا . وهكذا وضعت مناهج التعليم المصري بكل درجاته وهكذا رسمت طرائق تكوين النشء في المدارس المصرية وبهذه الطريقة رسخت في وزارة المعارف المباديء التي نفذوها ، ومنها جعل التعليم الديني صورة بغير روح وتجريد المدارس من التربية الإسلامية ومن تربية الرجولة ، واعتبار الإسلام احتلالا وترديد أحاديث في بعض كتب الدراسة منها أن مصر احتلها الفرس ثم البطالسة ثم العرب . وتجاهل الروابط الحقيقية في الجنس واللغة وذلك جرياً على خطة دنلوب التي ترمى إلى قطع أواصر مصر بكل من يرتبط معها في اللغة أو الدين إضعافاً لها وإيهاما لأبنائها بأنهم منفردون ولا علاقة لهم بالأقطار الأخرى ، وكثير من الكتب التي كانت تدرس كانت تورد اسم العرب والإسلام في سلسلة الأمم المحتلة لمصر ولا تذكر من علاقات مصر بجاراتها قبل الإسلام وبعد الإسلام إلا الحروب إيهاما بأن هذه الشعوب والأقطار كانت أعداء لمصر ولم يكونوا وإياها في كيان واحد » . وقد أشار الدكتور هيكل إلى دور وزارة المعارف وهدفها الحقيقي فقال : « إن وزارة المعارف تخضع اليوم وأمس وستخضع غداً وبعد غد إلى أن يتاح لها النصر السياسي إلى السياسة التي كانت تخضع لها أيام أن كان (دنلوب) مستشاراً لها مع فوارق عدد المدارس وعدد الأساتذة ، إن سياسة التعليم في وزارة المعارف ستظل اليوم وغداً كما كانت بالأمس وقبل الأمس خاضعة للسياسة الغربية والحضارة الغربية في روحها فالحضارة الغربية بالمعنى الذي يفهمه مفكرو الغرب ومؤسسو هذه الحضارة الحقيقيون ، هذه الحضارة استعمارية عدوة للعلم على خط مستقيم ، وهي كذلك حيثما ذهبت حاربت العلم وحاولت حصره في طبقة ضيقة وفي حدود ضيقة لتتخذ من هذه الطبقة بطانة لها تروج للاستعمار ، أي لاستغلال البلاد التي تنزل فيها استغلالا مادياً يذهب كل خيرة للغرب صاحب هذه الحضارة الاستعمارية ، وكذلك وضعت يدها على وزارات المعارف حيثما ذهبت وعملت دائبة على إفساد هذه المقومات النفسية والخلقية والقومية

مكتفية بطائفة من المعلومات العملية التي تحتاج إليها أداة الحكم : لاشك تعطى هذه النظرة من أحمد أساطين التغريب ورأس مدرسة السياسة التي ضمت طوال (١٩٢٢-١٩٣٢) طه حسين وعلى عبد الرازق ومحمود عزمي ودعمت مخططاً بالغ الخطورة فى طريق حرب الأمة ثمرة النفوذ الاستعماري والتبشيري والتغريبي التي رسمها لطفي السيد سنة ١٩٠٧ فى الجريدة ونفذها سعد زغلول فى وزارة المعارف بالاشتراك مع دنلوب والتي طبقت تطبيقاً حاسما مخطط اللورد كرومر فى السيطرة الفكرية والثقافية على العالم الاسلامي كل عن طريق مصر وصحافتها ، هذه النظرة لم تنفجر فى نفس الدكتور هيكل إلا من خلال عاصفة التبشير المكشوف العاتية التي مرت على مصر عامي ١٩٣٢ و ١٩٣٣ فحولت اتجاهه تحويلا ضخما إلى مقاومة التبشير بالتماس الحضارة الاسلامية وسيرة الرسول على النحو الذى أشار إليه حين قال : لقد استطاعت السياسة فى هذه المرحلة أن تكشف دور التبشير فى خدمة الاستعمار فى ظل تحدى سياسي هو خصومتها لحكومة صدقى باشا التي حالفت حزب الأحرار الدستوريين أول الأمر ثم تخلت عنه ومن هنا خرج الدكتور على مفاهيمه القديمة كلها وتحرر منها ، غير أنه يمكن أن يقال — مع الأسف — أنه حين تولى وزارة المعارف بعد ذلك بسنوات قليلة صدق حدسه فى أنه لم يستطع أن يحررها من نفوذ دنلوب ، هذا النفوذ العميق البالغ الخطر بعد أن ترك دنلوب وزارة المعارف عام ١٩١٧ . ومن الحق أن يقال إن حملة التبشير قد كشفت آمال الأجيال فى العالم الاسلامي كله عن حقيقة واقعة هى أن التبشير قد تخفى وغير جلده وتحوط من أن يكون هدفاً مكشوفاً سرعان ما يهاجم أو يعطب ، بأن غير أساليبه لجعلها مرنة بارعة دقيقة ودخل بها إلى مجال الجامعات والمعاهد والمدارس (الأجنبية) وتلك التي تخضع لمناهجه وأساليبه ، وأنه اتخذ مجال الثقافة والصحافة عاملا هاماً وخطيراً فى سبيل تحقيق غايته — التي لم تكن بمفهوم التبشير لنفس التبشير ، ولكنها التبشير للتغريب ، وإخراج المسلمين من قيمهم ومفاهيمهم وخاصة فى أمرين : القضاء على الرابطة الاسلامية التي تجمعهم وأن يكون الاسلام دين عبادة ولاهوت وليس دين مجتمع ومنهج حياة صالح للتطبيق . وقد استطاعت مناهجهم فى الجامعات والمعاهد والمدارس أن تحقق ذلك الهدف : هدف إفساد مفهوم الاسلام والعروبة والقرآن ومحمد والتاريخ العربي الاسلامي وإقامة مفاهيم أخرى ، وقد استخدم « التعليم » كسلاح غاية فى القوة والنفوذ فى سبيل تغيير النفس المسلمة والعقل المسلم وخلق قيم جديدة تجعل من المسلمين اتباعاً للثقافة الغربية وأولياء لها . وكذلك استطاع الاستعمار أن يحقق هدفاً من أكبر أهدافه وهو اتخاذ العلم وسيلة إلى استعباد الأفراد والأمم وخلق طابع الاستكانة والاستسلام مع التقبل لسلطان الغرب وحضارته ونفوذه — وفى هذا يقول المبشر الأشهر « جب » إن المدارس شرط أساسي لنجاح التبشير ، إن المدارس قوة تجعل الناشئين تحت تأثير التعليم « الغربي المسيحي » أكثر من كل قوة أخرى ، ثم إن هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً قادة لأوطانهم » . ومن توجيهات قوله إن « جون موت » للمدارس الأجنبية رسالة ولرسالتها غاية قصوى هى أن تجعل الشعوب كلها فى المستقبل تابعة للغرب وأوربا والكنيسة » . ومن طريق المناهج التي تدرس فى هذه المعاهد تتحقق العقيدة التي تتكون فى نفس الطالب .

أولا : عندما تعرض الأديان يعرض الإسلام عرض عداء وخصومة . ثانياً : الدس على الإسلام وتاريخ الإسلام . ثالثاً : الوحدة فى العالم العربى تنسب إلى الإرساليات . رابعاً : ليس هناك وحدة بين هذه الأقطار ولكل منها جذوره الإقليمية . خامساً : هذه البلاد كانت محتلة بالرومان والفرس ويعتبر العرب والأتراك من قوى الاحتلال وتحمل هذه الدراسات فى ثناياها محاولة إيقاع الخصومة بين المسلمين والمسيحيين والسنة والشيعة ، والعرب والترك والفرس وذلك بإثارة مراقف الخلاف القديمة بينهم وتحاول هذه الدراسات دائماً أن تعرض الحروب الصليبية وموقف شارل مارتل من المسلمين فى موقعة بلاط الشهداء، وتحاول أن تصور المسلمين وقد تقهقروا أمام الغرب وأن الهلال تأخر والغرب تقدم . ومن عجب أن هـــذه الكتب والدراسات والمناهج لم تقتصر على معاهد التبشير والإرساليات بل تسربت إلى المعاهد والجامعات الوطنية وأنها أصبحت مراجع وطنيه يعتمد عليها ولذلك فقد حاصرت الطالب المسلم فى مختلف مراحل الدراسة وأنواعها بحيث لا يفلت من التأثر بها وقد حرصت حكومات الانتداب والاستقلال الذاتى عن طريق دعاة التبشير وأعوانه وأتباعه على تأصيل هذه الأبحاث كمراجع وما تزال إلى اليوم عشرات من هذه الكتب موجودة فى أيدى طلاب العرب والمسلمين ، بل وهناك موسوعات ودوائر معارف ومراجع أساسية ، وكلها مليئة بالأخطاء والشبهات . وقد تعددت مدارس الإرساليات الأجنبية ومعاهده حتى شملت جميع فروع التعليم وأهمها :

(١) مدارس رياض الأطفال (٢) مدارس البنات وذلك إيماناً بأن الأطفال هم الصفحة البيضاء السهلة لتركيز مفاهيمهم . أما مدارس البنات فقد كان التركيز عليها مهما جداً باعتبارها « الأم » التى ستخرج الأجيال القادمة فإذا صيغت نفسيتها وعقليتها وفق مناهج التبشير والاستعمار والتغريب فإنها ستؤثر فى الأجيال أسوأ الأثر والأم مدرسة إذا أعددتها ! وتحظى المدارس الداخلية بعناية خاصة واهتمام أكبر ، حيث يفصل الطالبات عن بيئاتهن الإسلامية ويصل النفوذ الغربى المسيحى إلى مداه فى كل تفاصيل تلك الحياة ، وأغلب البنات فى هـذه المعاهد من أبناء الأسر الراقية وقد وصفت هـذه الخطة « بأنه ليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر من هذه المدرسة » ويعتقد دهاقنة التبشير أن المدارس العالية هى أقرب الطريق إلى الطبقات المثقفة ، وأن الآراء (الغربية المسيحية) إذا إعتنقها هؤلاء فإنها سرعان ما تتسرب من تلقاء نفسها إلى المجتمع الإسلامى ذلك أن هؤلاء الطلاب الجامعيين هم من بعد قادة الرأى فى بلادهم ولذلك فقد أجمعت مختلف المؤسسات التبشيرية (إنكليزية وإيرلندية وألمانية وسويدية ودانمركية وامريكية) على وضع التوراة فى أيدى الطلاب على أنه كتاب تدريس أساسى . أما فى نطاق المدارس الأولية فقد حرصت جهات التبشير على البحث عن الأسر الفقيرة لاصطياد أبنائها وبناتها باسم التربية والتعليم واستهواء الأطفال بتوزيع الحلوى كما عمد إلى نشر المبشرات فى مختلف القرى والبلاد وهم يجمعون طبقة معينة من التلاميذ هم طبقة الفقراء والمعوزين يحشرونهم فى مدارسهم ويلقنونهم مع المعارف الأولية مبادىء دينهم ويستغلون حداثة التلاميذ بهم كأساتذة لهم وشكرهم لهم لتفضلهم عليهم بالكسوة والطعام والتعليم فإذا بهم يغزونهم عقلياً وجسمياً ويفسدون أخـــلاقهم ويستشهدون شهواتهم وقد حدث هذا فى مصر وكشفت الصحف المصرية عن نماذج مخزية استعملت فيها أجهزة

التنويم المغناطيسي وحالت الامتيازات دون إيقافه أو معاقبة فاعليه . وتدخلت دعوى حماية هذه الهيئات عن طريق الامتيازات سيفا مصلتا على مختلف بلاد العالم الاسلامي وكانت مصدر صدام كبير عندما حاولت مصر إلغاء الامتيازات الأجنبية في مؤتمر مونترو سنة ١٩٣٧ فقد طلبت كل دولة لها إرساليات ومعاهد في مصر حماية معاهدها ، وأعلنت الحكومة البريطانية أنها هي المسئولة عن سلامة الارساليات الأجنبية جميعها .

(٣) التبشير والمرأة المسلمة

وقد عنى التبشير بإعداد دور خاص للمرأة المسلمة واعتبر أن العمل في مجالها من أخطر الأعمال وتلك خطته بالنص . « بما أن الاثر الذى تحدثه الام في أطفالها — ذكوراً وإناثاً — حتى السنة العاشرة من عمرهم بالغ الأهمية ، وبما أن النساء هن العنصر المحافظ في الدفاع عن العقيدة فإننا نعتقد أن الهيئات التبشيرية يجب أن تؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على أنه وسيلة مهمة في التعجيل بفتح البلاد الإسلامية ، .وقد أشار مسيو اتيين لامى منذ عام ١٩٠١ فى مجلة العالمين الفرنسية إلى أنه يمكن استغلال المدارس التبشيرية فى إلقاء بذور الشك في نفوس النشء المسلم وإفساد عقيدتهم وأن الوسيلة لتقويض بنيانه هى تربية بنيه في مدارس التبشير وإلقاء بذور الشك فى نفوسهم منذ عهد النشأة » ثم قال « إن تربية البنات فى مدارس الراهبات أدعى لحصولنا على حقيقة القصد ، ووصولنا إلى نفس الغاية التي من وراءها نسعى بل أقول إن تربية البنات بهذه الكيفية هى الطريقة الوحيدة للقضاء على الاسلام بين أهله ومن هذه التوصيات ما تردد من أن « تربية الراهبات لبنات المسلمين توجد للاسلام فى داخل حصنه المنيع عدوة لدوداً لا يمكن للرجل قهرها ، لأنه سهل على المرأة والحالة هذه أن تؤثر على إحساس زوجها وعقيدته فتبعده عن الاسلام وتربى أولادها على غير دين أبيهم » . وفى ضوء هذه التوجيهات عمل التبشير فأنشأ أول مدرسة للبنات في الامبراطورية العثمانية في بيروت سنة ١٨٣٠ وكان من أوائل عمل التبشير فى مصر فى أواخر عصر إسماعيل ١٨٧٠ تقريباً إنشاء مدرسة للبنات فى أسيوط كما انتشرت مدارس البنات فى سورية والسودان وقال رجال التبشير فى نتائج هذا العمل « إن التبشير يكون أتم حبكا في مدارس البنات الداخلية حيث الصلة بالطالبات أوثق لأنهن ينتزعن من نفوذ حياة بيئة غير مسيحية حيث ترى بنات مسلمات من أسر باشوات وبكوات يجتمعن تحت النفوذ المسيحي وليس ثمة طريق إلى حصن الاسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة (المبشرة أنا مليجان) وقد أشار الدكتور هيكل عام ١٩٣٢ إلى دور الارساليات التبشيرية فى مجال تعليم الفتاة المسلمة وتربيتها وما يفرض عليهن من ضرورة أداء الصلوات ، ومما قاله أن بنات الاستاذ أحمد علوبه المحامى بأسيوط وكن فى إحدى مدارس التبشير قد لاحظ أبواهن عليهن قلقاً واربكا كما أدى إلى حالة عصبية جعلت الكبرى منهن تبكى حين سألها والدها عما بها وأخيراً قالت وبعد إلحاح . أنها لكثرة ما تسمع من الدين المسيحى ولما يشار به من عبارات موجزة ومن طرف خفى تشعر وهى مسلمة صالحة تحب الاسلام ورسوله بشىء من تزعزع العقيدة هو

الذى يدعوها لذلك الذى تعانى من ألم وحزن فإن الصلاة التى يؤديها التلاميذ والطلبة كل يوم وما يشعرون به من عطف الأساتذة والمعلمات إزاءهم وإزاءهن تجعلهم يميلون إلى دين ينافس فى قلوبهم وأفئدتهم دين آبائهم وأجدادهم ويورثهم هذا القلق وينتهى بهن هذا التطاحن بين العقيدتين آخر الأمر إلى إسكات الضمير الدينى إسكاتاً هو الإلحاد واللاإرادية والشك وهو الرغبة عن دينهم إلى دين معلميهم وأساتذتهم وقد كتب الأستاذ أحمد على إلى الكلية الملحقة بها بناته مراعاة العاطفة الدينية للطالبات « فلا تجبروا كريماتى وهن مسلمات على حضور الصلاة فى كنيسة المدرسة وعلى حفظ الانجيل وحضور الاجتماعات التى تبحث فى الأمور الدينية وقد أرسلت إليه الناظرة (١٩٣٢/٢/٢٧) تقول إنها تأسف لعدم إمكانها إجابة طلبه لأنه يخالف للقواعد التى وضعتها الإرسالية لجميع مدارسها وليس فى مقدور مدرسة واحدة أن تسير على غير ما هو متبع فى غيرها » وكانت النتيجة أن سحب الرجل بناته من المدرسة .
وهذه واقعة تاريخية نشرت على صفحات الجرائد تكشف عن مدى عشرات الضحايا الأخريات اللاتى تخرجن وتزوجن وقدمن للوطن أبناء ربوا وفق مفاهيم غير مفهوم الإسلام ومدى خطر ذلك على وجود أمتنا ومستقبلها .

الفصل الثانى

الشبهات التى أثارها التبشير

لن نستطيع التخلص من نفوذ الاستعمار إلا إذا تعرفنا على وسائله وأسلحته المختلفة : الخفية والظاهرة . لقد أصبحت حرب الاستعمار" للعالم الإسلامى والأمة العربية منصبة على الغزو الثقافى عن طريق التبشير وللتبشير الآن وسيلتان كبيرتان : « التعليم والثقافة » لقد نفض التبشير يده من الصورة القديمة والمحاولة الأولى الساذجة بعد أن تأكد من أنه ليس من سبيل لتحويل المسلم إلى دين آخر ، ولكنه ركز على إخراج الإسلام من مفاهيم الإسلام وقيمه الأساسية عن طرق مختلفة : (١) إعلاء شأن الثقافات الغربية وتاريخ عظماء الغرب . (٢) إثارة الشبهات حول حقائق الإسلام واللغة العربية والتاريخ العربى الإسلامى . (٣) إذاعة فلسفات مادية من شأنها انتزاع الشخصية الإسلامية والعربية من الأخلاق والدين ودفعها إلى الإنحلال والإباحة ، إن التبشير الآن إنما يعمل على هدم مقومات الفرد والمجتمع بحيث يصبح عاجزاً عن مقاومة النفوذ الأجنبى ، بل خاضعاً له ، متحللا من عوامل القوة والنضال والإيمان ، متقبلا للاستعمار والنفوذ الأجنبى تقبل تقدير وتسليم وانصهار . إن التبشير قائم وإن تعدلت مناهجه وأساليبه ووسائله ودخل فى غلاف رقيق لا يكتشفه البسطاء . إن الهدف الذى عاش فى نفس الغرب زمنا وتوارثوه جيلا بعد جيل هو أن تأتى الفرصة يوماً لتحويل المسلمين عن الإسلام وما تزال مخططاتهم تسعى إلى ذلك مهما غيرت أثوابها . وفى سبيل تثبيت نفوذ الاستعمار ومن أجل خلق ركائز أساسية للوجود الأجنبى فى العالم الإسلامى كانت الأسلحة هى التبشير والاستشراق

وكانت الوسيلة هي المدرسة والصحيفة والكتاب عن طريق التربية والتعليم والثقافة وكانت الغاية هي تغريب المسلمين والعرب ولذلك فقد تلاقت مختلف الدعوات في أهدافها، على النحو الذي رسمه لها عدداء الاستعمار مخططيها أمثال : كروم، وليوتي . ونفذها : دنلوب في مجال التعليم المصري . لافيجري في مجال التبشير في المغرب زويمر في مجال التبشير في العالم العربي وقد صورت مؤلفاتهم المتعددة أهدافهم الصريحة وخططهم الواضحة وأهمها كتاب العالم الإسلامي اليوم لمجموعة من المبشرين وكتاب الإسلام : ماضيه وحاضره ومستقبله لزويمر وكتاب وجهة الإسلام لجب أربعة من المشرقين رقد ركزوا على أهداف عامة: هي الحيلولة دون وحدة المسلمين والقضاء عن جامعتهم الفكرية السياسية وقد ركزوا على الوسائل المختلفة وأهمها التعليم والسيطرة عليه عن طريق المدارس الأجنبية والسيطرة على مناهج المدارس الأجنبية والسيطرة على مناهج المدارس التي تديرها الحكومات المحلية وجعلوا هدفهم النهائي هو «التغريب»: يقول جب « تغريب الشرق إنما يقصد به إلى قطع صلة الشرق بماضيه جهد المستطاع في كل ناحية من النواحي ، وإذا أمكن قطع صلة التفكير والعقيدة بين الماضي والحاضر حتى إذا أمكن صبغ ماضي الشرق بلون قاتم مظلم يرغب عنه أهله فقدت شعوب الشرق صلتها بماضيها ففقدت بذلك أعظم جانب من حيويتها وبقيت عيالا على الغرب تتطلع إليه تطلع إعجاب وتقديس وعادة ترى في خضوعها له شرفاً كبيراً » هذا هو الهدف كما صوروه ، فإذا أردنا أن نعرف إلى أي حد مضى العمل والمعروف أن هذا التقرير صدر عام ١٩٣١ قال لنا مستر جب « وقد بدأت المجهودات ولا تزال تبذل في هذه النواحي جميعاً بهمة لا تعرف اليأس ولا تعرف الملل وأحسب كتاب الغرب كانوا قد نجحوا إلى حد كبير في تصوير تاريخ أمم الشرق في لون قاتم جعل أبناء الشرق أنفسهم يحسون أن بينهم وبين أيام مجدهم ألوفاً من السنين تقضت وكانوا أثنائها خاضعين لألوان من الذلة لا يستطيعون اليوم أن يشعروا معها بمعنى الحرية » . وهكذا يتجلى أن العمل الأساسي كان ولا يزال تزييف تاريخ الإسلام والعرب ، ومن بعدها تزييف العقيدة الإسلامية ليحمل المسلمون والعرب على الاعتقاد بأنها سبب تأخرهم ، وأن مصدر القوة والنهضة هي في التخلي عنها . وهكذا يجعل التبشير أهم أهدافه قطع الصلة بين الماضي والحاضر، وقد وكل هذا إلى المبشرين الذين كان أبرز أدواتهم في العمل بالمدارس الأجنبية » فإلى أي حد يرى مستر جب دور هذه المدارس والإرساليات يقول : إنه منذ منتصف القرن التاسع عشر انتشرت شبكة واسعة من المدارس في معظم البلاد الإسلامية لا سيما في تركيا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالباً إلى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة ، وربما كان أكثرها عدداً المدارس الفرنسية ، وقد كانت المدارس الإنجليزية في الامبراطورية العثمانية أقل منها في الهند وكانت المدارس الهولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية » ماذا فعلت هذه المدارس ؟ ويجيب : هذه المدارس صاغت أخلاق التلاميذ وكونت أذواقهم ، والأهم أنها علمتهم اللغات الأوربية التي جعلت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوربي فصاروا في مستقبل حياتهم قابلين للتأثر بالمؤثرات التي فعلت فعلها أيام الطفولة ـ وفي أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بإنشاء التعليم العلماني تحت الاشراف الانجليزي في مصر والهند ، ولعل هناك نصيبا من الحق في التهم التي ترمى بها هذه المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية

التلاميذ ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية التى أعقبت ذلك فى البلاد الاسلامية أيدت هذه التهمة ، ولكن الذى فعلته بلا ريب أنها ربت التلاميذ خروجا على الأنظمة الاجتماعية والسياسية إلى حد ما فى أوطانهم الاصلية ، وأضعف من هذه الوجوه سلطان النزعة الاسلامية القديمة على التلاميذ وأخلت فى بناء المجتمع الاسلامى أداة هامة وقطعت بعض الأواصر التى كانت تربطه وتحفظه وقد تحققت نتائج التعليم عن طريق الكتاب والمقال والمنهج الدراسى وقد كانت كتابات المبشرين الأولى كتابات قاطعة تحمل طابع الحقد الواضح والشك الصريح والخصومة الجامحة والعاطفة المندفعة ضد الاسلام وهذه مرحلة انطوت بعد أن تحقق دهاقنة التبشير وأساتذة الاستعمار من أنها لم تحقق شيئا . بل ربما حققت ردود فعل معارضة وقضت على الأهداف المقصودة منها فقد كان المبشرون السابقون يكشفون عن هوياتهم ويذكرون الأديان فى مجال المقارنة ويستعملون الاصطلاحات الصريحة ، والعبارات المقتبسة من الكتب الدينية فكان المسلمون يعرضون عنها إعراضاً ويوضع الباحثون منهم فى صفوف المبشرين توا ولكن هذا الاسلوب قد تحول بعد تحولا خطيراً ودخل مرحلة غاية فى الدقة فقد اختفت أساليب العاطفة والحماسة ، والعبارات الاصطلاحية والكلمات الموحية واختفى المبشرون تحت أسماء وألقاب تستطيع أن تجعلهم فى صفوف المستشرقين أو الكتاب الغربيين المتخصصين فى الدراسات الإسلامية واتسمت مؤلفاتهم ودراساتهم الجديدة بطابع أكثر مرونة ، وربما يبدأ أحدهم كتابه على نحو من التقدير والإعجاب بالإسلام وترديد عبارات الثناء على القرآن والرسول ، وربما طوى فصولا من كتابه دون أن يكشف عن الشبهات التى يريد أن يدسها ، والأكاذيب التى ينشرها فى دقة وقد استعمل هذا الأسلوب رغبة فى كسبه ثقة القارىء وخداعه ، فإذا مرت الصفحات المعدودة وأحس بثقة القارىء به ، بدأ يثير الشبهات فى دقة وخفاء ثم أخذ فى أسلوب الاحتيال والاتهام وربما نفاها بعد ذلك ثم أوردها مرة أخرى ، وذلك بهدف واضح هو أن لا يدع قارئه حتى يكون قد أثار فى صدره مزيجاً من التحفظ والشك والخلط وزلزل قواعد الإيمان فى قلبه والمبشرون : ليسوا فقط هم الذين يدعون إلى المسيحية ويحاولون نقل المسلمين إليها فهذا عهد مضى ، أما المبشرون اليوم فإنما هم أدباء ومفكرون ومؤرخون يحملون أجازات من الجامعات الغربية الكبرى ويكتبون دراسات يهيىء لها التقدير والشهرة فى العالم الاسلامى ، وهم حملة جميع الآراء الجريئة الخطرة التى تدوى بين حين وحين بقصد جس النبض ، ثم يتبعها صمت شديد ، إلى أن تعاد صياغتها من جديد وكل هذه الأفكار إنما تمثل نقطا حساسة من مخططات الاستعمار والنفوذ الأجنبى تحاول أن تأخذ طابعاً من طوابع الفكر أو الوطنية أو غيرها . ولعل النجاح الذى حققته هذه الخطط إنما يعود إلى جرأة هؤلاء المبشرين وبراعتهم على سبك كتاباتهم المليئة بالشبهات فى قالب علمى يحاول أن يعطيها صورة البحث المجرد البعيد عن الأهواء . وهى جرأة وبراعة ما نزال نفتقدها فى كتابنا المسلمين والعرب الذين مازالوا يندفعون وفق أساليب عاطفية ووجدانية صاخبة ، ومن حق أن هؤلاء المبشرين قد تلقوا هذه المناهج فى دراسات مستفيضة وعاشوا سنوات تحت إشراف أساتذة متخصصين حتى أحسنوا أداء هذا الأسلوب وأجادوا مناهجه وأبرع ما فى هذا الأسلوب البرود العاطفى والذكاء الذهنى والتخطيط والتحليل ثم غرس الأكاذيب والشبهات برفق وتوزيعها بدقة وإثارتها على نحو يحتمل الخطأ

والصواب دون القطع بها وقد تبين بوضوح أن كل الآراء التي يريد الاستعمار تداولها وانتشارها حمل لواءها المبشرون عن الاسلام ، عن العرب ، عن اللغة العربية ، عن التاريخ ، وذلك بهدف :

(أولا) هو القضاء على الوحدة الإسلامية سياسياً بإيجاد الخلافات الضخمة بين الدول الإسلامية ، عن طريق السياسة والمذاهب واللغات والثقافة . (ثانياً) القضاء على الفكر الإسلامي المستمد من القرآن والإسلام كأساس الثقافات . (ثالثاً) قيام دعوات وأحزاب وهيئات تحمل طابع الاقليمية السياسية والعلمانية الفكرية لمقاومة الوحدة السياسية والأصالة الفكرية المستمدة من المنابع .

الشبهات الفكرية التي أثارها التبشير

(٢)

قدم « التبشير » عدداً من الشبهات في مختلف مجالات الفكر الاسلامي والثقافة العربية ومازالت هذه الشبهات تتردد على أيدي دعاة التغريب والشعوبية من خلفاء المبشرين . ومن الحق أن يقال أن مختلف النظريات والشبهات التي رددها المبشرون والشعوبيون ودعاة التغريب قد وضع بذرتها دهاقنة الاستعمار من أمثال كرومر وليوتي وتابعهم عليها عداء التبشير : لافيجرى وزويمر ودنلوب .

وإذا راجعنا تقارير اللورد كرومر السنوية التي جعلها رسالته إلى الجيل الجديد من المثقفين الذين كان يعدهم لتسلم زمام الحكم من الاحتلال البريطاني ، نجده قد وضع أسس هذه الحملات الضارية على الاسلام واللغة العربية والحضارة الاسلامية والتاريخ . فقد سجلت هذه التقارير الخطوط العامة لتهديم كل عوامل الايمان الوطني والاعتزاز العربي الاسلامي وعندما نقرأ اليوم مايكتبه خلفاء المبشرين ودعاة التغريب لا نعجب لأننا أحياناً نجد العبارات منقولة بنصها . وأن معظم ما كتبه كرومر قد ردده من بعد سلامة موسى وطه حسين ومحمود عزمي وعلى عبد الرازق ولطفي السيد ومن هذه الاتهامات :

(١) أن المصريين كانوا مستعبدين على مدى التاريخ . حكمهم الفرس واليونان والرومان والعرب والترك (ذكر ذلك كرومر في تقرير ١٩٠٦ وردده الدكتور طه حسين في حديث له عام ١٩٣٩) .
(٢) وصف الحكومة الاسلامية بالحكومة الثيوقراطية وهي العبارة التي مايزال يرددها الشعوبيون ودعاة التغريب . (٣) هاجم الشريعة الاسلامية وقال « إنها مبادىء وضعت من ألف سنة لهيئة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة ومناقضة لآراء أهل العصر . (٤) هاجم الجامعة الاسلامية . كما استغل التبشير الحملات التي وجهها خصوم الاسلام في القديم من الشعوبيين والمجوس والباطنية فأعاد صياغتها من جديد وردها بحسبانها شبهات جديدة ولم يقف الأمر عند هذا بل استغلها في سبيل إثارة الإحن وإيقاظ الخلافات القديمة . كما استغل كتابات بعض خصوم « الأديان » من معسكري الغرب كسلاح لمهاجمة الاسلام نفسه مع الفارق الواضح والبعيد بين مفهوم الدين وهو لاهوت خالص في الغرب ومفهوم الاسلام وهو نظام مجتمع والدين جزء منه وفي مقدمة ذلك ما كتبه أوجست كومت ونيتشه وغيرهما

عن حاربوا الفكر المسيحي والكنيسة وقد أصبحت هذه الآراء تنقل لتقال في مواجهة الاسلام، تعرض ليحارب بها الإسلام. أم هذه القضايا: (أولا): محاولة التفرقة بين المسلمين وذلك بتقسيمهم الى عرب وغير عرب والادعاء بأن الذين نبغوا في تاريخ الإسلام لم يكونوا عرباً، وأن العرب والمسلمين لم يكونوا منشئ حضارة وإنما هم مجرد نقلة لتراث من سبقهم من الأمم وهم دائماً يرددون تساؤلا يرمى إلى تمزيق الأواصر: هل الحضارة الإسلامية عربية أو إسلامية: والواقع أن مفهوم الفكر الإسلامي والثقافة العربية تقوم أساساً على وحدة الفكر لا على وحدة الجنس أو الدم وأنه كان الإسلام ولا يزال بيئة فكرية تجمع كل المسلمين على وحدة فكر قوامها القرآن فلا عبرة في هذا بالفارسي أو العربي أو الهندي وأن اللسان العربي والفكر الإسلامي يعد بمثابة الجامع الأكبر ومن هنا فإن نتاج هذه الحضارة وهذا الفكر كان نتاجاً إسلامياً شارك فيه العرب والترك والفرس وكل عربي اللسان إسلامي الفكر. أما دور المسلمين في الحضارة فقد تولت الرد عليه أبحاث كثيرة ورد عليه الغربيون أنفسهم وفي مقدمة الكتابات الحديثة كتاب الدكتورة هونكه «شمس الله تشرق على الغرب». (ثانياً): إثارة الشبهات حول الحديث النبوي «السنة». في محاولة الوصول إلى رأي يقول بأن يركز الاعتماد كله على القرآن، وهي دعوة خطيرة بعيدة المدى بما لا يقع تحت النظرة السريعة. إن رفض الحديث والاكتفاء بالنص القرآني هي محاولة للفصل بين النص والتطبيق، والتطبيق في الإسلام أخطر الجوانب وأهمها، هذا التطبيق المتمثل في «الأسلوب» الذي اتبعه الرسول ﷺ في تنفيذ النص القرآن. ومن هنا فإن النص القرآني لا يكفي المسلمين اليوم، ولا يحقق لهم إسلاماً حقيقياً هذا فضلا عن أن السنة جزء من القرآن «ونزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم» فهذا البيان الذي يفسر النص ويطبق، هو بإقرار القرآن جزء أساسي وفي هذا المعنى يقول «محمد أسد» إن رفض الحديث يرجع إلى استحالة الجمع بين حياتنا الحاضرة المتقهقرة وبين روح الإسلام الصحيح كما يظهر في سنة النبي — في نظام واحد، ولكي يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم وقصور بيئتهم، فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة، لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ أن يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاءون على أوجه من التفكير السطحي أي حسب قبول كل واحد منهم وحسب طريقة تفكيره هو، هذا هو الخطر الكامن وراء مهاجمة «السنة» وإثارة الشبهة حول الحديث النبوي.

(ثالثاً) منطق القرآن ومنطق أرسطو. ويردد المبشرون والمستشرقون القول بأن الفكر الإسلامي التمس منطق أرسطو، وأن أرسطو أصبح في الفكر الإسلامي أساساً والحق أن هذا القول ما زال ادعاء يفتقر إلى الدليل، فقد أخذ بعض الفلاسفة المسلمين منطق أرسطو كسلاح لمواجهة خصوم الاسلام، وفي الرد على دعاة اليهود والمسيحيين والمجوس لأنهم كانوا يصطنعون نفس السلاح، ولكن الإسلام لم يتقبل منهج أرسطو أساساً للمنطق الاسلامي. وقد كشف الامام ابن تيمية عن (منطق القرآن) في كتابه أما الغزالي فقد فرق بين منطق القرآن ومنطق «الكلام» المستمد من أرسطو وقال: إن أسلوب القرآن في الإقناع أبلغ وأنفع وأعم وأشمل للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة وإن علم الكلام علاج مؤقت ومختص بما نشأ من شكوك وشبهات ولا حاجة للطبائع السليمة إليه فأدلة القرآن مثل

الغذاء ينتفع به كل إنسان . (رابعاً) : ويعرض التبشير والاستشراق إلى « الجهاد » فى الاسلام بمراوغة وتضليل كبيرين وقد عمد إلى إلغائه من جميع مناهج الدراسات التى سيطر عليها وفى الجزائر كان لا يسمح بدراسته وكذلك فى الهند . بل إن الاستعمار عمد إلى تأييد طائفتين دعتا إلى ترك الجهاد واحتضنهما بل ربما هو الذى أوعز إلى أربابهما وهما البهائية والقاديانية ومازال كتاب التبشير والتغريب يضعون هاتين الدعويين فى صف دعوات الإصلاح والتجديد الاسلامى مع جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ا بينما يرى المفكرون المسلمون هذا الرأى وربما يرون عكسه تماماً ، والمعروف أن النفوذ الاستعمارى قد اعتمد على هاتين الحركتين فى فارس والهند وكلا الحركتين قد اعتمدت على إلغاء أصل ثابت وخطير من أصول الإسلام وهو « الجهاد » تقرباً إلى الاستعمار وقد أتاح النفوذ الاستعمارى للحركة البهائية حرية الحركة فى العالم الاسلامى واهتمت الصحافة التغريبية التبشيرية فى مصر بالحركة وأولتها قدراً كبيراً من العناية فكتبت عنها المقتطف والهلال والمجلة الجديدة والمصور . ومن العجب أنه عندما فضحت مخططات التبشير فى مصر ١٩٣٢ و ١٩٣٣ خفت صوت التبشير وعلا صوت الحركة البهائية التى نشطت إلى العمل لتسد الثغرة ، وكانت لها مراكز مفتوحة فى القاهرة والاسكندرية وبور سعيد وغيرها ولها نشرات متنوعة ، وكتب يعلن عنها مؤلفوها أن بهاء الله مؤسس البهائية هو رسول الله الأعظم وسفيره الذى جاء بما يحقق أسمى رغبات الانسان وتوحيد الأديان جميعاً تحت علم البهائية وأن الاسلام كان العصر خاص وعقليات خاصة أما البهائية فهى دين العصر الجديد وقد أشار الأستاذ محمد محمود بهير إلى منهج البهائية فقال إن لها أساليب تختلف عن أساليب المبشرين وإن لهم فى إباحتهم الأخلاقية أكبر مبرر لهم ، والذين عدون المبشرين بالأموال يمدون البهائية ، والحركتان تلتقيان عند نقطة أساسية : هى إخراج المسلم من عقيدته الإسلامية وجعله يتشكك فى رسالة محمد ﷺ وأنه خاتم النبيين وأن الإسلام هو خاتم الشرائع السماوية . (خامساً) : يردد المبشرون والمستشرقون عبارة « هزيمة المعتزلة » ، ويملئون أسفهم البالغ ويتباكون عليها بينما هزيمة المعتزلة نفسها ليست إلا مرحلة من مراحل تطور الفكر الإسلامى فى طريقه إلى منهجه الأصيل مذهب أهل السنة والجماعة وموقف المعتزلة من الإسلام كموقف الصوفية من الإسلام ، لا يمثل أحدهما الإسلام بمفرده ، والاسلام يجمع بين ثقافة العقل وثقافة القلب ومنهج المعرفة فيه لا يعتمد على القلب وحده وإنما يجمع بينهما ولم يكن المعتزلة فى حقيقة الأمر يمثلون الإسلام تمثيلا صحيحاً ، ولكنهم كانوا مرحلة من مراحل الدفاع عن الإسلام بأسلحة الفلسفات الأجنبية التى كان يجيدها أصحاب الأديان الذين كانوا يقارعون دعاة الإسلام (سادساً) : هناك صيحة تتردد كثيراً على أقلام المبشرين ودعاة التغريب هى نقص الثقافة العربية من جانب الفلسفات والدراسات الفلسفية ، وهناك دعوة ملحة على ضرورة ترجمة الفلسفات الحديثة بحسبان أن العرب والمسلمين لن يصلوا إلى مجال الصدارة إلا إذا عززوا هذا الجانب والواقع أن المسلمين والعرب لهم فلسفتهم المستمدة من قيمهم ومفاهيمهم . وهى تختلف عن الفلسفة الغربية أساساً من حيث أنها تقوم على عنصر التوحيد المستمد من الإسلام . وحين نلق نظرة عامة على الفلسفات الحديثة نجدها جميعاً « مادية » الأساس ، رافضة للقيم التى جاءت بها الأديان المنزلة رفضاً تاماً . وهى جميعاً تعمل على تقويض دعائم الاعتقاد بوجود (إله واحد) بغض النظر عن البديل المقترح ، فمنها من يقترح ألوهية المادة أو ألوهية الانسان

ومنها من يجعل الغريزة محور تفسير الوجود ، وما يزال الإسلام هو الدين الوحيد الذى صفت فيه عقيدة التوحيد من الشوائب وبالجملة فان هدف دعوة التغريب فى الاهتمام بالفلسفات الغربية الحديثة إنما ترمى إلى تدمير العقيدة الإسلامية لأنها العقبة الضخمة فى طريق سيطرة الأهواء الحديثة . (سابعاً) : يخدع المبشرون ودعاة التغريب البسطاء حين يربطون بين واقع المسلمين الآن وبين الإسلام ويقارنون بين واقع الأوربيين وبين المسيحية والحقيقة فى هذا أن الأمم الأوربية دخلت فى المسيحية بين القرنين الثالث والسادس من ميلاد المسيح وبقيت كذلك فى غفوتها طوال عشرة قرون ثم تيقظت من نحو أربعة قرون بينما نهض الاسلام بمعتنقيه فى إقامة حضارته الباهرة منذ القرن الأول للهجرة ، لقد كانت الأمم الأوربية مثل الإغريق والرومان أكثر رقياً بل كانت أرقى أمم الأرض أو من أرقاها قبل اعتناقها المسيحية ونبغ فيها من الفلاسفة والعلماء رجال لم تزل آثارهم قائمة . ويقول العلامة سمر الفرنسى « إن الغربى إذا صار عالما ترك دينه بخلاف المسلم فإنه لايترك دينه إلا إذا صار جاهلا ، وبأى وجه يمكن نسبة التمدن الحالى إلى الدين النصرانى والحال أنه ماجاء إلا بعد خمسة عشر قرناً من ظهوره وبأى وجه يمكن نسبة إنحطاط المسلمين الحالى إلى دينهم وفى عام ٧٤٣ أى بعد مائة وأحد عشر عاماً بعد وفاة محمد » كانت دولة الإسلام أكبر من دولة الإسكندر المقدونى وفى عام ٥٦٦ عند وفاة السلطان سليم كانت أكبر من مملكة الرومانيين وبذلك يتضح أن عظمة الإسلام مكثت ألف سنة ولا يمكن الوصول إلى هذه الدرجة من الأمور السياسية والحربية إلا بالعلوم والتمدن . (ثامناً) : ومن اتهامات التبشير والتغريب للفكر الإسلامى أنه فكر تجريدى غير أن ثمرات الفقة والتشريع الإسلامى تكذب هذه الشبهة وهذا الاتهام فإن الأصول ترينا واقعية الفكر الإسلامى وكيف أنه كان يتناول كل حادث يقع فى حينة ثم يتناوله بالبحث ويضع له الحلول بل إن الفكر الاسلامى قد أثبت أنه أكثر إيغالا فى الواقع من الفكر الغربى حيث تناول التشريع الإسلامى تفصيلات الحياة اليومية ولم يقتصر على مسائل اللاهوت كما هو الأمر فى الشرائع الأخرى . (تاسعاً) : قد حاول التبشير والنفوذ الاستعمارى إثارة طابع من طوابع الاستسلام والعنف فى الأدب العربى وذلك بالدعوة إلى فكر مستمد من تولستوى وغاندى أساسه السلام والبعد عن العنف وهى محاولة للقضاء على مفهوم مقاومة العرب والمسلمين النفوذ الأجنبى ، ولاشك أن هذه الدعوة غير أصيلة الجذور فى الفكر الإسلامى والثقافة العربية . فالإسلام يقرر السلام أصلا ولكنه لايقبل العدوان ولا يستسلام للنفوذ الأجنبى وفكره وأدبه وثقافته تحمل هذا الطابع أساساً (عاشراً) : هاجم التبشير والاستشراق (الشريعة الاسلامية) ووصفها بأنها مستمدة من القانون اليونانى ، ومرة أخرى رماها بالجمود والتخلف . وخير ماتواجه به هذه الحملات تلك القرارات التى وصل إليها علماء القانون على غير هوى أو تعصب وأقربها ماقرره مؤتمر لاهاى سنة ١٩٢٥ ومؤتمر واشنطون سنة ١٩٤٨ من أن الشريعة الإسلامية شريعة لها طابعها الخاص وأنها صالحة لأن تكون مصدراً عالمياً للقانون وتحضرنى هنا عبارة الدكتور مختار القاضى فى كتابه (تاريخ القانون) حيث يقول : إن الشريعة الإسلامية تجمع بين عنصرى الاستقرار والتطور وتوفق بينهما توفيقاً بديعاً فنحن فيها نجد فى هذه الشريعة نصوصاً تنزل إلى التفصيلات وتنأى عن التأويل والتغيير والتبديل كنصوص المواريث

والحدود والكفارات نرى نصوصاً أخرى تتيح المشرع أن يبتدع أحكاماً فى غير الحالات التى جاءت بها النصوص التفصيلية ، مادام الأمر يحقق مسألة عامة للمسلمين وأصلح مثل لهذه النصوص المرخصة هى المصالح المرسلة والاستحسان بالضرورة وقياس مالم يرد فيه نص ولعل الشريعة الإسلامية هى الشريعة الوحيدة فى الدنيا التى تطورت بوسائل داخلية دون أن تستعير نصاً من خارج نصوصها أو حكما غير مستنبط من أحكامها ، وكل القوانين والشرائع تطورت بوسائل خارجية ما عدا الشريعة الاسلامية وفى العصور الأخيرة حاول المستشرقون فى مؤتمراتهم التى يستقدمون إليها بعض المشهورين من الأسماء العربية والاسلامية محاولة خطيرة ترمى إلى استخدام نصوص الشريعة فى تبرير أنماط الغرب الفكرية والاجتماعية وهو شر من تقليد هذه الأنماط تقليداً أعمى لأن الناس يمكن أن يعيشوا على أمل التخلص من الدخيل إذا قامت حركة أصيلة للإحياء . ويقول العلامة سانتلانا فى شبه المقارنة بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى : « عبثاً نحاول أن نجد أصولا واحدة تلتقى عندها الشريعتان الاسلامية والرومانية » . إن الشريعة الاسلامية ذات الحدود والمبادىء الثابتة لا يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا لأنها شريعة تغاير فكرنا أصلا . (حادى عشر) حاول جبران وميخائيل نعيمة نقل الأسلوب العربى عن أصول البلاغة القرآنية فى محاولة لخلق أسلوب جديد يحوى تضمينا مختلطاً من الظلال والأضواء الصوفية الفارسية والهندية القديمة الغارقة فى الأوهام والإضلال والتى تعتمد على بعض عبارات التوراة والشعر المنثور والمجازاة للقضاء على أصالة البلاغة العربية ولكن هذه المحاولة وئدت فى مهدها ولم تحقق نتيجة ما ، وغلب منهج البلاغة القرآنية الذى حمل لواءه معاصرهما المنفلوطى الذى كسب الجولة .

(ثانى عشر) : من الشبهات التى أثارها التبشير والتغريب إدخال مفاهيم غامضة على القيم الأصيلة ومن الكلمات التى تتردد كثيراً اليوم : الخطيئة ، الخلاص ، التكريس ، والواقع أن هذه الكلمات لها مدلول تاريخى ودينى خاص يجب أن يكون واضحاً فى تقدير الباحث أو الشاعر وهى تجرى على قلمه . وهناك خلاف بين الفكر الاسلامى وبين الفكر الغربى فى أمر الخطيئة التى ترى المسيحية أنها مصدر أساسى للدين وهو ما يوصف بأن ما فعله آدم عليه السلام كان خطيئة ورثها عنه البشر ثم رأت المسيحية أن تكفر عنها وذلك بما يوصف بأنه تضحية المسيح بنفسه وهذه النظرية قد كانت بعيدة الأثر فى الذهنية الأوربية وكانت منشأ كثير من الملحدة وقد ظهر الخلاف حولها فى الأدب الغربى والفلسفة الغربية وفى كثير من النظريات السياسية الأوربية وحين يعرض هذا الأمر كله على الفكر الإسلامى نجد خلافاً واضحاً فالقرآن يثبت أن آدم عصا ربه فغوى ولكنه يثبت بعد ذلك أن الله تقبل توبته (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) والاسلام يقرر بمقتضى هذا عدم ، وراثة الخطيئة ، وأن (كل امرىء بما كسب رهين) فالفكر الاسلامى يحرص على أن لا يتأثر بما هو خارج عن عقيدته . ومن هنا فإن الخلاص الذى يتمثل فى مفهوم المسيحيين أن صلب المسيح قد حققه ، يكون بالطبع غير موجود مادامت الخطيئة نفسها غير موجودة ، وفى الاسلام أن المسيح لم يصلب وأن من كرامة النبى الذى أرسله الحق تبارك وتعالى أن لا يجوز عليه الصلب بين أعدائه فإن الحق الذى أرسله لا يسلمه إلى خصومه لأنه قد أرسله بحمايته وحفظه من أن تناله يد العدو .

وقد تأثر الفكر الغربي بالفكر الاسلامي في هذا المفهوم وتحرر كثير من المفكرين المسيحيين من نظرية (الخطيئة الأصلية) متأثرين بالاسلام وبذلك أقروا بأن الجنس البشرى قادر على إدراك الكمال كما في الاسلام . (ثالث عشر) من الغريب أن تدرس الجامعات في العالم الاسلامي : الطب والعلوم والفلسفة والآداب والتاريخ والقانون بحسبانها علوما غربية صرفة ، دون أن تكشف لهم عن الحقيقة التي تقرر أن هذه العلوم قد بدأها أجدادهم الذين وضعوا أسسها وبنوا « المذهب العلمى التجريبي » قاعدة العلم والحضارة ، بل إن تدريس هذه العلوم على هذا النحو إنما يصورهم لأنفسهم على أنهم عبيد للثقافة الغربية بينما ليس الأمر كذلك ، ولعل الأمر الجدير بالنظر هو أن يدرس المسلمون والعرب وجهة نظرهم الأصيلة في هذه العلوم إلى جانب وجهة نظر الغرب ، ويفاضلوا بينهما ، إلا أن يدرسوا وجهة نظر الغرب وحدها على اعتبار أنها هي الحقيقة التي لا نقض لها . والواقع أن الفكر الاسلامي له نظريات كاملة في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والقانون والتربية هي أصلح لمجتمعاتنا من نظريات الغرب التي أنشأها انبعاثا من واقعه والتي تختلف مع أمزجتنا ونفسياتنا اختلافا جوهريا .

الفصل الثالث

التبشير والفكر الاسلامي

من أخطر الشبهات الفكرية التي أثارها التبشير فكرة : (علمانية الدولة) أو لا دينية الدولة وهى هدف الاستعمار الأول في البلاد الإسلامية والمعول الأكبر لهدم القيم الإسلامية وعزل الفكر الاسلامى عزلا تاما عن مجال المجتمع والاقتصاد والسياسة والتربية وهو هدف استعمارى صهيونى أساسى يفسح المجال أمام النفوذ الأجنبي حتى لا يقف الإسلام حائلا دون مصالحهم ومطامعهم ومن الحق أن يقال إن هناك فارقاً جذرياً بين الفكر الاسلامى والفكر الغربي يتعلق بوحـــدة الترابط العضوى في الفكر الاسلامى بين الدين والمجتمع ، حيث لا سبيل إلى عزلهما . وكل محاولة للفصل بينهما هي محاولة فاشلة ولن تتحقق إلا إذا انهدمت قوائم الفكر الاسلامى انهداما كاملا وهذا ما ليس هناك سبيل إليه . ذلك لأن أول ركائز الاجتماع والثقافة في العالم الاسلامى هو أن الاسلام دين ونظام مجتمع غير منفصلين . ومن الحق أن يقال إن المجتمع الاسلامى قد بنى والدين جزء منه لا ينفصل عنه ، وأهم سمات الاسلام وبالتالى الفكر الاسلامى والثقافة العربية أنه لا يفصل بين الديني والدنيوى والقيم الروحية فيه فهى مستقلة عن القيم المادية بل هي مكملة لها وكل محاولة لفصل الروح عن المادة تعد عملا عقيما . ولعل من أول ما يحاول التبشير والتغريب أن يركز عليه لتحقيق هذا الغرض هو الاتجاه إلى العلوم العصرية باعتبارها الهدف الحضارى الذى يوصف بأنه عامل النهضة والتقدم ، بينما تخفى وراءها غرضا أساسيا هو عزل الفكر الاسلامى عن قيمته الأساسية . ولقد تنبه إلى ذلك رجل خبير منصف هو العلامة جوستاف لوبون ونصح بها الشباب المسلم في باريس حين قال لهم : « إن العلوم العصرية لا تفيد المسلمين

إلا إذا اقترنت بتربيتهم الدينية وسارت جنبا إلى جنب مع أوضاعهم وعقلياتهم ، وأن تهذيب المسلمين بالمعارف العصرية الأوربية خارجا عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم يزيدهم انحطاطا وفساد أخلاق ولن تنفعهم هذه العلوم إلا إذا كانت ضمن دائرة عقيدتهم وقوميتهم وقد صور هذه الرابطة بين العلم والدين في الفكر الاسلامى كاتبان غربيان هما (رنفان وسيلوفيكس) في كتابهما الشرق الأوسط المعاصر :

« إن أول ركائز الاجتماع والثقافة في الشرق الأوسط هو « الدين » الذى يحدد العلاقات بين أفراد المجتمع. ففي مجتمعات الشرق الأوسط خلافا للمعهود في المجتمعات الغربية وحدة وثيقة بين الدين والمجتمع ولا انفصال هنا بين ماهو دنيوى وماهو أخروى ، والروح الدينية منبثة في جوانب الحياة كلها في مواضعاتها ولغاتها ولهجاتها . ولسنا بحاجة إلى أن نصف الدور الهام الذى يقوم به الدين في الحياة الثقافية والاجتماعية في الشرق فإن في تاريخ أى بلد شرقى ما يثبت أن الدين ينفذ إلى كل نشاط اجتماعى وعقلى الشعوب ، بل إنه في الواقع هو العامل المسيطر على حياة الشرق ، رجاله ونسائه ، ولا يمكننا أن ندعى وجود طائفة لها اعتبارها من أبناء الشرق لا تهتم بشئون الدين السائد في مجتمعها ، لهذا من العسير على الغربى أن يفهم حياة الشرق الاجتماعية دون أن يفهم الدين الذى تدين به الجماعة والتي تحاول دراسة ثقافتها ويفهم من هذا « أميل درمنجم » ويعبر عنه أصدق تعبير حين يقول : إن حضارة الاسلام ترمى مثلا أعلى رفيعاً يجمع بين الدين والدنيا والبعد عن النفعية والرهبانية إلى سواء . ولم يكن الاسلام هو مصدر تأخر المسلمين بل كان مصدر تقدمها بينما كان الموقف مختلفاً بالنسبة للغرب والمسيحية . فإن الاسلام لم يلبث في خلال قرن واحد من بزوغ فجره أن أقام حضارة باهرة بينما ظلت الأمم الغربية عشرة قرون بعد دخول المسيحية قبل أن ينهضوا وكانت الإغريق والرومان أرقى أمم الأرض قبل اعتناقها المسيحية والترابط بين الدين والمجتمع في مفهوم الاسلام بوصفه نظام مجتمع ودين عبادة معا واضح في مختلف كتابات الغربيين والباحثين الذين تخرجوا من المعاهد الأجنبية وأمامى كتاب الفكر العربى في مائة عام يسجل هذه الحقيقة في بحث الأستاذ اميل عطيه ص ٤٠٨ حيث يقول « إن الاسلام في جوهره أكثر من مجرد إيمان دينى . إنه نظام حياة ، يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية . الدينية منها والزمنية ، فكما يجد الانسان في الاسلام ما يشبع تفوقه الروحى عن طريق الإيمان بالله والتعبد له بالصوم والصلاة والزكاة والحج كذلك يجد فيه نظاما من القيم الأخلاقية والشرائع المدنية التي تعطيه أجوبة مفصلة لما يعترضه من مشكلات في المعاملات اليومية . فالاسلام نظام روحى ونظام زمنى كلاهما متصل بالآخر وانعكاس له فلا مجال للفصل بينهما : ومن مبادىء الاسلام أن المسلم أخو المسلم وأن المسلمين أمة واحدة ذات رابطة روحية تشهد جذورها في التسليم بالله والاعتراف بأحكام الشريعة وما تنص عليه من واجبات على المسلم نحو المسلم ومن حقوق للمسلم على المسلم ، فالشريعة هى القاعدة التى يجب أن تتم على أساسها المعاملات بين المسلمين وتبنى عليها حياتهم المدنية بكاملها كما أن الجمع بين الحياة الروحية والحياة السياسية واجب دينى لأن وحدة الأمة روحيا منوطة بوحدتها سياسيا ولذلك فالأمة في الاسلام لن تكتمل إذا لم تتجسد في دولة تتيح للمسلمين أن يعيشوا بحسب فرائض دينهم ، لذلك ينبغى أن يكون على رأسها قائد يحوز السلطة السياسية ليسهر على تطبيق القوانين وحفظ الشريعة وحماية مصالح المسلمين ونشر الاسلام

والمدافعة عنه ضد أعدائه ويجمع بين السلطتين الزمنية والروحية » . وهكذا يبدو مفهوم الاسلام واضحا فى الجمع بين الدين والمجتمع . أما التبشير والاستشراق والتغريب ودعاوى كتابهم فإنها مستمدة من مفهوم خاطىء أصلا وهو خطأ متعمد ، هذا الخطأ يحول دون التفرقة الواضحة بين الاسلام وبين الأديان الأخرى فالاسلام ليس دينا تعبديا قاصراً على العلاقة بين الله والناس ، ولكنه دين ونظام مجتمع ، وهو منهج حياة متكامل ، ولما كان هذا هو عنصر الخطر فيه لمطالبته بإقامة هذا النظام وتطبيقه فإن (علمانية الدولة) التى تبثها معاهد الارساليات وتتمثل الآن فى مختلف الأحزاب التى يتصدرها رجال هذه المعاهد ، لا تمثل مفهوم الاسلام أو مفهوم المسار الاسلامى المتكامل دينا ودنيا ، ومادة وروحا ، وعقلا وقلبا . ومن مفهوم الاسلام الاصيل يجب أن تستمد جميع الحركات الاصلاحية والسياسية ، والوطنية والقومية وقد كشف جهاد المسلمين فى الجزائر بصورة واضحة عن مفهوم الترابط بين الدين والمجتمع فى الاسلام ، ولقد تأكد الفرنسيون أن الجزائريين كانوا يحاربون كمسلمين فى الدرجة الاولى وأن فرنسا كانت تحاربهم للقضاء على الاسلام ، وأن المعنى الاسلامى كان هو العامل الأول فى النصر وقد اعترف كتاب الغرب بهذه الحقيقة التى لا سبيل إلى إنكارها وهى « أنه لم تقم حركة وطنية فى العالم العربى إلا وكانت الروح الاسلامية أساسها ، وأكد جب وكثيرون أن العرب متمسكون بلغتهم وأدبهم ويعنون بمجد الاسلام ، كما أكد كثيرون أن العرب لن يتنحوا عن لغة القرآن التى تربطهم بالعالم الاسلامى كافة وأن الروح الاسلامية ستبقى تسود بلادهم وتتقدم أبداً بلا كلل ولا ملل ، ولن يطرأ عليها أى ضعف أو وهن ولذلك فإن الدعوة المضللة التى تنطلق تحت عنوان « تحرير الذات العربية من الاسلام » ، لن تجدى فتيلا وستواجه ما واجهته الدعوات التى سبقتها . وأن الشعوبيين ودعاة التغريب الذين يتحدثون عن هذا ويظنون أنه سيحقق لهم تغييراً فى مختلف علاقات الانسان بالدولة وبزوجته وأولاده لن يكون لأن الدعوة إلى « علمانية الذات العربية » ولإخراج الجيل الجديد من أطارات الدين » إنما هى صيحة استغل الاستعمار والتبشير فترة النكسة لاذاعتها وقد كانت الصلة ولا تزال بين كل الثورات المقاومة للاستعمار والاسلام وثيقة مستمدة من المفهوم الصريح : مفهوم الجهاد ، ومفهوم المقاومة وقد ولدت ثورة ١٩١٩ فى ساحة الأزهر وولدت ثورات المغرب فى ساحة الزيتونة والقروين وثورات العراق فى ساحة النجف الأشرف . ومن هذه الشبهات أيضا ما يحاول التبشير إذاعته من أن أسباب التخلف فى العالم الاسلامى إنما تعود إلى عوامل أساسية فى صلب الاسلام ، وهى دعوة أعلنها كرومر قبل سبعين عاما ومازال اتباعه يرددونها وكل الدلائل تكذبها لأن المسلمين هم الذين أنشأوا المنهج العلمى التجريبى الذى يقوم على الحضارة الحديثة وأن الاسلام بدعوته إلى العلم وإلى النظر فى الطبيعة هو الذى حفزهم إلى ذلك ومن خلال مفهوم الاسلام كدين ومجتمع يمكن النظر إلى قضية فلسطين أيضا ، فقضية فلسطين لا يمكن أن تعالج إلا على أساس إسلامى قوامه الجهاد على نفس النسق الذى عرفته ثورة الجزائر وفى هذا يقول الكولونيل عبد الله التل : « إن قضية فلسطين دينية مقدسة فى المقام الأول وإن أية معالجة لها لا تكون على أساس دينى جهادى مكتوب عليها الاخفاق لا محالة ، وأن هذا الايمان مبنى على تجارب عسكرية عاشها وحقائق تاريخية لمسها ووعاها .

وقال إن اللوم على دعاة العلمانية « لايك » في الوطن العربي الذين تناسوا من حسابهم العامل الديني في قضية فلسطين وأنها القضية الوحيدة التي قامت في العالم منذ ثلاثين عاماً ومازالت تقوم على أسس روحية دينية ، وأنه إذا امكن أن تعالج أى قضية على أسس مادية فإن قضية فلسطين لاتعالج إلا على أسس دينيه بالدرجة الأولى وأسس مادية بالدرجة الثانية » .

ويتصل هذا القول بأن الإسلام ليس له هيئة خاصة تشرف عليه ولايقال العالم المسلم (رجل دين) وأن وحدة الإسلام هي وحدة فكر لاوحدة جنس ولاعنصر . وأنه لاتوجد في الاسلام الحكومة الثيوقراطية التي يحكم بها رجال الدين من حيث أنه منتف قطعاً في الاسلام وجود رجال الدين أو هيئة لاهوتية ما .

ومن النظريات التي يحاول النفوذ الاستعماري فرضها على المسلمين النظرية القائلة بتقبل الحضارة الغربية تقبلا كاملا . والتي رددها طه حسين وأحمد أغاييف ومن الغربيين رددها أرنولد توينبي هذه النظرية تتطلب منا إلقاء نظرة على موقف الغرب من الحضارة الإسلامية عندما حاول اقتباسها وإلى أى حد بلغ به تقبلها وتكشف وقائع التاريخ الصحيح على أن حركة النقل والترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الحديثة بدأت منذ ١١٠٠ م إلى ١٥٠٠ تقريباً وقد سارت هذه الحركة على نحو يشهد بالقدرة الفائقة على حماية (الفكر العربي الاسلامي بإقصاء « روحه وقيمة » والانتفاع بكل ما أضافه الفكر الاسلامي دون نسبته إليه ، ثم اقتباس منهج الفكر الإسلامي التجريبي وتحويله إلى منهج غربي خالص ثم الإصرار على عدم الاعتراف بأى فضل للحضارة أو الفكر الاسلاميين وإمعانا في التعصب والحقد عمدوا إلى إطلاق اسم « القرون الوسطى المظلمة » على مرحلة يقظة الحضارة العربية الاسلامية ثم القفز من الحضارة الرومانية التي بادت حوالى ٤٠٠ م إلى الحضارة الحديثة التي نهضت عام ١٥٠٠ م تقريباً وتجاهل فترة أكثر من ألف عام هي فترة « ضياء » الحضارة الاسلامية في المشرق وأسبانيا بينما هو فترة القرون الوسطى المظلمة للغرب وحده . وقد سار منهج الفكر الغربي على قاعدة مخالفة للأسس الاسلامية وتجاهل الأثر العربي الاسلامي وعمد إلى معارضته واتهامه والحقد عليه ونقده بتعصب . ويبدو في هذا المجال (توماس الأكويني) علم الأعلام في نظر الفكر الغربي ، فهو الرجل الذى تصدى للفكر الاسلام وعمد إلى غربلة الفكر الغربي وتخليصه من آثاره ، وقد استطاع أن يبعد طابع التوحيد وروح الاسلام ومفهوم التكامل والوسطية في الفكر الاسلامي ، وأخذ عصارة هذا الفكر في مجالاته المختلفة (الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية) ثم نسبها إلى محصلات الفكر الغربي وبالجملة فقد عمد إلى تصفية أثر الفكر الاسلامي من الفكر الغربي نهائياً . ولا يمنع هذا من أن نذكر أنه في السنوات الأخيرة برزت حركة منصفة تحاول أن ترد للفكر الاسلامي حقه في كثير من معطيات العلوم الاجتماعية والطبيعية .
ولطالما ردد الاستعمار الغربي نظرية أمانة الحضارة الموكولة إلى الجنس الأبيض . وهذه نظرة قوامها تفرقة عنصرية غالية بين الأجناس وهي مستمدة من نظرية رومانية قديمة ، فالانسان الأبيض (لا الانسان عامة) هو تاج الخليقة وهو السيد وهو صاحب الغلبة في كل صراع ينشب على وجه الأرض

وعبارة شتا ينبئك تمثل هذا المعنى « الرجل الأبيض لا يغلب » والغربيون عندما يكتبون تاريخ العالم يبدأون تاريخ شعب أبيض ، هو شعب اليونان وينقلون زعامة البشر من بعده بين أجناس بيضاء من رومان وطليان وجرمان. فإذا ظهر شعب ملون وارتفع إلى مستواهم عملوا على إسقاطه تأكيداً لنظريتهم الغالية فى التعصب وهم يجعلون الغرب طرفاً والعالم طرفاً آخر على حد تعبير توينبى فى رأس كتابه (العالم والغرب) ويقول لورد لويد فى كتابه (مصر منذ عهد كرومر) إن الغربيين عقلية تجنح بهم إلى الاعتقاد بأن مبادئهم هى حقائق زاهية يجب على العالم أجمع أن يتقبلها وكثيراً مايدهشهم أن يروا هذا غير الواقع والحضارة الغربية التى يريد الغرب أن يفرضها على الحضارة الاسلامية هى اليوم موضع النقد والتجريح من أهلها أنفسهم وقد تعددت الآراء التى تشير إلى قصورها فى تحقيق الأمن والطمأنينة لذويها فكيف يمكن أن تحقق ذلك لغير أهلها . يقول أحد الباحثين الغربيين المنصفين : قصرت المدنية الغربية فى المهمة التى ألقيت على عاتقها فى الأجيال الأخيرة ، أعنى المهمة التى ترمى إلى نشر تعاليم الانسانية وتعميمها على وجه الأرض بحيث تؤدى إلى الوحدة الإنسانية، لقد وقع اختيار الغرب على أسلوب حب الذات وكان اختياره له جريمة ، وكان من أثر ذلك ضياعه واضمحلال نفوذه ، لقد أراد الغرب أن يوحد العالم ولكن تحت سلطانه ومصلحته ، والعالم لا يساس إلا بالعدل والحب والإخاء ورد الحقوق إلى أهلها ، ولكن الغرب لجأ إلى القوة الغاشمة واعتمد عليها وعبث بالشرائع ، ومن الحق أن يقال إن « وحدة الثقافة العالمية » ليست فكرة خالصة وإنما تحوى فى أعماقها هدفاً مضللا . وهى عبارة خلابة المظهر ولكنها تضمر التعصب والاحتقار للثقافات الانسانية ، وهى تعنى فى الواقع سيادة الثقافة الغربية وسوق الناس جميعاً إلى الولاء والعبودية للسيادة الغربية فى الفكر وإحلال قيم للفكر الغربى ومفاهيمه محل القيم الفكرية الإسلامية كما أجمع المصلحون والباحثون المنصفون على أن الدعوة إلى العالمية فى فترة كفاح الأمم لمقاومة الاستعمار هى دعوة منحرفة لأنها ستكون بمثابة انصهار لهذه الأمم — التى لم تستكمل وجودها الذاتى النفسى — فى كيان الأمم الغالبة. وبالرغم من كل محاولة إلى دعوة عالمية فإن الفوارق الطبيعية والأخلاقية والاجتماعية والروحية والتاريخية للأمم ماتزال عميقة الجذور ولن تستطيع قوى الاستعمار صهر الأمم الاسلامية ذات الحضارة والثقافة العميقة الجذور فى بوتقة الأممية أو العالمية . ومن الحق أن يقال إن الفكر الإسلامى لا يحاكم إلى مقاييس الفكر الغربى ذلك لأن لكل ثقافة طابعها الخاص وطريقتها المتميزة . إن كفاح المفكرين المسلمين اليوم فى تحرير الفكر الاسلامى من سيطرة الفكر الغربى هى من أقوى المثل الدالة على سلامة الذاتية الإسلامية وقد ظل المفكرون المسلمون أكثر من ثلاثة قرون يعملون فى سبيل تحرير الفكر الإسلامى من هيمنة الفلسفة الهلينية والهندية والفارسية القديمة . لقد كان شغل المفكرين المسلمين الشاغل هو الحيلولة دون أن يذوب طابع الإسلام الحضارى فى حضارة أخرى، هذا الرفض بالذات هو الذى مكن الجزائريين من الصمود فى وجه الاستعمار الفرنسى مائة وأربعة وثلاثين عاماً وهذا الإيمان نفسه هو الذى مكن المسلمين الهنود أن يصمدوا ولا يذوبوا فى وجه أغلبية ساحقة ومايزال الإسلام هو وسيلة الاحتجاج والمقاومة والإرادة الفعالة وراء كل حركات التحرر والأصالة ودعوات الإصلاح والتجديد . ومايزال هو القوة التى تواجه الغزو الصهيونى فى فلسطين والفكر الإسلامى لا يرفض ثمرات الفكر الإنسانى بل يتقبلها على أساس قيمه وذاتيته ومن هنا فهو يفرق بين الحضارة وبين الاستعمار .

هذه الحضارة التى يفرضها الغرب على العالم الإسلامى اليوم هى حضارة استعمارية قوامها إعطاؤه منتجاتها المصنعة والحصول على خاماته بأبخس الأثمان ودون أن يعطيه مصادر الإنتاج وهو يقذف العالم الإسلامى بالجوانب الاستهلاكية التى تتصل بالترف فى التجارة والشهوات فى الأفلام الإباحية والعطور والخمور وأدوات التجميل والزينة وتطورات الأزياء أو القصص والمذاهب الضالة فى الفكر ولكنه يحول بيننا وبين الجوانب القوية الإيجابية فى الحضارة كالصناعة والأسلحة والتكنولوجيا والأبحاث الذرية. ويعرض أرنولد توينبى فى سخرية بالغة بتركيا الحديثة حين ولت وجهها شطر الغرب ولم تأخذ منه إلا هذه القشور المدمرة للشخصية الإنسانية والمجتمعات ويقول إن تركيا قد تغربت منذ أكثر من أربعين عاماً ولكنها لم تستطع حتى اليوم أن تقدم العلم الحديث أو الحضارة أى إضافة بسيطة ويعنى هذا بالطبع أن الغرب لم يرد أن يجعل من تركيا دولة غربية فاعلة ولكنه أرادها دولة ممسوخة نفضت عنها كل مقومات الفكر الإسلامى وأصبحت ذليلة على أبواب الاستجداء الأوربى، وهذا هو الواقع الحى والنتيجة الطبيعية لاعتناق تركيا نظرية تقبل الحضارة ككل خيرها وشرها. والواقع أن هذه التجربة هى موضع نظر الباحثين المسلمين جميعاً فنحن فى الواقع لسنا فى حاجة إلى أن تصرعنا هذه الحضارة وليس من مصلحتنا كمسلمين وعربا أن نذوب فى خضمها وأن تمزقنا بتياراتها وصراعاتها، وعلينا أن نتقبل منها ما ينصهر فى كياننا ويزيدنا قوة وفاعلية وأن نقيم ذلك على أساس من كياننا وقيمنا وذاتنا ولنحذر من أن نمسخ وجودنا أو ندمر شخصيتنا ومقوماتنا ومازلنا نذكر قول ذلك المصلح الجليل الذى قال: «علينا أن نقف فى وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة التى جرفت الشعوب الإسلامية فأبعدتها عن هداية القرآن.

وفى مقابل هدف الغرب الأصيل فى فرض حضارته وجهت إلى الحضارة الإسلامية حملات ضارية لا يعرف فى العالم حضارة هوجمت بمثل ما هوجمت به ولولا أنها تملك ما تملكه من عظمة الأصول وثبات الجذور مااستطاعت أن تقاوم هذه الحملات الطاغية الظالمة. ونحن نعرف جوهر الحضارة الغربية الذى لايتقبله الفكر الاسلامى والذى يتمثل فى تلك الصورة البشعة التى حملها التاريخ إلينا عندما أهلك توركادا الدومنيكى الاسبانى ستة آلاف بالنار وأهلكت الأمبراطورة تيودورا وحدها نحو مائة ألف من الماسونيين وأهلك الكاثوليك من البروتستانت فى مذبحة سانت بارتلمى ثلاثة ألف أيضا أما ديوان التحقيق فى أسبانيا فقد قتل وحده نحو مائة ألف كما يقول (رنباخ) فى كتابه (تاريخ الاديان). ولقد كانت كل محاولات التبشير والتغريب ترمى إلى تصوير الفكر الغربى والحضارة الغربية بصورة المثل الأعلى السامى الذى يقدم المجتمع الإنسانى الحر الكريم ولكن الأوربيين أنفسهم أصحاب هذه الحضارة يكذبون هذه الصورة الخادعة وأمامنا عشرات الأمثلة على نقدهم لها وتصويرها بالعجز والقصور عن إعطائنا طابع المجتمع الحر السعيد. تقول مدام سنت بوانت: أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التى تزعم أنها ألقيت على عاتقها، أعنى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها، لقد أراد الغرب أن يوحد العالم ولكن تحت سلطانه ولجأ فى ذلك إلى القوة الغاشمة ولم يرع غير مصلحته وحدها وأنكر فضل الشرق وحجب فضل الغرب وعبث بقواعد الحضارة الحقيقية. وقال «هربرت سبنسر» الفيلسوف البريطانى للشيخ محمد عبده فى حديث لهما عام ١٣٢١ هـ «لقد محى الحق من عقول أهل أوربا واستحوذت عليها

الأفكار المادية فذهبت الفضيلة وهذه الأفكار المادية ظهرت فى الالمان أولا فأفسدت الأخلاق وأضعفت الفضيلة ثم سرت عدواها منهم إلى الانجليز فهم الآن يرجعون القهقرى بذلك وسترى هذه الأمم تختبط بعضها ببعض وتنتهى إلى حرب طاحنة . وقال جمال الدين الأفغانى : إن الثقافة الاوربية لم تتخل قط عن نعراتها وتعصبها . وقد أشار هاملتون جب إلى هذا المعنى حين قال : « إن ثورة المسلمين على مبادىء الحضارة الأوربية التى تعارض قواعد الاخلاق سيدفع المثقفين حتما إلى أن يزدادوا إصراراً على الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية وأن يصروا خاصة على مبدأ الأخلاق الإنسانى الذى هو أساس الأخلاق الاجتماعية فى الإسلام ؟ بل إن أمامنا المثل الواضح فى تحول الكثيرين ممن وثقوا أول الامر بكلمات الحضارة الغربية البراقة : ثم تبينوا أنهم خدعوا .

يقول الدكتور هيكل : إنى كنت عظيم الثقة بالعلم وبالطريقة العلمية الحديثة أنها ستؤدى بالإنسانية إلى معرفة الكون معرفة هى ملاك سعادة الانسانية فلما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها لبثت أنتظر نتائجها العالمية فى السلام العام وحرية الشعوب وحقها فى تقرير مصيرها وكانت السنون كلما توالت بعد الصلح تفتحت عينى على حقيقة بدأت أقوى صورتها عندى حتى بلغت غاية القوة سنة ١٩٢٠ وهذه الحقيقة هى أن العالم يعانى قبل كل شىء « أزمة روحية » إذ ذاك رأيت أن أدرس حياة النبى لعلى أجد الوسيلة لعلاج أزمة العالم الروحية ولإنهاض الشرق نهضة تبعث منه حياة جديدة كحياة الغرب بعد القرن الخامس عشر ووجدت فى دراستى للنبى العربى ودينه وتعاليمه والحضارة التى وضع أساسها ما خلق أمامى عالماً جديداً من عوالم التفكير لم يكن ذهنى متجها إليه من قبل . ولقد حاولت أن انقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعاً هدى ونبراسا ولكنى أدركت بعد لأى أنى أضع البذر فى غير منبته فإذا الأرض تهضمه ولاتتمخض عنه ، ولاتبعث الحياة فيه . وانقلبت ألتمس تاريخنا البعيد فى عهد الفراعنة موئلا لوحى هذا العصر تنشىء فيه نشأة جديدة فإذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعاً ما بيننا وبين ذاك العهد من أسباب وبحثت فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو مصدر البذر الذى ينبت ويثمر ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو .

وهكذا تدور دورة المفكر حول الفكر الغربى الذى يبرز فى أول أمره مثالياً ثم إذا به ينكشف عن حقيقة قاسية هى أن الاستعمار يقتل كل مافيه من قيم ومثل والتبشير ينحرف به إلى عمل من شأنه أن يركز النفوذ الأجنبى ويجد الباحث المسلم نفسه أخيراً أمام ضرورة ملحة هى أن الفكر الإسلامى هو المصدر الحقيقى الذى يستطيع أن يعطى هذه الأمة عوامل قوتها وحيويتها . ولعل أهم مايتصل بهذا وهو وجه جديد من وجوه التغريب يحتاج إلى الالتفات إليه وهو مايطلق عليه «التبادل الثقافى» . ومن الحق أن مايسمى « التبادل الثقافى بين الشرق والغرب » . إنما هو فى حقيقته « إمداد ثقافى » من جانب واحد هو جانب الغرب إذ ماذا يأخذ منا الغرب الآن : هل يترجم كتبنا أو يعرض أفلامنا . الواقع أننا نحن الذين يغرقنا الغرب بمؤلفاته وأفلامه ومجلاته وإلا فما معنى تبادل الأساتذة : البديل الوحيد هو القادم من الغرب ولا بديل له فالغرب الآن فى موضع السيطرة ولذلك فإنه يفرض ثقافته فرضاً ولذلك يجب علينا

أن نحتاط أشد الحيطة فلا نتقبل كل مايقدمه لنا بل نختار كل مايزيد شخصيتنا قوة . والموقف اليوم هو أن الغرب خطة مرسومة فى هذا التبادل ، فهو لايقدم لنا خير ماعنده ولكنه يقدم لنا أفلاما وكتبا قد وضعها على نحو خاص ليقدمها لنا ، يستهدف بها إما إعلاء شأن ثقافته وأبطاله وتاريخه ، أو هدم مقوماتنا وخاصة الأخلاقية . ونشر سموم الإلحاد والاباحية . والدعاة إلى التبادل الثقافى هم دائماً من رجال التغريب وهم يفهمون الغرض الذى يرمون إليه ولايكشفون عنه بل يقولون نحن أعطينا الغرب فى الماضى ولا بد أن نأخذ منه فى الحاضر . ومن حق أن يقال إننا أعطينا الغرب ولكن هل أخذ الغرب منا إلا مارآه مناسباً له دافعاً له إلى القوة والنهضة ، لقد تخير الغرب فى النقل والاقتباس والترجمة . بل لم يقف أمره عند هذا ، لقد صبغ كل مانقله وأعطاه طابعه وشخصيته وصهره فى بوتقته وكان حقاً علينا أن ننتفع بهذا الدرس وأن نطبقه . إن أصدق نظرة إلى التبادل الثقافى تحتم علينا أن نضع قيمنا موضع الأساس ثم نتقبل على ضوءها مايقدمه الغرب من ثقافته على أن تظل ذاتيتنا موضع القوة . أما القول بعالمية الثقافة فذلك من مؤامرات التغريب بالنسبة للعالم الاسلامى وهو فى موضع التخلف والوقوع تحت السيطرة الاستعمارية ، ويمكن أن يقال بعالمية الثقافة بين الثقافات القوية كالأمريكيين والأوربيين. أما بالنسبة لنا فإن الأمر يجعلنا منصهرين فى بوتقة الأممية مما يفقدنا ذاتيتنا وشخصيتنا وهو ماتسعى إليه حركات التبشير والاستشراق والتغريب جميعاً ويقول البعض : « إن جميع الثقافات تتلاقح ولا تكف عن الاقتباس من الأمم، وهو قول له ظاهر الحق ، ولكنه فى حاجة إلى تحديد وتعميق ؛ فما هى حدود الاقتباس، إن هناك مجالين : مجال القيم ومجال الثقافة . أما فى مجال العلم فلا شك فى القول بعالميتها وسلامة الاقتباس فيها ، أما فى مجال الثقافة المتصلة بالمزاج والذات والشخصية والقيم المختلفة فإن الاقتباس فيها إنما يجرى بتحفظ وتحرز شديدين، وماينقل يجب أن يصاغ فى صورة ملائمة، ولابد أن يذوب فى ثقافة الأمة فيضاف إليها كعامل قوة ، ينصهر فى أعماقها ويتشكل بها ، لا أن يحولها ويخرجها من صورتها وطابعها . إن أى أمة تقتبس ثقافة أمة أخرى لا بد أن تتخلى عن ثقافتها ولو فى حدود الحيز الذى تشغله الثقافة الجديدة وهى بالطبع ستتخلى بهذا القدر عن شخصيتها وذاتيتها ومن ثم فهى لن تكون الأمة الأصيلة ولا الأمة البديلة، بل ستكون شيئاً آخر مضطربا مهزوزاً ، وهو مايطلق عليه « الأممية » .

الفصل الرابع

التبشير واللغة العربية

وجه التبشير إلى اللغة العربية حملة ضخمة قوامها حقيقة أساسية هى أن القضاء على القرآن : مصدر الاسلام وقانونه الاسلامى يتطلب القضاء على اللغة الفصحى ، ولما كان التبشير والنفوذ الاستعمارى لايستطيعان أن يكشفا هذه الحقيقة صراحة فإنه قد أخفاها وراء كل خطوة اتخذها بدأ من الدعوة إلى العامية

أو مهاجمة اللغة العربية وانتقاصها أو الدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية . وتكشف جميع النصوص عن أن هذا الغرض الدفين الذى بين أيدينا واضح فى عقل وتدبير كل من تصدى لهذا الغرض ، ويبدو خطر الدعوة إلى تحطيم اللغة العربية واضحا حينما نرى أن عدداً كبيراً من المبشرين والمستشرقين قد تصدوا للكتابة فى هذا الموضوع وأقاموا من أنفسهم خداما لهذه الغاية لا يرون بأسا فى التخفى وتغيير شخصياتهم فى سبيل تحقيق ما يريدون ، حتى أن « ولهلم سبيتا » أول الدعاة إلى العامية ومدير دار الكتب بالقاهرة يختار أن يعيش فى حى وطنى « لكى يستق العامية من منابعها الأصلية ولا يدون إلا ما يسمعه» ثم يدون ما يسمعه بأذنه على كم قميصه خوفا من أن يلاحظه أحد المتكلمين فيفقد طبيعته وحريته فى الكلام » . وقد شغل عدد من هؤلاء الأجانب بأمر العامية واهتموا بها وألفوا عنها وفى مقدمتهم فى مصر : ولهلم سبيتا ، وكارل فولرس وسلدن ولمور ووليم ويلكوكس وقد بدأ ذلك منذ ١٨٨٠ واستمر حتى عام ١٩٢٦ تقريباً . وفى خلال ذلك كان لطفى السيد وقاسم أمين وسلامة موسى قد حملوا هذه الدعوة ثم اتصل ذلك بالدعوة التى دعاها عبدالعزيز فهمى عام ١٩٤١ عندما نادى بالكتابة بالحروف اللاتينية، هذا فى مصر وأما فى المغرب فقد تولى كولان ومن بعده ماسينيون لواء هذه الدعوة وفى لبنان ظهر كثير من الدعاة إلى الحروف اللاتينية والعامية اللبنانية ، وقد كان هدف هذه الدعوة التى حمل لواءها التبشير أساساً لخدمة مخطط السيطرة الاستعمارية الثقافية إنما يرمى إلى تمزيق اللسان العربى فى العالم الإسلامى كله وليس العربى وحده ، والقضاء على لغة القرآن كلية بإحلال اللهجات العامية محل اللغة الفصحى فى كل قطر وبذلك ينفرط عقد الوحدة الجامعة التى يكون قوامها هذا الكتاب المنزل والذى حفظ وحدة اللغة العربية طوال أربعة عشر قرناً ويؤكد الباحثون على أن اهتمام الأجانب بالعامية «لم يكن من أجل البحث العلمى ولا من أجل حاجتهم إلى معرفة لهجات البلاد العربية التى تقتضى مصالحهم أن يعيشوا فيها ويتعاملوا مع أهلها وإنما هو من أجل القضاء على العربية الفصحى وإحلال العامية محلها ومن الواضح أن هؤلاء الأجانب من المبشرين هم الذين وضعوا فى مؤلفاتهم هذه الخطة الكاملة التى ما يزال يستقى منها كل دعاة الشعوبية والتغريب واتباع المستشرقين والمبشرين من إدعاءات حول ما يصفونه بصعوبة اللغة العربية ، وصعوبة الحروف العربية ، واتهام اللغة العربية بأنها لا تستطيع مجاراة العلوم الحديثة وما يطلق عليه اسم الفوارق الواضحة بين لغة الحديث ولغة الكتابة . ولقد يدهش بعض البسطاء لاهتمام الاستعمار والنفوذ الأجنبى باللغة العربية بغية القضاء عليها ، ولو علموا مكان اللغة العربية من الإسلام والثقافة وكيان الأمم لما دهشوا ، فاللغة هى روح الأمة ومزاجها ، وهى ينبوع ما عند الأمة من المزاج الخلقى والشعور النفسى ، ولا تفكر الأمة إلا بلغتها ، فالرابطة بين الفكر وبين اللغة دقيقة وخطيرة ، ولذلك فإن القضاء على اللغة أو تهديدها إنما يراد به القضاء على روح الأمة وإفساده . وفى هذا يقول المازنى : « إن الإنسان لا يستطيع أن يفكر إلا بالألفاظ فهى وحدها أداة التفكير فلا سبيل إليه بدونها ومن المستحيل أن تتمثل معنى مجرداً عن ألفاظ معينة ، ولكل لغة أساليبها وطرائقها ، فأساليب التفكير وطريقة التصور خاضعة للأساليب التى يتألف على مقتضاها الكلام فى اللغات المختلفة ومن هذا يتفق ويتشابه أبناء كل لغة ويختلفون عن أبناء كل لغة أخرى ، وهذا فرق بين الانجليزى والفرنسى ، وما بين الانجليزى والهندى » وتمتاز اللغة العربية فى هذا المجال عن اللغات الاخرى بأن لها

كتاب هو رسالة السماء إلى المسلمين ، ومن هنا فهى تترابط بعد الجماعة العربية التى تتكلمها بجماعة أخرى تزيد على خمسة أضعاف من المسلمين الذين يجدون فى هذا الكتاب لغة دينهم ولغة ثقافتهم ومن هنا فقد أصبح للغة العربية بهذا الوضع مكان فريد وخطير كان على الاستعمار أن يواجهه بحسم ، فحيث يذهب الإسلام تذهب اللغة العربية ، ومن هنا فقد عمد الاستعمار إلى تجميد اللغة العربية ومن هنا وفى سبيل إقصاء القرآن عن ثقافات الأمم المسلمة سيطر النفوذ الأجنبى على وسائل التعليم وأدارها بلغته التى أصبحت هى اللغة الأولى فى كل قطر محتل ، وجرى تجميد المعاهد الإسلامية الخالصة كالأزهر والقرويين ، وقد أشار المبشر الأكبر « زويمر » إلى خطورة اللغة العربية حين قال « إن اللغة العربية هى الرباط الوثيق الذى يجمع ملايين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم » وكان هذا إشارة إلى ضرورة العمل على هدم اللغة العربية الفصحى التى هى لغة القرآن . وهذا هو المعنى الذى تنبه إليه المرحوم مصطفى صادق الرافعى فى حملته على (لطفى السيد) ودعاة التسوية بين العامية والفصحى ، فقد كان الرافعى يعرف أن الهدف من ذلك هو إحلال لغة وسطى بسيطة قريبة من العامية لتكون لغة الكتابة وبذلك يبتعد المسلمون عن لغة القرآن البليغة ويصبحون عاجزين عن فهم القرآن أو التعامل معه وهذا هو ما يهدف إليه الاستعمار ومن أخطر دعوات التبشير والتغريب تلك الدعوى التى تتحدث كثيراً عن الأدب الشعبى والفلكلور ولا يفهم سر الإلحاح فى هذه الدعوة إلا حين نرى حيرة سبيتا وفورس وولمور وويلكوس فى البحث عن ثقافة شعبية يريدون إسنادها إلى اللهجات العامية وبذلك يستطيعون أن يقولوا إنها لغة وشرط اللغة أن تكون لها ثقافة ومن هنا عمدوا جميعاً إلى جمع المواويل والأزجال وقد جرت هذه الدعوة فى الوقت الذى كان « دنلوب » يستولى فيه على مقاليد التعليم فى مصر ويضع النظام الذى يجرى به تغليب العامية والانجليزية وحين فرض دنلوب تعليم العلوم كلها بالإنجليزية واحتقر دراسة العربية وكل ما يتصل بها ثم جاء سلدن ولمور بعد الإحتلال فأضاف إلى دعوة من سبقوه إلى « العامية » : العمل على كتابة العامية بالحروف اللاتينية وآزرت مجلة المقتطف والجماعـــة من خريجى الإرساليات والمعاهد الأجنبية هذه الدعوة ورددوا آراء هؤلاء التى تتلخص إثارة الشبهات عن الخلاف بين لغة الكلام ولغة الكتابة وضرورة إحلال اللغة الأجنبية فى التعليم نتيجة الإرتباط بالدول الأوربية وكان سعد زغلول أول ناظر « للمعارف العمومية » هو أكبر دعاة بقاء اللغة الانجليزية لغة عامة التعليم وقد استطاع به الاستعمار والنفوذ الأجنبى أن ينقل السهام الموجهة إلى كرومر وإلى دنلوب إلى قلب وزير مصرى عربى هو الذى يحمل لواء الدفاع عن بقاء اللغة الإنجليزية وإبعاد اللغة العربية .

قال سعد زغلول : إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لمحض رغبتها أو اتباعها لشهوتها ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة ، إن مركز الأمة من الأمم الأخرى واحتلالها بالأجانب واشتباك المصالح الأجنبية بالمصالح الوطنية كل ذلك أوجب تعليم العلوم باللغة الانجليزية لكى يتقوى بها التلاميذ ويمكنهم أن يستفيدوا ويفيدوا بلادهم ويقووا على الدخول مع الأجانب فى معترك الحياة . وقال إن الذين يتعلمون باللغة العربية لا يمكن أن يوظفوا فى الجمارك أو البوسطة أو المحاكم المختلفة، وقد واجهت سعد زغلول حملات عنيفة لأنه إنما كان يقول بلسان عربى ما كان يقوله كرومر فى تقاريره وما يحاول

الاستعمار فرضه على مصر وقد أشار الشيخ على يوسف صاحب المؤيد إلى مدى الخطر فى التعليم باللغة الإنجليزية وكيف أنه يؤدى إلى حصر العلم فى طبقة ضيقة جداً من الأمة ويقلل الأساتذه الأكفاء ويلغى القدرة العلمية والفنية التى بلغة البلاد بل ويميت هذه اللغة شيئاً فشيئاً وقال : إن التعليم بلغة الأمة ينقل العلوم بكليتها بخلاف التعليم باللغة الاجنبية فإنه ينقل أفراد المتعلمين فقط من الأمة لهذه العلوم، وإذا كان بالعلم حياة الأمة فهو لايحييها إلا إذا ذاب فى جسمها كالدم فى الشرايين وكشف مصطفى كامل مخطط التبشير والتغريب حين قال : لما طلب اللورد كرومر تعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف حدثت فى مصر دهشة ورجاء وتساءل الناس لأى غرض اختار المعتمد البريطانى هذا القاضى لأكبر وأهم النظارات أهو لإصلاح شأن المعارف وترقيتها مرضاة للأمة أو هو لمحض خدمة السياسة الإنجليزية ، على أن كثيرين من الناس كانوا يحسنون الظن بسعد باشا ويصدق أمانته ونياته .

وأشار مصطفى كامل إلى دفاع سعد زغلول عن اللغة الإنجليزية فى التعليم المصرى ثم قال : يدهشنا من هذا الرجل جرأته على التأكيد فى تعليم العلوم باللغات الاجنبية . إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف صهر رئيس الوزارة الأمين على وحيه الخادم لسياسته وفهموا أيضاً لماذا قامت الصحف الإنجليزية والصحف المتحزبة للإنجليز وذرت الرماد فى العيون قائلة : إن الوزير الجديد هو من الحزب الوطنى وعرف الناس الآن لأى غرض اختار كرومر لإدارة المعارف الأهلية رجلا لم يدخل فى حياته مدرسة ولا علم تلميذاً ، ولاعنى مطلقاً بدرس شيء من مسائل التعليم والتربية إنه قد يمكن للمرأ أن يكون محاسباً عظيما وقاضيا فاضلا ولكن لا يرام من هذا أن يكون أهلا لإدارة شئون تربية الشبيبة وتعليمها . إن سعد باشا قد فشل فشلا عظيما فى الجمعية العمومية لو كان وزيراً أوربياً يتكلم أمام البرلمان لكان قد استقال فى المجلس ، ولكنه وزير فى مصر يعتقد أن ثقة اللورد كرومر به كافية وحدها لحمايته . إن سعد باشا يخطىء بهذا الاعتقاد كل الخطأ فهو كلما اعتمد على هذه الثقة ، فقد ثقة بلاده وتأييدها له ، وإن كل التفاف اللورد كرومر وإحسانه ولطفه لايمكن أن يمحو فشلا كذلك الفشل الذى دوى خبره فى كل أنحاء مصر إلا أن الذين كانوا يحترمون الوزير كقاضى ليأسفون على حاضره كل الأسف وليخافون على مستقبله كل الخوف ! (ونقول : من الحق ان يقال أن مستقبله ظهر بعد ذلك فى زعامة عامة شاملة للبلاد حيث توارى مصطفى كامل ومحمد فريد والحزب الوطنى) .

وقد أشار إلى هذا الخطر مستر بلنت فى تقريره الذى نشره الأواء : يظهر لمن يتحقق فى شئون مصر أن اللورد كرومر وضع قانوناً لسياسة التعليم وقرر فى هذا القانون أن لا يتعلم النشء المصرى الحديث إلا لغة إنجلترا وكل ما كان مخالفا للدين الإسلامى وإلا فليبق هذا النشء بغير علم على الاطلاق ولذا رأينا على رأس المعارف فى مصر المستر دنلوب وهو رجل إنجليزى ذو شهرة سيئة لأنه عدو المسلمين وعدو اللغة العربية ويساعده فى عمله رجل أرمنى مسيحى اسمه يعقوب أرتين وهو بلا ريب عمل مشين وقبيح فى بلاد إسلامية وإذا أراد المصريون أن ينالوا استقلالهم ويحرروا وطنهم فعليهم

الاحتفاظ بما احتفظت به كل أمة مهضومة وهو الدين واللغة فإن الأمة التي تقبل لغة الغالب الفاتح تسجل على نفسها الذل والطاعة العمياء والأمة التي تقبل دين من اغتصب بلادها تخون شرفها الوطني وأنا أنصح للمصريين أن لا يسمعوا إلى أقوال بعض الصحف الفرنسية في القاهرة التي تقول أن التعليم إذا كان وطنياً فلا ينبغي أن يكون دينيا على الإطلاق وأشير على مصر بأن لا تضيق على نفسها نطاق التعليم فإن الاسلام دين حق تام ولا يعرف حداً يقف عنده في سبيل التقدم الحقيق ويمكن لمن يعرفه جيداً أن يصل إلى أسمى درجات المدنية الحديثة وحل أغوص المسائل العلمية الكبرى » . ولعل أخطر ما تحمله خطة التبشير بالنسبة للغة العربية هو ما حاول ويلكوكس أن يدعو إليه حين قال أن العامية في مصر هي لغة خاصة مستقلة عن اللغة العربية فقد نشر عام ١٩٢٦ رسالة بعنوان (سوريا ومصر وشمال إفريقيا ومالطة تتكلم البونية لا العربية ». زعم فيها أن اللغة التي يتعلمها الناس من حلب إلى مراكش بما في ذلك مالطة هي اللغة الكنعانية أو الفينيقية أو البونية ، كما زعم أن اللغة البونية التي هي أساس لغة الحديث عندنا لا صلة لها باللغة العربية الفصحى ، فقد دخلت مصر قبل أن تدخلها الفصحى بألف سنة وأنها انحدرت إليها من الهكسوس » وهذه محاولة جريئة ومبطلة للقول بأن اللهجة العامية هي لغة قائمة بذاتها وأنها كانت موجودة قبل الإسلام والهدف من هذا هو تأصيل الدعوة إلى العامية في محاولة لاحلالها محل لغة الكتابة ، حيث يردد هؤلاء جميعاً العلاقة بين العامية والعربية ويقارنوها باللغة اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة وهي مقارنة باطلة وقد رددنا على هذه الاتهامات في كتابنا « اللغة العربية بين حماتها وخصومها » . والمعروف أن ويلكوكس كان من أكبر دعاة العامية وأنه ترجم الإنجيل بالعامية كما ترجم بعض قطع لشكسبير وقد وجدت هذه المترجمات ازدراء واحتقاراً كبيرين ولم يتقبلها أحد كما أجرى هؤلاء الأربعة (سبيتا ، فوارس ، ولمور ، ويلكوكس) محاولات متعددة للدفاع عن العاميه وذلك بادعاء القول بأن لها قواعد محددة وكان الهدف واضحاً من هذه الحملات المتواليه التي بدأت (١٨٧٠ — واستمرت إلى ١٩٧٦) هو ليس فقط كما يقول بعض الباحثين الذين لم ينظروا إلى الأمور نظرة عميقة : « أن الهدف هو فصل المسلمين والعرب عن ماضيهم وتفتيت وحدتهم اللغوية بالقضاء على العربيه الفصحى » . ليس هذا فقط بل إن الهدف أكبر من ذلك وأخطر وهو السر المكتوم في حنايا الصدور : القضاء على لغة القرآن وإحلال لهجات تصبح لغات فينطوى كتاب الإسلام الأكبر ويفقد خاصيته الكبرى وهي وحدة الفكر بين المسلمين .

ومن خلال هذه المخططات التي رسمها التبشير والاستشراق، انبثقت دعوات لطفي السيد وسلامه موسى وعبد العزيز فهمي في مصر وغيرهم في لبنان (اسكندر المعلوف والخوري مارون غصن) وما تزال كتابات دعاة العامية في مصر والعالم العربي إلى اليوم تستمد مصادرها وهجومها على الفصحى من هذه الكتابات وكذلك فعل التبشير والاستشراق في كل جوانب الفكر الإسلامي هذا العمل ، فأعد ركيزة أساسيه بأقلام رجاله وترك لتابعيه وخدامه الانتفاع بها وترديدها ولقد قرأت في الأعوام الأخيرة رسالة ألقيت في أحد المؤتمرات الغربية عن العامية، لا تكاد تخرج في مضمونها عن كلام ويلمور وويلكوكس وإن كانت بحروف عربيه وبتوقيع اسم عربي . وقد واجهت هذه الحملة ردود فعل قوية وكتب الكثيرون

يفندون آراء لطفى السيد ورد عليه مصطفى صادق الرافعى وعبد الرحمن البرقوقى، وفند الدكتور أحمد الحوفى آراء سلامه موسى وفند عبد الوهاب عزام وكثيرون آراء عبد العزيز فهمى وما يزال يرده هذه الدعوى بعض التغريبيين فى هذا الجيل من أمثال : ميخائيل نعيمة ولويس عوض وسعيد عقل وسوف لا يكون رجاءهم بأكثر من رجاء من سبقوهم .

الفصل الخامس

أثر التبشير فى الثقافة العربية والتراث

لم يقف أثر التبشير عند ميدان واحد بل عمد إلى التأثير فى جميع الميادين وكان أبرز هذه الميادين ميدان التأليف فقد استطاعت معاهد الإرساليات التبشيرية التى تعمل فى العالم الإسلامى منذ مائة عام تقريباً أن تحقق نتائج ضخمة فى هذا المجال وأن تقدم مؤلفات وكتباً تعد الآن (وكائز عامة) فى مختلف فنون البحث العلمى والأدبى والتاريخى . هذه المؤلفات الأمهات هى الآن مراجع سهلة ومصادر أساسية فى يد أساتذة الجامعات والمدرسين فى مختلف أنحاء البلاد يرجعون إليها ويجدون فيها حاجتهم دون أن يجهدوا أنفسهم فى سبيل البحث ، وفى مقدمة هذه المؤلفات : الأدب العربى لبروكلمان ودائرة المعارف الإسلامية التى ألفها مجموعة من المبشرين المتعصبين ضد الإسلام والقرآن وقاموس المنجد والموسوعة العربية (فرانكلين) وتاريخ الآداب العربية للأب لويس شيخو والتمدن الإسلامى لجرجى زيدان وعشرات من المؤلفات التى تضم آراء فرح أنطون . وشبلى شميل . وولى الدين يكن ولطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى وعلى عبد الرازق . أما الكتب التى تدرس فى الجامعات والمعاهد التابعة للارساليات التبشيرية فإنها تفوق الحصر ، بالإضافة إلى عشرات أخرى تظهر بين حين وحين وتتداولها الأيدى . ولقد حاول كتابنا ومفكرونا طوال الأعوام الخمسين الماضية متابعة هذه الكتب واستدراكها والرد عليها وكان أكثر المشغولين بهذا العمل : فريد وجدى وشكيب أرسلان وزكى على وهى فى مجموعها كتب لا تخضع للبحث العلمى وإنما هى حملات من الحقد والاتهامات ومجموعة من الألفاظ النابية ومحاولة لوصف الرسول والمسلمين والقرآن بأوصاف بعيدة عن الحقيقة . وهدف هذه المؤلفات تشويه الإسلام والمسلمين ، بغية توهينهم وإضعاف وحدتهم ، وإثارة الشبهات فى تاريخهم وفكرهم وخلق النزعات الشعوبية التى تفرقهم وتقضى على وحدتهم والجهاز للتبشير مؤلفات وكتاب ، هؤلاء واضح غرضهم . ولذلك فإن كتاباتهم تسقط فى نظر القارىء المنصف غير أن للتبشير استعان بجماعة من الكتاب الاستعماريين الذين زاروا العالم الإسلامى بروح الاستعلاء والعصبية ونظروا إليه بروح الرجل الأبيض بمدن العالم فهاجموه ، فاستغل التبشير كتابات مثل هؤلاء الكتاب كما انتفع بكتابات المستشرقين واستغل تناقضاتهم وقصورهم فى فهم بعض النصوص واستهدف آراء التابعين منهم لوزارات الاستعمار وهى آراء مفروضة سلفاً ، وقد حمل هذا كله إلى العالم الإسلامى وأذاعه بأسلوب وأسلوب ، وفق مخطط نفسى دقيق ، وعلى مراحل ، فأثار به حملة ضخمة من الطعن فى الإسلام والقرآن تشوه صورتهما فى نفوس الناس ، وتخلق تياراً من الاستهانة والاستخفاف والكراهية له بين أهله .

ويمكن القول بأن دوائر المستشرقين إنما تمثل المصنع حيث تمثل دوائر المبشرين « السوق » التي تعرض البضاعة وتذيعها وتعلن عنها وتعاود التذكير بها في كل مناسبة وفي مقدمة كتابها : ماسنيون وهفري جب وفردريك بلس وليفوليان وهارير ولافيجري وبوليوس وشتر وماسينون . وقد أحدثت هذه المؤلفات أثراً بعيداً في تغيير مناهج الأدب العربي والفكر الإسلامي بما حاولت إثارته من شبهات حول بعض الحقائق الأساسية ، ففي مجال التشريع الإسلامي تجرى مضاربته بالتشريع الروماني واتهامه بأنه تابع له ، وفي مجال الأدب تجرى المقارنة بينه وبين الأدب اليوناني بهدف انتقاصه في مجال الأسطورة والمسرحية . ومن أمثلة اعتماد الكاتبين باللغة العربية على كتب المبشرين ما افتضح سره عندما أصدر الدكتور طه حسين كتابه (في الشعر الجاهلي) وما حمله من آراء حول إبراهيم وإسماعيل عندما أراد المؤلف إنكار القرآن والتوراة وقال : إن وورود إسميهما في القرآن والتوراة لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي) فقد تبين أن هذه الآراء منقولة من كتاب المبشرين طبعته في القاهرة (مطبعة النيل المسيحية) إسمه « ذيل مقالة في الإسلام باسم رمزي هو: هاشم العربي وهو كتاب مطبوع للمرة السادسة سنة ١٩٢٥ وهو العام الذي كتب فيه طه حسين كتابه ، وأقدم طبعة لهذا الكتاب عام ١٨٩١ . وهكذا خلق طه حسين هذه البادرة في اتخاذ كتب المبشرين مصدراً للأدب العربي وتجد كثيراً مما أورده بروكلمان ومرجليوث وغيره عن الإسلام مسبوقاً في كتب لويس شيخو وجرجي زيدان في الأدب العربي وهما الكتابان اللذان اعتمد عليهما معظم الباحثين في الشام ومصر منذ ذلك الوقت البعيد عام ١٩١٠ وما بعدها ويتصل بهذا عدد من المؤلفات التي نشرها المبشرون في بيروت عن الأدب العربي وقصد بها إخراج الأدب العربي من روحه الإسلامية وتعزيز روحه الجاهلية . وفي القاهرة وإلى عهد غير بعيد كانت المدارس الإيطالية ومدارس الفرير تدرس كتباً مثل كتاب (غاية الأدب في لغة العرب) وهو كتاب موضوع لتعليم اللغة العربية ، ومن نماذج ما جاء به من إساءة الإسلام والعرب ما جاء في صفحة ٢٨١ حيث يقول « وبالجملة يمكننا القول بأنه حيثما حل العرب أكرهوا شعوب تلك البلاد على اعتناق الدين الإسلامي فكان الفضل الأعظم في هذا الانتشار العظيم راجعاً إلى السيف لا إلى الحجة والبرهان على حد قول شاعرهم أبي الطيب المتنبي : « المجد للسيف ليس المجد للقلم » . ومسألة الإسلام والسيف هي من هذه الاتهامات الكبرى التي رددها المبشرون وأكثروا من ترديدها : وذلك بالإضافة إلى عشرات الموضوعات والشبهات التي لا يتوقف ترديدها وأهمها إنكار فضل المسلمين في الأدب والفلسفة والهجوم على اللغة العربية والدعوة إلى العامية ، واتهام القرآن بالوضع وبأنه مجموعة من آراء الكتب المقدسة السابقة عليه وإثارة الشبهات حول بعض النصوص وإعلاء الروايات الضعيفة ، ومحاولة جعل المؤلفات التي وضعت للترف مصادر أساسية للبحث كالأغاني وألف ليلة . والواقع أن المجال الثقافي يعد الوسيلة الكبرى الثانية للتبشير بعد مجال التعليم ، وقد ركز المبشرون شبهاتهم في قضايا كثيرة ونشروها في عديد من المؤلفات وخاصة دائرة المعارف الإسلامية التي أشرف على إصدارها فنسنك وليفي بروفنسال وشاخت وهايمان وجيمهم من المبشرين اللابسين طيالسة العلماء حيث تتحرك في مواد هذه الموسوعة تجد السموم والشبهات مثارة على نحو أو آخر. وفي مادة « أصول » مثلا التي كتبها « شاخت » يحاول أن ينسب إلى القرآن الخطأ ، واتهام الرسول بالنسيان ووجود المتناقضات واتهام الرسول بأنه لم يكن يقصد

إلى خلق نظام ينضبط به حياة أتباعه بل ظل القانون العرفى العربى القديم يسير فى الإسلام سيره الطبيعى وهذا كله خطأ مقصود وليس نقصاً فى الفهم أو عجزاً من الباحثين ، وإنما هى جرأة هادفة إلى رسم صورة مضللة منحرفة للإسلام أمام قراء دائرة المعارف الذين يعدون فى معاهد التبشير والاستشراق للعمل فى العالم الإسلامى . كما ضم قاموس المنجد دسائس كبيرة أريد بها إدخال عبارات جديدة غير عربية أصلا وتفسير بعض الإصلاحات تفسيراً مختلفاً عن تاريخ الكلمات الأساسى بل بعض المصطلحات الإسلامية قد فسرت تفسيراً خاطئاً وقد قدم كثير من الباحثين مراجعات هامة فى هذا الصدد فى مقدمتها ما كتبه العلامة عبد الله كنون . ومن أهم القضايا التى ركز عليها التبشير فى مجال الثقافة :

(١) الدعوات القومية والإقليمية فى مواجهة الوحدة الإسلامية والاهتمام بدعوات الفرعونية والفينيقية والبربرية ودعوة البحر الأبيض المتوسط . وقد أشاد زويمر بروح القوميات وحرص زملاءه وتلاميذه على اتخاذها وسيلة للقضاء على الإسلام حين قال فى كتابه (الاسلام : ماضيه . حاضره . مستقبله) . إن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات . وقد أشاد بالتطورات التى حدثت بعد سقوط الخلافة الاسلامية واتجاه المسلمين إلى الإعلاء من شأن أسمائهم الوطنية على اسمهم الاسلامى كما ركز على الدعوة الدائمة على مقاومة التعليم الدينى فى برامج التعليم ، وعلى إقامة الثورة ضد كل ما هو مأثور وقديم (مؤتمر التبشير ١٩٢٤) .

وأولى اهتمامه لقضية تحرير المرأة على أنها الوسيلة إلى إخراج المرأة المسلمة من دينها وقيمها حيث يقصر المسلمون — على حد قوله — فى الموازنة بين تعليم المرأة ومشاركتها فى الحياة العامة وبين إعدادها إسلامياً لمواجهة أخطار الاختلاط والمجتمع والمحافظة على شخصيتها سليمة أمام تيارات الاباحة الوافدة . ومن أهم ما عنى به المبشرون : التركيز على جوانب الاباحة فى المجتمع والالحاد والفكر ، ويقول فى هذا زويمر « إن هدم الاسلام فى نفوس المسلمين له أهمية كبرى فى شىء واحد هو قبول الفكر الغربى كصديق « دولى » وهذا يعنى أن إبعاد القيم الاسلامية من مجال الثقافة يبعد من النفس المسلمة عناصر المقاومة للاستعمار ويخلق بدلا منها روح الولاء والصداقة والتقبل للنفوذ الأجنبى ويرحب كثيراً بما يسمونه « اكتساح الأفكار العصرية والحضارة الافرنجية للمسلمين » ويرون أن فى ذلك قضاء نهائياً على مقومات الاسلام ، وهذا ما يدفع اليقظين من مفكرى الاسلام إلى الالحاح دوماً على التفرقة بين الحضارة والثقافة وبين العلم والثقافة وبين الفلسفة والثقافة ، فنحن المسلمين والعرب نتقبل من الغرب جوانب القوة من حضارته ونتقبل العلم بحسبانه عالمياً ولكننا لا نعتنق ثقافات الغرب ، إيماناً منا بأن الثقافة قومية منبثقة من أمزجة الأمم وأرواحها وضمائرها وقيمها الأساسية ، ولذلك فإن الغرب نفسه عندما مر بهذه التجربة حين نقل الفكر الاسلامى فى أوائل عصر النهضة تقبل الحقائق العلمية وحدها ورفض الطابع الاسلامى وأحل بدلا منه طابعه الغربى . وقد أجرى المبشرون حول هذه النقطة بالذات أبحاثاً طويلة وحاولوا فرض نظرية خاطئة هى أن على المسلمين والعرب أن يتقبلوا الحضارة الغربية متصلة بثقافتها غير منفصلة عنها « خيرها وشرها وحلوها ومرها » كما أشار إلى ذلك طه حسين فى مصر وأحمد أغاييف فى تركيا ، وقد أثبتت التجربة كذب هذه النظرية وتضليلها ، وقد رفضها الفكر

الإسلامى كما عارضتها الثقافة العربية استمداداً من قيمها الأساسية التى كانت دائماً قادرة على التقبل من ثقافات الأمم وحضاراتها بالقدر الذى يتفق مع طابعها ومزاجها ورفض ما سوى ذلك ، وقد تساءل زويمر على سبيل التشكيك كما تساءل المبشرون والاميذهم فى كل عصر : عما إذا كان فى إمكان الإسلام مجاراة تيار الحضارة مع مبادىء القرآن وتعاليمه . وبالرغم من الأخطار التى واجهها المسلمون فى خلال السنوات السبعين الماضية من نفوذ الاستعمار العسكرى والسياسى والثقافى فإنهم ما زالوا مصممين على الاحتفاظ بقيمهم الأساسية المستمدة من القرآن ولا أعتقد أنهم سيضعفون فى الأيام القادمة عن هذا الإصرار ، بل المعتقد أنهم سيكونون أكثر قوة وتصميماً عليه .

(٣) كتب التراث :

كان الغزو الثقافى والاستعمارى والفكرى من أكبر أعمال حركة التبشير بالاشتراك مع حركتى الاستشراق والتغريب ، وهى حركات ثلاث تتلاقى فى عمل واحد أو هى مراحل ثلاث لصورة واحدة أو وجوه مختلفة لحقيقة واحدة هى إقامة ركائز أساسية للاستعمار فى عقول المسلمين وقلوبهم عن طريق الثقافة والفكر وفى مجال الدراسات العقلية والروحية ، وقد عنى المبشرون منذ وقت طويل بترجمة القرآن وترجمة السنة ، والحصول على عشرات الألوف من كتب التراث الإسلامى التى تملأ الآن جامعات أوربا وأمريكا حيث تبلغ فهارس المخطوطات العربية فى مكتبة برلين وحدها حتى عام ١٩٣٠ ما يملأ عشرة مجلدات ضخمة ومثلها فى روما وميلانو والاسكوريال فى مدريد والناسيونال فى باريس والمتحف البريطانى فى لندن ومكتبات فينا وبرلين وليدن وموسكو . وقد بدأ العمل فى التراث الإسلامى برأى مسبق وغرض مبيت هو استغلال الشبهات والآراء المتضاربة والأخطاء فى سبيل ضرب الفكر الاسلامى فى نظر أهله وإثارة الشكوك حوله ، وخلق جو من الاحتقار والكراهية له ، ولذلك فقد عكف المبشرون وأعوانهم على استعراض آراء معينة ما زالوا يرددونها بعد عشرات الأعوام ويعيدون ترديدها وكلها تدور فى دائرة اتهام القرآن بالوضع والرسول بأنه كردينال رومانى والإسلام مقتبس من المسيحية واليهودية ، وأن الاسلام انتشر بالسيف . وقد كانت حركة التبشير وحركة الاستشراق جميعاً فى خدمة الاستعمار . ثم برزت حركة التغريب التى تعمل على صياغة الفكر الاسلامى صياغة غربية تلمودية تهدف أساساً إلى انتزاع الاسلام من حقيقته واعتباره ديناً تعبدياً وإنكار وتجاهل ومحاربة كل رأى يقول بأنه دين مجتمع وأنه جامع للدين والمجتمع وأنه نظام حياة وذلك هو أخطر هدف يرمى إليه الغزو الثقافى ، إبعاد الاسلام عن مجال العمل فى المجتمع والدولة والقانون والاقتصاد والسياسة والتربية وإحلال مفاهيم الغرب فى هذه الأمور بدلا منه وفرضها فرضاً ، وهذا ما استطاع الاستعمار أن يحققه خلال فترة الاحتلال الطويلة للعالم الاسلامى ، وهو ما تعلو الأصوات الآن إلى النظر فيه بروح الاصالة والاستمداد من الشريعة الاسلامية والقيم الأساسية للفكر الاسلامى المستمدة من القرآن .

ولا شك كان « القرآن » هو أخطر الأصول التى حرص التبشير فى توجيه سهامه إليها وإبعاده عن مجال التعليم والتربية والمجتمع والثقافة جملة، فإذا عرض فى بعض الجامعات عرض على أنه من أساليب البلاغة والبيان .

وكان للدكتور طه حسين فى هذا آراء مشهورة استمدها من كتب المبشرين عندما حاول اتهام القرآن بالوضع ، وأنه من صياغة محمد وأن له أسلوبا فى مكة يختلف عن أسلوبه فى المدينة إلخ وقد أورد ذلك الدكتور عبد الحميد سعيد رئيس الشبان المسلمين فى البرلمان قارئاً أياه من كراسة طالب فى كلية الآداب

(٣) أولى المبشرون الاهتمام ببعض الاعلام والشخصيات على أساس . (أولا) الانتقاص والغض من قدر كثير من الشخصيات ذات الفاعلية الهامة فى التاريخ والثقافة أمثال : المعرى وابن خلدون والغزالى والمتنبي وقد وجه بعض المبشرين انتقادات ظالمة إلى هذه الشخصيات وغيرها وتأثر بها كثير من الباحثين الذين يكتبون بالعربية أمثال لويس عوض وطه حسين وزكى مبارك . (ثانيا) ركز التبشير على الاهتمام بشخصيات أخرى وإعلاء قدرها أمثال : أبو نواس ، بشار بن برد ، الحلاج .

(ثالثاً) : أولى اهتمامه بالدراسات الفلسفية الصوفية وإذاعتها رغبة فى أن تكون أفكارها عاملا فى بلبلة أفكار المسلمين وإدخال أفكار غير أصيلة عن الإسلام ، وقد عنى المبشرون والمستشرقون بالسهروردى وابن عربى ومذاهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد وهى مذاهب ليست إسلامية أساساً وإنما دخلت إلى الفكر الإسلامى من الفلسفات الهندية والفارسية واليونانية القديمة . ومما اهتمت به هذه الدراسات كتابة بحث مطول عن « مسيلمة » الكذاب ومن الأسف أن بعض المجلات العربية قد عنيت بترجمة هذا البحث ونشره ، وبالطبع فإن مجلة (الرابطة الشرقية) التى كان برأس تحريرها على عبد الرازق التى ترجمت البحث إنما قصدت إلى هدف محدد فى مخطط التبشير والاستعمار والتغريب . وبالجملة فإن تشويه الثقافة العربية والفكر الاسلامى كان هدفاً أساسياً للتبشير ، كوسيلة للحط من شأن العرب والمسلمين فى نفوسهم وأهليهم وقومهم ، والمعروف أن القيم الأساسية للفكر الاسلامى والثقافة الاسلامية هى الوسيلة الأساسية للنهضة واليقظة بين المسلمين ، ولذلك فإن مخطط التبشير كان عاملا أساسياً فى الحيلولة دون تحقيق ذلك وقد استخدم فى هذا السبيل عدداً كبيراً من الكتاب الذين يكتبون بالعربية وأحاط أسماءهم باللمعان والبريق عن طريق الصحف الكبرى ودور النشر والمنابر البارزة فى الجامعات والجمعيات العالمية الكبرى .

وعلى الجملة فإنه يمكن أن يقال إن التبشير كمخطط للاستعمار قد عمد إلى النظر إلى الفكر الاسلامى على أنه (تراث) بينما هو ليس كذلك فى الحقيقة ، فالتراث عبارة لاتزال تعطى معنى القديم المتجمد بينما الفكر الاسلامى مازال حياً ، متفاعلا مع الثقافات العربية والتركية والفارسية والهندية والاندونيسية والافريقية وغيرها . وإنما استهدف التبشير هذا لكى يوحى بأن الفكر الاسلامى شىء قد وضع على رفوف المتاحف . وفى مواجهة هذا التراث عمد إلى تحقيق عدة أهداف يدسها ويدسها كتابة من المبشرين وخلفائهم ممن يكتبون باللغة العربية ترمى إلى توهين القيم الاسلامية وتفتيت وحدة الفكر الاسلامى والثقافة العربية وإثارة الخلافات بين الشعوب الاسلامية والعربية ووضع إسفين ضخم بين العرب والترك والفرس والعمل على بعثرة القوى الوطنية فى كل بلد عربى .

من خلال هذه الأهداف الخفية تبدو الشبهات المثارة والعبارات التي تحمل طابع العلم وأسلوب البحث الجاد وهي تدس السموم وتحاول أن تسخر من هذا النص أو ذاك رغبة في خلق جو نفسي من الشك والاستهانة وعدم التقدير للقيم والأصول التي قام على أساسها هذا الفكر الإسلامي الشامخ .

الفصل السادس

التبشير والأدب العربي

وجه التبشير حملة ضخمة إلى الأدب والتراث العربي استمد شبهاتها من كتابات المستشرقين وعمل على إذاعة أنواع معينه من التراث والإغضاء عن أنواع وفنون أخرى وكان من أبرز ما عنى به إذاعة وطبع كتابي ألف ليله والأغاني وإذاعة شعر منسوب إلى عمر الخيام. والمعروف أن بعض الكتب القديمة من التراث قد كتبت في ظروف مختلفة ، وقصد بها إلى توجيه الفراغ فجاءت هذه الكتب حافلة بالقصص والفكاهة وضمنت خليطاً من المتعة والتسلية ، وحاولت أن تجمع الطرائف وأحاديث الأندية وروايات الرواة الذين انتشروا في القرن الثالث في أنحاء العالم الإسلامي وفي عواصمه من القصاص والمداح ، هؤلاء الذين ملأوا أجواء الحياة بعشرات الحكايات التي تضمنتها من بعد كتب المحاضرات والأقاصيص ، هذه الكتب التي كتبت لغاية خاصة ، لا يجوز أن تترك دون تذكير بأنها لا تصلح وحدها كمراجع علمية لدراسة عصر من العصور أو تصور حالة المجتمع الإسلامي في ضوءها . وفي مقدمة هذه الكتب : كتاب الأغاني الشهير بأجزائه ومجلداته العديدة . وكتاب ألف ليلة . وقد كان يوضع هذان الكتابان في مكانهما المعروف المعزول عن كتب الثقافة والعلوم والأبحاث الجادة لولا تلك المحاولة الذي قام بها بعض الناشرين الغربيين الذين جاءوا إلى البلاد العربية منذ منتصف القرن التاسع عشر واهتموا اهتماماً كبيراً بإذاعة هذين الكتابين وإعادة طبعهما بكميات كثيرة ، وألوان فاخرة ، بالإضافة إلى ذلك الإهتمام الذي وجه إلى الشعر المنسوب إلى العلامة الفلكي الأشهر عمر الخيام .

ولقد شكلت هذه الظاهرة في نظر الباحثين المنصفين بالإضافة إلى اهتمام المبشرين والمستشرقين بشخصيات معينة في الأدب العربي والتاريخ الإسلامي وإبرازها والعناية بها ، والحملة على شخصيات أخرى وإثارة الشبهات حولها . كل هذا شكل ظاهرة جديدة تحتاج دوما إلى الكشف عنها والتذكير بها . فقد كان العرب والمسلمون دوماً في مراحل اليقظة والنهضة يتحركون في مجال تجدد فكرهم بحرية مطلقة ودون ضاغط ، ولكنهم في مرحلة اليقظة الحديثة كان النفوذ الاستعماري قد سيطر على معظم أجزاء العالم الإسلامي والأمه العربية ومن هنا فقد حدث نوع من التداخل والضغط بالنسبة لما يبتعث من التراث وما يترجم من الآداب الغربية فلم تمكن الفكر الإسلامي حريته المطلقة ولا قدرته المحررة في تقبل ما يجده موافقاً لمجارى فكرة ولقيمة الأساسية ، ومن خلال هذا التحدى جرى ذلك الضغط على نشر بعض الكتب وفي مقدمتها ألف ليلة والأغاني والشعر المنسوب إلى عمر الخيام .

(ألف ليلة)

حاولت حركات التبشير والتغريب التي رافقت النفوذ الغربي والاستعمار أن تجعل من كتاب ألف ليلة وليلة « وثيقة » لدراسة صورة المجتمع الاسلامي ولذلك فقد ترجم إلى مختلف اللغات وأثيرت حوله اهتمامات كبرى ، وذلك ضمن المخطط المدروس والمنفذ الذي يشمل الأغاني ورباعيات الخيام وغيرها من المؤلفات المملوءة بالصور الإباحية في محاولة خطيرة لإلقاء ظلال من الشك على سلامة الفكر العربي الإسلامي ومحاولة لاثارة هذه الموجة من الشك والاباحة عن بعثها من « تراث » العرب والمسلمين أنفسهم ويتميز كتاب ألف ليلة وليلة في نظرهم بأنه يعطي صورة لمختلف الطبقات في المجتمع ويخلط بين الأمير والصعلوك والتاجر والشرير ، وأنه لا يقف بالصورة عند مجتمع السراة والولاة . والمعروف أن كتاب ألف ليلة ليس وثيقة تاريخية وليست له مصادر أساسية وإنما هو مجموعة من القصص الخيالية التي جمعت ورويت في ظل اضطراب المجتمع الإسلامي وضعفه ، وقد تولى ترجمته المستشرق الفرنسي غالان عام ١٧٠٤ ومن ثم انتشر بصورة مذهلة في جميع اللغات الأوربية وأعيدت طبعاته في الإنجليزية والألمانية وغيرها وكانت الصورة التي أريد فرضها بالباطل من خلال هذا الكتاب أن الشرق يعيش في الحريم والترف والبخور والخمر ، هي الصورة التي أغرت كثيراً من الكتاب الغربيين بالرحلة إلى الشرق ورددت كلمات الإعجاب والتقدير ، فقد كتب جوته وبايرون وغيرهما كلمات تحمل معنى التطلع إلى الصورة المغلفة بالضباب للشرق والتي رسمتها الف ليلة في نفوس وعقول هؤلاء الكتاب وقد ظنوا أنها حقيقة وأن المجتمع الاسلامي كله يعيشها . وفي ظل هذه الصورة كون الغرب رأيه في الشرق ، وحاول أن يستخرج منها قواعد الاجتماع والأسرة والمفاهيم ، وكان في ذلك مخطئاً أشد الخطأ فلم يكن الشرق في حقيقته يعيش هذه الصورة ، ولم تكن مفاهيم الترف والجنس والشهوات هي التي تسيطر عليه أو توجه فكره ولقد عرف الغرب عندما زار الشرق كيف أن هذه الصورة لم تكن واقعية ، وأن قيم العرب والمسلمين كانت لا تزال حية قوية ومفاهيمه سليمة ، وذلك بالرغم من الضعف الذي كان قد انتاب الدولة، والفساد الذي حل بالطبقات العليا منه أما الطبقات الوسطى والدنيا فلم يكن قد أصابها الانحراف وإن كانت قد تقوقعت وتجمدت . وعرف بالتأكيد عن طريق البحث العلمي النزيه أن « ألف ليلة » لم تكن إلا مجرد صور خيالية تمثل الأساطير والأحلام والأوهام التي تعيش في خيالات القصاص وهي في مجموعها مستمدة من تراث الأساطير الشرقية والغربية القديمة ، وقد استطاعت براعة الرواة أن تخلق منها جواً عصرياً فتضم إليها أسماء جديدة . ولذلك فقد كانت محاولة دعاة التغريب المركزة على اعتبار ألف ليلة صورة واقعية للمجتمع الإسلامي العربي ، كانت مضللة وكاذبة أساساً ولا تعتمد على سند على صحيح وإن محاولات المستشرق « لين » في أن يتخذ من هذا الكتاب أساساً لشرح عادات العرب والمصريين وكتابة بحث تاريخي عن المجتمع الإسلامي ليست إلا محاولة زائفة تخدم أغراض التبشير والاستعمار والتغريب والغزو الثقافي ، وكذلك كان مستر « بيرتون » غير منصف حين اعتبر أن ألف ليلة تستطيع أن تقدم لأهله طباع المسلمين وعاداتهم واخلاقهم وذلك على حد قوله لتكون لديهم « الحنكة الضرورية ليحكموا المسلمين

الواقعين ضمن امبراطوريتهم ، وقد كشف هذا عن الاتجاه الاستعماري وبقى أن نقول أنه بهذا الاعتماد على ألف ليلة فإن المستعمرين لم يعرفوا حقيقة المجتمع العربى الاسلامى ولم ينفذوا إلى جوهره ، ولأن ألف ليلة من صنع القصاص والرواة — وهم غالباً غير حائزين على قدر من الثقافة يؤهلهم لفهم مقومات الفكر العربى الإسلامى فإن مايجرى فيها من حوار ساذج لا يمثل حقيقة الروح العربية الإسلامية ، ومن هنا . كان خطأ الزيف اعتبار الأحاديث التى جرت فيها بأنها مصدر لاستخلاص قيم معينة حيث يقال بأن « حكاية الوزير نور الدين ابن شمس الدين » هى أكثر بدائية وفيها حرية الأطفال على حد تعبير المستشرقين وعلى ضوء هذا الكتاب الملفق الذى لا يعرف مؤلفه ولا تاريخ تأليفه تقوم نظريات عربية تحاول أن تصطبغ بطابع العلم والبحث المجرد ، وأن تجد من يدافع عنها ويتبناها من دعاة التغريب والشعوبية كالقول بأن العرب عاطفيون يحبون من أول نظرة . وقد بلغ الأمر فى استغلال ألف ليلة إلى حد أن أضاف بعض المترجمين إليها ماليس فيها من أقذع عبارات الوصف الجنسى كما فعل المستشرق الإنجليزى الدكتور مارد روس فى أوائل القرن فأخفى معالم الأصل وحول ألف ليلة إلى كتاب لإثارة الشهوة والغريزة الجنسية .

(الأغانى)

وكذلك كان كتاب الأغانى فى مقدمة الكتب التى حرص التغريب على أن تكون مرجعاً أساسياً لدراسة الأدب العربى والحياة العربية فى القرنين الأول والثانى وعليه اعتمد كثير من الكتاب الذين قالوا : إن العصر الثانى الإسلامى — كذبا — كان عصر شك ومجون . وقد حاول بعض دارسى الأغانى أن يعتبروه « مصدراً لتصوير حياة »وجرت محاولات كثيرة الكشف عن جوانب الشعوبية والتحامل والخطأ الوارد فيه وأنه لا يصلح كمرجع تاريخى لتصوير الأمة العربية ولا مرجعاً أدبياً لأنه اقتصر على لون واحد من الأدب فى عصره هو أدب الأغانى بينما حفل الأدب العربى فى عصره بفنون عديدة مختلفة .

وأبو الفرج الأصفهانى مؤلف الأغانى ليس مؤرخاً وقد وصفه العلامة اليوسفى بأنه كان « أكذب الناس لأنه كان يدخل سوق الوراقين وهى عامرة بالدكاكين وهى مملوءة بالكتب فيشترى منها شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها » كما ذكر عنه صاحب معجم الأدباء ج ٥ ص ١٥٣ قوله « كان شأنه فى معاقرة الخمر ووصف النساء شأن الشعراء والأدباء الذين كانوا فى عصره أو قبله حيث يقدم دكاكين الخمارين وجلهم من اليهود أو الصابئة والمجوس ، وقد عرف — أى مؤلف ألف ليلة — بمعاقرته للخمر ، ولم تكن له عناية بنظافة جسمه وثيابه ، كما قال عنه الصابى فى كتابه الذى ألفه فى أخبار الوزير المهلبى وكان أبو الفرج الأصفهانى وسخا قذراً لم يغسل له ثوباً منذ فصله إلى أن قطعه وكان الناس يحذرون لسانه ويتقون هجاءه ويصدون عن مجالسته ومعاشرته على كل صعب فى أمره لأنه كان وسخا فى نفسه ثم فى ثوبه وفعله ، وحكى القاضى أبو على المحسن التنوخى فى كتابه « مشوار المحاضرة » إن أبا الفرج كان أكولا نهما وكان إذا ثقل الطعام على معدته تناول خمسة دراهم فلفلا مدقوقاً ولا يؤذيه ولا تدمع له عين وبعد ساعة أو ساعتين يفصد » .

أمثل هذا يصلح كتابه مرجعاً ، إننا ننظر إلى الكاتب قبل أن ننظر إلى الكتاب . فإذا كان أميناً شريفاً نزيهاً قبلنا منه وإلا رفضناه وذلك وفق منهج « الجرح والتعديل » التي رسمته ثقافتنا العربية الإسلامية وجاء المنهج العلمي الحديث على قاعدتها . وقد أشار الدكتور زكي مبارك في كتابه « النثر الفني » إلى مكانة الأصفهاني وكتابه الأغاني يقول : « وشهرة الأصفهاني وكتابه مستفيضة ، وإنما أريد أن أنص على ناحيتين في الأصفهاني وكتابه لم أجد من تنبه لها من الباحثين ، ولهاتين الناحيتين أهمية عظيمة في فهم الحياة الأدبية وسيكون لهما أثر عظيم في دعوة المؤلفين إلى الاحتياط حين يرجعون إلى كتاب الأغاني يلتمسون الشواهد في الأدب والتاريخ . الناحية الأولى خاصة بالأصفهاني ، تلك الناحية هي خلقه الشخصي فقد كان الأصفهاني مسرفاً أشد الإسراف في اللذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب في تكوينه الخلقي أثر ظاهر في كتابه ، فإن كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون ، وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية ويهمل الجوانب الجدية إهمالا ظاهراً يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجد والرزانة ، والتجمل والاعتدال ، وهذه الناحية من الأصفهاني أفسدت كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه ، ونظرة فيما كتبه المرحوم جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ، وما كتبه مؤلف حديث الأربعاء - يقصد الدكتور طه حسين - تكفي للإقناع بأن الاعتماد على كتاب الأغاني جر هذين الباحثين إلى الحط من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية وحملها على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر فسق وشك ومجون. ولا شك أن إكثار الأصفهاني من تتبع سقطات الشعراء وتلمس هفوات الكتاب جعل في كتابه جواً مشبعاً بأوزار الإثم والغواية وأذاع في الناس فكرة خاطئة هي اقتران العبقرية بالنزق والطيش .

أما الناحية الثانية فهي خاصة بكتاب الأغاني : تلك هي نظم ذلك الكتاب . ففي مقدمته عبارات صريحة في الدلالة على أن مؤلفه قصر اهتمامه أو كاد على إمتاع النفوس والقلوب والأذواق ، فهو كتاب أدب لا كتاب تاريخ ، وأريد بذلك أن المؤلف أراد أن يقدم لأهل عصره أكبر مجموعة تغذى بها الأندية ومجامع السمر ومواطن اللهو ، وأنه ليحدثنا في المقدمة بأنه أتى في كل فصل من كتابه بفقرة إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلا بها من فائدة إلى مثلها ، ومتصرفاً فيها بين جد وهزل ، وأخبرنا بعد ذلك أنه اهتم بالغناء الذي عرف له قصة تستفاد وحديثاً يستحسن ، وعلل لذلك بقوله : إذ ليس لكل الأغاني خبر نعرفه . وهذه كلها شهادات باحثين منصفين في تقدير كتاب الأغاني ووزنه بميزان الإنصاف ، وهذه صورة مؤلفه وحقيقة جوهره ، ومن هنا كان علينا أن نذكر إخواننا الباحثين دائماً أن يتنبهوا إلى هذه الحقيقة ، حقيقة أن كتاب الأغاني ليس له قيمة تاريخية وأنه لا يصلح مرجعاً علمياً ، فقد كان مؤلفه منحرفاً وكان اتجاه الأغاني واضحاً أنه لا يرسم صورة المجتمع كله ، وإنما يرسم ذلك الجانب القليل المضطرب منه . وهناك رأي بأن الأصفهاني له يد في تكوين هذه الأخبار التي ساقها لشخصيات كتابه وأنه وضعها في قوالب يغلب عليها اللهو والمجون « فهو لم يخلقها كلها ولكنه نفخ فيها من روحه » .

— ٢ —

حول كتابي ألف ليلة والأغاني وقصائد رباعيات الخيام ردد المبشرون والمستشرقون كثيراً من

الشبهات ، وجرت كثير من المحاولات لفرض هذه الآثار كأنها هى مراجع أساسية يستمد منها مفهوم الحياة الاجتماعية والفكرية للمسلمين . وقد ثبت أن بعض المراسلين الأجانب فى بيروت هم الذين أعادوا طبع كتاب « ألف ليلة » عام ١٨٨٨ وحفلوا بنشره وتوالى طبعاته عن طريق دور النشر الموجهة من الاستعمار والنفوذ الغربى . ثم جرت أبحاث متعددة فى محاولة للقول بأن القصص الذى يضمه « ألف ليلة » يصور حياة العرب أو المسلمين بصفة عامة بينما تكشف أقل مراجعة لمصادر « ألف ليلة » عن أن قصصها مأخوذة من المراجع الفارسية قبل الإسلام ، وأنها لا تمثل بحال « مفاهيم الفكر العربى الاسلامى » وأنها فى الأغلب مجموعة أساطير هندية بدأت بحكايات السباع الضوارى والمرجع لها « هزارافسانه » ومعناه « ألف رواية » . وقيل أن الجهشارى قد ترجمها إلى العربية ، وقد حكى المؤرخ الكبير المسعودى المتوفى ٩٥٦ م القرن الثالث الهجرى فى كتابه « مروج الذهب » عن وجود كتاب قديم بالفارسية أو بالبهلوية يحكى عن ملك وعن بنت وزيره « شهر زاد » و « خادمتها دين زاد » ، وكذلك أشار النديم مؤلف الفهرست المتوفى ١٩٠٥ م إلى كتاب ألف ليلة مجملا وقال إنه كتاب الحماقة والسيئات وأشار إليه المؤرخ القرطبى ، وقد كانت كل إشارات الكتاب والمؤرخين العرب والمسلمين إليه إشارات مقبحة على أنه مصدر ساقط فى أنظار البعثات وعلماء العرب على حد عبارة الدكتور سنينى كاجترجى (مجلة ثقافة الهند - يناير ١٩٦٢) . ومعنى هذا أن كتاب « ألف ليلة » أصلا كان سابقاً للإسلام ، وأن مصدره أساطير هندية وفارسية ، وقد ظل العرب يتناقلونه بعد ترجمته كوسيلة من وسائل التسلية ، ويضيفون إليه حكايات جديدة ، كما أضيفت إليه صور من العهود المختلفة وآخرها عهد دولة المماليك حيث أضيفت مسامرات أهل بغداد والقاهرة ، فهو مجموعة أساطير فارسية وتركية وهندية قديمة ، ومن هنا يمكن تقدير الموقف حين يراد أن يكون مرجعاً من مراجع دارسة حياة المجتمع الاسلامى ، بل المرجع الوحيد الذى اعتمد عليه كثير من المستشرقين والباحثين ودلوا عليه تلاميذهم فى محاولة لرسم صورة ظالمة غير حقيقية . وقد أشار الدكتور (سنينى كاجترجى) إلى أن الحكايات الأصلية الواردة فى كتاب « ألف ليلة » هى التى تكون فى منزلتها أساسية ، هذه الحكايات كانت مستعارة من الهند بواسطة الفرس » . وعندنا أنه مهما تكن صورة الحياة التى ترسمها « ألف ليلة » فهى ليست الصورة التى يرسمها المجتمع الاسلامى ، والمرأة التى تصورها « ألف ليلة » ليست قطعاً المرأة العربية أو المسلمة ، فقد غير الاسلام نظرة المرأة إلى الحياة ونظرة الرجل إلى المرأة ، فلم تكن قط فى مفهوم الاسلام أداة جنس أو مصدر غايات حسية إلا فى مفاهيم المجتمع الجاهلى أو الوثنى ، وحتى بعد أن اضطربت الحياة السياسية فى العالم الاسلامى ، فقد ظل هناك فارق واضح وحاجز كبير بين مايسمونه الغانية و « بنت الأصول » . والواقع أن الأدب العربى يحوى عدداً من الآثار من مثل كتاب « ألف ليلة » كالأغانى وكتب المحاضرات والأسمار وهذه كلها لم تكتب أساساً بروح البحث العلمى أو التاريخى ، وإنما كانت جمعاً لأسمار وقصص الظرفاء والندماء وكان جامعوها وكاتبوها ضعاف المكانة بحيث لا يستطيع أحد أن يضعهم فى صف العلماء والباحثين ذوى القدر والاحترام ، وإنما يقوم البحث فى مجال الفكر الإسلامى أساساً على الثقة فى الكاتب من حيث شخصيته وخلقه وعقائده ، فإذا عرف

منه سوءاً فى شخصيته أو خلقه أو تصرفاته كان ذلك عاملا من عوامل عدم التقدير له وبالتالى لا تكون آثاره موضع الثقة الكاملة . ولذلك فإن (الأصفهانى) مؤلف (الأغانى) وغيره كثيرون قد عرفوا بإغراقهم فى حياة اللهو والعبث وبذلك ضنت نفوس الباحثين عن الثقة فى كتاباتهم . ويشهد ابن الجوزى فى ترجمته لأبى الفرج الأصفهانى بأنه كان من « بذاءة اللسان » بحيث « جعلت الناس يتحاشونه ويخشون لسانه ، وإنهم ليذكرون لنا أنه لم يسلم أحد من هجائه » . ويقول مؤرخه « إنه كان من القذارة بمكان . دنس فى نفسه وفى ثيابه ، ولعله من هنا كان بذىء اللسان ، لا يتورع عن دنس ولا يتعفف عن مكروه ولعل هذه الصفات لازمته منذ الصغر » . ويقول صديقه التنوخى « إذا ثقل الطعام فى معدته — وكان أكولا نهماً — يتناول خمسة دراهم فلفلا مدقوقاً فلا تؤذيه ولا تدمعه ، وأراه يأكل حمصة واحدة أو أو يصبغ بمرقة قدر فيها حمص فيسرهج بدنه كله من ذلك ، وبعد ساعة أو ساعتين يفصد وربما فصد لذلك دفعتين ، وأسأله عن سبب ذلك فلا يكون عنده علم منه » . وهكذا يسقط أمثال « الأصفهانى » أمام ميزان الجرح والتعديل ، ويسقط كتابه وتسقط كل هذه الكتب التى لم يرد بها وجه العلم الخالص ، وإنما أريد بها تقديم قصص مثيرة يتلهى بها الناس ويزجون بها فراغهم . ومثل هذه الكتب لا يمكن أن تكون مصدراً تاريخياً لأنها لا تستوعب صورة كاملة للمجتمع ، بل لأنها لم تستوعب صورة كاملة للشخصيات التى تناولتها . يقول الدكتور محمد أحمد خلف فى كتابه عن الأصفهانى وكتابه الأغانى :

« إن كل هؤلاء المغنين والشعراء الذين ترجم لهم فى كتاب الأغانى وصور لنا هذه الألوان من حياتهم لم يكونوا من اللاهين العابثين ، وإنما أبو الفرج هو الذى يتتبع هذه الجوانب فى حياتهم ويحرص عليها إن أبا الفرج قصد إلى الهزل بشهادة مؤرخه لعوامل نفسية دفينة وأنه لم يقصد إليه لأنه الحقيقة التاريخية . قصد إلى الرواية ولم يقصد إلى التاريخ ، واختار من المرويات ما جعل الخبر ألذ وأمتع والقصة أشهى وأحلى ، ليكون السمر اللذيذ ولتكون الندوة المرحة » . ومعنى هذا أن كتاب الاغانى إنما قصد إلى : « إدخال السرور — مادة السمر — للتنفيس وإزجاء الوقت » وليس للحقيقة والتاريخ مطلقاً . وقد نبه كثير من مؤرخى أبى الفرج إلى أهوائه الشخصية . ويصف الدكتور محمد أحمد خلف الله (الاصفهانى) خير وصف بأنه « حديد ، سريع الغضب بذىء اللسان ، يغضب لأتفه الأشياء ، ويضيق من أيسر الامور ، ويطلق لسانه فيمن يستثير فيه الغضب حتى ولو كان من أوفى الأوفياء وأخلص الاصدقاء » . وأعتقد أن هذا شأنه وهو شأن كتابه فإنه لا يصلح أساساً كمصدر ومرجع للدراسة الجادة ، وأعتقد أنه قد تأكد فى اعتبار الباحثين منذ وقت بعيد أن كتب الادب التى يقصد بها عادة إلى الفكاهة والسمر وكتب المحاضرات هى مما لا يجرؤ باحث أو عالم على أن يعتبرها ميزاناً صحيحاً يزن به رجال التاريخ أو تؤخذ منه تراجم العظماء ، أو ترسم به الصورة الاجتماعية للأمم ؛ وإذا كان مفهوم التاريخ فى أحدث مذاهبه هو اعتبار الوثائق مشكوكا فيها وباطلة أساساً حتى تثبت صحتها ، فما القول فى هذه الصور الأدبية المروية بغير توثيق أكيد ، ومن خلال أسماء كلها موضع للتجريح والاتهام فى سلامة خلقها أو إيمانها بالتحقيق العلمى ، أو اتصالها بالشعوبيين أو الباطنية أو الزنادقة .

وإذا كان كتاب الأغانى يقصر حياة الترف والمجون على طبقة معينة أو مجموعات من الناس فإنه بلا شك أقل خطراً من كتاب « ألف ليلة » الذى يصور المجتمع كله على هذا النحو من التحلل والانحراف

وقد كان لألف ليلة أثر جد مرير فى رسم صورة مشوهه عن المجتمع العربى الإسلامى ، وقد أضاف المترجمون الغربيون إلى بشاعة الصورة التى يحملها الكتاب إضافات زادته بشاعة فقد أشار المستشرق الفرنسى « غالان » الذى ترجم ألف ليلة لاول مرة عام ١٩٠٧ م بأنه « فرنج » الكتاب ليلائم ذوق قرائه ، وأنه ركز صوره على رفاهية الشرق وترفه ، وأنه رسم صورة الشرق الحيوانى : وكان من نتيجة ذلك أن كتب كثير من الباحثين وفى مقدمتهم المستشرق « لين » كتاباً عن المجتمع الإسلامى اعتماداً على « ألف ليلة » . وأشار ريتشارد بيرتون الإنجليزى فى مقدمة ترجمته إلى ، أنها ترجمة تهدف إلى أن يتعرف أهل موطنه بما فيه الكفاية على طباع المسلمين وعاداتهم وأخلاقهم ليكون لديهم الحنكة الضرورية ليحكموا المسلمين الواقعين ضمن امبراطوريتهم » . أما رباعيات الخيام فقد أغنانا السيد مبشر الدين الطرازى بكتابه « كشف اللثام عن رباعيات الخيام » أن نفيض فى موضوع دعوى نسبة هذه الاشعار التى تقسم بالانحلال إلى عالم مسلم ثابت كان متخصصاً فى الفلك وله فى تاريخ العلوم الاسلامية مكان جلى ، ولكن هكذا أراد الشاعر الانجليزى « فيتزجرالد » حين نسب إليه — ظلما وزوراً — هذه الافكار المجهولة الأصل . وجملة القول أن هذه الأشعار إنما أريد بها أن ترسم صورة مغايرة تماماً لمفهوم الاسلام للنفس الانسانية ، وقد كان للاستعمار دخل كبير فى التركيز على هذه الاشعار التى جرى ذكرها على الالسنة فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى وخاصة فى فارس والهند مستهدفة نشر هذه السموم بين الشباب محرضه إياهم على تناول الخمور وملازمة السرور والغناء ومجانبة السعى والعمل وحثهم على الاباحية والزندقة والحرية المطلقة ، وكان ذلك ضمن مخطط النفوذ الاستعمارى لدفع الشرق إلى التراخى فى مقاومة الغزو والاستسلام له . وقد أشار السيد الطرازى فى بحثه القيم ، كما أشارت مصادر كثيرة إلى أنه ليس هناك من مصادر أكيدة تؤيد نسبة هذا الشعر إلى عمر الخيام وأنه لاوجود لمصدره الأصلى وإنما أسند إلى عالم عظيم شرقى وحكيم فلكى رائع ، ومنجم لامع فى نفس الوقت الذى أغمضوا فيه أبصارهم عما ثبت عنه — عن عمر الخيام — فى مقولاته وآثاره التى تدل على ديانته وتمسكه بتعاليم الشريعة الاسلامية وحرصه على تطبيقها فى كل شئون الحياة وهم لم يكرموا عمر الخيام لمكانته فى العلوم الرياضية وعلوم الفلك وإنما من أجل الأهداف السياسية فى إذاعة قصائد التحلل والمجون المنسوبة إليه وأنهم لم يفعلوا ذلك لابن سينا أو الفردوسى أو الغزالى أو الزمخشرى من أعلام الفكر الاسلامى ، لقد كان تعظيم الغربيين موجهاً فى الواقع إلى تلك الرباعيات الخليعة التى مهدت لهم سبيلا النيل من الاسلام وتعاليمه ودعوة أهل الشرق إلى التحلل الخلقى والحرية المطلقة والضعف والهوان . وقد أشار مبشر الطرازى — وعشرات غيره من الباحثين — إلى أنه لم يثبت أصلا وجود نص حقيقى كتبه عمر الخيام وأن النسخة التى نسبوها إليه كتبت بعد وفاة الخيام بأكثر من ثلاثمائة وخمسون عاماً مما يؤكد أن الرباعيات موضوعة لاأصل لها ، استغلها دعاة التبشير والاستعمار وساروا بها إلى كل مكان مستغلين إسماعيليا وباحثاً مسلما كبيراً فى سبيل تحقيق خطة من خطط التغريب والغزو الثقافى .

الفصل السابع

التبشير وتاريخ الاسلام

وجه التبشير إلى التاريخ العربي الإسلامي حملات عنيفة متنوعة استمد شبهاتها من نظرات بعض المستشرقين وحرص دعاة التغريب والشعوبية على إذاعة هذه الشبهات وترديدها من بعد لتشويه التاريخ الوطني والإسلامي جميعاً . وفى هذه الشبهات حول حياة الرسول وحياة الخلفاء والأبطال والفاتحين وعديد من المواقع والمواقف المختلفة مستهدفة الغض من قدر تاريخ الإسلام والعرب ولعل الشبهة الكبرى التى توجه إلى تاريخ العرب والمسلمين هى أنه لم يقم على أساس علمى ، وهى فرية باطلة ، فقد عمد المؤرخون العرب إلى منهج علمى دقيق أشبه بطريقة المحدثين فى التثبت والدقة والتحرى . وحاولوا أن يستفيدوا من قواعد علم الحديث فى الجرح والتعديل ونقد النص ، ويفاخر الدكتور أسد رستم فى كتابه مصطلح التاريخ ، بسبق المحدثين إلى هذه القواعد الجليلة التى تفوق دقة وضبطاً ما وصل إليه أساطين علم التاريخ ونقدته فى أوربا وأمريكا وذلك وفق طريقة جمع الأصول ونقدها وتنظيمها ، وتفسير النصوص والتعليل والإيضاح والعرض . وقد أشار العلامة « الينو » إلى مدى دقة العرب فى كتابة التاريخ ، وأنهم اتخذوا لذلك طرقاً بالغة الحيطة (أولاها) ذكر عدد السنين سنة فسنة ورواية ما جرى من الحوادث فى كل منها مهما كانت البلاد التى وقعت فيها كما فعل الطبرى وابن الأثير وأبو الفداء . وذلك بخلاف القدماء من اليونان الذين جعلوا غاية التاريخ فى حكاية الحوادث (ثانياً) العناية برواية الحوادث باعتبار سياقها على قدر الاستطاعة كما فعل المسعودى فى مروج الذهب وابن خلدون وابن القفطى . وممن حاول إتهام المؤرخين العرب بأن كتابتهم التاريخ شيدت على أسس الطريقة الفارسية ، الكاتب « فيليب حتى » صاحب كتاب العرب ، غير أن المنصفين من الباحثين أمثال الدكتور عبد العزيز الدورى والأستاذ محمد عبد الغنى حسن أكدوا فى مواجهة هذه الشبهة ، أن علم التاريخ كان عربى النشأة والأصول وأن خطوطه الأساسية تحددت واستكملت قبل الترجمة من الفارسية ولذا فإن قول « فيليب حتى » : بأن المثال الذى احتذاه المؤلفون فارسى فى الأصل على طريقة (خداينامه) هذا القول مردود الدكتور الدورى : هو مردود لأننا نعرف أن كتابة التاريخ على أساس السير ، وعلى أساس الأسر الحاكمة عرفها العرب قبل ترجمة الخداينامة . وقد بدأ علم التاريخ عند العرب من أصول متصلة بدراسة الحديث (المغازى) من جهة ومتابعة الاهتمام الموروث من الجاهلية بالأيام كما ظهر لدى الأخباريين وعندنا أن اضطراب فهم الغربيين للتاريخ الإسلامى — فيما غير الهوى والتعصب — يرجع إلى جوهر الخلاف الأساسى بينه وبين التاريخ الغربى .

والحق أن فهم المؤرخين الغربيين للتاريخ الإسلامى يحتاج إلى نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرتهم إلى التاريخ الغربى الذى يمارسونه ، وأن المقاييس التى يتبعونها فى فهم تاريخهم قد تختلف اختلافاً واضحاً

فى التطبيق على التاريخ الإسلامى العربى وتأتى بنتائج قاصرة أو مختلفة تماماً ، وأنه لابد فى دراسة التاريخ العربى الإسلامى من مفاهيم مختلفة ، باعتبار أن التاريخ الإسلامى صورة من النفسية العربية الإسلامية التى صاغته . وقد تنبه إلى هذا المعنى كثيرون ، من بينهم مستر « هاملتون جب » حين يقول: إن التاريخ الإسلامى سار فى وجهة معاكسه للتاريخ الأوربى ، على نحو يثير الاستغراب ، كلاهما قام على انقاض الامبراطورية الرومانية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن بينهما فرقاً أصيلا ، فبينما خرجت أوربا على نحو متدرج لاشعورى ، وبعد عدة قرون من الفوضى الناجمة من غزوات البرابرة ، أنبثق الإسلام أنبثاقاً مفاجئاً فى بلاد العرب وأقام بسرعة تكاد تعز على التصديق فى أقل من قرن من الزمان ، امبراطورية جديدة فى غربى آسيا وشواطىء البحر المتوسط .

وواجه هذا المعنى الأستاذ « تريتون » فى كتابه « الإسلام : عقائده وعباداته » حين قال : إذا صح فى المعقول أن التفسير المادى للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعاً حين يرغب أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فرأوا أنها تقع فى هذا الشىء الجديد وهو الاسلام وبما أثير من شبهات حول مفهوم التاريخ العربى الاسلامى ، إنكار أن العرب والمسلمين قد بلغوا مستوى اليونان وبالتالى مستوى الأوربيين المحدثين فى إدراك فكرة الانسانية ، والحق أن فكرة الانسانية ليست واضحة فى أمة ولاحضارة ولادين وضوحها فى الفكر العربى الاسلامى ، وقد تنبه إلى هذا المعنى « ولفرد كانتون سميث » الذى قال إن المسلم يحس إحساساً جاداً بالتاريخ ، أنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ويؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعاً ، يسعى البشر على الأرض بمقتضاه ويحاولون أيضاً ان يصوغوا واقع الأرض فى إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يعيش فى كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شعور فردى أو جماعى بمقدار قربة أو بعده من ذلك النظام الذى وضعه الله، والذى ينبغى تحقيقه فى واقع الأرض ، لأنه قابل للتحقيق ، والتاريخ فى نظراً لمسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فردياً كان أو اجتماعياً ذو أهمية بالغة ، وأن الحاضر هو نتيجة الماضى والمستقبل متوقف على الحاضرة » . ويرى الدكتور (اليان وايد غراى) فى كتابه «تفسيرات التاريخ» أن نظرة المسلمين نظرة بناءه، فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحى «القرآن»فإن إرادتها حينئذاك تتطابق و إرادة الله ولايوجد من يعصى أوامره ويعم الرخاء بين البشر ومن صفات المؤمن أنه صابر،ويعلم أنه لامرد لارادة الله،وقد قدموا أفضل فيلسوف للتاريخ مثلا بالفيلسوف ابن خلدون فكان أول فيلسوف حلل درجات تأثير المحيط والدوافع النفسية التى تعمر عملها فى الحياة الانسانية وبسبب نشوء الحضارات وانقراضها » . ومن الأمور التى يضطرب فيها رأى المؤرخين الغربيين العلاقة بين التاريخ والاسطورة يقول العلامة محمد فريد وجدى : « كان القائمون بتمحيص التاريخ فى الثلاثة القرون الاخيرة من الملحدين الذين لايؤمنون بخالق الكون ولا بالنبوات ولا بالوحى ، فإنهم نظروا إلى التواريخ المقدمة باسم « الميثولوجيا » أى علم الاساطير ، وذهبوا فى تفسير هذه الميثولوجيا

كل مذهب غير مفرقين بين مايصح أن تنطبق عليه هذه الكلمة من العقائد الوثنية والتقاليد الخرافية وبين الحوادث النبوية القيمة . وجاءت الأجيال الحديثه فرأت بنفسها من أخبار الأمم حيال التاريخ والميثولوجيا ودربت على أن تعتبر الأول خلاصة محصة من حوادث الشعوب الماضية وأن تعد الثانية حكايات خيالية تدلت من عقول ساذجة اخترعها رجال مدلسون فألقوا أنفسهم متحللين من كل ما حمل الأقدمون أنفسهم من تكاليف عقيدية . وتقاليد وهمية معتبرين كل مايوجد فى تاريخ الأديان وكتبها المقدسة من أخبار وحوادث وانقلابات لايتفق والتاريخ المذور ، خرافات لاأصل لها فى الواقع . فكان إنكار المعجزات التى أيدت المرسلين فى دعواتهم الدينية باعتبار أنها تناقض العلم وتخالف قوانين الطبيعة وأن تعتبر كل هذه الأمور من الخرافات التى لاأساس لها فى التاريخ ، وقد نوه الكتاب الكريم (القرآن) بأمم ماضية ومرسلين وقص من أخبارها وأخبارهم ما فيه موعظة للتالين والسامعين ، فلاحظ بعض المستشرقين وكلهم من غلاة الماديين أن من هذه القصص مالم يرد فى التاريخ وبعضه يعتبر من الخرافات وبالجملة فقد بحثوا التاريخ على ضوء المبادىء المادية البحتة التى لاترى وجود الخالق والروح » .

ومن مجال التاريخ العربى الإسلامى شبهات متعددة . أهمها مرحلة الضعف والتخلف وأسبابها وعواملها وهى من أبرز قضايا التاريخ العربى . وقد اقتضت هذه القضية بحوثاً مسهبة ، وحاول المستشرقون وكتاب الغرب من غير المنصفين أن يعزو هذا التخلف إلى الإسلام والفكر العربى الإسلامى .

وقامت الشبهة فى هذا على وصف الإسلام بما وصفت به المسيحية الغربية التى كانت عائقاً للتمدن والنهضة فى الغرب فى عهد النهضة « الرينيسانس » ومن هنا نقلت نفس عبارات الاتهام إلى « الاسلام » بوصفه ديناً وعلى أساس أنه هو مصدر التخلف الذى أصاب المسلمين فى القرون الثلاثة السابقة لهذا القرن والواقع أن الإسلام بوصفه ديناً ومدنية لم يكن عاملا من عوامل الضعف والتخلف ، بل كان الإنفصال عن مفاهيمه وقيمه ، والجمود من آفاقه الواسعة الفسيحة هو فى الأعم مصدر ماأصاب العالم الإسلامى من الاضطرابات وقد ذهب بعض الغربيين إلى وصف هذه المرحلة بأسماء كثيرة ، كان أقساها وأشدها إمعاناً فى التعصب ، تسميتها باسم « مرحلة الإنحطاط » ، والواقع أن هذا الوصف لتلك المرحلة ليس منصفاً ، وأن كل الأسماء التى يمكن أن تطلق : كالتأخر والانحدار والتخلف والضعف . ربما كانت كافية لوصف هذه المرحلة ، دون أن توصف بالانحطاط الذى يتمثل فى حالة سقوط النهاية ، والواقع أن الجماعة الإسلامية بالرغم من أزمة الضعف الشديدة التى مرت بها فإنها لم تسقط . وكانت أزمتها قد وقعت فى ظل مؤامرة كبرى استطاع النفوذ الأجنبى أن يحيكها أكثر من ثلاثة قرون ، وإذا كانت الرابطة السياسية الإسلامية ممثلة فى السلطة العثمانية قد سقطت فإن الفكر العربى الاسلامى لم يسقط وظل حياً قائماً متفاعلا مع (عالم الاسلام) الذى لم ينفصل عن جذوره ، ومقوماته ، هذا بالاضافة إلى مابرز فى فترة الضعف هذه من مواجهة التحدى ورد الفعل المتمثل فى القدرة على حماية التراث والفكر والمخطوطات واللغة والعلوم عن ثلاث طرق هامة (أولها) المعاهد والجامعات الاسلامية الكبرى التى ظلت حية قائمة تؤدى دورها بالرغم مما أصابها من الجمود كالأزهر والزيتونة والقرويين ومعاهد النجف الأشراف والشام والمسجد

الأقصى ومكة والمدينة وزوايا صحراء ليبيا وخلاوى السودان (ثانياً) هذه الحركة الضخمة لتأليف الموسوعات وضم مختلف فنون الفكر العربى الاسلامى إليها جمعاً من نحو وأدب ولغة وفقه وتشريع وفلسفة ونصوص . (ثالثاً) الحركة الصوفية ممثلة فى تجمعاتها الواسعة وتحركاتها الضخمة فى إفريقيا ، وهجرات العرب فى جنوب شرق آسيا وما كان لهاتين الحركتين من أثر فى نشر الاسلام والثقافة العربية إلى أبعد مدى ، وفى ظل هذه الفترة التى وصفها بعض كتاب الغرب بفترة الانحطاط ظلماً .

وقد عرض لقضية التأخير والتخلف كثير من الباحثين وأعلام الفكر العربى الاسلامى المعاصرون فى مقدمتهم الامير شكيب أرسلان فقال إن أهم أسباب تأخر المسلمين هو العلم الناقص الذى هو أشد خطراً من الجهل ، وفساد الاخلاق بفقد الفضائل التى حث عليها القرآن ، وبنوع خاص فساد أخلاق أمراء المسلمين ، والعلماء الذين اتخذوا العلم مهنة العيش ، وجعلوا الدين مصيدة للدنيا فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم . ومن أعظم عوامل تقهقر المسلمين : الجبن والهلع بعد أن كانوا أشهر الامم فى الشجاعة ، واحتقار الموت .

وقد انضم إلى الجبن والهلع ، اللذين أصابا المسلمين ، اليأس والقنوط من رحمة الله . وفقدهم كل ثقة بأنفسهم حتى أصبح المسلمون فى الاعصر الاخيرة يعتقدون أنه ما من صراع بين المسلم والاوربى، إلا سينتهى بصرع المسلم ولو طال كفاحه ، وقر ذلك فى نفوسهم ، لاسيما هذه الطبقة التى تزعم أنها الطبقة المفكرة العاقلة المواجهة بالحقائق الصادقة عن الخيالات بزعمها ، ولم تقتصر هذه الفئة على القول بأن حالة المسلمين الحاضرة هى مترددية متدنية بل زعمت أن التعب فى مجاراة المسلمين للافرنج من علم أو صناعة أو كسب أو تجارة أو حرب أو سلم أو أى منحى من مناحى العمران ، وهو ضرب من المحال ، وكأن المسلمين من طينة والافرنج من طينة أخرى ، ونحن نريد أن نقول إن كل من صار على الدرب وصل . وأن المسلمين إذا تعلموا العلوم العصرية استطاعوا أن يعملوا الاعمال العمرانية التى يقوم بها الافرنج وأنه ليس هناك فرق فى القابلية البشرية ، ولكن على شرط أن ينفض المسلمون عن أنفسهم غبار الخمول ويلغوا هذه القاعدة التى قد كانت أسباب شقائهم زمناً طويلا وهى أن كل عمل عمرانى فى الشرق لابد أن يستعار له شركة أوربية تقوم به وإلا فلا يستطاع عمله . ويرى الامام الشيخ محمد عبده أن التأخر الذى أصاب الخلافة زمن العباسيين كان نتيجة لتسرب العناصر الأجنبية إلى جهاز الامبراطورية الاسلامية وأن تأخر العالم الاسلامى ووهن السلطة السياسية الاسلامية ليسا ناشئين عن فساد الاسلام ذاته بل عن تقاعس المسلمين وإغفالهم لتعاليم دينهم . وقد دافع كثير من المنصفين عن إتهام الغرب لما رمى به الاسلام والفكر العربى الاسلامى من أنه مصدر التأخر . يقول الدكتور نبيه أمين فارس « إذا حسبنا أن الاسلام هو سبب تأخر الاقطار الاسلامية فبماذا نعلل تأخر أقطار نصرانية فى البلقان وفى أمريكا الوسطى والجنوبية وفى أوربا نفسها . وقال : إن ماقدمه المسلمون فى القرون الوسطى من مآثر فى شتى ميادين العلم والفكر يثبت أنه لم يكن فى الاسلام — آنئذ — وليس فيه اليوم شىء أساسى معاد للتقدم لا — بل إن الأدلة تثبت عكس ذلك - اى أن الاسلام مؤات للتقدم - هى أكثر عدداً وإقناعاً .

والدنا هنا فى موقف الدفاع عن الإسلام أو النيل منه ، لقد حل المسلمون تحت لواء الإسلام وفى نطاق نظمه أعباء البشرية العلمية والفكرية فى ميادين مختلفة . وطوال مدة غير يسيرة ، ولم تقم أمامهم أى صعوبة ، إلا عندما ابتدأوا تدريجياً يشعرون بالقناعة بما صنعت أيديهم . وفى محاولات متعددة لكتابة تاريخ العرب والمسلمين نجد أن المتصدرين لذلك هم من غير المتخصصين ، أو من كتاب اتصلوا بدوائر الاستشراق ومن حاولوا إثارة الشبهات عن طريق كتب المحاضرات وبعض المؤلفات التى كتبت للترف والتسلية وكتب الأدب ، وهى جميعها لم تكتب للبحث العلمى الخاص وفى مقدمتها « الأغانى » ويبدو ذلك فى كتابات فيليب حتى وبروكلمان وولاس أوايرى وغيرهم . وهناك من يمر على مرحلة المدنية الإسلامية خلال ألف سنة دون أن يذكرها بكلمة واحدة ، ويربط الحضارة الغربية الحديثة بالحضارة الرومانية على مسافة ألف عام بينهما . وأخطر ما يتعرض له تاريخ العرب المسلمين : « التفسيرات الخاطئة » سواء فى عجز عن الاستقصاء أو التعصب لوجهة نظر مسبقة . أو الخطأ فى فهم النص . وفى أكثر من موقف حاول كتاب الغرب ومن تابعهم من كتاب التغريب تصوير التاريخ العربى الإسلامى بصورة الانتقاص ، وفى معركة بلاط الشهداء يتردد قول هؤلاء الكتاب عما يدعونه من المكسب الذى حققه الغرب بإيقاف تقدم المسلمين إلى غرب أوربا بينما يرى المؤرخون المنصفون الغربيون عكس ذلك ، فهنرى دى شامبيون يقول : لولا انتصار جيش كارل مارتل الهمجى على تقدم العرب فى فرنسا لما وقعت فرنسا فى ظلمات القرون الوسطى ولما أصيبت بفظائعها وكابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الدينى والمذهبى ، ولولا ذلك الانتصار البربرى على العرب لنجت أسبانيا من وصمة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون . وعبر عن هذا المعنى : الكاتب الفرنسى كلودفارير ، وكذلك عرض له العلامة جيمس بريستد ، والمؤرخ مارك سمنوف .

من مجموع نصوص ما أورده هؤلاء المؤرخون المنصفون يكاد ينعقد الإجماع على أن انتصار كارل مارتل على تقدم الإســـلام فى قلب فرنسا هو الذى أخر سير المدنية . وأنه لم يكن كسباً بأى حال . وفى قضية حريق مكتبة الإسكندرية ، تكاد مصادر التغريب أن تتناول العرب والمسلمين بالاتهام الباطل واستخلاص نتائج غير صحيحة ، وقد تابع كتاب الغرب فى ذلك مؤرخون أمثال : إلياس الأيوبى وطه حسين وجرجى زيدان . بينما أنصف العرب وأيد وجهة نظرهم غربيون كثيرون فى مقدمتهم العلامة جيبون فى كتابه (سقوط الدولة الرومانية) حيث قال : إن الفرية لفقها على المصلين « أبو الفرج العبرى » فى كتابه (مختصر الدول) وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية فتلقفها أهل الغرض من الفرنجة فأذاعوها ، وأشار (جيبون) إلى براءة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص من التآمر على حرق مكتبة الإسكندرية وأثبت أن الذى حرقها هم الرومان عرا كيهم الحربية فى حصارهم لجيوش كليوباترة بقيادة يوليوس قيصر وقال جيبون : لقد تأكدت من أنها حرقت قبل الإسلام بمائتى عام وأن أبو الفرج بن العبرى لفق هذه الفرية بعد الإسلام بنحو ستمائة سنة . ولم يتعرض قبل أبى الفرج مؤرخ واحد لذلك ، حتى أن بطريرك الإسكندرية « افتيكوس » مع توسعه فى الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخزانة ، وكان الرحالة البغدادى قد زار مصر فى عهد الملك الكامل فنقل هذه التهمة وقد طبعت رحلته فى اكسفورد سنة ١٨٠٠ وهى محشوة بالخرافات والأكاذيب

وقد نقض هذه الرواية واشنطون آرفنج وفليبه وغيرهم ، كما نقضها آرنست رينان فى خطاب له فى المجمع العلمى الفرنسى حيث قال : إنه لا يعتقد أن عمر هو الذى أحرق خزانة الإسكندرية لأنها أحرقت قبله بزمن طويل . وكشف هذا المعنى العلامة « اليرسيم » فى خطاب إلى العلامة كرد على وقد شهد للعرب الدكتور غريفيني أستاذ جامعة فلورنسا وأكد أن اتهام العرب بحرق المكتبة فرية زائفة . وما تزال كتب جرجى زيدان (تاريخ التمدن الإسلامى ، وتاريخ الآداب العربية ، وتاريخ العرب قبل الإسلام) تحمل كثيراً من الأخطاء والآراء المنحرفة وقد وجهت إليها نقدات متعددة ، وهى فى مجموعها متابعة لآراء الغربيين وخاصة متعصبة المستشرقين منهم . وما يزال كتاب (تاريخ العرب) لفيليب حتى وتاريخ (الشعوب الإسلامية) لبروكلمان من المراجع التى يعتمد عليها الباحثون وأساتذة الجامعات ، كمصدر سهل ميسور بالرغم مما يحمل كل منهما فى تضاعيفه من أخطاء وشبهات . وقد أشار الدكتور عبد العزيز الدورى إلى أن تسمية (فيليب حتى) لمؤلفه (تاريخ العرب) يشعر بوجهة نظر مؤلفه الخاصة ، فلم يسمه تاريخ الإسلام مثلا وأن التسمية تباين الكتاب فى استعمالها ، وقال إن نظرته إلى دور العرب الحضارى فيها مجال لإعادة النظر ، غير أنه يشعرك بأن العرب هم محور هذا التاريخ وقاعدته ، وقال إن مؤلف تاريخ العرب قد وقع تحت تأثير مصادره فلم تكن له وجهة نظر واضحة ، وأن فى بعض نواحى الكتاب تلخيصاً لآراء حديثة لبعض المستشرقين وأنه لم يحاول وضع مفهوم جـــديد للفتوحات العربية ، وردد مع غيره من غلاة كتاب الغرب الشبهة التى تقول بأن العرب الفاتحين لم يكن لهم « أى ثقافة أو تراث فكرى » وأنهم تملقوا بحضارة الأمم التى غلبوها فنقلوا عنها ، وقال : إن شجرة الفكر (العربى) التى ازهرت فى العصر العباسى تأصلت جذورها فى ثقافات العهود السابقة فى الإغريق والفرس واليونان ، وقال الدكتور الدورى : ونحن نعرف النشاط الفكرى فى العصر الأموى كما بان فى عرف المؤلف نفسه ، وأن هذا النشاط الفكرى ظهر فى مراكز عربية صرفة ، وهى المدينة والكوفة والبصرة ، وأن الخطوط لهـذه الدراسات وضعت فى العصر الأموى . وقال الدكتور الدورى : إن المؤلف (فيليب حتى) يتابع نفس الوجهة حين يتحدث عن الأندلس فهو يرى أن سبب تأخر أسبانيا فى نشوء فقه اللغة العربية والعلوم الدينية وكتابة التاريخ يرجع إلى أنه لم يكن عند الأسبان أهل البلاد من العلم والفن مايفيدون به العرب بخلاف ما كانت عليه الحال فى الشام والعراق حين دخلها الفاتحون ونسى المؤلف أن مركز الدراسات العربية الإسلامية كانت فى المدن العربية الخالصة ، وليس فى المدن القديمة كدمشق والإسكندرية . وناقش الدكتور الدورى ما ذهب إليه (فيليب حتى) من أن كتابة التاريخ عند العرب شيدت على أساس الطريقة الفارسية ، وأكد ما أجمع عليه الباحثون من أن علم التاريخ عند العرب عربى النشأة والأصول . وأشار الدورى إلى عدد من الأخطاء التى وقع فيها فيليب حتى ، ومنها تفسيره لانتشار الإسلام بأسباب مادية ، وقال إنه قد فاته أن انتشار الإسلام فى أدوار ضعفه السياسى كان أوسع من انتشاره قبل ذلك . ومن أخطائه قبوله لأسطورة العباسة لتفسير نكبة البرامكة دون تمحيص . ومن وجوه تحامل الكتاب الغربيين على تاريخ الإسلام محاولة تصوير فترة ما قبل الإسـلام من حياة العرب بصورة براقة زاهية . وفى هذا محاولة واضحة للانتقاص من أثر الإسلام وفاعليته الواضحة فى خلق الوحدة الروحية والفكرية والاجتماعية فى حياة العرب .

ومن ذلك ما يذهب إليه كتاب الغرب بوصف الرسول محمد ﷺ بصفة « الزعامة » أو العبقرية فإن المقصود من ذلك هو نفي النبوة أو تجاهلها وعدم الإقرار بها » . أما ما يتردد كثيراً من القول بأن الإسلام مشابه في أصوله لليهودية والمسيحية وأن ما في القرآن مشابه لما في التوراة فإن ذلك حق يراد به باطل ، وهي محاولة واضحة لانتقاص الإسلام والقرآن ، ولكن الواقع يؤكد أن الأديان الثلاثة كلها مستمدة من الدين الأول : دين إبراهيم ، وأن ما للعرب من فضائل عرفت قبل الإسلام فهي البقية الصالحة من ملة إبراهيم وأن مصدر الكتب السماوية الأصلية كلها واحد . أما ما أخذ على جرجي زيدان فإنه قسم عصر الإسلام إلى ثلاثة أدوار : مدح سياسة الخلفاء الراشدين وقال بعد مدحها « على أن سياسة الراشدين ليست على الإجمال مما يلائم طبيعة العمران أو تقتضيه سياسة الملك ، وإنما هي خلافة دينية توفقت إلى رجال يندر اجتماعهم في عصر . فأهل العلم بالعمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب ، وأن انقلاب تلك الخلافة الدينية إلى الملك السياسي لم يكن منه بد » فأثبت بذلك أن سياسة الخلفاء الراشدين ليس فيها أسوة للناس وأنها من مستثنيات الطبيعة ، أما دور العباسيين فمدحه ، لا لأجل أنها دولة عربية ، بل لكونها فارسية مادة وقواماً. أما دور بني أمية فلأنه يمثل الأمة العربية فقد حمل عليه حملة كبرى » وقد وجه له هذا النقد العلامة شبلي النعماني في كتاب مطبوع ، كما وجه إليه العلامة رفيق العظم ونشره في مجلته الهلال ، وقد أشار النعماني إلى أن معظم ما رمى به جرجي زيدان العرب في كتابه منقول من الفصل الذي عقده ابن عبد ربه في كتابه « العقد الفريد » وأن صاحب العقد حين نقل هذه الأقوال صدرها بقوله « قال أصحاب العصبية على العرب » وهي أقوال رددتها الشعوبية من الحاقدين على العرب والإسلام ودحضها النظام والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم . ومن المصادر التي كثر الاعتماد عليها من كتاب التغريب في تصوير الإسلام والعرب « الأغاني وألف ليلة » وقد اعتمد فيليب حتى على كتاب الأغاني وكتب المحاضرات اعتماداً كبيراً واعتبر ما جاء بهما من قصص ونوادر مصادر لتأكيد بعض ما نسبه إلى المسلمين من وقائع التاريخ لرسم صورة المجتمع الاسلامي ، والحق أن أي كاتب منصف لا يستطيع أن يعتبر مثل كتاب ألف ليلة وقصص المسامرات والمحاضرات وكتاب الأغاني أساساً علمياً للتاريخ ، لأنها ليست من المصادر العلمية ولكنها من كتب التسلية ، وبعد فهل توقفت الاتهامات لتاريخ الاسلام عند هذا الحد ؟

الفصل الثامن

التبشير والوحدة الاسلامية

ركز التبشير على عدة أهداف كبرى : كان في مقدمتها هدفين أساسيين :

(الأول) إبعاد الاسلام عن مجال التأثير الاجتماعي والسياسي والاقتصادي باعتباره ديناً ونظام مجتمع ، في محاولة لتصوير الاسلام على أنه دين عبادة قاصر على الصلة بين الله وعباده . مباعدين بينه

وبين مفهومه الاجتماعى الأساسى فى بناء منهج حياة للأفراد والمجتمعات التى يحكمها . (الثانى) القضاء على وحدة الجامعة الإسلامية ، وفكرة الوحدة الإسلامية وذلك بخلق تيار قوى من الاقليميات وإقامتها على أساس التاريخ القديم ، والحيلولة دون قيام الوحدة العربية بحسبانها عاملا هاماً من عوامل قيام الرابطة الإسلامية . ومن هنا كانت الجامعة الإسلامية أكبر أهداف التبشير منذ وقت بعيد فكان له عمله الخطير فى تحطيمها والقضاء على الدولة العثمانية حاملة لوائها وإسقاط الخلافة الإسلامية ثم أعلاء أمر الاقليميات والدعوات القومية الضيقة ، حتى اختفى فعلا من وجه الدراسات والكتابات التاريخية والسياسية كل مايتصل بالعالم الإسلامى بحيث أصبح لايوجد كاتب فى العصر الحديث يعرض لهذا العالم كقوة متكاملة وإنما تجرى الأبحاث كلها حول الروابط الإفريقية والأسيوية والعربية ، ولقد بعدت الأبحاث عن العالم الإسلامى وكل مايتصل بالأخوة الإسلامية أو الوحدة إلا فى فترات متباعدة بعقد عدد من المؤتمرات الجامعة التى كانت تنطفىء آثارها بعد انعقادها مباشرة وتعلو عليها موجات الإقليمية والقومية حتى لاتترك أثراً فى النفوس يعيدها إلى مكان الصدارة . ولقد عرض كثير من المبشرين والمستشرقين لهذا الأمر وكشفوا عن هدفهم واضحاً صريحاً من مقاومة الدعوة إلى الوحدة الإسلامية : يقول لورنس براون : إذا اتحد المسلمون فى إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلاوزن ولاتأثير . ويقول القس سيمون : أن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر ، وتساعدهم على التخلص من الشعوب الأوربية ، ولذلك كان التبشير عاملا مهما فى كسر شوكة هذه الحركة ، ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوربيين فى نور جديد جذاب وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصرى القوة والتمركز اللذين هما فيها ، وإذا كانت الوحدة الإسلامية تكتلا ضد الاستعمار الأوربى فقد استطاع المبشرون أن يظهروا الأوربيين فى غير مظهر المستعمر فإن الوحدة الإسلامية حينئذ تفقد حجة من حججها وسبباً من أسباب وجودها ، من أجل ذلك قالوا : يجب أن نحول بالتبشير مجارى التفكير فى الوحدة الإسلامية حتى تستطيع الفكرة (الغربية المسيحية) ان تتغلغل فى المسلمين . ولاشك أن هذين النصين بالإضافة إلى نصوص أخرى تكشف بوضوح عن سر الحملات الغاضبة التى يسرع بعض الكتاب ذوى الولاء لحركتى التبشير والتغريب فى إطلاقها عندما يتحدث أى باحث عن الجامعة الإسلامية ، ومحاولة تصويرها فى صورة تاريخية رديئة . حين يجرى عرض تاريخ العثمانيين مع العرب ومحاولة تصوير العلاقة بينهما على أنها كانت نوعاً من الإستعمار الغربى .

ولقد أولى التبشير اهتمامه منذ وقت بعيد (بالجامعة الاسلامية) وتناولها بالبحث والدراسة ، وخاصة فى مؤتمر ١٩١١ بعد أن سقط السلطان عبد الحميد حامل لواء هذه الدعوة وسيطرة تركيا الفتاة من الاتحاديين أصحاب الدعوة إلى الجامعة الطورانية على أزمة الحكم وانفتاح الطريق إلى النفوذ التبشيرى والاستعمارى والصهيونى جميعاً إلى قلب العالم الاسلامى . وقد أشار القس تلسن والقس ورنر فى تقريرهما إلى أن اجتماع المسلمين بجامعة إسلامية بكل المعنى الذى يدل عليه هذا اللفظ ، قد اصبح أمراً وهمياً لاثمرة له غير توليد أحلام تقلق رجال السياسة ، وأشار إلى أن مكة والطرق الصوفية هما من أكبر العوامل فى بعث شعور الوحدة بين المسلمين .

ثم أشار إلى المخطط المنفذ والذى يقضى باستحالة تحقق الوحدة الاسلامية حين قال : عبثاً يبنى هؤلاء آمالهم على الجامعة الاسلامية لأن التربية الغربية المسيحية التى تقوم بها (الارساليات التبشيرية) قد انبثت فى دمائهم بفضل مدارس التبشير وباحتياطات استمدتها حكومة هولنده ـ والاشارة هنا إلى أندونيسيا ـ من شأنها أن تزعزع آمال المسلمين . ولكنه أشار إلى هدف الجامعة الاسلامية الحقيق حين قال . « إن العامل الذى يجمع الشعوب ويربطها برابطة الجامعة الاسلامية هو (الحقد) الذى يضمره سكان البلاد للفاتحين الأوربيين ، ولكن (المحبة) التى بثتها إرساليات التبشير ستضعف هذه الرابطة وتوجد رابطة جديدة تحت ظل الفاتح الأجنبى » .

ومما يتصل بالتركيز على الاقليمية ما تحفل به الأبحاث عن تنمية (الكيان اللبنانى) والاهتمام بالدعوة الفينيقية فى ربوع لبنان حتى يقول (رجب) بمنتهى الصراحة إن المدارس التبشيرية والصحافة شبه التبشيرية والكنيسة ستتضافر على تحقيق ميلاد فينيقية جديدة تكون النصرانية فيها أوسع انتشاراً » . ولعل من أكبر الخطط التى قادتها حركة التبشير بنجاح وحققت بها نتائج خطيرة هى خطتها فى القضاء على الوحدة الاسلامية وإسقاط الدولة العثمانية ـ بحسبانها نقطة تجمع فى مواجهة النفوذ الأجنبى الواحف وإلغاء الخلافة . لقد ركزت قوى التبشير على الدولة العثمانية بهدف إسقاطها وتمزيق الوحدة بين العرب والترك وتسليم الأجزاء العربية للاستعمار الغربى . وقد استطاعت قوى التبشير بالاتفاق مع المحافل الماسونية لخدمة النفوذ الاستعمارى والصهيونى السيطرة على حزب الاتحاد والترقى وجماعة تركيا الفتاة، فى مرحلتيها المتواليتين : مرحلة حكم الاتحاديين ١٩٠٨-١٩١٨ ومرحلة حكم الكماليين ١٩١٩ -١٩٢٩ . والارساليات التى قدمت إلى استانبول وبيروت ومصر فى منتصف القرن التاسع عشر قد استعانت بالقوى الماسونية فى العراق والشام ومصر على تنفيذ مخططها ، والمعروف أن المركز الضخم للعمل كله إنما كان فى سلانيك مقر « الدونمة » وهم اليهود الذين أسلموا تقية وعملوا على تقويض الاسلام بالتعاون مع نفوذ الاستعمار والصهيونية . ويمكن القول بأن هذا العمل أخذ مجراه الجدى بعد عام ١٩٠١ على أثر المقابلة التى تمت بين هرتزل زعيم الصهيونية وبين السلطان عبد الحميد وانتهت بقرار حاسم من السلطان هو استحالة التفريط للصهيونية فى شبر واحد من فلسطين ، وكانت الخطة هى اقتطاع فلسطين لانشاء كيان يهودى يمثل رأس جسر للاستعمار ، ويحقق خطة الاستعمار التى تقررت عام ١٩٠٧ وهى إيجاد حاجز بشرى بين المسلمين فى قارتى إفريقيا وآسيا .

وقد سيطر الدونمة على حركة الاتحاديين الذين كانوا أساساً يتطلعون إلى تحرير بلادهم من التأخر ومن النفوذ الأجنبى بالتماس أساليب الغرب ومناهجه فى الحكم والحضارة ، ومن هذا المنفذ الدقيق استطاع مخطط التبشير أن يحطم القيم الاسلامية تحطيما تاماً فى حركة الاتحاديين ، ويدفعهم دفعاً إلى مفهوم عنصرى خطير هو الجامعة الطورانية ويدفعهم دفعاً إلى تحويل الرابطة التركية إلى صراع دموى وقد ظل هذا العمل يجرى فى الخفاء حيث انطلقت دعوة الجامعة الاسلامية التى حمل لواءها السلطان عبد الحميد ، والتى بعثت الرعب والفزع فى صفوف الاستعمار والنفوذ الأجنبى حين استجابت وحدات

العالم الإسلامي إلى اللواء الذى رفعه السلطان عبد الحميد ليس بحسبانه سلطان الدولة العثمانية ، بل بصفة خليفة المسلمين وكان هدف دعوته التجمع والوحدة فى مواجهة الزحف الاستعمارى هنالك شعر النفوذ الأجنبي بالخطر الماحق ، فلم يتردد الإتحاديون ثمرة التبشير والنفوذ الاستعمارى الأول وخريجي الإرساليات الأجنبية عن العمل على تقويض النظام السياسى القائم وتسلم أداة الحكم لتصفية الدولة فى فترة لم تزد عن عشر سنوات ونقلها إلى مرحلة أخرى أشد خطورة هى مرحلة الانقلاب الذى قادة مصطفى كمال لتصفية الطابع الإسلامى كلية وإلغاء الخلافة وتحويل تركيا إلى دولة غربية خالصة . وهذا العمل الذى حققه الاتحاديون للمسألة الشرقية التى كانت أخطر قضايا أوربا فى هذه المرحلة هو ما أشار إليه كثير من المبشرين وسجله مؤتمر التبشير العام المنعقد ١٩١٠ فى أدنبره وجاء بالنص .

« اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى فى عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم التى أسسها الأوربيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجع على تأثير العمل المشترك الذى قامت به دول أوربا كلها » . لقد تأكد مدى الترابط الخطير بين الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية التى تقدمت بخطط الصهيونية عام ١٨٩١ وكان الانقلاب العثمانى بالنسبة لهما معاً عملا بعيد المدى فى فتح الطريق أمام إرساليات التبشير للعمل بحرية على النحو الذى صوره دكتور زويمر كبير المبشرين فى مؤتمر التبشير العام فى لكنو ١٩١١ حيث قال مشيراً إلى الانقلاب العثمانى ١٩٠٨ بأنه فتح طريق المبشرين التجول فى البلاد العثمانية والعربية دون موانع ، وفتحت الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين . أما الموقف الثانى الذى استطاعت أن تحققه حركة التبشير فى تلك المعاهدة السرية التى ألحقت بمعاهدة لوزان التى وافق عليها مصطفى كمال وحكومة أنقرة وهى تصفية الاسلام ، إسقاط الخلافة وإلغاء الحروف العربية وذلك كشرط لتحرير تركيا وجلاء القوات المحتلة عنها وكان ذلك نصراً لا حد له لحركة التبشير استطاعت أن تستغل آثاره فى العالم العربى وفى فارس والأفغان وإذا كانت الدول الأوربية قد اتفقت على أن التبشير هو الذى قام بحل المسألة الشرقية فإن التبشير هو الذى أتى فلسطين كثمرة ناضجة فى يد الصهيونية العالمية لتاثمهما ، وقد كان الاستعمار والتبشير والصهيونية جميعاً يتنافسون على فلسطين منذ ذلك الوقت البعيد ، بحسبانها قوة ضاربة فى وجه الحرية والكرامة الاسلامية والعربية ، فقد كانت الصهيونية هى الجسم الغريب الذى حلم به « كاميل » وزير خارجية بريطانيا فى تصريحه الشهير . وما يتحقق اليوم على ايدى الصهيونية من آثار بعيدة المدى ، إنما كان محسوباً فى ذلك الوقت ، لقد كانت كل الأهداف تلتقى حول هذا العمل ، وكان روتشلد المليونير اليهودى يساعد هذه القوى جميعاً ، ولقد جاء اليوم الذى تقول فيه اليسوعيات إنه لولا بعض المدارس الأجنبية الكبرى فى الشرق لكان الحال أسوأ بين العرب وإسرائيل ، وإن هذه المعاهد كانت فى مستوى الهدف الذى أنشئت من أجله وأنها على كل حال قد بررت تماماً كل قرش وضع فيها (إقرأ تصريح أو تواسمان فى جريدة النهار البيروتية ٢٣ / ١٩٦٨) . وإذا كانت دول كثيرة قد شاركت فى تمزيق وحدة العالم الاسلامى فإن بريطانيا هى أكبر الدول عملا فى هذا المجال : مجال تثبيت النفوذ الأجنبي فى العالم الاسلامى والقضاء على وحدة المسلمين فقد كانت تملك فيه أضخم

نصيب من الغنيمة الهند درة التاج البريطاني ومصر والعراق والسودان ولذلك فهي تعد في مجال الغزو الفكري عن طريق التبشير أكبر مخطط ومنفذ . ويبدو هذا في مراجعة ماذكره غلادستون رئيس وزراء بريطانيا في عهد الملكة فيكتوريا وهو يمسك بيده المصحف ويقول لأعضاء مجلس العموم البريطاني « إنه مادام هذا الكتاب في أيدي المصريين فلن يقر لنا قرار في تلك البلاد » ومن خلال هذه الصيحة بدأت حملة الغزو التبشيري تنفيذ مخططها الذي برز في « تعليمات » « دوفرين » الرجل الاستعماري الذي قدم مصر بعد الاحتلال ووضع أسلوب العمل وركز على التعليم بحسبانه العامل الأساسي لتدعيم نفوذ الاستعمار البريطاني . وجاء بعده كرومر الذي فتن النفوذ الاستعماري الثقافي وأشار في تقاريره المختلفة إلى أهمية التبشير والعمل في مجال الصحافة والثقافة . وعن طريق كرومر عمل في مصر المبشر « دوجلاس دنلوب » مستشاراً لوزارة المعارف منذ ١٨٨٥ تقريباً إلى ١٩١٩ تقريباً وجاء بعده قوم آخرون أقرام الاستعمار الثقافي » . ومنذ صيحة غلادستون وضع الانجليز سياسة تعليمية وتبشيرية خطيرة الأثر تركز على إقصاء الدين عن مناهج التربية والاسلام عن مناهج التعليم والثقافة ، فهو ليس سوى عبادات وصلوات وطرق صوفية ، والقرآن يقرأ للبركة أما الاسلام كدين ومنهج مجتمع ونظام صالح للتطبيق في مجال القانون والدولة فقد أقصاه كرومر وهاجمه هجوماً عنيفاً وكانت مدرسته الفكرية هي التي حكمت بعد ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول ولطفي السيد .

ثانياً : مخططات الاستشراق

مدخل إلى البحث

المقاصد والغايات التي يقوم عليها الاستشراق

(أولا) : إذا أردنا أن نعرف ما الذي يهدف إليه الاستشراق وما هي مقاصد ذلك العمل الواسع الضخم المتصل بالتراث الاسلامي والفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية فإن وقائع كثيرة تستطيع أن تلقي الأضواء الكاشفة على هذه الغايات . إنهم يصدرون عن ثقافتهم وعقيدتهم التي تختلف عن الاسلام من وجوه كثيرة .

ولا يستطيعون أن ينسوا ارتباطاتهم بأقوامهم وحضارتهم ونفوذهم السياسي المتمثل في الاستعمار والتفرقة العنصرية بين جنسهم الأبيض وبين الأجناس الملونة يقول محمد كرد علي : إني أعلم أنهم يعملون لسياسة بلادهم أولا وأن منهم متعصبين يتخذون الاستشراق سلما لخدمة دينهم على نحو ما كان أسلافهم في القرون الوسطى » . وهكذا تتقاسم اتجاهاتهم وأهدافهم الروابط السياسية والروابط الدينية ، ومن وراءهما وجوه أخرى في الاختلاف والاتجاه ، فهناك روابط سياسية بالاستعمار البريطاني والاستعمار الفرنسي ، وهناك ارتباط بالمسيحية وارتباط باليهودية وهم أحياناً يجمعون بين الهدفين والغايتين ، كما

تجد فى ماسينيون الفرنسى وجب الانجليزى فإنهما متصلين بالكنيسة ووزارات الاستعمار . ويرى كثيرون أن الاستشراق ولد من أبوين غير شرعيين هما : الاستعمار والتبشير وأنه مازال يعمل من أجل هذا الغرض الذى وجد من أجله وإن غير أساليبه وجلده مرات ليتلائم مع الظروف المختلفة وخاصة بعد أن تكشفت أغراضه للمفكرين المسلمين الذين أخذوا يدحضون شبهاته . أما الاستعمار فهو يرى أن المفهوم الاسلامى السليم من شأنه أن يعطى المجتمع المسلم قوة تحول دون سيطرته واستمراره . فهو يستهدف تقويض هذه العقيدة وإحلال مفاهيم تحمل الولاء والصداقة مع الأمم المحتلة تحت اسم الحضارة أو العالمية أو وحدة الثقافة والفكر البشرى . أما التبشير فإنه يستهدف الحيلولة دون توسع الاسلام وانتشاره حتى لايكون منازعا أو منافسا للمسيحية فى البلاد التى يحاول أن يقوم بالتبشير فيها والخطر الأكبر هو أن تصل مفاهيم الاسلام الصحيحة إلى عالم الغرب نفسه . وقد أضيف إلى هذين الأبوين أب ثالث هو الصهيونية التى تستهدف من سيطرتها على الاستشراق الحيلولة دون تجمع العرب فى وحدة تقاوم الصهيونية وتواجه إسرائيل ولذلك فإن مستشرقى اليهود يعملون فى هذا المجال . ولقد كان للارتباط الجذرى بين التبشير والاستشراق أخذاً وعطاء ، أثره فى أن كل ما أورده كتاب التغريب من العرب الذين صادتهم معاهد الغرب هو من نتاج التبشير والاستشراق . ولقد كانت أهداف التبشير واردة فى أعمال المستشرقين ، ولقد وجد إنتاج المستشرقين رواجاً على أيدى المبشرين ومعاهدهم وإرسالياتهم وجامعاتهم على صورة مناهج ودراسات فى مجال الدراسات الانسانية على النحو الذى ينتقص القيم الاسلامية فى التاريخ والعقيدة واللغة وفى مجال الشريعة والاقتصاد والتربية . وإذا كان بعض المستشرقين يرى أن هدف الاستشراق هو تقديم أضواء على الفكر الاسلامى والمجتمع الاسلامى من أجل القدرة على وضع الخطط السياسى للسيطرة الاستعمارية والبحث عن ثغرات فى الفكر الاسلامى لاثارة الشبهات حولها وتحرير القيم الأساسية وتأويل بعضها كما حاول الاستشراق بالنسبة لقضية الجهاد وقضية كون الاسلام دنيا ودولة ونظام مجتمع . ولعل أخطر مايتصل بعمل المستشرقين : هو « النفوذ » والقدرة على فرض هذا العمل الملىء بالشبهات والزيف على مناهج التعليم والثقافة والفكر فى عالم الاسلام وكسب الأنصار له ـ هذا هو الخطر الحقيقى لمخططات الاستشراق ، القدرة على فرض هذا الاتهام وإذاعته وتسليمه من يد إلى يد ونقله إلى أهل التبعية للغرب من الشعوبيين وترديده فى كل مناسبة وخلق معارك حوله لتعميق مفهومه وتوسيع دائرة الانتفاع به ولقد كان الدكتور طه حسين فى مقدمة الذين أعلنوا الاعجاب والتقدير لمناهج المستشرقين كما أنه هو حامل لواء الدفاع عنهم بل والدفاع عن أهوائهم حين كان يقول إن هذه الحقيقة أو تلك فى تاريخ المسلمين أو فكرهم مما لا يرضى عنها الاستشراق ويدعو إلى التخلى عنها ، وهذا أسلوب لايقوم عليه إلا واحد من أهل التبعية الكبرى حتى قال بعضهم إن طه حسين ليس إلا مستشرقاً من أصل عربى كانت أمانته للفكر الغربى ولمذاهب الاستشراق تفوق أمانة المستشرقين أنفسهم وكان متابعاً لهم مقتنعا بما يقولون إلى أبعد حدود الاقتناع حتى فى تلك المسائل الخطيرة كقولهم ببشرية الرسول وبشرية القرآن ، وكانت كتاباته توحى بذلك وإن لم يعلنه جهاراً ؛ وكان أبلغ مافيه من ولائه وعاطفته لانطواء المسلمين تحت لواء الغرب وانصهار الاسلام فى بوتقة الأممية والمسيحية

واليهودية والغرب جميعاً ، لا يرى العرب والمسلمين سبيلا للحياة أو النهضة إلا فى هذا الانصهار وهذا الاحتواء وهذا الذوبان وقد صرح بذلك فى كتبه وخاصة ما أورده فى كتاب (مستقبل الثقافة) وكان يرى أن العرب قوم مستعمرون كالرومان والفرس وقد حرص على طبع الكتب التى تثير الشبهات وفى مقدمتها رسائل إخوان الصفا وجدد ألف ليلة وجدد سيرة الجان جميعاً وخرج من دراستهم بشبهة مسمومة هى قوله إن القرن الثانى للهجرة كان عصر شك ومجون وقد اعتمد على مصادر الاستشراق اليهودى فى كتاب أنساب الأشراف الذى طبع فى الجامعة العبرية فى إسرائيل وجاراهم فى إنكار شخصية عبد الله ابن سبأ وجارى الاستشراق اليهودى رأيه فى ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام وأعلن أنه يشك فى وجودهما بالرغم من الإشارة إليهما فى التوراة والقرآن وقد تابع طه حسين كثيرون فى هذا منهم سلامه موسى وحسين فوزى وزكى نجيب ومحمود عزمى وعلى عبد الرازق ، ولقد لقحت مناهج المستشرقين فى البحث والنقد العلمى قرائح كثير من تلاميذ المستشرقين فنهجوا نهجهم وأخذوا طريقهم فيما حاولوا من دراسات وخاصة فى مجال الجامعة والثقافة والصحافة وحملوا نفس خصومة المستشرقين الدينية والسياسية للاسلام والمسلمين وكانوا أشد قسوة على أهليهم من الغربيين . وفى مختلف الدعوات الخطيرة التى أحدثت تحولات فاصلة فى تاريخ الاسلام والمسلمين فى العصر الحديث كان الاستشراق هو قائد الشبهة ثم يتبعه الكتاب الذين يكتبون بالعربية من أهل التبعية والتغريب والشعوبيين، وكان ذلك واضحا فى الدعوة إلى العامية التى بدأها ويلكوكس وويلمور وغيرهم وتابعهما سلامه موسى ولطفى السيد وفى الدعوة إلى الاقليميات والقوميات الضيقة والفينيقية والفرعونية التى بدأها فبرى وكرومر وتابعة طه حسين ولطفى السيد وغيرهم .

ومن آثار الاستشراق الخطيرة تلك التوجيهات التى يقدمها المستشرقون لأنهم وأغلب المبشرين يجمعون بين العمل التبشيرى والعمل مع دوائر الاستعمار فى وقت واحد وأبرز هؤلاء (جب فى الاستعمار البريطانى) و (ماسينيون فى الإستعمار الفرنسى) (سنوك هورجرونجه فى الاستعمار الهولندى) ومن توجيهات هذا الأخير لأمته التى كانت تحتل الملايو وأندونيسيا قوله : « يجب على الحكومات الأوربية التى استولت على بلاد الاسلام أن تجتهد فى إظهار التناقض بين الاسلام والمدنية العصرية وإقناع ناشئة المسلمين بأنهما ضدان لا يجتمعان فلابد من رفع أحدهما : ولما كانت المدنية الحاضرة هى نظام كل شىء ولا محيد عنها لمن يريد أن يعيش . كان البديهى أن الذى سيرتفع من النقيضين هو الاسلام ، وقد علق الأمير شكيب أرسلان على هذا التوجيه الخطير فقال هذا المشرق الهولندى وكرومر من قادة الاستعمار فى العمل على إظهار عجز الإسلام عن امتصاص الأحكام العصرية وإثبات كونه نظاماً قديماً قد بلى ولم يعد صالحاً للحياة على أمل أن الفوج الجديد من المسلمين الذين لاغنى لهم عن الحياة ينبذون الاسلام ظهريا وبنبذه تكون أوربا قد تخلصت من أكبر خطر يحيق بها وهو الحكم الشرعى الذى لا يجيز للمسلم أن يخضع لأمير لم يكن على غير دينه . إنهم يتوجسون خيفة من الحكم الذى يوجب على المسلم أن لا يطيع غير المسلم إلا ريثما يتيسر له نفض طاعته وماهناك من أحكام الجهاد ومن وجوب تضامن المسلم مع أخيه مما جعل الإسلام بناءاً واحداً ولاريب أن الاستشراق قد استهدف من محاولاته تزييف الفكر الإسلامى الوصول إلى غاية أساسية وهى إخضاع المسلمين لحكم الاستعماريين سواء أكانوا بأنفسهم أم بأتباعهم

ولذلك فإن أكبر ما يركز عليه هو هدم قاعدة الترابط بين الدين والدولة فى الاسلام وهدم قاعدة الجهاد وهدم قاعدة القرآن كمصدر أساسى للتشريع وهدم الشريعة الاسلامية كمصدر أساسى للقوانين وفصل الفكر الاسلامى الحديث عن الفكر الاسلامى العام تحت أسماء الثقافات العربية والفارسية والتركية وغيرها وإسقاط الخطر الكامن فى تأثير التاريخ الاسلامى ببطولاته وأمجاده بإثارة الشبهات حول وقائع التاريخ الاسلامى وحجب جوانب عظمته وقوته وإيجابياته وإعلاء شأن الخلافات والصراعات والفرق ومظاهر الانقسام والتفسخ وكذلك العمل بالخداع على استسلام الفكر الاسلامى المعاصر للفكر الغربى تحت دعوى زائفة بأن الفكر الإسلامى الأصل قد تأثر بالفكر اليونانى وأنه لم يكن للمسلمين حضارة مستقلة وإنما كانت حضارتهم جزءاً من حضارة الغرب التى بدأت باليونان وانتهت بالإنجليز والفرنسيين . وهكذا نجد أن الهدف الأساسى واضح وهو محاولة دفع هذه الأمة الإسلامية عن النهوض وحجبها فى دائرة الذبوف ومحاولة احتوائها فى دائرة التبعية العلمانية والأممية ،

(١) يدرس الاستشراق خصائص الفكر الإسلامى بروح مسبقة قائمة على أحكام متعارضة تستهدف القضاء على روح الاسلام وهو فى سبيل ذلك يحاول استغلال الثغرات الموجودة فى المراجع العربية القديمة ليخرج منها استدلالات وتخريجات جديدة تتفق مع مقاصد الاستشراق الأساسية وهم يعمدون إلى تصيد النصوص لتأييد الفكرة المسبقة القائمة فى نفس الباحث أساساً والإغضاء عما يعارضها أو يضادها . كذلك فإن اختيار المخطوطات التى يقومون بإحيائها له غاية واضحة ضمن مخططهم هذا ، فالتراث مسروق أساساً ، وهم يخفونه ولا يمكنون أهله من الإطلاع على « بعضه » وينشرون منه ما يتفق مع أهدافهم واتجاهاتهم المتأثرة بالكنيسة والاستعمار والصهيونية .

يقول الدكتور حسين الهراوى (متحدثاً عن المستشرق فنسك) إذا أراد أن ينال من الاسلام أمراً فإنه يفرض فرضاً ثم يبحث عن الآيات التى قد تتناسب مع هذا الرأى الذى فرضه ، فإذا وجد آية تدحض رأيه حذفها حذفاً وأنكرها إنكاراً حتى يخرج بالنتيجة التى تزرع الشك فى فؤاد من يطلع عليها من غير تمحيص . هذه طريقة المستشرقين التى يتبعونها فى كتاباتهم عن الاسلام نفسه أو عن حياة محمد ﷺ أو عندما يريدون أن يستقصوا مسألة فى القرآن وهى طريقة قديمة فى أقدم ماورد فى كتب المستشرقين والغرض منها ظاهر جلى هو تزويد جماعة المبشرين والمستعمرين بحجج شبه منطقية يزرعون بها الشك فى عقائد المسلمين ويحولون بها دون تمسكهم بدينهم وهى إحدى الطرق التى وصفها رواد الاستعمار منذ زمن قديم وكانت إحدى وسائلهم مع تقوية اللهجات العامية حتى لا يتفاهم المسلمون ولا يفهموا لغة قرآنهم ويقول المستشرق (سيكاو) إن الاسلام فى روحه الخاص قـــوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغباتنا ونزعاتنا فمن مصلحتنا التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطاننا » .

(٢) لاريب أن التهجم على القرآن الكريم والرسول ﷺ هو أكبر مقاصد الاستشراق ولأنه يخدم كلا من الغايتين السياسية والدينية فقد ركز المستشرقون معظم أبحاثهم حول هذا الموضوع .

وكانت وجهات نظرهم مشوبة بالهوى حين يقارنون القرآن بالكتب المقدسة لاينتهون إلى فارق بعيد المدى وهو أن القرآن كتاب موثق لم يتصل به أى تغيير أو تحريف بينما أصاب الكتب المقدسة التحريف والتغيير . فالمقارنة بينهما باطلة . كذلك فإن القول بأن هناك تشابها بين ماورد فى القرآن وماورد فى الكتب المقدسة فإن ذلك لاينقص من قدر القرآن ، لأن مصدر الكتب السماوية واحداً وهو من عند الله ولكن القرآن هو الذى احتفظ بالنص الربانى الأصيل بينما حرفت الكتب الأخرى ، هذا فضلا عن أن القرآن فيه بيانات إضافية لم ترد فى الكتب المقدسة السابقة له .

(٣) يعمل الاستشراق على الكسب من الدراسات الاسلامية من أجل تحسين وسائل التبشير وتجنب الثغرات ومعرفة الجوانب التى يستطيع أن يثير الشبهات منها فى وجه المسلمين . وقد صور هذا المعنى فى وضوح وصراحة كاملين المستشرق هو مان استنجل أكر فى كتابه (عقائد الاسلام) حيث يقول إننا يجب أن نكسب وجهات نظر جديدة لعقائدنا المسيحية بناء على فهمنا العميق للتعاليم الإسلامية وفهمنا لنفسية المسلم المتدين وذلك حتى نتجنب نقاط الضعف فيما يستخدمه من أوله حتى اليوم . وحتى نبنى من جديد دفاعاً جديداً عن العقيدة المسيحية ، دفاعاً يضع فى حسابه روح الاسلام والتطور الفكرى للمسلمين فيما يتعلق بعقائدهم خلال مايزيد على ألف عام وقد جرى هذا الاتجاه فى ظل الخطة الذى عمل الاستشراق لها منذ وقت بعيد وهى أن يضع لكل مسألة أو قضية أو معضلة إجابة مستمدة من محاولته المتعمدة لتغيير مجرى الفكر الاسلامى وإخراجه من هدفه الحقيق وغايته الأساسية .

(٤) البحث عن العوامل الأجنبية التى كثرت فى آداب الأمم الاسلامية والبحث عن الفكر اليونانى فى دراسات الفلسفة وعلم الكلام والتوسع مع المغالاة فى تصوير أثر الغرب فى الفكر الاسلامى ، ومحاولة القول بأن هناك حضارة واحدة وأن حضارة الإسلام رافد من روافدها ، وتسمية مراحل التاريخ الأدبى بأسماء أوربية والسيطرة على مناهج البحث وأساليبه وخاصة نظرية النقد الأدبى ونظريات الإجتماع والاقتصاد والسياسة هذا مع أن هذه العوامل الأجنبية لم تكن إلا على هامش الفكر الإسلامى الذى تشكل منهجه اساساً بالقرآن الكريم واكتمل فى حياة الرسول ، حيث اكتملت أصول العلوم الإسلامية قبل ترجمة الفكر اليونانى .

(٥) المبالغة فى العمل لإيقاع الشك فى أصالة الفكر الاسلامى وإلى الادعاء بأن كل ما قدم من جوانب بناءه إيجابية إنما جاءته من الفكر الوافد بينما العكس هو الصحيح إذ أن الفكر الوافد لم يقدم للفكر الاسلامى شيئاً ذا بال فقدكان قد تكامل قبل ذلك وأن كل ماقدمه الفكر الوافد هو عبارة عن شبهات أمضى المفكرون المسلمون قرنين كاملين فى الرد عليها ودحضها وتحرير الفكر الاسلامى منها ورده إلى أصالته .

(٦) يكشف الاستشراق عن غلبة الهوى والغرض حين تعنى عناية شديدة بالشخصيات الموصومة

فى الفكر الاسلامى أمثال ابن الراوندى ومسيلمة الكذاب والحلاج والسهروردى وبشار بن برد وأبى نواس. ويعمل من شأنها بينما يتجاهل الشخصيات السوية ولا شك نجد هذا الاتجاه واضحاً فى مختلف المجالات التاريخية . فى دراسات بركلان ولامانس وفى مجال الشريعة الاسلامية فى دراسات جولد سيهر وشاخت وفى مجال الأدب ودراسات جب ولويس شيخو وبلاشير بيرك فى السيرة وتاريخ النبى فى دراسات مرجليوث وفنسنك . بل نجد كثيراً من المستشرقين يهتمون بمسائل فرعية متناثرة يتصيدون منها شبهات فيجمعون بينها ليجعلوا منها كياناً متكاملا . كذلك عنى الاستشراق بدراسة الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ ودراسة الحركات المضادة للإسلام مما أسموه دراسة إسلامية ، وحين يركزون الاهتمام بالتصوف الفلسفى - وهو مما يخرجه علماء المسلمون عن أصول الفكر الاسلامى لاختلافه مع الأصول الأصيلة للتوحيد - تدل وجهتهم على الهوى والغرض ذلك أن الالحاح على هذه الدراسات والاصرار على نشرها وإذاعتها وطبع كتبها فى أفق الفكر الاسلامى بعد أن تجاوزها هذا الفكر وحدد موقفه منها لاريب تدل على سواء النية والهوى المقصود والغرض المبيت . ويرمى إلحاح الاستشراق على التصوف إلى هدم الفواصل الكبرى التى تضع للاسلام ذاتيته الخاصة مما يؤدى إلى إنصهاره فى أتون مايسمى بالتصوف البشرى بما فيه من معارضات للتوحيد ومافيه من سموم كوحدة الوجود والحلول والاتحاد والتناسخ وغيرها .

(٧) التركيز على العاميات والعناية بدراستها واعتبارها اللغة المستعملة ، وإثارة الاهتمام البالغ بها ويستهدفون من هذه العناية القضاء على اللغة الفصحى والقرآن ولاريب أن وراء العاميات نوايا استعمارية وتبشيرية واستشراقية تستهدف القرآن بالذات وتعمل على توسيع الفجوة بين اللغة الفصحى والعامية لتمزيق الوحدة العربية وابتناء آداب عامية تجعل من العسير الارتفاع إلى مستوى اللغة الفصحى وبذلك يعجز المسلمون عن فهم القرآن الكريم الذى يرتفع إلى مستوى عال من البيان .

(٨) التوسع فى بيان الفروق بين الشرق والغرب وإنكار تقدم العرب والمسلمين واتجاههم إلى مستوى الغربيين ومحاولة إعلاء الغرب واعتبار الشرق تابعاً له فى الحضارة والثقافة والقول بأن منهجهم فى البحث وأسلوبهم فى الثقافة هو الأسلوب الوحيد الذى يجب أن يخضع له الشرق وأن تاريخ العالم هو تاريخ الغرب وحده ، وان على الشرق أن يتبع أسلوبهم فى البحث العلمى وطرائقهم فى التفكير مهما كانت مختلفة ومتباينة ويغلب عليها الهوى .

(٩) يبدو مكر المستشرقين وذكاءهم فى تقديم كتب رئيسية عامة يرجع إليها الباحث السريع فلا يحتاج إلى الأصول الأساسية قدموا للباحثين كتبا فى التاريخ الاسلامى والحضارة واللغة من قواميس ودوائر معارف مكنت المثقفين من الحصول على المعلومات العامة فى سرعة ويسر وهى مطبوعة طباعة جيدة فأغنت الباحثين عن مراجعة الكتب الاسلامية الأصيلة، لقد وجد المثقفون والباحثون فى آن واحد كتب الاستشراق حيث لم يتيسر لهم مراجعة المطولات من المصادر الاسلامية وقد أمكن أن يقدموا من خلال هذه الكتب وجهات النظر المضطربة الغازية التى تحقق أهدافهم فى تمزيق وحدة الفكر الاسلامى

وتقله إلى مستويات إقليمية و إثارة السموم والشبهات . (١٠) فى خطة الاستشراق تمزيق الجبهات الواحدة إلى أكثر من جبهة ومن ذلك محاولة خلق تصور بوجود أكثر من إسلام . القول بأن الاسلام يتشكل فى كل مجتمع بصورة خاصة سواء عن طريق المجتمعات أو العصور التاريخية أو المذاهب (إسلام إفريقى أو أسيوى . (إسلام شيعة وسنة) (إسلام عصر الخلفاء وعصر الأمويين) الهدف تفريق وحدة المسلمين الفكرية والادعاء بأنهم لا ينتمون على عقيدة واحدة . والهدف هو تفريق المسلمين لصالح الاستعمار . والمعروف أن المسلمين مهما تفرقوا فى مجتمعات وكانت لهذه المجتمعات عادات وتقاليد أو اهتمام بعنصر الوطن أو الأمة فإن ذلك لايؤثر فى القيم الأساسية العامة التى هى أعلى عند المسلمين من الوطن أو الأمة ، والتى هى بمثابة الاطار العام للفكر الاسلامى الذى يربط هذه المجتمعات بوحدة أساسية شاملة ، كذلك فإن اختلاف مذاهب المسلمين إلى سنة أو شيعة أو غيرها فإنها لاتزيد عن الاختلاف فى الفروع مع وحدة المسلمين جميعاً فى الأصول العامة وليس الأمر فى هذا شبيهاً بالاختلاف بين الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس فذلك خلاف يصل إلى الأصول العامة فى العقيدة .

(١١) يحاول المستشرقون أن يصوروا الدين بأنه جملة من التقاليد والعادات . فى محاولة لإعلاء شأن هذه التقاليد وإعطائها قوة السيطرة فى المجتمعات بما يحجب الأخلاق التى هى جزء أساسى من الدين والتى هى من الأسس الثابتة التى تختلف مع العادات التى تشكلت فى المجتمعات نتيجة عادات وثنية سابقة والتى قضى عليها الاسلام .

(١٢) أهداف المستشرقين :

(أولا) إقناع قومهم أولا بعدم صلاحية الاسلام لهم كنظام حياة وذلك بإثارة الشبهات حول جزئيات عقائده وتشريعه ولعل هذا هو أخطر الجوانب التى قام من أجلها الاستشراق والتبشير وذلك على أثر ماحدث بعد انتهاء الحروب الصليبية وعودة المحاربين إلى أوربا وماحملوه من صورة باهرة لمعاملات المسلمين لهم ولسماحة الاسلام مما اعتبرته الكنيسة معارضة لوجهة نظرها التى دفعت بها حملاتها الصليبية وادعائها الضلال عن المسلمين ولذلك فقد عمدت الكنيسة إلى إخراس الألسنة المنصفة ومحاولة ترجمة القرآن لتزييف مفاهيمه ومحاولة انتقاص مفاهيمه وذلك هدف غربى خالص مصدره خشية الغرب من اقتحام المسلمين لفكرهم وبلادهم وكسب أنصار لهم ، ومن هنا كانت الحملة المضادة بالتبشير فى محيط المسلمين ومحاولة نشر شبهات الاستشراق فى المدارس والصحف والكتب الثقافية . وقد استغل الاستشراق كراهية أوربا التى جاءت بعد السيطرة التركية على أجزاء من أوربا خلال ثلاثمائة سنة تقريباً وماصحبها من كراهية وتعصب عمل الاستشراق على تعميقه وتغذيته بالشبهات والأباطيل بهدف حجب الاسلام عن أوربا والحيلولة دون نفاذه إليها (ثانياً) تأييد الاستعمار وخدمته فى تحطيم العوامل التى تحول بين المسلمين وبين الاستسلام للغزو الاستعمارى والنفوذ الغربى وهى تأويل مادة الجهاد وتحطيم وحدة الدين والدولة فى الإسلام وعزل الشريعة الاسلامية عن التطبيق فى المجتمع الاسلامى وإحلال أنظمة قانونية واقتصادية تربوية وسياسية لتحل محل النظام الإسلامى بالقوة .

(١٣) فصل المسلمين عن جذورهم الثابتة الأصيلة بتشويه تلك الأصول وتقطيعها وعزلها عن مصادرها وأصولها وهدم المقومات الأساسية للكيان الفردى والاجتماعى والنفسى والعقلى للمسلمين ومن شأن هذا أن يفتح الباب إلى الاستسلام أمام الاستعمار وثقافته وفكره من ناحية ، والتأثير فى نفوس المسلمين وزحزحة عقائدهم بما يفتح للتبشير المسيحى طريقاً إلى تحويل بعض ضعاف العقيدة إلى ملاحدة وأتباع . إن (العلاقة الجذرية بين التبشير والاستشراق) يجمعهما الحقد على الاسلام والتعصب والنزعة الاستعمارية .

(١٤) لم تتوافر فى المستشرقين شروط العلماء المتخصصين المتعمقين ولم يتوفر فى الاستشراق القول بأنه منهج وفلسفة له مفاهيم أساسية وثابتة ذلك أنهم أقاموا مفاهيمهم وكتاباتهم على الرأى المسبق المصبوغ بالهوى والتعصب وعدم الانصاف والرغبة فى الاهتمام بالفرق والشخصيات المنحرفة والمذاهب الضالة وإنكار أعظم ما يؤمن به المسلمون وهو الوحى والنبوة . وأهم وجوه الخلاف هو خطأ المقارنة بين المسيحية والاسلام أو بين القرآن والتوراة والانجيل لما بينهما من فروق فى التفسيرات التى طرأت على الكتب والرسالات السابقة للاسلام فحولتها عن طابعها الأصيل . وكذلك الاعتماد على اختلاف المصادر وتضارب الروايات . ومن إخطائهم وضع مسلمات وأسس مفترضة حسب الهوى والغرض ثم البحث عن نصوص تؤيدها . ومنها غلبة الهوى على مقاييس النقد التى وضعوها هم فضلا عن إخضاع النصوص للفكرة التى يفرضونها والتحكم فيما يرفضونه ويقبلونه من النصوص . وتحريفهم لهذه النصوص فى كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً وإساءتهم فهم العبارات حين لا يجدون مجالا للتحريف وتحكمهم فى المصادر التى ينقلونها منها .

(١٥) نقطة الخطأ التى ينطلق منها المستشرقون فى البحث هى : إنكار الوحى مما يصل بهم إلى القول بأن القرآن من عمل محمد ﷺ وأنه متأثر بالتعاليم اليهودية والنصرانية . وأنه اعتمد على الحضارة الرومانية وأن القانون الاسلامى متأثر بالقانون الرومانى . وتتركز أبحاثهم جميعاً حول هذه الشبهات فنهم من يتحدث عن التأثرات الخاصة بالتوراة أو بالانجيل . ويرجع هذا إلى عدم القدرة على التحرر من الهوى والعجز عن استيعاب خصائص العصور الاسلامية ومقومات الاسلام ، ولاريب أن أموراً كثيرة يعجز المستشرق بتكوينه النفسى ومصادره العقلية عن فهم هذه المعانى وخاصة منها مايتصل بالهجرة ومفهوم الاسلام كوطن وجنسية ومن حيث أن الهجرة مبدأ التحول من الجماعة إلى الدولة ، فإن المؤرخ توينبى يعتبر الهجرة مبدأ التدهور فى تاريخ الرسالة المحمدية .

ثانياً : دوافع الاستشراق

يجمع المستشرقون فى دوافعهم : بين الدافع الدينى والدافع السياسى وكلاهما معاً يشكلان تحدياً واضحاً يرمى إلى استدامة سيطرة النفوذ الغربى على البلاد الإسلامية وهم يستجيبون لغاياتهم ومطامعهم ولا ينسون عواطفهم .

يقول الدكتور هيكل إنهم متأثرون بالنصرانية الأوربية تأثراً يجعل أكثرهم ينظر إلى الأديان نظرة تلؤها الريبة ويجعل الأقلية المتمسكة بمسيحيتها يتأثرون بما كان بين المسيحية والعلم من نضال فيخضعون في بحوثهم الاسلامية لمثل ماخضع له أمثالهم في بحوثهم المسيحية أو بحوثهم الدينية بوجه عام . ويشهد الباحثون إلى أن أهم بواعث الاستشراق تلك المصالح المرتبطة بالشرق ، وأهداف التوسع في الميدان الاقتصادي والتجاري . ويقول الدكتور حسين الهواري : إن المستشرقين هم طلائع المبشرين وهم الذين يمهدون السبيل لتشكيك المسلمين في عقائدهم كما أنهم يمهدون المبشرين سبيل الطعن في الاسلام وفي نبيه ويزودونهم بأنواع شتى من الشعوذة العلمية باسم الاستنتاج التحليلي . أجمع الباحثون على أن المستشرقين يعملون على (أولا) إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم والتحكم فيما يرفضونه أو يقبلونه من النصوص : (ثانياً) تحريف النصوص في كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً وإساءتهم فهم العبارات حين لايجدون مجالا للتحريف : (ثالثاً) تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها فهم ينقلون مثلا من كتب الأدب مايحكمون به في تاريخ الحديث ، ومن كتب للتاريخ مايحكمون به في تاريخ الفقة ، ويصححون ما ينقله الدميري في كتاب الحيوان ويكذبون مايرويه مالك في الموطأ . (رابعاً) وضع مسلمات وأسس مفترضه حسب الهوى والبحث عن نصوص تؤيدها . (خامساً) جمع ماتفرق من شبهات لإعطائها صورة كاملة : مثال ذلك ماقام به المستشرق الألماني ولهم هو رتباخ من جامعة بون من جمع قطع ونتف وشطائر من كتاب الإصابة لابن حجر على أنها كتاب الردة لابن حجر والكتاب ألفه أبو زيد وثيمه بن موسى بن الفرات المتوفى عام ٢٧ وهو فارسي الأصل وقد ضاع هذا الكتاب وإن كان ابن حجر قد أشار إليه في بعض المواضع فما كان من المستشرق ولهم إلا أن جمع هذه القطع على أنها تراجم الأشخاص الذين ارتدوا عن الاسلام ، ولا يعمل مثل هذا العمل إلا مغرض صاحب هوى لأنه لا يتفق أساساً مع البحث العلمي الصحيح ولكن الهدف هو جمع أسماء المرتدين عن الإسلام .

ومن أهوائهم : شبهة القول بأن العرب كانوا قبل البعثة الاسلامية على حضارة ونهضة وأن دور النبي ﷺ لم يزد على أنه نهض بهم فنهضوا والحقيقة أن العرب كانوا قبل الاسلام قبائل متفرقة متصارعة والاسلام هو الذي وحدهم في أمة ودفعهم إلى آفاق النهوض والتوسع . من أساليب الفكرة المسبقة بالهوى والغرض القول بأن القرامطة وهم الذين انقضوا على الدولة الاسلامية بالتآمر وتعاونوا مع خصوم المسلمين هم : طلاب عدل وإصلاح وهم الذين عجزوا عندما امتلكوا إرادة الحكم أن يحققوا أي منهج يمكن أن يصورهم بأنهم دعاة حق بل انكشف باطلهم وزيفهم : ومن الفكره المسبقة بالهوى القول باختلاف الشعوب وأن هناك إسلام الهند وإسلام تركيا وإسلام مصر وهذا القول ينكشف زيفه عندما نجد أن المسلمين جميعاً في مختلف أجزاء الأرض يجتمعون على الأصول العامة للعقيدة والشريعة الاسلامية وأن الخلاف هو في الفروع . ومن الفكرة المشبعة بالهوى : الادعاء بأن المجتمع الاسلامي مجتمع مضطرب واعتمادهم في ذلك يأتي على قصص ألف ليلة أو شعر أبي نواس وبشار . كذلك عمد الاستشراق إلى إحياء التراث الباطني المجوسي والغنوصي القديم مستهدفاً من ذلك أن يحطم أصالة مفهوم الاسلام ولذلك ركز على إحياء كل المخطوطات القديمة التي تحمل هذه السموم وخاصة

ما يتصل بالالحاد والاباحية ومايتصل بوحدة الوجود والحلول وكل ما له صلة بالجنس والكشف ، من الأدب القديم أمثال كليلة ودمنه ورسائل إخوان الصفا وشعر بشار وأبى نواس ومن الصوفية الحلاج وابن عربى ومن ذلك قولهم بتأثر الثقافة الاسلامية بالفكر الاغريقى والفارسى ، والغض من شأن العرب وإضعاف لغة القرآن وإحياء النزعات القديمة كالفرعونيه والفينيقية والآشورية وأمثالها ورفع لواء الدعوات إلى الانسلاخ من الماضى والتراث والتهوين من شأن فريضة الجهاد والتشكيك فى ترابط الدين والدولة والدين والأخلاق . ولاريب أن أخطر مايقع فى المجتمع الاسلامى هو إعتبار كتب المستشرقين مراجع أساسية فى التاريخ أو اللغة أو السيرة أو الثقة وخاصة فى الجامعات والمعاهد العالية . أو فى دراسات المبعوثين إلى الجامعات الغربية والذين يقعون دائماً تحت سيطرة الاستشراق والأساتذة اليهود والصهيونيين والمتعصبين من الغربيين (ومعظم الدراسات الاسلامية بالجامعات الأوربية والأمريكية مركزة فى أيدى اليهود ، والهدف هو تلقين المبعوثين (الاسلام) من خلال فهم المستشرقين له ومن خلال شبهاتهم وأباطيلهم . حتى إذا ماعادوا إلى بلادهم واحتلوا مراكز التوجيه الثقافى والتعليمى فرضوا ماتلقوه فى الغرب من سموم باسم التجديد والحرية فى البحث . وتنكشف آثارهم واضحة فى عدة مجالات :

(١) أضعاف لغه القرآن . (٢) الدعوة إلى اتخاذ الحضارة الغربية المثل الأعلى للسلام .

(٣) دعوات الإنسلاخ من الماضى والتراث . (٤) دعوات الإقليمية والتجزئة (الفرعونية والفينيقية) . (٥) الفهم التاريخى القائم على البحث عن التناقضات (٦) تشويه تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الاسلامى بالإدعاء بأثر المصادر الاغريقية . وقد كان هذا الخطر ولا زال متمثلا فيما يحاول أتباع المستشرقين فى الجامعات وهو أثر للثقافة والصحافة من إسباغ الثقة والتقدير على أعمال هؤلاء المستشرقين مما يؤدى إلى الاعجاب بآرائهم والتسليم بها واحتشد فى الجامعة المصرية منذ نشأتها مجموعة منهم كانت آراءهم حجة لاتقبل الجدل وكتبهم مراجع مقدسة بينما هى مجموعة من الزيوف والسموم التى لا تثبت للحقيقة العلمية .

ثالثاً : نماذج من أخطاء الاستشراق

ترجع أخطاء الاستشراق فى الأغلب إلى عوامل عدة (١) ضعف الملكة الادبية فى فهم النصوص العربية (٢) جهلهم بحقائق التراث الاسلامى وعدم اطلاعهم عليه فى ينابيعه الصافية .

(٣) انخداعهم بالأسلوب العلمى المزعوم الذى يدعونه . (٤) وقوعهم تحت تأثير أهواء وانحرافات فكرية . (٥) تتبعهم الأخبار الساقطة والمبتورة والمشتبه فيها . (٦) فهم النصوص على غير حقيقتها . وهم يعملون على استقطاع النصوص ، وقلب المحاسن إلى سيئات والتشكيك فى كل شىء إيجابى بهدف تحطيم روح الأمة وإخضاع المسلمين بإضعاف الثقة فى مقوماتهم العقلية وإشعارهم بحاجتهم إلى الأمم الغربية .

(١) ومن أساليب المستشرقين فى تحريف النصوص : كأن يشير أحدهم إلى فكرة ما من طرف خفى ، ويليه آخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة ، ويأتى ثالث فيرفع هذا الحوار إلى مرتبه النظرية أما الرابع فيخلق من النظرية حقيقة وهكذا تتطور للفكرة أربعة أطوار أو خمسة إلى أن ينتهى بها المطاف لأن تصبح حقيقة مقررة . أشار إلى هذا الأستاذ خوجه كال الدين فى كتابه المثل الأعلى فى الأنبياء وهو بصدد الحديث عن تجربة واقعة اشترك فيها جماعة من المستشرقين يقول : جاء الدكتور (فيجانا) بقصة لخواها أنه عثر على ترجمة سريانية للقرآن الكريم سقط منها بعض أجزائه ، يريد بذلك أن يوهم القارىء أنه ربما ضاع شىء من القرآن وكان فيجانا قبل هذا يشكك فى صحة القرآن فباء بالفشل الذريع لذلك تراه الآن يحاذر أن يجازف برأى بيد أنه وضع العربة أمام الجواد لإقامة البرهان على أن هذا الأمر لا يعنينى الآن لأنى أحب فقط أن أبرز للناس عادة هؤلاء الدعاة وطريقتهم الفذة فى خلق (قبة من حبة) وقد ضربت المثل بهذين السيدين بنوع خاص لأنهما فرسا رهان فى هذا الميدان . يشير الواحد إلى فكرة ما ، ولكن يوحى الثقة إلى القارىء يحاول أن يصوغ فكرته فى عبارة تنطوى على الحذر وهو يعلم تمام العلم أن زميلا له من حملة الأقلام سيتقدم ليتمم مابدأه هو من إنكار وسيلة تتحول بها إشاراته وتلميحاته الخفية إلى مرتبة الحقائق الثابتة (فيما هو ظاهر) ولكى أزيد الأمر إيضاحا أذكر أن الدكتور فيجانا نفسه شديد الارتياب فى قدم هذه الترجمة السريانية المزعومة وإنما أنقل للقارىء ماقاله بنصه ونصه ، « نحن أشد الناس إدراكا لخطورة ماأشرنا إليه آنفاً من قدم الترجمة السريانية ونرجو أن يكون ماحرصنا عليه من دقة التعبير رادعاً قوياً كما يقول المثل السريانى لكل عالم عربى أو سريانى سواء كان مسلماً أو مسيحياً يحاول أن يتهمنا بعدم الحذر أو التسرع فى الحكم ونحن الآن أمام نص سريانى لانعرف على وجه الدقة صفته وكنهه وقد ذكرنا أسباباً تحمل على الاعتقاد بأنه لم يصدر عن (بارساليني) ولكننا لا نستطيع الجزم فى ثقة بوقت خطه بالضبط . والآن أنقل للقارىء كلام (مرجليوث) فى مقالته (اختلاف القراءات فى القرآن) قال : لم يتعرض حتى شهر يناير فى هذا العام إلى نقد أى نسخ قديمة للقرآن ، وقد عثر الدكتور فيجانا على نسخة سريانية عريقة فى القدم ووصفها فى نشرة مكتبة جون وايلاند وله فضل السبق فى هذا الأمر وقد لفت المؤلف نفسه النظار فى كتابه (صحائف من ثلاثة مصاحف قرآنية قديمة) إلى وجود اختلافات ذات بال فى المخطوطات القديمة » يقول خوجه كال الدين . إن الانسان ليحاول فى فهم المعيار الأدبى الذى يتوخاه المؤلف فيما يكتب عن الاسلام فالأمر الذى يشك فى قدمه نفس الشخص الذى عثر عليه يصبح أمراً عريقاً فى القدم عند مرجليوث فى أقل من عام وتعتبر الجملة الأخيرة فيما اقتبسناه عن كلام مرجليوث مفتاحاً لسر الموقف الحقيقى فإن الدعاية التى قامت على تلك الصحائف المزعومة قد تخلى عنها صاحبها لأنه قطع الأمل منها . ولكن ها هو ذا آخر يقوم فيذكرها بعبارات لا لبس فيها ولا إبهام وإنى لأتوقع أن يقوم ثالث يكتفى باقتباس هذه العبارة من كلام مرجليوث (اختلافات ذات بال فى المخطوطات القديمة) وبذلك تصبح حجة فى التدليل على عدم صحة القرآن فى الكتاب المقدس .

هذا هو الأسلوب الذي يلجأ إليه هؤلاء الحذاق في استغلال الجماهير فليدبر مرغليوث الأمر قبل أن يتقدم على أمر جديد، أليس قد وضع في يد الخصم سلاحاً يحارب به القرآن، إن ما كتبه فنجانا قد يختفي ولكن إسمه سوف يحتج به في تأييد هذه الزعم الذي لم يقله فهل يليق بمرجليوث أن يستعمل عبارة (عريقة في القدم) مع أن الدكتور فنجانا نفسه لم يقل ذلك بل يرى خلاف هذا الرأي، ا. هـ

رابعاً: تزييف للنصوص

من أبرز أخطاء الاستشراق تزييف النصوص. فقد اتجه كثير من المستشرقين إلى تزييف النصوص لإثبات الافتراضات التي قدروها: وأمامنا محاولة المستشرق الأشهر (هاملتون جب) حين نقل نصاً من كتاب حجة الله البالغة للشاه ولي الله الدهلوي ج ١ ص ١٢٢ حيث قال الدهلوي إن النبي ﷺ بعث بعثة تتضمن بعثة أخرى، فالأولى إنما كانت إلى بني إسماعيل هذه البعثة تستوجب أن تكون مادة شريعته ماعندهم من الشعائر وسنن العبادات ووجوه الاعتقادات إذ الشرع إنما هو إصلاح ماعندهم لا تكليفهم بما لا يعرفونه أصلا، نقل جب هذه العبارة تاركا ماقبلها وما بعدها، والعبارة مغمورة في كلام طويل من حولها وذلك ليحاول أن يستشهد بالدهلوي على ماذهب إليه من انقطاع الصلة بين محمد وبين دين إبراهيم.

هذا الذي انتزعه جب له تكملة جاءت بعد ذلك مباشرة يقول الدهلوي: اعلم أنه ﷺ بعث بالحنيفية الإسماعيلية لإقامة عوجها وإزالة تحريفها وإشاعة نورها، وذلك قوله تعالى (ملة أبيكم ابراهيم) ولما كان الأمر على ذلك وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة وسننها مقررة إذ النبي إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة راشدة فلا معنى لتغييرها وتبديلها بل الواجب أن يقررها لأنه أطوع لنفوسهم وأثبت عند الاحتجاج عليهم وكان بنو اسماعيل توارثوا منهاج أبيهم اسماعيل فكانوا على تلك الشريعة إلى أن وجد عمرو بن لحي فأدخل أشياء برأيه الكاسد فضل وأضل، وشرع عبادة الأوثان وسيب السوائب وبحر البحائر فهنالك بطل الدين واختلط الصحيح بالفاسد وغلب عليهم الجهل والشرك والكفر فبعث الله سيدنا محمداً مقيماً لعوجهم ومصلحاً لفسادهم إلخ ولاريب أن (جب) وقف على هذا النص وتجاهله وتغافل عنه واستند على الدهلوي في نص آخر سابق له بأسطر ليؤدي به فكرة تتعارض تماماً مع ماجاء به الدهلوي.

(٢) من أخطائهم سوق الخبر مقطوعاً عن مصدره ومصبوغاً بصبغة التعميم. ومن محاولاتهم اتخاذ أخبار الآحاد التي لم تثبت مصدراً لوضع قاعدة بينما لا توضع القواعد إلا نتيجة لأخبار يتعدد صدورها في اتجاه واحد وتثبت مصادرها. ومن هذا نرى فون كريمر وجولد زيهر يقولان إن المسلمين بحثوا في موضوع غريب وهو هل تنكح العجم نساء العرب في الجنة. والهدف المسموم من وراء إيراد مثل هذه الأخبار معروف وذلك هو إيقاع الخصومة بين العرب والعجم من ناحية والقول بأن الفتوحات الإسلامية لم يكن وراءها إلا محاولة للسيطرة العربية والموضوع كما أورده المبرد في كتابه الكامل لا يوحي بمثل هذه النظرية فإن الذين بحثوا هذا الموضوع لم يكونوا غير أعرابي واحد جاء من

البادية وسمعه الأصمعي يقول للآخر أترى هذه العجم تنكح نساءنا في الجنة فقال : أرى ذلك والله بالعمل الصالح : وهذا الخبر قد رواه المبرد وضعف ثبوته أي أنه شك فيه ولكن المستشرقين كيف يتركونه من دون أن يعتبروه ظاهرة عامة ويستخلصوا منه قاعدة مريضة :

(٣) من أعمال المستشرقين : « التزوير » وقد كشف الأستاذ محمد إبراهيم خبير الخطوط عن أنه في سنة ١٨٥٠ قام أحد المستشرقين الفرنسيين بتزوير أهم وثيقة تاريخية إسلامية تهم العالم الإسلامي كله ومضت الوثيقة المزيفة مكانها طوال هذه السنين دون أن يكتشف حقيقتها أحد . هذه الوثيقة هي كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط في مصر الذي بعث به النبي في العام السابع من الهجرة ضمن الكتب الثمانية المرسلة إلى الملوك والقياصرة والعظماء يدعوهم فيها الرسول إلى الدخول في دين الله ولم يقف المسلمون على أثر لهذه الكتب الثمانية إلا الكتاب الذي أرسله النبي محمد إلى المقوقس حاكم مصر والذي نقلت صوره كتب التاريخ منذ أوائل القرن العشرين . هذا الكتاب قد تبين للأستاذ محمد إبراهيم الذي حصل على صورة منه من دار الآثار النبوية في استانبول واستخدم خبرته في الخط العربي وقراءة بعض الكتب التاريخية والإسلامية القديمة أنه خطاب مزيف . وأنه في ذلك العصر لم يكن تنقيط الحروف مستعملا بل كانت مهملة ولم تستعمل إلا في أواخر القرن الأول الهجري .

تزوير كتاب النبي محمد إلى المقوقس

منذ أكثر من ١١٧ عاماً قام أحد المستشرقين الفرنسيين بتزوير أهم وثيقة تاريخية إسلامية . وبقيت الوثيقة المزيفة مكانها طوال هذه السنين دون أن يكتشف حقيقتها أحد رغم أن كثيراً من علماء الدين والآثار رأوها أكثر من مرة ولم يكتشفوا التزوير الذي كان واضحاً بها . الوثيقة هي كتاب النبي محمد ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط في مصر الذي بعث به النبي في العام السابع من الهجرة ضمن الكتب الثمانية المرسلة إلى الملوك والقياصرة والعظماء يدعوهم فيها إلى الإسلام .

في عام ١٨٥٠ كان المستشرق الفرنسي (ايتان بارتلي) يزور أحد الأديرة في صعيد (أخميم) فلفت نظره مغلف بالجلد وعليه حروف وكلمات بالخط الكوفي استعان بالمستشرق الإنجليزي (بلين) لحل رموز هذه الأحرف وأعلن الإثنان أن الورقة ربما تكون خطاب النبي محمد إلى المقوقس حاكم مصر ثم حملها المستشرق الفرنسي بارتلي إلى الأستاذ لعرضها على السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين . نشر بعد ذلك في الصحف الفرنسية أن المستشرق الفرنسي بارتلي عثر في ديسمبر سنة ١٩٥٠ على رق بال قرب دير أخميم فيه آثار كتابة عربية وأن الرق كان ملصقاً بأوراق أخرى قبطية على جلدة كتاب قديم فاضطر لفصله باستخدام الماء ولكنه إزداد تهرؤاً إلا أنه احتال في حفظه وتسويته تسوية صحيحة ولكنه لم يجد عليه من الكتابة إلا كلمات متقطعة وأحرفاً مبعثرة وتبادر إلى ذهنه أنه خطاب النبي محمد إلى المقوقس ولما عاد إلى الكتب التاريخية القديمة المكتوبة بحبر مشابه لما كان يستعمله العرب قام بإضافة بعض الحروف والكلمات التي زالت عندما اضطر لفصل الرق بالماء ورده إلى نحو ما كان عليه من قبل

ويقول محمد إبراهيم أستاذ الخط العربى فى حديث إلى محمد حسين شعبان أنه بعد أن سافر فى رحلة قصيرة إلى تركيا وزار دار الآثار النبوية فى استنبول وقام بنقل صورة خطاب النبى محمد إلى المقوقس عكف على دراسة هذا الخطاب المدعى لاستخلاص الحقيقة مستخدماً خبرته وفنه فى الخط العربى وقراءة بعض الكتب التاريخية الإسلامية القديمة وخلاصة الرأى قوله . تبين من الوثائق التى بين أيدينا من الخطوط القبطية المقطورة إلى العربية ما يؤكد أن الخط الذى كتب النبى إلى المقوقس لم يكن هو المستعمل فى عصر الرسول لأن الكتابة العربية فى أول عهدها كانت متشابهة ولم تكن هى الكتابة الكوفية كما هو شائع لأن مدينة الكوفة التى نسب إليها الخط الكوفى لم تكن قد أنشئت بعد بل تم إنشاؤها فى عام عشرين للهجرة ومن ثم فلم يكن ظهور الخط الكوفى إلا بداية تطور جديد للخطوط التى سبقته منذ عصر النبى وورد فى الرسالة كثير من الأخطاء كوضع النقط فوق الحروف والنقط فى ذلك العصر كانت مهملة ولم تستعمل إلا فى أواخر القرن الأول الهجرى .

الباب الأول

صفحات من تاريخ الاستشراق

(١) الاستشراق غربياً . (٢) الاستشراق يهودياً

الفصل الأول

الاستشراق غربيا

بدأ الاستشراق « نصرانياً » يصدر عن الكنيسة التى خشيت أثر الإسلام فى نفوس أهل أوربا بعد عودة بقايا الحملات الصليبية التى عادت تحمل إلى الغرب صورة رائعة عن سماحة الإسلام والمسلمين ثم لم يلبث الإستشراق أن تحول « استعمارياً » فى خدمة الدول الاستعمارية وخاصة انجلترا وفرنسا وهولندا وتبين أن العدد الأكبر من المستشرقين كانوا على صلات وثيقة مع الكنيسة وفى نفس الوقت مع وزارات الاستعمار . ويمكن أن يوصف الاستشراق فى هذه الفترة بأنه استشراق « غربى » غير أن نوعاً آخر من الاستشراق مالبث أن ظهر : ذلك هو الاستشراق اليهودى الذى قام به أمثال مرجليوث وبرنارد لويس ، وجولد زيهر وأمثال جارودى وردنسون فى السنوات الأخيرة . ولا ريب أن الاستشراق اليهودى كانت له أهدافه وغاياته التى قد تتفق مع أهداف الاستشراق الغربى وقد تختلف عنه والمعروف أن الاستشراق اليهودى قد عمل ومازال يعمل فى خدمة أهداف الصهيونية ويحمل لواء فكرها ومفاهيمها فى محاولة لتزييف مفهوم الإسلام وفرض مفهوم اليهودية التلمودية . وقد تطورت أساليب الاستشراق مع هذا الزمن الطويل ، ولكن هذا التطور لم يكن إلا محاولة الخداع وتغطية الغايات الحقيقية وتجنب أساليب المواجهة ، غير أن هذه الأساليب وإن بدت تحمل طابع الاعتدال أو الترفق فى المواجهة إلا أنها مازالت تستهدف إثارة الشبهات وبث السموم . وآية ذلك مايقوله المستشرقون المحدثون أنفسهم : فيقول « هاملتون جب » : لقد قامت فى صفوف المستشرقين فى السنوات الأخيرة محاولة إيجابية تحاول النفاذ بصدق وإخلاص إلى أعماق الفكر الدينى للمسلمين بدلا من السطحية التى صبغت دراساتهم السابقة ولكن رغم ذلك فإن التأثر بالأحكام التى صدرت مسبقاً على الإسلام والتى اتخذت صورة تقليد منهجى فى الغرب لايزال قوياً وبحوثهم لا يمكن إغفالها فى أية دراسة لهم عن الإسلام . ويقول برنارد لويس إن آثار التعصب الدينى الغربى لاتزال ظاهرة فى مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة وراء الحواشى المرصوصة فى الأبحاث العلمية » . ويقول الباحثون إنه رغم ادعاء المستشرقين بأن أبحاثهم أخذت شكل الموضوعية والتجرد من الأهواء والأخذ بأسباب البحث العلمى

وما تمليه النزاعة الصليبية فإن الصورة المشوهة والحقد الدفين مازال قائماً وخاصة فى تصور القرآن وتصور الإسلام وتصور الرسول . ذلك أن الصورة التى شكلها الاستشراق إنما استمدها من مصادر كنسية بيزنطية وأسبانية كتبت إبان الصراع الشديد وخلال الحروب الصليبية وحملات بطرس الناسك . وقد ظلت هذه الكتابات مصدراً لكل كتاب الغرب وفنانيه سجلها دانتى وفرجيل وفولتير وديدرو وقد ركز الاستشراق الغربى على عملين أساسيين :

أولا : إثارة الشبهات حول الإسلام ورسوله وكتابه وحول تاريخ الإسلام . ثانياً : إعلاء شأن الجوانب الضعيفة والمضطربة كالتصوف الفلسفى والفرق المعارضة للإسلام وشعراء الهجاء والغزل الجنسى وشخصيات الزنادقة والشعوبيين أمثال : أبو نواس وبشار وابن الراوندى والحلاج وابن عربى . وقد عرف عن أبرز هؤلاء المستشرقين اتصالهم بالكنيسة ودوائر الاستعمار فى نفس الوقت وخدماتهم المزدوجة للجانبين بمفهوم أن الاستعمار هو المنطلق الطبيعى للتبشير وإفساح المجال أمام الإرساليات وإعداد الأجيال المسلمة إعداداً يجعلها خاضعة لبرامج التغريب والغزو الثقافى فليس هناك فى الواقع خلاف بين الهدفين المتكاملين . ولقد كان من أخطر أعمال الاستشراق : العمل على فرض السيطرة على الجامعات ومجامع اللغة ودوائر التعليم والثقافة واستقطاب المفكرين المسلمين لآراء الغرب فى محاولات دائبة للسيطرة على مناهج البحث وفرض نظريات النقد الأدبى ودراسات الاجتماع والاقتصاد . كما تمت السيطرة على دوائر المعارف وخاصة دائرة المعارف الإسلامية والمنجد والموسوعة الميسرة وهى جميعها موجودة الآن فى أيدى باحثينا وشبابنا وكلها مليئة بالسموم . وقد ضمت دائرة المعارف الإسلامية عند صدورها عدداً من متعصبى المستشرقين أمثال : هوار ، فولوس ، برتولد ، زترانستين ، هورفيس ، بكير ، مارسى ، باسى ، وغيرهم من الهولنديين والفرنسيين والألمان وأغلب هؤلاء مسيحيون متعصبون أو موالون للصهيونية أو يهود ولهم دراسات معروفة من قبل عن الإسلام استهدفوا فيها إثارة الشبهات وإلقاء بذور الشك حول مفاهيم الإسلام وقيمه الثوابت ، ومن هنا فقد أصبحت دائرة المعارف الإسلامية حصيلة جامعة ومختصرة لكل السموم التى وزعها هؤلاء المستشرقون على مئات من الدراسات . كذلك فقد سيطر المستشرقون على مجامع اللغة ، ومثلا فإن مجمع القاهرة الذى أنشىء عام ١٩٧٣ ضم جب (لندن) فيشر (لينبرج) نلينو (روما) ماسينيون (فرنسا) فنسنك (لندن) وكلهم من متعصبى المستشرقين ومن الذين يجمعون بين العمل فى دوائر الاستشراق الكنسى والاستشراق الاستعمارى . وفى الجامعة المصرية كان حشدهم الأكبر . وكانت آراؤهم حجة لاتقبل الجدل وكتبهم مراجع مقدسة .

(٢) إذا أردنا أن نلم إلمامة مريعة بأعمال الاستشراق الغربى (المسيحى الاستعمارى) لنتعرف على الوجهة التى يقصد إليها فإننا نجد هذه الاهتمامات : نجد (ديلاس أوليرى) مؤلف كتاب الفكر العربى ومكانه فى التاريخ المترجم إلى اللغة العربية يضع نصب عينيه التفرقة بين الشعوب السامية والآرية فى الأصالة والخلق والتفكير ويبالغ فى دعوى تأثر الفكر الإسلامى بالفكر الإغريقى .

والعرب فى نظر أوليرى ليسوا إلا مجرد نقلة للتراث الإغريقى الذى لم يكن لهم فضل الاتصال به مباشرة وإنما قدمه لهم السريان .

وهو من الذين يرددون دعوى المنصرة فيقول إنه لم يحمل الثقافة العربية رجال من دم عربي محض بل موالى من الشعوب التى فتح العرب بلادها. ويسرف أو يهوى فى تصوير تأثير التراث الإغريقي المترجم فيراه الأساس الذى تشكلت وفقاً لمقتضياته الحضارة الإسلامية وهو رأى باطل ويتجاهل الأساس الأصيل للثقافة والحضارة الإسلامية وهو القرآن والسنة كذلك فإن أوليرى لا يفوته أن يتهم الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه كان على صلة بعملاء من النساطرة (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) . أما المستشرق آرثرجفرى فقد كان اهتمامه بالبحث عن عمل من أعمال خصوم الإسلام ليجدده ويبعثه ويثير عن طريق إعادة طبعه الشبهات ولذلك فقد قام على نشر كتاب عنوانه المصاحف وهو الكتاب الذى ألفه عبد الله بن داود السجستانى وهو من آثار التشكيك التى أنكرها العالم الإسلامى منذ صدورها .

ويقوم هذا الكتاب على فكرة التشكيك فى القرآن الكريم على ما جمعه الخليفة عثمان وفى الادعاء بأنه وقع بالكتاب الكريم كثير من الحذف والزيادة فى مواطن مختلفة ينوه بها مؤلفه ويورد عليها أمثلة وعندما صدر هذا الكتاب لم يحفل به علماء القرآن والمتكلمون المسلمون ، وبقى مطموراً فى أقبية بعض المكاتب العامة والخاصة حتى فكر المستشرقون فى نشره ، وتولى ذلك المستشرق آرثر جفرى ومهد له بمقدمة طويلة بها كثير من المغامز التى تؤيد غايته من نشر الكتاب . أما المستشرق بلييف فهو يرى أن مسيلمة وتعاليمه سبقت القرآن ومحمداً ويصل فى مغالطته إلى حد قوله أو مسيلمة كان معاصراً أسبق ومعلماً وحليفاً فيما بعد لصاحب الشريعة الإسلامية ، وأن مواعظه تكاد تسبق السور المكية ، ثم يقول إن القرآن قد اشترك فى وضعه أناس من جزيرة العرب وخارجها وليس من تأليف شخص فرد (يعنى النبى) إذ أنه يجد مادته شديدة التنوع والاختلاف وكذلك ديباجته .

أما المستشرق يوسف شخت فهو يتابع أستاذه اليهودى (جولد سيهر (فى النقض من شأن الشريعة الإسلامية ويحاول الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لا تختلف عن أعراف الجاهلية وهو ادعاء مكذوب تصدى له كثير من الباحثين . ومن أكاذيبه وأحابيله الادعاء بأن للفكر الإغريقي فضلا على الحضارة الإسلامية ، وقد أثبت علماء الغرب أنفسهم (سيديو - درابر - سارطون) وغيرهم أن الإسلام هو الذى أدخل إلى الغرب المنهج العلمى التجريبى وأن الحضارة العالمية مدينة للمسلمين بهذا المنهج الذى هو أساسها الأصيل. وقد اهتم (إدوارد وليم لين) برسم صورة المجتمع المصرى فى سنوات طويلة والقول بأن هذا هو المجتمع الاسلامى المصرى وقد عمد إلى جمع كل الخرافات والأساطير والتقاليد وقد كان من أعماله ترجمة ألف ليلة وليلة ليتخذها ذريعة لتصوير المجتمع الإسلامى القديم فى حين أن هذا الكتاب لا يمثل إلا مجتمعاً جاهلياً سابقاً للاسلام واهتم كونيلوس فان ديك بالتركيز على المترجمين السريان والنصارى ودراساتهم ومحاولة نسبة الفضل فى الترجمة إليهم لا للعرب ولا للمسلمين والقول زوراً بأن هذه الترجمات هى التى أعطت الفكر الإسلامى مصادره . وعنى (أستانلى لين بول) بتشويه تاريخ المسلمين فى المغرب وصور نضالهم فى مواجهة الغزوات البحرية الأوروبية بأنه عمل من أعمال القرصنة وله

كتاب أطلق عليه قرصان البحر وفيه فصل عن الغارات البحرية التى كان يقوم بها عرب شمال إفريقية رداً على الغزوات الأوربية النصرانية على الإسلام والمسلمين فى الأندلس خلال القرون ١٦ و١٧ و١٨ وكان معظم قادة هذه الحملات من سلالة المسلمين الذين نفوا من أسبانيا . وعنى (نولدكه) باللهجات العامية الحديثة وبذل جهوداً كبيراً فى دراستها كما اهتم بالنحو العربى فى محاولة لتصويره متأثراً بالنحو الفارسى وهى نظرية باطلة حاول هذا المستشرق الترويج لها . وعنى المستشرق (جلارزا) بأن يصور المسلمين والعرب كأتباع للفلسفة اليونانية وأنهم لم يعرفوا إلا ما ترجم من أرسطو وأفلاطون وقال إن الفلسفة الإسلامية هى فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية . أما سيديو فإنه حاول التقليل من شأن الدور الذى قام به المسلمون فى مجال الحضارة والعلم .

وأنكر (برتلو) الكتب اللاتينية الكيماوية التى تحمل اسم جابر ابن حيان لمجرد أن أصولها العربية فقدت وقد تصدى لبرتلو علماء راسخون وأوضحوا أنه كان مخطئاً تماماً بل لقد اتهمه البعض بالجهل والتحيز والعمد . وقال جورج سارتون إن أى شخص يعرف العربية لا يخطىء مطلقاً فى اكتشاف أن هذه الكتب اللاتينية ترجمات لكتب عربية إذ تبدو الأساليب العربية واضحة من الترجمة اللاتينية سواء أكانت لجابر أم لغيره من العرب .

وأنكر دوزى تأثر شعراء التروبادور بالشعر الأندلسى وقد أثبت كثير من علماء الغرب فساد وجهة نظر دوزى وصحة هذا التأثر . أما جيوم فيفترى على الرسول إفتراءات لا توجد فى أى كتاب سيرة ويدعى أن لديه بقايا من سيرة ابن إسحق . واهتم بلاشير بالمتنبى من أجل التشكيك فى نسبه وتقديم حكاية نبوة المتنبى وقد نظر إلى شعر المتنبى بعين الغربى المتعصب فلم يفهم مداه من ناحية البلاغة فضلا عن أنه أراد الغض من شأن هذا الشاعر الذى جدده الأدباء العرب لأنه يمثل بطولة العرب ومقاومتهم الظلم : والمعروف أن أغلب شعر المتنبى كان فى مدح سيف الدولة الذى هاجم الغزو الرومانى ويخطىء المستشرق كوبيتو فى ترجمة الأسفار الملا صدراً فيتوهم أن المقصود بالأسفار السياحات ولذلك اختار كلمة (Voyage) والحال أن مقصود المؤلف من كلمة أسفار جمع سفر ومعناها الكتاب، ومقصود المؤلف من الأسفار الأربعة الكتب الأربعة لا السياحات الأربعة كما فهم المستشرق المذكور . ويزعم سدرسكى أن جانباً عظيماً مما ورد فى القرآن والتفاسير والسير من الأخبار يرجع إلى (الإجادة اليهودية) والأناجيل والتوراة الموضوعة وقد أشار الدكتور بشر فارس إلى فساد هذا الرأى وقال إن بين النصوص الاسلامية والنصوص اليهودية والمسيحية مسافات وإن اتفق لبعضها أن تتقارب .

وحاول (كارل نلينو) أن ينفى الحقيقة التى تقول بأن قريشاً كانت أفصح العرب وله فى ذلك مغالطات واسعة ترمى إلى التشكيك فى هذه الحقيقة ويقول إن تفضيل لغة قريش لم يكن مصدره سوى حب العرب للرسول . وهو من أوائل المشككين فى وحدة اللغة العربية فى الجزيرة ومحاولة القول بأن هناك « لغتين » هما لغة الجنوب وهى النظرية الباطلة التى ردعليها كثير من الباحثين واعتمد عليها الدكتور طه حسين فى التشكيك فى وحدة اللغة العربية .

وقد أولى الجاهلية عناية فائقة واهتم بها من باب الدعوى بأن العرب كانت لهم حضارة قبل الإسلام وأن ماجاء به الإسلام لم يكن أمراً ذا بال . أما لويس شيخو فأخذ على نفسه أمراً غاية فى الصعوبة هو تنصير بعض شعراء الجاهلية ممن لم يكن لهم من النصرانية حظ كما فعل بالسموءل وقوله إن بنى غسان نصارى وهو قول لا يسلم به المطلعون على أخبار العرب فى عهد الجاهلية لأن من غسان من كان على الوثنية ومنهم من دان باليهودية وطائفة كانت على النصرانية وممن نصرهم من شعراء العرب الاخنس بن شهاب وأمرؤ القيس ، وأمية بن الصلت وحسان بن مرة كما نصر عدة قبائل وبطون مثل كندة ومذحج وطيء وتغلب . أما هنرى لامنس فقدكان عمله هو تحريف النصوص وتهويها والتلاعب بالعبارات للطعن فى العرب والمسلمين لم يتقصد الكشف عن الحقيقة بل الدس والتضليل ومن هدفه التشكك فى تاريخ ميلاد الرسول المجمع عليه ٥٧٠ م وحاول أن يرسم صورة مشوهة لفاطمة الزهراء دون أى مستند تاريخى موثوق ، كما اندفع فى أهوائه ونسب إلى الرسول الخداع والتضليل ، وأكثر الباحثين الغربيين قد انتقدوا لامنس وفضحوا مغالطاته وحذروا من الاعتماد عليه وقد وصف أكثر غلط مارجليوث بأنه يرجع إلى التحكم فى الاستنباط القياسى الجزئى وبيان أسباب الحوادث . وقدكان لامنس حريصاً على إيقاع التناقض بين نصوص القرآن بين الأحاديث النبوية بهدف التشكيك فى الاستناد على الحديث كمصدر وثيق ، أما محاولة بروكلمان فهى القول بأن المصادر الأصلية للقرآن مأخوذة من النصرانية فقد حاول كل منهم أن يتخصص فى جانب من جوانب الشبهات المثارة : قال كارنونا إن القرآن فى مكة من وحى النصرانية وفى المدينة من وحى اليهود .

وقال مرجليوث : إن الإسلام معناه الذل والخضوع . وقال توينبى : إن اللغة العربية لغة دينية .

وحاولت إتهامات المستشرقين أن تقول بأن القرآن فيه تعارض وتضارب وجرت أبحاثهم وراء كل الشبهات حول لغة القرآن وهل هى لغة قريش أو لغة الشعر الجاهلى . نزول القرآن هل باللفظ أم بالمعنى ، المحكم والمتشابه ، الناسخ والمنسوخ وهناك محاولة للقول بأن العرب كانوا أمة قبل الإسلام وكانت لهم حضارة وأن دور الإسلام فيهم لاأهمية له . والواقع أن العرب لم يكونوا أمة قبل الإسلام ولم تكن لهم حضارة ولم يكونوا شيئاً مذكوراً إلا بالإسلام ولم يكن لهم أدب إلا قصائد العصبية وسجع الكهان .

(٣) وقد ركز الاستشراق الغربى (المسيحى الاستعمارى) على دراسة :

(١) الحركات المضادة للإسلام والتوسع فيها (٢) الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ (٣) النصوص المتناقضة والاهتمام بما كان منها مفرداً شاذاً مخالفاً للاجماع .

(٤) محاولة إعلاء الحضارات الشرقية القديمة . (٥) للبحث عن الأثر اليونانى والمبالغة فى تحديده وإكباره وجعله كأنه هو كل شىء . (٦) التوسع فى بيان الفروق الجوهرية بين الشرق والغرب ، فى محاولة الغض من شأن أمم الشرق والإسلام ورميها بالتخلف .

(٧) الاهتمام بالمذاهب الكلامية والفرق والتصوف والزندقة، وهم يركزون دائماً على الاتهام: اتهام الأدب العربي والشريعة والفكر وغيره بأنه إما فارسي الأصل أو يوناني الأصل. والهدف الأكبر هو تصوير الإسلام في صور التجزئة والضعف والصراع بين المذاهب المختلفة وتجديد بعث الفرق القديمة حتى لا يلتئم جمع المسلمين. ولقد حمل المستشرقون كل بذور السموم والدعوات الهدامة التي انتشرت في عالم الإسلام فهم الذين حملوا مفاهيم القوميات والإقليميات بهدف تمزيق الوحدة الإسلامية ومن أبرز هؤلاء (ليون كامون) الذي كتب عن الترك والمغول القدامى، وفمبري المستشرق اليهودي الذي عمل في الآستانة ودعا الأتراك إلى الخروج من الوحدة الإسلامية، ومن أهم الذين حملوا لواء الدعوة إلى العامية وإلى الحروف اللاتينية: ويلكوكس، وولمور، وسبيتا، وماسينيون وغيرهم وهم أصحاب دعوى أن هناك لغة عامية غير العربية هي اليونانية، ومنهم جماعة السياسيين الذين عملوا على تمزيق البلاد العربية وإثارة الصراع فيما بينها أمثال لورنس وفيلبي، وهم أصحاب المحاولة المضللة التي تقول بأن نصارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية وليس المسلمون. ومن أعمال الاستشراق (سرقة) المخطوطات الإسلامية من الشرق وهي جريمة بدأت منذ عام ١٣١١ م قام بها القناصل والرهبان واستولوا بها على كل المخطوطات الموجودة في المساجد والزوايا وقد جمع أحد الرهبان (زانسي) ستة آلاف مخطوط من الشرق نقلها إلى ميلانو وقد توالت بعثات الاستعمار والفاتيكان إلى العالم الإسلامي لجمع المخطوطات وكان الهدف هو « حبس التراث الإسلامي في مكتبات الغرب واتخاذه سلاحا ضد المسلمين، فهم يبرزون الكتب التي تثير الفتن: كتب الخلاف المذهبي والتصوف الفلسفي والشبهات ويخفون كتب العلوم فيأخذون نظرياتها وينسبونها إلى أنفسهم وعلمائهم ويحرمون أصحابها منها إن معظم الكتب التي جددها المستشرقون وأعادوا ابتعاثها كانت تستهدف إذاعة آراء معينة وتيارات مضللة ولذلك فإنه لا يمكن القول بأن هذه الكتب قد طبعت أو حققت لخدمة الأدب العربي أو اللغة العربية ومن هذه الكتب: ألف ليلة وليلة، تهافت التهافت لابن رشد، انساب الأشراف البلاذري، أخبار الحلاج، الأغاني، رسائل إخوان الصفا الخ.

ثانيا: المستشرقون في حملة الحقد والتعصب

من أبرز المستشرقين الذين لهم دور خطير في توجيه حركة الاستشراق الغربي لويس ماسينيون وهاملتون جب وهنري لامنس وجوستاف فون جرد نباوم، وكرستيان سنوك هرجورنجه. أما لويس ماسينيون فقد كان يعمل في وزارة المستعمرات الفرنسية وقد حمل لواء الدعوة إلى الحروف اللاتينية واهتم اهتماماً شديداً ببعث التراث الصوفي الفلسفي الذي لا يعترف به الإسلام ممثلا في الحلاج وكتابه الطواسين وداوم على ذلك أكثر من أربعين سنة وقد كان ماسينيون قاسماً مشتركا على الجامعة المصرية القديمة والمجمع اللغوي وألقى أكثر من أربعين محاضرة حول المذاهب الفلسفية في الإسلام، ولم يقف اهتمامه بنشر سموم الحلاج، بل اهتم بابن سبعين وأبي الحسن التستري وروزبهان البقلي كما اهتم بمذاهب الباطنية وما تفرع منها واهتم بالقرامطة والنصيرية ودرس المصطلحات الصوفية.

وكتب فى دائرة المعارف الإسلامية ، مواد القرامطة ، التصرف ، الزنج ، ومادة زنديق ، وزهد وحاول أن ينسب الإنجازات الإسلامية فى الفلك إلى الغرب فكتب ماأسماه غيوم (مجـــلان) وهى الكواكب التى اهتدى بها مجلان عندما دخل المحيط الهندى وبواسطتها استطاع أن يتم دورته حول الأرض والمعروف أن الملاحين العرب قد اكتشفوا هذه النجوم قبل (مجلان) بزمن طويل وكانوا يهتدون بها فى الملاحة ويسمونها (البقر) .

وقد أشار الباحثون إلى نشاطه الكبير بالتعاون مع تلاميذه فى نشر العامية فى المغرب والجزائر وتونس ومصر وسوريا ولبنان . ومن تصريحاته المشهورة قوله . لم نبحث فى الشرق إلا عن منتفعاتنا ولقد هدمنا كل ماهو خاص بهم فدمرنا فلسفاتهم ولغاتهم وأدبهم . والشرقيون ليسوا من السذاجة حتى يعتقدوا بكرم أخلاقنا وقد تحققوا بالشواهد أننا نعمل على أن نستبقيهم ضعفاء .

ولما هبط دمشق فى أوائل الاحتلال الفرنسى كان مما قاله المجمع العلمى إن إهمال الإعراب بيسر تعلم اللغة العربية على الأجانب ويكون فى الوقت نفسه تجديداً يليق بمؤسسة كالمجمع . وكرر دعوته عام ١٩٢٨ فى أندية الشباب العربى فى باريس غير أنه لم يجد آذاناً صاغية بل وجد رداً عنيفاً ومعارضة شاملة وكان الدكتور زكى مبارك من أبرز الذين حملوا عليه وعارضوه فقد كتب فى جريدة المساء القاهرية من باريس فى ٢٧ فبراير ١٩٢١ تحت عنوان ماذا يريد بعض المستشرقين باللغة العربية قال :

إن الفرنسيين يريدون أن يختصروا الطريق هم يريدون أن يستريحوا من اللغة العربية ومن الإسلام وسبيلهم إلى ذلك أن يقنعوا بعض الأنذال من أهل الشرق بأن اللغة العربية أصبحت فى عداد اللغات الميتة وأن الإسلام لا يصح أن يكون أساساً لمدنية جديدة ، وأنه لا يليق بالرجل المصرى أن يكون متديناً لأن الديانات لم تكن إلا لهداية الرعاع . ومن المحزن أن هذه الدعايات يقوم بها أناس كنا نظنهم من أهل المروءة والشرف فإنى أفهم أن يكون الرجل من طلاب الملك والفتح والسيطرة ولكنى لا أفهم كيف يتفق لرجل قضى خمسين عاماً فى التقرب إلى اللغة العربية والإسلام أن يزعم أن لغة العرب لا تستطيع وعى العلوم الحديثة ولا يمكن أن ينتشر بها التعليم الحديث وهم يقولون ذلك حرصاً على منفعة أتباعهم فى المستعمرات الفرنسية فيما يزعمون ولكن الغرض المستور هو القضاء على التقاليد العربية والاسلامية ليخلوا الجو للغة المستعمرين .

ولقد وقف أحد المستشرقين الفرنسيين (يعنى لويس ماسينيون) يخطب فى بيروت وكان من همه أن يبث سمومه فى الشباب السورى فزعم لهم أن كرامة اللغة العربية توجب أن تتفرع إلى لغات عديدة كما تفرعت اللغة اللاتينية ، فيا سعادة الشرق العربى إذن حين تصير اللغة العربية إلى مثل صارت إليه اللاتينية فقد ماتت لغة الرومان حيث لا رجعة وهذا هو الفخار الذى يطلبه ذلك المستشرق للغة العربية فأكرم به من صديق . ومن نوع ذلك الخلط مازعم المستشرق المغرض عن الحروف العربية فقد ألقى محاضرة فى الكوليج دى فرانس أبان فيها أن لا حياة للغة العربية إلا إذا كتبت بحروف لاتينية ، إن القوم يريدون تقطيع جزء مهم من شخصية اللغة العربية ليسهل قطع ما بيننا وبين أسلافنا من الأواصر

الأدبية والروحية وفى ذلك تيسير لمهمة الدساسين الذين يريدون قتل الشرق باسم العلوم والآداب ، ا. ه

ومع هذا الدور الخطير الذى قام به ماسنيون فإننا نجد من يكتب عنه بعد وفاته فى المجلات العربية محداً ومكرماً : هذا الرجل الذى لم يدع نحلة من النحل الغالية كالقرامطة والنصيرية والاسماعيلية والحركات السرية إلا بشر بها وأعاد نشرها .

٢ — هاملتون جب

عمل هاملتون جب فى دوائر الاستعمار وكان من أبرز المستشرقين الإنجليز الذين يخدمون أهداف الاحتلال البريطانى ، وقد عرف بقيادة أخطر حركة من حركات الاستشراق وهى حركة التغريب التى تولى إعداد دارسة خطيرة عنها مع أربعة من المستشرقين تناولت العالم الإسلامى كله ، فى محاولة لفحص مدى ما وصلت إليه محاولة تغريب الإسلام والمسلمين وقد طبع هذا الكتاب وترجم إلى اللغة العربية تحت إسم (وجهة الإسلام) . وتناول الوسائل التى تعمل على احتواء الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى وركز على التبشير فى مدارس الإرساليات وتأثير الاستعمار فى مناهج المدرسة الوطنية وأشار إلى الدور الخطير الذى تقوم به الصحافة وكيف يتقدم على قيادتها العلمانيون والمتفرنجون وأولياء الثقافة الغربية حتى تظل تؤدى عملها الخطير . وأشار إلى الدور الذى قام به التغريب فى تنحية الاسلام عن عرشه من حيث هو قوة اجتماعية تسود الحياة وتوجهها وكيف أن القوانين الوضعية الغربية عملت على تقليص ظل الشريعة الاسلامية فى مجال الحياة والمجتمع . وأشار إلى التصدع الذى أصاب الجامعة الاسلامية والوحدة التى كانت تؤلف بين وحدات المجتمع الاسلامى بعد سقوط الخلافة التى كانت تعد حجر الزاوية فى بناء هذه الوحدة وإن كان جب قد أشار إلى أن زوال الخلافة لم ينل من وحدة المجتمع الاسلامى . ومن أخطر السموم التى أثارها جب فى كتابة (بنية الفكر الدينى فى الاسلام) هو ادعاؤه بأن الاسلام جاء ليضفى الصفة الدينية على تلك الاحيائيه العربية القديمة التى نسجتها الأعراف والبيئة بعد أن لم يستطع محمد عليه السلام التخلص منها ويقصد بالاحيائية : تلك العقائد الروحية الخرافية كالايمان بالسحر والتنجيم والكهانة .

وقد عرف هاملتون جب بأنه واحد من المستشرقين الذين عرفوا بمنهج محدد قوامه وضع فرضيات مسبقة يعبر بها عن غاية له ثم ينطلق فيبحث لها عن شواهد وأدلة ويجعل طرائق بحثه كلها خاضعة لسلطان تلك الفرضيات وإن جب كما يقول الدكتور البوطى وضع أمام القارىء جملة من الدعاوى والمزاعم العجيبة بأسلوب من التقرير الثابت دون أن يمد بينه وبينها أى خيط أو شريان من المؤيدات أو البراهين العلمية ، خلاصة هذه المزاعم أن بنية الفكر فى الاسلام إنما هى معظم ما كان لدى العرب فى جاهليتهم من العقائد الغيبية والطقوس الشكلية النابعة عن عقيدتهم بالأرواح (الاحيائية العربيه) فقد تأمل محمد ﷺ فيها فنفى ما أمكن تغييره ثم عمد إلى الباقى مما استعصى عليه التخلص منه فكساه حلة الدين والاسلام ثم لم ينس أن يدعم جملة هذه العقائد والرموز بهيكل من الأفكار والمواقف

الدينية الملائمة ، وهو قد سار (جب) إلى هذه الآراء من ثلاث فرضيات . أولا : فرض أن محمداً لم يكن نبياً ، ثانياً : فرض أن ماكان لدى العرب من بقايا عهد إبراهيم إنما هو من مخترعاتهم وتقاليدهم التى ابتدعوها من أنفسهم . ثالثاً : فرض أن الجان ليست إلا مخلوقات وهمية وإن كل ماجاء عنها فى القرآن والأخبار بجردوهم . وأنه فى سبيل تأييد هذا الرأى الباطل نقل عبارة مغمورة من كلام طويل ولا ريب أن الاسلام جاء فى جوهره ثورة جارفة على كل إحيائية عربية كانت أو غير عربية قديمة أو جديدة وأنه يجب التفرقة بين ماهو عادات اجتماعية وماهو طقوس دينية .

وغير صحيح ماذهب إليه (جب) من أن القرآن يعتمد على لغة الشعر ، إذ أن القرآن يلح على ناحيتين متكاملتين : ناحية القلب ويتحدث حديثاً موجهاً إلى العاطفة والعقل معاً ولا ريب أن السحر والجن حقيقتان إسلاميتان لاريب فيهما . ولكن ذلك لايعنى خضوع المسلمين للسحر والجن أما الحجر الأسود فهو رمز إسلامى وليس بمعبود لذاته وقد سجل هذا المعنى عمر بن الخطاب حين قال :

إنى أعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع ، وهو فى دراساته عن الأدب العربى استعمل أسلوبه فى انتقاص الفضل والغض من قدر الجوانب الايجابية وركز على الشعوبيين والزنادقة وشعراء الكشف أمثال بشار وأبو نواس والحلاج وابن عربى وحاول أن يصور اتصال الأدب العربى بالأدب الفارسى على أنه تأثر وتبعية .

٣ — سنوك هورجرونجه

عمل (سنوك هور جرونجة) مستشاراً بوزارة المستعمرات الهولندية فى المسائل الاسلامية والعربية وقد استطاع أن يدخل مكة فى زى طبيب عالم ويقضى بها خمسة أشهر درس خلالها المجتمع العربى هناك بين وصول قوافل الحجاج ورجوعها وفى عام ١٨٨٩ أصدر كتاباً عن مكة فى مجلدين وصف المجتمع العربى فى مكة (الأسواق ـ العبيد ـ الأماكن المقدسة ـ البيوت ـ الأعياد) .

كما درس الاسلام فى جزائر الهند الشرقية وعين ١٩٠٧ مستشاراً فى الشئون الهندية والعربية لحكومة هولندا وكتب عن سياسة هولندا إزاء الاسلام وهو فى خطته السياسية يريد أن يستبق النفوذ الهولندى فى بلاد الملايو أساساً وعلى ضوء ذلك ينصح حكومته بالتخفيف من عمل جمعيات التبشير فى تنصير المسلمين ويحذر حكومته من أخطار التعصب والاندفاع فيوصف بأنه من أقل المستشرقين تعصباً غير أن النظرة الفاحصة لتقاريره وكتاباته تكشف عن خبيئته . يقول : يجب على الحكومات الأوربية التى استولت على بلاد الاسلام أن تجتهد فى إظهار التناقض بين الاسلام والمدينة العصرية وإقناع ناشئة المسلمين بأنهما ضدان لايجتمعان فلا بد من رفع أحدهما ، ولما كانت المدينة الحاضرة هى نظام كل شىء ولامندوحة عنها لمن : يريد أن يعيش ، كان من البديهى أن الذى سيرفع من النقيضين هو الإسلام .

قال شكيب أرسلان : هذا المستشرق الهولندى وكرومر (الإنجليزى) من قادة الاستعمار يريدون إظهار عجز الإسلام عن امتصاص الأحكام العصرية وإثبات كونه نظاماً قديماً قد بلى ولم يعد صالحاً للحياة على أمل أن الفوج الجديد من المسلمين الذين لا غنى لهم عن الحياة ينبذون الإسلام وبنبذه تكون أوربا قد تخلصت من أكبر خطر يحيق بها وهو الحكم الشرعى الذى لا يجيز للمسلم أن يخضع لأمير لم يكن على غير دينه . ولقد كانت محاولة سنوك دائماً ترمى إلى دعوة الدول الأوربية المستعمرة أن تتفاهم وتتفق على موقف موحد تجاه الاسلام حتى لا يتم تضامن بين المسلمين وقول أحد مؤرخيه إنه هو وبيكر ومارتن هارتمان يتفقون على العداوة للمسلمين والتشكيك فى ثورتهم على الاصلاح والتحذير من خطرهم على المستعمرات الأوربية . ومن أقواله : إن الإسلام دين الكراهية والحرب ويجب أن لا نسمح له بالسيادة على العالم المتحضر . ولا ريب أن الاستشراق الأمريكى هو امتداد للاستشراق الغربى وإن كان فى أغلبه استشراقاً صهيونياً يهودياً نتيجة سيطرة اليهود على مراكز البحث فى الجامعات الهامة أمثال كولومبيا وهافارد ، وبريستون، وماتشجان وبروز عدد من المستشرقين الأمريكيين ذوى النحلة الصهيونية أمثال جوستاف فون جرنباوم ، وفرانز رزنتال ، وفيليب حتى . وهناك بعض المستشرقين المعتدلين أمثال جورج سارتون وتشارلز ادمز وقد قام الاستشراق الأمريكى بإرسال بعثات أثرية إلى بلاد العالم العربى الاسلامى ، وأبدت اهتمامها بحضارات آسيا وأفريقيا ودياناتها . ولا تخلو محاولات الاستشراق الأمريكى من العمل على احتواء الفكر الإسلامى والتعليم والثقافة وقد كان لها دورها القديم منذ إنشاء الجامعة الأمريكية فى العالم العربى وخاصة فى القاهرة وبيروت واستانبول ،

٤ — جوستاف فون جرونبوم

أما جرنبوم فإنه يدرس الاسلام من منطلق التفوق الغربى والحضارة الأوربية وتنتظم كتاباته مشاعر التعالى على الأجناس والشعوب الأخرى ، وتدور دراسات جرنبوم فى فلك واحد هو إثبات فضل الحضارة الهيلينية على الحضارة العربية الاسلامية وهو حين يتحدث عن الاسلام يستعمل مصطلح (المحمدية) لأنه لا يريد أن يعترف بالوحى والرسالة وينسب الاسلام إلى محمد ﷺ . ويمثل جرنبوم ذلك التيار الجديد الذى يحاول أن يرد نهضات الأمم إلى مصادر ثلاث تاريخ الاغريق وتاريخ بنى إسرائيل وتاريخ روما ويحاول جرنباوم أن يقيم نظريته على قاعدة أن بغداد وارثة للحضارة الرومانية وبذلك يجرد الاسلام من ذاتيته الخاصة والدور الذاتى الذى قام به فى مجال الحضارة والذى يختلف اختلافاً كلياً من مفهوم الاغريق والرومان تماماً وإن كان الاسلام قد استصفى خير مافى الحضارات القديمة التى يمكن رد أغلبها إلى الفراعنة والفينيقيين وهم عرب أصلا .

ويخطىء جرنباوم حين يحاول أن يرد تراث الاسلام إلى تعاليم المسيحية واليهودية من ناحية المعرفة والتاريخ اليونانى من ناحية الفكر التجريدى فإن الاسلام قد أقام فكراً جديداً على أساس

التوحيد الخالص يختلف بل ويتعارض مع مخلفات الفكر البشرى والوثنى والإباحى والمادى الذى كان معروفاً قبل ظهوره . ولاريب أن هذه المحاولة من جرنباوم هى محاولة ضالة متعصبة ، كما يقول فاروق خورشيد حيث يحاول تفتيت معطيات الحضارة الإسلامية إلى جزئيات صغيرة ورد هذه الجزئيات إلى حضارات أخرى وشعوب أخرى بحيث يصبح كل مافى الحضارة الإسلامية مقتبساً من الآخرين .

الفصل الثانى

الاستشراق يهوديا

منذ وقت بعيد جرت المحاولة على ظهور استشراق يهودى يتفق مع الاستشراق الغربى المسيحى فى الوجهة العامة من الهجوم على الاسلام ولكنه يختلف فى التماس جوانب معينة تخدم قضية الصهيونية ويستهدف القضاء على الوجود العربى فى فلسطين وماجاورها ويعمل على تزييف الحقائق الخاصة بالأصول العامة للحنيفية السمحاء التى حمل لواءها إبراهيم عليه السلام ومايتصل بأمر النبيين الكريمين : إسماعيل وإسحق ، وقد ظهر فى أفق الاستشراق اليهودى : مرجليوث وإسرائيل ولفنسون وليفى بريل وجولد سيهر وبرنارد لويس ومكسيم رودنسون وجار وردى ومير بيرجر ولم يتوقف الأمر عند هذا بل لقد استطاعت اليهودية استقطاب عدد من المستشرقين الغربيين لخدمة مفاهيمها منهم الفريد جيوم وجرونباوم ولا ريب أن اليهود فى الإسلام شبهات خاصة تتصل بموقفهم من النبى والإسلام وأنهم هم صناع الإسرائيليات القديمة والمتجددة ، وقد نشطوا فى السنوات الخمسين الأخيرة لتجديد ما كان يردده اليهود فى الماضى منذ أول الدعوة ولهم فى التاريخ الحديث مواقف تكشف هذا الخط الخطير منها ما يرددونه عن قضية الصلاة إلى بيت المقدس ، حتى أن زويمر زعيم التبشير المسيحى وزع منشوراً فى الأزهر محاولا إثارة هذا الموضوع تحت عنوان (لماذا لا نعود إلى القبلة القديمة) ونجد أن طه حسين كان من أوائل من أتى بذور الشك حول إبراهيم وإسماعيل حين أعلن أنهما شخصيتان وهميتان وإن ورد أسمهما فى القرآن . واليهود هم الذين علموه ما أذاعه فى طلبة كلية الآداب من أن القرآن مكى ومدنى وأن القرآن المكى جاف وأن المدنى رقيق والسر فى رقته هو اتصال النبى باليهود بعد الهجرة فى المدينة وهذا من سموم الاستشراق اليهودى أعلنه طه حسين فى محاضراته فى كلية الآداب فى القاهرة وتبين من بعد أنه مما دونه واحد من أخطر المستشرقين اليهود هو جولد سيهر فى كتابه الشريعة والعقيدة فى الإسلام ومن العجيب أن طه حسين نشر هذا الكتاب للمستشرق اليهودى عام ١٩٤٦ بعد أن تولى إدارة دار الكاتب المصرى أى بعد أن أذاع هذه الآراء بأكثر من عشرين عاماً ومن محاولات الاستشراق اليهودى تلك الرسائل التى ألفها إسرائيل ولفنسون عن اليهود فى جزيرة العرب وعن اللغات السامية تحت إشراف الدكتور طه حسين ثم تولى تدريسها فى دار العلوم ، وقد استطاع اليهود

التحكم فى مختلف وسائل النشر والإعلام فى العالم العربى تحكما مكنهم من بث أفكارهم وآرائهم فى مختلف دوائر المعارف العالمية والصحف والدوريات ومن هذه المحاولات التى يدعون إليها ما يتصل بالتاريخ القديم وما يتصل بالأوضاع الحاضرة فى البلاد العربية فى محاولة لتصوير العرب أمام الغرب بأنهم أقل درجة فى الحضارة وأنهم أى اليهود أحق منهم بأرض فلسطين وهم يقومون بتزييف مجموعة من الحقائق التاريخية الصحيحة للتمويه بأن لهم حقاً تاريخياً فى هذه المنطقة ، ومن أبرز هذه الدعاوى قولهم بالنظرية السامية سواء فى اللغة أو التاريخ وهى التى يستهدفون من ورائها الادعاء بأن اللغة العبرية أخت اللغة العربية وأن اليهود أبناء عمومة العرب وكلها محاولات باطلة ومضللة وأن اليهود يا غير الصهيونية وأن عبد الله بن سبأ الذى أحدث الفتنة فى عهد عثمان ليس شخصية حقيقية وإنما هو شخصية وهمية .

وقد استطاع الاستشراق الصهيونى تجنيد عدد من كتاب الغرب ومستشرقيه لخدمة أهدافه كما تمكن من تجنيد عدد من الكتاب الذين يكتبون بالعربية لحمل لواء هذه الأفكار ، وتتمثل اتجاهات الاستشراق اليهودى فى عدة شبهات . أولا) القول بأن المسلم معناه فى الأصل الخائن ، وتعليل ذلك بأن هذه الكلمة مشتقة من اسم مسلمة . (ثانياً) الادعاء بأن النبى عليه الصلاة والسلام كانت تنتابه النوب العصبية ودليل ذلك ما كان يصيبه من الجهد خلال نزول الوحى مع أنه عليه السلام لم يعرف فى تاريخه كله أنه كان يصاب بمثل هذه النوبات العصبية قبل زمن البعثة ومقدماتها ، (ثالثاً) الزعم بأن الرسول عاشر بعض النصارى واليهود فاستفاد منهم كثيراً من القصص واقتبس بعض أساليب التعبير التى لم تكن معروفة للعرب مثل : ذاق الموت ونفخ فى الصور ، وفى آذانهم وقر ، وهو ادعاء مسبوق ردده مشركوا مكة الذين قالوا : « إنما يعلمه بشر » وقد بكتهم القرآن فقال : (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون (رابعاً) الادعاء بأن محمداً ما كان رسولا ولا نبياً فزعم للعرب فى تحسس الأخبار والإسراع بنقلها بطرق لم يوفق أحد من المتحضرين حتى اليوم إلى كشف سرها ، (خامساً) أن محمداً صادق الفراسة نقاداً للرجال إذا التقى أحدهم انكشف له سره وافتضحت أمامه خفايا صدره وعرف كيف يستميله ويجتذبه إليه . (سادساً) ما كان من بلاغ النبى ورسالاته لم يكن وحياً يوحى وإنما هى أنباء وروايات يجند لها جواسيسه ورجاله أو حقائق يبلغها حذقه وفراسته . (سابعاً) تزوج الرسول بالسيدة خديجة طمعاً فى ثروتها . وهى أكذوبة لا تتفق مع ما عرف عن رسول الله من زهد فى الدنيا وأنه لم يورث أعقابه الوحيد مما خلفه بل جعله لعامة المسلمين بقوله (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقه) (ثامناً) الزعم بأنه أنشأ جمعية سرية واختار أبا بكر الصديق رئيساً لها لجهل بروح لها ويتفانى فى نشرها فكانوا يجتمعون فى بيت الأرقم وأنهم كانوا يجتمعون سراً للصلاة وقد حاول (مرجليوث) تشبيههم بالماسون وأن هذا الجمع قد اتخذ له رموزاً منها (السلام عليك) . (تاسعاً) الزعم بأن النبى نظر فى تعاليم النصارى واليهود فأخرج منها ما لا يقبله العقل وأنه وحد بين إله اليهود والنصارى وجعلها واحداً .

ولا ريب أن هذا القول باطل من أساسه ، والحقيقة أن التوحيد هو دين جميع رسل الله وأنبيائه وأن النصرانية واليهودية حرفتا هذه العقيدة . على هذا النحو حاول الإستشراق اليهودى تصوير الإسلام ورسالته ونبيه ، وهو ما أورده مرجليوث فى كتابه (محمد وظهور الإسلام) ورد عليه الشيخ عبد العزيز جاويش فوصف كتاب مرجليوث الذى ظهر عام ١٩٠٥ بأنه لم يؤلف كتابا بالإنجليزية أشد تحاملا على النبى منه فقد حاول أن يشوه كل ما يتعلق بالسيرة وأنه يشكك فى أسانيدها ولم يأل جهداً فى نقض ما أبرمه التاريخ . ويصور الشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان أستاذاً بجامعة أكسفورد كيف يتعامل مرجليوث بالنصوص التاريخية فيقول : إننى كنت مدعواً معه فى بعض المنازل فلما كنا على المائدة سألنى بعض الحاضرين : هل سبق لى أكل لحم الجزور فأجبته إنى لا أذكر ذلك وربما اتفق لى هذا وأنا صغير فلما سمع الأستاذ مرجليوث هذا الكلام قال : « كيف ذلك وعلى كل مسلم أن يأكل لحم الجمال ولو مرة واحدة فى حياته » عند ذلك اجبته وأنا دهش مما قال : ياسيدى : إننى أعرف أن قواعد الإسلام خمس أما هذا السادس فلا أعرفه ، بيد أنى استميح الأستاذ عفواً أن يذكر لى مأخذ هذا الحكم فقال ورد فى صحيح البخارى أنه قد جاء أحد اليهود إلى الرسول وقال له إنى جئت أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فأجلسه وأمر له بلحم جزور ومن هنا استنبط المستر مرجليوث أنه يجب على كل مسلم أن يأكل لحم الجزور وأن هذا من العقائد الإسلامية التى يتهدم الدين بانهدامها . فلما فرغ قلت له : إن مع وجود هذا الحديث فى البخارى فالذى يفهمه المسلم الذى يفقه اللغة العربية منه أحد أمرين : فإما أن يكون الرسول أراد أن يقدم لذلك اليهودى شيئاً من الطعام لأنه ضيفه فى بيته وإما أنه أراد أن يمتحن إيمان اليهودى بإطعامه شيئاً مما حرمه الله على بنى إسرائيل فى التوراة من أجزاء اللحم . ثم تلوت الآية المفيدة لذلك فبهت الأستاذ ولكن لم يخصر قوة المكابرة وشدة العناد التى عليها الأوربيون ولا سيما المستشرقون منهم . ويهتم الاستشراق اليهودى بإثارة مسائل ترتبط باليهود كاخراج اليهود من خيبر وقصة قبيلة بنى قريظة التى تعاونت مع المشركين يوم الأحزاب ناقضين العهد الذى قطعوه على أنفسهم ، ويقف مرجليوث موقف العداء أمام الغزوات التى قام بها الرسول لاقتلاع الوجود اليهودى ويصفها بأنها حرب انتقامية مع أن وقائع التاريخ تثبت تآمر اليهود وحكم النبى وصبره عليهم وإعطائهم الفرصة لإثبات حسن النية فى نفس الوقت الذى كانوا يواصلون مؤامراتهم وتعاونهم مع كل القوى المعادية الاسلام ، ويصل مرجليوث إلى أبعد حدود التعصب والحقد والتجرد من كل أصول الفهم للشرائع الإسلامية البشرية وأنظمة الدول حين يقول أن محاولة أحدهم قتل رسول الله لا يصح أن يكون سبباً يتذرع به للانتقام .

ومن أجل محاولة هدم اللغة العربية كانت محاولة الطعن فى الشعر الجاهلى ، هذه النظرية التى تلقفها تابع الصهيونية الدكتور طه حسين والذى قال بما قالت به اليهودية فى شأن ابراهيم واسماعيل وفى شأن « عبد الله بن سبأ » والذى ادعى أنه كان لليهودية أثر أدبى وحضارة فى الجزيرة العربية قبل الإسلام .

(٢)

وقد تابع مرجليوت على نفس الطريق فى الاستشراق اليهودى « جولد سيهر » الذى نقل الدكتور طه حسين رأيه فى القرآن المدنى والقرآن المكى ويعد جولد سيهر من أكبر الناقين على الإسلام ويعد كتابه (العقيدة والشريعة) فى الإسلام مثلا لهذا التشويه الذى حاول به تمزيق الحقائق الإسلامية والذى يمثل تزويراً فادحاً وتحريفاً خطيراً لسمعة الإسلام بأسلوب مخالف كل المخالفة للدقة فى النقد ومناقض أشد المناقضة للتمحيص فى الاستنباط العلمى على حد تعبير الأستاذ محمد المنتصر الريسونى .

ويضيف جولد سيهر إلى مفهوم الاستشراق اليهودى عدة شبهات. (أولا) القول ببشرية القرآن أى أنه ليس وحياً إلهياً وأن القرآن لم يأخذ خطاً واحداً فى التعبير عن مدلول القضايا التى ساقها . وأن أسلوبه متباين بين البيئتين المكية والمدنية وأنه كان فى المرحلة الأولى سجع وفى المرحلة الثانية سجع مجرد من الاندفاع العاطفى ، (ثانياً) أن الثقافة الهلينية كانت صاحبة الأثر الأول فى تطور الإسلام .

(ثالثاً) أن الإسلام كان مزيجاً منتخباً من الفكر اليهودى والمسيحى . (رابعاً) استقبال الرسول لبيت المقدس فى الصلاة كان استرضاء لليهود . (خامساً) إن قصة ابراهيم عليه السلام فى القرآن مفتعلة وأنها نزلت فى المدينة لإرضاء اليهود والواقع أن القرآن تحدث عن ابراهيم فى أكثر من موضع فى القرآن المكى وأهمها سورة ابراهيم . (سادساً) الفقه الإسلامى مأخوذ من الفقه الرومانى . (سابعاً) أن الإسلام قام على السيف . (ثامناً) الحديث النبوى من صناعة الصحابة والتابعين (تاسعاً) الجيوش العربية أخرجها القحط والجوع . (عاشراً) إنكار عالمية الرسالة ، ولاريب أن هذه الشبهات كلها ليست جديدة وقد كشف كتاب المسلمين فسادها ولكن الاستشراق اليهودى يركز على جوانب معينة يحاول عن طريقها مواجهة ماسجله القرآن عليهم من تزييف وتحريف وإفساد لاتجاه رسالة الإسلام منذ جاءت على يد ابراهيم عليه السلام ولسانه وماحاولوه لينتقلوا برسالة موسى عليه السلام التى جاءت على طريق الله الصحيح إلى محاولاتهم العنصرية التى حرفت التوراة ووقفت موقف المعارضة مما أنزل الله على عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ .

فهم يحرفون تاريخ إبراهيم عليه السلام تحريفاً يؤيدون به دعواهم الباطلة فى أن يجعلوا وعد الله له ولذريته (إسماعيل وإسحق) قاصراً على أبناء إسحق وحدهم وينكرون رحلته إلى مكة وبنائه الكعبة والبيت الحرام مع ابنه إسماعيل ويدعون أن الوعد لأبناء إسرائيل وحدهم ، ومن ثم فهم ينكرون عالمية الرسالة الإسلامية ويتهمون الاسلام بأنه قام على السيف ويحرفون موقف الرسول والمسلمين من الصلاة إلى بيت المقدس إلى غير ذلك من القضايا التى يثيرونها بمفهوم التعصب والخصومة .

(٣)

ولا يقف الاستشراق اليهودى عند تزييف تاريخ الاسلام بل إنه يعمد إلى مهاجمة واقع العرب القائم

باعتبارهم هم العدو الموجه لهم وخصمهم الأول ، ويركزون على انتقاص الوجود العربي ووصفه بالتأخر ويحاولون خلق خصومة بين العرب وبين أهل الغرب ، ويتزعم هذه الدعوة كثيرون من كتابهم وفى مقدمتهم المستشرق برنارد لويس منحته الجامعة الصهيونية الدكتوراه الفخرية تقديراً لجهوده فى خدمة الصهيونية ولعل أخطر أبحاث برنارد لويس : هو بحثه عن المساواة العنصرية فى الاسلام فى محاولة لتصوير الاسلام بأنه دعوة عنصرية معتمداً على بعض نصوص مقتطعة من سياقها من كتاب الأغانى وبعض كتب المحاضرات كما لجأ برنارد لويس فى الاستدلال على نظريته بأحاديث مكذوبة عن الرسول وبعض الأمثلة السائرة التى لا يمكن أن تكون سنداً علمياً صحيحاً وهو فى سبيل تأييد رأيه يبطل قيمة الأحاديث الصحيحة التى جمعها ثقاة الس .

ولاريب أن موقف الرسول من بلال وصهيب وسلمان الفارسى معروف وكذلك موقفه من حادثة أبى ذر مع بلال ومن قوله لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

وقول الرسول : إن الله قد أذهب عنكم هيبة الجاهلية وتعظمها بالآباء . وقوله ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية وركز برنارد لويس على تصوير العربى بصورة مهينة وحاول استعداء العالم الغربى على العرب بالادعاء بأنهم شعب من الهمج وأن اليهود أحق بأرض فلسطين وصحراء فلسطين منهم لأنهم متمدنون وهو فى بحثه عن العربى فى مقدمة كتاب (العرب فى التاريخ) يدور ويلف ليحاول القول بأن العربى هو البدوى لاغير فيقول : أن العرب بالنسبة لمحمد ومعاصريه هم البدو سكان الصحراء وقد استعمل القرآن هذا النص (أى العرب) على التخصيص فى هذا المعنى ولم يستعمله قط ليدل على سكان مكة والمدينة والمدن الأخرى .

ولاريب أن برنارد لويس يكشف بهذا القول عن تعصبه وعناده ذلك أن القرآن فرق بين لفظ عربى ولفظ الأعراب . وهو فى هذا يحاول الصق صفة البداوة بالعربى حتى يظل الغربيون ينظرون إلى العرب هذه النظرة وفى لسان العرب وتاج العروس أن لفظ عرب إسم جنس يطلق على هذا الجنس من الناس الذين يقطنون بلاد العرب سواء أكانوا بدواً أم حضراً وأن هناك تفريقاً بين عربى وأعرابى وأن ذكر الاعراب تحديد لسكان الصحراء الرحل وقد جاء فى القرآن عشر مرات وأنه لا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعراب وإنما هم عرب لأنهم استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن (أورد هذا التعليق الأستاذ جلال مظهر) .

(٤)

حاولت الصهيونية منذ وقت باكر تركيز دعائم الاستشراق اليهودى فى البلاد العربية وفرض مفاهيمها من خلاله . وقد فتح الدكتور طه حسين هذا الباب واسعاً حين ألقى العديد من محاضراته عن أثر اليهود فى الأدب العربى ودورهم فى الجزيرة العربية وتبعه فى هذا تلميذه اليهودى إسرائيل ولفنسون

كما عمل فى هذا الميدان بمثابرة شديدة خريجوا مدارس الارساليات التابعة للبروتستانت والذين يؤمنون بدعوى اليهود من ان لهم حقاً فى فلسطين ويعطفون عليهم وفى مقدمة هؤلاء رجال الصحافة منهم أمثال صروف ونمر ومكاريوس وتقلا وزيدان ومركيس وغيرهم الذين كانوا قد انبثوا فى مختلف أنحاء البلاد العربية وبدأ الحديث عامى إذ ذاك (إحياء الآداب العبرانية ونشرها) ولقد شهد لطفى السيد ممثلا عن الجامعة المصرية افتتاح الجامعة العبرية فى القدس كما احتفل بموسى بن ميمون فى الأوبرا المصرية فى تنظيم حشد له أعلام الأدب والصحافة والجامعة وكان إنشاء كرسى لدراسة ما أطلق عليه اللغات السامية فى الجامعة عملا من أهم الأعمال فى نشر اللغة العبرية وآدابها وخلق المقارنات بينها وبين اللغة العربية وكذلك ظهر أمثال هلال فارحى ومراد فرج وإبراك شموس يدعون إلى أحياء الفكر اليهودى: سبينوزا وغيره ويتحدثون عن تاريخ اليهود فى جزيرة العرب ومصادر التاريخ الإسلامى وانضم إليهم إسماعيل أدهم أحمد واتسع نطاق البحث حول ما أسماه طه حسين (المستعمرات اليهودية فى الجزيرة العربية) التى أثرت تأثيراً قوياً فى الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز وكتب مراد فرج: ما أسماه الشعراء اليهود العرب (١٩٣٩) جمع فيه عدداً من الشعراء القدامى وكان ذلك فى مجال الاستشراق اليهودى ماثلا لكتاب الشعراء النصارى العرب الذى ألفه لويس شيخو.

وعقد فى موناكو بإيطاليا مؤتمر اهتمت به الصحافة المصرية اهتماماً كبيراً أطلق عليه مؤتمر ثقافات البحر المتوسط وبرزت فى هذا المؤتمر الدعوة السامية فى الدين والفقه. وتعددت كتابات الأدباء عن آثار (ماكس نوردو) خليفة هرتزل فكتب عنه المازنى والعقاد وإسماعيل مظهر عديداً من الفصول وتعددت الكتابات فى الأهرام والمقطم وصحف دار الهلال عن اللغات السامية وعلماء يهود وعن عدد الترجمات التى نقلت إليها التوراة فى متابعة مستمرة وقد عمل فى هذا المجال كثيرون من الكتاب العرب الماسون أمثال محمود عزمى، وفيلكس فارس وأمين الريحانى فى خبث واستدراج وبدأ اهتمام الصحف بأمثال أميل لودفيج وفرويد وكارل ماركس. وبدأ طابع العطف على الصهيونية من خلال الحديث عن اضطهادهم فى أوربا وعلت نغمة كاذبة بالقول بأن اليهود أبناء عمومة العرب وأن اليهود يدافعون عن السامية إزاء الآرية التى هى أساس الحضارة الغربية وأن الثقافة السامية هى مزيج من الثقافة العربية والعبرانية، بدعوى أن هناك ما يسمى بالحضارة السامية العربية اليهودية التى سادت التفكير الآرى فى أوربا. ولاريب كانت هذه دعاوى باطلة فلم يكن لليهود أى أثر فى الفكر الإسلامى الذى دخل أوربا ولم تكن العبرانية أخت العربية ولم يكن لليهود ذلك الدور الذى خلعه عليهم طه حسين فى الأدب العربى والحياة العربية قبل الإسلام وإذا كان لهم دور فهو دور النقل من الفكر الإسلامى والأدب العربى، ووجدنا أمثال جاستون زنانيرى وقدمى كوهين يدعون إلى ما أطلقوا عليه (الجامعة السامية) عام ١٩٢٩ وتقول الأبحاث المتعددة التى نشرت عنها أنها ترمى إلى إنشاء اتحاد سامى يضم جميع البلاد الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والإقيانوس الهندى وإيران وتركيا وبين هذه الولايات المتحدة فى الشرق الأدنى توجد ولاية يهودية كبيرة تسع أبناء إسرائيل والدعوة إلى اتفاق العنصرين العربى واليهودى.

وقد انزلق كثير من الكتاب والزعماء إلى تقبل هذه الدعوى ومن هؤلاء فيصل بن الحسين وأحمد زكى باشا شيخ العروبة وغيرهم ممن خدعهم التمويه الصهيونى الذى لم يستطع أن يستمر طويلا والذى كشفت الحقائق عن فساده وعن العدوانية الضارية التى بدأت بها الصهيونية رحلتها فى الأرض العربية . كذلك جاءت كتابات دوزى ومارجليوث وصوريني لتناول صلة الإسرائيليين بالعرب فى الجزيرة العربية وفى أرض كنعان فى مغالطات وادعاءات باطلة ترمى إلى القول بأنه كان لليهود وجود فى الجزيرة العربية ، وتتنكر الحقيقة الواضحة وهى أن اليهود هاجروا من الشمال إلى الجنوب بعد أن حطم الرومان هيكل سليمان المرة الأخيرة عام ٨٠ ميلادية .

وقد حاول دوزى أن يثير دعاوى باطلة ليس لها مايؤيدها من دليل مثل ادعائه أن الكعبة حديثة العهد عن عصر إبراهيم وإسماعيل وادعائه الشبه القوى بين اليهود وأهل مكة وغير ذلك من كاذب الدعاوى التى استخدمت لحساب الصهيونية، وأنه مهما كان يوجد فى جزيرة العرب من فلول يهودية هربت منذ هجوم بوختنصر عليهم إلى أرض الجزيرة العربيـة فإن ذلك لا يمثل (وجود يهودى) أصيل فى بلاد العرب ، وإنما عاش اليهود فى الجزيرة العربية غرباء معزولين ، ولم يتركوا أسلوبهم فى الغدر والخيانة والإيقاع بين القبائل والطوائف ، ولذلك كانوا موضع الكراهية والاحتقار حتى جاء رسول الله إلى المدينة فأكرمهم وعقد معهم عقداً بالأمان ولكنهم لم يتركوا أسباب خيانتهم فسرعان ماتعاونوا مع خصوم الإسلام وتآمروا مع قريش ضد المجتمع الاسلامى، بل إنهم تآمروا على الرسول نفسه لقتله والقضاء عليه فى أكثر من مؤامرة مما حمل النبى إلى إجلائهم .

ولذلك فإن كل ماألقاه الاستشراق اليهودى من القول بارتباط اليهود بالعرب وتعاونهم قبل الإسلام وبعده كان من أضاليل التاريخ التى جرت محاولة إذاعتها بالباطل فى عملية خداع واسعة وكاذبة . وقد وجدت هذه المحاولة مواجهة ضخمة من حركة اليقظة الإسلامية كشفت زيفها ودحضت شبهاتها وسمومها، أولا : تبين أن ما كتبه إسرائيل ولفنسون فى كتابه (تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام) هو بمثابة حلقة من حلقات الدعاية اليهودية التى نشرتها الصهيونية فى العالم العربى وأنه لم يكن بحثاً علمياً بالمعنى المفهوم . ثانياً : تبين كذب دعوى الاستشراق الصهيونى فى القول بأن اليهود أثروا الأدب العربى ، وأنهم قالوا كثيراً من الشعر فى الدين وهجاء العرب وأنهم انتحلوا شعراً لإثبات سابقتهم فى الجاهلية . وقد كشف الدكتور فؤاد حسنين حقيقة موقف اليهود على هذا النحو الذى يدل على أنهم سرقوا من كل الحضارات وكانوا عالة على كل المدنيات فقد نقل اليهود من بابل وأشور شريعة حورابى ومن مصر الشىء الكثير مما وضعوه فى سفر التثنية ولما عاد اليهود من السبى البابلى نقلوا معهم من العرب البابليين الشىء الكثير مما نجده فى كتابهم المقدس ، ومن المعينيين السبأيين نقلوا العمارة وهندسة الرى والتجارة وقصة ملكة سبأ، والدور الذى تلعبه فى تاريخ الإسرائيليين وحياتهم الاقتصادية لا يخفى على أحد . والتاريخ اليهودى يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكام فلسطين أو فزعاً من اضطهاد اليونان والرومان فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية

فوجدوا أهلا وسهلا لهذه القبائل اليهودية التي كانت تنزل بيثرب وخيبر ووادي القرى، والتي وفد أفرادها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون التي مرت بهم منذ زوال دولتهم ولغتهم المقدسة تذوق اللغة العبرية وتجديدها حتى أصبح من المألوف لدى اليهودي أن يعبر عن أفكاره وشعوره في لغة ركيكة هي خليط من العبرية والكلدانية واليونانية فحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية ، فما كان أولئك اليهود بمستطيعين قول الشعر أو إجادة النثر فغير نزولهم بين العرب هذه الأوضاع بأخذ اليهود من جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير فلما رحل بنو قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادي القرى وغيرهم إلى العراق والشام وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربية ويتأولون بأدب عربي ويتطبعون بطباع عربية، وقد فتح العرب أمام اليهود دور العلم على مصراعيها ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم لذلك استطاع اليهود القيام بدور الرواة من الشعراء وانسابوا في بعض البلاد المسيحية وأخذوا إلى جانب بعض علماء العرب يلقنون الأوربيين ما انتهت إليه معرفتهم .

ويحدثنا التاريخ اليهودي أن الإسلام أحسن معاملة اليهود، وحتى أولئك الذين اضطر النبي والخلفاء الراشدون إلى إجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تأميناً لرسالة الإسلام وأتباعه فقد قطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والإمام علي كرم الله وجهه ، الأراضي الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات مما دفع المؤرخ اليهودي الشهير جريتز إلى الإشادة بعدالة العرب وإنسانيتهم في كتابه تاريخ اليهود فقال إن تاريخ اليهود في بلاد العرب في القرن السابق للنبوة المحمدية وإبان حياة الرسول صفحة ناصعة في التاريخ اليهودي : لقد وزع عمر أراضي اليهود على المسلمين المحاربين وعوض اليهود المطرودين - وهذه هي العدالة - أرضا أخرى بالقرب من الكوفة على الفرات حوالي ٦٤٠ م : حقاً رب ضارة نافعة أن سيادة الإسلام نهضت باليهودية من كبوتها .

وهكذا نجد أن العرب هم الذين أمدوهم العربية بعد أن كانوا يرطنون خليطا لا شرقياً ولا غربياً ولا ساميا ولا هنديا ولا أوربياً، والعرب هم الذين هذبوا ذوقهم اللغوي ورفعوا مستواهم الأدبي فكنوهم من خلق ملكة أدبية . وهكذا نجد أن كل شبهات اليهود ودعاواهم باطلة بالدليل والبرهان . وأن كل محاولاتهم في احتواء عدد من الكتاب الذين يكتبون بالعربية لم يحقق لهم شيئاً ذا بال وأن الأمر قد انكشف عن فساد كل هذه الدعاوى وقد أشار الدكتور حسن ظاظا إلى أن الصهيونية حاولت احتواء عدد من أمثال ولفنسون، شادة ، برجستراسر، جويدى ، كراوس، شاخت، وغيرهم ، كما تتلمذ عليهم عدد من الأساتذة العرب من أمثال على الضاني ومراد كامل ويحيى نامق وغيرهم مما يدل دلالة قاطعة على ما بين الاستشراق والصهيونية من صلات يراد بها النفاذ إلى الفكر الإسلامي . ولقد كان للدكتور فؤاد حسنين صلة بالدراسات الصهيونية ولكنا نرى أنه كشف زيفهم في بحثه الذي أوردناه الآن .

وقد ذكر الدكتور اسماعيلوفيتش في أطروحة عن الاستشراق : أن أكثر المستشرقين الذين قاموا بدراسة الأدب العربي القديم والحديث هم اليهود :

ليفى ، وفنسال ، وبول كراوس ، وإسرائيل ولفنسون ، كما أشار إلى أن أغلب هؤلاء : بريل ودوركايم وجولد زيهر ومرجليوث وبرنارد لويس وردونسون وغيرهم كانوا أساتذة لعدد من أعضاء البعثات العربية إلى الجامعات الغربية مثل طه حسين ومنصور فهمى وزكى مبارك ومحمود عزمى .

وإذا كنا قد أشرنا إلى دور الاستشراق الصهيونى فى مجال الجامعات فإن دوره كان أكثر قوة فى مجال الصحافة فقد كان جرجى زيدان واسكندر مكاريوس ويعقوب صروف وفارس نمر من أعيان المحافل الماسونية ولأكثرهم كتابات ومؤلفات وقد أصدر مكاريوس مجلة اللطائف فى أول أمرها مجلة خالصة ثم حولها بعد الحرب العالمية الأولى لخدمة الاستعمار البريطانى والحلفاء وتأييدهم ونشر صور انتصاراتهم وكانت تطبع منها مئات الألوف وتنقل بالطائرات لتوزع على معسكرات الجيوش المتحالفة. وكان داود بركات رئيس تحرير الأهرام أكثر من ثلاثين عاماً من أقرام الصحافة ودهاقين الاستعمار وأولياء النفوذ الفرنسى كما كان فارس نمر وصروف وخليل ثابت من أولياء النفوذ البريطانى ولكنهم ومعهم جرجى زيدان يعملون لغاية أكبر وأبعد من النفوذين الفرنسى والبريطانى ذلك هو النفوذ الصهيونى ، وهو دس السموم الخطيرة ثم يدعون بعض الكتاب المصريين ليمهرونها بأسمائهم مؤيدين التبشير وعارفين بمجريات الأمور بالنسبة لترجمة التوراة ونشرها ، وبالنسبة للدعوة إلى ما أسموه اللغات السامية أو الجامعة السامية أو الروابط بين المسيحية والصهيونية ذلك لأن أغلب هؤلاء كانوا من المتخرجين فى الجامعة الأمريكية فى بيروت ذات الاتجاه البروتستانتى الموالى للصهيونية .

وإذا التفتنا إلى أثر الاستشراق اليهودى وجدنا أن رسالة طه حسين عن ابن خلدون وضعت تحت إشراف مستشرق يهودى هو دوركايم وأنها عملت على النيل من هذا الرائد العظيم وتوجيه التهم والشكوك إلى عمله العظيم وأن رسالة منصور فهمى وضعت تحت إشراف مستشرق يهودى هو ليفى بريل وكان قد اتخذ من تعدد زوجات النبى منطلقاً للإتهام وقد واجهت حركة اليقظة الإسلامية هذه المحاولة بالشجب والتفنيد وعرف منصور فهمى خبيئة المؤامرة بعد وقت، ويتصل بهذا المخطط تلك الكتابات المؤيدة والمحبذة للبهائية التى كانت قد استقرت فى فلسطين لخدمة أهداف الصهيونية وكذلك فى الحملة على السلطان عبد الحميد الذى قاوم إغراءات ومطامع الصهيونية ثم ظهرت مقالات الهلال عن الحل اليهودى للمشكلة الصهيونية ثم الحملة على العرب التى وجهها أحمد أمين وتوفيق الحكيم .

وكان للتراث دور فى هذا المخطط أبرزه : إعادة طبع جزء واحد من كتاب أنساب الاشراف البلاذرى للاعتماد عليه فى إثارة قصة عبد الله بن سبأ على النحو الذى كتبه عنها طه حسين فى كتابه : (الفتنة الكبرى) قام المعهد الشرقى بالجامعة العبرية بالقدس بنشر الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف ، وقد كان اختيار هذا الجزء وحده دون سائر الكتاب موضع الإشتباه . ولكن الأمر تبين تماماً بعد أن كتب طه حسين معتمداً على كتاب البلاذرى منكراً وجود شخصية عبد الله بن سبأ لأن البلاذرى لم يوردها فى هذا الجزء وقد كشف الأستاذ محمد محمود شاكر هذا الادعاء وأشار إلى أن البلاذرى ربما ذكر أمر عبد الله بن سبأ فى أى جزء من الأجزاء الأخرى .

(٥)

وفى السنوات الأخيرة عمدت الصهيونية إلى السيطرة على مؤتمرات الاستشراق وفرض وجهة نظرها ورجالها وقد شاركهم فى هذا الاستشراق الروسى ، وقد أشار أحد الباحثين الذين حضروا مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى كمبردج ١٩٥٥ إلى هذه الظاهرة الخطيرة فقال : دلت المهازل التى وقعت فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى أغسطس ١٩٥٥ بمدينة كمبردج على أن الاستشراق أخذ ينحط فقد انبث فيه يهود مغرضون وروسيون متعصبون جاءوا لبث الدعاية الرخيصة . وقد كثر الأعضاء اليهود الذين جاءوا من مختلف البلدان يحملون فى قلوبهم التعصب الإسرائيلى المنافى لأخلاق العلماء ، وقد زعم أحدهم أن قصر الحمراء الذى شيده ملوك بنى نصر فى غرناطة هو من صنع اليهود ، ولما توقف اليهودى فى دعواه تبين أنه على قوله من فرض الخيال مدفوعاً إلى ذلك بسقطة التعصب . أما مهزلة المهازل التى أتيح لها أن تمثل فى مؤتمر المستشرقين هذا فهى أكاذيب موسكو على صدر الإسلام وادعاءها أن مسيلمة الكذاب كان له تأثير مباشر فى آيات القرآن وأنه كان قبل أستاذاً ثم خليفة لخاتم رسل الله إلى غير ذلك من السفاسف التى تحول بها مؤتمر المستشرقين إلى بيئة لا يليق بمن ينتسب إلى العلم أن يتعاون معها ، ويتصل بهذا تجنيد الصهيونية لعدد من المستشرقين الغربيين لخدمة أهداف الصهيونية وأمامى فى هذا الصدد الفريد جيوم وجوستاف فون جرينباوم . أما الفريد جيوم فقد استخدمته الصهيونية فى تأليف كتاب ليرد به على كتاب (جب) المحمدية ومع أن كتاب جب لا ينصف الإسلام وإنما يرفع عن نبى الإسلام بعض الاتهامات فقد أثار غضب اليهود والكاثوليك أكثر من غيرهم وقد نشرت دار النشر اليهودية (بنجوين) كتاب جيوم مرتين ولم تنشر كتاب جب .

وقد أعطته إسرائيل وساماً من الحكومة الإنجليزية ، يقول الدكتور عبد الجليل شلبى أنه تخرج من اكسفورد واتصل بقسم الدراسات اللاهوتية والعبرانية فيها ويبدو أنه من ذلك الوقت صهر فى بوتقة يهودية وأصبح لا يهودياً فقط بل صهيونياً أشد تعصباً من الصهيونيين وأدنى لليهودية من اليهود ، ومن مؤلفاته كتابة الأحاديث النبوية وأثر اليهودية فى الإسلام . ومن تاريخه أنه كان عضواً فى مجمع اللغة فى دمشق والقاهرة وبغداد وأنه كان مدرساً فى الجامعة الأمريكية فى بيروت وقد عمل طوال الحرب فى المخابرات الإنجليزية بالشرق الأوسط إلى جانب عمله فى مدارس التبشير وتلاميذه كانوا يعملون فى الكنائس الشرقية . ويقول الدكتور عبد الجليل شلبى أنه يجرى فى ذلك المخطط الذى يقوم به اليهود والذى يرمى إلى تحطيم الأديان كافة ، ولأن اليهودية نفسها ديانة غير منتشرة لا تقبل بين أفرادها من ليسوا من سلالة اليهود فكثيراً ما يبدأ اليهودى بنقد اليهودية وتحطيمها ولكن هذا مجرد قناع يتذرع به إلى الديانات الأخرى بينما هو مصر على دينه وعنصره وهذه الحركة أصبحت معروفة ويظهر أنها نشأت مع موجة الفكر المادى منذ القرن الثامن عشر أو نتيجة لها . ولكن مما لاريب فيه أن هناك تركيزاً أقوى على محاربة الإسلام فهذا التركيز ليس إلا نوعاً من الأسلحة الصهيونية . أما جوستاف فون جرينباوم فإنه يختلف عن المستشرقين الغربيين الذين يردون أصول الحضارة إلى الأصلين الإغريقى والرومانى فإنه يضيف

إلى ذلك أصلا ثالثاً هو تاريخ بنى إسرائيل . ولاريب أن التقسيم قد اعتمده فريزر فى دراسة الخرافة والفلكور والأساطير القديمة ولكنه لايكون صحيحاً فى دراسة الحضارات ذلك أن اليهود كانوا عالة على الحضارة اليونانية بشهادة كل الباحثين والمؤرخين أمثال جوستاف لوبون وتوينبى وغيرهما. ويحاول جرونيام أن يربط بين المسيحية وبين التوراة ويدعى أنها مقدمة طبيعيه ومسلم بها الإنجيل وهو ادعاء باطل ولقد ثبت أن هناك عشرات التناقضات بين الكتابين ولكن اليهود عمدوا منذ وقت بعيد إلى الربط بينهما وإلزام البروتستانت والإنجيليين بهذا الربط وجعلوا فى ذلك مادة فى دراسات الجامعات والمعاهد حتى يتمكنوا من احتواء الأجيال الجديدة من المسيحيين إلى دعواهم ومفاهيمهم الوائفة .

والمعروف أن الحضارة العالمية القائمة الآن ذات مصادر إسلامية وأن المسيحيين والأوربيين هم الذين قاموا على تنميتها أما اليهود فلم يحضروا هذا العصر ولم يشاركوا فى هذا العمل فقد كانوا مطرودين إذ ذاك من أوربا فلما عادوا أنشأوا عليه عصر التنوير وهو عصر قام على أساس العلمانية المادية فى النظرة إلى الأشياء وإخراج أوربا من الدين بعامة إلى الفلسفة المادية وأن اليهود ليس لهم دور حقيقى فى الحضارة إلا السيطرة عليها وإنشاء المذاهب الاجتماعية التى يرمون بها تصوير الإنسان بصورة نداء الجنس فى فلسفة فرويد أو نداء الطعام فى فلسفة ماركس . وهكذا نجد أن محاولة جرونيام باعتبار اليهودية أصلا للحضارة أكذوبة ضخمة دحضها كتاب الغرب ، ولقد كان جرونيام خادما الصهيونية جرياً مع كبار رجال الاستشراق اليهودى يحاول أن يحجب الحضارة الإسلامية عن دورها الأصيل وهى محاولة تبوء الآن بأشد الفشل بعد أن ظهر من مفكرى الغرب من يقررها ويؤمن بها ويعتذر عن مؤامرة الصمت التى قام بها الغرب ضد اعلان فضل المسلمين . ونستطيع أن نشير إلى مخططات الاستشراق الروسى الذى احتفل بالذكرى التسعين لأقدم الجمعيات الاستشراقية التى تأسست ١٨٨٢ القيام بنشاط فى هذه المنطقة منذ ١٨٥٨ حيث أنشئت لجنة فلسطين حيث كانت روسيا تقوم بابتداع الوسائل لكى تقدم فى القدس مأوى ومستشفيات للحجاج وإنشاء قصر البعثة الأرثوذكسية الروسية . وبواسطة اللجنة الاستشراقية الفلسطينية من إنشاء أكثر من مائة مدرسة فى أقطار الشرق الأوسط كان يطرقها حسب تقدير رسمى ١٠ آلاف تلميذ . كذلك فقد كونت الجمعية أفواجاً من المستشرقين الروس اللامعين الذين اهتموا بالتاريخ والآداب العربية ، وفى ١٨٩١ نظمت بعثة أثرية إلى سوريا وفلسطين لدراسة الآثار القديمة وارتبطت أعمال الجمعية الفلسطينية الروسية ارتباطاً وثيقاً بالدراسات العربية فى روسيا أمثال . ستروف وكراسكوفسكى ، وبور تشيف ، تولستوف ، بلينو نفسطايا ، وكان من أهم أعمالها بحث تأثير الديانة المصرية فى نظرية التوحيد فى الكتاب المقدس . ومن أبرز المستشرقين اليهود الماركسيين : جارودى وردنسون . ويحاول هذا الاستشراق اليهودى الماركسى تفسير الإسلام تفسيراً ماركسياً فى محاولة تغض من طوابعه واتجاهاته ، فى نفس الوقت الذى يدعى فيه جارودى وردنسون أنهم أصدقاء العرب، غير أن كتابة ردنسون فى كتابه عن الإسلام والماركسية تبدو مسمومه عنيفة التعصب والحقد لأنها تجمع بين الحقد اليهودى والحقد الماركسى، وهو يصل فى حقده إلى أن ينفى نفياً كاملا أى علاقة بين الإسلام والحياة الاقتصادية للمسلمين ويدعى أن القرآن حيادى بالنسبة للاقتصاد، وأبرز أخطائه هو

الخلط بين عقيدة الإسلام وواقع المسلمين اليوم ، وتجاهله للحقيقة ومغالطته التى تقوم على أن واقع المسلمين ثمرة عقيدتهم ودينهم ، وأن الإسلام قد طبق فى فترات متعددة فكان كأروع مايكون فى نظام الاقتصاد والاجتماع وإن تفشى الربا فى المجتمع الإسلامى خلال العصر الحديث إنما كان نتيجة لسيطرة اليهودية العالمية على الاستعمار والأوضاع السياسية التى ظهرت فى ظل الاستعمار البريطانى والفرنسى والهولندى فى العالم الإسلامى ، وفى هذه المرحلة حجبت الشريعة الإسلامية عن التطبيق ولاريب أن هذه المرحلة لاتكون موضع محاسبة الاسلام عن فساد المجتمع وهى كما يقول بعض الكتاب بمثابة بقعة ظلام فى محيط نورانى . ولاريب أن نظام الإسلام الاجتماعى والاقتصادى كان مثلا عالياً فى بناء المجتمع الربانى الذى ما زالت البشرية تتطلع إليه عندما قام على العدالة والأخاء والرحمة وهو ماتعمل الصهيونية والماركسية معاً على الحيلولة دون قيامه . وبالجملة فإن محاولة الاستشراق الصهيونى ترمى إلى تزييف وقائع التاريخ الإسلامى والعربى القديم وذلك بالسيطرة على دوائر المعارف العالمية والجامعات من أجل فرض نبوءات العهد القديم وفى سبيل فرض هذه النصوص من التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار، والتلمود يرسم للاستشراق اليهودى دوره فى تزييف الوعى الإسلامى وهم يركزون على العرب كأمة وقوة قائمة ويحاولون تهديم قيمها ومفهومها وتاريخها ويفسدون علاقتها بالغرب لتحقيق هدفهم فى السيطرة على العالم الإسلامى وتركيز نفوذ امبراطورية الربا وخدمة أهداف الاستعمار الغربى والروسى على السواء ويرى الاستشراق الصهيونى أن تمزيق الأمة العربية فكرياً ولغوياً وجغرافياً هو من أكبر الأهداف التى تقضى على وحدة العالم الإسلامى ، مما يمكنهم من السيطرة على فلسطين فى طريق وثوبهم إلى ثروات العالم الإسلامى وقد حوى البروتوكول ١٤ الذى وضع عام ١٩٠٥ فى بال مادة التآمر على شعوب العالم والسيطرة على الجوييم باسم ملك داود .

الباب الثانى

سموم الاستشراق فى الفكر الإسلامى

أولا : الإسلام ثانياً : الرسول ثالثاً : القرآن رابعاً : اللغة العربية

خامساً : التراث سادساً : السنة سابعاً : الحضارة .

ثامناً : الشريعة تاسعاً : الادارة عاشراً : التاريخ .

الفصل الأول

الاستشراق والاسلام

كان موقف الاستشراق من الإسلام موقفاً مستمداً من الفهم الدينى الغربى أساساً وهو فهم قاصر ومحدود ومغلوط فى نفس الوقت لأنه مأخوذ من التفسيرات التى قام بها الأحبار والرهبان لدين الله الحق، وهى تفسيرات تحول دون فهم الإسلام ديناً خاتماً للأديان السماوية أو مصدقاً لما بين يديه من الأديان ذلك لأن هذه التفسيرات فصلت نفسها عن الإسلام بينما جاء الإسلام فى كتب الأديان السابقة مرحلة تالية لها وجاءت رسلها مبشرين به وبنبيه ، ومن هنا فقد نظر الغربيون إلى الإسلام على أنه شيء معارض لما يعتقدون وماهو بمعارض ، ونظروا إلى أنه مأخوذ من كتبهم وماهو كذلك وإنما التفسير الصحيح هو أن الأديان كلها من عند الله ، وهى متكاملة كالمراحل يسلم بعضها إلى بعض حتى يكون الإسلام ختامها فالأصول العامة لدين الله فى العقيدة واحدة ولذلك فلا عجب أن تلتقى فيه الأديان كلها وإن اختلفت فى الشرائع والنظم، ومن هنا يثير المستشرقون الشبهات: شبهات مصدرها هذا الالتقاء فى الأصول وإن تبين بعد أن وجه المقارنة مفقود من حيث أن القرآن كتاب سماوى وغيره من الكتب قد أصابها التحريف .

(٢) ويذهب المستشرقون إلى فهم الإسلام فهماً مادياً خالصاً فهم ينكرون الوحى وينكرون النبوة وينكرون المصدر الربانى للقرآن وهم فى ذلك يصدرون عن مفهومهم المحدود للأديان الأخرى حيث يوصف الإنجيل بأنه من كلام الرسل وحيث تختلط المفاهيم فى العلاقة بين الألوهية والنبوة . ويحاول المستشرقون تعليل معجزة الإسلام الكاسحة فى الانتشار السريع فى العالم وفى الجزيرة العربية بتعليل يخالف الحقيقة ويقلل من حقيقة ذلك الأثر الذى أحدثه دين الله الحق فى البشرية وخاصة فى الشعوب المغلوبة التى حررها الإسلام من ظلم الرومان فيصورن ذلك بأن العرب كانت ناهضة ولها حضارة وأنها

كانت مستعدة للنهوض فلما جاء الرسول ﷺ قادها إلى النهوض فنهضت . وهذا التعليل لا يصور الحقيقة أساساً فضلا عن أنه يقلل من أهمية الرسالة الإسلامية التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، وبين أيدينا تاريخ الدعوة الإسلامية وكيف قاومها العرب ثلاثة عشر عاما كاملة حتى اضطر الرسول إلى البحث عن بيئة أخرى تكون أكثر قابلية لدعوة الله وقد وجد ذلك فى يثرب بعد أن عاند أهل مكة عناداً شديداً وعارضوا دعوة الله معارضة بالغة ولم يكونوا فى حقيقة حياتهم مستعدين على النحو الذى يعين على النهوض بل كانوا يعبدون الأصنام ويأكلون الميتة ويئدون البنات ويشربون الخمر ويقتلون ويزنون فلم يكونوا على أى وجه على صورة من صور الاستعداد للنهوض ولكن الإسلام هو الذى نقلهم هذه النقلة السريعة الخطيرة إلى الإيمان بالله ورباهم على التضحية والبذل حتى إذا ما انطلقوا فتحت أمامهم أبواب الممالك وتقبلهم أهلها رضاء بهم وثقة فى عدلهم ورحمتهم . ولقد أولى الاستشراق اهتماماً كبيراً للجاهلية وحياة البداوة قبل الإسلام ، واهتم بالوثنية العربية ، وحاول أن يتخذ منها منافذ للدس فى مختلف المجـــالات وخاصة فى مجال الشريعة ، فحاول أن يصور الجاهلية بأنها عصر البطولة كما عبر عن ذلك هاملتون جب ، مستهدفاً إظهار بعض جوانب القوة والغنى فى حياة الجاهلية ، ولا عجب أن تكون فى الحياة الجاهلية جوانب قوة وهى بقية مما تركته الأديان من آثار خلقية واجتماعية وخاصة دين ابراهيم وإسماعيل الذى ظلت بقاياه قائمة فى نفوس كثير من العرب حتى جاءت الرسالة الخاتمة . ولقد حاول الاستشراق إعلاء الجاهلية واعتبار الإسلام اقتباساً منها وخاصة ما حاولوا التشكيك فيه مما يتصل بآثار صلة المسلمين باليهود فى المدينة ، كما أولى الاستشراق اهتماماً كبيراً بالأديان السابقة للإسلام وبالفلاسفة والمناذرة بالذات فى طريق الإدعاء بأن المسلمين عرفوا عن طريقهم شيء من الكتب القديمة.

(٣) ومن أخطاء الاستشراق ما يذهب إليه هاملتون جب فى كتابه (بنية الفكر الدينى فى الإسلام) حين يقول أن الاسلام جاء ليضفى الصفة الدينية على تلك الأحياء العربية القديمة التى نسجتها الأعراف والبيئة بعد أن لم يستطع النبى عليه السلام أن يتخلص منها، ويقصد بالاحيائية القديمة تلك العقائد الروحية الخرافية كالسحر والتنجيم والكهانة. ولا ريب أن المستشرق جب قد اتخذ نفس طريقة الاستشراق التقليدية فى أن يقدم فرضيات مسبقة ثم يحاول البحث عن نصوص وقرائن لكى يضعها موضع القطع واليقين لا يبالى فى ذلك تزييف الأدلة أو نقضها أو نقل شطر منها وترك شطر آخر كما فعل فيما نقل فى تأييد رأيه هذا من كتاب حجة الله البالغة لشاه ولى الله الدهلوى، بينما لم تبعد السطور بعد ذلك عن نفى ما ذهب إليه . وقد ذهب جب إلى هذه الآراء من خلال افتراضه أن محمداً لم يكن نبياً ، وأن ما كان لدى العرب من بقايا عهد ابراهيم إنما هو من مخترعاتهم وتقاليدهم التى ابتدعوها من عند أنفسهم وقال أن تقديس الكعبة ليس أثراً من آثار دعوة ابراهيم وإنما هو شيء نسجته البيئة العربية فكان تقليداً، وفرض أن الجان ليست إلا مخلوقات وهمية وأن ما جاء عنها فى القرآن والأخبار مجرد وهم ، وتعمد تحريف الكلم عن مواضعه فنقل عبارة مغمورة من كلام طويل وتبدو غلبة الهوى على الاستشراق فى معارضته للحقائق الكبرى البارزة، وحيث ينتصر المسلمون فى جميع معاركهم وأعدادهم أقل من أعداد عدوهم بمراحل كثيرة يجيء مثل الجنرال جلوب فى كتابه الفتوحات العربية الكبرى ليثير شبهة تخلف المسلمين من

ناحية الفن العسكرى بينما عرف المسلمون بالاقتدار فى مجال العسكرية وأساليب الحرب وقد اعترف لهم المنصفون بالفن العسكرى المتطور والقيادات الاستراتيجية والتكتيكية على أعلى مستوى . بل لقد انفردت الحروب التى خاضها المسلمون والعرب أيام الفتوحات الأولى بمزايا سبقت أوانها بعصور (علم الحرب : لمنير شفيق) فقد قفز المسلمون فى العصر الأول بفن الحرب قفزة عات على أية قمة سبقتها وقد بقيت أرقى من أى قمة بعدها حتى جاء نابليون : ولم يكن فى الجهاد الإسلامى جانب الفن العسكرى وحده وإنما كان إلى جانب ذلك الايمان والحماسة التى تقوم على الرغبة فى الاستشهاد .

(٤) ويحاول بعض المستشرقين أن يثير شبهة الترابط بين الدنيا والآخرة فى الاسلام بأنه انصراف عن الدنيا فيقول قرن جرونباوم : أن الاسلام يدعو المسلمين إلى الانصراف عن الدنيا ومظاهرها ويدعوهم إلى تركيز العمل من أجل الآخرة ونعيمها المقيم ، وبهذه النظرة إلى الحياة يكون كل مافيها عرض زائل بما فيه العلم والأدب والسياسة والاقتصاد أما الجوهر فهو عبادة الله من صوم وصلاة . ويرد على هذا الدكتور ابراهيم أحمد رزقانة فيقول : أن هذا التفسير لتخلف المسلمين لايتفق مع روح الاسلام : فالاسلام لا يغلب العبادة على العمل بل إنه يغلب العمل على العبادة . والمسلمون كانوا قادة العلم وكانوا وراء النهضة الأوربية الحديثة زودوها بالزاد العلمى الذى لولاه لما قامت هذه النهضة ثم كان رد الجميل أن استعمرت أوربا العالم الإسلامى وعملت على تخلفه ومنعه بالقوة العسكرية من أن يساير الركب العلمى والاقتصادى ، فالتخلف فرض على المسلمين من أعدائهم وليس من دينهم ولعل المسلمين فى المستقبل القريب يقدمون الدليل على أن التخلف ليس من صفات دينهم بل إن دينهم هو دائماً سبب كل تقدم . ذلك أن الاسلام يدعو إلى الربط بين التمسك بالدين وبين القوة الدينية برباط وثيق ويعتبر التمسك بالدين دعامة التقدم فى العلم والعمل والاقتصاد والسياسة . وإذا كان هناك انحراف فى التطبيق فليس معنى ذلك أن العيب كامن فى المسلمين أو أن التخلف أصبح نمطاً حضارياً ثابتاً عند المسلمين كما أراد جرينباوم أن يقول ، بل إن تخلف المسلمين عرض تاريخى لايلبث أن يزول بزوال أسبابه، وأكبر دليل على ذلك أن المسلمين شاعرون بتخلفهم ، ولو كان التخلف نمطاً من أنماط حضارتهم لما شعروا به . المسلمون فى مختلف أنحاء العالم يتكلمون عن التخلف ويكادون يقفون على سببه الرئيسى بانصرافهم عن الاسلام وهو الانصراف الذى أغراهم به الاستعمار الغربى ومدى استعداد المسلمين للنقل من الحضارات الغربية ، وقد حرص كتاب الغرب على دفع للمسلمين إلى النقل من الحضارات الأخرى وتباكيهم على أن المسلمين لاينقلون قبل أن يستوثقوا من أن ماينقلوه لايتعارض مع أصول دينهم ، اهـ .

(٥) تحت جناح الهوى ومن وراء مشاعر التعصب عالج المستشرقون مستقبل الاسلام وحاول الكثير منهم القول بأن الاسلام لامستقبل له . أعلن ذلك مرجليوث منذ عام ١٩٠٤ (لامنس) منذ عام ١٩٣٠ وكذبتهم الأحداث وتدفق الاسلام فى قوة فاتسع نطاقه فى إفريقيا وجنوب شرق آسيا وظهرت دول إسلامية جديدة فى باكستان وأندونيسيا وغيرها وعاش الاسلام بعد أن ذهبت الخلافة وكانوا يتنبؤن أنه سيسقط مع سقوط الدولة العثمانية وكانوا يدعون أن الاسلام لايبقى وإذا ترك لنفسه إذا ما احتك بالتمدن الحديث فإنه يموت لا محالة ، واتصل الاسلام بالحضارة الحديثة طويلا وتحداها

وكشف عن زيفها وتحرر من كثير من محاولات احتوائها وسيطرتها عليه وتجددت الفكرة الاسلامية مستمدة قوتها من منابعها الأولى . وقالوا أن التبشير المسيحى الغربى سوف يقضى على الاسلام ، وعجز التبشير بكل قوته وماله وموارده أن يخرج مسلماً واحداً عن دينه إلا من كان بطبيعته غير صادق الايمان بالله ودخل المسلمون أفواجاً فى دين الله فى بلاد لم يكن الدولة الاسلام فيها نفوذ وفى نفس المناطق التى ينفق فيها التبشير المسيحى الملايين ويبنى المؤسسات وليس للمسلمين فيها نفوذ ، ولكن الاسلام كان دائماً هو القادر على كسب النفوس بالفطرة والبساطة ، وبالرغم مما ذهب إليه المستشرق جب من أن التغريب غالب على الكيان الاسلامى فإن آثار هذا الاستغراب قد أخذت تتناقص وقد تنبه المسلمون إلى منابعهم الأولى وإلى شريعتهم يطالبون بتطبيقها وأن الاسلام يتصاعد الآن بحيث يكشف عن جوهره فى مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية بعد أن انكشفت المناهج الغربية عن فساد كثير وتخاف كبير كان دائماً . وعندما كان مرجليوث يتحدث عن الاسلام كان يردد قول برايس السياسى المؤرخ من أن الاسلام لم يبق من عمره إلا قرنان وأن عدد أهله لا يقلون عن مائتى مليون نفس . ولقد تضاعف عدد المسلمين الآن حتى بلغ ألف مليون فى أصدق التقديرات . وقد اتسع الاسلام خلال هذه الفترة بالحسنى والاقناع ومن تحت حراب الاستعمار ومن خلف مدافعه فعاد مرة أخرى إلى أوربا واقتحم أمريكا ولم يبق مكان فى القارات الخمس لم يرتفع فيه مناره ويهتف باسم الله أكبر ، يقول مرجليوث المستشرق اليهودى : « لا يخلو قول القائلين بسرعة ذهاب الاسلام من وجه يستدعى النظر ، وجهلوا أنه هو الحق الباقى على وجه الأرض وأن البشرية تتقدم الآن يوماً بعد يوم وبالعلم لتعرف ربها وتتحطم كل الأساطير والاوهام والتفسيرات الباطلة ، وأن الاسلام قد تحرر من كثير من نفوذ الدول العظمى السياسى والعسكرى وبقى يقاوم نفوذها الاقتصادى والثقافى . وحين يرى (لامنس) أن الخلافة الاسلامية وسقوطها سيكون بعيد الأثر على مستقبل الاسلام تكشف الأحداث عن زيف هذا التوقع وأن المسلمين قد أقاموا بعد سقوط الخلافة قوائم وحدة ولقاءات ومؤتمرات تعالج قضاياهم ، كما وقع التقارب بين السنة والشيعة على نحو أذهل المراقبين الذين كانوا يظنون أن دعوات الاقليمية والقومية الضيقة والتفرقة العنصرية ستقضى على وحدة المسلمين الفكرية وتتقاسم ثقافتهم وعقائدهم وقد وجد المسلمون حلولا صحيحة لمعضلات الخلاف بين العروبة والاسلام وبين الفرعونية والعروبة وبين الفينيقية والاسلام وقد كشفت التقديرات عن زيادة عدد المسلمين فى السنوات الأخيرة زيادة كبرى على نحو يجعل لهذا التفوق البشرى آثاراً بعيدة المدى فى قوتهم ونمو مستقبلهم . وكذلك فقد عاد التعليم القرآنى يتوسع من جديد بعد أن توقف تحت تأثير المناهج الدراسية الغربية والعلمانية وقد تأكدت المسلمين حقيقة لا سبيل إلى تجاوزها أن التقدم فى عالم الاسلام لن يكون إلا فى إطار الشريعة الاسلامية وفى محيط مفهومها الجامع بين العلم والدين والروح والمادة والدنيا والآخرة .

الفصل الثاني

الاستشراق والرسول

كانت شخصية الرسول ﷺ محور الخطط المسموم الذي حمل لواءه الإستشراق في مراحله المختلفة ، سواء في مرحلة التعبير الجارح أو في مرحلة المداراة الكاذبة . يقول الأستاذ كامل عيادة: ظل الأوربيون في العصور الوسطى وحتى القرن السابع عشر يتناقلون أسخف الأساطير عن الإسلام ويوجهون إلى مؤسسه أبشع المسبات والشتائم. ثم يرى أن الاستشراق قد أعلن من بعد ذلك تظاهره بالتحرر من التعصب الديني وادعى أنه يريد معرفة سيرة محمد كما يرويها المسلمون أنفسهم ، وفي هذه المرحلة أخذ « بعض » الكتاب الغربيين منذ القرن ١٨ يتحاشون التهجم على شخص الرسول ويحاولون التزام العدل والإنصاف في الحكم عليه ، ولكنه يشهد بأنهم لم ينفذوا هذا الالتزام ويقول : ولا بد من الاعتراف بأن أكثر المستشرقين ظلوا دوماً يقصدون تشويه الحقيقة وطمسها . ونجد من يعرض حياة الرسول من وجهة النظر المسيحية (غليوم بوستل) ومنهم من يستقي معلوماته من المصادر الكنائسية (ميشيل بوديه) ومنهم من يقصد إلى التبشير بالمسيحية من خلال عرض سيرة الرسول (هوينجر) ومنهم من اختار ما يعتقد أن فيه مجالا الطعن ، ثم أضاف إليه الأساطير السخيفة والمزاعم الوقحة ، وفي الاستشهاد بالآيات وجه اهتمامه إلى الآيات التي فيها ذكر للمسيحية فادعى مخالفتها لما ورد في الكتاب المقدس .

(٢)

وقد ركز المستشرقون على عدة مواقف في حياة الرسول ، منها التقاؤه بالراهب بحيرا وورقة بن نوفل وقس بن ساعدة : وقد زعموا أن الرسول عليه السلام التقى ببحيرا الراهب وتلقى عنه التعاليم الدينية مدة من الزمن . والمعروف أن لقاء النبي ﷺ بالراهب بحيرا كان في سن التاسعة أو الثانية عشرة ، وهذه سن لا تسمح بتلقين أو تعليم ، فضلا عن أنها لا تمكن من استيعاب المسائل الدينية بحيث يمكن أن يلقيها الرسول من بعد على الناس وعمه الذي صحبه في هذه الرحلة لم يكن يفارقه البتة فكيف تسنى لبحيرا أن ينفرد بالطفل ليعلمه ؟ وبالرغم من أن هذه الحادثة لا أهمية لها فإن المستشرقين يركزون عليها ويجمعون على معرفته بورقة بن نوفل ويصورون ورقة كداعية إلى النصرانية مع أن ورقة كان موحداً وهو الذي تنبأ للرسول بأنه النبي المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم ، ولو كان محمد قد أخذ من ورقة لروج ذلك أعداؤه من المشركين ولسار خبره في الناس جميعاً . أما قس بن ساعدة فقد كان موحداً ومؤمناً بالبعث . (٢) يتعرض المستشرقون لتعدد زوجات الرسول كي ينفذوا إلى الطعن في شخصية الرسول والتشكيك في رسالته الخالدة وتصويره بصورة الميل إلى إشباع الجنس مع أن الرسول ﷺ لم يعدد زوجاته إلا بعد الأربعين لغايات تتعلق بالدعوة : أما في الفترة الأولى من عمره فإنه ﷺ قد اقتصر على زواج واحد هو زواج السيدة خديجة رضي الله عنها . (٣) ويتعرض المستشرقون للوحي ويصورونه بصورة الأمراض النفسية والعقلية ، وهم في ذلك عاجزون عن تصور هذه العلاقة التي تقوم

بين النبي المبشر المرسل وبين سيدنا جبريل الملك الذى يحمل الوحى من الله إلى قلب النبي فعجزوا عن فهم هذه الأحاديث التى تكلم فيها النبي عن حالة الوحى وما يكون له من أثر عليه وصوروها على ذلك النحو الباطل . (٤) ويحاول بعض المستشرقين الادعاء بأن النبي كان قادراً على معرفة حاجة عصره وتحديات بيئته وأنه صورها على صورة منهج إصلاحى فهو عندهم مصلح أو داعية إلى الحرية أو العدل الاجتماعى أو غير ذلك مما يوصف به الزعماء والمصلحين . ويقوم هذا التصور على عجز عن فهم الوحى ورسالة السماء أو إنكار له . وترجع ذلك الخطأ إلى عدة أسباب أبرزها :

(١) حرص بعض المستشرقين على تحريف النصوص وتشويهها والتلاعب بالعبارات للطعن فى العرب والمسلمين . (٢) عدم القدرة على التجرد من التعصب الدينى . (٣) القصد إلى الدس والتضليل (ومن أشد هؤلاء تعصباً وانحرافاً مرجليوث ولامنس) . وقد أخذ على مرجليوث وهو الذى ألف كتاباً ضخما عن سيرة النبي ﷺ ، كما أشار الباحثون إلى أن أكثر أخطاءه ترجع إلى التحكم فى الاستنباط والقياس الجزئى وبيان أسباب الحوادث وقلة عدم فهم اللغة . كما أخذ عليه عدم فهم النبوة . أما لامنس فقد عمل على تحريف النصوص وحرف تاريخ ميلاد الرسول . وحاول أن يرسم صورة مشوهة عن فاطمة الزهراء دون أى مستند تاريخى موثوق . وقد انتقد أكثر المستشرقين (لامنس) وفضحوا مغالطاته وحذروا من الاعتماد عليه . ويقول محمد كامل عياد : إن أكثرية المستشرقين لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن محمد ﷺ بسبب تعصبهم الدينى . أما القلائل الذين تحرروا من هذه النزعة فيرجع فشلهم فى فهم شخصية الرسول إلى مبالغتهم فى النظرة التاريخية .

(٣)

ومن نماذج كتب المستشرقين المليئة بالأخطاء والشبهات كتاب المستشرق (ز . ف . برودلى) الذى ترجم إلى اللغة العربية دون الاعتناء بإجراء التصحيح اللازم لأخطائه (١) نسب برودلى إلى النبي ﷺ عبادة الأصنام ووصف النبي بأنه (وارث الهاشميين حراس أصنام الكعبة) . (٢) زل قدمه فى سيرة النبي وأزواجه الطاهرات . (٣) إدعاءه استمداد الرسول من الرهبان فى رحلاته البعيدة والمتعددة ومن الوعاظ فى سوق عكاظ . وأبرز ما فى كتاباته (غلبة الروح التبشيرية) على كتابته عن النبي والقول بتأثره ببحيرا وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل . (٤) إدعاء كثرة رحلات النبي إلى الشام واليمن وفلسطين وآسيا الصغرى وفارس . وكل هذا غير صحيح فإن رحلات النبي بإجماع المؤرخين إلى الشام لم تزد على المرتين أو الثلاث ولم يجتمع مع بحيرا إلا فى المرة الأولى . وهكذا نجد أن كتابات المستشرقين حول سيرة الرسول مغلوطة محرفة ، سداها الهوى ولحمتها التعصب ، وقد أشار (إتيان دينيه) فى كتابه عن سيرة الرسول إلى هذا المعنى حين قال : إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويمحصون مزاعمهم حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة النبي ومع ذلك لم يتمكنوا من إثبات أقل شىء جديد ، بل إذا أمعنا النظر فى الآراء الجديدة التى جاء بها المستشرقون (فرنسيين وإنجليز وألمان وبلجيكيين وهولانديين) لا نجد إلا خلطاً وخبطاً .

وعلى الاحتمال فهم قد حاولوا إعطاء صورة خاطئة تماماً عن شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام.
(أولا) بإيراد أحاديث غير ثابتة أو موضوعة. (ثانيا) بعرض الأخبار الثابتة بطريقة تعطى عكس المراد (ثالثاً) إيراد مواضيع مشكوك فيها أو آراء من كتب بعض رجال الدين المحدثين.
(رابعاً) إسقاط أجزاء من الأحاديث لتصويرها بصورة محرفة. مثال ذلك ما أورده مرجليوث فى حديث «إنما حبب إلى فى دنيا كم الطيب والنساء» وإخفاء باقى الحديث «وجعلت قرة عينى فى الصلاة» حتى يظهر شخصية الرسول مشغوفة بأمور الدنيا.

الفصل الثالث

الاستشراق والقرآن

وقف الاستشراق من القرآن الكريم موقفه من الإسلام والرسول: موقف الخصومة والإنكار. وهذا طبيعى بالنسبة للاستشراق المسيحى الغربى وبالنسبة للاستشراق اليهودى، ذلك أن القرآن وقف من التوراة والإنجيل الموجودين فى أيدى الناس موقفاً واضحاً هو أنهما مما كتب البشر وليس مما نزل من عند الله. كذلك فإن القرآن هو الذى قدم تلك الحقائق المغايرة لما جاءت به التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار والإنجيل المكتوب بأيدى الرهبان وخاصة فى التوحيد الذى هو طبيعة دين الله الحق دون التعدد ونبوة المسيح عليه السلام وإنكار ألوهيته وفى رفع عيسى دون قتله أو صلبه، وإنكار قضية الخطيئة والفداء، وإنكار قضية شعب الله المختار إلى غير ذلك من القضايا. وقد أقام القرآن الحجة فى أمور كثيرة اختلف فيها الرأى وخاصة فى نبوات موسى وعيسى وداود ولوط وما ورد فى الكتب القديمة من صور لهم مغايرة لمكانتهم كأنبياء ورسل لله تعالى مكرمون معصومون.

وعندما نراجع ما كتبه الاستشراق عامة نجد أن هناك إجماعاً على الوقوف فى وجه القرآن وإنكار مصدره الربانى والقول بأنه من عمل محمد ﷺ. ويجىء هذا الرأى تعصباً ضد القرآن ونبيه أو عجزاً عن فهم الوحى فى تقدير الباحثين الذين يعتمدون النظرية المادية، أو فى التشابه مع موقف الفكر المسيحى الذى يرى أن الإنجيل ليس كتاباً من السماء وإنما هو من عمل الرسل. والشك فى إلهية القرآن هو ما ردده المستشرقون وتأثر به كثير من الكتاب والباحثين العرب أمثال طه حسين وزكى مبارك وغيرهما. ثم هم يذهبون إلى القول بأن النبى استقى مادة القرآن ولا سيما قصصه من الأحبار والرهبان الذين كان يلقاهم أو يتصل بهم فى مكة. ولكن هذه الشبهات سرعان ما تتبدد عندما نقارن بين روايات التوراة والإنجيل ورواية القرآن لقصة من القصص، حيث يبدو عمق الخلاف، نجد فى القرآن صياغة على أرق حال من البيان والحكمة وبيانات أعمق وأوسع، هى فارق بين البيان الربانى وبين القصص البشرى، فالقرآن يتميز بالصدق المطلق ويتميز بالتماس العبرة والبعد عن التفصيلات الأسطورية، ويرتفع عن سذاجة

المرض ، إلى قدر من الحكمة يتفق مع النظام القرآني الذي بدأ به دخول البشرية في عصر الرشد الفكري وعصر الرسالة الخالدة . وما يردده المستشرقون ليس جديداً فقد ردده في كل عصر خصوم الاسلام وقيل في عهد النبي نفسه عرض له القرآن وأشار إليه وكشف زيفه وكان مشركوا مكة يزعمون أن القصص الذي جاء بها القرآن أنما تعلمها محمد من نصراني أعجمي اللسان كان بمكة وقد رد القرآن على زعمهم في سورة النحل . ويردد هذا المعنى جولد زيهر المستشرق اليهودي ؛ وبلاشير في كتابه معضلة محمد وغيرهم وجميعهم يشيرون إلى ما جاء في العهد القديم أو الإنجيل . ويشيرون إلى رحلات النبي إلى الشام وغيرها ويردون إليها ما ورد في القرآن من قصص (ثانياً) حاول جولد زيهر ونولدكه الإدعاء بأن القرآن حرف بعد وفاة محمد ﷺ فيدعون أن اسم الرسول قثم أو قثامة ثم أبدل وصار محمداً لتيسير وضع الآية (ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد). ولقد كان الرسول ﷺ أسماء كثيرة ولقد التقط هذا الاسم مما جاء في الروايات التي تروى عن محاولة جده عبد المطلب في إطلاق اسم قثم عليه قبل اختيار اسم (محمد) . وتشير روايات المستشرقين المبطلة إلى ما كان يجهد له النبي ﷺ في حالة الوحي فيصورون هذا بأنه نوبات من الصرع ، فيقولون أنه كان عليه الصلاة والسلام يفقد وعيه ويسيل منه العرق وتعتريه التشنجات وتخرج منه الرغوة فإذا أفاق ذكر أنه أوحي إليه وتلا على أتباعه ما يزعم أنه وحي من الله .

ولاريب أن مسألة اتصال البشري في الرسول بالملائكي في جبريل إبان الوحي من الأمور الخطيرة التي تحدث عنها العلماء والباحثون والتي يعجز عنها مفهوم العلم المادي فإذا أضيف إلى ذلك التعصب والتحيز والتماس العيب العوراء كانت على هذه الصورة التي يرددها بعض متعصبي المستشرقين .

(ثالثاً) ذهب بعضهم إلى البحث عن الحروف المفردة في أوائل بعض سور القرآن وقال نولدكه أنها اختصارات لأسماء مالكي النسخ التي استخدمها زيد بن ثابت لجمع القرآن في مصحف واحد ، وهو استنتاج باطل وساذج ، وذهب أدوارد جوسفر إلى أن هذه الحروف المقطعة ليست إلا اختصارات للأسماء القديمة للسور ولا ريب أنها لو كانت أسماء السور لوجب أن توضع قبل البسملة لا بعدها . ولو كانت كذلك لعرضها المفسرون الأوائل وأشاروا إليها . وواضح أن المحاولة ترمي كلها إلى هدف واحد هو اعتبار هذه الحروف المقطعة ليست من الوحي وأنها عمل متأخر عن زمن الرسول والواقع غير ذلك تماماً وأن هذه الحروف هي من صلب القرآن وأن هذه الحروف قد وردت على لسان النبي ومن صميم الوحي . وقد أدعى لويس جارديه ، والأب قنواتي في كتابهما (فلسفة الفكر الديني بين المسيحية والإسلام) أن عثمان بن عفان أقبل إلى القرآن في خلافته فقسمه إلى سور وآيات ورتب السور وراء بعضها حسب طولها فأطولها أولا ثم مادونها طولا وهكذا . وهذا القول ينسب إلى سيدنا عثمان ما ليس وارداً بالتحقيق ذلك لأن ترتيب سور القرآن أمر توقيفي تم في عهد النبي ﷺ ولم يحدث تغيير له أو تبديل له من بعد . ولقد حاول بعض المستشرقين ترتيب القرآن ترتيباً آخر يختلف عن الترتيب القرآني الأصيل ومنهم وليم موير ، وويل وردويل وقد باءت محاولاتهم بالفشل وهناك من حاول أن يشكك في لغة القرآن ذاتها وحاول أن يرميها بأنها لا تتميز بالعصمة ، وأستند في ذلك إلى بعض روايات حاول استخراجها من الروايات الضعيفة حاول

بها الإثارة الشبهة بأن هناك فقرات لم يتفق أصحاب النبى فيما بينهم عليها ، ولاريب أن هذه محاولات باطلة لا يعتد بها .

(رابعاً) : هناك محاولة القول بأن القرآن ليس بنظام مجتمع كامل وإنما هو محاولة للاصلاح اتجه إليها النبى نتيجة لما رآه من فساد النظام الطبقى عند قومه فى عصره وأنه من أجل ذلك لجأ إلى التخويف بيوم القيامة لكى يرغب المعارضين فى الاصلاح ومن ذلك الحديث عن المطففين والهمزة اللمزة ونهيه عن قهر اليتيم ونهر السائل، وأن محمداً قد تأثر بالوضع الاجتماعى فى مكة تأثراً شديداً . ولاريب أن هذه المحاولة باطلة فى أساسها ، إذ أن هذا النظام الكامل الجامع الذى جاء به القرآن وحياً من الله إلى رسوله محمد ﷺ ، حين يدرس دراسة عميقة فإن الباحث المنصف يجد فيه منهجاً متكاملا جامعاً ربانى المصدر بما لا يقدر بشر على تنسيقه على هذا النحو ، وهو فى قدرته على البقاء غضا طرياً مع تغير الأزمنة والبيئات وعطائه المتصل فى كل عصر وبيئة ، وعدم اصطدامه بالمتغيرات والتحولات ليؤكد كذب الإدعاء بأنه من صنع بشر . ومهما قال المستشرقون فى تأثر النبى بتعاليم اليهود والنصارى - وهو مالم يحدث لسبب أساس هو أن النبى كان لا يعرف القراءة والكتابة - فإن التوراة والإنجيل لم يرد فى أحدهما مثل هذا النظام الذى قدمه القرآن وأن القرآن فى مفهومه للتوحيد الخالص يختلف معهما فضلا عما قدمه من مناهج : منهج المعرفة ومنهج السنن الكونية وسنن الحضارات والأمم فإن ذلك كله لا يوجد منه شيء فى كلا الكتابين المدعى أن الرسول محمد قد أطلع عليهما . (خامساً) : فساد القول بأن القرآن أسير السجع والثقافية كما يقول لويس مارسية فإن فى القرآن أساليب متعددة وأسلوب السجع واحد منها ، والقرآن له طابع خاص معجز مختلف أشد الاختلاف عن التأثر بسجع الكهان فى الجاهلية ويختلف عن الشعر كلية حتى قيل عنه (والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة) .

(٢) كانت ترجمة القرآن من خيوط المخطط الذى بدأه الغرب المسيحى بعد الحروب الصليبية تحقيقاً لتوصية لويس التاسع، وفى محاولة لتحطيم الرأى العام الذى أخذ يتكون فى أوروبا نتيجة لمقولة العائدين من المعارك فى الشرق والذين تحدثوا عن سماحة الإسلام فى التعامل مع الغزاة، وعظمة الإسلام فى الأداء الحضارى، مما أزعج الكنيسة ودفعها إلى العمل على مقاومة ذلك عن طريق ترجمة القرآن وتفسيره على النحو الذى يثير التكذيب لرسوله والتشكيك فى سلامته ؛ يقول أحد الباحثين أنه بعد الغارة الصليبية الأولى رأى رجال الكنيسة أن استيلاء الأوروبيين على البلاد المقدسة لم يأت بالنصر الحاسم ولم يؤد إلى اعتناق المسلمين للمسيحية بل على العكس قد نتج عنه أن تركت حضارة الإسلام ومقوماتهم وطرق معيشتهم تأثيراً ملموساً فى الصليبيين وعند ذلك قامت الأصوات تدعو إلى ضرورة استخدام الوسائل الفكرية فى محاربة الاسلام وفى مقدمة هؤلاء بطرس المحترم سنة ١٢٥٦ الذى أوفد إلى أسبانيا وسنحت له الفرص للاطلاع على المناقشات بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا وعلى سياسة الذين يرون أنه لا سبيل إلى مكافحة العقيدة المحمدية إلا بالحجج العقلية وقوة المنطق ومن أجل معرفة أراء الخصم جيداً تقرر ترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية ، وتعد أول طبعة لنص القرآن تلك التى نشرها باجانينى فى البندقية ١٥٢٠ وقد أحرقت جميع نسخها فى الحال بأمر من البابا بولس الثالث . ثم أصدر البابا اسكندر الرابع

أمراً يمنع طبع نص القرآن وترجمته وحتى عام ١٦٦٧ لم يجسر القس الألمانى إبراهيم هيكلمان على طبع ترجمته التى نشرت ١٦٩٤ والتى قال فى مقدمتها إنه من الضرورى أن نعرف القرآن معرفة دقيقة إذا أردنا مكافحته وتمهيد السبيل لانتشار المسيحية فى الشرق . وهكذا نجد أن المنطلق فى ترجمة القرآن كان لحساب التبشير والاستشراق على أساس إعطاء الغربيين القدرة التعرف على الجوانب التى يستطيعون منها مهاجمة الإسلام ومجادلة المسلمين . ومن هنا نجد أن جميع المستشرقين الذين كتبوا بعد ذلك أبحاثهم اعتمدوا هذه الوجهة وهذه الطريقة وكانت منطلقاتهم جميعاً الادعاء بنصرانية الأصل أو يهودية الأصل الذى جاء منه القرآن ، وماذا اقتبس محمد من التعاليم اليهودية وأن الإسلام من بنات أفكار محمد وأن القرآن من تصميم محمد . هكذا نجد كتابات بوهل عن مادة محمد فى دائرة المعارف الإسلامية وتوينبى فى بحث التاريخ ووارنر وجاجبر وبورى كلهم يجرون فى طريق واحد لا يصدر عن أسلوب علمى ولكن عن هوى وتعصب قوامه الزعم بأن القرآن من تأليف محمد وأن الرسول أخذ من التوراة والإنجيل وتأثر بهما ، ويقول بروكلمان إن النبوة كانت أمراً يتوقعه الرسول والذى كان يكلمه هو صديق له . واتفاق المستشرقين فى ذلك كله ليس عفوياً بل هو استنتاج متفق عليه على حد تعبير محمد أسد حين يقول : يظهر من بحوثهم وكأن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع من البحث العلمى بل أنه متهم يقف امام قضاته . وقد رد مفكروا الإسلام على هذه الشبهات جميعاً وزيفوها ، ومما قالوا أنه لو كانت التوراة والإنجيل مصادر القرآن كما يزعمون لكان اليهود أعرف الناس بهذا وهم من هم خبثاً وحقداً على كل نبى ورسول ، ولقد كانت صداقتهم المشركين فرصة لمساعدتهم فى الطعن بوحى القرآن وبيان مشابهته للتوراة لو كان ذلك به أدنى ذرة من الصحة . بل لقد شهد بعض كتاب الغرب بفساد رأى الاستشراق . يقول العالم أرتست فى كتابه (الإسلام والمسحية الحقيقية) أن العقيدة والنظام الدينى الذى جاء فى الأناجيل ليس الذى دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ، أن مرد النزاع القائم بين المسيحية اليوم وبين المسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس ذلك المارق اليهودى المسيحى وشرحه الصحف المقدسة على طريق التجسيم وأن بولس هو واضع ذلك المزيج من القصص والأحاديث المتعارضة ومن هنا فإن هناك اختلافاً أساسياً من حيث الأسلوب لأن لكل إنجيل كاتباً (لوقا . متى . يوحنا . مرقص . برنابا) . ومن هنا جاء القرآن مخالفاً لهذه الأناجيل وللتوراة مادة وأسلوباً .

أما الذين يدعون بأن للقرآن مصدراً من الإنجيل والتوراة فإنهم يجهلون ما أورده القرآن من أصول جديدة لم ترد فى الكتابين ومن تفصيلات فى بعض الأحداث لم يعرفها اليهود والنصارى . فقد أخبر القرآن بأشياء ما كان يعلمها أحد حتى أهل الكتاب أنفسهم مع أنها تتعلق بصميم مسائل دينهم فهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن كفالة زكريا للسيدة مريم بعد ولادتها . كذلك فقد أخبر القرآن بأشياء كثيرة تحققت تحققاً تاماً بعد الإخبار بها . منها إخباره عن انتصار الروم بعد انخذالهم . وكان الفرس قد غلبوا الروم عام ٦١٠ وأن دولة الروم كانت مختلة مضطربة بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكرة والغلبة ومع ذلك فقد أخبر القرآن بانتصار الروم فى بضع سنين ، والبضع مابين الثلاث والتسع . كذلك فإن القرآن أخبر بأمور ما عرفت إلا فى العصر الحديث وما كان أحد يعرفها أو يؤمن بها

إلا المسلمون ، ولم يرد بها أى إشارة من علم فى التوراة أو الإنجيل . ومن ذلك إخباره بانخفاض الضغط الجوى فى أعالى الجو (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء) وكذلك الإخبار عن اهتزاز الأرض عند نزول المطر عليها (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) . وفى القرآن أمور لا يمكن أن تنسب إلى الرسول ﷺ لأنها تحوى معاتبته على تصرف من التصرفات . وما كان للرسول أن يكتب القرآن ثم يعاتب نفسه ، وذلك فى أمر إطلاق أسرى بدر . وفى مسألة الأعمى . وفى مسألة الصلاة على المنافقين . وفى مسألة زينب بنت جحش . أما الوهم بأن النبى أخذ من التوراة والإنجيل وتأثر بأسلوبهما فأبسط الرد عليه أن ما فى القرآن مخالف التوراة والإنجيل مخالفة تامة . وهناك أمور فيها مخالفة جوهرية وذلك شأن مريم وعيسى ومعارضة القرآن للتثليث والصلب والخطيئة . أما الوهم بأن النبوة أمر كان يتوقعه الرسول ويرغب فيه وبأن النبى كان له صديق يكلمه فإن الأخبار الثابتة الصحيحة لم ترد مطلقاً بأن النبى كان يرجو أن يكون النبى المنتظر ولو كان لدونه المحدثون والمؤرخون كما دونوا عن أمية بن الصلت بل لقد صرح القرآن (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) وقد شهد أعداءه جميعاً له بالصدق وخاصة أبو جهل ولو كان شيء من ذلك صحيحاً لكان كفار قريش أدرى به من (بروكلمان) ومن شايعه وكان يكون من أكبر الحجج بين يد المشركين والمنافقين واليهود ، كذلك فقد برأ القرآن الرسول من أن يكون له من يعلمه (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) . كذلك فقد كشف الباحثون مقطع الأمر فى قضية المفردات الأجنبية التى التقطها المستشرقون ليلزموا القرآن بأن عربيته ليست كاملة ، فهذه الكلمات التى تبدو أجنبية وهى ليست كذلك إنما جاءت عن طريق الاشتراك فى أصل اللغات العربية القديمة أو اتصلت عن طريق النقل والتعريف بالتجارة والأسفار والمجاورة واستعملت فى اللغة استعمالا جارياً وفق قوانينها ، ولهذا استعملها القرآن وخاطب بها ربنا العظيم عباده بلسانهم لأنه لا يعقل أن يستعمل القرآن كلمات غير عربية وغير مفهومة عند العرب ثم يخاطبهم القرآن بها ويسميه عربياً مبيناً ليكلفهم بعد هذا كله شيئاً لا يفهمونه (أحمد نصيف الجنابى) .

وقد أثبت عديد من الباحثين أن الكلمات الأجنبية التى أوردها بعض المستشرقين كانت فى أصلها عربية نقلت إلى هذه اللغات الحبشية والسريانية والفارسية ثم عادت إلى عربيتها مرة أخرى . وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام الطبرى حين قال إنه غير جائز أن يتوهم ذى فطرة صحيحة مقر بكتاب الله ممن قرأ القرآن وعرف حدود الله أن يعتقد أن بعض القرآن فارسى لا عربى وبعضه نبطى لا عربى وبعضه حبشى لا عربى بعد ما أخبر الله تعالى فى ذكره عنه أنه جعله قرآناً عربياً ، بل لأن الله تبارك وتعالى نفى عنه العجمة ونفى أن يكون بعضه أعجمياً وبعضه عربياً (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته) .

الفصل الرابع

الاستشراق واللغة العربية

كانت حملة الاستشراق على اللغة العربية مرتبطة بحملته على القرآن الكريم ، وكان الهدف واضحاً وهو خلق فجوة بين بيان القرآن وبين لغة الكتابة ولذلك فقد توالت دعوات المستشرقين إلى العاميات والحروف اللاتينية ، قام ماسينون المستشرق الفرنسى بذلك فى المغرب وسوريا وقام بذلك مرجليوث المستشرق البريطانى اليهودى فى البلاد العربية ، وكان التركيز على دمشق من كلا المستشرقين الكبيرين وكان الهدف أنه إذا ماتت اللغة واستعجمت الألسنة انقطع الطريق إلى الإسلام وتمزقت الأواصر ، ولقد تجمعت شبهات الاستشراق حول اللغة العربية فى أمور عديدة :

(أولا) : رميها بالقصور وعدم الكفاية العلمية . (ثانياً) صعوبة النطق وصعوبة الكتابة .

(ثالثاً) ارتفاع مستواها عن فهم الناس . (رابعاً) التفاوت بين طريقة النطق وطريقة الكتابة .

وكان لويس ماسينون من أخطر الدعاة إلى الحروف اللاتينية واتخاذها إداة لكتابة اللغة العربية ومما كان يدعو إليه (إهمال الإعراب) على اعتبار أنه ييسر تعليم اللغة العربية على الأجانب وقد دعا ماسينون رجال المجمع العلمى فى دمشق إلى اتخاذه وسيلة التجديد وكرر دعوته فى أندية الشباب العربى فى باريس وقد وجدت دعوته رداً عنيفاً ومعارضة واسعة كذلك فقد بذل مارجليوث جهوداً واسعة فى محاربة الحرف العربى والعمل على استبداله بالحرف اللاتينى وركز دعوته على دمشق كما فعل ماسينون كما حاول مرجليوث دعوة الايرانيين إلى تغيير الحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية وقد عارض الايرانيون هذه الدعوة وشجبوها واحتفظوا بالحروف العربية أساساً للغتهم الفارسية وقد جاء دور المستشرقين فى مقاومة الفصحى لغة القرآن بعد دور المبشرين : وام ويلكوس ، وويلمور وسبيتا ، الذين بدأو حملتهم إلى العامية ثم جاء المستشرق فنسنك فنشر رسائل عديدة مكتوبة بحروف أوربية فى اللغة المصرية القديمة ومن بينها رسالة المقتطف أسماها (أجرومية مصرى) كتبها على هذا النحو :

(بل لسان المصرى ومعها أمسلة) يقصد : باللسان المصرى ومعها أمثلة .

(٢) تعددت محاولات المستشرقين للوصول إلى اغراضهم ، خاصة عن طريق مجامع اللغة العربية التى اشتركوا فيها ومنها دعوتهم إلى كتابة القرآن بلغة العصر فى محاولة للقضاء على النهج الذى كتب به القرآن منذ عهد النبى ﷺ والذى وضع على النحو الذى يضمن الاستجابة لكل اللهجات العربية ولكل القراءات المنزلة وقد رد الامام أحمد بن حنبل رداً حازماً على هذه الدعوى منذ قديم وقال إن القراءة يجب أن تكون على ما كتبه الصحابة فقد نزل القرآن على سبعة أحرف وان الكتابة جاءت

موافقة لهذا فلو تغيرت الكتابة لضاعت هذه اللغة . (٣) حاول الاستشراق الغمز لعلوم النحو والصرف والادعاء بأنها من عوامل صعوبة اللغة العربية ؛ وهذه أيضاً من مؤامرات الاستشراق ذلك أن حماية اللغة العربية تتطلب المحافظة الكاملة على ما هو مقرر ومنقول من الأصول والقواعد السليمة فى علمى النحو والصرف وعلى ماهو محرر مقبول فى علوم البلاغة التى هى المعانى والبيان والبديع دون السماح بما يؤدى إلى اللحن أو مسخ الأسلوب العربى المبين والديباجه الرائعة والجمل والأساليب التى تمتاز بها اللغة العربية .

(٤) حرص الاستشراق بعض اعوانهم من رجال التغريب إلى اطلاق تلك النغمة التى تقول أن العربية هى لغتنا ولنا الحق فى القبول منها والرفض والتغيير وهى نغمة مبطلة لأن اللغة العربية ليست ملك المصريين أو السوريين أو العرب جميعاً وإنما يشاركهم فيها سبعمائة مليون من المسلمين تعد اللغة العربية بالنسبة لهم هى لغة الثقافة والفكر والعقيدة ومن هنا فإن هذه الدعوى التى قد تصلح فى اللغات الأوربية القومية لا تصلح بالنسبة إلى اللغة العربية التى لا يملكها العرب وحدهم وليس لهم حق التصرف فيها تصرف الوارث القاصر . إن محاولة القول بأن اللغة العربية لغتنا ونحن أصحابها ولنا حق التصرف فيها قول مردود ، يرده واقع التاريخ ومنطق البحث العلمى .

(٥) كذب الواقع دعوى المستشرقين من القول بأن عيوب اللغة العربية وجود لغة الكتابة ولغة الكلام وتبين من البحث العلمى الدقيق أن جميع لغات العالم تتسم بهذه السمة وان أرقى اللغات الأوربية تختلف فيما بين الكتابة والكلام ولكن هذه المسافة قد تقصر وقد تتسع حسبما ينتشر التعليم الذى يرفع الأمم من لغة الكلام إلى لغة الكتابة ولذلك فإن الدعوى إلى إنزال لغة الكتابة إلى لغة الكلام هى عمل مضاد لطبيعة اللغة وتطورها .

(٦) عندما يتحدث المستشرقون عن ضعف اللغة العربية أو جودها فإنما هم يتنكرون لمصدر هذا الجود او الضعف وهو ماقام به الاستعمار فى سبيل الحيلولة دون امتداد اللغة العربية وتغليب لغة المحتل عليها وتشجيع اللهجات العامية على النحو الذى حال بين اللغة العربية وبين التطور والنمو . وقد رسم دهاقنة الاستعمار من أمثال دانلوب سياسة التعليم على أساس أن تحول بين اللغة العربية وبين أن تصبح الأداة الثقافية لأبناء الأمة المتطلعين إلى أن ينهلوا من معين التقدم العلمى فإذا أصابوا قسطاً من علم أودعوه فى قوالب أجنبية متضاربة منها ماهو مشدود بولائه الثقافى باكسفورد أو كمبردج بتراكاتهما التقليدية، ومنها من لايؤمن بالفكر الفرنسى الواضح الرقراق ومنها من اتجه كلية إلى الأسلوب الألمانى الموغل فى التحليل وقد حرم الاستعمار التعليم بلغة الأمة حتى لا تنتقل العلوم بكليتها إلى تلك الأمة فى حين تلقى العلوم عن طريق اللغات الأجنبية بحيث اقل بعض من أفراد الأمة إلى تلك العلوم .

(٧) كشف رجال اللغة عن فساد المقارنة التى حاول المستشرقون عقدها بين اللغة العربية وبين اللغة اللاتينية ، تلك المحاولة التى يستهدفون بها وضع اللغة العربية فى مصاف اللاتينية وتحويل اللهجات المصرية والسورية والعراقية إلى لغات وهو مالايتحقق مع وجود القرآن الكريم الذى هو العروة الوثقى لوحدة اللغة العربية .

والواقع أنه لايوجد أي تشابه سواء من ناحية التاريخ أو الأوضاع أو التحديات بين اللغتين : وأن اللغة اللاتينية إنما تقلصت وانفسح المجال أمام لهجاتها لأسباب سياسية منها انكماش الدولة الرومانية وتقلص نفوذها السياسي ولأن الدين المسيحي كان عاملا مساعداً على انتشار اللهجات العامية لأن التبشير بذلك الدين بدأ بين العوام فمن الطبيعي أن تكون الدعوة له باللهجة العامية بينما كانت الدعوة إلى الإسلام عن طريق القرآن نفسه فبلاغة القرآن هي روح الدعوة إلى الاسلام ومن هنا قضت العربية على السريانية والقبطية والعبرية والحبشية والآرامية .

(٨) أن اللهجات المحلية والعامية واللغة الوسطى، والحروف اللاتينية كلها من مؤامرات الاستشراق وهي التي تسربت إلى دعاة التغريب حتى نرى واحداً مثل الدكتور محمد كامل حسين يقول : أدعو إلى قتل الفصاحة وإلى تجاهل البلاغة فقد أصابنا منها شر كثير ، وهو قول يدل على العجز عن فهم علاقة اللغة بالعقيدة أو فهم تاريخ الإسلام وعلاقة العرب به وهي كلمة من كلمات استعلاء مفهوم عصر العلوم ولغة العلوم وهو تيار مهما بلغ من سلطانه فلن يستطيع أن يقضي على سلطان العقائد والفكر وعلى المفهوم الأصيل بأن المسلمين هم حملة لواء البيان الذي ارتقى بالبشرية من الأساطير الساذجة والعاميات إلى عصر الرشد الفكري والأخلاق والإيمان وكلها ترتبط ارتباطاً أساسياً ببلاغة القرآن التي جاءت قمة لتعطي النفس الإنسانية أشواقها ومطامعها . ولاريب أن هناك عداوة للغة العربية مصدرها عجز المستشرقين عن فهم اللغة العربية ومصطلحات البلاغة والبيان ، وهي عدوى سرت إلى دعاة التغريب وإلى أولئك الذين يعادون القرآن والاسلام فهم يعادون الفصحى ومن هؤلاء من يدعوا إلى كسر اللغة العربية وكسر عمود الشعر العربي ولاريب أن الذين يشجعون اللهجات العامية هم أعداء الاسلام الذين يهمهم ابعاد المسلمين عن كتابهم الكريم واضعاف شأن الفكر الاسلامي وتبديد قوى المسلمين الذين يوحدهم الاسلام وكتابهم الواحد كتاب لغتهم الواحدة وقد أصدر مؤتمر العالم الاسلامي قراراً تاريخياً عام ١٩٤٩ بوجوب اعتبار لغة القرآن لغة عامة المسلمين في جميع أنحاء العالم والعمل على نشرها وكتابة لغات العالم الاسلامي بخط النسخ العربي .

(٩) عمد الاستشراق إلى إفساد اللغة العربية على النحو الذي نجده في كتاب المنجد من إدخال مصطلحات غير عربية إلى صميم النص العربي ، وما نجده من خطأ في تفسير بعض المصطلحات العربية : مثل محاولة تفسير كلمة (الطلقاء) بقولهم أنهم الذين أدخلوا في الاسلام كرهاً ، وتفسيره كلمة (ع م د) بأنه غسيل الولد بماء المعمودية في حين أن المعمودية ليست كلمة عربية وإنما هي كلمة قبطية تنطق معموذيت بالذال المعجمة يقول الدكتور مصطفى جواد أن أغلاط المنجد لا يمكن لأحد أن يستقصيها وقد نبهنا على ثلاثمائة وأربع وعشرين منها ونحن لم نقرأ فيه إلا عند الحاجة .

الفصل الخامس

الاستشراق والتراث

وقف الاستشراق من التراث الإسلامي موقفين متعارضين :

(١) موقف التنكر لقيمة هذا التراث وتصويره بأنه متخلف وأنه لا يستطيع أن يعطى العصر الحديث شيئاً نافعاً ، وينكر أنه كان لهذا التراث فضل على الحضارة الحديثة .

(٢) بعث الجوانب الضعيفة والمختلف عليها من هذا التراث وخاصة ما يتعلق بالفرق السياسية ودعوات الباطنية والزنج والقرامطة وغيرها من الجوانب المضطربة والتى لا يتفق مع جوهر الإسلام . ولقد أنكر بعض المستشرقين نسبة الكتب اللاتينية الكيماوية التى تحمل اسم جابر بن حيان إليه لمجرد أن أصولها العربية فقدت ومنهم المستشرق برتلو ، كذلك أنكر المستشرق دوزى الحقيقة التى اعترف بها المؤرخون المنصفون من أن الشعر الفرنسى (التروبادور) قد تأثر بالشعر الأندلسى الإسلامى وقد تصدى له علماء راسخون مثل لمبادر وستيل وأوضحوا أنه كان خطئاً ومتعمداً وقال جورج سارطون أن أى شخص يعرف العربية لا يخطىء مطلقاً فى اكتشاف أن هذه الكتب اللاتينية ترجمات لكتب عربية إذ تبدو الأساليب العربية واضحة فى الترجمة اللاتينية وأثبت ربيرا ونكل بما لا يدع مجالا للشك أن شعر التروبادور متأثر إلى حد بعيد بالشعر العربى الأندلسى وبالموسيقى العربية ولولاها لما ظهر التروبادور . وقد يقال أنهم مستشرقون ينكرون ومستشرقون يعترفون . ونقول : أن حركة التغريب لا تنقل لنا إلا وجهات نظر المنكرين والمعترضين والمنتقصين لتراثنا فى محاولتها الدائبة الغض من شأن كل ما يتصل بالإسلام وتراثه ، وأن هؤلاء المنصفون فى الأغلب علماء لا دخل لهم بدائرة الاستشراق ومن مثل هؤلاء العالم درابر الذى كتب فى منتصف القرن التاسع عشر معلقاً على أسلوب الإنكار الذى يتخذه الأدب الأوربى إزاء الأدب العربى وقال أنه آسف لهذه الطريقة التى عمد بها الأدب الأوربى إلى التحايل (لإخفاء أفضال العرب العلمية علينا) وأشار سديو إلى ذلك فقال : يحاول الأوربيون التقليل من شأن الدور الذى قام به العرب ولكن الحقيقة ناصعة مشرقة ، ليس أمامنا من سبيل إلا أن نضفى عليهم الشرف الذى يستحقونه إن عاجلا أو آجلا . ولقد أشار جارودى إلى ما أطلق عليه (مؤامرة الصمت) التى استمرت أكثر من ثلاثمائة عام تقريباً والتى تجمع على التنكر للتراث الاسلامى وآثاره فى النهضة العلمية الحديثة .

(٢)

وفى الوقت نفسه عمدت حركة الاستشراق إلى استخدام التراث الاسلامى استخداماً سيئاً ، فقد

بدأت المؤامرة على التراث منذ وقت بعيد وهى تومى إلى الإستيلاء عليه بأى ثمن ونقله إلى دوائر الغرب ثم كانت محاولة إبراز الجوانب الضعيفة منه والمعقدة والمتضاربة والمتصلة بالخلاف والصراع بين الفرق الإسلامية وكل مايتصل بما يشكك فى العقيدة الإسلامية وخاصة دعوات الباطنية والقرامطة والحلاج وابن عربى والسهروردى حتى عكف ماسنيون أربعين سنة على إحياء آثار الحلاج وإعادة طبعها ويجرى طبع كتب ابن عربى وابن سبعين وغيرهما . فى نفس الوقت الذى يجرى فيه التجاهل تماماً لكتب الايجابيات الاسلامية والرد على الزنادقة والباطنية مما كتب الغزالى وابن تيمية وابن القيم . وكذلك نجد أن الاستشراق قد استخدم التراث استخداماً خطيراً : أبرز ونشر وأذاع كل مايفرق وأخفى كل مايجمع وأحيا كل مايتصل بالشبهات والفرق ، وأغفل غيره : فقد جرى المستشرقون على إحياء أنواع معينة من التراث ليست من خيرها وفى مقدمتها النصوص الفلسفية وخلافات المذاهب وتضارب الآراء وأبحاث الاعتزال والباطنية وكل هذا ليس من صميم الفكر الإسلامى ولكنهم قصدوا من ذلك أحياء تلك الشبهات وإعادة طرح الخلافات القديمة فى أفق الفكر الإسلامى لتمزيق المسلمين شيعاً ومن ذلك اهتمامهم بالأدب المكشوف مثلا فى بشار وأبى نواس وألف ليلة والأغانى والزنادقة أمثال ابن المقفع وابن الراوندى وكل عملهم فى مجال التراث يستهدف طرح مفاهيم من شأنها أن تزاحم مفهوم الأصالة فى الإسلام لتزيفه ولتفسده . ومع ذلك فقد وجدنا من يقول : سوف نرى عندما تخرج إلى النور تلك الكنوز المودعة فى دور الكتب الأوربية أن تأثير العرب الخالد فى حضارة العصور الوسطى كان أجل شأناً وأكبر خطراً مما عرفناه الآن .

الفصل السادس

الاستشراق والسنة

إن موقف الاستشراق من السنة هو موقفها من القرآن وسيرة الرسول ، تماماً ، فإن السنة هى جزء من حياة الرسول وهى تفسير للقرآن فلابد أن تنالها الشبهات وتصل إليها السموم وعوامل التزييف . ويقول العالم الفرنسى (إيتان دينيه) أنه من العسير أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم عندما يؤرخون حياة الرسول أو يدرسون سنته وقد صرح فى مقدمة كتابه (تاريخ حياة سيدنا محمد) أنه من المتعذر بل من المستحيل أن يتحرر المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم المختلفة . وأنه من أجل ذلك قد بلغ تحريف بعضهم لسيرة محمد ﷺ مبلغاً غطى على الواقع وأخفى الصورة الحقيقية وذلك بالرغم مما يزعمه المستشرقون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمى المحايد . وقد عرض إيتان دينيه لكثير من أبحاثهم النبى ورد عليها واتخذ من لامنس مثالا واضحاً على صحة ماذهب إليه وحكم به وقال لقد اخترت (لامنس) لأن شهرته العلمية خدعت الكثيرين فأحسنوا الثقة به مع أن ماساقه من أدلة وبراهين فى كتبه أغلبها من قبل التمويه على القارىء والكذب على الحق والتاريخ .

قال لامنس أن النبى ﷺ كان يكره الوحدة وأكد (ديفيه) أن النبى كان يتعبد فى غار حراء بنفسه ليستجمع ذهنه وشعوره منصرفاً كل الإنصراف عن هذا العالم المادى . وحكم لامنس على النبى بأنه كان نؤوما ، والقرآن يشهد للنبى (أن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه) . واتهم لامنس النبى بأنه كان أكولا وبين إيتان دينيه أن محمداً كان زاهداً فى الطعام وملذات الدنيا . وحكم على لامنس بجنوحه وانحرافه بدليل أنه إذا تحدث عن النبى وأصحابه لم يسلم أحد منهم من غمزاته وطعناته أما إذا تحدث عن أعداء الاسلام أبى جهل وأبى لهب والمنافقين وأعداء الدين فإنه يشيد بهم ويمدحهم . والمعروف أن إيتان دينيه قد آمن بالاسلام وهو من أمثال الورد هدلى و (ليوبولد فايس) محمد أسد وعبد الكريم جرمانوس . وهناك منصفون لم يعلنوا أسلامهم أمثال : كارليل وهنرى دى كاسترى الذى يقول أن العقل يحتار كيف يتأتى أن تصدر الآيات عن رجل أمى وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بنى الإنسان عن الاتيان بمثلها لفظا ومعنى ، لقد أتى محمد بالقرآن دليلا على صدق رسالته والقرآن الذى نزل على محمد لا يزال إلى يومنا هذا سراً من الأسرار التى يتعذر فك طلاسمها .

(٢) وتتركز شكوك المستشرقين فى السنة حول تأخر تدوين الحديث . فهم يرون أن تأخر تدوين الحديث الذى بدأ فى المائة الثانية للهجرة أعطى فرصة للمسلمين ليزيدوا وينقصوا فى الحديث وفى وضع أحاديث لخدمة أغراضهم . يردد هذا جولد زيهر ودوزى وسبرنجر. وقد شك جولدزيهر فى صحة وجود صحف كثيرة فى عهد الرسول ، ويرمى من وراء ذلك إلى إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها فى الصدور وهو يرمى أيضاً إلى وصم السنة كلها بالاختلاق والوضع على السنة المدونين وهو يزعم أن هؤلاء المدونين لم يجمعوا من الأحاديث إلا ما يوافق هواهم ، ويرى شبرنجر فى كتابة الحديث عند العرب، أن الشروع فى التدوين وقع فى القرن الهجرى الثانى وأن السنة انتقلت بطريق المشافهة ، أما دوزى فهو ينكر نسبة هاته (التركة المجهوله) من الأحاديث إلى الرسول . وقد رد عليهم دكتور صبحى الصالح فى كتابه (علوم الحديث ومصطلحه) كما رد عليهم كثيرون وكشفوا زيفهم . وجملة الرأى فى هذا ماأورده الدكتور مصطفى السباعى حين قال : حرص الصحابة على حفظ حديث رسول الله وتلاه وحرص التابعون وتابعوا التابعين من بعدهم على نقل هذا الحديث وجمعه وتنقيته من شوائب التحريف والتزيد وماقام به علماء السنة من جهود جبارة فى تتبع الكذابين والوضاعين وفضح نواياهم ودخائلهم وبيان مازادوه فى السنة من احاديث مكذوبة حتى جمعت السنة فى كتب صحيحة وأشبعها النقاد بحثاً وتمحيصاً ثم خرجوا من ذلك بالاعتراف بصحتها والتسليم بها ، وإذا أمعنت النظر فى ذلك كله ايقنت أن هؤلاء المستشرقين يتخبطون فى أودية الأوهام وهم متأثرون بأوهامهم وتعصبهم فى الحكم على حقائق يعتبر العبث بها فى نظر المحقق المنصف إسفافاً وتلاعبا بالعلم واخضاعاً لحقائق التاريخ إلى نظريات الهوى والبغض . ولعل من الخرافات التى جرى وراءها المستشرقون وأتباعهم فرحين بأنهم التقطوا شيئاً ما أطلق عليه ومعراج ابن عباس ، والكتاب مكذوب لا يتداوله إلا عامة الناس وليس له سند يربطه به لا رواية ترق

إلى مستوى السند، وقد احتفل به المستشرقون وقارنوا بينه وبين الكوميديا الإلهية. وليس أشد تعصباً من مستشرق مثل أندرسن الذى أسقط أحد المتخرجين من الأزهر فى رسالة عن حقوق المرأة فى الاسلام لأنه برهن على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة. وقد لخص الدكتور مصطفى السباعى بعد جولة ضخمة مع المستشرقين فى جامعات أوربا أشرنا إليها فى كتابنا (الاسلام والثقافة العربية) أهدافهم على هذا النحو. (أولا) إخضاع النصوص للفكرة التى يفرضونها حسب اهوائهم. (ثانياً) تحريف النصوص فى كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً. (ثالثا) إساءة فهم العبارات حين لا يجدون مجالا للتحريف. (رابعاً) تحكمهم فى المصادر التى ينقلون منها: ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به فى تاريخ الحديث، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به فى تاريخ الفقه. فهم يصححون مايقوله الدميرى فى كتاب «الحيوان»، ويكذبون ما يرويه مالك فى الموطأ.

الفصل السابع

الاستشراق والحضارة الإسلامية

وجهت حركة الاستشراق إلى الحضارة الإسلامية كثيراً من الاتهامات والشكوك والشبهات، فهم لا يطلقون إسم الحضارة الإسلامية عليها بل ينسبونها إلى العرب حتى يثيروا الخلافات ويوقعوا بين المسلمين والعرب، يقول رينان: أن الحضارة العربية حضارة سطحية ظاهرية أنتجتها عقول أوربية ومنابع يونانية فارسية هندية قوطيه، وحيثما وجد الإنسان ظاهرة من ظواهر الحضارة فى البلاد العربية فلابد من إرجاعها إلى عقلية آرية وإنتاج غير سامى. ويزعم (يوسف شخت) أن أحد أركان المدنية الإسلامية راجع إلى المدنية الاغريقية فى آخر مراحلها فلم يكن العرب يشتركون فى تدعيم صرح تلك المدنية العظيمة إلا بلغتهم ودينهم. أما المواد الأخرى فإنها مأخوذة من ذلك التراث الذى ترك اليونان والذى قد توطد فى البلاد الشرقية منذ عصر الاسكندر، ثم جاءت الدولة العربية فأكلت توطن العلوم والآداب الاغريقية فى الشرق الأدنى. ويقول ماسنيون أن كبار رجال الحضارة والآداب لم يكونوا ذوى دم عربى محض بل كانوا موالى مستعربين. وقد رد كثير من كتاب العرب على هذه الاتهامات ويقول الدكتور جواد على: أن هذه النظريات لاقيمة لها أبداً إذا لم تدعم بالنصوص والبراهين. كما أن الاستشهاد بحادثة أو رواية لا يتخذ حجة للحكم به على أمه وإنى أستطيع أن أجعل من الأمة الجرمانية همجية بربرية مادية خاملة لم تنهض إلا اخيراً بالاستناد إلى النصوص الجرمانية نفسها المجموعة من المصادر والمنابع عن التاريخ الجرمانى، ويستطيع كل مؤرخ أن يفعل ذلك فى تاريخ أى أمة. واعتقد أنه لو كانت الأمة العربية قوية فى الوقت الحاضر لكانت النظرية على عكس ذلك تماماً. ويقول: أن الحضارة الإسلامية ليست حضارة عنصرية وقد اشترك فيها كل الذين اعتنقوا الإسلام بصرف النظر عن أجناسهم، فإن القرآن

واللغة العربية والتوحيد كانت هي العناصر التي شكلت القدر الذي صنع الحضارة ولقد جاءت حضارة الاسلام بعد حضارات العبودية الفارسية والفرعونية والرومانية وعبادة الفرعون والقيصر لتقدم للبشرية الإخاء البشري والعدل والرحمة والسماحة وترفع العبودية عن العقيدة وعن علاقة الإنسان بالإنسان وذلك هو جوهر الحضارة الإسلامية ، وقد قامت على التوحيد الخالص وبذلك فهي تختلف أشد الاختلاف عن الحضارات اليونانية وغيرها وعن الفكر اليوناني وغيره ، ولكن هذه الحضارة استطاعت أن تصهر في بوتقتها ماكان موجودا في العالم من علوم ومعارف بعد أن امتحنتها واستصفتها في بوتقة التجريب الذي هو المنهج الذي صنعه المسلمون وقدموه للبشرية وقامت عليه الحضارة المعاصرة . وأن ما وجده المسلمون لدى اليونان لم يكن سوى نظريات بعضها صحيح وبعضها خاطيء ، فضلا عن الأساطير والتنجيم والخرافات التي استبعدها المسلمون تماماً . ولقد حاول المستشرقون اتهام العرب والمسلمين بأنهم أحرقوا مكتبة الاسكندرية وهي دعوى باطلة كذبها المؤرخ البريطاني جيبون وكثير من المؤرخين الذين تبين لهم أن مكتبة الاسكندرية احرقت قبل الإسلام وقد أحرق نصفها يوليوس قيصر الرومان واتم احراق الجزء الباقي بطارقة الاسكندرية قبل الإسلام . وقد كذب الدكتور بطلر رواية يوحنا النحوي وقال أنه مات قبل دخول عمرو بن العاص إلى الاسكندرية بأربعين سنة أو ثلاثين على الأقل وأن أبا الفرج روى عن يوحنا النحوي فإذا سقط البطل سقطت الرواية . كذلك ذكرت دائرة المعارف الفرنسية أن مجموعة المؤلفات التي كانت بالسرابيوم قد احرقها النصارى في القرن الرابع الميلادي .

ويقول الدكتور عمر فروخ ان محاولة المستشرقين إنما تهدف إلى أن لا يصل الاسلام صحيحاً إلى أهل الغرب فيؤمنوا به فهم يعملون على رد الإسلام وتشويهه بتقديمه مهلهلا وأن كتاباتهم مشوهة واحكامهم مزيفة قوامها الجهل والسطحية والتعصب ، وأنهم يهدفون إلى اقتناص الحجج الغالطة لتقدم إلى المبشرين حتى يستغلوها في الجدل، وقد أشار إلى ذلك كرادي فرحين قال : أن محمداً ظل وقتا طويلا معروفاً في الغرب معرفة سيئة فلم توجد خرافة أو فظاظة إلا نسبوها إليه وقد رد مازعمه هؤلاء الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين يهاجمون العرب ولم تكن مهاجمتهم إلا تهماً باطلة بل متناقضة . وأن المستشرقين لا يرجون من تفضيل الآداب الغربية على أمثالها في تاريخ العرب إلا خلق تخاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين وحملهم من هذا الطريق إلى الرضا بالخضوع للمدنية الغربية .



الفصل الثامن

الإستشراق والشريعة

لما كانت الشريعة الإسلامية هى الغاية الكبرى من الإسلام فقد كان لابد للاستشراق من توجيه الشبهات إليها ومحاولة البحث عن تناقضات يستطيع من خلالها أن يصل إلى مرماه، وقد وضح حقد المستشرقين على الشريعة الإسلامية فيما كتبه كوفن وريمان وكلاوون وجاو وجولدزيهر ومرجليوث ولامنس، وقد حاولوا إيهام المسلمين بأن الشريعة الإسلامية سبب تأخرهم وأنها عائق فى سبيل تقدمهم ونهوضهم، وأثاروا الشبهات حول نصوصها وعرضوا لما اسموه تطور الشريعة بتطور العصر وغير ذلك من المحاولات الباطلة التى عرفت عن الشرائع الوضعية التى تحتاج فى كل عصر إلى تغير مع روح العصر بينما الشريعة الإسلامية شريعة ربانية منزلة قد وضعها الشارع الأكبر محققة لقيام مجتمع الأمن والسكينة وجعلها ذات أطر واسعة وافية وقادرة على تقبل تغيرات العصور والبيئات، وهى من أجل ذلك لا تحتاج إلى تطور لأن أسسها الثابتة راسخة البنيان ثم هى راسخة قادرة بعد ذلك على تقبل المتغيرات . ولقد حاول الاستشراق الادعاء بأن الشريعة الإسلامية جماع ما كان لدى العرب من الأعراف وهو ظن كاذب ودعوى باطلة فندها علماء الإسلام وكـذبوا ماذهب إليه أمثال شاخت وغيره . وكانت من أخطر مجادلاتهم الادعاء بأن الشريعة الإسلامية مأخوذة من القانون الرومانى وهى أيضاً دعوى ظاهرة البطلان وآية ذلك أن مؤتمر القانون الدولى فى لاهاى عام ٩٣٧ قرر أن للشريعة الإسلامية نظام قانونى مستقل غير مأخوذ من التشريع الرومانى وبذلك اقرر تمثيل الشريعة الإسلامية فى محكمة العدوانية كنظام، ومن تلك الشبهات التى أثارها الإستشراق دعوى الفصل بين الدين والدولة والقول بأن الاسلام دين عبادى لا صلة له بنظم المجتمع، وهى محاولة لتصوير الاسلام على هيئة المسيحية الغربية، بينما الاسلام فى جوهره وطبيعته دين ومنهج حياة لاسبيل إلى انفصالها ولقد كانت محاولة فصل الدين عن الدولة هى أحدى محاولات النفوذ الغربى الذى فرض على المجتمعات الإسلامية استعمال القانون الوضعى . ولقد كانت محاولات الاستشراق لضرب الشريعة الإسلامية عاملا هاما يرمى إلى الحيلولة دون تطبيقها فى المجتمع الإسلامى . أما محاولة الربط بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى فقد كشف علماء المسلمين عن فروق عميقة بين الشريعة والقانون، أبرزها أن الشريعة لم تفرق بين الروح والجسد ولم تهمل إحدهما بحسبان أن الإنسان مركب منهما جميعاً وأن الفقه الإسلامى قسم على أساس العبادات والمعاملات والعقوبات بينما قسم القانون الرومانى على أساس الاشخاص والخصومات، وأن أساس القانون الاسلامى مستمد من كلام الله المنزل بالوحى أما أساس القانون الرومانى فستمد من مشيئة الانسان، وأن خلاصة القانون الاسلامى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) بينما بنى الرومان أحكامهم إما على أوامر رئيس الحكومة أو العرف العام وقد أهملت كتب الفقه الرومانى المسائل العمومية كالأمور الدستورية وأحكام

القانون الدولية وجعلتها من أمور السياسة بينما الإمام عند فقهاء المسلمين هو أمام صلاة الجماعة كما هو أمام دولة المسلمين، وفى القتل تشكل العقوبة عند المسلمين حسب النية من حيث العمد والخطأ ولا توجد هذه عند الرومان ، وكذلك الدية والقصاص عند المسلمين وكذلك الحدود التى تتعلق بالقتل والزنا والسرقة والقذف وشرب الخمر والارتداد ، بينما الزنا والقذف وشرب الخمر ليست محرمة عند الرومان ومن ثم فلا عقاب عليها . وليست هناك مشابهة بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى فى الزواج والطلاق فالاسلام لا يعرف إلا قسما واحداً من الزواج وهو عقد يجمع الزوجين برضاهما بينما يوجد عند الرومان أصناف عديدة للزواج الجائز يعتبر أكثرها عند المسلمين كالزنا . وقانون الوراثة وتقسيم التركة عند المسلمين يغاير ماعند الرومان ، وكذلك نظام القضاء وأدوات القصاص، والقانونان مختلفان حتى فى المعاملات المالية، فمثلا الربا غير محرم عند الرومانيين وحتى أساس التجارة مختلف بينهما فالبيع عند فقهاء المسلمين (عقد برضا المتعاقدين) وهو عند الرومانيين عقد يتعلق بالمال . ويقول الدكتور محمد حميدالله أن الفقهاء المسلمين ما كانوا يعرفون اللغة اللاتينية التى كتب بها القانون الرومانى ولم تترجم هذه القوانين إلى العربية قبل أوائل القرن العشرين ، ومن المعروف أن المفتى عند الرومان هو موظف الدولة، أما عند المسلمين فالفقيه لم يكن أبداً إلا رجلا من عامة الناس تعلم وتفقه فأفتى ودون كتب الفقه.

وفيما أورده شاخت وجرونهيم وجولد زيهر من القول بأن التشريع الاسلامى المتعلق بالأسرة والوراثة كما قرره الإسلام كان مستمداً من النظام القبلى وأن العقوبات فى الإسلام كانت تحت السلطان القبلى فقد زيف الباحثون المسلمون هذه الشبهات وكشفوا عن مصدرها المتعصب الحاقد الذى يكمن فى صدور أهل الاستشراق الغربى والصهيونى. يقول الشيخ محمد أبو زهرة : هل كان فى النظام القبلى أن الفرد يقتل بالفرد وأنه لا يسأل غير القاتل وأن النفس بالنفس ولا عبرة بمقدار ماكان عليه المقتول من جاه أو منزلة عند الناس فإن النفوس متساوية بحكم القرآن وأقوال محمد وليست متساوية بحكم القبائل فزعيم القبيلة يقتل به العرب ، وهل كان فى نظام القبيلة أن يقتل الحر بالعبد ، بل إن السيد يقتل إذا قتل عبده ، وهل كان فى حكم القبيلة جلد الزانى بمائة جلدة أو الرجم وحد الخمر بثمانين جلدة أو أربعين وحد القذف بثمانين جلدة؟ وهل كان فى حكم القبيلة أن العبد تكون عقوبته على النصف من عقوبة الحر؟ وهل كان فى حكم القبيلة أن السارق تقطع يده ؟ لقد أغفل (شاخت) كل الحقائق وقال فى كلمة واحدة : إن حكم الإسلام فى العقاب إمتداد لحكم الأعراب . وفى شأن الطلاق الذى جاء به الاسلام ، هل هو ما كان متبعاً فى الجاهلية وهل حقوق المرأة كما قررها الإسلام هى التى كانت فى الجاهلية أو عند الرومان؟ هل كان للمرأة عند العرب أو الرومان إرادة فى تزويج نفسها والولاية الكاملة على مالها ، هل المرأة كان لها كيان كامل عند الرومان أو عند الفرس أو عند البدو . هل أقر الاسلام نظام التبنى الذى كان معمولا به عند العرب وعند الرومان ، وهل نظام الولاية على النفس والمال هو ما كان عند الرومان ؟ الاسلام قد اعتبر الولد حراً فى التصرف فى نفسه وماله بمجرد بلوغه البلوغ الطبيعى والرومان كانوا يعتبرونه فى ولاية أبيه ولو بلغ الستين ، حتى يمنحه الأب حق التصرف ، هل نظام الميراث كما قرره الاسلام سبق براى فى شرع من الشرائع ؟ ويشهد فلهاوزن وتبعه آخرون من المستشرقين أمثال كايتانى

ويبكر ديل وجردهمان شبهة أن العرب لم يعرفوا سياسة المال ونظام الضرائب لما فتحوا البلاد ويرى فلهاوزن أن العرب كانوا يجبون من البلاد التى فتحوها أتاوات إجمالية وأنهم اتبعوا النظام الفارسى الرومانى الذى كان سائداً فى تلك البلاد فى جمع الضرائب واستعملوا نفس أسماء ونظام الضرائب التى كانت مستعملة فى العهود السابقة ومن ضريبة الأرض (الخراج) وضريبة الرءوس (الجزية) ويرد الدكتور بدوى عبد اللطيف على هذه الشبهات فيقول : من الحق أن الآراء التى ذهب إليها فلهاوزن ومن تابعه من المستشرقين خطأ إلى خطأ وذلك لأن العرب عرفوا سياسة المال ونظام الضرائب الحقيقية منذ قيام الدولة الاسلامية ولم يطلبوا أتاوة معلومة ثابتة من البلاد التى فتحوها إلا فى حالات قليلة معينة ، وأنه كان هناك منذ البداية أنواع من الضرائب المحددة لها قواعدها وشروطها ولها نظام جبايتها وكيفية تحصيلها، وأنها كانت تزيد وتنقص حسب الظروف والملابسات وأن خطة العمل فى الجهاز الضرائبى سادت فى دقة ونظام فى جميع الأقطار وبخاصة فى مصر وأن مركز الخلافة كان شديد الرقابة والإشراف على الادارة الضريبية وأجور الضرائب ، الأمر الذى لايدع مجالا للشك فى أن العرب عرفوا النظام المالى والمعانى الاصطلاحية المتصلة به منذ الفتح الإسلامى وأن أقوال العرب من المؤرخين والفقهاء كمصادر تاريخية وتشريعية هامة جديرة بالثقة والاحترام وأنه يجب التعويل عليها ولاسيما إذا علمنا أن ماجاء بها يكاد يتفق مع ماجاء من شواهد البردى وغيره من الوثائق التاريخية المادية ، ومما يدل على أن نظرية فلهاوزن فى حاجة إلى إعادة النظر حين تناول النظم الإسلامية بالدراسة ، ذلك أن العرب عرفوا نظام الضرائب الحقيقية فى الفتح الإسلامى الأول ماثبت من ان ضريبة الرءوس (الجزية) لم تكن موجودة فى مصر فى العهد البيزنطى المتأخر وإن كانت موجودة فى فترة أسبق وذلك يعنى أن العرب استحدثوا ضريبة الجزية لما دخلوا مصر فاتحين أيام الخليفة عمر بن الخطاب وأنها كانت ضريبة حقيقية لها نظامها وسعرها الخاص ، فرضت على أفراد بأعيانهم وأعفى منها آخرون حسب قواعد ثابتة فرعية لقد حدد عمر بن الخطاب وقت أداء هذه الضريبة (الجزية) بما يتفق ومصالح الدافعين وكان وقت تحصيلها فى نهاية العام الزراعى حين تجنى الغلات ويأتى وقت الحصاد شأنها فى ذلك شأن الضرائب الأخرى كالخراج والزكاة ، كذلك نص الخليفة صراحة على الأشخاص المكلفين بدفع ضريبة الجزية فأوجبها على الذكر البالغ الصحيح الجسم والعقل بشرط أن يكون له مال يدفع منه فافترض عليه وأعفى منها النساء والأطفال والشيوخ لأن الحرب لاتمان عليهم ، ولا يدفعها العمى والمقعدون إلا إذا كانوا أغنياء .وكذلك الفقراء والمساكين والأرقاء والضعفاء ولم يكن يطالب بها الرهبان إذا كانوا فى عزلة عن الناس أما إذا اختلطوا بغيرهم فتؤخذ منهم لأنه لايؤمن خطرهم وشرهم ، فهذا وغيره من الحجج الدامغة التى يطول ذكرها ، وهذا يدل على عدم صحة فلهاوزن ونظريته وكذلك يدل على خطأ من كانوا بعده وساروا على دربه ، وأن العرب عرفوا منذ قيام الدولة الإسلامية النظام المالى والنظام الضرائبى فى الأقاليم المختلفة وأن الاسلام عامل أهل البلاد المفتوحة على أساس إنسانى كريم فأباح التمتع بكل مافيه من خير ومزايا ولم يقم أمام أحد أى حاجز من الدين أو اللون أو الجنس أو اللغة . وقد أعاد المستشرقون طبع أمهات كتب الخراج فنشر كتاب الخراج لكل من يحيى بن آدم والإمام أبى يوسف

يقول عبد الله مختار (مجلة المجمع - دمشق - ابريل ١٩٦٨) وكان هذان الكتابان قد طبعا عدة طبعات قبل ذلك بالعالم العربي وأوروبا والطبعة الحديثة التى طبعت ١٩٦٣ غير أمينة والواضح أن هدف هؤلاء فى تقديم نصوص فقه الخراج بصورة مشوهة كانت غايته تقديم أسس نظرية واثقة يمكن استخدامها للنيل من عدالة تشريع الخراج فى الإسلام ، فقد حاولوا تفسير وترجمة تلك النصوص الواضحة بشكل يخدم أغراضهم بعد تزييف تلك النصوص وقد حاول المستشرقون تفسير التطور فى النظام الخراجى بين ما كان فى عهده الأول وبين ما كان بعد أن أفاء الله عليهم ووسع عليهم وفتحت بلاد الفرس والروم ودخل أهلها ضمن إطار المجتمع الإسلامى ، حاولوا تفسير هذا بما يتفق مع ما يحملون من آراء مسممة، وفى سبيل ذلك استخدموا التناقض الظاهرى بين أحكام الشرع الخراجى و بين الوثائق المالية الخراجية للتوصل إلى الزعم بأن هناك تضارباً حاداً بين التشريع وواقعه الحالى . وبأن أهل العهد عاشوا أحقابا طويلة من الاضطهاد والاستغلال . ولو فحص هؤلاء المستشرقون تلك الوثائق الخراجية وأحكام الخراج النظرية لتبين لهم بأن هذا التناقض الظاهرى لم يتعارض مع روح التشريع الاسلامى ولتبين لهم بأن ذلك لم يكن إلا استجابة لحكم التشريع فى التخفيف عن أهل الذمة وهذا ما أثبتته الوثائق الخراجية نفسها . وقد أشار الذين نشروا كتب الخراج حديثاً إلى مضمون الاصطلاح المميز التشريع الخراجى (عفو - فضل - طاقة) وفسروه بشكل يفقد التشريع روحه العادلة . ويفضى إلى الجهم المطلق وقادهم إلى ذلك الفهم عدم إمكانهم متابعة الأحكام العامة التى وضعت من الناحية النظرية فقط فى مسائل خراج البلاد المفتوحة عن طريق الصلح أو عن طريق الحرب والقوة وهو ما أدى بهم إلى التضارب فى الرأى .

الفصل التاسع

لاستشراق والاداب

أولى الاستشراق الأدب العربى اهتماماً واضحاً وتخصص فيه أمثال : مارجليوث وكلمان هوار ، وجب ونلينو ، وبروكلمان وريجيس بلاشير وكراتشوفسكى وقد أعلى الاستشراق الفكر الباطنى وإخوان الصفا وأعلن تأثر الأدب العربى بالفكر الفارسى وبالأدب اليونانى .

أما « مارجليوث » فقد فرض فرضاً فى الشعر الجاهلى نشره فى يوليو ١٩٢٥ فى إحدى المجلات الاستشراقية ، وفى خلال عام ١٩٢٦ نشره طه حسين فى كتابه (فى الشعر الجاهلى) ولم تختلف وجهة نظر المستشرقين فى الأدب عن وجهة نظرهم فى سائر العلوم ، فالغربيون منهم أمثال بروكلمان يقول فى كتابه عن الأدب العربى : إن القرآن محاولة للقول بأن المصادر الأصلية للقرآن مأخوذة من النصرانية ، وجولد سيهر يقول بأن هذه المصادر مأخوذة من التوراة ، ويجىء من يقسم القرآن بينهما فيقول إن

المكى نصرانى والمدنى يهودى لمجاورة المسلمين فى مكة لنصارى نجران ومجاورة المسلمين فى المدينة ليهود غطفان، وقد ركز الاستشراق فى مجال الأدب على الأدب الشعبى والعاميات والاهتمام بشعر الغزل والمجون واعتبار ألف ليلة والأغانى من مصادر البحث الأدبى . وقال نولدكه ومولر أن قالب الشعر من القوالب الشعرية وأنه تأثر بموعظة المبشر المسيحى على لسان المبشرين العرب فى جنوبى الجزيرة .

واعتماد رجال التغريب من اتباع المستشرقين على تطبيق نظريات الأدب الفرنسى على الأدب العربى وهى نظريات مادية تقوم على مفهوم أن الإنسان خاضع للبيئة والعصر وأنه مجبور وليست له إرادة ، وأنه حيوان مادى يخضع للجنس أو لقمة العيش . وكان أبرز التراث الذى حققه الاستشراق : معلقة لبيد ، ومقامات الحريرى ، وكليلة ودمنة والمعلقات السبع وديوان امرىء القيس والطواسين الحلاج وألف ليلة ورسائل إخوان الصفا وكلها أعمال لا تشى بطابع الأدب العربى الحقيقى المستمد من القرآن والسنة. وفى الشعر عمدوا إلى إحياء بشـــار وأبى نواس والضحاك . ويطلق جب على عصر الجاهلية : العصر البطولى ويرفض المستشرقون مصطلح العصر الجاهلى إسماً لعصر ما قبل الإسـلام ، ويحاول المستشرقون تزييف عصر ما قبل الإسـلام على أنه عصر استنارة وحضارة ويسمون عصر الإسلام عصر التوسع ليثبتوا أن الإسلام لم يقم بأى تغيير حقيقى وإنما جاء متابعاً لما قبله ، وفى مجال اللغة يرمون بأن اللغة العربية لغتان : شمالية وجنوبية . ويركز جب ونيكلسون وغيرهم من مؤرخى الأدب العربى على الإشادة بدور الثقافة اليونانية فى المنطقة وأثرها ، وإليها يردون كل ما فى الأدب العربى من كلام، وإلى الثقافات الفارسية واليونانية يردون كل أمور النحو والبلاغة . ويقول جب : إن الذين رفعوا لواء الفكر والفن فى العصر العباسى هم من أصل مسيحى أو نصف مسيحى، وهناك الاهتمام الواضح بالمعتزلة وهم يردون الاعتزال إلى الفكر اليونانى ويهتمون بانتصار البويهيين والشيعة ، ويرى جب أن ذلك نتيجة الخيرة الهلينية ، ويهتمون بالموشحات والمقامات ويطلقون على العصر المملوكى عصر الانحطاط . مع أنه حافل بالموسوعات : للمقريزى وعربشاه والسيوطى ، ويكشفون عن إساءة تامة وتعصب كامل للعصر العثمانى ويربطون النهضة العربية الحديثة بالحملة الفرنسية وأثر الإرساليات .

ويركز جاك بترك (فى كتابه مختارات من الأدب العربى المعاصر ١٩٦٤) على ما يسميه النهضة التى بدأت فى بيروت ١٨٨٠ (بطرس البستانى واليازجيان وجرجى زيدان . ويقول إن المجموعة المستنيرة بدأت من الأقليات ثم انضم إليها بعض المسلمين ، ويعنى عناية وافرة بجيل المهجر : جبران ونعيمة ويرى أن طه حسين هو الذى قام بدور البطل فى حمل لواء النزعة العقلية فى أدب البحر المتوسط والواقع أن رؤياه لم تكن صادقة فقد تأثر بأدب كان مفروضاً على عصره ولم يكن تابعاً منه حين اهتم بالشعر الحر وبكتابات لويس عوض وحسين فوزى ونجيب محفوظ وسعيد عقل ، وحين جعل مصدر العمل الأدب العربى: مجلة شعر ومجلة حوار . وقد كشفت الدكتورة بنت الشاطىء فى مقدمة اطروحتها عن الغفران عدم فهم واحد منهم هو نيكلسون للبيان العربى وقالت إن فهمه للنصوص فيه أخطاء كثيرة بعضها هين يمكن التجاوز عنه أما الكثرة الباقية فتعرض صوراً غريبة لفهمه للنصوص العربية .

(راجع مقالنا الاستشراق والأدب فى كتابنا خصائص الأدب العربى)

الفصل العاشر

الاستشراق والتاريخ

جرت محاولات الاستشراق حول تزييف تفسير التاريخ الإسلامى وإخضاعه لمناهج وافدة تفسره مادياً أو اقتصادياً أو تخرجه عن منهجه الأصيل ومفهومه الأساسى ، وبذلك تبـــدو صورة التاريخ المسلمين ممزقة مضطربة ، وبذلك يفقد الهدف الأصيل من دراسته والغاية المثلى من التعامل معه . ولما كان التاريخ عاملا هاماً من عوامل بناء الأمم وتربية الأفراد فقد كان حرص الاستشراق على إفساد هذه الغاية وذلك ببعث الجوانب المضطربة والروايات الخلافية وصور التناقض والخصومة وكلها صور لا قيمة لها فى بحر التاريخ الاسلامى العريض الجياش الملىء بصور البطولة والحيوية والقوة ، والذى كان قادراً على العطاء الدائم للأجيال المتجددة . ويستهدف عرض الاستشراق للتاريخ إلى إثارة الالتباس بين القيم المتكاملة بين العرب والاسلام وبين الموجات العربية التى خرجت من الجزيرة العربية إلى الآفاق تحت اسم الفرعونية والبابلية والفينيقية حتى تصطرع هذه الدعوات مع العروبة والاسلام . وكذلك العمل على تمجيد الحضارات القديمة السابقة للإسلام مع التركيز على الحركات المضادة للاسلام والتوسع فى دراسات الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ ، ويقوم هذا العمل على أساس دراسة الروايات المختلفة والنصوص المتعارضة وضرب بعضها ببعض لإثارة الشبهات ولاريب أن الهدف من بعث دعوات الفرعونية والفينيقية والأشورية إنما يستهدف تمزيق وحدة المسلمين والغض من شأن الإسلام .

وهكذا تبدو صورة الإسلام فى كتابات الاستشراق مليئة بالسموم والالتباسات العقلية والتاريخية وأن نظرة إلى كتابات بروكلمان فى كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية لتوحى بهذا الهدف فهو يدين كل الحركات الإسلامية الصحيحة ويعلى من شأن الزنج والقرامطة والباطنة ، أما روزنتال فإنه يصور التاريخ الإسلامى على أنه سلسلة متصلة من الحكام الطغاة وأن التاريخ الحضارى للإسلام كان تكراراً مسجلا للأفكار ، وأن التاريخ الدينى كان بقايا متحجرة متجمدة تناقلتها الأجيال بعضها عن بعض . وهناك الغمز بصلاح الدين والتكلم عن شجاعة الصليبيين ، والقول بأن المصريين لم يعرفوا الاستقلال وكانوا تاريخهم كله خاضعين للرومان والفرس والعرب فلماذا لا يخضعون للانجليز ، وكذلك اتهامهم المسلمين بحرق مكتبة الاسكندرية . ويحاول الاستشراق أن يصور الاسلام وقد قام بالسيف وأن المسلمين المجاهدين كانوا يطمعون من وراء الحرب إلى الغنائم ، كما يحاول القول بأن العرب بدو ويثير الخلاف بين العرب والأعراب .

وهناك محاولة القول بأن العرب قبل الإسلام كانت لهم حضارة وذلك فى محاولة إعلاء الجاهلية بأنها عصر البطولة واعتبار الإسلام امتداد لها والاهتمام بالغساسنة والمناذرة . وكذلك التشكيك فى عالمية الرسالة الإسلامية وإثارة الشكوك حول الكتب التى بعث بها النبى عليه الصلاة والسلام إلى الملوك والزعم بأنها وضعت فى صورتها الأولى بعد قرن من حياة النبى . وإذا راجعنا كتابات الإستشراق لتاريخ الإسلام وجدنا من يحاول استغلال الثغرات الموجودة فى المراجع العربية - كما يقرر الأستاذ محمود بسيونى - ليخرج منها استدلالات وتخريجات جديدة تتفق وهوى أصحابها وأن هذه الكتب وإن اصطنعت المنهج العلمى فى دراستها إلا أننا لانستطيع أن نطمئن إلى ذلك كل الاطمئنان . ولذلك تعتبر بعض المراجع الأوربية فى التاريخ الإسلامى مراجع قاصرة قصوراً بقدر قيمة هذا العنصر الهام من عناصر الدراسة التاريخية فالمستشرق حينما يحاول أن يكتب التاريخ الإسلامى ينظر دائما من وجهة نظره الخاصة كأوربى، خذ مثلا «لين بول» فى كتابه مصر فى العصور الوسطى، وستجد حتى عنوان الكتاب ينبىء بوضوح عن هذا القصور ، فالوضع الطبيعى أن يقول مصر الإسلامية أو حتى العربية لأن تعبير القرون الوسطى قد اقترن فى أذهان الأوربيين خاصة بالتدهور والانحلال والإنحطاط فى حين أن هذه الفترة التاريخية كانت فترة إزدهار للوطن الإسلامى والعربى بما فيه مصر ، ومن ناحية أخرى تلمس بوضوح تعليلات لين بول الخاطئة للحوادث فهو كإنسان لا يؤمن بالإسلام ولا يستطيع أن يضع أسبابا لحدث تاريخى عظيم مثل فتح المسلمين لمصر غير تلك الأسباب المادية التى تقفز إلى ذهن الأوربى إنسان العصر المادى ولا يستطيع تعليله القاصر أن يصل إلى أغوار الحقيقة العميقة الجذور ، وإذا أخذنا ما كتبه (بودلى) عن الرسول عليه السلام نجد نفس القصور مع تعمد أكثر للطعن . وهكذا نجد أن التفسير الغربى للتاريخ ، عاجز عن فهم أبعاد التاريخ الإسلامى الذى يقوم على عنصرى المادة والروح معا متكاملين وعلى عنصرى الشهادة والغيب مجتمعين . أما التفسير المادى للتاريخ فإنه يعتبر أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام فهو لا يرى أن هناك قيما أخرى كالدين والخلق والإيمان يمكن أن تكون دافعاً من دوافع حركة التاريخ ويتجاهل القوى المعنوية للأمم والشعوب . والتاريخ الإسلامى لا يمكن فهمه أو تفسيره إلا على ضوء النظرة الاسلامية الجامعة المتكاملة للحياة الانسانية وكل تفسير يقوم على غير هذا الأساس ضرب من الخطأ العلمى . ومع الأسف فإن بعض العرب يطبقون هذه المذاهب ليفسروا بها تاريخ أمتهم فيخطئون أشد الخطأ .

ذلك أن روح الفكر الاسلامى وحضارته وتاريخه تقوم أساساً على وحدة الكون وانسجام الطبيعة ، وذلك على أساس أن الاسلام هو النظام الجامع المتكامل الوحيد الذى يحقق هذا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد فى نظام الدين والسماء والأرض فى نظام الكون ويسلكهما فى طريق واحد هو الطريق إلى الله ، وأن الاسلام والاسلام وحده هو الذى يجمع بين العلم والدين فى وحدة تامه غير متنافسة، ومن هنا فإن تطبيق منهج المستشرقين فى فهم التاريخ يحول بين الباحث المتطلع إلى الحقيقة وبين هذه الحقيقة ويجعل نتائج البحث مضطربة غامضة ، وقد تنبه إلى هذا المعنى كثير من كتاب الغرب . يقول الدكتور تريتون : إذا صح القول أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحاً فى تعليل بعض الظواهر

التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعاً حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا إلى العلم الصحيح لهذه الظاهرة الفردية : هذه الظاهرة هى الإسلام، ويقول اليان وايد غراى : أن نظرة المسلمين إلى التاريخ نظر بنائه فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحى (القرآن) فإن إرادتها حينئذ تتطابق مع إرادة الله . ويقول وليفرد كانتول سميث : إن المسلم يحس بالتاريخ إحساساً جاداً ، فهو يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، فالمسلم يضحى بنفسه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة وهو سامح لها بالمرور ، فهو يقف فى طريقها حتى تدوسه وتقتله ويكون ذلك أغلى قربان يتقدم به إلى الله ، فإن المسلم حين يضحى بنفسه فى سبيل أن هناك نظاماً إلهيا يراد أن يطبق فى واقع الأرض وهذا قائم فى حسه وهو يضحى حتى يدفع عجلة هذا النظام خطوة إلى الإمام .

الباب الثالث

خطط الاستشراق : بين التحول والثبات

اولا : طريقة المستشرقين فى البحث . ثانياً : مواجهة المستشرقين فى مؤتمراتهم .

ثالثاً : وقفة فى وجه الاستشراق . رابعاً : دراسات المستشرقين . خامساً : الاستشراق يغير جلده .

الفصل الأول

طريقة المستشرقين فى البحث

عندما بدأ الدكتور محمد حسين هيكل ترجمة كتاب حياة محمد للمستشرق أميل درمنجم فى السياسة الأسبوعية ١٩٣٢ علق الدكتور حسين الهوارى على هذه الفصول فقال : وكأنى بالأستاذ يعجب بما فى الكتاب وما يحويه من آراء تقرب مسافة الخلف بين الاسلام والنصرانية مع مايفرضه من حسن النية فى المؤلف والعاطفة الدينية والأدبية فى الناقد إلا أننا رأينا القلمين يسيران فى ذلك الطريق الذى رسمه قديماً جماعة المستشرقين للبحث والاستقصاء فى حياة النبى العربى مما يجب أن نلفت إليه نظر الباحثين والكتاب إلى هذا العصر الذى طغت عليه أفكار جماعة المستشرقين حتى أخذنا نتتبع آثارهم فى كتاباتهم عن الشرق بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة أن حجر الأساس فى مباحث المستشرقين عن النبى الكريم لايخرج عما لخصه الأستاذ هيكل بقوله : «والواقع أنه منذ الساعة الأولى بل من قبل أن ينزل جبريل بالوحى كان محمد أشد ما يكون نفوراً من الوثنية التى نشأ ونشأ أهله فى قريش فيها . وأشد ما يكون ميلا لهذه المعانى الروحية التى يتحدث عنها النصارى واليهود والمتيثون من أهل الكتاب فى أنحاء شبه جزيرة العرب ممن كان يتصل بهم أثناء ذهابه إلى الشام وإلى اليمن فى القوافل قبل أن يقوم فى تجارة خديجة وبعد أن قام فيها ، وهذه المعانى المتوثبة فيه منذ صباها إلى الكمال هى التى دفعته إلى تحنثه فى كل عام بغار حراء شهراً أو أكثر من شهر ، ثم قوله : « هذا الاتصال بأهل الكتاب وكتبهم هو الذى أدى بمحمد كما قدمنا لينصح إلى الذين اتبعوه بعد أن أمضهم أذى قريش أن يهاجروا إلى الحبشة المسيحية فإن بها ملكا لايظلم عنده أحد ، فالذى نفهمه من ذلك أن تعاليم أهل الكتاب كانت قد لفتت نظر سيدنا محمد إلى الكمال الروحى والمثل الأعلى وجعلته يتحنث فى الغار . وهذه هى طريقة المستشرقين فى البحث والنشر ، ولذلك هممنا قديماً أن نناقش هذه المسألة وبرهنا على أنهم يستنتجون من ذلك أن مصادر القرآن هى هذه الكتب التى استفاده منها النبى محمد فى سياحاته ، وضربنا مثلا عما يقول المدعو مرجليوث فى كتبه من الهذيان والتعصب

الأعمى المفقوت وهل حقيقة كانت الهجرة إلى الحبشة لأنها مسيحية ولأن النجاشي العادل كان مصدر عدله المسيحية المجردة من التعصب لأن الصلة بين الإسلام والنصرانية جعلته يغيثهم ويمنع جوارهم ، وهل حقيقة كانت الحبشة متمتعة بتلك المدنية والحضارة التي وصفها لنا درمنجم وزعم منها أنه عطف على المسلمين لتقواه وورعه ولما بين النصرانية والإسلام من صلة لا تتجاوز ما شبه النجاشي بخط يرسمه على الأرض بعود في يده . تاريخ الحبشة في هذه الفترة غامض وأغمض تاريخ في العالم فكيف إذن يمكن أن نجعل هذه الرواية أساساً لمسألة هامة كهذه وكان لابد لنا من الرجوع إلى التاريخ الاسلامي نفسه وتتبع آثار هؤلاء المهاجرين وإذا فعلنا ذلك نجد (درمنجم) شأن المستشرقين، ينشر هذه القصة بصفة مشوهة الحقيقة فلم يكن الدافع للنجاشي ورعه وتقواه ولم يكن سبب عطفه ورحمته ذلك الدافع الديني الذي صوره لنا الكاتب بقوله أن النجاشي قال بعد اقتناعه الديني (ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط) بعد ان أخذ عوداً وخط به على الأرض ، بل الدافع الحقيقي هو أن هذا النجاشي كان عادلا وهذه الحالة هي التي ذكرها النبي في حديثه لأصحابه قبل أن يهاجروا إلى الحبشة (لأن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق) ولم تكن هذه هي الهجرة الأولى بل كانت الثانية وقد عاد من هاجروا أولا بالخبر اليقين في بلاد الحبشة فاذا كان سبب عدل النجاشي ؟ كان سببه على مارويه عائشة أم المؤمنين أن أباه كان ملكا على قومه ولم يكن له ولد إلا هذا النجاشي وكان للنجاشي عم له من صلبه إثنا عشر رجلا فتآمر القوم على والد النجاشي وقتلوه وولد عمه ليوطد الملك له بإثني عشر وليا للعهد، وقام هذا العم ملكا فباع النجاشي في سوق النخاسة خوفاً منه لحزمه وعزمه وشاء ربك أن يصعق هذا العم بصاعقة من السحاب يوم باعه، وابتلى أولاده فلم يجدوا بينهم من يصلح للملك فأرجعوا هذا النجاشي ثانية وولوه أمرهم فاشتهر بالعدل والعطف على الضعيف وحماية من استجاره . ومن هذا يتبين أن هذه الحادثة كانت مصدر عطف النجاشي وعدله ولم يكن للعاطفة الدينية أثر في تصرفاته ولا لجازت عليه حيلة عمرو إذ قال له إن الإسلام يعتبر السيد المسيح عبداً . وهناك نقطة ثانية هي تلك الآية الشريفة التي اقتبسها درمنجم من سورة يونس وهي (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فأسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) فقد استدل بها درمنجم على أن الله تعالى رضى الناس الاسلام دينا (مع بقاء الأديان التي سبقت وحدة مندمجة في هذا الكمال الروحي اندماجاً أشار إليه القرآن في قصص أصحاب هذه الأديان وما جاء به من الحق من عند ربهم وأشار إليه (حين أراد أن يثبت محمداً في أمر ماجاءه) أعترف بأني لم أفهم شيئاً من هذه الجملة ولكني أنكر صراحة أن محمداً يختلجه أي شك فيما جاءه وأن يتثبت من صحته ممن يقرءون الكتاب قبله، وإن هذا المعنى لأبعد مايكون ما تخفى الصدور ومن أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وإذا صح مازعمه درمنجم لانهدم صرح الإسلام والقرآن من أساسه ولذلك قال ﷺ (لاأشك ولاأسأل) . إذن فالمقصود بهذه الآية ليس كما جاء على لسان درمنجم أن يستشهد الله على صدق ماأنزل ممن يقرأون الكتاب، وأن يلجأ نبيه لاستشارتهم، بل المقصود على ما نرى أن أمثال هذه القصص وردت في الأديان السالفة لا أكثر ولا أقل وأن النبي لم يكن متصلا بأهل الكتاب الآخرين لينقل عنهم . على أن هناك نقطة أخرى لم تطرح على بساط البحث وهي أن الدين الإسلامي بنصوص القرآن هو ملة إبراهيم والكعبة هي البيت الذي بناه ونذكره في التحيات في

الصلاة فكيف إذن لم نبحث الصلة بين هذا الدين وباقى الأديان؟ ولماذا لا يكون هذا الدين هو الوحدة التى يبحث عنها أولئك الذين يريدون إزالة الفوارق والعداوات الدينية وامتداد الحروب الصليبية من عهدها الأول إلى اليوم فى وسائل مقنعة من التبشير أو دور المستشفيات والمدارس ؟ ولماذا لا ندع الأديان جانباً ونزيل هذه الخلافات بالأخلاق وحسن المعاملة التى هى الهدف الأكبر لجميع الأديان ؟ إن فى التآخى والمحبة لألف سبيل غير العربدة فى البحوث الدينية التى تمس صميم العواطف والنفوس وتحمل الأعذار فى التقريب بين الأديان بفرض أن الصلة بين محمد وأهل الكتاب هى التى هيأت له سبيل الكمال فى التفكير قبل البعث، وهذه مسألة ذات خطر يجب على من يذكرها أن يقيم الدليل عليها، فنحن نعلم أن محمداً كان سلبياً فى كل مايختص الاديان قبل بعثه ولم تبد منه بادرة تعرف بها تلك الصلة ، وفوق ذلك فإن بعثه بعد أربعين حجة من عمره تنافى تماماً أن صلته بالأديان الأخرى هى التى هيأت له طريق الكمال الروحى وإلا لكان فى نزق الشباب واشتعال الصبا أو التمذهب بتلك الأديان وسيلة لإعلان ذلك الكمال والتفكير ، على أننا لاننكر أن تلك الصلة وجدت بأطهر معانيها بعد البعث وبعد نزول القرآن فوجدنا فيها ما لا يعزز رأى درمنجم ولا كل المستشرقين الذين هم على شاكلته من حسن النية أو غير شاكلته ممن يستغلون العلم الماديات والطعن الجارح فى الإسلام، وحسبك بالاختلاف البين فى رأى الإسلام والنصرانية عن السيد المسيح دليلا على ذلك . وأبعد من ذلك فإن المدعو (مرجليوث) يدعى أن النبى ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة ويتخذ آية من القرآن دليلا على ذلك (اقرأ وربك الأكرم) وهذا يدل على مبلغ الانعكاس النفسى والفكرى من أمثال هؤلاء المفكرين ، وإذا أردت أن تعرف كيف كانت الصلة بين محمد ﷺ والأديان التى سبقته وأنها لم تحصل إلا بعد البعث فارجع إلى حديثه مع عدى بن حاتم الطائى وفكر فى تلك الروعة التى تملك عليك مشاعرك إذ تجد النبى يسير معه سواء بسواء ويدعوه إلى منزله ويجلسه على وسادة ويجلس الرسول على الأرض ثم يتحاورن . فى مثل هذه الحادثة تجد السماحة والمودة ، ولو أن تلك الحجج لم تأت إلا بعد الإسلام بما أنزله القرآن من تفصيل ونفى وإثبات فيما يختص بالأديان الأخرى ، ولو كانت الصلة قبل البعث لوجدنا روحاً أخرى تتشيع لأحد الأديان قبل الدعوة الإسلام نفسه . والآن هل استفاد الشرق والاسلام من مباحث المستشرقين الذين أمعنوا فى البحث والتنقيب والنشر والدعاية ؟ فى رأيى — وعلم الله أنى لست ذا غرض إننا خسرنا كثيراً ولم نستفد شيئاً ولو أن أمثال درمنجم وغيره يريد حقيقة الدفاع عن الاسلام والشرق لكانوا أول من يعلن الحرب القلمية والكتابية على أبناء جلدتهم من المبشرين الذين ضجت منهم السماء والارض وكانوا أول من يهتكون ستر السياسة الاستعمارية التى تفرق بين الأديان تفريقاً يعلمه سكان البلاد الإسلامية عامة من أقصى الشرق لأقصى الغرب ، ولوجدنا لمسلمى روسيا من يدافع عن حريتهم وينقذهم من ذلك العذاب الذى يحيق بهم من كل جانب . أما ماخسره الشرق من نشر هذه المباحث فهو دخول أنواع التشكيك فى كل ناحية من نواحى التفكير الدينى والأدبى وطغيان تلك الأفكار على الهرق التفكير ماجعله يعتمد على غيره فى أهم مايختص بمباحثه وتاريخه ودينه ونحن نزعم أن الشرق قوى برجال الفكر والثقافة ولم يعد فى حاجة إلى الاسترشاد برأى المستشرقين فيما يختص بمناخه ودينه ونربأ بأنفسنا — وكرامتنا — أن نتعلم حياة نبينا من فم من لايتبع دينه .

كنت أفهم أن يعنى الدكتور هيكل بذلك النقد الطويل العريض لو أن درمنجم أسلم واقتنع وسجل لنا أسباب اقتناعه وإسلامه البرىء . إذاً لكان فى قوله عبرة وذكرى : أما أن يكتب بمثل ما قدمنا فبالغ الظن أنها صناعة قلمية ومعلومات تسجل لا أقل ولا أكثر . لقد خسر الشرق فى تتبعه لآراء المستشرقين أن فقد كثير منا ثقته فى البحث والتعبير ليخرج ما يكون لنا كتبا ومباحث مبتكرة فى التأليف القومى واللغوى والدينى ونحن أحوج ما نكون للشخصية المستقلة والتفكير الحر المستق من مصادرنا المتعددة المكدسة فى المكاتب مما لم تمسها يد باحث حتى اليوم .

الفصل الثانى

مواجهة المستشرقين فى مؤتمراتهم

منذ وقت بعيد ، والمستشرقون يستغلون مؤتمراتهم لينفثوا سمومهم فى الهجوم على الفكر الإسلامى واللغة العربية، غير أن رجال حركة اليقظة كانوا لهم بالمرصاد، وهذه صورة تاريخية ننقلها هنا لتصور كيف كان هذا الموقف من الإستشراق قديماً وكيف كان الفكر الاسلامى قادراً على الردع والدحض لتلك السموم . ففى ٢٠ أبريل ١٩٠٥ بمدينة الجزائر عقد مؤتمر المستشرقين وكان البحث عن اللغات فى العالم الاسلامى ووقف المسيو فولار لحصر بحثه فى التهجم على اللغة العربية وقد نشرت جريدة الظاهر التى تصدر فى القاهرة محضراً عن اجتماع المؤتمر فى العدد المؤرخ ٦ مايو ١٩٠٥، قالت أن المسيو فولار حصر بحثه فى تفرقة اللغة العربية الفصحى عن اللغة الدارجة على ألسنة الناس بين متحضرى البلاد العربية ثم استطرد إلى تمييز الفصيح والمقابلة بينهما وود الذى فسد من كلام العامة إلى أصله من كلام الأفصح أو الفصيح، وفى كلامه خبط خبطة شاذة مؤلمة للمسلمين فى العالم كافة تؤذيهم فى إحساس نفوسهم وعقيدة شرعهم وإجماع كلمتهم ، أجل تهور هذا الأستاذ فقال فى أثناء كلامه أنه لا يرى أن لغة القرآن هى أفصح لغات العرب أو اللغة العربية المحضة الناصعة التى تتخذ قاعدة من بين اللغات العربية ،وإذا أردنا أن نطلب اللغة الأنصع فصاحة والأرفع أصلا وتركيباً من بين اللغات العربية وجب أن نرجع بالبحث إلى العصور التى سبقت ظهور الاسلام وكان عهدها السنة ٥٠٠ من بعد المسيح، فإننا نجد الكلام البليغ والأسلوب الصحيح الفصيح الذى لم يكن سواه بعد عند العرب بليغاً فصيحاً . وقال أن القرآن مدبج على طراز خاص من النثر متفاخر الآيات متفاصل ما بينها بمشابه السجعات ، وأن من قابل بين هذه السجعات التى تخللت كلام القرآن وقوافى المنظومات التى صيغت قبل ظهور الاسلام وجد هذه أمكن فى اللفظ وأجزل وأعرق فى لغة العرب ووجد تلك ضعيفة رخوة أقرب فى أغلبها إلى لهجة العامية منها إلى اللهجة الجذلة الفصحى .

وقد انبرى له من عارضه وخطأه ، واحتدم الجدل وكان الأعضاء فى المؤتمر من المسلمين المصريين شاهدين لم يكونوا على علم باللغة الفرنسية فلم يفهموا موضوع البحث ولا لحة مما قال، فكانوا صامتين وارفض عقد الجلسة وقد استهين بالقرآن وأوذيت عقيدة الإسلام فى الإيمان بأن القرآن كلام الله يجل عن أن يدانيه فى فصاحته وبلاغته كلام بشر فضلا عن أن يماثله أو يفضله .وفى الجلسة التالية تصدى له أحد العلماء وقال أن الزميل فولار قد أساء إلينا أعظم إساءة ونحن هنا فى مجمع علم وأدب وأخلاق . بأى وجه يسوغ له انتهاك حرمة ديننا فيتلاعب المؤتمر بالقرآن الكريم والحط من شأن لغته بينما لا يخطر بخاطر أحد من المسلمين أن يتعرض لجدال فى التوراة والإنجيل أو غيرهما من الكتب المقدسة عند الأمم حفظاً للآداب؟ فكيف نرضى أن تضعوا قرآننا فى معرض البحث والمناقشة ، أن مافعلتموه كشف عن تعمد التسفيه لديننا والتضليل لعقيدتنا ونحن لانسكت عن ذلك . ومن أين لكم وأنتم الأغراب عن اللغة العربية أن تحكموا على الفاسد والفصيح والأفصح منها فإن صحة الحكم فى اللغة تستوجب وجود ملكة راسخة فى الحس عريقة فى النفس وهذا مالا يؤتى بالكسب إلا بعد قضاء السنين الطوال فى مزاولة الدرس وتتبع كل شعب من شعاب اللغة ومخالطة أهله ونسبة كلامهم وبلهجتهم إلى عاداتهم وطباعهم، والمقارنة بعد ذلك بين أهل الشعاب جميعاً فى الكلام واللهجات وماوضعت له من أغراض وعادات، فإذا تم ذلك لأجنبى عن اللغة أمكنه أن يميز الفصيح من اللغات وأن يبدى رأيا ،وذلك يستحيل أو يصعب أشد الصعوبة أن يتم خصوصاً فى اللغة العربية التى لاتحصى أجيالها ولا تنال أماكنها إلا بارتياد طويل الشقة . وهذا أمر لايتسنى إلا للأعراب والعلماء والبلغاء الذين محضوا اللغة العربية محض اللبن وأن على العرب أن يعرفوا ماهو أفصح الكلام وأبلغه فى لغتهم وقد عرفوا فأصبحت حكمة من عنوا باللغة وكلامها ممن شهدوا الجاهلية والإسلام معا ثم من حضروا الاسلام وجاءوا بعده ، إن كلام القرآن معجز لم يأت ولن يأتى بمثله أحد فى فصاحته وبلاغته لفظا وتركيباً . وأزيد أن العرب فى أيام عربانها ومستعربيها اعترفت لقريش أنها أعلى القبائل كعباً فى البيان فلما نزل القرآن أدهشت قريش وأخذ المعروفون بقوة المعارضة منهم فى تحديه فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا وأقرت نفوسهم على أن القرآن معجز للبشر .

وفولار هذا هو المعروف باسم فولرس الألمانى الذى كان يومها مديراً لدار الكتب المصرية والمتحدث فى الرد عليه هو الشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان يحضر المؤتمر مع الزعيم محمد فريد والذى كان أستاذاً بجامعة كمبردج فى ذلك الوقت، وقد بهر جاويش السامعين بحديثه الذى وصفه محمد فريد ببلاغة العبارة وجزالة المعنى .

الفصل الثالث

وقفة فى وجه الاستشراق

من المقطوع به أن الإستشراق من خلال هدفه ومهمته قدم للفكر الإسلامى العربى أشياء كثيرة نافعة لا يمكن إنكارها ولا تجاهلها وذلك فى مجال إحياء التراث والتبويب والفهرسة . ولنا على ذلك تحفظان : (الأول) أن التراث الاسلامى العربى سرق من البلاد بأساليب متعددة يمكن الرجوع إليها فيما أشار إليه كثيرون ومن بينهم الدكتورة بنت الشاطىء فى كتابها (تراثنا) وبعض الأبحاث الأخرى. وكان انتقال هذا التراث إلى أيدى دوائر الاستشراق واحداً من أخطر التحديات لأنه أصبح حجة علينا لا لنا ، وأصبح إحياؤه يجرى على النحو الذى يختاره الاستشراق لا وفق إرادتنا الخاصة، وكل ماحاولناه فى السنوات السبعين أو الثمانين الأخيرة لايعدو قطرة من بحر ، هذا فضلا عن أن محاولاتنا كانت تطبعها طوابع ليست لها أبعاد التقدير الكامل وإنما كانت تجرى فى مجال الإحياء للأدب أو الشعر أو لغيره مما هو ليس الأهم من التراث .

(١) (التحفظ الثانى) : أن المستشرقين جروا على خطة إحياء أنواع معينة من هذا التراث، فى مقدمتها التصوف الفلسفى وعلم الكلام وأبحاث الاعتزال والباطنية وكل هذا ليس لنا ولكنه علينا والمقصود به طرح خلافات سياسية قديمة أفسدت فكر المسلمين ومزقتهم شيعاً فى الماضى ثم تلاشت بعد أن تغلب عليها المنهج الأصيل الذى أقامه المسلمون تحت اسم : مذهب أهل السنة والجماعة .

(٢) عنى المستشرقون بجوانب معينة من التراث وأولوها اهتماما كبيراً منها دراسات الحلاج التى عنى بها ماسنيون ودراسات عن السهروردى وبشار وأبى نواس وأخرى عن ألف ليلة وكليلة ودمنة ومايتصل بابن الراوندى وإحياء الأغانى وكل هذه الدراسات فيها شبهة طرح مفاهيم من شأنها أن تحطم مفهوم الإسلام الأصيل أو تزييفه .

(٣) كان المستشرقون فى العصر الماضى يقفون من رجالنا موقف التلاميذ أمثال أحمد زكى باشا وأحمد تيمور وعبدالعزيز جاويش، وليراجع الباحثون مناقشات عبدالعزيز جاويش فى مؤتمر المستشرقين فى الجزائر عام ١٩٠٥ رداً على أحد المستشرقين عن القرآن واللغة العربية . ثم تغيرت الخطط فأصبح مثقفونا فى جامعات أوروبا تلاميذاً للمستشرقين فى دراساتهم وجاء بعضهم إلى مصر من بعد فأعلى من شأن الاستشراق (تراجع مقدمة طه حسين لكتابه عن الأدب الجاهلى) ومن المعروف أن طه حسين وزكى مبارك ومنصور فهمى ومحمود عزمى كانوا تلاميذ لمستشرقين يهود هم دور كايم وليفى بريل . والأخير هو الذى حرض منصور فهمى على معالجة موضوع تعدد زوجات الرسول بأسلوب استشراقى .

(٤) خطأ الرأى الذى يردده المستشرقون ويتابعهم فيه طه حسين وزكى مبارك من أن العرب كانوا أمة لها حضارة كاملة ومجتمع منظم قبل بعثة الرسول ونزول الإسلام . والواقع أن العرب لم يكونوا أمة ولا شيئاً مذكوراً إلا بالإسلام وشعرهم يشهد بأن كلمة العروبة لم ترد فيه إطلاقاً وإنما وردت كلمة القبيلة فالإسلام هو الذى جعل العرب أمة .

(٥) الكتابة عن الاستشراق من وجهة نظر إسلامية أو عربية يقتضى الاعتماد على مصادر أصيلة وعلى الكتاب الموثوق بهم وفى مقدمتهم : مصطفى صادق الرافعى ورشيد رضا ومحمد عبده والدكتور محمد محمد حسين ومحمد المبارك ودروزه والدكتور حسين الهوارى والدكتور محمد البهى والدكتور عمر فروخ وعبد العزيز جاويش . ثم تأتى بعد ذلك كتابات المستشرقين عن الاستشراق لتكون موضع المناقشة ، أما أن تكون كتابات المستشرقين هى المصدر لدراسة الاستشراق فذلك مما يتعارض مع المنهج العلمى . فإذا جاء بعض الكتاب ممن تبعوا المستشرقين نشأنهم فى ذلك شأن المستشرقين أنفسهم تؤخذ آرائهم بحذر .

(٦) الحملة التى شنها الاستشراق على الدولة العثمانية حملة ظالمة وقد قامت أساساً منذ يومها الأول إلى اليوم لحساب الصهيونية العالمية وجاءت على أثر الموقف الشريف الكريم التاريخى للسلطان عبدالحميد فى وجه « هرتزل » ومطالب السماح لليهود بالإقامة فى فلسطين (يراجع فى هذا بحث أحمد الشقيرى وأحمد طربين عن القضية العربية) . ولقد ظهرت فى السنوات الأخيرة وثائق متعددة تكشف الكثير من هذه الحقائق ، هذا ولا يمكن إصدار حكم تاريخى علمى على الدولة العثمانية كلها ويجب مراعاة مرحلة القوة ومرحلة الضعف . أما فى الفترة الأخيرة فهناك أمران واضحان تمام الوضوح أمام الباحث : يحاول المستشرقون وأتباعهم طمس حقيقتهما ويدخلون الواحد منهم فى الآخر إدخالا غريبا هما : مرحلة السلطان عبد الحميد التى انتهت عام ١٩٠٩ ومرحلة الاتحاديين التى بدأت فى نفس العام وانتهت بنهاية الحرب العالمية الأولى . المرحلة الأولى هى مرحلة المقاومة الصامدة برفع رايات الجامعة الإسلامية فى وجه الاستعمار والصهيونية ، والثانية مرحلة الصراع الدموى وتسليم فلسطين لليهود وقتل العرب والقضاء على الدولة العثمانية بإدخالها فى الحرب العالمية وتسليم طرابلس الغرب للإيطاليين .

(٧) لاريب أن الأدب العربى هو من صنيع الإسلام ، فلم يكن للعرب قبل الإسلام أدب بالمعنى العلمى لهذه الكلمة إلا قصائد الشعر وسجع الكهان أما الأدب العربى فقد أقامه القرآن وإن كان قد انحرف من بعد على أيدى الشعوبية الفارسية .

(٨) إن أى محاولة لتصور فلسفة الاستشراق لاتعدو ماأورده الباحثون المنصفون من أنها محاولة الاستعمار الغربى لدراسة العقلية العربية الإسلامية والنفسية العربية الإسلامية بقصد الانتفاع بذلك فى التعامل معها والسيطرة عليها وتدمير مقوماتها التى أعطتها القدرة على التماسك والصمود .

(٩) من الخطر الكبير فى مناهج العلم تصوير الحركة الاستشراقية بأنها حركة علمية بمفهوم البحث

العلمى المنهجى القائم على الوصول إلى الحق . فالاستشراق فى شطريه — عاملا مع الكنيسة أو عاملا مع وزارات الاستعمار — لايستطيع أن يخلص إلى الحق ، وإنما هو يؤدى دوره فى إثارة الشبهات وتقديم الزاد الكافى لدراسات التبشير ومعاهد الإرساليات لخلق تيار زائف مضلل . وإذا كان الاستشراق « علم » كما يحاول البعض أن يقول فأين شرائط المنهج العلمى القائمة على البحث المتجرد والإنصاف ؟ ومن الحق أن يقال أن المستشرق إنما هو واحد من ثلاثة إما متصل بالكنيسة أو بالاستعمار وفى كليهما لن يكون منصفاً فإذا كان غير ذلك فإن هناك من عجزه عن فهم البلاغة العربية مايعوقه كثيراً عن تقصى الحقائق والوصول إليها . ونحن نعرف كيف أن بعض المستشرقين فسر الآية القرآنية : (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) بقوله : « إن كل إنسان يأتى يوم القيامة وفى رقبته حمامة » وهناك عشرات من مثل هذه الأخطاء أوردها العقاد فى كتابه (مايقال عن الإسلام) . والعقلية الغربية التى ينبثق عنها الاستشراق لا تقبل بأى حال ظاهرة الإنصاف للعرب والمسلمين والقرآن ومحمد الإسلام وصدق أحدهم حين قال : (إن كراهية العرب والإسلام إنما يرتضعها الأوربى مع لبان أمه) .

(١٠) أن هناك محاولة لتقسيم الاستشراق إلى مرحلتين : مرحلة عقدية ومرحلة أخرى جديدة يطلق عليها اسم مرحلة علمية . أما العقيدية فهى تلك المرحلة التى هاجم فيها المستشرقون الإسلام بعنف وضراوة . ولو أنها وصفت بأنها (سياسية) لكان ذلك أصح وأصدق (والمفكرون المسلمون يعرفون جميعاً أنه فى العقدين الآخرين قد تراجع الاستشراق عن أسلوبه القديم المباشر واستعمل أسلوباً أشد مكراً وأسوأ سبيلا ، وهو محاولة الدخول فى الموضوعات من باب التقدير والمدح حتى يخدع القارىء ويكسب ثقته ، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يثير شبهات خفيفة ، متتالية فى إطار هذا التقدير العام الكاذب . ولقد تنبه لهذا كثير من الباحثين المسلمين اليقظين وأشاروا إلى خطورته ، وحذروا من الانخداع له . وغالباً مايكون هذا الأسلوب بعد دخول الاستشراق اليهودى إلى ساحة الاستشراق : برنارد لويس ، رود نسون ، جارودى ، م بيرجر) . ولا ريب أن الاستشراق فى المجال العقدى يعمل على هدم الأمة العربية واللغة العربية والحضارة والتاريخ .

(١١) لم يكن الإسلام غامضاً أمام الفكر الأوربى ، بل كان معروفاً ، وقد كشفت الحروب الصليبية لمن جاءوا إلى الشرق سماحة المسلمين والعرب ، وعرفوا قدر الإسلام وعظمته ، ولكن الذين عادوا إلى أوربا وتحدثوا عن ذلك جرت المحاولات لقتلهم والتخلص منهم (راجع أبحاث الحروب الصليبية) .

(١٢) أن أضخم صيحة كانت تصدر من الفكر الغربى هى صيحة (المنهج العلمى فى البحث) وفى مختلف مجالات الدراسات التى اتصلت بالاسلام والعرب كان هذا المنهج العلمى ممسوخاً وقائماً على الأحكام المسبقة علينا بالتعصب والحقد والكراهية مما يدل دلالة أكيدة على أن القيم فى الفكر الغربى هى قيم خاصة ومحلية ولا تنطبق على الناس جميعاً . فالمعروف أن المنهج العلمى التجريبى قد أنشأه المسلمون ولكن الأوروبيين نقلوه وظلوا أكثر من ثلاثمائة عام ينكرون ذلك وفى نفس الوقت يهاجمون الإسلام الذى هداهم إلى هذا المنهج .

والمنهج العلمى فى المعرفة هو من نتاج الإسلام أيضاً، فقد كان الإسلام منصفاً مع الأديان السابقة له فقد ناقشها فى سماحة ولم تتم أحكامه على الهوى أو الرأى المسبق وشهادة هاملتون جب للمسلمين فى هذا معروفة . أما الأوروبيون فيما نرى من كتابات المستشرقين عن الإسلام والعرب فإننا نرى أنهم تجاوزوا الحق إلى التعصب والكراهية والحقد وعدم الإنصاف .

(١٣) هناك رأى بأن الاستشراق قد يستطيع أن يتحرر مع الزمن وكيف يمكن للاستشراق أن يتحرر من ايدلوجيات الغرب ، وهو وليدها ومن صنعها وخادمها والمرتبط بها ارتباطاً جذرياً وعضويا وليس عنده باب واحد مفتوح إلى الحق أو الإنصاف أو للنظرة العلمية الصحيحة يستطيع أن ينفذ منه.

(١٤) حاول الاستشراق أن يهدى الغرب إلى فهم النفسية العربية الاسلامية والعقلية العربية الاسلامية ولكنه عجز حقيقة عن فهم هذه العقلية وهذه النفسية فقد تغلبت أهواءه وآراؤه المسبقة وبذلك فشل الاستعمار نفسه فى التعامل مع العرب والمسلمين . أما رحلات الاستشراق فقد كانت سريعة خاطفة وكانت تحمل معها شعور الاستعلاء والحقد ، (نموذج ذلك فى هانوتو وغيره) .

(١٥) لا ريب أن بحوث جولد زيهر وسنوك هرورجنية ويوسف شاخت فى الشريعة الإسلامية ليست علمية وهى تقوم على أساس فكر مسبق وهدف واحد يرمى إلى انتقاص أصالة الشريعة الاسلامية والغض من استقاليتها . وقد عارض آراء هؤلاء كثيرون منهم العلامة (محمد الغزالى والشيخ أبو زهرة) .

الفصل السابع

دراسات المستشرقين

تناول المستشرقون جوانب كثيرة من الفكر الإسلامى بالدراسة ولاريب كان التراث الإسلامى هو أبرز ماتناولوه وعالجوه بالبحث والتقصى من دراسات الفكر الإسلامى المتعددة ونحن نقدر لهم فضلهم فى تبويب التراث وإعداده وفهرسته وتحليله ولكننا حين نتقصى وجهة نظرهم فى كثير من القضايا فهى غالباً ماتكون خاضعة لأحد أمور ثلاثة : أما محاولة فهم الإسلام على أنه دين لاهوتى خالص كالمسيحية بينما الإسلام دين ومنهج حياة ، وأما أنهم تأثروا بوجهة نظر السياسية الإستعمارية فخضعوا لها ، وأما أن أدواتهم البيانية والفكرية قصرت عن فهم طبيعة الإسلام والفكر الإسلامى الجامعة التى تربط بين الثابت والمتغير والروحى والمادى والدنيوى والأخروى، وأغلب ماتجىء أخطاؤهم فى فهم الوحى والنبوة وعدم القدرة على التفرقة بين الألوهية والنبوة ولذلك فإن أغلبهم ينسبون القرآن الكريم إلى الرسول ﷺ ويعتبر بعضهم الرسول مصلحاً اجتماعياً غير أن موقف الاستشراق من التراث الإسلامى ليس موقفاً سلبيا من ناحية الحرص الواضح لدى المستشرقين على الاهتمام بالجوانب الضعيفة والمضطربة من هذا التراث وخاصة جوانب الخلاف بين الفرق والاهتمام بالنصوص الفلسفية ومحاولة إبراز الأثر

الأجنبي في الفكر الإسلامي نتيجة الاتصال بالفكر اليوناني والتهويل في هذا الاتصال إلى حد القول بأنه أهم معطيات الفكر الإسلامي . لقد تشكل الفكر الإسلامي أساساً قبل الاتصال بالفكر اليوناني أو الفارسي أو الهندي وإن العلماء المسلمين حالوا دون سيطرة هذه المترجمات على جوهر الفكر الإسلامي وردوها وجردوا معطيات الإسلام منها ولم تكن تلك الجوانب التي هي موضع اهتمامهم إلا محاولات لاحتواء الفكر الإسلامي . ولكنها لم تنجح ولم يلبث الفكر الإسلامي أن استعاد أصالته حين تشكل مذهب الجماعة واستصفى كل ما كان وافدا ، وأساغ الصالح منه وتخلص من كل ما يتعارض مع مفهوم التوحيد الخالص. لقد أولى الاستشراق اهتمامه البالغ للتصوف والفلسفة وعلم الكلام والاعتزال والباطنية وكل هذه جزئيات من صورة لم تكتمل ولا يجوز لها أن تنفصل عن الصورة العامة الكلية للفكر .وقد علت في مرحلتين من مراحل تاريخ الفكر الإسلامي نزعة الاعتزال ثم نزعة التصوف الفلسفي ولكنهما لم يلبثا أن سقطا صريعين وثبت تعارضهما مع جوهر الفكر الاسلامي الجامع الأصيل الذي لم يقبل استعلاء النزعة العقلانية التي جاء بها الاعتزال أو النزعة الاشراقية الحدسية التي جاء بها التصوف الفلسفي

وكل المحاولات التي يثيرها الاستشراق الآن لإعادة بعث هذا الركام وإحيائه إنما تمثل هدفا ماكراً من أهداف الاستشراق من ورائه حركة التغريب والغزو الفكري التي تحاول تزييف حقيقة الفكر الإسلامي وجوهره الأصيل . وفي مجال التراث نجد عناية كبرى «بالحلاج » الذي وقف المستشرق «لويس ماسنيون» حياته على جمع آثاره ، وبالسهروردي وبشار وأبي نواس وكلها شخصيات موصومة مضطربة لم تكن بالنماذج الكريمة أو العالية في التراث الاسلامي، بل إن الاستشراق أولى اهتماما كبيرا بشخصيات هاجمت الاسلام وخاصمت رسوله ، كابن الراوندي ومسيلمة الكذاب وقدم عنها وعن غيرها دراسات واسعة نشرت باللغة العربية وإن أي مراجعة لدائرة المعارف الاسلامية لتكشف عن هذا الاتجاه الرامي إلى إدخال شبهات الاسلام كمادة أساسية فيه، ونجد هذه المحاولات واضحة في جميع فروع التراث :القراءات وكتابة القرآن وسيرة الرسول ، وفي مجال التاريخ والشريعة الإسلامية وفي مجال اللغة والأدب . ويبدو أن جماعة المستشرقين قد فتشوا كتب التراث الاسلامي القديمة بغية اقتناص الروايات المضطربة والناقصة والمحرفة واستغلوها لإثبات وجهة نظر مسبقة واستعانوا بكتب الأدب والروايات والاشعار وألف ليلة وغيرها لتكون مصادر لأسانيدهم بينما هذه الكتب لم تكن في الأساس مصادر علمية للفقه أو التاريخ .

« يحرفون الكلم عن مواضعه » وليست دائرة المعارف الاسلامية وحدها هي التي توصف بالانحراف بل إننا نواجه ذلك في قاموس المنجد) الذي تجده موضوعاً الآن في أيدي جميع الباحثين العرب وهذه شهادة عالم له صلة بدوائر الاستشراق هو الدكتور مصطفى جواد الذي يقول إن أغلاط المنجد لا يمكن لأحد أن يستقصيها وقد نبه على ثلاثمائة وأربعة وعشرين منها واغلب أخطاء المنجد هي محاولة تفسير المصطلحات اللاهوتية الخاصة تفسيراً عربيا عاما. ولربما كانت الأحداث ، لا النصوص أكثر أهمية في الكشف عن الأهداف : ألف أبو زيد وثيمة بن موسى بن الفرات المتوفى ٢٣٧ هجرية وهو فارسي الأصل كتاباً إسمه كتاب (الردة) وقد ضاع هذا الكتاب وبقيت منه قطع قصار ذكرها ابن حجر في كتابه (الإصابة) فإذا المستشرق الألماني دكتور « ولهلم هو نزباخ » من جامعة بون يستل هذه القطع

من كتاب الإصابة وقد فصلها وضبطها وشرحها . وأقامها كتابا تحت إسم كتاب (الردة) الضائع . وتشمل هذه القطع على تراجم الأشخاص الذين ارتدوا عن الإسلام أو دافعوا عنه أيام الردة وقد رتبها المحقق على القبائل فبدأ بأسد وغطفان وفزارة ، ثم انتقل إلى طى ثم هوازن وعامر بن صعصعة ثم سليم ثم عبس ثم تميم ثم حنيفة ثم ربيعة ، وهكذا ساغ هذه القصاصات والشطائر من كتاب الإصابة ووضع مقدمة لها ، وأمضى فى تحقيق النصوص سبع سنوات كاملة فأى هدف للاستشراق فى هذا العمل إلا التزوير والحقد . ولقد يقال أن الاستشراق فى السنوات الأخيرة قد خفف من حدته وأدخل أساليب العلم وتحرر من الأهواء ، ولكن الواقع المشاهد غير ذلك ، والدكتور أحمد السمان عميد كلية الحقوق بدمشق وقد اشترك فى مؤتمر المستشرقين عام ١٩٦٠ يقول : « بدأ المستشرقون يلقون محاضراتهم وكانوا كن يلقى البارود فى النار ، والحق أنهم لم يخرجوا عن سمت علماء الاستشراق من الأجانب فأهدافهم يوم أن سلكوا طريق هذا العلم أن يجدوا مواضع التشكيك وأن يخلقوا أساطير تذهب مذهب الحقائق العلمية لينالوا من الفكر الاسلامى ، وكانوا يلقون من العالم أسماعا مصغية علمها الجبن والسكوت ، والجهل الاستسلام ، وقد فوجئوا بجيل جديد تعلم علومهم وقرأ مصادرهم ، وتفوق عليهم بتفهمه روح العربية وبتجرده من النزعات المهدمة للعلم ، وكان يمثل البلاد صفوة من الشباب المسلم المتخرج فى كبرى جامعات العالم وكان الصدام عنيفاً وكانت الغلبة للحق : ويذكر الدكتور السمان نماذج من عناوين البحوث .

(١) ايتكهاوزن (جامعة ماتشجان) أنه لا يوجد فن إسلامى . (٢) بوسان (جامعة نابلى) أن الشعر الاسلامى شعر فجور وفسق (٣) جرونيباوم تحدث عن ما أسماه المفارقات التى تفصل بين المسلمين وقال أن ما يفرقهم أكثر مما يجمعهم . ويقول الدكتور عبد الكريم زيان :

« من سلم منهم من الهوى وسوء النية أوقعه جهله بمعانى الاسلام بأباطيل وافتراءات ، والقليل منهم جدا من سلمت كتاباته من الهوى وأقل القليل من سلمت كتاباته من سوء النية والجهل ويجب عدم اتخاذ كتاباتهم مصدراً للمعرفة الإسلامية » . ونحن مستعرضون هنا على وجه السرعة تلك المحاولات ممثلة فى أبرز القائمين بها :

(١) مرجليوث : الاسلام

أشار الأستاذ خوجة كمال الدين فى كتابه المثل الأعلى فى الأنبياء إلى أسلوب الاستشراق فيقول : إليك بيان الطريقة التى دأبوا عليها فى نقد الديانات الأخرى ، يشير أحدهم إلى فكرة ما من طرف خفى ويليه آخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة ويأتى ثالث فيرفع هذا الحوار إلى مرحلة النظرية أما الرابع فيخلق من النظرية حقيقة وهكذا تتطور الفكرة : أربعة أطوار أو خمسة إلى أن ينتهى بها المطاف إلى أن تصبح حقيقة مقررة ، وبخاصة إذا كان الأمر يمس أحد الديانات أو المدنية التى يتوفرون على نقدها ، والأستاذ مرجليوث جولات خاصة فى هذا الميدان . وإليك المثل : « جاء الدكتور « فيجانا » فقدم قصة فحواها أنه عثر على ترجمة سريانية للقرآن الكريم سقط منا بعض أجزائها يريد بذلك أن يوهم القارىء أنه ربما

ضاع شيء من القرآن وكان « فيجانا » هذا قد حاول قبل ذلك أن يشكك فى صحة القرآن فباء بالفشل الذريع فجاء مرجليوث فالتقط الخيط فأشار إلى أن (فيجانا) عثر على نسخ سريانية عريقة فى القدم وأشار إلى وجود خلافات ذات بال فى المخطوطات القديمة ، وهذه العريقة فى القدم التى أشار إليها مرجليوث لم يمر عليها إلا أقل من عام ، ولكنه يحاول أن يضع فى يد الخصم سلاحا يحارب به القرآن ، هل يليق بمرجليوث أن يستعمل عبارة (عريقة فى القدم) مع أن فيجانا نفسه لم يقل ذلك بل يرى خلاف هذا الرأى . ومرجليوث هو أول من أثار الشك فى الشعر الجاهلى . وقد أشار فى بحثه (الذى نقله طه حسين دون أن يشير إليه فى كتابه الشعر الجاهلى) إلى أن الذى يقرأ على أنه شعر جاهلى إنما نظم فى العصور الاسلامية ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيفون لشعراء جاهليين ـ يقول الدكتور ناصر الدين الأسد الذى ناقش ذلك فى كتابه (مصادر الشعر الجاهلى) أن الدكتور طه استقى أكبر مادة لبحثه من مرجليوث .

ولمرجليوث آراء خصيمة الإسلام والنبى أوردها كتابه محمد وظهور الإسلام عرضنا لها فى كتابنا (الإسلام والثقافة العربية) وكلها تدور حول شبهات النقل من اليهود والنصارى والتفسيرات الباطلة للنصوص وفق مفهومه اليهودى البالغ الكره للإسلام .

(٢) جولدسيهر : الشريعة الاسلامية

تخصص هذا المستشرق اليهودى فى إثارة الشبهات حول السنة والفقه والشريعة الإسلامية وفى قيمة الأحاديث النبوية وذلك بالقول بأن السنة بدأ تدوينها بعد وفاة النبى بتسعين عاما وفى قوله فى كتابه (العقيدة والشريعة) أن التوحيد الإسلامى ينطوى على غموض ، ومن ذلك قوله : أن الشريعة الإسلامية تأثرت بالقانون الرومانى فى بداية تكوينها ، وقد فحص آراؤه كثير من الباحثين فى مقدمتهم مصطفى السباعى ومحمد الغزالى وسليمان الندوى ، وجولدسيهر يحاول فى مجمل رأيه أن يصور الفقه الإسلامى وكأنه من صنع الصحابة والتابعين ، وقد كشف الباحثون عن أن جولدسيهر كان مدفوعا فى كتاباته بغرض سياسى خاص هو إظهار أن التشريع الإسلامى قابل للمؤثرات الغربية . ولقد صودرت لجولدسيهر مغالطات وانحرافات كثيرة أراد بها المغالطة فى الحقائق الأساسية ومنها أنه حرف قول الإمام الزهرى : (إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث) إلى لفظ (أحاديث) وذلك لفتح الباب أمام شبهة كبيرة كذلك فإنه اتهم الزهرى بأنه واضع حديث فضل المسجد الأقصى إرضاء لعبد الملك بن مروان مع أن الزهرى لم يلق عبد الملك إلا بعد سبع سنوات من مقتل ابن الزبير . وقد كشف محمد أسد « ليوبولد فايس » السر فى محاربة السنة ، فقال : إن الهدف هو إسقاطها حتى يفقد المسلمون الصورة التطبيقية الحقيقية لحياة رسول الله والمسلمين وبذلك يفقد الإسلام أكبر عناصر قوته . ويقول : لكى يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة إتباع السنة لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ أن يتناولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاءون على أوجه من التفكير السطحى أى حسب ميول كل واحد منهم وبطريقة تفكيره هو ، وبذلك تنتهى تلك المنزلة الممتازة التى للإسلام على أنه نظام خلق وعلى ونظام شخصى واجتماعى إلى التهافت والإندثار

(٣) لامنس : الإسلام وتاريخه :

ويعد هنرى لامنس من أشد المستشرقين تعصباً على الفكر الإسلامى ، وقد بالغ فى التعصب على الإســـلام حتى أعلن البعض الشك فى أمانته العلمية وقالوا : إنه لا يندى عواطفه فيما يكتب عن النبى والإسلام وأنه كان داعية ولم يكن عالما ، وقد عرف بتهكمه على النصوص العربية كما وصف بإرهاقه النصوص وتحميلها أكثر مما تحتمل . فإذا وجد فى الإسلام موضعاً للفضل ذهب بنسبته إلى مصدر غير إسلامى ، وقد تعصب لامنس للأمويين ، ومصدر إعجابه بهم أن دولتهم كانت فى تفسيره لا دينية ، ولأنهم أقاموا ملكهم فى الشام وتأثروا بالمدنية القديمة التى قامت فى ربوعه . يقول دكتور زكى محمد حسن : إنه كان خصماً عنيداً للمسلمين عامة وللعلويين والعباسيين خاصة ، وأنه كان يسلب العرب الفضائل والصفات الخلقية الجميلة ، وأنه كان فى خصومته يعتمد على السفسطة والمغالطة ، وقد كتب لامنس عن الإسلام وعن الرسول وعن بنات النبى . وهو فى كل هذه الكتب يتهم رواة السيرة بأنهم مخترعون ولكنه لا يحجم عن الاعتماد على رواية من رواياتهم إذا استطاع أن يلمح فيها مطعناً على الإسلام ، وهو حين يروى رواية أو حديثاً فيه مصلحة الشيعة إتهمهم بوضعه ، حين يرى رواية تعلى من شأن السنيين ألصقها بكتابهم ، حتى أنك لتراه يضرب كل فريق بالآخر ليقنعك باضطراب كل هذه العناصر التى قامت عليها السيرة وليخرج عليك هنا وهناك بآرائه المغرضة . وهو حين يتكلم عن السيدة عائشة لا يجد فى مفردات اللغة الفرنسية إلا كلمة تشبه كلمة (عظية) فى اللغة العربية . وللمستشرق لامنس تلك الفرية الضخمة التى دحضها كثير من الكتاب المسلمين ، وهى نظرية تشكيل الحكومة الاسلامية التى قامت يوم « السقيفة » ، واستمرت طوال عهد الشيخين (أبى بكر وعمر) فهو يرى أن تلك الحكومة كانت حكومة ثلاثية على النظام المعروف فى التاريخ الرومانى . وهو يتهم الصحابة الثلاثة أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بأنهم تآمروا على احتكار الحكم بعد وفاة النبى وأن المؤامرة قد نجحت إلى حد بعيد ، وقد بين الأستاذ عبد الحميد العبادى فساد هذه الفرية الكاذبة .

(٤) جب : الأدب العربى :

فى كتابه عن الأدب العربى الصادر فى سنة ١٩٦٣ يعتبر القرآن من كلام « محمد » ﷺ . وهذه ظاهرة يشترك فيها بروكلمان ونيكلسون وغيرهما ، فالمستشرقون يعارضون المفهوم الاسلامى القائم على النبوة والوحى . وهو يطلق على العصر الجاهلى إسماً غريباً فيسميه (العصر البطولى) وقد رفض المستشرق مصطلح (العصر الجاهلى) وعصر ما قبل الاسلام . وكذلك فعل نيكلسون فى كتابة التاريخ الأدبى للعرب ، ويصر المستشرقون على وصف عصر الجاهلية بأنه عصر استنارة وأنه تمهيد الرسالة الإسلاميه ، ويثيرون الشبهات حول اللغة العربية فهى عندهم لغتان لا لغة واحدة : شمالية وجنوبية . وقد تابعهم فى ذلك الدكتور طه حسين ويسمى عصر الاسلام الذى هو تحول خطير فى التاريخ العربى بعبارة عصر التوسع ارتباطاً بفكرته عن عصر بطولة الجاهلية . كذلك فإن جب يأخذ بالشبهة ويرى النثر الفنى العربى فارسى الأصل وينسى بلاغة عمر وعلى وعبد الله بن عباس وغيرهم . ويشيد « جب »

بالثقافة اليونانية ويحاول أن يضيف إليها كل مافى الأدب العربى من تقدم . ويرد إلى الثقافات الفارسية واليونانية كل أمور النحو والبلاغة العربية . مع أن النحو والبلاغة وغيرهما من هذه الفنون قد تم تشكلها قبل الاتصال بالفكر اليونانى وقبل عصر الترجمة ، أما الفلسفة فإن (جب) يعتبر الفلسفة العربية فلسفة يونانية المصدر ، ويقول إن الذين ـ فعوا لواء الفكر والفن فى العصر العباسى هم من أصل أعجمى أو نصف أعجمى ناسياً أن القرآن الكريم هو الذى شكل عقليات المسلمين جميعاً . من العرب والترك والفرس . ويقف وقفة اهتمام إزاء أبى نواس وبشار . والمستشرقون يبعثون تراثهما ويعيدونهما إلى الحياة حتى تفشو عبارتهما الإباحية والمجانية فى العصر الحديث . وكذلك يولى الاهتمام بالحلاج فى مجال التصوف . أما المعتزلة فهو يوليهم اهتماماً كبيراً ويشرح فكرهم شرحاً مستفيضاً ويعتبرهم من أتباع الفكر اليونانى ومن أكثر ما أعطى من الفكر الغربى الإسلام . كذلك أولى (جب) اهتمامه بانتصار البويهيين وقال إنه نتيجة الخميرة الهلينية ، وكذلك الاهتمام بالموشحات والسجع والمقامات ، وقد ناقشنا هذه القضايا كلها بتوسع فى كتابنا « خصائص الأدب العربى » فليرجع إليه من يشاء .

(٥) نيكلسون : اللغة :

من أبرز أخطاء المستشرقين عجزهم عن فهم النص والبيان العربى وقد أشارت الدكتورة بنت الشاطىء إلى عجز (نيكلسون) عن فهم الغفران لأبى العلاء ، وقالت إن فهمه للنص فيه أخطاء كثيرة بعضها هين يمكن التجاوز عنه ، أما والكثرة الباقية فتعرض صوراً غريبة لفهم هذا المستشرق للنصوص العربية . يقول فى الغفران ـــ ما نصه : (وحدث أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا القلب أول هو من النبوة أى المرتفع من الأرض) وغاب عن نيكلسون أن الحديث هنا عن المتنى ولقبه فعجز عن فهم هذا الاشتقاق . ونظراً لالتباس الأمر عليه فقد أوهم أن الحديث عن شخص آخر هو (القطربلى) فليس بينه وبين النبوة صلة ما . وتقول : إن هناك أخطاء كانت فى الأصل العربى صحيحة فغيرها نيكلسون بأخرى فهى مفهومة ولا صحيحة فغيرها نيكلسون بأخرى غير مفهومة ولا صحيحة وأخرى لم تنشأ من صعوبة العبارة فى الغفران أو تحريفات النص وإنما نشأت عن عدم فهم الأسلوب العربى وعدم الاتجاه إلى الأشخاص الذى يتحدث عنهم أبو العلاء .

وبعد أن أوردت الدكتورة بنت الشاطىء عديداً من أخطائه (يستطيع القارىء أن يجدها فى مقدمة كتابها عن الغفران) قالت : أقصد أن أنبه قومى إلى واجبهم فى حمل هذه الأمانة ـــ أى أمانة تحقيق التراث ـــ بعد أن أدعو علماء العربية إلى نشر تراث لهم هم أولى به وأقدر على فهمه .

(٦) ماسنيون : التصوف

اهتم لويس ماسنيون بأمرين : الدعوة إلى العامية والكتابة بالحروف اللاتينية ، وقد أذاع دعوته هذه فى كل مكان ذهب إليه وقد ووجهت بالرفض والمعارضة . أما اهتمامه الأكبر فكان بالترويج للتصوف الفلسفى والآراء المناهضة للتوحيد الاسلامى كوحدة الوجود والحلول ، وقد ركز على الحلاج

أكثر من ثلاثين عاماً حيث جمع كل ما يتعلق بأخباره وآرائه وأذاعها من جديد. والاستشراق اهتمام واضح بجوانب معينة من التصوف، هي كل ما يتصل بمعارضة فكرة التوحيد وخاصة الحلول والاتحاد، وهي الأفكار المستمدة من الأصول المسيحية واليونانية، ولذلك يولى الاستشراق اهتمامه بالحلاج وابن عربي والسهروردي وابن سبعين وغيرهم.

(٧) شاخت: الشريعة الإسلامية:

تابع شاخت أستاذه «جولد سيهر» في الحملة على الشريعة الإسلامية، وكانت دعوته أن الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالأسرة والوراثة مستمدة من النظام القبلي الجاهلي. وقد رد على آرائه المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة وكان مما قاله: هل قرر الإسلام ما قرره البدو والرومان من ثبوت النسب؟ هل أقر الإسلام نظام التبني الذي كان معمولاً به عند العرب والرومان؟ هل نظام الولاية على النفس والمال كما كان عند الرومان؟ والإسلام قد اعتبر الولد حراً في التصرف في نفسه وماله بمجرد البلوغ الطبيعي والرومان كانوا يعتبرون ولاية أبيه قائمة ولو بلغ الستين حتى يمنحه الأب حق التصرف. هل نظام المهرات كما قرره الإسلام سبق به أي شرع من الشرائع؟ وفي العقوبة: هل كان الفرد يقتل بالفرد وأن النفس بالنفس ولا عبرة بمقدار ما كان عليه المقتول من جاه أو منزلة عند الناس، فإن النفوس متساوية بحكم القرآن وأقوال محمد وليست متساوية بحكم القبائل العربية، فزعيم القبيلة يقتل به ألوف، وهل كان في نظام القبيلة أن يقتل الحر بالعبد؟ وهل كان في حكم القبيلة أن السارق تقطع يده؟ إلخ إلخ.

وكراهية المستشرقين للشريعة الإسلامية واضحة: كوفين، رينان، كلامون، جانو، جولد سيهر، مرجليوث، لامانس. وقد حاولوا إيهام المسلمين بأنها سبب تأخرهم وعائق في سبيل تقدمهم ونهوضهم وأثاروا الشبهات حول نصوصها المحكمة.

نهاية الاستشراق أو بداية مرحلة جديدة

واليوم نجد تصريحات جديدة تقول بنهاية الاستشراق، فقد أعلن مؤتمر الاستشراق التاسع والعشرين الذي عقد في العام الماضي أنه تقرر أن يطلق على مؤتمر الاستشراق القادم (مؤتمر العلوم الانسانية) وبذلك ختمت جولة ضخمة بدأت بعد احتلال الجزائر ١٨٣٠ وامتدت على مدى مائة وخمسين عاماً، وقد وصفت جريدة الموند الفرنسية هذا التحول بأنه موت الاستشراق، وكان جاك بيرك قد أدلى بتصريحات خلال العام الماضي عبر فيها عن ما سماه «انتهاء زمن الاستشراق» ومن المصادفات العجيبة أنه خلال العام الماضي نوقشت في جامعة الأزهر رسالة ضخمة عن حركة الاستشراق للدكتور أحمد اسماعيل أزرفتشي، وقد عقدت مؤتمرات استشراقية كثيرة في الأعوام الأخيرة تناولت الأدب العربي والمصطلحات العامة، كما أعلنت إسرائيل تكريمها المستشرق (برنارد لويس) الذي هاجم البلاد العربية ووصفها بالعنصرية وحيث يوجد اليوم جناح ضخم من الاستشراق الصهيوني قاده ردنسون

وبرنارد لويس وهو يركز كل اهتمامه بقضايا فلسطين وإبراهيم وإسماعيل والقدس واليهود وهكذا .

ومن آثار هذا الاستشراق تلك الدعوى التي أثارها الدكتور طه حسين حول إنكار إبراهيم وإسماعيل بالرغم من إشارة التوراة والقرآن لهما والنصوص الخاصة ببنوة إسماعيل ورابطته بإبراهيم وما يتصل بذلك من دور العرب والمسلمين من ميراث الأنبياء . كل هذا يجعلنا في حذر دائم مما يكتبه المستشرقون وما يكتب عنهم ، ونحن إزاء تحول الاستشراق إلى ميدان العلوم الإنسانية نحس بأن الخطر أصبح أشد قوة وعمقاً وأن الاستشراق يغير جلده ليدخل في مرحلة جديدة أكبر خطراً .

خاتمة البحث

التبشير + الاستشراق = التغريب

التغريب في أبسط مفهوم هو حمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب والخضوع لنفوذه وسلطانه وتقبل الاحتواء في بوتقته بحيث لا يجد لنفوذه وسيطرته أي معارضة فهي ترمي إلى غرس مبادىء التقبل والولاء والخضوع للغرب في نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين في حياتهم وتفكيرهم وحتى تخف في نفوسهم موازين القيم الإسلامية ، ويستهدف تحقيق ذلك إيجاد شعور بالنقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة ، وذلك بإثارة الشبهات وتحريف التاريخ الإسلامي ومبادىء الإسلام وثقافته وإعطاء المعلومات الخاطئة عن أهله وانتقاص الدور الذي لعبه الإسلام في تاريخ البشرية ومحاولة إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية التي تتمثل في ماضي هذه الأمة وتراثها مع توهين القيم وتقطيع أوصال الروابط والغض من مقدرة اللغة العربية . والتغريب هو ثمرة المخطط الذي دعا إليه لويس التاسع وتابعه فيه عشرات من دهاقين الاستعمار والنفوذ الأجنبي بقصد السيطرة على العالم الإسلامي عن طريق إخضاع الفكر الإسلامي لنفوذ الغرب الفكري ، وذلك بتمسيحه أو تهويده أو بلشفته ، وكل هذه القوى تستهدف السيطرة عليه . الهدف الأكبر هو الحيلولة دون قيام وحدة فكر هي مقدمة لوحدة الأمة الإسلامية وخلق جو من البلبلة للعقول والنفوس بطرح عشرات من المذاهب والدعوات سواء في ميدان السياسة أو ميدان الإجماع أو ميدان الاقتصاد أو ميدان العقيدة بما يمزق الأمة الإسلامية عنصرياً وثقافياً . والتغريب هو هدف النفوذ الأجنبي ، سواء أكان هذا النفوذ استعماراً كالاستعمار الغربي أو سلطاناً اقتصادياً أو عقائدياً أو إيدلوجياً ، والعالم الإسلامي الآن يتأرجح بين قوى ثلاث تحاول أن تحتويه وتسيطر عليه هي الاستعمارية الغربية بمفهومها الديمقراطي الليبرالي والشيوعية الماركسية والصهيونية التلمودية التي تسيطر على الفكر الاجتماعي ، ومن ثم فقد اتحدت كل من هذه القوى وسياتها في مؤسسات التبشير والاستشراق .

وإذا قلنا إن هدف التغريب الأكبر هو حمل المسلمين على الانصهار في الأممية والقضاء على حضاراتهم ضد الاحتواء ، وتمزيق وحدة الفكر والقضاء على الإصالة الذاتية التي تميزهم عن الأمم الأخرى لما علمونا فهم الهدف الحقيقي . وحركة التغريب دعوى كاملها لها نظمها وأهدافها ودعاتها تخدمها مؤسسات

كثيرة أهمها مؤسستان : مؤسسة التبشير ومؤسسة الاستشراق . وقد ركزت مؤسسة التبشير على المدرسة والجامعة عن طريق الإرساليات والسيطرة على المناهج الدراسية واختصت شأن الزمن والعلم . وركزت مؤسسة الاستشراق على الصحافة والثقافة عن طريق الكتاب والصحيفة . وكانت مؤسسة الاستشراق هي المصنع الذى يصنع الشبهات والأكاذيب . وكانت مؤسسة التبشير هي التى تحمل ذلك إلى عقل الشباب وقلبه عن طريق مناهج الدراسة . .

٤ — أول من استعمل كلمة التغريب : المستشرق جب فى كتابه (وجهة الإسلام) الذى أصدره فى الثلاثينات واشترك معه فيه : ماسنيون ، كامبفماير ، برج ، كولونل فرار ، وبذلك انكشف أمامنا بوضوح ذلك الهدف الذى عرفناه منذ وقت بعيد بأنه محاولة احتواء هذه الأمة فى فكرها لتكون خاضعة للغرب . والحقيقة التى لا سبيل إلى إنكارها أن العالم الإسلامى واجه هذه المحاولة بمعارضة شديدة وعميقة وأنه لم يستسلم مطلقاً للاحتواء ، ولم يلين فى الصمود إزاء المحافظة على شخصيته وذاتيته وقيمته الأساسية وإن كان النفوذ الغربى الذى كان ممثلا فى السلطان السياسى والعسكرى استطاع فرض القانون الوضعى بديلا عن الشريعة والتعليم العصرى بديلا من التربية الإسلامية ، وحاول فى مختلف وجوه الثقافة واللغة والفكر محاولات ضخمة ، وكانت أخطر المحاولات فكرة القوميات والإقليميات الضيقة التى استهدفت تمزيق الأمة الإسلامية إلى أقطار .

٥ — عمل التبشير على تحقيق هدف النفوذ الأجنبى وهو إخراج المسلمين العرب من القيم التى تدفعهم إلى الأصالة ومقاومة النفوذ الأجنبى وعدم الانصهار فى الأممية والعالمية وإقامة مجتمعهم الخالص المستمد من قيمتهم وتاريخهم ولغتهم ودينهم ، فإذا استطاع الاستعمار إذابة المسلمين والعرب فى بوتقة العالمية وصهرهم فى بوتقة الثقافة العالمية وإخراجهم من ثقافتهم وقيمتهم ، لم يعد هناك مجال لحكمهم بصورة خاصة ، عندئذ يصبح التغريب وقد حقق أكبر انتصاراته . وقد أجمعت خطط المبشرين ودراساتهم وأبحاث مؤتمراتهم ، على أن الهدف من التبشير هو إنشاء عقلية عامة وتحتقر كل مقومات الفكر الإسلامى وإبعاد العناصر التى تمثل الإسلام عن مراكز التوجيه .

وقد كانت خطة المبشر شاقة موحـــدة وذات مراحل ، وقد تأكد مدى التناسق بين القوى ذات النفوذ الأجنبى وبين مؤسسة الاستشراق ، وكشفت الوثائق عن أن وزارات الاستعمار تستخدم المبشرين داخل البلاد العربية والإسلامية .

٦ — عمل الاستشراق هو فى أدق تعبير : استخدام العلم فى خدمة السياسة ، ومن هنا فقد كانت مادته مصدراً مؤثراً لمؤسسات التبشير تستعملها فى دعم خططها وفى إثارة عوامل الخلاف وتأريث الشبهات بما يحقق هدف مخطط التغريب . وقد عرف أن الاستشراق يدرس القضايا من وجهة نظر مسبقة وبأحكام وقدرة وبأهداف واضحة ، أساسها خدمة النفوذ الاستعمارى وقوامها التعصب والاتهام للشرق والإسلام والعربية ، ومهما صيغت كلماته فى أسلوب له طابع علمى فإنها تنطوى على عدم الحيدة

وعلى الانحياز الواضح ، وقد عمل كثير من رجال الاستشراق فى مجال التبشير ، وكانت كتاباتهم وقوداً خصباً فى أيدى المبشرين ، ومن هؤلاء مرجليوث وماسنيون وهنرى لامنس ولويس شيخو وفنسنك وجولد زيهر ، وهم من أشد المستشرقين تعصباً على الإسلام واللغة العربية . ولقد حاول البعض القول بأن الاستشراق عمل خالصاً لوجه العلم ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا حرص على التركيز على الجوانب الضعيفة والروايات المدخولة والشبهات المسمومة ، ولماذا ركز على الجوانب الانهزامية بالباطنية والزنج والقرامطة وعلى الشخصيات المنحرفة : كالحلاج والسهروردى وأبو نواس وبشار والرازى والراوندى . لقد واجهت حركة اليقظة الإسلامية مؤامرة التغريب المتخفية وراء التبشير والاستشراق منذ اليوم الأول . ولقد قدم كل منهما إهابه وجلده فى سبيل زيادة التخفى والخداع ، ومع ذلك فقد استطاع الفكر الإسلامى تعقب مؤامراته وشبهاته بالنقض والتزييف على ذلك المدى الطويل دون توقف .

عملت حركة اليقظة على مواجهة التبشير والاستشراق الغربى والماركسى والصهيونى وحفلت قوائم المدافعين عن الإسلام بأسماء أعلام أبرار عاشوا حياتهم مدافعين عن الحق ، كاشفين عن الزيف ، جيلا بعد جيل .

وكانت حركة اليقظة الإسلامية قادرة على المتابعة وكشف الزيف من خلال حلقات التغريب المتوالية أو المتجددة على مدى امتداد العالم الإسلامى كله وحظيت مدرسة اليقظة فى الهند وباكستان بقدر وافر (المودودى والندوى) وفى مصر والشام والعراق والمغرب توالى ظهور هؤلاء الأبرار ، وما تزال كتاباتهم تكشف الزيف وتواصل تصحيح المفاهيم .

ولعلنا فى هذا الكتاب قد تابعنا هذه المواجهة الصريحة القوية التى مازالت صامدة فى وجه التغريب كاشفة عن زيفه وشبهاته وسمومه .

الرسالة الثانية

المؤامرة على تاريخ الإسلام

مدخل :

كان تاريخ الإسلام هدفاً من أخطر أهداف الاستشراق والتغريب والتبشير والغزو الثقافي في العصر الحديث منذ بدأت الحملة الاستعمارية على عالم الإسلام والعرب من خلال الاحتلال البريطاني والفرنسي والإيطالي والهولندي ، ذلك لأن الاستعمار كان يستهدف استدامة سيطرته على الأمة الإسلامية من خلال تغريب تاريخها وتدمير مقومات فكرها أساساً ، ولذلك فقد بدأت المؤامرة على تاريخ الإسلام منذ وقت باكر وامتدت لتسلك سبلا مختلفة وأبعاداً واسعة . ويمكن القول أن المؤامرة على تاريخ الإسلام تعمل في حقول عديدة أهمها :

(أولا) التركيز على المناهج الدراسية وإفسادها . (ثانياً) إثارة الشبهات حول الخطط والمواقف والدول والحكام . (ثالثاً) تحريف النصوص وإعلاء الروايات الضعيفة . (رابعاً) تجديد الإسرائيليات القديمة وإعداد إسرائيليات جديدة . (خامساً) إفساد مفهوم فريضة الجهاد وتأويله . (سادساً) الدعوة إلى تحرير التاريخ من ارتباطه بالأمة ومقوماتها . (سابعاً) إثارة التعارض والتضارب بين القيم المتلاقية كالعروبة والإسلام وبين الفرعونية والآشورية والفينيقية وبين العروبة . (ثامناً) ابتعاث الأساطير وإعادة صياغتها في داخل التاريخ الإسلامي وسيرة الرسول . (تاسعاً) محاولة تمزيق التاريخ الإسلامي إلى تواريخ مستقلة لأقطار مختلفة . (عاشراً) إذكاء روح القومية بمفاهيمها الضيقة والعنصرية للقضاء على الروح الإسلامية . (حادى عشر) محاولة تصوير المؤامرات التي قامت بها الفرق الضالة كالقرامطة والزنج والباطنية على أنها دعوات عدل أو حرية . (ثاني عشر) محاولة اعتبار التاريخ الحديث في الأقطار العربية المختلفة تاريخاً مصرياً أو سورياً أو عراقياً أو مغربياً منفصلا عن أصوله العربية والإسلامية . (ثالث عشر) إفساد الرابطة العميقة بين الحنيفية دين إبراهيم وبين الإسلام ، سواء من الناحية التاريخية أو العقدية أو الارتباط بين الموجات العربية التي خرجت من الجزيرة العربية إلى الشام والعراق ومصر والمغرب . (رابع عشر) محاولة إحياء علاقة مقطوعة بين ما قبل الإسلام وما بعده عن طريق إحياء الفكر الوثني القديم ، سواء في الفرعونية أو الفينيقية أو اليونانية أو الفارسية .

(خامس عشر) محاولة تفسير التاريخ الإسلامي والمعاصر وفق مذاهب غربية وافدة كالتفسير الغربي المسيحي والتفسير الماركسي . (سادس عشر) محاولة تصور القرن الهجري الثاني على أنه عصر شك ومجون عن طريق اعتبار بعض الشعراء المجان وهم قلة معزولة ممثلين لعصرهم فيما يتجاهل الباحث عشرات العلماء والفقهاء والأصوليين والمفكرين .

(سابع عشر) إعلاء شأن الشخصيات المنحرفة فى الفكر والسلوك من شعراء مجان أو مشهورا فتنة أو اضطرابات وإضفاء البطولة عليهم أمثال أبو نواس وبشار والحلاج والسهروردى .

(ثامن عشر) إنكار وجود شخصية عبد الله بن سبأ هدماً لأثره الواضح فى تمزيق وحدة المسلمين .

(تاسع عشر) محاولة تفسير البطولة الإسلامية وفق المذاهب الغربية اعتماداً على موروثات البيئة والعرق بينما يقاس أبطال الإسلام على مفاهيم الإسلام نفسها التى شكلتهم من جديد . (عشرون) اتهام الدولة العثمانية بأنها دولة مستعمرة استعمرت بلاد العرب واتهام السلطان عبد الحميد بالاستبداد بينما وقف السلطان عبد الحميد موقفاً مشرفاً فى مواجهة مؤامرات الصهيونية ومحاولاتها الاستيلاء على فلسطين .

(واحد وعشرون) محاولة القول بأن نهضة العرب لم تبدأ إلا بوصول الحملة الفرنسية إلى مصر ، بينما النهضة العربية الاسلامية قد بدأت قبل ذلك بأكثر من خمسين عاماً بدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية وعلماء الأزهر الذين دعوا إلى التوحيد .

(٢)

تتشكل عنصر المؤامرة من عدة عوامل أساسية :

(أولا) تحامل الغرب وخصومته للإسلام ، من حيث الخلاف بين المسيحية والاسلام ومن حيث سيطرة الغرب السياسية والعسكرية عن طريق الاستعمار على أرض الاسلام ومحاولة استدامة هذه السيطرة بتشويه تاريخ الاسلام . (ثانياً) محاولة القول بأن تاريخ الاسلام لم يستطع أن يحقق مفهوم الاسلام ومنهجه ، وهذا يعنى عجز الاسلام عن إقامة مجتمعه الأصيل . (ثالثاً) خلق د عملية تمزيق ، وحدة الفكر الاسلامى والأمة الاسلامية والتاريخ الاسلامى إلى قوميات وإقليميات تختلف فيما بينها وتتضارب . (رابعاً) القضاء على ذاتية الاسلام والأمة المتميزة التى أنشأها والعمل على صهرها فى بوتقة العالمية وأتون الأممية حتى لا يكون للأمة الاسلامية ذلك الوجود الواضح المستقل القائم بنفسه . (خامساً) الحيلولة دون انتفاع المسلمين والعرب بتاريخهم : إيجابياته وسلبياته من حيث هو عامل القوة وإيجاد الثقة فى إيجابياته والتعرف على الأخطاء لتفاديها بالنسبة لسلبياته .

(سادساً) محاولة تصوير المسلمين بصورة الأمة العاجزة عن أن تحمل لواء الحضارة وقيادة البشرية ، وإيجاد الخلاف بينها وبين الأمم الغربية وإفساد العلاقات بإثارة شبهات ترمى إلى تصوير المسلمين بصورة التعصب أو دعاة العنف أو الحروب .

(٣)

كان التاريخ الاسلامى من خلال مناهج الارساليات الغربية والمعاهد الوطنية فى حالة حصار على نحو يستهدف إفساد تصور الناشئين لأمتهم وتاريخها وعقيدتها من خلال محاولة تصويرها على هذا

النحو المضطرب الغريب . أما فى معاهد الارساليات فإن الطريقة التى تجرى عليها هذه الجامعات هو تعليم طلبتها أن يبحثوا التاريخ كأنه علم من العلوم الطبيعية المبنية على الاستقراء بل لا بد من تطبيقه على نواميس الاجتماع « م ٦١ (ديسمبر — يناير) المقتطف » والهدف من هذا هو فتح الطريق أمام إثارة عشرات الشبهات فى تاريخ العرب والاسلام من شأنها أن تحمل عقل الشباب على الانتقاص والاحتقار لبنى أمته ، ذلك لأن التاريخ فى تقدير العلم المنهجى الصحيح ليس من العلوم الرياضية والطبيعية التى تحاكم إلى منهج التجريب الذى يطبق على الماديات . ولا ريب أن الغربيين لا يطبقون هذا المنهج فى دراسة تاريخهم ولكنهم يدفعون به إلى شباب المسلمين والعرب الذين يدرسون عندهم لأنهم يعملون لتشكيلهم على كراهية أمتهم واحتقار تاريخهم بإثارة الشبهات حوله .

أما فى المدارس الوطنية فإن تاريخ الاسلام يدرس وفق أسلوب مفتعل من التشويه والتمزق من شأنه أن يسوده فى أعينهم ويصرف أنفسهم عنه . وذلك منهج صنعته أيد استعمارية وتغريبية منذ وقت بعيد فى أبان الاحتلال ، ومع ذلك فقد استمر حتى الآن دون أن تكشف زيفه وتصادره القوى المتحررة . ومن أبرز عوامل الفساد فى هذه المناهج : (أولا) تقديم التاريخ الاسلامى على صورة صراع بين القادة أو تضارب بين القوى المختلفة بإبراز رواية الخلاف والصراع والتشاحن دون غيرها .

وهذا الأسلوب متخذ فى تاريخ الاسلام وحده وليس مستعملا فى تاريخ الفراعنة مثل الذى يدرس على أنه صورة عالية من الأمجاد . ومن ذلك محاولة التوسع فى مسألة الخلاف بين معاوية وعلى وتصوير الأمويين على أنهم فئة تسلطت بمفاهيم الجاهلية وأعلنت الفرقة ، وأن العباسيين فرس تغلب عليهم روح البذخ والتبذير . وأن هناك تنافسا واضحا على السلطة بين الزعماء ، سواء فى العصر الأموى أو العباسى أو فى تاريخ الأندلس . وهذه المنطلقات الخاطئة كلها لعرض تاريخنا فى المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات موضوعة وفق منهج مسموم مأخوذ أساسا من جرجى زيدان وفيليب حتى وبروكلمان ودائرة المعارف الاسلامية ، وهو يستهدف فى جملته حجب بطولات التاريخ الاسلامى وصفحاته المضيئة عن شباب المسلمين والعرب ، ويرجع هذا إلى أن هذه المناهج والكتب المقررة قد وضعت فى ظل الاحتلال وبقيت حتى الآن تحمل روح الكراهية والخصومة للاسلام وصفحاته المشرقة . فهى تحجب هذه المعطيات وتبرز وجوه الصراع والخلاف والفرقة ، والاقتتال بين المسلمين ، وقد حاولت هذه المناهج الاهتمام بوقائع صغيرة عادية تحدث فى تواريخ كل الأمم ، وإبرازها على أنها خلافات جسيمة وهى ليست كذلك فى الحقيقة لأن بعضها مكذوب وبعضها قليل الأثر بجوار الإيجابيات الضخمة الأخرى المنكورة والمحجوبة ، وهى تستهدف تفتيت وقائع التاريخ وتمزيقها حتى تحول دون إعطاء المنظور الكامل والفكرة الجامعة التى تكشف الحقيقة ، وهى خادعة لأنها حاولت أن تظهر أشياء غير صحيحة . مثال ذلك محاولتها إطلاق إسم الكشوف الجغرافية على رحلات المبشرين المسيحيين الذين سبقوا حملات الاستعمار الغربى فى أفريقيا وآسيا بينما تؤكد الحقيقة التاريخية أن ماوصل عنده الأوربيون كان قد سبقهم إليه الرحالة العرب بمئات السنين ودونوه فى كتبهم .

كذلك فإن من أخطر محاولات تشويه التاريخ الإسلامي : تجزئته . ومحاولة تصويره على أنه تاريخ إقليمي مصري أو سوري وهو هدف أصيل من أهداف الاستعمار. وحين نعرض لنموذج من هذه النماذج وهو كتاب (التاريخ السياسي للدولة العربية) للدكتور عبد المنعم ماجد نجده محشواً بافتراءات متعددة على الاسلام وهو كتاب ظل يدرس فى كلية الآداب طيلة خمسة أعوام كاملة (ولعله لازال يدرس) ومن أبرز أخطائه ما يأتى : (أولا) قوله (وفجأة وفى سن الأربعين تملك محمد موهبة النبوة) . (ثانيا): يقرر أن الوحى كان يتم فى المنام فيقول أنه كان ينزل عليه وهو نائم . (ثالثا) : أن النبى كان ينسخ بعض الآيات التى أملاها ويأتى بأخرى غيرها . (رابعاً) : النبى وإن كان مرسلا إلى العرب إلا أنه اعتبر نفسه مرسلا إلى كافة الناس . (خامساً) : قوله إن رسالة المسيحية رسالة عامة وليست كاليهودية مخالفاً نص القرآن (ورسولا إلى بنى إسرائيل) وقوله فى نص إنجيل متى (لم أرسل إلا إلى خراف بنى اسرائيل الضالة) . (سادساً) : كتب قصة البعث والحساب بعبارات توحى بالسخرية والشك . (سابعاً) : الزكاة فى الإسلام ليست نوعا من التضامن الاجتماعى كما فى وقتنا وإنما يفسرها بأنها حث على الشفقة والرحمة واستغلال فى الجهاد ونشر الدين . (ثامناً) : ينفى المؤلف أن الإسلام عالج نظم الحياة بنصوص صريحة (والواقع أن الإسلام لم يدع أنه بنى مجتمعاً غاية فى التنظيم) . (تاسعاً) : يذكر أن الاسلام حارب الربا لأن معظم القائمين به كانوا من اليهود وكان التشريع الإسلامى يقوم على الأغراض الشخصية وينكر المؤلف آثار التسامح الإسلامى فى تحرير الشعوب من عمالها مخالفاً آراء جميع المؤرخين العرب ويكتفى برأى يوحنا النيقوسى الذى انفرد بذكر مقاومة الأقباط فى مصر للفتح الاسلامى مدة اثنى عشر عاما دون مناقشة أو دليل ليخلص من هذا إلى أن الفتوح الاسلامية كانت قائمة على السلب والنهب واتباع شهوة سفك الدماء .

(من تقرير الاستاذ على عبد العظيم إلى مجمع البحوث فى الأزهر ٢٠/١٢/١٩٧٢) .

ونحن حين نراجع بروكلمان أو جرجى زيدان أو دائرة المعارف الاسلامية أو فيليب حتى وكل كتب هؤلاء تستعمل كمصادر لكتابات مؤلفى كتب التاريخ نجد عشرات من مثل هذه السموم تركز كلها على المثالب التى تستهدف سوء القصد وسوء الفهم. وتحاول أن تصور القرآن بأنه دين عبادة وأن الاسلام دين صلاة وصوم وحج وهى تقدم حياة الرسول لأبنائنا منقطعة الصلة من حياتهم ودينهم . وتمثل دائرة المعارف الإسلامية مجموعة افتراءات كاذبة واتهامات جاحدة على الاسلام دينه وقرآنه وتقوم على تصوير الاسلام وكأنه من صنع النبى محمد وكذلك نجد بروكلمان فى كتابه (تاريخ الشعوب الاسلامية) يدس السم فى الدسم ويتعرض بالطعن والقدح لخلفاء المسلمين وحكامهم وقد حاول جرجى زيدان تصوير الخلفاء بصورة الحكام المتنازعين على السلطة والخلافة ، وأن الأمويين فئة تسلطت على الرقاب فأقصت الموالى والأعاجم واعتمدت مبدأ الاستعلاء القومى والعرقى وأن العباسيين فرس غارقون فى الأبهة والبذخ . أما جوانب القوة والبطولة والمجد فإنها محجوبة تماماً حتى ليبدو تاريخ الاسلام وكأنه مجموعة من الدسائس والمؤامرات فضلا عن أنه تاريخ دول ، وعلى الجملة فإن محاولة كتابة تاريخ الاسلام

التي تمت فى العصر الحديث والذى عرفتها المعاهد الوطنية ومدارس الإرساليات تصور التاريخ الإسلامى :

(١) مليئاً بالدسائس والمؤامرات (٢) محشواً بالفساد والترف . (٣) مقسماً بالانشقاق والتمزق فضلا عن تحريكه فى إطار صورة ضخمة من الخلاف المستمر بين الحكام والفرق والأسر ، (عبدالله سالم) وقد أشار الاستاذ يوسف العش إلى هذه الظاهرة فى كتابه تاريخ الاسلام فقال : لقد حاول الكثيرون أن يصموا تاريخنا بكثرة الفتن والحروب والمكايد والاضطرابات وليس هنا مجال الرد عليهم ، غير أن النظرة الصحيحة إلى التاريخ من خلال عوامله العديدة تعطى البيان الواضح عن أن هذه الوصمات لا أصل لها صحيح . وأن كل مافى الأمر أن هنالك تفاعلات فى المجتمع الاسلامى العربى كانت تأخذ طريقها ولابد أن تأخذ طريقها فى ذلك المجتمع وأن هذه التفاعلات سنة من سنن الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهى تفاعلات تحدث فى كل أمة بل أن الأخرى كانت تتلقاها بعنف أكثر مما تلقاها به المسلمون والعرب . وتاريخ الأمم ممزوج بالحرب والفتن والاضطرابات أكثر من التاريخ العربى فهذا تاريخ فرنسا وألمانيا منذ الثورة الفرنسية ، وأن تاريخهما ملىء بالحروب : حروب الثورة الفرنسية ، حروب نابليون ، حروب ١٨٧٠ ، حرب ١٩١٤ ، حرب ١٩٣٩ ، كل ذلك فى مدى لا يتجاوز قرنا ونصف قرن والضحايا التى وقعت فى هذه الحروب تتجاوز أضعافاً ضحايا الحروب فى تاريخنا بأجمعه . ولا ريب أن مرجع هذا التشويه والفساد فى طريقة عرض تاريخ الاسلام هو تسليم الأمة تاريخها إلى أعدائها وعدم قدرتها بعد أن تسلمت إرادتها على أن تصحح هذا الوضع وأن تكشف هذا الزيف وهى تعلم أن التاريخ الصحيح مصدر أساسى فى بناء الشباب وإعدادهم ولا ريب أن تاريخ الاسلام ملىء بالبطولات حافل بالأمجاد ، وأنه قوة فعالة تستطيع أن تمد المثقفين بإرادة دافعة تحول بينهم وبين مركبات النقص فى النظر للأمم الغربية لأن أمتهم قدمت إلى البشرية خير ما قدمت أمة ، ولأن أمتهم وإن كانت تمر اليوم بمرحلة من مراحل التخلف فإنها فى طريقها إلى القوة والتمكين ، وأن دورة الحضارة قد مكنتها من العمل والتأثير فى البشرية كلها خلال ألف عام كاملة ، فإن كانت قد جاءت بها بعد ذلك مرحلة تخلف فتلك طبيعة الأمم ودورات المجتمعات ، وأنها منذ وقت قد دخلت مرحلة اليقظة وقطعت أشواطاً واسعة فى طريقها إلى النهضة ومن حقها أن تعرف تاريخها معرفة صحيحة . وأن تعرف دورها الحقيق فى عالم البشرية وعلاقتها الطبيعية بين مختلف الأجناس والفرق والدعوات .

(٤)

حاول الاستشراق فى العصر الحديث أن يقدم تصوراً مضطرباً للتاريخ الاسلامى على النحو الذى يستهدف تزييفه أو إنتقاصه فى نظر أصحابه ، فلما استجاشته حركة اليقظة الاسلامية ظهرت عشرات المؤلفات عن الاسلام والرسول تصحح هذه الآراء وتفسد الخطة التى قام بها الاستشراق الذى أحس بأن هدفه قد أصيب بالاتهام والشك ، فكان لا بد من خطة جديدة لمعارضة كتابة المسلمين

لتاريخهم على النحو الذى عمد إلى كشف زيف الاستشراق ودحض شبهات التغريب وإعادة مكانة الخليق بأمة تسعى إلى إستعادة مكانتها فى العالمين وترد عليها خطراً يتهددها من خلال الاستعمار نفسه وأثره فى الفكر وهو محاولته تصويرها بأنها أمة قد خضعت للإستعمار وأصابها التأخر نتيجة دينها وعقيدتها ومحاولة إتخاذ تاريخها — بالتزييف والإفساد وسيلة لتبرير هذا التخلف والتأخر . هنا لك جاءت موجة الاتهام لكتاب التاريخ الاسلامى الحديث وتصويره بأنه يعمد إلى إستثارة حماسة القراء وبعث الغرور . يقول الدكتور نبيه أمين فارس — أحد رجال الإرساليات الغربية والجامعات الوافدة التى تدرس التاريخ المسلمين على أنه من العلوم التجريبية ! « إن المؤلفات الحديثة فى التاريخ العربى بصورة عامة تبحث فى هذا التاريخ بحثاً أقرب إلى السطحية منه إلى الدراسة العملية ، وأن هذه المؤلفات تستثير حماسة القراء وتبعث فى نفوسهم الغرور . ويدعو نبيه أمين يونس (ومن وراءه حركة التغريب إلى معاملة الاسلام معاملة الظواهر الطبيعية والاجتماعية وأن يوضع الجانب الإلهى موضع البحث الواقعى أى أن يبحث كما تبحث أية حقيقة اجتماعية أو فكرية أو وجدانية ومعنى هذا الذى يدعو إليه أصحاب المؤامرة على تاريخ الاسلام : أن يحاكم تاريخ الاسلام والاسلام نفسه إلى المذهب المادى الذى لا يعترف بالألوهية أو الوحى أو النبوة والذى ينظر إلى رسالات السماء على أنها ظواهر اجتماعية قام بها أفراد مصلحون مستنيرون فى مجتمعاتهم . حاولوا إيجاد منهج إصلاح وتغيير ، ولذلك فإنهم يتصورون الأنبياء والرسل أبطالا ودعاة للحرية والاصلاح الاجتماعى فحسب ، كانوا يعملون على النهوض بأممهم ، ولاريب أن هناك فوارق بعيدة وعميقة بين رسالات السماء وحركات الاصلاح . ويرمى نبيه أمين فارس وغيره الدراسات التاريخية فى العالم العربى الاسلامى بأنها بتأثير المؤرخين العرب القدماء سائرة على منهجهم مترسمة طريقهم فى البحث والمعالجة . وأن هذا هو سر عجزها عن أن تحقق الهدف الذى يرمى إليه ، فهو يريد إخضاعها المناهج الغربية الوافدة التى صنعت فى غيبة هذا التاريخ ، والتى صيغت لأمم والتاريخ وبيئة مختلفة ، دون أن يقدر بأن كل تاريخ له منهجه فى الصياغة والنقد مباينا لغيره من الأمم والعقائد ، وأن المنهج الغربى فى دراسة التاريخ لا يصلح للتطبيق على التاريخ الاسلامى لأنه يقوم على أصول مادية صرفة ، وعلى إنكار الألوهية والنبوة والبعث والجزاء ، والمسلمون يؤمنون بالألوهية والنبوة والبعث والجزاء ويجعلونها أساساً فى النظرة التاريخية إلى الحياة وفى حركة التاريخ ، كذلك فإن المنهج الغربى فى التاريخ يفسر حركة المجتمعات تفسيراً مادياً صرفاً ، سواء أكان ذلك التفسير اقتصاديا أم جنسيا . وأنه يهمل ويحجب عوامل أخرى لحركة التاريخ يعترف بها التاريخ الاسلامى منها البطولة الفردية وعوامل العقائد والأديان وأثر الإيمان بها . فإذا أخضعنا تاريخ الإسلام للمنهج الغربى الذى يوصف بأنه منهج علمى وعصرى وحديث فإننا نكون قد انتقصنا الآثار الحقيقية لحركة التاريخ الاسلامى ولاريب أن خطة كتابة التاريخ الاسلامى لا تعنى بالأسر الحاكمة والشخصيات المشهورة من خلفاء وقواد إلا بالقدر الطبيعى مع الاهتمام الأصيل بالتاريخ الحضارى والآثار الاجتماعية والاقتصادية ويركز نبيه أمين فارس على العصر الجاهلى وعلى علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارات السابقة والمعاصرة وهدفه من هذا واضح وجلى ، ذلك أنه يريد أن يصور الإسلام بأنه إمتداد للجاهلية أو ثمرة لها وهذا افتراض زائف وشبهة استشراقية مردودة ومدحوضة ، كذلك فإن محاولة التغريب تصوير الحضارة

الإسلامية بأنها ذات صلة بالحضارات السابقة والمعاصرة إنما يرمى إلى اتهام هذه الحضارة بأنها ليست حضارة متميزة وأنها جزء من حضارة للغرب اليونانية الرومانية الغربية الحديثة وليس هـذا القول صحيحا على إطلاقه ، وإنما تتميز الحضارة الإسلامية بأنها جاءت بمنهج ربانى خالص يحمل تحرير الإنسان من عبودية الإنسان مجتمعاً ومن تحرير عقله وروحه من الوثنية وعبادة غير الله . وأنها هى التى حطمت فى البشرية الوثنية والعبودية السائدة فى فارس والروم والفراعنة ، وفى غير هذا الحضارات التالية تأخذ من الحضارات السابقة فى مجال التمدن والإنشاء والعلوم التجريبية وهذا يسرى على الحضارة الاسلامية فى جانبها المـــادى ، أما جانبها المعنوى والفكرى وهو ما يطلق عليه « أسلوب العيش » فالاسلام له منهجه الخاص ونظامه الاجتماعى ومفاهيمه الخاصة . أما محاولة القول بوضع التاريخ الإسلامى فى مكانه من التاريخ البشرى العام ، فهى فى نظر التبشير والتغريب أن التاريخ البشرى هو تاريخ الغرب وحضارتهم القائمة الآن ، والتى توحى كل الدلائل بأنها مسيطرة وأن حضارة الإسلام وتاريخه تقف فى الظل لأن قومها مستعبدون وواقعون تحت سيطرة الغرب والاستعمار ومن هنا تأتى دعوى وحدة التاريخ البشرى المسمومة التى تريد أن تضع التاريخ الإسلامى فى مكان محدود بالنسبة لذلك التاريخ القديم المتعدد الصور ، أو التاريخ الحديث الذى تتمثل فيه عظمة الأمم الغربية ، وهنا يبدو أن موقع التاريخ الإسلامى متضائلا ، ولـكن أسلوب القياس الصحيح والنظر المنصف فى التاريخ لايقرأن . تدرس الأمور على هذا النحو ، وإنما يدرس تاريخ الاسلام بإثارة العجيبة الذى أحدثها فى البشرية ، وبذلك التوسع الضخم الذى حققه فى أقل من قرن من الزمان فنقل العدل والسلام والرحمة إلى عالم البشر من الصين إلى حدود فرنسا وكشف عن الناس المظالم والعبودية والفساد ثم قدم للبشرية بعد ذلك المنهج التجريبى فى العالم الذى صنع الحضارة المادية الحديثة .

(٥)

وكذلك نجد أن هناك محاولة خطيرة من وراء كتابات التغريب والاستشراق ترمى إلى قطع علاقة التاريخ بالأمة ومقوماتها والتحدث عن تاريخ بشرى أو عالمى ؛ ولاريب أن محاولة تحرير التاريخ من ارتباطه بالأمة ومقوماتها من شأنه — كما يقول الاستاذ شبلى العيسمى — أن يكون دعوة شعوبية ، ذلك إننا إنما نتطلع إلى بناء أمتنا فلابد أن يكون التاريخ سلاحاً من أسلحتنا فى هذه المعركة ، ولذلك فإن محاولة التغريب فى تقديم صورة قوامها الإستهانة والسخرية بأمجاد الأمة الإسلامية وتاريخها من شأنها أن تدفع شباب هذه الأمة إلى احتقار هذا التاريخ ومن ثم فهو لايستطيع أن يحمل أمانة بناء الأمة . وليس معنى هذا أن تقدم الجوانب الإيجابية وحدها وتحجب الجوانب السلبية . ولـكن المطلوب أن تقدم الجوانب السلبية بروح الانصاف وبعيداً عن أساليب السخرية أو الاحتقار أو الإنتقاص ، ولاريب أن وضع الأمور فى مواضعها الصحيحة من شأنه أن يوجه المثقفين إلى معرفة الأخطار التى أحاطت بأمتهم من قبل حتى يتحرروا منها ، ولـكن تقديم هذه الجوانب يجب أن يكون محكوما بإعطاء الصورة الـكاملة لهذه الأمة فى مجال تقدمها وبطولاتها وعطائها للبشرية وإقرار الدور الـكريم الذى قامت به فى

المجال الإنسانى لا أن تتخذ هذه السلبيات سبيلا إلى الغض من قدرها ومكانتها . وأن من أخطرها تدعو إليه مناهج التغريب فى كتابة التاريخ الاسلامى هو : إيجاد التضارب بين حلقات التاريخ : الوطنية والقومية والاسلامية العامة وهى حلقات متداخلة ليست منفصلة عن بعضها البعض وليس بينها خلاف أو صراع ، ولكن بينها لقاء وتجاوب وتكامل لأنها تستمد أصولها من القرآن والإسلام ، والعرب هم جزء من تاريخ الاسلام فهم الذين حملوا لواء حركة الانتشار والتوسع وقد انصهروا فى الأمم والأجناس وتشكل من هذا اللقاء مايسمى الآن الأمة الاسلامية وأن القيم الاسلامية هى التى شكلت العقلية الاسلامية وهى التى صنعت الفكر الاسلامى والحضارة الاسلامية . ولذلك فإن وصف التاريخ بأنه عربى أو الحضارة هو تجاوز أراد به الاستشراق والتغريب الفصل بين العروبة والاسلام ومن شأن هذا اللقاء بين الدوائر الثلاثة (الوطنية — العروبة — الاسلام) أن يحول دون وجود ذلك الصراع الذى عرفته أوربا بين أوطانها وقومياتها ؛ وأن للقومية فى الفكر الاسلامى مفهوم يختلف عن مفهوم الغرب وأن العروبة شىء آخر يختلف عن القوميات الغربية .

(٦)

هناك محاولة خطيرة أخرى فى طريق المؤامرة على الاسلام : هى إعلاء التنظير القومى للتاريخ الحديث فى إطار الأمة العربية على نحو يفصل هذا التاريخ عن تاريخ الاسلام العام وعن الأمة الاسلامية ، يقود هذه المحاولة دعاة القوميات والاقليميات ، أمثال قسطنطين زريق وساطع الحصرى وميشيل عفلق . يقول قسطنطين زريق : إن هذا التيار هو التيار الصاعد المتضخم يوماً بعد يوم سواء أكان عربياً شاملا أم إقليمية محصوراً . ولكن الذى لم يذكره الكاتب أن هذا التيار دخيل وأنه وافد وأنه قد تركز فى المجتمع الاسلامى نتيجة الآثار التى رتبها الاستعمار والتغريب والغزو الثقافى لتفتيت وحدة الأمة الاسلامية السياسية والاجتماعية وأنه لذلك تيار مصنوع وليس فيه من الأصالة ما يمكنه من الحيوية والنمو ، ولقد امتد بحكم الضغوط والوسائل وجريا مع التيار الغربى المثيل له والمنقول منه ولكنه لم يستطع أن يحقق نجاحا ما ، ذلك لأنه لا يتفق مع طوابع الفكر الإسلامى والمجتمع الاسلامى وأن تجربته قد فشلت تماما فى أن تعلى شأن الدم والعرق والعنصر على وحدة الفكر والثقافة والعقيدة التى شكلت المجتمع الاسلامى .

ولاريب كانت فكرة القومية وفكرة الوطنية من الوسائل التى اتخذتها الأقطار الاسلامية والعربية فى مواجهة الاستعمار والاحتلال ولكنها لم تكن فى تقديرها مناهج أساسية أو ثابتة أو وجهة دائمة لأن هذه الدعوات هى فى حقيقتها حلقات فى عقد متكامل : الوطنية مرتبطة بالقوم والعنصر ، ولكنها كلها لا تنى تصب فى الدائرة الواسعة الأصيلة الجامعة : جامعة الوحدة الاسلامية فى الفكر والثقافة والعقيدة التى لا ترفض دعوات الوطنية والقومية فى نطاقها المحدود ، وعلى النحو الذى يحقق التعارف ، الذى دعا إليه الاسلام وبحيث لا تخلق الصراع ولا الخصومة ولا العزلة ولا الانفصال بين الوحدات

الوطنية والقومية : عربية أو إسلامية تحت لواء « لا إله إلا الله » . هذا هو مفهوم الفكر الإسلامي للدعوات القومية ، والتاريخ القومي الذي ليس إلا قطاعا من التاريخ الاسلامي ، والذي لا يمكن أن ينفصل أو يستقل أو يتجزأ بحيث يكون تاريخا قوميا منفصلا عن التاريخ الإسلامي للعالم الجامع ، والمعروف أن العروبة جزء من الإسلام لا ينفصل عنه لأن الاسلام هو الذي أعطاها مفهومها وطابعها فهي لا تستطيع أن تستقل بالانفصال أو الاستقلال ولا تستطيع أن تكون تاريخا منفصلا بالنسبة للعصر الحديث أو تحاول أن تفسر التاريخ العربي القديم على أساس القومية والمعروف أن النزعة القومية نزعة مستحدثة جاءت من خلال التحدي الذي قام به الاتحاديون في تركيا حين أعلنوا دعوة الطورانية في بلادهم وحاولوا تتريك العرب فحاول العرب على إتخاذ مفهوم القومية لحماية وجودهم وكيانهم ولغتهم ولكن العرب لم يعرفوا مفهوما للعروبة مماثلا لمفهوم القومية الغربية القائمة على الصراع والخصومة بين القوميات المختلفة كذلك فالعرب لم يعرفوا تاريخا خاصا مستقلا بهم ولا وجوداً منفصلا عن التاريخ الاسلامي أو الوجود الاسلامي في تاريخهم كله إلا بعد أن اشتعلت دعوة الطورانية في الدولة العثمانية على أيدي الاتحاديين بهدف تمزيق الوحدة الاسلامية الجامعة بين العرب والترك والتي استهدفت إسقاط الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة وتوزيع الأجزاء العربية بين الدول الاستعمارية وفتح الطريق للصهيونية إلى فلسطين .

(٧)

وهناك التيار الاقليمي والوطني وهو كتابة تاريخ قطر من الأقطار منفصلا عن التاريخ الاسلامي العام ، وقد حرص الاستعمار على خلق هذا اللون من كتابة التاريخ الذي يستهدف إعلاء شأن الأقطار التي فصلها الاستعمار عن بعضها البعض بعد أن كانت وحدة تامة . وقد جرى هذا الاتجاه في البلاد العربية بعد انتزاع الاستعمار الأجزاء من الدولة العثمانية كمصر والسودان وتونس والجزائر ثم بإنهاء الدولة العثمانية نفسها عام ١٩١٨ واحتلال سوريا ولبنان وشرق الأردن والعراق . أن علا في هذه التاريخ الاقليمي منفصلا عن دائرة الوطن العربي وعن دائرة العالم الاسلامي ثم تغير هذا الاتجاه بعد ظهور الدعوة إلى العروبة ، ظلت كثيراً من البلاد العربية تعلي من شأن تاريخها الاقليمي في كلتا مرحلتيه السابقة للإسلام والتي جاءت في عصور الاحتلال كالفرعونية والمصرية في مصر والفينيقية واللبنانية في لبنان والسريانية والسورية في الشام والبربرية والمغربية في المغرب وقد جاءت هذه الدعوات من منطلق طبيعي هو مقاومة الاستعمار غير أن القوى التغريبية حاولت أن تجعل من هذه الدعوات محاولات لعزل الأقطار عن أصولها العربية والاسلامية وربطها بتاريخ سابق للاسلام وقد جرت محاولات للبحث عن أصول يمكن تحقيق هذا المخطط غير أن المحاولات كلها عجزت عن أن تجد ما يمكنها من دعم الارتباط بين العصر وبين ما قبل الاسلام ولذلك فقد سقطت هذه الدعوات ، غير أن بعض خصوم الاسلام ما زالوا يجددون هذه المحاولات دون جدوى .

• • •

وهكذا نجد أن مناهج الإرساليات وكتابات الاستشراق قد حرصت على أن تخرج للمسلمين والعرب من أصول تاريخهم ومن مفاهيمه وأن تزدرى تراثهم ، ومن ثم تشكلت مدرسة التغريب من هؤلاء الذين حملوا ولاء الاستشراق ومناهجه إلى المدارس والكليات والصحافة والمطبوعات الثقافية باللغة العربية ، تحمل الشبهات والشكوك والتى تطعن فى العقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامى ومقدمة هؤلاء : جرجى زيدان وفيليب حتى وطه حسين ونبيه أمين فارس وقسطنطين زريق وقادة هؤلاء هم : جولد سيهر ومرجليوث ولامنس .

ولقد كان للاستشراق وجهات مختلفة فى تسميم آبار التاريخ الإسلامى وفق الغايات التى تتصل بأهداف الاستعمار أو الشيوعية أو الصهيونية .

ولكل وجهة هدف معين يرمى إليه من إفساد مناهج دراسة التاريخ والقضاء على الهدف الذى يستطيع أن تحققه أمجاد التاريخ الإسلامى فى بعث الأمة الإسلامية وإحيائها ودفعها إلى التمكين فى الأرض .

الباب الأول

تاريخ ما قبل الإسلام

من الحنيفية الإبراهيمية إلى الحنيفية المحمدية

الفصل الأول

الحنيفية السمحاء

يمكن تقسيم رسالة السماء إلى مرحلتين : المرحلة الأولى التى بدأها نبى الله نوح الذى دعا ربه ألف سنة إلا خمسين عاماً ووقع الطوفان فى عصره ، ومن بعده توالت رسالات السماء على النحو الذى أشار إليه القرآن (منهم من قصصنا عليك ومنهم لم نقصص عليك) وتبدأ المرحلة الثانية بنبى الله إبراهيم عليه السلام الذى وصف بأنه أبو الأنبياء وخليل الله والنبى الذى جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب ، والرجل الذى كان أمة . والنبى الذى ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن فجعله للناس إماماً ، ومن عقبه خرج جميع الأنبياء والرسل من بعد حتى تمت رسالة السماء بخاتم النبيين : محمد ﷺ . وإبراهيم عليه السلام هو الذى حمل زوجه وابنه اسماعيل إلى بلاد العرب فأسكنهم فى مكة فلما شب إبراهيم رفعا معاً القواعد من الكعبة البيت الحرام الذى جعله الله قياماً للناس ، وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما . وفى إبنيه : إسماعيل وإسحاق ، انحصرت رسالة السماء ، بدأت فى إسحاق حتى انتهت بالمسيح عيسى بن مريم ، ومن فرع إسماعيل جاء محمد ﷺ . ولا ريب أن الإسلام هو الدين الأقدم الذى أوحاه الله للبشرية كلها لحرفه رؤساء الأديان وأخرجوه من مضمونه فكان الله تبارك وتعالى يرسل المرسلين لتخليصه مما أدخل إليه « شرع الله لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك

وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبى من يشاء ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » .

ومن هنا فإن دراسة الاسلام يجب أن تبدأ بإبراهيم عليه السلام حيث تتشكل هذه المرحلة كلها فى إطار واحد (من إبراهيم الى محمد) مروراً بإسرائيل وأنبياء بنى إسرائيل وخاتمهم السيد المسيح الذى جاء بالانجيل متمما لرسالة موسى وتصديقاً لما بين يديه من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعده اسمه أحمد) ولا ريب أن الحنفية السمحاء هى التى شكلت هذه الأمة الموحدة التى انتشرت منها رسالته ورسالة أبنائه والتى امتدت من العراق إلى مصر إلى المغرب ، من خلال مختلف الموجات التى قذفت بها الجزيرة العربية خلال أكثر من ثلاثة آلاف عام وآخرها الموجة العربية الاسلامية . ويرى الدكتور إسماعيل راجى الفاروقى : أن رسالة إبراهيم وتوابعها قد شكلت تياراً ثقافياً ذا خصائص معينة نشأ من ذلك الماضى البعيد وجعل يفصح محتواه شيئاً فشيئاً وخطوة خطوة على أيدى الآشوريين والبابليين والفينيقيين والآراميين والكنعانيين والعبرانيين وغيرهم ، على أن هذا الافصاح قد بلغ ذروات ثلاثاً تعاقبت ، كانت كل ذروة منها تزيد الرسالة جلاء حتى بلغ الأمر اكتماله وكماله عند الذروة الثالثة . أما الذروات الثلاث فهى اليهودية والمسيحية والاسلام : هذا التيار الثقافى الواحد المتصل الذى كان من أخص خصائصه هو أنه يحمل رسالة إلهية خلقية هو ما يطلق عليه الدكتور الفاروقى إسم العروبة وتطلق عليه إسم « العروبة الحنيفية » وقام ما يمكن أن يسمى تيار الحنيفية التى تكاملت بالاسلام ورسالة محمد وذلك فى مواجهة التيار المسموم الذى حمل لواءه المفكرون الذين يتحركون فى إطار اليهودية والتلمودية والصهيونية ، فقد أطلقوا على هذا التيار الحنيفى الإبراهيمى الأصيل اسم : « السامية » . يقول الدكتور الفاروقى : خلال قرون طويلة قبل الاسلام لم ينقطع أهل هذه الرقعة من الأرض عن الاتصال بالألوهية اتصالا يبلغون فيه الرسالة ولقد هيأتهم ظروف حياتهم للاضطلاع بهذه المهمة السماوية .

هذه الظروف جعلت من أرضهم صحراء وجعلت لهم موقعهم المتوسط بين العالمين ، فقد جعلت بلادهم ممراً الرائح والغادى من الغزاة . وإذا كانت تلك العوامل الخارجية التى تهددهم بالفناء شيئاً مفروضا عليهم ولا قبل لهم بتغييره ، فإنهم لم يجدوا مناصا من تغيير أنفسهم من باطن بحيث يجعلونها كفئا لهذا الخطر الداهم وابثوا ألوف السنين يحملون فقر بيئتهم فى كبرياء الزاهد الذى لا يلبث أن يناديه المنادى إلى الحق حتى يهب للدعوة مستجيبا . ويرى الدكتور الفاروقى أن المرحلة الأولى تبدأ بهجرة إبراهيم عليه السلام ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وهى التى جاءت بداية خط طويل من النبوات التى بلغت ذروتها فى العقيدة اليهودية والمرحلة اليهودية التى تمتد إلى مولد المسيح . والمرحلة الثانية هى مرحلة رسالة السيد المسيح . والمرحلة الثالثة هى رسالة محمد ﷺ : (الرسالة الخاتمة) .

وهكذا نجد أن الحنيفية السمحة هى منطلق الفكر الربانى فى خلال هذه المرحلة كلها (١٧٥٠ قبل الميلاد + ٦٥٠ بعد الميلاد موعد رسالة محمد ﷺ . أى أنه خلال ٢٤٠٠ سنة تقريبا عند مبعث محمد والى الآن ما يصل الى ٣٨٠٠ سنة) من الحنيفية السمحاء : دين إبراهيم وإسماعيل انطلقت الدعوتان التى جاء الاسلام وهما قائمتان : اليهودية والمسيحية ، والذى وجد المسلمون أنفسهم منذ اليوم الأول فى

جدل وحوار معهما (النصرانية فى نجران واليهودية فى المدينة) ومن ثم فتح باب الحديث عن مفهوم الإسلام الوجود اليهودى والنصرانى ومدى صلاته برسالة الله الحقة الأولى التى أنزلت على موسى وعيسى وماأصاب هذا المفهوم من انحراف فى التفسير ، وما يتصل بموقف المسلمين من الغرب الذى عبرت إليه المسيحية وأقامت دينا رسمياً للامبراطورية الرومانية ولأوربا كلها من بعد وإلى اليوم . من هنا نجد منطلق الخلاف فى التفسيرات والشبهات التى تثار حول الاسلام أو محاولة القول بأن بينه وبين اليهودية والمسيحية من صلات على النحو الذى تحدث عنه المستشرقون اليهود والنصارى . وفى مقدمة ذلك مايتصل بانكار الاستشراق الغربى (المسيحى واليهودى) هجرة إبراهيم وإسماعيل إلى الجزيرة العربية وكون إبراهيم وإسماعيل رسولين مبلغين إلى العرب ومايتصل بهذا من إنكار التوراة لرحلة إبراهيم إلى الجزيرة العربية ، ولاريب أن فى ذلك الإنكار مساوقة مع هدف التوراة الذى حملت لوائه التلمودية والصهيونية من بعد وهو إنكار حق العرب فى إمامة إبراهيم وحصرها فى إبنه إسحق وحده أبى اليهود وذلك بمحاولة مضللة تحت إسم « شعب الله المختار » . يقول الكاتبان الفرنسيان : (جاك رومال ومارى لوروا) تعليقاً على نص التوراة الذى يقول : « إن الرب أوحى إلى إبراهيم بالذهاب إلى فلسطين قائلا له : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير : نهر الفرات » .

يقول الكاتبان : إن هذه الآية لو صحت فإن هذا الوعد ينصب على إبن إبراهيم إسماعيل أبى العرب يقول الدكتور إسماعيل راجى الفاروقى : إن التوراة صورت الحقائق التاريخية فى قالب يؤكد العنصرية، أما القرآن الكريم فقد قدمها فى قالب يؤكد (الحنيفية) ولكن المسألة ليست مجرد اختلاف وجهة النظر بين الكتابين،فالتوراة يوما ماقدمت الحقائق من وجهة نظر الحنيفية إلا أنها غيرت نفسها على مرور الزمن ، وهذا دليل على أن الحنيفية أو الخير التاريخى كما قاله القرآن : هو الحق فوجود الحنيفية فى التوراة بشكل محرف دليل خارجى على صدق خبر القرآن الكريم . وإن العنصرية تمثل حزبا أو قبيلة من المهاجرين أنفسهم كنوع أفضل من المخلوقات واتباع نظام أخلاقى يقضى بالحفاظ على سلامة عنصرهم وعدم الانصهار فى أى قبيلة أو شعب أو أى أمة اخرى ، أما الحنيفية فهى تمثل المهاجرين أنفسهم كذوى رسالة يحملونها إلى البشر أجمع ويحققونها بالانصهار فى جسم البشرية التى كانوا وبإهداء الذين ينصهرون معهم عن طريق المصاهرة والمؤاخاة لغتهم وثقافتهم ورسالتهم . لذلك جاءت التوراة بعد بلورتها العنصرية تقول بأن إبراهيم هاجر لأن يهوه أمره بذلك ، ولكنها تتعمد السكوت على أمر يهوه فهى تقول أنه أمر تلقائى عرفى أى لاسبب له فالله فى نظرها فضله لأنه هو ، وقد فضل ذريته ، بل قطع عهداً (لاميثاقا) والفرق بين العهد والميثاق أن الاول ذو اتجاه واحد أى يلزم وجهة نظر واحدة) على نفسه بتفضيلها مهما حصل إلى الأبد حتى تمثلته كأنه هذا العنصر من دون الناس . أما القرآن الكريم فجاء يعلن أن الله إله الجميع لا قدوة وقهراً بل حبا ورحمة وجاء يؤكد أن هجرة إبراهيم لسبب وجيه ، هو التوحيد وأن الله أعطى له ميثاقا بأنه تعالى سيجازيه أحسن الجزاء إذا قام وقومه بتحقيق أمانة السموات والأرض وأنه تعالى سيعاقبه أشد العقاب بل سيستبدله وقومه إذا لم يحققوا هذه الأمانة (مجلة كلية

الآداب م ٢١/ ١٩٥٩) . ويقول : كانت التوراة كتابا إلهياً عزيزاً إلا أن اليهود حرفوها وزاغوا بها عن أهدافها الإلهية ومراميها الأخلاقية العالية فجعلوا منها كتابا تعصبياً عنصريا حتى اسم الإله بدل فبدل أن يدعى باسم الحق وهو إله العالمين ورب البشر جعلته العنصرية اليهودية : (إله ابراهيم ويعقوب وإسرائيل) فحسب ، ادخل (عزرا) الحقد والتشفى والكراهية والانتقام فأخذ يتغنى بأعمال العنف والقتل والتخريب بل ويخلق القصص اختلافاً لتمجيد العنصرية اليهودية بها ، ليس الله بل عزرا هو القائل : (إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتخربون جميع مرتفعاتهم ، تملكون الارض وتسكنون فيها لأنى أعطيتكم الأرض لكى تملكوها ، تهزمون مذابحهم وتقطعون سواريهم لأنك أنت شعب مقدس) . ويقول الدكتور الفاروقى : إن عزرا بكل حق هو مؤسس الدين اليهودى كما نعرفه الآن ولا عجب أن اعتبره اليهود إبناً لله ، وهو الذى اكتملت التوراة بعمله صحة الوثيقة لأنه بعمله هذا بعث الهوية اليهودية .

وقال : إن عدم إتقان عملية التحريف من قبل عزرا هو الذى جعل العلماء يكتشفون عزرا ، فالحنيفية لا تزال باقية فى التوراة لها آثارها وبالرغم من التحريف العزاروى الذى جاء مضاداً لها .

الفصل الثانى

الجاهلية

يقول عمر رضى الله عنه : (إنما ينقض الاسلام عروة عروة إذا نشأ فى الاسلام من لم يعرف الجاهلية) فمعرفة التاريخ السابق للإسلام ضرورة لفهم الإسلام نفسه والاسلام هو الذى اطلق على هذا التاريخ تعبير (الجاهلية) وهى جاهلية قريبة وجاهلية قديمة أو أولى ، ولما كان الاسلام هو خاتم رسالات السماء فقد كان من الضرورى أن يتعرف أهله على رسالة السما منذ بدأت لأنهم مكلفون بالإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب التى سبقت والتى هى فى مجموعها رسالة واحدة هى (الإسلام) والدعوة إلى توحيد الله وإن اختلفت باختلاف البيئات والعصور ، فقد أرسل الله تبارك وتعالى رسله وأنبياءه للبشرية منذ نوح إلى محمد ﷺ وقد كانت هذه الرسالات إلى كل أمة برسول منها إلى أن وصلت البشرية إلى مرحلة الرشد الفكرى الذى أهلها لأن تتلقى الرسالة العالمية الخاتمة الإنسانية كلها وهى الرسالة التى حمل لواءها محمد ﷺ بكتابه الخالد المعجز (القرآن) . وحين جاء القرآن كانت البشرية تعرف أديانا منزلة انحرفت عن طريقها وأدياناً بشرية ، ومن الأولى اليهودية والمسيحية ومن الأخرى الديانات المجوسية وغيرها وكانت هناك الوثنية التى ليست دينا ولكنها انحرافاً ، وكانت تتمثل فى صورة ضخمة فى بلاد اليونان ومن بلاد العرب وفى قلب جزيرتهم جاء إبراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل يحملون لواء الحنيفية

السمحاء حيث أقاما القواعد من الكعبة البيت الحرام ونشأ فى قلب جزيرة العرب فى أم القرى ومن حولها وحول الكعبة دين الحنيفية السمحاء الذى امتد فى اسماعيل وأبنائه من بعد والذى ظل قائما فى نفوس الكثيرين حتى جاءت رسالة محمد ﷺ خاتمة الأديان ومتصلة الأسباب بالدعوة الابراهيمية .

(ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) . ومن ثم فإن تراث النبوة التى عرفتها هذه المنطقة العربية كلها بدأ بإبراهيم عليه السلام وختم بمحمد عليه الصلاة والسلام وفيما بينهما كانت النبوة والرسالة قد امتدت فى بيت إبراهيم . امتدت فى ولديه اسماعيل واسحق ، ثم امتدت فى فرع اسحق فى يعقوب والأسباط ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وجاء عيسى عليه السلام ختاما للنبوات فى بنى إسرائيل ثم جاء محمد ﷺ من العرب ومن فرع إسماعيل ختاما للنبوة والرسالة جميعاً . ولاريب أن بنى إسرائيل قد عجزوا عن حمل رسالة الله تبارك وتعالى على وجهها الصحيح وأنهم قد حرفوا كتابية التوراة والانجيل فاستحقوا أن تنتزع منهم الرسالة إلى من هم أقدر على حملها .

(٢) الوثنية العربية

انحرف العرب بعد رسالة التوحيد الحنيفية التى قام عليها إبراهيم وإسماعيل إلى الوثنية والشرك فالوثنية العربية ليست وثنية عميقة الجذور كالوثنية اليونانية ولكنها كانت أميل إلى الشرك فقد كان العرب يتخذون الأصنام على أنها وسائط وشفاعات تقربهم إلى الله . ويقول المؤرخون أن الذى سنح بالعرب إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لايظعن من مكة ظاعن إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به طوافهم بالكعبة وبمرور الزمن نسى الناس العلة فى تقديس الحجارة على أنها أثر الكعبة وذكرى لها فانتقل التقديس للحجر نفسه وتطور الحجر إلى صنم ولكن بقيت فئة تتطلع إلى دين التوحيد : دين إبراهيم عرفت تلك الفئة بالأحناف ودينهم بالحنيفية وكانوا قد اعتزلوا الأوثان وعافوا الميتة والدم والذبائح التى تذبح على النصب لغير الله وعرف من الأحناف زيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعده وأمية بن أبى الصلت وورقة بن نوفل ولم تكن الحنيفية امتداداً أو تقليداً لليهودية أو النصرانية بل لم يكن لها بها صلة أو وشيجة (وما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ولم يك من المشركين) . وكانت الوثنية تشويهاً لدين إبراهيم وتحريف له وخروج عليه وليست الوثنية فى حقيقتها دينا ولكنها إنحرافاً عن الدين المنزل . كذلك فقد عرفت الجزيرة العربية اليهودية والمسيحية وكذلك عرف العرب عبادة الكواكب وفى هذه الفترة أصاب فريضة الحج هذا الانحراف الوثنى فكانوا يذبحون الذبائح لايطعموها للفقراء ولكن ليلطخوا بها جدران الكعبة . وكانت صلاتهم عند البيت « مكاء » كما وصفها القرآن . ولقد اتخذت قبائل العرب فى الجزيرة العربية عدداً من الأوثان كاللات والعزى ومناة والشمس والقمر والشعرى والنجم (الثريا) وود وسواع ونسر ، ولم يكونوا يؤمنون بها من دون الله بل كانوا يشركونها مع الله تبارك وتعالى ويتخذونها وسطاء وقد سجل القرآن عليهم ذلك فى قوله تعالى : (ألا لله الدين

الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار) . وقد واجه القرآن ودعوة الإسلام ظاهرة الشرك هذه مواجهة صريحة بالإضافة إلى مواجهة كل أسباب الوثنية وأنواعها من عبادة الكواكب والنجوم والشمس والقمر وعرض الإسلام لفساد كل الانحرافات التى عرفتها الأديان قبل الاسلام وخاصة ما يتصل باليهودية والمسيحية ، وهاجم الاسلام الوثنية وتعدد الآلهة ودعا إلى عبادة الله الواحد الأحد . وحين دخل الاسلام مكة فاتحاً كانت الكعبة التى بنيت لعبادة الله الواحد الأحد تمتلئ بالاصنام إذ كانت تحتوى على ثلاثمائة وستين صنما غير الأصنام الأخرى التى كانت فى جهات متفرقة . وكانت عقائد الوثنيين والمشركين من أهل مكة ممزقة منهارة فقد عبدوا الكواكب وزعموا أن الملائكة بنات الله ، وقال صاعد فى طبقات الأمم أن حمير كانت تعبد الشمس وكنانة القمر وتميم الدبران ولخم وجذام المشترى وطى سهيلا وقيس الشعرى العبور وأسد عطارد .

الفصل الثالث

(٣)

اليهودية

لم تدم المملكة اليهودية سوى ٧٨ سنة انقسمت بعدها إلى شطرين متنازعين تحطم الأول عام ٧٢٢ ق . م على يد الأشوريين وتحطم الثانى ٥٨٦ ق . م على يد البابليين وفى منفى اليهود فى بابل بين ٥٨٦ ، ٥٣٨ ق . م تفجرت العنصرية عن الحقد والكراهية للعالم وانبثقت جذور الصهيونية بمعنى التطلع السياسى والدينى إلى العودة إلى أرض الميعاد وعاد اليهود مرة أخرى إلى فلسطين . ثم كانت ثورتهم على الامبراطورية الرومانية التى قضت على وجودهم وأبادت جموعهم عام ٧٠ م ثم حرم عليهم الدخول إلى القدس وتفرق أكثر الباقين من اليهود فى الأرض وجاء جماعة منهم إلى بلاد العرب لاجئين ، وكثروا فى منطقة تمتد من يثرب إلى خيبر إلى تيماء ، وكذا وقع الصراع بين المذاهب المختلفة فى أرض فلسطين بعد المسيحية كانت جزيرة العرب هى المأوى لأولئك المضطهدين لأن شبه الجزيرة لم تكن خاضعة للروم . إن التحريف الذى قام به اليهود للتوراة قد نقلها من المفهوم الربانى الذى يصل مراحل دعوة السماء من لدن نوح وفى إطار الحنيفة السمحة التى جاء بها إبراهيم حتى تتم رسالتها ، إلى مفهوم العنصرية الغالبة التى تفرض « سيادة عنصر اليهود » تحت اسم « شعب الله المختار » وهذا هو التحول الخطير الذى نقل دين الله المنزل بالحنيفية السمحاء الممتدة من إبراهيم واسماعيل وإسحق فى أبنائهما إلى تلك العنصرية التى تجعل من الله تبارك وتعالى إلهاً خاصاً لليهود وتجعل من رسالة الرحمة إلى الناس ، عملا مقصوراً على قوم وحدهم دون البشر جميعاً ، بل وتجعل لهم الحق فى السيطرة على الأمم المختلفة واستغلالها وسلبها ما تملك تحت اسم الجوييم .

ويرى الباحثون أن هذا التحول من الحنيفية إلى العنصرية قد تم فى فترات سابقة للسبى البابلى ولكنهم يركزون على أن التحريف فى التوراة نفسها وقع أبان السبى البابلى ؛ ويؤكدون — كما أشار اسماعيل راجى الفاروقى — أن التوراة التى بين أيدينا هى الكتاب الذى جمعه عزرا حوالى عام ٤٣٥ قبل الميلاد وقد أحصى الباحثون مجموعة من الشكوك فى مقدمتها تغيير اسم الإله ومنها ما أدخله الكهنة إلى التوراة ولا سيما عزرا ومنها الطقوس التعبدية التى لم تكن من أصل الديانة . وأبرز الانحرافات هى مسألة إبراهيم عليه السلام ووعد الله له ولذريته فقد بنى اليهود نظرية تفوقهم على البشر وانفرادهم عن الناس وأفضليتهم على جميع المخلوقات فى نظر الخالق على هذا التصور الباطل بأن الاختيار لم يكن للخليل فقط بل لأبنائه وسلالته وهم يعلنون أن هذا الاختيار لم يكن أخلاقيا وليس له علة .

وهذا ما كشف القرآن الكريم عن زيفه فى قوله تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى ، قال : لا ينال عهدى الظالمين » فالرسالة وجهت إلى بنى إسرائيل على طريق الحنيفية السمحة فإن أقاموا عليها كانوا من أهل الوعد الإبراهيمى وإن عجزوا عنها وتخلفوا فقد سقطوا ونقل الحق تبارك وتعالى الرسالة إلى غيرهم ، إلى الفرع الآخر . فرع إسماعيل وفى هذا يقول القرآن : (أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ، فهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا » النساء (٥٠ — ٥٤) وهكذا نجد أن الانحراف الذى وقع فيه بنى إسرائيل بعد أن أعطاهم الله الملك أكثر من ألف سنة ما بين (اسرائيل وعيسى) فقد أثبتوا عجزهم عن حمل الرسالة على النحو الذى رسمه الحق تبارك وتعالى وانحرفوا عن الحنيفية إلى العنصرية ولذلك نقل الله الملك من فرع إسحق إلى فرع إسماعيل . ولقد كان اليهود يعرفون صفة النبى المنتظر ، وكانوا يقسمون به فى دعائهم، فلما جاءت الرسالة إلى محمد بن عبد الله عارضوه لأنه ليس من فرع إسحق وخاصموه خصومة شديدة . ولاريب أن هذه القضية هى أخطر قضايا العصر الذى نعيش فيه فإن الصهيونية العالمية تحمل فى دعواها لواء هذا الوعد على النحو الذى زيفه اليهود فى التوراة وتابعوه فى التلمود وفى بروتوكولات صهيون وحين جعلوه قاصراً على فرع إسحق وأولاد اسرائيل . وحرموا منه فرع إسماعيل وإسماعيل هو الإبن الأكبر لسيدنا إبراهيم . وأنكروا رحلة إبراهيم وإسماعيل إلى مكة وبناء الكعبة من أجل تزييف هذا الوعد . وتلك القضية تتمثل اليوم فى تحد خطير : حيث استطاع اليهود تزييف دوائر المعارف العالمية وكان من عملهم الخطير فرض العهد القديم على المسيحيين الغربيين وربطه بالإنجيل « العهد الجديد » واستطاعوا السيطرة على مناهج الدراسة فى أكثر بلاد العالم الغربى وفى الجامعات ومناهج الدين وفرض هذا الارتباط بين التوراة التى كتبها الأحبار وضمها إلى الإنجيل من أجل الإقناع بهذا الوعد وقد نتج عن هذا أن اتباع البروتستانتية يتابعون الصهيونية فى هذا المفهوم كذلك فنحن نجد هنا فى أفق الفكر الاسلامى تلك الدعوات التى انتشرت منذ الثلاثينات حين أطاق بعض أتباع التغريب صيحة التشكيك فى وجود إبراهيم وإسماعيل بالرغم من وجودهما فى التوراة والقرآن . وكانت هذه علامة مبكرة على وجهة الدعوة الصهيونية نحو تزييف قضية إبراهيم وإسماعيل .

(٤)

اليهود فى جزيرة العرب

كذلك فقد تواترت فى أفق الفكر الإسلامى شبهات كثيرة تحاول أن تجعل لليهود فى جزيرة العرب دور فى الأدب أو الاجتماع . فقد ظهرت فى الثلاثينات كتب ودراسات حول هذا الموضوع كتبها طه حسين وإسرائيل ولفنسون وغيرهما فى محاولة لخلق فضل وهمى لليهود واليهودية على اللغة العربية وآدابها إبان إقامتهم فى الجزيرة العربية قبل الإسلام منذ هجرتهم إليها هاربين من وجه الرومان فى فلسطين سنة ٧٠ ومابعدها . وكان هذا العمل يجرى فى إطار الدعاية الصهيونية التى كانت تريد أن تضع الشرقيين بما أقدموا على تسجيله فى دوائر المعارف وكتب التاريخ الغربى بما يبرر دخولهم إلى فلسطين . والواقع أن التاريخ فى أحداثه المتصلة منذ بزوغ فجر الضمير تؤكد أن اليهود كانوا عالة على حضارات مصر وبابل وأشور ولما عاد اليهود من السبى نقلوا معهم عن العرب البابليين الشىء الكثير مما نجده فى كتابهم المقدس وكل أوردوه من الآداب إنما جمعوه من الأساطير التى كانت سائدة فى تلك العصور أما الحنيفية فباعتبارها إطار النبوات فقد حملت فكراً ونثراً وأدباً وفلسفة وحكما وأمثالا عرفتها البيئة العربية الممتدة من بين النهرين إلى الشام فمصر . يقول الدكتور محمد فؤاد حسنين «فالعرب لا اليونان أو اليهود هم الذين بعثوا العالم من حالة الجمود إلى حياة أفضل مكنته من التحكم فى مصائر الكون فأطلق العربى الأخطار من عقالها وحررها من جمود رجال المعبد اليهودى والكنيسة المسيحية فظهرت طائفة القرائين حيث أنكر أولئك التلمود وتعاليمه كما انكمش سلطان الكنيسة وقد مهد هذا التطور بدوره إلى ظهور حركة الاصلاح الدينى وبعث النهضة العلمية . ومما عاون العرب على الاضطلاع بهذه الرسالة تسامحهم ومبادؤهم الإنسانية التى أزالت الفوارق بين الشرق والغرب كما أنهم لم يمكنوا اللون من أن يكون عاملا من عوامل التفرقة والتمييز العنصرى والحط من القيم الإنسانية ، أن العرب يؤمنون سواء فى الجاهلية أو الإسلام بالحقوق الإنسانية كاملة غير منتقصة لكل فرد من أفراد المجتمع البشرى . فالدين الإسلامى الذى ثبت أسس هذه المبادىء يقرر فى صراحة ووضوح أنه « ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » ولذلك نجح العربى فى تحقيق ماعجز عنه اليونانى والفلسفة اليونانية أعنى مذهب الإنسانية . إن هذا المذهب لم يقو ولم ينتصر إلا بفضل العرب ولم تعرفه أوربا إلا فى العصور الوسطى وعلى يد العرب وبعد أن تتلمذت أوربا على العرب فى العصر الإسلامى حيث بلغ العرب مكانة اجتماعية لم تدانهم فيها الشعوب الأخرى ، كما شرع الإسلام لمعتنقيه وغيرهم تشريعات أخرجتهم من الظلمات ، ويقرر الدكتور محمد فؤاد حسين أن نفراً كثيراً من الأوربيين المنصفين مسيحيين كانوا أو يهوداً يؤمنون بأن العرب هم أصحاب الفضل على اليونان واليهود، والتاريخ اليهودى يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكامهم فى فلسطين أو فزعاً من اضطهاد اليونان والرومان فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلا وسهلا، فهذه القبائل اليهودية التى كانت تنزل يثرب وخيبر ووادى القرى وفد أفرادها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون

التي مرت بهم زوال دولتهم ولغتهم المقدسة ، تذوق اللغة العبرية وتجويدها حتى أصبح من المألوف لدى اليهودي أن يعبر عن أفكاره وشعوره في لغة ركيكة هي خليط من العبرية والكلدانية واليونانية فحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية . فما كان أولئك اليهود يستطيعون قول الشعر أو إجادة النثر لغير نزولهم بين العرب هذه الأوضاع وبخاصة فالعربي معجب بلغته معنى بها نثراً وشعراً حريصاً على المحافظة عليها فصيحة نقية . أخذ اليهود عن جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير فلما رحل بنو قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادى القرى وغيرهم إلى العراق والشام وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربية ويتأدبون بأدب عربي ويتطبعون بطباع عربية كلها شجاعة ووفاء وكرم وإباء يقولون الشعر في مختلف فنونه ويعبرون عن خواطرهم في لغة هي لغة أهل الحجاز ، نزل أولئك اليهود في أوطانهم الجديدة فأثروا في أبناء ملتهم تأثيراً قوياً، ولم يمض نصف قرن من الزمن على تحرير العرب اليهود لفلسطين والعراق وغيرهما حتى أصبح في استطاعتهم التحرير في اللغة العربية ، ولم يقف أثر العرب والعربية في اليهود عند اللغة وآدابها بل تعدى العربية القرآن الكريم والحرص على المحافظة على كتاب الله ، وهذه ظاهرة جديدة لم يكن لليهود بها عهد في عصورهم القديمة حتى في فلسطين وأبان قيام دولتهم وحياة لغتهم العبرية المقدسة وقد حببت هذه الظاهرة إلى اليهود اقتفاء أثر العرب ومجاراتهم في طريقة دراسة القرآن الكريم وحاول اليهود الحرص على نطق أسفار العهد القديم نطقاً صحيحاً . فدفعهم هذا إلى التفكير في أعجام أسفارهم وإعرابها مقلدين العرب وناقلين عنهم ، وتأثر اليهود بالعرب أيضاً فأوجدوا مايعرف في الأدب العربي بالشعر العبرى الحديث أو (البيوتم) ولم يقف الأثر عند الشعر بل تعداه إلى النثر حيث استشهد كتابهم بالشعر العربي وأخذوا ينسجون على منواله .
كذلك الأمثال العربية وجدت طريقها مع البيان والبديع إلى اليهود ولغتهم . فقد وضع يهوذا ابن تبون مثلاً كتابه المشهور (حكم العرب) وترجمت أسرة تبون وغيرها كثيراً من أمهات الكتب العربية سواء في الفلسفة أو الطب أو الرياضيات أو القصص الشعبية إلى العبرية وليس هذا بمستبعد، فالعرب ليسوا هم أصحاب فكرة المعزل (الجيتو) فقد فتحوا أمام اليهود دور العلم على مصراعيها ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم، لذلك استطاع اليهود القيام بدور الرواة من الشعراء أو انسابوا في بعض البلاد المسيحية وأخذوا إلى جانب بعض العلماء العرب يلقنون الأوربيين ما انتهت إليه معرفتهم ، وهكذا نجد زيف تلك الدعاوى التى حاول الاستشراق اليهودي وأتباعه أمثال طه حسين وإسرائيل ولفنسون وغيرهما شبها في أفق التاريخ الإسلامي الحديث من خلق دور وهمي لليهود في جزيرة العرب ، وقد فصلنا هذا في كتابنا (عن طه حسين في ضوء الاسلام) .

الفصل الخامس

(٥)

اليهود فى المدينة

هدمت (القدس) التى يطلق عليها إيلياء ، أو أورشليم مرتين من أجل مؤامرات اليهود : ٥٩٧ قدم حيث سحقهم بنوخذنصر وساق من بقى منهم إلى السبى البابلى الذى لم يستمر أكثر من خمسة وأربعين عاماً سمح بعده كورش لليهود بالعودة إلى فلسطين عام ٥٨٣ ، ثم كانت الضربة الثانية الماحقة عام ٧٠ م على يد تيطس الرومانى ، ومنها نشر اليهود إلى مختلف أطراف الأرض وإلى الجزيرة العربية ، وهذه هى الهجرة الكبرى لليهود ، كما تصورها كتب التاريخ فى القرن الأول الميلادى بعد تنكيل الرومان بهم جزاء مؤامراتهم وانتقاصهم ، وقد قصد إلى أرض الجزيرة بنو النضير وبنو قريظة حيث ساروا إلى الجنوب فى اتجاه يثرب ، فلما بلغوا موضعاً هناك على ملتقى طرق القوافل أقاموا فيه . وتؤكد أبحاث التاريخ ودراسات العالمين الكبيرين محمد عزه دروزه (تاريخ الجنس العربى) والدكتور جواد على (تاريخ العرب قبل الإسلام) فساد النظرية اليهودية المطروحة التى تقول إن يهود الحجاز من قبائل عربية تهودت وتؤكد الدلائل أن يهود الجزيرة العربية من بنى إسرائيل . وخطاب القرآن الكريم لهم يدل على أنهم من نسل أولئك الآباء الذين آذوا أنبياء الله موسى وداود وعيسى ، وقتلوا يحيى وغيره من الرسل ، وعندما نزلت الرسالة الإسلامية على محمد ﷺ كان اليهود يعيشون فى أحياء وقرى خاصة بهم وكانت لهم لغتهم العبرية التى يتخاطبون بها فيما بينهم ولهم طقوسهم ومدارسهم ومعابدهم ، ولم يكن فى الحجاز فى ذلك الوقت قبائل عربية متهودة ، وإن كان لا يبعد أن يكون هناك بعض أفراد من العرب دخلوا فى دين اليهودية . وكانت معظم معاملات اليهود فى المناطق التى اقاموا فيها سواء بالعالية بوادى بطحان أو فى منطقة مهزور على بعد بضعة أميال من المدينة تقوم على المراهنات وتعاطى الربا ، ولهم سيطرة تامة على الجوانب الاقتصادية فى المدينة وضواحيها ، ولهم تحكمهم فى الأسواق التجارية ، وهذا ما حطمه الوجود الإسلامى فى المدينة بعد الهجرة ، وكان واحداً من عوامل تآمرهم على الإسلام . ولا ريب أن اختيار محمد بن عبد الله للنبوة والرسالة الخاتمة كان علامة على الطريق الذى أعده الله للبشرية ارتباطاً بالحنيفية الإبراهيمية وتحرراً من الانحراف الذى أحدثه اليهود ثم النصارى برسالة التوحيد الحق وكان يعنى هذا من الله بعد أن امتحن بنى إسرائيل ألف سنة بالنبوة والملك وأنزل فيهم التوراة والزبور والإنجيل ، قد نقل منهم الأمانة إلى فرع إسماعيل وإلى العرب وأورثهم ذلك الميراث الذى جاءت به النبوات وجعلهم المؤمنون بكل ما أرسل الله من نبى وما أنزل من كتاب : (قولوا آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم) الآية .

وكان هذا التحول من بنى إسرائيل إلى فرع إسماعيل تأكيداً للحقيقة الإبراهيمية وإحياء لها ودعماً وتكذيباً للتحريف اليهودى الذى ركزت عليه توراة عزرا بالعنصرية فى اصطفاء يهوه لإبراهيم اصطفاءاً بدون سبب وجعل هذا الاصطفاء كميثاق أو عقد ذى اتجاه واحد أسمته الميعاد . ولقد كشف القرآن من سيرة إبراهيم جوانب عديدة لم تعرفها الكتب القديمة ومنها توحيد إبراهيم وتحطيمه للأوثان التى كان يقدسها أبوه وأهله ، حيث لم يذكر فى أى أثر قبل القرآن الكريم ، فالقرآن هو مصدرها الأول والأخير ، ومن هنا فقد انتصرت بالاسلام الحنيفية على العنصرية . ومع هذا الموقف العنيد الخصم الذى وقفه اليهود من النبى بعد الهجرة ، ومن الإسلام كان موقف الرسول ﷺ والإسلام منهم كريماً غاية الكرم فقد عقد الرسول ﷺ معهم أماناً وأحسن معاملتهم وقصد إليهم أكثر من مرة يدعوهم إلى الإسلام . وفى البخارى عن أبى هريرة : بينما نحن فى المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال انطلقوا إلى يهود فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدارس فقام النبى ﷺ فناداهم : يا معشر يهود : أسلموا تسلموا فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم . فقال : ذلك أريد ثم قالها الثانية فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم ثم قال فى الثالثة : اعلموا أن الأرض لله ورسوله ، وأنى أريد أن أجليكم فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله . ولقد قامت مجادلات دينية عديدة بين اليهود والنبى قصدوا بها إحراجه ، وقد أجاب الرسول ﷺ على أسئلتهم ومجادلاتهم بما يدحض حججهم . ثم انضم اليهود إلى أعداء المسلمين وكانت لهم مواقف غاية فى التآمر بالمسلمين فأجلاهم الرسول عن المدينة ، وقد استمر الرسول ﷺ فى معاملته الحسنة اليهود : ثم أجلى عمر نصارى العرب عن نجران ويهود الحجاز من الجزيرة العربية تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ . روى أبو عبيدة رضى الله عنه أن آخر كلام قاله رسول الله ﷺ هو وصيته بإخراج يهود الحجاز ونصارى نجران اليمن من جزيرة العرب ، وقد أحسن عمر إخراجهم واختار لهم أرضاً جديدة بين الشام والعراق . يقول الدكتور محمد فؤاد حسنين : أن التاريخ اليهودى يتحدث عن إحسان الإسلام لمعاملة اليهود ، وحتى أولئك الذين اضطر النبى والخلفاء الراشدون إلى إجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تأميناً لرسالة الإسلام واتباعهم . أقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والإمام على كرم الله وجهه الأراضى الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات مما دفع المؤرخ اليهودى الشهير (جريتز) إلى الإشادة بعدالة العرب وإنسانيتهم فى كتابه (تاريخ اليهود) فقال : إن تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى القرن السابع للنبوة المحمدية وأبان حياة الرسول صفحة ناصعة من التاريخ اليهودى وقال : لقد وزع عمر أراضى اليهود على المسلمين المحاربين وعوض اليهود المطرودين — وهذه هى العدالة — أرضا أخرى بالقرب من الكوفة على الفرات حوالى ٦٥٠ م .

حقاً رب ضارة نافعة ، إن سيادة الإسلام نهضت باليهودية من كبوتها .

الفصل السادس

(٦)

ميراث النبوة

استعاد الروم بيت المقدس عام ٦٢٩ م من الفرس ودخل هرقل القدس وفى أبان ذلك حمل إليه « دحية الكلبى » كتاب النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام : (أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين)

وكان النبى ﷺ قد أورث ميراث النبوة كلها ؛ تحقيقاً لانطلاقة الإسلام بأمة العرب إلى خير أمة أخرجت للناس واستكمالا لرسالات الأنبياء جميعاً . ففى ٢٧ رجب قبل الهجرة بسنة وبضعة أشهر أسرى بالنبى ﷺ إلى بيت المقدس ، حيث صلى بالأنبياء إماماً وكان ذلك مقدمة معراجه عليه الصلاة والسلام إلى السماء إلى سدرة المنتهى حيث تلقى أمر الله تبارك وتعالى بفريضة الصلاة ، وكان النبى ﷺ قد صلى بعد هجرته إلى المدينة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، وما زال بيت المقدس عند المسلمين هو القبلة الأولى ، ولما كان مفهوم الإسلام هو الترابط الكامل بين رسل الله وكتبه من نوح إلى محمد ﷺ ، ولما كان الإسلام كما جاء به محمد ﷺ هو الإسلام الذى جاء به كل نبى وكان محمد هو دعوة إبراهيم وسيد ولد إسماعيل فهو صاحب الميراث الحقيق لإمامة إبراهيم عليه السلام . (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) . وهكذا عاد الإسلام بالدين الحق إلى صفاءه الأول وإلى طريقه الحق الذى حرفته اليهودية والمسيحية فعزلت عن ميراث إبراهيم (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) ولم تمض إلا سنوات قليلة من هجرة رسول الله إلى المدينة حتى فتح المسلمون مدينة القدس عام ١٥ هجرية ٦٣٦ م وتسلمها عمر بن الخطاب من البطريرك صفرونيوس وكتب العهدة العمرية لأهلها النصارى من أهل إيلياء ، وكان أخطر نصوصها التى أصر النصارى على إدراجها (النص القائل : ولا يسكن بإيلياء أحد من اليهود) . وترى كثير من المصادر أن (القدس) هى هدف الرسول فى إسراءه : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) . وما كانت غزوة حنين وغزوة خيبر وغزوة أسامة بن زيد التى كان علمها مغروساً أمام المسجد قبل التحاق رسول الله بالرفيق الأعلى إلا علامات على الطريق الذى سلكه الفتح الإسلامى ، فإنه لم تمض بعد ذلك إلا القليل حتى تدفقت جيوش المسلمين إلى الفرات ومن ثم إلى فلسطين وهزمت جيوش القيصر عند (أجنادين) فى يوليو ٦٣٤ م ١٣ هجريه واضطر القائد البيزنطى (ارطبون) إلى الهرب إلى القدس ، وجاءت معركة اليرموك (أغسطس ٣٥٦ م) ١٥ هجرية فانتصر المسلمون انتصاراً حاسما وسقطت كل المدن الحصينة واحدة بعد أخرى فى أيدى المسلمين ثم سلمت (بيت المقدس) إلى المسلمين صلحاً شريطة أن يحضر عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ليتسلمها. قال الطبرى:

فتحت إيلياء وأرضها على يد عمر فى ربيع الآخر سنة ستة عشر . ومنذ تسلم المسلمون بيت المقدس وهو لا يزال فى أيديهم إلا فى فترات قليلة : المرة الأولى أبان الحروب الصليبية والمرة الأخرى بعد احتلال إسرائيل القدس عام ١٩٦٧ .

الفصل السابع

(١)
الشك فى التوراة

إن المحاولة اليهودية التلمودية التى استهدفت تزييف التوراة وتزييف وعد الله لإبراهيم والتى اعتمدت عليها الصهيونية الحديثة فى دعواها بأن لها فى أرض فلسطين حقاً قد كشف البحث العلمى عن فسادها من ناحيتين ، من ناحية تحليل النص التوراتى نفسه ، ومن ناحية نتائج الكشوف الأثرية فقد أثبت التحليل العلمى أن التوراة المعاصرة قد كتبها الأحبار وليست هى كتاب الله المنزل من السماء . وأيدت الكشوف الأثرية ما أورده القرآن وكذبت ما ذهبت إليه التوراة وخاصة فيما يتعلق بإبراهيم وإسماعيل ورحلتهما إلى الجزيرة العربية وأبوة إسماعيل وعشرات من هذه القضايا التى زيفتها التوراة والتلمود . يقول الدكتور إسماعيل راجى الفاروقى : إن هناك مجموعة من العلماء (فون جران ، كوهنن ، ويلهاوزن) فى أواخر القرن الماضى دفعهم حبهم للاستطلاع لدراسة القرآن الكريم بحثاً وراء ما يلقى الضوء على (العهد القديم) الذى كان يدرسونه بقصد تفهمه تفهماً علمياً نقدياً تحليلياً ، وفى دراستهم للقرآن الكريم تشبعوا بالمبدأ القرآنى القائل بأن بنى إسرائيل تلاعبوا فى كتابهم المقدس وأنهم حرفوه حاذفين منه ما حذفوا ومضيفين إليه ما أضافوا لطمع غير خلق فى نفوسهم ، فزعزع هذا المبدأ ما نشأوا عليه من إيمان بأن التوراة هى نفسها فى كل حرف من حروفها من صنع الله وأخذوا عندئذ بدلا من الحيرة فى تفسير النزعات المختلفة التى تنم عنها نصوص التوراة يبينون مختلف الأيدى وراء هذه النصوص فراحوا يبحثون فى أصولها وعن الأحوال التاريخية التى أدخلت على المواد فى التوراة تحت ظروفها فكانت علوم التوراة النقدية التى عرفها القرن الأخير .

هذه هى بداية نقد الكتاب المقدس وعنها تفرعت العلوم النقدية جميعاً ونشأ علم الآثار القديمة ونشأ علم التاريخ القديم ومنذ ويلهاوزن وعلماء العهد القديم يقيمون النظرية تلو النظرية والتفسير التوراتى تلو التفسير ويهدمون ما حققه أسلافهم من قبل تبعاً لمكتشفات الآثار التى أخذت تتزايد بشكل عظيم سنة بعد سنة وتمشياً مع ما كانت تجلو عنه هذه المكتشفات من حقائق تاريخية . ومع أن المبدأ القرآنى بقى وأكد مبدأ هذه العلوم كلها فهى جميعاً بكل ما حققه من تقدم للفكر الإنسانى تعتبر حواشى علقتها العبقرية الغربية والدأب العلمى الذى لا يعرف الكلل على القرآن الكريم حيث لم يتقدم أحد من الدارسين المسلمين لدراستها حتى الآن . ويصل الدكتور الفاروقى إلى حقيقة أصبحت واضحة الآن فى بيئة الغرب

وهى أن الإيمان بأصل التوراة الإلهى قد زعزع والغى ، وبهذا أكمل القرآن الثورة العقلية التى أشعلها الإسلام على اللاعقلية فى القرون الوسطى ، لم يجز علماء العهد القديم اتخاذ نصوص التوراة كأنها محققة فيما تقوله من الأنباء إلا بالإثبات العلمى ، وهنا جاء علم الآثار يقدم دليله فآثار فلسطين ورأس شمر وتل الحريرى فى دار الشام ثم آثار العمارنة وغيرها فى مصر وآثار بابل وأشور فى شمالى العراق وجنوبه كل هذه لها علاقة رئيسية بالتوراة والتاريخ اليهودى القديم .

(٢)

إبراهيم والتوراة

أخذ العلماء على التوراة التى نزلت على موسى أنها تروى تاريخ اليهودية من بعده حتى قيام المسيح بدعوته ، ومعنى هذا أن التوراة الموجودة فى أيدى الناس ليست هى توراة السماء ، وتبين أن من التوراة ما كتب على أيام المملكية الإسرائيلية ، ومنها ما كتب فى المنفى بين النهرين ، ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، ومن هنا جاء ما فيها من تعارض . ومما يؤخذ على التوراة أنها لم تأت بذكر لذهاب إبراهيم إلى الحجاز ، وسكتت المصادر اليهودية سكوتاً متعمداً — كما يقول عبد الحميد السحار — عن علاقة إبراهيم بالجزيرة العربية ومكة وبناء الكعبة ، ثم هناك سكوت متعمد عن كل النهضات الدينية فى جزيرة العرب ، لم تذكر شيئاً عن هود أو صالح لأنهما من أنبياء العرب ، كأنما لم يكن عاد وثمود هناك على مقربة من فلسطين . ولقد حدد بطليموس موقع عاد وثمود وكشفت الحفريات عن مدائن صالح وأثبت ذهاب إبراهيم إلى مكة وإقامة قواعد البيت يقول الأستاذ السحار : لعل ذلك يرجع إلى أن اليهود كانوا يحسون منافسة دينية مع العرب ، وكانوا يمنون عليهم أنه صار لهم (بيت محرم) منذ إبراهيم بينما لم يصبح لهم هيكل فى بيت المقدس إلا فى أيام سليمان بن داود . كذلك فقد تعمد كهان اليهود أن يخرجوا أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه فراحوا يخترعون أكذوبة أن بنى إسرائيل هم شعب الله المختار ، ويؤكدون على ذلك فى كتابهم المقدس . ولو أن إبراهيم لم يقم ببناء بيت الله بمكة لما كانت له رسالة ، فما ورد عنه فى العهد القديم لا يجعله من أصحاب الرسالات ولا من أولى العزم من الرسل ، إنه رجل يتجول فى مصر وسورية ليست له دعوة محددة كل همه أن يحافظ على حياته وإن ضحى بشرفه . وفى العهد القديم ينسب إلى إبراهيم الهوان ويسكت عن بناء بيت الله المحرم ، لأن ذلك البناء سيرفع من شأن أبناء عمومتهم أبناء اسماعيل . لم يكتفوا بأن يحرموا أبناء إسماعيل حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه بل عمدوا لأن يسلبوا إسماعيل كل فضل فزعموا أن الذبيح هو إسحاق ، مع أن التقاليد كانت تقضى بتقديم الإبن الأكبر قرباناً لله .

الفصل الثامن

(٣)

إسماعيل والتوراة

سكت اليهود وهم يعيدوا كتابة التوراة فى المنفى متعمدين عن تاريخ إسماعيل وذريته ، وفى العصر الحديث أخذ مؤرخوا الصهيونية فى إثارة الشبهات حول وجود إسماعيل ، وجرى طه حسين فى مجراهم فزعم أن وجود إبراهيم وإسماعيل أسطورة من الأساطير . يقول الأستاذ عبدالحميد السحار : إن سرجن تون فى العصر الفيكتورى هو الذى اكتشف العاصمة الأشورية الجديدة التى بناها سرجون الثانى فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد فأصبحت أشور لجأة ملء الأسماع وزخرف المجلات المصورة فى كل من انجلترا وفرنسا بصور تمثل مناظر الحرب والفتح لشعب لم يكن يعرف عنه حتى ذاك الوقت إلا بعض لمحات فى التوراة وبيانات غير واضحة . وقام هنرى لا يرد بالتنقيب عن نمرود وتكشفت حضارة بابل وأشور ، ولما كان بنوإسماعيل الذين انتشروا بين حدود بابل وحدود مصر على صلة وثيقة ببابل وأشور وقد لعبوا دوراً هاماً فى تاريخ المنطقة إذ ذاك فقد سجل الأشوريين ما كان بينهم وبين هؤلاء العرب من بنى إسماعيل من مناوشات وحروب . أعلنت ألواح الطين التى كتبت بالخط المسمارى والتى وجدت فى أطلال بابل وأشور ونينوى وبلاد ما بين النهرين ، إن بنى إسماعيل كانوا حقيقة واقعة وأن أبناءه الإثنى عشر صاروا قبائل قوية تناوىء بابل وأشور ومصر والإغريق والرومان . وأثبتت الحفريات والنقوش أن إسماعيل عليه السلام كان يمشى فى الأسواق وكان صادق الوعد نبياً وهكذا كانت الكشوف الأثرية قد حررت التاريخ البشرى من الزيف الذى حاول دسه اليهود ، ومن المزاعم التى حلوها دوائر المعارف المختلفة وحاولوا غرسها فى عقول الشرق والغرب لتكون أداة إلى فرض مؤامرتهم .

(٣) كذلك صححت الكشوف الأثرية ما رددته كتب التاريخ من أخطاء حول النبط وكشفت عن أن دولة النبط كانت قبيلة نابت بن إسماعيل ، وقد امتد سلطانها حتى احتلت دلتا النيل وطور سيناء ودمشق ووصلت إلى حدود بلاد النهرين ، وقد عرفها المؤرخ اليهودى يوسيفوس فى القرن الأول الميلادى ، فقد عثر على نصوص نبطية فى البتراء وكانت تعرف من قبل بسلع — عاصمة ملكهم بوادى موسى والحجر والعلا وتيماء وخيبر وصيدا ودمشق وطور سيناء والجرف واليمن ومصر وإيطاليا . وكانت كتب التاريخ تذكر أن النبط جيل من العجم ينزلون البطائح بين العراقيين . أما النبط الذين ورد ذكرهم فى كتابات يوسيفوس فهم أبناء نابت بن إسماعيل ، وقد أطلق إسم النبط على منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات حتى تتصل بحدود الشام إلى البحر الأحمر ، وهما من مناطق أولاد إسماعيل . وقد عرفت مصر التوحيد قبل أخناتون : عرفته يوم جاء إبراهيم الخليل إلى مصر ويوم جاء يوسف وجاء

أبوه يعقوب وإخوته واستقروا فى الدلتا وكانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، وذلك قبل أن يدعو أخناتون إلى عبادة الشمس، ولم يكن أخناتون أول من عرف التوحيد كما قيل، بل كانت دعوته نكسة بعد دعوة إبراهيم وإسماعيل ويعقوب بل ردة عن التوحيد وتكشف الوثائق والاحافير أن إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى لم يكونوا هوداً بل كانوا مسلمين موحدين (أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل: أأنتم أعلم أم الله) والواقع التاريخى ينفى كونهم يهوداً فقد كانوا مسلمين على ملة إبراهيم، والأسباط هم إثنى عشر رجلا من أبناء إسرائيل ينتسبون إلى يعقوب (إسرائيل) حتى صار ملك إسرائيل لداود وسليمان وكانا من نسل يهوذا فأرادت قبيلتهما أن تستأثر بالفضل وحدها فانقسمت إسرائيل بعد موت إسرائيل ٩٣٠ ق م إلى دولتى يهوذا وإسرائيل ومنذ ذلك الوقت بدأت اليهودية. وكان إبراهيم وإسحاق ويعقوب قبل يهوذا وكان يوسف سبطا من الأسباط مثل يهوذا وكان موسى من نسل (لاوى) ولم يكن من نسل يهوذا. وقد عرف بنو إسماعيل وبنو إسرائيل ذلك الكنز الروحى الذى جاء به إبراهيم وكانوا يدعون الله رب العالمين حتى عرفت قبيلة (يهوذا) هذا التعصب المقيت بعد ملك سليمان فادعوا أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم وأن لن يبعث رسولا إلا منهم وان يبعث فى الأميين رسولا. وقد فرق القرآن بين بنى إسرائيل وبين اليهود فلم يأت ذكر اليهود فى القرآن قبل ملك سليمان وقد ذكر الله بنى إسرائيل بنعمته التى أنعم بها وبالهدى وبالكتاب ولم يذكر اليهود بخير. ذلك بأنهم ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم شعبه المختار وقصروا الخير على أنفسهم دون الأميين. (وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى). وما طرأ على التوراة من تغيير بعد أيام المنفى وكيف بدلت صفات الله إلى صفات (يهوه) إله اليهود القاسى المستبد (سبحان الله عما يصفون) وكيف كان اليهود من أوائل الشعوب التى نادت بالتفرقة العنصرية بعد أن كان إبراهيم يدعو إلى العالمية وإلى الأخوة البشرية. وجاءت كلمة (أمى) فى القرآن نسبة إلى الأمة والأمم رداً على مزاعم اليهود فقد قالوا إن الله اصطفاهم على العالمين ولن يبعث فى الأميين رسولا فجاء القرآن يدحض هذا الزعم: (هو الذى بعث فى الأميين رسولا). (ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا فى الأميين سبيل). (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى). وهم الذين كتبوا التوراة بأيديهم فى أرض النفى فحملوا أنبياء الله كل نقائص البشر وجعلوا نوحاً شارب خمر وإبراهيم كذابا وابنتا لوطاً سكرتا أبيهما. ورموا داود بالزنا، وملئوا كتاب الله بأساطير الشعوب، وكان الطبرى من أكثر المؤرخين الذين نهلوا من التوراة التى كتبها أحبار اليهود فى بابل دون تمحيص. وقال الإمام على: من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة.

وكان بنو إسرائيل عرباً كما كانوا بنو إسماعيل ولكن اليهود بعد أن انقسمت مملكة بنى إسرائيل إلى مملكتى إسرائيل ويهوذا عقب ملك سليمان حاولوا أن ينفصلوا عن أصلهم العربى بتأسيس (جنس) لا سند له من التاريخ فأطلقوا على أنفسهم: إسم إسرائيل نسبة إلى يعقوب بن إسحاق. وعاش بنو إسرائيل بين (الكنعانيين) وأخذوا العبرية عنهم وكانت بينهم وبين الكنعانيين أصحاب فلسطين الأصليين حروب. وتعمد اليهود إقصاء الكنعانيين فى توراتهم التى كتبوها فى المنفى بعد عصر موسى بمئات السنين من جدول أنساب (سام) لأسباب دينية وسياسية مع أنهم يعلمون حق العلم ما بينهم وبين

الكنعانيين من الصلات العنصرية واللغوية واشتد التعصب بين قبائل بنى إسرائيل بعد أن صار ملك إسرائيل إلى داود وسليمان وكانا من نسل يهوذا ، وقد ظهر ذلك التعصب بوضوح فى إصحاحات الأنبياء التى دونت فى المنفى فلم يرد اسم موسى فى أشعيا) لأن موسى من اللاويين ولم يكن نسل يهوذا . يقول ول ديورانت فى كتابه (قصة الحضارة) وأكبر الظن أن المزامير ليست كلها من وضع داود وحده بل من وضع طائفة من الشعراء كتبوها بعد الأسر اليهودى بزمن طويل ، ويقول : إذا ما وضعنا إلى جانب هذه المزامير (نشيد سليمان) لاح لنا فى الحياة اليهودية من عنصر شهوانى دنيوى ، ولعل كتاب العهد القديم قد أخفوه عنا ولسنا ندرى كيف غفل أو تغافل رجال الدين عما فى هذه الأغانى من عواطف شهوانية فأجازوا وصفها بين قول أشعياء والحكماء . كذلك ظلم اليهود سليمان وزعموا انه مات كافراً بالله ، وجاء القرآن لينصف داود وسليمان ويفصل عنهما وعن أنبياء الله أدران من كتبوا الكتاب بأيديهم : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) . ولقد عمى على اليهود الأمر فقست قلوبهم ونسوا دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى يوم راحوا يكتبون التوراة بأيديهم فى المنفى ونسوا الحياة الأخرى التى كانت دعوة جميع الأنبياء وحسبوا أن الإنسان يثاب على أعماله فى الدنيا وإذا مات ذهب إلى الهاوية (كما كان يعتقد أهل بابل قبل بعثة إبراهيم الرسول وبعده) ومن هنا كانت حيرتهم ومشكلاتهم مع القدر ، إن مشكلة الإنسان وقدره وتصرف الإله معه على هذه الأرض لا حل إلا إذا آمن الإنسان بأن حياته على الأرض تتبعها حياة أخرى ترفع عنها كل المظالم وتصحح كل الأخطاء ، واليهود كانوا يؤمنون بالدهرية وبأن حياتهم الدنيا هى كل حياتهم ، ومن هنا جاءت الحيرة والقلق والشك والعذاب : (أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) .

هذه هى الحقائق التى توصل إليها البحث العلمى بعد الحفريات والآثار التى كشفت فى السنوات المائة الأخيرة وكلها تدحض نظريات اليهود التلمودية ودعاواهم وتؤيد القرآن الكريم ، ولقد استطاع الأستاذ عبد الحميد جودة السحار رحمه الله أن يصل إلى ما قدمناه من نصوص وأوردها فى كتابه (محمد رسول الله والذين معه) وهى إضافات هامة للباحثين فى عصر ما قبل الإسلام وهى تكشف عن الزيوف والسموم والشبهات العديدة التى قدمها الاستشراق والتغريب والتى هى سائدة الآن فى أفق البحث العلمى فى تاريخ الإسلام فى الجامعات والمعاهد .

يقول الأستاذ السحار : اندثرت الحضارة التى قامت فى جزيرة العرب بعد الخليل إبراهيم إلى أن بعث محمد رسول الله . وقد بدأت بطن الأرض تلد أسرارها فى هذه المنطقة وستكشف الأيام القادمة عن حقائق مذهلة وتوضح أثر تلك النهضة الروحية التى بثها الخليل وذريته والتى ظلت مؤمنة بالله وحده حول الكعبة ولم تعرف الشرك بالله إلا قبل بعث محمد بثلاثمائة سنة . لقد أشرك بنو إسرائيل بالله وموسى بينهم ، وعبدوا آلهة الشعوب فى كل العصور ، أما بنو إسماعيل فقد ظلوا حول الكعبة ، فقد عبدوا الله وحده وازدهر فيهم دين إبراهيم ولم تقع نكسة الشرك فيهم إلا بعد أكثر من ألف سنة من بعثة الخليل ، وظلت ملة إبراهيم فى الحنفاء منهم إلى أن بعث محمد ﷺ ليعيد شريعة إبراهيم (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)

ومكذا نجد أن البحث العلمى الأصيـل قد أنكر التوراة الحالية وأن الكشوف الأثرية قد كشفت زيف الدعوى الصهيونية وأن كلاهما قد اثبتا سلامة الحقيقة الإبراهيمية الحنيفية وفساد المنصرية التلمودية .

الفصل التاسع

العروبة وليست السامية

لا ريب أن فكرة « السامية » التى طرحها البحث الغربى الحديث فى إطار دراسات العرب قبل الإسلام من الدعوات الخطيرة التى أريد بها انتقاص الدور الابراهيمى الذى قامت به الحنيفية ممثلة فى إبراهيم وإسماعيل فى الجزيرة العربية وامتدادها فى حواش الشام والعراق وإعلاء هذا الدور بنسبته إلى مجهول هو (سام) الذى لم تذكره غير التوراة المكتوبة بأقلام الأحبار ولا ريب أن الصهيونية التلمودية ، حين أرادت أن تخطط لدعوتها فى أوائل العصر الحديث وفى ظل إعداد بروتوكولات صهيون أرادت أن توجد أصلا تجعل نفسها منه فرعا مساويا للعرب وموازيا لهم بقصد ادعاء نوع من القرابة ولكى تصرف هذا المجد كله عن الابراهيمية والإسماعيلية والعرب وتنسبه إلى سام بن نوح ، هذا هو المخطط الماكر الذى لا بد أن يكون قد عرفه العالم النمساوى (أوغست لودوبلك شلوتسر) عام ١٨٧١ حين تحدث عن جنس مشترك لهذه الشعوب التى عاشت فى المنطقة العربية وأطلق عليه الجنس السامى وأخذ هذه التسمية من التوراة (التكوين : الإصحاح العاشر ١٢/١) أخذها من اسم سام بن نوح . والواقع أن كل موجات الهجرة التى تدافعت من جزيرة العرب إلى أطراف المنطقة الممتدة من العراق إلى أقصى المغرب كالبابليين والكنعانيين والعبرانيين والفينيقيين والآراميين هى موجات عربية وأنها تدفقت بعد بناء الكعبة وقيام الأمة الإسماعيلية التى تشكلت من اسماعيل بن ابراهيم وقوم جرهم فى ظل البيت الحرام فى مكة فربطت بين الجنوب والشمال وبين القطاعين : قطاع قحطان وعدنان فيما بعد .

ولا ريب كانت مختلف الحضارات التى ظهرت فى هذه المنطقة هى حضارات عربية : يقول عبد الحميد جودة السحار : كانت حضارة بابل عربية وحضارة الصوريين عربية وحضارة الكنعانيين عربية وحضارة سيناء عربية وحضارة ثمود عربية وقد اكتشفت هذه الحضارات وعرف أنها حضارات عربية خالصة ولكن بعض العلماء رأوا أن ينسبوها إلى جد أعلى حتى لا يلقوا أضواء على مجد أقوام نافسوا بنى إسرائيل منذ أيام خليل الرحمن إبراهيم فأطلق العالم الألمانى سلر تيسر إسم السامية نسبة إلى سام بن نوح وصادف ذلك هوى فى نفوس الآخر فأخذوا يتحدثون عن الأقوام السامية والحضارات السامية وتبعهم الكتاب العرب » .

ومن هنا نرى أن هناك مؤامرة صهيونية عن طريق الاستشراق تستهدف حجب هذا التاريخ الضخم ،

وأن هذه المؤامرة تجرى فى نطاق التوراة المكتوبة التى سكتت عن ذكر ذهاب إبراهيم إلى الحجاز، وعن علاقة إبراهيم بالجزيرة العربية وبنائه للكعبة، وذلك جرياً مع الهدف التلمودى الذى يرمى إلى إخراج أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه. يقول السحار: حرم اليهود أبناء إسماعيل حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه بل وأرادوا أن يسلبوا إسماعيل كل فضل فزعموا أن الذبيح هو إسحاق». ثم من انسياح القبائل تحت راية الإسلام إلى بلاد الشام والعراق ووادى النيل شماله وجنوبه والأقطار المغربية فى شمال أفريقيا ثم انسياح القبائل الذى استمر بعد الموجة الإسلامية الأولى من الجزيرة إلى جميع الأنحاء وإلى سواحل أثيوبيا والصومال دون انقطاع. فكل ما تقدم يبرز بوضوح أن كل العناصر إنما كانت من سكان جزيرة العرب الأصليين القدماء ومنهم هاجر منهم إلى الأقطار المجاورة، فالعرب قبل دور العروبة الصحيح وبعده جنساً واحداً لا سيما وأن التشارك فى اللغة والأفكار والعقائد والتقاليد ظل قائماً بين الباقين فى الجزيرة والنازحين منها فى مختلف الأدوار». كذلك أشار الأستاذ دروزه إلى أن القول بأن لغة أهل جنوب الجزيرة غير لغة شمال الجزيرة ليس صحيحاً بمعناه الإجمالى وكل ما فى الأمر تنوع فى اللهجات واختلاف فى المسميات.

(وهذه الشبهة مما أثاره طه حسين فى كتابه الشعر الجاهلى والأدب الجاهلى وإسرائيل ولفنسون تلميذه فى كتابه «اللغات السامية»). يقول: أما الاشتراك الفعلى فقد كان قائماً على ما تدل عليه نقوش الجنوب والشمال، وقال إن غالبية سكان الهلال الخصيب ووادى النيل كانت وظلت تمت إليها وتطعم بالهجرات المتوالية من الجزيرة العربية والتى لم يكن سعيها ينقطع إلى دور العروبة الصريح ثم دور الإسلام والتى تتمثل فى وحدة العروبة الشاملة وطابعها الذى يطبع هذه البلاد وسيظل يطبعها إلى الأبد ما دام وراءها الجزيرة وتظلها راية القرآن. ويقول: لقد حكم اليونان والرومان مصر وبلاد الشام ألف سنة (٣٣٠ ق م — ٦٤٠ م) وجاء منهم إليها وبخاصة اليونانيين الألوف المؤلفة واستقروا فيها ونشروا لغتهم وثقافتهم، وقد جمع بينهم دين واحد هو المسيحية قرابة أربع قرون، وترجمت اليونان الكتب المقدسة وصارت لغة عبادة وطقوس لفرق كثيرة من النصارى، ومع ذلك فإنهم لم يستطيعوا أن يفرضوا طابعهم وصبغتهم بل كان جمهرة أهلها يرونهم غرباء وينقبضون عن معاشرتهم بل يعتبرونهم أنجاساً. وكذلك شأن الفرس الذين كانت لهم السيادة على العراق أكثر من ألف ومائتى عام (٥٣٨ ق م ٦٤٠ م) وكان لدينهم وثقافتهم انتشار واسع حتى لقد مجسوا كثيراً من أهل البلاد ومع ذلك لم يستطيعوا أن يفرضوا طابعهم وصبغتهم فى حين أن الموجات العربية الصريحة التى جاءت إلى الهلال الخصيب فى حكمهم ورضخ ملوكها لسيادتهم العليا أخذت تفرض طابعها على البلاد وتمتزج بأهلها القدماء بسهولة ويسر، ثم جاءت موجة الفتح الكبرى تحت راية الإسلام إلى بلاد الشام والعراق ووادى النيل فأخذ التمازج يشتد بينها وبين السكان السابقين، ولم تكد تمض بضعة أجيال أو قرون حتى توطدت السيادة فى هذه البلاد للطابع العربى الصريح وغدا شاملا عاماً، وليس هناك من تعليل لهذه الظاهرة التى تكررت فى عهد الإسلام بما كان من سيادة الترك على هذه البلاد قرابة أحد عشر قرناً (٢٠٠-١٢٣٢) وبما كان من زحوف تركية كبيرة إليها واستقرارها فيها.

ولا ريب أن هذا كله يؤكد ذلك الترابط الذى أقامته الحنيفة السمحاء التى مدت أجنحتها هذه القرون المتوالية على هـذه المنطقة الواسعة من العراق إلى مصر إلى أفريقيا ؛ وهذا مصداق وعد الله تبارك وتعالى لإبراهيم عليه السلام والذين ساروا على طريقه حتى جاء الإسلام ليجد هذه الموجات كلها وقد شكلت ذلك المهاد الواسع الذى استقبل دعوة الحق وحقق قيام هذه الأمة الوسطى : الذى كانت خير أمة أخرجت للناس . ومعنى هذا أن (الحنيفية العربية) وليست (السامية) هو الإسم العلمى الصحيح ويصدق هذا إذا علمنا (إن جزيرة العرب أخذت تسمى باسم العروبة الصريحة فى كتب اليونان والرومان وأسفار العهد القديم منذ ألفين وخمسمائة سنة واسم العرب الصريح أخذ يطلق على أهلها المستعربين فى داخلها وتخومها الشمالية جزئياً ثم كلياً منذ ألفين وخمسمائة سنة كذلك بل قبل ذلك مما تدل عليه النقوش والمدونات القديمة واللغة العربية التى تكلم بها سكان الجزيرة والنازحون منها منذ ألفين وخمسمائة سنة كذلك هى اللغة العربية الصريحة بقطع النظر عن تعدد لهجاتها وبعدها قليلا أو كثيراً عن اللغة الفصحى على ما تدل عليه آثار وأسماء وأعلام ، ونفوس السبئيين والحجريين والنبطيين والتدمريين واللحيامين والثموديين والصفويين العائدة إلى الحقبة الممتدة من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الخامس بعـــده ، وقد ساعدت عوامل متنوعة على سرعة تطورها بعد ذلك حتى بلغت ذروتها باللغة الفصحى قبل البعثة المحمدية بأمدها . كذلك فإن (الحنيفية العربية) هذه ظلت متصلة لم تقطع بين قدماء الجزيرة وقدماء النازحين فيها وبين الواقع الراهن الممتد إلى ألفين وخمسمائة عام ويصل بين قديم العروبة وحديثها ، وقد قال بهذا جمهرة من علماء العرب وباحثيهم (أنظر جواد على ج ٢ ص ٢٨٧) .

وهكذا تلتقى الدراسات الحديثة فى أوردة محمد عزه فى ذروة كتابه الجنس العربى ، وماأورده عبد الحميد جوده السحار فى كتابه (محمد رسول الله والذين معه) وما أشارت إليه الدكتورة بنت الشاطىء فى كتابها (الإسرائيليات والغزو الفكرى) . وذلك فى مواجهة تلك الشبهة التى طرحها الاستشراق والتغريب لإفساد تاريخ الحنيفية الإبراهيمية العربية الممتدة من إبراهيم عليه السلام إلى محمد ﷺ ونسبة فعلها وآثارها إلى جذر قديم لم يرد فى العراق وهو (سام) الذى التقطه التغريبيون التلموديون من التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار ولا ريب أن محاولة السامية ترمى فضلا عن ذلك إلى تعزيز الإقليمية المصرية والسورية واللبنانية والعراقية ، وأن تلقى فى أذهان سكان وادى النيل والهلال الخصيب ، وشمال أفريقيا وهن الصلة بين أصولهم القديمة وبين العروبة وتجعلهم يعتبرون العرب الذين جاءوا هذه المرة تحت راية الإسلام (غزاة) كسائر الغزاة الذين طرأوا عليهم ووطدوا حكمهم فى بلادهم بالقوة وحسب وكون ما هنالك من فرق هوانهم أعطوهم دينهم ولغتهم حتى بالرغم من السيل الذى أخذ يتدفق من جزيرة العرب على هذه الأقطار فى دور العربية الصريحة وقبل الإسلام وبعده بدون انقطاع ويغمر مدنها وقراها وصحاريها وبواديها استمراراً لما كان يجرى قبل دور العروبة الصريحة والذى قد تفوق أعداده أعداد سكانها أضعافاً ، والذى يتمثل فى كل ناحية من أنحائها وفى كل مظهر من مظاهر حياتها وتقاليدها ولغتها تمثلا شاملا .

(٢)

اللغـــــــة

ولا ريب أن الأبحاث التى أجراها علماء اللغات والآثار قد كشفت عن حقيقة أساسية لا سبيل إلى إنكارها ، وهى أن هذه المنطقة من جزيرة العرب ووادى النيل والهلال الخصيب وأثيوبيا متشابهة ومتشاركة فى الفكر واللغة والعقائد والتقاليد منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد تقريباً . وأن ذلك يرجع أساساً إلى أصل واحد مشترك غير أنهم أخطأوا حين نسبوا هذا الأصل إلى سام بن نوح وهو أصل بعيد جداً ، والحقيقة أن النسبة الحقيقية إنما تتركز فى إبراهيم عليه السلام . يقول الأستاذ محمد عزه دروزه: لقد أصبح أمر انسياح الموجات من جزيرة العرب إلى الأقطار المجاورة لها منذ أقدم الأزمنة وكون الكلد والآشور والأكدين فى العراق والكنعا والعمور والآراميين والعبرانيين فى جزيرة الفرات وبلاد الشام ومعظم سكان وادى النيل شماله وجنوبه ، ومعظم سكان أثيوبيا والصومال من هؤلاء المنساحين فى القرون التاريخية من الحقائق التى لم تحتمل جدلا ولا سيما أن جزيرة العرب ظلت ترسل بموجاتها إلى هـذه الأقطار دون انقطاع قبل دور العروبة الصريح ، أى قبل أن تغزو اللغة العربية الصريحة لغة العرب واسم العرب إسماً لهم ، ثم فى دور العروبة الصريحة قبل الاسلام ، ثم منذ الاسلام إلى اليوم بما سجلت أحداثه القديمة نفوس المصريين والآشوريين والكلدانيين وأسفار العهد القديم وكتب اليونان والرومان القديمة وما قرره علماء الآثار والتاريخ ويقول عبد الحميد جوده السحار أن الأحافير والآثار التى قام بها علماء أجانب قد كشفت عن تقارب اللغات العربية القديمة عدا الأكادية فى الآجرومية والمنطق بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها . ولا يلحظ الانتقال من لهجة إلى لهجة إلا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية (أورد هذا البراهين فى كتابه عن أحافير فلسطين) وقد أكد غير واحد من الباحثين أن إبراهيم كان يتكلم العربية وإن لم تكن العربية التى نزل بها القرآن أو التى نتكلمها اليوم ، وكانت اللغة فى اليمن والعراق والشام والحجاز لغة واحدة وإن اختلفت لهجاتها كما تختلف لهجات الأمم العربية هذه الأيام ، ويستشهد على ذلك الأستاذ السحار بالآية الكريمة : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس) .

الفصل العاشر

مؤامرة السامية

إن المؤامرة التى دبرتها الصهيونية التلمودية هى طرح « نظرية السامية » للقضاء على الصلة التى قامت بين الحنيفية الإبراهيمية والرسالة المحمدية فأصبحت تشكل تاريخ ثلاثة آلاف عام على طريق التوحيد الخالص بدأ به ثم انحرف ثم عاد إليه مرة أخرى . كان الهدف متعدد ، يرمى أولا إلى الغض من العروبة الحنيفة التى تشكلت فى هذه المنطقة الواسعة بالهجرة والموجات البشرية المتوالية الخارجة من قلب الجزيرة إلى أطرافها ، ومحاولة القول بأن العرب واليهود من جنس واحد ، ومحاولة القول بأن اليهود فى الجزيرة العربية هم عرب يهود وليسوا من الذين هربوا من مقتلة تيطس عام ٨٠ ميلادية وما بعدها ، ومحاولة القول بأن العرب وبنى إسرائيل أولاد عم تربطهم أواصر الرحم والقربى المشدودة إلى عرقهم السامى الذى توغل جذوره فى أعماق بلاد العرب . ولذلك فقد كان من مخطط الصهيونية التلمودية التى بدأت من خلال الفكر والثقافة فى أوائل هذا القرن ، خلق هذه الدعوى العريقة ودعمها وفرضها على مناهج الدراسة فى الجامعات حيث نشأت دراسات باسم اللغات السامية والأديان السامية وما إلى ذلك من دعوات قام بها يهود فى الجامعات ثم ورثها من هم أتباع الاستشراق اليهودى والتلمودية : إسرائيل ولفنسون ، يوسف شاخت تحت مظلة الدكتور طه حسين .

تقول الدكتورة بنت الشاطىء : ليست غريبأوقد سيطرت فكرة السامية على المؤرخين الأوربيين أن تابع العلماء هذه المقولة الإسرائيلية لما بدا لهم من ظواهر التشابه المدعى بين العرب وبنى إسرائيل وجهها الاستشراق إلى تأصيل القرابة المدعاة مع التركيز بوجه خاص فى أول أمر على الحجاز مهد الإسلام وقريش صفوة العرب العدنانية وفيها نسب نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام وعلى اليمن منزل العرب القحطانية الصحيحة العاربة . (وكذلك أخذت اللغة العبرية مكانها فى اللغات السامية ، أختاً للعربية بما كشف علم اللغات فيما علمنا المستشرقون — من أن أمماً ذات لغة واحدة كانت تسكن البقاع الواقعة بين القفقاس وجنوب بلاد العرب ، ودل درس اللغات السامية أن لغات تلك الأمم وهى العبرية والفينيقية والسريانية والآشورية والكلدانية والعربية ، وثيقة القرابة متحدة الأصل . وفى مسمعى الآن صدى باق من صوت معلمنا اليهودى الدكتور يوسف شاخت وهو يكشف لنا فى كلية الآداب بجامعة القاهرة عن أسرار فقه لغتنا العربية ويبهرنا بما فى جعبته من حيل لغوية أقنعتنا بأن العربية ليست إلا مقلوب عبرية وأن العرب إنما أخذوا إسمهم من عربه التى هى فى العبرية بمعنى الصحراء ووضعت بين أيدينا محاضراته لسلفه اليهودى (إسرائيل ولفنسون) أبى ذئيب فيما كنا نسميه — ألقاها على الطلاب الذين سبقونا مجموعة فى كتاب (تاريخ اللغات السامية) ليقرأها أفواج من الطلاب الذين لم

يسعدهم الحظ بلقاء المعلم إسرائيل أبى ذؤيب والتلمذة عليه ، تقرأ هذه المحاضرات فترى اليهودية اختلطت فيها بالعربية . ولطول ما ألح فى تقرير وحدة أصلها السامى ، فما نكاد نميز فيها الحد الفاصل فى تصور هذا المعلم الفقيه بين السامية واليهودية ولا بين اليهودية والعبرية . (راجع كتاب الدكتورة بنت الشاطىء : الإسرائيليات فى الغزو الفكرى) . وهكذا واليهود فى إسرائيل يمدون الجامعة العبرية ويعيدون إحياء اللغة العبرية بعد اختفائها ألفى سنة كاملة ، تجدهم يقيمون هذه الدائرة الخطيرة من التآمر على العرب والعربية والإسلام فى محاولة للقول كذباً وتضليلا بأن العبرية أخت العربية أو أن اليهود أبناء عم العرب ، وتلك قضية لها أبعادها الدقيقة فى داخل دائرة الحنيفية الإبراهيمية على مدى هذه القرون المتطاولة ، ولا يمكن أن تقدم بهذه الصورة التى يتضح فيها عنصر الخداع والتآمر . وقد دخل إلى هذا الميدان كثيرون من جنود الصهيونية التلمودية . كتب روزى : كتابه (صلات بين العرب وبنى إسرائيل) تحدث فيه عن ملامح متشابهة بين قريش واليهود ، وكتب مارجليوث كتابه عن بنى إسرائيل ومكة . ذهب فيه إلى أن الموطن الأصلى لبنى إسرائيل كان بلاد اليمن ، ومنها خرجت هجرات إلى شمال بلاد العرب ، ودليله بعض ألفاظ التقطها من لغة سبأ البائدة تشبه ألفاظاً عبرية وبعض عادات دينية . والوجهة المبتغاة هى « تأصيل القرابة المدعاة بين العرب واليهود مع التركيز على الحجاز مهد الإسلام وقريش صفوة العرب العدنانية وعلى اليمن منزل العرب القحطانية » . والتاريخ الصحيح والوقائع الجلى تثبت أن اليهود ما كان لهم وجود فى جزيرة العرب ، وإنما جاءوها من الشمال هاربين من تيطس الذى قتل منهم أرحالا كبيرة فى القدس . كذلك فقد جرت إدعاءات كثيرة مضللة كالقول بأنهم واضعوا شريعة حورابى وأن لهم أثرهم فى حضارة بابل مع أن الحقيقة الأكيدة هو أنهم انتهبوا من مختلف الأمم والحضارات مظاهر ادعوها لأنفسهم وأنه لم تكن لهم حضارة حقيقية لأنه لم يكن لهم وجود ثابت يمكن من قيام الحضارة .

ولقد أسرعت الصهيونية التلمودية وألقت بهذا الركام كله الذى صنعته فى إطار الدعوة إلى الدولة اليهودية وبروتوكولات صهيون ١٨٩٧ فألصق بأول الفرق التى عبرت إلى أوربا فى عصر النهضة (طه حسين ومحمود عزمى ومنصور فهمى وهيكل وسلامه موسى وأمين الخولى) فسرعان ما أعلن الدكتور طه حسين فى أولى محاضراته فى الجامعة إسقاط إبراهيم وإسماعيل وإنكار وجودهما وإنكار رحلة إبراهيم إلى الجزيرة العربية وبناء الكعبة وكان هذا أول السهام المسمومة التى وجهتها الصهيونية التلمودية إلى التاريخ الإسلامى . ثم أسقط بعد ذلك عبد الله بن سبأ اليهودى وأنكر وجوده . ثم قدم إسرائيل ولفنسون الذى ادعى دعواه المريضة المضللة بالروابط بين العرب واليهود وبين العربية والعبرية فى محاولة زائفة لتمهيد الطريق للصهيونية العالمية فى قلب عالم الاسلام . والمعروف أنه قبل إبراز فكرة الصهيونية جرت عملية احتواء ضخمة لدوائر المعارف العالمية بطرح مسلسلات خطيرة عن وعد إبراهيم وحق شعب الله المختار فيه وإنكار إبراهيم وإسماعيل ، وقد طرحت هذه المفاهيم فى دائرة المعارف الإسلامية التى كتبها المستشرقون اليهود والصهيونيون ، والتى ضمت عشرات من الشبهات حول تاريخ الاسلام وأصوله وفى مقدمتها مؤامرة السامية وآثارها فى علم الأجناس وعلم اللغات وبدأت المصطلحات

التغريبية تفرض على التاريخ الإسلامى، فبرزت عبارة تاريخ العرب وحضارة العرب وتحريك هذه المصطلحات فى دائرة ما أسموه (بالسامية) ومضت الصهيونية التلمودية فى التآمر ضد التاريخ الإسلامى فدعت إلى تجديد الحديث عن الثورات والمؤامرات التى وقعت ضد الاسلام ودولته وأطلق عليها اسم حركات العدل. ووقف طه حسين فى معهد التربية ١٩٤٧ ليتحدث عن الزنج والقرامطة على أنهم طلاب عدل وهم المتآمرون على الاسلام والمتصلون بالمجوسية والباطنية لهدم دولة الخلافة. وليس هناك من شك فى فساد هذه الدعوة إلى السامية وإلى تقسيم الجنس البشرى إلى ساميين وحاميين وآريين، واتخاذ مصدر ذلك التوراة التى كتبها الأحبار فى منفى بابل، ولقد وضعت هذه الدعوى منذ وقت بعيد تحت أضواء العلم الصحيح فتبين بطلانها لأن القرون البشرية أكثر من ثلاثة ولأن ثلاثة نفر من أبناء رجل واحد لا يمكن أن يخرج منهم أجناس ثلاثة متباينة بمثل هذه السرعة التى تخيلها أولئك المؤرخون. كذلك فإن الرأى الصحيح هو أن الشعوب التى سكنت بلاد العراق والشام ومصر وإفريقيا قد خرجت كلها من شبه جزيرة العرب فى أزمنة متعاقبة وفى موجات متلاحقة منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة وفى إطار الدعوة الابراهيمية الحنيفة، وأن آخر هذه الموجات هى الموجة الاسلامية المحمدية، وأن كل هذه الشعوب ذات الأسماء المختلفة هى عربية حنيفية، وأن كل هذه اللغات إنما ترجع إلى اللغة الأم: اللغة العربية التى نضجت قبل لغة النبى محمد والتى جاء القرآن فاستصفى أجود لهجاتها: لغة قريش فنزل بها. كذلك فقد ثبت كذب الدعوى المبطلة التى ساقها الاستشراق اليهودى الصهيونى التلمودى وحمل لواءها الدكتور طه حسين بإيقاع الخلاف بين عدنان وقحطان: لغة وجنساً. وقد ذهب الباحثون إلى فساد هذه المحاولة الداخلة فى مؤامرة السامية فهى جزء منها وفى إنكار إبراهيم وإسماعيل والرأى على أنه لا توجد فوارق واسعة بين الحميرية والعدنانية أو أنهما لغتان متميزتان وأن الخلاف بينهما لا يزيد على اختلاف اللهجات بل إن العلماء يصلون فى تقدير الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى إلى أن هناك عوامل عديدة قربت بين لغة السبئيين والحميريين من لغة العدنانيين، واستمر عمل هذه العوامل إلى ما قبل ظهور الاسلام ويقول متسائلا: إلا فكيف كان يفهم ولاة رسول الله ﷺ على اليمن لغة أهل اليمن وكيف فهم رسول الله ﷺ لغة وفد اليمن الذى قدم المدينة عام الوفود ليسلم بين يدى الرسول: والواقع أن القحطانية والعدنانية هما فى الأصل لغة واحدة والخلاف بينهما ليس إلا خلافاً فى اللهجات.

الفصل الحادى عشر

الغرب والمسيحية

نزلت رسالة الاسلام بعد المسيحية بستة قرون. ففى عام ٦٢٠ تقريباً من التاريخ المسيحى أنزل الله تبارك وتعالى رسالته ووحيه وقرآنه على سيدنا محمد ﷺ وكانت المسيحية إذ ذاك قد سيطرت على الدولة الرومانية فى الغرب بعد أن انتشرت فى مصر والشام وافريقيا. وكانت أجيال معاصرة لمولد الرسول وموعد رسالته تعرف أنه قد أظل الناس وقت رسالة خاتم النبيين، فقد كانت التوراة المنزلة

والإنجيل المنزل يبشران برسالة محمد ﷺ وكانت كتب القدماء تصف ذلك العصر حتى أن كثيراً ممن آمن برسول الله كان يعلم ذلك ، ومن هؤلاء بلال الحبشي الذى سعى إلى الجزيرة العربية بحثاً عن رسول الله الذى أوشك عصره . وكان اليهود يستفتحون باسم الرسول محمد على أعدائهم ، وقد ظل الكثيرون ممن آمنوا برسالة عيسى عليه السلام معتصمون بالجبال مؤمنون بالله رباً وبه نبياً جيلا بعد جيل ينتظرون النبي الخاتم حتى جاءت البشرى بنبوة محمد ﷺ فآمنوا به حسبما جاءت الآيات فى الإنجيل المنزل ، وقد كانت المفاهيم المسيحية الصحيحة التى حمل لواءها أريوس ومدرسته من بعده تؤمن بأن عيسى عليه السلام هو آخر أنبياء بنى إسرائيل وأنه جاء مكملا لهذه الرسالة التى جاء بها موسى عليه السلام ومبشراً برسول من بعده اسمه أحمد . ولقد فصل القرآن الكريم فى مختلف القضايا والخلافات والتفسيرات والتغييرات التى طرأت على طريق الله الحق وأعطى المسيحية حجمها الحقيقى ودورها الطبيعى فليست المسيحية ديناً عاماً وإنما هى فرع من الدين الذى أنزل على موسى ، أرسل الله بها عيسى مصدقاً لما بين يديه من التوراة وليحل لهم بعض الذى حرم عليهم ومصححاً للانحرافات التى طرأت على دين موسى عليه السلام . فدعوة المسيح تركز على المعنويات حيث تركز اليهودية على المادة وتعترف المسيحية بالآخرة حيث تنكر اليهودية البعث والجزاء وتدعو إلى الترفق بالإنسانية إزاء ظلم اليهود وطغيانهم وتدعو إلى التواضع والمحاسنة فى مواجهة استعلاء اليهودية وغطرستها وتدعو إلى (الله) رب العالمين لا رب الجنود فقط حيث يعبد اليهود إلههم (يهوه) ويرون أنه إلههم وحدهم . وكذلك فدعوة عيسى تدعو إلى العفو عند المقدرة واليهود لا يعرفون إلا المقايضة والربا ، وتدعو إلى احترام الحق العام بترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، واليهود لا يحترمون إلا حقوق طائفتهم فقط . هذه المعانى التى جاء القرآن بها نجد علماء الغرب لا يقبلون بها إلا بعد أربع عشر قرناً فيقول الدكتور جارفدر الأستاذ بكلية جيرتون بكامبرج : « أن يسوع ظهر لمعاونيه بصفة نبى تابع لكنيسة اليهود لا مضاد لها وأيده بعض القسوس وخالفه رئيس الشمامسة . وأن المسيحية ظهرت فى أحضان البيئات الإسرائيلية مخالفة لتعاليم اليهودية حيث تركز اليهودية على المادة بينما تركز المسيحية على المعنويات والإعراض عن الدنيا والاعتراف بالآخرة » . ويرى كثيرون أن السيد المسيح قد عبر عن حجم رسالته حين قال : لا تظنوا إنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل (متى : ٦ : ١٧) . ويقول الدكتور راشد شماس كارليل إن قراءته للكتاب المقدس أثبتت أن المسيح ليس إلهاً ولم يدع الألوهية . وأن مسيح الأناجيل ومسيح بولس شخصان لا يتفقان . ويرى الكثيرون من الباحثين الغربيين أن المسيحية لا تعتبر ديانة مستقلة عن اليهودية إلا من حيث أنها حررتها من الانحراف الذى طرأ على اليهودية وأن المسيح عيسى هو آخر أنبياء بنى إسرائيل .

(٢) وهكذا نجد أنه بظهور الإسلام تجدد الحديث عن دين عيسى عليه السلام ورسالته فى إطار الواقع الذى تحركت فيه المسيحية إلى الغرب وسيطرت على عالم الغرب وفق المفاهيم والتفسيرات التى حولتها من وضعها الصحيح إلى وضع آخر مغاير لذلك تماماً . ومن الحق أن يقال إن المسيحية لم تتمكن من أن تكون ديناً رسمياً للامبراطورية الرومانية إلا عام ٣٥٢ تقريباً وأن روما لم تلبث أن سقطت

فى براثن غزو القوى المغيرة عليها عام ٤٥٠ تقريباً . وعندما جاء الاسلام فى القرن السابع كانت الدولة البيزنطية هى التى تحمل لواء المسيحية ، ثم لم تلبث كنيسة روما أن سيطرت على أوربا سياسياً ودينياً .

وعند نزول الإسلام كانت هناك فرقتان مختلفتان فى المسيحية : فرقة رأيها قائم على التفريط فى حق المسيح عليه السلام فتذهب إلى إنكاره تماماً ويقول أنه شخص غير تاريخى وأن صورة المسيح التى تريد الكنيسة أن تنقشها فى عقول الناس وقلوبهم إنما هى صورة مزورة ورثها الناس عن الوثنيات القديمة وأن كل ما فى المسيحية له أصل فى ديانات الوثنيين التى جاءت قبل المسيحية بألوف السنين . والرأى الثانى قائم على الإفراط فى حق المسيح عليه السلام ورفعه إلى منزلة الألوهية ، فجاء الإسلام ليصحح الوضع ويضع الأمور فى نصابها فيعترف للسيد المسيح بالوجود التاريخى وينزهه وأمه عليهما السلام من الصفات المريبة ويحفظ له المكانة التى وضعه فيها الله عز وجل وينفى عنه تلك الشبهات والتفسيرات الباطلة . فالمسيح هو نبى الله ورسوله إلى بنى إسرائيل وكلمته ألقاها إلى مريم ومبشراً برسول يأتى من بعده اسمه أحمد ، ويعارض الإسلام تلك الدعوات الثلاث التى جاءت فى تفسيرات الكهان : الصلب والتثليث والخطيئة ، فالمسيح فى نظر الإسلام رسول الله إلى بنى إسرائيل خلقه أولا كما خلق آدم عليه السلام ثم اصطفاه بعيداً عن التجسد والحلول . (ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) — (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) — (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) .

ويرفض الإسلام نظرية الأبوة رفضاً تاماً ويقيم بدلا منها مفهوم (العبودية) فكل أنبياء الله عبيد لله ويقرر القرآن أن عيسى عليه السلام لم يصلب وإنما شبهه للذين حاولوا صلبه وأن الله رفعه إليه فالإسلام يقرر فى وضوح وتأكيد أن المسيح لم يقتل ولم يصلب . (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وأن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه) كذلك فإن الاسلام ينكر أن هناك خطيئة أصلية وقع فيها البشر كلهم نتيجة عصيان (آدم) عليه السلام أو أن السيد المسيح صلب فداء للبشر وتخليصاً لهم من الخطايا) . فمسألة آدم والخطيئة والفداء قال بها بولس نقلا من الأديان البشرية حيث يقول : إن الله لم يغفر لآدم خطيئته بل إن غضبه لم يقف عند حد آدم بل تناول كل ذريته من بعده فقضى عليهم أن يعيشوا فى الخطيئة أبداً وأن يلاحقهم الموت بالتالى . ويقرر الاسلام أنه لا خطيئة أساساً وأن آدم أخطأ واستغفر وغفر الله له) . (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) . كما يقرر أنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن خطيئة أى فرد من البشر لاتنسحب على الآخرين . وأن الله تبارك وتعالى قادر على أن يرفع عن البشر إصرهم والأغلال التى فى أعناقهم بغير حاجة إلى وساطة أحد ودون أن يصير رسوله وعبده عيسى عليه السلام إلى ما صورته التفسيرات المسيحية إبناً لله يتجسد وينزل إلى الأرض (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) . وهكذا نجد أن الاسلام قد صحح دعوة عيسى عليه السلام ووضعها فى مكانها بين دعوات الأنبياء ورسالات السماء المتوالية من نوح إلى محمد . ولقد حفظ الاسلام المسيحية ورسمها فى أنقى صورة وجعل الاعتراف بها جزءاً أصيلا من عقيدة المسلم ، كما اعترف بعيسى

عليه السلام ومعجزة ولادته وكرمه وكرم أمه العذراء مريم ، وكشف عن أن كلمة الله قد تمت حقاً وعدلا برسالة محمد ﷺ التي هي كلمة الاسلام الأولى التي ألقاها الحق تبارك وتعالى إلى كل نبي ورسول، وأعلن أن الدين عند الله الاسلام ، وأن من يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه . ونزل القرآن حافظاً وكاشفاً ومقرراً لكل ما جاءت به رسالات الله تبارك وتعالى ، ومهيمناً على جميع الكتب السابقة ، فقد وعد الله بحفظه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) بينما استحفظ القائمون بالأديان السابقة على كتبهم . وبهذا قرر الإسلام وحدة الأنبياء من لدن نوح إلى محمد ووحدة الرسالة (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) . وأن السيد المسيح رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه (مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) وأعلن أنه لا يتم إسلام المسلم إلا بالإيمان بكل أنبياء الله وكتبه وملائكته واليوم الآخر .

وفي محيط هذه القضية كلها قرر الاسلام : أولا : إن الملة هي ملة إبراهيم عليه السلام الذي أعطاه الله الوعد والإمامة وجعلها فيه وفي عقبه من الصالحين : (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي) . ثانياً : إن المسيح عبد الله ونبيه أرسله إلى بني إسرائيل مكملا للرسالة وليس إلهاً ولا إبن الإله (تعالى الله عن أن يكون له ولد) وأن المسيح لم يصلب ولكنه شبه لهم ، وإن خطيئة آدم ليست خطيئة البشرية ، ولكنها من عمل آدم الذي تاب منه إلى الله فتاب الله عليه . ولا ريب أن مفهوم الاسلام الأصيل الذي طرحه القرآن قد كانت له آثاره البعيدة المدى في عصر النبي وبعده . فإن وفد نصارى نجران حين حضروا إلى مسجد الرسول بالمدينة وأقاموا لديه أياماً يتحدثون إليه في هذه الأمور وغيرها ، فإن الله تبارك وتعالى قد أوحى إليه أن يدعوهم إلى المباهلة بشأن إصرارهم على مفاهيمهم في المسيح والمسيحية وعدم تقبل مفاهيم الاسلام : (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الظالمين). فلما دعاهم الرسول إلى المباهلة ترددوا وتراجعوا وانسحبوا . ومع ذلك فقد ظلت المسيحية مضطردة في مفاهيمها وتفسيراتها مخاصمة للإسلام من أجل هذا الخلاف ، ولقد تدفق الاسلام وتملك شاطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقي والجنوبي ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، في هذه المنطقة التي سيطرت عليها الامبراطورية الرومانية بهلينيتها ووثنيتها ثم بمسيحيتها أكثر من ألف عام . وانطوت منها الفئتين السريانية في سوريا والمسيحية في مصر وغلبت العربية وبدا كأن البحر الأبيض المتوسط مجال صراع واسع ، حاولت فيه المسيحية اقتحام أرض الاسلام مرات وخاصة في الحروب الصليبية ثم في الحملة الاستعمارية الحديثة التي سيطرت على أغلب أراضي الاسلام والتي حملت لواء التغريب والاستشراق والتبشير في محاولة لتزييف تاريخ الاسلام ومفاهيمه . ولكن الاسلام لم يقف من المسيحية إلا موقف السماحة والكرامة كما وقف من عيسى عليه السلام وأمه الصديقة ، ولا أدل على ذلك من العهود التي كتبها الرسول لأهل نجران ، والتي كتبها عمر لأهل إيلياء (بيت المقدس) وسماح المسلمين لأهل الكتاب (يهوداً ومسيحيين) بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الاسلامي في الوقت الذي قامت فيه المسيحية الغربية بقتل ٧٠ ألف مسلم في بيت المقدس ومئات الألوف في الأندلس .

كما أحل الإسلام للمسلمين طعام أهل الكتاب . كذلك فقد حرصت كتابات الغرب أن تحمل لواء التعصب والكراهية والحقد للإسلام فهى لم تعترف بدور المسلمين فى تحضير أوربا وإنكار دور المنهج العلمى التجريبى الذى أنشأه المسلمون . كذلك فقد حاولت أن تصور تأخر المسلمين فى هذه المرحلة بأن مرجعه إلى الإسلام :

يقول الكونت كاتياني : « من المؤسف أن تذهب الكنيسة إلى أن ظهور الإسلام كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق كثير من أتباعها هذه الديانة الجديدة على حين أن الأمر بعكس ذلك فقد أدت الديانة الإسلامية عن طريق غير مباشر خدمات جلى إلى المسيحية ، إذ لو لم تظهر الديانة الإسلامية وقدر للمسيحية الأرثوذكسية الجامعة التى يعتنقها الأروام والروس والتى لم يقم أى دليل على نهضتها أن تبقى مهيمنة من ذلك التاريخ إلى اليوم وحالت دون سطوع مدنية العرب والعجم فماذا يكون مصير غربى آسيا وأوربا فى القرون الوسطى المظلمة أو لم تحل النهضة البروتستانية التى ظهرت على الأثر دون تدهور الأرثوذكسية فى هوة الانحطاط . بيد أن هذه الخدمات التى قام بها الإسلام نحو المسيحية قد كادت أن تطمس معالمها من جراء النضال المستعر بين هاتين الديانتين لحجب وجه الحقيقة » . ولا ريب أنه كان من عوامل الخلاف بين الفكر الغربى وبين الاسلام تلك الحواجز التى حالت دون النظر الصحيح . (أولا) عقيدة المسيحية فى الألوهية والنبوة . (ثانياً) خصومة الكنيسة للإسلام وتحريضها على الحروب الصليبية . (ثالثاً) الصلة التى قامت بين الغرب والدولة العثمانية خلال الخمسمائة سنة الأخيرة .

يقول م . ر ح . كونت : إن الكثير من الغربيين شبوا على كراهية الدين الاسلامى وارتضعوا ذلك فى لبان أمهاتهم ، ويقول : بينما شب المسلمون جيلا بعد جيل على الإيمان بموسى وعيسى وعلى حب المسيح ومريم والأديان والكتب السابقة جميعاً . ولا ريب أن الخلاف الأساسى بين الاسلام والمسيحية ناشىء من اختلاف مفهومهما لله فإن التوحيد الخالص هو أساس الاسلام والتثليث هو أساس المسيحية وعن ذلك جرى الاختلاف فى تفسير الحياة والعقيدة والمجتمع ، كذلك فقد رفض الاسلام فكرة الأبوة والرهبانية وفكرة عالمية المسيحية . ويقرر الدكتور إسماعيل راجى الفاروقى إن المسيحية الغربية هى التى أفسحت التفسيرات على النحو الذى خرج بها عن الأصل المنزل . ولا ريب أن المسيحية استطاعت أن تدمر الوثنية وأن تمهد الإسلام وأن تمد البشرية لدين الانسانية حين دعت إلى كسر عنصرية اليهودية وماديتها ، وإعلاء مبدأ الرحمة والأخوة البشرية والأخلاق غير أنها حين قضت على المادية لم تستطع أن تتوسط ومالت إلى الرهبانية وجاء الاسلام كما يقول الدكتور الفاروقى ليرد الأمور إلى طريقها الصحيح إلى الحنفية الابراهيمية القائمة على التوحيد والرحمة والاخاء البشرى ، ومن هنا ولإصالته ولفطرته انتشر بنفس السرعة الخاطفة فى مختلف المواقع العربية التى كانت المسيحية مسيطرة عليها وفى الأندلس استقر سبعمائة عام . جاء الإسلام مذكراً ومؤكداً لرسالة الله الحق : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب) . (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله) جاء للقضاء على حد الافتراء وسوء الفهم . جاء بكتاب على إملاء يكون نصه بمثابة الصخر الذى لا تتغير بتغير المفاهيم والثقافة . وهذا هو السبب التاريخى لقداسة لغة القرآن وحروفه ،

حصر القرآن فى اللغة العربية ، حصر مبادىء التفهم بلا خوف مما حدث للكتب السابقة من تحريق أو ترويم أو تفريس ، معلناً أزلية ماهية الدين وجوهره . كذلك كشف الاسلام حقائق جديدة جاء الاسلام ارتقاءاً وتقدماً على ما سبقه من رسالات إلهية وإن اتفق معها فى جوهر الرسالة بفتوحات جديدة فى الدين والأخلاق . أهمها الميزان الأخلاقى وثبات القيم . لقد عجزت المسيحية عن العالمية التى حاولت أن تقوم بها لأنها ليست ديناً عالمياً بل ديناً مكملا لأديان بنى إسرائيل . جاء الاسلام بعالمية مبنية على الأخلاق والارادة : « بناء الأمة » (كنتم خير أمة أخرجت للناس) : تحقيق الخير والعدل . تحقيق الإرادة الإلهية حيث عجزت المسيحية واليهودية عن تحقيق الإرادة الإلهية أو إنشاء المجتمع الربانى . جاء الاسلام يقول بالأخوة العالمية تحت القانون الأخلاقى (أخوة عالميـــة مبنية على القانون الأخلاقى) . يقول تاريخ الأديان : إن الاسلام جاء بمنهجية جديدة لم تكن مألوفة وإن كانت أصولها راسخة فى الروح العربية وهى الدعوة إلى الله عن طريق تربية الأخ لأخيه الأصغر » . ولا ريب أن هذا العرض يفسر الأخطاء والشبهات التى حاول التخريب والتبشير والاستشراق إثارتها فى أفق الفكر الاسلامى ويرسم الخلفية التاريخية لموقف الغرب من الاسلام : ودعوته وتاريخه .

الفصل الثانى عشر

ما قبل الإســلام

هناك تلك المحاولة المسمومة لتزييف التاريخ الاسلامى بالقول بأن العرب قبل البعثة كانت أمة مهيأة للحضارة والملك وأنه لما جاء النبى عليه السلام نهض بهم فنهضوا ووجههم الى الفتح والسيطرة فوصلوا بعد زمن قليل إلى ما يريدون، يردد هذه الشبهة أغلب المستشرقين وكتاب الغرب ومنهم ماسنيون ومرجليوث وغيرهما ، وهى تطوى فى نفوسهم تلك الأحقاد التى تتلظى ؛ لأن الاسلام استطاع فى أقل من قرن من الزمان أن يمتد من الصين إلى حدود فرنسا ، ولا ريب أن هذه الدعوى باطلة بطلانا شديداً لأن العرب قبل الاسلام لم يكونوا متحضرين على ذلك النحو الذى جعلهم مستعدين لاستقبال الاسلام فقد قاوموه مقاومة شديدة امتدت فى مكة ثلاثة عشر عاماً ، واضطرت الرسول الى أن يتخذ بيئة أخرى لنشر دعوته . ولو كانوا على استعداد سابق للحضارة أو الملك لما وقفوا موقف العناد والخصومة الشديدين على هذا النحو الذى وقفوه من الدعوة الاسلامية وجروا تلك الحرب العنيفة التى حاربوا بها الرسول . يقول الأستاذ محمد فريد وجدى : « إن قريشاً وهى أرقى القبائل لغة وفهماً ومكانة لم تقبل دعوة النبى إلا رجالا ونساء لا يربو عددهم على بضع عشرات وأن أتباع الأولين اضطهدوا اضطهاداً شديداً حتى هاجروا إلى بلاد الحبشة وأن النبى لبث على هذه الحالة من الاضطهاد ثلاث عشرة سنة فلما أحست قريش من النبى الهجرة اعتزمت قتله وترصدت له ، ولما علم أهل مكة بإفلاته اقتفوا أثره .

كل هذا ينطق بلسان فصيح أن قريشاً وهى مظنة النجابة والفهم من العرب فى ذلك العهد لم تكن قد استعدت للملك ، فإن المجتمع الذى يقاتل الداعى للتجديد والنهوض بهذا النفوذ ويصر عليه ثلاث عشرة سنة لا يزداد بعد هذا عناداً وتمدداً . هذا المجتمع الذى يقاتل الداعى بهذا النفور العظيم وينتهى أمره معه إلى الخضوع له كرهاً لا يعتبر أنه استعد لإقامة دولة ، فلو ترك وشأنه لبقى على ما كان عليه ، ولو أن قريشاً وهى أقرب العرب إلى الحضارة قابلت دعوة (محمد) بصدر رحب وأحلتها المكان اللائق بها ونهضت تحت قيادته بجمع كلمة القبائل وإبطال وثنيتهم لساغ أن نقول : إن محمداً لم يعمل أكثر مما يعمله البناء ، وجد أحجاراً منحوتة ومواد جاهزة فأقام بها قصراً فخما ، أما وقد أراد أن يجعل محمد مركز دعوته يثرب التى يسكنها الأوس والخزرج ، وهما من مهاجرة اليمن ، وليس لهم أقل ميزة بين العرب . ولم تكن لهجتهم بالفصيحة المنتخلة ، ولا جماعتهم بذات القوة والمنعة ، بل كانوا أسوأ ما يكون عليه قبيلتان من التناحر وتنازع البقاء . أما وقد أراد الله أن يتخذ محمد رجال هاتين القبيلتين أنصاراً لدعوته ومدينتهم عاصمة لدولته بعد أن خذله أقوم العرب لهجة ، وأقربهم للنهوض مطية ، فقد أمكن كل ناظر أن يقدر عظمة روحه العلوية ، إذ تولى أبعد القبائل عن فطنة التأهل للنهوض ، وأقلها وسائل لتقويم دورها ، فصاغ منها نواة تصلح أن ينجذب إليها مواد البناء والاكتمال وأن تحييها وتخرجها من مجدها القديم . وأن تؤلف فيها مجتمعاً فتياً مملوءاً حياة وقوة يصلح القيام بنفسه ، ولإحداث أكبر حدث فى العالمين ، إن هـذه الآية من آيات التاريخ البشرى لا تسمح لباحث باسم البحث العلمى أن يتجاهل أمرها » .

والواقع أن البحث العلمى الغربى لايستطيع أن يستوعب أبعاد فهم التاريخ الإسلامى لأنه يصدر عن مفهوم النظرية المادية أو المنهج التجريبى وكلاهما يعجز عن تقدير ما سوى المادة أو الاقتصاد من العوامل العديدة التى تعمل عملها فى التاريخ ، وبذلك لا يستطيع التصور الغربى أن يرى أن الإيمان الذى ملأ قلوب هذه الجماعة الصغيرة التى أنشأها الرسول ورباها ، وكونها فى مكة والتى تدافعت تحمل لواء الجهاد والفتح والتوسع إلى إقامة الأرض قد استطاعت فى هذه الفترة القليلة أن تسيطر من حدود الصين إلى حدود فرنسا فى فترة لا تزيد عن ثمانين عاماً بلغت أقل من ذلك الامبراطورية الرومانية فى ثمانمائة عام . ولأن ما يوصف فى الجزيرة العربية بأنه حضارة لم يكن إلا ذلك اللون من الثراء المادى الذى حققته رحلتا الشتاء والصيف إلى الشام وإلى اليمن ، ولـكن هذا المجتمع لم يكن مؤهلا قبل الإسلام ليحمل حضارة لأنه كان وثنياً غارقاً فى الفساد الاجتماعى مضطرباً أشد الاضطراب ، ولذلك فإنه عارض دعوة الحق إذ جاءته . وخاصم كلمة الحق عندما نزلت على رسول الله من أمله ، لأنه أحس بأن كلمة التوحيد سوف تغير نظامه الاجتماعى المتطاول بالربا والثراء الفاحش والرف والشرك والخمر ووأد الأولاد ولعب الميسر والزنا وإن هذه الصورة لمجتمع الجاهلية الواضحة معروفة فى كتب التاريخ القديم ولـكن كتاب التغريب يحاولون أن يغضوا من تلك المعجزة الخارقة التى حققت هذا الفتح الذى ركز كلمة الله فى الأرض حقداً أو حسداً محاولين أن يبرروها على هذا النحو الواقف .

إن الرسول ﷺ قد أنفق ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة إلى المدينة يدعو القبائل فى مكة وماحولها

وما ترك قبيلا إلا عرض عليه كلمة التوحيد فلم يجد إلا المعارضة والخصومة ولم يجد أنصاره إلا الإيذاء والقتل ، فكيف يمكن أن توصف الحياة فى بلاد العرب فى هذا الوقت بأنها حضارة مستمدة لأن تجد قائداً يدفعها إلى النهضة .

الحقيقة أن الإسلام أنشأ الحضارة من الكلمة الأولى (لا إله إلا الله) وأنه بنى هذا المجتمع لبنة لبنة وفرداً فرداً هذه الجماعة الصغيرة هى التى شكلت فى يثرب المجتمع الإسلامى .

وإذا كان بعض الباحثين يحاولون أن يقدموا صوراً رائعة الحياة فى الحياة الجاهلية من القوة والبطولة ومن الشعر والأدب الإنسانى ومن المثل العليا . وجوانب للمعرفة وصور الخلق الرفيع ، وهذا أمر لا سبيل إلى إنكاره ، وليس غريباً أن يكون فى الجاهلية لأنه ميراث النبوة ومهات الحنيفية السمحاء التى حمل لواءها إبراهيم وإسماعيل ، وكل ما وجد فى التراث العربى قبل الإسلام من خير وإيمان وخلق ونبل وكرم فإنما هو بقية الحنيفية ، ولقد ظل أولئك المؤمنون بالحنيفية يتوارثون إيمانهم بالله حتى جاء رسول الله ﷺ وكان يطلق عليهم اسم (الحنفاء) .

الباب الثانى

تاريخ الإسلام اليوم

أولا : الإطار الذى تحرك فيه تاريخ الاسلام .
ثانياً : كتابة السيرة .
ثالثاً : الجهاد والفتح .
رابعاً : الخلاف بين الصحابة .
خامساً : ثورة الزنج والقرامطة .
سادساً : مسألة الموالى والعرب .
سابعاً : العروبة والإسلام .

الفصل الأول

الإطار الذى تحرك فيه تاريخ الاسلام

عند ما أنزل الله الاسلام فى شبه جزيرة العرب فى مكة على محمد بن عبد الله كان ذلك علامة على أن البشرية قد دخلت مرحلة الرشد الفكرى الذى يؤهلها لتلقى رسالة عالمية شاملة قوامها معجزة البيان القرآنى الخالدة الباقية على الزمان ، بعد أن كانت رسالات الأنبياء والرسل لأمم مختلفة وعصور متباينة. وبذلك فصل الزمن بين رسالة الاسلام وبين الأمم السابقة له بحيث يمكن القول أن عصر ما قبل الاسلام كله كان بمثابة تمهيداً لدخول البشرية إلى عصر الدين الخاتم : دين الإنسانية كلها بعد أن مرت بمرحلة التمهيد للرسالة الخالدة بالدعوة إلى الله الواحد الأحد متمثلة فى أنبياء الأمم وكتبها فكان الاسلام هو رسالة الله تبارك وتعالى منذ خرج الانسان ألقاها إلى الرسل جيلا بعد جيل حتى أصبحت البشرية مؤهلة لتقبل منهج الحياة الثابت ممثلا فى شريعة الاسلام التى أصبح على كل صاحب دين منذ نزلت أن يدخل فى دين الاسلام كما بشرت به كتب السماء التى سبقت القرآن : التوراة والإنجيل وذلك ليظهره على الدين كله وليصبح كتابه (القرآن) مهيمناً على كل كتاب : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) ومن هنا فقد قدم القرآن للمسلمين صورتان كاملتا الأبعاد :

١ — صورة الكون كله « الميتافيزيقيا » منذ خلق الله الدنيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وعوالم الغيب كلها التى وراء المنظور من سماوات وجنة ونار .

٢ — صورة التاريخ البشرى كله منذ خلق آدم وأمره فى الجنة ونزوله إلى الأرض وامتداده فى ذريته ونزول الأنبياء والرسل داعين إياه إلى الله بصفة عامة ثم إيضاح المرحلة التى بدأت بالحنيفية السمحاء بملة إبراهيم عليه السلام الذى جعل الله النبوة والكتاب فيه وفى أبنائه إلى يوم القيامة والذى

جاء منه موسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل والأنبياء ، وبذلك تمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . قدم القرآن للمسلمين هذه الصورة الكاملة للتاريخ القديم ليدل المسلمين على الطريق الذى يسيرون فيه على هدى الله : طريق النبوة : (يريد الله أن يهديكم سنن الذين من قبلكم) لقد كشف القرآن للمسلمين تاريخ البشرية وكيف قامت حضارتها وأممها وكيف سقطت . وقدم لهم صورة الحدث الضخم : حادث الطوفان ثم ما أصاب قوم عاد وثمود وقوم لوط ومدين وكيف تحطمت حضاراتهم عندما انحرفوا عن طريق الله الذى رسمه للبشرية (تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) . (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) . (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) . كذلك دعا القرآن المسلمين إلى النظر فى تاريخ من سلف من بنى آدم : (وقد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) . وحذرهم من التبعية ومن البطانة ومن السبل المتفرقة حتى يستطيعوا أن يستوعبوا عبرة التاريخ فى العصور السابقة ويواجهوا الحياة وهم قادرون على النظرة الواسعة ذات الأبعاد المختلفة . يقول الأستاذ علال الفاسى :

للتاريخ فى نظر الإسلام مرحلتين لا بد من الوقوف عندها . (أولا) مرحلة العمليات التاريخية التى سبقت بعثة الرسول وهذه لم تكن إلا تمهيداً لإبلاغ الإنسان رشده عن طريق إكمال الدين بوجود محمد خاتم الرسل ، ولم يكن محمد بدعا من الرسل فقد سبقته نبوات ورسالات كما سبقته دعوات إصلاحية تشمل كل بقاع العالم ولكنها لم توفق إلى البقاء وأصابها الانحراف الذى يستوجب أن تجدد وتصلح لتفتح آفاق التقدم الإنسانى فكان لابد أن يبعث الله الرسول الخاتم : وكانت مهمة النبى أن يضع الناس فى جو الرشد المبنى على العقل والروح والقلب والجسم ، ومن هنا فإن كل ما سبق من عمليات التاريخ كأنه يهدف لغاية واحدة هى وجود الرسول نفسه ، وبذلك يصبح الماضى وكان ما قبل التاريخ . أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الإسلامى والبشرية كلها، مخاطبه ليسير وفق ما يرشد إليه ناموس الكون وما بنى عليه هذا المجتمع . كذلك فقد دعا الإسلام البشرية إلى الوعى بالتاريخ الماضى والقائم جميعاً وصولا إلى الحتمية الوحيدة وهى الحياة الآخرة : التى تكون هذه الحياة الدنيا منطلقها ومجالها العملى ، وتكون هى المقر الأخير بالحساب والجزاء . هذه هى الغاية من فهم التاريخ وفهم الميتافيزيقيا معاً : الاستعداد للمرحلة الأخيرة بالعمل فى هذه الدنيا فى ضوء عبرة التاريخ الماضى والنهاية الحتمية للكون والإنسان ، وكيف يمكن أن تكون الحياة الدنيا فى ضوء هذا الفهم آمنة مليئة بالسكينة والخير والهدى لأن البشرية تسير فى طريق الله وتعمل على إقامة المجتمع الربانى . هذا الإنسان الذى أعطاه ربه القدرة على الحركة والإرادة والمسئولية الأخلاقية ليكون له من وراء ذلك الجزاء ، هذه الإرادة مسئولة فى حدود قدرتها وحريتها وما قدمت من عمل ، ومن هنا فإن الإنسان دوره فى صناعة التاريخ وبناء المجتمعات وإنشاء الحضارة وله أيضاً مسئوليته عن الوجهة التى يتجه إليها فى هذا العمل . (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) . وهكذا نجد أن الإسلام حين جاء فتح صفحة جديدة للبشرية من حيث عالمية الرسالة وخلودها . ودعا الأمم القائمة إلى الدخول فى دين الله :

لأنه هو الدين الحق الذى قامت عليه السموات والأرض فقد خلق الله الإنسان الأول آدم ومنه أرسل الله أول أنبيائه نوح . (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) . أعلن الإسلام وحدة الدين ووحدة البشرية والتوحيد الخالص لحطم الوثنية والأصنام وعبادة غير الله . وقدم للبشرية منهج الإخاء الإنسانى لحطم العبودية والإذلال ومظالم الفرعونية والقيصرية ودعا المسلمين إلى النظر فى الكون فأنشأ المنهج العلمى التجريبى الذى هو قاعدة الحضارة العالمية اليوم ، ولقد استطاع الإسلام لأنه الفطرة والحق وضياء النفس البشرية الأصيل أن يزحف فى خلال قرن لا يزيد حتى سيطر على ثلاث قارات : آسيا وأفريقيا وأوربا من حدود الصين إلى نهر اللوار فى قلب فرنسا وقدم للبشرية ذلك الضياء الحق وتغلب على اللغات والأديان ، ونقل العالم كله إلى نور التوحيد ونفذ بأشعته إلى قلب أوربا لحررها من الوثنية والرهبانية ، وأدخلها إلى عصر النهضة . وكان الإسلام هو العامل الأكبر الذى أدخل العالم كله إلى العصر الحديث .

(٢) ولا ريب كان الإسلام هو الحد الفاصل بين القديم والجديد وأنه هو الحادث العظيم الذى غير مجرى التاريخ العالمى كله ، ومنذ أن نزلت آياته إلى اليوم وهو بعيد الأثر فى كل أحداث البشرية وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولسنا نحن المسلمين الذين نقول هذا فيؤخذ على أنه تجاوز فى تقدير الأمور ولكن كتاب الغرب هم الذين يعترفون به ، فيقول هنرى بيرين مؤلف كتاب (محمد وشارلمان) إن الإسلام هو القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الأوربى وأن العصر الوسيط والنهضة الحديثة ثمرتان من ثمار الإسلام وإن ما يقال من أن سقوط الامبراطورية الرومانية هو العامل المؤدى إلى هذا التحول فى التاريخ هو قول خاطىء ، فإن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة العبد إلى السادة فما كان يخطر لها بل ما كانت ترغب أبداً فى أن تناوىء روما وتقضى عليها . أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أرقى وأسمى من الرومان فى جميع أساليب الحياة ولا سيما من الناحية الدينية التى كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم . ولقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز (الوندال) حدودها واستقروا فى نواحيها ، وكل ما حدث أن انتقل مركزها الرئيسى من روما إلى بيزنطه وأصاب حياتها العقلية والمادية شىء من الركود والفساد ، ولكن لم تكد تهب (ثورة الإسلام) وتسير ركائبه إلى أراضى اليونان حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والآثار وقامت دول جديدة وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوربا من الشرق والجنوب فاضطرت ملوكها أن يوجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالى من أوربا حيث قامت المعارك التى كتبت تاريخ أوربا فى العصر الوسيط وأبان العصر الحديث . أما الجزء الجنوبى من أوربا فلم تقع فيه فى تلك العهود إلا موقعة (بواتيه) التى انتصر منها شارل مارتل على جيش الأندلس ، فلولا ظهور الإسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة وإن انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق ، ولظل البحر الأبيض المتوسط بحراً رومانيا ولما قامت الثورات القومية التى خلقت أوربا الحديثة والثورات الفكرية التى تمخضت عنها الحضارة الراهنة ،

وهكذا نجد أن الإسلام قد غير العالم كله ، غير الشاطىء الشرقى والجنوبى للبحر الأبيض المتوسط فأدخله

فى السلم كافة ، وقامت فيه كلمة التوحيد وامتدت نحو آسيا حتى أخرجت القبائل التركية من وراء النهر وواصل زحفه إلى الصين ، وفى الغرب اقتحم الأندلس ووصل إلى نهر اللوار ، ثم لم يلبث أن اقتحم أوربا من البلقان حتى وصل إلى أسوار فينا .

(٣) كذلك كان الإسلام عامل الانقطاع الحضارى بين الحضارات الفراعنة والرومان والفرس والهنود ، فبعد ألف عام تقريباً عاشتها هذه المنطقة التى اندماج فيها الإســلام : (المنطقة العربية) (الهلال الخصيب والشام ومصر وأفريقيا) فى أيدى اليونان والرومان ، لم تلبث بعد سنوات قليلة لا تزيد على قرن من الزمان أن تحولت تماماً إلى رسالة التوحيد فنسيت لغاتها وأديانها ونحلها القديمة وأقبلت على الإسلام إقبالا تاماً ، مع أن الإسلام حين سيطر على هذه المناطق لم يفرض عليها دينه وإنما أقام حكمه العادل وأفسح لأهل الكتاب الحرية الكاملة فى حياتهم الدينية وحمى معابدهم وفتح لهم آفاق العمل فى مختلف المجالات فى سماحة ورحمة ، غير أن هذه الطوائف العربية الجديدة سرعان ما انصهرت فى البيئات التى عاشت فيها ولم تستعل عليها استعلاء سلطان أو استعمار ، وإنما تآخت معها وأصهرت إليها ، ومن ثم فقد دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، من عرفوا أن ذلك الحكم السمح العادل الذى حررهم من مظالم الرومان هو من عند الله ، لذلك فقد دخلوا الإسلام الذى كان موجوداً فى أعماقهم وضمائرهم منذ رسالة الحنيفية الإبراهيمية التى جددها محمد ﷺ واتصل بها بعد أن انحرفت فى مرحلة ما بينهما . ومن هنا فإن الانقطاع ليس إلا عن المرحلة القليلة التى تعثرت فيها الطريق من الحنيفية إلى العنصرية وكان هذا أمراً طبيعياً فى التاريخ فمصر العربية قد انفصلت عن مصر الفرعونية انفصالا تاماً لأن مرحلة الفرعونية انحرفت عن الإبراهيمية ، وكذلك فإن سوريا العربية قد انفصلت عن سوريا الفينيقية ، وإن العراق العربى قد انفصل عن العراق الأشورى والبابلى وبالإسلام عادت سيرتها الأولى إلى الربط بين الحنيفية الإبراهيمية والحنيفية المحمدية . وحين جرت المحاولات فى العصر الحديث لإعادة البلاد العربية إلى تاريخها قبل الإسلام بإحياء الفرعونية أو الفينيقية أو الأشورية ، فشلت هذه المحاولات فشلا ذريعاً لأنها كانت تجرى ضد تيار التاريخ .

(٤) كذلك فإن رسالة محمد قد غيرت كل أساليب الحياة وغيرت أسلوب الدعوة إلى الله فقد توقف منذ رسالة محمد أسلوب « الآيات » التى عرفت فى رسالات الأنبياء الأولين من المعجزات والخوارق كعصى موسى أو ناقة صالح أو إحياء عيسى للموتى فقد آذن الله تبارك وتعالى أن تدخل البشرية عصر الرشد الفكرى فتخاطب بمعجزة البيان القرآنى المعجز الذى تحدى الله الجن والإنس أن يأتوا بمثله ، وقد عجزت الجن والإنس وما يزال التحدى قائماً ، وأعلن القرآن موقفه من الآيات (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) . كذلك جاء القرآن بمنهج سمح يحل للناس كل الطيبات ويحرم عليهم كل الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فى العصور الماضية ، وكان ذلك إيذاناً بأن البشرية أصبحت مؤهلة وراشدة . فألغى الإسلام زواج الأخت وزواج زوجة الأب وقتل الأبناء خشية إملاق . فكان أن رفع الإصر ووضع الأغلال مما كان من عدم مؤاكلة الحائض وقطع الثياب النجسة والقصاص حتى فى الخطأ ، وقد خفف الله عن هذه الأمة كل ذلك وأباح مشروعية الدية

(كتب عليكم القصاص فى القتلى) كذلك عفا الله عن حديث النفس ما لم تعمله الجوارح ، وأباح الصلاة للمسلمين فى كل مكان وكانت تباح فى أماكن مخصوصة، وأباح لها العمل كل الأيام ما عدا ساعة الصلاة من يوم الجمعة وأعطى الرحمة الخاصة للأمة المحمدية ومنحها صفة الأمة الوسط وأن قومها هم الشهداء على الناس . وهكذا جاء الإسلام بشريعة سمحة رحيمة خالدة للعالمين بعد أن انتهى عهد الشرائع المؤقتة والخاصة بأمم بعينها والتشريعات الموقوتة بآجال طويلة أو قصيرة ، ودعا الأمم كلها إلى الدخول فى دين الله أفواجا . وبذلك اكتمل فى الشريعة الإسلامية : الثبات والحركة فاشتملت على عناصر الثبات والاستمرار والحدود والضوابط اللازمة لحماية المجتمع الإنسانى وعنصر الحركة والتجديد والتعبير المناسب للعصور والبيئات . وهكذا ارتفع الاسلام بالشريعة الربانية درجة أخرى عما كان فى شريعة التوراة وشريعة الإنجيل لجمع الله بين العدل والإحسان ، وبين الروح والمادة ، وبين الدنيا والآخرة ، وجعل جزاء الحسنة مضاعفاً إلى سبعمائة ضعف وجزاء السيئة سيئة مثلها . وجعل العفو درجة أعلى من درجة العقوبة . (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) . وأعطى الشريعة صيغة الالتزام الأخلاقى وأعطى الانسان حرية الارادة مرتبطة بالجزاء الأخروى .

(٥) وقد أثبت الإسلام قدرته على البقاء والاستمرار والتجدد ، فما دخل فى أرض وخرج منها ، وما استطاعت الأزمات أن تقضى عليه أو تجعله ينهار ، وظل محتفظاً بذاتيته الخاصة الواضحة عن غيره من النحل والأديان ، ذلك لأنه قام على أنه دين عبادة ومنهج حياة ، وأنه وضع تعاليمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية فى صيغ كلية وأصول عامة وأطلق للمجتمعات حرية رسم طريقة الحركة والتفاصيل فى ضوء متغيرات العصر والبيئة دون الإخلال بالأصول العامة والحدود الثابتة . ولقد غير الإسلام المجتمعات التى دخلها ، حررها من الوثنية ورفعها إلى مجال العزة والكرامة والنظافة والطهارة ، يقول أحد الباحثين الغربيين : « متى دخلت قبيلة من القبائل الوثنية فى الاسلام اختفت عنها فى الحال عبادة الشيطان وعبادة البشر وأكل لحم الانسان وتقديم الضحايا البشرية وقتل الأولاد والسحر ، وصاروا يرتدون الثياب وحلت فيهم النظافة ، وشعروا بالعظمة واحترام النفس وصار كرم الضيوف عندهم من الواجبات الدينية وندر شرب المسكرات وحرم القمار والرقص المنافى للعفة وفوضى اختلاط الجنسين وصارت طهارة العرض من الفرائض ، وذهبت البطالة والكسل وحل العمل والكد محلها وتغلب النظام والرزانة على الشقاق وحرمت القسوة على الحيوان والعبيد وعظم الشعور بالإنسانية واللطف والأخوة ودخل الرق وتعدد الزوجات تحت قانون يحدد شرهما ويخففه » . وألغى الإسلام التفرقة العنصرية والتعصب ودعا إلى الأخوة البشرية والمساواة أمام الدولة وأمام الله وعرفت الأمة الاسلامية بالأمة الوسط ليس فقط فى تقريب الفرد من المجتمع ولا المجتمع من الفرد فحسب وإنما فى السلوك الخلقى بين الإفراط والتفريط . وتقوم المسئولية فى الاسلام على أساس أن الاصل فى الإنسان الخير على خلاف ما تقول به أديان أخرى من أن الإنسان خلق خاطئاً وخلاف ما جاءت به التعاليم الهندوكية من أن الإنسان كان فى أول أمره دنساً فهو من أجل هذا محمول على أن يتخبط فى سلسلة من التقمص بينما يقرر القرآن أن الإنسان خلق طاهراً وخلق تاماً .

ولقد كان الإسلام منذ اليوم الأول دعوة عالمية للبشرية كلها وآيات القرآن الأولى فى مكة تشمل هذا ، فهو دعوة خاصة إلى أهل مكة ودعوة عامة للعالمين ؛ وصلة الإسلام بإبراهيم صلة جذرية بدأت مع بدأ الدعوة فى مكة ولم تكن مما جاء بعد الهجرة إلى المدينة ، ودليل ذلك أن السور التى تسجل هذا كله مكية نزلت بمكة . وقد قام الإسلام على قاعدة (لا إكراه فى الدين) ولذلك فهو لم يقم دعوته على الإكراه أو الفتح ، وإنما أقامها على الحجة والبرهان ولم يتعرض للنصارى واليهود بل حافظ على كيانهم ومقدساتهم وسمح لهم بممارسة الحياة العامة دون أى نوع من أنواع الضغط أو الإرهاق . ومن أجل هذا طبع الإسلام حياة معتنقيه وما زال يطبعها وسيظل يطبعها إلى ألوف السنين ، وإن أى حركة فكرية أو اجتماعية تتجاهل هـذه الحقيقة البديهية ، فهى تتجاهل الإطار الطبيعى لحركة الفكر والمجتمع الإسلاميين .

(٥) إن أكبر ما أعطى الإسلام : الفكر والذكر والبيان والعلم فى سبيل معرفة الله تبارك وتعالى وآثاره فى الكون والإنسان والمجتمع والحياة . التعرف على نواميس الله فى الكون وسنن الله فى المجتمعات ، تلك هى أعلى درجات الرشد الفكرى الذى دخلت ساحته البشرية بالإسلام . الارتفاع فوق طفولته البشرية بالنظرة السامية ذات الأبعاد التى تربط الأزل بالأبد والدنيا بالآخرة ، وتستمد أول حركتها من نقطة «التوحيد» الخالص لتعود إليه فى نهاية الجولة لا تنفك عنه ، ومن هنا كانت معجزة الإسلام هى معجزة بيان وفكر وأصالة . ولذلك جاء القرآن معجزاً فى بيانه ومضمونه فدعا إلى الحوار والبرهان والتفكر والنظر فى الكون : (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم) .

(٦) وبالجملة فإنه منذ ظهور الإسلام وكل حدث فى العالم والبشرية مرتبط به على نحو من الأنحاء فلم يزل منذ ذلك التاريخ عاملا مؤثراً فى الأحداث لأنه قدم للبشرية الدين الأول من جديد وأقام عالماً خالصاً مستقلا متميزاً بنظرته الربانية إلى الحياة وأسلوبه الإنسانى فى العيش وحضارته القائمة على العدل والإخاء وفكره القائم على التوحيد .

لقد حمل الاسلام إلى البشرية فى مرحلة استرشادها : العدل والإخاء والتقدم وأكد المساواة وهدم التفرقة العنصرية وحث على طلب العلم وأكد أن العلم فريضة ، ثم قدم منهجاً كاملا تلتقى فيه غايات النفس ومطامحها العالية ويتم به بناء الفرد وبناء الجماعة متكاملين مترابطين دون أن ينقص عن قدر أحد منهما شيئاً . ولقد أعطى الاسلام القائم على التوحيد : أعطى الجماعة الاسلامية شحنة ضخمة من القوة والإيمان وحب الاستشهاد والتضحية دفعت المسلمين فى أقل من قرن إلى السيطرة على القارتين آسيا وأفريقيا وإلى الامتداد من الصين شرقاً إلى جنوب فرنسا ، ثم كانت جولة الاسلام فى توسعه وامتداده حين دخل أرضاً جديدة فى جنوب شرق آسيا وغرب أفريقيا فاقتحم قلوباً جديدة فأضاف إلى معتنقيه الأول عددهم مضاعفاً ، ولقد كان الاسلام على مدى التاريخ : عامل القوة وعامل المواجهة لكل ما أصاب المسلمين من أخطاء وتحديات وأزمات ، وفى العصر الحديث كان مصدر كل حركات التحرر التى قامت بها

الشعوب ، فقد انطلقت النضالات الوطنية كلها من تحت راية لا إله إلا الله والله أكبر وتحت إسم الجهاد في سبيل الله . ومن أبرز قوانين الإسلام وسننه التي لم تتخلف قدرة هذا النظام الفائقة على تجديد نفسه وإعادة صياغة فكره كلما انحرف هذا الفكر أو أصابته دخائل تحول بينه وبين جوهره الأصيل ، وبذلك كان دائماً كياناً حياً قادراً على الحركة والنمو والامتداد متمكناً من التجدد كلما أصيب أحد أطرافه بعطب . ومن هنا كانت قدرته الفائقة على التوسع والاستقرار في مختلف البيئات والتكيف مع عديد المجتمعات . ومنذ أن بزغ نجمه إلى اليوم لم يتغلب عليه متغلب من الدعوات أو الأمم وإن امتحن أهله بالأزمات والشدائد فكانوا لا يخرجون منها حتى يعودوا إليه .

ولقد كشف الإسلام عن قدرة كاملة على الحركة والتطور والنماء والتوليد والأخذ والعطاء — كل ذلك داخل إطاره الثابت الأصيل ومع احتفاظه بذاتيته فهو يواجه المؤثرات الأجنبية حين تفرض عليه فلا يخضع لها ولكنه يستفيد منها ويتقبل الصالح لنموه دون أن يدعها تسيطر عليه أو تغير ملامحه أو تحول طريقه أو تحتويه .

لقد جاء الإسلام حاكما على الأمم والمدنيات ولم يجيء محكوماً فهو ليس مطية فلولا الحضارة الحديثة وليس خادماً للمجتمعات أو الدعوات والمذاهب بل هو نظام مستقل كامل جامع له مقوماته الأصيلة التي قد تتشابه في بعض مظاهرها مع دعوات أو أديان ، ولكنه في مجموعه لا يخضع ولا يستسلم ولا يحتوى . والمسلمون يرون أن كل وسائل الأمم وأدواتها في النهوض والتقدم بمثابة عن (مواد خام) يأخذون منها ما يشاءون دون أن يقهرهم هذا على معارضة أصل من أصول نظامهم ، وهذه المواد من شأنها أن تنصهر في بوتقة الإسلام فلا تصهره وتتحول في إطاره ولا تتحول به .

(٧) وفي هذا الضوء الكاشف لهذا الاطار تسقط تلك الشبهات التي حاول طرحها أهل الكتاب في إطار الاسلام دون أن يتبينوا ذلك « البعد » الذي امتد به الاسلام عن حدود ما وقفت البشرية قبل نزوله . ومن هذا نعرف تلك الصلات بين الاسلام وبين اليهودية والمسيحية وبين كتاب القرآن وبين التوراة والانجيل (الأصليين الموجودين وليس الآن في أيدي الناس) لا ريب أنها صلة المصدر الواحد : الحق تبارك وتعالى الذي أنزل الدين والوحي والنبوات ولكن : هناك في القرآن شيء يجعله مهيمناً على الكتب وفي الاسلام أشياء تجعله ظاهراً على الدين كله . وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كرجل بنى بيتاً فجمله وحسنه إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه فكان الناس يطوفون بالبيت ويعجبون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة . فأنا اللبنة وأنا خاتم المرسلين » .

الفصل الثاني

كتابة السيرة

كانت سيرة الرسول ﷺ باعتبارها رأس التاريخ الإسلامى هدفاً من أهم الأهداف التى ركز عليها الاستشراق والتغريب والتفسير المادى للتاريخ . ولا ريب أن مولد محمد بن عبد الله وبعثه هو من أبرز الأحداث الفاصلة التى غيرت مجرى التاريخ الإنسانى كله ، وكانت علامة على عصر جديد هو عصر الإسلام الذى أزال عصور الجاهلية وأقر الرسالة الخاتمة ، فكان هو خاتم المرسلين وكتابه خاتم الكتب ودينه خاتم الأديان السماوية . ولا ريب أن جهاد النبى فى سبيل تثبيت دعائم هذا الدين واحتمال عدوان الكافرين والمنافقين من أقوى المواقف التى لا يستطيع احتمالها إلا الأنبياء المؤيدون بالوحى . ولقد قاومت قريش رسول الله ثلاثة عشر عاماً وأذاقت من المؤمنين وقاطعتهم واضطرتهم إلى حياة قاسية فى الشعاب وضيقت الخناق عليهم ، آذتهم حتى نصرهم الله بالهجرة إلى المدينة بعد أن آمن الأنصار وبايعوا الرسول وأيدوه ، فاستطاع بعد سبع سنوات أن يعود ظافراً إلى مكة ، ومنها كانت له القبائل فى الجزيرة كلها حين آمنت بدين الله الحق ، وبايعت رسول الله وأتم الله نعمته ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وتحقق قانون النصر الذى رسمه الله لرسالات السماء : (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا أتاهم نصرنا) .

وبذلك حرر الإسلام العرب من جاهلية ضالة عمياء ، وأخرج البشرية كلها من الظلمات إلى النور ، فأنشأ الرسول على هذه المبادىء ذلك الجيل العجيب من الصحابة الذين حملوا راية الإسلام فنشروها فى آفاق الأرض فى سنوات قليلة فامتد من حدود الصين إلى قلب أوربا . هذا الأثر الخطير الذى قسم البحر الأبيض المتوسط إلى حضارتين ، وأزال أثر ألف عام من نفوذ اليونان والرومان من هذه الأرض المستعربة الممتدة من العراق إلى الشام إلى مصر إلى أفريقيا حتى وقف (عقبة بن نافع) ودفع حافر فرسه فى المحيط وقال : « رب لو أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً لذهبت مجاهداً فى سبيلك » . هذا الأثر الخطير هو الذى أثار حول الإسلام ورسوله تلك الحملات الضخمة التى حملها الاستشراق والتبشير سواء أكان مصدرها مقايسة خاطئة على أساس التفسير المادى للتاريخ . أو حقداً وكراهية نتيجة خصومة الكنيسة أو خصومة الغرب الذى كان يعتبر هذه الأرض ملكا له باحتلال الرومان لها .

ولقد ظل الأوربيون فى القرون الوسطى وحتى القرن السابع عشر يتناقلون أسخف الأساطير عن الإسلام وظل أكثر المستشرقين يقصدون تشويه الحقيقة وطمسها عن الرسول ﷺ وتدور الشبهات حول عدد من القضايا أهمها القول بأن القرآن من تأليف محمد وأن الحديث النبوى من صنع

الفقهاء وأن الشريعة مقتبسة من الديانات الأخرى وأن التشريع الإسلامى متأثر بالقانون الرومانى وأن الفتوح الإسلامية ليست إلا مطامع فى الغنائم وأن فقر العرب هو الذى دفعهم إلى الخروج لالتماس كنوز المدائن ودمشق وأن الخراج والجزية هما اللذان اضطرا الذميين إلى اعتناق الإسلام وهذا كله زيف لا يثبت أمام الحقائق التاريخية الصحيحة . وهم يزعمون أن الرسول عليه السلام التقى بالراهب بحيرا وتلقى عنه التعاليم الدينية مدة من الزمن مع أن لقاء الرسول مع بحيرا كان فى سن التاسعة أو الثانية عشرة ، ومن الطبيعى أن الطفل فى هذه المرحلة المبكرة لا يمكن له بحال أن يستوعب المسائل الدينية فضلا عن أن هذا اللقاء - إن كان صحيحاً قد حدث - وهناك شكوك كثيرة حول صحته لم تستمر إلا ساعة أو بعض ساعة ، وقد كان النبى فى صحبة عمه فكيف تسنى لبحيرا أن ينفرد بالطفل ليلقنه . كذلك فهناك شبهة القول بأنه تلقى من ورقة بن نوفل مفاهيم المسيحية وورقة بن نوفل لم يدع إلى المسيحية ولكنه هو الذى قال حين سمع بنزول الوحى على محمد ﷺ أنه هو النبى المنتظر الذى بشر به المسيح عيسى بن مريم . ولو أن محمداً ﷺ أخذ من ورقة لروج ذلك أعداؤه من المشركين ولسار خبره ، كذلك فإن القرآن قد كذب ما تردد من أنه تلقى شيئاً من إيفين الرومى الذى كان يصنع السيوف وكان الرسول يتوقف عنده أحياناً ، ولقد دحض القرآن هذا حين قال جل شأنه : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » .

وهناك شبهة القول بأن فكرة عموم الرسالة لم تكن فى أول أمر الرسالة وإنما جاءت بعد ، وأن هذه الفكرة برغم كثرة الآيات والأحاديث التى يؤيدها لم يفكر فيها محمد بنفسه ، وعلى فرض أنه فكر فيها فقد كان تفكيره غامضاً فإن عالمه الذى كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب وأن محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم - هذه الشبهة التى أوردها (موير) فى كتابه عن الخلافة وردها كثيرون يدحضها أن الآيات المكية منذ أول الدعوة جاءت فكرة عالمية الإسلام وعموم الرسالة وأن ما جاء فى القرآن المكى كله يثبت أن القرآن جاء مهيمناً على الكتب السماوية وأن الإسلام إنما جاء ظاهراً على الدين كله . وهناك من المستشرقين من شكك فى عام ولادة النبى وقد ادعى هنرى لامنس أن ولادة النبى كانت عام ٥٨٠ م خلافاً لجميع الآراء التى تتفق على أنه كان عام ٥٧٠ م .

كما اتصل هذا التشويه ببيت النبى فحاول لامنس أن يرسم صورة مشوهة للسيدة فاطمة الزهراء دون أن يقدم أى مستند تاريخى موثوق . وتعرض آخرون إلى زواج الرسول كى ينفذوا إلى الطعن فى التعدد وفى شخصية الرسول وإثارة ظلال حول ميوله الجنسية وفاتهم أن الرسول لم يعدد زوجاته إلا بعد الأربعين وأنه إنما فعل ذلك من أجل تثبيت قواعد الدعوة ، وهناك من يحاول أن يستغل حديثاً ضعيفاً وصف فيه النبى بأن قوته تعادل قوة أربعين رجلا ومنهم من يتحدث عن زواجه بعائشة ويصفها بأنها العروس البكر ومنهم من يتحدث عن زواجه بزينب بنت جحش ، وكل هذه محاولات تستهدف النيل من الرسول الكريم وتدور حول إعطاء صورة خاطئة تماماً عن شخصية النبى بإيراد أحاديث غير ثابتة أو موضوعة . أو عرض شبهات كعبارة الغرانيق العلا التى يدعون أن الرسول رددها واعتمدوا

فى ذلك على أقوال باطلة أو إيراد مواضع مشكوك فيها أو الوصول بالنصوص الناقصة والمبتورة إلى وصف الرسول بأنه كان قاسيا أو كان ناقضاً للعهود والمواثيق . وهناك شبهة القول بأن القرآن وما جاء به النبى ما هو إلا مزيج منتخب من معارف وآراء دينية سابقة جاءت بها اليهودية أو المسيحية وأنه تأثر بها ورأى أنها جديرة بأن توقظ قومه وأن النبى محمد ما هو إلا رجل مصلح ذكى استوعب معلومات عصره وانسقها فى أسلوب جديد ولقد رد القرآن على هذه الشبهات فى قوله تبارك وتعالى : (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل نزله روح القدس من ربك بالحق) . وهناك فرية برنارد لويس المستشرق اليهودى فى كتابه « العرب فى التاريخ » التى يزعم فيها أن محمداً كان يستقبل فى صلاته بيت المقدس استرضاءاً اليهود وبعد ما رفضوا الإيمان به والتعاون معه تحول بصلاته إلى الكعبة فى مكة .

والمعروف أن الرسول ﷺ كان يصلى إلى بيت المقدس بأمر ربه وأنه كان يقلب وجهه فى السماء متطلعاً إلى هداية الله تبارك وتعالى لوجهة البيت الحرام وقد استجاب الله له ذلك وأثبت القرآن الحكمة من الأمر فقال تبارك وتعالى : [وما جعلنا القبلة التى كنت عليها (أى قبلة بيت المقدس) إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه] . أما القول ببشرية القرآن أى بأنه ليس وحياً إلهياً فهذه من التهم المبطلة التى لم يتوقف القول بها والتى يجتمع عليها المستشرقون النصارى واليهود ولكن اليهود هم الذين يركزون على هذه الفرية ليقولوا بأن قرآن مكة كان مختلفاً عن قرآن المدينة وينسبون أثر ذلك الإختلاف إلى اتصال الرسول بيهود المدينة وهذه كلها شبهات رددوها وسايرهم فيها أمثال الدكتور طه حسين وغيره. ولا ريب أن المستشرقين إما يخضعون التفسير المادى الذى ينكر الوحى كلية وإما أنهم يصدرون عن مفهومهم المسيحى فى نسبة الكتب المنزلة إلى الحواريين على النحو الذى كتبت به كتبهم .

ويشير العلامة إيتان دينيه فى كتابه عن سيرة الرسول إلى هدف المستشرقين من التحريف فيقول: أن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة الرسول لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويمحصون مزاعمهم حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم ومع ذلك لم يتمكنوا من إثبات أقل شىء جديد ، بل إننا إذا نعمنا النظر فى الآراء الجديدة التى جاء بها هؤلاء المستشرقون فرنسيين وإنجليز وألمان وبلجيكيين فلا نجد إلا خلطاً وخبطاً » . وكذلك نجد أولئك الذين يرون أن محمد ﷺ كان داعية إلى الاصلاح الاجتماعى يهدف إلى تغيير الأوضاع الاقتصادية أو إزالة الفوارق الصارخة بين الأغنياء الجشعين والفقراء المستضعفين لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين ويستعمل فكرة الحساب فى اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوى . وهكذا نجد اختلاف وجهات النظر فى رسالة النبى ناتج من تبعية أولئك المستشرقين لمذاهب مختلفة بين النظرية المادية والتفسير الاقتصادى للتاريخ أو تفسير البطولة بالدعوة إلى الإصلاح وتجديد المجتمعات وكل هذا يختلف اختلافاً عميقاً بين ما يقولون وبين ما كان عليه ﷺ .

إن الشيء الذين يجهلونه هو النبوة والوحى ورسالة السماء فالنبي ليس بطلا ولا مصلحاً اجتماعياً ولا زعيما وإنما هو رسول الله يختلف في أسلوب دعوته وحياته عن كل هذه الصور التي يدور حولها فكر الباحثين الغربيين . ويعجزهم عن فهم النبوة وتأييد الله فهم يعجزون عن تفسير القدرة الفائقة التي انتشر بها الإسلام بعد وفاة النبي ولذلك فهم يحاولون أن يفسرون ذلك تفسيراً مادياً ولعله يصدر عن عجز بفهم المعجزة أو يصدر عن حد في ذلك التعبير الخطير الذي لا ينطبق على قوانينهم القاصرة ؛ فيقولون أن العرب كانوا متحضرين وكانوا مستعدين للنهضة ولديهم كل أدواتها فلما جاء محمد قام بهم فقاموا ، وهذا كذب وتضليل تؤكده الحياة الاجتماعية في الجاهلية تماما وآية ذلك أنهم صارعوا الداعي وضيقوا عليه وأساءوا إليه ولم يقبلوا دعوته خلال ثلاثة عشر عاما كاملة ، واضطروه إلى أن يبحث على أرض أخرى ينشر فيها دعوته .

وجملة دعاوى المستشرقين التي تبطلها الحقائق : قولهم أن القرآن ليس وحياً من الله . وإنما ألفه الرسول وأن الرسول عاش في فترة مزدهرة من الحضارة في شبه الجزيرة وأن الرسول نقل ما في قرآنه عن أهل الكتاب أو تعلمه من الآخرين وكلها شبهات مبطلة زائفة دحضتها الوقائع الثابتة والحقائق العلمية ولقد صدق كارليل حين نعى على قومه هذا وقال : « لقد أصبح من العار على كل فرد متمدن في هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمد خداع مزور وقد آن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة . فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا . أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة أما أنا فلا أرى مثل هذا الرأى أبداً » .

ويقول محمد كامل عياد : أستطيع أن أقول بأن أكثرية المستشرقين لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن محمد ﷺ بسبب تعصبهم الديني . أما القلائل الذين تحرروا من هذه النزعة فيرجع فشلهم في فهم شخصية الرسول إلى مبالغتهم في النظرة التاريخية فقد انصرفت جهود الباحثين والكشف عن المنابع والأصول التي اقتبست منها الديانة الإسلامية » . وهذا يعني أن أحرار المستشرقين على محاولة رد الإسلام إلى الأديان السابقة له قد حجبهم عن عن معرفة حقيقية . وكانوا في ذلك ظالمين أو متعصبين، ذلك أن دين الله واحد ولكن الإسلام جاء ليصحح الانحرافات التي اندفعت فيها تفسيرات رؤساء الأديان لأديانهم فخرجوا بها عن الأصول الربانية لها . هـــذه الأصول التي جاء الإسلام ليجددها ويكشف زيف المزيفين الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله . وبالجملة فإن الاستشراق قد عجز عن فهم كلا الأمرين : النبوة والوحى .

(٢) وحين ننتقل إلى كتابة السيرة في الأدب العربي الحديث نجد أن الشبهات التي أثارها الاستشراق الغربي واليهودي والتفسير المادي للتاريخ قد ألقى ظلالا كثيفة على كتابة السيرة وخاصة فيما كتبه هيكل وطه حسين وعبد الرحمن الشرقاوي وفيما ترجم من كتب عن الرسول إلى العربية . أما الدكتور هيكل

فقد بدأ بترجم كتاب محمد لاميل درمنجم ، ثم تحول عنه إلى التأليف وقد وجهت إلى الطريقة التى اتخذها كثير من الانتقادات منها أنه أنكر معجزات الرسول فيما عدا القرآن وأول إسراء الرسول ومعراجه ، وحاول أن يدعى أنه وقع فى منام الرسول ، وبذلك خالف الأصول الأصيلة لسيرة الرسول وجرى مع المستشرقين شوطاً وخضع لكثير من مفاهيمهم التى تختلف مع مفاهيم الاسلام الأصيلة . ومنها ما يراه درمنجم من تأثر محمد ﷺ بكتب اليهود والنصارى قبل البعثة . ولقد حاول الدكتور هيكل أن يبرر أسلوبه هذا فى كتابه السيرة بأنه إنما أراد مخاطبة غير المسلمين أو مخاطبة الذين لم يتصلوا بالثقافة الاسلامية فى معاهدها من الدارسين فى المعاهد العلمانية وغيرها بدعوى تقريبهم إلى الاسلام ، ولكن الأسلوب الذى اتخذه الدكتور هيكل لم يجد تقبلا صحيحاً وغلب أسلوب السيرة الأصيل الذى يرى فى الرسول محمد ﷺ نبياً يوحى إليه ، له شخصيته النبوية الخالصة التى تختلف عن شخصيات المصلحين والأبطال والقادة والزعماء والتى عرفت صفحاتها عشرات من المعجزات . ولقد كشف كثير من الباحثين فساد المنهج الذى عرفته الثلاثينات عن إنكار المعجزات وتغليب روح العلمانية على السيرة وعلى فهم الاسلام ، وهو أسلوب تورط فيه كثيرون من أمثال محمد فريد وجدى ومحمد مصطفى المراغى وتابعه هيكل وكشف عنه شيخ الاسلام مصطفى صبرى فى كتابه موقف العلم والعالم من الله عز وجل . غير أن أسلوب الدكتور هيكل على الرغم من نقصه وقصوره فإنه يختلف عن منهج طه حسين فى كتابه (على هامش السيرة) الذى أعاد فيه إحياء الاسرائيليات والأساطير القديمة التى خلص منها علماء المسلمون سيرة الرسول فأعاد إضافتها مرة أخرى إليها . قال هيكل : أخالف طه فى اتخاذ النبى وعصره مادة للأدب الأسطورة ، ومن رأيى أن لاتتخذ حياة النبى مادة لأدب الأسطورة إنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب وما اندثر أو ما هو فى حكم المندثر وما لايترك صدقه أو كذبه فى حياة النفوس والعقائد أثراً ما ، والنبى وسيرته وعصره يتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً بل هى فلذة من هذه الحياة ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً . اعلم أن هذه الاسرائيليات قد أريد بها إقامة (ميثولوجية إسلامية) لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب والتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الاسلام ونبيه ، وقد كانت هذه غاية الأساطير التى وضعت فى الأديان الأخرى . من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين فى جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام » . ويرى كثير من الباحثين أن ما قاله طه حسين فى هامش السيرة لا يعدو ما قاله فى كتاب الشعر الجاهلى ولكن بطريقة أكثر مكراً .

ولا ريب أن أسلوب العلمانية الذى اختطه هيكل وأسلوب السخرية الذى اختطه طه حسين كان وأسلوب تفسير البطولات الاسلامية بالوراثة التى اختطفه العقاد بمثابة المقدمة للمحاولات التى قدمت من بعد لتفسير حياة الرسول تفسيراً مادياً خالصاً على النحو الذى اصطنعه عبد الرحمن الشرقاوى . فكتاب محمد رسول الحرية يحاول أن يكتب عن الرسول الكريم على أنه زعيم من زعماء الحرية ولذلك فهو ينكر الوحى إنكاراً تاماً خلال كتابه كله ، فضلا عن أنه يجرى مجرى طه حسين فى التفسير المادى ويحاول أن يصور الرسول على أنه مصلح اجتماعى وأن هدف رسالته اقتصادى يرمى إلى إخراج الفقراء

من الفقر وبذلك يتخذ سيرة الرسول تبريراً للمفاهيم الماركسية ، فطه حسين وعبد الرحمن الشرقاوى لا يريان فى رسالة الإسلام إلا جانباً واحداً هو أنها ثورة فقراء ، وبذلك تخرجان عن مفهوم الرسالة الجامعة التى لا يمكن أن توصف بأنها ثورة لأنها رسالة خالدة والثورة موقف متصل بعصر أو بيئة فى حالة من أحوال التغيير ، وليس الذين آمنوا برسالة محمد هم الفقراء وحدهم ، وليس الهدف هو معالجة قضية الفقر وحدها . وينظر عبد الرحمن الشرقاوى إلى أمر الإسراء والمعراج على أنه منام ، كما يرى أن لقاء النبى لجبريل أول مرة فى غار حراء هو منام أيضاً . فهو يصور الرحلة إلى السماء التى وقعت بانتقال الرسول من مكة إلى بيت المقدس ومن بيت المقدس إلى السموات العلا على أنها رحلة فى المنام وعلى أن الوحى بالرسالة هو أيضاً من الأحلام . وهو حين ينكر كلمة الوحى ينكر كلمة القرآن فلا يذكرها وينسب كل معانى القرآن إلى النبى وينسب قصص القرآن على أنها تجارب النبى ، وهناك أيضاً محاولات الادعاء بأن النبى كان رحالة وأن ما جاء به كان نتيجة تجاربه لا بوحى من ربه، وهو يسترسل فى ادعاء أن محمداً كان رحالة معنياً بما عند الرومان والفرس ، ولا ريب فى فساد هذا الادعاء وكذب القول بأن النبى جاب البلاد العربية شمالا وجنوباً وأنه كان معنياً بما عند الرومان والفرس، ولا يوجد ما يدل على ذلك فى المصادر الصحيحة . أما ما ترجم من كتب عن الرسول إلى العربية فإننا نأخذ على المترجمين تركهم سوءات الكتاب الغربيين دون دحضها . ومثال ذلك كتاب المستشرق (ر. ف. بودلى) الذى ترجمه السحار وفرج تحت اسم (الرسول) فقد نسب بودلى إلى النبى ﷺ عبادة الأصنام ووصف النبى بأنه وارث الهاشميين حراس أصنام الكعبة وزل قدمه فى سيرة النبى وأزواجه الطاهرات وادعى استمداد الرسول من الرهبان فى رحلاته البعيدة المتعددة ومن الوعاظ فى سوق عكاظ .

وادعى أن النبى تأثر ببحيرا الراهب وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل وله إدعاءات كثيرة برحلات النبى إلى الشام واليمن وفلسطين وآسيا وآسيا الصغرى وفارس ، وكلها غير صحيحة. فإن رحلات النبى إلى الشام لم تزد على المرتين أو الثلاث ، وهو لم يجتمع مع بحيرا إلا فى المرة الأولى حيث كان فى صحبة عمه أبى طالب وكان فى الثالثة عشرة من عمره ، أما بحيرا فقد اعترف بنبوة النبى ومات قبل البعثة ، أما ورقة فكان موحداً ولم يعرف عنه دعوة إلى النصرانية . وأما قس بن ساعدة فقد كان موحداً مؤمناً بالبعث . أما أمية بن أبى الصلت فقد كان مثل قس فى العقيدة ويعلم أن نبياً يبعث من العرب ، ولم يرده عن الإسلام إلا الحسد بعد بعثة النبى .

وهكذا نجد أن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام لم تلق ما هى جديرة به من دراسة تاريخية أصيلة . فى مواجهة تحديات الاستشراق والتغريب والماركسية .

الفصل الثالث

الجهاد والفتح

كان تركيز الاستشراق والقوى التغريبية يستهدف أساساً ضرب القيم الأساسية الإسلام المتمثلة فى فريضة الجهاد التى كان لها الطابع المتميز الواضح المختلف عن أساليب الحرب والقتال التى عرفتها البشرية قبل الإسلام : فقد كان (الجهاد الإسلامى) عملا وقائيا أساساً ولم يكن عملا عدوانيا ولا حربياً بالمعنى المعروف ، فالمسلمون لم يتحركوا إلى الجهاد إلا عندما وقف العدو فى وجه دعوتهم ومنعهم من تبليغها وحال دون مسيرتهم لإذاعة كلمة الله إلى العالمين . هذا المعنى كان وما يزال غير مفهوم تماماً وعلى وجهه الصحيح فى دائرة الغرب التى عرفت مفهوم الحرب والقتال على غير هذا النحو . ولذلك كانت أكبر الشبهات التى وجهت إلى تاريخ الإسلام : فرية « انتشار الإسلام بالسيف والدعوى بأن الإسلام استولى على هذه البلاد التى دخلها عن طريق الحرب والقتال ، وهى فرية يرددها بعض الغربيين من المؤرخين فى محاولة لإثارة الشبهة حول طبيعة الإسلام وجوهر عملية الفتح التى قادها المسلمون ويستهدفون من ذلك الطعن فى الإسلام والتقليل من شأن اندفاعته وإثارة الغبار حول أسلوبها الذى يختلف اختلافاً كبيراً عما فعل ملوك أوربا حين اقتحموا بلاد الغال وفرضوا المسيحية بالقوة على أهلها وقتلوا وشنقوا وأسالوا الدماء . لقد كانت حركة التوسع الإسلامى حركة واضحة الدلالة : إنها تستهدف صد القوى المعادية المتسلطة التى تآمرت على الإسلام فى الجزيرة العربية وحاولت أن تتجمع للفتك به وهى القوى التى لم تكن إلا متسلطة مكروهة من أهل تلك الأقطار المسيطرة بأساليب القهر والعنف والظلم ، ولذلك فإن قوى الإسلام الفاتحة لم تكن تستهدف أكثر من تحرير هذه الشعوب من ذلك النفوذ الظالم دون أن تفرض على هذه الأمم دين الإسلام بل تركت لها حرية العبادة وأعطتها الفرصة الكاملة وأقامت لها جواً من السلام والرحمة والعدل . ثم كان أسلوب الحكم الإسلامى نفسه فى سماحته وعدله ورحمته هو الذى دفع هذه الشعوب التى استقبلته بالحماسة والفرحة لأنه خلصها من الظالمين — دفعها إلى اعتناقه والدخول فيه ، وموقف كتاب الغرب من هذه القضية وغيرها يختلف باختلاف التيارات ، فإن الدول التى استعمرت العالم الإسلامى (الفرنسيين والانجليز والهولنديين) كانوا حريصين عن طريق الاستشراق أن يغضوا من قدر الاسلام وعظمته ليمهدوا لسيطرة نفوذهم ولإخضاع الأجيال الجديدة للإعجاب بحضارتهم والتنكر لعقيدتهم وتاريخهم ، وكان هناك تفسير مسيحى مصدره التبشير وهو مواز للتفسير الاستعمارى مرتبط به ، يستهدف الانتقاص من قدر الإسلام حتى لا يجد ذلك فى النفس الغربية إعجاباً وتقبلا ، ثم جاء التفسير الماركسى للتاريخ ، وهو تفسير مادى لا يرى فى الفتح والجهاد إلا صورة الدافع الاقتصادى الذى جرى عليه فى تفسير وقائع التاريخ كله ، ومن ثم فإنه يرى أن المسلمين خرجوا من جزيرتهم من أجل الرزق وبحثاً وراء الثروة وطمعاً فى الغنائم ، وهذا التفسير لم يخدع أحداً ، فقد عرف المثقفون جميعاً أن الاقتصاد عامل من العوامل المحركة للتاريخ ولكنه ليس

العامل الوحيد وليس العامل الأكبر وأن هناك عوامل أخرى كثيرة حركت التاريخ وكان للإيمان والعقيدة أثرها الكبير فى حركة التاريخ وفى حدوث كثير من التغييرات الضخمة والتحولات الخطيرة البعيدة المدى ، كذلك فإن من يقرأ تاريخ الإسلام ويعرف القليل عن هذه العقيدة يعرف أن ذلك التحول الخطير الذى أحدثه الإسلام فى سبعين عاماً لا يقاس بالمقاييس المادية وأن المسلمين الذين خرجوا من ديارهم وتركوا أهليهم وثرواتهم وماتوا فى سبيل كلمة الله لم يكونوا طلاب غنم أو مال وإنما كانوا يؤمنون بفكرة عميقة امتلكت عليهم أنفسهم فباعوا أنفسهم وأموالهم وقدموا أرواحهم رخيصة من أجل تحقيقها وصارعوا الدولتين الكبيرتين فى أوج مجدهما وهم الأقل عدة وجنداً وما كانوا ينظرون إلى هذا الأسلوب المادى من حساب النفوذ المادى فقد كانوا يؤمنون بأن تأييد الله لهم سوف يجعلهم أكبر من عددهم أضعافاً مضاعفة وأنه سيحقق لهم النصر لأنهم خرجوا فى سبيل غاية عليا وفى سبيل إحقاق كلمة الله وتحرير الأمم والشعوب من ظلم الظالمين وإخراج الناس من عبادة الفرد إلى عبادة الواحد القهار . ولقد جاء التفسير اليهودى للتاريخ أيضاً فكانت وجهة نظره مما لا يقنع العقل المتطلع إلى الحقيقة لأنها أقامت رأيها على الهوى والمطمع والتزييف الحقائق لإقرار فكرة ليست لها فى الفطرة الإنسانية تقبلا ولا فى العلم الصحيح مكاناً ، هى فكرة السيطرة العرقية باستعلاء العنصر والدعوى باسم شعب الله المختار وبتزييف وعد الله لإبراهيم وأمته وقصره على إسرائيل وحده وإنكار إسماعيل وفرعه كله ومن هنا نرى أن التفسيرات الوافدة كلها للتاريخ تحمل أهواء وتسوقها أغراض ، وتقدم شبهات وزيوف ونظريات لا تثبت كثيراً أمام الحقيقة . وقلما نجد فى كتابات مؤرخى الغرب روح الانصاف الكاملة ، لأن اختلاف العقائد ووجهة الثقافة والغايات من شأنه أن يحول دون اعتناق مفهوم الاسلام وتفسيره الصحيح إلا القلة من الذين آمنوا بالاسلام نفسه أمثال : محمد أسد وإتيان دينيه وعبد الكريم جرمانوس ، ومع ذلك فإن هناك جزئية من الانصاف نجدها فى قول ارنولد توينبى الذى نفى الإكراه فى الدعوة الاسلامية وأنكر أسطورة انتشار الاسلام بالسيف حين قال : من الميسور أن تسقط الدعوى التى شاعت بين جوانب العالم المسيحى غلواً فى تجسيم أثر الإكراه فى الدعوة الاسلامية ، إذ لم تكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الاسلام والسيف وإنما كان تخييراً بين الاسلام والجزية وهى الخطة التى استحقت الثناء لاستنارتها »

ويعترف أرنولد توينبى بأن الاسلام حرر ساحل البحر الأبيض من نفوذ استمر ألف عام قبل الاسلام فأصبح وكأن لم يكن . يقول « حرر الاسلام ساحل البحر الأبيض المتوسط من سلطان أغريق رومانى مسيحى من سوريا إلى أسبانيا عبر شمال أفريقيا ، وكانت تلك البلدان تحت الحكم الأغريق والرومانى نحو ألف من السنين منذ فتح الاسكندر الأكبر الامبراطورية الفارسية وإسقاط الرومانيين لقرطاجنة ، وذلك بين القرن الحادى عشر والسادس عشر قبل الميلاد » . وتلك هى القصة التى يلوكها المتعصبون فى الغرب من كتاب الاستشراق التابع للنفوذ الاستعمارى ، أو كتاب التبشير التابعين للكنيسة وهى دعوى باطلة وزائفة حين يقول أحدهم : « رد ما أخذه الاسلام من المسيحية » .

والحق أن المسيحية لم تكن فى هذه المناطق وإنما كان هناك النفوذ اليونانى والرومانى المتعصب

المسيطر بالظلم والاستبداد على هذه المنطقة التى لم تكن ملكا له يوماً ، هذه المنطقة القائمة على ساحل البحر المتوسط من سوريا إلى المغرب لم تكن ملكا للغرب ولا جزءاً من وطنه ، وإنما كانت عربية منذ آلاف السنين قبل الاسلام انداحت عليها موجات الهجرة المتلاحقة التى خرجت من الجزيرة العربية وتوالت والتى كانت بمثابة توسيد الموجة العربية الاسلامية الكبرى التى التقت مع جذورها الفينيقية والفرعونية والآشورية والبابلية والعبرية جميعاً . والحقيقة التاريخية تقرر أن العرب منذ عهد جاهليتهم يرون أن حدود جزيرتهم من الشمال هى جبال طوروس ، ولكن مؤرخى اليونان والرومان حاولوا بعد السيطرة على سوريا أن يجعلوا حدها مشارف الشام فقلدهم من جاء بعدهم من العرب والفرنجة التى كتبوا تاريخاً غير منصف ، والمعروف أن مساحة الجزيرة العربية وحدها إلى مشارف الشام كمساحة انجلترا ثمانى مرات ، توالت موجاتها بالشام والعراق ، ومنهم السومريون الذين أقاموا حضارة باذخة وهم الذين أنشأوا مخازن حبوب فلسطين بالزفت والتى تعود كما قدر العلماء لعشرين ألف عام . أما الذين حلوا فى مصر من هذه الموجة فقد حصروا اللغة الهيلوغريفية فى المعابد والدوائر الرسمية ونشروا لغتهم بين الشعب قبل أن يعرف الناس اسم سام وحام ثم اتصلوا بالجزيرة الأم بقناة حفروها بين النيل والبحر الأحمر منذ أربعين قرناً ، ومنهم دولة حكمت القسم الشمالى من العراق قبل أربعين قرناً ، أما الموجة العربية الثانية فقد اتجهت إلى الشام ومصر والعراق وشمال أفريقيا : كلدانيون وأثوريون وأشوريون وسوريون وسريان وأراميون . وجاءت موجة أخرى بعد سد مأرب نحو الشام ومصر والعراق وشمال أفريقيا ومنها مناذرة العراق وغساسنة الشام وغيرها من القبائل كربيعة ومضر وبكر وتغلب ، وحتى أواخر الفترة وهؤلاء هم الذين واجهوا الاحتلال الرومانى ثم الرومى والفارسى والحبشى قبل الاسلام . ولما دخلت الموجة الاسلامية مصر والسودان وشمال أفريقيا وجدت العربية سابقة لها ولكن حين دخلت فارس والهند والصين والتركستان لم تجد جذورها فعاشت لغة للدولة ثم انسحبت بانسحابها . ولا ريب أن هذا الواقع التاريخى يدحضه تلك الشبهة التى ترددها كثير من كتب التاريخ عن هذه المنطقة التى وقعت تحت النفوذ اليونانى الرومانى ألف عام ثم حررها الإسلام بأن أعادها إلى أهلها وإلى طبيعتها الأصيلة ، والواقع أن كتب التاريخ التى بين أيدى طلبتنا وشبابنا لا توضح هذه النقطة وتتغافل عن أن تكشف حقيقة الرومان وأنهم كانوا أجانب عن سكان المنطقة التى انتشر فيها الاسلام وأن وجودهم هذا كان استعماراً غاشما ، وأن الرومان تآمروا على الدعوة الاسلامية وهى فى قلب الجزيرة وحاولوا محاولات متعددة لقتل الرسول ﷺ وتجميع الجموع لسحق الدولة الصغيرة قبل أن تستكمل قوتها . ومن هنا كان إعداد النبى لبعث أسامة قبل أن يختار الرفيق الأعلى وحشد كبار الصحابة فيه علامة على أهمية هذه الثغرة .

وكذلك فإن رومية تركت فى أفريقيا آثاراً لا تمحى ، وكان من تلك الآثار أنها تكلمت اللاتينية ستة قرون وأنشأت الكنيسة آباءاً عظاماً — على حد تعبير مجلة الشرق — مثل القديس أوغطيوس ، ومع ذلك اضمحلت فيها كل تلك الآثار الرومانية والمسيحية وبسط الإسلام نفوذه واكتسح ميراث الامبراطورية الرومانية خلال ألف عام فى سنوات قليلة وسيطر على الشام ومصر

والمغرب كله وأصبح البحر الأبيض المتوسط فاصلا حقيقياً بين حضارتين ودينين .

(٢) إن القول بأن المسلمين هاجروا إلى المدينة أو خرجوا من الجزيرة لأن الصحراء مجدبة ، هو دعوى مبطلة ورأى فاسد ، ذلك أن خروج المسلمين من مكة إلى المدينة حين هاجروا إنما كان عن إرادة حرة ولم يرض على أحد منهم أن يترك ماله وثرواته وآله وداره إلى مصير مجهول فى يثرب ، وإنما جاء ذلك بدافع الإيمان العميق الذى ملأ هذه النفوس ودفعها إلى التضحية بكل ما تملك فى سبيل إعلاء كلمة الله . هؤلاء المؤمنون أنفسهم أصحاب الهجرة هم الذين تدافعوا تحت رايات الجهـــاد يطلبون إحدى الحسنيين : الموت أو النصر من أجل تركيز رايات الإسلام فى الأرض وإبلاغ العالمين كلمة التوحيد فلم تكن الغنيمة فى تقديرهم فى الأولى ولا فى الآخرة ، وإنما كانت الفكرة المؤمنة والعقيدة الصامدة القوية التى هى عامل أساسى فى تفسير التاريخ عجز عنه الذين قالوا بالتفسير المادى أو التفسير الاقتصادى أو التفسير الجغرافى وهو عامل أشد قوة وأعظم أثراً من كل هذه العوامل ، لأنه هو العامل الأصيل فى تغيير أوضاع المجتمعات والذى أعاد رسم خريطة العالم ، وقد عبر المسلمون عن هذا المعنى حين قال قائلهم : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

ومن هنا قلب المسلمون موازين التقديرات فى الحروب وحققوا النصر بالقلة المؤمنة ذات العدة القليلة على الكثيرة الكافرة حيث أصبحت فئة قليلة تغلب فئة كبيرة بإذن الله لأنها حيث تقاس قلتها وكثرتها إلى العدة والعدد يجىء عامل الإيمان فيضاعف جانب القلة العددية فترجح كفتها ، وفى مختلف المعارك التى خاضها المسلمون كانوا « القلة » العددية بالنسبة لأعدائهم ، فقد كانوا فى بدر ألفاً أمام ثلاثة آلاف ، وفى اليرموك ثلاثة آلاف أمام مائة ألف ، وبهذه الأعداد القليلة انتصر المسلمون على قوى امبراطوريتى الفرس والروم وهى تملك الأعداد الضخمة والإمكانيات الفائقة ، ولو كان المسلمون طلاب غنيمة لعجزوا عن أن يقتحموا آفاق الأرض معركة بعد معركة ولتشبثوا بمتاع الدنيا وحرصوا عليها ، ولكنهم بشهادة التاريخ نفسه تدفقوا دون توقف حتى بلغ قائدهم المحيط الأطلسى وغرس أقدام فرسه فى الماء ونظر فلم يجد فى الأفق علامة على أرض أخرى فقال : يا رب لو أعلم أن وراء هذا الماء أرضاً لخضته مجاهداً فى سبيلك ، وصدق عبد الله بن رواحة الذى قال : ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة . وصدق رسول الله ﷺ الذى رسم هذا الطريق واضحاً : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ، والحق أن إيمان المسلمين بفريضة الجهاد هى العامل الأول فى حركة انتشار الإسلام وحمايته والدفاع عنه ، ولا يمنع هذا من أن هناك عوامل كثيرة تاريخية واقتصادية واجتماعية ومادية كانت وراء أحداث تاريخ الإسلام فى مختلف مراحله غير أن العامل الأول والأكبر ظل هو الإيمان بفريضة الجهاد لنشر الإسلام وحمايته والدفاع عنه . ولقد كان الإيمان بأن الموت واهب الحياة هو عدة المسلمين فى مجال النصر وهو العامل الأول فى معاركهم ، وقد كان هو مصدر اليقين فى تحقيق النصر ، حيث كانت الغنيمة أو غريزة

حب السيطرة أو غلبة القبلية أو الدم هى مصدر التحرك عند عدوهم وخصمهم . فقد كانت حروب خصوم الاسلام قبل الاسلام وفى مواجهته إنما تقوم على الشهوات والأهواء والمطامع يحددها حب المغنم والسلب والنهب ويذكى أوارها حب التشفى والانتقام ثم هى تقوم فى حركتها على التخريب والتدمير ونقض العهود والمواثيق . ولكن الاسلام جاء ليعلم البشرية كيف يكون الجهاد عملا فى سبيل الله وكيف يكون مأذونا به حين يحال بين الدعوة وبين انطلاقها وحين يظلم أهلها ويخرجون من ديارهم ثم كان أسلوبه الكريم الرفيع الذى يعلو على الانتقام والتخريب ونقض العهود حيث لا مغانم ولا مجد شخصى للملوك والقواد . ومن ثم تتقرر الحرب فى الاسلام إلا فى حالتين اثنتين : الوقوف بالقوة المادية فى وجه الدعوة السلمية أو الاعتداء على حرية العقيدة وفتنة المسلمين عن دينهم أفراداً وجماعات . والهدف هو أن يكون الاسلام دين البشرية لا عن طريق الاكراه ولكن عن طريق الدعوة . وفى أسلوب الجهاد الاسلامى ومفهومه للحرب يكمن سر الانتصار ويكمن سر ذلك التوسع الذى أذهل غير المسلمين من دارسى الحضارة والتاريخ نظراً للوقت القصير الذى تم فيه النصر المؤزر الكاسح . فقد كان الهدف ربانياً وحملة اللواء لا مطمع لهم فى الدنيا وكانت الحرب غير عدوانية بل دفاعية ، وقد اقتصرت على دفع الظلم ورد العدوان والدفاع عن النفس والمال والعرض والأهل والدين .

ولما كانت الحرب من فطرة الناس فقد هذب الاسلام فكرتها وحصرها فى أضيق الحدود .

(٣) كذلك نجد أن الذين ركزوا على الأسباب الاقتصادية فى الفتح الاسلامى كانوا واهمين وكانوا يهدفون إلى التقليل من شأن تلك الانطلاقة القوية المؤمنة أو تفسيرها تفسيراً مادياً منكرين أثر الاسلام نفسه كعقيدة فى بناء هذه النفوس ودفعها إلى الجهاد فى سبيل الله وتقديم أرواحهم رخيصة من أجل غاية معنوية عالية . وقد ردد هذا الرأى فيليب حتى فى كتابه (تاريخ العرب) وذهب إليه مستشرقون كثيرون منهم كيتانى وبيكر ، بل إن توماس أرنولد صاحب كتاب الدعوة الاسلامية الذى عرف بالانصاف لم يستطع أن يستوعب الحقيقة فقال : « ويعتبر توسع الجيش العربى على أصح تقدير هجرة جماعية نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها الجدبة وتجتاح بلاداً أكثر خصباً كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظاً . ولم يكن هذا فى الواقع إلا ترديداً لما قاله رستم لجيوش المسلمين حين قال : قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ولكن قادة الفتح المسلمين دحضوا مقالته وكشفوا له عن الوجه الحقيقى لأمرهم ، حين قال ربعى بن عامر (إن الله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام) ولم يصدق أرنولد حين قال : إن البلاد كانت ملكا لجيران أسعد حظاً فإن الرومان لم يكونوا فى الحقيقة يملكون الأرض ولكنهم كانوا مستعمرين ، بل إن التقدم الاسلامى نحو الشام كان تقدماً فى المنطقة العربية الغسانية ولم يتجه إلى ما وراءها إلا بعد أن حشدت الامبراطورية الرومانية حشودها لقتال العرب فاضطر المسلمون إلى مواجهة هذه الحشود فى اجنادين عام ١٣ هـ .

وكما تآمرت الدولة الرومانية على الحدود الشمالية للجزيرة العربية على النحو الذى دفع النبى إلى موالاة إرسال حملات مؤتة وتبوك وبعث أسامة فإن عمال فارس كانوا يتحضرون لقتال العرب

وسحق انطلاق الإسلام ، فلما انتصر العرب على الفرس اكتفوا بضم العراق العربى ومنع الخليفة عمر جيوشه من دخول إقليم فارس واعتبر الجبال الفاصلة بين العراق وإيران حداً طبيعياً ، ولكن الفرس اخذوا يجمعون جموعهم لإزالة المسلمين ، وأمام هذا التهديد تقدمت الجيوش ففتحت فارس كلها كما نقلت فى الجبهة الرومية أمام التهديد الرومانى ففتحت الجزيرة وفتحت مصر ، وهذا كله يؤكد أن الفتوح الاسلامية كانت حركة سياسية وحركة اضطرارية اندفع إليها المسلمون بحق حماية النفس وهى حين انتصرت فى الحرب لم تستعبد الشعوب وإنما أتاحت لها الحرية الدينية والحكم العادل الذى كانت تفقده ولذلك فإن الشعوب استقبلت الفتح الاسلامى فى كل مكان بالفرحة الغامرة لتخليصهم من مظالم الحكم الرومانى الظالم والفارسى المستبد ، ويصور بتلر فى كتابه فتح العرب لمصر جانباً من هذه الحقيقة حين يقول : إن كثيراً من أهل الرأى والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان فيها من عصيان لصاحبها إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء فى الله ، ونسيت ذلك فى ثورتها وحروبها التى كانت تنشب بين شعبها وأحزابها ، ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الاسلام فاعتصموا به واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته . وجماعة أخرى رأوا أن الاسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ويساوونهم بالفاتحين فى شرف محلهم ويجعلهم إخوانهم فى كل شىء ، يسهم لهم فى الفىء ولا يفرض عليهم الجزاء ولا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحناً وحطم يقينهم باضطهاده » .

والمعروف أن الفتح الاسلامى لم يكن فى مواجهة أهالى البلاد وإنما كان فى مواجهة المحتلين والمستعمرين وهم الدولة الرومانية .

(٣) لقد كان الفتح الاسلامى نموذجاً فريداً ، لم تكن غايته ضم البلاد المفتوحة إلى أملاك الفاتحين وإنما كانت غايته إعلاء كلمة الله ، فكلما وطئوا أرضاً عرضوا على حكومتها وشعبها الاسلام فإن قبلوا به واتبعوه انصرفوا عنهم وعدوهم إخواناً لهم ، فإن لم يقبلوا أعطوهم الحرية فى أمور دينهم وتعهدوا لهم بالأمن الداخلى والخارجى ولم يكرهوا أحداً على الاسلام . ولم يعمد الفاتحون المسلمون إلى إفناء السكان الأصليين أو إجلائهم ، ولا يقيمون المستعمرات أو يضعون الحواجز بينهم وبين سكان المدن التى انتقلوا إليها سكانها المقيمون من قبل والمهاجرون الوافدون إليها سواء فى الاعتبار الانسانى أو الحقوق القانونية . كما اتسمت الفتوح الاسلامية بالسرعة الباهرة ، فقد سرت فى أقطار آسيا وأفريقيا وأوربا وهرع الناس إلى الفاتحين من كل جانب يتقبلون نظامهم . ولعل أبلغ عبارة فى وصف الفتوح الاسلامية ما قاله الامام ابن تيمية حين قال : إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الاسلام إلى الأمم ولكنهم نقلوا الأمم إلى الاسلام ، فهو بذلك نسيج وحده فى تاريخ البشر لا يشبهه فتح ولا يدانيه ولا يقاس به ، فقد خرج المسلمون يعلنون كلمة الله وينشرون دينه ويبذلون فى سبيل الله دماءهم وأرواحهم ويفارقون من أجله ديارهم وأهليهم ، لا يبغون علواً فى الأرض ولا فساداً ، وهم فى فتوحهم لا يغدرون ولا يمثلون ولا يجهزون على جريح ولا يحاربون امرأة ، ولا يتعرضون لعاجز ولا يمسون معبداً ولا يحرقون داراً .

والحق أن الأمم لم تعرف فاتحاً أرحم من العرب كما قال جوستاف لوبون حتى لا إكراه فى الدين وحيث من شاء فليؤمن ، ومن شاء غير ذلك فله ذلك بملء حريته . ولقد كان الاسلام فى فتوحه وحكمه قائماً على حرية العقيدة بعيداً عن القهر والغلب ، ويصدق فى هذا ما أثبته الشيخ محمد عبده حين قال : لم يعهد فى تاريخ الفتوح الاسلامية إن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل على نشره ويقفون مسعاهم على بث عقائده من غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا وإحساناً عند ما كان يعدها الأوربيون ضعة وضعفاً . ولم يظهر فى تاريخ الاسلام أفراد متعطشون للدماء أمثال الاسكندر ونيرون وريتشارد ونابليون وإنما كان أبطال الجهاد الاسلامى رجال رحماء تمتلىء صدورهم شوقاً إلى إنقاذ البشرية من الظلم والعبودية والانحلال .

وفى مجال البطولة والحرب كان أعلام المسلمين يتميزون بالبراعة والحنكة على نحو يرتفع ارتفاعاً كبيراً عن تلك النماذج الغربية التى حاولت مناهج دراسات التاريخ فى بلادنا أن تبرزها . وفى هذا يقول العلامة رفيق العظم . أن ممن اشتهر فى التاريخ ذكره وعظم فى عهده أثره « هنيبال » بطل قرطاجة الشهير الذى ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعة بنيانهم ، فاجتاز إليهم جبال البرنية بجيوش جرارة وجند كثيف لينازلهم فى صميم بلادهم ويستنزل أقيالهم عن منصات مجدهم ، ومع هذا فأين هو من موسى بن نصير ومولاه طارق اللذين جاءا من أقصى العربية إلى أقصى المغرب ، فدوخا ممالك هنيبال القديمة فى أفريقيا الشمالية وقطعا بجندهما القليل البالغ اثنى عشر ألف مقاتل مضيق سبتة إلى القارة الأوربية ففتحا مملكة الأندلس وقضيا على دولة القوط بالدمار ، بل أين هو من عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، الذى اقتحم ما وراء البرنية على عهد الخليفة الأموى وانساح بجيشه القليل فى أحشاء المملكة الفرنساوية حتى بلغ بواتو وبورغونيا على مسافة ألف ميل من جبل طارق ، فذعرت منه سكان الممالك الأوربية واستجاشت لقتله وصدته الجنود الفرنساوية والسكسون والقوط والجرمان حتى تمكنوا من إرجاع جيشه على أدراجه وأوقفوا تياره الذى كاد يكتسح الممالك الأوربية بقوة مجاجه . وأين نابليون الذى طبقت شهرته التاريخية الآفاق وعده الأوربيون من أشهر القواد فى العالم لحروب طويلة أصلاهم نارها وأذاقهم شدة أوارها ، لم تأت لدولة بفتح جديد أو خير عتيد ، من قتيبة بن مسلم فاتح السند وتركستان ، أو عبد الملك بن مروان الذى تولى منصب الخلافة وقد تنازعتها أطماع الطامعين واشرأبت إلى التحزب والانقسام أعناق المسلمين فبادر إلى تلافى الخطب مبادرة الحكيم واستظهر على الشدائد ببعد النظر والرأى ، فذلل صعاب الأمور وأرغم من خالفه من الناس على الطاعة ، ثم بعد أن استخلص لنفسه الخلافة وأجرى أمور الملك مجرى السداد والطمأنينة ، أطلق للجيوش الاسلامية عنان الفتح والغارة ، فجاست خلال الممالك وجابت شطوط المحيطين مرفوعة أعلام الظفر واثقة من نصر الله لها وحفوف عنايته بها » .

وهكذا نجد أن صفحات البطولة الاسلامية حافلة بما لم تحفل به بطولات الأمم من مجد وفخار قائم على الخلق والسماحة والعفو والمرحمة وهو ما لم تعرفه بطولات الحرب فى كل مكان ، وكانوا فى حربهم لاينقضون العهد ولايخفرون الذمة ، تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وقد أزالوا سلطان الجبارين عن الضعفاء والمساكين ، وآمنوا الناس على ما تملك أيديهم وما ينالة جدهم وسعيهم .

الفصل الرابع

الخلاف بين الصحابة

لم يستغل الاستشراق أمراً من أمور التاريخ الاسلامى كما استغل هذه المرحلة التى بدأت فى أواخر ولاية عثمان بن عفان وبين ولاية على ومعاوية ، فقد اتخذت مجالا لبسط عديد من الشبهات ، ولإثارة مشاعر المسلمين بتصوير الموقف على أنه نحو من أنحاء الخلاف العنيف والصراع الشديد ناسين أو متجاهلين أن هؤلاء الصحابة أبطال هذه المرحلة هم صحابة رسول الله ﷺ ، والذين تشكلوا فى ظل الدعوة الاسلامية تشكيلا خاصاً ، فكانوا نماذج من الإيمان والبطولة والوفاء ، ومن ثم فلا يمكن أن يقايسهم المؤرخون بمقاييس الساسة ورجال الاحزاب أن يصوروهم على أنهم يصارعون للمطامع والأهواء . فضلا عن أن المسلمين نهوا عن الخوض فى شأن هذا الرعيل من الرواد الاول الذين حملوا راية الاسلام وفتحوا بها الآفاق داعين إلى الله ناشرين كلمته فى الخافقين ولذلك فإن محاولة الاستشراق فى إفساد هذه المرحلة وإثارة الشبهات حولها والاعتماد على بعض النصوص الزائفة أو التى لم تصح إنما كان يستهدف تدمير هذه الصورة الرائعة التى أقامت دولة الاسلام ودفعته إلى حدود الصين شرقاً ، وإلى حدود فرنسا غرباً . ومن عجب أن الكتب التى شاعت فى أيدى الطلاب والشباب قد حملت هذه الصورة القاتمة وما زالت تحملها ، لأن الذين كتبوا هذه الصفحات كانوا من أولياء الإشراق ودعاة التغريب ، وكان خليقاً بالعرب بعد أن تحررت إرادتهم من النفوذ الاستعمارى والاحتلال الأجنبى أن يعاد صياغة تاريخ الاسلام من جديد فى ضوء الحقائق الصادقة والوقائع الصحيحة ، وأن تستبعد هذه الروايات الكاذبة والمشوهه والزائفة . . ونحن نعرف أن تاريخ الاسلام لم يبدأ تدوينه إلا فى أوائل العصر العباسى ، وهو عصر كان لرجاله موقف من الدولة الأموية التى ترتبط بالأحداث منذ عهد عثمان رضى الله عنه ، كما أن لها موقفها من حكم على بن أبى طالب وخلافه مع معاوية .

ولا شك أن صحابة رسول الله قد اختلفوا ووقعت بينهم المواقع ، ولكن الأمر كان بفعل عوامل خارجية كثيرة ، أهمها هذه المؤامرة السبئية التى رسمها عبد الله بن سبأ ، والتى يجب أن ندرس بتوسع

ويكشف عن أبعادها الخطيرة ، هذه الأبعاد التي امتدت إلى الأمصار الاسلامية وتحركت بعنف في أواخر عصر عثمان وخلال عصر علي وتركت بصماتها بعد ذلك ، وعبد الله بن سبأ يهودي من صنعاء أمه سوداء تظاهر بالإسلام على عهد عثمان وتنقل في البلاد الاسلامية ، وهو رأس المؤامرة التي أدت إلى مقتل عثمان وموقعة الجمل . بل إن ما يلقيه المؤرخون من تبعات على بعض الصحابة كعلي وطلحة والزبير وعائشة هو بعد التمحيص من التبعات الثانوية ، أما أقوى الأسباب التي أرثت الشعب وأهاجت الاضطرابات فهي مؤامرة واسعة منظمة محكمة سهر عليها عبد الله بن سبأ ورجاله وتعهدوها في جميع الأقطار حتى أتت ثمرها المر ومزقت وحدة الصف الاسلامي .

ولقد بدأ عبد الله بن سبأ مؤامرته من نقطة خطيرة هي إدخال فكرة الوصية والرجعة إلى الفكر الاسلامي بالقول برجعة محمد ﷺ بعد موته ، والوصية لعلي بن أبي طالب ، وقد أراد بذلك تسميم العقيدة الاسلامية ، فكان يقول : « العجب من زعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع ، ومحمد أحق بالرجوع من عيسى » . وقوله : « إذا كان ألف نبي ولكل نبي وصي فإن عليّ وصي محمد ، ومحمد خاتم الأوصياء (تاريخ الطبري ج ٣) . وقد رحل بهذه الأفكار إلى الحجاز والبصرة والكوفة ودمشق ومصر يبثها وينشرها ويجمع حوله الأتباع ، وقد بث دعاته في كل مكان ، وأشار عليهم أن يظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والطعن في الأمراء . ومضى رجاله يثيرون الناس على ولاتهم تنفيذاً لخطة زعيمهم ويضعون كتباً في عيوب الأمراء ويرسلونها إلى غير مصر من الأمصار، وقد نتج عن ذلك قيام جماعات من المسلمين بتحريض السبئيين وقدومهم إلى المدينة وحصارهم عثمان في داره . وكان ابن سبأ يقول : « إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر » . وآتت حركة عبد الله بن سبأ نتائجها فشغلت القوى الاسلامية بعضها ببعض وحالت بينها وبين العمل لنشر الاسلام .

ولما سقط الخليفة عثمان وضج الناس من هول الفاجعة بدأ حلقة أخرى لينجو بها هو ومن معه من القصاص ثم يتحفز لإحكام مؤامرة أكبر . وسوق هذه الجماهير نحو فاجعة أكبر وكارثة لا تذكر إلى جانبها كارثة مقتل عثمان ، فانضم هو ومن تابعه إلى علي بن أبي طالب حين خرجت السيدة عائشة المطالبة بدم عثمان . ولما علموا بأن المسلمين قد تصالحوا على حل الأمور سلماً وإجراء الصلح ، وإن رؤساء الجيش أخذوا يتداعون وأنهم إن تم ذلك سيأخذون بدم عثمان ، أجمعوا أمرهم ليلا فوزعوا أنفسهم واندسوا بين الجيش وأثاروا الحرب بكرة دون علم غيرهم واستطاعوا أن ينفذوا هذا القرار قبل أن يبدأ الجيشان المتقابلان فناوش المندسون من السبئيين في جيشي عليّ من كان بإزائهم من جيش البصرة ، ففزع الجيشان وفزع رؤساؤهما وظن كل بخصمه شراً ووقعت الحرب .

وقد سجل الطبري هذه المؤامرة (ج ٢) ، فنقل عن ابن السوداء قوله : « إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم إذا التقى الناس غداً ، فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر ، فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون فابصروا الرأي وتفرقوا عليه

والناس لا يشعرون » . . ومن راجع أخبار موقعة الجمل فى تاريخ ابن الأثير ترى مبلغ تأثير إفساد السبئيين لذات البين والحيلولة دون وقوع الصلح . وهكذا خرج مضريهم إلى مضريهم ، وربيعهم إلى ربيعهم ويمانيهم إلى يمانيهم ، فوضعوا فيهم السلاح ، فثار أهل البصرة وثار كل قوم فى وجوه أصحابهم الذين بغتوهم وحيرتهم الصدمة ، وخرج طلحة والزبير فسألا : ما هذا ؟ قالوا : طرقنا أهل الكوفة ليلا فقالا : قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا ، واستطاع أهل البصرة أن يصدوا أولئك المعتدين حتى ردوهم إلى عسكرهم . وقال على : قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة . والتحم الناس بعضهم ببعض، وبدأت المعركة وانحسرت عن خمسة عشر ألف من القتلى وما لا يحصى من الجرحى ، وكان ممن قتل رؤوس المهاجرين والأنصار وزعماء الناس وعدد جم من القراء والعلماء والمجاهدين » .

ولما قتل عثمان انضم ابن سبأ ورجاله إلى على ، فلما انكشف له أمرهم نفاهم إلى المدائن . وكان لابن سبأ مساجلات أثار فيها الشبهات مع أبو ذر وعمار بن ياسر ومحمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة ، ولكن كثيراً منهم كشفوا زيفه ومؤامرته . ومع هذه الآثار الضخمة حاول الاستشراق ودعاة التغريب التقليل من شأن عبد الله بن سبأ ، بل ذهب البعض إلى إنكاره تماماً ، وقد ردد الدكتور طه حسين هذه المعانى بينما تكشف الوثائق التاريخية أن ابن سبأ وجماعته كانوا يعملون لحساب دولة أجنبية هى دولة الروم (سعيد الأفغانى : الرسالة ١٩٤٥) . وهكذا نجد أن تاريخ هذه المرحلة لم تكتب بعد كتابة علمية صحيحة ، بعيداً عن كل العوامل التى أثرت فى المؤرخين القدامى ، على النحو الذى صور الخلاف بين الصحابة على أنه أشبه بمؤمرات ومناورات رجال الحكم الحديث بينما لم يكن صحابة رسول الله إلا مثلا عاليا للخلق والنبل والفضل . ويشير السيد محب الدين الخطيب ومن قبله القاضى بن العربى فى كتابه : العواصم من القواصم إلى أن الذين تصدوا لتدوين تاريخ الاسلام فى هذه المرحلة ثلاث طوائف :

(الأولى) تنشد العيش والجدة من التقرب إلى مبغضى بنى أمية .

(الثانية) طائفة ظنت أن التدين لا يتم ولا يكون التقرب إلى الله إلا بتشويه سمعة أبى بكر وعمر وعثمان وبنى عبد شمس جميعاً .

(الثالثة) طائفة من أهل الإنصاف والدين (كالطبرى وابن عساكر وابن الأثير وابن كثير) رأت أن من الإنصاف أن تجمع أخبار الأخباريين من كل المذاهب والمشارب .

وقد وصلت إلينا هذه التركة لا على أنها تاريخ بل على أنها مادة غزيرة الدرس والبحث نستخرج منها تاريخنا وهذا ممكن ميسور . ويقول السيد محب الدين الخطيب : إن أحداث المائة الأولى من عصور الاسلام كانت من معجزات التاريخ ، والعمل الذى عمله أهل المائة الأولى لم تعمل مثله أمة الرومان ، ولا أمة اليونان قبلها ، ولا أمة من أمم الأرض بعدها ، أما أبو بكر وعمر وسائر الخلفاء الأربعة الراشدين وإخوانهم من العشرة المبشرين بالجنة وطبقتهم من أصحاب رسول الله ﷺ خصوصاً الذين لازموه وراقبوه وتمتعوا بجميل صحبته — من أنفق منهم من قبل الفتح وقاتل والذين أنفقوا من

بعد وقاتلوا — فإنهم جميعاً كانوا شموساً طلعت فى سماء الإنسانية مرة ولا تطمع الإنسانية بأن تطلع فى سمائها شموس من طرازهم مرة أخرى إلا إذا عزم المسلمون على أن يرجعوا إلى فطرة الاسلام ، وإذا بدأ المشتغلون بتاريخ الاسلام من أفاضل المسلمين فى تمييز الأصيل عن الدخيل من سير هؤلاء الأفاضل العظماء فإنهم ستأخذهم الدهشة لما اخترعه إخوان أبى لؤلؤة وتلاميذ عبد الله بن سبأ والمجوس الذين عجزوا عن مقاومة الاسلام وجهاً لوجه فى قتال شريف فادعوا الاسلام كذباً ودخلوا قلعته مع جنوده خلسة وقاتلوهم بسلاح التقية ، بعد أن حولوا مدلولها إلى النفاق ، فأدخلوا فى الاسلام ما ليس منه ، وألصقوا بسيرة رجاله ما لم يكن فيها ولا من سجية أهلها .

ولقد كان الصحابة أسمى أخلاقاً وأصدق إخلاصاً لله وترفعاً عن خسائس الدنيا من أن يختلفوا للدنيا ولكن كان فى عصرهم من الأيدى الخبيثة التى عملت على إيجاد الخلاف وتوسيعه مثل الأيدى الخبيثة التى جاءت فيما بعد فصورت الوقائع بغير صورتها . ولما كان أصحاب رسول الله ﷺ هم قدوتنا فى ديننا وهم حملة الكتاب الإلهى والسنة المحمدية إلى الذين حملوا عنهم أماناتها حتى وصلت إلينا ، فإن من حق هذه الأمانات على أمثالنا أن يدرأ عن سيرة حفظتها الأولين كل ما ألصق بهم من إفك ظلماً وعدواناً لتكون صورتهم التى تعرض على أنظار الناس هى النقية الصادقة التى كانوا عليها ، فتحسن القدوة بهم وتطمئن النفوس إلى الخير الذى ساقه الله للبشر على أيديهم . وقد اعتبر فى التشريع الاسلامى أن الطعن فيهم طعن فى الدين الذى هم رواته وتشويه سيرتهم تشويه الأمانة التى حملوها وتشكيك فى جميع الأسس التى قام عليها كيان التشريع فى هذه الملة الحنيفية السمحة ، وأول نتائجه حرمان شباب الجيل وكل جيل بعده من القدوة الصالحة التى منّ الله بها على المسلمين ليتأسوا بها ليواصلوا حمل أمانات الاسلام على آثارها ، ولا يكون ذلك إلا إذا ألموا بحسناتهم وعرفوا كريم سجاياهم وأدركوا أن الذين شوهوا تلك الحسنات وصوروا تلك السجايا بغير صورتها إنما أرادوا أن يسيئوا إلى الاسلام نفسه بالإساءة إلى أهله الأولين .

ويدعو السيد محب الدين الخطيب إلى اليقظة إزاء هذه الدسيسة التى دسها عليهم أعداء الصحابة ومبغضوهم ليتخذوها نموذجاً لأمثالها من الدسائس . وعلى المؤرخين أن يتفرغوا لدراسة حقيقة التاريخ الاسلامى واكتشاف الصفات النبيلة فى رجاله فيعلموا أن الله عز وجل قد كافأهم عليها بالمعجزات التى تمت على أيديهم وأيدى أعوانهم من إحداث أعظم انقلاب عرفه تاريخ الإنسانية ؛ ولو كان الصحابة والتابعون بالصورة التى صورهم بها أعداؤهم ومبغضوهم لكان من غير المعقول أن تتم على أيديهم تلك الفتوح وأن تستجيب لدعوتهم الأمم بالدخول فى دين الله أفواجاً .

ويقول الأستاذ صادق عرجون : « إن العصر الذى دونت فيه أقدم مصادر التاريخ الاسلامى المتداولة بين يدى الناس لا بد من الغرض المائل عن جانب الحق فى طريق إثبات الوقائع ولا سيما فى هذه المرحلة التى اعتبرتها السياسة مبدأ السلطان الأموى ، وقد كان هذا السلطان بغيضاً أشد البغض إلى

خلائفهم على ملك الاسلام من العباسيين ، وفى ظل العباسيين وظل سلطانهم دون ما أدركنا من مصادر التاريخ الاسلامى » . . وهكذا نعرف اتجاه الريح ، ونضع أيدينا على مصادر الخطر ، فالاستشراق عن طريق مدرسة من كتاب تاريخ الاسلام فى خلال عصر الاستعمار ومابعده كانت تهدف إلى تزييف التاريخ الاسلامى فى أعظم صفحات قوته ، وهى تصوير الصحابة فى صورة قاسية من صور الخلاف بل والصراع بينما أن الأمر لم يكن كذلك وأن الروايات التى اعتمد عليها المؤرخون واهية وناقصة ومبتورة فضلا عن أن العوامل الخارجية منكورة ومحجوبة ومطعون فيها بالشك. وليس معنى هذا ادعاء العصمة للصحابة ، فالمسلمون لا يعتقدون بعصمة أحد بعد رسول الله ﷺ وكل من ادعى العصمة لأحد بعد رسول الله فهو كاذب ، ولكن نحن نؤمن بأن هذه الجماعة من الصحابة هم أعظم أهل الاسلام امتيازاً فقد تربوا فى مدرسة رسول الله ﷺ وما صدر بينهم من خلاف هو من طبيعة الأمور ولكنه لا يصل إلى هذه الصورة القاسية التى تصورها كتب التاريخ محاولة استغلال بعض الوقائع لتجسيم الأحداث وتضخيمها وإعطاءها صورة مزورة .

(٣) ولقد كان الدكتور طه حسين قد تزعم هذه المحاولة لينقلها من مجال التعليم إلى مجال الثقافة لحاول الادعاء بأن القرن الثانى الهجرى قرن شك ومجون . وقد كانت المادة التى اعتمد عليها الدكتور طه مجموعة من شعر شعراء متحللين منبوذين من المجتمع بينما ترك آفاقاً واسعة من أعمال العلماء والفقهاء والأدباء دون أن يدخلها فى حكمه المبتور . وقد واجه العلامة رفيق العظم هذه المحاولة فى تشويه التاريخ الاسلامى اعتماداً على القصاص والرواة . فقال فى معارضته اتجاه طه حسين : « إن المقدمات التى استخرج منها تلك النتيجة ربما ظهرت صحيحة لأول وهلة لأنها تستند إلى أشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة إلى ناقليها وهم معروفون مشهورون فى التاريخ ولكن هذا وحده لا يكفى لمثل هذا الاستنتاج ولا تبنى عليه أحكام سوداء فى تاريخ أبيض ناصع كتاريخ الرشيد والمأمون ومن عاصرهما من العلماء والفضلاء .

ويقول العلامة رفيق العظم : « إن الأخبار الصحيحة للتاريخ الاسلامى هى أشبه بالدر الملقى بين أشواك تحتاج من يستطيع استخراجه من تلك الأشواك إلى أناة وروية ونظر فى وجوه السلامة من أذى الشك ، وقد عانى رواة الحديث ونقلة الأخبار النبوية من تمحيص تلك الأخبار وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ولا سيما فى أيام الفتنة الكبرى التى انقسم فيها المسلمون إلى شيع سياسية كانت تعمل للسياسة باسم الدين وتضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية وإن كان فيه مساس بالدين وتشويه له ، هذا فيما له صلة بأصل الشريعة وانتسابها إلى صاحب الشرع ، فما بالك بأخبار الخلفاء ووقائع الأخبار وأخبار الناس . وتحدث عما ورد من أخبار التنازع بين الشيع الدينية والسياسية فى عصور المحنة التى مرت على المسلمين وما كتبه القصاصون فقال : نقرأ فى كتب التاريخ أخباراً نسبتها شيع العباسيين إلى خلفاء بنى أمية وأخبار نسبتها شيع آل على إلى خلفاء بنى العباس وهى أحط ماينسب إلى خلفاء أو ملوك أو سمهم ما شئت كانوا فى مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الجاه والملك . وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة فى المنزلة التى أنزلهم إليها الوضاعون ويدوم لهم

طويلا ذاك الملك العريض والشهرة الذائعة فى التاريخ ، وتقرأ ما هو أقبح من ذلك فى كتب القصاصين منسوباً إلى الخلفاء وأهل العلم والأدب ، فلو سلمنا بكل ما جاء فى تلك الكتب والأقاصيص واعتبرناها أخباراً صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى التى نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد ثم يصل العلامة رفيق العظم إلى مقطع الأمر فى ذلك الركام الذى يعتمد عليه المستشرقون ودعاة التغريب فى رسم تاريخ زائف للمسلمين فى هذا العصر الأول فيقول الحقيقة التى ينبغى أن تقال : إن التنازع السياسى بين الشيع الإسلامية أدخل من روايات بعض الأخباريين شوائب فى التاريخ الإسلامى ليست منه فى شىء وإنما هى من وضع المتزلفين لبيوت الإمارة أو الملك أو المتشيعين لبعض المذاهب السياسية والدينية . ولما أنكر ابن خلدون أقوال الملفقين الذين لفقوا على الرشيد تلك الحكايات الشائنة لم يكن فى إنكاره إلا على حق لما عرف عنه من بعد النظر فى التاريخ وصحة بحثه فى طبائع الاجتماع وأخلاق الأمم ومنازعها شأن كل مؤرخ بحاثة لا يلقى الكلام على عواهنه ولا يأخذ الحوادث بظواهرها ، ولا شك عند كل منصف أن ابن خلدون أوثق وأصدق كلاماً من أبى نواس وأمثاله من المجونيين . هذا إذا صحت أخبار المجون المنسوبة إلى هؤلاء. ويفرق العلامة رفيق العظم بين كتب التاريخ وكتب القصاصين فتقول: أما القصص أو كتب القصاصين فلها شأن آخر لأن واضعيها إنما وضعوها لأغراض وبواعث تجارية أو سياسية أو أدبية . أما الأغراض التجارية فهى التكسب والانتفاع ، أما البواعث السياسية والدينية فهى منع العامة من الخوض فى سياسة الخلفاء والحكام والخوض فى أخبار الصحابة وما شجر بينهم على ما يقال أو يظن أو من المعلوم أنه لم يكن فى القرون الأولى للإسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العامة ، ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ وهم بالضرورة فى حاجة إلى الاجتماع ، فكانت أكثر أحاديثهم فى مجتمعاتهم تدور على أخبار الصحابة وحوادث الصدر الأول لقرب العهد به ثم سياسة الخلفاء وحكامهم ، وقد كان ذلك يجر فى كثير من الأحيان إلى الشجار ثم الفتنة كما تقرأ فى أخبار أهل السنة والشيعة فى بغداد عاصمة الملك والخلافة وكانت هذه المنازعات والفتن تفضى أحياناً إلى إهراق الدماء بين العامة الذى يتشيع كل فريق منهم لرأيه ومذهبه بلا علم ينفع أو فهم يردع . فكان هذا سبباً على ما يظهر لتفكير العلماء فى وسيلة من وسائل لشغل العامة عن الخوض فى مثل تلك الأفكار .

وقد أخذ المستشرقون كتب القصص واعتمدوها فى كتب لتاريخ الإسلام وأغمضوا العين عن كتب التاريخ وجاراهم الجماعة فأخذ بعض الأذكياء فى وضع قصص تتلى فى المجتمعات فيلهو بها العامة عن الأخبار المثيرة للعواطف أو الأحقاد فكان منها المختصر المبعثر فى ثنايا الكتب ومنها المطول المجموع فى كتب على حدة ، ومن ذلك أخبار الفتوحات كفتوح الشام وفتوح مصر وفتوح اليمن المنسوبة إلى الواقدى وهى ليست له ، وكتاب قصة عنترة العبسى وواضعها مجهول ، وكتاب ألف ليلة وكاتبها مجهول أيضاً ، وقد قالوا إنها مترجمة عن الفارسية ولكن أخبارها لا تدل على ذلك ، ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار — وأصبحت ضرورة من ضرورات الحياة لأن منها نوعاً من التلهى

وترويح النفس — تنافس الرواة والقصاصون فى تدوين الأخبار ووصفها تارة مجموعة وتارة متفرقة فى كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك فكان فيها الغث والسمين ، ومنها الملفق والقريب من الصحة ، وقد غالى بعض الأخباريين فى إيراد أخبار المجون والتهتك والانغماس فى الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد عن معنى الأدب الذى أخذ منه الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم لسبب كبير ينافى ما ينسب إليهم من إطراح رداء الحشمة والمروءة . ووصل العلامة رفيق العظم إلى الغاية فقال : إن ما نسب إلى أبي نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر ، وما يفضى إلى القول بأنه عصر شك ومجون هو تلفيق قصص يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون وإما سد نهمات العامة إلى أمثال تلك القصص المخزية والروايات الملفقة على أنه لو صح شيء منه لما كان لنا أن نتخذه دليلا على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر لأنه مجون لايجوز أن يتعدى الماجن مهما تطاول إلى النيل من سواه باسم المجون .

وإذا قرأت هذه القصص فإنما لأن فيها فكاهة وترويحاً للنفس لا لأنها أمثلة من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جد لا هزل وعصر نهضة علمية بلغت أقصى ما يمكن أن تبلغه أمة فى عشرات السنين . والواقع أنه لا يمكن الحكم على العصر الثانى الهجرة عن طريق المجان والشكاك فيه أو الأدباء والشعراء وهم قلة معزولة لاتمثل المجتمع الاسلامى تمثيلا صحيحاً وإنما يحكم على المجتمع عن طريق العناصر الإيجابية منه والنافعة والمصلحة ، وفى العصر الثانى الهجرة يوجد عدد ضخم من الفقهاء والمحدثين والزهاد على مرتبة عظيمة من الايمان واليقين ، منهم الحسن البصرى وعمرو بن عبيد ومحمد بن إدريس الشافعى ومالك بن أنس وأبو حنيفة النعمان ومالك بن دينار وعبد الله بن المبارك وربيعة الرأى وابن سيرين والشعبى ، فكيف يمكن تجاهل آثار هؤلاء فى هذا العصر فيحجبون حجباً تاماً عن موازين التقدير إزاء طائفة من الشعراء المجان ، ولا يمكن أن يكون هؤلاء الشعراء من أهل المجون والفحش مرآة لهذا العصر بينما يحجب أهل العلم والفضل والرأى الذين أقاموا صرح الحضارة الاسلامية .

(٤) كذلك فإن الاستشراق والتبشير وحركة الغزو الثقافى والتغريب قد حرصت على البحث عن وجوه الخلاف ونقاط الضعف والروايات الضعيفة حول الشبهات والعمل على إعلائها وإذاعتها ، بل ذهبت هذه القوى التى سيطرت على كتابة تاريخ الإسلام ونقده فى العصر الحديث على مايسميه الدكتور الشكعة : تمجيد الفئات التى تمردت على الشرعية أثناء مسيرة التاريخ الإسلامى وخلع صفات البطولة عليهم مثل الاهتمام بالتمرد الذى قام به بابك الخرمى أو الفوضى التى أثارها الزنج أو التخريب الذى انتهجه القرامطة . ويقول : إن بعض الأوساط أصدرت كتباً تدخل من خلالها فى روع الناشئة أن جماعة القرامطة جماعة إسلامية مصلحة استهدفت إشاعة العدل الاجتماعى بين الناس وفى الوقت الذى يقول وقائع التاريخ أن القرامطة هم العصابات التى أسالت دماء المسلمين أنهاراً وقتلت النساء والشيوخ والأطفال واستباحت الأعراض والمحارم وهاجمت مكة فى موسم الحج وسرقت الحجر الأسود وطمست بئر زمزم بجثث حجاج بيت الله .

(٥) بل إن الدكتور أحمد شلبي يذهب إلى أبعد من ذلك فيرى أن الاستشراق هو الذى وضع ذلك الأسلوب المسموم الذى تسير عليه كتابة تاريخ الإسلام حتى اليوم . يقول : إن المستشرقين وضعوا الأسس الحديثة لكتابة تاريخنا الإسلامى وتاريخنا الوطنى ، وكانوا ملتومين بما ينفعهم وما ينفعهم كان فى الغالب يصيبنا بالضرر ، وقد لام هرشنو هذا الاتجاه عند الغربيين فى كتابه (علم التاريخ) حيث يقول : قلما كان التاريخ يدرس لذاته بمعنى أنه كان يدرس ويستغل لتأييد ماهو أجنبى عنه من الصوالح السياسية أو الدينية لا ابتغاء الوصول إلى الحقيقة فى أحداث الماضى الخطيرة من حيث عللها ووضعها ونتائجها . ويقول الدكتور شلبى : اتجه أكثر المستشرقين فى كتابة التاريخ الإسلامى إتجاهاً يشهد الفتنة بين المسلمين ويضعف كيانهم ويصور لهم تراثهم تصويراً تشمئز منه النفوس فأسرفوا فى تصوير الصراع بين بنى أمية والشيعة لنغفل عن تاريخ الأمويين لأن به رجالا يمكن الافتخار بهم وهاجوا تاريخ الأتراك العثمانيين ولم يدعو من وسيلة للحط منهم إلا أقدموا عليها ، وقدموا أسوأ صورة لإسماعيل وعرابى وانخدعنا بهذا وسرنا فيه إلى أبعد مدى .

(٧) ويذهب المستشرقين فى النظر إلى وقائع التاريخ الإسلامى مذاهب شتى كلها عداوة وخصومة ، فنهم من يصور الدولة الأموية بصورة مظلمة قاتمة حتى يخفى دورها الذى قامت به فى نشر رسالة الإسلام وتركيز دعائمه ، ومنهم من يمدح الدولة الأموية لأن بنى أمية كانوا خصوماً للرسول ومن هؤلاء لامنس الذى اهتم ببنى أمية فى سوريا، جامعاً بين رفع شأنهم وبين عدائه للرسول والإسلام فالأمويين عنده أحفاد أبى سفيان الذى حمل لواء المعارضة فى وجه الاسلام وقاد الجيوش لحربه ، وهو يرى أن خلافة معاوية نصر معنوى للأمة السورية على الإسلام كقوة قهرت سوريا ، وأن معاوية التى اعتمد القبائل السورية فى حكمه كان يعيد صرح السيادة السورية السابقة لأن هذه القبائل هى بقايا الغساسنة النصارى وحلفائهم . وهكذا نجد أن خطة الاستشراق فى دراسة تاريخ الاسلام تقوم على التآمر والدس والكيد وقلب الحقائق وتزييف الصحائف والتركيز على الجوانب السلبية وإهمال الجوانب الإيجابية ، وهم يهدفون من ذلك إلى الانتقاص من شأن الإسلام وأن يضعوه فى الظل ولا يبرزوه إلى النور حتى لا يكثر معتنقوه ، وكذلك نجد محاولة الأثريين فى البحث عن الآثار فى العصور السابقة للإسلام فهم إنما يقصدوا من ذلك إثارة الشبهة بأن الحضارات السابقة للإسلام كالرومانية والحيثية والآشورية كانت أعظم من حضارة الإسلام . ويركزون على انتشار الإسلام وتوسعه ويزيفون الظروف والأوضاع التى حققت للإسلام هذا الانتشار السريع الواسع ، ويثيرون الشبهات حول فقر الجزيرة العربية ويدعون أن المسلمين خرجوا منها بحثاً وراء الرزق ودخلوا الحروب طلباً للغنائم . وهناك محاولة التقليل من قدر الصحابة والجرأة فى الحديث عنهم وانتقاص قدرهم وفتح طريق الهجوم على شخصياتهم على نحو يضعهم فى صفوف رجال السياسة فى العصر الحديث . وقد حمل الدكتور طه لواء هذه المحاولة فى كتابه الفتنة الكبرى فى محاولة لتعميق الخلافات التى وقعت على نحو يقلل من أقدارهم فى نظر القارىء المسلم ، وكان طه حسين هو أول من فتح هذا الباب أمام الكتاب الذين جاءوا من بعده فى نفس الوقت الذى لم يكن فيه طه حسين من المؤرخين أو حائزاً على صفة رجال التاريخ .

وفى الوقت الذى يقدس فيه طه حسين تاريخ اليونان والرومان ويقدمه فى أسلوب من الإعجاب والتقدير نجده ينكر ذلك بالنسبة للتاريخ الإسلامى ويدعو إلى إلغاء صفة التقدير عن الصحابة ويدعو إلى النظر إليهم نظرته إلى أى أناس ونحن لا نقدس الصحابة ولكن نضعهم فى مكانهم الصحيح من الرسول ومن السابقة ومن تاريخ الإسلام ومن بطولات الفتح وبناء الدولة ، وبذلك لا يمكن أن نجعلهم فى صف ساسة الدول فى العصر الحديث ، ولا يعقل أن يكون مصدر خلافهم صراع على سلطة أو مطمع أو ملك أو هوى . وفرق بين التقدير مع النقد وبين المطمح الذى يحمل لواءه قلم الدكتور طه حسين وهو الاحتقار ولسبة الصغائر إلى هذا الرعيل الكريم تحت اسم النقد العلمى بينما هو يصدر عن هوى الاستشراق والاستغراق اليهودى أساساً الذى يطمح إلى تدمير تلك الشخصيات التى أفسحت للإسلام طريقاً إلى القوة والتوسع وهو ما يملأ قلوبهم بالحقد والكراهية .

وهناك من المستشرقين من يعلى من شأن كتب معينة ويتخذها مراجع كالأغانى ، وهو كتاب لهو أو كتب المحاضرات ، أو ما جمعه الرواة ، كذلك فقد اتكأ الكثيرون على كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة وقد كشفت المراجعات على أن نسبته إلى ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ لم تصح وتبين أن كتاب الإمامة والسياسة مشحون بالجهل والغباوة كما يقول السيد محب الدين الخطيب والكذب والتزوير . كذلك فإن هذا الأسلوب الاستشراقى والتغريبى فى تصيد الهفوات الصغيرة والأحداث المعدودة ذات الروايات المشكوك فيها والتى لم توثق أو يجمع عليها المؤرخون فى تاريخ طويل عريض كتاريخ الإسلام اتسعت آفاقه أربعة عشر قرناً وأقام ١٧٨ دولة وشمل أمماً متعددة منها العرب والفرس والترك والهند والديلم ، لا يمكن أن تكون ذات حساب أو أهمية، وليس هناك كمال بشرى مطلق ولا بد أن توجد هنات ، ولكن العبرة بأن هذه الهنات قليلة ويسيرة وأن الأمم المختلفة قد عرفت هـــذه الأهواء البشرية التى تجد طريقها فى مجال الحكم والسلطان ، غير أن العبرة بأن تكون النظرة بريئة وخالصة وبعيدة عن الحقد أو التعصب أو التماس العيب للبرءاء ، ولا ريب أن النظرة العامة المنصفة الصادقة تكشف عن أن تاريخ الاسلام تاريخ كله بطولة وسماحة وكرامة وجهاد فى سبيل المثل الأعلى وأنه بمثابة نموذج طيب كريم لم تعرفه الأمم الأخرى .

كذلك فإن كتاب المسلمين المنصفين قد تعاهدوا اجتناب الخوض فى الفتن التى ثار ثائرها بين المسلمين فى عهد الخلفاء عثمان وعلى ومعاوية رضى الله عنهم أجمعين . هذا الاتجاه الذى عليه مؤرخو الاسلام بأن لا يعرضوا بما يسىء إلى بعض الصحابة أو يصفهم بما لا يناسب قدرهم تقديراً لكلمة الرسول عليه السلام عنه حين قال : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . وما أثر عنه عليه الصلاة والسلام من كراهية انتقاصهم . وهو الخط الذى سار عليه أكثر المؤرخين المسلمين . وقد أشار الدكتور أحمد شلبى إلى هذا المعنى حين قال : إن على المؤرخ المسلم أن يرعى الدين والوطن فى فلسفة التاريخ ، فإذا تحدث عن حروب الصحابة غيرها بدون إدانة ذاكراً وجهات النظر التى لا تحرج أحداً ولا تقوض تراثاً ، وأن يتحاشى الغمرات التى تضر الوطن والدين . وقال : إنى وإن كنت عزمت على اجتناب الخوض فى الفتن التى ثار ثائرها بين المسلمين فى عهد الخلفاء عثمان وعلى ومعاوية رضى الله عنهم جميعاً ،

لم أر بدأً من إيراد ذكرهم مع الخليفين السابقين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما لأنهما جميعاً من دعائم الإسلام التى قامت على صروحه وأعضاء الدين الذين بان بهم صريحه ، فقد اكتفيت من سيرة هؤلاء الثلاثة بما لا يملن بذكره من هذه الفتن أثر فى النفس إلا ما كان فيه حجة بالغة يجرى بها العلم أو حكمة زاخرة يحتاج إليها العاقل ويتعظ بها الجاهل .

ولا ريب أن طه حسين وجرجى زيدان قد أساءا الفهم وزلا وتورطا فى الخطأ حين وصفا القرن الثانى بأنه عصر إلحاد ومجون معتمدين على كتاب زائف لا يصلح مرجعاً تاريخياً أو علمياً وهو الأغانى للأصفهانى الذى لم يرسم إلا لوحة خلق مادتها من الكذب والتمويه وصاغ مبادئها من الضلال والبهتان .

وهكذا نجد من هذا العرض ما يلى :

(أولا) أن تاريخ الاسلام كتب فى العصر العباسى حيث كان الخلاف بين أصحاب الدولة الجديدة وبين الأمويين ولهم صلتهم بالخليفة عثمان وموقفه من الخلاف بين على ومعاوية وكان بعض المؤرخون يسترضون الدول .

(ثانياً) إن بعض المستشرقين أعجب بتاريخ بنى أمية وكتب عنها على نحو من إبراز المحاسن بحجة أن هؤلاء أحفاد أبو سفيان الذى عرف بالخصومة مع النبى كما فعل لامنس وغيره ، وهؤلاء كانوا يرون أن تاريخ الشام هو تاريخ السريان القديم وتاريخ الدولة الرومانية وتاريخ النصارى حتى أن مؤرخاً مثل أرنولد توينبى لا يعترف بحضارة إسلامية فى الشام ، ولكن يرى أن المجتمع السريانى نفسه الذى كان قائماً من قبل ما زال قائماً وإن تغيرت مظاهره ، وإن تاريخ الاسلام بكل معطياته وما أحدثه من تغييرات ليس إلا امتداد بمثابة للعصر السريانى .

(ثالثاً) إن بعض المؤرخين أمثال جرجى زيدان عجز أن يهاجم الإسلام فى عصر النبى والعصر العباسى فجعل حملته على الإسلام مركزة على عصر بنى أمية .

(رابعاً) أعطيت مسألة الموالى فى عهد الدولة الأموية حجما أكبر من حجمها الطبيعى . وقد جرى هذا المجرى بعد فهلوزن كثيرون ، أمثال أحمد أمين وغيره .

(خامساً) عمد كثير من المؤرخين الأجانب إلى التقليل من الدور الخطير الذى قام به عبد الله بن سبأ ورجاله فى تغيير مجرى الأحداث وفى مقتل عثمان وما بعد ذلك من أحداث فى عهد على بن أبى طالب وقد أدخل عبد الله بن سبأ مفاهيم جديدة مستمدة من اليهودية والفلسفة الهلينية كالرجعة والوصية وغيرها .

(سادساً) محاولة وضع الصحابة الأول فى مقام مشابه للسياسيين المحترفين فى العصر الحديث والتقليل من كرامتهم ومكانتهم بنقدهم والإساءة إليهم واحتقارهم على النحو الذى فعله الدكتور طه حسين فى كتاب الفتنة الكبرى .

(سابعاً) اتفق مؤرخو الإسلام على اجتناب الخوض فى الفتن وعرض تاريخ عثمان وعلى ومعاوية عرضاً منصف مع تجاوز عوامل الخلاف .

(ثامناً) فساد القول بأن العصر الثانى كان عصر شك ومجون .

الفصل الخامس

مؤامرة الزنج والقرامطة

حاولت مؤامرة إفساد التاريخ الإسلامى التركيز على ثورة الزنج والقرامطة وتصويرها على أنها حركة تقدمية وأنها تمثل العدل الاجتماعى فى الإسلام ، ولقد ركزت كثير من الكتابات على هذه الحركات الباطنية التى استهدفت تدمير القيم الاسلامية فى المجتمع الاسلامى وصولا إلى إسقاط الدولة الاسلامية حامية النظام الاجتماعى . ولقد كانت هذه المحاولة واحدة من مخطط التبشير والاستشراق ، ولكن الصهيونية أرادت فى السنوات الأخيرة أن توسع دائرة تزييف التاريخ الاسلامى لحساب أهدافها فعقدت مؤتمر بلتيمور الصهيونى فى أمريكا عام ١٩٤٣ خلال الحرب العالمية الثانية الذى وصف بأنه نقطة تحول فى اتجاه الصهيونية إلى تزييف التاريخ الاسلامى والعربى، وقد حضر بن جوريون هذا المؤتمر وقاد أعماله بمهارة إلى هدفها الأساسى من تنظيم ومضاعفة عمليات التزييف لتاريخ العرب وملء العالم بالمطبوعات والوسائل الدعائية عنه تمهيداً للغزو الصهيونى المندفع لأرضهم . ولقد استغلت الصهيونية مفاهيم الماركسية فى تفسير التاريخ لإيجاد تصور كاذب عن الزنج والقرامطة على النحو الذى أعلنه جارودى فى محاضرته المشهورة التى ألقاها فى القاهرة وما كتبه أمثال محمد إسماعيل عبد الرازق فى كتابه « الحركات السرية فى الإسلام » ، وهو مستمد مما كتبه بندلى جوزى فى كتابه : « من الحركات الفكرية فى الاسلام » الذى صدر عام ١٩٢٨ من القدس . وتابع الدكتور طه حسين هذا فى محاضرته عن العدل الاجتماعى التى نشرها فى مجلة « الكاتب المصرى » .

وقد كشفت الأبحاث العلمية الصحيحة فى شأن مؤامرة الزنج والقرامطة الحقائق الآتية :

(أولا) لم تكن هذه الحركة تهدف إلى تحقيق كرامة الإنسان بل كانت حركة انفصالية ولم تكن تستهدف العدل الاجتماعى بل كانت نوعاً من الأخذ بالثأر ، فقد حرص هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم من إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم ، وكان أقسى أعمال القرامطة أنهم أقاموا سوقاً للرقيق يعرضون فيه الحرائر من نساء العرب .

(ثانياً) كانت هذه الحركة التى وصفت بأنها ثورة اجتماعية بمثابة مؤامرة سياسية إذ كانت على صلة بالحركة الإسماعيلية فى دور الستر ، فإن الفاطميين رأوا بعد ظهور دولتهم فى المغرب أن يستقلوا بتوجيه السياسة فى ذلك العصر بإسقاط الدولة العباسية بعد نجاح الدولة الفاطمية فى المغرب العربى .

(ثالثاً) كان الحلاج المتصوف المشهور من أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية إذ كانت على صلة بالقرامطة . وقد روى عنه أنه أقسم فى أحد أحاديثه القدسية التى كان يزعمها لنفسه أن سنة ٢٩٢ هـ ستكون حاسمة ، وهى السنة التى شهدت الثورة الكبرى للقرامطة .

(رابعاً) ظهر التناقض بين ادعاء الحركة بالتشيع والميل إلى البيت العلوى بينما قامت بالاعتداء على الأماكن المقدسة وتجريح أصحاب الرسول . فقد هاجم القرامطة موسم الحج وقتلوا نحواً من ثلاثين ألفاً من هؤلاء الحجاج وانتزعوا الحجر الأسود من الكعبة صرفاً للناس عن الحج .

(خامساً) انكشفت صلات عميقة بين الباطنية وبين الصليبيين .

(سادساً) قال القرامطة بالشيوعية فى المال والنساء وكانوا دعاة تخريب وسفك دماء .

(سابعاً) لم تصدر هذه الحركات عن منهج أساسى يبيح لها صفة البقاء ، واتخذت أساليب غاية فى العنف والتدمير ، إذ قام الداعون إليها بفظائع لا حد لها ، فقد حمل لواء الدعوتين متآمرون ادعوا الانتساب إلى أهل البيت واستهدفوا القضاء على الدولة .

(ثامناً) صاغ القرامطة مفاهيمهم من المجوسية والثنوية والوثنية فادعوا أن الجنة هى الدنيا ونعيمها وأحلوا الناس المحرمات ورفعوا عنهم الحدود ووجهوا خصومتهم للإسلام كدين ، وحاولوا إحلال مفهوم الفلسفة بديلا منه .

(تاسعاً) اتفقت جميع الدعوات المتآمرة تحت لواء الباطنية على مخطط متشابه . سواء الزنج أو القرامطة أو البابكية أو الأفشين والخرمية ، واتخذت الباطنية من الحشيشة وسيلة إلى إغراء الشباب المنضم إليها باعتناق مذهبها .

(عاشراً) عجزت هذه الدعوات أن تحقق لمجتمعاتها أى قدر من العدل أو الخير ، وكانت نهايتها نهاية كل فرقة ، وظل الإسلام بأصوله الكبرى وعقيدته الواضحة ومنهجه الحضارى هو الاسلام ، وبقيت روحه هى روحه فى أركانه وملامحه ومجتمعه واتجاهاته العامة ، ولم تفعل هذه الفرق إلا وضع العراقيل فى طريق الركب السائر الجاد تحاول أن تصده وتريد أن تنحرف به وتحاول لو تحلل الناس منه عن عصبية وجنسية ، أو حقد قديم موروث ، أو شذوذ واضح . (شكرى فيصل) .

وقد سجل التاريخ لهذه الفرق ما سفكت من دماء وما هدمت من أرض وما استباحت من حرمات ومع ذلك فقد جاء من يصف هذه الجماعات بأنها ثورات إصلاحية أو دعوات إلى العدل الاجتماعى وكذبوا . . .

الفصل السادس

دور اليهود فى الفتنة الكبرى

خاض الدكتور طه حسين فى كتابه (الفتنة الكبرى ـ على وبنوه) فى تاريخ عثمان وعلى ومعاوية على نحو أراد به ـ جرياً على منهجه ـ إثارة الشكوك والشبهات فى محاولة خطيرة لتصوير الصحابة على أنهم رجال سياسة ، موحياً أن صراعهم إنما كان من أجل المطامع والأهواء ، واعتمد فى كتابته على مصادر غامضة وروايات مبتورة تاركا المصادر الأساسية مثل شرح النهج لابن أبى الحديد ، وتاريخ ابن واضح اليعقوبى ونقل روايات الفتنة كما رواها رواتها دون أن يحقق هذه الروايات ، وكان له هوى واضح لم يكشف عنه إلا بعد أن قطع شوطاً طويلا هو تفسير التاريخ الاسلامى تفسيراً مادياً واقتصادياً وفق مفهوم الماركسية والمذاهب المادية وإنكار شخصية عبد الله بن سبأ اليهودى أو التهوين من شأنها ، ولم يرجع فى تحقيق ذلك إلى أعلام السنة أو علماء الحديث الذين يجب أن يرجع إليهم المؤرخ فى دراسة تاريخ الصدر الأول . وصور الفتنة على أنها كانت عربية نشأت من تزاحم الأغنياء على الفىء والسلطان ، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء ، وكرر صفة « عربية » فى أكثر من موضع على نحو يوحى بأنه لا يريد أن يشرك أحداً غير العرب فى دم عثمان ومهد بذلك لإنكار شخصية ابن سبأ ، فإنه لم يلبث أن قال : وهناك قصة أكثر الرواة المتأخرون من شأنها وأسرفوا فيها حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان ولما أورث هذا الاختلاف من فرقة بين المسلمين لم تمح آثارها بعد ، وهى قصة عبد الله بن سبأ الذى يعرف بابن السوداء .

ثم يقول : لست أدرى أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن ولكننى أقطع بأن خطره إن كان له خطر ليس ذا شأن ، وما كان المسلمون فى عصر عثمان ليعبث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طارئ من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان . ثم قال : إن قصد الكتاب الذى يقال إن الرواة المصريون قد أخذوه أثناء عودتهم إلى مصر فكروا راجعين . فهذه القصة فيما أرى ملفقة من أصلها .

وقد كشف الأستاذ محمد محمود شاكر هذا الموقف :

(أولا) قول الدكتور (الرواة المتأخرون) فيه إيهام شديد متعمد ، فإن الطبرى الذى روى قصة ابن سبأ ليس من الرواة المتأخرين ، فقد ولد عام ٢٢٥هـ ومات عام ٣١٠هـ فهو معاصر البلاذرى ومن طبقة تلاميذ ابن سعد صاحب الطبقات ، وأن سيف ابن عمر الذى روى عنه الطبرى هذا الخبر هو من كبار المؤرخين القدماء ، فهو شيخ شيوخ الطبرى والبلاذرى وهو من مرتبة شيوخ ابن سعد ، فلا يقال عنه ولا عن الطبرى أنهم من الرواة المتأخرين كما أراد الدكتور طه أن يوهم به .

(ثانياً) إن ذكر الدكتور طه حسين « المصادر المهمة » فيه إبهام شديد وإجحاف جارف ، فإذا لم يكن كتاب الطبرى من المصادر المهمة فليت شعرى ما هى المصادر المهمة التى بين أيدينا .

(ثالثاً) إن الدكتور طه اعتمد على كتاب ابن سعد الذى فى الأيدى كتاب ناقص ، وأنه ملفق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها ناقص وبعضها مختصر ، والدليل على ذلك فيما نحن بسبيله أنه ترجم لعمر فى ٨٤ صفحة ولأبى بكر فى ٣٣ صفحة . فلما جاء إلى عثمان والأحداث فى خلافته مما يعلم الدكتور ويعلم الناس لم يكتب سوى ٢٤ صفحة . فلما ذكر على بن أبى طالب والأمر فى زمنه أفدح لم يكتب سوى ١٦ صفحة .

(رابعاً) اعتمد الدكتور طه حسين فى نفى خبر عبد الله بن سبأ اليهودى اللعين على أنه البلاذرى لم يذكره وهو فيما يرى أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلا . ثم عاد فنفى أيضاً خبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل وفد مصر ، مع أن البلاذرى ذكره وأطال فيه وأتى فيه بما لم يأت فى كتاب غيره ولا ندرى كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خبراً ما حجية على نفيه ، ثم ينفى أيضاً خبراً آخر قد ذكره ولج فيه .

(خامساً) النسخة التى اعتمد عليها الدكتور طه من كتاب أنساب الأشراف طبعت فى أورشليم وطبعها رجل من طغاة الصهيونية . وهى ليست كل الكتاب وإنما جزء منه . من أين عرف أنه لم يذكره ما دام ليس قد طبع إلا هذا الجزء . أفلا يكون البلاذرى قد ذكره فى ترجمة عمار بن ياسر أو فى ترجمة محمد بن أبى بكر أو فى ترجمة محمد بن حذيفة . أو أى رجل آخر ممن اشترك فى الفتنة . كل هذا جائز ولكن الدكتور طه حسين ينفى شيئاً لا يبالى أن يجتاز كل هذا ويغضى عنه ليقول فيه بالرأى الذى يشتهيه ويؤثره غير متلجلج ولا متوقف . ثم كيف نسى الدكتور أن من لم يرو خبراً ما ليس حجة على من روى هذا الخبر ، وبخاصة إذا كان الرجلان من طبقة واحدة كالبلاذرى والطبرى ، بل لعل الطبرى أقوى الرجلين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالتاريخ وتمحيصه له .

(سادساً) الهدف الذى هدف إليه الدكتور طه حسين هو أن ينفى عن اليهود الشركة فى دم عثمان والتحريض على قتل الإمام فركب مركباً وعراً خالف فيه أسلوب العلماء فى تخريج الأخبار ، وكذب الرواة فى شىء بغير برهان ، وصدقهم فى شىء آخر بغير برهان . فقد بدأ حديثه فى إسقاط قصة اليهودى ابن السوداء عبد الله بن سبأ ، فذكر أن الرواة المتأخرين أكبروا من شأنها وأسرفوا فيها وأنها لم ترد فى المصادر المهمة ، وأن ابن سعد لم يذكرها وأن البلاذرى فى أنساب الأشراف وهو أهم المصادر فيما يرى لم يذكرها وأن الذى ذكرها هو الطبرى وعنه أخذها المؤرخين الذين جاءوا بعده .

(سابعاً) تأليه ابن السوداء لعلى حقيقة لا يدفعها شك ، وقد رواها رجال إثبات من السنيين والشيعة وغيرهم منهم الشهرستانى (الملل ج ٢) وابن حزم فى الفصل ج ٤ ، وعبد القادر البغدادى فى الفرق بين الفرق ، والرسعنى فى مختصر الفرق ، والاسفرايني فى التبصير فى الدين ، وابن تيمية فى أوائل

مختلف الحديث ، وابن قيم الجوزية فى الفرق الحكيمة وجاء هذا رداً على ما أشكل فيه طه حسين من أن ابن السوداء وأتباعه ألهو علياً وأن علياً حرقهم بالنار . يقول : ولكنك تبحث عن هذا فى كتب التاريخ فلا تجد له ذكراً . وفضلا عما ذكرنا فإن اليعقوبى وهو مؤرخ متشيع يحدثنا عن أن علىّ حرق أناساً بالنار . ويقول ابن عبد ربه فى العقد الفريد : أما الرافضة ففيها غلو شديد فى على . ذهب بعضهم مذهب النصارى فى المسيح وهم السبئية أصحاب عبد الله وقد أحرقهم على رضى الله عنه بالنار . (العقد الفريد ج ٢) وأوردها ابن أبى الحديد فى شرح النهج .

(ثامناً) خلاصة المحاولة التى قام بها طه حسين ترمى إلى القول بأنه ليس لهذا اليهودى الخبيث عبد الله بن سبأ يد فى هذه الفتنة وأن ليس لليهود عمل فى تأريث نارها ، وهو تخريج جد خطر . ويقول الدكتور ويحول إلى أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافاً شديداً ، ولنقف من هذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط ولنكبر المسلمين فى صدر الإسلام عن أن يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولهم رجل أقبل من صنعاء ، وكان أبوه يهودياً وكانت أمه سوداء ، وكان هو يهودياً ثم أسلم لا رغباً ولا رهباً ولكن مكراً وخدعة وكيداً وخداعاً ، ثم أتيح له من النجح ما كان ينبغى لحرض المسلمين على خليفتهم حتى قتلوه . ثم يقول : وإلى ابن السوداء يضيف كثير من الناس ما ظهر من الفساد والاحتلال فى البلاد الإسلامية أيام عثمان ، ويذهب بعضهم إلى أنه أحكم كيده إحكاماً فنظم فى الأمصار جماعات خفية تتستر بالكيد وتتداعى فيما بينها إلى الفتنة حتى إذا تهيأت الأمور وثبت على الخليفة فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الإمام » .

فأنت ترى من هذا لماذا أصر الدكتور منذ قليل على أن يصف الفتنة بأنها عربية وأن العامة الذين كانوا شرار هذه الفتنة كانوا عامة عربية . وهكذا يبين الهدف ن تبرئة اليهود من الاشتراك فى الفتنة وهكذا تواترت كتابات المستشرقين على إنكار عبد الله بن سبأ والصمت والتجاهل إزاء دور المنافقين واليهود فى هذا الأمر . يقول محمد محمود شاكر : « أيجوز فى المعقول أن تظل يهود وأشياعها من المنافقين وقد ظلوا يكيدون الإسلام ورسول الله والمؤمنين عشر سنوات كاملة يوماً بعد يوم ، فإذا لحق رسول الله بالرفيق الأعلى فى عام ١١ للهجرة نزعوا أيديهم من كل كيد وبرئوا من كل حدث كان بعد ذلك فى تاريخ الاسلام ، برئوا من الردة عام ١١ من الهجرة وبرئوا من مقتل عمر عام ٢٢ هـ ، وبرئوا من الفتك بعثمان عام ٣٥ هـ . فكيف غاب عن أصحاب رسول الله معنى قوله ﷺ : أخرجوا اليهود من الحجاز أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب » . . . يحدثنا أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه فيقول : كان آخر ما تكلم به ﷺ أن قال : أخرجوا اليهود من الحجاز، أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب » . كان آخر كلامه وهو معرض عن الدنيا ومقبل على الآخرة « لئن بقيت لا أدع بجزيرة العرب دينين » . وهكذا تجد كاتباً مسلماً يكتب بالعربية هو الذى يبرئ اليهود ، وفى أكثر من موقف حاول اليهود أن يكلفوا كتاب العرب والمسلمين أن يعتنقوا رأياً يوافق هواهم ويدافع عنه . وقبل مسألة عبد الله بن سبأ كانت مسألة إبراهيم وإسماعيل ومسألة تبرئة اليهود من المؤامرة التى أعدها اليهود على صلب المسيح وإن لم تتم .

وكان الدكتور طه موقفه من دعوة أبي ذر : فقد أشار إلى أن عثمان أخرج أبو ذر إلى الرملة ، والصواب في رأي أبو ذر ما رواه ابن خلدون : أن أبا ذر هو الذي استأذن عثمان في الخروج من المدينة إلى الربذة . وقال : إن رسول الله أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعاً فأذن له ونزل الربذة وبنى بها مسجداً وأقطعه عثمان صرمة من الإبل وأعطاه مملوكين وأجرى عليه رزقاً ، وكان يتعاهد المدينة وبين المدينة والربذة ثلاثة أميال . قال ياقوت : « وكانت من أحسن منزل في طريق مكة » . وقد أثيرت شبهات كثيرة حول أبي ذر في العصر الأخير ، وحاولت كتابات أن تصفه على رأس الشيوعيين أو الاشتراكيين ، وجرت محاولات كثيرة لتزييف موقفه ، وحقيقة موقف أبو ذر هو كما حلله الإمام عبد الحميد بن باديس كالآتي على هذا النحو : أنكر أبو ذر على معاوية أن يقول مال الله وإنما يريده أن يقول مال المسلمين ويتهمه بأنه يريد أن يمحو إسم المسلمين ليحجبه دونهم ويندد بالأغنياء أن يقتنوا الأموال ، قال له عثمان : يا أبا ذر : على أن أقضي ما علي وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد . وكان أبو ذر يرى أنه لا يجوز إدخار الذهب والفضة بعد أداء زكاتهما ، والمعلوم المتواتر عند النبي أنه كان يأخذ جزءاً من المال ويترك الباقي لصاحبه . وقد صح عنه ﷺ قوله : ليس فيما دون خمس أواق صدقة (أي زكاة) . وقد أصاب أبو ذر فيما اختاره لنفسه من الزهد وعدم الإدخار ، ولكنه أخطأ فيما أراد من حمل الناس على حالة فضل لم يوجبها الله عليهم ولن يستطيعوها .

وقد خالف أبو ذر إجماع الصحابة بنظريته السابقة مع قيام الدليل المنطقي من النقل المتواتر والنصوص القرآنية الكثيرة المتضافرة على خلاف رأيه . وكان خلافه هذا في مسألة من كبريات المسائل ومع ذلك تركوا له حرية النظر ، ولم يلق منهم من أجلها أي ضغط ولا أقل تحقير ، فكانوا بذلك منفذين لما جاء به الإسلام من احترام الآراء وحرية النظر والتفكير ، ولم يتعرضوا له في نظره واجتهاده إلا عند ما خشوا من بثه الفتنة بين الناس ، والمعروف أنه استأذن عثمان في الخروج . أو قال له عثمان : « لو اعتزلت » ، وعرض عليه ما رآه أصلح له فاختار الربذة وعلى كلتا الروايتين لم يأمره عثمان بالخروج حتى يقال أنه قد نفاه كما يقول المتجنون على عثمان ، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل وأرسل إليه أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد إعرابياً . وليس صحيحاً ما نسب إليه من نفي أبي ذر . والناظر في تاريخ عثمان عليه أن يتثبت وأن يتحرى حتى لا يقع في ظلم وباطل .

ثانياً : عمرو بن العاص

وتحدث طه حسين جارياً مجرى المستشرقين فيما أسماه انحياز عمرو بن العاص إلى معاوية اعتماداً على رواية الطبري الذي قال أنه انحاز من عند دعوة معاوية له ، ولكن هناك رواية اليعقوبي الذي يقول أن معاوية هو الذي أرسل إلى عمرو يستنجد به ويضمه إليه .

وقد تناول السيد محب الدين الخطيب موقف « عمرو » الذي شوه المغرضون موقفه من التحكيم فقال : إن من أعظم مناقب عمرو (التي كذب فيها الكاذبون فموهوا حقيقتها) موقفه من التحكيم بين علي ومعاوية لحقن دماء المسلمين ، فقد كان الكذابون أوهموا الناس أن الصحابي الجليل أبا موسى الأشعري

كان أبله، وأن الفاتح العظيم عمرو بن العاص كان خداعاً ماكراً. وما كان الأشعرى أبله: كان ثقفاً فقيهاً عالماً. وما كان عمرو خداعاً، بل كان كما قال رسول الله من صالح قريش. وصدق رسول الله فإن اختيار المسلمين هذين الرجلين العظيمين ليكونا حكما فى دماء المسلمين وفى دولتهم، كان شهادة لهما بأنهما أهل لذلك، وكانا عند حسن ظن الفريقين. فرأيا حقناً لدماء المسلمين أن يعزلا الرئيسين وأن يختار المسلمين رئيساً لهم من جديد أو لعلهما كانا يريدان لها عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكذلك وافتراء على الله والتاريخ زعم الكذابين أن عمراً خلع علياً وولى معاوية بل خلعهما معاً كما فعل أبو موسى. وقد عتب معاوية على عمرو وأرسل إليه أبا الأعواز الذكوانى يعاتبه وتبادل عمرو ومعاوية الأحاديث فى ذلك والواقعة على وجهها السليم رويت عن اثنين من كبار رجال الحديث أحدهما الحافظ الدارقطنى والثانى الحافظ أبو عمر خليفة بن خياط البصرى أحد أوعية العلم، ومن الذين روى عنهم البخارى. فالحكمان خلعا الأميرين ولم يوليا غيرهما، ولو وليا أحداً لكان هواهما فى ولاء عبد الله بن الخطاب وما يريده الكذابون بعد ذلك فإنما تقربوا به إلى عناصر معلومة ممن يكره أكثر الصحابة ويعمل على تشويه سمعتهم. وقد يكون المخترع الأول لهذه الزيادة من صميم تلك العناصر ومن أهل الغلو فيها. وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال فى أصحابه: (والذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحد منهم ولا نصيفه) والتحقيق فى مسألة الحكم قد قام به خير قيام القاضى أبو بكر بن العربى فى كتابه العواصم من القواصم الجزء الثانى ص ٣٥ وما بعدها.

وقد روى الترمذى وابن حيان فى صحيحه عن النبى ﷺ أنه قال: «الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضاً فمن أحبهم أحبهم ومن أبغضهم فيمصيبنى أبغضهم ومن آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله فيوشك أن يأخذه».

وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بعد حروب الردة وكان قد رجع إلى سواحل الخليج الفارسى يقول له: «إنى قد رددتك إلى العمل الذى كان رسول الله قد ولاكه وسماه لك فيمثك إلى عمان إنجازاً لمواعيد رسول الله فقد وليته ثم وليته، وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك منه إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك. فقال عمرو بن العاص: أما بعد؛ فإنى سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها فانظرها أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحى».

فولاه قيادة جيش من الجيوش الأربعة وهو الجيش الذى فتح فلسطين وما زال يخرج من جهاد خلافة أبى بكر وصدراً من خلافة عمر بعده إلى أن أزال ظلم الوثنية والشرك والعبودية والاحتلال عن مصر وأدخلها فى أمة محمد.

الفصل الثامن

الحكومة الإسلامية الأولى

هناك دعوى عريضة يوجهها الاستشراق إلى حكومة الصديق أبو بكر ويصفها بالتآمر والاتهام ويوم أن أبو بكر وعمر وأبو عبيدة أقاموا حكومة ثلاثية حين اجتمعت كلمتهم فى أواخر حياة النبى على أن يحتكروا الحكم بعد وفاته ويتداولوه واحداً بعد واحد ، وإن اثنتين من أزواج النبى هما عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر مهدتا السبيل إلى ذلك ، وأن هذه المؤامرة نجحت إلى حد بعيد ، إذ أيد عمر وأبو عبيدة أبا بكر يوم السقيفة وفاز أبو بكر بالخلافة وقد عاونه صاحباه فى الحكم . فكان عمر على القضاء وأبو عبيدة على الفىء . هذا هو الاتهام الذى وجهه أشد المستشرقين تعصباً الأب لامنس إلى الحكومة الإسلامية الأولى .

وتجمع المصادر القديمة الموثوق بها على أن شيئاً من ذلك لم يحدث كما يقول عبد الحميد العبادى : فالطبرى والبلاذرى اللذين استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبار المتعلقة بقيام الخلافة العربية لا يأتيان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية الأب لامنس ، وأن الأحاديث التى استشهد بها الأب لامنس أغلبها من الأحاديث المروية فى مناقب الصحابة وخصائصهم ، وهذا ينبغى أن تؤخذ بتحفظ وربما كان من واجب الباحث ألا يستشهد بها فى مقام البحث العلمى الصريح . إن الأب لامنس يهمل كل الإهمال الرواية التى تشير إلى الذهول الذى أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبى . وقد لحظ الدكتور السنهورى فى كتابه (الخلافة) قيمة هذه الرواية . وقد أوردها ابن إسحق عن الزهرى وهى من الأهمية بمكان . إذن كيف توفق بين عمر المؤتمر على رأى لامنس وعمر الذاهل لموت الرسول كل هذا الذهول . وبعد فإن القول بائتمار أبى بكر وعمر قديم غير حديث فقد قال به روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكلها التاريخى فى صدر الإسلام فزعموا أن أبا بكر وعثمان لا أبا عبيدة كما يرى لامنس قد ائتمروا ببنى هاشم وغصبوهم حقهم فى الخلافة ، فالأب لامنس لم يزد على أن أخذ وجهة نظر روافض الشيعة وغلاتهم عن قيامه الخلافة وبنى عليها بحثه الخاص بشكل الحكومة الإسلامية الأولى وهى بعد وجهة نظر ليست لها قيمة على الإطلاق .

والحق إن نظرية الأب لامنس لا تقوم على أساس تاريخى متين :

(أولا) لأن المصادر القديمة الموثوق بها لا تذكر شيئاً من هذا القبيل . فالطبرى والبلاذرى اللذان استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبار المتعلقة بقيام الخلافة العربية لا يأتيان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية الأب لامنس .

(ثانياً) أن الأحاديث التى يستشهد بها الأب لامنس أغلبها من الأحاديث المروية فى مناقب الصحابة

وخصائصهم وهذه ينبغي أن تؤخذ بتحفظ وربما كان من واجب الباحث ألا يستشهد بها فى مقام البحث العلمى الصريح لأن معظمها بلا شك موضوع ، وأن السبب فى وضعه يرجع إلى حالة الأحزاب السياسية أبان العصر الأموى وصدر العصر العباسى .

(ثالثاً) أن الأب لامنس يهمل كل الإهمال الرواية التى تشير إلى الذهول الذى أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبى . وقد لحظ الدكتور السنهورى فى كتابه (الخلافة) قيمة هذه الرواية ولكنه لا يعلق عليها الأهمية التى نعلقها نحن ولبيان هذه الأهمية نثبت نص الرواية كما ساقها ابن إسحق .

قال ابن إسحق : قال الزهرى وحدثنى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال: لما توفى رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال: « إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى . وإن رسول الله ﷺ والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل مات . والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى ، وليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات » . وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة ورسول الله ﷺ مسجى فى ناحية البيت عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ثم أقبل عليه فقبله ثم قال : بأبى أنت وأمى . أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لم يصبك بعدها موتة أبداً . قال : ثم رد البرد على وجه رسول الله ﷺ ، ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال : على رسلك يا عمر . أنصت ، فأبى إلا أن يتكلم . فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » . قال : ثم تلا هذه الآية : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) .

قال : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ . قال : وأخذها الناس عن أبى بكر فإنما هى فى أفواههم . قال : فقال أبو هريرة : قال عمر : « فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى . وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات » .

والقارىء يرى أن هذه الرواية العالية الإسناد من الأهمية بمكان ، فهى تتعلق بإثبات نص من نصوص القرآن وهى من أجل ذلك بعيدة عن أن تكون مختلفة ، والمناسبة التى وردت فى صددها لا شك صحيحة ! إذاً كيف نوفق بين عمر المؤتمر على رأى لامانس وعمر الذاهل لموت الرسول ، كل هذا الذهول كما تدل الرواية المذكورة . وبعد : فإن القول بائتمار أبى بكر وعمر قول قديم غير حديث فقد قال به روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكلها التاريخى فى صدر الإسلام . فزعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان (لا أبا عبيدة كما يرى لامانس) قد ائتمروا ببنى هاشم وغصبوهم حقهم فى الخلافة . ولا أدل على حدوث هذا الوهم من شعر السيد الحميرى الذى يفيض مدحاً لبنى هاشم وذماً للخلفاء الثلاثة الأوائل .

روى صاحب الأغانى (ج ٧ ص ٩) قال : جلس المهدى يوماً يعطى قريشاً صلات لهم وهو ولى عهد فبدأ ببنى هاشم ثم بسائر قريش فجاء السيد فرفع إلى الربيع رقعة مختومة وقال إن فيها نصيحة للأمير فأوصلها إليه فأوصلها فإذا بها :

قل لابن عباس سمى محمد لا تعطين بنى عدى درهما
وأحرم بنى تيم بن مرة إنهم شر البرية آخراً ومقدما
إن تعطهم لا يشكروا لك نعمة ويكافئوك بأن تذم وتشتما
منعوا تراث محمد أعمامه وبنيه وابنته عديلة مريما

قال وهى قصيدة طويلة قال فرمى بها إلى أبى عبيد الله ثم قال اقطع العطاء فقطعه وانصرف الناس ودخل السيد إليه فلما رآه ضحك وقال : قد قبلنا نصيحتك يا إسماعيل ولم نعطهم شيئاً » .

قال الشهرستانى فى الملل والنحل فى كلامه على المغيرية إحدى فرق غلاة الشيعة : إن زعيمها المغيرة ابن سعيد العجلى كان يزعم أن أول ما خلق الله هو ظل محمد وعلى قبل خلق ظلال الكل، ثم عرض على السموات والأرض أن تحملن الأمانة ، وهى أن يمنعن على بن أبى طالب من الإمامة فأبين ذلك ، ثم عرضها على الناس فأمر عمر بن الخطاب أبا بكر أن يتحمل منعه من ذلك ، وضمن أن يعينه على الغدر به على شرط أن يجعل الخلافة له من بعده إلخ هامش ابن حزم ج ٢ ص ١٤ فالأب لامنس لم يزد على أن أخذ وجهة نظر روافض الشيعة وغلاتهم إلى قيام الخلافة وبنى عليها بحثه الخاص بشكل الحكومة الإسلامية الأولى وهى بعد وجهة نظر ليست لها قيمة علمية على الإطلاق .

الفصل التاسع

الموالى والعرب

لم تكن قضية الموالى والعرب قضية مثارة إلا فى محاولة المتعرضين من كتاب الغرب والاستشراق لتاريخ الإسلام والنظر فيه فى إطار فكرة العنصرية التى عرفتها أوربا فى القرن التاسع عشر بعد أن أعلن جوبنيو نظريته المعروفة ، وقد جرى تطبيق هذه المحاولة فيما يسمى بالنظرة العنصرية إلى التاريخ العربى الإسلامى فحاول بعض الباحثين تصوير أحداثه فى صورة نزاع حاد بين العرب الحاكمين والشعوب المحكومة من فرس وترك وبربر وغيرهم فى محاولة لإثارة الصراع بين هذه الأجناس وبعث خيوط يمكن أن تفسد النفوس تحت اسم العنصريات أو القوميات الضيقة وكأنما لم تكن العلاقة بين هذه الأمم وبين العرب إلا تطاحنا على السلطة وصراعاً على السيادة ، وذلك فى محاولة لتشويه دور العرب الحضارى .

وقد ترجم إلى اللغة العربية كتابين يحملان هذه السموم هما :

(١) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات : بقلم فان فلوتن ترجم عام ١٩٣٤ .

(٢) الدولة العربية وسقوطها : بقلم ولهاوزن ترجم ١٩٥٦ . وقد حاول الكاتبان إظهار تاريخ القرن الأول الهجرى وكأنه صراع دموى بين العرب كسادة وحكام وبين أهل البلاد المفتوحة ، وقد تأثر بهذا التفسير كثيرمن المؤرخين العرب فراحوا يطبقونه على مظاهر كثيرة فى التاريخ العربى الإسلامى كما يقول الدكتور فاروق عمر فوزى فى نقده لما كتب عن الحركة البابكية التى صورها المغرضون فى صورة انتفاضة قومية إيرانية حيث قام أصحاب الدراسة بتجريد الحركة من سياقها التاريخى الشامل وحصرها فى جانب العنصرية . وقد واجه المؤرخون العرب المعاصرون هذه القضية المثارة فكشفوا وجه الحق فيها على هذا النحو : إن محاولة القول باضطهاد الحكم العربى للموالى واحتوائهم أمر يحتاج إلى تمحيص ونقد وأن مراجعة وقائع التاريخ تثبت العكس ، فإن الإسلام هو الذى دعا إلى التسوية بين العناصر الإسلامية جميعاً، بل بين البشرية جميعاً. وأن دعوة الإسلام للمساواة بين المسلمين كانت موضع تنفيذ الدول الحاكمة ، وأن هذه الدعوة نفسها هى التى استغلها خصوم الاسلام فى محاولة احتواء هذه العناصر ضد الدولة الاسلامية . والمعروف كما يقول الدكتور عبدالعزيز الدورى فى كتابه (جذور الشعوبية) إن الأمويين استخدموا الموالى بكثرة فى الدواوين وهى عماد الإدارة المحلية واستخدموهم فى الجباية والأمور المالية ولكنهم لم يسلموهم الرئاسة حيث اقتصرت الإمارة وقيادة الجيوش على العرب ، ومع ذلك فقد وصل إلى مكان القيادة طارق بن زياد ومقاتل بن حيان النبطى وبعض الأمراء مثل يزيد بن أبى مسلم أمير أفريقيا . أما فى مجال القضاء فقد فتح أمام الموالى حتى أن قاضى الكوفة فى زمن الحجاج كان سعيد بن جبير وهو مولى . وفى مجال الضرائب المعروفة والموروثة فإن الأمر لم يتجاوز حده . أما العطاء فقد شمل بعض الموالى فى صدرالاسلام ، وذلك عندما كان عددهم قليلا وكانت حاجة العرب إليهم فى الفتوح كبيرة ، ولكن اتساع الهجرة العربية من الجزيرة إلى البلاد الجديدة وانتظام الجميع فى الجيش لم يدع مجالا أو ضرورة للموالى ضمن صفوفه فاقتصر العطاء على العرب .

وأما مسألة الزواج فقد كانت مسألة العناية بالأنساب لا تزال قائمة بين القبائل وواضحة فى تزويج البنات وهى قضية لاتوجب السخط أو الثورة وقد ولد اثنين من الخلفاء الامويين أحدهما مروان الثانى من أبناء الأعجميات . يقول الدكتور عبد العزيز الدورى : إن ما يقال عن احتقار العرب للموالى أمر فيه نظر ، فالموالى لم يكونوا صنفاً واحداً فى الأساس ، فهناك أناس من السبى أو من أسرى الحرب الذى استرقوا ثم أعتقوا ، وهؤلاء قلة بين الموالى وهم عند تحررهم تبقى الفروق قائمة بينهم وبين أسيادهم وهم لا يرتقون إلى منزلتهم اجتماعياً ، ولكن جل الموالى أناس دخلوا الإسلام ووجدوا أن المجتمع لا يزال يتألف من قبائل وأن دور القبائل كبير فى الحياة الاجتماعية إذ لا كيان ولا منزلة اجتماعية خارج نطاقها فانتسب الموالى إلى هذه القبائل أفراداً وجماعات ، وهو انتساب ينطوى على الحلف يضمن المولى مكاناً فى المخطط الاجتماعى ، فالولاء فى هذه الحالة ولاء حلف لا ولاء عتق ، وهم بهذا الحلف يحصلون على الحماية اللازمة كما أنهم بدورهم يعززون مكان أحلافهم أو يساعدونهم مادياً ، وفى هذا الحلف شىء من عدم التكافؤ إلا أنه لا ينطوى على مهانة واحتقار، ففى أول الأمر وافق اعتزاز القبائل بأنسابهم ربط المنزلة الاجتماعية بالنسب ، وهذه وجهة قبلية لا تنسجم والروح العربية السمحاء التى

تعملت في الإسلام ، ولما تطور المجتمع باستقرار العرب وتعودهم على الحياة الحضرية ضعفت الأسس القبلية واتجهت الإدارة إلى المركزية وازدادت سلطتها ولم تبق ضرورة لهذا الولاء لأن السلطة لم تعد تعتمد على القبائل بل على الخليفة وأمرائه فأخذ هذا الولاء يتقلص بوضوح . وحين تنظر إلى فئات الموالى نجد كتاب الدواوين والتجار كانوا فى مكانة طيبة ولديهم من النفوذ والتأثير الشيء الكثير . ومنهم الفلاحون وأصحاب الحرف وكانوا فى منزلة اجتماعية متواضعة . فقد كانت القبائل تنظر إلى الفلاحة والحرف نظرة لا تخلو من استهانة ، وما نقله المستشرقون من إشارات وعبارات التقطوها من هنا وهناك لم تكن فى الحقيقة شواهد صحيحة تشير إلى احتقار الموالى ، وهذه القصص التى رددوها إنما تسجيل لحالات شاذة وفردية . ولقد كانت الموالى منتشرة فى عالم الإسلام كله آسيا وأفريقيا وأوربا ولم يكن لها مشكلة أو أزمة ، وأما مواقف الانتفاض فكانت فى منطقة فارس فقد استطاعت الشعوبية أن تحتوى الموالى تحت اسم المساواة والعدالة لجذبهم لمؤامراتها وكان بعض الموالى لا زالوا على دياناتهم القديمة من المجوسية والمزدكية وإن غطوها بشعار من الإسلام ، ومن ثم استغلت فى خطط المؤامرة الباطنية ووضعت فى التعاليم السرية دون أن تعرف أبعاد الخطط .

الفصل العاشر

أولا :

الشبهات والزيوف المثارة

إن مراجعة كتابات التاريخ خلال هذه الفترة التى تمثل العصر الإسلامى الأول تكشف عن كثير من الأخطاء والزيوف والشبهات بهدف انتقاص الدور الذى قام به الإسلام أو الغض من قدر النتائج الخطيرة التى حققها . (أولا) تهويل بعض الكتاب فى معارضة قريش للإسلام : متأثرين فى ذلك بدعايات طوائف مغرضة ذات نزعات خاصة نحو الصحابة جميعاً . لأن قريشاً والعرب هم الصحابة الذين اهتدوا بالتدريج ، فمنهم السابقون ومنهم اللاحقون وكلا وعد الله الحسنى ، ولا ريب أن صحابة رسول الله كانوا من أكمل الأعوان فى أنضج شعوب الأرض أحلاماً وأسلمها فطرة وأسرعها إنصافاً وأصدقها فى نصرة الحق بعد الاستجابة له ، نصرته وحفظ أماناته والنصيحة بكل ما يملكون . (ثانياً) إن ما وقع فى عصر الخلفاء الراشدين من تهاون أو سوء فهم قد حققه أعلام السنة وزيفوا ما دس فيه المغرضون لتشويه هذا العصر وتسويء سمعة الصحابة والإيهام بأنهم فى مستوى أوضع من مستواهم الرفيع الذى رفعهم الله إليه . (ثالثاً) ليس صحيحاً ما نسب فى مسألة التحكيم إلى أبى موسى من بلاهة أو عمرو من خدعة ، وقد كان كلاهما أعلى منزلة وأتقى وأبصر بدينهما من أن يكونا كما صورهما أعداء الصحابة

بأقلام مؤرخين كانوا يلبسون الحق بالباطل بحسب الأهواء . (ثالثاً) تقدير المعجزة الاجتماعية التى تمت فى مصر على يد عمرو بن العاص وإخوانه بتحويل هذا الوطن إلى دين الإسلام ودخوله فى أسرة العروبة واختياره لسانها وبيانها حتى صارت له الإمامة كما هو فى الواقع الآن ، وهو حادث لا تعرف مصر فى تاريخها أعظم ولا أعجب منه فى ألوف السنين ، وقد عجز الاستعمار الغربى أن يحدث مثل هذه المعجزة فى الجزائر أو غيرها . (رابعاً) وجوب العدول عن اعتبار التاريخ الإسلامى تاريخ حروب وفتن وأحداث وأشخاص وأن ينظر إليه على أنه تاريخ الدعوة الإسلامية وكيفية انتشارها وأسباب نجاحها ومن الذى أعان على ذلك وكان له أثر فيه بأخلاقه وتضحيته ، ومن الذى أساء إلى هذه الدعوة وصار فى غير طريقها وأفسد على الأمة دينها ودنياها ، وكيف طرأ على المجتمع الإسلامى الإنحطاط وظهرت فيه النزعات المذهبية والشعوبية وتطهير تاريخ الإسلام من الدسائس المكذوبة على أصحاب رسول الله اعتماداً على تحقيقات أعلام المسلمين وأئمتهم . ويقوم المنهاج على أن تاريخ الإسلام نفسه وتطور العمل بالمبادىء التى جاء بها ، ومن هم الذين نشروا دعوة الإسلام وعرفوا الأمم بها ، ومن الذين تنكروا لها . (خامساً) التنبه إلى محاولة الصهيونية التى تعمل على إخافة الغرب من قيام الدولة الإسلامية القوية . فهى تحاول أن تثير الشبهات القديمة لترسم أمام الغرب صورة غير صحيحة للعرب والمسلمين ، هذه الحملة بدأت بالإسرائيليات التى رسمها خصوم الإسلام فى روايات الأحاديث النبوية الشريفة (وصناعة اليهود المفضلة هى تحريف الكلم عن مواضعه) وهم يعملون منذ وقت طويل على تزييف تاريخ العالم وطمس ذاكرته وقد عمدت الصهيونية إلى مضاعفة عمليات تزييف العرب والإسلام ، وقد استطاعت أن تسيطر على بعض كراسى دراسة التاريخ فى الجامعات الأوربية والأمريكية .

والهدف هو دعم النشاط السياسى ضد العرب فى العالم والتوصل إلى خلق ثقافة محرمة تساعد على تفتيت العرب وهزيمتهم أمام العالم . ومن أمثال ذلك دعوتهم إلى تعبئة الرأى العام الأوربى ضد العرب بإثارة شبهات قديمة ماتت وانطوت تشبه انتشار الإسلام بالسيف والقول بأن أوربا ترجع بكل مقومات حضارتها إلى جذور يونانية ورومانية وحجب الأثر العربى الإسلامى ، بالرغم مما شهد به روجر بيكون وفرنسيس بيكون ، كذلك بإعادة بعث أحاديث الحركات الباطنية مثل الاسماعيلية والقرامطة والحلاج والادعاء بأنها نماذج للديمقراطية والاشتراكية فى الإسلام . (سادساً) ليس الإسلام تاريخ حروب وليس تاريخ مناورات سياسية ، وليست حروب الإسلام بمعنى الغلب ولكنها تصدر عن مفهوم الجهاد فى سبيل الله وغايته السامية هى فتح الطريق أمام الدعوة الإسلامية وإزاحة الذين يحولون دون انطلاقتها لقد اندفع المسلمون لتحرير هذه الشعوب من أغلال الكسروية والفرعونية والقيصرية فزالت وهلك كسرى فلا كسرى بعده ، وهلك قيصر فلا قيصر بعده ، وهلك فرعون فلا فرعون بعده ، وتدفق السيل لأحد عشر سنة للهجرة النبوية (٦٢٢) فى مروج الشام وفلسطين وسهول العراق وفارس وربوع مصر والمغرب الأقصى وأودية هملايا . (سابعاً) أكاذيب المستشرقين تتمثل فى سوء الفهم أو سوء القصد ، فهم يدرسون الإسلام وفى عقولهم فكرة مسبقة وفى نفوسهم إحساس بالتعصب والحقد الدائم الدين الذى اقتحم عليهم أوربا وصمد فيها خمسمائة عام ، فهم قد اقتحموا بلاده حاملين لواء التجارة

والتبشير والاستعمار لمحاربته وصده والحيلولة دون امتداده مرة أخرى ، وصدق الأمير شكيب أرسلان في تصوير عمل المستشرقين : هؤلاء المستشرقون إذا عثروا على حكاية شاردة أو نكتة نادرة في زاوية كتاب يكاد يكون محرفاً أسقطوا عليها تهافت الذباب على الحلوى وجعلوها معياراً أو مقياساً ، لا بل صيروها محكا يعرضون عليها سائر الحوادث ويغفلون ويتغافلون عن الأحوال الخاصة والأسباب المستثناه .
(ثامناً) امتد الأثر التغريبي والاستشراقي إلى مجال اليونسكو في كتاب تاريخ البشرية الذي صدر عنه مجافياً الحقائق التاريخية عن الإسلام ، ففي القسم الثاني من المجلد الثالث من كتاب تاريخ البشرية حاولت اليونسكو إذاعة الشبهات والأكاذيب الآتية : (أولا) إن الإسلام احتفظ في ركن الكعبة بالوثن المهم لأهل مكة وهو الحجر الأسود . (ثانياً) إن الإسلام كان توفيقاً من نظريات مسيحية ويهودية ووثنية . (ثالثاً) إن القرآن مؤلف تأليفاً بشرياً وأنه ذو مراتب مختلفة في نسقه وفي طريقة تعبيره . ولا ريب أن هذه الشبهات الكاذبة ليست إلا ما ردده الاستشراق اليهودي والاستشراق الغربي في تلك المحاولة الخطيرة لتزييف تاريخ الإسلام التي تقوم بها التغريب والاستشراق والاستعمار والشيوعية .

يقول الدكتور إبراهيم العدوي : إن منهج الغرب في كتابة التاريخ والذي سار في البداية على آثار هيرودوت وديودور وخاصة بالنسبة لأخبار الشعوب الأخرى يعتمد على الأساطير وخدمة الملوك والقواد والكهان وأفراد الطبقات المسيطرة والقوى الاقتصادية الفعالة إلى اليوم وبالنسبة لتاريخ العرب الإسلامي وبخاصة بعد الحروب الصليبية ونشوء مدرسة الاستشراق بأهداف استعمارية وتغلغل النفوذ اليهودي الصهيوني في كل فروع الفكر والثقافة في أوربا فقد برزت فيه النزعة إلى اقتناص الشوارد الصغيرة المثيرة وتكبيرها مع ثبوت كذبها بالاستحالة أو ضعف الرواية ، وذلك لتكون أساساً لنشر وترويج بعض النظريات الهدامة عن العرب والمسلمين والإسلام مما يكون تأثيره فعالا بصفة عامة في إضعاف إمكانية أي بعث عربي على أساس العقيدة . ومهما يكون مفعوله عفوياً عندما يقتضي الأمر مواجهة جادة وحاشدة لعدو شرس مثل إسرائيل بما يمثله من تحالف الاستعمار مع الصهيونية . ومن أمثال هذه شبهة قيام الاسلام بالسيف ، وما يلقيه التعليم الاستعماري لطلاب المغرب من أن خروجه من الأندلس بعد قرون زاهرة هي حركة طرد المستعمرين العرب وما بدأ يشيع في شباب العرب من شبهات مثارة عن عروبة فلسطين من كثرة ما قرأوا في الكتب العربية وسمعوا ورأوا من الأفلام الاستعمارية عن أرض المعاد وعن ملك سليمان من التهاويل .

ولقد كان تاريخ الإسلام هو تاريخ الشعب والناس والجماهير وتاريخ المؤمنين من ولاة وقضاة وفقهاء وعلماء ونحاه وشعراء وأدباء وأن الخطط الإسلامية كانت حافلة بالأخبار نابضة بالحياة ، وذلك قبل قرون طويلة من محاولة أميل لدوفيج أن يجعل من البحار والأنهار أبطالا للتاريخ كذلك حرصت مصادر التاريخ الإسلامي على ربط المؤمنين باستمرار بالجهاد للدفاع عن الدولة والشريعة والحضارة . وكشف الدكتور العدوي عن أن الهدف من كتابة التاريخ الاستعماري هو تنشئة أجيالنا على مفاهيم تاريخية خاطئة يصعب اقتلاعها ، وتقوم الصهيونية في بناء امبراطوريتها الوهمية على أساس أن معركتها

مع العرب تاريخية ، أى أنها تقوم خلالها بتزييف التاريخ العربي لصالحها ، ولذلك فإن جزءاً أساسياً من جهادنا هو اعتبارنا للمعركة معه تاريخية لأن هذه الصفة الأساسية لهذا الصراع الضارى تقتضى المبادرة بتصحيح التكوين التاريخى لجماهيرنا وشبابنا على أساس عقائدى (تاسعاً) يعجب المستشرقون ببنى أمية لأن أحدهم أبا سفيان كان عدو الرسول ويتمثل ذلك فيما كتبه هنرى لامنس عن معاوية ويزيد وعبد الملك وبقية بنى أمية ويقف آخرون من الدولة الأموية موقفاً معارضاً فيصورون الدولة الأموية بأنها تعصب لمفهوم الجاهلية فى الاستعلاء بالعنصر ويصورون الدولة العباسية بأنها فارسية خرجت من يد العرب . وهم لا يتحدثون عن القادة المصلحون الذين وطدوا الدول بل يتحدثون عن المتآمرين والمعارضين ويسهبون فى تفصيل حركات التمرد والمعارضة ويتحدثون عن الرشيد على أنه صاحب متاع وترف ويفسدون سيرته لأنه قضى على البرامكة الذين كانوا يعدون الدولة للخروج من الإسلام ، وحين يتحدثون عن المعتصم يتحدثون عن الأتراك وينقلون ما كتبه الجاحظ عن فضلهم ويضربون العناصر ببعضها ، ضرب العرب بالترك ، وضرب العرب بالفرس ، وما كان تاريخ الإسلام قبل الإستشراق يفصل بين العرب أو الترك أو الفرس بل كان يراهم أمة واحدة ، وهم يدعون أن القرامطة طلاب عدل وإصلاح ويأخذون من النصوص ما يوافق هواهم ، ففتنة الزنج فى جنوب العراق يروونها برواية النويرى لأنها توافق هواهم .

أما الحديث عن القرامطة فيروونه برواية الطبرى ويأتون بخطاب أحد القرمطى إلى الخليفة المقتدر وهوخطاب يصورهم فى صورة طلاب عدل وإصلاح ويتلذذ أحدهم بإيراد فقرة المسعودى تصف سرقة القرامطة للحجر الأسود ويطيلون الاهتمام والتوسع بالدول المنشقة عن الدولة العباسية (الصفاريين والسامانيين والطاهريين والبويهيين) ويطيلون الوقوف عندهم لأنهم يرونهم دولا فارسية ، ويبدون إعجاباً زائداً بالفاطميين لأن مذهبهم لم يلق قبولا عند جماعة المسلمين . ويشككون فيما كان فى عهد الرسول ﷺ وما كان من بعده فيتحدثون عن أن هناك فارقاً بين الفىء والغنيمة بين عصر النبى وما بعد ذلك وهم يسمون بلاد المغرب ببلاد البربر ، وهى محاولة لانتقاصهم ، بينما كانت عبارة (بربر) فى أساسها ذات معنى يختلف عما يستعمله المستشرقون .

وفى تاريخ المغرب يفصلون فى الحديث بين البربر والعرب ، وفى تاريخ المشرق يفصلون بين العرب والفرس حتى يقول توينبى إن هناك بعد الإسلام مجتمع فارس ومجتمع عربى ، وهم يسمون دعوة التوحيد التى قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب باسم (الوهابية) حتى يصوروها أمام الناس على أنها فرقة خارجة على الإسلام ، ويتحدثون طويلا عن المترجمين وترجمة الفلسفة ويركزون على مدرسة حران ويقفون طويلا عند ما كتبه المسعودى عن المعتزلة دون غيره ويبررون وجوه العنف الصليبى فى اعتداد عجيب وينقلون عبارة وليم الصورى التى تقول إن الصليبيين عندما دخلوا بيت المقدس قتلوا من أهله ٦٥ ألفاً وأن خيولهم كانت تخوض فى الدماء حتى صدورها ، كذلك صوروا العلاقة بين العرب والموالى على أنها خلاف وصراع ومؤامرة .

(عاشراً) حاول كثير من المستشرقين نسبة نكبة البرامكة إلى زواج جعفر البرمكى بالعباسة أخت الرشيد بادعاء أن الرشيد قد عقد لهما الزواج دون الخلوة فتجاوزا أمره واتخذوا من هذه القصة طريقاً إلى تعليل موقف حاسم هو تصفية الرشيد للبرامكة وتدمير وجودهم السياسى والاجتماعى فى الدولة العباسية. وقد أنكر ابن خلدون هذا الرأى وبين فساده فقال: «إنما نكب البرامكة لما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه فعظمت آثارهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها لمن سواهم.

وقد أشار المؤرخون إلى مؤامرة البرامكة التى كانوا يدبرونها لإخراج الملك من العرب والمسلمين وقد صرح بالتهمة ابن الأثير والمسعودى والطبرى وابن بدرون والاربلى. وقد وصفوا البرامكة بالزندقة بمعنى إضمار الكفر أو المخالفة لما أمرت به الشريعة الإسلامية وذهب قوم إلى أنهم كانوا يضمرون المجوسية.

ثانياً: كتابات المستشرقين ودعاة التغريب

عن تاريخ الاسلام

إن كتابات المستشرقين عن تاريخ الإسلام قد ثبت اضطراب كثير منها وفساده، وأحصيت أخطاء كثيرة لأعمال الاستشراق فى مجال التاريخ:

(١) أخطاء: دائرة المعارف الإسلامية. (٢) أخطاء: المنجد.
(٣) أخطاء: تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان. (٤) أخطاء: كتاب تاريخ العرب لفيليب حتى
(٥) أخطاء كتابات جولدسيهر ولامنس ومونتجمرى وات. وعقدت موسوعة تاريخ الجنس البشرى التى تصدرها مؤسسة اليونسكو فصلا عن العرب والمسلمين ملىء بالشبهات والسموم والتشويهات.

وعن هذه المصادر أخذ كثير من كتاب العرب:

(١) جرجى زيدان فى كتابه تاريخ التمدن الإسلامى. (٢) طه حسين فى كتابه القضية الكبرى.
(٣) زكى مبارك فى كتابه النثر الفنى. (٤) أحمد أمين فى كتابه فجر الإسلام.
(٥) الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه حياة محمد. (٦) عباس محمود العقاد فى كتب العبقريات.
(٧) إسماعيل أدهم أحمد فى كتابه عن مصادر التاريخ الإسلامى.
(٨) عبد الرحمن الشرقاوى فى كتابه رسول الحرية.

أخذ طه حسين مفاهيم الاستشراق اليهودى فى إنكار عبد الله بن سبأ وتبنى شبهات مرجليوث وجولدسيهر فى القرآن المكى والقرآن المدنى. وإنكار إبراهيم وإسماعيل، وأخذ هيكل شبهات وليم مدير واعتمد جرجى زيدان فى كتابه التمدن الإسلامى على مصنفات سيديو وكريمر وجولدسيهر. ونقل نقلا من دائرة المعارف الإسلامية. وقد استهدفت هذه المحاولة التى بدأها الاستشراق وأتمها التغريب:

(أولا) تصوير التاريخ الإسلامى وكأنه ملىء بالدسائس والمؤامرات محشواً بالدعارة والترف مقسما بالإنشقاق والتمزق كما يصور الخلفاء بصورة المتنازعين على السلطة والخلافة . والوجهة فى كتابات هؤلاء جميعاً تحمل طابع الإتهام ولا تقر مرحلة من المراحل أو موقفاً من المواقف ، فالعباسيون غارقون فى الترف والأمويون متسلطون على الرقاب، وحينما تصور كل مراحل التاريخ الإسلامى بالضعف والتمزق تصف حركات القرامطة والزنج بأنها حركات تقدمية ، ودعاة عدل ، وأن هؤلاء المتآمرون على الإسلام هم حركات من صميم الإسلام .

(ثانياً) فرض التقسيم الغربى لعصور التاريخ الأوربى على تاريخ العالم كله وتصور أن العصور الوسطى التى كانت عصور الظلام فى أوربا على أنها عصور ظلام فى العالم كله مع أن هذه المرحلة كانت عصر نور فى مختلف أجزاء آسيا وأفريقيا بفضل الإسلام . كذلك فرض المفاهيم العنصرية على الأجناس والأمم ووصف الغربيين وحدهم بأنه الجنس الأبيض صانع الحضارة ، وأن مختلف الأجناس شعوب متأخرة وهذه نظرية ثبت بطلانها .

وهكذا فرض الاستشراق والتغريب مقاييس التاريخ الأوربى على تاريخنا ، وحاكموا تاريخنا الإسلامى أساس القيم المسيحية الغربية ، كما أقحموا نظريات غربية كانت وليدة ظروف وتواريخ شعوب أخرى وتمخضت عنها أحوال وظروف مغايرة ، فهى لا يمكن اعتمادها أساساً لتفسير تاريخ الإسلام ، كذلك عمدوا إلى تجاهل الإسلام كمخرج حقيقى لهذا التاريخ وصوروه تصويراً مجرداً من هذه القيم ومن تأثيراتها وروحها . وهذا هو تصور فيليب حتى .

(ثالثاً) يعمد الاستشراق والتغريب إلى محاولة تصوير التاريخ الإسلامى على أنه تاريخ العرب فيضع فيليب حتى تاريخ الإسلام كله تحت إسم تاريخ العرب، ويصور جوستاف لوبون حضارة الإسلام تحت إسم حضارة العرب . والواقع أن هذا التاريخ ليس تاريخ العرب وحدهم وأن هذه الحضارة ليست حضارة العرب وحدهم ولكنه تاريخ الفرس والسلاجقة والمماليك والأتراك والمغول والبربر ، وأنه صنع فى إطار الإسلام وأن الحضارة قامت على مفهوم الإسلام .

(رابعاً) التوسع فى مسألة الفتوحات العربية والحروب بقصد تصوير الإسلام بأنه دين سيف بينما لا تمثل الفتوحات والحروب فى تاريخ الإسلام إلا مرحلة صغيرة إذا قيست بالنسبة لفتوحات وحروب الأمم والدول الأخرى .

(خامساً) يتابع فيليب حتى وغيره التفسير المادى للتاريخ فيرى ويرون أن الجفاف والفقر والغنيمة هى دوافع الفتح والهجرة .

(سادساً) ردد مع الغربيين أن العرب الفاتحين لم تكن لهم أى ثقافة أو تراث فكرى وأنهم تعلقوا بحضارة الأمم التى غلبوها فنقلوا منها وكانوا مهرة فى النقل .

(سابعاً) يذهب فيليب حتى إلى أن الكتابة التاريخ عند العرب أصول شيدت على أساس الطريقة الفارسية . وقد تبين الباحثين المنصفين كذب هذا الادعاء وأن دراسة نشأة علم التاريخ عند العرب تؤكد أن هذا العلم عربى النشأة ، وأن أصوله الأساسية قد تمت قبل الترجمة عن الفارسية ، وأن علم التاريخ عند العرب بدأ من أصول تتصل بدراسة الحديث والمغازى من جهة وبمتابعة الاهتمام الموروث من الجاهلية بالأيام كما ظهر لدى الأخباريين (عبد العزيز الدورى) .

(ثامناً) تفسيره الشعوبية بعيد كل البعد عن تحليل دوافعها واتجاهاتها فهو يراها مجرد دعوة التسوية بين المسلمين فى حين أن الحركة لها جذور عميقة فى الوعى القومى والدينى للشعوب الأخرى وخاصة الإيرانيين وأنها وإن بدأت بنبرة التسوية فى العصر الأموى فإنها سرعان ما انتقلت إلى تفضيل العجم على العرب وإلى مواجهة التراث والكيان العربى الإسلامى وكانت وثيقة الصلة بالزندقة وإن كانت قد برزت فى صورة أدبية فكرية . كما أنه ردد كثيراً من الشبهات كأسطورة العباسة فى تفسير نكبة البرامكة عن تصور (بروكلمان) .

(تاسعاً) فساد مفهوم بروكلمان للنبوة والقرآن فيدعى أن النبى اعترف فى السنوات الأولى بآلهة الكعبة ويردد قصة الغرانيق ويدعى أنه ﷺ كان يعرف مادة الكتاب المقدس والأساطير اليهودية ، وأن القرآن من تأليفه .

(عاشراً) حاول الاستشراق تشويه موقف الإسلام من أهل الذمة ، ونجد هذا واضحاً فى كتابات كثير من المستشرقين ومنهم الدكتور ا . س . ترتون فى كتابة أهل الذمة فى الإسلام الذى يحاول الادعاء باضطهاد المسلمين لأهل الذمة اضطهاداً ذاتياً قائماً على مجرد التعصب الدينى . ويدعى (ترتون) أن هذا الاضطهاد بدأ من عهد عمر بن الخطاب وحاول أن يقول أن العهد المنسوب إلى عمر ليس موثقاً تاريخياً وأنه منحول وأنه منسوب إلى عمر افتراء وأن عمر استعمل النصارى فى الدواوين مضطراً . ويحاول المستشرق التقاط أحداث جزئية ليبنى بها هيكلا تاريخياً يوحى بأن أهل الذمة فى الإسلام عوملوا بتعصب دينى . والواقع أن أهل الذمة بشهادة الغربيين أنفسهم قد عوملوا أشرف معاملة وأكرمها فى العهود الإسلامية المختلفة .

(حادى عشر) حاول (ستانلى لين بول) أن يصور حركة الدفاع التى قامت بها أساطيل أسبانيا والبرتغال على أنها قرصنة . وألف كتاب سماه « قرصان البربر » صور فيه الغارات البحرية التى كان يقوم بها عرب شمال أفريقيا دفاعاً عن أنفسهم ورداً على غزوات الغرب المسيحى بأنها قرصنة بربرية ، والمعروف أن معظم قادة هذه الحملات هم من المسلمين الأندلسيين الذين نفوا من وطنهم فى الأندلس .

(ثانى عشر) حاول مونتجمرى وات فى كتابه عن تاريخ أسبانيا الإسلامية إثارة عدد من الشبهات فى مقدمتها الجهاد وموضوع الأقليات غير الإسلامية .

(ثالث عشر) حاول « لامنس » تصوير سوريا بأنها بلاد لم تكن عربية قبل الإسلام وأنها

كانت رومانية وأن العرب تسلطوا عليها للخلاص من الحرب والفقر وأن أهل سوريا كانوا رعايا الامبراطورية الشرقية وأنهم كانوا يعتبرون بيزنطيين لا عرباً . كما حاول توينبي أن يصور الحضارة الإسلامية ثمرة العصر السرياني . وتجاهل لامنس وتوينبي أن مناطق الشام كلها كانت قد غمرتها منذ ألوف السنين هجرات متعددة وضخمة من عرب الجزيرة العربية الذين أقاموا بها وعربوا هذه المناطق وخاصة الجزيرة وبين النهرين ومناطق الشام وقسما بين الفرات ووادى النيل والأردن . وأن هذه المناطق فى مفهوم الجغرافيا القديم هى امتداد لجزيرة العرب وهى تمتد حتى جبال طوروس .

(رابع عشر) من أخطاء مونتجمرى وات قوله عن تحنث الرسول فى غار حراء بأن أغنياء مكة كانوا يتخلصون من حرها بالذهاب إلى الطائف ، أما محمد فإنه كان يذهب إلى غار حراء ليصطاف فيه هارباً من حر مكة وهذا رأى ليس له رد إلا السخرية بفهم وات للأمور .

(٢) (الرد على مونتجمرى وات فى كتابة تاريخ أسبانيا الإسلامية) :

يقول دكتور عبد الرحمن على الحجى : كانت دهشتى تزداد كلما تقدمت فى قراءة كتاب تاريخ أسبانيا الإسلامية ، تزداد غرابة لشدة بعده عن الحقيقة الأمر الذى لا يظهر فى عمومه أنه ناتج عن الجهل بل عن التجاهل والتعصب الذميم مع تحاشى وصف الأستاذ وات بالغباء . وفى الكتاب أمور غريبة وشططاً كبيراً عن الحقائق ، وتفسيرات الأحداث لا تحمل طابعاً علمياً ، واصطياداً الأدلة التى ينبغى بها تأييد التحريفات فهو يتحدث عن (الجهاد) وله فى الجهاد رأى غريب ، وإنه ليكاد يلقى الشك على نوايا الخلفاء والقادة فى التاريخ الإسلامى فتراه يهمل أموراً تاريخية يلزم ذكرها فى أى حديث عن التاريخ الأندلسى لأنها قد تقف ضده بينما يفصل فى موضوعات جزئية أو قضايا جانبية لأنها تؤيد رأيه الذى ليس فيه إنصاف .

وهو حين يتحدث عن الأقليات غير الإسلامية فى الأندلس يكاد يهمل الحديث عن التسامح الرائع الذى تمتعت به هذه الأقليات ولكنه يفصل فى الحديث عن انتشار الإسلام مؤكداً خلال ذلك دوافع المسلمين التى يقر أنها ليست دوافع عقائدية ولا تبتغى إعلاء كلمة الله ولغرابة هذا الأمر تعود بالقارىء إلى انتشار الإسلام فى الجزيرة العربية وأنه كان بالسيف وبدوافع غير دينية تماماً .

وهو يعتبر أن دافع ذلك هو الرغبة فى الحرب وإن لبست ثوب الدين فهى أحياناً لا تختلف عن دوافعها فى الجاهلية وغمطه الحقائق بإهماله لذكرها أو تشويهها ظاهر فى هذا الكتاب .

ويدافع (وات) عن إحدى الفكرتين القديمتين اللتين تبناهما عدد من المستشرقين وما زالتا تترددان من قبل الإمعات فى بلادنا ، ألا وهى أن الإسلام قام وانتشر تحت تأثير العوامل الاقتصادية وليست الفتوحات الإسلامية إلا مدفوعة ولو فى حدود بهذه العوامل .

وهنا يرد سؤال : هل للعامل الاقتصادي أي مكان أو تأثير أو اعتبار فى ظهور الإسلام فى مكة

على يد رسول الله ، وهل كان هذا العامل هو الدافع لانتشاره فى الجزيرة وخارجها . وهل هذا العامل هو الذى دفع المسلمين إلى أن يضحوا بأموالهم وأنفسهم .

إن القول بأن ظهور الإسلام وانتشاره كان بسبب وبدافع العامل الاقتصادى يهدف إلى قطع صلة الإنسان بالسماء ويلغى وحى الأنبياء ، كما تشير الفكرة الأخرى : فكرة انتشار الإسلام بالسيف إلى أنه ليس فى الإسلام من المثل والتشريعات ما يجذب الناس ، ولم يكن انتشاره قائماً على الاختيار ، بل كان للقوة والقهر إلى تغيير اقتصادى أثر مشارك ، فأدى إلى مجىء الإسلام وإلى حدوث الانقلاب الإسلامى الذى يعتبر أكبر تغيير وأعظم انتقال تقدمى شهده تاريخ الإنسان قاطبة . وهل اندفاع هؤلاء الحفنة من العرب من الأعاصير يبشرون بالإسلام جاعلين جهادهم لإعلاء كلمة الله فى الأرض وتحطيم الطواغيت كل الطواغيت هدفاً ترخص فى سبيله النفوس ، اندفعوا بتأثير عوامل اقتصادية . إن العقيدة الإسلامية هى الحدث الذى غير وسائل الإنتاج والمنافع الاقتصادية ، بل وصاغها حسب مفاهيمه كيما تكون خادمة للحياة الإسلامية ، متمشية ضمن مناهجها دائرة فى فلكها . والإسلام نظامه الاقتصادى المستقل ، بل إنه فى سبيل الأهداف الإسلامية تنازلت تلك الجماعات التى حملت الإسلام إلى العالم عن كافة منافعها الاقتصادية وكل الدوافع المادية وضحت بجميع إمكاناتها المالية .

الباب الثالث

التاريخ : وطنى وقومى وإسلامى جامع

(أولا) روافد التاريخ الإسلامى. (ثانياً) التاريخ وطنى وقومى وإسلامى .
(ثالثاً) العروبة والإسلام . (رابعاً) مصر للعربية الإسلامية .

الفصل الأول

روافد التاريخ الإسلامى

من أخطر المحاولات التى جرت فى العصر الحديث وفى ظل المناهج الوافدة فى كتابة التاريخ الانشطارية التى أنشأت ثلاث روافد فى الحقيقة نابعة من المجرى الأكبر ولكن الاستشراق والتغريب كان حريصاً على أن تستقل هذه الروافد وتنفصل عن المجرى الأصلى وأن يقوم لها وجود خاص : تلك هى الدعوة إلى كتابة التاريخ القومى وإلى كتابة التاريخ الإسلامى . ومن ثم نشأت دراسات تاريخية قائمة على الوطن والأرض وظهر ما يسمى تاريخ مصر ، تاريخ مصر ، تاريخ سوريا ، تاريخ العراق ، وتاريخ لبنان ... إلخ . وقد ظهرت هذه الدراسات فى إبان سيطرة النفوذ الأجنبى وسطوة الاحتلال البريطانى والفرنسى ، وكان الاستعمار حريصاً على أن تقوم هذه الإقليميات فى كل مجال : فى مجال اللغة والتاريخ حتى تنفصل الأقطار وتنشأ أجيالها لا تعرف إلا تاريخاً محدوداً هو تاريخ قطعة الأرض التى يعيشون عليها وكأنها قد انفصلت عما يجاورها واستقلت منذ فجر التاريخ إلى الآن، ولذلك فإن التاريخ الوطنى كان فى منطلقه زائفاً فى غايته فاخراً وكانت المحاولة مضللة ،فإن هذه التقسيمات التى سميت أقطاراً إنما جاءت بعد الحرب العالمية الأولى وبعد أن انفصلت عن دولة الخلافة الاسلامية التى كانت تجمع أغلب البلاد العربية تحت لوائها . والتى كان تاريخها كله متصلا منذ ظهور الاسلام .

ولقد اهتم التاريخ الوطنى بدراسة الآثار القديمة حيث انبعثت الحفريات ما سمى بالفرعونية فى مصر بالأشورية فى العراق وبالفينيقية فى لبنان ، وقد استهدفت كتابات التاريخ الوطنى رد العرب والمسلمين إلى تاريخ سابق لتاريخ الاسلام من ناحية وإعلاء هذه العناصر التى لم تكن فى حقيقتها إلا موجات انطلقت من الجزيرة العربية والتى تجمع بينها وحدة الأصل .

كذلك حاول الاستعمار السيطرة على هذا التاريخ الوطنى وقد أطلق عليه التاريخ القومى على أساس أن المصريين قوم والسوريين قوم والعراقيين قوم وهو إطلاق زائف .

وقد فرض الاستعمار فى دراسة تاريخ هذه الأوطان على أنها بلاد لم تتحرر طوال تاريخها وذلك تبريراً لوجودها تحت الاحتلال الغربى ، وبالنسبة لمصر فقد كانت دراسات التاريخ إبان الاحتلال تعلم الشباب أن هناك تاريخ يونانى وفارسى وعربى وبريطانى ، وفى المغرب كانوا يعلموهم أن تاريخ المغرب هو تاريخ رومانى خلال ألف سنة ، فلما بدأت هذه الأقطار تدخل مرحلة الاستقلال وكان النفوذ الأجنبى لايزال قائماً فإن هذه الأقطار ربطت نفسها بالتاريخ القديم السابق للإسلام فى محاولة للاستعلاء بالفرعونية فى مصر وبالأشورية فى العراق وبالفينيقية فى لبنان .

وفى سوريا عندما دخلت مرحلة الاستقلال كانت الدعوة إلى العروبة القديمة الجاهلية ، وقد أعلى شأن هذه العروبة القديمة حتى صورت بأنها عقيدة ، وجرت محاولات كثيرة لإعلائها ونسبت إليها بطولات وحضارات وذلك حتى تصبح منافسة لعصر الإسلام ، بل لقد حاولت أن تنسب كل أمجاد الإسلام وحضارته إلى هذه المرحلة الجاهلية ، وهذا ما أخذت به بعض الدعوات السياسية ، وينقسم التاريخ الحديث اليوم إلى تاريخ وطنى وإلى تاريخ قومى ، فالتاريخ الوطنى يتصل بالأرض ، والتاريخ القومى يرتبط بالجنس العربى وكلاهما جزء من التاريخ الإسلامى العام الذى تضم الحلقات الثلاث ولا يعتبر واحد منهما تاريخاً مستقلا بذاته . ولا ريب أن المحاولات كلها كانت تستهدف قطع تاريخ الأقطار العربية عن أصولها الإسلامية وخلق مقدمات زائفة لوضعها القائم ، ولكن كيف يمكن فصل تاريخ مائة عام من حياة أمة عن تاريخها خلال أربعة عشر قرناً وكيف يمكن نقلها عن امتدادها القومى إلى الوطن العربى ثم إلى الوطن الإسلامى الكبير والحق أن محاولات كتابة التاريخ على أنه (تاريخ وطنى أو تاريخ قومى) ما تزال قائمة فى كثير من الأقطار وإن تحررت من التبعية الاستعمارية فإنها لم تتمكن حتى الآن من التماس الأصالة فى إعادة التاريخ الوطنى أو التاريخ القومى إلى مكانهما الصحيح باعتبارهما رافدين من روافد المجرى الأكبر الذى هو تاريخ الإسلام الذى يربط هذه الأقطار من ناحيتين : من ناحية البدأ ومن ناحية المراحل ، من ناحية الامتداد التاريخى وناحية الامتداد الجغرافى . ومن حق الأصالة الإسلامية علينا أن نفهم وضع تاريخ الأقطار والأوطان العربية الإسلامية من التاريخ الإسلامى العام فنعرف أن التاريخ المصرى أو التاريخ السورى أو التاريخ العراقى أو التاريخ المغربى ليس إلا حلقة من حلقات التاريخ الإسلامى ترتبط به ولا تنفك عنه ، ولا سبيل إلى انفصال الوطن عن الأمة ولا انفصال الأمة عن وحدة الفكر الجامعة التى شكل بها الإسلام هذه الأمة الجامعة عرباً وفرساً وتركاً وغيرها من عناصر . الحق أنه لا سبيل إلى انفصال الحلقات الثلاث سواء فى مجال التاريخ أو الفكر أو الأدب ، كذلك فليس ذلك الماضى منذ ظهور الإسلام إلى الآن مما يمكن أن يوصف بأنه منقطع أو أنه ميت بأى حال من الأحوال بل إنه ما زال يحيا فى الحاضر ويمتد فيه . وعلينا أن نتفيظ إلى هذا التحدى الخطير الذى يحاول الاستشراق والتغريب تحقيقه هو قطع العصر الحديث عن الحلقات المتتابعة من رسالة الإسلام وتاريخه واللغة العربية والأدب العربى ، فتلك محاولة متصلة فى كل هذه المجالات وهى مضادة للفطرة والعلم ولطبيعة الأشياء . وان يستطيع أى قطر من هذه الأقطار أن يعيش فى تلك الحدود الجغرافية التى تحدها أرضه أو فى الحدود التاريخية التى يحدها تاريخه الإقليمى ،

فإن المنطقة كلها منذ جاء الإسلام فقد ارتبطت ارتباطاً فكرياً وتاريخياً وجغرافياً لا فواصل له من ناحية امتداد العصور ولا فى الامتداد الأرضى فإن هذا العالم الذى شكله القرآن إطار (لا إله إلا الله) قد ترابط بالعقيدة والفكر والثقافة والمفاهيم والقيم ، ولذلك فإن كل محاولة لرده إلى حدود ما فاصلا بين العرب والفرس والهنود والترك هى محاولة باطلة . فليس الوطن إلا بمثابة حلقة صغيرة داخل دائرة أكبر هى دائرة العروبة ، ثم إن العروبة نفسها ليست إلا حلقة فى دائرة الأمم التى جمعها الإسلام على فكر موحد وعلى عقيدة واحدة ، فهى متلاقية جميعاً بغير صراع ولا انفصال على غير النحو الذى تعرفه أوروبا والذى حاول دعاة الإقليميات الضيقة نقله إلى أفق الإسلام .

ونحن نرى أن الامتداد التاريخى هو فى حد ذاته ليس امتداداً يقوم على العنصر ولكنه يقوم على الفكر منذ رسالة الحنيفية الإبراهيمية التى شكلت أهل التوحيد والتى واجهت كثيراً من التحديات التى حاولت أن تخرجها عن جوهر الإخاء الإنسانى إلى العنصرية التى فرضتها بعض تفسيرات اليهودية وغيرها حتى جاء الإسلام ليربط نفسه من جديد بالحنيفية الإبراهيمية ليقيم هذا المفهوم الجامع المتكامل .

(٢) إن النفوذ الغربى ممثلا فى التغريب والاستشراق يعرف مدى خطر دراسة التاريخ فى بناء الأمم وخاصة إذا كان للأمة تاريخاً قوياً مليئاً بمفاخر البطولات والمواقف الحاسمة على مقاومة الغاصب من ناحية ، ورحمة وسماحة وإخاءاً على النحو الذى تحفل به فصول تاريخ الإسلام ، ولذلك فقد كان (الاستعمار والصهيونية والماركسية) فى جماعها كنفوذ يحاول التأثير على الوجود الإسلامى أن يعمل على تشويه هذا التاريخ فى وقائعه ، وأن يعمل على تمزيقه تحت دعوات قومية التاريخ وعالمية التاريخ وكلا الدعوتين تعملان على مقاومة وحدة التاريخ الإسلامى الذى تعتبر التاريخ الحديث الآن فى البلاد العربية وفى مختلف أجزاء الوطن الإسلامى جزءاً منه لا ينفصل ، سواء من ناحية الفعل أو رد الفعل ، فإن ما يمر به التاريخ الإسلامى الآن فى العالم الاسلامى ليس إلا ثمرة المرحلة السابقة له وإن تاريخ أى وطن عربى أو إسلامى لا يمكن أن يدرس أو يفهم إلا فى هذا الإطار الجامع ، بل إن ظاهرة الاستعمار الغربى نفسه لا يمكن أن يدرس فى الأقطار التى احتلها النفوذ الأجنبى منفصلة عن تاريخ الاسلام نفسه منذ فجره وفى خلال مراحله المتوالية . كذلك فإن ظاهرة الغزوة الصهيونية لا يمكن أن تدرس منفصلة عن أبعادها التاريخية والجغرافية فى العالم الاسلامى .

وكذلك لم يكن فى الإمكان دراسة الحروب الصليبية وغيرها من المواقف الحاسمة فى تاريخ الاسلام منفصلة عن التاريخ الاسلامى العام . بل إن التاريخ الوطنى لأى قطر من هذه الأقطار لا يفهم ولا تفسر أحداثه إلا إذا نظر إليها فى الإطار الجامع – ولقد كان هدف الاستشراق من الدعوة إلى قومية التاريخ أن يعزل المسلمين والعرب عن تاريخهم المديد المتصل وأن يغريهم بأن يدعوهم إلى أن يكون لهم وجود حديث منفصل يقوم على الإقليمية منفصلا عن العروبة والإسلام جميعاً . كذلك فإن الدعوة إلى (قومية التاريخ) التى تحمل لواءها مخططات النفوذ الأجنبى ، ليست هى الدعوة الوحيدة المطروحة فى أفق الفكر الإسلامى ، وإنما هناك الدعوة إلى عالمية التاريخ التى تحمل لواءها مخططات اليهودية العالمية وكلا الدعوتين تستهدف تحطيم وحدة التاريخ الإسلامى الذى أقامها الاسلام وتمزيق كيان الأمة

حول أكثر من تيار ، وإذا كانت دعوة قومية التاريخ تعلى من شأن (الإقليمية) وترفع شأن (العنصرية) فإن الدعوة إلى عالمية التاريخ تستهدف القضاء على ذاتية الأمة الاسلامية وإفساد طابعها المستقل وصهرها فى أتون العالمية والأممية التى تقضى على خصائصها الخاصة ووجودها القائم بذاته ، ولقد كان المسلمون حريصون دائماً على الأخوة الاسلامية الجامعة من ناحية ، فهم ينكرون الاقليميات والقوميات الضيقة ، ومن ناحية أخرى فهم حريصون على الاحتفاظ بذاتيتهم وشخصياتهم وكيانهم الخاص أن يذوب أو يتأثر بأى مؤثر من مؤثرات الاحتواء .

(٣) وبالجملة فإن محاولة تقسيم التاريخ الاسلامى إلى تاريخ وطنى وتاريخ عربى وتاريخ إقليمى وتاريخ قومى مصرى أو سورى أو مغربى الخ هو هدف ضخم من أهداف الاستعمار ، وقد تخصص أكثر من مستشرق فى هذا المجال ، منهم من يخدم الاستعمار أو يخدم الماركسية أو يخدم الصهيونية ، وقد طرح التغريب والغزو الثقافى فى الثلاثينات (مؤامرة) الفرعونية والفينيقية والاشورية من أجل رد مصر والشام والعراق عن ارتباطها الاسلامى الممتد خلال أربع عشر قرناً إلى صلات قديمة تتعلق بما كشفت عنه حفريات الآثار ، وقد جرى الاستشراق شوطاً طويلا فى محاولة إحياء هذه الدعوات ثم تبين له العجز المخزى عن وجود أى خيط من الخيوط التى تربط هذا الماضى البائد بالحاضر سواء من ناحية اللغة أو الأخلاق أو التقاليد ، ثم تبين أن هناك انقطاع حضارى عميق المدى بين هذه العصور البائدة وبين الاسلام .

ثم تبين بدلائل قومية أن ما يسمونه الفرعونية الأشورية والكنعانية والفينيقية ماهى إلا موجات عربية متتابعة تدافعت من داخل الجزيرة العربية حيث استطاعت أن تستقر فى أجزاء مختلفة من إمتداد الجزيرة العربية إلى ما بين النهرين فى وديان العراق وسهول سوريا وأرض النيل . كما تبين أن هذه المنطقة التى يطلق عليها الوطن العربى هى جزء من العالم الاسلامى مرتبطة به تاريخياً وجغرافياً وثقافياً وأن هناك تكامل اقتصادى واجتماعى بين مختلف أجزاء العالم الاسلامى وأنه من العسير أن تمثل هذه التقسيمات السياسية الاستعمارية أى معنى من معانى الاكتفاء الذاتى .

الفصل الثاني

التاريخ وطني وقومي وإسلامي

أولا : التاريخ الوطني

جرت المحاولة فى ظل الاستعمار والنفوذ الغربى إلى ماأطلق عليه تمصير التاريخ ، ويعنى هذا خلق تاريخ مصرى مستقل عن التاريخ الاسلامى ، ويقوم على أساس أن مصر كيان قائم بذاته منذ فجر التاريخ كانت لها حضارتها القديمة ومدنيتها قبل خمسة آلاف سنة . وهى حضارة سابقة للإسلام وغير متصلة بالعرب قوامها الأهرام والمعابد والنيل ، وأن هذا الكيان قد واجه موجات الغزو الخارجى المختلفة . ثم يذهب دعاة هذا المفهوم إلى تصور أن دخول مصر فى العروبة والإسلام إنما كان غزواً عربياً . وقد قال بهذا سلامة موسى وطه حسين . ثم يجرى العرض التاريخى على أساس أن مصر ظلت بعد تعريبها وإسلامها كياناً مستقلا إلى اليوم . ولا ريب أن هذا العرض خاطىء من الوجهة العلمية التاريخية ، ولكن مبرر هذه الدعوى فى نظر البعض أنها دفاع عن الكيان الوطنى فى وجه حملات الاستعمار الذى صور مصر على أنها ليست وجوداً وطنياً ، فاستخدم التاريخ الفرعونى وامتداده القديم ليكون رداً على هذه الاتهامات غير أن النفوذ الأجنبى استغل هذا ليكون دعوة إقليمية وانفصالية عن الدائرة العربية والدائرة الإسلامية وقد تكشفت فى دحض هذه المحاولة حقيقتان :

(الأولى) أن الموجة الفرعونية إلى مصر كانت موجة عربية من قلب الجزيرة وأن اللغة الهيروغليفية ذات صلة وطيدة باللغة العربية فى غالب مصطلحاتها وتركيبها .

(الثانى) أن هناك (انقطاع حضارى) تابعوا كيد وعميق بين عصر الاسلام وكل ماقبل الاسلام.
ولقد جرت محاولة أخرى لكتابة تاريخ مصر الحديث على أنه تاريخ وطنى ، وأطلق عليه عبد الرحمن الرافعى (تاريخ القومية المصرية) استمداداً من محاولات قام بها الجبرتى . ومضى فى هذا الطريق محمد صبرى وشفيق غربال وغيرهم فى محاولة لحصر تاريخ مصر فى حدوده التاريخية والجغرافية فى العصر الحديث منفصلا عن الكيان العربى المتصل بها من حولها والعالم الاسلامى كله .

وقد حاولت هذه الأبحاث تصوير الحركة الوطنية فى مواجهة الاحتلال البريطانى الذى بدأ عام ١٨٨٢ وما قبل ذلك من إرهاصات فى عصر إسماعيل على أنها حركة وطنية مجردة ، ولكن المؤرخين والباحثين الغربيين وغيرهم كشفوا فساد هذا المفهوم وبينوا أن الحركة الوطنية فى مصر والحركات الوطنية فى مختلف أجزاء البلاد العربية والاسلامية كانت إسلامية المصدر وأن حركات المقاومة كلها استمدت

قوتها من مفهوم الجهاد الاسلامى وأن الأزهر فى مصر كان هو المصدر الحقيقى لحركة المقاومة والحركة الوطنية نفسها، وأن الحركة الوطنية أيام عرابى كانت إسلامية الوجهة وكانت تؤمن بالجامعة الاسلامية، وكذلك كانت الحركة الوطنية التى حمل لواءها الحزب الوطنى إسلامية تؤمن بالتحرك الوطنى داخل إطار المفهوم الإسلامى والجامعة الاسلامية التى كانت تمثلها الدولة العثمانية، وقد كان الأمر كذلك فى كل مكان وصل إليه الاستعمار غير أن النفوذ الاستعمارى عمد إلى القضاء على هذا الرعيل من المجاهدين (محمد فريد وعبدالعزيز جاويش وغيرهم) ليفتح الطريق أمام إعداد جيل جديد يؤمن بالنفوذ الأجنبى ويتعامل معه ولا يرفضه، ويقبل سياسة المراحل وهو ما حقق كرومر إيجاده بإنشاء المدرسة المتفرنجة الموالية للأجنبي والمعجبة بأوربا والحضارة الغربية، وعلى رأسها لطفى السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمى وغيرهم (اقرأ تفصيل ذلك فى كتابنا: حركة اليقظة). وقد كشف هذا كثير من الباحثين فأبانوا بأن زعماء السياسة فى البلاد العربية كانوا يقاومون النفوذ الأجنبي فرنسياً كان أو انجليزياً فى نفس الوقت الذى كانوا يعتنقون فيه الفكر الغربى ويعجبون بالحضارة الغربية ويتحركون فى إطار النظام السياسى الديمقراطى الغربى، ومع ذلك فإن الحركة الوطنية والدعوة إلى مقاومة الاستعمار كانت إسلامية المصدر وبالرغم من إزاحة الاستعمار للرعيل الأول فإن روح الحركة الوطنية ظلت إسلامية وإن انحرفت عن مفهومها الجامع وقصرت نفسها فى إطار العمل السياسى والحزبى الذى كان لا بد أن يتكامل بظهور الجماعات والهيئات الاسلامية التى حملت لواء تصحيح مفهوم الحربية والسياسية ودفع المفهوم الوطنى إلى التكامل فى إطار الاسلام الجامع.

ويصور هذا محرر جريدة سبكتيتور البريطانية عام ١٩٣٥ فيقول: «ما هى حركة القومية المصرية وما قيمتها إذا كانت تتجاهل التقاليد القومية، ولا تظهر شعورها نحو ماضى بلادها الحر. فالمصرى العصرى بدون استثناء تقريباً يفضل المظهر الكاذب المموه وهو عادة مظهر فرنسى كاذب ويؤثره على تقاليده الثقافية. ومصر بلد إسلامى متعلم وبها حركة وطنية ومع ذلك فإن وطنيتها تستنكر كل مظهر للروح الاسلامى والمصرى يحاول اليوم بإدراكه وشعوره أن ينسى طبيعة الاسلام، فتراه يقطع نفسه وينفصل عن أصوله الأدبية والثقافية فى الحين الذى يستسلم فيه عن عجز وضعف إلى العوامل العصرية الخالية من الحياة الحقيقية.

لقد رأى اللورد كرومر الخطر الكامن فى ترسيم الشقة بين مصر الإسلامية ومصر السياسية ولهذا السبب تأتى خطة الشيخ محمد عبده تأييداً صادقاً ولكن الرجال الذين يرون ما يرى الشيخ محمد عبده هم اليوم أقل عدداً منهم منذ أربعين سنة ولا ريب أن مصر السياسية تفقد تراثها شيئا فشيئاً، ومتى فاز الوطن المصرى بالحكم الذاتى المطلق الذى يطلبه فإنه لا يجد لديه شيئاً من تقاليده الأدبية والفنية والثقافية تستطيع أن تستخدم هذا الاستقلال السياسى لفائدتها وترويجها. إن الوطنية دون الشعور بالتقاليد أو الجنس لا تصلح لأن تكون قاعدة تستطيع الطبقة المتعلمة أو تستمد منها أى ثبات أو تشريع له قيمته، وقد علقت مجلة الفتح على هذه الكلمة فقالت: إن الزعماء السياسيين يتظاهرون بعدم التمسك بالاسلام تقريباً إلى الافرنج والافرنج يبتسمون لذلك فى سرهم ابتسامة الاستخفاف، ولا يخفى على

كاتب مقالة السبكتيتر أن سياسة الاستعمار جاهدت طويلا لإفراغ سياستنا فى هذه القوالب بما لها من السلطان على مناهج التعليم والتربية وعلى حياة الصحافة التى تكون العقائد السياسية والأدبية فى دروس قرائها وبما للسياسة الاستعمارية من الأساليب فى ترقية من يؤيدونها من المتعلمين إلى المناصب ذات التأثير فى حياة الشرق ، فسياسة الشرق وقادته هم تلاميذ هؤلاء العاملين من الغربيين فى الغالب ، وقلما يشذ عن ذلك شرقى يشتغل بالسياسة .

ثانياً : التاريخ العربى

طرحت حركة التغريب والغزو الثقافى مفهوم (القومية) الغربى لتدمير مفهوم التاريخ الإسلامى الجامع بين العروبة والإسلام ، ولقد كان مفهوم دعاة العروبة منذ أن سقطت الدولة العثمانية يحمل هذا الترابط الجامع بين الإسلام والعروبة ، غير أن المحاولات لم تلبث أن دفعت نظرية القومية العربية التى تقوم على أساس اللغة والتاريخ والتى عرفتها أوربا فى معارضة مفهوم الوحدة المسيحية الجامعة وعملا على هدم الترابط القائم فى ظل الكنيسة الغربية وإقامة الصراع بين العناصر المختلفة ، لاتينية وسكسونية وجرمانية . وقد اندلعت فى أوربا حروباً متعددة وخلافات كثيرة وسالت دماء كثيرة ، وقد استهدف الذين نقلوا مفهوم القومية الغربية إلى العالم الإسلامى خلق هذا الصراع بين المسلمين والعرب . ولقد حاولت حركة التغريب والغزو الثقافى ومن تابعها من الأحزاب العربية عزل مفهوم العروبة عن أصالته والدعوة إلى علنيتها بغية القضاء على مفهوم الأصالة الذى يقرر أن العروبة ذات أرضية إسلامية أو على حد تعبير (ويلفرد كانتول سميث) الذى يقول إن تاريخ الشرق الأدنى والحديث ، يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة النهوض والبناء ، وما لم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه فلن تثمر الجهود القائمة . ولقد استغلت نظرية السلالات والعنصرية استغلالا شديداً فى تبرير الاستعمار الغربى للبلاد الإسلامية وذلك بدعوى أفضلية العنصر الأبيض صانع الحضارة . ومن هذه المحاولات ما قام به دعاة مفهوم القومية الغربية فى الغض من الدور الذى قام به الإسلام ومحاولة إعلاء التاريخ العربى قبل الإسلام ، وقد تكشف زيف هذه المفاهيم جميعاً وأثبتت الوثائق والأسانيد أن الإسلام بالنسبة للعرب هو مصدر كيانهم ووجودهم فإن الإسلام هو الذى صاغ العرب صياغة جديدة وأقام لهم الوحدة على أساس العقيدة والفكر والثقافة ، وليس على أساس الجنس والعرق، وكان لهم بمثابه السور المنيع الذى حماهم من العوادى وحطم الطغاة ، وهو الذى دفعهم إلى أفق المجال العالمى ، وهكذا نتبين أن موقف العرب من الإسلام يختلف عن مفهوم القوميات الأوربية من دينها وعقائدها فضلا عن أن الاسلام معارض لموجة العنصرية وإعلاء السلالات ، وهو الذى حمل إلى البشرية دعوة الإخاء البشرى. إن ساطع الحصرى وميشيل عفلق وأنطون سعادة قد عرضوا ونقضوا أكثر من مائة نظرية فى القوميات والاقليميات ليس من بينها نظرية واحدة عربية أو إسلامية أصيلة ، وكلها نظريات واحدة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبينها نظريات متعارضة ومتضادة ونظريات تعتمد على المشيئة وأخرى على الثقافة المشتركة وثالثة على الأرض ورابعة على اللغة والتاريخ ، وكلها يختلف مع طبيعة الفكر الاسلامى

ومنطلقاته ومفاهيمه وقيمه . وقد تبين أن العروبة الحقة لا تنفصل عن أرضية الاسلام وقيمه وأن العروبة ليست مذهباً مستقلا بذاته ولن تكون معارضة أو مضادة للإسلام وقيمه وأن مصطلح القومية والدين الغربى يختلف عن مصطلح العروبة والاسلام وأن بين هذه وتلك فوارق بعيدة المدى فليس الاسلام ديناً كالأديان وإنما هو عقيدة ونظام مجتمع ، وليست العروبة كالقومية فإن هناك اختلاف بين حالة الصراع الحديد الذى عرفته أوربا بين الدين والقومية وحالة الالتقاء العميق بين العروبة والاسلام . والواقع أن التاريخ الاسلامى فى مراحله المتصلة والجيدة خلال أربعة عشر قرناً لم يفصل بين المسلمين العرب والعرب ، ولا بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين إلا حين بدأ الاستعمار يستغل الشعور الدينى لتفرقة الأمة الواحدة واحتواء بعض الأقليات لخدمة أهدافه فى حرب الاسلام ، وأن الخلافات التى وقعت بين المسيحيين والمسلمين كانت بفعل الاستعمار وأن المذابح من الدروز والسنة كانت من تأثير النفوذ الأجنبى، ولقد كان للاستعمار الغربى أثره فى تغذية العصبيات الدينية ولم تحدث فى الدولة العثمانية تغذية العصبيات أو تفرقة بين الأديان أو بين العرب والترك إلا حين تولى الحكم فيها الاتحاديون حلفاء اليهود وعملاء المحافل الماسونية الذين شكلتهم الارساليات الأجنبية .

ولقد عمد التغريب والغزو الثقافى إلى تحويل الحركات الوطنية إلى عقائد قومية بإعلاء العصبيات والعناصر وترسيخها فى مجال الحياة التربوية والسياسية مع تشكيك العرب فى رسالة الاسلام والتخلص من العقائدية التى تقيم الترابط بين المسلمين ، وقد وصف الدوس هكسلى هذه الدعوات العنصرية والقومية والاقليمية بأنها الأصنام الجديدة التى رفعتها الحضارة الحديثة والتى جعلت من الوطنية أو القومية آلهة تعبد من دون الله .

ثالثاً : التاريخ الاسلامى

مضت التيارات الثلاث فى ظل النفوذ الأجنبى والتغريب تعمل لتحريف مفهوم وحدة التاريخ الاسلامى الجامع بين عنصرى الوطن والقومية معاً ، وذلك لخلق صراع لا يحقق الوصول إلى المفهوم الجامع وكتاب التاريخ الاسلامى لم يتمكنوا من وضع منهج جامع لأنهم كانوا يعملون داخل الدائرة المجزئة فكانت كتابات جرجى زيدان تستهدف إعلاء شأن الأمويين والغض من شأن عصر النبى ﷺ والخلفاء الراشدين . أما كتابات محمد عبد الله عنان فقد كانت صوراً لا تحملها وحدة ولا هدف ، لا تستهدف الدعوة إلى وحدة التاريخ الاسلامى وإن كانت تعارض مفهوم العروبة ولكنها تعلى مفهوم المصرية ، وكانت كتابات أحمد زكى باشا تلاحق بعض القضايا المشهورة وقد قصرت كتابات عبد الحميد العبادى على سلامتها عند العصر الأول ، كذلك فإن رفيق العظم توقف عند بعض البطولات الإسلامية الأولى ، وفى مقابل ذلك جرت محاولات طه حسين فى إثارة الشبهات حول ما أسماه الفتنة الكبرى حين تعرض للخلاف بين عثمان وعلى ومعاوية لجمع مختلف الخيوط التى عرض لها الاستشراق الدفاع عن وجهة نظر معينة قوامها إنكار وجود عبد الله بن سبأ اليهودى أو تبرئته من الاتهام فى مؤامرة مقتل عثمان .

ولقد كان الهدف الرئيسى من مختلف كتابات الاستشراق ودعاة التغريب غاية واحدة هو (إيجاد الصراع والتناقض بين العروبة والاسلام) . وكان برنارد لويس قد تخصص فى إثارة شبهة دعوة ممارسة العرب العداء العرقى ضد الموالى والزنوج ، بينما نجد عشرات الباحثين والمؤرخين يؤكدون المعاملة الكريمة التى عامل بها العرب الأفارقة ، ويقول المؤرخ توينبى : إن الحضارة العربية من الحضارات النادرة فى التاريخ التى لم تتخذ موقفاً عرقياً من الأفارقة بل عاملت السود على قدم المساواة مع العرب لأنها اتخذت موقف الاستعلاء على العرق الأبيض فى بيزنطه وروما . كذلك وجهت شبهات نحو مفهوم الوحدة الاسلامية دون أن تلتفت إلى أن الوحدة التى دعا إليها الاسلام هى وحدة ثقافة فكرية وعقائدية لا فكرة عنصرية ، فقد عرف الاسلام وحدة الفكر وجعلها مقدمة على كل العناصر ، فالاسلام يقيم روابط المجتمع على العقيدة والاخاء بين المؤمنين بصرف النظر عن أجناسهم أو لغاتهم أو سابق تاريخهم . وقد أكدت حقائق التاريخ أن الاسلام قطع ما قبله من عصور الجاهلية وأن ذلك التاريخ القديم قد انطوى تماما بعد أن عاشت اليونانية والرومانية والمسيحية أكثر من ألف سنة ، فلما جاء الاسلام قطع هذا التراث وقضى على الفكر واللغة وأقام مفهوم التوحيد الخالص بديلا عنه فى منطقة واسعة تمتد من الشام إلى مصر إلى المغرب كله ، ومن ثم أصبح البحر المتوسط فاصلا حقيقياً بين حضارتين ودينين وثقافتين .

كذلك فقد استطاعت قوى الاستعمار والتغريب أن توقع الصراع بين العرب والأتراك العثمانيين على النحو الذى فصل بينهما وكان ذلك لحساب الاستعمار والنفوذ الأجنبى الذى استولى على هذه المناطق العربية وكانت المحاولة التاريخية ترمى إلى تزييف العلاقات بين العرب والأتراك منذ بدأت وتصويرها على أنها علاقة استعمار بينما لم تكن كذلك وإنما كانت علاقة لقاء فى إطار الاسلام لمقاومة الغزو الغربى الذى كان يحضر لجولة ثانية بعد هزيمته فى الحروب الصليبية .

لقد كانت محاولة الفصل بين العرب والترك من أكبر مخططات الاستعمار التى تمت عن طريق كتابة التاريخ على نحو من التزييف والتضليل فى محاولة لخلق تصور عربى منفصل عن الاسلام ، وقد عملت الارساليات على تغذية هذه السموم وتبناها دعاة الفينيقية والماسونية والاتحاديين فى سبيل تمزيق وحدة التاريخ الاسلامى والوجود الاسلامى الجامع الذى يربط بين العرب والأتراك . وقد جرت المؤامرات نحو هذا الهدف حتى استطاعت أن تقيم خندقاً واسعاً بين العنصرين المسلمين كانت له آثار بعيدة المدى خلال أكثر من خمسين عاماً ؛ غير أن هذه الشبهات لم تلبث أن ظهر فسادها ، كما تبين هدف المؤامرة من تمزيق أديم العالم الاسلامى لحساب الصهيونية والاستعمار والشيوعية ، وتبين أن الوطن العربى جزء من العالم الاسلامى تجمعه رابطة الفكر والثقافة والعقيدة وأن الدولة العثمانية حمت العالم الاسلامى أكثر من أربعمائة سنة من الغزو الاستعمارى الغربى .

(راجع كتابنا : الاسلام والغرب : المجلد الثانى)

الفصل الثالث

العروبة والإسلام

فى مجال تكامل العروبة والاسلام يمكن أن تقدم الحقائق الآن :

(أولا) ليس بين العروبة والاسلام تناقض ولا تضاد بدليل أن كل إنسان يستطيع أن يكون عربياً ومسلماً فى وقت وقت واحد ، وقد اجتمعا فى الرسول وصحبه فكانوا عرباً وكانوا مسلمين ، وأن القرآن كتاب الاسلام وكتاب العربية ، فهو الدين لمن أراد الدين ، وهو البيان والبلاغة لمن أراد البيان والبلاغة . ويقول الأستاذ على الطنطاوى : وما الذى يبقى من العربية إن لم يكن فيها محمد والقرآن ، هل يبقى إلا المعلقات السبع وحرب البسوس وموقعة ذى قار . إن هنا دائرة كبيرة ودائرة صغيرة : الكبرى هى الاسلام والصغرى هى العربية . فالعربية تنطوى فى الاسلام إلا جانباً منها ، والعرب المسلمون لا يتناقضون مع أنفسهم حين يفرقون بين صفتين قائمتين ، والفكرتان من التداخل بحيث لا يظهر الخلاف بينهما ولا يستطيع الغلاة تجريد العربية من الاسلام .

(ثانياً) العروبة جزء من الاسلام بل هى نتاج الاسلام ، فالاسلام هو الحركة التى جمعت العرب كلهم على إيمان واحد ، ولولا الاسلام لبقى العرب فى جزيرتهم قبائل متفرقة لا قدر لها فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، وللإسلام على العرب فضل توحيدهم وفضل اطلاعهم فى معارج الحضارة وفى الحياة الانسانية وأن العرب توحدوا بالإسلام وأن الاسلام جعل منهم قوة عالمية حاملة لواء الحضارة (عمر فروخ) .

(ثالثاً) الاسلام هو التراث الحضارى للعرب مسلمين ومسيحيين ، والاسلام هو الذى وحد مفاهيم العرب وحدد مقاييسهم الاخلاقية فنقلها من وحدة الارض ووحدة الدم إلى وحدة الفكر والعقيدة .

(رابعاً) كانت فكرة القومية عند أمم الغرب مقترنة بالصراع واحتقار الأمم الأخرى ، ولكن العروبة تتكامل مع الدول الاسلامية وتلتقى معها فى الاخاء البشرى والتعارف ، وقد اعترف المستشرقون بأن الحركات القومية التى قامت فى أنحاء العالم الاسلامى لم ترم إلى ما رمت إليه أوربا من إيجاد قوميات مستقلة متنافسة ، هذا إلى أنه لم ينشب ولا ينتظر أن ينشب قريباً بين الشعوب الاسلامية منافسة اقتصادية كهذه المنافسة العنيفة التى طالما أوقدت نار الكفاح والنزاع بين الدول الأوربية . وقد أراد الله تبارك وتعالى للأمم أن تسير فى طريقها السوى وأن تتعارف بالمعنى الواسع الذى يقتضى حسن الصلة والاخاء والامتزاج .

(خامساً) يجب معرفة الفرق بين مصطلح الدين بصفة عامة وبين مصطلح الاسلام ، فالدين بالمعنى الذى يستعمل به هو العلاقة بين الله والانسان ، ولكن الاسلام يجمع العلاقة بين الله والانسان وبين الانسان والانسان ، فالاسلام ليس ديناً لاهوتياً فحسب ولكنه إلى ذلك نظام مجتمع . ومن هنا فإن

القول بإبعاد الدين عن مفهوم القومية هو مفهوم غربي ، لأن الغرب أقام الصراع بين الدين والقومية ، لأن الدين لم يكن نظاماً اجتماعياً كاملا عنده ولا كذلك العروبة فهي مرتبطة بالاسلام لأنها منبثقة منه.

(سادساً) الاسلام لا يفصل العروبة عن الاسلام كما دعا إلى ذلك ساطع الحصرى ومدرسة التغريبيين ، ولا يفصل الدين عن السياسة كما دعا إلى ذلك على عبد الرازق ودعاة الشعوبية .

(سابعاً) أكد الباحثون فضل الاسلام على الوجود العربي نفسه . يقول الفريد كانتول سميث : الاسلام هو الذى خرج بالعرب من ديارهم إلى العالم . فالاسلام سبب عظمة العرب الدنيوية ، والعرب هم الذين نشروا الاسلام فى بقاع العرب ، ونحن نؤمن بأن العرب مادة الاسلام ، حملوا رسالة الله إلى العالمين . ولكن ليس لهم من أجل ذلك من أثر يوحى بالاستعلاء على المسلمين ». كذلك فإن الاسلام هو الذى حمى اللغة العربية . حتى قال أحدهم : إن الاسلام هو الدين الوحيد فى العالم الذى ملأ نفوس معتنقيه فخراً وإعجاباً ، وهم ينظرون إلى لغتهم بوصفها اللغة التى اختارها الله لإظهار دينه ، وهى اللغة التى يتعلمها كل من أراد أن يتخذ الاسلام ديناً له . يقول الرسول ﷺ : ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما العربية اللسان. فمن تكلم بالعربية فهو عربي (رواه الحافظ بن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهرى) .

(ثامناً) غير الاسلام موقف الأمم فأعلى رابطة الفكر والعقيدة وحال دون الاستعلاء برابطة العنصر والقرابة والنسب . ودعا إلى الخروج من عصبية الجاهلية وإبدالها بأخوة الاسلام ، فلم يبق بعد الاسلام نسب ولم تصبح القرابة هى الرابطة . فلا يفرق بين المسلمين اختلاف لون ولا تباين لسان . وعندما يدخل الانسان فى الاسلام يكون واحداً من جماعة له ما لها وعليه ما عليها، ولا يفضل الاسلام عربياً على أعجمياً ، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى . وأدخل العجم فى العربية لغة وفى الاسلام ديناً ، فنشأ علماء فحول كانوا مصابيح الهدى (البخارى ، الطبرى، المزورى ، التبريزى ، الجرجانى، الأصفهانى، القزوينى، الفيروزبادى ، أبو حنيفة ، سيبويه ، ابن سيرين ، الزمخشرى) . وكلهم كتبوا بالعربية . ويقول الزمخشرى : « الحمد لله الذى جعلنى من علماء العربية وجبلنى على الغضب للعرب » . وقد أشار علماء الاسلام إلى أن الاسلام امتاز عن سائر الأديان بأنه دين وقومية جامعة وأنه سياسة وعقيدة . يقول الأستاذ محمد سليمان : (ولما كان الاسلام ديناً وجنسية فقد رفع الحدود بين الأمم اللاتى تدين به ، وكره أن يدعى فيها بدعوى الجاهلية ، وجعل أصحابها جميعاً إخواناً تؤلف مجموعهم كتلة واحدة لا فضل فيها لعربي على عجمى إلا بالتقوى . ولما لم يكن للمجموعات البشرية من رابطة تتعصب لها وتعتصم بضرورتها فإنه وهو دين التوحيد ودعوته للاتحاد ، كان لا بد للمسلمين من وحدة عامة وعصبية عامة ولسان عام وقد نبت الاسلام عربياً وبعث على لسان رسوله العربى ، ونزل قرآنه بلسان عربي مبين . فصح لهذا أن يمتزج الفرع بأصله وأن يتحد الاسلام بالعربية وأن يكون لسان شعوبها قاطبة . وقد نجحت هذه النظرية أيما نجاح وأخلص المؤمنون العمل بها فعمت العربية ذلك المنبسط الآسيوى الأفريقى إلى حدود جبال البرنية فى أوربا وذلك ما يعجب له علماء الاجتماع الآن .

لقد دعا الإسلام إلى استعراب هذه الأمم حين جعل العربية لسان العبادة بين العبد وربه ، وأوجب على كل مسلم تعلم شيء منها يقيم به صلاته ، وجعل فهم القرآن وهو غاية كل مسلم معلقاً على درس العربية وفهمها وجعل حب النبي وقومه من أصول الإسلام ، كما أوجب الحج لتكون تلك القبلة وهذا الوادي أحب إلى المؤمن من داره وبلده . وهكذا جاء الاسلام نسباً وجنسية ، فقد ربط الاسلام بين الجنس والوطن وجعل الفكرة هي الدائرة الأوسع وأعلى من شأن الفكرة والعقيدة عن الجنس (القومية) والوطن (الأرض) ولذلك فإن مفكرو الاسلام لم يكونوا يصدرون عن أقطارهم ولكنهم كانوا يصدرون عن فكرة عالمية الاسلام .

(تاسعاً) لقد كان هدف التغريب والغزو الثقافي إحلال العروبة بديلا عن الاسلام وإعطائها صورة العقيدة وتمزيق الوحدة العقائدية الفكرية بالسلالات القومية والدعوات العنصرية القائمة على استغلال الدماء ، وما سبق الإسلام من تاريخ وأحداث وآثار وهي قوميات وهمية اندثرت وماتت وانقطعت عن الحياة بالاسلام ، ولم تعد بابل وأشور والفراعنة تستطيع أن تبعث في النفس العربية والإسلامية شيئاً .

(عاشراً) الإسلام وليس العروبة هو الذي حمى الوطن العربي من الصليبيين بعد أن تم تكوين أربع إمارات صليبية ، لجاء صلاح الدين الكردي المسلم لينشل العروبة من هوتها التي كان في الإمكان أن تستمر ، والمماليك هم الذين حموا الأرض العربية من التتار الذين دخلوا بغداد وأزالوا الخلافة الاسلامية وجعلوها مدينة للموت والدمار لقد قاتل المماليك الذين هم من جنس التتار لا من جنس العرب باسم الاسلام إخوانهم في الجنس . وفي الجزائر بعد مائة وثلاثين عاماً من القضاء على الكيان الجزائري ممثلا في اللغة العربية استطاع الاسلام أن يبعث الأمة من جديد ، فقد رفع ابن باديس راية الاسلام من جديد فأضاءت شعلة العروبة ، ومن هنا فقد تبين أنه حيث يسقط الاسلام يسقط العرب وأنه حيث يسقط العرب لبعدهم عن الاسلام فإن الإسلام هو الذي يبقى لهم أملا ومنقذاً .

(حادى عشر) يقول موروبيرجو في كتابه (العالم العربي اليوم) إن العروبة تعني الاسلام ، وإن الابتعاد بالعرب عن الاسلام معناه انفصال البناء عن أساسه ، وقد ثبت تاريخياً أن قوة العرب تعني قوة الاسلام .

الفصل الرابع

مصر العربية الإسلامية

كانت حقيقة مصر العربية الإسلامية هدفاً من أهداف التغريب والغزو الثقافى فى محاولة جبارة لتزييف هذا المفهوم وإثارة الشبهات حوله ، وخلق عدد من الدعوات وفى مقدمتها المصرية الفرعونية والمصرية الخالصة ومصر العربية فى محاولة للحيلولة دون قيام مفهوم مصر العربية الاسلامية الأصيل. فالعمل على تجزئة التاريخ إلى وطنى وقومى كان عملا أساسياً من أعمال الاستعمار والتغريب ، بل أن التاريخ الحديث عربياً ومصرياً يجب أن تعاد كتابته فى ضوء مفهوم وحدة التاريخ الاسلامى ، ذلك أن هذا التاريخ القائم كتب بطريقة مضللة، حتى أن بعضاً من أبطال هذا التاريخ والذين لا نزال نعدهم أبطالا تحوم حولهم كثير من الشبهات فى خدمتهم للاستعمار والصهيونية . وقد رد كثير من الباحثين أسباب نكسة ١٩٦٧ إلى فساد كتابة التاريخ الوطنى والقومى ، بل يقول البعض : أن السبب الحقيقى فى النكسة يرجع إلى أن الجيلين الماضيين قد خططا لتشكيل حياة الانسان المصرى تشكيلا خاصاً وصبغه صبغة معينة لا تخدم فى الواقع إلا الغرض الذى يخدم اليهودية العالمية والاستعمار والماركسية . إن أسئلة كثيرة حافلة بالشك تدور فى عقول كل من يحاول الدرس على أساس سليم . ويرد البعض اضطراب مفهوم التاريخ الحديث إلى عدم وجود مدرسة أصيلة للتاريخ بدلا من الارتباط بركاب المدارس الأوربية وفرض منهج وافد على تفسير التاريخ المصرى العربى الاسلامى حتى أن بعض أساتذة التاريخ المعاصرين اعتبروا مجتمع القرامطة مجتمعاً اشتراكياً ووصفوه بأنهم أول من سار فى اليسار من العرب العاربة والمستعربة . يقول الدكتور سيد الناصرى : إن الذى يشجع على عملية التزوير التاريخى هو غياب الوعى القومى . فما زلنا ندرس التاريخ على أنه قصص حالمة دون الاستفادة من دروسه الأخلاقية والسياسية على أساس منهج عصرى يخدم واقعنا ومستقبلنا ويضع أمام الناس خلاصة التجارب التى تناسب مشاكل الساعة وتساهم فى عملية الخلق والابتكار خاصة وإن هناك أخطاراً تحدق ببلادنا وحضارتنا . ولا ريب أن مقطع الأمر فى دراسة التاريخ الحديث والمعاصر هو أن يكون وعاء لفهم الأخطار التى تحيط بهذه الأمة اليوم ومؤشراً لاتجاه الرياح وكاشفاً لمخططات الاستعمار والصهيونية والماركسية فى التآمر على هذه المنطقة الواحدة : العربية الإسلامية . وقد أشار كثيرون من الباحثين إلى الأخطار التى أحدقت بكتابة التاريخ القومى والوطنى لمصر والكثير من البلاد العربية فى مواجهة تيارات ثلاث خطيرة :

(١) محاولات الاستعمار الغربى وتفسيراته . (٢) محاولات الشيوعية وتفسيراتها .

(٣) محاولات الصهيونية وتفسيراتها .

ومن هنا نجد أن تاريخ مصر والبلاد العربية يكتبه أما أمريكيون أو بريطانيون أو يهوداً وماركسيون

وأن ما يكتبه رجال الجامعة الأمريكية إنما يكتب من وجهة نظر غربية أو يهودية وما يكتبه أمثال الدكتور محمد أنيس وغيره إنما يكتب من وجهة نظر ماركسية ، وبذلك فإن أجيالنا الجديدة تقرأ تاريخها الوطنى (الذى هو جزء من التاريخ الاسلامى) على غير حقيقته فقد صور لها الأبطال فى تاريخها تائهين وراء سحب من الشك والغموض بينما وضعت هالات التمجيد والإكبار حول الذين خانوا كفاحها.

فنى ظل الاستعمار البريطانى وصف زعماء مصر الموالون له بالبطولة بينما وصف الذين قاوموه بأنهم كانوا من الموالين للدولة العثمانية .

وكانت كتابات المؤرخين الأجانب ترمى إلى رفع شأن أسرة محمد على وتبرئة إسماعيل ، وتفسير الأحداث التى كانت مقدمة للاحتلال البريطانى تفسيراً توصف فيه بأنها قبول الحضارة الحديثة . كذلك فإن أسماء الجبرتى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعرابى ظلت وقتاً طويلا تحاك حولها الشبهات لأنها قاومت أسرة محمد على وقاومت الاحتلال البريطانى . بل إن ما كتبه الجبرتى عن أسرة محمد على ظل وقتاً طويلا مما يمنع إعادة نشره . وكانت الحكومة المصرية فى عصر أسرة محمد على (وفى عصر إسماعيل بالذات) تشترط فى عقودها مع المطابع النص على عدم طبع الجزء الثالث من كتاب عجائب الآثار للجبرتى . وفى السنوات الأخيرة استغل الماركسيون رفاعة الطهطاوى وصوروه على أنه داعية للإقليمية المصرية ، كما استغلوا المؤرخ « المقريزى » وصوروا أبحاثه بأنها تفسيراً ماركسياً للتاريخ المصرى .

وجاءت كتابات الدكتور محمد حسين هيكل وعبد الرحمن الرافعى وأمين سعيد عن التاريخ الوطنى ملونة باتجاه خاص لكل منهم ، فالدكتور هيكل ربيب حزب الأحرار الدستوريين خصوم الوفد ، والرافعى تلميذ مصطفى كامل ومحمد فريد وخصم الأحزاب السياسية الوفد والأحرار وغيرهم . وأمين سعيد كان موالياً للاحتلال البريطانى وله ولاء معه فلم تعطى أية كتابة من هذه الصورة الحقيقية للحركة الوطنية خلال الفترة التى أرختها عند ما عكس كل مؤرخ اتجاهه السياسى وتبعيته، وكذلك فإن كتابات محمد صبرى كانت تمثل المدرسة الفرنسية فى التاريخ وكانت كتابات شفيق غربال تمثل المدرسة البريطانية فى كتابة التاريخ.

أما مذكرات أحمد شفيق فكانت تمثل الولاء للأسرة المالكة وإن تحررت فى بعض مراحلها من هذا الولاء وإن ظلت تمثل عقلية أحمد شفيق ربيب الدراسات الأجنبية . وكذلك كانت مذكرات إسماعيل صدقى تمثل الدفاع عن جيل من الموالين للاستعمار والرأسمالية الغربية . وهكذا نجد أن جميع المادة التى بين أيدينا ذات اتجاه غربى ، ولما جاءت بعد ذلك كتابات محمد أنيس وجماعة الماركسيين فإنها كانت ذات اتجاه للمذهب للتفسير المادى للتاريخ . وكلا الطريقين لا يمثلان المفهوم الأصيل للتاريخ الوطنى كجزء من تاريخ الاسلام العام . وعند ما عقد مؤتمر لندن (أبريل ١٩٥٥) لمناقشة تاريخ مصر الحديث ، كان المسيطرون على المؤتمر أمريكيون وبريطانيون يجمعون بين مفاهيم الرأسمالية الغربية واليهودية العالمية . وكانت أسماء الصهيونيون بارزة (ناداف شفران) جبرائيل باتر ، جاكوب لانداو ، فاتيكوتش ، برنارد لويس وهؤلاء جميعاً لهم مواقف ضد المصريين والعرب .

وقد أشار الباحثون إلى عشرات الكتب التى تصدر فى مختلف أقطار العالم : بل إن هناك مؤلفات صدرت اشترك فى كتابتها عدد من أساتذة مختلف الجامعات : الجامعة العبرية بالقدس وجامعة لندن وجامعة اكسفورد ومدرسة الشئون الشرقية والأفريقية فى لندن وجامعة بنسلفانيا الأمريكية حول تاريخ مصر الحديث بعنوان التغييرات الاجتماعية والسياسية فى مصر ، والجديد فى هذا الكتاب محاولة لتصوير مصر فى الستينات بعصر أيام المماليك فى ضوء تفسير مادى للتاريخ . ونرى الذين يعملون فى حقل الدراسات التاريخية فى مصر والبلاد العربية قد احتواهم أحد التيارين : التيار الرأسمالى والتيار الماركسى وكلاهما خاضع للتفسيرات الصهيونية ، ومن هنا فإنه كلما ارتفعت الأصوات بإعادة كتابة تاريخ مصر الحديث نشعر بأن الأمر لن يكون أكثر من الانتقال من التبعية الغربية الرأسمالية إلى التبعية الماركسية الشيوعية فى تفسير التاريخ من خلال العلاقات الاقتصادية . وأن المدرسة التى اشتغلت بكتابة تاريخ مصر كانت محتواه فى إطار حوبيتها وفى مفاهيمها الضيقة ، ومعنى هذا أن كتابة تاريخ مصر ستظل مقيدة بسلاسل فوق سلاسله الأولى دون أن يكون قادراً على تفسير تاريخ مصر تفسيراً إسلامياً أصيلا باعتبار أن مصر جزء من الوطن العربى والأمة الإسلامية ، بل إنه عندما يعلن أحد الكتاب أن الصحافة هى مصدر خطير لكتابة تاريخ مصر الحديث فإننا نجد أن الصحافة المصرية نفسها فى هذه المرحلة كانت محتواه للنفوذ الفرنسى أو الإنجليزى وأن الصحف المصرية الخالصة كانت محتواه للحرية السياسية التى كانت قد قامت على أساس مفهوم مصر المصريين ، فهى لم تكن فى يوم من الأيام قائمة على فهم مصر فى إطارها العربى الإسلامى ، فهى إما وطنية خالصة أو منتمية إلى العروبة ولكنها فى نفس الوقت لا تتحرك فى إطار المفهوم الإسلامى الجامع ، فإن هؤلاء الذين نشأوا فى ظل المفهوم الحزبى والسياسى المصرى كانوا يبدأون تاريخ مصر من الحملة الفرنسية ويتحدثون عن عصر محمد على وإسماعيل والثورة المصرية ١٩١٩ والأحزاب السياسية إلخ ، ويتحدثون عن بطولات هذه الفترة : عمر مكرم وعرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول إلخ ، وهذه الكتابات بلونيها الغربى (شفيق غربال) والماركسى (لويس عوض — محمد أنيس إلخ) لا تخرج عن دائرة الإقليمية والسخط على الدولة العثمانية والإعجاب بالغرب والتأقلم فى إطاراته ، ولا يزيد التفسير الماركسى عن التفسير الغربى للتاريخ إلا تلك المحاولات اليسيرة التى ترمى إلى الحديث عن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، ولكنهم جميعاً يقفون موقفاً واضحاً من الخصومة للدائرة العربية والدائرة الإسلامية ، وهو نفس الامتداد الذى عرفته المدارس السياسية التى بدأها حزب الأمة ثم حزب الوفد والأحرار والسعديين وغيرهم ، وهو القائم على التحرك من داخل دائرة الولاء للحضارة الغربية والفكر الغربى وخاصة الإنجليز سياسياً ومتابعة الغرب فكرياً وقبول لتنظيماته الديمقراطية .

ومن الحق أن يقال إن التحليل الغربى للتاريخ مغرض وناقص وأن التحليل الماركسى للتاريخ ليس كافياً فضلا عن ماديته الخالصة ، وهناك عوامل أخرى كالعوامل الاقتصادية تؤثر فى حركة التاريخ وخاصة العوامل المعنوية . وما تحدث به عن مصر هو بمثابة الصورة المكررة فى مختلف أجزاء الوطن العربى ، فإن الاستعمار الذى دفع مؤرخى مصر على اعتبار أن بداية تاريخهم هو الحملة الفرنسية هو

الذى أوهم الجزائريين أن بدء تاريخهم هو عام ١٨٣٠ وهو العام الذى احتلت فيه فرنسا الجزائر . وقد أنشأ الاحتلال فى مصر ، كما أنشأ فى كل مكان ، أجيالا تنتسب إلى الاستعمار (الانجليز فى السودان والعراق) والفرنسيين فى (تونس والجزائر ومراكش وسوريا ولبنان) كل ما تتكون منه شخصية هذه الأقطار الحديثة من أسباب الرفاهية والتقدم المادى ، وكما حجب على الجزائريين تاريخ الإسلام الحضارى فى الشرق وفى بغداد وقرطبة ذلك التاريخ الذى أفادت منه أوربا كل الفائدة ، فقد حجب عن المشارقة معرفة تاريخ المغرب والأندلس ، وظلت كتب التاريخ وخاصة تاريخ الأدب تتناول مصر والشام والعراق والجزيرة وحدها على أنها هى الوطن العربى . ولقد حرص الاستعمار فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى حجب ما سوى التاريخ الإقليمى الذى لونه بلون الولاء للدولة المحتلة وربطه بتاريخ العرب يقول أحمد سيكوتورى : لقد تعلمنا نحن المثقفين الافريقيين فى مدارس الاستعمار تاريخ فرنسا وحروب الغال وحياة جان دارك ونابليون ، وقرأنا لامرتين ومسرح موليير ودرسنا التنظيم الادارى لفرنسا كما لو كانت بلادنا أوربا وليست إفريقيا ، ولقد قدم الاستعمار لنا من العلم والثقافة القدر الذى يرى أنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بعجلة الاستعمار .

(٢)

فتح مصر

يعد فتح مصر الاسلامى أضخم الأحداث قاطبة فى تاريخ هذا القطر ، بل إن بعض المؤرخين المنصفين يصفه بأنه أعظم انقلاب اجتماعى عرفته مصر فى تاريخها القديم والحديث . يقول السيد محب الدين الخطيب : كل الذين كتبوا تاريخ الفتح الاسلامى لمصر يقفون مبهوتين أمام المعجزة التى تمت لعمرو بن العاص من الوجهة الحربية بل إن نتائج المعجزة الأدبية والاجتماعية والقومية أعظم من ذلك بكثير لأنها قد عجز عن مثلها أمم الأرض وأقربهم الفرنسيون فى الجزائر منذ ١١٥ عاماً إلى الآن مع توفر وسائل الطباعة وأدوات التأثير والضغط . يقول : وليست معجزة الاسلام فى فتح مصر تنحصر فى عدد الجيش الفاتح ولا ما يحمله من عدة ولا ما كان لهذا الجيش من نصر عجيب وتوفيق لا مثيل له ولكن معجزة الاسلام الخالدة فى هذا الفتح هى فيما أحدثت من انقلاب اجتماعى حول لغة مصر فى أسواقها وبيوتها ومعاهد ثقافتها إلى صف اللغة السماوية التى تتكلم بها اليوم ، فقد حول الاسلام نفوسهم وعقولهم وقلوبهم وإيمانهم إلى حالة عجزت عقول أدهى الأمم عن أن توفق إلى مثلها أو إلى جزء منها فلم تفلح . هذا النجاح فى الانقلاب الاجتماعى لم يقتصر به العرب على مصر حتى يبحث له المتنطعون عن علل خيالية وأسباب وهمية ، بل سبق مثله فى الشام والعراق وتلاه مثله فى شمال أفريقيا والسودان ولو بقيت قيادة الاسلام فى أيدى أهله الأولين واستمرت طريقتهم على ما كانت عليه لوصل هذا الانقلاب بلغته وآدابه وعقائده إلى اليابان وإلى أمريكا . والواقع أن دخول مصر فى الاسلام ليس كما يصوره بعض خصوم التاريخ الاسلامى بأنه فتح عربى على النحو الذى عرفته مصر بالفتح اليونانى

والرومانى والفارسى ، فإن مصر كانت عربية أساساً قبل دخولها فى الإسلام ، وكانت الموجات العربية المتوالدة قبل الإسلام بآلاف السنين قد وجدت فى هذه المنطقة وجوداً عربياً أصيلا ، بل إن الأبحاث العلمية قد كشفت عن أن الفراعنة عرب وأن لغتهم متداخلة فى اللغة العربية إلى نسبة كبيرة من حروفها ومعانيها . ولقد كان دخول مصر فى الاسلام عاملا حاسماً فى القضاء على العبودية الفرعونية والرومانية وإلغاء نظام الطبقات الذى كان سائداً فى جميع حكومات الأسر الفرعونية ثم فى زمن الاسكندر المقدونى تلميذ أرسطو وخلفائه البطالمة والرومانيين الجائرين ، أى أنه كان للإسلام شرف القضاء على هذا النظام البغيض بيد عمرو بن العاص ، كذلك فقد أعلن الاسلام المساواة فى الحقوق والواجبات القانونية والاجتماعية بين أهل مصر ، وأعلنت الدولة الفاتحة عن تنازلها عن حقها القانونى فى إلزام غير المسلمين بالاحتكام إلى شريعة الدولة وقضائها فى الأمور المتصلة بالدين كالأحوال الشخصية .

والواقع أن الأقباط أهل مصر الأصليين كانوا يتطلعون إلى التحرر من النفوذ الرومانى البغيض المتسلط بأسلوبه العبودى العنيف ، ولذلك فقد حقق لهم الفتح الاسلامى هذه الحرية وقضى على هذا النفوذ ، وكان المسيحيون واليهود ينتظرون من قادة الفتح وعامة جندهم الطعن فى الأنبياء السابقين وفى المسيح وأمه ، فما لبثوا أن رأوهم أعظم حرمة لهذه الشخصيات الكريمة من أهل الديانتين وأبلغ تعظيماً لهم حتى عن بعض ما قيل عنهم فى التوراة نفسها ، وكان الكهنة وعظماء الكنيسة الأرثوذكسية يحسبون أن أبطال الدين الجديد سيحولون بينهم وبين استمرار رئاستهم الدينية على جماهير قومهم فعجبوا حين رأوا رؤساء المسلمين يقرون كل شيء على ما كان عليه ويحمون معابدهم ، ووجدوا أن الرجال الجدد يكرهون الجدل والمراء ، وقد التزموا طريقة القرآن التى تقول لكل مسلم : ادفع بالتى هى أحسن وجادلهم بالتى هى أحسن ، وانقلب العدو صديقاً .

وكان الحكام الجدد يعرضون الاسلام على المصريين ويعرفونهم بعبادته وأهدافه بلسان الحال لا بلسان المقال . كان الاسلام الذى يعرضونه عليهم أخلاقاً يعاملون بها الناس ببساطة لا تصنع فيها ولا تكلف ولا رياء ، وإذا أخطأ جندى من جنود الفتح وجد المصرى الذى يقع عليه الخطأ أبواب رؤساء ذلك الجندى مفتحة لكل صاحب ظلامة ، فأحب المصريون دين الاسلام لأنه دين الأخلاق الكريمة ولحبهم للإسلام أحبوا لغة الاسلام فعزموا على أن ينتقلوا إليه باتخاذ لغته لبيوتهم وأسواقهم ومجتمعاتهم فتقرب المصريون ليقرأوا القرآن بلغته التى أنزله الله بها وليصلوا الصلاة الاسلامية بلغة الضاد والتى اختارها الله لوحيه وكتابه ولآخر أديانه ، ومنذ ارتضى المصريون لأنفسهم أن يكونوا عرباً من أمة العرب أصبحوا أمة إسلامية فى قلب وطن الاسلام ، وقد مضى عليهم بضعة عشر قرناً وهم ثابتون عليهما رغم ما نزل بهم من أحداث .

ويصور أحد الباحثين (مصر بعد الفتح العربى) فيقول : إن جيش الفتح اثنى عشر ألف مقاتل من القبائل العربية المختلفة ، وبدأت هجرات عربية إلى مصر ، أكثرها هجرة قبائل القيسية ثم اليمنية ، ونزلت بطون قيس بالحوف الشرقى حول بلبيس ، واستمرت رحلة القبائل العربية وهجرتهم المتلاحقة أما الأقباط فكانوا أكثرية عن الفتح .

قال المقريزى : إنهم كانوا على قسمين متباينين فى أجناسهم وعقائدهم . أحدهما أهل الدولة وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ودياناتهم أجمهم ديانة الملكية وكان عددهم يزيد على ثلاثمائة ألف رومى . والقسم الآخر عامة أهل مصر ويقال لهم القبط ، وأنسابهم مختلفة لا يكاد أن تميز منهم الحبشى من النوبى من الإسرائيلى الأصل من غيره وكلهم يعاقبة ، وبينهم دين الملكية أهل الدولة من العداوة بما منع التزاوج بينهم ويوجب قتل بعضهم بعضاً .

ودارت الحرب بين العرب والروم وقت الفتح . أما القبط فكانوا عوناً للعرب ، وبعد الفتح كتب عمرو أماناً لبنيامين بطرك الأقباط ، فخرج من بيته فى الصحراء وعاد إلى كرسى بطركيته بعد أن غاب عنه ثلاثة عشر سنة ، واعتبر الأقباط أهل ذمة وفرض على كل من بلغ الحلم (دينارين) واستثنى النساء والصبية والشيوخ ، وظل الأقباط يدفعون هذه الضريبة نحو قرن من الزمان ، واعتنق عدد كبير من الأقباط الإسلام ، وكان من الطبيعى وهذه العوامل تعمل مجتمعة لإدماج الشعبين أحدهما فى الآخر أن تنشر اللغة العربية بين الأقباط ليمكن التفاهم بين الحاكم والمحكوم ، وظل انتشار اللغة العربية بطيئاً طوال القرن الأول للهجرة ، وقبل نهاية القرن عام ٨٧ هـ — ٧٠٥ م . فجاء الأمر بالدواوين فنسخت إلى العربيه وكانت من قبل تكتب بالقبطية واليونانية وتاريخ آخر ورقة كتبت باليونانية ١٠١ هـ ، واقدم ورقة بالعربية ٩٠ هـ . وظل التحول يتم بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، حتى إذا كان القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كانت غالبية الشعب المصرى يتكلمون العربية ولا يفهمون القبطية بدليل أن رجال الكنيسة المصرية اضطروا فى هذا القرن أن يلقوا مواعظهم فى الكنائس باللغة العربية .

وفى القرن الثالث أسقط العرب من ديوان الجند ومنعت أعطياتهم ، فانتشروا فى القرى المصرية واشتغلوا بالزراعة وتزوجوا من المصريات . وفى هذا القرن امتزج الشعبين ولم يبدأ القرن الرابع حتى كانت مصر شعباً واحداً جديداً هو خليط من الشعبين العربى والقبطى يدين معظمه بالدين الاسلامى ويتكلم سواده مسلمين وأقباط باللغة العربية . واندمج الأقباط فى العرب واعتنقوا الاسلام .

وبعد تدوين الدواوين أخذوا يدخلون فى الاسلام ويتعلمون العربية لرغبتهم فى الإحتفاظ بمكانتهم وأعمالهم . وقد اعتنق بعض الأقباط الاسلام فراراً من الضرائب التى كانت مفروضة عليهم . ولما كثر دخول الأقباط فى الاسلام نقص الخراج ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) كتب عامله فى مصر أيوب بن شرحبيل إليه يشكو لكثرة دخول الناس فى الإسلام وما لذلك من أثر فى نقص قيمة الخراج ، ثم استأذنه فى فرض الجزية على من أسلم . فرد عليه عمر بن عبد العزيز : « قبح الله رأيك . إن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً . فضع الجزية عن أسلم ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يدى » .

وقد كان دخول الأقباط فى الاسلام فى مصر دخولا طبيعياً يسير مع التطور المنطقى للحوادث والتاريخ فى مصر بعد الفتح العربى . ولقد كان لبساطة الاسلام ويسر تعاليمه أبعد الأثر فى جذب

هؤلاء الأقباط إليه ، وقد شهد بهذا الرأى شاهد من أهل الديانة المسيحية هو سير توماس أرنولد قال :
« والحق أن كثيراً من مسيحى مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وهذه السرعة التى اعتنقوا بها النصرانية فى مستهل القرن الرابع الميلادى ، كما أن سرعة انتشار الإسلام فى الأيام الأولى من الاحتلال العربى قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التى قام بها الفاتحون لجذب الأهلية إلى الاسلام وأن الأساس اللاهوتى لبقاء اليعقوبيين حزباً منفصلا والشعائر التى جاهدوا فى سبيل الاحتفاظ بها ودفعوا ثمناً غالياً فى هذا السبيل قد اجتمعت فى عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضاً وإبهاماً من الناحية الميتافيزيقية ولا شك أن كثيراً من هؤلاء تحولوا إلى عقيدة تتلخص فى وحدانية الله البسيطة الواضحة وهى دين محمد » .

(٢)

عروبة مصر

جرت محاولات التشكيك فى عروبة مصر والادعاء بأن لمصر شخصية فرعونية مسيحية ، وأن العصر الاسلامى عارض يسير لم يغير هذه الشخصية ، وأن مصر كانت مهد الحضارة التى قامت منذ فجر التاريخ حول البحر المتوسط ، وأنها حملت الدعوة الموسوية والمسيحية ومدرسة الاسكندرية التى جددت المعتقدات اللاهوتية . وترتبط هذه الدعوة بالدعوة إلى حضارة البحر المتوسط التى كانت فيها مصر امتداداً للحضارة اليونانية والامبراطورية اليونانية ثم ترمى هذه الدعوة الدولة العثمانية بأنها دولة استعمارية، وأن مصر قد تفرض عليها نفوذ الأتراك ويطلق على هذا الاستعمار التركى . ويدعو حملة لواء هذه الدعوة إلى الارتباط بالغرب وحضارته مع الاحتفاظ بالقومية المصرية ذات الجذور الفرعونية .

ومن هؤلاء الكتاب لطفى السيد وطه حسين وسلامه موسى ومريت بطرس غالى وغيرهم وكل هذه محاولات تحاول أن تشكك فى عروبة مصر وفى أن مصر جزء من الأمة الإسلامية . فإذا أريد معرفة صلة مصر بالعرب قيل أن مصر يمكن أن تكون (واصلا) بين البلاد العربية كما هى قادرة على أن تكون (فاصلا بينها) . والهدف من هذا تحقيق مطمح النفوذ الاستعمارى وإبعاد مصر عن الجامعة العربية والاسلامية وإغرائها بطموح وهى زائف أن تكون أمة فرعونية مصرية قائمة بذاتها حتى يتحقق هدف القوى الكبرى فى الفصل بين الوجود الاسلامى المتكامل بين أفريقيا وآسيا ، وهو مشروع قديم حاولت الدول الأجنبية تحقيقه للحيلولة دون قيام وحدة عربية إسلامية تضم آسيا وأفريقيا .

وقد أثيرت هذه القضية خلال العصر الحديث مرة بعد مرة . وكانت تستهدف فى تجديدها تحقيق هدف استعمارى أو صهيونى أو لدعاة القوميات الوافدة ، فالمسألة لا تدرس أبداً على وجه صحيح ، وإنما تدرس بهدف مسبق يرمى إلى إعلاء إحدى التيارات ، ويختلف فى هذا دعاة الفرعونية القبطية عن دعاة الماركسية عن دعاة البعث . وقد تجاهل الجميع الواقع الحقيقى الذى وصلت إليه مكانة مصر

من العالم الإسلامى والوطن العربى ، على نحو قضى تماما على كل العوامل السابقة لذلك سواء من ناحية مفاهيم الوثنية الفرعونية أو المفاهيم الهيلينية أو الفكر الرومانى ، بل إن اللغة العربية قد حلت محل اللغة التى كانت قائمة فى هذه البلاد وأنه لم تعد للفرعونية أى آثار واضحة فى ذاكرة الشعب المصرى مما يدل على أنه حدث انقطاع حضارى ، وأن مصر أعادت تشكيل شخصيتها فى إطار العروبة والاسلام . ولم يعد هناك أى تناقض بين الأطراف الثلاثة التى تتحرك فيها مصر : وطناً وعروبة وإسلاماً وهذا الذى نقول به عن مصر نقول به عن كل أجزاء الوطن العربى .

ولقد كانت لاستعلاء فكرة القومية العربية فى الستينات أثرها فى مخططات التغريب والغزو الثقافى كواحدة من الوسائل لتمزيق مفهوم (مصر العربية الإسلامية) وإعادة مصر إلى مفهوم جزئى ، ولكن مفهوم القومية الذى طرح فى البلاد العربية كان مفهوماً وافداً وكان منقولا من نظريات غربية تختلف اختلافاً عميقاً عن الواقع فى البلاد العربية وعلاقتها بالعالم الإسلامى ، وعن مفهوم الإسلام الجامع الذى يقوم على الوحدة الجامعة ويسمح بقيام القوميات فى إطارها ، كما بين أن فكرة القومية قد حملت معها فكرة العنصرية وفكرة الدم والنسب والاستعلاء بها عن العنصر الآخر ، وهذا ما رفضه المفهوم الإسلامى ، بل لا تعدو الحقيقة إذا قلنا أن الإسلام جاء لحرب هذه العنصرية (كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى) .

فى الرد على هذه الدعاوى التى جددها مريت بطرس غالى (١٩٧٤) يقول إبراهيم مدكور : « ليس فى بلادنا من يستطيع أن يقول أن أصله فرعونى مائة فى المائة ، أو شركسى ، أو عثمانى ، أو مملوكى . إن مصر بالذات من البيئات الاجتماعية والجغرافية القادرة أكبر من غيرها على امتصاص عناصر مختلفة ومتعددة ، والإسلام لم يكن قائماً أبداً على أساس قومى أو عنصرى إن كل تراث قديم لا يمكن إعادته من جديد ولكن يمكن النظر إليه فى ضوء الواقع ، فالفرعونية ، الأمة ينظر إليها فى ضوء الاسلام والعروبة وأن عوامل تكوين الأمة هى : الزمن والموقع الجغرافى والثقافة والتاريخ ، والمصرية والعربية بنات عم وأخوات ، نحن فى الحقيقة مصريون وعرب ونستطيع أن نلائم بين الطرفين » .

ويحاول أمثال باهور لبيب وزكى شنوده تصور وجود مصرى اليوم قائم على الأساس الفرعونى ، وأن الأقباط هم السلالة المباشرة لقدماء المصريين وأن تراثهم ما هو إلا امتداد لتراث هؤلاء الأجداد وقد ورثوا منهم الملامح والطبائع والأخلاق ورد فؤاد محمد شبل على هذه الدعوى يقول : إن الكاتب انزلق إلى القول بأن الأقباط هم البقية الباقية من قدماء المصريين التى وقفت أمام نوائب الدهر وأنهم هم وحدهم الذين ورثوا عن قدماء المصريين التقاطيع والملامح وسائر الأوصاف الجسدية . والكاتب هنا يروج لنظرية ضالة مضللة فإنه يجرد ٩٢ ٪ من الشعب المصرى من أصالته الحضارية ويجعل هذه الصلة وقفاً على المسيحيين المصريين دون أن يستند على أساس ، فهل المؤلف يضمن اتصال النسب بين قدماء المصريين والمسيحيين المصريين دون سواهم . ألم تحكم مصر بالفرس واليونان والرومان أجيالا طويلة قبل الفتح العربى . لقد وفد العرب بأعداد زهيدة وكان السكان وقت الفتح يتراوحون بين ثمانية ملايين واثنى عشر مليوناً ،

فهل يعنى اعتناق المصريين الاسلام وصيرورته على مدى الأيام عقيدة أكثريتهم الساحقة ، فهل يعنى هذا زوال أصالتهم المصرية ، ولم لا يعنى اعتناق المصريين المسيحية وهى بالمثل عقيدة وفدت على مصر من خارجها زوال صفتهم المصرية وفقاً لمنطق المؤلف ، وإذا كانت المصرية ثقافة ، فلقد تشرب الأقباط بالثقافة اليونانية ، وكما أنهم يستوعبون الآن مثل المسلمين سواء بسواء الثقافة العربية ، واللغة العربية هى اليوم لغة الكنيسة المرقسية ، وهل حقيقة أن المسيحيين المصريين يختلفون فى القد والسحنة والأخلاق والعادات عن إخوانهم المسلمين المصريين ؟ لأنه كما يدعى الكاتب قد تبين العلماء والأجناس أن التشابه يكاد أن يكون تاماً بين المومياءات المصرية القديمة وبين أقباط اليوم ، وبذلك يمكن القول بأن أقباط اليوم هم من ناحية الجنس سلالة مباشرة لقدماء المصريين . فهل يقصد الكاتب القول بأن مصر أمتين : أمة أصلية هى إلى الأقلية انحدرت من أصلاب قدماء المصريين مباشرة وأمة دخيلة هى الأغلبية ؟

(٣)

الانقطاع الحضارى

تؤكد جميع أبحاث التاريخ المنصفة أن هناك انقطاع حضارى قام فى مصر والبلاد العربية بعد ظهور الإسلام ، وأكد توينبى أنه بحث عن الحضارة الفرعونية فى كيان مصر الحديث ووجد أن هناك انقطاعاً حضارياً ، وأعلن أن الحضارة الفرعونية قد ماتت من قديم .

وقال الدكتور صبحى وحيده : تغيرت مصر تغيراً عميقاً شاملا بعد الفتح العربى عما كانت عليه من قبل فصار أبناؤها يفكرون بالعربية لا بالهيروغليفية أو الأفريقية ، ويشعرون شعوراً إسلامياً لا فرعونياً ولا مسيحياً ، ويتنفسون فى جو آسيا المغولية بعد أن كانوا يتنفسون فى جو البحر الأبيض المتوسط .

وأعلن خطأ الذين يقولون بأن المصريين لم يتغيروا قط وأن الذى تغير وتمصر هو من هبط عليهم من الخارج ، وأن المصريين تغيروا مادياً ومعنوياً .

وأشار حسين فوزى فى كتابه سندباد مصرى « إن التحول الكبير فى حياة مصر بالفتح العربى قد فصلها فصلا تاماً عن تاريخها السابق مع الفتح الاسلامى ، وأنه من الخطأ أن نحمل الإسلام واللغة العربية تبعة انفصال مصر عن تاريخها الفرعونى وأنها فى الواقع قد نبذت تاريخها القديم عندما تحولت من الوثنية إلى المسيحية فى القرون الأولى بعد الميلاد . ويقول جمال حمدان : « إن الفتح العربى لمصر كان نقطة حاسمة بين مرحلتين ، وأن هناك معارضة للقول بالاستمرارية المصرية منذ بدء التاريخ حتى الآن » .

وهـــذا كله يعنى انقطاعية مصر عن تاريخ استمر أكثر من ألف سنة بين الوثنية الفرعونية واليونانية والرومانية المسيحية . وأن الاستمرارية التى عرفتهامصر هى استمرارية الحنيفية الإبراهيمية الممتدة عبر أصول الديانتين المنزلتين على موسى وعيسى عليهما الســلام ، ويمكن القول بالانقطاعية فى الفكر والثقافة والعقيدة ولا استمرارية فى الحضارة المادية ، وأن الاستمرارية المادية منفصلة عن الانقطاع فى مجال الحياة الثقافية والروحية ، وأن مصدر هذا التغيير هو التعريب والإسلام وأن القول بغير ذلك إنما يعنى تجاهل أكثر من ثلاثة عشر قرناً جمعت بين مصر والعرب فى إطار الإســلام . وتؤكد المصادر كلها على وجود الأرضية العربية السابقة الإسلام فى مصر والعراق وسوريا فيقول الدكتور حمدان : إن عروبة مصر الفرعونية قبل الإسلام لا تختلف فى نوعها ودرجتها عن عروبة العراق الآشورى قبل الإسلام أو عروبة الشام الفينيقى قبل الإسلام ، وليس هناك فارق بين نوع العروبة شرق السويس وغربها . أما القول بأن مصر فرعونية أصلا عربية مصاهرة هو منطق جاهلى ، منطق ما قبل الإســلام ونوع من الردة التاريخية ينسب الإبن إلى جده دون أبيه أو قبل أن ينسبه إلى أبيه ، ليس العرب هنا الأب الاجتماعى فقط وإنما هم بنفس درجة الأب البيولوجى .

ويقول الدكتور حمدان : إن الانقطاع بالمعنى الحضارى ، هذا الانقطاع يمثل أعظم حقيقة فى تاريخ مصر الثقافى والروحى ويمثل نقطة تحول حاسمة وخط تقسيم فى وجودنا اللامادى . وهناك من يحاول أن يبالغ فى جانب الاستمرارية فى كياننا لا ليبرز أصالة ما ولـكن ليقلل من جانب الانقطاع وبالتالى ليضخم البعد الفرعونى فى تاريخنا فيبعدنا عن عروبتنا ويطمس معالمها ويرى الباحثون : أن العروبة هى مضمون جنسى ومضمون ثقافى أيضاً قامت على الرحلات والهجرات المتوالية التى عمت حتى أواخر المغرب قبل الإسلام ، وبينما انقطعت الفينيقية والفرعونية والبربرية فقد تحققت الاستمرارية العربية وإن كل الغطاء البشرى الذى يعطى ما يعتبر الآن العالم العربى هو أساساً فرشة واحدة من جذر واحد وعلى الأقل فإن الاختلاط والانصهار الدموى بين العرب الوافدين والسكان الأصليين حقيقة تاريخية بعيدة المدى .

(٤)

مصر الفرعونيــة

الدعوة إلى الفرعونية كانت تقوم على أساس أن مصر ليست عربية ولا إســلامية وهى تحمل الدعوة إلى إحياء الآثار الفرعونية والقيم الفرعونية وبعث الأدب المصرى القديم على أساس تمجيد مصر الفرعونية والفراعين العظام والآلهة الخالدين والتبرؤ من العرب والحضارة الإسلامية والقول بأن لمصر كياناً إنسانياً وحضارياً خاصاً وأنها لا تمت إلى بقية الأقطار العربية إلا بصلات واهية وأهمها الدين واللغة ، وكان الاستعمار يغذى هذه الحركة ويشجعها ويمهد لها بالعون الأدبى وسواء ليقضى على

مفهوم وحدة التاريخ الإسلامى الجامع وليعزل مصر عن الوطن العربى والعالم الإسلامى ، ولكن سرعان ماتبين عجزهذه الدعوة عن الاستمرار لأنها لا تملك من التراث الفرعونى ما يمكنها من توطيد قاعدة العمل ، وكان رد الفعل قوياً فى بروز الاتجاه الإسلامى الصحيح الذى يربط بين قيم الفكر الإسلامى وبيان اللغة العربية ، وكانت الدعوة الفرعونية غامضة لم يستطع دعاتها أن يقنعوا بها الناس . وما زالت هذه الدعوة ضد التيار على النحو الذى كتب به سلامة موسى وتلميذيه نجيب محفوظ ولويس عوض .
وقد دعا سلامه موسى إلى تغيير الحروف العربية إلى حروف لاتينية ، وتبنى هذه الدعوة عبد العزيز فهمى ولكنها باءت بالفشل . كذلك فقد فشلت الدعوة إلى القول بأن مصر جزء من الشخصية الأوربية على النحو الذى دعا إليه قاسم أمين وطه حسين وتبين أن مصر عربية إسلامية وأن هذه المحاولات إنما ترمى إلى الحيلولة دون وصول مصر إلى المفهوم الأصيل . ونحن نعرف لماذا ركز التغريب والغزو الثقافى على الدعوة إلى الفرعونية فى مصر حيث لم يكن الغرض هو إعادة حضارة تحجرت بقدر ما كان إخراجاً المسلمين والعرب من قيمهم ومفاهيمهم ، ذلك أن هناك تقارباً واضحاً وتداخلا صريحاً بين الوثنية اليونانية والفرعونية والمسيحية فى عديد من النصوص ، وليست كلمة الفرعونية فى المفهوم التاريخى الصحيح إلا ذلك النوع من الحكومات الاستبدادية الجائرة والأنظمة العبودية الظالمة التى عرفتها هذه المنطقة قبل الاسلام ، سواء أكانت فارسية أو رومانية أو هندية أو فرعونية ، هذه العبودية التى قضى عليها الإسلام فيما قطع من استمرارية التاريخ فى العالم الاسلامى . ونتيجة لذلك فإن هذه الدعوات الفرعونية والفينيقية والبابلية والآشورية وغيرها لم تستطع الحياة وسرعان ما سقطت لأنها ارتبطت بالظلم البشرى وبالوثنية .

كذلك فقد تكشف زيف الدعوة إلى الفرعونية التى تحاول أن تقول إن المصريين جميعاً أقباط وإن العرب غزاة وأن القومية المصرية تتطلب لغة مصرية منفصلة عن اللغة العربية وأدباً محلياً . ولقد ظل دعاة التغريب يغذون النظرية الفرعونية ويوجهونها اتجاهاً منحرفاً للقضاء على الروابط العربية والإسلامية ، السياسية والاجتماعية ، ثم تبين من بعد أن الفراعنة الذين قدموا إلى مصر لم يكونوا إلا موجة من موجات الجزيرة العربية كما تبين أن اللغة العربية أصل المصرية القديمة الهيروغليفية ، ولم تكن الفرعونية مفهوماً من مفاهيم التوحيد على النحو الذى يدعيه البعض ولكنها كانت تقوم على نظام الطبقات وسيطرة الاكليروس من الكهنة فى المعابد فضلا عن الخمر والخنزير وتوابيت الموتى والعلامات والرموز بل إن الفرعونية كانت تقوم على ثالوث إيزيس وأوزوريس وحورس ، أما توحيد اخناتون فلم يكن إلا نوعاً من الشرك وعبادة الشمس حيث تقول الأناشيد الوثنية (إشراقك جميل فى الأفق يا إله الشمس الحية . أنت واحد ولكنك تشرق فى أشكالك كشمس مضيئة) . وقد مات اخناتون من نهم الطعام . كان اخناتون معتقداً بألوهية الشمس فقد وحد الآلهة فى إله واحد هو عبادة الشمس ، ولم تكن آداب الفرعونية إلا آداب الذل والنفاق حيث يقول بتاح حتب (احن ظهرك لمن هو أعلى منك) وهى أخلاق العبودية والذلة التى حرر الإسلام البشرية منها . كذلك عرفت مصر الفرعونية قداسة الحيوانات وعبادة العجول والكباش والأوز والعجل أبيس وعرفت تأليه فرعون حياً وميتاً ،

فقد فرض هورس نفسه إلهاً لوادى النيل وفرض عبادة نفسه على جميع المصريين . ولما جاءت المسيحية ولأنها لا تشتمل على نظام اجتماعى فقد اضطرت أن تأخذ نظاماً لها من الوثنية الفرعونية وطقوسها وتقاليدها التى كانت فى الأصل مستوردة من اليونان ، ومن هنا بدت روح الوثنية تربط بين الفرعونية والمسيحية . وبالجملة فقد كانت الفرعونية هى عبادة الفرد وعبادة الفرعون وعبادة الشمس . ولا ريب أن ما وقعت فيه الفرعونية كان خروجاً على الحنيفية الإبراهيمية التى عرفتها مصر إيماناً بالإله الواحد ، غير أن هذه العقيدة مالبثت أن انحرفت إلى التجسد فى الانسان والحيوان والجماد فقدسوا النيل واتخذوا من السماء والشمس والكواكب آلهة حين ألهوا قوى الطبيعة ، وقد أخذوا من الديانة الهندوكية التثليث ففى طيبة : آمون وجوت وسخت وفى منف : فتاح وسخت وأموزيس . وفى أمندوس : أوزريس وإيزيس وحورس . وإلى أسطورة الثالوث المقدس ترد كثير من المعتقدات المصرية القديمة .

الفصل الخامس

شبهات فى التاريخ الإسلامى الحديث

ردد الاستشراق والتبشير والغزو الثقافى عشرات من الشبهات والأخطاء فى مجال التاريخ الاسلامى والتاريخ الحديث (عربياً وإقليمياً) يراد بها تدمير مفهوم وحدة التاريخ الاسلامى والغض من قدرته وانتقاص بطولته القوية التى كانت كالمشاعل المضيئة فى مسيرة المسلمين :

(أولا) من هذه الدعاوى الباطلة : الدولة الثيوقراطية ، وهى محاولة وصف الحكومة الاسلامية بأنها حكومة دينية شبيهاً بما حدث فى المجتمع الغربى ، ومن الحقائق الواضحة الأكيدة إن الاسلام لم يقم الدولة الثيوقراطية على المفهوم الذى عرفه البابوات فى حكوماتهم ، ذلك أن الدولة فى المفهوم الاسلامى تجعل جميع المواطنين متساوون أمام القانون فى الحقوق والواجبات ولكل الحق فى ارتقاء أعلى المناصب ما عدا منصب الرئيس ، وحرية العبادة فى الدولة الاسلامية مكفولة لجميع المواطنين ، والمبادىء الاجتماعية فى الدستور الأساسى توافق جميع الديانات وإن أعطت تشجيعاً لنمو العقيدة الاسلامية دونما تمييز المسلمين عن سواهم بمنافع خاصة ومفهوم الدولة الثيوقراطية (أى الدولة الدينية) لا يقوم فى العالم الاسلامى قط . ذلك أن الاسلام ليس دين عبادة بمعنى اللاهوت ولكنه أسلوب صالح للحياة الكريمة تسوده الأصالة ويتفوق فيه الجوهر على المظهر . والدولة الثيوقراطية التى تولى أمرها رجال الدين على المعنى المتعارف عليه فى الغرب لم توجد فى تاريخ الاسلام ولا توجد فى شريعته السمحاء ، حيث لا تقر وجود ما يسمى رجل الدين ، فالعلمانية والثيوقراطية لا وجود لها فى الاسلام حيث يتساوى فى الدولة الاسلامية المواطنون أمام القانون فى الحقوق والواجبات ، وحيث حرية العبادة مكفولة لجميع المواطنين على السواء ، ومن هنا فإن ما يردده دعاة التغريب من وصف الحكومة الاسلامية

السواء ، ومن هنا فإن ما يردده دعاة التغريب من وصف الحكومة الإسلامية بالدولة الثيوقراطية ليس صحيحاً على إطلاقه حيث لا توجد فى الإسلام سلطة للكهانة ، ولم تكن يوماً أداة من أدوات الاستبداد على نمط الحكومات الثيوقراطية التى عرفت فى أوربا ، وليس فى التوحيد بين السلطتين الدينية والدنيوية فى الإسلام ما يؤدى إلى شىء من التضارب . فليس الإسلام حقائق روحية خالصة وإنما هى حقائق روحية ونفسية واجتماعية .

(ثانياً) محاولة إطلاق كلمة العصور الوسطى على العصر الإسلامى الزاهر ، حيث كانت أوربا تعيش فى ظلمات هذه الفترة ، والمعروف أن كلمة العصور الوسطى على إطلاقها تعنى الفترة ما بين القرن الخامس والقرن الخامس عشر الميلادى ، وهى الفترة التى سقطت فيها الحضارة الرومانية خلال عشرة قرون كاملة إلى أن بدأت حركة النهضة الأوربية (الرنيسانس) وتحاول كتب الغرب أن تصف هذه الفترة بالعصور المظلمة ، وهـذا المفهوم صحيح وصادق بالنسبة لأوربا ولـكنه كاذب ومضلل بالنسبة للعالم كله والفكر البشرى عامة ، ذلك أنه خلال هذه الفترة ظهر الإسلام فى القرن السادس الميلادى وأشرقت شمسه فعمت العالم كله وامتدت من حدود الصين شرقاً إلى حدود فرنسا وقدمت للإنسانية قيم التوحيد والعدل والإخاء كمقومات لحضارة إنسانية كانت بعيدة المدى والأثر فى الحضارة البشرية وفى النهضة التى بزغت فى أوربا بعد ذلك ، لذلك فإن إطلاق القول بأنها فترة ظلام دامس هو قول باطل ، وهى محاولة لتجاهل العصر الإسـلامى الزاهر وذلك وفق اتجاه الفكر الغربى الذى يحاول أن يربط بين الحضارة الرومانية المنهارة وبين الحضارة الأوربية الجديدة كأنما ليس فى العالم إلا أوربا وحدها . ولذلك فإن إطلاق كلمة العصور الوسطى على العالم كله وعلى عالم الإسلام إنما هو إطلاق ظالم ، فالعصور الوسطى المظلمة إنما كانت كذلك بالنسبة للغرب وحده ولـكنها كانت مضيئة مشرقة بالنسبة للعالم الإسلامى (الهند وفارس والأمة العربية والأندلس)

وتعبير العصور الوسطى تعبير غربى ينطبق على أوربا وحدها ، فقد سقطت هذه القارة فى الظلمات فترة ما بين سقوط الحضارة الرومانية وعصر الرنيسانس (النهضة) أما فى العالم الإسلامى فإن هـذه الفترة بالذات كانت الفترة الذهبية بالنسبة للإسلام وحضارته . فإذا أراد دعاة التغريب تعميم هذا المفهوم فإنما يراد به إنكار فضل الحضارة الإسلامية على العالم . (ثالثاً) كذلك حاول التغريب والفكر الاستعمارى أن يصف مرحلة القرون الثلاثة السابقة للقرن العشرين بأنها (عصر الانحطاط) وهو تعبير قاس ظالم ، وكان يمكن أن يطلق عليه عصر الضعف والتخلف ، ولقد تجرى الشبهات باتخاذ هذه المرحلة أسلوباً لمحاكمة الإسلام به ، أو اتخاذه سنداً لرمى الإنسان وفـكره بالقصور والتخلف خاصة فيما يتعلق بظاهرة (الجبرية) التى سادت مفهوم الفكر وأثرت على مفاهيم الحياة والإرادة الإنسانية . ومن الحق أن يقال أن هذه المرحلة لها وجوه ضعفها ولها وجوه قوتها ، أما وجوه الضعف فهى تأثر الفكر الإسلامى بالفلسفات الهندية والفارسية والمجوسية ، التى حملت مفاهيم معقدة مضطربة كوحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها من المذاهب التى لا تتفق مع جوهر التوحيد . والمفروض أن يحاكم الإسلام وفكره وتاريخه إلى أصوله الأولى وإلى اتباع أعلامه الرواد ولا يحاكم إلى إنتاج فترة الضعف والجمود التى

توقف فيها الإبداع والتجديد والاجتهاد وغلب طابع التقليد . فالفكر الإسلامى فى جوهره الأصيل ما زال محيئاً إيجابياً مؤثراً معطياً الأمم المختلفة والعصور المتعددة دفعات التقدم والبناء والحيوية .
أما وجوه القوة فهى تتمثل فى عملية (التجميع) التى قام بها المفكرون حيث ظهرت فى هذه الفترة الموسوعات الأدبية والفنية والشرعية والأخلاقية التى جمعت الآثار المختلفة الموزعة ، وهى عملية رد فعل لما حدث نتيجة الغزو الصليبى والتترى ، من حرق وتدمير آثار الفكر الإسلامى ، فقد عمد العلماء والأدباء إلى عملية التجميع كوسيلة لمقاومة فناء الفكر الاسلامى وهو عمل نافع إيجابى يدل على القوة لا على الضعف وإن وجه إليه النقد بأنه لم يحرر من وجهة التنسيق الفنى أو التحقيق العلمى ولكن التقدير المنصف لأخطار هذه الفترة وظروفها من شأنه أن ينصف العاملين فى هذه المرحلة ويقدر لهم هذا الجهد على إطلاقه .

(رابعاً) حاولت الدعوات الإقليمية أن تفرض لها وجوداً أصيلا كالفينيقية فى الشام والفرعونية فى مصر ، وهى محاولة لإثارة التاريخ القديم السابق للإسلام فى سبيل القضاء على الواقع التاريخى الاسلامى الحى ، ولإثارة دعوة الإقليمية والعنصرية على أساس من أصول الأمم الشرقية القديمة قبل أن يصهرها الإسلام فى بوتقته ، وقد حملت الدعوة الفينيقية إلى لبنان الدعايات الاستعمارية لعزل اللبنانيين عن العروبة والقول بأن اللبنانيين هم أحفاد الفينيقيين القدماء الذين كانوا سكان هذا الساحل قبل الإسلام وجرت المحاولة على اعتبار أن الفينيقيين ليسوا عرباً وأنهم أبناء الإمارات الصليبية وحاول الاستعمار أن يدعوهم إلى إقامة كيان خاص غير عربى مرتبط بالغرب ، ولكن الحقائق التاريخية لم تلبث أن تكشفت من أن الفينيقية هى واحدة من البطون الفرعونية والآشورية والبربرية العربية التى هاجرت من الجزيرة واندمجت فى الأرض العربية شرقاً وغرباً . ولقد حاول النفوذ الاستعمارى أن يجند لهذه الفكرة جماعة الحزب القومى السورى الاجتماعى بالدعوة إلى ما أسماه سوريا الطبيعية والأمة السورية وسوريا للسوريين والسوريون أمة تامة ذات حدود طبيعية ، وسوريا الكبرى وقد ردد المستشرقون هذه المعانى محاولين إثارة الشبهات بأن اللبنانيين ليسوا عرباً وأنهم والسوريون فينيقيون من أحفاد الصليبيين الذين قدموا إلى سوريا ولبنان .

وقد تصحح هذا المفهوم من بعد إذ تبين أن الفينيقيين عرب خلص قدموا من الجزيرة العربية — ولكن الدعوة ما تزال تعمل فى مجالات سياسية واجتماعية وثقافية — كذلك استعلنت فى مصر دعوة الفرعونية بهدف القضاء على الوجود العربى الاسلامى ، واستهدف دعاة الفرعونية إدخال مفاهيم الوثنية الفرعونية المرتبطة بالوثنية اليونانية وغيرها . وقد فشلت هذه الدعوة فى أن تمهد لها أرضية تنبعث منها حيث لم تجد تراثاً فرعونيا له قيمة دينية أو تاريخية أو اجتماعية أو عملا مكتوبا . وتبين أن حضارة الفراعنة قد تحجرت فى الأهرامات والتماثيل والمعابد وقد تخطاها الزمن بدعوة التوحيد الاسلامية منذ أربعة عشر قرناً . (خامساً) ومن شبهات الاستشراق والغزو الثقافى محاولة التركيز على الحملة الفرنسية واعتبارها منطلقاً للعصر الحديث ، وهى محاولة باطلة زائفة بواقع التاريخ نفسه وتحاول أن توحى بأن العالم الاسلامى لم ينهض إلا بفضل الغرب ونفوذه ، وأن العرب لم ينهضوا إلا بعد أن

خزاهم الغرب فى عقر دارهم ، والواقع أن العالم الإسلامى والبلاد العربية قد تيقظت قبل الحملة الفرنسية بأمد طويل ، وأن هذه اليقظة بدأت فى حوالى سنة ١٧٤٠ م على التحديد حين انبثقت صيحة الإمام محمد بن عبد الوهاب فى قلب الجزيرة العربية بدعوة التوحيد وما كان لها من أصداء واسعة فى العالم الإسلامى ، وهذا الواقع يسبق وصول الحملة الفرنسية بأكثر من نصف قرن ويسبق وصول الارساليات التبشيرية بمائة عام على الأقل ، ومن قبل وصول الحملة الفرنسية كانت حركة العلماء فى الأزهر قد وضعت أول وثيقة لحقوق الانسان مستمدة من مفهوم الاسلام حينما أخذت العهد المكتوب على الأمراء المماليك بأن لا يظلموا الرعية ولا يفرضوا عليها أى ضرائب أو قيود . ومعنى هذا أن القول بإعلاء شأن الحملة الفرنسية ليس إلا من دعاوى المستعمرين والمستشرقين التى غمرت الكتب المدرسية بفضل نفوذهم ، وتجمع المراجع الصحيحة على أن الحملة الفرنسية لم تكن مصدر نهضة بقدر ما كانت عامل تقويض للنهضة الأصيلة والأمم لا تتجدد من خارجها وإنما تتجدد من مصادر فكرها ومن أعماق روحها . وقد ولدت الحملة الفرنسية فى مصر ما ولدته المعاهد التبشيرية فى سواحل بيروت والشام ، ولدت حذراً من المدنية التى مثلوها للناس متقاربة مع تقاليدهم وولد الحذر قلقاً ، وامتد القلق والحذر بتأثير بعض التصرفات السيئة فأصبح تعصباً وكرهاً على حد قول الدكتور شكرى فيصل : حيث من المستحيل عقلا أن تتصور أن الشرق العربى كان سيظل نائماً لأن لهذا الشعب تاريخاً فى الحضارة وقدماً فى التمدن وجذوراً عريقة ولقد نهضت الشعوب التى هى أقل عراقة منه كالصين والهند واليابان . وعنده أنه لولا الحملة الفرنسية لاستطاع الشرق العربى أن ينهض نهضة حقيقية والشرق له تقبل ذاتى للحضارة ليس مفروضاً عليه من الخارج (سادساً) كانت الخلافة الاسلامية هدفاً من أخطر أهداف الاستعمار والصهيونية فقد استطاع السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية فى أشد مراحل الضعف وهى ترمى من الدول الأوربية بالمؤامرات من أجل تمزيقها والقضاء على ما أطلق عليه (دولة الرجل المريض) استطاع أن يحمل لواء الوحدة الاسلامية وجمع المسلمين من خارج الدولة العثمانية لإقامة حاجز ضخم فى وجه الزحف الإستعمارى الغربى ، وقد نجحت دعوته نجاحاً قوياً أكد وحدة المسلمين الفكرية والاجتماعية والسياسية وكادت أن تفسد مخطط الاستعمار المندفع إلى السيطرة ، ويواجه الصهيونية العالمية الزاحفة للسيطرة على فلسطين . ومن هنا كانت تلك الحملة الضخمة التى ساقتها هذه القوى على السلطان عبد الحميد ورميه باتهامات متعددة أقلها الاستبداد . وقد جرى الباحثون وراء ذلك دون تبين لحقيقة ما صاغه النفوذ الاستعمارى من صور وهمية مستهدفاً القضاء على السلطان عبد الحميد عن طريق الجمعيات السرية الماسونية التى سيطرت فى سالونيك على جمعية الاتحاد والترقى وساقتها إلى أهدافها بعد إسقاط عبد الحميد من حيث حققت أهدافها فى تخليها عن طرابلس الغرب وسقوطها فى براثن إيطاليا . ومن حيث تسليم فلسطين لليهود والسماح لهم بالإقامة فيها . ومن حيث دخول الحرب العالمية الأولى فى صف ألمانيا وإيقاع الخصومة بين العرب والترك وما جرى من اقتتال العرب والترك المسلمين لحساب الدول الغربية التى سيطرت على الشام (سوريا ولبنان) وفلسطين ثم تسليم فلسطين للصهيونية العالمية ، ثم كانت الخطوة الثانية فى سبيل إسقاط الخلافة (علامة الدعوة الاسلامية ودعامتها) وذلك عندما سيطر مصطفى كمال أتاتورك على تركيا وتابع بصورة أشد قوة وعنفاً مخططات الاتحاديين والماسونية العالمية .

وكانت خطوته النهائية هى إسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ بما فك عروة الوحدة بين المسلمين وأسلمهم النفوذ الاستعمارى ثم وقوف بريطانيا فى وجه أى دعوة للخلافة ووقوف الغرب كله أمام أى دعوة للجامعة الإسلامية . وقد دعى أحد الماسون من علماء الأزهر إلى وضع كتاب مسخ فيه مفهوم الخلافة وأخرج نظام الحكم فى الاسلام كلية من مفهوم الاسلام وحاول أن يعلن زيفاً كبيراً مفترى هو أن الاسلام دين عبادة جرياً وراء مفاهيم الاستعمار والماسونية وأعداء الاسلام بإنكار فهم الاسلام فى بناء المجتمع .

(سابعاً) وتتردد على ألسنة الكتاب كلمة الاحتلال التركى ، وتوصف البلاد العربية بأنها وقعت تحت سيطرة الاستعمار التركى والاستعمار الغربى وإيراد العبارات على هذا النحو يقصد به تصوير العلاقة التى كانت بين العرب والأتراك على أنها علاقة استعمار أو احتلال ، وهذا مناقض للتاريخ والواقع معاً . فالرابطة التى قامت منذ ١٥١٧ م حتى ١٩١٧ م بين العرب والترك داخل نطاق الدولة العثمانية لم تكن فى الحقيقة احتلالا ولا شبيهه وإنما كانت محاولة من محاولات الوحدة والالتقاء بين أقطار العالم الاسلامى فى مواجهة الأخطار والتحديات . وقد جاءت هذه الوحدة على أثر ضعف قوى السلاجقة والمماليك من بعدهم وتعرض البلاد العربية وخاصة مصر والشام لأخطار الغزو الصليبى الغربى بجدده ، وتلك التحركات التى بدأها الأوربيون مرة أخرى لاستئناف الحروب الصليبية . والمعروف أن العرب قد تطلعوا إلى الوحدة الاسلامية العثمانية بعد أن ضعفت قوى المماليك فى مصر وأصبحوا هدفاً لمحاولات صليبية جديدة وقد وجدا فى العثمانيين إخوتهم فى العقيدة منتعشاً جديداً الإسلام وقوة شابة بدوية مقاتلة ، رفعت راية الإسلام عالية خفاقة وأعادت ذكرى الأبطال فى سبيل إعزاز الاسلام ونشره ، كما رحب العرب فى مصر والشام بالوحدة الاسلامية العثمانية ، بعد أن نقموا على دولة المماليك لإهمالها شأنهم فى المرحلة الأخيرة فحاربوا فى صفوف العثمانيين .

والواقع أنه لم يكن فى هذه المرحلة خلاف جذرى بين العرب والترك ، فقد كان الطابع الاسلامى هو مظهر الوحدة الأساسية بين العناصر المختلفة والوحدات المنضمة تحت لواء الوحدة الاسلامية ، ومن الحق أن يقال أن العثمانيين قد قاموا فى المرحلة الأولى يتمثل مفهوم الاسلام فى نطاق الحكم وتحركوا فى إطاره ، ويشهد المؤرخون المنصفون بأن العثمانيين قد اقتفوا أثر الخلفاء الأولين فى العدل والتسامح ، وتمثلوا أعمالهم واتخذوهم قدوة وعملوا على جمع القلوب إليهم بتقدير العلماء الأتقياء وإنشاء الجوامع والمدارس . ومن هنا فإن القول بأن الرابطة بين العرب والترك كانت استعماراً إنما هو من النظريات المشبوهة والعبارات المدخولة التى يحاول الغزو الفكرى والتبشير والتغريب إذاعتها وإقرارها فى الأذهان . أما ما كان من الخلاف بين الترك والعرب بعد تنحى السلطان عبد الحميد وفى ظل حكم الاتحاديين دعاة الطورانية فذلك هو الخلاف الحقيقى الذى يموه عليه خصوم الاسلام والعرب ويصفونه بأنه خلاف بين الترك والعرب وهو فى الحقيقة خلاف بين الاتحاديين أتباع الماسونية وأعوان الصهيونية وبين العرب الذين تصدوا للزعامة فى هذه الفترة .

(ثامناً) وهناك خطأ شائع وذائع : هو أن الدولة العثمانية هي التي أساءت إلى العرب وعلقت زعمائهم على المشانق وأوجدت الفرقة والخلاف ، وكانت سبباً فيما ترتب على ذلك من سيطرة فرنسا وانجلترا على الشام بأجزائه الأربع (فلسطين والأردن وسوريا ولبنان) وكذلك العراق ، وذلك بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ وبعد أن اتفق العرب مع بريطانيا على إقامة دولة عربية نظير تأييدهم لها .

والحق أن الدولة العثمانية كلمة مبهمة عامة . والحقيقة أن (حزب تركيا الفتاة) المسمى بجماعة الاتحاد والترقي والذي تولى السلطة من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٨ هو الذي دس العلاقات بين العرب والترك بدعوته إلى الطورانية ومحاولته تتريك العرب والقضاء على لغتهم وتعليق زعمائهم على المشانق عام ١٩١٦ . والاتحاديون جماعة سرية كانت تحاول النهضة بالدولة العثمانية عن طريق الوطنية والتخلص من الرابطة الإسلامية ، وقد وقعت في براثن الماسونية فانحرفت إلى العمل لحساب الصهيونية العالمية واستهدفت قطع تركيا عن العرب وإسقاط السلطان عبد الحميد حامل لواء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وتمهد العدة لتمزيق الدولة وتسليم الأجزاء العربية وغير العربية إلى الدول الأوربية على النحو الذي قامت به فعلا .

أما السلطان عبد الحميد فقد كان يدعو إلى توسيع جبهة المقاومة ضد النفوذ الأجنبي ، وذلك بربط مسلمي آسيا وأفريقيا بالدولة العثمانية ، وكان موقفه من العرب مشرفاً ، وكانت إجابته في مواجهة تحديات الصهيونية لدخول فلسطين من أشرف ما قاله رؤساء الدول وزعماء الأمم عندما رفض رفضاً باتاً إغراء هرتزل بالملايين من الذهب وقال : اقطع يدي ولا أفرط في فلسطين ، إن فلسطين ليست ملكا لبلادي ولكنها ملك العرب .

ولكن أمثال ساطع الحصري وجورجي زيدان وغيرهم من الباحثين المتأثرين بأغراض خاصة يطوون هذه الصفحة ويموهونها على النحو الذي لا تتكشف معه تلك الفوارق العميقة بين عهد السلطان عبد الحميد وعهد الاتحاديين ، وهم لا يميزون بين موقف السلطان عبد الحميد الذي دفع حياته وعرشه ثمناً في سبيل فلسطين وبين موقف الاتحاديين الذين سلموا طرابلس للعدو وأدخلوا الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى لتهزم وينفتر عقدها .

الباب الرابع

تفسير التاريخ الاسلامى

(أولا) تفسير ماركسى غربى صهيونى (ثانياً) التفسير الغربى المسيحى (ثالثاً) التفسير اليهودى (رابعاً) التفسير الماركسى (خامساً) التفسير الإسلامى للتاريخ (سادساً) فى مواجهة التحديات.

الفصل الأول

تفسير غربى ماركسى يهودى

حاول الفكر الغربى عن طريق الاستشراق الغربى والماركسى والصهيونى إخضاع التاريخ الإسلامى لعدد من مناهج تفسير التاريخ الغربى التى تراوحت بين: (أولا) تفسير غربى مسيحى التاريخ (ثانياً) تفسير غربى مثالى للتاريخ (ثالثا) تفسير غربى مادى للتاريخ (رابعا) تفسير يهودى صهيونى للتاريخ. كذلك فقد حاولت مؤسسات التبشير والاستشراق أن تفرض وجهة دينية ووجهة قومية ووجهة عالمية للتاريخ الإسلامى، وحاول (ويلز) أن يعرض لتاريخ الإسلام من وجهة نظر بشرية، وحاول (ول ديورانت) أن يعرض له من منطلق ماسونى يستهدف القضاء على الأديان والقوميات، وحاول (توينبى) تفسيره فى ظل مفهومه الحضارة المسيحية الغربية. وجرت المحاولات بدراسة التاريخ الإسلامى على أنه تاريخ العرب (كما فعل فيليب حتى) أو تاريخ الدول الإسلامية أو تاريخ الدولة العربية أو تاريخ الفتوح والحروب. والواقع أن تاريخ الاسلام هو تاريخ الأمة الإسلامية كلها التى صنعها القرآن وأقامها التوحيد وليس تاريخ الدولة السياسى، أو تاريخ العرب أو تاريخ إقليم معين أو عصر معين، مع عدم الخلط بين الإسلام كقرآن وسنة وبين تطبيق الإسلام أو اجتهادات البشر فى تطبيق الاسلام، ومع مراعاة أن السلوك السياسى لقادة المسلمين وأمرائهم وحكامهم هو شىء آخر غير أصول الإسلام، وحياة المسلمين هى ممارسات لمبادىء الإسلام وليست هى المبادىء نفسها، وليس تاريخ الإسلام هو تاريخ العرب ولا يمكن أن يوصف بأنه تاريخ عربى، فإن العرب جزء أساسى من تاريخ الإسلام ولكن الصورة لا تتكامل إلا بدراسة المجتمع الإسلامى كله، فارس وتركيا والأندلس وجزر الملايو وغيرها، وأن صورة التاريخ الإسلامى الصحيح لا تكون صحيحة إلا بتكامل هذه الأجزاء التى هى من دعائم الأمة الإسلامية.

(٢) إن تفسير التاريخ الإسلامى عن طريق مناهج التفسير الغربى عجز عن النظرة الصحيحة لحركات ووقائع التاريخ الإسلامى، فقد قاس الكتاب الغربيون الوقائع الإسلامية على ظروف

الامبراطورية الرومانية وغيرها مع اختلاف الظروف والمقاييس ، كذلك فقد كانت نظرة الغربيين إلى تاريخ الاسلام ناقصة وقاصرة لأنها صدرت عن ذلك الاعتبار الخاطىء بأن تاريخ الغرب هو تاريخ البشرية وأن ماعدا ذلك ليس تاريخاً ولا يدخل لا فى المقاييس ولا فى الصورة العامة . وأشد أنواع الخطأ فكرة « الحتمية التاريخية والجبرية الاجتماعية » التى يجرى تطبيقها على التاريخ الأوربى . وأشد ماعجزت عنه تفسيرات الغربيين للإسلام عجزهم عن فهم ذلك الجانب المعنوى الروحى : الوحى والنبوة والرسالة السماوية ومايتصل بها من بناء القوة القادرة بإيمانها على هزيمة القوة المادية التى هى أكبر منها عدة وعدداً .

(٣) أن موقف دراسات المؤرخين الغربيين للتاريخ الإسلامى تحمل عاملين خطيرين :

(١) العجز عن فهم أبعاد المعنويات (٢) روح الهوى والتعصب والحقد .

ومن ذلك موقفهم من الحركات الهدامة التى حمل لوائها جماعة من الشعوبية والملاحدة والمجوسية والمزدكية والباطنية والقرامطة الذين تآمروا بتنظيم حركات سرية لاقتلاع الدولة الإسلامية وإسقاطها تحت إسمين خادعين هما « الموالى » و « أهل البيت » إن النظرة الصحيحة المنصفة تكشف عن أن هذه الحركات كانت ذات هدف واضح هو ضرب الدعوة الإسلامية والدولة الاسلامية ومحاولة فرض تعاليم المجوسية والوثنية والاسرائيليات ، وقد ظهرت هذه الحركة بعد ترجمة الفلسفات الهلينية واليونانية ، ولا ريب أن فى الجرى وراء هذه المحاولات من شأنه أن ينكر الدور الخطير الذى قامت به الدولة الاسلامية والأمة الاسلامية من داخلها فى مجال الحضارة والعلم والتقدم ، وهى محاولة لطعن التاريخ الإسلامى كجزء من طعن العقيدة الإسلامية . وإن المؤامرة فى حقيقتها بدأت من الجماعة التى أحست أن نفوذها قد أزيل وسلطانها قد سقط ، ولم تكن هذه الحركات صادقة أو يمكن أن توصف بأنها معارضة مخلصة ولكنها كانت محاولات هدم وتدمير ، ولقد أثبت الذين قاموا بهذه الحركات فشلهم وزيفهم لأنهم حين سيطروا على الحكم لم يتمكنوا من تنفيذ المثل العليا التى خدعوا بها الناس ولم يستطيعوا أن يقدموا منهجاً صالحاً وإنما كشفوا عن أحقادهم الشخصية وفشلهم الذريع ، وتبين أن الدعاة اللامعين كانت لهم صلات مريبة مع خصوم الدولة .

(٤) هناك مجموعة من الأخطاء تكشف عنها المعالجة الغربية لتاريخ الإسلام منها أن علماء الغرب فرضوا التقسيم الغربى للعصور التاريخية على تاريخ العالم وتعميم مقاييسهم فيها ، فالعصور الوسطى مثلا هى عصور الظلام فى رأيهم ما دامت أوربا كانت فى الظلام متجاهلين الحضارة العربية الاسلامية التى كانت متألقة فى تلك العصور ، وتاريخ أفريقيا السوداء يبدأ عندهم حينما دخلها الرحالة الأوربيون . أما قبل ذلك فليس لها تاريخ ، وتمتد هذه النظرة إلى الفكر العالمى فهو عندهم الفكر الغربى . وحينما يؤلف أحدهم كتاباً بعنوان (تكوين العقل الحديث) لايتعرض حتى بسطر واحد للفكر العربى فى العصر الوسيط أو الفكر الهندى والصينى وفكر بقية الشعوب . وقد تجسدت هذه النظرة فى نظريات

ولدت فى الغرب فى أوائل القرن ١٩ وسيطرت فى أوائل القرن العشرين فقسمت هذه النظريات شعوب العالم إلى فئات : دماء بعضها نقية زرقاء ودماء بعضها الآخر ملوثة سوداء وإلى أجناس عليا وأجناس دنيا ، وذهب الغربيون إلى أبعد من ذلك حين قالوا بأن أسباب تخلف الامم مصدره وجود خصائص أصيلة فى عقلية هذه الامم تمنع تقدمها ومن ذلك نظرية « جب » عن الذرية فى التفكير وادعائه أنها إحدى خصائص الفكر العربى والعقلية العربية ثم تلتقى هذه النظرية الباطلة مع نظرية اليهودية التى ترى فى اليهود شعب الله المختار وقد صدق المؤرخ توينبى حين أعلن أن التاريخ الغربى يفرض سلطانه على العالم ، يقول : إذا ما أردنا نحن الاوربيين أن نسأل أكثرية سكان الأرض وهى - لاغربية - عن رأيها فى الغرب فالجواب الذى سنسمعه هو أن الغرب كان المعتدى الأثيم فى التاريخ الحديث كما أن شعوب آسيا وإفريقيا ستذكرنا بتغلغل المبشرين والتجار والجنود الغربيين فى ديارهم وكيف استرقوهم وشحنوهم عبر الأطلنطى للاتجار بهم ليصبحوا خدما وعمالا لدى المستعمرين الاوربيين الجشعين الذين يبحثون عن الثروة .

(٥) شهد الكتاب الغربيون بروح الانصاف التى تجلت فى كتابات مؤرخى الإسلام ومفكريه للامم الأخرى وخاصة لأديانها كما شهدوا بعدم إنصاف المؤرخين الغربيين فى تناول الإسلام وفكره . يقول هاملتون جب : إن المؤرخ الغربى لم يكن فى الأعم الأغلب منصفاً للاسلام والمسلمين فقد استسلم بالرغم من دعوى المنهج العلمى لعواطفه وأهوائه وكتب عن الإسلام والمسلمين من زاوية خلافه وتعصبه ولم يستطع إحكام النظرة المنصفة وإنما وضع أمامه صورة مشوهة تكونت من خلال الخصومات السياسية والدينية تحاول أن تصور الاسلام بصورة القوة التى زحفت على أرض الامبراطورية الرومانية فانتزعتها منها بعد ألف سنة من سيطرتها عليها وكان المؤرخون الغربيون يضعون دائماً أمامهم خصومتين : خصومة الحروب الصليبية التى اقتحموا خلالها بلاد الإسلام وعادوا مهزومين بعد قرنين من الزمان وخصومة العثمانيين الذين عبروا إلى أوربا فانتزعوا أجزاء كثيرة منها ووصلوا إلى أسوار فينا ولا ينسون دخول المسلمين إلى الأندلس وهزيمتهم فى دولة بلاط الشهداء . وهكذا يشهد رجال من الغرب بانحراف المؤرخين الغربيين فى مواقع اللقاء بين الاسلام والغرب : معركة بواتيه والحروب الصليبية والاستعمار الحديث وقد اعترف بعض المؤرخين الغربيين بأن انتصار كارل مارتل على المسلمين أخر تقدم المدنية فى الغرب ثمانية قرون وهو الذى أوقع أوربا فى ظلمات القرون الوسطى ، كذلك حاول المؤرخون الغربيون اتهام المسلمين بحرق مكتبة الاسكندرية حتى برأهم « جيبون » واثبت أن الذى حرقها هم الرومان عرا كبهم الحربية فى حصارهم لجيوش كليوباترة بقيادة يوليوس قيصر .

(٦) عجز المؤرخون الغربيون عن تفسير سرعة انتشار الاسلام فمازال السؤال لماذا انتصرت الجيوش الاسلامية القليلة العدد على الجيوش الضخمة الفارسية والرومانية موضع دهشة المؤرخين الغربيين الذين يقيسون هذه الأمور بالمقياس المادى ، يقول أربرى : لقد حاول المؤرخون المحدثون تعليل هذه الانتصارات الواضحة والفتوحات العظيمة بردها إلى عوامل اقتصادية أو حربية أو سياسية ولكن

تلك التفسيرات ظلت عاجزة عن التعليل الصحيح فكان لا بد من الرجوع إلى العامل المؤثر : الفعال وهو الدين الجديد ، إن بلاغة القرآن المعجزة مع بساطة تعاليم الاسلام التي جاءت في هذا الكتاب هي المفتاح لحل اعظم (مـد) في تاريخ الأديان ذلك أن الإسلام جاء يدعو إلى حياة منظمة جادة ، حياة جماعية ، فقد عاهدوا الله أن يخضعوا لإرادته في كل أمر وأن يجاهدوا في حمل كافة البشر على الإقرار بقدرته ويقول م.روى : إن انتشار الاسلام أكبر خرقا للعادة : إن امبراطورية أغسطس الرومية بعد ماوسعها بطلها (تراجان) نتيجة فتوح عظيمة في سبعة قرون ولكنها لا تساوى المملكة الاسلامية التي أسست في أقل من قرن . إن امبراطورية الاسكندر لم تكن في اتساعها إلا كسراً من كسور مملكة الخلفاء الواسعة ، إن الأمبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء ألف سنة ولكنها غلبت وسقطت أمام سيف الله في أقل من عشر سنوات » .

الفصل الثالث

التفسير الغربي المسيحي

يصدر التفسير الغربي المسيحي للتاريخ عن طبيعة تكوين الفكر الغربي المسيحي للتاريخ والحياة ، ومن هنا يجيء نقصه وقصوره في ذاته وانحرافه في تفسير التاريخ الاسلامي ، فالمسيحية تقدم التاريخ على شكل مأساة ، أول فصولها يتألف من سقوط الدم ومن استمرار الخطيئة في البشر ، ونسبة هذا الانحراف والسقوط إلى الإله ، ثم ادعائهم ظهور الإله في التاريخ ومن خلال تأليه المسيح بدعوى غفران الخطيئة ، فالتصور المسيحي للتاريخ يقوم على أساس مايسمى بالخلاص الروحي وحده ، وفي ضوء هذا المعنى خلطوا بين الألوهية والنبوة ، أو بين الألوهية والبشرية . وهذا المفهوم الذي يختلف عن مفهوم الاسلام القائم على التوجيه الخالص وعلى الفصل بين الألوهية والنبوة وعلى أنه لاتوجد خطيئة تحمل من أي إنسان مسئولا عن إنسان آخر ولا يعاقب بذنبه أوجريرته فضلا عن أن الاسلام كشف عن أن آدم أخطأ وأن الله تبارك وتعالى ألهمه أسلوب المغفرة فغفر له فليس لخطيئة آدم أي تبعة على واحد من البشر من بعده ، وأن الإنسان محاسب على عمله وحده وأنه لاتزر وازرة وزر أخرى ، فهذا الاختلاف الواسع العميق بين مفهوم الاسلام للبشرية ومفهوم المسيحية للتاريخ لايصلح التطبيق على الاسلام وتاريخه ومجتمعه . ومن اضطراب المفهوم الغربي المسيحي والحياة والمجتمعات والحضارات اختلفت تفسيرات التاريخ بين المثالية والمادية ، وجاءت نظارات المؤرخين متضاربة: نظرة هيجل سياسية ونظرة ماركس اقتصادية ونظرية توينبي روحية ونظرة بيكل نظرة مناخ وقد ظهر في أفق الفكر الغربي تفسيرات متعددة فنظرة القديس أوغسطين إلى التاريخ أنه تاريخ كنسي يقوم على نظرة الآباء المسيحيين إلى العالم ، وبعد تفسير بلوتارك وكارليل تفسيراً للبطولة في كافة صورها أما فيشر فقد كتب تاريخ أوربا بروح بتوتونية ونظرة امبراطورية كانت تسيطر على الفكر البريطاني في زمنه .

وإذا راجعنا تفسيرات القديس أوغسطين ومن بعده البابا جريجور السابع (بعده بسبعة قرون) نجدهما يحتقران الدولة والسلطة أشد الاحتقار ويعلون عليها المملكة الأخرى : مملكة الله أو مدينته ، ثم تحول مفهوم التاريخ من بعد إلى نظرة عقلية حاولت أن تصور التاريخ على أنه علم تجريبي ، وتعمل على إخضاع التاريخ لقوانين عامة . وكان أبرز مفاهيم التفسير الغربي للتاريخ عدم الاهتمام بالناحية الفردية وإهمالهم الدور الذي تقوم به الشعوب في تطور الأحداث مع تعصبهم للبيئة المحلية والطائفية والحزبية وإسرافهم في العناية بالنواحي السياسية دون نواحي الحياة الأخرى وترتب على ذلك تسخير التاريخ لخدمة الأغراض السياسية .

وكان للاستعمار والتسلط على الأمم أثره البعيد في استغلال المؤرخين الغربيين مثل قول أحدهم

(هانس روبرت زويمر) : أن القريحة الأوربية وحدها تمتلك الذهن التاريخى . وقد علت صيحة الأجناس : واستعلى الغربيون بالجنس الأبيض ونظروا إلى علاقته بالحضارة القائمة فأنكروا دور الأجناس وامتيازها فى صناعة الحضارات القديمة على مدى التاريخ .

(٢) إن فكرة الاتحاد بين الله والعالم التى فسر بها هيجل التاريخ المسيحى فكرة غير صحيحة بالنسبة لمفهوم التوحيد الذى يقرر انفصال الخالق تبارك وتعالى عن العالم وعدم الحلول فيه ، كما لا يقر الإسلام فكرة الآله البشر أو فكرة حلول الله فى الإنسان أو فى النبى على النحو الذى تقوم عليه فلسفة التاريخ المسيحى كذلك فإن مفهوم الإسلام يختلف مع فكرة الإرادة المخططة التى تفرضها النظرية المسيحية على التاريخ والواقع أن للانسان إراده قادرة على الفعل والحركه والتعبير وإن كانت حركتها محدودة ، داخل إرادة الله الكبرى ولكن مسئولية الإنسان قاصرة على حدود إرادته .

يقول البان . ج . ويدجرى فى كتابه المذاهب الكبرى فى التاريخ : إن المسيحية تقدم التاريخ كأنه شكل مأساة ، أول فصولها تتألف من سقوط آدم ومن استمرار الخطيئة أما الفصل الثانى فهو ظهور الله (جل فى علاه) فى التاريخ من أغراض يسوع المسيح الإنسانية وأن خلاص الإنسان جاء من خلال صلب المسيح ويقول : العنصر الأساسى فى النظرة المسيحية هو الاقتناع فى ضرورة ظهور الله فى التاريخ فى شكل إنسانى من أجل خلاص البشر بعد أن غدوا فاسدين بخطيئة آدم ، هذه العقيدة فى تجسيد الله تكون الفرق من حيث الأساس بصورة حاسمة بين المسيحية والنظريات التوحيدية الأخرى ويقول أن النظرة المسيحية ترتكز على أساس الاتحاد بالله وتتصل بهذا مفاهيم التجسيد والصلب والتثليث والفداء .

وهذه هى الأسس التى يقوم عليها تفسير التاريخ الغربى ولكنها لا تصلح لتفسير التاريخ الاسلامى الذى يقوم على مفهوم الإسلام الذى يختلف اختلافاً تاماً عن هذه المفاهيم .

(٣) انتقل التفسير الغربى التاريخى من المفهوم المسيحى المثالى إلى المفهوم المادى فظهرت محاولات تدعو إلى تطبيق المفهوم العلمى المادى التجريبى على التاريخ ، وظهرت دعوات متعددة لتفسير التاريخ تفسيراً مناخيا جغرافيا ، ثم ظهرت محاولات تفسير التاريخ تفسيراً تقوم على البطولة وفى الناحية الأخرى ظهرت الدعوة إلى تفسير التاريخ تفسيراً اقتصاديا ، أو جنسياً . وكانت كل محاولة من هذه المحاولات تقوم بنفسها مستقلة عن الاخرى وتقوم فى مجال التفسير المادى الخالص ودون وجود النظرة الجامعة التى ترى أن هذه العوامل كلها يمكن أن يكون مجتمعة تفسيراً للتاريخ وأن الدين والبطولة وعوامل المناخ والاقتصاد كلها عوامل وفروع يمكن أن تقوم مجتمعة فالتاريخ يتأثر بالدين وبالقومية ويتأثر بالاقتصاد ولكن لا يمكن لواحدة منها أن تكون هى المصدر الوحيد ولا يمكن أن تكون العوامل المادية هى وحدها المسيطرة فإن المعنويات والأديان والعقائد والعواطف الإنسانية لها أثرها العميق . وأن الدعوة إلى إخضاع التاريخ لقوانين عامة فى تفسير أحداثه إنما تتجاهل أن حركة التاريخ تقوم بالإرادة الإنسانية التى تسيطر عليها عوامل روحية ووجدانية مختلفة وأنها فى الاستجابة للأحداث تختلف

من موقف إلى موقف . وفى وقت ما كان الموقف كالآتى : (١) تقدم البشرية يعزى إلى العقل البشرى (٢) تقدم البشرية يعزى إلى قادتها من أنبياء وفلاسفة . (٣) تقدم البشرية يعزى إلى العامل الجغرافى (الأجناس والشعوب) . (٤) تقدم البشرية يعزى إلى النظام الاقتصادى . ويقول جون هرمان راندال: لقد استبدلت أوربا المثل الأعلى على العالم المسيحى الموحد يعمل بإرشاد من سلطة الكنيسة بمثل أعلى آخر قوامه دولة مستقلة مستقلة مطلقة السيادة ، انتقل المجتمع الأوربى من مدنية الله إلى المدنية الأرضية، من الكنيسة مدنية الله إلى المجتمع العلمانى وهو المدنية الأرضية . وقد كان مؤرخو العصور الوسطى الأوربيون لا يعترفون بدور البشر فى سير حوادث التاريخ ، ويردون أن اللعبة الرهيبة تدور بين الإله والشيطان أو بين الخير والشر ثم تحول هذا المفهوم إلى مفهوم معارض تماما هو أن التاريخ هو عمل الإنسان مائة فى المائة وكلا المفهومين غير صحيح . ويظهر التفسير الفردى للتاريخ الذى يمجد القادرين ويضخم من دورهم ، ثم جاءت المدرسة الواقعية فى التاريخ وهى تشرح الأحداث فى ضوء جبرية الظواهر الاجتماعية والمادية ثم جاء فرويد فقال إن التاريخ سلسلة أزمات نفوس أفراد أدت إلى الانقلابات الهائلة . ويدور المؤرخون حول القول بأن البيئة هى القوة المؤثرة فى حياة الناس وبين القول بأن الوراثة هى العامل الوحيد المؤثر والواقع أن الوراثة والبيئة عاملان من جملة عوامل . وهناك الدعوة إلى التفسير البيولوجى الذى يعتمد على أثر الزمن فى الكائنات الحية من حيث النمو والانحلال والتطور ، وهناك نظرية التحدى والاستجابة لأرنولد توينبى ونظرية وحدة الصور التاريخية رغم تباعد العصور لشبنجلر ، والواقع أن هذه المذاهب جميعها جزئية مغرقة فى الانشطارية وأن كل واحد منها يعجز عجزاً أكيداً على تصوير الإنسان وفهمه وفهم تاريخه وخاصة إذا تناولت الدراسات من خلال المفهوم المادى وتطبيق منهج العلوم الطبيعية على الإنسان والتصرفات البشرية .

الفصل الثالث

التفسير اليهودى

تعرض التاريخ الإسلامى للتفسير اليهودى الصهيونى وهو تفسير يحاول أن يستهدف الطعن فى الرابطة القائمة بين الحنيفية الإبراهيمية والدعوة الإسلامية المحمدية ومحاولة إثارة الشبهات حول هذه العلاقة الممتدة وقطع الترابط بينها وذلك بالتشكيك فى إبراهيم وفى إسماعيل وفى قيامهما ببناء الكعبة وإنكار الأصل الحقيقى للموجات العربية التى تدافعت خلال القرون المتوالية كالموجة الفينيقية والآشورية والفرعونية والبربرية والحيلولة دون الربط القائم بين دعوة التوحيد كما جاء بها إبراهيم عليه السلام وبين الدعوة المحمدية الخاتمة وكيف انحرفت على أيدى اليهودية ثم جاءت التفسيرات المسيحية التى أخرجتها عن أصلها وكيف أعادها الإسلام مرة أخرى إلى أصولها الأصيلة. كذلك فإن التفسير اليهودى يستهدف الإدعاء بأن وعد الله إلى إبراهيم قاصر على إبنه إسحق جد اليهود وحده وأنه لا ينسحب على إسماعيل إبنه الأكبر جد العرب والمسلمين، وهى دعوى باطلة وزائفة. كذلك فإن التفسيرات اليهودية للتاريخ هى التى أنكرت أثر الدعوة الإبراهيمية الحنيفية والدور الذى قامت به فى بناء التجمع العربى فى مختلف أجزاء ما بين النهرين وفلسطين والشام ومصر وأفريقيا ووحدت به للاسلام. وقد جاءت الحفائر والكشوف الأثرية لتصدق ما جاء به القرآن الكريم فى هذا المعنى وتزيف الدعوى الباطلة التى حاولت التفسيرات اليهودية التاريخيه أن تخدع بها الغربيين.

ولقد تبين أن صناعة اليهود هى تحريف الكلم عن موضعه بدافع الحقد على العرب والمسلمين وعلى كل الأمم التى يطلقون عليها « الجوييم » وأنهم هم الحريصون على التركيز على الشكل الدموى والوحشى والعنصرى والمستغل للشعوب المغلوبة. وقد كانت وظيفتهم وهدفهم هو القضاء على الطابع الإنسانى الذى عرفته البشرية بالأديان السماوية، وإنكار الدور الذى قامت به الحنيفية الابراهيمية وماقام به العرب منذ ذلك الوقت إلى مجيء الإسلام. ومن حقدهم نسبوا هذا كله إلى جد سابق فأطلقوا على كل هذه القصة « اللغة السامية والديانة السامية والأمم السامية » وهى عملية خداع واسعة المدى تستهدف إنكار فضل الإبراهيمية الحنيفية ودور العرب واللغة العربية، وقد كان العرب أبرز القوى الحضارية فى العالم وهم الذين يسمونهم الكنعانيين وينكرون كل فضل لهم، ومن هنا كانت حملتهم على العرب وتأليب الغرب عليهم وعلى المسلمين باسم القوة الخطرة التى عملت على طرد الرومان وعبرت إلى أوربا ومحاولتهم المتصلة فى تزييف كل مقومات العرب وعلى رأسها الدين كأسلوب مسموم للحيلولة دون وحدة العرب وبروزهم كقوة كبرى فى المنطقة، وهم يجرون على خطة لتزييف التاريخ العالم كله على النحو الذى يحاولون

به أن يوجدوا لهم تاريخاً وأثراً حضارياً . ودورهم فى السيطرة على مقارنات الأديان وعلم الأنثروبولوجيا يستهدف هذا التزييف . كذلك فإن التفسير اليهودى للتاريخ يعمل على إعلاء شأن الحضارات القديمة والأديان الوثنية السابقة للمسيحية وفى مقدمتها الفلسفة اليونانية الوثنية التى يطلق عليها علم الأصنام .

(٢) حاول المتصدرون من الاستشراق اليهودى لدراسة الاسلام إثارة شبهات مختلفة حول العقيدة وحول العرب وحول الشريعة وحول علاقة المسلمين بالحركات الهدامة . وكان أبرز العاملين فى هذا الميدان جولد زيهر وجارودى ورودنسون وبرنارد لويس وإسرائيل ولفنسون . أما جولد زيهر فحاول أن يوهم بأن اتصال النبى والمسلمين بالبيئات اليهودية فى المدينة كان له أثر فى القرآن . وردد هذا الدكتور طه حسين فى محاضراته بالجامعة المصرية ، كما عمل إسرائيل ولفنسون على نشر دعوى كاذبة وإعطاء اليهود دور فى الحضارة والفكر الإسلامى فى هذه المرحلة . وأما برنارد لويس فقد تخصص فى تشويه التاريخ الاسلامى وفق أحدث نظريات التمييز والدعاوى السياسية والحرب النفسية ، وله شبهات مثارة يرمى فيها العرب والمسلمين بالعداء العرقى ضد الزنوج ويصفهم بأنهم عاملوا الأفارقة السود معاملة سيئة وهو بذلك يعارض الحقيقة التى اعترف بها كل المؤرخين من حسن معاملة العرب للأفارقة وأهل الذمة وللأقليات جميعاً . يقول أرنولد توينبى : «إن الحضارة الإسلامية من الحضارات النادرة فى التاريخ التى لم تتخذ موقفاً عرقياً من الأفارقة بل عاملت السود على قدم المساواة مع العرب لأنها اتخذت موقف الاستعلاء على العرق الأبيض فى بيزنطة وروما ولقد عمد برنارد لويس فى كتاباته إلى تشويه التاريخ الإسلامى فى هذه الناحية بهدف إثارة الشبهات بين العرب والأفارقة وكسر التحالف التاريخى بينهم . ولعله من أجل هذا أهدته جامعة القدس درجة الدكتوراه تقديراً لهذا الدور الخطير . أما رودنسون فإنه ينكر المفهوم الإسلامى فى مجال الاقتصاد ويرمى الاسلام بأنه أقرب إلى النظم الرأسمالية ، كذلك يخطىء جارودى عندما يصف حركات القرامطة بأنها حركات إسلامية لإقامة العدل الاجتماعى .

الفصل الرابع

التفسير الماركسي

حاول دعاة الماركسية اتخاذ نظرية التفسير المادي للتاريخ وسيلة لتفسير تاريخ الإسلام وتعتمد النظرية الماركسية على اعتبار أن العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد للحروب أو العامل الأكبر في تفسير حركة التاريخ. وتقول النظرية: إن العلة الأصلية للحروب والتغيرات وتطور الجماعات ترجع إلى الحالة الاقتصادية التي تعيش فيها الأمة، وأن أساس التاريخ هو الاقتصاد وأن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام وأنه ليس هناك قيم ثابتة إسمها الدين أو الأخلاق أو التقاليد، وقد أنكر التفسير المادي للتاريخ جانب المعنويات والقوى الذاتية وكل ما ليس ماديا في مقدرات التاريخ والمجتمعات وقد تعرضت نظرية ماركس في التفسير المادي للتاريخ إلى انتقادات كثيرة كشفت عن فسادها وعجزها عن تفسير حركة التاريخ أو تطورات المجتمعات الإنسانية: ومن ذلك:

(أولا): التاريخ كما يصوره ماركس ليس هو تاريخ المجتمع الإنساني بأكمله، بل هو تاريخ المجتمع الأوربي وحتى في تاريخ أوربا فإن الصراعات الطبقية ليست هي الصراعات الوحيدة في التاريخ وهناك صراعات من طراز آخر كان لها في التاريخ أهمية أكبر، منها مجتمعات الرعاة ومجتمعات الصيد والزراعة، وهناك عوامل لم يلتفت إليها ماركس وهي: الدين والتربية والعقيدة. كذلك لم يحفل ماركس بقوة الشعور الوطني والقومي والاختلافات والعداوات بين الأمم.

(ثانياً): يتصور ماركس أن حاجات الإنسان قاصرة على الجوع والظمأ والثياب. بينما للإنسان حاجات أخرى عقلية وروحية وهي في العادة أقوى أثراً من حاجاته المادية. إن ماركس يتصور الحاجات الإنسانية التي هي عنده أقوى البواعث في حياة الإنسان. ويتصورها في حدود ضيقة فليس يكفي الإنسان أن يرتوي ظمؤه ويشبع جوعه ويرتدي الثياب.

(ثالثاً): إن هذه أحداث جسام في التاريخ البشري لا يمكن عزوها إلى الأسباب الاقتصادية منها فتوحات الاسكندر وفتح العرب لأسبانيا وحرب المائة سنة بين فرنسا وانجلترا، وغزوات نابليون وذهاب جماعة المتطهرين وكلها لم تكن بينها دوافع مادية.

(رابعاً): أخطأ ماركس في عجزه عن تقدير إرادة الإنسان الخاصة: وأنه ليس مجرد آلة في يد العوامل الاقتصادية، فليس الإنسان مسلوب الإرادة، أو قاصر المسعى أو مغلوب على أمره أمام

المؤثرات الخارجية أو السنن الطبيعية بل إن للانسان نصيب كبير فى القدرة على التفريق بين الخير والشر والضار والنافع . وأن للبشرية من الكفاية الفعلية مايجعلها جديرة بإحتمال تبعة أعمالهم وصنع تاريخها.

(خامساً) : عجز ماركس عن فهم دور الإنسان النبيل والبطل العظيم وأنه لايطلب المصلحة أو يتحرى المنفعة وإنما يتعرض للايذاء فى سبيل الدفاع عن حرية بلاده أو يستهدف الشهادة فى سبيل التعلق بعقيدته وتاريخ البشرية حافل بهذه النماذج الكريمة على اختلاف العصور والبيئات .

(سادساً) : يقول تريتون فى كتابه (الاسلام عقيدته وعباداته) إذا صح فى العقول أن التفسير المادى للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدولة وسقوطها فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعاً حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة فرأوا أنها تقع فى هذا الشىء الجديد ألا وهو الإسلام .

(سابعاً) : ليس العامل المادى هو العامل الوحيد أو الأكبر فى تحريك التاريخ . ليس التفاعل بين الإنسان والطبيعة والمجتمع هو مصدر التاريخ إنما هناك دور الوحى والنبوة فى حياة الانسان ودور الانسان فى بناء التاريخ . ليس هناك جبرية للمجتمع ولكن هناك إرادة الانسان ولكن إرادة الانسان ليست حرة مطلقة وإنما هى تتحرك فى دائرة الله ومسئوليتها فى حدود عملها : ليست العوامل المادية وحدها هى التى تحرك التاريخ ولكن هناك العوامل الروحية والعقيدة وعواطف الإنسان كما أنه ليس هناك مفهوم بطولة فردية صرفة ولا بطولة جماعية عامة وإنما هناك توازناً بين الفرد والمجتمع .

الفصل الخامس

التفسير الاسلامى للتاريخ

يقف الفكر الاسلامى موقفاً واضحاً حاسماً فى تفسير التاريخ : ويقيم منهجاً واضحاً متميزاً أبرز مقوماته التكامل والنظرة الجامعة ، التى تفهم التاريخ من خلال العوامل المعنوية والمادية على السواء وتقدر للانسان دوره وإرادته وهى لاتهمل الاقتصاد وحده أو أى عامل من العوامل المادية أساساً لفهم التاريخ ، ويستمد التفسير الاسلامى للتاريخ مقوماته الحقيقية من القرآن الكريم منهجاً لبناء الحياة والكون والمجتمعات . ويقوم هذا الفهم أساساً على وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة والتكامل بين القيم ، والالتقاء بين الروح والجسد فى نظام الدين ، والسماء والأرض فى نظام الكون ، ويسلكها فى طريق واحد هو الطريق إلى الله .

ومن هنا فإن أى منهج لتفسير التاريخ : سواء المسيحى أو اليهودى أو المادى أو الماركسى لا يصلح للتطبيق على تاريخ الاسلام وأن المنهج الوحيد الذى يصلح لتفسير الاسلام هو المنهج الاسلامى وحده ذلك أن الاسلام قد جاء ليفتح الطريق أمام الفكر لكى يفسر التاريخ على أساس طبيعة العلاقات السالبة والموجبة بين قوى الله المطلقة وبين الآراء الانسانية المحدودة التى تصنع التاريخ دونما تدخل أى قوة أرضية حتمية واعتبار إرادة الانسان سبباً من أسباب الله فى الكون . فدور الانسان فى التاريخ دور واضح أصيل ، وحركة تجرى داخل إرادة الله المحيطة الشاملة : وقد أعطى الاسلام الفكر الانسانى صورة متكاملة عن الكون والحياة والانسان وعن مهمة الانسان فى هذا الكون ومسئوليته النابعة من إرادته القادرة على العمل والتعبير . والانسان هو سيد المخلوقات وهو مستخلف فى الأرض ، وقد علمه الله مالم يعلم وكشف له عن قوانين الأمم وسنن الحضارات فى قيامها وسقوطها ودعاه إلى الاعتبار بما حاق بالأولين والنظر فى آثارهم وهم يمرون عليها مصبحين وهم يمشون فى مساكنهم وهم يشاهدون بقايا الأمم : فى كل مكان يذهبون إليه فى بئر معطلة وقصر مشيد وفى رحلة الشتاء والصيف ومن ذلك قوله « ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء » . وبذلك قدم القرآن للمسلمين تلك النظرة العميقة الصادقة فى آثار الأمم القديمة التى أهلكها الله لأنها خرجت عن سنن الله . ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

وقد أشار القرآن إلى الأمم التى آمنت وكيف سعدت وعاشت آمنة (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) . وأشار القرآن إلى هلاك الأمم التى خرجت عن سنن الله : (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) .

(وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون) . (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب

معلوم) . (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً) . (وما أمنت قبلهم من قرية أهلكناها) (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة) (وما أهلكنا من قرية إلا ولها منذرون) (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) . (أو لم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات) .

وهكذا وضع القرآن قانون بناء الأمم وموقعها من التاريخ ومن الحضارة وأسباب سقوطها وهزيمتها وكما كشف القرآن عن دور الفرد فى حركة التاريخ (ذلك بما كسبت أيديهم) . كذلك كشف القرآن عن العمل الضخم الذى قام به الرسل والأنبياء فى هداية البشرية ودعوتها إلى الحق وتحريرها من الوثنية والعبودية والإباحية وكيف عاشت البشرية وستظل تعيش فى صراع بين الحق والباطل وبين الفكر الربانى الحق و بين الفكر البشرى . كما كشف القرآن عن وحدة البشرية وكيف خلقت من نفس واحدة ، وأبان عن أن الفوارق بين الشعوب فوارق سطحية وليست عميقة الأثر ، كما كشف القرآن من وحدة الدين ووحدة النفس البشرية . وأبان القرآن عن مسئولية الإنسان فى صناعة الحياة وبناء المجتمع (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) .

كذلك قدم الإسلام تفسير التاريخ وقدم التاريخ القديم نفسه ، فكان أول من أعطى البشرية فكرة دراسة التاريخ والاعتبار به وكشف عن أهمية التاريخ فى حياة الأمم ودعا إلى استكناه العبرة منه والنظر فى آثار الأقدمين الباقية على وجه الأرض لمعرفة السر الذى يكمن وراء قيام الأمم وسقوطها وقد أطلق القرآن اسم الله على مادة التاريخ ، وكشف القرآن عن أن التاريخ نواميس ثابتة ونواميس متغيرة ونواميس غير متطورة تسير المجتمعات البشرية :(وتلك الأيام نداولها بين الناس) . (فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبل » .

وإن أقصر تعبير وأعمق تصوير لمهمة التاريخ يتجلى فى دعوة القرآن الناس إلى النظر فى التاريخ القديم من خلال بقايا المدنيات والأمم الفانية والتى يمر عليها الناس اليوم وقد وجدوا فيها آية باقية ليسألوا : لماذا سقطت هذه الأمم وماذا كان من شأنها عندما خالفت عن أمر ربها حتى إنهارت حضارتها وذهب وجودها فما تجد لها من باقية أو تسمع لهم ركزاً . وإن أعظم معطيات الإسلام البشرية هو إعطائها قانون الطبيعة وناموس المجتمعات والحضارات الذى يطلق عليه القرآن اسم (سنن الله) . (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض) ، وقد جاء الاسلام دعوة إلى أن يلتمس الناس منهج النبوة الأولى ويهدى إلى المجتمع الربانى القائم بالحق على أيدى رسل الله وأتباعهم: (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم) .

وقد ربط القرآن فى تصويره لمنهج الحياة على الأرض بين مفاهيم التاريخ والحضارة والاجتماع وجعلها كلها مستمدة من أمر الله منطلقة إلى غايته التى أعد الإنسان لها قائمة بالحق فى الحدود التى أقامها وفى الإطار السمح الذى دعا البشرية إلى التحرك فيه دون الخروج منه إلى الفساد الذى ظهر فى الأرض بما كسب الناس ، وحذر من اتباع دعوة الفكر البشرى الوثنى الإباحى الفاسد (يريد الله ليبين لكم

ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً) . وجملة ماوصل إليه القرآن فى فهم سنن الحضارات والمجتمعات هو الكشف عن مصدر الخطر الحقيقى الذى تسقط به هذه الأمم والحضارات والمجتمعات وهو تجاوز الناس سنن الله فى الأرض وخروجهم عن الأصول الصحيحة والحدود التى أقامها بين الحق والباطل .

فالقرية التى تقف عند هذه الحدود والضوابط يأتيها رزقها رغداً من كل مكان . والتى تخرج عن هذه الحدود والضوابط تكون قد كفرت بأنعم الله فيحق عليها الدمار . وهكذا يكون الإسلام هو الذى قدم إلى البشرية ما يسمى فلسفة التاريخ أو تفسير التاريخ حيث لم يقف عند عرض الحقائق بل قدم تحليل الوقائع وهو الملاحظ الذى تنبه إليه المؤرخون المسلمون ووصل إلى قمة فهمه (ابن خلدون) استمداداً من القرآن . وهو المفهوم الذى عرفه الغرب من بعد ذلك ويشهد التاريخ بأنهم ما كانوا يعرفونه قبل أن ينقله إليهم ابن خلدون . ومن هنا فإن ابن خلدون مستمد من القرآن وقد أخذ عنه مؤرخو الغرب وإن كانوا قد خلطوا مفاهيمهم بكتابات أفلاطون وأرسطو . إن أخطر ما يقوم عليه التفسير الغربى للتاريخ (مسيحياً أو يهودياً أو ماركسيا) هو تجاهل حقيقة الانسان إما بإعلائه إلى حد التقديس أو إنكاره واعتباره ترساً فى آلة . وأكبر أخطاء هذه المفاهيم هو عدم التفريق بين الانسان وبين الأحياء الأخرى العليا منها والدنيا وفساد القول بتطبيق القوانين الطبيعية أو التجريبية عليه إنكاراً لروحه ونفسه وتميزه عن المادة والحيوان ويتصل بهذا فساد القول بأن حوادث التاريخ يحكم قانون ثابت أو أن حوادث التاريخ وأمور البشر تجرى دون تقدير ، وأنها لايقيدها نظام ما أو تعتمد على المصادفة ، ذلك أن الحياة البشرية مسئولية الانسان وحسابه فى حدود إرادته وعمله وقدرته على التغيير . وتنكر النظرة المادية إرادة الانسان وتتجاهل جوانبه الروحية والمعنوية والنظرة الاقتصادية كما تنكر العوامل الأخرى غير الاقتصادية .

فليس الانسان إله ولا نصف إله وليس الانسان بغير إرادة وليس الانسان خاضع لحتمية تجيئه من المجتمع وإنما للانسان إرادة وحرية اختيار ذات طابع محدود ، وحريته واختياره تتمثل فى قدرته على أن يختار سبيلا ويترك أخرى ويتحمل المسئولية وقد ذلل الله له الكون وما فيه لمنفعته ولتحقيق استخلافه فليس الانسان فانياً فى المجتمع وليس له إرادة مطلقة غير محددة .

فالارادة الانسانية حرة فى حدود معينة وهذه الحدود المعينة هى وحدها موضع مسئوليته . وهذا المفهوم الاسلامى يختلف مع مفهوم الفلسفة المثالية الغربية (هيجل) والفلسفة الماركسية وإحداهما تراه جبرية والأخرى خاضعاً لوسائل الانتاج . ولاريب أن إنكار إرادة الانسان ، من شأنها أن تجهز على فكرة المسئولية أمام الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، ومن الحق أن السلوك الاخلاقى واجب أساسى فى الاسلام والزام متصل بحركة الحياة نفسها . وكذلك فإن الاسلام لايعتبر وجود الانسان فى الأرض موضعاً للتعذيب أو سجنا للبشر بسبب خطيئة أصلية ، أو غير أصلية ، وأن المعصية الاولى التى ارتكبها آدم أبو البشر لا تنسحب على أحد من أبنائه وقد غفرها الله له : والاسلام فى مفهومه للانسان يختلف عن النظرية الفردية الغربية : هذه النظرية التى تجعل التاريخ من رسم أفراد معدودين ، وإن كان الاسلام

لا ينكر أثر الأفراد كعامل من عوامل رسم التاريخ بما أودع فيهم من قوة سواء فى السير على الطريق الصحيح أو الطريق الخاطىء فأثر فرعون وهو فرد لاينكر فى إذلال بنو إسرائيل وأثر إبراهيم لاينكر فى إنقاذ أمته من عبادة الأصنام . كما لايقر الاسلام النظرية الجبرية للمجتمع لأنه ينكر أية نظرية تثبت جبرية الانسان وتعطل إرادته حيث أنه يؤكد مشيئة الانسان ومسئوليته عن أعماله ومع ذلك فإنه لاينكر أثر المجتمع فى سير التاريخ .

ولا يؤمن الاسلام بالنظرية الجغرافية أو الطبيعية المتعارفة التى تبالغ فى إعطاء الأثر الانهار والجبال والتضاريس وأنها هى التى تسير التاريخ . أما من حيث أنها إحدى العوامل المؤثرة فذلك مالاشك فيه وفى مجال الفرد فى التاريخ يجىء مقام رسول الله ﷺ وهو ليس مجال بطولة فردية ولاعظمة ذاتية توضع فى مجال المقارنة مع البطولات والزعامات ولكنها هى النبوة ، التى لها سالكها وتاريخها ورسالتها الممتدة على طول الزمن حتى ختمت بمحمد بن عبد الله . وهو النبى الموحى إليه الذى لاينطق عن الهوى وليس بعده أحد مقدس الذات أوله العصمة ولا يمكن أن يوصف بالعبقرية التى يوصف بها أبو بكر أو عمر . والاسلام يقرر إرادة الفرد فى صنع التاريخ (الاختيار) وهى إرادة حرة من ناحية تصرف الانسان ولكنها تتحرك فى دائرة إرادة الله الكبرى ومسئوليتها على قدر حركتها الذاتية ولكن لايقال أن إرادة الانسان وحده هى التى تصنع الصورة الكاملة فإن هناك العامل الخفى الذى هو من تقدير إرادة الله الكبرى ، وهو عامل يأتى بغتة ومن غير انتظار أو تقدير محسوب وإن الارادة البشرية قد تنطلق إلى عمل من الاعمال ولكنها لا تستطيع أن تضمن مايصل إليه أو أنها كما يقولون بمثابة صاروخ مقذوف فى الزمان يتجاوز دائما تقديراتنا وحساباتنا ، وقد تجىء الغاية مغايرة تماماً للهدف الأول فالانطلاق أمر يقوم على إرادة الانسان ولكن المراحل التالية لذلك تقع فى دائرة القوة الكبرى التى توجه الأحداث .

يقرر البيان وايد غراى فى كتابه تفسيرات التاريخ : إن وجهة نظر المسلمين للتاريخ نظرة بناءة أكثر مما سبقها فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحى (القرآن) فإن إرادتها حينذاك تتطابق وإرادة الله ولا يعود يوجد من يعصى أوامره ويعم الرخاء بين البشر . ويحلل والفرد كانتول سميث موقف الدعوات البشرية من التاريخ وموقف الأديان وموقف الاسلام فيقول : إن المسلم يحس إحساساً جاداً بالتاريخ أنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشر فى الأرض على مقتضاه وهم يحاولون دائما أن يصوغوا الأرض فى إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يقيس كل عمل فردى أو اجتماعى وكل شعور فردى أو اجتماعى بمقدار قربه أو بعده عن ذلك النظام الذى وضعه الله والذى ينبغى تحقيقه فى واقع الارض لأنه قابل التحقيق والتاريخ فى نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الارض ومن ثم فكل عمل وكل شعور فرديا كان أو اجتماعياً ذو أهمية بالغة لان الحاضر هو نتيجة الماضى ، والمستقبل متوقف على الحاضر. أما الماركسى فيؤمن بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية ولكن لا يؤمن

إلا بهذا العالم المحسوس بل لا يؤمن فى هذا العالم إلا بالمذهب الماركسى وحده وكل شىء عداه باطل والماركسى يتبع عجلة التاريخ ولكن لا يوجهها ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها، وما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم من غير تكلف ولا استطاع ، وأن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة ... وأن الغربى لا يفهم الاسلام حق فهمه إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطنا .

ويقول ولفرد كانتول سميث فى المقارنة بين الاسلام والماركسية : إنه لأمر عظيم أن نقيم حياة اجتماعية سليمة على وجه الأرض ولا شك أن الاسلام هو أجدر وأثبت تجربة تمت لتحقيق العدالة بين الناس، وأنه ثمة فروقاً عميقة بين الإسلام والماركسية ، أهمها أن الإسلام يرى لكل حادث دنيوى مغزيين ويقيسه بمعيارين : أحدهما وقتى والآخر ابدى أو فردى ، والإسلام رغم اعترافه بمغزى التاريخ الحاسم إلا أنه يرى أن هذا المغزى لا يذوب فى خضم التاريخ نفسه بل يوجد من القيم والانماط ما يعلو على مجريات التاريخ والحكم على هذه المجريات يمكن بل يجب أن تكون فى ضوء هذه القيم والمقصود بذلك هو القيم الروحية التى لا وزن لها فى الماركسية .

ويقول عبد المغنى سعيد : إن نظرية الإسلام فى تفسير التاريخ أعمق وأعرض من أى نظرية أخرى لأنها تشمل الناحيتين المعنوية والمادية معا بينما ركزت الماركسية على الجانب المادى فقط . ويقول الدكتور عماد الدين خليل : إن الإسلام ليس رأسمالياً ولا اشتراكياً ماركسياً وإنما هو ينظر إلى المال أولا على أنه ملك لله وأن الإنسان مستخلف عليه وأن له أن يتصرف فيما يملك بروح الاستخلاف .

(٥) يقول الأستاذ علال الفاسى: إن ميزة التفسير الإسلامى للتاريخ هو الوعى بأن التاريخ نهاية وجوده يوم تقوم الساعة ويسأل كل واحد عما عمله فى الدنيا وأن الجبرية التاريخية غير موجودة فى الاسلام لأن الانسان ليس خارج التاريخ بل هو من عوامله الداخلية الفاعلة والمنفعلة وأن عمليات التاريخ ليست دون غاية وقد أدرك الرسول ﷺ الوجود التاريخى إدراكا كلياً ولكنه لم يكلف نفسه أن يكون المؤرخ أو المدون للتاريخ وإنما وضع لنا الإطار الذى علينا أن نملأه بما نكتشفه من أحداث وما نضمه من عمليات ولم تذكر كلمة التاريخ فى القرآن ولا فى السنة وإن نص علينا القرآن قصصاً للأولين لا نعتبرها تاريخاً بأوقاتها وظروفها ولكن لنتعظ بما فيها من عبرة ويمكننا أن نبحث التفسيرات المختلفة للتاريخ أو نكتشف غيرها بما نستطيعه من جهد وتأويل دون أن ندعى حتمية وهى عاص قد ينطبق على بعض الأحداث دون بعض فنقع فى آفة التعميم الذى يقع فيه كثير من الاجتماعيين والنفسيين . وللتاريخ فى نظر المؤرخين مرحلتين لا بد من الوقوف عندهما :

(١) مرحلة العمليات التاريخية التى سبقت بعثة الرسول وهذه لم تكن إلا تمهيد لابلاغ الانسان رشده عن طريق إكمال الدين بوجود محمد خاتم الرسل ولم يكن محمد بدعا من الرسل فقد سبقته نبوات ورسالات كما سبقته دعوات إصلاحية تشمل كل بقاع العالم ولكنها لم توفق إلى البقاء وأصابها الانحراف

الذى يستوجب أن تجدد وتصلح لتفتح آفاق التقدم الإنسانى ، فكان لا بد أن يبعث الله الرسول الخاتم الذى يضع الناس فى جو الرشد المبنى على العقل والروح والقلب والجسم . وأن كل ما سبق من عمليات التاريخ كان يهدف لغاية واحدة هى وجود الرسول نفسه وبذلك يصبح الماضى ، كله فيما قبل التاريخ ، أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الاسلامى ، والبشرية كلها مخاطبة لتسير وفق ما يرشد إلى ناموس الكون وما بنى عليه هذا المجتمع .

(المرحلة الثانية) هى نهاية التاريخ الدنيوى والوصول إلى عالم يحاسب فيه المرء على ما قدمه من خير أو شر ، وبهذا الامتداد التاريخى إلى ما بعد الموت يزول كل تناقض يمكن من غاية التاريخ ومن أسباب عملياته ، وفى هذا الإطار يبقى الإنسان عاملا مختاراً لأن شغله أن يوفق بين نواميس الكون وتعاليم القرآن وهو الذى يصنع تاريخه وتاريخ البشرية . والحقيقة الاسلامية فى أمر التاريخ هى : أن التاريخ نهاية وجوده يوم تقوم الساعة وأن خط المفاهيم الماركسية والمادية التاريخية ، وتناقضها ناشىء من تجاهل الموت والتنكر للقيم ، ولكى نحصل على وعى بالتاريخ يجب أن لا نخرج من التاريخ ، فتسلسل وجودنا التاريخى كان فى الإطار الذى حدده الاسلام مهما كان التفسير الذى يعطيه لعمليات التاريخ ، والإطار الاسلامى شمولى ، لأنه موضوع للعالم كله . لذلك فى الوقت الذى نحافظ على كياننا داخله نكون قد وعينا تراث الانسانية (أى كل ما ليس من الأساطير) ، وما ليس من الأساطير هو المعروف الذى وعته كل العقول لأنه من فطرة الانسان .

(٦) « مشكلة الخلق ، كما يقول الدكتور عبد الحليم عويس هى « عقدة العقد » فى تفسير التاريخ ، فالمسلمون يسلمون بخالق خارج هذا الكون ذى صفات محددة لا يمكن أن يصل العقل إلى تحديد كنهه ، لأن العقل أقل من هذا الإدراك ، أما المذاهب الوضعية والمادية والماركسية فهى تختلف فيما بينها فى أصل الخلق على أنها ترى عموماً أن المادة تتمتع بمؤهلات الخلق والوجودية ، ترى أن الانسان مبدأ الكون ومنتهاه وتعيش فى دائرة الاستعباد للذات وأصحاب الدين الانسانى الذين يتزعمهم إليكس كاريل . والأمر الثانى هو المحرك لعملية التطور التاريخى بعد أن تنتهى عملية الخلق ، فالفلسفة اليونانية لها رأيها الذى يسلب الله سبحانه خصائص الحكم فى مسيرة العالم ، وكأنما خلق الله العالم وتركه يتدحرج ككرة منزلقة . وهناك الاختلاف فى العوامل المحركة لحركة التاريخ ، ويحتل العامل الاقتصادى المرتبة الأولى بل يكاد يكون الوحيد ، أما الاسلام فينطلق من إيمان بقدرة الله ، ومن إيمان بأنه مهما قيل عن أسباب ظاهرة التحول التاريخى فإن الله هو الفاعل الحقيقى ، ومن أخطر المخاطر محاولة تجريد النصوص التاريخية القرآنية من صدقها الواقعى فى موكب التاريخ بحجة أنها لمجرد غرس العبرة فى النفس البشرية (على النحو الذى قال به طه حسين ومرجليوث وخلف الله) بينما يطالبون من المؤرخ الاقتراب من (الواقعة) وصولا إلى العبرة التاريخية الحقيقية ، وهم يفترضون الصدق فى الجيولوجيا والآثار أكثر من افتراضهم الصدق فى كلام الله ، وهم يتجاهلون أن العبرة المستقاة من واقعة مزيفة مختلفة هى كذلك عبرة مزيفة مختلفة .

يقول الأستاذ عبد الحميد صديق : ينفرد المنهج الاسلامى فى تفسير التاريخ أنه يتخلص من هذه الآفات فهو فى المقام الأول يتوفر لديه (الرؤيا الشاملة لوقائع التاريخ) على نحو تركيبى كلى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) كذلك تضع المنهج الاسلامى فى مكانه الصحيح انطلاقا من جعله مستخلف فى الأرض ومن جعله فى أحسن تقويم ، فليس الإنسان مجرد آلة تحاول أداء عملها فى ماكينة المجموع ، كما أنه ليس دمية تحركها روح العالم وليست هناك حتمية تاريخية تقود الإنسان .

فأعمال الانسان المختارة هى السبب فى صنع التاريخ وهو المسئول عن كل حركة وليس مجرد ضحية لقوانين ساذجة محددة تنطلق به من مرحلة البدائية إلى مرحلة الاقطاع إلى البرجوازية إلخ .

إن هذه الأحكام المطلقة الساذجة ليست إلا أوهاماً .

والحياة فى التفسير الإسلامى معنى رفيع عال لا يتقوقع فى دائرة الاقتصاد أو الإيدلوجيات وإنما يسمو بغاية الإنسان إلى آماد عليا ، ففضلا عن تحقيق خلافة الله فى الأرض وفضلا عن تعمير الكون فالإنسان يعيش على هذه الأرض فترة اختبار كبرى يبتلى فيها بشتى الوقائع المضادة ليحتل مكانه الجدير به فى دائرة الخلود والاقتراب من الكمال المطلق ويجب على الإنسان أن يثبت أنه على مستوى الامتحان أو أنه أهل للأمانة الملقاة على عاتقه وحركة التاريخ فى الإسلام تشبه أن تكون دورية ولكنها ليست دورية صماء آلية تخضع لقوانين حتمية من صنع الانسان بل هى مرتبطة فى دوريتها بقوانين الله وسننه فى تفسير الحياة وبقوانين النمو والموت الحضارى ، وبما أن هذه الدورية موجودة (تلك الأيام نداولها بين الناس) فى التاريخ فلا يمكن معها القول باضطراد النمو الانسانى والأخلاقى فهذا القول نوع من الغرور فما نعتقد القدرة فليس من حقه إصدار أحكام عامة تمتد إلى الانسان كله ، إنسان ما قبل هيردوت ، وما بعده وإنسان هذا العصر التاريخى والعصور التى تليه ، وليس هناك شك فى أن ثمة صراعاً بين قوتين كبيرتين تسيران معاً مع تفاوت القوة عبر التاريخ كله : قوة الخير وقوة الشر . ولكن باستثناء الصراع العريض الطويل تسير الحياة فى داخلها على نوع من التعاون أكثر من سيرها على الصراع ، وقد يكون « الصراع » سمة مرحلة من مراحل الأفول يفقد الانسان فيها معناه العالمى ، لكن ليس السمة العامة المسيطرة على حركة التاريخ . والسالب لا يتصارع مع الموجب وما يبدو من تخيلات المتشائمين من تناقضات ، فهى ليست أكثر من تكامليات ، وهى تتصل من تكاملها البسيط إلى المركب .

(١) وضع الإنسان فى مكانه الصحيح . (٢) فهم المعنى الخالد لرسالته على هذه الأرض

(٣) عدم طغيان جانب من حياة الإنسان على جانب آخر . (٤) ودون فقدان الانسجام بين كل الجوانب .

(٨) هل يعيد التاريخ نفسه : يقول الباحثون أن التاريخ تسيطر عليه قوانين لا تقف عند حد الأثر الذى كان لها فى الماضى بل إنه سيكون لها أثرها حتما فى كل ظرف مشابه يطرأ فى المستقبل ، فمتى

حركة كل القوى التى ينسجها تاريخ البشرية عنصراً واضحاً هو عنصر الإعادة والتكرار : ولكنه ليس إعادة الأحداث والوقائع ولكن إعادة التفسيرات . وقد دعا القرآن المسلمين إلى التماس عبرة الماضى : وليس التاريخ كما يقول القرآن قصصى تروى دائماً هو تحذير من المهاوى الواقعة فى طريق الأفراد والأمم أو كما يصوره أحد العلماء يقول : إن سجل التاريخ هو الفنار الذى يضىء الملاحين الجدد الذين يمخرون عباب الحياة عن الصخور المهلكة التى قد تكون خافية تحت سطح بحر الوجود الانسانى الذى لا يدرك غوره :

(أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها) وذلك لأن الناس فى كل عصر يواجهون نفس النوع من التعقيدات التى واجهها أسلافهم فإن مواضع الخطر فى طريق الأمة هى نفسها تقريباً سواء كان العصر ماضياً أم حاضراً وكل أمة تصيبها السراء والضراء، والارتفاع والانخفاض وأن الذين لا تطغيهم الأفراح والذين لا تفقدهم السعادة اتزان عقولهم والذين لا يسمحون لأنفسهم بأن ينهاروا تحت وطأة المصائب هم الذين يسمح لهم قانون الحياة بالبقاء والنمو أما الذين لا يستطيعون الصمود أمام الشهوات وفى وجه ضربات القدر فأولئك الذين ينهارون بسرعة :

(إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) ، (إن مع العسر يسرا) .

والأمم تولد وتموت : (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) والنهار هو السعادة والقوة والليل هو الأفول والانهيار .

والعالم ينمو وليس كتلة ميتة فى الفضاء وهو قابل للتوسع والامتداد إلى غير ما حد، والماضى يبقى والعمل فى الحاضر ، ونظام الحوادث متغير وليس ثابتاً . ويرد الباحثون نظرية هيجل فى حركة التاريخ ويرون أنه لا أساس مطلقاً للرأى القائل بأن التوفيق بين الفرضية ونقيضتها ينتج عنه نظام جديد له خواص كل منهما ، كما أن التاريخ لا يدعم هذا الرأى ، ففى كثير من الأحيان يولد النقيض من الفرضية فيحطمها تماماً وحينئذ يتكون ضدها ودفعها مغاير تماماً :

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) .

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع)، وتبين هاتين الآيتين أن الله لا يعطى أية أمة السيطرة والقوة الدائمتين فكل جماعة من الناس تتسلط مدة من الزمن وبعد ما تمر هذه المدة تزول من الوجود وتقوم فوق جماجمها أمة أخرى ، وأن السلوك هو الذى يجلب عليهم الدمار ، ويقرر القرآن أن التغيير يأتى بسبب من الداخل لا من الخارج : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ومعنى هذا أن التغيير الناجح فى الفرد والجماعة لا تتحقق نتائجه إلا بتغير النفس أساساً ، ولما كان من العسير على الأفراد مهما أوتوا من العلم والخبرة أن يسبروا غور كل جانب من جوانب الحياة بفكر

متزن، فإنهم لا يستطيعون أن يضعوا لأنفسهم منهجاً مرتباً محبوكاً تنال فيه كل ناحية من نواحي الانسانية العدل الكامل ولما كان ليس في مقدورهم النظر إلى ما وراء فترات طويلة من الحياة فإنهم يعجزون عن أن يرسموا لحياة الناس منهجاً متوازناً يفي بمتطلبات كل نواحيها فالانسان لاينظر إلا إلى بعض من حاجات البشر ويهمل الباقي، وبهذا تصيب جوانب الانسان المهملة حيف كبير، هذا الحيف يحطم الاستقرار في الحياة وبهذا تهضب الانسانية في مسعاها، ولكي تجد الحد الوسط اللازم لتقدمها، فهي تتأرجح بين النهايتين المتطرفتين (المعروف أن أوربا انتقلت من الرهبانية إلى الاباحية) وبين هذين يوجد الصراط المستقيم الذى أوضحه الله تعالى وهذا وحده هو الذى يقود الإنسانية إلى طريق الفلاح في الدنيا والآخرة وكل السبل الأخرى تقود الانسانية إلى الهلاك ، (عبد الحميد صديق) .

ولقد ظنوا أن الطريق الجدلى هو الطريق الطبيعى الذى تتقدم به الانسانية ، ولكن الواقع أن الصراع بين الفرضية ونقيضها لا يؤدى في الواقع إلى التقدم ، وإنما هو في الحقيقة ضربة القدر القاصمة التي أصابت البشر جراء أعمالهم السيئة .. لقد مرت قافلة البشر مراراً بالصراط المستقيم ولكنها لم تتخذه سبيلا ولقد مضى تاريخ الاسلام في طريقه على صورة واحدة فهو تاريخ الصراع بين قوتين في العالم ، هي الشر والخير ، وهذا الصراع من شأنه أن يؤدى إلى تقوية شخصية المسلمين لكي تستطيع أن تستخدم الصفة التي وهبها الله إياهم لكي يزيدوا في سرعة نشاطهم الخلاق وفقاً لاوامر الاسلام فلغة الاسلام والأمم غير الاسلامية قوتان متضادتان في هذا العالم كأنتا دائماً في خصام ونزاع ، وعلى أمة الاسلام أن تعتبر نفسها مسئولة عما يحدث من حولها وأن تجاهد من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل في كل حين . ويقول الأستاذ صديق : إن هناك صفات معينة إذا نمتها الأمة في أبنائها نالت السيطرة والسيادة، وحين تفقد هذه الصفات تتردى إلى الحضيض وإن الله تبارك وتعالى ينظر إلى الأمة التي أتيح لها أن تحكم : أهي أمة قائمة بالحق والعدل أو بالجور والظلم فإذا كانت طاقات الأمة موجهة إلى الخير سمح لها بأن تزداد قوة وإلى أقصى حد ، فإنها بذلك تعطى الفرصة لكي تعرض قيمها الحقيقية ، وبذلك ينتفع العالم ، أما الأمم التي ترتكس في (السبات) فإن طاقاتها الخلاقة تبدو عقيمة وتلجأ إلى الظلم والطغيان وتنفق موارد الأرض على افناء البشر .

(٩) يقول إقبال : إن المشكلة التي واجهها الاسلام كانت هي ما بين الدين والحضارة من صراع متبادل وما ينتابهما في الوقت نفسه من تجاذب متبادل ولقد واجهت النظرية في أول عهدها المعضلة نفسها فكان أعظم ما عنيت به أن تبحث عن مستقر للحياة الروحية قائم بنفسه : تلك الحياة التي رأى منشئها ببصيرته أنه يمكن السمو بها لا عن طريق قوى عالم خارجي في نفس الانسان وإنما بتجلى عالم جديد في داخل النفس ذاتها ، والاسلام يقر هذه النظرة تماماً ويكملها بنظرة أخرى هي أن النور الذى يضيء هذا العالم الجديد المتجلى على هذا النحو ليس غريباً عن عالم المادة بل هو متغلغل في أعماقه .

ومعنى هذا أن النظرة الاسلامية لا ترى في التاريخ على أنه نشاط من أنشطة المادة فحسب كما أنها لا ترى فيه نشاطاً من أنشطة الروح فقط ، وإنما هو نشاط يجمع في مضامينه هذين العنصرين معاً ، كما

أن هذه النظرة المثالية الواقعية من شأنها ـ كما يقول الأستاذ محمد عطا الله معلقاً على كلام إقبال ـ لا يغير فكرته عن العالم والتاريخ من ثم فقط وإنما تجعله يساهم في تغيير هذا العالم وبالتالي يصنع التاريخ ويقول إن النظرة الاسلامية تؤمن بالتاريخ منذ بدأ الخليقة إلى يوم القيامة وحدة مستقلة، ولقد أشار روزنتال إلى أن الحديث عن يوم القيامة في القرآن قد جاء صريحاً بحيث أصبحت أحداثه واضحة للناس وكأنها قد حدثت في الماضي القريب رغم أنها لم تحدث بعد والمسلم يفهم أن القرآن في حديثه عن المستقبل ويوم القيامة إنما يرسم نهاية العالم الذي يعيش فيه وهو في هذا التكامل في رسم قصة بدأ الخلق وقيام المجتمعات وتدهورها ودور رسالة الأنبياء في إصلاحها وتوجيهها الوجهة الربانية الصحيحة، إذا ما التمست منهج الله وتحركت في إطار حدوده وضوابطه التي رسمها للناس والمجتمعات والاسلام حين يقدم هذا المنهج للانسان لا يقسره على السير عليه ولكنه يترك ذلك لارادته الحرة ويعطيه حق الاختيار في السير قدما أو التراجع.

ويضع الاسلام قاعدة بقاء الأمم وسقوطها وتغييرها: « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فتربط بين مصير الأمة وإرادتها، وأن لكل أمة أجل وأن فساد الأمم وانحرافها يحدد نهايتها والحرية متروكة لكل أمة لتعمل في دائرة الخير أو الشر.

(١٠) يصور الأستاذ عبد المغنى سعيد حركة التاريخ في مفهوم الاسلام فيقول: « إن الاسلام في نظرته إلى التاريخ لا يهتم بالجزئيات والتفاصيل العابرة ولا يهتم بالبطولات الفردية أو تاريخ حياة الأفراد وإنما يركز على الطلبات والاساسيات والحركة الاجمالية لمجرى التاريخ ومغزى هذه الحركة، أي أنه كان الأسبق إلى النظرة الجماعية والحركية للتاريخ عن المدارس التاريخية الحديثة التي ينبغي على المؤرخين القدامى اهتمامهم البطولات الفردية والجزئيات وتواريخ حياة الملوك والحكام والقرآن الكريم في تحليله لدعوات الرسل والأنبياء لا يضطرد إلى تفاصيل خاصة بحياتهم كأفراد وإنما يقف عند حد العبرة التي تبرز هذه الدعوات كحركات تقدمية استهدفت تحرير الإنسان من السحر والشعوذة والخرافة ومن الاستغلال والتسلط الطبقي أيضاً، إن دعوات الرسل كما جاء في القرآن الكريم لم تكن بالبسيطة أو السهلة فقد قوبلوا جميعاً بالإنكار والسخرية بل والاعتداء والحرب من القوى المضادة التي كانت ترى مصلحتها في الاحتفاظ بالأوضاع القائمة طالما هي المستفيدة ولا تراها في التغيير أو التطور وتخشى أن يهدد مصالحها الخاصة، ومن هنا فقد وقفت ضد دعوات الأنبياء وما تستهدفه من عدالة وتطوير. وقد كانت تلك الدعوات وما يتبعها من صراع تنتهي نتيجة حتمية وهي أن تنتصر الدعوة وإما أن تفشل ليصب الله جام غضبه بكوارث الطبيعة على القوم الكافرين الظالمين وهذه النتيجة يسميها القرآن بالسنة أو القانون الحتمي فيقول « ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » هذه السنة لا تقبل التبديل أو التحويل هي قانون إلهي تاريخي « سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً » « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ». وهكذا جاء الاسلام بمقومات نظرية علمية لتفسير (مادي معنوي) التاريخ.

(١١) يقرر الدكتور عماد الدين خليل بأن التفسير الاسلامى يتميز على التفسير الغربى بشموله وتكامله وأنه يضع اهتماماً بالغاً وتقديراً كبيراً للقوى الغيبية التى تتدخل فى عالم الحضور بشكل مباشر والحكمة الإلهية البعيدة المدى التى توجه التاريخ وجهة دون أخرى، ويقول : إن فهم التاريخ لايتم إلا بإسهام الطاقات الروحية والحيوية للإنسان فى عملية التقييم .

ويقول الدكتور عماد الدين إن تطبيق المنهج المادى العلمانى الغربى فى دراسة تاريخنا أحدث من الأخطاء والمهازل مايجب علينا أن نوقفه عند حده وأن نبدأ من جديد بتقييم تاريخنا ودراسته وفق منهج يقدم من الأدوات والإمكانيات ما يساعد المؤرخ المسلم على دراسة هذا التاريخ .

ويقول عبد الحليم عويس ناجى : « القرآن يرشد إلى المنهج الصحيح فى فهم التاريخ أى بالنظر إليه على أنه تاريخ الرسالات السماوية لا تاريخ الصراع الطبقى كما تصور الماركسية ولاتاريخ الأجناس والملوك والرؤساء والبطولات كما تصوره النظرية الغربية كما يرشدنا إلى أولوية دور الفرد المستمر فى دفع حركته إلى الأمام ، وباستعراض القصص القرآنى يظهر الاهتمام واضحاً بالرسل فى المقام الأول باعتبار أن الرسول هو النموذج الإنسانى الكامل الذى حقق السيادة على ظروفه وظروف قومه واستخدامها فى سبيل غايات أسمى وأبقى .

وتأتى ظروف الزمان والمكان فى المقام التالى ولهذه الظروف وزنها من خلال تفاعل الإنسان معها ولكن ليس لها الأولوية .

ويقرر التاريخ أنه لم يكن قط هناك عامل من العوامل الانسانية أقوى أثراً وأعظم من عامل الدين وكل ماعداه من الحركات المؤثرة فى حركات الأمم قاتما تتفاوت فيه القوة بقدار مابينه وبين العقيدة من المشابهة فى التمكن من أصالة الشعور ومواطن السريرة ، هذه القوة لاتضارعها قوة العصبية ولاقوة الوطنية ولاقوة العرف ولاقوة الأخلاق ولاقوة الشرائع والقوانين إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه أو العلاقة بينه وبين مجتمعه أو العلاقة بينه وبين نوعه على تعدد الأوطان والأقوام أما الدين فرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره ومن أنه يتسع لكل مافى الوجود من ظاهر وباطن .

أما التفسير المادى فليس أكثر من التسجيل لفترات الانتكاس فى حياة الشعوب عما يستتبعه الانتكاس من صراعات على كل المستويات وكان موقف الماركسية من العامل الاقتصادى بالذات موقفاً منحازاً لا علمياً .

الفصل السادس

تاريخ الاسلام فى مواجهة التحديات

فى مقدمة هذا البحث نقدم مجموعة من الملاحظات :

(١) أن المسلمون كانوا دائماً ينتصرون ويمتلكون زمام القوة والمنعة والتمكين فى الأرض عندما كانوا يطبقون المنهج الذاتى وينفذونه كنهج حياة ونظام مجتمع وأنهم كانوا يهزمون كلما تخاذلوا عنه أو قصروا فى الاعتصام به .

(٢) أن المسلمين فى الأعم الأغلب خلال تاريخهم هذا كله لم يتخلفوا عن تطبيق التشريع الاسلامى فى مجتمعاتهم إلا فى الفترة التى بدأت بالاحتلال الغربى الحديث لبلادهم ١٨٣٠ الجزائر و ١٨٨٢ مصر وتونس و ١٩١٨ باقى اجزاء البلاد العربية ماعدا الجزيرة العربية .

(٣) أن المجتمع الاسلامى فى حالة تطبيقه المنهج الاسلامى ليس حكما على هذا المنهج بل إن المنهج هو الحكم على المجتمع الاسلامى . وقد أثبت المنهج سلامته وعطاءه حين طبقه المسلمون تطبيقاً صحيحاً فى عصر الخلفاء الراشدين وفى عدد من العصور خلال حكم الدول المختلفة فلا عبرة بما يثار من شبهات حول دعوى عجز المنهج الإسلامى على تحقيق المجتمع الأصيل الذى تحقق بالفعل فى الأغلب الأعم والذى كان مصدر هذه النهضة الباذخة والحضارة الضخمة التى عمت العالم كله وأقامت مناراً العلم والعدل أكثر من ألف سنة .

(٤) إن محاولة إعلاء شأن التاريخ السياسى القائم على أمور الحكم والولاء والخلاف بين الأمراء والفرق هى محاولة باطلة يراد بها حجب حركة المجتمع الاسلامى النابضة بالحياة والقوة والقائمة على أساس مفهوم الإيمان العميق بالله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتطبيقاً للاسلام كنهج حياة ونظام مجتمع هذا المجتمع الإسلامى المضطرم بالحيوية والعمل والتجارة والبناء والذى قدم للبشرية تلك الاضافات الضخمة فى مختلف مجالات المدنية والعلم ولا ينقص من شأن هذا وجود جماعة محدودة من شعراء المجون أو الفرق الضالة أو أصحاب المؤامرات ضد الدولة الاسلامية من خصومها الباطنة والمجوسية وغيرها فإن هذه ظاهرة دائمة وقائمة فى تاريخ الأمم كلها لا تنتقص من قدر المجموع السليم المتحرك فى اتجاه التقدم والبناء .

(٥) إن الخلافات التى كانت بين الفرق الاسلامية سواء فى مجال السياسة الفقه أو غيرهما كانت خلافات فى الفروع دون أن تصل إلى القيم الأساسية التى كانت تلتقى عندها كل الجهات (هذا

باستثناء القوى المتآمرة الضالة) التى كانت معزولة تماماً وكان موقفها معروفا وكانت كل هذه الجهات معادية لها . وهنا يكون التفرقة واضحة بين الفرق الاسلامية وبين الدعوات الهدامة هذه الخطوط العامة لم تكن واضحة فى ذهن الذين حاولوا فى العصور الأخيرة كتابة التاريخ الاسلامى أو تقييمه عن طريق المناهج العلمى مجرداً من الهوى والخصومة والهدف المسموم يوحى بهذا ويؤكده اهتمام المستشرقين إلى دراسة أمرين :(أولهما) : الخلافات فى الاسلام .

(ثانيهما) : دراسة العامل الأجنبى فى الفكر الإسلامى . ففى الأول يجرى التنقيب عن تلك الخلافات السياسية بين الأمراء والحكام والتوسع فيها وترك الجوانب البناءة القوية . أى الاتكال على التاريخ السياسى الذى يدور فى دائرة ضيقة محدودة وتجاهل التاريخ الحضارة الذى يمثل المجتمع كله والاهتمام بشخصيات معينة أو خلافات معينة ومحاولة إعلاء هذه الشخصيات أو تلك الخلافات لتوسيع رقعة الخلاف بين المسلمين وإحياء الخصومات القديمة التى انطوت وانتهت بنهاية الأحزاب السياسية التى قامت عليها . وفى الأخرى : تجرى المحاولة للقول بأن هناك تأثير يونانى أو فارسى فى الفكر الإسلامى فى مجال الفلسفة أو الكلام أو الادب أو اللغة أو الفقه بتصيد خيوط رفيعة واهية لا يستقيم أمرها فى محاولة لإثبات (فضل) الفكر اليونانى على الفكر الإسلامى يمكن أن يوصف بأنه تبعية الفكر الوافد مع أن الاسلام حرر نفسه من آثار الفكر الوثنى القديم كله وكشف عن زيف هذا الأثر وأبان عن أصالته وقدرته على الحركة والتكامل بذاتيته الخاصة ، لم يكن : تاريخ الاسلام مطلقا ، تاريخ صراع على الحكم أو استبداد سياسى أو فتوحات وحروب من أجل الأسلاب والطموح الشخصى ، أو تاريخ فرق متصارعة وإنما تعددت المراحل بين القوة والضعف ، ولابد أن تكون هناك سلبيات محدودة بين الايجابيات الضخمة ، وإلا فن الذى بنى هذا المجد الباذخ والحضارة الضخمة التى عمت العالم المعروف كله إذ ذاك وتركت بصماتها فى كل مكان ، حتى على أوربا التى رفضت عقيدة الإسلام لم تستطع أن تحول دون منهج الإسلام التجريبى ومنهجه فى المعرفة والفكر حتى لا تجد لغة غربية واحدة ليس فيها تلك الألوف المؤلفة من ألفاظ المصطلحات العلمية وكلمات الحضارة .

(٢) يصور العلامة علال الفاسى التحديات التى واجهت تاريخ الاسلام بأنها قد عملت فى مجالين: (أولا) خلق نخبة من الباحثين والرواد لدراسة اجتماعيات وتاريخ البلدان الإسلامية وغيرها فى كل بلد يراد استعماره وقد تحمل هؤلاء وزر التكييف بالطريقة التى تقنع الرأى العام فى البلد المستعمر بضرورة تقبل التضحيات التى يتوقف عليها الاستعمار ومقدماته وإبراز أن البلدان المستعمره فى حالة من التقهقر المادى والمعنوى تستوجب الرحمة وتهيب بالبلاد الراقية لمساعدتها وجرها إلى حظيرة المدنية والديانة المسيحية وإلى إثارة روح الطمع فى النفوس بما فى هذه الأرض المراد فتحها من خيرات وأسواق وفى هذا الاتجاه يقع تحريف حقائق التاريخ وقلب أسسه ونتائجه وتكوين أدب لا يسع قارئه إلا أن يقبل ما يجده من معلومات وأفكار مادام غير مختص .

(ثانياً) تكوين الجهاز الاستعمارى الداخلى الذى يرمى إلى تضليل الفكر الأصيل عن طريق القضاة

والمرتزقة الذين يحاولون بشتى الوسائل وبالأسلوب الذى يليق بحاجهم أن يحفروا فى النفس كل ماهو أصيل من ماض أو حاضر ويرفعوا كل من قيمة كل ماهو المثل الأعلى عند المستعمر فاللغة والدين وأسلوب الحياة وطريقة المعاملة وهكذا يتحقق تثبيت النفوذ الاستعمارى فى الأرواح والنفوس والافكار لإدامة الإستعباد الجسمانى والاستغلال الاقتصادى .

وهكذا نجد أن الاستعمار والنفوذ الأجنبى الذى خلف الاستعمار سواء أكان نفوذاً أجنبياً غربياً أم ماركسياً أم صهيونياً فإنه قد ركز على التاريخ الإسلامى فى محاولة لإفساد وجهته ولاحتوائه والحيلولة بين الأمة الإسلامية وبين اتخاذه منطلق لبناء حياة حرة كريمة . وقد ركزت القوى الاستعمارية على مفاهيم بينما ركزت محاولات الماركسية على مفاهيم أخرى وكان الصهيونية جوانب أولتها اهتمامها : وقام الاستشراق فى كل جانب بالترويج لدعاوى أتباعه .

(٢) ومن أهم المحاولات التى جرى احتضانها بين التيارات الثلاث : مسألة الإتجاه العنصرى الذى أريد به تشويه حقيقة دور العرب الحضارى وقد قام بها المستشرقان فان فلوتن فى كتابه الدولة العربية وسقوطها وولهاوزن فى كتابه (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات) وقد تأثر مؤرخو الغرب ومستشرقوه بفكرة (جوبنيو) العنصرية التى أعلنها فى القرن التاسع عشر وحاولوا تطبيقها على التاريخ الإسلامى محاولين تصوير أحداثه على صورة نزاع حاد بين العرب الحاكمين والشعوب المحكومة من فرس وترك وبربر وغيرهم وحاولوا أن يظهروا تاريخ القرن الأول الهجرى وكأنه صراع دموى بين العرب وسكان البلاد المفتوحة وقد تأثر بهذا التفسير الكثير من المؤرخين ومنهم مؤرخون عرب حاولوا تطبيقه على مظاهر كثيرة من التاريخ الإسلامى فصورت حركة القرامطة والحركة البابكية على أنها انتفاضات قومية .

(٣) وهناك مستشرقون آخرون عمدوا إلى تطبيق المذهب المادى فى تفسيرهم للاحداث وكان همهم أن يجعلوا من أسلوب الإنتاج وصراع الطبقات فى تلك الفترة أساساً لظهور الحركات والظاهر المختلفة فى الشرق العربى والإسلامى مهملين كافة العوامل المتشابكة والفاعلة الأخرى من سياسية وروحية ونفسية وقومية واقتصادية واجتماعية .

وكان أبرز العاملين فى هذه التفسيرات المستشرقون الماركسيون ، فنجد مثلا المستشرق ضياء الدين بونياتوف فى كتابه (أذربيجان فى القرون السابع - التاسع) الذى أصدره عام ١٩٦٥ حيث كانت أذربيجان ضمن نطاق الدولة العربية الإسلامية وقد اتسم تفسيره للأحداث بطابع يستند إلى المذهب المادى المعروف وسار مؤرخون عرب على نفس الطريق فكان كتاب الدكتور حسن قاسم العزيز عن البابكية وانتفاضة الشعب الأذربيجانى ضد الخلافة العباسية مثالا على ذلك (ولاعجب فالدكتور حسن قاسم هو تلميذ المستشرق بونياتوف ولمذاهبه فى التفسير المادى .

(٧) هناك خطأ العجز عن التفرقة بين مبادىء الإسلام وتاريخ الإسلام فى النظر إلى التاريخ

الإسلامى ولا يوجد من يفكر أنه كان لنفر من تسنموا قمة السلطة بعد عصر الخلافة الراشدة مواقف تبعدهم عن « منهج الإسلام » ولكن منهج المستشرقين يقف موقف « التمويه » فيخلط بين سلوك هؤلاء الحكام وبين مبادىء الشريعة وهناك من قال إن نظام الحكم فى الإسلام نظام استبدادى ونسوا أن للاسلام مبادئه الواضحة التى تقييم العلاقة بين الحاكم والمحكوم لمصلحة المحكوم ، ومع أن توماس ارنولد فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) كان منصفاً إلا أنه فى كتابه عن الخلافة يقع فى هذا الإنحراف الشديد ويخطىء فى نسبة الاستبداد إلى الإسلام حين يقول :

« والخلافة التى عرفت هكذا كانت حكما استبدادياً يضع قوة غير محدودة فى أيدى الحاكم ويطلب طاعة مطلقة من رعاياه ثم يحاول أن يبرر لماذا كانت الخلافة الإسلامية استبدادية فينسب إلى الملكية الفارسية التأثير فى الخلافة الإسلامية بعد أن قضى العرب على سلطان الدولة الفارسية فيقول : ربما كان طابع الخلافة الإسلامية الاستبدادى من تراث الملكية الفارسية كما حازت الجماعة الإسلامية ممتلكاتها لأن المجتمع العربى قبل الاسلام لم يعرف قط أى تشكيل من هذه النظم السياسية ولم يتجانس مع عقيدة القرآن فى تساوى جميع المؤمنين » ، ثم يحاول أن يستدل على إدعائه أن الخلافة (أى رئاسة الدولة) تنزع الاستبداد بأحاديث رويت عن رسول الله تبين أن طاعة الأمير من طاعة الرسول وتأمر بالسمع والطاعة لرئيس الدولة وإن ظلم ، ويركز على هذا المعنى مرجليوث وماكدونالد وموير وقد رد على هذه الشبهة الدكتور ضياء الدين الريس فقال : إن الإنصاف يقتضى أن يقال أن القرآن تعاليمه الواضحة التى توجب تساوى جميع الناس فى جميع الحقوق فإذا ماقامت رئاسة لاتتفق مع هذه التعاليم التى جاء بها القرآن فهى التى لا تنطبق عليها الصفة الإسلامية ولايستطيع أى طاعن أن يطعن الشريعة الإسلامية حينئذ فى سموها وكفالتها لجميع الناس التساوى فى جميع الحقوق . وإذا لم تتفق هذه الرئاسة مع تعاليم القرآن فإنه لايصح القول بأن هذه الخلافة خلافة إسلامية لأنه إذا كانت قد صادمت تعاليم كتاب الله الذى هو دستور الدعوة الإسلامية فهل يصح أن ينسب إلى الإسلام ماهو متصادم مع دستوره .

(٣) ويتمثل التحيز الشديد فى تفسير الإسلام فى كتابات أرنولد توينبى . فقد حاول توينبى أن يصور المجتمع الاسلامى وكأنه امتداد للمجتمع السريانى وأرجعه إلى عناصر الآشوريين والفينيقيين والآراميين والإيرانيين وقال إن الإسلام هو الاستجابة الوحيدة الناجحة التى قام بها المجتمع السريانى ليزحزح عن صدره طغيان الهلينية عليه وتحديها الكابح له . وهكذا عجز توينبى أن يفهم الأصول الجديده التى قام عليها المجتمع الإسلامى متكولاً من جديد على مفهوم التوحيد الخالص ، وإن الاسلام قد صهر هذه العناصر جميعها وصاغها صياغة جديدة وأنه أخرج أهل هذه المجتمعات من الوثنية إلى التوحيد ومن العبودية البشرية إلى الاخاء الإنسانى . ومن أخطاء توينبى قوله إن الهجرة من انحدار الاسلام واعتباره البهائية والقاديانية حركتان إسلاميتان ومن ذلك دعوته إلى تبعية الشرق الاسلامى لموكب الحضارة الغربية .

(٤) كذلك جاءت فكرتى القومية والعالمية بمثابة تحديات أو خطران يراد بهما هدم

الرابطة الإسلامية ، فبدأ القومية يستهدف العنصرية ومبدأ العالمية يستهدف القضاء على الذاتية الإسلامية والدعوة إلى كليهما قد سارت فى خط واحد من أجل معارضة مفهوم الاسلام الذى دعا إلى وحدة فكرية واجتماعية بين أمة تعلو على العنصر والقومية والدم ، ولقد جاءت دعوة القومية بتعريفاتها تستهدف إيجاد الصراع بين العرب والفرس والترك وهم جميعاً مسلمون ويستهدف إعلاء شأن التاريخ الاقليمى وذلك بإذاعة دعوات الفرعونية والفينيقية والبابلية والاشورية وكلها موجات سابقة للاسلام وانبعاثاً لعهود مضت وقضى الاسلام عليها حين صهرها فى بوتقة الوحدة الاسلامية .

كذلك فإن مبدأ العالمية الذى طرح على المجتمع الإسلامى إنما أريد به صهر المسلمين وهم فى مرحلة المقاومة والمجاهدة والمواجهة النفوذ الأجنبى فى القوى العالمية للقضاء على ذاتيتهم وشخصيتهم الخاصة المتميزة ، ولقد كانت محاولة تفسير التاريخ الاسلامى تفسيراً قومياً من أخطر محاولات التغريب والغزو الثقافى وهى ترمى إلى وضع (الاسلام) فى بطن (العروبة) أو (القومية) وهى نظرية مادية لا تثبت الواقع التاريخى ولا تصدق فى الفهم المجرد وكيف يمكن أن يوضع الاسلام وهو المنهج الربانى المنزل من السماء والذى غير وجود البشرية فى إطار العروبة أو القومية وهى مفهوم بشرى فضلا عن أن العرب لم يكن لهم وجود قومى حقيقى إلا بالاسلام فالاسلام هو الذى بنى الأمة العربية وجودها وفكرها وكيانها وحركة مجتمعها فمن العجب أن يوضع فى إطار العروبة ويقول البعض أنه إنجاز عربى .

ويقول الدكتور يوسف القرضاوى : إن تفسير تاريخنا الاسلامى تفسيراً قومياً يقوم على عصبية عروبية تنبذ الصفة الاسلامية من أجل إرضاء نزعة عرقية . ومن ذلك أنهم يعتبرون قضية فلسطين قضية عربية لتنحصر فى إطار ضيق وقد أدى التعصب بالقومية إلى إهمال الاخوة الاسلامية فى صراعها ضد الوثنية والصهيونية والصليبية وقد تسرب هذا المفهوم من الفكر العلمانى الغربى ، ومن ذلك تسميتهم الحضارة الاسلامية بالحضارة العربية ووصف الفتوحات الاسلامية بأنها فتوحات عربية ، وتسمية علماء المسلمين على اختلاف أجناسهم ونحلهم عربا وإن كان من بينهم أبى حنيفة وابن سينا والرازى والبيرونى وهذا تحريف تضافرت على نسج وقائعه جهود أفراد غير عرب رضوا بالاسلام دينا وعقيدة لهم والتفسير القومى فى حد ذاته مناقض للحقيقة التاريخية ومناقض لعموم الرسالة التى لا تعترف بالحركات الطبيعية وهى محاولة لتركيز العرف على العامل القومى بينما العامل العقدى أعظم منه ولاريب أن القرآن قد أحدث تغييراً ملحوظا فى الألفاظ العربية والاستعمالات والأداء ، والحضارة الاسلامية هى التى جعلت المسلمين قادة الدنيا وهى ليست حضارة العرب وحدهم . ولقد كون الاسلام رجاله عرباً وعجما تكوينا نفسياً وعقلياً فصدروا فى حركتهم التاريخية على هداه وسنته. ولم يكن الاسلام مناقضاً للمقومات الجنسية لكل أمة من الأمم وشخصيتها النابعة من التطورات المختلفة عبر القرون ، وبالعكس فقد عمل على الحفاظ على الكيان الخاص لكل أمة دون أن تتعارض مع المفهوم الاسلامى الجامع .

وكذلك فإن محاولة التفسير القومى تزيف المفاهيم حين تزعم أن النبى محمداً ﷺ إن هو إلا بطل من أبطال العرب ، وأن الاسلام مجرد تعبير عن مكان عبقريتهم واختراع من اختراعاتهم .

وقد نبه باحثون غربيون كثيرون إلى أولية الاسلام وعمق جذوره وفساد هذه المحاولة حيث قال ويلفرد كانتول سميث : إن تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة للأمة للنهوض والبناء ومالم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه فلن تثمر الجهود.

وهكذا نجد أن النزعة القومية نزعة غير أصيلة وليست صحيحة ، وإنما جرى معها المسلمون سواء أكانوا عرباً أم فرساً أم تركا فى هذه السنوات الأخيرة متابعة للتيارات الغربية فى كتابة التاريخ وقد بلغوا منها مبلغاً شديداً عندما مزقوا التاريخ الإسلامى مرتين مرة بجعله عربياً ومرة أخرى بجعله إقليمياً وقومياً ضيقاً وكانت محاولة انتزاع تاريخ أقليم أو قطر من تاريخ الاسلام عملية شديدة التزييف والخطأ والفساد لأنها تلتمس وسائل مصطنعة وهى عاجزة عن انتزاع جزء من التاريخ من مجرى هذا التاريخ الإسلامى العام الذى يحمل البواعث ويحمل المقدمات ويحمل الوسائل ويحمل التحديات ويجىء ذلك التاريخ ناقصاً وزائفاً لأنه غير مرتبط بأصوله وخيوطه العامة الممتدة إلى أكثر من أربعة عشر قرناً ، وقد كان من أخطر أساليب هذه الدعوة حجب الأخلاق الإسلامية الثابتة وإحياء التقاليد الشعبية والعادات الوثنية المتوارثة والإستعلاء بالفرعونيات والفينيقيات على مابها من زيف والتغنى بها بينما لايوجد فى تاريخ العرب أو المصريين أو الشوام أو المغاربة أعظم أثراً من الإسلام الذى صنع حياتهم من جديد فضلا عن أن الإنقطاع الحضارى بين ما قبل الاسلام ومابعده هى حقيقة لاريب فيها وقد تبين أن الهدف من الدعوة إلى القومية حجب التاريخ الاسلامى كله والحيلولة دون أن يكون المضمون الاسلامى هو عماد الحاضر والمستقبل والادعاء بأن هناك فكر مصرى أو عربى منفصل عن الاسلام ، ولقد سقطت هذه الدعوات وانهارت فى السنوات الأخيرة بعد أن تبين هدفها من محاولة إخراج التاريخ الاسلامى عن طريقه الأصيل بالتفسيرات القومية أو الماركسية أو الغربية المادية وبعد أن تكشف فساد نقل واقتباس الأنظمة الغربية أو الماركسية فى أفق المجتمع الاسلامى وضرورة التماس منهج الاسلام الأصيل لمنطلق حقيق لبناء النظام الجديد .

ولقد كان من هدف التغريب والغزو الثقافى عن طريق الارساليات والتبشير والاستشراق إشاعة هذه المذاهب المتعددة قومية وماركسية ومادية لاثارة الاضطراب والبلبلة والحيلولة دون جمع العرب والمسلمين على وحدة تدفعهم إلى الطريق الصحيح .

وقد جرت محاولات التغريب والاستشراق إلى استخدام التاريخ فى سبيل الدعوة إلى الأقليميات والقوميات الضيقة أو إلى الشيوعية أو الشعوبية لاثارة الأحقاد والفتن أبناء الأمة الاسلامية الواحدة وإحياء الدعوات الباطنية والطائفية والطبقية والفرق الضالة من جديد لتمزيق وحدة هذه الأمة ودفعها إلى التناحر والصراع ، ولقد آن للعرب والمسلمين أن يتنبهوا إلى الخطر الذى يأتيهم من محاولة تفسير تاريخهم عن طريق واحد من هذه المناهج، إنما الهدف هو تمزيق الجبهة الواحدة ولقد كان هذا من أخطر ما مارسته القوى الاستعمارية ما تزال تعمل به لتعميق الفرق وبعثرة القوى بالدعوة إلى الاقليميات والقوميات وتفسير التاريخ تفسيراً ماديا أو ماركسيا وسيظل الدعوة على جمع الشمل الوحدة والتكامل

الجامع . عاجزة ومضطربة ما لم تكشف فساد هذا الاتجاه وتدمغه وتلتمس الأصالة ولقد كانت التجربة واضحة غاية الوضوح بعد ذلك الصراع الطويل .

(أولا) : لقد عجزت مناهج الشرق والغرب جميعاً عن استيعاب النفس العربية الاسلامية .

(ثانياً) : أن المنهج الذى طرح عن القومية منهج غربى مجافى لمفهوم الاسلام لأنه يفصل العرب عن غيرهم ويفصل العرب عن الاسلام ويفصل المجتمع عن روح الدين والخلق .

عصارة البحث

(أولا) التاريخ هو صورة تحقيق خلافة الإنسان فى الأرض وتعمير الكون والحياة فى هذه الأرض بالنسبة للانسان فترة اختبار يمتحن فيها بشتى الوقائع المضادة ليحتل مكانه الجدير به فى تطبيق منهج الله ومقاومة القوى التى تريد إفساد الأرض وتدمير المجتمعات وعلى الانسان أن يثبت أنه على مستوى الامتحان وأنه أهل للأمانة الملقاة على عاتقه .

(ثانياً) غاية التاريخ الإسلامى الوصول الى قيام المجتمع الربانى فى الأرض والتمكين له ، على أساس الاطار الانسانى والعدل والرحمة ، والتاريخ الاسلامى هو الثمرة الصحيحة للتاريخ الانسانى عن طريق بناء المجتمع الربانى وعصارة تجربة النبوة والتاريخ بالنسبة للحاضر : هو معرفة الظروف التى كونت هذا الواقع ولذلك فإن علاج هذا الواقع لا يتحقق إلا إذا تعرفنا على العقبات لمواجهتها والتمسنا للمسار الأصيل، ذلك أن فهم الماضى ضرورة لادراك الحاضر ، وأن تكوين الوعى التاريخى ضرورة لفهم مشاكلنا الحاضرة .

(ثالثاً) ليس هناك حتمية تاريخية تقود الانسان إلى مصيرها فأعمال الانسان المختارة هى السبب فى صنع التاريخ وهو المسئول عن حركته وليس مجرد حتمية القوانين ساذجة محددة تنطلق به من مرحلة إلى مرحلة ومن هنا فالتاريخ هو حركة الانسان فى الحياة ولقد تبين فساد رأى الماديين الذين أرادوا أن يدخلوا التاريخ فى نطاق العلاقة الطبيعية وزعموا أنهم يستطيعون التحكم فى مجراه على هذا الأساس ووضع قواعد عامة لتتحكم فى مجراه وتحدد اتجاهه . ذلك لأن كل جماعة من البشر تواجه الظروف الجغرافية والتاريخية والبشرية والمشاكل على نحو مختلف . ومن ثم فانه لا يمكن التحكم فى سير التاريخ لأن مادة التاريخ هى الانسان والانسان يتميز بخاصتى الذكاء والشخصية ولما كان الذكاء لا يمكن قياسه أو التحكم فيه ولما كانت الشخصية تختلف من إنسان إلى إنسان فإن من شأن هذا أن يدحض فكرة إخضاع التاريخ للمناهج المادية والتجريبية .

(رابعاً) الصراع يجرى فى التاريخ بين قوتين : قوة الحركة الربانية التى تمثل الجماعة التى صنعتها النبوات

وقوة الشر التى تمثل الجماعة التى صنعها الفكر البشرى القائم على الوثنية والمادية والاباحية ، والصراع سمة مرحلة الانهيار والأفول ومنها يفقد الإنسان القدرة على الحركة نحو الأصالة والتقدم وهو ليس السمة العامة المسيطرة على حركة التاريخ كله ، أما الحياة والمجتمعات وحركة الكون كله فإنها تسير على طريق التعاون والتكامل بين العناصر المتعارضة وليس عن طريق الصراع ، وأن التقاء السالب مع الموجب هو تكامل لا تناقض .

(خامساً) كل تفسير للتاريخ يكتفى بالتعويل على جانب واحد من النفس الانسانية فهو تفسير ناقص ، وأن أصدق تفسير للتاريخ وهو الذى يدرك الجوانب الإنسانية وينظر إلى الحياة الإنسانية من مختلف جوانبها ، كذلك فإن تقسيم التاريخ الاسلامى على مفهوم التاريخ الغربى وعصوره تقسيم خاطىء وأبرز هذا الخطأ اعتبار العصور الوسطى هى عصور ظلام مع تجاهل أن العالم الاسلامى فى هذه العصور كان يحمل لواء الحضارة . ومن الخطأ القول بأن هناك حضارة واحدة هى الحضارة الغربية وأنها امتداد الحضارة اليونانية الرومانية وكذلك خطأ تقسيم شعوب العالم إلى فئات وأجناس وإعلان نزعة العنصرية فى الجنس الأبيض أو شعب الله المختار .

(سادساً) خطأ فهم الاسلام على أنه دين صلاة وصوم وحج ، أو أن القرآن كتاب عبادة وتراتيل وخطأ دراسة حياة الرسول منقطعة الصلة عن تأثيرها فى التاريخ الاسلامى على مر العصور وخطأ التركيز على المتاعب التى استهدف سوء القصد وسوء الفهم ، كذلك لا يمكن فهم التاريخ الإسلامى فهماً واقعياً نقيا دون معرفة عقيدة الإسلام وشريعته ولا يمكن فهم التاريخ الإسلامى إلا بالتفرقة الواضحة بين منهج الاسلام وبين تاريخه .

(سابعاً) ليس تاريخ الإسلام تاريخ حروب ولا تاريخ مناورات سياسية ولم تكن حروب الاسلام بمعنى الغلب ولكن بمفهوم الجهاد فى سبيل الله وغايته السامية .

ووحدة تاريخ الاسلام واضحة فهو متصل الحلقات يصب ماضيه فى حاضره ويمهد لمستقبله وتاريخ الاسلام لم يفقد خلال أربعة عشر قرناً عنصر الوحدة والاتصال يوماً واحداً .

(ثامناً) لقد تبين فساد التفسير المادى الذى يحاول أن ينفى عن الاسلام طبيعته الربانية ، وتشوهه فى نفوس أهله ، ولم يصدق القول بأن الفتوحات الاسلامية دوافع اقتصادية فقد حفل تاريخ الاسلام بالقادة الذين لا يذكرون أسماءهم ، والذين استشهدوا دون أن يتركوا ما يورثون والذين كانوا فى معاركهم أقل عدداً وعدة وتنظيما وإمكانيات وتدريباً والذين تركوا كل ما يملكون فى مكة لقريش والذين أقسموا ما لديهم مع إخوانهم المهاجرين والذين قدموا أنفسهم وأرواحهم فى لظى المعارك والذين ردوا الجزية لأهل حمص عندما انسحبوا منها ، والذين عبروا نهر دجلة أيام يزدجرد ولم ينتظروا نقصانه .

وليس فى التاريخ الاسلامى موجه كإحدى الموجات الأخرى فى التاريخ وليس الاسلام دعوة أدت دورها أو استنفذت أغراضها وتلك النماذج الفاخرة قد صنعها الاسلام ولم تصنعها البيئة أو العرق .

لقد كان انتشار الاسلام هو اللغز الذى أدهش المؤرخين ، وعجز عن فهمه المستشرقون ، فقد جاء دون تفوق فى العدد أو العتاد وخفى سره ، وسره هو الايمان بالله الذى بعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، وهو الايمان بأن الله قد ضمن لهم النصر وعدم الشهادة فوثقوا بنصر الله واندفعوا يحطمون القوانين المادية فأدهشوا العالمين .

الرسالة الثالثة

الدعوات الهدامة

مدخـــــل :

لفت القرآن الكريم أنظار المسلمين إلى الدعوات الضارة . والمذاهب الهدامة ، ووضع الأسس الثابتة لمواجهة الشبهات ، وكشف عن مخططات الاحتواء والتبعية ، وتحريف الأصول الثابتة ، ونبه المسلمين إلى الحذر عن متابعة غير المسلمين والتماس ماعندهم ، « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق » .

« يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل » .

كذلك كشف الله حقيقة موقف البشرية من العلم ، وكيف خالف فيه قوم ، والتمسوا منهجاً غير منهج الله ، « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .
ولقد كانت محاولات الدعوات الهدامة منذ قديم جارية إلى هدفها المرسوم لإثارة الشبهات ، وتزييف الحقائق ، والهدم عن طريق مذاهب ، لها بريق العلوم وأسماؤها . وهى فى مجموعها تقوم على أساس إدخال السموم والزيوف إلى الفكر البشرى لنقله من ربانيته ، وطابعه الإنسانى ، ومصادره التى جاء بها الأنبياء . وكتب السماء إلى تلك المخططات التى رسمتها التلمودية ، منذ قديم ، وأقامتها على أساس الوثنية والمادية جميعاً .

وفى العصر الحديث ظهرت علوم تحمل هذه الشبهات ، وتحاول أن تفرضها كمقررات علمية . فقد استطاعت هذه القوى أن تدس عن طريق علم مقارنة الأديان مايراد به تزييف حقيقة الدين وتاريخه كالقول بأن البشرية كانت وثنية ، ثم تطورت إلى التوحيد . كما استطاعت أن تدس عن طريق علم الأجناس البشرية مفهوماً يقضى بإعلاء العنصرية والدماء . ويحطم قاعدة الاسلام الأصيلة القائمة على وحدة الجنس البشرى وهناك نظريات متعددة تطرح لمعارضة الدين أصلا ، وهدم التوحيد ، ومذاهب تستهدف هدم الأخلاق والأسرة عن طريق مناهج المدارس الاجتماعية ، وهناك التفسير المادى للتاريخ وهناك نظريات فرويد فى الجنس ، ونظريات ليفى بريل فى نسبية الأخلاق .

وبالجملة ، فهناك محاولة ضخمة إلى نقل الفكر البشرى من مجال أصالة الفطرة ، ومنطق العقل ، وطريق التوحيد ، وطابع الإيمان إلى مجال الإلحاد والإباحة والوثنية والمادية وهى دعوات تستمد أصولها من مخططات بروتوكولات حكماء صهيون ، التى هى الصورة المستحدثة لمخططات التلمود ، من عجب أن القرآن قد كشف عن هذه المحاولة الخطيرة بأكملها ، وأبان عن تلك الجماعة التى فرضت على البشرية فكراً مضاداً للفكر الربانى المصدر ، الانسانى الطابع ، وشكلت محتوى ، ومفهوماً ، وفلسفة كاملة ، وقد جاءت الرسالات تترى لتصحيح هذا المفهوم ، وكان الاسلام هو خاتم الرسالات فى تحطيم هذه المفاهيم ، والكشف عن زيفها على نحو صريح قائم على البرهان الحق ، وهو هدى صحيح وضوء كاشف لكل من يلتمسه ، وتجرى الآن محاولة (اليهودية التلمودية) فى نطاق النهج الذى حملت الدعوة إليه على مدى العصور فى معارضة الفطرة ودعوة السماء . وفى محاولة إخضاع العالم كله للنهج الربوى : (عالمية الربا) . وهو الآن يأخذ طريقه إلى النفوس التى جهلت الحق وعشيت عن نوره الكاشف .

ولقد اختار الله المسلمين ليحملوا الكلمة المؤمنة الربانية فى وجه هذا الباطل ، وعليهم مسؤولية دحض هذه الشبهات ، وإليهم أمانة الدفاع عن الحق ، وكشف الزيف ، جيلا بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، ولاريب أن هذه الدعوات الهدامة قد سيطرت على الفكر الغربى ، وأوشكت أن تحتويه ، وهى اليوم تواجه الإسلام ، طمعاً فى أن تسيطر عليه ؛ ولكن الاسلام بمفهومه الصحيح ، وكتابه الموثق وصموده أمام الأحداث ، ومواجهته الصلبة لكل فكر وافد ، أو مذهب زائف ، سيظل قادراً على أن يرد الخطر ، ويكشف وجه الحق ، ويبطل الباطل ، ولاريب أن الفكر التلمودى المادى الوثنى فكراً مراوغ براق ، يحاول أن يضع أكاذيبه وأضاليله داخل مناهج علمية ، ولكنه مهما خدع بعض البسطاء فإنه لن يستطيع أن يثبت أمام صولة الحق !

وإن نظرة واحدة إلى هذه المذاهب لتكشف عن أنها مفاهيم قديمة وثنية من ركام الفلسفات الهلينية والغنوصية والمجوسية ، ومايتصل بها من السحر والأساطير ، تحاول أن تصاغ فى أسلوب براق ، وأن هذه الدعوات وجدت طريقها حين عجز الدين فى بيئات الغرب عن العطاء . وحين انفصلت الأخلاق عن الدين ، وضاعت مفاهيم الالتزام الأخلاقى والمسؤولية الفردية . هذه النظريات التى كشفت السنوات الأخيرة عن بطلانها . فقد كان لتحول الأحداث أبعد الآثار فى جمودها ، واضطرابها مما دفع أصحابها إلى إعادة النظر فيها ، وتجديدها ، فقد تصدعت الفرويدية والماركسية والوجودية والهلينية لأنها قامت على أصول غير صحيحة ، ومضت مضادة للتيار ، ومعارضة للفطرة ، وقد فات الذين طرحوا هذه المذاهب فى البيئات الاسلامية أن يعلموا أن هذه الدعوات إنما نشأت فى بيئات خاصة بها ، ومن خلال تحديات مختلفة ، ومن هنا فإنها لا تصلح لبيئات أخرى ، وأن العقيدة الإسلامية لها قيمها الأصيلة التى تعارض فصل الدين عن الأخلاق ، والتى تنكر أن الانسان مادة فقط ، والتى تفرق بين قوانين البشر وقوانين الله . وتفصل بين الله وبين البشرية والعالم وتنكر الوساطة بين الله والناس . ولا تقر إسقاط التكليف عن أى مسلم مهما بلغ من درجات الإيمان ، ولا تقبل الدعوة إلى صراع الأجيال ، أو

إطلاق الحرية من جميع ضوابطها ، أو معارضة عالم الغيب والبعث والجزاء . وترى أن هذا كله إنما يراد بالبشرية لتحطم الجدار القوى الذى تستند إليه فى علاقتها بالله والدين الحق بما يسلمها جيلا بعد جيل ، إلى السقوط فى أحضان استعباد خطير . وعبودية للمخططات التلمودية المتطلعة إلى السيطرة على العالم بعد تحطيم قيمه وأخلاقه ومقدراته.وتلك أخطر المخططات التى تجتاح البشرية والتى طرحت فى السنوات الأخيرة عشرات الدعوات والمذاهب والفلسفات المضللة الهدامة . وكلها تقصد الإسلام اليوم . فهو القوة الوحيدة التى تستطيع أن تصمد فى وجه الإلحاد والمادية ، والوثنية ، والإباحية ، والمسلمون مطالبون دائماً باليقظة والمواجهة . والتصدى لكل القوى التى تحاول أن تفت فى عضدهم ، أو تفسد مقوماتهم ، أو تحطم معنوياتهم . وأول علامات اليقظة هو فهم هذه الدعوات،ومعرفة موقف الإسلام منها ، وهذا ما نرجو أن نحاوله فى هذه الدراسة المتواضعة .

مصادر المذاهب الهدامه

(١) الغنوصية : الفلسفة الشرقية القديمة (٢) تحريف العقيدة السبئية

(٣) المذاهب الهدامة والإلحاد (٤) الله فى مفهوم الإسلام

(٥) عقيدة البعث .

أولا : الغنوصية

الفلسفة الشرقية القديمة

الغنوصية : مصطلح للفلسفة الشرقية التى كانت قائمة قبل نزول الإسلام ، وتقوم فى مجموعها على فهم بشرى ، يشكل نظرية مختلطة من عدة مذاهب وعقائد ، ومعارضة كل المعارضة لمفهوم الإسلام والتوحيد القائم على أساس الفطرة . وتتألف الغنوصية — التى هى إسم على المعرفة « Gnoso » من مذاهب متعددة : منها المجوسية والمانوية والزرادشتية والديصانية والمزدكية ، والصندائية ، والمرقوية ، وتجمع فى مقاصدها :

١ — عبادة النار وتقديسها . ٢ — افتراض وجود إلهين : إله خير وإله شر ،أو نور وظلام.

٣ — استباحة المحرمات ، والدعوة إلى شيوعية النساء والأموال . وإباحة نكاح الأخوات ، والاغتسال بالبول . ٤ — رفض الذبائح ، ورفض إراقة الدماء ، والزهد فى أكل اللحوم . وفى مس الماء الطهور . ولا ريب أن الفكر الشرقى القديم الذى ظهر عن المصريين والفرس والآشوريين والبابليين والهنود والصينيين ، والذى قام على مفاهيم وثنية وثنائية ومثلثة إنما هو حصيلة التضارب الذى وقع بين الفكر الإنسانى الربانى المصدر الذى جاءت به الرسالات والأديان السماوية، وبين مناولاتهم

الفكر البشرى للخروج عن الضوابط والحدود والقيم الأخلاقية والشرائع التى شرعها الحق تبارك وتعالى لعباده ولذلك فإن من أخطر ما يقوله باحث من الباحثين : أن البشرية بدأت وثنية ، ثم عرفت التوحيد بنزول الأديان الثلاثة : اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام . وقد سجل القرآن خطأ ذلك فى قوله تعالى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » وقال تعالى « وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » وتمثل الغنوصية فى الفكر الشرقى القديم مكانة الهلينية فى الفكر الغربى الحديث . وقد قامت الغنوصية على مفهوم الإشراق والمعرفة عن طريق الروح والبصيرة ، بينما قامت الهلينية على مفهوم العقل والمعرفة عن طريق المنطق . وإن من يقرأ عصارة الفكر البشرى وحصيلة التراث القديم يرى كيف تراكمت آراء ونزعات متضاربة فاسدة غاية التضارب والفساد ، تقوم على الإباحة والشك والضلال والاضطراب .

فالدهرية : تقول بقدم العالم ، وإن العالم بلا إله ولا صانع والطبيعة تقول بأن التراب والماء والنار والهواء هى أصول كل شىء والثنوية تقول : إن صانع العالم إثنان : الخير والشر . أو النور والظلام وهما قديمان . والبرهمية : تقول بتعظيم النار ، والنهى عن قتل الذبائح ، وإباحة الزنا . وتقول بالتناسخ والتثليث والتجسد (التناسخ) : إنتقال الروح من جسد إلى جسد (التجسد) : إنكار وجود الله والآخرة لأنهما غير محسوسين والفلاسفة تقول بإنكار بعث الأجساد ، ورد الأرواح إلى الأبد والصابئة تقول بعبادة الملائكة واعتبارها آلهة .

والمجوس تقول بعبادة النار ، والصلاة إلى الشمس ، ومنع الاغتسال بالماء تعظيماً له واستعمال بول البقر بدلا منه وقد أخذت الدعوات الهدامة من المذاهب الضالة . فأخذ القرامطة مشاعية النساء والأموال التى دعا إليها مزدك. وأخذت الباطنية إنكار البعث والجزاء . وأخذت السبئية الوصاية والرجعة وهكذا وإن أخطر ما تحمل هذا المذاهب من معارضة للإسلام : هو إلغاء التكليف . وإلغاء الإلتزام الأخلاق . والدعوة إلى إسقاط فرائض الإسلام . وإباحة ارتكاب المحرمات . والإغراق فى الملذات ، والقضاء على الفوارق الواضحة بين الخير والشر ، والتقوى والإباحة ، والفضيلة والرذيلة .

وقد استعرض الدكتور على سامى النشار مفهوم الغنوصية وقارعها . فأشار إلى أن كلمة Gnoso (غنوص) إنما تعنى المعرفة . غير أن الكلمة لم تلبث أن اتخذت معنى إصطلاحياً خاصاً هو : الاتجاه نحو التوصل إلى المعارف العليا بنوع من الكشف . أو محاولة تذوق للمعارف الإلهية تذوقاً مباشراً بأن تلقى فى النفس إلقاء : وأشار إلى أن الغنوص هو عصارة مذاهب فارسية وسريانية . وأفلاطونية . وفيثاغورثية . ولها اتصال بالمسيحية . واليهودية . والزرادشتية . والمانوية . يقول الدكتور النشار :

وقد قاومت المسيحية هجوم الغنوص مقاومة عنيفة ، ولكن الغنوص استطاع أن يغزوها غزواً عظيماً ، فسيطر على طائفة من أعظم المفكرين فى مقدمتهم القديس أوغسطينوس . أما الإسلام فقد واجه غنوص الزرادشتية والمانوية والثنوية . وقد ظهرت هذه العقائد فى شكل طوائف خاصة . دعت

باسم الباطنية أو الغلاة أو القرامطة ويشير الدكتور النشار إلى أن الغنوص استطاع أن يلقى بظله على الفلسفة وخاصة الفلسفة الصوفية فيما يتصل بنظرية الفيض . أو العقل الأول . أو النور ويعد الحلاج والسهروردى المقتول من ضحايا الغنوصية وتجاوز مفاهيم الإسلام فى البحث عن مثل أعلى للحياة الانسانية يستند على التعامل الباطنى بعيداً عن منهج الاسلام فى المعرفة المستمدة من القرآن .

(١) إحياء الباطنية القديمة

كان لابد من إحياء الباطنية القديمة لأداء نفس الدور الذى قامت به ، وقد أخذت الدهرية من الباطنية القديمة تمردها على الاسلام ، وأضافت إليه ما توصلت إليه أساليب البحث من قدرة على تزييف الوقائع وطلائها بالبريق الذى يخطف الأبصار . بما يحقق نشر الإلحاد والإباحية تحت ستار العلمانية والمعروف أن الباطنية القديمة ، قد وضع جذورها يهودى قديم مشهور ، هو عبد الله بن سبأ . الملقب بابن السوداء الذى قال بحلول الإله فى بعض عباده ، ورجعتهم بعد موتهم الظاهرى . ومن ابن سبأ تشعبت فرق الغلاة ثم تبلورت الأفكار الباطنية فى القرن الرابع على أيدى فلول المجوسية المنهزمة، وتشعبت إلى فرق متعددة تربطها غاية واحدة هى القضاء على الإسلام . وشريعته الخالدة .

وإن أخطر ما طرحته الباطنية ـ وما تزال تطرحه المذاهب الهدامة، هو (التأويل) الذى يؤدى إلى تعدد وجهات النظر ، وتباين الآراء دون الاستناد إلى قاعدة معلومة وهذه تتبع الأهواء والرغبات التى يضيع معها الحق ، أو تشوه معالمه : وكان ضرر الباطنية على الاسلام أكبر من ضرر أعدائه الصرحاء وذلك أن الباطنيين أباحوا لأتباعهم جملة الملذات والشهوات ، وأسقطوا عنهم فرائض العبادات كما أباحوا لهم، وقد تأويل أركان الشريعة قبل علماء المسلمين من مترجمات اليونان علوم الطبيعيات والرياضيات وعارضوا الإلهيات والميتافيزيقا اليونانية . وقالوا : إن لنا علمنا فى هذا المجال ولسنا فى حاجة إليها .

وقد ثبت أن هذه الإلهيات ليست سوى (علم الأصنام عند اليونان) وأنها عصارة مفاهيم الوثنية القومية وقد ترجموها إلى لغة الفلسفة ، وأضافوا عليها صيغة من الفن . وما العقول والأفلاك إلا رموز الوثنية الإغريقية القديمة . وما أفعالها وحركاتها وتصرفاتها ، إلا عقلية توارثتها الأجيال عندهم ، ووثنية تعارض التوحيد ، وتحل محل عقيدة الصفات الإلهية .

ومن خلال هذه المفاهيم عن الإلهيات اليونانية . جاءت معارضة التوحيد والنبوة ، والوحى ، والبعث ، والجزاء . وهى الأصول الأصلية للإسلام والتى يعد من يجحدها خارجاً عن الدين . وقد اتخذ خصوم الاسلام والعرب والدولة الاسلامية من إذاعة الإلهيات اليونانية وسيلة إلى هدم الدين على طريقة (الهدم من الداخل) المعروفة . ذلك أن إسقاط التكليف وإنكار المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاق والجزاء الأخروى من شأنه أن يفتح الباب واسعاً أمام حرية الشهوات واللذات والدعوة إلى الإباحية ، وعبادة الجسد . وقد كانت هذه هى الأعلام التى رفعتها الدعوة الباطنية ،

بكل عناصرها ، وتحت أسمائها المختلفة المتعددة . وقد اتخذوا لهدفهم مدخلا زائفاً حين قالوا : إن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات . ولا سبيل إلى غسلها أو تطهيرها إلا بالفلسفة يقول العلامة أبو الحسن الندوى : «شعروا بأن الاسلام لا ينهزم فى ميدان الحروب ، وأن المسلمين لا تصح دعوتهم إلى الإلحاد السافر ، فإن هذا يلهب غيرتهم الدينية . لذلك اختاروا الوصول إلى هدفهم أسلوباً لا يزعج المسلمين . ولا يثيرهم . هو الفرق بين الظاهر والباطن . عن طريق الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها فمن طريق هذه المصطلحات تقوم الصلة بين المسلمين بماضيهم ومنابعهم الصافية . فإذا انقطعت هذه الصلة بين الكلمات والمعانى وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ، ومفهوم معين ، تسرب الشك والاختلاف إليها ، وأصبحت هذه الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة » قالوا إن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجرى مع الظواهر مجرى اللب من القشر ، وأن تصوراتها توهم الجهال صوراً جلية ، وهى عند العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق خفية ، وأن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار ، وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال التى هى تكليفات الشرع . ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف ، واستراح من أعبائه » .

ولما تقرر عندهم أن لكل لفظ ومعنى شرعى ظاهراً وباطناً . وأن الباطن هو اللب استرسلوا فى تقرير بواطن المصطلحات الشرعية المتواترة المعنى حسب أهوائهم يقولون : الشرائع باطن لا يعرف إلا للإمام ، أو من ينوب منابه ، وكذلك كل ما ورد فى الحشر والنشر وغيرهما ، فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن فمعنى الغسل : تجديد العهد عليه — ومعنى الظهور : التبرؤ من كل مذهب خالف الباطنية — ومعنى التيمم : الأخذ للعلم من المأذون . ومعنى الصلاة — الدعاء إلى الإمام : ومعنى الزكاة — بث العلم لمن يتزكى ومعنى الحج — طلب العلم الذى تشد رحائل العقل إليه .

وتقوم الدعوة الباطنية على قاعدتين : القاعدة الأولى : التمييز بين الظاهر والباطن . القاعدة الثانية : تفضيل الباطن ولقد تدرجوا فى الاستخفاف بالظاهر حتى جعلوه موضع سخرية واستهزاء ، فقد كان الأئمة يفهمون تلاميذهم من الطبقة العليا : أن الظاهر متناقض ومعوج وأنه علم كثيف وأنه تقليد محض لا دليل عليه ، وأنه لا حياة فيه ، وأن أهل الظاهر ، هم أهل الكفر بل أهل الشرك وقد تأسست الباطنية على الفلسفة اللاهوتية اليونانية . وعلى الطبيعيات وقد استخدموا مصطلحات الفلسفة اليونانية وأفكارها . وعقائدها فى أدبهم وشرح عقيدتهم .

وقد أشار الدكتور زاهد على إلى هذا المعنى حين قال : لقد اعتقدنا أن جميع النظريات التى جاءت فى علم الهيئة القديم ، وفى علم الطبيعيات ، وفى علم الإلهيات صحيحة ، لا يتطرق إليها الشك ، فاستعنا بها فى إثبات دعوتنا . وقد حرص دعاة الباطنية على إغراء الناس بما يحبونه ، والتحدث إليهم عن طريق رغباتهم ومطامعهم ، وقد أورد المؤرخون خطاب زعيم القرامطة الذى جاء فيه : « أدع الناس بأن تقرب إليهم ما يميلون إليه وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم ، فإن آنست منه رشداً فا كشف له الغطاء وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به فعلى الفلاسفة معولنا وهكذا حاول دعاة الباطنية أن تفسد مفاهيم المصطلحات الإسلامية

التى جاء بها القرآن والتى يتفق المسلمون على معانيها : كالنبوة ، والرسالة ، والملائكة ، والميعاد والجنة ، والنار ، والشريعة . والواجب ، والحلال ، والحرام ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج . فقد ابتدعوا لكل مصطلح منها مفهوماً مخالفاً للحقائق الأساسية التى تعبر عنها هذه الكلمات . وقد وصف الأستاذ الندوى الدعوة الباطنية بأنها (ثورة على النبوة المحمدية) ذلك لإنكارها للمفاهيم الدينية التى توارثتها الأمة، وتفسير الكلمات الشرعية، والمصطلحات الدينية، حسب الأغراض والأهواء . والفصل بين الظاهر والباطن . حتى إنهم يقولون : التنزيل هو الجسم والتأويل هو الروح، والهدف كما أورده المؤرخون والباحثون واضح وصريح هو الانقضاض على الشريعة الاسلامية ممثلة فى دولتها ، وإنشاء مجتمع آخر أشارت إليه الاشارات والرموز فى رسائل إخوان الصفا وغيرها . ذلك قولهم : فأن سلطة تتصل بأهل الزمان جميعاً ، ويصير العالم بأسره له جسماً وآلة وجنوداً وأبداناً ، ويكون هو بمنزلة الرأس : أى العقل وقد جمعت هذه الدعوات المنافقين والملحدين ، وطلاب المغانم والملذات ومن هذه الدعوة القديمة انطلقت الدعوات الجديدة (البهائية - والثيوصوفيه - والدهرية — والروحية الحديثة . والفرفانا — والبوجا .) وكلها تعمل على تأويل الكلمات الشرعية المتواترة تأويلا لا يقوم على اللغة والقياس والمنطق، وتتجه إلى إنكار الحقائق الغيبية . وغاية الدعوة الباطنية : الإلحاد فى العقيدة ، وإلغاء الالتزام الأخلاق والمسؤولية الفردية المؤدية إلى الجزاء فى الآخرة ولا تزال الدعوة إلى التأويل ، أو علم الباطن من أخطر الدعوات الهدامة التى تواجه المسلمين فى العصر الحديث ، وغايتها رفع التكاليف والضوابط ومعارضة حدود الله ، ودفع الناس إلى الشهوات واللذات فى صيحة خطيرة على حد تعبير أحد فلاسفة العصر : « بول هازار » الذى يقول : « هل نترك السعادة وديعة بين يدى العالم الآخر ، إن علينا أن نقتنصها على الأرض ، أسرعوا فنحن فى عجلة ، لا ضمان للغد . ولا عبرة إلا فى الحاضر ، غافل من يقامر على المستقبل ، فلنضمن أولا رفاهية بشرية صرفة » . وعبارة الباطنية : تعنى الثمرة النهائية التى وصلت إليها المحاولات الماكرة فى إنشاء صورة خادعة مغرية . ذات بريق زائف . هى القول بأن لكل معنى من معانى الاسلام والقرآن ظاهراً وباطناً . وهم يجعلون لكل تنزيل تأويلا . يقول الدكتور أبو العلا عفيفى :

« أما تأويل إخوان الصفا لآيات القرآن والحديث ، ولا سيما ما يتعلق منها بأمور الآخرة من جنة ونار ، وبعث وحشر . . الخ فقد اتخذوه وسيلة لتحقيق مآربهم . وهو قلب الاسلام ، وهدم عقائده . ومبادئه من أساسها » .

(٢) تحريف العقيدة السبئية

إن أخطر الدعوات إلى تحريف العقيدة وإخراجها من أصولها القرآنية . بدأت مع صيحة عبد الله بن سبأ . فقد كان يقول لطائفة من الناس : (أليس قد ثبت أن عيسى بن مريم سيعود إلى هذه الدنيا ؟ بلى : فرسول الله أفضل منه . ألم تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى ؟ وقال : إن لكل نبى وصياً وعلى وصى محمد ومحمد هو خاتم الأنبياء ، وعلى هو خاتم الأوصياء) .

ومعنى هذا أن عبد الله بن سبأ نادى بمبدأين ليسا من دين الله الحق فى شىء وهما من تحريف اليهودية: مبدأ الرجعة ، ومبدأ الوصاية . وفى صميم الاسلام وجوهره . لا يعرف المسلمون ذلك ، ولا يقرونه وقد أضاف ابن سبأ . قداسة خاصة إلى الإمام على . فسماه وصياً ووليأ ، ومهديا ، وإماماً ، ونبياً ، وإلهياً . وقد روى الطبرى أخبار عبد الله بن سبأ ، وكيف كانت دعوته خطراً من أكبر الأخطار التى واجهت الاسلام فى هذه الفترة من خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه . وليس فى الاسلام وصية ولا تناسخ . وهى كلها من الأفكار المجوسية القديمة ، وقد كانت هذه الدعوى ـ دعوة تحريف العقيدة ـ من أول الصدع الذى واجه الاسلام وأن الباحث المتعمق لأثر عبد الله بن سبأ وحركته فى مصر والكوفة والشام والحجاز ، ليعرف بوضوح أن هذه الآراء ، وما وراءها من دعوة إلى الانتقاض على الدولة فى عهد سيدنا عثمان ، ومن ظلم لسيدنا على ، هى مصدر تلك الفتنة التى أصابت الاسلام فى تلك المرحلة من حياته ، والتى اتصلت بعد ذلك بأمور كثيرة .

يقول الأستاذ محمد سعيد الأفغانى : إن ما يذكره المؤرخون من التبعات على بعض الصحابة : كعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعائشة هو بعد التمحيص من التبعات الثانوية ، أما أقوى الأسباب التى أرثت الشغب وهاجت الاضطراب فهى مؤامرة واسعة محكمة سهر عليها أبالسة خبيرون وتعهدوها فى جميع الأقطار حتى آتت ثمرها ، ولم تلق هذه المؤامرة من عامة المؤرخين ما تستحقه من التوضيح والاهتمام ورأس هذه المؤامرة ، عبد الله بن سبأ ، المعروف بابن السوداء إنى أؤمن أشد الإيمان بأنه لو لم يكن شىء قط من هذه المساعى التى يذكرونها لكان عمل ابن السوداء وحده كافياً فى بلوغ الغاية المشؤومة ويجمع الباحثون على أن عبد الله بن سبأ ، كان على رأس جمعية سرية مختصة غايتها تقويض الدولة الاسلامية ، والقضاء على الاسلام . وأن هذه الجمعية كانت تعمل لحساب دولة أجنبية . هى الدولة الرومانية التى انتزع منها المسلمون لسنوات قليلة قطرين كبيرين هما مصر ، والشام .

وأن ابن سبأ كان مؤسساً لعمل خطير امتد من بعد فى الحركة الباطنية وفى دعوات التغريب والغزو الثقافى فى عصر الحديث ذلك هو العمل الذى حاول نسف العقيدة الاسلامية من أساسها بإدخال ماليس منها فهو الذى اختلق للمسلمين ما يسمى : بالرجعة والوصاية ، ويؤكد الباحثون على أن ابن السوداء ضرب المسلمين بعضهم ببعض وكان عاملا من عوامل التفرقة والتمزق بين أتباع الدين الواحد وكانت دعوته لأصحابه : انهضوا فى هذا الأمر فحركوه . وابدأوا بالطعن فى أمرائكم . وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر .

ولا ريب كانت دعوة عبد الله بن سبأ فى تحريف العقيدة ، دساً فى الدين وتفرقة فى الكلمة واستهانة بالتاريخ ، واستخفافاً بالمقومات ، ووضعاً من شأن الله ، وإفساداً للأخلاق والاشادة بكل مذهب أجنبى ، ومن هذه النقطة بدأت حركات الهدم فى الاسلام ، وبدأت مؤامرات القرامطة والزنج والراوندية والمقنع الخرسانى وبابك الخرمى والمازيار والإفشين ويضيف المؤرخين إلى عبد الله بن سبأ كعب الأحبار ، ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام . أما كعب الأحبار ، فهو ذلك الكاهن الذى

أسلم فى عهد عمر نفاقاً وبلغ من دهائه أن جعل بعض الصحابة يروون عنه أحاديث معزوة إلى رسول الله ومما رواه كعب : الأرضون السبع على صخرة والصخرة فى كف ملك ، والملك على جناح الحوت ، والحوت فى الماء على الريح والريح على الهواء وفى مرحلة تالية جاء عبد الله بن المقفع الفارسى المجوسى الذى ادعى الاسلام وكان اسمه « روزبة » وكان من أكبر أعداء الاسلام ومن أشدهم مكراً فهو الذى نقل إلى اللغة العربية الفكر المجوسى ، وتبعه مزدك ومانى وغيرهما وكان ذلك مقدمة لترجمة تراث الإلهيات الوثنية والاغريقية والفارسية .

ومن أبرز كتبه التى ترجمها كتاب « ديستاو » وهو كتاب مزدك يضم عقائده ، كما أنه ترجم كتاب (الدرة اليتيمة) فى معارضة القرآن ومن أهم الكتب التى ترجمها كتاب (كليلة ودمنة) وقد ضمن هذا الكتاب باباً أسماه (برزويه) وهذا الباب من أخطر الأبواب فى نقد الدين عامة يتكلم فيه عن تعارض الأديان ، وعن عدم التوصل إلى اليقين فيها مما يعتبر العقل وحده أعظم وسيلة وأفضلها للمعرفة وليس ما يقوله خصوم الأديان اليوم وأعداء الاسلام إلا هذا الكلام نفسه مكرراً ومعاداً بعد أكثر من ألف ومائتى سنة وكان ابن المقفع يرمى إلى نشر الإلحاد والتحلل من الاسلام بالذات وقد تبين البيرونى هذا فقال فى كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) : وهو مصدر الكلام عن كتاب كليلة ودمنة .

وبودى لو كنت أتمكن من ترجمة كتاب (سنج سنتر) وهو المعروف بكتاب (كليلة ودمنة) فإنه تردد بين الفارسية والهندية ، ثم بين الفارسية والعربية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع فى زيادته باب (برزويه) فيه قاصداً تشكيك ضعفى العقائد فى الدين ، وكسرهم للدعوة إلى مذهب المانية (أى المانوية) وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عنه فيما نقل) وهكذا تنبه العالم الكبير : البيرونى إلى مانوية ابن المقفع وقد تبين الخليفة المهدى من قبل هذا فقال (ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع كما قام القاسم ابراهيم الزيدى . المتوفى عام ٢٤٦ بوضع كتاب (الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع) .

ومع هذا كله فما زالت آثار ابن المقفع تدرس فى معاهد العالم الاسلامى كنصوص ونماذج للادب العربى دون أن تبين للشباب هذه الجوانب الخطيرة حتى يضعوها فى ميزان الحكم على هذا الرجل . جاءت ترجمة الفلسفة اليونانية ، وكان المسلمون قد رغبوا إلى ترجمة العلوم الطبيعية والرياضية ، ثم انحرف الاتجاه إلى ترجمة الفلسفة الالهية تحت تأثير عوامل ضاغطة وكان ابن المقفع وحنين بن إسحق وأضرابهما من الذين حملوا لواء هذا العمل ، قد استهدفوا غاية خطيرة هى نقل مذاهبهم وأديانهم إلى الفكر الاسلامى ، وقصة فساد عملية النقل والترجمة هذه ما تزال من القضايا الكبرى التى تناولها الباحثون وانتهوا فيها إلى رأى واضح صريح ، والمعروف أنه قد حدث خلط كثير بين المؤلفين . ونقلت كتب إلى العربية باسم أفلاطون ، وهى لأرسطو أو لغيره مما أحدث خلطاً كبيراً واضطراباً شديداً أما الأمر الأشد خطورة . فهو أن القسم الأكبر من النقلة كانوا من السريان والأقل القليل

من اليهود وقد نقلوا ما نقلوه وفق أهواء خاصة وأكثر النقلة لم تكن غايتهم البحث عن الحقيقة فهم إذ كان جلهم من النصارى النساطرة واليعاقبة فقد كان أكبر همهم الدعوة إلى شيعتهم وتزيين أهوائهم الدينية . لذلك كانوا يغيرون ويبدلون فى النصوص التى بين أيديهم خدمة لأغراضهم الدينية وعقائدهم بالزيادة والحذف تبعاً لأهوائهم ولقد كان للترجمة آثارها الخطيرة وكانت تبعة « المأمون » فى ذلك كبيرة وبعيدة المدى فقد كان هدف المسلمين الأول هو الانتفاع بعلوم الفلك ـ والطب ـ والرياضيات من حساب وجبر وهندسة وكيمياء . وهم فى طريقهم إلى وضع منهجهم الذى دعاهم إليه القرآن حين قال « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » فكان عليهم أن يراجعوا ما سبقهم من فكر فى هذا المجال وأن يحرروه حتى ينطلقوا على ضوء صحيح من مفاهيمهم الأصلية وقد جروا فى ذلك شوطاً غير أن عصر المأمون لم يلبث أن فتح الباب واسعاً لترجمة الفلسفة الإلهية التى هى علم الأصنام عند اليونان .

ومن هنا فقد جاء شر كثير وهبت رياح سود وكان ذلك نذير سوء ومقدمة الأخطار الكبيرة التى ألمت بالمسلمين من بعد ولندع الأستاذ خليل هنداوى يحدثنا فى إجابته عن سؤال (أكان خيراً للعرب تناولهم الفلسفة اليونانية ؟ وما هى الفوائد التى اجتنوها ؟ يقول : لم يكن من خير فى تناول العرب الفلسفة اليونانية . بل كان تناولهم الفلسفة طالع شؤم وإيذاناً لهم بزوال سلطانهم . لم يأخذ العرب الفلسفة أخذاً جدياً إلا حين انتهى إلى المأمون زمام الخلافة العباسية فشجع الفلسفة وعمل على ترويجها وقد عمل المأمون على ترجمة مختلف المذاهب والنحل الدخيلة وأباح الجهر بمختلف الآراء فشاع فى زمنه الشك وراج الباطل وهبت الرياح الصفراء من وراء هذه الإباحة . تحمل فى طياتها جراثيم المذاهب المختلفة ، والنحل المتعارضة وظهرت الفرق التى كادت تؤلف بإراداتها وعقائدها أدياناً جديدة فكانت كل واحدة تزاحم الأخرى فلم تلبث الدولة إلا قليلا حتى انعطف عليها جحافل المغيرين من التتر والمغول ، فقوضت دعائمها وكان الكثير من أتباع هذه الفرق أعواناً للمغير على تحقيق تلك الغاية التى اندك بها بناء العروبة وسقط صرح الحضارة الاسلامية . ماذا استفاد العرب من هذه الفلسفة .

استفادوا الخبرة لفن قتل الوقت وقتل العقل ، واستطابوا الإدمان على تعاطى هذه الكأس التى يقدمها السفسطائيون للاجهاز على الأمم القوية عندما تبلغ القوة مداها مقابل ما خسره العرب من الايمان الفطرى والاعتقاد النقى فأهملوا واجبهم وتهاونوا فى دينهم وفرطوا فى لغتهم والذى أفادوه من تلك الدروب التى هلك فيها اليونانيون ومن جرى مجراهم من الأمم القديمة والحديثة كان إخوان الصفا ثمرة الفلسفة الإلهية اليونانية والهندية والفارسية القديمة . فقد خلطوا عناصرها ، وأضافوا إليها شيئاً من مفاهيم الاسلام وأقاموا منهجاً مختلفاً حاولوا به أن يهدموا الاسلام بإخراجه من مفاهيمه وإدخال مفاهيم غريبة عليه وجماع الرأى فى رسائل إخوان الصفا :

(أولا) آراء مفككة فيها عود وتكرار غريب اختلطت فيه الفلسفة التقليدية والعلوم الرياضية والطبيعية بخرافات السحر والتنجيم ، وأسمار ألف ليلة وليلة ، وحكايات كليلة ودمنة وصفها أبو حيان

التوحيدى بأنها خرافات وتلفيقات والمزيقات وقد رد الباحثون آراءهم إلى تراث الكهان كأسرار النجوم والأعداد والفأل والزجر والسحر والعزائم والإيمان بطوالع النجوم وتأثيرها وموسيق الأفلاك ونغماتها . (ثانيا) مزجوا الاسلام بمختلف الأديان والآراء والعقائد زاعمين أن مذهبهم يستغرق المذاهب كلها ، فكأنهم أرادوا أن يضعوا دينا عقليا يعلو الأديان جميعاً مغايرة لأصول الاسلام وقد تبين أن مفهومهم لله سبحانه وتعالى مفهوم فاسد وخاصة فى رحمة الله وهم ينكرون البعث بالأجساد ويفسرون الجنة والنار ، والآخرة خلافا لما تواتر عند المسلمين وفهم من النصوص القاطعة ، وينكرون الشياطين على الصورة التى يفهمها معظم المسلمين ويفسرون الكفر والعذاب تفسيراً باطنيا فلسفيا (ثالثاً) أكبر مقاومهم تدل على سوء قصدهم أنهم طمسوا أسماءهم وجبنوا عن إعلانها . ولو كانوا صادقين مخلصين لواجهوا الرأى العام فى جرأة (رابعاً) استهدفت هذه الرسائل إقامة نظام جديد يحل محل الشريعة الاسلاميه وهى تشتمل على عقائد الباطنية ، وإعداد النفوس والعقول لدولة جديدة (خامساً) الدعوة إلى التأويل ومحاولة تفسير القرآن والكتب المنزلة تفسيراً باطنياً يخالف ظاهر اللفظ والقول بأن للآيات تأويلات خفية باطنة .

هذه الدعوة إلى تحريف العقيدة أثمرت تلك الحركات الهدامة وفى مقدماتها القرامطة وحركة الزنج التى حاولت إسقاط الدولة الاسلامية وإقامة نظام أخرى تحت اسم (العدل الاجتماعى) أما محاولة إقامة نظام على النحو الذى دعت إليه رسائل إخوان الصفا فقد فشل فشلا ذريعاً وقد تبين أن عمل هذه الفتنة كان لحساب دعاة الحركة الباطنية الذين حاولوا قلب النظام السياسى بتغيير التفكير العقلى وإيجاد ثقافة جديدة يعتنقها شباب عصرهم .

وقد أكدت الوثائق ، والأبحاث العلمية الدقيقة أن من وراء هذه المذاهب (المانوية - والمزدكية والخرمية ، والقرامطة وإخوان الصفا ودعاة الالحاد والحلول ووحدة الوجود) غاية سياسية هى محاولة تغيير النظام السياسى الاسلامى الدولة الاسلامية والسعى إلى إقامة نظام آخر تصوره مجموعة من المستضعفين على الاسلام وجماعة من المجوسية وقدامى الحكام المعزولين والشعوبيين والطامعين ولذلك فقد صيغت مفاهيم هذه المذاهب من أمشاج متفرقة وشظايا متعددة من المجوسية والأفلاطونية وأفكار دعاة تناسخ الأرواح وعبدة النيران والأبيلية والوثنيين اليونان ، وأصحاب الفكر التلمودى . مع إبراز طابع خادع من الولاء لآل البيت وأسلوب من الرمزية وأنظمة سرية يجمعون فيها الناس بخداع الدعوة البراقة ثم ينشئونهم على الحقد والخصومة والانتقام .

وقد اعتمدت (رسائل إخوان الصفا) منهجاً لدعوتهم وهى تضم فقرات مموهة تشير إلى الوثنية وتجمع فيها بين مصطلحات متعددة من إغريقية ، وبابلية وأشورية وغيرها فهم يضعون آلهتهم الوثنية كالزدان . واهرمن وهازيون إلى جانب إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وفى الرسائل فقرات تشير إلى عبادة الكوكب وآلهة المجوس ، وإباحية مزدك فى الأموال والنساء والانهماك فى تناول الملذات . وإلحاد مانى وقوله بالتناسخ وزيف زرادشت فى القول بالنور والظلمة وتبدو من خلال هذه الملامح

الفلسفية تلك الغاية السياسية التي تخفيها اليهودية التلمودية ومطامعها وأهوائها .

(عمر الدسوقي — رسائل إخوان الصفا)

وقد سقطت هذه الحركة ، وما ماثلها ماقام ويقوم في تاريخ الاسلام كله المعارضة لروح الاسلام وطابعه وذاتيته الخاصة وقد اعترف جولد زيهر وكازونوفا من المستشرقين بأن آراء إخوان الصفا هي آراء الباطنية ومعتقداتهم وقد قامت هذه الحركات على أساس التأويل ، ومبادىء الحلول وتبنت آراء مزدك في شيوعية الأموال وإباحة النساء وحاولت أن تجعل من الأديان والفلسفات كلها عقيدة واحدة وكان ذلك كله من عوامل فشلها وتأكيد فسادها .

وكانت حركة القرامطة خليطاً من المجوسية واليهودية وقد أباحت زواج البنات والأخوات وشرب الخمر ، وجميع الملذات . ورفضت قيود الأخلاق والشرع واعتبرت أن جميع القوانين والحدود والآداب التي وضعت الناس قاضية بالجور مقررة الظلم . وادعت القرامطة أن الجنة هي الدنيا ونعيمها واتخذت في نظامها أساليب غاية في العنف وقام الدعاة لها بما قام به أصحاب حركة الزنج من فظائع لا حد لها وقد قاومت السنة هذه الحركة مقاومة حاسمة ، وواجهت مفاهيمها وردت عليها ، ونقضت شبهاتها ،وتأكد الباحثين والمؤرخين أنها حركة معادية للاسلام ، ناشئة من دين أجنبي ، وأنها وثيقة الصلة بالحركات الفارسية كالراوندية والخرمية والبابكية وأنها امتداد لها .

(٣) المذاهب الهدامة والإلحاد

إن المصدر الأم للإلحاد هو المذهب المادي ، والنزعة المادية التي تقوم على تصور خاطىء للإنسان وهو أنه خلق من العدم ، وصائر إلى العدم وأن للإنسان حياته المحدودة ولا سلطان عليه إلا نفسه وأهوائه فعليه أن يسارع قبل إنتهاء الأجل إلى الانغماس في الشهوات فإذا وجد من الفلسفات ما يرضى هذه النزعات في نفسه ويبررها فهو يعتنقها ، وتلك طبيعة الانسان منذ قديم ، وما تزال .

والناظر إلى الدهرية ، والمذاهب الهدامة جميعاً يجدها لا تفصل بين الالحاد والإباحية : أي بين الفكر والمجتمع . وقد نشأ الإلحاد في بيئات غير إسلامية ، نتيجة ترمت الديانات والمذاهب التي انحرفت عن أصولها الأصلية ، فضيقت واسعاً ، وحرمت الانسان من تطلعاته ، وإجابة نداء غرائزه الطبيعية ودعته إلى قمع هذه الرغبات ، أو فرضت عليه معتقداً يحار العقل في قبوله ، ويتعارض مع الفطرة ، ولا ريب في أن العقل البشري في العصر الحديث بعد أن حررته الطاقة الضخمة التي ألقاها القرآن إلى البشرية ، وأثرت في كل الأديان والعقائد ، وأفكار الأمم ، وخلصته من عبودية الجسم والعقل جميعاً هذا العقل ما زال يقف موقف الريبة إزاء كل ما يتنافى مع الفطرة من حيث أن الدين المنزل من عند الله لا ينافي الفطرة . ولا يعارض العقل ومن هنا كان ذلك التشابه بين موقف الغرب في هذا العصر وموقف البشرية قبل نزول الاسلام وهنا نرى الاسلام في بساطته ويسره ، وسلامة مقاصده فقد أطلق الدين من كل ما ألصقه به المجسمة والمشبهة ، وحرر محيط العبادة من التماثيل والصور والرموز والطقوس والشارات وجعل روح الدين في الشارع والسوق كالمسجد ، ولم يجعل طبقة معينة تحتكر شؤون الدين ، وحتم على جميع معتنقيه أن يكونوا علماء به . ولم يجعل بين العبد وربه وساطة ما .

ولا ريب أن نزعة الإلحاد قديمة . وقد ظهرت فى القرن السابع للميلاد فى بلاد اليونان ، ثم ما زال ظهورها يتجدد على العصور ويدخل فى معارك مع رسالة السماء ، ومع الفكر الربانى المصدر ، ويجد من أصحاب الأهواء والمطامع أولياء له وتابعين . ولما كشف العلم الطبيعى عن أسراره نزع العقل البشرى نزعة الاستعلاء . واتخذ من مهاجمة العقيدة التى عارضت طريقه إلى البحث سبيلا إلى معارضة الأديان بعامة دون أن يقدر مدى الفوارق البعيدة الواسعة بين العقائد وبين التفسيرات المنحرفة لبعض الأديان وبين الأديان التى حفظت مصادرها من كل زيف . ولو قد خلصت النيات ولم يجد التعصب سبيلا إلى النفوس ، ولم تكن وراء الدعوات أهواء أصحاب المطامع من دعاة الأيديولوجية التلمودية . لاستطاعت البشرية أن تعرف أن فى الإسلام غاية ما ترجوه النفس البشرية وتتطلع إليه : سمة وروحية وإيمانا بالعلم والتقدم ، ودفعاً للإنسان إلى تحقيق ذاته وممارسة رغباته ، فقد اعترف بها الإسلام ، وأجاز تحقيقها فى إطار من الضوابط الكريمة . ولكن البشرية مازالت منذ خمسة قرون تبحث وتتخذ من العقل — وهو أداة لها — مايصرفها عن وجهتها الخاصة ، وهى فى حاجة إلى نور الإيمان ، أو على حد تعبير علماء المسلمين عنه : إن العقل « جوهر مضىء خلقه الله فى الدماغ ، وجعل نوره فى القلب » .

ما زالت البشرية تبحث دون أن تهتدى إلى الحق . وهو قائم أمامها وهى مشرقة نحو الفلسفة الغنوصية ، أو مغربة نحو الفلسفة اليونانية .

ومصطلح الإلحاد (Atheisme) يعنى نفى وجود المبدع الأول لهذه الكائنات . والإلحاد ككل النظريات يتغير ويتطور ويتحرك فى كل بيئة وفق أسلوب جديد . ومن هنا فقد عرف العصر الجديد إلحاداً مرتبطاً بعدد من الدعوات . كالوجودية والماركسية والفرويدية ، بل يمكن القول بأن الإلحاد وإنكار ذات الإله هما قاعدة كل هذه المذاهب والدعوات مهما اختلفت حول قضايا العصر . وهذه الدعوات جميعاً تعارض الأديان ، وتعارض النبوة ، والكتب المنزلة . وهى تقف موقف الإنكار الشديد للبعث والجزاء . وقد أخذ الإلحاد يلبس فى العصر الحديث طابعاً فلسفياً . ويستمد من بعض نتائج النظريات العلمية أسلحة له . ومن العجب أن معظم أسلحة الإلحاد عن طريق العلم التجريبى قد سقطت ، وكان أخطرها إنكار الغيب ، وما وراء المادة . إذ عاد العلم التجريبى أخيراً فاعترف بما وراء المادة نتيجة ظهور قوانين الذرة وانشطارها . ولكن الفلسفة ما تزال تبحث عن أسلحة جديدة تدعم بها موقفها إزاء هذه المعارضة الباطلة .

والإلحاد الحديث هو بمثابة رفض للقوة الأساسية الواضحة القائمة والصانعة والمدبرة فى هذا الكون وقد طرح هذا الشعار بعد أن كذبت العلوم التجريبية نظرة دعاة الإلحاد القديمة ، إن الظاهرة الجديدة هى التمرد على وجود الله فى محاولة لتأليه الإنسان ، أو هى محاولة لانتزاع الألوهية من الله (سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) لوضعها فى الإنسان . ومن يقرأ ما كتبه فورباخ وماركس وسارتر وفرويد ، يجد هذا المعنى واضحاً جلياً . قال ماركس : إن الإلحاد هو إنكار الله . وبهذا الإنكار تؤكد وجود الإنسان . ويربط فرويد بين التمرد على الله والتمرد على سلطة الأب ؛ ولا ريب أن هذا

الخلط بين الله والإنسان من جهة ، وإضفاء الألوهية على الإنسان من جهة ثانية لها مصدرها فى الفكر الغربى المسيحى . ومن خلال هذا المفهوم تقوم الحملة على (الإله) فالإله محدث بالصورة التى عرفها الفكر الغربى . وليس بالصورة الحقيقية لله سبحانه وتعالى . وهى صورة حدث فيها خلط كثير بين الله والطبيعة ، وبين الله والإنسان ، ومن هنا جرت عبارات نيتشه المعروفة عن موت الإله ، وعبارات ماركس عن أفيون الشعوب ، ذلك لأن الفروض التى قدمت كانت فروضاً بعيدة عن العقل ولا تقبلها الفطرة ولا تطمئن إليها النفس المتطلعة إلى تقبل كل ما هو منطقى ومعقول .

(٤) الله فى مفهوم الإسلام

إن نظرة واحدة إلى مفهوم (الله) سبحانه وتعالى فى الإسلام تستطيع أن تزيح من النفس الإنسانية ذات الفطرة الصافية كل ريب وكل شك وكل شبهة من تلك الشبهات التى جاء أكثرها من قبيل التحدى . فالله هو الخالق البارىء المصور القهار الذى ليس كمثله شىء . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . وهو الصانع المدبر التى تتمثل صفاته فى أسمائه الحسنى فلا يتعداها المسلم ولا يصف الله أو يسميه إلا بما سمى به نفسه .

والاعتقاد فى وحدانية الله هو الركن الأول من أركان الإسلام ، وهو مرجع كل قول ومنتهى كل قصد . وذات الله لا يدركها العقل ولا ينالها الحس . وكل ما يدركه العقل الإنسانى هو من آثارها التى ترشد إلى وجودها . والعقيدة بوجوده تعالى لازمة من لوازم المعنى الإنسانى ، فإن الانسان مادام صاحب نظر وفكر واستدلال فلا يستطيع أن ينفك عن تلك العقيدة مطلقاً . ولما كان أول أصل من أصول المحسوسات هو علمه بأنه (لا مصنوع إلا وله صانع) فتراه لا يتمالك نفسه من الحكم بأن هذا الكون لا بد له من صانع . وقد ظل الانسان على هذه العقيدة ألوفا من السنين لا يعتريه منها شك حتى جاءت الفلسفة قبل المسيح بنحو ستة قرون فجاءت معها الشكوك والشبه والسفسطة . وقد أشار القرآن إلى هذه الشكوك فى أكثر من موضع « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » . وكشف عن عجز المادية فى تعليل وجود الكون بدون خالق حكيم مدبر .

ومفهوم الله فى الإسلام يتميز بمعالم واضحة : فهو المبدع بالمعنى الحقيقى . وهو الصانع والمدبر المتميز عن الأشياء الحادثة المتغيرة التى زاهلا وسبحانه وتعالى علواً كبيراً عن تشبيهات المتشبهين وتجسيه المجسدين . ويرفض مفهوم الإسلام فى الله سبحانه كل ما قالته الفلسفة ويعتبر مفهومها عن الله قاصراً فالله سبحانه وتعالى : هو غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال والتنزيه . فهو سبحانه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وهو الأول والآخر فلا أول قبله ولا آخر بعده . وهو الظاهر والباطن وهو الذى وسع كل شىء علما . فهو يعلم الجزئيات والكليات . وهو رب المشرقين ورب المغربين . وهو الذى خلق العوالم كلها ، الإنس والجن والملائكة والسموات والأرض خلقها من غير شىء سابق أى من العدم . وهو الذى خلق الإنسان علمه البيان . وهو الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم . وصورة الله فى القرآن

تختلف اختلافاً واضحاً عما جاء فى الفلسفات وفى بعض العقائد فهو ليس إله الحرب والجنود وليس هو إله أمة دون أخرى بل هو إله العالمين ، الرحمن الذى وسعت رحمته كل شىء ونحن نؤمن بأن الله خالق وأن هذا الوجود مخلوق له . ولكن لا فراغ بين الله الخالق وبين هذا الوجود المخلوق له . إن فى الوجود ثنائية . ولكن ليس بين طرفى الثنائية إنفصالية . إن الإنسان جسم وروح ولكن الانفصال بينهما فى حياة الانسان نفسه ـ وقد اضطرب الانسان فى سلوكه عندما اعتقد بوجود فراغ بين الله والإنسان أو اعتقد أن الانسان جسم وبدن فقط ـ الايمان بالله أساس المعرفة ـ ووحدة الله هى الأساس ـ والانسجام بين طرفى الثنائية فى هذا الوجود قائم وبالأخص فى طبيعة الانسان وبين روحه وجسمه وبين الفرد والفرد ـ فالروح ضرورة ـ والدين ضرورة ـ والانسان بلا روحه هيكل أجوف ـ ومعرفة بدون دين قلما يصاحبها يقين . والوجود كله يقوم على مبدأ الثنائية . أو مبدأ التقابل . الله سبحانه وتعالى مجرد عن الحسية والمادية ـ وطبائع الكائنات خليط بين الروحية والمادية ـ الله روح خالصة تقابله هذه الطبيعة المادية التى شاءها سبحانه وتعالى لمخلوقاته وكائناته . هذه الكائنات بدورها فيها المادة وفيها الروح ، مزيج مما يرى ويدرك بالبصر ، ومن شىء آخر لا يرى ولا يدرك ، إلا بالعقل والتصور — الثنائية فى الذكر والأنثى فى الحياة والموت فى القوة والضعف — هذا التقابل : أو الثنائية سنة الوجود كله ، فهو مخلوق . وله خالق ـ ورسالة الله للانسان فى هذا الوجود هى إيجاد الانسجام بين طرفى هذه الثنائية فى حياة الانسان . الملاءمة فى طبيعة الانسان بين جسمه وروحه وغايتها فى الوجود كله أن تلائم بين الخالق والمخلوق . ليس من الطبيعى أن يكون هناك كفر بالله الخالق وإيمان بالإنسان المخلوق . إن الايمان بالله نتيجة لازمة لقانون طبيعة الوجود ولقد كانت دعوة الاسلام إلى الانسجام بين الروح والجسم ، بحيث لايتخلف أحدهما أو يجمد فى نفس الوقت الذى يسير فيه الآخر فى طريق النمو كما كشف الاسلام عن خطأ إعلاء الروح على حساب الجسم ـ وخطأ إعلاء الجسم على حساب الروح . ذلك أن الإيمان بمادية الانسان وحدها ، كالإيمان بروحانيته وحدها أمر يتنافى مع هذا القانون ويصطدم مع نتائجه . إن الوجود كله له خالق وما عداه مخلوق له . وليس الايمان بالله الخالق فقط ، بل الايمان بوحدانيته ، وفكرة التوحيد هى أبرز أفكار الاسلام عن الله سبحانه وتعالى فالاسلام يدعو إلى التوحيد الخالص من كل شائبة ، وهو ما يختلف مع الوثنية والتعدد والشرك والإلحاد ، فالوثنى يعبد الأصنام ، والملحد لا يؤمن بالله ، والمشرك يؤمن بالله ولكنه يشرك معه غيره ويتخذ آلهة أخرى شفعاء له ووسطاء ، ولقد كان العرب فى جاهليتهم يؤمنون بوجود الله تعالى وكانوا موحدين له فى أفعاله من خلق ورزق وإحياء وإماتة وهذا ما يسمى (توحيد الربوبية) وإنما كان شركهم ناتجاً عن عجزهم عن الايمان بـ (توحيد الألوهية) أى توحيد العبادة وهو أنهم لم يقصروا عبادتهم بأنواعها على مستحقها وهو الله وحده كالدعاء والخوف والرجاء والاستعانة والاستغاثة قال تعالى فيهم (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) وقد رد عليهم الزعم الباطل بهذه الآيات فى توحيد الربوبية (قل من يرزقكم) ، وأقام عليهم الحجة بما أقروه من إنفراده تعالى بأفعال الربوبية على

ما أنكروه من وجوب إفراده تعالى بالعبادة، لقد كانت فكرة التوحيد الخالص هي أشد الأفكار غرابة عندهم هي والبعث سواء وذلك مع اعترافهم بوجود الله سبحانه ، وأنه الخالق للسموات والأرض وما بينهما ولكنهم ما كانوا يريدون أن يعترفوا بمقتضى الوحدانية هذه وهو أن يكون الحكم لله وحده في حياتهم وشؤونهم وان يتلقوا عنه وحده الحلال والحرام ، وأن يكون إليه وحده مرد أمرهم كله في الدنيا والآخرة ولقد كان التوحيد في مفهوم الاسلام متميزاً بالوضوح والشمول وهو يختلف كثيراً عما قيل من توحيد عند الفراعنة أو اليهود أو غيرهم فقد جاء الاسلام بالتوحيد الخالص فانطفأت بيوت النار ومعابد المجوسية وبطلت عبادة الشمس . ومن الحقائق الواضحة في هذا المجال أن الإنسان بدأ موحداً ثم أصابته لوثة الشرك وأن النظرية التي طرحها (علم مقارنة الأديان) والتي تقول بأن البشرية بدأت طفولتها بالوثنيات ثم ارتفعت، أي التوحيد نظرية باطلة بحكم التاريخ وبحكم المنطق الواعي فإن آدم أبو البشر وأول إنسان كان على علم وكان يعرف التوحيد ويؤمن بالإله الواحد، ومعنى هذا أن البشرية بدأت موحدة ثم انحرفت وكلما انحرفت جاءت الأديان ترد البشرية إلى أن جاء الاسلام دعوة عالمية وخاتماً للأديان ولقد واجه الاسلام قضية التوحيد والوثنية على نحو مستفيض وعالجها بمنهج جامع بين القلب والعقل وعبرة التاريخ ومن هنا فقد أصبح القرآن هو حافظ البشرية عن الارتداد إلى الوثنية وعصور الأساطير ومن أهم ما دعا إليه التوحيد الخالص في مفهوم الاسلام إنكار نظرية اندماج الله والعالم وقد أفاض علماء المسلمين في تصوير عقيدة التوحيد الإسلامية ورسموا لها صورة كاملة واضحة المعالم فالله سبحانه وتعالى هو صانع العالم وله صفات ثابتة استخصها لذاته وأن الحوادث كلها لابد لها من محدث صانع وهو سبحانه قديم لم يزل ليس له صورة ، ولا أعضاء ولا يحويه مكان ولا يجرى عليه زمان ولا تلحقه الآلام واللذات وهو غني عن خلقه ، وأنه واحد والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء بالاختراع من العدم وعلمه واحد ، يعلم الموجودات بتفاصيلها من غير حس ، ولا بديهة ولا استدلال وسمعه وبصره محيطان بجميع المسموعات والمرئيات ، وهو لم يزل رائياً لنفسه سامعاً لكلام نفسه .

وأسماء الله وصفاته معروفة من القرآن ، والحديث الصحيح وإجماع الأمة ولا يجوز إطلاق اسم عليه من طريق القياس وأسماء الله تسعة وتسعون وهي ثلاثة أقسام صفات أزلية (نحو : واحد وأول) وصفات أزلية قائمة بذاته نحو (حي قادر عالم) وصفات مشتقة من أفعاله نحو (خالق رازق عادل) والعبد مكتسب لعمله والله خالق لكسبه والله يراه المؤمنون في الآخرة ولا يحدث شيء في العالم إلا بإرادته ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن والله حي بلا روح ولا اغتذاء ، وكلام الله صفة أزلية وهو : (أي كلام الله) غير مخلوق ولا محدث ولا حادث .

(٥) عقيدة البعث

ومن قواعد الإسلام الأساسية : عقيدة البعث والإيمان بالجزاء الأخروى ، وقد أجمعت الأديان السماوية على وجود حياة بعد الموت يحاسب فيها الإنسان عن عمله فى الحياة الدنيا وهى حقيقة جوهرية لا يسقطها الاسلام أبداً ، ويضعها دوماً نصب الأعين ، والعقول والأفهام وتجرى من كل أعمال الدنيا . ولا ريب أن الإيمان بالجزاء والبعث عامل قوة وإيجابية ، ودافع بناء وحركة ،وليس عامل جمود وتخلف ، وإذا لم يكن الأعمال الكبرى فى الحياة الإنسانية وجهة ربانية تعطى ثمرتها فى الدنيا ، وتعطى جزاءها فى الآخرة، فإن رسالة الإنسان فى الحياة تكون عبثاً . ولا يمكن أن تكون الحياة بغير غاية أو أن يكون وجود الإنسان فى هذه الارض بغير رسالة . وتلك الحقيقة هى أعظم معطيات رسالات السماء ، فليس من المعقول أن يخلق الله هذا الكون كله عبثاً (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) إن الحياة مسؤولية ورسالة ، وهى حقيقة وتبعة ثم هى بعد ذلك بعث وجزاء وحين يتأكد النفس الإنسانية هذا الملحظ تنزاح تلك الأزمة التى تحاول أن تغرقها فى تيه مضلل ومن حسن الحظ أن هذه الارض قد عرفت أصالة التدين وعلى ثراها نزلت الأديان . ومن هنا فهى حرية ألا تقع فى تلك الأزمة التى اجتاحت المجتمعات الأخرى . ولا ريب أن الفطرة الإنســانية فى أعماقها تستطيع أن تلتمس طريقها إلى الدين الحق ، وتتصل بخالقها الأوحد ، ولا شك أن الإلحاد أمر طارىء على النفس البشرية وليس فى الأصل من طبيعتها ولا شك أن التدين طبيعة عميقة فى الكيان الإنسانى وهو أصــدق الطرق إلى بناء الفرد وبناء المجتمع ، وبناء الإنسانية المتحررة من الخوف والشك والانحلال .

إن قول الفلسفة المادية أن العالم مادة فقط هو مالا تستسيغه الفطرة ولا يقبله العقل ، ولا ريب أن عقيدة البعث والدار الآخرة عامل بعيد الأثر فى حياة الإنسان وفى أعماله وسلوكه ومن أجل هذا أولى القرآن أمر البعث والدار الآخرة اهتماماً عظيماً ، وقرن البعث بالتوحيد فى مواضع كثيرة وأشار إلى تلك الجائحة التى استطالت على العصور فى إنكاره ومحاولة الإفلات من أثره فى الدنيا ، ومن المسؤولية الفردية المترتبة على الجزاء الأخروى وأبرز المكذبين لفكرة البعث والجزاء هم الدهريون الماديون ، ذلك لأنهم يدعون إلى الإباحة ، وإطلاق الغرائز والشهوات فى الدنيا وهو إطلاق تخشاه النفس الإنسانية وتنفر منه إلا حين يزيف لها هذا الأمر مزيف فيحجب عنها هـذه الحقيقة ، ولا ريب أن الإيمان بيوم الجزاء هو أقوى باعث المرء ، يدفعه سعياً وراء الكمال والتقدم، ولاريب أن يوم القيامة هو يوم نهاية الإنسان ، وهدف الله من خلق الإنسان (وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى) وفى مختلف الأديان حتى أديان قدماء المصريين : عقيدة البعث بعد الموت . ولم يزيف هذه الحقيقة غير التلموديين والوثنيين ، والدهريين . ويرتبط هذا الفكر الزائف بمحاولة رفع التكاليف والفروض . وإلغاء مسؤولية الفرد عن عمله .

الباب الأول

دعوات هدامه للعقائد والقيم

الفصل الأول : الدهرية . الفصل الثانى : الثيوصوفية . الفصل الثالث : البهائية
الفصل الرابع : تحضير الأرواح (الروحية الحديثة)

الفصل الأول

الدهرية

الدهرية واحدة من الدعوات الهدامة التى أذاعها النفوذ الأجنبى فى البلاد الإسلامية كوسيلة من وسائل تدمير مقومات الإسلام وقيمه الأساسية . فقد كان من أبرز أهداف الاستعمار : القضاء على القوة الأصيلة التى قام عليها الإسلام ، وهى (التوحيد) . فنشر فى كل مكان حل فيه مفاهيم « المادية » والدعوة إلى القول بمعارضة وجود الخالق . وأن الكون طبيعى وجد اعتباطاً . وقد عرف هذا المذهب بالنيشرية نسبة إلى (Nature) وقد برزت هذه الدعوة بصورة خطيرة فى الهند . نشرها الاستعمار البريطانى بين المسلمين . وتنبه لها السيد جمال الدين الأفغانى . فوضع رسالته المعروفة « الرد على الدهريين » . وقد صور هدف هذه الدعوة حين قال : النيشر اسم للطبيعة . وطريقة النيشر هى تلك الطريقة الدهرية التى ظهرت ببلاد اليونان فى القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح . ومقصد أرباب هذه الطريقة محو الأديان ، ووضع أساس الإباحة والاشتراك فى الأموال والإبضاع بين الناس عامة . وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا وبالغوا فى السعى إليه . وتلونوا لذلك فى ألوان مختلفة ، وتقلبوا فى مظاهر متعددة ، وكيفما وجدوا فى أمة أفسدوا أخلاقها ، وعاد عليهم سعيهم بالزوال .

« وأيما ذاهب ذهب فى غور مقاصد الآخذين بهذه الطريقة تجلى له أن لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية . إذ لا ريب فى أن الدين مطلقاً هو سلك النظام الاجتماعى . وان يستحكم أساس التمدن بدون الدين البتة . وأول تعليم لهذه الطائفة هو إعدام الأديان ، وطرح كل عقد دينى . أما عدم شيوع هذه الطريقة وقلة سلاكها مع طول الزمن على نشأتها . فسببه أن نظام الألفة الإنسانية — وهو من آثار الحكمة الإلهية السامية — كانت له الغلبة على أصولها الواهية وشريعتها الفاسدة . وبهذا السر الإلهى انبعثت نفوس البشر لمحو ما ظهر منها . ومن هذا لم يسبق لهم ثبات قدم ، ولم تقم لهم قائمة أمر ، ولا فى وقت من الأوقات » اﻫ

وقد أشار العلامة صلاح الدين السلجوقى فى كتابه « أضواء على ميادين الفلسفة والعلم واللغة والفن والأدب » إلى صلاحيـة إطلاق اسم « الدهريين » على هـذه الجماعات المختلفة ، من منكرى البعث فى الآخرة كما جاءت به الأديان السماوية . وأن هؤلاء الدهريين هم عشرة مذاهب : الأبيقورية . الارتقائية المزدكية . الباطنية . أتباع فولتير وجان جاك روسو . المورمون . النفصيون . الدلاسون . الماديون . يقول : ولما كان الهنود يطلقون كلمة « نيدهرى » على جميع المنحرفين عن طريق الحق . فليس بعيداً أن نترجها بلفظ « الدهرى » .

وقال : إن الدهرية عبارة عن حكومة الغرائز والعقد النفسية ، ونشاء « أى الدهرية » أن يعم الذل والهوان والخوف والإرهاب والتفرقة والكراهية . وقد أشار السيد جمال الدين الأفغانى فى رسالته إلى أن الدهرية هى مركز الرذائل والذل والهوان ومصدر الفوضى والفساد والهمجية وموجب لسقوط الفرد والمجتمع . وبعد أن سرد تاريخ نهوض الأمم بإيمانها وبعبادتها وكيانها الذاتى وسقوطها بنفوذ الدهريين غير المؤمنين بالله وبأنفسهم — قال : إن طائفة النيشريين (الدهريين) كلما نجمت فى أمة أفسدت أخلاقها وأوقعت الخلل فى عقولها ، وتخطفت قلوب آحادها بأنواع من الحيل وألوان من التلبيس حتى تصبح تلك الأمة وقد وهى أساسها وتفطر بناؤها واغتالتها رذائل الأخلاق من الأثرة وعبادة الشهوات والجرأة على ارتكاب الخيانات ؛ ولا يزال الفساد يتغلغل فى أحشائها حتى تضمحل ويمحى إسمها من صفحة الوجود أو تضرب عليها الذلة أو يخلد أبناؤها فى الفقر والعبودية . وقال : إن قبيلا من هـذه الطائفة عملوا على إخفاء مقصدهم الأصلى وهو الإباحة والاشتراك ، واكتفوا فى ظاهر الأمر بإنكار وجحود يوم الدين ، يوم العرض والجزاء .

إن هذه النزعة وحدها كافية فى إفساد الهيئة الاجتماعية وزعزعة أركان المدنية ، وليس من ضروب الباطل ما هو أشد منها تأثيراً فى محو الفضائل وإثارة الخبائث والرذائل . وليس من الممكن أن يجتمع بشخص واحد وهم الدهرية وفضيلة الأمانة والصدق وشرف الهمة وكمال الرجولة » اه

أبرز مفاهيم الدهرية هى : (أولا) إنكار وجود الخالق وأن الكون بلا إله ولا صانع . (ثانياً) قولهم إن الدهر قديم . (ثالثاً) إنكار البعث والإعادة . قامت هذه الطائفة فى القرن الرابع الهجرى وتحطمت تحت ضربات معاول التصحيح الذى قام به الأئمة . ثم تجددت فى العصر الحديث جددها الاستعمار البريطانى فى الهند . ولكى نفهم أبعاد الدهرية علينا أن نستعرض بعض المصطلحات ننظر من خلال التاريخ لنرى كيف مضت الدعوة الباطنية تدق طريقها . وكيف أن ما نراه اليوم وليس إلا إعادة الماضى ، أو صياغة جديدة للفكر القديم الهدام .

الفصل الثاني

الثيوصوفيه

مذهب من المذاهب التي ابتدعها الفكر الحديث في مجال معارضته للدين واتخاذه بدائل فلسفية لتحل محله. والثيوصوفيـة (Theosphie) كلمة يونانية معناها (الحكمة الإلهيـة) ثيوس (إله) صوفيا (حكمة) أطلق هذا المصطلح في القرن الثالث للميلاد، ثم عادت إلى الظهور في القرن السادس عشر للميلاد. واستمدت الثيوصوفية مفاهيمها من الفلسفة الهندية القديمة. وبرزت في ضوء الدعوة التي أعلنها بعض كتاب الغرب بالتوجه إلى الفلسفات الشرقية للبحث فيها عن مفاهيم ومذاهب تحل محل الأديان. وكان شوبنهور الفيلسوف الألماني: هو أول من نبه الأذهان إلى دراسة الصوفية الهندية وخاصة مذهب بوذا الذي يقول بإماتة الشهوات حتى تصل النفس بعد مجاهدتها إلى حال لا تشتهي معه شيئاً، وهي الحالة التي أطلق عليها (النرفانا) أي: حالة التشبع الروحي بالانصراف عن الدنيا كلها، وهي حالة إذا وصل إليها الإنسان انطلق العقل حراً. لا تقيده الشهوات أو العواطف. ومن ثم يرى ما لا يراه وهو مقيد بها، ويشعر عندئذ بحقيقة الكون أو عنصره الأول. وقد برز هذا الاتجاه في الفكر الغربي على أثر الخلاف الذي قام منذ عصر النهضة بين العلم والدين وظهور الفلسفة كبديل للدين، ثم جاءت الفلسفة المادية، ثم حاولت الفلسفة أن تجد من الثيوصوفية سبيلا للبحث عن ماوراء المادة، وذلك ما يسمى بالانتقال من المذهب العقلي المادي إلى المذهب الباطني الحدسي القائم على البصيرة والإلهام. وقد اعتمد مذهب الثيوصوفية على كتب البراهمة والبوذيين وقدماء المصريين. والكبالا اليهودية وما يقوله المعتقدون بمناجاة الارواح. وقد ترعرعت هذه الظاهرة وامتدت حتى أطلق عليها بعض الكتاب (الصوفية الجديدة) واعتمدت على نفس الأصول القديمة التي تقول بها الصوفية الهندية وهي: (الحلول). وقد وجد هذا المنطق تقبلا في النفس الأوربية لأنه يتصل بمعنى قريب من مفهوم الدين في الغرب.

فالأوروبيون يقولون: « إن كان المسيح قد أسمى نفسه إلهاً فذلك لأنه يعتقد أن ملكوت الله ليس خارجاً عنا. إذ هو حال بنا. ونحن آلهة مثله. وما أرواحنا إلا قبس أو شرارة من تلك الروح العامة الشاملة للكون. ومفهوم الألوهية في الإسلام يختلف عن هذا المفهوم كما يختلف مفهوم النبوة، فالله تبارك وتعالى في مفهوم الإسلام: ليس حالا في الكون ولا متحداً به ولكنه قائم بذاته سبحانه، وكذلك في مفهوم الإسلام أن النبي هو عبد الله ورسوله.

وقد شاع هذا المفهوم في الفكر الأوروبي، وهو أحد مفاهيم وحدة الوجود والحلول المجوسية القديمة، واستطاع أن يجد في مفهوم العقائد الغربية: أرضية خصبة لتقبله، ولكنه يختلف اختلافاً

كبيراً عن مفاهيم الإسلام فى أكثر من موضع (أولا) فى الصلة بين الخالق سبحانه وتعالى، وبين العالم والكون (ثانياً) فى إهدار المسؤولية الفردية التى تجعل الإنسان مسؤولا عن عمله مسؤولية كاملة يوم القيامة (ثالثاً) فى إنكار البعث والجزاء . والجنة والنار، وذلك فى القول بأن الإنسان خالد وأن مستقبله من المجد والبهاء مالا حد له وأن الجزاء هو دنيوى وليس أخروياً ومن الناحية التاريخية: نقول أن الجمعية الثيوصوفية: أنشأتها مدام هيلانة بتروفنا بلاخابسكى الروسية المولودة عام ١٨٧٥ فى الولايات المتحدة ثم انتقلت إلى (مدارس) فى الهند. فاتخذت قاعدة أعمالها فى (أديار). ثم انتهت رئاستها إلى مسز بيزانت الانجليزية الحاصلة على دكتوراة فى الحقوق.

(و) مسز بيزانت، هى أكبر دعاة الثيوصوفية. وقد كانت زوجة قسيس انجليزى. دب الشك فى قلبها نحو المسيحية فأخذت تدعو مع صديق لها يدعى (برادلف) إلى التعطيل وأخيراً اهتدت إلى الصوفية. فاعتنقتها بحماسة وهمة. وسافرت إلى الهند حيث تعلمت اللغة الهندية ودرست الصوفية الهندية وقد ألفت فى الحلول والتجسد . وقد أحصى بولس مصوبع فروع الجمعية فى الثلاثينات فبلغ المنتمون إليها نحو (٦٠) ألف وأبرز أهدافها إيجاد فكرة أخوة إنسانية عامة ويرى بعض الباحثين أن الثيوصوفية وليدة الصوفية الهندية .

والفارسية القديمة التى كانت موجودة فى الشرق قبل الاسلام وقد نشر هذه الأفكار فى بلادنا خريجو الإرساليات الذين سيطروا على الصحافة العربية فى أواخر القرن الماضى وحملوا لواء كثير من هذه الدعوات ويقول الدكتور يعقوب صروف. محرر المقتطف عام ١٩١٠ فى عرض لهذا المذهب: إن الثيوصوفية نوع من التصوف المسيحى والتأمل، والاتصال بالله، دون حاجة إلى كتاب ولا لوح. وإن الثيوصوفية قد اختلطت بالتصوف الهندى الآن ولأصحابها دعاوى طويلة عريضة وقد وصفها (مكس ملر) اليهودى بأنها الديانة السرية وأنها جاءت نتيجة التقاء البوذية والفكر المسيحى الغربى ويرد الكاثوليك هذه المفاهيم التى حددتها الثيوصوفية إلى الغنوصية القديمة. وما كان يسمى فى المشرق بالعالم الروحى (أنافزيا) والعلم السرى (ميتامزيا) بما كان يقول به مانى وبوذا وكنفوشيوس . وفيثاغورس وأفلاطون . وأهل هذه المذاهب يعتقدون بالحلول والتقمص .

وحدة الوجود

إن أخطر ما تحمله فكرة وحدة الوجود من مخالفة للعقيدة الإسلامية: عقيدة التوحيد الخالص الذى أنزل الله به الأديان والرسل جميعاً والذى استبان على أكمل وجه فى الاسلام وكتابه القرآن فقد أنكر الاسلام عقيدة الاتحاد والحلول وأنكر حلول الخالق فى المخلوق، أو استغراق المخلوق فى الخالق وهو يميز طبيعة كل منهما . ولا يقبل الاسلام وحدة الوجود لأن فيها انتقالا من عقيدته الأصلية (لا إله إلا الله) إلى ما يقوله بعض الفلاسفة (لاموجود فى الحقيقة إلا الله) وسياق كل منهما ينتهى إلى نتائج مختلفة أشد الاختلاف عن النتائج الأخرى .

والمعروف: أن نظرية وحدة الوجود هى فكرة ترددت أول الأمر فى الفلسفة اليونانية . هى تتعارض مع الفطرة التى جاء بها الإسلام حاثاً أتباعه على التفكير فى خلق الله نامياً من التسليم فى

ذات الله ، مقرراً أن الوجود أو الكون لا يمكن أن يكون موجوداً بنفسه ولا ريب أن كثيراً من الباحثين دون هدى من معطيات الوحي والرسالات المنزلة قد جروا أشواطاً طويلة ، وراء الحقائق الكونية ، فلم يهتدوا وكانت غايتهم في إدراك الله تبارك وتعالى وإدراك ما وراء الطبيعة بالحواس القاصرة وبالعقل البشرى المحدود غير مقدرين أن هذه الأدوات من حس وعقل هي في ذاتها قاصرة عن الوصول بهم إلى هذه الغاية الكبرى التي لا تتحقق إلا عن طريق الإيمان برسالة الله ووحيه الذي أنزله إلى أنبيائه والتي تكفل للانسان الطمأنينة التامة في هذا المجال وتغنيه عن هذه المحاولات التي لا تنتهي إلى شيء ما .

والقول بأن الله هو الكون : إنما يمثل فهماً مادياً خالصاً لذات الله تبارك وتعالى . يتعارض مع العقل ومع الفطرة ومع ما أودعه الله في رسالة الدين الحق الموحى به الذي أراد به سبحانه أن يطامن النفس الإنسانية في هذا المجال حتى لا تكون في حاجة إلى البحث الذي لن تصل به إلى شيء وأن يفسح لها طريق التأمل والفكر في المجال الآخر . مجال العمران واكتشاف أسرار المادة . وما أودعه في الأرض والماء والجبال من معطيات وكنوز وهبها للانسان ، وحرضه على البحث عنها واستخلاصها . وذلك حسبما صوره الرسول الكريم : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا .

إن أخطر ما تصل إليه نظرية وحدة الوجود من أن دعوى القول بأن الكون هو الله وهو إسقاط التكليف وتدمير المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي حيث إن مذهب وحدة الوجود في ذاته لا يتفق مع الدين الحق المنزل الذي يقول بالتفرقة التامة بين الله والعالم . ولا يتفق مع العقل السليم الذي لا يقبل أن يكون الله هو العالم . بما فيه من حيوان وجماد فإن القول بوحدة الوجود يهدد قيمة كبرى من قيم الإسلام : وهي الأخلاق فالقول بوحدة الوجود يتعارض مع قاعدة أخلاقية الحياة التي تقوم على أساس مكين فما دام الله (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) قد اتخذ الإنسان مظهراً له : فكيف يستقيم أن يكون هذا الإنسان نفسه هو المسؤول عن نتائج عمله ؟ ومن هنا تظهر تلك الدعوة الخطيرة التي تستهدف معارضة الإسلام في صميم أصوله . وهي إسقاط التكليف ، أو إباحة ما حرم الله ، أو تجاوز حدود الله ولا شك أن أقوال القائلين بوحدة الوجود تخالف مخالفة أكيدة عقائد الاسلام القطعية المعلومة من الدين بالضرورة ونحن في حاجة إلى أن ننبه إلى أخطاء المصطلحات التي تقول (الكل في واحد والواحد في الكل) أو القول (لا موجود إلا الله وأن جميع الممكنات مظاهر له) فهذا كله يتعارض تعارضاً كاملاً مع التوحيد . كما جاء به القرآن وفهمه المسلمون .

وإذا كانت فكرة وحدة الوجود تعارض الوحي والعقل والفطرة جميعاً فإن عدداً من الفلاسفة اعتبروها كذلك حتى قال شوبنهور أن وحدة الوجود ليست إلا صورة مهذبة لمذهب الإلحاد لأن حقيقة مذهب الوجود تنحصر في أنه يهدم التعارض الثنائي الموجود بين الله والكون وأنه يقرر أن الكون موجود بفضل قوام الباطنة الخاصة به فالمبدأ الذي يقول به أصحاب وحدة الوجود من أن الله والكون شيء واحد إنما هو وسيلة مهذبة للاستغناء عن الله أو تعطيل عمله والمعروف أن الفلاسفة

اليونان من لدن طاليس أول فلاسفتهم إلى أرسطو ، يقولون باندماج الله فى العالم أو العالم فى الله .

ويقول الأستاذ عبد المنعم خلاف : إن انفصال الله عن الكون هو النظرة البديهية التى تحل أكبر مشكلات الوجود ، وبها ينضبط تقدمنا البشرى وتحدد المسئوليات والتبعات ، ولا تختلط الحدود ولا تسقط التكليفات ولا تهدر قيم الأشياء . ويقول نقولا حداد : إن الأديان السماوية الثلاثة ترفض هذه النظرية الفلسفية رفضاً تاماً ، وهى مجمعة على أن الله والوجود المادى شيئان مختلفان ، وأن لكل واحد منهما ذاتية قائمة بذاتها منفصلة عن الأخرى . وأن الله : واجب الوجود . هو خالق الوجود ومسيره . ويقول الدكتور محمد يوسف موسى : « الله والعالم » متباينان فى كل شىء ومنفصلان تمام الانفصال . أحدهما وجوده رهن بإرادة الآخر .

ويقول الأستاذ البشبيشى : إن وحدة الوجود مذهب خلاصته أن الله تعالى هو الوجود المطلق وأن غيره لا يتصف بالوجود أصلا ، فلو قيل إن الإنسان موجود فمعنى ذلك عندهم أن له تعلقاً بالوجود . وهو الله تعالى ، وأن جميع العوالم سواء اختلفت أنواعها ، وتباينت أجناسها وشخوصها موجودة من العدم ، وأن وجودها هذا محفوظ عليها بوجود الله تعالى ، وليس بنفسها لأنها معدومة من جهة نفسها بعدمها الأصلى ، ومن ثم بوجودها الذى هى به موجودة فى كله هو وجود الله تعالى ، وهو واحد لا ينقسم ولا ينتقض ولا يتجزأ ولا ينتقل ولا يتغير ولا يتعدد أصلا . ثم هو مطلق عن الكيفيات والأماكن والأزمان « إننا لا ننكر كون العالم موجوداً لقدرة الله وإرادته . ولكن يجب أن نفرق بين وجود الله ، وهو وجود أزلى لا بداية له ولا نهاية ، ووجود العوالم . وهو وجود حادث له بداية ونهاية . ثم إننا أيضاً نسلم بأن وجود العوالم مسبب من الله تعالى ولكن لنا أن نقرر : أن هناك فرقاً كبيراً بين السبب والمسبب والعلة والمعلول » .

الحلول

ويختلف مفهوم الحلول عن مفهوم وحدة الوجود ، لحيث يقول مذهب وحدة الوجود بالوحدة الذاتية لجميع الأشياء مع تعدد صورها فى الظاهر (وهو زيف لا يقره الإسلام) فإن مذهب الحلول يقول بوجود حقيقتين مختلفتين : الإلهية والبشرية . وقيام الأول بالثانية تحت ظروف خاصة . ويرى لويس ماسينيون أن الحلول له طابع مسيحى وله أصول يونانية وهندية ، وأنه مهدم لوحدة الله حسب رأى القرآن . ويقول الأستاذ الإمام الغزالى : إن الحلول لا يمكن تصوره بين عبدين ، فكيف يمكن تصوره بين الرب والعبد . ولئن سلم أحد بإمكان ذلك إلى نفس واحدة فكيف يسلم به لجميع النفوس . وعندئذ يصبح العالم كله آلهة . ويقول : فمن المحال إذن أن يحل الله فى النفس . وأن ينطبع فيها انطباع الحبر فى اللبن ، فإن ذلك من صفات الأجسام .

ويقول الأستاذ محمود البشبيشى : إن الله واجب الوجود ، منزه عن صفات الحلول ، وأن الحلول

عالى على الله تعالى لأسباب كثيرة . ذلك لأن القديم يختلف عن الحادث لاختلاف الماهية فى كل منهما. وهذا الاختلاف يوجب استحالة حلول القديم فى الحادث. ثم إن الله واجب الوجود . وهذا الوصف ينفى الحلول لأنه فى حالة حدوثه يصبح الحال تابعاً لما حل فيه ، كما يصبح معلولا لهذا المحل ومتأثراً به ، بل إنه ليصبح فى غير الإمكان تصور الحال إلا بتصور المحل . إذن ينتفى الحلول فى هذه المرة كما استحال فى الأولى ، ثم إن الله واجب الوجود والواجب ليس عرضاً وليس جوهراً ، فإذا كان الحلول حلول عرض فى جوهر فلا يمكن بالنسبة لله تعالى لأنه ليس بعرض ، وإذا كان حلول جوهر فلا يمكن أيضاً لأن الله تعالى ليس بجوهر .

إن كتابات الحلول ووحدة الوجود وغيرهما هى من كتابات عصور الضعف والتخلف، وقد كانت من أهم ما التفت إليه المستشرقون وحاولوا إحياءه وإذاعته ، وذلك لخلق منطلق لدعوات الإباحة المستحدثة وخاصة الوجودية والفرويدية وغيرها . ومحاولة لتحطيم قانون أصيل هو (البعث والجزاء) وكذلك لترديد الدعوة إلى إسقاط التكاليف والالتزام الاخلاق ، وذلك كله مقدمة من مقدمات الانحلال الذى يستهدف التأثير فى فريضة الجهاد فى سبيل الله ، والمعروف أن الاعتقاد بالحلول يسقط التكاليف والالتزامات وحدود الله ، ويدفع المسلمين خارج نطاق قيمهم الأساسية ويدمر مقوماتهم النفسية فى الاندفاع نحو الترف والانحلال والفساد والشهوات ، عن طريق إعلاء الغرائز أو الاندفاع نحو الانسحاب من الحياة كالرهبانية ومعارضة مبدأ الزواج وتكوين الأسرة ، والزهادة عن بناء الحياة ومواجهة أهواء المجتمعات .

الاتحـــاد

وليست فكرة الاتحاد بأكثر من فكرتى وحدة الوجود والحلول اضطراباً وفساداً ، ذلك لأن قول القائل : إن العبد صار هو الرب . كلام يتناقض مع نفسه بل ينبغى أن ينزه الرب سبحانه أن يجرى اللسان فى حقه بأمثال هذه المحاولات ، وطريق البرهنة على فساد ذلك يورده الغزالى فى ثلاثة احتمالات : (أولا) إما أن تظل كل ذات من الذاتين موجودة (ثانياً) إما أن تفنى إحداهما وتبقى الأخرى (ثالثاً) إما أن يفنيا معاً .

وفى الحالة الأولى : لا يكون هناك اتحاد . وفى الثانية : كيف يمكن الزعم بأن هناك اتحاداً بين موجود ومعدوم ؟ وفى الثالثة : لا يكون هناك محل للحديث عن الاتحاد بل الأولى أن نتكلم عن الانعدام ، فالتناقض واضح فى جميع هذه الاحتمالات ؛ ويقول الاستاذ البشبيشى: وكما ننزه الله سبحانه وتعالى عن الحلول فهو يتنزه عن الاتحاد لأنه لو حدث أن اتحد واجب الوجود بغيره نتج عن ذلك حالتان : إما أن يبقيا موجودين معاً ، وإما أن يدركهما العدم معاً، ويخرج منهما ثالث أو يدرك العدم أحدهما ويبقى الآخر ففى بقائهما موجودين فهما إذاً فى هذه الحالة إثنان متمايزان متباينان . وهذا التمايز ينافى الاتحاد لأن الاتحاد يلزم أن يصبحا واحداً وفى عدمهما معاً يبطل الاتحاد لأن المعدوم لا يتحد بمعدوم وفى حالة أحدهما معاً فقط فإن الاتحاد لم يتحقق أصلا .

التناسخ

لا ريب أن هنالك عناصر وافدة دخلت إلى الفكر الإسلامي . وحاولت أن تؤثر في المفاهيم الإسلامية القرآنية الأساسية ، ومنها التناسخ . أن نظرية التناسخ . تتعارض مع مفهوم الفطرة والعقل والدين . وهي لا تطابق الحقيقة الثابتة عن مسؤولية الإنسان والتزامه الأخلاقي . فضلا عن سذاجة النظرة التي تقول بها ، وتحاول أن تبررها وهي أن إنتقالها من بدن إلى بدن إنما هو وسيلة لمنح الروح فرصة بعد فرصة ، لكي تتطهر من أدرانها . وتوحي المذاهب الفلسفية القائلة بالتناسخ بأن الحياة ما دامت قصيرة فلا بد من إيجاد فرصة وثانية وثالثة ، للروح حتى تتحرر من أخطائها . وفي الهندوسية أن الروح لا تحاسب بعد حياتها الأولى مباشرة . ونظرية التناسخ تعارض المسؤولية الفردية التي تناط بكل إنسان بحسب عمله في الدنيا فكيف بالروح التي تتعاورها نفوس كثيرة ؟ كيف يمكن تحديد جزاء كل إنسان منهم ؟ فإذا كانت الأرواح تتناسخ مع الحيوان أيضاً . فإن الأمر يصبح أكثر اضطراباً . مما يورده الدارسون : أن فيثاغورس : يرى تناسخ الأروح بين الإنسان والحيوان . بمعنى أن روح الإنسان . قد تصبح روحاً لكلب . أو ثعلب مثلا وهو تصور غريب .

وفي هذا المعنى يقول الدكتور يحيى هويدى : كيف تستطيع النفس أن تنتقل من جسم إلى جسم ومن كائن إلى كائن . إن هذا الانتقال يفرض أولا احتفاظ النفس بفرديتها ، وأنها هي التي تنتقل من هذا الكائن إلى الآخر ويفترض ثانياً عدم تعلق النفس بجسم معين ، وهذا تناقض . لأننا نعلم أن مصدر وحدة الإنسان . هو النفس ، فالنفس هي التي تبقى الإنسان على شخصيته ووحدته وهويته وتجعله هو هذا الانسان باعتباره مكوناً من هذه النفس المعينة وذلك الجسم المعين فكيف يعترف القائلون بالتناسخ بفردانية النفس وبهويتها ولا يؤدى ذلك إلى اعترافهم بهوية الأجسام باعتبارها مكونة من نفس وجسم .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن فكرة التناسخ تقوم على قياس زمني خاطىء فهي تقول إن الفرصة التي تعطى للانسان في حياته الأولى فرصة ضيقة جداً . اذا قسناها بالزمن اللانهائي للأبدية التي ستعيش فيها النفس بعد ذلك . من أجل ذلك فعلينا أن نطيل هذه الفرصة في فترات متعاقبة ، لكي تكون متناسبة مع الزمن اللانهائي للأبدية ، التي ستعيش فيها النفس بعد مفارقتها جسدها الأول . وتلك فكرة قائمة على وهم خاطىء إذ مهما أطلت في المادة السابقة على فناء النفس فناءها الأخير ومهما تراكمت في ذلك السنون وتعاقبت الأدوار فإن هذا كله لن يكون شيئاً بالقياس إلى الأبدية التي تكون فيها النفس بعد الموت . فأولى أن تحمل لتلك النفس حياة واحدة من أن تحمل لها حيوات متعاقبة تقاسي في كل منها الأهوال . وقد رفض الاسلام فكرة التناسخ وذهب إلى خلود النفس خلوداً

نهائياً بعد حياتها الأولى المرتبطة بجسم معين ولا شك أن موقف الاسلام من خلود النفس ، وبعث الأجساد ، هو أظهر منطق للمسؤولية الفردية . والالتزام الأخلاقي بالحساب والجزاء في اليوم الآخر ويمكن أن نلاحظ هنا . أن أول من قال بتناسخ الأرواح بعد الإسلام السبئية (أصحاب عبد الله بن سبأ) . وذلك في محاولة ترمى إلى تزييف المفاهيم الأساسية القائمة في حدود العلاقات بين الله تبارك وتعالى والنبي ﷺ وعلى بن أبي طالب . ولا ريب أن نظرية التناسخ تسلم إلى مذهب الحلول .

النرفانا

النرفانا : كلمة غامضة معناها الانطفاء ، والسكون ، والانعدام ، والانتعاش والراحة والمقصود الروحي منها : أنها حال من فقدان الشعور تتخلص النفس في أثنائه من الإحساس بالألم الذي يسببه لها اتصالها بالأجسام فالنرفانا ليست وجوداً إيجابياً ولكنها تخلص من الوجود المؤلم يقوم لها مقام السعادة والتنعم . أما المتصوفة المسلمون . فقد أخذوا (النرفانا) بمعناها اللغوى . وسموها الفناء والمعروف أن الفناء الصوفي ليس نوعاً من النرفانا ولا ريب أن النرفانا ظاهرة سلبية وفكرة متفرعة عن مذهب تشاؤمي وهي تأمل خال من كل مضمون تصل بصاحبها إلى حالة يفنى فيها عن نفسه وتغيب عن ذكره وفكره كل الصور والرسوم وقد استمدوها من قول بوذا كل شيء فارغ والكل لاجوهر له ، لا شيء موجود ، والكل يصير ، والكل في صيرورة بغير جوهر وعندهم أنه حتى لا يتعرض الإنسان للتناسخ . أو دورة الأرواح أن يصل إلى النرفانا . وقد صدق الدكتور عبد الرحمن مرحبا حين قال إن التفكير الهندى قد حطم الإنسان ، وهو يدعى تأليه الإنسان .

الإشراق

يتشكل مذهب الإشراق من عناصر إغريقية وفارسية ، وهو فرع من الفلسفة اليونانية والأفلاطونية الجديدة ، وجامع بين مفهوم الرواقيين . والعناصر الإغريقية منه مأخوذة من فلسفة أفلوطين وفيلون اليهودي أما العناصر الفارسية فهي مأخوذة من ماني ومزدك وهو جامع آراء وتيارات راجت في الديانات القديمة . ويقوم في جملته على القول : بأن مصدر الكون هو : النور . فهو يعبر عن الله سبحانه وتعالى بالنور الأعلى ويصف العوالم بأنها أنوار مستمدة من النور الأول . والمعرفة الإنسانية في مفهوم الإشراقيين « إلهام » من العالم الأعلى يصل بواسطة عقول الأفلاك وهو ما يسمى بالكشف أو الإشراق أي ظهور الأنوار العقلية للنفوس بعد تجردها ، ولا ريب أن مذهب الاشراق في جملته وتفصيله خارج عن مفهوم الاسلام وبعيد عن جوهره ومتعارض مع التوحيد الخالص وقد تجددت الدعوة إلى هذا المذهب في الإسلام أيام الحروب الصليبية وفي نفس اللحظات الحرجة التي كان المسلمون يعملون لمقاومة العدو الزاحف .

وقد كانت فكرة النور والظلام من مذاهب المانوية والمزدكية ، والباطنية وقد مضى دعاة الإشراق متأثرين بمفاهيم المجوسية والورادشقية وما يتصل بالكواكب والنجوم والأفلاك . ومعرفة الله فى الإسلام لها أصولها ومصادرها . وهى بعيدة كل البعد عن أساليب الغنوصية وليست قائمة على الإلهام وحده أو العقل وحده ولكنها منهج متكامل له خصائصه وأبعاده الكاملة وليس فى الاسلام ترق الانسان إلى مرتبة الآلهة أو اتحاد الناسوت واللاهوت . وقد ثبت أن الحركة الداعية إلى ذلك فى مجموعها متصلة بالقرامطة الباطنية وبحركات الزنج وغيرها التى كانت تحاول إسقاط الدولة الإسلامية عن طريق الدعوة الفكرية وهدم التوحيد بالنظرية الفلسفية ولقد أقام المسلمون فكرهم على أصول ثابتة من القرآن والسنة الصحيحة ، واتخذوا من حياة الرسول نموذجاً تطبيقياً لايتعدونه ولايطمعون فى زيادة عنه ، مؤمنين بأن كل مالم يتحدث به القرآن أو رسول الله فإنه ليس من دين الله وأن رسول الله لم يكتم عن أمته شيئاً وأنه جاء ليتمم مكارم الأخلاق .

الفصل الثالث

البهائيه

الدعوة البهائية هى دعوة قديمة جددة شكلتها أصول متعددة من الفكر الوثنى الهلينى والفكر التلمودى اليهودى والفكر الغنوصى المجوسى وهى واحدة من الدعوات التى ظهرت فى إبان الاستعمار البريطانى بهدف إسقاط فريضة الجهاد أو تعطيلها ، وقد دخل يهود إيران هذه الحركة وحولوها وجهة متصلة بالماسونية وتحاول البهائية نشر دعوة وحدة الأديان بالخروج عن أصولها الدخول فى دين جديد ، يقول بالسلام العام وتوحيد لغات العالم ومساواة الرجل بالمرأة واعتبار العبادة هى العمل .

وحيث تدعو البهائية إلى وحدة الأديان تدعو إلى وحدة الأجناس والشعوب ومن خلال هذه الدعوة العالمية تتكشف روح المخططات التلمودية التى تحاول أن تنشر هذه الدعوة من وراء الروحية الحديثة والثيوصوفية وأنها جميعاً تحاول التبشير بعصر جديد يشرق على البشرية وهذا هو جماع ما حملته بروتوكولات صهيون ولا ريب أن كل دعوة تدعو إلى وحدة الأديان والأجناس إنما تحاول هدم الاسلام لأنه الدين الوحيد الذى يراد له أن يندمج وأن ينصهر وعالمية الأديان لاتستهدف إلا القضاء على عالمية الاسلام وهذه المعانى كلها مستمدة أساساً من التلمود وأبرز معانى البهائية إسقاط فريضة الجهاد وهى دعوة حق تنشر بين المسلمين لا تفيد منها إلا الصهيونية العالمية التى تحرص على كلمات السلام وقد أيدت البهائية الربا بإيعاز من اليهود فقد أحصت للبهاء تصريحات عن أرباحه الربوية ولا ريب أن هذا مما يكشف عن مطابقة تامة مع الأيديولوجية التلمودية البهائية حتى وصف البهائيون

بأنهم مجوس القرن العشرين وهى فى أنظمتها أقرب الماسونية وقد وجدت مناخها فى كل المناطق التى ضعفت فيها يقظة الاسلام . فقد استوطن البهائيون تركيا ، وعكا وحيفا قبيل الحرب العالمية الأولى . وكان لذلك أثره البعيد فى إنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين والقيام بدور هام فى عملية تهريب المهاجرين . وقد أعطى عباس البهاء بسلوكه وتصرفاته نموذجاً الزعامة البهائية . فقد كان ماجناً مفرطاً فى مجونه وأحصيت له فى زياراته لسويسرا وفرنسا وانجلترا مواقف قوامها التحرر من كل القيم والأخلاق وكشفت تصريحاته عن إشادة واضحة بالأفكار المجوسية واحتقار دعوات الأنبياء وقد وصف الرسل بأنهم أصحاب أوهام وخرافات أفسدت عقائد الشرق .

وقد كشفت مخططات البهائية عن منهج كامل فى هدم الاسلام (أولا) أن أبرز مفاهيمها هو تأويل آيات القرآن . بما يخرج عن مفهومها ومدلولها اللغوى والشرعى حيث تقوم البهائية فى أصولها الأولى على التأويل شأن الفرق الباطنية القديمة بعيداً عن أصول اللغة والمتعارف من النواميس والسنن ، والتحايل على آيات القرآن الكريم وصرفها عما يراد بها من حكمة وهداية وتوجيهها إلى غايات تتعارض أساساً مع القرآن وتأويل نصوص الشريعة بما يحقق الدعوة إلى إسقاط التكاليف ـ والتأويل فن ابتكره اليهود .

(ثانياً) تقول البهائية بتطور الشريعة وتبدلها تبعاً لتطور الأزمان وهى نفس الدعوى التى ترددها اليوم دعوات الفرويدية والوجودية والتى هى من الأسس الأصيلة للمخططات التلمودية وهم يذهبون إلى القول زوراً وبهتاناً بأن الشريعة الاسلامية لا تصلح لهذا الزمان . وفى هذا إقرار بالقوانين الوضعية وإقرار بنظام الغرب وفصل الدين عن المجتمع . (ثالثاً) معارضة الجهاد ومقاومته حتى ليقول أحدهم إن البشارة الأولى لجميع أهل العالم هى محو حكم الجهاد من الكتاب « أى القرآن » وقد علا صوت هذه الدعوة فى مواجهة احتلال اليهود لفلسطين دفعاً للمسلمين إلى الاستسلام والتخاذل . وكذلك ارتفع صوت هذه الدعوة الأولى إلى هذا المعنى فى مواجهة صيحة السلطان عبد الحميد بإعلان الجهاد الاسلامى فى مواجهة زحف الاستعمار على الدولة العثمانية .

(رابعاً) محاربة اللغة العربية والدعوة إلى تبديل اللغة الفصحى بما أسموه « اللغة النوراء » وذلك بهدف محاربة لغة الاسلام العالمية . وهى لغة القرآن العربية وإثارة الشكوك حول عالمية اللغة العربية وكونها اللغة المشتركة بين العرب والمسلمين لغة الفكر والثقافة والصلاة والهدف هو تمزيق الصلة بين حاضر المسلمين وبين ميراثهم الخالد . (خامساً) إدعاء نبوة جديدة ودين جديد ناسخ للاسلام وللأديان جميعاً . والدعوة إلى الخروج من الأديان القائمة والدخول فى دين جديد وفى ذلك متابعة لدعوة الماسونية ومنهج اليهود والأيديولوجية التلمودية فى محاولتها فرض نظام عالمى من خلال منطق « الربا وتحقيق هذه الغايات عن طريق مذهب يحتوى جميع رغائب المطامع والشهوات .

(سادساً) دعوة السلام العام . وهى دعوة إسرائيل التى تستهدف بقاء وجودها فى الأرض العربية

ودعوة الصهيونية العالمية ، بالسيطرة على العالم (سابعاً) إبطال شريعة الإسلام وأحكامها في شأن المرأة والدعوة إلى الاختلاط بين النساء والرجال والمساواة على النحو الذي تصبح فيه المرأة متحررة من قوامة الرجل ، واتخاذ المرأة متعة وأداة وذلك في ضوء فلسفة اللذة ، ومشاركة الرجل في صالات الرقص والنوادي الليلية وإقامة الحرية الجنسية المطلقة . ومن نتائجه إنهيار الأسرة وانحلالها (ثامناً) الترابط الواضح بين اليهودية التلمودية ، والبهائية ومتابعة اليهود في منهجهم والاستمداد في التراث اليهودي - وهذا التعانق بين البهائية والصهيونية في الحديث شبيه بتعانق اليهودية والمجوسية في القديم وهدفه القضاء على الإسلام وزلزلة أعمدته . وقد ثبت عن البهاء قوله : أنه يدعو إلى جمع المسلمين والنصارى واليهود على نواميس موسى عليه السلام أي أنه يريد (تهويد) المسلمين والنصارى . وأنه يجعل اليهودية الدين السائد في الأرض ، وبذلك يكون السلطان في عالم كله لليهود وحدهم .

وقد واجه كثير من الباحثين الدعوة البهائية ، وكشفوا عن زيفها وفي مقدمة هؤلاء العلامة محمد فريد وجدي . الذي قال إن طموح البهائية إلى أن تكون ديناً عاماً يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم ونحلهم هو مما يقضي بالعجب لأنها ليست بدين سماوي وليس فيها من الأصول والمبادىء ما يلفت العقول إليها بعد أن بالغت في عرض نفسها على الأمم . فأين هي من الاسلام الذي بنى أمماً قوية ومدنيات فاضلة في خلال عصور متعاقبة ولا يزال مثل حيويته الأولى حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون منهم برناردشو أن مبادىء الإسلام توشك أن تعم العالم أجمع . يقوم الاسلام على أصلين ضمنا له التعميم والخلود : موافقته للفطرة واعتماده على العقل والعلم فأين البهائية من هذا الموقف العلمي الحق وهي تقوم على أصلين : أحدهما عتيق غامض ، قال به أفراد من محبي السبح في الخيالات فهو تصور ذات الله بصور المخلوقين ؛ وثانيهما وهو صرف الألفاظ عن ظواهرها وفيه مجال فسيح للظنون والأوهام والخبط .

(تدعي البهائية أنها أتت العالم بجديد من الأصول ، لم يدر في خلد المصلحين قبلها ، كاتحاد الأديان وترك العصبيات واتحاد الأجناس والسلام العام ومساواة المرأة بالرجل أما ما سموه باتحاد الأديان : فقد سبق إليه الإسلام وأسسه على أقوى الأصول . وحاطه بأحكم الدلائل فقرر أن أصل الأديان كلها واحد وأن الخلافات التي بينها ما حدثت إلا بسبب ما أدخله قادتها عليها من الأوهام فالاسلام يفرض على أهله القول بوحدة الدين فرضاً ، ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من غير تفريق بينهم . إن البشرية ليست في حاجة إلى دين جديد بعد الاسلام فانه استكمل جميع شرائط الدين العام . ا هـ

هذا ومع أن البهائية قد انقضى على دعوتها نصف قرن ، أو يزيد فما نرى أنها استطاعت أن تحقق هدفاً واحداً من أهدافها في اتحاد المشرق أو المغرب أو اتحاد الأديان أو الأجناس أو زوال الحروب وكل ما كشفت عنه أنها موجة زائفة من موجات الإباحة والإلحاد التي حامت كل مخاتم الباطنية القديمة وأعادت طرحها على البشرية مرة أخرى . وأبرز ما يكشف عن غاياتهم وهدفهم أنهم يشاركون الدعوات الهدامة الأخرى في أبرز المفاهيم المشتركة بين هذه الفرق جميعاً .

(أولا) إنكار البعث والجنة والنار وهم يؤولونها (وهم فى هذا يقلدون طائفة الدهريين) (ثانياً) دعوى النبوة لبعض زعماء للمذهب (ثالثاً) نزع السلاح وإنكار الجهاد ونشر السلام العام ، ونبذ العصبيات الدينية (رابعاً) إنكار إعجاز القرآن وأنه من عند الله (خامساً) فساد عقيدتهم فى الأنبياء والدعوى عليهم بأنهم ستروا الحقائق وإنكار معجزات الأنبياء

(١) مفهوم التأويل

لا يقر الاسلام التأويل بمفهوم تخفيف الضوابط الأخلاقية ، أو التهوين من شأنها وليست هذه الضوابط أغلالا باطلة أو قيوداً مفروضة على الانسان — والاسلام فى جوهره يقوم على الثبات وعلى المفاهيم الواضحة (آيات محكمات هن أم الكتاب) (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) (سورة آل عمران) وتجرى محاولة التأويل المستحدثة الآن لتجعل الاسلام متقبلا للحضارة فى مختلف فروعها وأعمالها (ومنها الاباحية والربا والسرقة) والحق أن للاسلام قيماً ثابتة لا تتغير وإنما يجرى التطور فى الفروع لافى الأسس فلا يقال مطلقاً إن الاسلام يتطور ليتناسب مع الزمن والتقدم المادى ، بل إن على المجتمعات أن توائم بينها وبين الأصول الثابتة فى العقيدة والبعث والالتزام الأخلاق . إنما تتطور الاديان البشرية والايديولوجيات والمذاهب التستطيع أن توائم نفسها مع التغير الحادث ومع البيئات والعصور ذلك لأن هذه المذاهب عالمية وإنما الاسلام وحده هو الذى يمتلك الطابع العالمى الخالد . ومن شأن الوضعيات أن تواجه التغيير .

أما الإسلام ، فانه فى أصوله الاصيلة الثابتة قد أقام قواعد عامة لا تتعارض مع تغير الأزمنة ، أو تطور البيئات أما أن يصبح الاسلام مبرراً لأوضاع الحضارة ، والمجتمعات فإن ذلك ليس من رسالة الاسلام وأهدافه - يقول العلامة النيسابورى : واعلم أن مقتضى الديانة أن لا يؤول المسلم شيئاً من القرآن والحديث بالمعانى بحيث تبطل له الاعيان التى فسرها النبى صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح .وأبرز أخطاء التأويل يتمثل فى محاولة القول بأن عذاب جهنم ، هو عذاب معنوى . والهدف من ذلك هو إشاعة الإباحة والجريمة فى الناس بانتزاع فكرة العذاب الأخروى من نفوسهم ، بينما هو عنصر هام من عناصر إحياء الضمير وردع أهواء النفس من الشرور والمآثم وقد أصبحت الدعوة للإباحة المطلقة ، والتحلل من ضوابط الفضائل النفسية والجنسية هدفاً أيديولوجياً لبعض الفلسفات المعاصرة كالوجودية وغيرها .

فالقائلون بعدم كون العذاب الأخروى حقيقة ، إنما يعملون بدهائهم الخاص لتسريب هذه الفلسفات الهدامة للقضاء على روح الامم . وإفساد مقوماتها النفسية والعقائدية وهى أشد ما تكون حاجة إليها وهى تصارع فى معركة المصير إلى الاحتفاظ بهذه المقومات التى هى منابع طاقتها المناضلة . وإن هذا الاتجاه يؤدى إلى إبطال قضية (الثواب والعقاب) على الاطلاق ، وتبطل تبعاً لها مفعولية التكاليف الشرعية ، والتزام العمل لانه أى (الثواب والعقاب) مناط التكاليف الشرعية والتزام العمل بها ، فاذا بطلت حقيقة الجزاء بالثواب والعقاب على فعل التكاليف وتركها فقد بطلت حقيقة التكاليف الشرعية ذاتها وهل الاسلام إلا هذه التكاليف من الامر والنهى فإذا بطلت بطل الاسلام كله

الفصل الرابع

الروحية الحديثة

(١) تحضير الأرواح : من الدعوات التي روجت لها الصهيونية والاستعمار : دعوة تحضير الأرواح . وجمعياتها تتخذ أسلوب الماسونية . إذ تقوم على الأسرار والرموز ، ولها درجات يترقى فيها العضو ، حتى يصل إلى أعلى مكان . ولا ريب أن القول بأن أرواح المتوفين يمكن أن تعود إلى عالمنا ، وأن تتكلم . هو إدعاء ليس له أي دليل علمي أو عقلي ، ذلك أن عالم الروح عالم غيبي . من المستحيل أن يستطيع البشر اختراقه وأن كل ما عرف عنه لا يعدو ما جاء في الكتب المنزلة . وفي مقدمتها القرآن .

ولقد كشف كثير من المنتمين إلى هذه الجمعيات مدى فساد الطريقة التي يحاول بها محترفو هذه الصناعة ، خداع الناس ، والدخول إلى نفوسهم بألوان من الأساليب القائمة على الأضواء ، والإيماءات ومدى الزيف الذي تنطوي عليه هذه الوسائل التي لا تخدع إلا البسطاء والسذج . وأمامنا تجربة كاملة لرجل على درجة عالية من الثقافة هو الدكتور محمد محمد حسين : الذي كشف في كتابه (الروحية المدنية حقيقتها وأهدافها) عن مدى الزيف الذي اتضح له بعد أن مر بهذه التجارب ، وأنار الله بصيرته إلى الحقيقة وقد نقد جوانب كثيرة من حلقات تحضير الأرواح . سواء منها ما يتصل بأسلوب الفنجان أو السلة أو وسيط التنويم المغناطيسي . وذلك كله يتم في ظلام ، وتحت ضوء أحمر خافت لا يكاد يميز فيه الناظر أشباح الجالسين ، بالإضافة إلى رنين أجراس ، وما إلى ذلك من أساليب الخداع التي تثير الرهبة في نفوس البسطاء .

وقد تبين أن المقبلين على هذه الحلقات هم ممن فقدوا أعزاء لديهم ، فهم يريدون أن يشبعوا شوقهم إليهم بالاتصال بهم . أو ممن وقعوا في أزمات يطمعون في استقصاء أرواح أقارب ، أو شخصيات بارزة ، وسماع نصائحهم أو طلاب العلاج من الأمراض . وقد انتشرت في السنوات الأخيرة أضاليل كثيرة . منها أن أرواح الموتى تقدم للأحياء أشياء مكتوبة تملى عليهم ، وقالوا إن أحمد شوقي ما زال يوسل بشعره من عالم الأرواح . ويدعم دعاة الروحية الحديثة ومروجوها دعاواهم بنصوص من الكتب السماوية . يجازفون بتأويلها حسب أهوائهم أو يخرجونها عن مدلولها ، وكذلك بنصوص من المأثور عن السابقين الأولين .

يؤكد المتصلون بالأبحاث الروحية . والذين اندمجوا فيها ، أن هذه التجارب على الطريقة التي تجري بها في أوربا وأمريكا باسم Spiritualism والتي نقلها عنهم المروجون لها ، هي تحت ؟

هدامة تحاول أن تجعلها (ديناً جديداً) يهدم أسس المجتمع ، وينشر فيه الفوضى بالتشكيك فى كل المقررات الدينية والخلقية . وأنها شعبة من الدعوات المريبة التى تأخذ الناس من كل جانب والتى تلبس مختلف الأثواب ، وتخفى حقيقتها تحت شتى الأسماء وهى تتخذ اسم العلم أو السلام أو الرحمة أو محاربة الإلحاد والمادية بل إن مراجعة يسيرة للعقائد والمفاهيم التى يعتنقها دعاتها وأتباعها ، تكشف عن خطورتها وآثارها البعيدة فى تهديم الاسلام والتوحيد .

(أولا) تقوم تعاليم الروحية الحديثة على وحدة الوجود (فالله والعالم شىء واحد) وعلى تناسخ الأرواح وخلود الحياة المأنوسة لنا الآن فلا فناء للدنيا وأنه ليس هناك يوم البعث والحساب العام . والعبادات المقررة لا وزن لها عندهم وكذلك إنكار خلق الله الكون ومحاولة الترويج لقدم العالم ، وإنكار نهاية الخليقة . ومن عجب أن جميع هذه الدعوات قديمها وحديثها إنما تقوم على هذه القاعدة العجيبة سواء أ كانت البهائية أم الثيوصوفية أم الدهرية . بل إن دعوات الفرويدية والوجودية والهيبية تبلغ فى ذلك مبلغاً لا حد له من التزيد وتصل دعواها إلى أبعد الغايات فى استغلال مظاهر العلم ، وأساليب البحث الفلسفى رغبة فى تحقيق أكبر قدر من الاغراء والخداع ، والمعروف أن فكرة تناسخ الأرواح وخلود الدنيا وإنكار الجزاء هى نفس مبادىء الماسونية مصوغة فى أسلوب جديد والواضح أن فكرة التبشير بنبى أو إمام أو مهدى هى عنصر أصيل فى مثل هذه الدعوات . ذلك أن أصحابها إنما يمهدون بها لتحقيق غاية يتطلعون إلى أنها ستكون فى المرحلة التالية ومن ثم فهم يمدون الأبصار إليها .

وكذلك فإن هذه الدعوات تبشر بفكرة العالمية أو الكونية . وتلك غاية أخرى من غايات الدعوات الهدامة وهدف أصيل من أهداف الماسونية فى خدمة الصهيونية العالمية (ثانياً) تقوم الروحية الحديثة على معاداة الأديان . وخاصة الاسلام والمسيحية . وتكشف فى كثير من إيماءاتها عن صلتها باليهودية التلمودية . ولذلك فإن دعاة الروحية يهاجمون رجال الدين عامة . كمدخل إلى مهاجمة الأديان نفسها . ويركزون على السخرية منهم ، واتهامهم بالتقصير والتأخر والجمود إلى غير ذلك مما يراد إلصاقه بالدين نفسه ، فضلا عن إنكار علماء الدين لما يدعونه من اتصال بالأرواح أو ما يسمونه بالعلاج الروحى . وهم فى نفس الوقت يمجدون الوثنية والنحل القديمة ويعلون من شأن الفرعونية ويتخذون من أسمائها رموزاً لهم ولمحافلهم ـ وهم يشيدون ببعض الأرواح الفرعونية . مثل روح (رع أمون رع) و (صبوت) ويطلقون اسم جمعية الأهرام على محافلهم ويركزون على الآثار والكشف عنها ويولون هذه الكشوف عناية كبيرة .

(ثالثاً) تركز الروحية الحديثة : على هدم الاخلاق ، ونفى الاختيار والقول بالجبر . وهم فى دراساتهم الروحية يتخذون نفس الاسلوب الذى اتخذته الدراسات النفسية فى تبرير الجريمة والاعتذار عن المجرم ووصفه بأنه مريض ومحاولة إرجاع دوافعه إلى عقد نفسية . أو إلى اضطراب فى تركيب جسمه . على نحو ما تدعيه نظرية (لمبروزو) التى أثبت كثير من العلماء فسادها واضطرابها وهم يحاولون

بهذا أن يصلوا إلى تبرئة المجرم ، ورفع القصاص عنه . كما يدعون المجتمع إلى عدم مطاردته . فالروحيون يذهبون هذا المذهب نفسه عن طريق آخر فهم يبررون الجريمة بإرجاعها إلى ما يسمونه (المس الروحي) والمجرم في كلتا الحالتين مكره في نظرهم على الجريمة يرتكبها تحت عامل داخلي عند الفرويديين أو تحت عامل خارجي عند الروحيين ، وكل منهما يهدم التقنين الخلقي من أساسه ؛ لأنه يمحو المسؤولية الفردية التي هي مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة ، ومن الواضح أنه يمحو في الوقت نفسه الشرائع السماوية كلها ، بل القوانين الوضعية أيضاً فهو عود إلى الحيرة الضـــالة المفسدة للدين والدنيا جميعاً .

رابعاً : من أخطر دعواتهم وأكذبها : قولهم إن الجنة والنار فكرة عقلية ، أو حالة نفسية . وأن الناس على اختلاف أديانهم ، وعلى اختلاف نحلهم وطباعهم يعيشون فيما وراء الموت حياة هي نفس حياتهم على الأرض ، وأن فرص التكفير عن الذنوب لا تنقطع بموتهم . وهم بذلك يهدمون أكبر رادع للناس عن الظلم والفساد . وهم يدعون أن القيامة هي قيامة (آدم) الجديد الذي يقوم على وجه الأرض في عالم لا يحكمه إلا السلام . وتسوده الروحية ، وتلك إحدى دعاواهم التي يمهدون لها (خامساً) إنكار القرآن والإنجيل أساساً ، ثم محاولة الاستشهاد بهما مع التحريف الشديد في سبيل خداع البسطاء ، وضعاف النفوس .

وحيث أن الدعوات الهدامة . تقوم على المادية ، فقد كان من الضروري خلق منطلق آخر له مدخل ناعم الملمس يحاول استقطاب المتدينين ، والذين يكرهون الدعوات المادية ، ومن هنا كانت الروحية أسلوباً للهدم فهم يدعون الناس عن تحتويهم أساليب الخوارق والمعجزات ، ويتدرجون بهم حتى يصلوا معهم إلى نفس الغاية التي تصل إليها المذاهب المادية من إنكار الوحي ورسالات السماء ، ومن أن الأديان كلها تهدف إلى غاية واحدة . فليس بينها خلاف ، وأن الرسل والأنبياء ليسوا إلا وسطاء بين الله وخلقه ، وأن هذه الرسالة قائمة لا تنقطع ، وأن هناك من يقومون بها على الدوام ، وفي الوقت الحاضر أيضاً . ويصلون من هذا إلى الحديث عن نبيهم (سلفر بيرش) الذي يسمونه الروح الرائد أو (آدم الجديد) وهو الذي سيكون خليفة الله على الارض . وينقلون عنه كتابات وأحاديث تستهدف التركيز على الغايات الكبرى للمذهب الروحي . وهو إخراج الناس من الإيمان بالله على الوجه الذي جاءت به أديان الله ، والتي نزل بها الإسلام خاتماً . وفي هـــذه الدعوة حديث عن إسقاط التكاليف ، وتجاوز حـــدود الله ، وإباحة المتعة والشهوات ، والتشكيك في الجزاء والعقاب والثواب ، وفي الجنة والنار ، وفي الحياة الاخرى جملة ـ وتقوم هذه المفاهيم على أساس (التأويل) على نفس المنهج الذي عرفته الدعوات القديمة كلها ، وتهدف إلى الترويج للالحاد ، والإباحة تحت ستار التنويه بمكارم الاخلاق .

(سادساً) محاولة التفريق بين العبادات والاخلاق . والادعاء بأن العمل الصالح وحده كاف لأن يقرب الإنسان من ملكوت الله . ويشير (سلفر بيرش) إلى هذا المعنى حين يقول أعظم الرجل

الذى لا يعتنق أى دين . والذى لا يركم لذكر اسم الله . ولكنه (أمين) ، يحاول أن يخدم ويمد يده للضعيف ، ذلكم أكثر تديناً عن ينسب إلى أى دين .

ويكشف لنا النص مصادر الدعوة التى ثارت وترددت حول الفصل بين الإيمان بالله ، وبين الأخلاق أو بتعبيرهم بين (الدين والضمير) .

لا ريب أن هذه الحقائق تصل بنا إلى غاية واضحة : هى أن الصهيونية العالمية قد استطاعت أن تحتضن فكرة الروحية الحديثة ، وأن توجهها إلى أهدافها . كما احتضنت كثيراً من الحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية فى العصر الحديث ولقد كانت حركة الروحية . أو (الاسبرتزم) فى أول أمرها سلاحا جباراً ، أريد به معارضة المادية ـ ومقاومة نفوذها . وشغل به كثير من أرباب الاديان ومن أعداء الدعوات الهدامة ، وكان لأمثال فريد وجدى وغيره اهتمام كبير به ، بحسبانه ، باباً للادانة من الدعوة المادية وإسقاطها . غير أن القوى الهدامة ، استطاعت أن تستوعب الحركة الروحية وأن توجهها إلى غايات أبعد ما تكون من أهدافها الصحيحة . فأصبحت الروحية بمثابة دين جديد يبشر به المبشرون ويدعو إليه الداعون ويتنبؤون عن طريقه بعالم جديد يسوده السلام والمحبة ، وهو نفس الطريق الذى سارت فيه دعوة (الثيوصوفية) ثم البهائية .

وقد أكد هذا المعنى (هوايت هوك) فيما نقلته عنه مجلة عالم الروح حين قال : إن الروحية اليوم تلقنها يد الحراس من الأرواح . والسادة مصلحو البشر ، أولئك هم الذين خلقوا الحركات المتعددة منذ مائة سنة ؛ فهم الذين وضعوا أساس الثيوصوفية ، والفكر الحديث ، والعلم المسيحى الحديث ، ولذلك فالروحية ستكون أقدر على تأسيس دين جديد واسع العالم كله ـ ويقول أحد دعاة الروحية الحديثة : إن هذه المنظمة ستكون لكل البشرية . وعن طريقها سوف يوضح لنا سكان العالم الروحى : طريقة جديدة للحياة ، ويعطوننا فكرة جديدة عن الله ومشيئته . أنهم سوف يأتون لنا بالسلام والطمأنينة الروحية وسعادة النفس والقلب . سوف يحطون الحواجز بين الشعوب والافراد بين العقائد والأديان . ومعنى هذا كله كما يقول الدكتور عبده الراجحى فى كتابه الشخصية الإسرائيلية : إن الروحية الحديثة هى صورة أخرى من صور العالمية . تتخذ أسلوب الماسونية ذاته . فهى تقوم على رموز وأسرار . ولها درجات . ولم تنشأ تلقائية ولكن أنشئت لأهداف خاصة . وهى مخطط إسرائيلى واضح الهدف والاسلوب يرمى إلى انتزاع الشخص من دينه وقوميته وصبه فى قالب جديد من العالمية أو الكونية مستخدمة لذلك مختلف الوسائل حتى أنها تستخدم الدين فى هدم الدين . فهم يؤولون آيات القرآن تأويلا عجيباً ليصلوا إلى منهجهم ويحاولون أن يجعلوا من الوسيط الروحى فى العصر الحديث رسولا يفوق الرسل وهدف الروحية الحديثة (لابد أن يتحطم الدين بيد أتباعه ، ولا بد من تحقيق القومية على أيدى أبنائها وهذا هو السبيل أمام الاسرائيليين كى يركبوا أكتاف العالم من جديد) .

أما نحن المسلمين ، فإننا نقف إزاء ذلك كله على قاعدة صلبة ، فقد كشف لنا القرآن عن الموقف الصحيح من كل هذه الدعاوى الباطلة التى كشفها القرآن نفسه فى حديثه عن أصحاب المذاهب الهدامة ، والنحل الضارة التى سبقت الإسلام . ونحن المسلمين نؤمن بالمادة ، وما وراء المادة ، وبالحياة والموت والنشور . ونؤمن بالبعث والجزاء وبأن النار حق ، والجنة حق ، وأنها ليست من باب التصورات والأحاسيس . والمسلمون لا يؤمنون بأن الأرواح التى ذهبت تستطيع أن تتصل بعالمنا هذا أو أن يكون لأحد فى عالمنا سلطان لاستحضارها . ولا يقر الإسلام الاتجاه إلى الروحية وحدها ، وليس الإنسان روحاً بلا جسد . ولا ينصر الإسلام إحدى الكفتين : الروحية ، أو المادية ولكنه يجمعهما معاً ويوازى بينهما وهذه الدعوة إلى الروحية ليست إلا نموذجاً للدعوة إلى المادية وكلاهما يتعارض مع الفطرة وطبيعة الإنسان ومع مفهوم العقل المؤمن بالوحى ويبقى الاسلام متميزاً بنظامه ودعوته إلى الإيمان بالله ومقاومته لطغيان المادية أو الروحية على السواء ، ونحن نعرف أن هذه الفلسفات جميعاً نشأت فى غير محيط الاسلام كرد فعل لمفاهيم سبقت بالكبت والحجر على العقول والأبدان والدعوة إلى الرهبانية وتأليه الانسان وما يتصل بذلك من دعوات التعدد وغيرها مما دفع الفكر الغربى إلى الصراع بين المثالية والمادية وبين الأديان والفلسفات .

وهذا ما دفع بعض الفلاسفة إلى إعلاء الانسان وإلى عبادة الأجساد ، وما دفع الآخرين إلى وصف الدين بأنه أفيون الشعوب ، ودفع بعض الفلاسفة إلى القول بأن الإله الذى عرفوه عن طريق دينهم قد مات وهكذا ومن هنا كان رد فعل المادية المطلقة الغالية فى إنكار عالم الغيب والوحى والأديان وإنكار الله إلى دعوة غالية فى الاتجاه الآخر إلى الروحية والعوالم والأفلاك وكلاهما مسرف شديد الاسراف ، وكلاهما يصدر عن العقل الذى تحكمه الأهواء والذى تقوده دعوة « الفكر الحر » فلا يستطيع أن يصل إلى شىء لأنه يخرج عن نطاقه ووظيفته وأفقه المحدود .

وقد نقلت الجمعيات الروحية ، ودعوات تحضير الأرواح إلى بلاد نابغية انتزاع المسلمين من دينهم وقوميتهم وإخراجهم من عقائدهم وقيمهم فهم بين شرين كلاهما مر . اما روحية تنكر الجسد والمادة والانسان روح لا مادة ، كما يقولون أو مادية تنكر كل شىء وتعتبر الروح نفسها مادة خالصة وكل هذا يستهدف إخراج المسلمين من عقائدهم وشريعتهم وأخلاقهم ، ويلتمس لذلك ما حملته الدعوات الهدامة قديماً من باطنية وغنوصية وإشراق وتناسخ وحلول ، فالعبارات هى العبارات والأهداف هى الأهداف لا جديد إلا أن تتشكل من جديد تحت اسم جديد لا ريب أن الروحية الحديثة بدأت حركة فى مواجهة المادية ولكن مخططات التلمودية لم تلبث أن احتضنتها ، وسارت بها خطوة فى طريقها إلى غايتها ولا ريب أن القول بأن العلم الروحى قد أصبح علماً تجريبياً ، هو من أكبر التجاوزات الخاطئة التى ليس هناك دليل على صحتها ولا ريب أن التواصل بين الأحياء والموتى أمر مشكوك فيه إلى درجة الاستحالة المطلقة ومن الخطأ فى هذا المجال الربط بين هذه المفاهيم الوافدة وبين القرآن الكريم عن طريق التعسف فى تأمل الآيات والنصوص .

الباب الثانى

دعوات هدامة للمجتمعات والأمم

الفصل الأول : إيدلوجية التلمود — الفصل الثانى : العنصرية

الفصل الثالث : المادية — الفصل الرابع : العلمانية

الفصل الخامس : العالمية

الفصل الأول

إيدولوجية التلمود

ما تزال البشرية تواجه أيدلوجيات مناهضة للفطرة الإنسانية والتوحيد والعدل . ومتحركة داخل نظريات ومذاهب ، وطارحة انفسها خلال العصور المختلفة بأساليب متجددة . وفى هذا العصر نجد هذه الدعوات الهدامة للأمم والمجتمعات ، وقد صاغت أفكارها القديمة . التى سبقت الإسلام . والتى جاء الاسلام ، ومن قبله كل أديان السماء ، للكشف عن زيفها ، والتحذير من أخطارها . صاغت هذه الأفكار فى أسلوب براق ، وفى منهج علمى ، واتخذت أساليب مستحدثة ، وقدمت فكرها فى أجواء زاهية ، ومن خلال مطبوعات لامعة فاخرة ، وتحت أسماء مغرية . ولما كانت دعوات الهدم تعارض الأديان والأخلاق والقيم . وتناهض الضوابط والفرائض والحدود ، وهى تغرى بالتحرر فى الفكر والسلوك . فإنها قد تجد من بعض الجماعات البشرية ، والأفراد تقبلا بالإغراء ، ومؤازرة بالرغبة ومن هنا تتعرض الأمم للأخطار ، جيلا بعد جيل . وتتعمق الأزمة ، وتبرز الآثار المروعة التى لا يدفعها ، إلا أن تعود الأمم مرة أخرى ، إلى التماس مناهج الله وأساليب الرسل والأنبياء . ومن أخطر ما تواجهه البشرية اليوم ، مخططات التلمود التى صيغت فى دعوات هدامة كالماسونية ، وحركات خطيرة كالصهيونية ، وأساليب عمل كبروتوكولات صهيون . وهدفها هدم الدين والأخلاق والحضارة واستعمال كل الوسائط والأساليب ، لفرض سيطرة الصهيونية على العالم .

إن هدف أيدلوجية التلمود ، هو إقامة إمبراطورية الربا العالمية . وقد رسم اليهود أهدافهم بدقة

خلال مقامهم فى بابل منذ ألف عام تقريباً . حيث أعدوا مخططاً كاملا للسيطرة على العالم ، والانتقام من الأميين . ومن أجل هذا أجرى اليهود تحريفات كثيرة فى كتبهم المقدسة ، ومنها برزت نقمتهم وأحقادهم ، فقد حشوها بأخش القول ، وأبشع الحقد على الأديان والأمم ، وضمنوها عديداً من التعاليم الضالة ، والمبادىء الحاقدة ، والقيم الفاسدة يقول جاك ورمان ، ومارى لورا فى كتابهما (التحدى الصهيونى) : إن أبرز ما تحمله تعاليمات اليهود هى نصوص تفيض وحشية وعنصرية وحقداً على العالم كله ، وقد غذيت العقول بهذه الأحقاد على مدار الأجيال ، فأصبحت قوام النفسية اليهودية التى نشأت نتيجة لها الدعوة لإعادة التركيب الاجتماعى . ومنها نشأت تلك الأيدلوجية القائمة على العنصرية ، والسيطرة والظلم والربا ولا ريب أن هدف الأيدلوجية التلمودية هى طبع العالم كله بذلك الطابع . واحتوائه داخل منهج ربوى مادى . يتحرك من خلال مفاهيمهم وقيمهم . وقد وصلوا فى ذلك إلى حد كبير بتطعيم الفكر الغربى بمذاهب جديدة فى النفس والاجتماع والاخلاق والاقتصاد . ويمكن القول أن الايدلوجية التلمودية . قد استطاعت فعلا بعد صراع كبير مع الفكر الغربى المسيحى من السيطرة على الحضارة الأوروبية والفكر الغربى وطبعه بطابع المثل الأعلى التلمودى .

(٢) من أجل إقامة منهج وأيدلوجية ، لابد من تذليل القوى لتحقيق هذا الهدف . فإذا كان المثل الأعلى التلمودى هو الربا والسيطرة الاقتصادية العالمية فلا بد من تذليل كل العقبات فى سبيل إخضاع البشرية لهذا الهدف . ومن هنا تكون الاديان والاخلاق هى عقبة العقبات ولذلك ، فلا بد من تذليل الاديان والاخلاق لأنها قوى المعارضة الحقيقية . ومن هنا تركز التلمودية اليهودية على تفكيك الاخلاق ، وتسهيل سبل الشهوات ، وتزيين ذلك الناس بوسائل العرض ، وصياغة المناهج والفلسفات ومن هنا كانت سيطرة اليهودية على الصحافة ، والسينما ، والجامعات ، والمناهج الثقافية والتربوية . ومن ثم أصبح فى أيديهم كل وسائل التأثير العقلى ، والاقناع الفكرى ، عن طريق الكلمة المكتوبة ، والكلمة المسموعة ، والصورة المرئية . فالأزياء وأشرطة الصور المتحركة ، والرقص ، ومسابقات الجمال ، والمودات وكتب الجنس والصور العارية . . كل ذلك فى أيدى اليهود . وقد نشروا فى العالم كله مجلات متخصصة للدعوة إلى عبادة الجسد ، ونشر المجون والفسق ، وإذاعة القصص الكاشفة عن الأسرار وإعلان الفضائح والجرائم تحت ستار التحقيق الحنائى . وليست كل هذه الأساليب والمناهج والمذاهب ، من سياسية واجتماعية ، إلا محاولات لتقريب العقل البشرى كله من الايدلوجية التلمودية وصهره فيها وتشكيله من جديد .

(٣) حيث اقتضى مخطط الأيدلوجية التلمودية الطموح إلى السيطرة على البشرية ، فقد كانت الماسونية هى الجهاز الذى يمهد لهذا العمل . والماسونية هى عصارة الفكر التلمودى مصوغة فى فلسفة موجهة إلى مختلف الأديان والأجناس على النحو الذى يضع هذه المجموعات البشرية فى خدمة الهدف على نحو تدريجى . ووفق مغريات وأساليب ومطامح تتفق مع مختلف العقليات . والاذواق ، والرغبات ، ومن هنا قامت الماسونية على هدم طودين كبيرين هما الدين والأخلاق ، وقد جعلوا

شعارها (البناؤون الأحرار) ، هادفة من وراء ذلك إلى غاية واضحة هي بناء هيكل سليمان في القدس . فالماسونية ، وجميع الجمعيات السرية المماثلة ، ليست غايات ، وإنما هي وسائل تستخدمها القوى الخفية لتهديم القيم التي تقف حائلا دون مطامع اليهودية التلمودية . وقد أجمعت مصادر كثيرة على أن الماسونية تعمل على : تقويض الحضارة ومحو الأديان وهدم القوميات وإسقاط الدول والإمبراطوريات والقضاء على الآداب والأخلاق . إن الهدف هو السيطرة على العالم عن طريق حصر المال ، والقوة السياسية والصحافة في أيدى حفنة من اليهود ، وجعل هذه القوى الخاصة ببنى البشر وسائل تتحكم فيها وأن هذه المخططات والدعوات الهدامة ، هي محاولة مستمرة لتغيير تركيب العالم السياسي والاقتصادي والفكرى بما يتفق مع المخططات اليهودية .

(٤) الربا هو أس الأساس في بناء الأيدلوجية التلمودية : يقول اليهودي لا زار : إن أصحاب المصارف اليهودية ، ورجال الصناعة ، والشعراء والكتاب والخطباء اليهود متحدون بأفكار مختلفة ، ينشدون غاية واحدة . ويعتقد اليهود أن التصادم فيما بينهم يظل قائماً ما داموا يبثون روح الهدم ومتى تضعضعت ثروة أوربا فإن مصرف اليهود يبقى راسخاً لا يتزعزع . إن الهدف هو طغيان رأس المال ، واستنزاف جميع الثروات . وفي سبيل ذلك يتحتم حرب كل العوامل التي تحول دون هذه السيطرة - والمال كما يقول كارل ماركس في كتابه « المسألة اليهودية » هو إله إسرائيل المطاع وأمامه لا ينبغى لأى إله أن يعيش . ومحاولة إسرائيل والصهيونية هي أن يصبح إله اليهود إلها للناس أجمعين . من الحقائق الاجتماعية التاريخية : أن اليهود هم الذين وضعوا النظام المالى الذى هو القطب الروحى للمدنية الغربية في : العالمين القديم ، والجديد ، وأن لهم به النفوذ الأعلى في جميع الدول والأمم الرأسمالية - وأنهم أخفوا أنفسهم بصفتهم المالية . أن تظهر في مملكة المال ظهوراً به لنفوذهم أن يسلبوا ثرواتهم . وهم من أجل تحقيق هذا الهدف يضعون الاقتصاد العالمى على أساس الذهب الذى يحتكره اليهود لا على أساس قوة العمل والثروات الأخرى . وهم يجعلون من الذهب أقوى الأسلحة لإثارة الرأى العام وإفساد الشباب ، والقضاء على الضمائر والأديان والقوميات ونظام الأسرة . ومن شأنهم إحداث الأزمات الاقتصادية العالمية على الدوام . حتى لا يستريح العالم أبداً . فيضطر إلى الاستعانة باليهود . وقد أجاب الدكتور خالد شلدريك على سؤال : لماذا تقف الصهيونية واليهودية التلمودية موقفاً معارضاً للإسلام خاصة والأديان المنزلة بصفة عامة فقال : إن السر الحقيقى يختفى دائماً وراء المال ، فالدين الإسلامى بتحريمه الربا أقفل بلاد المسلمين دون الفوائد الفاحشة المكامن حبها في نفوس ناشئة بنى إسرائيل . وقد وجدوا أن الحرب الأوربية تستطيع حمايتهم فتدفقوا للاستيلاء على أملاك المسلمين . فالمالية اليهودية إنما ترمى إلى غزو كل بلاد إسلامية . ووضع الأغلال لا في أعناق المسلمين الأسيويين فقط . بل والإفريقيين أيضاً . فالمال إذن هو الذى جعل اليهود اليوم خصوماً للمسلمين .

هذا ، وتختلف وجهة نظر المسلمين عن وجهة نظر الايدلوجية التلمودية ، التى فرضت مفهومها على الحضارة الغربية ، وجعلتها خاضعة لحب الملذات ، وتوفير الذات ، والذهاب بالإنتاج الصناعى إلى غايته في سبيل تحقيق الترف والرفاهية ، ومن هذا المنطق بدأت المزاحمات والمضاربات ، وأعمال البورصات

أما الحضارة الإســلامية ، فلا تستمد روحها من مثل هذه البواعث . وإنما تستهدف أن تكون أمة أخلاقية تنصر الحق وتخذل الباطل . ومن هنا فليست الحضارة الإسلامية فى حاجة كبيرة إلى ما يسمونه الرفاهية والترف على حساب القيم الخلقية والدينية . ولقد كان اليهود هم الذين حملوا لواء الربا على طول العصور ، وكان المرابون اليهود وراء إقراض الأمم والملوك . وقد قامت الرأسمالية على الربا الفاحش وارتبط الاقتصاد العالمى بالربا . وارتبطت بالربا صناعة السينما وتجارة الرقيق ، والخمر والمخدرات . وكان للربا أثره فى التركيز على بضائع معينة هى أدوات الترف والزينة وما وراءها . حتى قامت مئات الصناعات فى العالم من أجل الانحلال ، وكان لا بد أن تخلق من ورائه فلسفة ونظريات تدعم الدعوة إليها وتحبب فيها وتغرى بها السذج ليستمر نمو الربا . وبذلك فرض الربا نفوذه وتأثيره على كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية .

(٥) يقول أحد الباحثين إنه من خلال الأيدلوجية التلمودية نسقت نظم الغرب . إن جميع أنظمة الغرب التى كان اليهود أصبع فى وضعها أو تعديلها ، أو فى تفسيرها ونشرها . قد صنعت إما لمصلحة أصحاب رؤوس الأموال ، أو لمصلحة طائفة أخرى من أهل القوة والتأثير ، أو للترويج لنزعة من النزعات التى يرتاح لها فريق ويسخط لها فريق . والنظام اليهودى قائم على تبادل المنفعة . وافق هذا التبادل الفضيلة أم خالفها ، والحق عندهم هو ما يتمشى مع القانون ولا تعاقب عليه الحاكم : أما مفهوم الإسلام فيختلف عن ذلك اختلافاً عميقاً . ومن خلال الأيدلوجية التلمودية التى نسقت نظم الغرب أشرف اليهود على مراكز القوى العالمية .

أشرف اليهود على الصحافة ودور النشر ووكالات الأنباء . أشرف اليهود على أبحاث الجامعات والثقافة ومذاهب العلم والفلسفة والفن والمسرح والسينما ونظم التعليم . أشرف اليهود على البنوك والشركات والبورصات . أشرف اليهود على الأزياء ، وهم من وراء كل الظواهر المستحدثة الخطيرة . الهيبة والخنافس وتجارة طب الليل وتركيب حقن الملوسة والمارجوانا . وقد عملوا على السيطرة على معامل الملابس والمساحيق والعطور وما سواها ، وبذلك توصلوا إلى تحقيق غرضين : السيطرة على المال وإفساد الأخلاق وهدم الأديان ، وعملية الزينة والأزياء تتغير حيناً بعد حين ، ويزداد النساء إنفاقاً ، وتتسرب الأموال إلى جيوبهم ، وفى نفس الوقت ينشرون عن طريق الأنماط والمودات أسباب التفسخ والهدم بما ينشر الرذيلة ويشيع الاختلاط ويزيل الفوارق بين الرجل والمرأة وينشر الأمراض الجنسية ، ويضيع الطهارة ويهدم الأسرة .

(٦) حملت الأيدلوجية التلمودية لواء دعوات مختلفة فى العصر الحديث ، بعد أن سيطرت عليها ورفعتها فى العالم كله من أجل تحقيق أهداف تتفق مع غايتها الكلية . فى مقدمة هذه الدعوات الثيوصوفية والروحية الحديثة والبهائية ، كما قدمت مذاهب تهدف من ورائها إلى فرض مفاهيم معارضة للحقائق التى استقرت فى الأذهان منذ نزول الإسلام إلى اليوم . والتى وضعت حداً فاصلا بين عصر وعصر . من هذه المذاهب علم مقارنة الأديان ، والدعوة إلى المعاصرية ، وإعلاء جنس على جنس . والدعوة

إلى المذهب المادى وإلى العلمانية وإلى فصل الدين عن المجتمع . كذلك طرحت نظريات عديدة متضادة فى ميدان الاقتصاد والسياسة والتفسير المادى للتاريخ ، وعلوم النفس والأخلاق والاجتماع تستهدف وضع أصول التلمود وأهدافه موضع التطبيق العملى فى المجتمعات . وما من مبدأ أو مذهب علمى أو فلسفى يظهر فى العالم حتى يهب اليهود ليكونوا من ورائه ، ويتصرفوا معه بما ينفعهم ، وقد أفلحت الدعاية اليهودية فى طبع كثير من العقائد والنحل بما يحقق مصلحتها ، فترى روح الولاء والتهلل لبنى إسرائيل ومعتقداتهم تهيمن على بعض المقدسات المسيحية . وما ظهر مذهب فكان مؤدياً إلى مسهم بالأذى إلا قاوموه ، وما كان مؤدياً إلى خير لهم إلا روجوه فى أنحاء العالم . وكذلك يروجون كل قلم ما دامت آثاره — عن قصد أو غير قصد — تساعد على إفساد الناس . ورفع شأن اليهود ، كما فعلوا مع « نيتشه » الذى يتهجم على المسيحية وأخلاقها ، ويقسم الأخلاق إلى قسمين : أخلاق سادة كالعنف — وأخلاق عبيد كالرحمة والبر ، مما يتفق وروح اليهودية وتاريخها ، ويمهد لها فى الأذهان ، ويجعلها سابقة على نيتشه . وكذلك روجوا مذهب التطور وأولوه تأويلات ما خطرت لدارون . واستخدموه فى القضاء على الأديان والقوميات والفنون .

(٧) وهم يستخدمون المذاهب المتناقضة لخدمة مصالحهم ما دامت تؤدى أخيراً إلى انحلال العالم ، والقضاء على أخلاقه ونظمه وأديانه وقومياته . فهم يدعون إلى العالمية والوطنية المتطرفة والتسامح الدينى والتطرف الدينى . وقد كونوا جماعات دولية ذات نفوذ عالمى لإثارة الخلاف بين الدول الديمقراطية والشيوعية فى الشرق والغرب وإثارة مخاوف كلا الفريقين من الآخر كلما خفت حدتها .

(٨) محاربة الأديان والخشية منها والحيلولة دون ظهورها فى سائر الأمم الحديثة فى الغرب، ذلك لأن النص على الدين فى الوثائق والشهادات سيحول بين اليهود وبين المناصب القيادية فى الأمم المختلفة. ولذلك فقد وجهوا إلى الدين حملة ضخمة . وعارضوه بالفلسفات حتى كادت تسقط قيمة الدين كلية فى نظر الغربيين وقد أثاروا فى وجه الفكر الدينى فى الغرب شبهات كثيرة منها أنه لا يفى بحاجة النفس الإنسانية ولا يحقق غاياتها . ولكن هذه الحملة تجد مواجهة صحيحة . وتختلف اختلافاً بيناً إذا وجهت مثل هذه الحملة إلى الاسلام ، ذلك أن موقف الإسلام من الإنسان ومن العلم ومن العمل والتقدم وزينة الله التى أخرج لعباده موقف مختلف فى أصوله وفروعه — وتحرص الأيدلوجية اليهودية على تطبيق شبهات الفكر الدينى الغربى على الإسلام . وذلك بفرض ضرب أكبر مقررات الإسلام ، وهو أنه دين ونظام مجتمع . فهى تستهدف إبعاد الإسلام عن المجتمع ، وإيقاع الخلاف بينه وبين العروبة ، وعزله عن الاقتصاد والقانون والتربية .

(٩) تقف التلمودية اليهودية موقف المعارضة للمنهج القرآنى الإسلامى الربانى الذى يتمثل فى الأخوة الإنسانية والحنيفية السمحة البعيدة عن العنصرية وإعلاء الجنس . وتقف من الأنبياء والرسل والكتب السماوية موقفاً معارضاً لموقف القرآن والإسلام ، فالإسلام يؤمن بالله وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله ، بينما تفرق التلمودية اليهودية ، وتصور بعض الأنبياء بصورة تنقص من أقدارهم .

وهم المؤهلون لقيادة الإنسانية المعصومون عن الخطأ — ذلك أن صور أبطال اليهود فى القرآن صور إسلامية . وصورهم فى العهد القديم صور يهودية - والخلاف بين صورتى كل بطل منهم خلاف واسع . قد يصل إلى التناكر . وأهم مظاهره هو عصمة هؤلاء الأبطال فى القرآن عما لا يليق بهم . وعدم عصمتهم فى العهد القديم من ذلك .

(١٠) أبرز مفاهيمهم المعارضة للأديان عامة والإسلام خاصة إنكار البعث . وهو أخطر مفاهيمهم التى يقيمون عليها منطلق النهج الربوى المادى الخالص .

(١١) رفض لحركة التاريخ الإنسانى منذ ماقبل المسيح حتى الآن على مدى ألفى سنة والتطورات الهائلة التى حدثت فى العقليات والنفسيات والعلوم والحضارات . وقربت ما بين الأجناس والألوان والأفكار حتى وصلت بالناس إلى عهد الإيمان بالإنسانية الواحدة المتعاونة على تحقيق السلام . بعد ما سلحتها علومها وفنونها بأسلحة تجعل الحرب بينها كحروب آلهة الخرافة تدميراً وإبادة للجميع . وارتداداً بالمدنية إلى عهود الكهوف والجبال .

(١٢) محاولة علم مقارنة الأديان . رد ما فى الأديان الأخيرة إلى الأديان السابقة : ورد كل القيم التى تمثلها الأديان المنزلة إلى عادات وتقاليد قديمة بدائية (والمعروف أن هذه القيم نزلت بها الأديان الأولى ثم توالت ، وأن البشرية لم تعرفها إلا من هذا الطريق) وهذه محاولة ترمى إلى تشكيك المسلمين فى دينهم . فالعالم إذا تمكن من تفتيت الدين ، وإعادة كل أفكاره إلى مصدر قبله ، ولو لم يكن المصدر يهودياً استطاع أن يمحق قداسة الدين فى القلوب والعقول ، وبخاصة المسلمين الذين يعتقدون أن القرآن وحى من الله أنزله على محمد فبلغه من غير أن يكون له مشاركة فيه . وهذا يخالف ما يعتقد المسيحيون فى الوحى ، إذ يرون أن كتاب الأناجيل هم كاتبوها بإلهام من الله .

(١٣) تقسيم البشر إلى يهود ، وهم الشعب المختار و « جوييم » وهم من عداهم من البشر ، ومعنى الجوييم : الكفرة والوثنيون والأنجاس والحيوانات . وتترجم أحياناً إلى العربية بكلمة الأميين Gentiles وقد صور القرآن هذه التفرقة (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل) أى أنهم غير ملزمين بأية شريعة فى معاملة غيرهم ، فلهم قتل غير اليهودى وسرقة ماله وانتهاك عرضه .

(١٤) روجوا المذهب التطور وأولوه تأويلات ما خطرت لدارون . واستخدموه فى القضاء على الأديان والقوميات والقوانين والفنون . باعتبار أن كل شىء بدأ ناقصاً شائهاً يثير السخرية والاحتقار ثم تطور ، فلا قداسة إذن لدين ولا لوطنية ولا قانون ولا فن ، ولا لأقدس من المقدسات ، وهم يعبثون بعلم الاقتصاد والاجتماع وعلم مقارنة الأديان ويسخرونها لمصلحتهم ولإفساد الآداب والنظم والعقول فى كل أنحاء العالم ، ويدسون فيها نظريات مموهة لا يفطن إلى زيفها إلا الموهوبون من ذوى العقول ، وهم وراء كل زى من أزياء الفكر والعقيدة والملابس والسلوك إذا ما نفعهم ، لا سيما إذا كان يفسد غيرهم . ويقول الأستاذ عباس العقاد : لقد تفهم المدارس العصرية فى أوربا ما لم تفهم هذه الحقيقة التى لا شك فيها ، هى أن إصبعاً من الأصابع اليهودية كان وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية وترمى إلى هدم القواعد التى يقوم عليها مجتمع الإنسان فى جميع الأزمان .

فالیهودی کارل مارکس وراء الشیوعیة التی تهدم قواعد الاخلاق والأدیان ، والیهودی دورکیم وراء علم الاجتماع الذی یلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ، ویحاول أن یبطل آثارها فی تطور الفضائل والآداب والیهودی أو نصف الیهودی سارتر وراء الوجودیة التی نشأت معززة لاكرام الفرد ، فنحا بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات القنوط والانحلال - ومن الخير أن تدرس المذاهب الفكرية . بل الأزياء الفكرية كلما شاع فی أوربا منها مذهب جديد . ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة . والتدبير المقصود ، وقل مثل ذلك فی فروید الیهودی الذی هو وراء علم النفس الذی یرجع كل المیول والآداب الدينية ، والخلقية ، والفنية والصوفية ، والأسرية إلى الغريزة الجنسية كی تبطل قداستها . ويخجل الانسان منها . ويزهده فيها . ويسلب الإنسان الإيمان بسموها ما دامت راجعة إلى أدنى ما يرى فی نفسه . وبهذا تنحط فی نظره صلاته بأسرته ومجتمعه . والكون وما وراءه . وقل مثل ذلك فی علم مقارنة الأديان التی يحاول اليهود بدراسة تطورها ، ومقارنة بعض أطوارها ببعض ، ومقارنتها بمثلها أن يمحوا قداستها . ويظهروا الأنبياء بمظهر الدجالين . وكذلك حركة الاستشراق التی تقوم على بعث الكتب القديمة . فهی فی العربية تزحم مكانها بأتفه الكتب التی لا تفيد علماً ، ولا تورث خلقاً ولا تهذب عقلا ، فكأنما تؤسس المكاتب لتكون متاحف لحفظ المومیات الخالية من الحياة . والتی تغرى الإنسان لتفاهة محتوياتها وكثرتها ، وتفككها بالنفور منها . إذا كان سليم الطبع والعقل ، أو التمسك بتفاهتها فتورثه الغرور والعناد والكبرياء وكذلك يروج اليهود لكل المعارف التافهة التی تمثل فی المجلات والقصص والكتب التی تثير الشهوات وتهيج الجوانب السيئة من الغرائز وتحبب الرذائل وتنشر الإنحلال .

(١٥) هناك نظرية تحتاج إلى مراجعة واسعة وإن كانت لها دلائل ترجح صدقها هی أن الأصابع التلمودية الصهيونية ، وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية ، وأنها وراء كل الثورات والانقلابات بل إن بعض الباحثين ، يرد حركات ابن سبأ وابن ديصان وابن ميمون القداح ومهران قرمط ، وبابك والحشاشين إلى اليهودية والأثر اليهودی .

(١٦) يقول بوكهارت : أن الأدب العالمی قد يكون مديناً لبعض كتاب اليهود ولكن شرهم أكثر من نفعهم وإثمهم أكبر من خيرهم فإن (هينه) أفسد أخلاق باريس . وأزوقاله : أنذرنا بقرب زوال الحضارة أما فرويد فقد خلق الإباحة الحديثة على نمط الوثنية الإغريقية ومجد الغريزة . وأطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة ، أن يفعلا بجسديهما ما شاء لهما الشبق الكامن فی حنايا ضلوعهما فالتهتك الجنسی لا حد له فی رأيه والولد يغار على أمه من أبيه ويود لو يموت الوالد ليحل محله (مركب أوديب) أما الأحلام فلا تفسير لها إلا الاغتلام وعلاقة الجنس وتوماس مان : برر عشق الذكور (قصة الموت فی البندقية) ووصف مرضى الصدر بحيوانات مفترسة تتخذ من يأس الشفاء عذراً للتسافد فصحات الجبال مواخير المرضى تحت مراقبه الأطباء (قصة الجبل المسحور) .

(١٧) يقول أحد الباحثين : كان من المستطاع أن تشق الفلسفة الأوربية طريقها حتى تصل إلى العلم من ناحية وإلى الدين من ناحية أخرى ، ولكن تداخلات الصهيونية واليهود منذ سبنيوزا قد حالت دون ذلك ، وحولت دفة الفلسفة إلى المادية والإلحاد وقد وصف مكسيم جوركى أمة اليهود بأنها سيف ذهبي شهر على رأس أوربا منذ مهد المسيحية . وقد حاولت الفلسفات التى حمل لواءها اليهود تغيير مفاهيم الحياة ، وإفساد الفطرة إذ حاولت أن تصف الإنسان بأنه حيوان ، وابن المصادفة وأنه لا غاية لوجوده ولا هدف ورتبت على ذلك أنه لا معنى للحياة الإنسانية ، ولا للمثل العليا . وأن الحياة تخبط ليس فيها إلا الطعام والجنس وبذلك طغى طابع المادية على علوم النفس والاخلاق والتربية والفن وهاجم ماركس وفرويد ودوركايم (وهم جميعاً من اليهود) الدين فقال ماركس : أنه أفيون الشعوب . ومجموعة الأساطير وقال فرويد : أنه ناشيء من الكبت . وقال دوركايم : أنه ليس فطرة .

(١٨) محاولة الإدعاء بأن اليهود منبع الأديان ، ورأس الحضارات والثقافات والقول بأن بناء الأهرامات واختراع الآلات إنما كان بفضلهم والتاريخ يؤكد أنه لا دور لهم فى الحضارات إلا دور التخريب وأنهم لم يخلقوا حركة إجتماعية واحدة . ولا قدرة لهم على خلقها ولكنهم يحتوون أى حركة تنبع ويستغلونها ويحولونها إلى غاياتهم . ويمكن القول بأن الفلسفات الحديثة كلها : ليست إلا تراث الفلسفات الهدامة القديمة . وقد حملوها إلى العصر الحديث وابتعثوها وفق ترتيب محدد لهدم مقومات الأمم الدينية والخلقية ، وقد وصفوها بالتراث القديم والتعاليم السرية من كتب البراهمة والبوذيين . والمصريين ومما يتصل بالسحر والخرافة والأرواح والهياكل ، والأوثان وذلك هدف أساسى من أهدافهم وهو إغراق العالم بأفكار غريبة وآراء شاذة . وكلمات تهدف إلى تدمير الأديان . وإنكار التوحيد والتشكيك فى البعث والجزاء وترضى الرغبات والأهواء فى نفوس البسطاء وتحملهم بها إلى غاياتها البعيدة .

(١٩) يقول هنرى فورد فى كتابه اليهودى العالمى : الموسيقى الشعبية الرخيصة هى احتكار اليهود وليست موسيقى الجاز ، إلا احتكاراً يهودياً ، وليست هذه الحركات المشهرة بما فيها من قذارة ، والتى تتسق مع النغمات التى تبعث الغرائز إلا من عمل اليهود ولعل من الغريب أنك حيث التفت للتحرى عن الخيوط المؤذية للنفوس التى تسرى فى المجتمع تجد جماعة من اليهود خلفها فوراء الفساد فى لعبة الكرة جماعة من اليهود هم وراء الاستغلال المالى ووراء الدعاية للشهوات الروحية والسيطرة على السياسات القومية الحزبية والسيطرة على الصحافة عن طريق الضغط المالى والتجارى ، وثمانون فى المائة من مستغلى الحروب هم من اليهود .

(٢٠) إن مفهوم التنوير الذى أدخلته المخططات التلمودية إلى الفكر الغربى المسيحى هو نقله إلى التعبد الرق المادى ، أى الاعتقاد بأن ليس فى الحياة هدف آخر سوى هذه الحياة نفسها » . ويقول محمد أسد : إن هيا كل هذه الديانة هى المصانع العظيمة ودور السينما ، والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص ، وكهنة هذه الديانة هم : الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما ويتسع هذا المفهوم حتى يصل

إلى أنه ليس للاعتبارات الخلقية أى أثر مباشر محسوس فى الرفاهية المادية وأن كل الفضائل تتعلق برفاهية المجتمع المادى . مع إزاحة الحب الأبوى والعفاف لأنها لا تهب المجتمع فائدة مادية محسوسة ومن ثم فقد أخذت القيم الوثنية اليونانية تحل محل القيم الدينية والأخلاقية وتحمل الدعوة إلى حرية فردية للجسد البشرى غير مقيدة تقودها قاعدة (الفكر الحر) التى تشرف عليها الصهيونية العالمية ، وتقوم على تعاليم التلمود وقد أشار إلى هذا المعنى « ديستوفسكى » حين قال : اليهودى وحده وماله هما سيد العالم فاليهودى وماله يسيطران على كل شىء فى أوربا : على التعليم وعلى الحضـــارة ، وعلى الاشتراكية .

(٢١) تجمع المصادر على أن الفكر الصهيونى التلمودى فكر مراوغ يحاول أن يضع أكاذيبه وأضاليله داخل مناهج علمية براقة ، تخدع البسطاء ولكنها تتكشف عن زيف كبير حين توضع تحت أضواء الحق ومصادره من القرآن ورسالات السماء وخير دليل ونموذج على هذا الاتجاه : مذكرات هرتزل ووايزمان فهى مليئة بأساليب الخداع ، والمغالطة والمطامع .

المخططات التلمودية

تقوم مخططات أيدلوجية التلمود التى تقوم الماسونية بواجهة أساسية فى تنفيذها على أهداف واضحة هى :

(أولا) : محاربة الأديان بصورة عامة ، وبث روح الإلحاد والإباحة بين الشعوب ـ تقول المصطلحات : يجب ألا تقتصر الماسونية على شعب دون غيره ولتحقيق الماسونية العالمية : يجب سحق عدونا الأزلى . الذى هو : الدين: بإزالة رجاله ، إن غايتنا قبل كل شىء هى إبادة الأديان جميعاً وتطرح الماسونية شعاراً خطيراً : هو أنه لا فرق بين دين ودين ، حتى ولو كان فى نظرها باطلا وتستهدف القضاء على عاطفة الحمية للدين المعتنق ، والقضاء على اعتزاز كل إنسان بدينه ، أو التمسك به كما ترى الماسونية أدياناً باطلة كالمجوسية والبرهمية ، والزرادشتية .

(ثانياً) تدمير القوى البشرية ومعنويات الأمم واستذلالها واستعبادها (ثالثاً) السيطرة على الشباب من أولى الغايات . تقول المصطلحات : دعوا الكهول والشيوخ جانباً ، وتفرغوا للشباب . بل تفرغوا حتى الأطفال لابد من تربية الأطفال بعيداً عن الدين. إن الماسونية تستعين بالفرق والأندية الرياضية ، والجمعيات الموسيقية لاستدامة نفوذها على أوساط الشبيبة . إن حرية الآباء : لا تتفق مع مصالحنا وغاياتنا أبداً . يجب تربية الأطفال وفق منهاج مقرر إن الجمعيات الرياضية والفرق الموسيقية وغيرها من المؤسسات التى تربى الناشئة عقلياً وجسمانياً هى المرتع الخصيب لنمو الماسونية فيها.إن غاية الماسونية هى تطعيم أكبر مجموعة من الكتل البشرية بأفكارها . تقول البروتوكلات : لقد خدعنا

شبيهة الخوارج ، وأفسدنا آدابها وجعلناها شبيهة بالبهائم . وأفقدناها نشاطها ، بما علمناها والقينا في ذهنها من المبادىء والنظريات الكاذبة. ويقول ماكس نوردو : أدعوا إلى تنشئة الجيل الصاعد على الكذب والتمويه ، والمخادعة وعلى الأنانية وحب المنفعة والسعى وراءها بكل الطرق .

(رابعاً) إشعال الثورات والفتن والإضطرابات وإنفاق الأموال الطائلة في سبيل الأغراض الهدامة وقد اعترف كثير من المصادر اليهودية بأن البناء الحر : أى الماسونية كان لها أعظم الشأن في تدبير الإنقلابات والثورات وخاصة الثورة الفرنسية وثورات البرتغال ، وإيطاليا وبلاد البلقان (خامساً) خلق جيل العلمانيين في العالم لمعالجة القضايا على أساس مادى ، وإبعاد الآثار العقائدية ، والروحية والدينية عن مخططات السياسة والاجتماع (سادساً) التركيز على المذاهب والفلسفات : تقول المخططات أن من أهم العوامل التى ساعدت على انتشار الماسونية طوال القرن الماضى : هى المذاهب الحرة التى تعتبر من نتاج الفكر البشرى. إن الأفكار المستقلة التى لا تساير الأفكار الماسونية كانت تتعرض للنقد اللاذع والعداء المر ، والأراجيف من قبل الماسونية . والمعروف أن هذه الأفكار المستقلة هى كل فكر يتصل بالوحى والقيم العليا التى جاءت بها الأديان .

(سابعاً) الإختفاء وراء المسرح السياسى : يقول بنيامين إسرائيل السياسى الإنجليزى عام ١٨٤٤ . إن الذين يديرون دفة السياسة فى العالم ليسوا هم الذين فى دست الحكم ظاهراً ، وإنما هم أولئك الذين يكمنون وراء الكواليس — وقال نابليون الثالث ملك فرنسا عام ١٨٥٩ : يجب ألا نخدع أنفسنا إن الدنيا تدار من قبل المنظمات السرية وقال والترتينا الوزير الألمانى اليهودى إن ثلاثمائة رجل من رجال السياسة المتعارفين فيما بينهم يديرون الأمور فى أوربا ، والآن فى العالم كله .

(ثامناً) بث الدعاية الخبيثة للمبادىء القاتلة للدين والأخـــلاق باسم المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية بحيث تسود هذه المبادىء على روح الأديان والدعوة إلى الأدب الشخصى الخالى من الإيمان بالبعث يقول (ألن) إن الكتاب الذين يجرى فى عروقهم دم يهودى كانوا فى طليعة الداعين إلى المذاهب المنافية للدين والادب والمجتمع. تقول البروتوكلات : أنظروا إلى نجاح مذهب داروين ، وماركس وجميع المذاهب هى من صنع دسائسنا فإنكم لا تجهلون تأثير سموم هذه التعاليم فى عقول الخوارج .

(تاسعاً) التركيز على المرأة ، والدعوة إلى تحريرها ونزعها من الدين والاسرة واجتذابها إلى المراقص والمحافل تقول المخططات : لسنا بمسيطرين على الخرافات ويقصدون الأديان - إلا يوم تشاركنا المرأة العمل-المرأة رسول لمبادئنا الحرة تخلصها من نفوذ الكهنوت-إن خطتنا هى دفع الابناء إلى نبذ السلطة الوالدية (ديدرو) وإلقاء الكراهية بين الاولاد ووالديهم (دالمبر) إن الإعتراف بجميل ليس واجباً لازماً على البنين لوالديهم ولبعث السلطة الابوية الدوم والنساء من أقوى العوامل

للفوز بنسف الدين ونشر الفساد ـ وتقول المخططات إن العفة المطلقة مرذولة عند الماسونية ، لأنها ضد ميل الطبيعة . ويقول الدكتور أحمد أبو شادى فى كتابه عن الماسونية : المرأة لا تستطيع الحياة الكريمة إلا إذا حاربت رجل الدين ـ عاشراً : تدمير الأسرة والدعوة إلى الزواج المدنى العقيم ، لاستنزاف قوة الإله . والدعوة إلى الإباحة المطلقة وإشاعة الأغلاط فى الفرد والمجتمع والأمة ـ تقول المخططات : إن الهجوم على رب العائلة هو الأمر الجوهرى فى إستمالة الناس إلى جماعتنا . من الضرورى إفراد الرجل عن عائلته وإفساد أخلاقه وترغيبه فى المعيشة الحرة ـ إن الخلاعة باب واسع لسن الزواج المدنى . إن الرناليس محظور إذا تسامح الرجل بإمرأته لغيره ـ يقول دالمار : إن الماسونية بنشرها أسباب الفساد والخلاعة قد أضرت بفرنسا أكثر من الحرب السبعينية وأخسرتها عدداً وافراً من الرجال (حادى عشر) مهاجمة الدعوات الوطنية والنضال من أجل تحرير الأوطان ومهاجمة نظام الجندية ـ تقول المخططات : الوطن خيال باطل وكذب محض إن الوطن هو كل يغتصبنا أما الرايات الوطنية فهى آية الظلم والاستبداد فيجب أن تلقى فى المزابل .

(ثانى عشر) الدعوة إلى التعليم العلمانى اللادينى الذى يفسد قلوب الشباب ، وبفرض مقومات الرذيلة ـ تقول المخططات : إن الدعوة إلى أن تكون المدارس علمانية إلزامية هو إخراج الأبناء من رعاية الآباء . إن تهذيب الأحداث هو حجر الزاوية فى بنائنا الحر . ينبغى أن ننفى التعليم المسيحى لا يهتم بالديانة وننفى كل تعليم دينى ـ المدارس الجديدة تعمل على نشر الفساد والخلاعة واقتلاع العفة من عقول الفتيات . (ثالث عشر) توفير أسباب الفساد : عن طريق الثقافة والصحافة وذلك بنشر الروايات الإباحية ، والصور الخليعة ، والأغانى البذيئة ونشر الخرافات (رابع عشر) جحود الخالق الأعظم وإطلاق اسم له من غير أسمائه الحسنى التى اختارها سبحانه لنفسه فجعلوه بمنزل مهندس الكون . كأنه لم يخلق الكائنات من العدم . وإنما هو مهندسها فقط ومنظمها وزادوا على ذلك الإسم إبهاماً بقولهم (المهندس الأعظم) كأن الله (جل وعلا عما يقولون علواً كبيراً) قد استعان فى هندسته هذه بغيره من المهندسين . فكان هو الاعظم بينهم .

(رابع عشر) إحياء النحل والوثنيات القديمة ـ يقول رينان وهو أحد كبار دعاة الماسونية : ليس فى العالم عبادة موافقة للعقل السليم ولمبادىء العالم كعبادة الشمس فهى إله كرتنا الأرضية . ويقول أحد فلاسفة الماسونية . إن (أدونيرام) فى مذهب الماسونية هو أوزيريس إله المصريين أو ميترا إله الفرس ، أو باخوس إله الرومان أو أحد الآلهة المتعددين الذين كانوا فى سالف الزمان ويقول فرنندمور كل اعتقاد دينى أساسه ما وراء الطبيعة ـ كالإله غير المنظور ـ فهو ضعف فى عقل الإنسان ـ ويقول فلاسفة الماسونية : علينا أن نرقى فوق طبقات كل الاديان نتحرر أيضاً من كل اعتقاد بوجود إله أيا كان ويقول آخر : لم يوجد أحد يؤمن بالله ، وبخلود النفس غير الأبله والحق ومن هنا كانت محاولة الماسونية الخطيرة التى نفذتها فى التعليم الغربى وهى نفى اسم الله من كتب التعليم فى المدارس المتوسطة .

(الخامس عشر) القول بأن المادة إنما تترقى من تلقاء نفسها بكرور الدهور إلى أن يتمخض جامدها فيلد النبات ويتحول النبات إلى حيوان ، وينسل الحيوان ، إنساناً همجياً ذا عقل ضعيف. والهدف من هذا هو إقناع أتباعهم بأنه لا شيء يلزمهم من الفرائض والواجبات ، نحو العمران البشري وأنه ليست هناك شرائع وتعاليم مفروضة على جميع البشر .

السادس عشر : إعلان حرية العقل ضد السلطة الدينية ، واستقلال الإنسان ضد استبداد رجال الدين واستقلال المدارس الحرة المجردة من تعليم الدين . ويعلنون أن العلم هو الأساس الوحيد لكل معتقد فهم يرفضون كل عقيدة بنيت على أساس الوحي ويرون أن من حرية البحث انتقاد عقائد الدين (السابع عشر) تأليه المال أو عبادته واستعمال كل الوسائل فى سبيل الحصول عليه كالرشوة ، والكذب والعنف والانتهازية (الثامن عشر) احتقار كل الشعوب ، وكل الأديان ، ووصف الشعوب بالأمية . (يقول التلمود) إن الأميين هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعبه المختار (التاسع عشر) إشاعة الأدب المكشوف الإباحي يقول « البروتوكول ١٣ » سننشر بين الشعوب أدباً مريضاً قذراً تغثى له النفوس ، ويساعد على هدم الاسرة ، وتدمير المقومات الأخلاقية للمجتمعات المعادية لنا ، وسنستمر فى الترويج لهذا الأدب وتشجيعه. من هذا الأدب المريض القذر تنطلق الدعوة إلى الإباحة المطلقة لهدم الأسرة ، وتدمير الأخلاق فى المجتمع .

(العشرون) تحطيم المعتقدات الإسلامية والمسيحية وسحق القيم الروحية والمعنوية ، وإثارة الشكوك حول المعتقدات ، وطرح فلسفات الشك (الحادى والعشرون) الدعوة إلى العالمية وتذويب القوميات والعصبيات الدينية والعنصرية والوطنية . ومن هنا كان تركيزهم على نبذ التعصب القومى الدينى واعتبار الإنسان مواطناً فى العالم كله وخلق أسباب الصراع بين الدين والقومية وإيجاد التناقضات بين الإسلام والعروبة وطرح فلسفة الأجناس والعناصر والدماء والأقليات .

(الثانى والعشرون) تمجيد الغريزة ، وإعادة نمط الوثنية الإغريقية والدعوة إلى إطلاق عنان الشهوات البشرية ، والترخيص للرجل والمرأة أن يفعلا ما يشاءان من التهتك الجنسى وعشق الذكور وتكشف هذه الصفحة موضع كتابات فرويد ، وقصـــة توماس مان « الموت فى البندقية » تقول البروتوكولات : للتوصل إلى حكم العالم يجب أن يقوم بتكثير النقائص ، والشهوات ، وتشويه الشرائع المصطلح عليها بحيث يضيع الجميع ويتبلبلون بهذا الخواء .

(الثالث والعشرون) السيطرة على الصحافة ، والمسرح ، والعلم ، تقول البروتوكولات : الصحافة والمسرح . والمضاربة والشريعة كل ذلك يجب أن يكون تحت تصرف من فى قبضتهم كل ذهب الارض وهى أقوى سلاح لإثارة الرأى العام ، وإفساد أخلاق الشبيبة ، والتهييج عوى إلى الرذيلة للاشاة كل ويل إلى التهذيب المسيحى ، لتشييد عبادة المال والمادة والشهوة الكلية الملاذ - يقول البروتوكول :

يجب أن تكون الصحافة تافهة كاذبة بعيدة عن الحق ، إنها تعمل للتحريض ، وإثارة المشاعر التى نحن في حاجة إليها من أجل أهدافنا . (الرابع والعشرون) خلق دائرة مغلقة متكاملة من مناهج التفكير والعمل والحياة ، يحول بين البشر وبين التخطيط لأنفسهم - تقول المخططات : لقد فقد الخوارج عادة التفكير خارجاً عن آرائنا العلمية . ويقول : وجب علينا أن نقوض أركان كل إيمان .. وننزع من عقل الخوارج الاعتقاد بالله وبالنفس وذلك بشغلهم بقوانين رياضية وضروريات مادية .

(الخامس والعشرون) نشر الرذائل والخمر - تقول البروتوكولات : يفقد الخوارج رشدهم بتناولهم المشروبات الكحولية وتسير شبيبتهم إلى الجنون تفرط ما تلقفته من المبادىء المدرسية وبانهما كها بالرذائل التى تتسرب إليها من عمالنا وموظفينا كالمعلمين والخدم والحاضنات وبنوع أخص من نسائنا اللواتى يترددن إلى محلات الملاهى عند الخوارج وأعنى بهؤلاء الأخيرات بنات الهوى اللواتى يتزاحمن على الرذيلة والدعارة .

(السادس والعشرون) الغض من قدرة العلماء والمتخصصين فى العقائد والأديان - يقول البروتوكول ١٧ : وقد عنينا عناية كبيرة بالحط من كرامة رجال الدين عند الأميين فى أعين الناس وبذلك نجحنا فى الإضرار برسالاتهم التى يمكن أن تكون عقبة كؤودا فى طريقنا وأن نفوذ رجال الدين ليتضاءل يوما فيوماً .

(السابع والعشرون) الدعوة إلى الإلحاد عن طريق حرية العقيدة - يقول البروتوكول : لقد خدعنا الجيل الناشىء . وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادىء ونظريات يجب أن تحطم كل إيمان وتكون النتيجة المألوفة لهذا هى إثمار ملحدين يجب أن نكتسح كل الأديان والعقائد الأخرى ويقول إن لفظ الحرية يجعل المجتمع فى صراع مع جميع القوى بل مع قوة الله نفسها .

(الثامن والعشرون) الدعوة إلى الانحلال - تقول البروتوكولات : علينا أن نشجع الانحلال فى المجتمعات غير اليهودية فيعم الفساد والكفر ، وتضعف الروابط المتينة التى تعتبر أهم مقومات الشعوب فيسهل علينا السيطرة عليها ، وتوجيهها كما نريد .

الفصل الثانى

دعوة العنصرية

كانت الدعوة إلى العنصرية على النحو الذى استطارت به فى التاريخ الحديث من أبرز الأعمال التى قصد بها إلى تحطيم الوحدة الفكرية التى تقيمها العقائد والأديان، والعوامل النفسية والروحية التى تجمع بين بنى البشر، ولذلك فقد بدت منذ اليوم الأول لها فى صورة استعلاء الدم والعرق ومن ورائه استعلاء الجنس الأبيض على الأجناس الملونة . ثم جرت من خلال ذلك الدعوة إلى إثارة الأساطير التى تحاول أن تفرض تميزاً خاصاً للإسرائيليين، وتفوقاً خاصاً يحاول أن يشكل دعوة إلى السيطرة العالمية على النحو الذى تكشف عنه بروتوكولات صهيون من عداء الجوييم أو الأميين الذين هم فى نظر اليهود (العالم كله) .

ولقد كانت مخططات التلمود من وراء دعوة العنصرية فى مختلف صورها . وقد أحرز اليهود كل ما كسبته هذه الدعوة من آثار ونتائج، فضلا عن أن هذه الدعوة . أيقظت العنصرية الصهيونية التى تحاول أن تستعلى بامتياز خاص على البشرية كلها . فإنها قد أقامت صراعاً لما ينتهى بعد بين الأجناس السامية . والآرية — وبين أجناس أوربا ذاتها . وخلقت قضية كبرى كتب فيها الباحثون عشرات الألوف من الصفحات، ومئات من الكتب دون أن يصلوا إلى شىء نهائى . وكانت هذه الدعوة قد بلغت ذروتها فترة ما بين الحربين. حين اعتنقت الدول الجرمانية عقيدة الاستعلاء العنصرى ونشأت عنها الفلسفة النازية . ولقد انسلخت من الدعوة العنصرية مذاهب عديدة : منها الدعوة القومية . والنزعة الإقليمية ، والفكرة اللاسامية . وظهرت علوم متخصصة فى مقدمتها علم الأجناس البشرية ، الأنتروبولوجيا ، أو الإثنولوجيا الجديدة . وهو علم تولى السيطرة عليه موجهون يستهدفون منه إبقاء نيران الخصومات والأحقاد بين الأمم وإيقاعها فى الحروب والصراع . وقد استغل الاستعمار نتائج هذه الدراسات فى دعم مركزه وتبرير وجوده فى المناطق المحتلة . وفى ضوء هذه الدراسات تكشفت مخططات التفرقة العنصرية ، والتمييز العنصرى الذى تحمل لواءه الدول المستعمرة فى محاولة التشكيك فى وحدة الجنس البشرى ، وتعميق التمييز بين الأجناس ، وإقامته على أساس فوارق طبيعية تعطى بعض الأجناس مكان السيادة والسيطرة ، وتعطى أجناساً أخرى مكان التبعية . ولا ريب أن نظرية التفرق العنصرى باطلة أصلا ، وأن جميع الأبحاث والدراسات التى قام بها العلماء المنصفون ، قد زيفت مثل هذه الدعوى وأبطلتها ، وأبانت بأن فوارق الهيا كل ، ولون البشرة وفصائل الدم لا قيمة لها فى تركيب الإنسان عقلياً ونفسياً . ومن المعروف أن الاستعمار لم يحقق ما ادعاه من رسالة فى ترقية الشعوب وتمدينها ، بل على العكس من ذلك عمد إلى تدمير مقدرات هذه الشعوب ، وأثار فيها البلبلة بطرحه عشرات من النظريات والدعوات المدمرة .

(٢) ولا ريب أن فكرة التفوق العنصرى التى رفعت لواءها الحضارة الغربية فى العصر الحديث هى فكرة قديمة ظهرت قبل الإسلام ، وحملت لواءها الحضارة اليونانية الرومانية . ثم جاء الإسلام بدحضها ومعارضتها . فقد كانت نظرية التفوق العنصرى والسيادة هى أبرز مميزات الحضارة اليونانية الرومانية ، إذ قام المجتمع الأغريقى . ثم المجتمع الرومانى على نظام طبقى : قوامه طبقة الأحرار وهم السادة . وطبقة العبيد الذين يعملون ويكدحون . وقد كانوا ينظرون إلى كل الأجناس المخالفة على أنهم من البرابرة ، ونفس النظرة كانت فى مجتمع مصر القديمة ومجتمع الفرس ، وهى المجتمعات الكبرى الثلاثة التى سبقت الإسلام . ولقد ذكر هيرودوت أن الفرس كانوا يرون أنفسهم أسمى مرتبة من بقية البشر . ولقد برر فلاسفة الإغريق هذا النظام العبودى ، وأقره أكبر فلاسفتهم : أرسطو وأفلاطون .

أما أرسطو فقد برر طموح الإغريق لسيادة العالم فنادى بنظرية أكد فيها أن جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة ، وأخرى تولد لكى تكون عبيداً .

أما أفلاطون فقد أقام جمهوريته على أساس سيادة السادة وعبودية العبيد ، ولقد كشفت الأبحاث العلمية والدراسات التاريخية أن واحداً من أبرز عوامل سقوط الامبراطورية الرومانية ، إنما يرجع أساساً إلى هذه النزعة المنصرية ، فقد بلغ تعدد العبيد أو الرقيق فى الامبراطورية الرومانية نحواً من خمسين مليوناً . ويقول الدكتور إبراهيم على طرخان : إن الامبراطورية الرومانية عرفت بدولة العبيد الأذلاء بصرف النظر عن الأرقام ، ولا سيما أن من المؤرخين من قدر عدد الأحرار من المواطنين بنحو عشرة آلاف أو عشرين ألف مواطن ، ويرى فى عرف الرومان أن المواطن الحر العادى هو الذى يمتلك بين خمسة وعشرة آلاف عبد . ويقال إن أحد المحررين - أى كان عبداً ثم أعتق - مات زمن الامبراطور أغسطس عن ٤١١٦ عبد ، لذا فإن الرومانى الذى لم تزد ملكيته للعبيد عن ٢٠٠ عبد كان يعتبر دون المألوف .

ولقد كان لهذا النظام العبودى أثره البالغ فى القضاء على الطبقة الوسطى عماد كل تقدم وتطور . كذلك كان له أثره فى إضعاف الدفاع عن الامبراطورية الرومانية خلال الأزمات الكثيرة التى تعرضت لها . مثال ذلك أنه عندما جاء الاريك القوطى وهدد إيطاليا فى مطلع القرن الخامس الميلادى هرب الرقيق من استبداد سادتهم ، وأقبلوا جماعات على معسكر الأريك ، إذا كانوا يتطلعون إلى منقذ من الخارج ، وتجمع لدى الأريك نحو ٤٠ ألف عبد خلال فترة قليلة ، وقد أدوا له أعظم الخدمات فى تعريفه بالطرق والمسالك ، وإرشاده إلى مواطن الغنيمة ولا سيما فى غزوته الأخيرة . واقتحامه مدينة روما عام ٤١٠ م . ويقول الدكتور طرخان : أما الطبقة الوسطى ، وهى عماد الإدارة ومجالس الولايات ، بل عصب الحياة فى الامبراطورية الرومانية فقد كان إضعافها وتدميرها من بين الأسباب الكبرى فى سقوط الامبراطورية — ويبدو أثر هذه التجربة التى مرت بها الامبراطورية الرومانية من العبودية والتى مرت بها امبراطوريات الفرس والفراعنة ، واضحة وضوحاً قوياً فى منهج القرآن ، ودعوة الإسلام إلى محاربة النظام العبودى ، ووضع النظام الأمثل للتعايش الكريم بين الأجناس فقد دعا الإسلام إلى القضاء على مفهوم التفرقة العنصرية كلية ، وأقام نظاماً لتصفية الرق ،

كما دعا إلى الوحدة البشرية بين مختلف الأجناس وكشف بوضوح عن أن بنى الإنسان جميعاً من أصل واحد ـ وأن الفوارق بينهم لا تتصل باللون ، أو العنصر أو الوطن وإنما تتمثل فى التفاضل وقد طرح مفهوم الإسلام أمام البشرية اتجاهاً جديداً قضى على مجتمعات العبودية . وفتح الطريق أمام الأخوة الإنسانية ورسم أروع صورة لمفاهيمه فى مجال التطبيق ـ غير أن نزعات الأيدلوجية التلمودية القائمة أساساً على العنصرية والتى حملت لواء الدعوة إلى جنس مميز ، وشعب مختار لم تلبث أن عاودت دعوتها من جديد بأسلوب جديد فنفثت فى الحضارة الغربية والفكر الغربى هذه المذاهب من أجل تحقيق غاياته بعيدة المدى أهمها (١) تركيز النفوذ الاستعمارى فى العالم وهو نظام يقوم على الأسس الربوية والرأسمالية وسيادة القروض والمغامرات الاقتصادية (٢) إثارة الصراع بين الأجناس بين آرية وسامية ، وبين الألوان وإيقاع التضارب بينها (٣) إعلاء الدعوة العنصرية التى تقوم عليها الصهيونية وتحاول أن تفرض نفسها بالاستيطان فى فلسطين ولهذا فقد كانت المخططات التلمودية من وراء هذه المعركة الضخمة التى سيطرت على أوربا ثم انتقلت منها إلى العالم كله تحت أسماء متعددة ، منها العنصرية والأجناس والقوميات والأقليات والإقليمية وغيرها .

(٣) لا ريب أن الأديان السماوية المنزلة قد طرحت مفهوماً أساسياً لوحدة البشرية وللإخاء الإنسانى وهو من الأصول التى حملتها رسالة موسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل غير أن اليهود لم يلبثوا أن غيروا المنهج الأصيل الذى جاءت به التوراة وتبنوا فكرة الاستعلاء العنصرى المتميز باسم الشعب المختار وغيروا من أجل إقرار هذه الفكرة أبرز مفاهيم الدين المنزل فأقاموا عنصرية خاصة لها طابع الاستقلال والتمييز عن المجتمعات العامة وقد حملت هذه العنصرية فكرة الامتياز والاستعلاء لجنسهم كما حملت فكرة الاحتقار والانتقاص لبنى البشر جميعاً حتى أنهم أطلقوا عليهم اسم « الجوييم » أو الأميين ـ ثم جاءت تعاليم السيد المسيح . ومن أبرز مفاهيمها تحطيم العنصرية ، والعودة إلى المفهوم الربانى الأصيل القائم على وحدة البشرية ووحدة الدين .

وقد جاءت عنصرية الحضارة اليونانية والرومانية تتجه لمفاهيم التلمود التى فرضت نفسها على المجتمعات بإقامة عنصرية طاغية غير أن أوربا بعد المسيحية لم تلبث أن اعتنقت الدعوة العنصرية وذهبت فى ذلك إلى أبعد مدى ويشير توماس فى كتابه عن الأجناس إلى هذه الظاهرة التى تبدو واضحة فى العهد القديم فيقول : « فى العهد القديم نجد اعتقاداً بأن الاختلافات الجسمانية والعقلية بين الأفراد وبين الجماعات على السواء هى اختلافات ترجع إلى المولد وأنها اختلافات موروثة لا تتغير ويشتمل سفر التكوين على عبارات تفترض وجود هذه الاختلافات ، وانحطاط جماعات معينة بالنسبة لغيرها مثال ذلك « ملعون كنعان : عبد العبيد يكون لإخوته » هذا إلى جانب أن نوعاً من التفوق . قد تضمنه التأكيد بأن يهوه قد عقد عقداً مع ابراهيم ونسله » .

ومن هنا نفهم أن نظرية التفوق المنسوب إلى الجنس أو العنصر هى واحدة من النظريات التى

ركزت عليها الأيدلوجية التلمودية ودفعتها المطامع الاستعمارية لتواجه النظرية الأصلية — نظرية وحدة الجنس البشرى — ولقد كانت نظرية السلالات البيضاء وتفوقها التى وقع باسمها الاستعمار على السلالات الملونة محاولة خداعه لتبرير حقوق جديدة فى الغزو والسيطرة والسيادة يختصون بها الجنس الأبيض .

ومن هذا أن الحضارة الغربية المرتبطة بالاستعمار قد اتخذت نفس الأسلوب الذى سبقت به الحضارة اليونانية الرومانية ، واتجه كتابها وساستها إلى تبرير العبودية والرق على أساس نظرية أرسطو . ولا يمنع هذا من القول بأن عدداً من المفكرين قد كشفوا عن فساد هذه النظريات . ودافعوا عن وحدة البشرية وتساوى شعوب العالم فى الموروثات الطبيعية غير أن رجال الفكر التلمودى كانوا من وراء معارضة فكرة تساوى الأجناس ومناهضة وحدة الجنس البشرى كلما كشف زيف هذه النظريات . وكذلك فقد كانوا حريصين على أن يؤججوا هذه الحرب كلما خمدت ويثيروا هذه الدعوة من جديد وقد استطاع هؤلاء الباحثون المصنفون من أمثال دى لاس كازاس وجوان كومتش القول بأنه ليس ثمة أساس علمى على الاطلاق لتصنيف الأجناس تصنيفاً قائماً على أساس الرق النسبى وأن التمييز الجنسى وخرافاته وأساطيره ليست إلا وسائل لإيجاد كبش فداء حين تهدد الأخطار مركز بعض الأفراد أو تماسك بعض الجماعات وجملة القول أن اليهود والإغريق هما أول دعاة العنصرية — فاليهود يعتبرون أنفسهم شعباً مختاراً والإغريق كانوا يقولون : روما سادة وما حولها عبيد . وقد جرت الحضارة الغربية على هذه المفاهيم .

(٤) استخدمت العنصرية فى مجال الاستعمار استعمالا خطيراً فقد حيل بها بين العرب والمسلمين أولا باسم الأجناس ثم بين العرب وبعضهم باسم الاقليمية والوطنية ولا ريب أن هذه الهزة التى أحدثتها موجة السلالات والدماء قد أشاعت الاضطراب فى العلاقة بين العروبة والإسلام — فقد طرحت نظرية العنصرية فى العالم الإسلامى من أجل : فك الرابطة وحل العروة — وكان لأساليب التعليم وللأنظمة السياسية أثرها فى إعلاء الأقليمية والقومية الضيقة فقد وضعت الوطنية المجردة والإقليمية الضيقة فى مواجهة الوحدة فكانت عاملا هاماً فى تمزيق الحزام الرابط .

وقد برزت فى خلال ذلك دعوات عنصرية وإقليمية متعددة منها الفينيقية فى لبنان ، والآشورية والكلدانية فى العراق ، والفرعونية فى مصر والبربرية فى المغرب والزنجية فى إفريقيا غير أن الدعوة العنصرية فى العالم الإسلامى لم تستطع أن تحقق تقدماً كبيراً ذلك لأنها كانت تواجه مفهوم الإسلام فى الأخوة الإنسانية ، ووحدة الجنس البشرى .

ومفهوم العنصرية فى مجال العالم الإسلامى هو العودة التاريخية إلى ما قبل الإسلام ، ونحن نعرف أثر الدعوة العنصرية فى تمزيق الدولة العثمانية .

ويقول أرنولد توينبي : « إن إطفاء جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين تعد ظاهرة من أعظم المنجزات الأخلاقية في الإســلام وفي العالم المعاصر تبدو الحاجة صارخة إلى نشر هذه الفضيلة الإسلامية ، ومع أن التاريخ يظهر عموماً أن الشعور بالعنصرية لم يكن قاعدة عامة . بل حالة شاذة في طبيعة العلاقات المتبادلة بين الأجناس البشرية المختلفة فإن من سيئات الحالة الحاضرة أن يكون هذا الشعور بارزاً بشدة لدى الشعوب القوية التي استطاعت أن تقتطع لنفسها ، ولو مؤقتاً على الأقل حصة الأسد من ميراث الارض خلال التنافس الذى قام بين الدول الغربية في القرون الأربعة الأخيرة

إن دعاة التعصب العنصري في تزايد . وإذا قدر لحكمهم هذه أن تطغى ، فإن ذلك سيؤدى إلى وقوع كارثة عامة والمعقول أن تكون روح الإسلام هي ملاك القوة المدخرة التي تقرر مصير تلك المشكلة لصالح التسامح والسلام .

(٥) جاء الإسلام محدداً قاطعاً في أمر البشرية . فأكد وحدة الجنس البشرى ، وحرم التفاخر بالنسب وأكد هذا المعنى رسول الإسلام (محمد صلى الله عليه وسلم) في عبارة قاطعة : إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء كلكم لآدم من تراب . ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ولقد قامت الأمة الإسلامية ، على نظام بدليل انتظام القبلية ، فقد أعلى رابطة الفكر والعقيدة والوحدة القرآنية الجامعة . وقام المجتمع الإسلامي على عناصر مختلفة : الفارسى ، والرومى والحبشى والعربى ، أمة واحدة من دون الناس » . وكشف الرسول عن العروة الوثقى الجامعة ، ليست العربية لاحدكم بأب . أو أم . إنما العربية اللسان . فأيما مسلم تكلم العربية فهو عربى وقد نفى الإسلام العنصرية نفياً صريحاً ، وأقر كفاية العربى الاعجمى لم يدع نسبة علم أو فضل إلى مصادره في الأنساب ، بل جعلها مرتبطة بوحدة الفكر ولم يعرف الإسلام ما يتردد الآن من قول ، بأن الفارابى تركى والغزالى فارسى ، فذلك مما لا يقره مفهوم الإسلام لوحدة الأجناس والرابطة الإسلامية الجامعة التى ألغت فوارق الدماء والعروق ، وتشكلت منذ اليوم الأول على مفاهيم الإسلام نفسه ، ومن خلال أيدلوجيته الصريحة . فالمؤمنون إخوة ، ومن خرج عن الإيمان فهو ليس من أهلك .

وقد تصاهر المسلمون في الأقطار المفتوحة ، واختلطوا بأهلها ، وامتزجوا بهم امتزاجاً كلياً . فتشكلت وحدة تامة ، وقد أكد القرآن وحدة الإنسانية . وأكد أنه لا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل ، والإسلام لا يعرف أى تفرقة بين الناس بسبب أجناسهم وألوانهم وأنسابهم وإذا كان هذا موقف الإسلام من العنصرية ، فما هى النتائج التاريخية لمفهوم الإسلام .

يقول الأستاذ عبد الحميد العبادى : لا ريب أن تقارب الأجناس الاسلامية وتداخلها بالزواج المختلط أو التوليد ، واختلاط العناصر العربية فالفارسيات ، والروميات ، والصقليات ، والصينيات ، والهنديات ، قد نشأ عنه جيل جديد من المولدين ، يحوى عن طريق الوراثة خصائص الأجناس المختلفة التى ولدته من جسمية وعقلية . وأصبحت الدولة الإسلامية وكأنها وطن لأمة واحدة »

لا لشعوب مختلفة ، تدين بدين واحد ، وتتكلم لغة واحدة . ولا ريب أن هذا الاتحاد هو السر في تلك النهضة العلمية التي شملت كل نواحي التفكير الإنساني من فقه وحديث ، ولغة وأدب وفلسفه وطب ورياضيات وتاريخ وجغرافيا . وهي أحدى النهضات العلمية الكبرى المعدودة في تاريخ الحضارة على الإطلاق . وإنما صارت الحضارة والعلوم الإسلامية إلى هذا المستوى الرفيع بتلك الوحدة التي شملت الشعوب الإسلامية ، وإخلاص العناصر غير العربية للدين الاسلامي واللغة العربية ، ولا سيما بالنسبة العقائد التي كانوا ينتحلونها من قبل ، صابئة ومجوسة وهندية وغير ذلك ، كما بهرتهم الثانية بغزارة مادتها وروعة أدبها ، وأنها قبل كل شيء ، لغة القرآن الكريم ، والسنة المطهرة . وقد جرهم في النهاية هذا الإعجاب بالدين الإسلامي واللغة العربية إلى الإعجاب بالعرب أنفسهم ، فهم الذين حملوا إليهم هذين المصدرين لأعظم مادة تغذى قلوبهم وأذهانهم ، فتغيرت الحال عما كانت عليه من قبل ، فلم يعد الأمر أمر سياسة عنصرية ضيقة متحزبة للعرب على غير العرب ، ولا كراهية من الموالي لنفوذ العرب السياسي بل لقد جر هذا الإعجاب كثيراً من الموالي والأعاجم إلى إنتحال النسب العربي تشرفاً به وتعظيما بل إن بعض الشعوب غير العربية . أخذت تمد أصولها إلى العرب كما قيل في البربر إذ نسبوهم إلى قيس عيلان .

(٦) ولقد وجدت نظرية العنصرية من يكشف عن زيفها، ويدفع خطأها و ينبه إلى أهدافها الهدامة. والي من ورائها من قوى وغايات بعيدة المدى فقد تأكد أنه لا يمكن القول بأنه توجد سلالات بشرية نقية وثبت أن سكان أوربا متعددو الأصول ، لدرجة أن محاولة تصنيفهم مستحيلة استحالة تامة .

وأكد العلماء أن الحاجز « الوهمي » بين الرجل الأبيض ، والرجل غير الأبيض لا يستند إلى أساس علمي . كما ثبت خطأ دراسة الظواهر الاجتماعية عن طريق أحجام الرؤوس والجماجم والألوان وفصائل الدم ، وشكل الشعر وتبين أن القول بأن اختلاط الأجناس يهدد الإنسانية بالتقهقر والتدهور وهي الدعوى التي يدعيها أصحاب الاستعلاء العنصري ـ لا تستند إلى أقل دليل علمي ، فإن عملية الاختلاط بين الأجناس عملية مستمرة منذ بداية الحياة البشرية على سطح الكرة الأرضية ، وعمليات الهجرة قديمة قدم السلالة البشرية ولا ريب أن الهجرة تعمل على اختلاط الجماعات اختلاطاً طبيعياً . ذلك أن التزاوج والاختلاط والانتشار عوامل ساهمت في تحطيم العزلة بين الأجناس ، وإيجاد جماعات مولدة أو جماعات وسطى تحمل صفات سلالتين أو أكثر وقد أعلن الباحثون المنصفون ، أن فكرة النقاء الجنسي التي تحدث عنها بعض العنصريين الأوربيين في أعقاب الحرب العالمية الثانية أصبح قبولها أمراً صعباً لأن الاختلاط والزواج لم يمكن من وجود جماعة تحمل دماء نقية غير مختلطة واتضح أن عدم المساواة فيما للأجناس المختلفة من حقوق لا يمكن أن يرجع إلى لون البشرة كما أكد الباحثون أن الفروق العقلية والنفسية ، ما هي إلا نتيجة لظروف بيئة ، وقد تأتي نتيجة أن أفراد جماعة من الجماعات ، قد سنحت لها فرصة التعلم عن طريق الاحتكاك الحضاري أو استغلال المواد الطبيعية . وقد تبين أخيراً أن فكرة الاجناس تقوم على أهواء وعواطف دعاة التميز والاستعلاء الفردي ولقد ذهب

دعاة العنصرية مذاهب شتى فى محاولة التفريق بين المستوى العقلى للاجناس .

غير أن التجارب التى أجريت على طلبة المدارس بالولايات المتحدة أثبتت أن المستوى العقلى لتلاميذ زنوج الولايات المتحدة يفوق مستوى نظائرهم فى الولايات الجنوبية . وقد تأكد أن المسألة ليست مسألة جنس ، بل مسألة بيئة وفرص مختلفة ومستوى ثقافى وقد تأكد خطأ القول بأن الوراثة البيولوجية هى الفاصل الوحيد المهم ، بل هناك الوراثة العقلية ، ولا ريب أن الفاشلين فى الحياة هم من العناصر المنحطة فى كل شعب وجنس كما كشفت الأبحاث عن أنه ليس هناك ثمة ارتباط بين حضارة معينة . والتكوين الجنسى لسلالة من السلالات وأنه ليس هناك ارتباط بين ما يسمى بالسلالة الآرية أو الجنس النوردى وبين الحضارات الغربية كما تأكد كذب الدعوى التى تقول بأن الجرمان هم صانعوا الحضارة .

فالحضارات القديمة التى ازدهرت فى حوض البحر المتوسط فى حوالى الألف الثالثة قبل الميلاد . تمت فى بلاد تميز سكانها بالاختلاط . لا بالنقاء الجنسى . وذلك بالإضافة إلى أن الشعوب تختلف فى تطورها الحضارى باختلاف السلالة والدماء وأن الحضارة فى الوقت الحاضر ليست قاصرة المجموعة البيضاء . فقد دخلتها اليابان والصين وكل هذا يؤكد أمرين : (الأول) أنه ليس هناك صلاحية لجنس ما للقيام بأنواع معينة من الاعمال والحرف . (الثانى) أن جميع الأفراد فى إمكانهم القيام بنفس العمل إذا سنحت لهم فرص متكافئة فى التعليم والمران .

وهناك دعوى ترددها الصهيونية العالمية عن نقاوة السلالة اليهودية ودولتها بما يؤدى إلى القول بأن الجنس اليهودى يمثل جنساً متميزاً عن بقية السلالات .

والواقع التاريخى . والدراسات الانثروبولوجية ، تؤكد أن اليهود لم يستقروا فى أى مكان على نحو يمكنهم من أن يكونوا أمة فضلا عن أنهم فى القديم تزاوجوا واختلطوا بجيرانهم من الشعوب التى تسكن آسيا الغربية ، مثل الكنعانيين والعرب ، والحبشيين وهناك أعداد كبيرة تعيش فى مناطق متفرقة من آسيا ، وفى منطقة القوقاز وسوريا ، والعراق ، واليمن ، وسمرقند ، وبخارى ، وإيران ، وأن هذه المجموعات قد اختلطت بغيرها .

يقول العلامة سالمان : إن نقاوة السلالة اليهودية ، ما هى إلا أوهام فإن أكثر التغيرات والاختلافات بين السلالات توجد بين اليهود .

ويقول فيشبرج : إن مزاعم اليهود وادعائهم عن نقاوة سلالتهم عبث مجرد عن كل أساس واليهود الذين هاجروا من موطنهم الأصلى . كانوا عبارة عن خليط من السلالات وتتفاوت درجة الاختلاط حسب تاريخ الهجرة وفى أوربا اختلط اليهود بالمسيحية اختلاطاً كبيراً لفت نظر الكنيسة

بشدة ، فصدرت قوانين متعددد ، وعلى فترات متوالية ، تحرم على المسيحيين الأرثوذكس التزاوج من اليهود .

وهناك قوانين ثيودوسيس الثانى الصادرة فى القرن السادس الميلادى ، وقوانين مجلس أورليان ٥٣٨ ميلادية . والقوانين الكنسية التى أصدرتها سلطات الكنيسة فى توليدوا (طليطلة) عام ٥٨٧ وقوانين روما ٧٤٢ ميلادية .

ولا ريب أن توالى صدور هذه القوانين وتعددها . يؤكد كثرة الزواج بين المسيحية واليهود . ولقد عمد اليهود إلى الدخول فى الأديان الأخرى . والتستر خلفها ، رغبة فى العمل على تدميرها من الداخل وتحقيق غايات أخرى . ويؤكد تصنيف اليهود فى العالم أن أكبر نسبة من اليهود فى العالم هم يهود بالديانة فقط . وأن هناك يهود من سلالات يهودية مختلطة من عدة عناصر آسيوية . وأوربية أما بقايا سلالة المهاجرين القدماء ، فهم نسبة قليلة جداً . وأبرز ما تكون جماعات اليهود الآن من مجموعات الخزر التى اعتنقت اليهودية عام ٧٤٠ ميلادية ، وهى ليست يهودية بالجنس . وإنما دخلت اليهودية على أثر اعتناق ملك الخزر بولان لها ، والأعداد الكبيرة لليهود فى بولندا وجنوب روسيا تنتمى إلى سلالة الخزر هذه .

الفصل الخامس

المادية

لم تقتصر النظرية المادية على أن تكون فرضاً من فروض العلم قابلا للخطأ مع توالى البحث وانكشاف حقائق أخرى أمام العلماء فى المعامل على النحو الذى حدث من بعد . ولكن النظرية لم تلبث أن نقلت إلى مجال الدراسات الفلسفية والإجتماعية ، على أنها حقيقة ثابتة . وأقيمت على ظنيتها أبنية وقواعد ونظم استهدفت معارضة القيم الأساسية للأمم والمجتمعات ، هذه القيم النابعة من جوهر الأديان ، وحقائق الوحى ، والتى تتفق مع الفطرة والعقل . ومن ثم طرح على البشرية منهج معارض كل المعارضة لطبائع الأشياء ، وظواهر الكون ، ولكل الحقائق والمعطيات التى كسبتها الإنسانية فى بحثها الطويل عن الله ، وعن حقائق الكون ، ونظم الحياة .

كانت الأديان المنزلة قد أمدت الإنسان بحقيقة الكون والوجود ، هذه الحقائق التى لم تكن البشرية لتستطيع أن تصل إليها عن طريق العقل والبحث مهما جاهدت فى سبيل ذلك . لأنها تتصل بعوالم الغيب الخفية عن طريق التجربة والحس ، والتى يعجز العقل وحده عن البحث عنها . فهو أن الإنسان بطبيعته المتطلعة إلى البحث وراء المادة ، وجرياً وراء مطامعه وأهوائه واعتماداً على العقل أراد أن يستكشف هذا الطريق الخطر ، دون أن يحصل على الأدوات التى تعينه على مشاق البحث ، فلم يستطع أن يصل إلى الحقيقة ، وقصر به البحث إلى « فرضية » تقول أن هذا الكون مادى ، لا صانع له ، وأنه وجد صدفة ، وأنه ممتد بدون نهاية ، وأن الموت هو نهاية كل حى — هذا هو النتاج الذى أمكن أن يصل إليه العقل البشرى فى رحلته للكشف عن الحقيقة ، حين رفض العون عن معطيات الأديان والوحى ورسالات السماء ومن هنا جاءت النتائج معارضة تمام المعارضة للحقائق الكلية ، منكرة لوجود الخالق ، وقاصرة عن فهم حقيقة الحياة ، وغاية الوجود ، ومهمة الإنسان فى هذا الكون . ولقد أمضى الإنسان من عمر البشرية ردحاً طويلا فى هذا البحث . دون أن يهتدى إلى شىء تقر به نفسه وتستريح له فطرته ، وكانت أخطر مراحل البحث : تلك التى وقعت قبل رسالة المسيح وبعدها فيما أطلق عليه مفاهيم الهلينية الغربية ، والغنوصية الشرقية .

اعتمدت الأولى على العقل وحده — واعتمدت الأخرى على الوجدان وحده ، وتلاقتا على نتائج مضطربة غاية الاضطراب بين شك وثنائية وتثليث على النحو الذى سجله تاريخ الفلسفة القديمة . ولا ريب أن هذا هو جوهر الخلاف بين الناس وبين الأديان التى أنزلت لتتقدم البشرية مقدمة من

الحقائق ما تعجز عن الوصول إليه بقدراتها الخاصة ، وكاشفة عن وظائف المعطيات التى أعطيت للإنسان من قلب ، وسمع ، وبصر ، وموجهة عملها .

ولما كانت قضية الخلق ، والكون مما تعجز هذه القوى المحدودة القدرة ذات الوظيفة الخاصة عن كشفها فان الوحى ممثلا فى الكتب المنزلة على الرسل والأنبياء ، قد تكفل بإظهار هذه الحقائق وتقديمها للإنسان حتى لا يشغل بها قواه المحدودة عن وظيفتها الحقيقية ، وهى الكشف عن كنوز الأرض ، والبحار ، والجبال ، فى سبيل دفع الحياة إلى طريقها من العمران ، وترقيتها وتقدمها ، وبناء الحضارة على المنهج الأصيل ، الجامع بين العلم والإيمان .

ولقد برز مذهب المادية فى العصر الهليني حيث يعزى نشوء أول مذهب فلسفى مادى إلى ديمقريطس - ٣٧٠ قبل الميلاد ووجد من يدعو إليه ويدافع عنه وقد كان العصر الهليني سابقاً لرسالة السيد المسيح، وقد ظهر فى بيئة لم تكن دياناتها إلا مجموعة من الأساطير والشعائر والطقوس .

يقول إميل بوترو فى كتابه العلم والدين : نشأت الفلسفة اليونانية نفسها من الدين ، ولكنها ما أن استقلت عنه - حتى راحت تحاربه ، وتسخر منه وتذهب إلى أن البشر هم الذين خلقوا الآلهة ، وكان الدين عندهم يؤمن بالضرورة العمياء ، فجاءت الفلسفة فآمنت بالعقل البشرى ، وحل العقل محل الآلهة وقد ذهب اليونان فى الإعلاء من شأن العقل حداً بالغ الخطر والأثر ، حتى قالوا بسلطان العقل ، وفى مجال هذا الاتجاه ظهرت مذاهب الإباحة ، ومفاهيم الحس ، وإنكار البعث بعد الموت والدينونة واندفعوا وراء الترف والشهوات والرذيلة وقالوا إن العالم كله من عمل الصدفة ، وإن اللذة هى الغاية من الحياة وقال عميدهم سقراط : إن العقل هو السبيل المعرفة وليس الحس ، ومن أخطائهم قولهم بأن المادة أزلية ، وأن الكون غير متناه .

ولقد جاء الإسلام فكشف عن وجه الحق فى هذه القضية ، وحدد القرآن مسائل ما بعد الطبيعة تحديداً خاصاً ، وأغنى المسلم عن البحث فيها ودعاه إلى التفكير فى خلق الله من الكون ، وإقامة دون البحث فى ذات الله ، التى ليس من اليسير الوصول إلى حقيقتها ، وهو ما أسماه العلماء ؛ البحث فى الخصائص دون البحث عن الماهية ، وقد أمد الإسلام المسلمين بصورة كاملة عن عالم الغيب كله ، وعن الله سبحانه وتعالى ، واليوم الآخر والجنة والنار ويوم القيامة والحساب والجزاء وحدد هذه المعالم تحديداً كاملا وقرر فى نفس الوقت قصور العقل الإنسانى عن التوصل إلى شىء فى هذا المجال ونهى أشد النهى عن تجاوز هذه المعالم .

ولقد استطاع المسلمون ، وقد أتاح لهم الإسلام بهذه العقيدة فرصة العمل فى المجال العملى ، أن ينشئوا المنهج العلمى التجريبى ، وأن يجعلوه أساساً للمنطق الذى سنه الله لهم من العمل على الإنشاء

والعمران والتقدم ، وليس هناك اليوم ريب فى هذه الحقيقة . حقيقة ما قدمه المسلمون إلى العلم والحضارة فقد شهد لهم كثير من غيرهم فى مقدمتهم العلامة بريفولت فى كتابه « بناء الإنسانية » فضلا عما أورده جوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » وما أوردته الدكتورة سجريد هونكه فى كتابها « شمس الله تشرق على الغرب » .

(٢) وفى العصر الحديث . انتقلت حركة العلم والحضارة إلى الغرب نتيجة للأصول التى أقامها المسلمون غير أن الاتجاه لم يلبث أن انحرف عن غايته ، فلم تلبث أن استغلت مرة أخرى النزعة العقلية واستغلت مرة أخرى النظرية المادية ولكنها كانت هذه المرة أشد بأساً وأبعد أثراً فى الفكر البشرى كله . ذلك أن إنتقال معطيات العلم والمنهج التجريبى إلى الغرب (وهو المنهج الذى صاغته مفاهيم الحضارة الإسلامية مدفوعة بدعوة القرآن نفسه إلى النظر فى السموات والأرض فهو ثمرة الدين) .

هذا الانتقال واجه بيئة مختلفة فى الغرب ، لم تكن لتتقبله فى يسر أو تعمل لتنميته فى هوادة ومن هنا نشأ ذلك النزاع التاريخى المعروف بين العلم والدين واستمر طويلا وكانت غلبة العلم مؤذنة بإعلان الخصومة للدين والقطيعة له ومواجهته بفلسفات وأيدلوجيات لتحل محله وتزحه عن مكانه فى النفوس والعقول - لقد قصرت مفاهيم الدين فى الغرب عن معطيات العلم فأحدث هذا التقصير تلك الشقة التى دعت أمثال ديكارت إلى القول أن ميدان العلم غير ميدان الدين وأنه لا مطابقة بين العلم والدين ، ولا سلطان لأحد منهم على الآخر غير أن العلم لم يقف عند هذا الحد . فقد أخذ يتقدم تقدماً كبيراً . وحقق من النتائج ما جعله يتنكر تنكراً تاماً لكل ما سوى العقل والمحسوس والمشاهد . وبذلك أنكر العلم عالم الغيب والروح إنكاراً تاماً ، وحاربه حرباً عنيفة ومن ثم استعلت نظرية المادية استعلاء شديداً نتيجة أمرين :

(أولا) نتيجة توقف رجال العلم عند ظواهر الأشياء (ثانياً) تحول نظرية دارون من مجال النظريات الطبيعية إلى مجال الفلسفة الاجتماعية فقد كان العلم فى أذهان واضعيه الأوائل . يراد به تفسير الوجود وكان العلماء فى أول عهدهم بالعلم يهتمون بمعرفة : لماذا ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها ، ومن هنا لم يعد العلم يفسر الأشياء ويعللها وإنما هو يربط وينسق ويلاحظ ويصف ويقرر .

ثم لم يلبث العلم أن اكتشف خطأ نظرته المادية التى جاءت نتيجة تصوره عن اكتناه المجهول ومعرفة ما وراء الطبيعة وسقط أكبر حجر فى بناء المادية عندما اكتشفت نظرية النسبية التى قالت أن المادة تتحول إلى طاقة ، والطاقة تتحول إلى مادة يقول العلامة : جامس جينز فى كتابه العالم من حولنا : كان حجر الزاوية فى بناء علم الطبيعيات فى القرن التاسع عشر هو بقاء المادة وخلودها من جهة

وبقاء الطاقة من جهة أخرى وقد بطل هذا الرأى بطلاناً تاماً وأقيم مقامه ناموس آخر هو بقاء ذاتية واحدة . هى المادة والطاقة ، بطل أن يكون كل من المادة والطاقة ذى حدة خالدة البقاء أو متغيرة بل هما متغيران معاً من حال إلى حال لأنهما شىء واحد المادة تصير شكلا من أشكال الطاقة وبذلك تكون النظرية المادية من وجهة نظر العلم قد سقطت ، فقد تبين أن هناك قوة أخرى مجهولة وراء المادة لها أثرها الواضح وبذلك أصبح عالم الغيب داخلا فى نطاق العلم غير أن ما وصل إليه العلم فى مجال التجريب كان شيئاً مختلفاً عما سعت إليه الفلسفة المادية وقطعت إليه مراحل كثيرة .

ذلك أن هربرت سبنسر ، وعدداً من الفلاسفة اتخذوا من نظرية دارون وسيلة إلى إعلاء شأن المادية وقطع الصلة مع كل مايسمى « الروح، الغيب، ما وراء المادة، الوحى، البصيرة. وكانت كبرى نتائج المادية إنكار الخالق والبعث والنظر إلى الانسان من حيث أنه كائن انطبق عليه تجارب الحيوان . وكان هذا الفصل بين المادة والروح فى الإنسان والحياة هو نقطة الضعف ومنطلق الخطر وقد الأزمة التى عرفتها الحضارة المعاصرة وقد غلب منهج المادية على كل أبحاث النفس والأخلاق والاجتماع وفى هذا المعنى يقول العلامة جود : إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ولكننا نستعملها بعقل الأطفال .

(٣) صور العلامة الدكتور كارل فى كتابه « تجديد الانسان » هذه الأزمة الخطيرة حين قال : فرقت الحضارة منذ اليوم الاول بين المادة والروح واعتمدت على المادة حين فرق جاليلو بين خواص الأجسام الأولية كالأبعاد والوزن ، وهما مما يسهل قياسه ، والخواص الثانوية كاللون والرائحة وهما مما لايقاس. لقد فرق جاليلو بين الكم والنوع وعنى بالاول وحده ثم حصر أتباع جاليلو همهم فى الكم، وأهملوا النوع وكان من شأن حماستهم فى سبيل الوزن والقياس أن حولت الانسان إلى عوالم الطبيعة والرياضة والكيمياء هذا التفكير يجب إصلاحه ليتمكن العالم من إنقاذ الحضارة لأن فى الإنسان شيئاً أكبر من الطبيعة والكيمياء ونواميسها وكانت أخطاء ديكارت : الأشياء المادية ، وبعد كتاباته فصلت الأشياء الروحية فأصبحت مظاهر العقل بعد هذا التفريق مما لا يمكن حصره وبدا بناء الجسم وطريقة قيامه بوظائفه المختلفة فى نظرهم أشد ثبوتاً من الفكرة والنشوة والحزن والجمال وهذا الخطأ هو الذى حول الحضارة إلى الطريق التى أفضت إلى انتصار العلم وانحطاط الانسان .

ذلك أن تقدم العلم فى كل ما له صلة بالغذاء والرياضة قد تم على حساب النمو العقلى وهـــذا هو مصدر الأزمة.

(٤) إن أخطر تحول فى النظرية المادية هو ذلك المفهوم الذى وجهتها إليه الفلسفة ونقلتها به من مفهوم العلم إلى مفهوم الاجتماع وهو الاتجاه الذى قصد به ضرب القيم الروحية والنفسية والدينية ومحاولة بناء نظام اجتماعى كامل على أساس المادة وقد حاولت النظرية المادية السيطرة على كل مفاهيم

لفكر والحياة والمجتمع والثقافة فى محاولة للقضاء على كل مقررات الأديان وخلع الانسان من كل مقررات التوحيد والأخلاق ومن الوضح أن الأيدلوجية التلمودية كانت من وراء النظرية ، تغذيها وتدفعها وتتخذ من واقع الدين فى الغرب وسيلتها إلى معارضته ولكن المنطلق نفسه كان قسرياً ولم يكن طبيعياً وكان متعارضاً مع الفطرة والعقل وكل المقررات التى يفكر بها الانسان وكان أشبه بإخراج الانسان من جلده ووجدانه — فقد حسب دعاة المادية أنه من اليسر إخراج الإنسان — أى إنسان — من نطاق التدين والايمان بالله وبالرغم مما أكده العلم التجريبى من محدودية العقل ومن عجز العلم عن معرفة جوهر الأشياء فإن دعاة المادية كانوا يجددون دعوتهم ويحاولون إدخال وسائل أخرى لإخفاء زيفهم وإبراز دعواهم فى صور علمية براقة .

(٥) تمثل الطريقة المادية طابع الفكر الغربى المعاصر وهو « الانشطارية » فهى تعتقد بوجود عنصر واحد هو قوام هذا العالم وهو المادة ولا وجود لعنصر غيرها بينما يقف الفكر الاسلامى موقف الكامل ويقترب من جوهر الحياة وحقيقة الانسان حين يجمع بين الروح والمادة ولا ريب أن الاعتماد على المادة وحدها فى بناء منهج حياة ومنهج معرفة من شأنه أن يواجه أخطاراً ومزالق ومحاذير كثيرة لا سبيل إلى التغلب عليها إلا بالتعليلات المضطربة والتأويلات الملتوية التى لا يقبلها العقل ولا تستريح لها الفطرة ومن ذلك أن الماديين يذهبون إلى اعتبار الروح مادية ، والعقل مادى والنفس مادية وهكذا .

وتقف النظرية المادية موقفاً عصبياً من تعليل الخلق ونظام الكون على نحو لا يقنع ولا يرضى ولا يشفى غلة وتنكر الفلسفة المادية غائية الكون أى أنه خلق لغاية مقصودة وتنكر بدايته ونهايته كما تنكر نشأة الأخيرة والجزاء ومن هذا المنطلق ظهرت فلسفات النفس والأخلاق والاجتماع التى غايرت مفاهيم الغائية البشرية ومسؤولية الانسان فى هذا الكون وما يتقبل بالبعث والجزاء فى الآخرة ومن المقطوع به أن أخطر مقررات المادية هو تفسيرها النشاط الانسانى كله على أنه نابع من الجسد وأنه لا مجال للجوانب الخلقية والروحية ومن هذا ينظر إلى مقررات المجتمع والدين والأخلاق على أنها وسائل نسبية متغيرة وأخطر مافى هذا المفهوم : هو معاملة الانسان معاملة المادة ، الجامدة أو تطبيق تجارب الحيوان عليه ومصدر هذا هو افتراض أن الانسان مادة وأن النفس مادة وفى هذا الاتجاه حاولت الفلسفة المادية ، أن تسخر من كل القيم والمثل العليا إذ الحقيقة الوحيدة عندها هى الحقيقة المادية والنوازع الأساسية عندها هى نوازع الجسد .

ومن هنا فإن النظرية المادية إنما تستهدف أساساً — وقد ضربها العلم ضربات قاتلة وكشف عن زيفها — أن تحطم القيم التى قدمتها الأديان للأمم والبشرية وخاصة فى مجال العقائد والأخلاق فهى داعية إلى التحرر الكامل من كل قيد وإسقاط كل تكليف وضرب الحدود التى وضعتها الأديان للبشرية حتى تستطيع أن تؤمن مسيرتها وخاصة الإباحة فى أمور الجنس والغرائز والتحرر من المسؤلية الفردية والالتزام الأخلاقى كمنطلق إلى اللذات والشهوات العاجلة بدعوى أن الموت هو نهاية الاحياء وهذه هى الخلفية التى أقامتها الأيدلوجية التلمودية لتدمير البشرية وتحطيم معنويات الإنسان وعلى أساسها نشأت كل مذاهب الإلحاد والإباحة .

العقل : مكانته ومهمته

إن العقل فى الاسلام مفهوماً قد يختلف عن مفهومه فى الفلسفات المختلفة وأبرز مميزات هذا المفهوم أن العقل ليس مقدساً وليس له طابع الاستعلاء أو التفرد أو السيطرة على الفكر الانسانى كله وإنما هو عامل هام من عوامل المعرفة ولكن هناك معه ، وتسبقه وتلحقه عوامل أخرى منها الوحى ويعدل معه عامل القلب .

ولا ريب أن العقل والإيمان معاً هما صمام الأمن فى المعرفة الانسانية وقد وصفهما الباحثون بأنهما عينان يبصر بهما الانسان سبيل الهدى فإذا طمست عدسة الايمان كان معها الحيرة وإذا طمست العدستان كان بذلك العمى فالمذاهب التى اعتمدت على العقل وحده كانت حائرة ولم تزل والمذاهب التى أنكرت العقل والايمان ، بيامت غاية فى الظلام (كالوجودية ، والفرويدية والهيبية) . وهما سبيلان لا ينفصلان يهدى أحدهما إلى الحياة وأمورها ويهدى الأخرى إلى ما بعد الحياة وما وراءها فإذا وقفت المعرفة عند الحياة وحدها كانت ناقصة مبتورة لأنها لم تستكمل حلقة الاستمرار ولم تتم بها التجربة وغيبت النتيجة والعبرة وهذا هو النقص الذى يؤدى إلى الحيرة والقلق والتمزق والعلم وإن كان من شأن العقل إلا أن الايمان هو الذى دفع إليه وهو أيضاً الذى يقوده فى الطريق حتى لا يكون شراً على البشرية ووبالا .

ولقد حرص الاسلام على أن يجعل العقل فى مكانه الطبيعى وفى حدود وظيفته وعمل فى تحريره من الوثنية والمفاهيم الزائفة كما حرره من الخضوع لقوى الخفية والشعوذة والسحر .

وقد أكد القرآن فى مجموعة أن طبيعة تكوين العقل مرتبطة بجهد الإنسان فى الأرض فى سبيل التقدم والقدرة على إدراك قوانين المادة وتسخيرها وليس من مهمته الكشف عن أسرار التكوين الإنسانى ومن هنا كان عجزه عن ذلك بعد هذه المحاولات الطويلة ، ذلك أن سر الكون والحياة وسر الموت هو من الغيب الذى استأثر الله سبحانه به والذى قدم للبشرية فيه بياناً شافياً كافياً عن طريق الوحى ولما كان سر الروح الإنسانى بعيداً عن مجال الإدراك عن طريق العقل فقد شق القرآن النفس البشرية فى مطامحها وتطلعها إلى الفهم فقدم لها منهجاً كاملا . أما العقل فلم يكن من وظيفته الأساسية أن يخوض فى هذا العباب ومن هنا كان عجز البشرية حتى الآن عن أن تضع لها منهج حياة أو أيدلوجية نظام وشريعة وقوانين صالحة للعمل أو محققة لمطامح الانسان ومن ذلك أيضاً عجزها عن وضع التفسير الكامل للكون .

يقول الأستاذ يوسف العش : إن العقل من خلق الله فهو يخضع له فلا يشترك معه فى الألوهية وقد أودعه فى الانسان لا ليعبده من دون الله بل ليعرف الكون ويكتشف ما يلزمه منه ويهتدى به فى

الظلمات التي ليس للدين أن يكشفها له فللعقل أن يجول فيها ويتأمل ويدرك ويستخرج ما يهدي إليه أما الأمور التي بينها الله في قرآنه وبسطها فعليه أن يسلم بها . ولا يشتط فيدعي أنها غير صحيحة ، فهو من خلق الله وهو واسطة لا غاية وهو آلة تنكسر على ما يتعدى ميدانها ولا تستطيع أن تتحدى ما يقوله الله والعقل ليس إلهاً لا يخطئ، وإنما هو نور مصباح يكشف في الظلمات ولكنه ينكمش أمام نور الله وهذا التحديد إيقاف الصراع فالعقل لا يستطيع أن يكشف سر الخالق والكون أو أن يصنع مبادئ المعرفة بل الله يفعل ذلك - والعلماء المسلمون يرون أنه ما دام نور العقل أضأل من نور الله فلماذا لا يتخذ نور الله كاشفاً في ميدان الفلسفة يسير نور العقل وراءه - والعقل الإسلامي يتفق في اتجاهه وطريقه مع الأخلاق فهو الذي يدل على الخير ويهدي إليه .

أما المكر والخديعة والدهاء المؤدية إلى السوء فليست من صنع العقل وإنما هي من صنع النفس الأمارة بالسوء ولو رجع الانسان إلى عقله رجوعاً سليماً لأباها وليس العقل البشري نداً للوحي ، وهو جهاز يتلقى الوحي ويفسره وليس له قدرة على معارضة الوحي أو تقديم تفسير آخر ، والعقل الاسلامي نور محرر من الشعوذة والسحر والقوى الخفية والخضوع لغير الله .

ويقول الأستاذ حسن البنا : إن قصارى ما يصل إليه - أي العقل - هو معرفة بعض المزايا والخصائص والصفات أما الحقائق المجردة والماهيات البسيطة فلم تقع في دائرة إدراكه بعد والذي يقوله الراسخون في العلم أنها لن تقع في إدراكه ، وأنه كلما حاول بحكم طبيعته الوصول إليها والحصول عليها أفلتت منه وتركت بين يديه بعض خصائصها وصفاتها .

والعقل الإنساني لم يدرك بعد شيئاً من حقائق العناصر المبسطة وكلما أوغل في الجري وراء حقيقتها انقلبت أمامه إلى مركبات تضاعف جهله بها وبعد أن يكون أمام عنصر واحد يجد في البحث عن حقيقته يصبح أمام عنصرين أو أكثر عليه أن يبحث عن حقائقها من جديد وقل مثل ذلك في ماهية القوى الكونية التي تبدو في الحيـــاة واضحة كل الوضوح بآثارها مجهولة كل الجهالة بحقيقتها كالكهرباء والمغناطيسية والأثير والجاذبية إلى غير ذلك من الأسماء والألفاظ والفروض والمصطلحات التي اخترعها الفكر الانساني والعقلاء جميعاً متفقون على أن قصور العقل عن إدراك كنة حقيقة من الحقائق أو جهله بها ليس معناه عدمها أو خفاؤها فهي واضحة كل الوضوح بآثارها وخصائصها ، خفية كل الخفاء بأسرارها ودقائق ماهيتها إن الفطرة الإنسانية السليمة تهتف بالانسان دائماً وأبداً أن يتعرف إلى الله وكل مظاهر هذا الكون وموجوداته بما فيها نفس الانسان لا توجد أمام الفكر الإنساني أي مجال لإنكار « وجود الله وعظمة الله والدلالة الواضحة على الله » . وإن القلب الانساني إذا صفا وأشرق تذوق حقيقة لذة الايمان بالله .

وقد سأل أحد العارفين عن الأدلة التي أقنعته بالايمان بالله فابتسم وقال : أغنى الصباح عن المصباح حتى احتاج النهار إلى دليل .

فقصور العقل الانساني عن إدراك حقيقة ذات الخالق وصفاته وقصور الحواس الإنسانية

الكلية عن الوصول إلى شيء من ذلك ، ليس معناه الجحود والانكار وكما سلم العقل الانسانى ، والحس الانسانى بما لم يدركه من هذه القوى المحيطة به فإن لزاما عليه أن يسلم برب هذه القوى، ويسلم وجهه إليه « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » .

(٢) ومن جملة ما ذكره العلماء والباحثون : أن العقل لا يستطيع أن يحكم على شيء حتى يحصره فى إثنين : الزمان - والمكان - فيقول : متى وأين فما لم ينحصر بينهما لم يكن للعقل عليه سلطان ، فالعقل لا يستطيع أن يحكم على الله ولا على صفاته ولا على قضائه وقدره وكل عمله فيها فهم « نصوص الوحى » الذى جاء من خارج العقل . والعقل محدود لا يستطيع أن يتصور غير المحدود ولا يحكم على غير المتناهى والعقل لا يتصور الخلود والله عز وجل غير محدود فالعقل لا يستطيع أن يحكم عليه .

والعقل يختل ميزانه إن حاول الحكم على غير المحدود ويقع فى التناقض المستحيل والعقل لا يستطيع أن يحكم ، ولا يصح حكمه إلا فى الأمور المادية أما ما وراء المادة أى عالم الغيب (الميتافيزيقيا) فلا حكم للعقل عليه ولقد صدق علماؤنا القدامى حين فهموا العقل حق الفهم فقالوا : إن فى ابن آدم عقلا وشهوة وأن العقل هو مناط التكاليف الشرعية والعقل جوهر مضيء خلقه الله فى الدماغ وجعل نوره فى القلب يعرف الحق من الباطل والخير من الشر والحسن من القبيح .

(٣) قال جاكوبى إن العقل غير المؤمن لا بد أن يقود الانسان إلى الإلحاد وذلك لأنه بطبيعته الخاصة لا يستطيع أن يعالج سوى الأشياء ذات الحدود وأجزاء الأشياء وهو يضع هذه الأجزاء معاً لتكشف ما بينها من روابط ولكنه يعجز عن الحصول على مادة الحقيقة الخام - إن الله الذى يمكن إثباته بالمنطق لا يمكن أن يكون الله لأن الحصول عليه بالمعرفة عن طريق العقل يتضمن معنى سيطرة العقل والخالق الأعظم لا يمكن أن يسيطر عليه أو يحتويه عقل - إن الحقيقة فيما وراء الطبيعة ليس سبيلها الفكرة المنطقية بل سبيلها الإيمان .

ويقول الأستاذ عبد الهادى أبو ريدة : العقل قاصر عن إدراك الماهيات وفى هذا المجال تكون أداة المعرفة هى الحس والروح - والقلب فى القرآن أداة الفهم والنظر والوظيفة الأساسية القلب هى المعرفة .

(٤) ومن هنا فإن تقديس العقل واعتباره السبيل الوحيد فى المعرفة والأسلوب الوحيد فى البحث ليس منهجاً إسلامياً أصيلا - وقد ثبت فى منهج البحث الحديث أن العقل البشرى لا يستطيع أن يرى الحقائق الخارجية رؤية صحيحة تامة . فهو محدود وله مجال معين لا يستطيع أن يتعداه مثله كمثل البصر يقدر أن يرى ولكنه ، لا يرى كل شيء فالبصر يرى ولكنه لا يتجاوز حدود قدرته البصرية . ولا يستطيع العقل أن يأخذ مكان السيادة فى المعرفة إلا فى المناهج المادية وحدها التى تنكر الوحى ومن العسير أن يتحقق ما يريده الماديون من إخضاع الدين للعقل فالدين وحى سماوى والعقل أداة لرؤية محدودة وقد جرى هذا فى أوربا من أجل معارضة العقيدة والمعرفة اللتين قدمتهما الكنيسة . ولا ريب أن ما نراه من هذا الاضطراب الفكرى العاصف الذى يجتاح البشرية البشرية وهذا الصراع بين

المذاهب دون القدرة على وضعها فى إطار ضابط أو مرجع له سلطان إنما يعود إلى هذه النظرية التى طرحتها المخططات التلمودية فى القول بحكم العقل وحده وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها .

الإسلام والنظرية المادية

(١) إن موقف الاسلام من النظرية المادية واضح صريح فالإسلام منهج متكامل ، يقوم على جناحى المادة والروح ومنهجه فى المعرفة يقوم على أساس ترابط العقل والقلب . والاسلام يقوم على أساس إيمان راسخ بالخالق الذى خلق الانسان والكون من العدم . والذى تدل على وجوده صنعته . والذى خلق عالم الغيب ، وعالم الشهادة وأعطى الانسان الوحى والعقل : الوحى الذى أبان عن عالم الغيب وكفى الانسان مؤونة النظر فيه والعقل الذى فتح للإنسان آفاق النظر فى معطيات الحياة .

ولقد وصفت المادة بأنها عمياء فكيف يتاح لها أن تكون فى هذا الكون البديع وتتشكل فى هذا الوجود الضخم على تنوع كائناته ، وتباين موجوداته بغير صانع ؟ إن مفهوم الاسلام للمادة أنها ليست قديمة ولا باقية خلقها الله وهى تبقى إلى أجل مسمى عنده ولا يقر الاسلام نظرية الصدفة ولا نظرية الوجود بغير غاية والعلم الذى حاول اكتناه سر الحياة ، قد عجز عن أن يحقق شيئاً واكتفى بمهمة متواضعة هى : البحث عن الظواهر - ظواهر الأشياء - ونظريات العلم هى فرضيات معرضة للتحوير والتغيير وما من نظرية قال بها العلم إلا وقد أصابها تعديل فليس فى قدرة العلم أن يقول الحقيقة لأنه بوسائله المحدودة يعجز عنها .

وقد صدق العلامة أجست سباتية فى كتابه فلسفة الدين حين قال : إن ما عرفه العلماء من العلم هو جزء محدود وهو ليس إلا عدماً بالنسبة لما يجهلونه ويقول كاميل فلامريون : لقد عجز العلماء عن حل مسألة استمرار الوجود ودوامه ولذلك فهم مقرون بضرورة وجود الخالق وبتأثيره الدائم المستمر ليمكنهم تفسير تعاقب الكائنات وإدراك سر أصول الأشياء .

والواقع أن الإلحاد لا ينسب إلى العلم أو العقل . ولكنه ينسب إلى النفوس المريضة . وقد ارتبط ظهور الإلحاد ، وشاع نطاقه مع الاضطراب النفسى والأخلاقى ولقد استشرت نظرية المادية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ثم جاء العلم لحطم غرورها وزيفها وكشف عن أن هناك جوانب غيبية ، تدل على أن هناك عالماً آخر واعترف علماء المجاهر والمعامل صراحة بوجود الله الخالق فى عشرات من الأبحاث بل مئاتها غير أن الفلسفة المادية هى التى تحاول اليوم أن تحمل لواء المادية وليس العلم والفلسفة المادية مناقضة للدين معترضة عليه .

والإلحاد كما عرفه العلامة محمد فريد وجدى « هو عصيان بداهة العقل » وبداهة العقل تشعرنا بوجود قوة عليا هى مصدر كل كمال ، وكل قوة فى الأرض والسماء وقد جاءت نزعة الإلحاد من

الجحود، والجحود هو إنكار الشيء مع العلم به ولا ريبة أن الشك هو القصور في المعرفة أساساً وهو تردد في تقبل الحقائق، والإلحاد وليد الغرور بنوع من العلم، يظن صاحبه أنه قد أحاط بكل شيء علماً، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم، ولقد كان أصحاب الدعوات الهدامة في كل عصر وبيئة وزمان يتخذون من الإلحاد والتشكيك والارتياب سلاحاً في مواجهة الضعف والغفلة والقصور والفراغ النفسي الذي يحيط بالأمم حين تنصرف عن قيمها وأصول فكرها، عندئذ تستطيع هذه المفاهيم الضارة أن تنفذ إلى النفوس، وتجد لها مجالا تعشش فيه.

يقول جيمس خيتر، بعد دراسة علميه استمرت خمسين عاماً: إن مشا كل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود الله. ويقول: أن أوربا قد نبذت اليوم إلهها وآمنت بإله جديد هو العلم ولكن العلم كان متقلب فهو ينفي اليوم ما أثبته بالأمس ويثبت غداً ما نفاه اليوم لذلك تجد عباده في قلق دائم لا يستقرون (٢) والاسلام يرى أن العلم سلاح من أسلحة المعرفة ولكنه ليس السلاح الوحيد. ومن هنا يجيء خطأ القائلين بأن العلم هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة وأن ما عداه ليس شيئاً.

كذلك يقرر الاسلام أن العلم لابد له من إطار: هو الخالق وأن العلم إذا لم تحده أخلاقيات ومثل يغدو وبالا على البشرية ومن هنا فإن العلم المادي لا يمكن أن يكون منهجاً للانسان يحل محل الدين ولكنه جزء والجزء لا يحتوي الكل وهنا لا بد من ضرورة التفويق بين العلم وفلسفة العلم، بين الحقائق العلمية المقعدة بالأنابيق في المعامل وبين النظريات المنسوجة في أسلوب علمي باسم الفلسفة. فالأولى حقائق عامة للبشرية كلها — اما الأخرى فهي نظريات خاصة من نتاج عقول وفي ظل تحديات عصورها وبيئاتها وأمر آخر، أهم من هذا كله هو أن المادة نفسها التي كان يرتكز عليها القانون الطبيعي. والتي استعلت في غرور، فصنعت المذاهب المادي قد حطمها اليوم العلم نفسه لم تعد العينة الصلبة من المادة هي أساس الطبيعة. لقد كشف لهم العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعي. وعلمهم أن أساس الطبيعة هو الحركة وليست المادة الذرات بأشكالها المتناهية في الصغر تتحرك فتضفي الشكل المادي للأشياء. وهذه الذرات هي الأخرى تتشكل وفق حركة معجزة في كيانها الداخلي وهو إيماء عجيب للانسان المعاصر بزيف هذه الثنائية التي قسمت خلق الله إلى قسمين. وأقامت بينهما جداراً من التباعد والصمت.

وهذا المعنى فسره العلامة موريسون: رئيس أكاديمية العلوم حين قال إن تحطيم ذرة التون التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذاب والكترونات طائرة، قد فتح مجالا لتبديل فكرتنا في الكون والحقيقة، تبديلا جوهرياً. ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي. وأن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم، تثبت بشكل أكيد وجود « مدبر جبار » وراء ظواهر الطبيعة «. إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لانهاية لها، تكون الحياة بدونها مستحيلة إن وجود الانسان على ظهر الارض، والمظاهر الفاخرة لذكائه. إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارىء الكون. ويقول العلامه وأين أولت: إن الايمان بالله يعد لازماً

لا كتمال وجود الانسان ، وتمام فلسفته فى الحياة ـ أما النظريات التى ترمى إلى تفسير الكون تفسيراً آلياً فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى إلى محض المصادفة فالمصادفة هنا فكرة يستعاض بها عن فكرة وجود الله ، بقصد إكمال الصورة ، ولكن فكرة وجود الله أقرب إلى العقل والمنطق ، من فكرة الصدفة ولا شك بل إن هذا النظام البديع الذى يسود الكون ، يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم ، وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء ، ا . هـ

ولا ريب أن هذه الحقائق العلمية تظاهر مفهوم الاسلام وتطابقه وتقضى بأن البشرية تسير فى طريق معرفة الله عن طريق العلم .

(٣) هناك حقائق أساسية فى فهم العلم والإنسان .

(أولا) إن العلم قد اتخذ طريقه الصحيح حينما بحث فى ميدان المادة ولكنه قد ضل الطريق حينما بحث فى ميدان الاجتماع والنفس ولذلك فإن ما يتصل بالمادة هو وحده الذى يطلق عليه اسم العلم أما ما يتصل بميدان الاجتماع والنفس فهو فلسفة ومصدر الخطأ : هو أن المادة تستطيع أن تخضع للمقاييس والموازين المادية العلمية أما النفس الانسانية ، فإنها تخضع لمقاييس أخرى فالانسان ليس مادة وليس حيواناً .

(ثانياً) ليس كل ما ينسب إلى العلم ينتمى إليه ـ ولا كل ما ينتمى إلى العلم مفروغ من إثباته ، فكما أن فى العلم الحقائق التى لا شك فيها ، فإن فيه أيضاً القضايا المفتقرة إلى الاثبات . إن هناك فرضاً باطلا مسلماً به ضمناً ، وهو أن العلم الحديث يبنى على البرهان الحسى . فما يقال باسمه لابد أن يكون قد ثبت وقام عليه لدى العلم البرهان فهم يتقبلون كل ما ينسب إلى العلم لأنهم يسلمون بقيام البرهان عليه كذلك فإن العلم شىء ، وتطبيقه من غير خلل أو خطأ شىء آخر .

(ثالثاً) إن العلم قد عجز عن فهم حقيقة قائمة موازية له هى الفطرة ـ فالفطرة فى الانسان حقيقة ثابتة لا تستطيع أى قوة أن تغير مجراها وهى مستقلة عن الزمان — وقد قرر الله سبحانه وتعالى أن لا تبديل لسنن الله فى الخلق ، ولقد عجزت الحضارة عن أن تفهم الفطرة ، وغفلت عنها ومن هناك كان اضطرابها ونقصها فإذا تطاول العلم إلى بحث ما قررته الفطرة كان ذلك هو مصدر خطئه وفشله ذلك أنه لا سبيل إلى إخضاع الانسان للتجربة والاختبار عن طريق العلم .

الفصل الرابع

العلمانية

ظهرت الدعوة إلى العلمانية فى الغرب نتيجة للاتجاه الذى حمل لواءه حركة التنوير الأوربية فى الفصل بين سلطة الكنيسة وسلطة الحكومة أو إقامة أنظمة سياسية جديدة غير خاضعة لسلطة الكنيسة فالعلمانية فى جوهرها : إنما تمثل القضاء على نظام قائم فى الغرب إبان دعوتها . حيث كانت الكنيسة تباشر السلطة السياسية ، وتفرض نفوذها على الحكومات والدول .

والمعروف أن الدعوة نمت فى أوربا قبيل الثورة الفرنسية فى مجال التحرر من سلطان الدين والكنيسة وإقامة منهج جديد . أساسه الدولة الحديثة . من شأنه أن ينقل الولاء من الكنيسة إلى الدولة وقد اتجهوا الفكرة فى المسيحية الغربية إلى نظرة أساسية مستمدة من أقوال السيد المسيح « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . ليست مملكتى فى هذا العالم » والتمسوا مفهوماً يقوم على أساس أن المسيحية إنما جاءت بوصايا فى مجال الأخلاق . وأن المسيحية حين عبرت إلى أوربا ، وجدت نظاماً سياسياً قائماً هو الامبراطورية الرومانية بقوانينها .

أما الاسلام فإنه يختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً ، ذلك أنه إنما يمثل عناصر ثلاثة متكاملة هى : (العقيدة ، والشريعة ، والأخلاق) . وأنه قد شكل مجتمعه منذ اللبنة الأولى على ذلك النمط المتكامل وأن رسوله كان نبياً وفى نفس الوقت هو رئيس الدولة وقائدها وقاضيها .

ومن هنا . فإن مجال المقارنة مختلف فضلا عن ان مجال التطبيق للنظام الغربى القائم على العلمانية والفصل بين الدين والدولة جد مختلف ومتباين . ونحن إذا ألقينا نظرة إلى تاريخ أوربا ، وجدنا أنه بالرغم من أن المسيحية جاءت بمبدأ جديد لم يكن معروفاً فى الأزمنة القديمة ، وهو فصل الدين عن الدولة فإن هذا المبدأ لم يطبق فى الحقيقة . ذلك أنه بعد أن اتسع نطاق المسيحية فى الغرب - لم تلبث أن أصبح لها نفوذها على الدول والحكومات - يقول الدكتور عبد الحميد متولى : لم يكن أمر فصل السلطة هيناً ميسوراً . فقد ظلت الامبراطوريتان الرومانيتان « الشرقية والغربية » زمناً طويلا تقاومان انهيار سلطان الدولة الدينى وذلك خشية انتقاص نفوذها وسلطانهما ، بل إن كثيراً من البابوات . عملوا على الجمع بين السلطتين الدينية والسياسية .

وكانت الأباطرة فى الدولة الرومانية يتولون العرش الامبراطورى بعد إجراء طقوس دينية يقوم بها الرهبان ، ويجرى فيها البابا تتويج الامبراطور ويقول : ومن هنا كان اتجاه الملوك والأباطرة إلى

التخلص من سلطان رجال الدين ، القائل بالمناداة بنظرية (التفويض الإلهي) إلى المناداة بأنهم إنما يستمدون ملكهم وسلطانهم من الله مباشرة ، وليس من البابوات .

ثم جاءت الثورة الفرنسية ، وعملت على نقل هذا التفويض من الحق الإلهي للملوك ، إلى الحق الإلهي للشعوب والمعروف أن هذه الأنظمة لم يعرفها الاسلام ، ولم يتأثر بها . ذلك أن الاسلام قام منذ اليوم الأول على مبدأ الجمع بين الدين والدولة دون التفريق بينهما ولا ريب أن أثر التكامل في الاسلام والانشطارية في الغرب . كانت له نتائجه البعيدة في المجتمع والتاريخ في كل منهما والمعروف أن الاسلام ليس فيه نظام خاص يتولاه رجال الدين بل إنه لا يقر هذا المصطلح . وليس في الاسلام وساطة بين الله والخلق ولذلك فإن استغلال الدين في تاريخ الاسلام لم يكن معروفاً على هذه الصورة التي عرفتها أوربا إذ ينكر الاسلام كل ما يطلق عليه الحق الإلهي ، أو التفويض الالهي .

(٢) يكشف تاريخ أوربا في العصر الحديث عن حقيقة تاريخية ترد إليها أمور كثيرة من وقائع هذا التاريخ : تلك هي محاولة اليهود الملحة لإسقاط الحواجز التي كانت تتعلق بالزواج والملبس والعبادات التي فرضتها المسيحية عليهم والتي حالت وقتا طويلا بين اليهود وبين حق المواطنة في المجتمعات الأوربية .

ومن أجل هذا عمدت المنظمات الماسونية إلى التحضير لعملية كبرى تستهدف إسقاط الحكومات المسيحية الغربية التي تسيطر عليها الكنيسة وإنشاء حكومات أخرى متحررة من هذه القيود وقد كانت الثورة الفرنسية أولى الخطوات في هذا السبيل . وقد تلتها ثورات متعددة في مختلف الأقطار الأوروبية ، استطاعت أن تحقق الفصل بين الدين والدولة ، باعتباره أول الركائز التي تحول بين نفوذ الكنيسة وبين الحكم ومن ثم جاء تحويل التعليم الغربي كله إلى تعليم علماني ، وعزله عن نفوذ الكنائس التي كانت تتولى أمور التربية والتعليم وقد تحقق نتيجة لهذا إسقاط كل القيود التي فرضتها الكنيسة على اليهود ، والتي حالت دون التماسهم حق المواطنة ـ وقد كان هذا هو مفهوم عصر التنوير أو حملة التنوير التي هي على حد قول الفيلسوف كانت « الافراج عن الانسان من الوصاية الدينية » ومن هنا ركز عصر التنوير على فصل الدين عن الدولة ، وإقامة حكومات في كل أنحاء أوربا بعد الثورة الفرنسية ، وهكذا تداخل اليهود في المجتمع الأوربي بعد أن انقطعوا عنه ولقد كان أول قرار لأول حكومة علمانية في أوربا ، وهي الجمعية الوطنية الفرنسية في ١٧ - ٩ - ١٧٧١ ، وقد اعتبر اليهود المقيمين في فرنسا مواطنين لهم كل حقوق المواطن وعليهم جميع واجباته .

فالعلمانية هي السيف المصلت الذي حطم به اليهود القيد الذي يفصلهم في كل مجتمع ويحول بينهم وبين السيطرة التلمودية . ويبدو هذا المعنى واضحاً من وراء صفحات كثيرة من التاريخ الاسلامي العربي المعاصر ، وخاصة فيما يتعلق بأنظمة الدولة العثمانية ، والدول العربية الحديثة .

إن الفصل بين الدين والدولة في الفكر الغربي المسيحي مفهوم لا غرابة فيه ، ومنه أمكن إقامة « العلمانية » التي كانت أكبر ركيزة في تأكيد النفوذ التلمودي في المجتمع الغربي .

يقول الدكتور الفاروقي : علينا أن نتذكر أن تحرر اليهود لم يأت إلا نتيجة لنمو العلمانية في التنظيم السياسي والاجتماعي ، أي إن اقصاء الدين عن السياسة والاقتصاد والاجتماع أدى إلى اعتبار المنفعة العامة والانتاج والخبرة والأهلية كأساس لجميع المعاملات والتنظيمات ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفاءتهم الشخصية .

ويقول : إن العلمانية نظرية تنبعث من الخبرة المسيحية ، لا من الخبرة اليهودية إن المسيحي الأوربي قد قسم حياته إلى دوائر وجعل بينها سدوداً تمنع أي اتصال . وتجرى الحياة في كل هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة لا علاقة البتة للدائرة الواحدة ، بما يجرى في الدوائر الأخرى فالعائلة والأخلاق الشخصية ، والدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع كل منها يؤلف ملكوتاً مستقلا فالويل إذا سمح الغربي لمبادىء الدين أن تتعدى حدودها للتأثير في الاقتصاد والواقع أن العلمانية ليست سوى الاعتراف بأنه ليس هناك مبدأ عام يشمل حياة الناس بأكملها ، كما هو الحال في النظرة الدينية فأصبح لكل من دوائر الحياة مبدأه الخاص . ا هـ ولا ريب أن هذا الفهم الأوربي يختلف اختلافاً واضحاً عن الفهم الإسلامي الجامع المتكامل الذي يضع الحياة كلها في إطار موحد . ولا يقر الفصل بين القيم أو المفاهيم بل يراها متلاقية متكاملة يؤثر كل منها في الآخر .

(٣) ويرجع بعض الباحثين نجاح فكرة العلمانية في أوربا إلى قصور النظرة الدينية الصارفة عن مسايرة حضارة العصر فالمفاهيم الدينية التي واجهت الفكر الغربي المعاصر القائم على العلم والعقل ، عجزت عن أن تصمد له ، مما دفع بعض المفكرين والفلاسفة إلى وصف الدين بأنه أفيون الشعوب ، أو أنه لا يصلح إلا لتنظيم الشعوب البدائية . والمعروف أن رجال الدين في الغرب عارضوا المناهج العلمية وقاوموا ثمارها ونتائجها .

غير أن هذه النظرة التي حققت العلمانية السيطرة في أوربا . تختلف اختلافاً عميقاً بالنسبة الفكر الإسلامي والعالم الاسلامي . ذلك أن تكامل مفهوم الاسلام قد حال دون ذلك . فقد كان الاسلام في حقيقته أكبر دافع العلم والتقدم ، وكانت إطاراته الواسعة المرنة قادرة على استيعاب كل عوامل العصر والحضارة .

ومن هنا ؛ فمن المستحيل أن يقع المسلمون في نفس المحاذير التي وقع فيها الفكر الغربي ، أما مرحلة الاضطراب التي جاءت نتيجة لنفوذ الاستعمار والتي فرضت مفهوم العلمانية في الفصل بين الدين والدولة فهي مرحلة مؤقتة ستزول بزوال أسبابها . وقد وضح الآن في الغرب أن محاولات فصل الدين عن الدولة هي محاولات مصطنعة . يقول الدكتور محمد رضوان : لم تقم الدولة العلمانية والمجتمع العلماني في الغرب إلا بشكل صوري ، فالدول لم تتخل عن دينها وأن الدين لا يزال له نفوذه ، وأن تعاليم الدين الدينية والأخلاقية قد غيرت من شكلها الخارجي واتخذت شكلا يقوم على الانفصاح والتسامح ، وأن رجال الدين في أوربا أدركوا أن عليهم أن يلبسوا الدين وتقاليده ثوباً عصرياً وهذا يعني أن العلمانية لم تستطع أن تحصر الدين في الفرد فقط

ولم تستطع أن تهمل أبناء الطوائف المختلفة الذين يعيشون فى بلد واحد يشعرون أنهم أخوة فى الوطن بصرف النظر عن أنهم إخوة فى الدين . وأنه لا يمكن الجزم بأن العلمانية قد نجحت فى تحقيق غاياتها . وهى إقامة دول ومجتمعات ينحصر فيها الدين على الصعيد الفردى فقط ، ذلك أن الصعيدين الاجتماعى والسياسى ليسا سوى حتمية للصعيد الفردى ـ والعلمانية يشق عليها أن تنجح فى بلد يكون فيه الشعور الدينى يقظاً ، والواضح اليوم أن الشعور الدينى لم يتحطم تماماً حتى فى البلاد التى تدين بالإلحاد رسمياً يقول الدكتور فاضل الجمالى : إن العلمانية اليوم حركة رجعية ، رجعية من حيث تاريخها ـ فقد زالت الظروف التاريخية التى كانت تتطلبها ـ ورجعية من حيث جعلها الدولة تهمل واجباً من أهم واجباتها . ونحن نؤمن بضرورة قيام دولة مدنية ، تقوم فى البلاد العربية والإسلامية ، تعنى بحياة الانسان مادياً وروحياً ، عناية غير مجزأة ولا منشطرة . فوحدة حياة الانسان مادياً وروحياً معاً هو ما يجب أن تعنى به الدولة .

ويقول : لا أعتقد أن العلمانية حققت أهدافها فى البلاد التى طبقت فيها بل وقعت فى تناقضات واضحة ، لا سيما فى حقل التعليم ويكشف الدكتور فاضل الجمالى ، وجه المقارنة بين البلاد الإسلامية والغرب فى مجال العلمانية فيقول : قد يكون تطبيق العلمانية فى البلاد الغربية أسهل منه فى البلاد الاسلامية . ذلك أن المسيحية لم تشتمل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والجماعة أما الدين الإسلامى ، فبالاضافة إلى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق قد جاء بنظام شامل يعم حياة الانسان فى شتى نواحيها من المهد إلى اللحد . وهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الإنسانية .

وقد أكد غير واحد من أساطين علماء الشريعة فى العالم أهمية الشريعة الاسلامية ، وما تحويه من ثروة زاخرة ، واستعداد لمجابهة الظروف والأحوال ، وما تشريع القانون المدنى الحديث فى مصر وسوريا والعراق على أسس إسلامية سوى دليل على ذلك . فعلمانية الدولة فى البلاد الاسلامية معناها تنصل الدولة من الشريعة الاسلامية .

ولئن كانت العلمانية لا تلائم الشعوب الاسلامية بصورة عامة ـ ويشير هنا إلى التجربة التى حدثت فى تركيا . وكيف عارض الشعب مبدأ العلمانية ولم يقبلها وأمكن إنشاء ما يقرب من ألف مسجد فى القرى التركية تلبية لرغبة الشعب التركى ـ فإنها لا تلائم الأمة الإسلامية بصورة خاصة ، لأن الأمة العربية مدينة للاسلام فى تكوينها الحاضر ، وحاملة رسالة الاسلام إلى الانسانية جمعاء ، فالفصل بين الدين والدولة ، معناه تجريد الدولة من أهم مقوماتها .

والأمة العربية إذا انفصلت عن الاسلام وعن رسالته ، تصبح كجسم منفصل عن حياته وعن روحه . والفصل هذا يجعل من الجسم قشراً فارغاً لالب فيه ، وما أسهل دخول المبادىء الوافدة على اختلاف أنواعها لملأ الفراغ فى القشر الفارغ

(٤) يفسر دعاة المادية (المذهب العلماني) بأنه النظر إلى الأديان نظرة واحدة، وإلى الثقافات نظرة واحدة، وإلى الأمم نظرة واحدة. ويحمل هذا التفسير فى أطوائه مفهوم الأممية . والعالمية . ويهدف إلى القضاء على روح الدين والوطنية ومفاهيم الأمم التى تقوم على أساس فكرها الخالص وثقافتها ـ ومن المستحيل أن تنظر أمة هذه النظرة إلى الأديان والثقافات . خاصة إذا كانت فى موقف صراع مع الاستعمار، وفى مواجهة مع العدو، وهو موقف يلتمس فيه العدو كل الوسائل فى سبيل انتقاص ثقافة المسلمين والعرب ، والغض من قيمهم ، وإثارة الشبهات حول مقوماتها ، ولا ريب أن مثل هذا الموقف معارض لكل الركائز الأساسية التى تقوم عليها الأمم ، وخاصة بالنسبة المسلمين والعرب الذين يشكل الإسلام بالنسبة لهم مفهوماً أكبر من مفهوم العقيدة أو اللاهوت . فالإسلام بالنسبة المسلمين والعرب منهج حياة ، ونظام حضارة وأسلوب ثقافة وهو إلى ذلك لغة وتاريخ وتراث . ومن هنا فإن هناك استحالة فى تقبل مثل هذا المفهوم الذى طرحته الإرساليات والمعاهد التبشيرية والمحافل الماسونية والاستشراقية من أجل تدمير مقومات الأمم وإذابتها فى كيان القوى الكبرى ، واحتوائها القضاء على ذاتيتها ومقوماتها .

والمعروف أن أخطر المجالات التى اقتحمها الاتجاه العلمانى فى ظل النفوذ الاستعمارى فى المجتمعات الإسلامية : إنما تتركز حول المصارف ، والقوانين الوضعية ومجالات التعليم والصحافة ومناهج الثقافة والتربية . وقد كان للارساليات ، ومدارس التبشير وجامعاته أبعد الأثر فى الدعوة إلى هذا الاتجاه . وهو هدف أساسى لتحطيم القيم الإسلامية وإبعاد النفوس والقلوب عنها وخلق التبعية الفكرية والسياسية والتشريعية والإدارية والتعليمية للغرب .

ويقول الدكتور محمد البهى فى تصوير هذا الهدف من أهداف الاستعمار والتغريب . لم يكن أمامهم لكى يبقى المسلمون أتباعاً لهم ، إلا أن يمكنوا لاتجاه العلمانية من السيطرة فهو كفيل بإبعاد الإسلام أولا عن مجال التوجيه والحياة العامة ، وفى الوقت نفسه كفيل بجذب المسلمين إلى الحضارة الغربية والتبعية إلى القيادة السياسية للغرب. وعنده أن الاتجاه العلمانى هو الأساس (وليس الاستعمار المباشر) فى هز قيم المجتمعات الاسلامية وهو كما يعبر عنه Sacalarism جملة من المبادىء والتطبيقات ترفض أى صورة من صور الإيمان بالله والعبادة له وتقوم على وجوب تنحية الدين وإبعاده عن الدخول فى أى شأن من شؤون الدولة ، وعلى وجه الأخص فى التربية العامة؛ هذا الاتجاه لم يستطع أن يمارس نشاطه فى حرية وانطلاق فى الحياة الغربية بفعل السلطة المقابلة . وهى سلطة الكنيسة الكاثوليكية . أو دولة الفاتيكان، ذلك أن الكنيسة اقتحمت دائرة الدولة وبالأخص فى جانبها السياسى وذلك بإنشاء الأحزاب الديمقراطية المسيحية كى تمارس سياسة الدولة وبذلك أيضاً لم يصبح الاتجاه العلمانى فى المجتمعات الغربية ذا خطر على الدين . وبعد فإن جملة القول : أن العلمانية هدف صهيونى ، يفسح المجال أمام القوى التلمودية المسيطرة ، ولفرض أهدافها ومطامعها .

ويمكن القول بأن ما يطرح الآن على الفكر البشرى من مذاهب ودعوات ليس فى حقيقته علماً

وإنما هو فلسفة . فالعلم يعرف بالخبرات داخل المعامل أما هذه النظريات ، فهى فلسفات والفلسفات فروض والفيلسوف أن يفترض ما يشاء من النظريات ، مستمداً ذلك من واقع مجتمعه ، أو من رؤياه النفسية ، أو من أهوائه وأغراضه ، ولطالما كذبت هذه النظريات عن مفاهيم ومخططات » .
وليست العبرة بالنظرية ، وإنما العبرة بالتطبيق .

ولقد طرح أفلاطون نظرية الجمهورية ، وأتيحت له الفرصة الكاملة للتطبيق فهل استطاعت أن تحقق شيئاً ؟ أم حققت الفشل فى كلتا المرتين اللتين عرضت فيهما للتطبيق ؟ وكذلك دعوات كثيرة قديمة وحديثة ، مضى عليها أربعون أو خمسون من الأعوام كالشيوعية فهل استطاعت أن تحقق المجتمع الذى تصورته أيدلوجيا كأنه حلم الأجيال (أو طوبيا) السعادة ؟ هذه هى العبرة من النظريات إلى الفروض الفلسفية وهنا نرى الفارق البعيد بينها وبين معطيات الأديان التى حققت قيام مجتمعات ناضجة فى سنوات قليلة استطاعت أن تنتشر فى العالم كله السلام والعدل هذا فضلا عن أن مناهج الفلسفة التى طرحت للتطبيق لم تلبث أن احتاجت بعد سنوات قليلة إلى تعديل بعد تعديل وإلى إضافة بعد حذف .

(٥) ومن هنا يتقرر أن النظر الفلسفى الخالص لا يمكن أن يكون أساساً للفكر الاسلامى ولا يمكن الوصول إلى الحقائق الأولية إلا عن طريق الوحى والفلسفة ليست قرينة الوحى ، ولا مناظرة له ولا ريب أن أغلب الفلسفات التى نادى بها مفكرو العصر : هى مادية الأساس ، ولذلك فهى لا تقوم على أساس الاعتقاد بالله الواحد الذى عرفه الدين الحق وهى حين تحاول الكلام فى الألوهية . تؤله المادة أو تؤله الإنسان ، أو تؤله المال ومنها من يجعل الغريزة الجنسية محور تفسير الوجود .

وهناك عقائد ومذاهب تترجح بين الشرك والتثنية والتعدد والدين الوحيد الذى صفت فيه عقيدة التوحيد من شوائب الاضطراب : هو الاسلام .

ولا ريب أن هذه المذاهب والفلسفات جميعاً تعارض الإسلام وتعاديه باعتباره صاحب رسالة التوحيد الخالص .

وقد وجهت إليه حملة مركزة عاصفة فى محاولة لاقتلاع جذوره ، والقضاء على وجوده . ومن أخطائها قولها : إن الدين ليس إلا مرحلة من مراحل حياة البشرية ، أو أن الاسلام حلقة من حلقات التاريخ . ولا ريب أن التدين فطرة ، وأن الاسلام واقع صلب ثابت مؤثر فى البشرية كل أثر ، منذ ظهوره وإلى اليوم وإلى الآماد البعيدة وأنه هو العقبة اليوم فى وجه الوثنية ، والإلحاد والمادية .

(٦) إن مصدر الأخطاء فى دراسة قضايا الإنسان كلها أنها تقوم على أساس تصور ناقص هو أن الإنسان جسد ومادة . ومن ثم فإن كل الحلول التى توضع لهذا كله لا تحقق شيئاً . ولا تستطيع أن

تحقق مطالبه النفسية . إنها تتجاهل السنن الطبيعية فى خلق الإنسان من روح ومادة ولا ريب أن العناية بجسد الإنسان وحده فى الحضارة الحديثة قد ضرب الانسان فى صميم روحه ونفسه . ولا ريب أن المعرفة الربانية التى جاءت بها رسالات السماء هى أعمق فهماً للانسان ، وأكثر شمولا ، وأوسع أفقاً وهى التى كشفت أمام الإنسان حقيقة الانسان ، وهدته إلى الأسلوب الصحيح لحل قضاياه .

وما تزال البشرية متمردة على المنهج الربانى ، ذاهبة وراء أهوائها . فلا تصل إلى الحقيقة . فهى ترى الانسان . إما روحاً كله ، وإما مادة كله . وفى كليهما فساد . وما تزال البشرية تنتقل خارج منهج الله بين المنهجين البشريين دون أن تصل إلى شىء إلا إذا عادت إلى مفهوم الأصالة المتكامل الجامع بين المادة والروح وهو وحده الذى يعصمها ويهديها إلى الحق .

• • •

الفصل الخامس

العالمية

يعزو الأميرال وليام غاى كار فى كتابه الخطير : « أحجار على رقعة الشطرنج » فكرة الدعوة العالمية إلى مخططات التلمود والصهيونية العالمية ، وقد اتخذت هذه الدعوة فى صور متعددة . فى محاولة لإخفاء هدفها الحقيق . فأطلق عليها حيناً وحدة البشرية أو وحدة الحضارة أو وحدة الثقافة العالمية ، أو الحكومة العالمية وكلها تعنى أمراً واحداً وغاية واحدة وعبارة (وحدة الثقافة العالمية) عبارة خلابة المظهر براقة الصورة ولكنها تخفى فى أعماقها التعصب والاحتقار للثقافات الإنسانية ، ومعناها فى الواقع هو سيادة الثقافة الغربية ، وحضارتها وتسيدها على ثقافات الأمم وحضاراتها ، ولا سيما الثقافة العربية والفكر الاسلامى .

وقد استمدت هذه الدعوة وجودها من منطق مغلوط ومن منطلق استعمارى فى الأساس هو ما أطلق عليه اسم « رسالة الرجل الأبيض إلى العالم الملون » . والهدف الكامن من وراء هذه الدعوة هو سوق الناس جميعاً إلى الولاء والعبودية للسيادة الغربية الحاضرة وتذويب الفكر الاسلامى فى أتون العالمية ، أو احتواء مقدراته ودمجها فى مفاهيم وقيم تختلف فى جوهرها عن قيم الاسلام ومصادره الأصيلة ويتساءل هنريك راف فى كتابه (الإنسانية والوطنية) عما إذا كان يجدر بالأمم الضعيفة المهضومة الحقوق . أن تأخذ بالنزعة الانسانية وتضحى بالنزعة الوطنية . ويرى هنريك راف : أن النزعة الانسانية يجب ألا تعتنقها إلا الأمم القوية أما الأمم الضعيفة فإن لم تستمسك بمقوماتها الخاصة سحقتها الأمم القوية ويعتقد هنريك راف : أن أنصار السياسة العالمية هم أصحاب رءوس الأموال والطامعون الذين يروجون لها دفاعاً عن مصالحهم الخاصة ورغبة فى بسط سلطانهم ونفوذهم على الأمم المهضومة الحقوق .

ولقد علا صوت الدعوة إلى العالمية فى مصر والعالم الاسلامى فى الثلاثينات وحمل لواء الدعوة إليها أمثال سلامة موسى وغيره ولم تكن قد تكشفت بعد تلك الغايات البعيدة التى تحمل لواءها المخططات التلمودية فى السيطرة على العالم ويرى كثير من الباحثين أن محاولة الغرب فى توحيد البشرية إنما يعنى صبغها بالصبغة الأوربية ، وطبعها بطابعها . والقضاء على مقوماتها وقيمها الخاصة وشخصيتها الذاتية ومثلها الأعلى وهى تختلف اختلافاً بيناً عن مقومات وفكر الغرب وليس صحيحاً ما يردده البعض من أنهم يلتمسون ما دعت إليه الأديان من وحدة بشرية . فإن الفارق كبير بين غايات الأديان وغايات

تدعى بالنزعة الوطنية . ويرى هنريك رالف : أن النزعة الإنسانية يجب ألا تعتنقها إلا الأمم القوية ، أما الأمم الضعيفة فإن لم تستمسك بمقوماتها الخاصة سحقتها الأمم القوية .

ويعتقد هنريك رالف : أن أنصار السياسة العالمية هم أصحاب رؤوس الأموال والطامعون الذين يروجون لها دفاعاً عن مصالحهم الخاصة ، ورغبة بسط سلطانهم ونفوذهم على الأمم المهضومة الحقوق .
ولقد علا صوت الدعوة إلى العالمية فى مصر والعالم الإسلامى فى الثلاثينات وحمل لواء الدعوة إليها أمثال : سلامه موسى وغيره ولم تكن قد تكشفت بعد تلك الغايات البعيدة التى تحمل لواءها المخططات التلمودية فى السيطرة على العالم .

ويرى كثير من الباحثين أن محاولة الغرب فى توحيد البشرية ، إنما تعنى صبغها بالصبغة الأوربية وطبعها بطابعها ، والقضاء على مقوماتها وقيمها الخاصة ، وشخصيتها الذاتية ، ومثلها الأعلى التى تختلف اختلافاً بيناً عن مقومات فكر الغرب .

وليس صحيحاً ما يردده البعض من أنهم يلتمسون ما دعت إليه الأديان من وحدة بشرية فإن الفارق كبير بين غايات الأديان وغايات الصهيونية العالمية ، وإذا كان حملة لواء هذه الدعوة هم الذين يقولون بالعنصرية والتميز الذى يتميز به الإنسان الأبيض أو من يدعون إلى شعب مختار فإنه من العسير أن تستجيب البشرية لمثل هذه الدعوات ، وإنما تكون الاستجابة لدعوة أخرى ، يحمل لواءها الدين الحق فتجمع الناس بغير ظلم ولا عدوان .

أن المراجع للدعوات الهدامة جميعاً من البهائية والروحية الحديثة وغيرهما يجد هذه الدعوة إلى العالمية أو الأممية Cosmopolitism وهى من نتائج المخططات التلمودية والدعوات الضارة التى سيطرت عليها اليهودية العالمية ، وهى محاولة لاحتواء العالم تحت فكر معين ومذهب معين ولا ريب أن هناك خطراً كبيراً فى الدعوة إلى العالمية ، على الأمم التى لم تستكمل وجودها الوطنى ووحدتها القومية ، والتى تعانى احتلالا أو غزواً أو سيطرة خارجية ، أو ما تزال دعائم فكرها لم تستكمل نضوجها لمواجهة الفكر البشرى والوقوف معه موقف الند للند .

الباب الثالث

دعوات هدامة النفس والأخلاق

الفصل الأول

الفرويدية

(نظرية الجنس)

(١) إن نظرية فرويد فى التحليل النفسى ، هى مرحلة من مراحل المحاولات التى يقوم بها الفلاسفة فى مجال استكشاف النفس الإنسانية وهى محاولات دائبة طويلة على التاريخ . وفيها الخطأ والصواب ونظرية فرويد: كغيرها من النظريات التى تتصل بالعلوم الانسانية عبارة عن افتراضات توضع موضع الاختبار . ولما كانت العلوم الانسانية بطبيعتها تختلف عن العلوم الرياضية ، والطبيعية . فإن خضوعها لمقررات التجربة العلمية المادية . هو إنكار لإنسانية الإنسان ، وإهدار للجانب الروحى والفكرى والنفسى فيه ، هذا الجانب الذى لا تصلح للتطبيق عليه النتائج التى عرفها العلم عن المادة أو الحيوان ، غير أن أخطر مافى الفرويدية . هو نقلتها العجيبة والخطيرة للانسان من النظرة التى كانت مقررة لدى الفلسفة الاوربية نفسها ، بأنه سيد الكون إلى القول بأنه حيوان تحكمه غرائزه أو أن الغريزة الجنسية هى المصدر الأول لدوافع الانسان وتصرفاته هذا التحول الخطير إنما جاء من خلال تطورات مختلفة بدأت حين انحرفت النظرة إلى الكون ، متجاوزة الدين ومنكرة إياه ومتخلية عن مفهومه فى الخالق والتزامه فى الأخلاق .

ومن شأن النظرة المادية الخالصة أن تنكر أكبر مقررات الدين وهى المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقى وما يتبعهما من جزاء أخروى فإذا أسقطت هذا القيد أصبح من اليسير . تقبل نظرة الانطلاق فى مجال الرغبات والغرائز وهذا هو أخطر مافى النظرية المادية التى أقام عليها فرويد فكرته فى الجنس ودعوته إلى إطلاق الغرائز وتحريرها من قيود الأخلاق ، وضوابط الدين .

(٢) لم تكن نظرية فرويد فى أصلها ومصدرها إلا « فرضية » طرحها هذا الطبيب الذى عاش عمره كله بين المرضى من الشواذ والمصابين بالاضطرابات النفسية وهم الرصيد الذى شكل من خلاله نظرياته ، وكون مذهبه وقد كانت هذه الفرضية تقول : إن دوافع الانسان جميعاً مصدرها الجنس غير أن الطبيبين اللذين اشتركا معه فى نظرية التحليل النفسى وهما «أدلر ولونج» اختلفا معه وعارضا وجهة نظره ومع ذلك فقد توارت آراء أدلر ولونج وغمضت واستعلت آراء فرويد وأذيعت ودفعت دفعاً شديداً إلى مجالات الدراسة فى الجامعات والبحوث وأصبحت مصدراً للفن والقصة ولا شك أن هذا التركيز على نظرية لم تثبت علمياً وقد قررها (واحد من الثلاثة) هو تركيز مريب وهو يكشف فى وضوح أن وراءه غرضاً من أغراض السياسة ، وهوى من أهواء المطامع العالمية .

فإذا أضفنا إلى هذا هوية فرويد اليهودى المقيم فى (النمسا) فى مجتمع يكره اليهود ويحقد عليهم وما ثبت من صلاته بهرتزل وانتسابه إلى الدعوة الصهيونية عرفنا إلى أى حد أمكن أن يدفع رأى كهذا حتى يسيطر سيطرة واسعة فى دوائر العلم والأدب والثقافة ، وهى دوائر تسيطر عليها الصهيونية العالمية ومنها نشأت السريالية ثم الوجودية . غير أن الأمر لم يلبث أن كشف عن أبعاد أخرى أشد عمقاً وخطراً فقد تبين بالمقابلة العلمية الدقيقة والمقارنة المنهجية أن كل أصول فكر فرويد مصدرها التلمود وقد أبان ذلك بوضوح الدكتور صبرى جرجس فى كتابه «التراث الفرويدى وصلته باليهودية الصهيونية» .

ولا ريب أن المراجع مراجعة دقيقة لأهداف التلمودية ، ومخططات الصهيونية — كما كشفت عنها البروتوكولات — يستطيع أن يرى أن تدمير الانسان وتحطيم معنوياته ، وتصويره على أنه حيوان تقوم كل تصرفاته من خلال الجنس هو هدف حقيق . قد أمكن أن يوضع موضع التنفيذ وأن يعتنق كأنه عقيدة صحيحة بين أمم وأجيال كثيرة .

(٣) عارض العلماء المتخصصون نظرية فرويد . وهاجموها من مواقع كثيرة (أولا) لاحظ العلماء ، ومنهم (ردين فاين) أن التحليل النفسى بنية متحجرة لا تتغير مما جعل فرويد يقلب النظر أكثر من مرة فى أفكاره الرئيسية على ضوء الملاحظات وأن تعميمات فرويد قد طرأ على صفاتها تغير كبير وكان فرويد يعتقد أن نظرياته صالحة للتطبيق ، غير أن التحليل النفسى ، قد أوقعه فى تحجر أفقده خصوبته وسيطرته وليس من دليل يؤكد أن علم النفس فى المستقبل سوف يتم على الأسس الفرويدية .

(ثانياً) إن نقطة الضعف فى فرويد كعالم أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة التعميم والوصول إلى قوانين عامة وقد ترك فرويد فى كتاباته عن نفسه وعن حياته ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه ومواجسه ومشاكل صباه ، كيهودى فى النمسا المتعصبة ضد اليهود قاعدة كل تعميماته أن فرويد ليس خالقه تماماً خلق العلماء إنه أشبه بمتنبىء منه بعالم .

(ثالثاً) ذلك أنه يرمى بنظرياته وآرائه دون أن يقدم البرهان العلمى والسند الواقعى إنه يفترض ثم يصدق ما يفترض ويبنى عليه وكأنه حقيقة علمية لا يأتيها الباطل ، وأنه من غير شك مخترع الفرضيات أكثر منه مجرباً لها .

(رابعاً) اعتمد فرويد على الأساطير اليونانية القديمة وأقام منها قوانين علمية كاعتماده على عقدة أوديب وعقدة الكترا . وقد أثبت العلماء أن عقدة أوديب والعقد الأخرى ليست طبيعية المنشأ . وقد أثبت العلماء أنها ظاهرة إجتماعية ، قد توجد فى مجتمع وتنعدم فى مجتمع آخر . وقال مالينوفسكى الباحث النفسى : أن عقدة أوديب ليس لها أثر فى أماكن كثيرة وقال كلاباريد : أن فرويد وأتباعه كالبوم لا يرون إلا ما تشتمل عليه كهوف اللاشعور .

(خامساً) سجل الباحثون أن فرويد نفسه كان يمر بأزمات نفسية ، وهو يعالج مرضاه . فقد اكتشف فرويد وهو يعالج الفتاة سيسيلى المصابة بعقدة أوديب ، أنه هو نفسه مصاب بعقدة أوديب وأنه كان يتجه إلى أمه ويغار من أبيه .

(سادساً) أشار كثير من الباحثين إلى أن (يهودية فرويد) كان لها دخل كبير فى صياغة الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليلاته : ذلك لأنه كان ينتمى إلى أقلية مكروهة بحكم صفاتها المعروفة ، التى أقل ما ينسب إليها حب المال والانغلاق والتعصب .

(سابعاً) فلسفة فرويد ميكانيكية جبرية تنظر إلى الإنسان كأنه آلة عديمة الحرية خاضعة كل الخضوع لقوى خفية لا يمكن التغلب عليها إلا بالحيلة . (ثامناً) عارض يونج آراء فرويد وقال : إنها ذات جانب واحد ، وغير ناضجة تمام النضوج وأن الدافع الجنسى ليست له هذه الأهمية الهامة التى ينسبها فرويد إليه فى حياة الطفل ، وأنه توكيد الذات وليس الدافع الجنسى هو القوة السائدة الإيجابية فى الحياة . وأشار أدلر إلى خطأ إرهابية الكبت ومعارضته له وابتذ أهمية الغريزة الجنسية وأرجع التكوين الشخصية ونشأة الأمراض العصبية إلى مجرد الرغبة فى القوة واتجاه الإنسان إلى التعويض عن نقص فى كيانه .

(تاسعاً) أشار الباحثون إلى أن فرويد . اعترف فى مناسبات عديدة . أنه لم يكمل البحث وأن نظريته ليست مكتفية بذاتها . (٤) إن من أخطر أهداف فرويد هو تصوير الكبت كسيف مشهور على الأعناق . فقد صوره تصويراً خطيراً ، داعياً إلى إطلاق الطفل من كل توجيه وإلغاء كل الضوابط التى تحفظ منطلقاته من العثور والسقوط .

وقد جرت المحاولات من وراء فرويد لإذاعة هذه الآراء ، وإدخالها فى مناهج التربية الحديثة ، بالرغم من أن هذه النظرية لم تثبت علمياً وقد عارض زملاء فرويد ما ذهب إليه من إرهاب فى هذا الصدد ، وما حاول أن يصوره من مرض نفسى أو جنون نتيجة العقاب أو الكبت وقد أثبتت التجارب الإحصائية المتعددة ، أن ضرب الطفل أو إرهاقه لا يؤدى إلى النتائج التى افترضها فرويد .

وأعلن الدكتور اسكندر توماس : أن عدداً من البحوث قد أجرى بمعرفة فريق من الأطباء النفسيين ، انتهى إلى أن نظرية فرويد لم تكن مطلقة وأن إقبال رجال التربية على لوم الآباء ، كان هو

المسالك المدمر فى تربية الأبناء . ويقول العلماء أنهم درسوا أحوال ١٥٨ طفلا غير منحرفين ، بينهم الفقراء والأغنياء ، وتبين أن الأولاد نشأوا أصحاء مستقيمين بالرغم من قيود النظم القاسية التى عاملهم بها الآباء وأشار الدكتور توماس : أن مستوى العقل يتأثر بعدد كبير من العوامل وليس بالبيئة والوسط والحالة الاجتماعية وحدها . (٥) وقد استعرض كثير من الباحثين نشأة علم النفس الحديث فقالوا إن علم النفس نجح حين تواضع وأخفق حين حاول أن يحل محل فلسفة الأخلاق .

يقول الأستاذ أحمد حاكى : حين أبديت للعالم أصول علم النفس بما تحمله من مباحث التحليل النفسى ، وبما تتضمنه من وصف نفسية الجماعة ، حينما أبدى كل ذلك ، تطرق الشك فى قيمة الفكرة وأصبح الناس لا يرون العقيدة نفس السلطان الذى كان لها فى الماضى . ويرجع الشك فى قيمة الفكرة ، أن علم النفس الحديث ، يرى أن الإنسان يسير أمام جملة من العوامل التى لا يحكمها العقل . وعلم النفس لا يستطيع أن يخلق لنا مثلا أعلى ، لأنه غير قادر على تثبيت قيم الأشياء ذلك لأنه علم وصفى . يسير فى نطاق ضيق من التجارب ولأنه علم تجريبى فقد عالج حالات ، شاذة وغير شاذة ، من غير أن يقيم معايير يستطيع المرء أن يتخذها لنفسه غاية أو سبيلا فحينما طغى علم النفس على فلسفة الأخلاق فقد العالم كثيراً من الغايات التى كان قد استقر على الإيمان بها واستشرف قادة الفكر على حالة من الشك طافت بنفوسهم ، حتى أصبحوا يشكون فى مبلغ عقائدهم هم أنفسهم .

(٦) كشف كثير من الباحثين الصلات العميقة بين الفرويدية والأيدلوجية التلمودية . وإذا رجعنا إلى البروتوكولات وجدنا هذا النص : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان ، فتسهل سيطرتنا ، وإن فرويد منا ، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية . وعندئذ تنهار أخلاقه » .

فى ضوء هذا كان عمل فرويد فكانت نظريته : إن الأخلاق تعوق التطور ، وأن الكبت ضار بكيان الانسان ، وأن التسامح نوع من الشذوذ ، وأن الأخلاق تدعم بالقسوة وأنه من أجل تجنيب أخطار العقد والاضطرابات يترك الشباب بدون توجيه أو ضوابط والهدف هو تحطيم الأخلاق والقضاء على المسؤولية الفردية .

والمعروف أن فكر فرويد لا سند علمى له ، وأنه أحقاد وضعت فى قالب براق ، وأنها وجدت وقودها فى تطلع النفس البشرية إلى الإباحة وقد وجدت من الفلسفة سندها ومبررها ، وأنها وضعت لمجتمع معين ، وأنها استمدت كل مفاهيمها من وثنيات الفكر اليونانى ، واتصلت بيئات وأديان غير الاسلام . وأن القوى الخفية ، قد حملتها إلى الأدب ، والقصة والمسرح ، والسينما ، والإذاعة وبيوت الأزياء ، وأدوات الزينة .

(٧) ولا ريب أن فرويد هو ثمرة الايدلوجية التلمودية فى أدق مراحلها . وقد أشار إلى هذا المعنى عدد من الباحثين : (سيجموند فرويد) هذا الرجل أراد أو حطم احترام الانسان لنفسه

تحطيماً كاملا ، ومن يقرأ فرويد : يدرك تماماً أنه ينفذ مخططاً يهودياً جباراً . أراد أن يصم الجنس البشرى بأنه جنس متحلل . ينطوى على أسوأ النوايا وأخس الرغبات حتى أنه اتهم الجنس بأن الطفل يعشق أمه ويريد أن يقتل أباه ، وبنى فلسفته ومذهبه على هذا حتى جعل الناس جميعاً يشكون فى كل قضية وكل عاطفة رقيقة وإذا نحن رجعنا إلى الهدف رأينا كيف مهدت الصهيونية لاستيعاب الرأى العام المسيحى فى الغرب ووقفت وراء الوعامات العلمية ، ووراء عالم الطبيعيات (داروين) ونقلت مذهبه إلى تشكيك المجتمع الانسانى فى طبيعة الخالق ، ووراء نيتشه وهو ينادى بسياسة القوة والا رحمة . ثم السيطرة على العلوم والفكر . وبالسيطرة على الفكر العالمى عن طريق التعليم والثقافة ، يمكن القضاء على كل فكر . وزرع الشك والريبة فى كل أفق للوصول بالفكر البشرى إلى مرحلة الحيرة . ومن يتابع تاريخ الفلسفة ير دور اليهود فى ذلك . وكيف قام رجالهم (فرويد ، ماركس ، دور كايم ، ليفى بريل ، سارتر) على بناء الفلسفات المدمرة للقيم الانسانية .

وقد أشارت مخططات الصهيونية العالمية إلى ضرورة تخريب العالم ، قبل السيطرة عليه . وإن أهم الأهداف التى يمكن القول دون تردد بأنها حققت نجاحاً ، هو احتواء الفكر الغربى والسيطرة عليه وتهويده ودفعه إلى الغايات التلمودية ، وذلك بإسقاط الإيمان بالله وإسقاط الأخلاق وإسقاط الجزاء الأخروى . (٨) نقل الأستاذ عباس العقاد عن عدد كبير ممن ترجموا لفرويد وخاصة ما كتبه الدكتور أرنست جونس . أكبر تلاميذ فرويد الأحياء فى الجزء الثانى من ترجمة فرويد . قال : إن فرويد كان يحرق أوراقه قبل أن يتمكن أحد من الإطلاع عليها . وأنه كان يحيط نفسه بأعوان من اليهود . وأن الأطباء النفسانيين الذين اجتمعوا لإحياء ذكرى فرويد فى مدينة شيكاغو وعددهم نحو أربعة آلاف قد فوجئوا بحملة عنيفة على فرويد ومذهبه يتولاها رجل مسؤول من مركزه العلمى والرسمى هو : الدكتور « برسيفال سيلى » مدير معهد النفسيات بولاية الينواز .

وخلاصة حملته أن البقية الباقية من طب فرويدقليلة لا يؤبه بها وأن آراءه لا تضيف شيئاً إلى القيم الإنسانية لأنه يرتد بالإنسانية إلى أغوار الباطن ويهمل جانبها المنطقى الشاعر ، وأنه لم يكن يفهم المرأة ولم يكن يتذوق الموسيقى ، ولا يحس جلال العقيدة وقال : إن العالم استطاع أن يضع فرويد على المشرحة بعد أقل من عشرين عاماً من وفاته .

ونقل الأستاذ العقاد عن مترجم حياته : الدكتور أرنست جونز : إن فرويد كان عرضة للاغماء على أثر بعض المفاجآت . وكانت مرارة الطبع خلة ملازمة له فى علاقاته بغيره وكانت لأحلامه وجوه خفية ترمز إلى ملائلها سريرته الباطنة ، وكانت له ضروب من القلق تنم عن باعث من بواعث الحيرة المكتومة ، وكان أظهر حالاته الخاصة أنه يحارب فى سبيل التشبث بالتفسير الجنسى للعقائد والعادات تشبثاً يربو فى إصراره وشدته على تعصب المتعصب اللدود لمذهبه ودينه .

ومن قوله ليونج : عدنى أنك لن تتخلى يوماً عن الإيمان بالنظريات الجنسية . إلا أن يونج لم

يابعه أن توحوح بنفكوه شيئاً فشيئاً عن ذلك الاغراق فى العصبية الجنسية التى تحيط بكل علة، وتتغلغل وراء الأسرار فى أعماق كل هاوية. وقد خالفه تلميذه الفرد أدلر كما خالفه يونج وفرويد كان مجموعة من العقد النفسية والعادات الغريبة. ولم يستطع أن يشفى عقله الباطن من هذه العقد النفسية إلى آخر حياته كان ينسى الأسماء ومنها أسماء معارفه وكان يتتبع أوراقه التى تدخل فى ترجمة حياته فيحرقها وكان يؤمن بأنه سيموت فى نهاية الحرب العالمية الأولى فمات فى بداية الحرب العالمية الثانية. وكان يدخن عشرين سيجاراً فى النهار ليهدىء من ثوراته العصبية وكان فى طفولته ينسى نفسه ليلا فى فراشه وكان يخشى من السفر بالقطار ويحضر إلى المحطة قبل موعد السفر بنحو ساعة وكان دائم المرأة لا يسمح لأحد أن يصارحه طويلا.

(٩) وفى السنوات الأخيرة جرت أبحاث عديدة عن سقوط الفرويدية، بعد أن تعرضت فى العقدين الأخيرين إلى هجمات متوالية وحملات عنيفة استهدف تجريدها من العلمية، وقد أشار الباحثون إلى أن المؤتمر الذى عقد فى انجلترا ١٩٧٠ للأطباء النفسانيين، قد كان نقطة تاريخية خطيرة. فقد ألقى العالم النفسى (اليوت سلتير) كلمة أعلن فيها أن نظرية فرويد: ليست علماً، بل هى أسطورة (ميثولوجيا) ولدت فى رحم خصب من اللاعلمية. وقال سلتير أن نظرية فرويد سوف لا يكون لها مستقبل وأشار إلى ما صرح به (كارل بوبر) من أن التحليل النفسى فشل فى إيجاد نظرية لا يمكن دحضها.

وجاءت ضربة أخرى على الفرويدية فى حلقة دراسية نظمتها أكاديمية العلوم فى نيويورك وضمت ١٨ فيلسوفاً حيث استثنوا علم التحليل النفسى لفرويد من ميدان العلوم وكانت وجهة النظر أن النظرية خلابة لنظرية فرويد برزت قبل نصف قرن، كان يجب أن تكون الآن علماً له مكانته وأسسه ولكنها لا تزال تدعو للخجل والرثاء لأنها لم تتمد حدود النظرية ويقول العلامة سلتير: أن نظرية فرويد، فرقت علماء النفس. وأن علم الأمراض النفسية يعانى من جرح عميق أحدثه جسم غريب هو نظرية فرويد وهو جسم غريب لسببين الأول أنه لا يمت للعلم بصلة والثانى لأن ما يقدمه ويحققه المريض يختلف عما يحققه العلم الطبى فى أى فرع من فروعه.

ثم قال: إن إزالة هذا الجسم الغريب لكفيل باندمال جرح العلوم النفسية ويقول فخرى الدباغ بعد أن استعرض عشرات المواقف التى وقفها العلماء فى مواجهة نظرية فرويد: من كل ما تقدم، نرى أن ما يؤخذ على نظرية فرويد هو أنها غير علمية ولم تخضع نفسها بما فيه الكفاية للتحليل والإحصاء والمقارنة وأنها أحدثت الفرقة والنزاع بين علماء النفس وأنها أشبه بأسطورة وعقيدة ذات تقاليد صارمة ينصاع لها المؤمنون والأتباع والمعالجون على طريقتها. ومن الطبيعى ألا يتوقع بقاء نظرية أسطورية خرافية، طيلة هذه السنين دون تصدع، أو انحدار، أو تدهور».

(١٠) أشار الباحثون الذين يحملون فكرة الفرويدية الجديدة إلى أن هناك تناقضاً كبيراً قد ظهر

خاصة فى غريزتى الجنس والموت وعقدة أوديب والجنس عند الأطفال وهذه هى النقط الأربع التى خالف فيها فرويد الفطرة الانسانية ، والأديان وعارض الأخلاق ويقول جوزيف رينولدز : توصل علم الأجناس إلى نتائج وشواهد هائلة ، تدحض بعض الافتراضات المبدئية لفرويد مثل غريزتى الجنس والموت ومراحل الجنسية الطفلية الفرويدية وعقدة أوديب وأن التجارب التى أجريت لاختبار بعض هذه المفاهيم أكدت زيفها وأثبت ذلك « روبرت سيرز » فى كتابه : نظرة على الدراسات الموضوعية فى مفاهيم التحليل النفسى فقد انتهى إلى القول : بأنه قياساً على معايير العلوم الطبيعية ، يتضح لنا أن التحليل النفسى ليس علماً حقيقياً ، فالتحليل النفسى يرتكز على تكنيك لا يسمح بتكرار الملاحظة ولا يملك بنية واضحة تؤكد صوابه ، ثم إنه مصبوغ بصبغة غير معلومة بالإيحاءات الذاتية الملاحظ .

ثم يصل إلى الحز حين يقول : إن نظرية التحليل النفسى القائمة على غريزة الجنس الثابتة والموجهة السلوك ، عجزت عن تقديم تفسير شاف عن هذه الحركات الواعية التى تولدت كرد فعل لظواهر اجتماعية محددة . وأن التجارب التى أجريت بين طوائف العمال والشباب والفلاحين ، والزنوج ، أثبتت عدم صحة ما ذهب إليه فرويد .

(١١) ومن ناحية أخرى . فإن العالم النفسى (إيفان بافلوف) أعلن أن نظرية فرويد ، وهى النظرية التى ترجع جميع الاضطرابات إلى أسس جنسية بحتة ، هى معول هادم لنفوس الشباب ومخدر عميق لنفوس أبناء الشعب ويرد بافلوف مصدر الانحراف إلى للبيئة كما ردها أدلر إلى تأكيد الذات وتعويض الشعور بالنقص . كما يردها يونج إلى النزوع نحو التفوق .

الأخلاق

(١) كان أخطر ما طرح فى مجال الأخلاق : نظرية ليفى بريل القائلة بمعارضة ثبات الطبيعة البشرية ، وافتراض أن كل عصر ، وكل جنس له أخلاقه وهذه هى أصرح دعوة لهدم الالتزام الأخلاقى والتحلل منه وهى حلقة فى نطاق الحلقات المتوالية التى طرحتها الفلسفة المادية . فى مختلف مجالات الاقتصاد والاجتماع والنفس ، لاستكمال حلقة السيطرة على البشرية ، وتوجيهها وجهة مغايرة للفطرة وللمفاهيم الإنسانية الصامدة الثابتة ، التى جاءت بها الأديان ، وجاء بها الإسلام خاتماً لها .

ولا ريب أن محاولة صدع حقيقة وحدة الطبيعة البشرية ، هى محاولة جريئة . ذلك أن أفراد الجنس البشرى توجد بينهم صفات نفسية وخلقية عامة ، تتصل بوحدة التركيب البيولوجى ، والعقلى والاجتماعى للانسان من حيث هو إنسان . وإن آثار البيئة أو الجنس أو العصر هى مسائل محدودة فى نطاق النظرة الكلية الجامعة ، وأن الاختلاف فيها بالزيادة أو النقص ، لا يغير من القاعدة الأساسية ومن الصفات الجوهرية الثابتة . ولا ريب أن النظريات الفلسفية . التى ظهرت فى نطاق الفلسفة المادية

قد حاولت فى المرحلة الأولى ، إخراج الأخلاق من نطاق الدين وعزلها عن تيمته وخلق منهج أخلاق منفصل يقوم على فكرة الواجب . ثم جاءت المرحلة الثانية ، وهى العدول نهائياً عن مهمة علم الأخلاق فى تحديد قواعد السلوك . وقصره على دراسة الأخلاق على أنها ظواهر إجتماعية ومعارضة الحقيقة القائلة بأن الطبيعة البشرية ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان .

(٢) قامت هذه المذاهب الفلسفية فى إتجاه الأخلاق على « الإباحة » ومعارضة الضوابط ووصفها بأنها حرمان وكبت وقد استمدت مفهومها هذا من الفلسفة اليونانية الوثنية التى عرفت بالأبيقورية والتى ترى أن اللذة الجسمية هى الغرض الأسمى من الحياة وبذلك أخرجت الفلسفة الحديثة الأخلاق عن مفهومها الطبيعى بوصفها الجدار القوى الذى تقف عنده مطامع الإنسان وأهواؤه ، والحائل دون تدمير الفرد لنفسه وإقامة الضوابط الكفيلة . بسلامته ولا ريب أن الأديان والأخلاق جزء منها ومرتبطة بها) ولا سبيل إلى أن تنفصل عنها ، تعمل إلى إقامة بناء الإنسان على قواعد من الثبات والصمود فى مواجهة أحداث الحياة وحماية كيانه من الإنهيار تحت صدمات المواقف ، أو أخطاء التصرفات ولذلك فقد كان هدفها هو إجراء عملية ضبط يقظة دائمة تحمى الانسان من أخطار شهواته ورغباته ومطامعه ، والحد من قواه المدفوعة إلى الشر والرذيلة وقد ظلت ضوابط الأخلاق مرتبطة بالعقيدة ، حتى يكون لها التزامها الحقيقى وهو الالتزام المرتبط بالجزاء الأخروى . ولا ريب أن الإيمان بهذا الجزاء الأخروى . ولا ريب أن الايمان بهذا الجزاء بعد البعث والحساب هو العامل الأكبر فى إعطاء المسؤولية الأخلاقية مكانها الحقيقى وأن الإنسان إذا تجاوز هذه الحقيقة عجز عن أن يجد الرادع الذى يرده ، فإذا ما جاءت الفلسفة المادية وحطمت أمامه كل جدار ، وأنكرت كل مسؤولية وجزاء وبعث فإن الأمر قد أصبح بالنسبة له خطيراً وقد أصبح أشد خطورة بتحريضه على الاندفاع نحو مطالب الغريزة وأهوائها وإطلاق يده نحو عمل كل ما يريد على النحو الذى تدعو إليه الوجوديه وبذلك فقد سقط الإنسان فى هوة خطيرة وأزمه كبرى هى أزمه القلق والضياع التى تمر بها البشريه فى الغرب فى هذا العصر . ونحن نعرف الهدف مقدماً ، ونعرف أن الأيدلوجيه اليهوديه خططت له ، وأن بروتوكولات صهيون قد أشارت إليه فى صراحه تامه . وفى ضوء هذا كله فإن أى نظرة إلى مفهوم الأخلاق داخل نطاق الفلسفة الماديه ، فإنها لن تستطيع أن تصل إلى شىء ما ذلك لأن منطلق البحث أساساً هو : ما هو هدف الإنسان فى هذه الحياة ، وما هى مسئوليته الفرديه والتزامه الأخلاقى .

إن النظريه الماديه لا تستطيع الإجابه عن هذا السؤال ، والذين يؤمنون بالعلم وحده لا يصلون إلى شىء وقد قال ليونارد داروين : إن العلم لا يمكن أن يتخذ مرشداً للسلوك . وإنه إذا كانت هناك إرادة حرة . فلا بد أن يكون هناك شىء خارج العلم ولا تقف الفلسفه الماديه عند عجزها عن تحديد هدف الانسان فى الحياة . بل إنها ترفض فكرة هذا الهدف . ويقول الفلاسفه إن ظهور الانسان على هذه الأرض كان عارضاً . وليس مقصوداً . وقد وقد علماء الانتربولوجيا وجلهم من اليهود إلى أن المجتمع البشرى ليس له هدف أما المؤمنون بالدين الحق ، والذين ينظرون إلى الحياة وقضاياها فى ضوء

الحقائق الكبرى التي ألقاها الإسلام، وكشف عنها القرآن، فإنهم يرون أن الحياة غاية، وغاية كبرى وأنها مسئولية وأمانة الانسان، وامتحان لمقدرته على حمل مهمة الاستخلاف في الأرض، وأداء دوره في العمران والبناء في ظل حدود الله والضوابط التي حددها من الوجهة الأخلاقية والاجتماعية وأن هذا الكون لا يمكن أن يكون قد خلقه الله باطلا، وأن له غاية «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون». ومن منطلق الفهم الرباني الشامل غير المادي المنحصر تتكشف أهمية الأخلاق في بناء الأفراد والمجتمعات ومن الواضح، أن الحضارة المعاصرة قد نحت الدين والأخلاق جانباً. وأغفلت تماماً الجانب الروحي والنفسي من الحياة وركزت على الجانب المادي وحده وأعطته مداه ومنطلقه إلى أبعد الغايات. وبذلك أحدثت خللا خطيراً، هو مصدر الأزمة التي يعانيها الانسان المعاصر اليوم.

يقول العلامه جود في كتابه «سخافات المدنيه الحديثه»: أن هذه المدنيه ليس لها توازن بين القوة والأخلاق، فالأخلاق متأخرة جداً عن العلم ومنذ عصر النهضة ظل العلم في الارتقاء والأخلاق في انحطاط حتى بعدت المسافات بينهما وقد تقدمت العلوم خلال القرون الأخيرة في جميع الميادين بلا استثناء في حين أن الأخلاق لم ترتق إرتقاء متناسباً مع تقدم العلوم بل إن تقدم العلوم قد أحدث هذه الفجوة الخطيرة حين اتخذ من بعض أساليب العلم وسيلة لهدم الأخلاق، وتمزيق ثباتها، والدعوه إلى ربطها بالمجتمعات وعزلها عن مصدرها الأصيل: الإنسان.

(٣) إن الأخلاق في مفهوم الاسلام ليست نظرية، ولكنها تطبيقية وليست مثالية، ولكنها واقعيه، ومن ثم فقد تجاوز الاسلام بها خطر الطوبيات الخياليه، التي تعجز أمام الواقع وتبدو مستحيلة أمام طبيعة الانسان نفسه ولقد بدأ الاسلام من نقطة أساسيه: تلك هي الاعتراف بالرغبات والمطامح البشرية على أنها حقيقة واقعة، ثم تحقيق هذه الرغبات مع وضع الضوابط والحدود التنظيمية التي تحول دون الصدام أو الفساد. وبذلك تجاوز الاسلام الخطرين القائمين:

خطر دفع الانسان إلى الصعود على النحو الذي يخالف به الفطرة، أو يحول بينه وبين التوازن مما تدعو إليه بعض العقائد من زهادة وانفصال عن المجتمع أو خطر دفع الانسان إلى الهبوط على النحو الذي يخالف الفطرة أيضاً مما تدعو إليه بعض الفلسفات من إباحية وإسراف على النفس والمجتمع.

فالإسلام حين يضع الانسان في الموضع الطبيعي المتصل بفطرته وطبيعته، ويمكنه من ممارسة كل رغباته. إنما يحول بينه وبين الخطر المترتب على الاطلاق الكامل أو الانفلاق التام وهو في نفس الوقت يجعله قادراً على تحمل المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي اللذين يصدران عن حرية الانسان في الاختيار وإرادته الكاملة مما يؤهله لتحمل المسئولية هذه المسئولية هي الجزاء الذي يتم في اليوم الآخر. يوم البعث وهو الحقيقة التي قررها الدين الحق والتي تضع الاجابة الحقيقية على السؤال الحائر عن وجود الانسان في هذه الحياة وعن الحكمة من الحياة الأرضية ولا ريب أن كل محاولة لخلق منهج أخلاقي للانسان (بعيدا عن هذا المفهوم) هو النحو الذي قال به الإغريق القدامى أو الغربيون خلال

فترة اتصالات الثقافة الأوربية بالمسيحية . من أن الانسان يستطيع أن يبنى الاتجاه الأخلاقى على العقل والإدراك ، أو الواجب أو الوازع الداخلى أو الارتفاع بالنفس عن الدنايا . كل ذلك زيف لا يستطيع أن يحقق الالتزام الأخلاقى ، أو يجمله فى نطاق الفطرة كما تفعل الحقيقة التى جاءت بها الأديان . والتى تتجلى فى الاسلام على أروع صوره فقد أقام الاسلام الأخلاق على أساس الايمان بالله وفى نطاق العقيدة ، ومن خلالها وأنكر إمكان قيام أخلاق من خارج الدين . ذلك أن منطلق المسؤلية الأخلاقية ، إنما يرتبط أساساً بالاعتقاد بالله والايمان بالبعث والجزاء والدار الآخرة وبأن الله يعلم ويحاسب على كل تصرف .

وقد أشار الرسول محمد ﷺ إلى أنه إنما جاء ليتمم مكارم الأخلاق فالمفهوم الأخلاقى الربانى ، قد استمر فى الحياة البشرية ، متصلا بالأديان إلى أن استوفى صورته الحقة فى الاسلام ، وقد أقام الاسلام مفهومه الأخلاقى على التقوى (وليس على الرهبنة والسعادة) وأقر تحقيق الرغبات فى حدود ضوابط التى تحفظ النفس والمجتمع والأخلاق فى حقيقتها : تزكية النفس وتصعيد لها ، وإعلاء بها عن الشر والإباحة والانهيار وفطم لها عن الشهوات . ولا ريب أن الدعوة إلى التسامى من خلال الواقع . قد جاء الاسلام فيها بأصدق قاعدة « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » .

ومفهوم الحرية فى الأخلاق الاسلامية : هو تحرير الانسان من كل قيود العبودية وفى مقدمتها تحريره من شهواته وعبوديته لأهوائه ، وتحديد معنى الحرية بأنها ستنتهى عندما تصبح عدواناً على حرية الآخرين .

(٤) أن نظرة الفلسفات الغربية إلى النفس على أنها شريرة بطبعها ، وأن الانسان محكوم عليه بالخطيئة هى نظرة لا يقرها الإســـلام وإليها ترجع كل التحديات التى اتصلت بالمفاهيم العقائدية والأخلاقية فقد انطلقت المفاهيم الغربية من فرضية ـ كانت ولا تزال عرضة للشك والارتياب ـ ولم تنطلق من أصل ثابت عندما قامت على فكرة الخطيئة . وفكرة الخطيئة فكرة فلسفية قديمة ، تجددت فى الفكر الغربى المسيحى بصورة جديدة ، ولم تكن فى واقع الأمر حقيقة تاريخية أو علمية . ولقد حاولت فكرة الخطيئة ، السيطرة على الفلسفة الغربية وعلى الأدب والقصة كما كانت بعيدة الأثر فى مفاهيم الأخلاق وفى تفسير غاية الحياة . ووجود الانسان على الأرض ، وهى تنظر إلى الانسان نظرة متشائمة مظلمة ، وتقرر أنه شرير ومن هذا المنطلق تفسر إستعداده للانتقام والعدوان والثأر والسيطرة وترد ذلك كله إلى الخطيئة الأولى ، التى كانت مصدر خروج آدم من الجنة ، وترى أن هذه الخطيئة سيف مصلت على رقاب البشرية منذ اليوم الأول إلى نهاية الحياة ولقد كشف الاسلام عن حقيقة آدم وعرف كيف أنه حين أخطأ تاب الله عليه . وأن خطأه كان خاصاً به وحده ، وأنه ليس مرتبطاً بأى فرد آخر من أفراد الجنس البشرى .

ومن خلال نظرية (الخطيئة) المسيطرة على الفكر الغربي . تبدو تلك النظرة القائمة إلى الإنسان وتصور النفس الإنسانية على إنها شريرة في أصلها . والحق هو ما قرره القرآن في تأهب النفس الشر والخير ، وأن الأمر متوقف على مدى قدرة الإنسان على تزكية النفس وتحريرها من الشر . ودفعها إلى الخير . وأن مهمة الدين بعباداته وفروضه المتجددة على مدى ساعات اليوم ، هي إيقاظ النفس ، وتجديد إيقاظها وتذكيرها ، ودفعها إلى العمل الصالح ومن قدرة الإنسان وإرادته ، وفي ظل إيمانه بالله ، وخوفه من مسئوليته وعقوبته يكون قادراً على أن يتحرك داخل إطار الضوابط الاجتماعية التي تحميه من الخطأ و لقد حرر الإسلام بذلك الإنسانية من نظرية ليست إلا قيداً شديداً ، على وجود الانسان (٥) اختلفت غاية الاسلام في الأخلاق عن غاية الفلسفات التي دعت إلى السعادة كما اختلفت غاية الإسلام في الأخلاق عن غاية العقائد التي دعت إلى الوهد .

أما الاسلام فقد ربط الأخلاق بالدين ، وجعلها سداً منيعاً في وجه الإنحلال والفساد للفرد ، والانهيار المجتمعات . وأقام العلاقة الصحيحة بين الانسان ونفسه ، وبين الانسان والمجتمع . وجعلها وسيلة إلى إصلاح الحياة الدنيا ، وإلى الجزاء في الآخرة . « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا . وأحسن كما أحسن الله إليك . ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين» ويقف الاسلام بقوة عند القاعدة الأساسية القائلة بارتباط الأخلاق بالجزاء في الآخرة . وتلك نقطة من أهم النقاط التي تحاول الفلسفات إفسادها عن طريق مذاهب الحلول ، أو الاتحاد أو وحدة الوجود بالقول بأن الانسان جزء من ذات الله تعالى ، وأن عمله كذلك ، وهي محاولة باطلة لإسقاط الفرائض والالتزامات والمسؤوليات ، وإسقاط قاعدة أساسية . تلك هي قاعدة البعث بعد الموت والجزاء بالحساب (ثواباً وعقاباً) وقد أكد الاسلام على مسؤولية الانسان عن أعماله ، تأكيده على حرية إرادته ، في الضوء الكاشف الذي دل بوضوح على الطريقين المفتوحين أمام الانسان ليختار أحدهما ، ومع منحه كل المعونات التي ترجح أمامه طريق الله والحق .

وأبرز ما تتسم به مفاهيم الاسلام الأخلاقي هو رسمه المناهج والقواعد . وربطه بين الاســـلام والإيمان ، وبين العلم والعمل ، ومخاطبته العقل والقلب . وبرز مظاهر الأخلاق في الإسلام . الوسطية والموازنة والملاءمة مع الواقع والبعد عن جناحي الإفراط ، والتفريط والقصد في الغنى والفقر وهو حين أطلق للانسان رغباته جعل لكل رغبة من الرغبات قاعدتها وضوابطها ففي المال : أعطى الانسان حق جمعه ، ودعاه إلى الزكاة والصدقة واتقاء شح النفس . وفي الجنس : أعطى الانسان حق ممارسته في حدود الزواج ، وبعيداً عن الزنا ومن خلال بناء الأسرة والمودة والرحمة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد . بل إنه أعطاه حكمة الأمور :

فالمال له مهمة خاصة هي بناء الحياة ، والجهاد في سبيل الله ، وليس مطلوباً لذاته لاكتنازه ، أو للتعامل فيه دون حدوده وضوابطه وأهمها : تحريره من الربا . أما الجنس فمهمته بناء الحياة واستمرار

النوع والدين حفاظاً لذاته ، بل لتحقيق هذه الغاية العليا . وله ضوابطه من الزواج ومن حماية الكيان البشرى وتدور الأخلاق حول حماية الفرد من السقوط والانحدار والتدهور والتحلل ومن هنا تجيء ضوابط الطعام والمال والجنس ، بهدف إبقاء الأجيال البشرية قادرة على العمل وليس ساقطة تحت أقدام الشهوات ، فهي قادرة على المقاومة والنضال . ولما كان الاسلام ينظر إلى الانسان ككل ، فإنه يعمل على الموازنة بين عقله وقلبه ، وبين حاجاته وغاياته ، وبين روحه وجسده في سبيل الغاية العليا : وهى ترقية الحياة والارتفاع بالإنسان إلى الصورة الكريمة التي تليق به كمستخلف لله في الأرض . وقاعدة الاسلام الأخلاقية : هي أنه لا يمنع الانسان شيئاً من رغباته ، ولكنه يحميه منها بأن يضعها في قوالب ، ويضع لها ضوابط . وخاصة فيما يتعلق بالطعام والمال والجنس والبقاء .

(٦) لا ريب أن الأخلاق الاسلامية نسيج وحدها ، ومنهج متميز ، فليس هو مفهوم اليونان الداعى إلى السعادة واللذة ، ولا مفهوم العقائد الداعى إلى الزهد وليست الأخلاق الاسلامية هي فضائل الجاهلية العربية . وإنما هي منهج متكامل مرتبط بالعقيدة ، يعترف بالإنسان ككل ، ومؤثر في كل جوانب الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية وأدب ، وتربية وهي منهج عملى وليست نظرية فلسفية ، وتقوم على مبدأين : الالتزام والجزاء الأخروى ، وتتشكل من خلال تقدير الاسلام وتقريره للغرائز والميول في ممارستها مع ضبطها ، وليس في الصد عنها ، أو احتقارها وينطلق في اتجاه المقدرة ومراعاة الظروف والوسع ، والعفو والسماح عند الاضطرار وتقبل التوبة عن الخطأ . فضلاً عن اتصاف منهج الأخلاق الاسلامية بالوسطية والواقعية وارتباط المطلق فيه بالنسبى والمثالى بالواقعى وهو في نفس الوقت قد دحض الشبهات القائلة بفصل الاخلاق عن الدين أو القول بأن الملحد يستطيع أن يكون أخلاقياً . وقد أقامت القواعد الأخلاقية الاسلامية جداراً قوياً ضد الفوضى والظلم والشر عامة ، وبقيت في نفس الوقت مرنة تسمح للأجيال المتعاقبة بالعمل داخل إطارها الواسع .

ومن أبرز الملاحظات في هذا الصدد ، تفرقة الاسلام بين الاخلاق الثابتة والتقاليد المتغيرة . فالأخلاق ثابتة لاتصالها بالانسان (لا تبديل لخلق الله) ولأنها متصلة بالقيم العليا الدين كله . أما التقاليد فهى متغيرة ، لأنها متصلة بالوسائل العارضة ولأنها من صنع الناس والأخلاق الإسلامية . تختلف اختلافاً كبيراً عن مذاهب الثقافة أو السعادة أو الواجب وهي في مجموعها أخلاق تقوى .

(٧) الأخلاق وفكرة وحدة الوجود أجمع العلماء على أن القول بوحدة الوجود نفى الألوهيه وإثبات الكائنات وحدها ووحدة الوجود عنوان آخر للالحاد في وجود الله ، وتعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط ما دام لا يوجد شيء وراء هذا العالم . فالقول بأن الله داخله صورة أخرى للقول بنكرانه والقول بوحدة الوجود تفكير هندى قديم .

والمسلمون يؤمنون أن الله هو واجب الوجود ، وهو سر سرمد لا يحده زمان ولا مكان وأن ممكن الوجود هو كل ما سوى الله مما خلق . ولا ريب أن القول بوحدة الوجود هو أخطر سموم موجه إلى الالتزام الأخلاقى ، كما جاء به الاسلام ، إذ أنه يلغى المسؤولية الاخلاقية التى هي مناط الثواب والعقاب .

الفصل الثالث

الوجودية

(١) من الدعوات الهدامة التى راجت رواجاً كبيراً فى العالم كله : « الوجودية » وقد شملت جانبين : جانب الفكر ممثلا فى الآراء والنظريات التى طرحها دعاتها القدامى والمحدثون وأهمهم كيركجرد وكامى وسارتر . وجانب التطبيق ممثلا فى الجمهور والجماعات والصور المختلفة التى أولتها الصحف العالمية اهتماماً كبيراً ، ووجدت من الشباب التفاتاً وإعجاباً .

وقد وجدت الوجودية صدى واسعاً فى بعض البيئات لأنها جاءت بعد أن أفسحت لها الطريق مذاهب وأفكار من المادية ، وإنكار الله وإنكار البعث وما حملته الرياح من أفكار تقول بإعلاء الجنس وإباحة الرغائب وتصل إلى القول بأن الإنسان خاضع لما يقرره العلم بالنسبة للحيوانات والمادة وقد سادت فى السنوات الخمسين الأخيرة موجة من التنكر للأديان والأخلاق فى العالم كله ووجدت فيها مثل هذه الدعوات مجالا خصباً للازدهار والانتشار وقد كانت الوجودية رد فعل لأشياء كثيرة منها : الدعوات التى ترى أن الإنسان ليس إلا « ترساً » فى آلة كبيرة ، ليس له وجود أو كيان منفصل ومنها صيحة الحرب المدمرة ، وما حصدت الحرب العالمية الأخيرة من أرواح وما يزال يتهدد العالم من أخطار الصواريخ والقنابل الذرية كل هذه الأخطار حين تواجه النفس الإنسانية التى تجردت عن الإيمان بالله لا تجد طريقاً لها إلا الإتجاه فى طريق الإنحلال حيث يتصور أن الحياة هى الغاية الوحيدة وهى فى نفس الوقت غاية مهددة بالزوال فى أى لحظة هذه هى النار التى توقد الوجودية تحتها وهذه هى الصيحة التى ترفعها لتخدم الهدف الكبير الكامن من ورائها وهو إشاعة الإنحلال ودفع الإنسانية إلى الدمار الأخلاق .

ومن هنا يجد الشباب فى صيحات سارتر ، والبير كامى أصداء مشاعر تطوف بالنفوس ، ثم لا تجد لها طريقاً إلا نحو العنف والإباحة وتدمير القوى الانسانية وتدور الوجودية حول عدة مفاهيم تصدر أساساً عن العقل المكدود ، والنفس القلقة ، ولا تصدر أيضاً عن الإنسان فى طبيعته الأصيلة ولا فطرته السليمة . وتتلخص هذه المفاهيم فى هذه الصيحات .

إن الحياة بلا معنى ولا هدف . وإن العالم وجد كى يموت فيه الإنسان وإن الفكر محكوم عليه بالوحدة . وإن الإنسان محكوم عليه بالقلق وما دمنا سنموت ، فليس لأى شىء معنى وإن مغامرتنا البشرية لا جدوى لها اليوم كالغد ، والغد كبعد الغد ، وإنه لا طعم لشىء ولا لذة لشىء ، ولا أمل فى شىء ، ولا يأس من شىء . هذا العالم وجد بلا داع ويمضى لغير غاية يولد كل مولود بدون سبب عقلى

وبلا داع وتمتد حياته بواقع من الضعف ثم يموت بالمصادفة، العالم كله خداع فى خداع إننا موجودون عقل . والعالم يمضى إلى غير غاية .

(٢) يمكن القول بأن الوجودية : هى إحدى محاولات الفكر الغربى فى فهم الحياة فهماً منفصلا عن الدين والأخلاق ، فى نطاق النظرية المادية وهى تنطلق من نفس منطلقات الفكر الغربى القائم على الإشطارية فحيث ترى النظرية الماركسية ، تحل مشكلة الحياة فى مجال الإقتصاد . ترى النظرية الفرويدية تركو على مجال النفس ، وترى نظرية ، سارتر ، تقف عند الرفض المطلق لكل القيم الروحية والعقائدية كحل فى سبيل القول بحرية الإنسان .

ولا ريب أن استعلاء نظرية فرويد فى التركيز على الغريزة الجنسية وتشابكها مع نظرية ليفى بريل فى القول بأن الأخلاق ليست ثابتة ، قد فتح الباب واسعاً . أمام إسقاط جديد تنحل معه الضوابط والمقومات التى تفصل بين الخير والشر وبذلك اندفعت النفس البشرية إندفاعاً خطيراً ، إلى مجال الخوف والذعر ، والضياع ، وقد حسبت أن إندفاعها لتحقيق مطامعها وأهوائها وشهواتها ، وكسر كل القيود والحدود ، سيحقق لها السعادة ، أو الطمأنينة أو اللذة .

وتعد الوجودية ثمرة هذا التطور الخطير نحو الإنحلال . وقد وصفها الدكتور حامد عمار بأنها مرض العصر يقول : زعم فرويد أن دوافع الناس ، والظواهر النفسية المختلفة تنبع من الطاقة الجنسية المستقرة فى اللاشعور والإنسان فى نظر هذه المدرسة (مدرسة فرويد) إنما هو حيوان بشرى تسيره غرائزه ودوافعه الفطرية وقد صادفت آراء فرويد هوى فى مجال الطبيعة الوسطى فى المجتمع النمسوى فى أواخر القرن — ١٩ ثم اتخذت هذه الاتجاهات بعد الحرب الأولى أداة لتفسير سلوك الإنسان ، ثم كانت محنة الحرب الثانية وما أتت به من وسائل الدمار والفتك تجربة بشرية قاسية أقسى بكثير من الحرب العالمية الأولى وخاصة فى أوربا . وفى مثل هذه الظروف كان الجو السيكولوجى ملائماً لظهور أفكار الوجوديين ، وتفسيراتهم التشاؤمية هذا الوجدان القلق عند الانسان الذى يشعره بأن الكون سائر نحو العزلة والوحدة والعدم (هيدجر) هذا الشعور المرضى (من المرض) الذى يشبه الغثيان على حد تعبير (سارتر) . وهذا العالم الذى نعيش فيه ، عالم هش قابل للانكسار السريع والتحطيم المروع وإذا كان لنا أن نسأل عن القوى التى صنعت الحربين العالميتين ، والتى أفادت منهما ، والتى خططت لها لتحقيق غاية من ورائهما بالذات ، وعن نتائجهما وأثرها فى البشرية بعد ذلك ، إذا كان لنا أن نسأل وجدنا الإجابة واضحة ، فإن مخططات التلمودية ممثلة فى الصيهونية العالمية هى التى صنعت كل ذلك فهى مسعرة الحرب ، وفى نفس الوقت صانعة الدعوات والمذاهب .

ولا ريب أن هذا اليأس والتمزق الذى تكشف عنه الوجودية فى منهجها وفى تصرفات أتباعها . يدل على الانقطاع الكامل عن كل مصادر الايمان بالله ، ومصادر الخير والرحمة والحب والإخاء البشرى وكل هذه القيم الانسانية العليا التى يقوم عليها نظام المجتمع والحياة إن اليأس من رحمة الله والانفصال

عن الايمان بالله والاندفاع وراء المادية الجافة قد ولد فى النفوس هذا الخواء الروحى والفراغ . وأن المحاولة بدأت منذ وقت بعيد وانتقلت بين الأجيال حتى وصلت إلى نقطة وصفها (كامى) بالغثيان .

وقد وصفت الوجودية بأنها مرض الإنسان فى منتصف القرن العشرين وبأنها مرض العصر ، وهى فى مجملها : الملل والقلق والسأم والضياع والتوتر والشعور بالاغتراب ولا ريب أن هذه الصيحة كان يمكن أن تمضى ، ولا تترك هذه الآثار البعيدة فى العالم كله . لولا وجود قوى خفية تحوطها وتدفعها إلى الامام حتى أن كتاباً يصدر فى باريس بالفرنسية عنها تصدر طبعته بالعربية فى نفس الوقت فى بيروت .

ويتساءل البعض لماذا نجحت الوجودية فى أوربا . وفى بعض أجزاء من العالم والإجابة معروفة . يرجع ذلك إلى اعتناق المذاهب المادى ، وما يتصل به من دعوة إلى الانحلال والوجودية ثمرة النزعة الفردية أيضاً وتجرى محاولات دائبة لتجديدها كلما ضعفت أو سقطت ، حتى لقد وصف أحدهم القرن العشرين بأنه قرن سارتر ، وأن سارتر هو إعصار وأن الوجودية هى مصدر كل القلاقل والاضطرابات التى حدثت فى هذا القرن .

٣ — إن دراسة يسيرة لحياة سارتر تكشف عن الخلفية التى تقف وراء هذه المفاهيم . ذلك أن مفاهيم سارتر التى أطلق عليها إسم « الوجودية » لم تكن إلا صدى مشاعر نفسية . يقول سارتر : فى كتابه الكلمات ، لقد صنعت ذاتى لأنى لم أكن إبناً لأحد ، وسارتر : يعرف بأنه حين وعى نفسه لم يكن له أب ، ولا أم ولا أسرة فقد مات أبوه وهو فى شهره الثالث ، أما أمة فكانت ممسوخة الشخصية ولم تشعره أبداً بحنان أمومتها . ولم تكن الأسرة تتعدى جدين عجوزين يؤذيانه هو وأمه ويشعرانهما بالمهـــانة .

وكانت نظرة سارتر إلى البشرية نظرة مليئة بعطف مشوه . أساسه الاحتقار . وأراد أن يؤكد ذاته . فأنكر الكنيسة ، وحاول أن يكون له رسالة ، وهو الطفل المنبوذ فى مجتمع الأطفال العاديين ، فأنشأ الوجودية ويرد كثير من الباحثين تمرد سارتر إلى مفاهيم المسيحية الغربية التى لم تستطع أن تسعد نفسه ، أو تعطيه الإحساس العميق بذاته ومن الجوانب التى كانت مصدر ثورته وتحدياته أن الحياة لم تكن بذات قيمة فى نظر أهل مجتمعه ، وكانت هناك فكرة الخطيئة وكانت هناك محاولة تحرير الجسم الانسانى من كل رغبة وشهوة . وأن ذلك كله قد دفع الناس إلى إنتظار مملكة فى غير هذا العالم وعزلة ورهبانية بعيدة عن المجتمع فى قلب الصحراء . هذا هو التحدى الخطير الذى واجهه سارتر فى حياته فكانت من ثم فلسفته متأثرة بكل هذه العوامل . وقد صورت ، سيمون دى بوفوار : سلوك سارتر فى الحياة ، فقالت : كان يكره الحقوق والواجبات وكل شىء رصين فى الحياة وهو لايكاد يفهم أن له مهنة وزملاء ورؤساء وقواعد تراعى وتفرض وان يكون أبداً رب أسرة حتى ولا رجلا متزوجاً ولم يكن سارتر يرى فى الزواج شيئاً عظيما كان فوضوياً أكثر منه ثورياً . كان يجد المجتمع

على ما كان عليه شيئاً محتقراً . وهكذا نجد سارتر خصماً للدين على النحو الذى عاشته أوربا ومنه امتدت خصومته إلى كل قيم العقائد والأخلاق ، وهو فى هذا شبيه ، بفرويد وماركس . فى دعوتهم الصارخة إلى هدم مقررات الدين والحقد الدفين على الكنيسة . ومن هذا المنطلق وجدت الأيدلوجية التلمودية واحداً من أهدافها فى محاربة الدين بالفلسفات ، على نحو أدركت به ثأراً ، تطلعت إليه زمناً طويلا وقد أطلق على الفلسفة الوجودية : اسم الفلسفة الإنحلالية . أو فلسفة العدم وهى تجتمع مع الفلسفات المادية فى إنكار ما وراء المادة ، وتختلف معها فى الدعوة إلى احتقار الحياة .

ولا ريب أن قادة الدعوة الوجودية كانوا جميعاً من الشواذ ، وكانت حياتهم الخاصة مليئة بالإضطرابات (كيركجورد - جابريل - مارسيل - هيدجر - سارتر) ولقد ظلت الصفحات التى كتبها كيركجورد نحو مائة سنة مغمورة حتى أخرجتها اليهودية التلمودية فى أوائل هذا القرن وإذاعتها وترجمتها وقد أعلن هرجرد حرباً لا هوادة فيها على الإيمان المسيحى كله متابعة لحلة أشد عنفاً شنها ، نيتشه ، وقد أشار المؤرخون وكتاب السيرة إلى إنحرافات أساسية فى شخصيات فرويد ونيتشه . أما كيركجورد فقد كانت أمه خادمة عاشرها أبوه سراً وكان هو أحدب مما ضاعف علته النفسية ، وكان ذلك يزيد شعوره بالنقص . فاعتزل المجتمع وعاداه . وكانت مؤلفاته العشرون هجوماً عنيفاً على معتقدات مجتمعه الدينية وهدماً للكنيسة وتدميراً للفكرة المسيحية ودعوة إلى الناس بعدم الايمان إلا بأنفسهم ومن هنا أصبحت الوجودية حرباً سافرة على الأديان كلها .

٤ — أخطر ما فى الفلسفة الوجودية دعوتها إلى نفى الألوهية وإلى عبادة الذات فهى تدعو الانسان إلى أن يستمتع بوجوده كل الاستمتاع . ويطلق لحريته العنان ، فيحقق لنفسه أكبر نصيب من المتع والملذات .

ويبدو موقف سارتر من الألوهية مشوباً بفهم خاطىء مستمد من الفهم القائم على ألوهية الإنسان ولذلك فهو يدعو إلى تأليه كل إنسان - ولو فهم سارتر « الألوهية » بمعناها الحق : معنى الإله الأعظم الذى لم يلد ولم يولد - والذى لم يتصل بأحد . وليس لأحد أن يتصل به على أى نوع من أنواع الاتحاد ، أو الحلول أو وحدة الوجود ، لكان له موقف آخر أما نظرية تأليه الانسان التى دعت إليها الفلسفات اليونانية ومارستها عقائد ونحل أخرى ، فإنها قد فتحت باباً واسعاً للدعوة إلى عبادة الإنسان ، وتأليه كل إنسان .

وفى رواية الذباب يخاطب سارتر (رب الأرباب) جوبيتر ، فيصفه بما عرف فى الفلسفة اليونانية من مفهوم خاطىء عن الله . فيقول : ما إن خلقتنى حتى انفصلت عنك ، وتخليت عن نسبتى إليك الخ . وهذا مفهوم بعيد كل البعد عن مفهوم الاسلام لله سبحانه وتعالى الذى يختلف عن نظرية الأبوة والذى يقوم على مفهوم « العبودية » .

وقد وصف بعض الباحثين « إلحاد سارتر » بأنه إلحاد يتصف بعيوة غالبة على الإلحاد الحديث ، وهى : أنه ليس مجرد إنكار لله ، بل هو أبعد من هذا ، إنه يضع الإنسان فى مواجهة الله ، أو يعلن تجاهله لوجود الله عز وجل ، على حد قوله « الإله موجود فالإنسان عدم » .

ويستمد سارتر مفهومه هذا من نيتشه ، ومن المصادر الوثنية اليونانية القديمة ، ولا ريب أن سارتر ونيتشه متأثران أبلغ التأثر باضطراب مفهوم الألوهية السائد فى الفكر الغربى ، قبل عصر النهضة ولو أن الفكر الغربى اقتبل فيما تقبل من الفكر الإسلامى حين نقل المنهج العلمى التجريبى : مفهوم الإسلام فى الألوهية لكان هناك اختلاف كبير فى اتجاه الفلسفة الحديثة . ذلك أن الإسلام لا يقر القول القائل: بأن الله صنع الإنسان على صورته ، وهو قول لا يؤيده القرآن ، ولا شىء من السنة النبوية الصحيحة . وهو قريب من مفاهيم الغنوصية القديمة . (وما قدروا الله حق قدره) وليست فكرة تسلط الإله على البشر فى مسرحية الذباب ، إلا صورة من الفلسفة اليونانية وهى فكرة زائفة ، والعودة إلى إحيائها رجوع بالبشرية القهقرى بعد أن صحح الإسلام مفاهيمها فى علاقة الله بالإنسان ، وهى علاقة الرحمة والغفر ، كما ترتبط الفلسفة الوجودية بالخطيئة التاريخية .

يقول الدكتور محمد غلاب : إن منشأ القلق ، بل الغم أحياناً ، عند أولئك المفكرين ، هو أن المسيحية لا تقدم ترضية تامة إلى مطالب العقل الذى يتوق إلى فهم كل شىء ، بل أن العقيدة التسليمية كثيراً ما تتطلب تخلى الفكر عن رسالته ، لأن بعض مبادئها يصطدم مع العقل الذى لم يعد لقبولها . قال باسكال : إن الخطيئة المنصوبة هى فى نظر الناس ضرب من الجنون ، ولكن الدين يقدمها على هذا النحو . وإذن فيجب أن تأخذوا عليه عدم تأييد العقل لهذه العقيدة لأنه يقدمها بدون مسوغ .

(٥) تبدو الفلسفة الوجودية ، كأنما هى مواجهة للفلسفة الماركسية ، إنها تدعو إلى التضحية بالمجتمع فى سبيل الفرد فى مواجهة تحديات الماركسية القائلة بالتضحية بالفرد فى سبيل المجتمع . ومن ذلك قولهم : الفرد يعيش ضمناً فى الماركسية ، ويعيش أصلاً فى الوجودية . وهى بالرغم من دعوتها إلى رفع قدر الإنسان . فإنها تعامله فى نطاق الفلسفة المادية ، تعامله على أنه حيوان مادى له غرائز وأهواء ، وتغفى إغضاء كاملا عن جوانبه الروحية والنفسية والفكرية ، وهى دعوة إلى الانطلاق المتحرر من كل قيد أو ضوابط أو قيم . وتقوم أساساً على إنكار الألوهية ، وإنكار البعث والجزاء والأخلاق ، وهى تنطلق أساساً من فكرة خطيرة هى « اليأس من الحياة » وتواجه المسيحية والفكر الدينى الغربى والكنيسة مواجهة خطيرة . وقد وصفت الماركسية الوجودية بأنها دعوة إلى نشر تعاليم الفوضوية العقلية والخلقية ، واحتقار العلم والأخلاق .

وقد وصف الدكتور روجيه جارودى الوجودية على هذا النحو : الوجودية فلسفة الاستعمار . فلسفة هدم لا بناء — فلسفة تدمير للشخصية الإنسانية — فلسفة إسقاط النفس الإنسانية فى مجالات اللذة والشهوات ، بحيث تصبح غير قادرة على الدفاع عن نفسها أو تركيز وجودها — فلسفة مادية .

تستهدف الاستمتاع السريع وخشية الموت . ولقد عارض لنظرية الوجودية مفكرون غربيون كثيرون وحصروا أخطارها فى عدة نقاط أساسية :

(أولا) إنها تجعل الإنسان فى عزلة عن الجماعة (ثانياً) إنها تستطيب إبراز القبيح من جوانب الطبيعة الإنسانية ، وتدعو إلى الانحلال (ثالثاً) إنها الأوامر الإلهية - وتنكر القيم الخالدة .
(رابعاً) إنها تدعو إلى اليأس المطلق والتشاؤم الكلى ، وتدعو إلى هدم الحياة (خامساً) إنها دعوة إلى التمرد على الواقع والقيم جميعاً ترفض كل ما يتصل بالغيبيات والنفس الإنسانية وتقف عند الإيمان باللحم والدم (سادساً) إنها تنكر محصول البشرية من القيم والتجارب ، وتدعو إلى أن يبدأ الإنسان من جديد (سابعاً) تحتقر العلم والدين والأخلاق (ثامناً) ليس فيها نقطة واحدة تفتح الطريق أمام التقدم أو بناء الحياة أو العمل من أجل مجتمع أفضل (تاسعاً) هى فلسفة موغلة فى الفردية . تنكر الحقيقة الموضوعية للواقع الإنسانى .

(عاشراً) الأخلاق الوجودية هى الأخلاق المريضة : القلق والقنوط والتشاؤم والرغبة فى الموت والغموض والأنانية المفرطة (حادى عشر) الدعوة إلى جدية اليأس والتحريض على الانتحار
(ثانى عشر) تقويض المجتمعات وهدم الأمل والخلق والغيرة وممارضة الشجاعة والتضحية .
(ثالث عشر) دعوة إلى التحلل من القواعد الأخلاقية .

وقد عارض الباحثون هذه المفاهيم وكشفوا عن زيفها ، وأعلن الكثيرون فى صراحة أن الوجودية ظاهرة زمنية عابرة لن يلبث الانسان أن يتخطاها وهى ليست روحاً Essence

(٦) لا ريب أن الدعوة الوجودية غريبة عنا وعن مجتمعنا وعن قيمنا كل الغرابة ، ذلك لأنها نتاج تحديات وظروف ومواقف مختلفة تماماً ، وهى فى مجموعها لا تمت إلى مفاهيمنا بسبب ، وهى ثمرة مجتمعات معينة فى ظروف معينة . ونحن نعرف أن الفكر الغربى كله يمر فى هذه السنوات بأزمة عاصفة ويواجه تحديات خطيرة . وأن الصهيونية العالمية من خلال أيدلوجيتها التلمودية قد احتوته تماماً وصرعت فيه كل قوة وكل خير وهدمت دعائمه الأخلاقية وعزلته عن مفهوم الدين الحق عزلا تاماً .

ومن عجب أن الكثيرين فى بلادنا يفهمون هذه الحقيقة ، ولكنهم ينظرون إلى هذه الدعوات من خلال مظاهرها البراقة الخادعة ، بينما تجاوزتها مجتمعاتها لفسادها ولأنها وجدتها معارضة تمام المعارضة للفطرة والطبيعة الانسانية وقيم الانسان العليا . إن الوجودية ثمرة أزمة الانسان المعاصر ، صريع النظرية المادية التى أعلت من شأن الشهوات والأهواء واللذات ، وفتحت الطريق أمام الغرائز بعد أن هدمت جدار الضوابط والحدود والقيم ، وأبرز معالم فكرنا وحضارتنا ومجتمعنا : هو ذلك الترابط بين الروح والمادة ، والتوازن بين الدنيا والآخرة فى إطار التوحيد الخالص لله ، والايمان بالبعث والجزاء والدين جزء من مجتمعنا وفكرنا ونظمنا المختلفة ، والأخلاق تامم مشترك على التربية والإجتماع والسياسة والاقتصاد .

الفصل الثالث

الهيبية

(١) الدعوة الهيبية هي آخر ثمرات التطور الذي بلغته المجتمعات المعاصرة في طريقها الذي اختطته في ظل المذاهب المادية . وفي معارضة كل ميراث الإنسانية من القيم والضوابط والأخلاق والعقائد . إن الدعوة الهيبية تنطلق من القول بأن الإنسان المعاصر يشكو القلق والتمزق ، وأنه لا يجد الإجابة على أسئلته ، ولا يستطيع أن يفهم سر وجوده . وأن هذا كله قد أسلمه إلى غربة قاسية ، ولا ريب أن هذه الصيحة التي تسود المجتمعات الغربية بالغربة والخوف من المجهول ، قد باتت مصدر صدع كبير في بناء الأمم ، وأمسى الناس يعيشون بالرغم من كل ما يحوطهم من عوامل المتعة واللهو في فراغ نفسي وفي وحشة وانفصال .

لقد فشلت كل الأيدلوجيات والأنظمة والمذاهب التي حاولت أن تقدم الانسان منهجاً للحياة ، لأنها إما قد اعتبرت أزمة الإنسان أزمة معدة وطعام في الأغلب أو أنها أطلقت الغرائز إلى غير مانهاية ودفعت الناس كالكلاب المسعورة وراء الأهواء واللذات . ثم عاد الإنسان من رحلته هذه ، وذلك ، بإحساس عجيب . لقد أصبح غريباً في مجتمع صاخب يضج بالمغريات والمتع . والجواب هو شيء واحد : إنه فقد لذة الإيمان ، عطاء الروح ، صمـــام الأمن في سكينة النفس ، فقد روح الحرية الحقة والثقة والتماس الرحمة من مصدرها الوحيد . وقد حاول الباحثون استقصاء مصدر الدعوة إلى الهيبية وهي آخر صيحات التحرر والانطلاق من كل القيم والضوابط والقيود ، فلم يجدوا إجابة لها أكثر من الغربة .

يقول كولن ولسن في كتابه الغريب : « الغربة مرض تمتد جذوره إلى بعيد ، وهو مرض متصل بتصدع الذات وانشقاقها نتيجة لعدم توائمها أو انسجامها مع المجتمع الذي تعيش فيه ، والغربة المعاصرة تختلف عن الغربة التي عرفتها العصور الماضية . فقد كان الغريب برغم حيرته وشكه لا يفقد الإيمان ولا ييأس من الوصول إلى الحقيقة . أما الغربة الحالية فهي غربة إنسان عاجز عن الإيمان بوجود أي شيء ، وكان الغرباء قديماً يحاولون تحقيق الانسجام والمواءمة مع العالم بالرغم من خلافهم معه . أما الغرباء المحدثون فإنهم يرفضون المجتمع رفضاً كاملا وينفصلون عنه انفصالا تاماً .

ويرد الباحثون ومنهم كولن ولسن الأزمة إلى أصولها القديمة منذ دعا نيتشه دعوته إلى بناء المجتمعات على أساس القوة والأقوياء وقتل المرضى والضعفاء بلا رحمة . وتجيء القصص والروايات كلها لتحمل هذا الطابع المظلم الذي يستمده الفكر الغربي من الخطيئة الأولى .

فهذا ديستوفسكى فى روايته يرسم صورة إيفان الذى يقول إن فكرة الألم فكرة مستبدة بهذا الكون متغلغلة إلى أعماقه ، ومن العسير استئصالها .

ويرى ولسن أن الطابع الذى طغى على الأدب الغربى إنما يتلخص فى عبارة واحدة : إنها فكرة الإنسان الذى فقد إيمانه بالله ، ولم يجد مايعوضه عن هذا النقص . إنها أزمة العقل المسيطر على الانسان . أضعف العقل الصرف مركز الاشعاع العاطفى فى الانسان وهو العقيدة الدينية . ثم جاءت بعد ذلك التطورات الخطيرة ممثلة فى (فرويد ، وماركس ، وليفى بريل ، ودوركايم ، وسارتر) وكلها تحطم الانسان من حيث هو إنسان وتدفعه من حيث هو غريزة ولحم ودم إلى الانطلاق نحو مطالب الجنس والذات . ومن هنا فقد أصبح عارياً تماماً ، وأصبح جزءاً من كل قد غطى بأغشية تحول بينه وبين الحياة . لقد وضع كيانه الوجدانى وإحساسه النفسى وطموحه الروحى موضع التجميد والانكار والكبت الحقيقى . فعاش برئة واحدة . فكان لا بد أن يحس بالغربة والغثيان والتمرد والقلق ، لأن قوة حقيقية موجودة فى أعماقه قد أصبحت حبيسة بينما أطلقت القوة الأخرى ، وكان التوازن والمواءمة الطبيعية بين قوى الانسان الجامع بين الروح والمادة هى عامل الحياة الحقيقى) .

هذه هى الأزمة الحقيقية وراء الدعوة الهيبية التى تجتاح أجزاء كثيرة من العالم اليوم بغرابة تصرفها وخروجها على قيم المجتمعات ، وعودتها إلى أخلاق الغابات وطبائع الأدغال . أن هناك نزاعا فى الأعماق بين الواقع المادى الصرف وبين هذه القوى المحبوسة . لقد تحولت الحياة فى المجتمعات الغربية من النقيض إلى النقيض . كانت العصور الوسطى . وسلطان الكنيسة يحبس الكيان المادى ، ويدعو إلى الزهادة والرهبنة ، واعتزال الحياة وإنكار النوازع الفطرية الأصيلة فى النفس الراغبة إلى الممارسة والتنفيس . فلما كسر هذا القيد ، بلغ الانسان أقصى المدى من الناحية الأخرى ، فحبس العواطف والروحانيات وأطلق الأخرى ، ودعا إلى وثنية وإباحية عاصفة .

ومن هنا فإن أزمة الانسان الحديث هى نفس الأزمة القديمة ولكن على المحور الآخر . لقد عجزت الفلسفات والمذاهب والأيدلوجيات أن تعطى الانسان : التوازن ، والاعتدال ، والتكامل ، والوسطية والمواءمة بين عنصرين حقيقيين فى الانسان لا سبيل إلى تجاهل أحدهما أو إعلائه على حساب الآخر .

إن حجب الجسم عن غرائزه الفطرية الطبيعية ليس أقسى من حجب الروح عن غاياتها الأصيلة . وكلاهما شر خطير مدمر ، والاسلام فى هذا يمثل الأصالة والفطرة ويكشف عن أنه من عند الله حقاً ، خالق الانسان والعارف بجوهره وطبيعته . فالاسلام يقرر وجود الانسان روحه ومادته ، غرائزه وأهواءه ثم معطياته العليا ، وهو يفسح له مجال ممارسة هذه وتلك ويضع لها معاً ضوابط تحول بينهما وبين الاسراف والجمود . فالاسلام لا يقر الرهبانية ولا يقر الإباحية فى نفس الوقت . ولكنه يدعو إلى أسلوب وسط فيه مزيج هادىء ، ومن خلال ضوابط تحمى النفس الانسانية والجسم الانسانى من أن ينهار إذا فرض عليه أحد الخطرين : إعطائه الحرية المطلقة حتى يتحطم وينهار أو إعطائه الرهبانية حتى يفسد ويذبل . ومن هنا نشأت الغربة وشكلت أخطر أزمة تواجه الانسان الحديث) .

إن الحلول التى وصفها البيركامى ، وسارتر ، لم تستطع أن تحل هذه الأزمة . بل زادتها حدة . فقد انطلق الوجوديان من منطلق مادى صرف ؛ إن الدعوة إلى التحرر من القيم المتوارثة . إنما هو دعوة إلى التحرر من الدين ، ومن العقائد ، ومن الايمان بالله . وهو لا يحل المشكلة ، بل يزيدها تعقيداً . وهو لا يهدى إلى ضوء ، ولكنه يدفع إلى مزيد من الظلام . إن الاحساس بالقلق المبهم الغامض الذى استبد بإنسان العصر لم يكن إلا نتيجة سيطرة المادة وسيطرة الدعوة إلى تأليه العقل وتقديسه وتسخير العلم فى إشعال الحروب وليس هناك سبيل للوصول إلى حل إلا بالعودة مرة أخرى إلى الحقائق الأصيلة التى عرفتها البشرية ، منذ نشأتها واهتدت بها العودة إلى الفطرة إلى الدين الحق ليست المادة هى كل شيء ، وليس العقل إلا جهازاً من أجهزة كثيرة ، أعطيها الانسان لبناء حياته . وليست الحضارة فى خدمة الحرب والدمار ، وإنما هى فى خدمة البشرية ودفعها إلى التقدم بمفهومه الكامل التقدم المعنوى والمادى معاً ولذلك فإن الطريق الصحيح : هو التحرر من القيم الزائفة البالية التى استحدثتها المذاهب المادية .

يقول الدكتور مصطفى بدوى : إن أزمة الانسان الحديث ، هى أزمة الانسان الحساس العاقل الذى فقد إيمانه بالله ولم يجد ما يسد حاجته العاطفية التى كان الايمان مركز إشباعها وهى أزمة لعب العلم ، والتفكير العقلى فيها دوراً بالغ الأهمية أدى فى نهاية الأمر إلى ضعف العقيدة الدينية وهى أزمة كانت إحدى نتائجها الغريبة : إشهار الإفلاس العقلى والتفكيرى العقلى ويصل كولن ولسن : إلى نفس النتيجة تقريباً حين يدعو إلى استنباط موقف دينى ، ويدعو إلى تحقيق اتساق وتوازن بين قوى الانسان الثلاث : الجسم والعقل والعاطفة . لأن الانسان وحدة لا تتجزأ يقول :

(ليس الانسان بقادر على أن يجلو عن نفسه ما يعتريه من صدأ ، أو ما يغلف إحساسه من سماكة إلا إذا ظفر بشيء من السلام النفسى والهدوء الروحى إن التأمل الروحى قد يؤلف بين الانسان والوجود وإن هذا التأمل قادر على أن يحرر العقل من سلطان المادة ويجعله ينمو مع ما يشمو حوله من عناصر الطبيعة عند ذلك سوف يكون لكل شيء معنى روحى . فالأرض ، والماء ، والنور ، والثمار والأزهار . لن تصبح فى هذه الحالة مجرد ظاهرات طبيعية يستفيد منها الانسان حتى إذا بطل نفعها بطل التفكير فيها ولكنها تصبح أشياء ضرورية فى تحقيق الوحدة بين الانسان والوجود) .

ويرى ولسون أن أزمة الغريب فقدان الايمان يظل فيها على حال من القلق والتأمل والعذاب حتى يظفر بشيء يشبع عنده عاطفته الدينية المفقودة عندئذ سوف لا تبقى النظرة إلى الشر هى الغالبة فى تفكير الغريب . ويرى ولسون أن الاعتماد على التفكير العقلى المجرد ليس بقادر على حل مشكلة الغريب فإن ثمـــة إمكانيات أخرى فى الانسان لا بد من استغلالها (هى الارادة والعقل والعاطفة) . وأن الغريب الذى ضعفت عنده العقيدة الدينية نتيجة لسيطرة التفكير العقلى الصرف الذى هو ظاهرة عامة فى حياتنا المعاصرة بحاجة ماسة إلى (بديل) ليشبع عنده العاطفة الدينية ، ويجد عندها الملاذ الذى يبحث عنه وهو يدعو إلى تحرير الانسان المعاصر أولا وقبل كل شيء — وهو بالطبع يقصد

الانسان الغربي — من معتقدات وهمية كثيرة أهمها فكرة الخطيئة الأولى التي تسيطر على الإنسان المسيحي والتي تقف حائلا بينه وبين رؤية الحقيقة. ويرى أن على الغريب أن يتخلص من الخطيئة الأولى لأنها في حدود فهمه لها هي ما يحجب الحقيقة عن روح الانسان . وإذا كان كوان واسون قد أصاب الحقيقة فإنه أخطأ العلاج حين دعا إلى « رؤيا صوفية » وإلى إحلال الإرادة محل الايمان . وحين اتجه إلى الفلسفة الهندية القديمة ؛ يطلب منها العطاء الذي يمكن أن يعطي الانسان المعاصر في أزمته ترياقاً شافياً وتلك هي محنة الفكر الغربي الذي تسيطر عليه مخططات الايدلوجية الصهيونية التلمودية فإنه حين يبدو أن الانسان الحائر قد وجد مشكلته فإنه سرعان ما يدفع به إلى متاهة أخرى وماذا عليه لو أنه وجه الحائرين إلى الاسلام ، وفيه وحده العطاء الحقيقي. إن الفلسفة الهندية القديمة التي ستعطي الإنسان المعاصر في أزمته علاجاً ، لن تعطيه إلا دورة جديدة من دورات الحيرة والقلق والغربة حين يقظته . وحدة الوجود والحلول والاتحاد ومفاهيم وثنية أخرى لا تقل خطراً عن مفاهيم الوثنية الإغريقية التي صنعت أزمته وأسلمته إلى مكان « الغريب » إن الفلسفة الهندية سوف تعطيه مزيداً من الغربة والحيرة وان تعطيه الإرادة التي شاء أن يدعو إليها كوان واسون ، وان تعطيه حقيقة الايمان وجوهره الذي لا ينطلق إلا من خلال إيمانه بالله الواحد الأحد . الذي لا شريك له خالق كل شيء ، الكون والانسان من الحق أن نقول إن واسون وغيره قد خطوا خطوات واضحة في دعوتهم إلى التحرر من سلطان العقل ، والمادة والخطيئة الأولى ولكنهم لم يستطيعوا مع الأسف تجاوز الخطر . أو استيعاب أسباب الأزمة ذلك لأنهم يتطلعون من منطلق الفلسفة المادية أيضاً . إن هذا الطابع المتجهم الحامل التشاؤم الغارق في مفاهيم الألم والقسوة والانتقام والحرية والضباب المخيم ، إنما يعود إلى مفهوم الغرب الخاطىء لنهاية الأبطال التراجيدية التي تتمثل في الصراع بين الآلهة وبين الإنسان ، والتي تستمد وجودها من ارتباط الفلسفات بالآثار التي تركتها العقائد القديمة والتي لم تستطع أن تفصل فصلا محكماً بين الله الواحد الأحد وبين الانسان والعالم والخطأ الذي اتصل بتحول الانسان إلى إله وعبادة الأبطال وتحويلهم إلى آلهة وأنصاف آلهة مما يغرق فيه الفكر الغربي فلا يستطيع معه أن يجد سبيلا إلى رؤيا مشرقة قائمة على الأمل في الله مضيئة بالرحمة والسماحة والأخوة بعيدة عن قسوة نيتشه وعبادة الفرد وتصور الكون على أنه الله . ومفهوم الخطيئة ومايجره من آلام وقسوة لا تنتهي. أن الانسان ليس الموجود الوحيد ولكنه خلق الله وعبدالله وهو مستخلف في الأرض في امتحان لقدرته على أداء الأمانة ومن خلال الضوابط التي أحكمت حماية له وحماية للمجتمع ورفعاً له عن مكانة الحيوان ، وتكريماً له بالجمع بين الروح والمادة والقلب والعقل والدنيا والآخرة .

ولا ريب أن مفاهيم الفلسفات الوثنية القديمة حين اختلطت بالعقائد قد أعطت صورة مظلمة لمفهوم الله والكون والانسان فلما جاء العقل الناقد وقف من هذه المفاهيم موقف الانكار وأحس بعجز هذه العقائد عن العطاء الحقيقي ، وتلك أزمته الحقيقية التي دفعته إلى إنكار الله ، وإلى الشك في كل رحمة وفضل . وهذا هو الذي زلزل إيمان الناس وأفسد عقائدهم . وكان عجزهم عن معرفة الدين الحق وتعصبهم إزاءه وخصومتهم له مصدراً من مصادر الاضطراب الذي ما زال يملأ

القلوب وما تزال المتاهات تفتح أبوابها لهم لتدفعهم من وثنية الإغريق إلى غنوصية الشرق القديم فلا تخلق ذلك إلا مزيداً من التضارب والغربة والغثيان . « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » . إن أبرز ما أعطاه العقل في رحلته بلا دليل ، وفي استعلائه وتفرده ، والتمرد على نواميس الكون وسنن الطبيعة البشرية ومحاولة خرق هذه السنن والنواميس بإنكار الله ، والتماس طرق وأساليب ما زالت تتساقط واحدة بعد أخرى . عاجزة عن أن تهدى النفس البشرية إلى أى حق أو تفتح لها أى كوة من ضوء .

٢ — إن صيحة اليوم في مواجهة القلق والغربة هي : أن كل ما حاولت البشرية أن تحققه في رحلتها الطويلة إلى البحث عن الحقيقة ، قد أخفق لم تفلح الفلسفة ولم يفلح العلم ولم يفلح التاريخ لقد ألقى العلم جميع إمكاناته ومقدراته معترفاً بالعجز أمام الأسئلة الأبدية المطروحة : لماذا نحيا حتى العلم نفسه باعتباره آخر درع قد أخذ في السقوط . إذا كانت الفلسفة عاجزة ؟ والتاريخ عاجزاً والعلم قد عجز فأين المفر؟ وما هو الطريق ؟ هذه هي الصيحة اليوم فيما أسموه مجتمع غربة الإنسان هنا (ماركوز) فيلسوف الصهيونية الأكبر فيقول : إن مجتمع غربة الانسان يجب أن يزول من التاريخ لأننا نصنع عالماً جديداً وهذه هي نفس الإجابة التي حملتها الروحيه الحديثة وهي نفس الاجابة التي حملتها البهائية .

إن (ماركوز) يرى أن الرأسمالية ، والماركسية ، كلاهما قد أخفقتا . وأن الطريق ممهد أمام النبوءة المجهولة الغامضة .

ويقف دعاة التبشير بالعالمية التي تستمد مفاهيمها من الإيدلوجية التلمودية صامتين لا يكشفون عن صورة المجتمع الجديد ، ويدفعون مجموعات جديدة من الشباب إلى الرفض وإلى الغربة دون أن يضيئوا أمامهم شمعة واحدة وإذا كانت كل السدود قد سقطت فماذا أمام الأسئلة الحائرة ؟ إنهم يعودون مرة أخرى إلى بعث الغنوصية الشرقية القديمة . إن مهاريشي يدعو إلى التأمل القائم على النشوة والمرح في ظلال (الماريجوانا) تأمل الذات والبحث عن الحقيقة في ينابيع النفس . ولكن أى نفس هذه التي تستطيع أن تهدى ؟ إن العطاء لن يجىء من الداخل أبداً ولكنه يأتى من الكون الواسع . إن المعروفة لا يجدها طالبها وراء الظلمات التي تملأ النفس بأهوائها ويأسها ، إن العطاء يأتى من الخارج : من كون الله الواسع الذي يلهم الحقيقة (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) .

ليس غير الاسلام وحده ضوءاً يستطيع أن يعطى البشرية اليوم طريقها :

إن دعوة (مهاريشي) قد تحولت إلى التأمل من خلال تعاطى العقاقير والمواد المخدرة (الماريجوانا — ل — س — د) ثم تحولوا عنها إلى مادة أقوى تأثيراً مادة — ت —

— مادة س — ت — ب — التى يستمر مفعولها (٧٢ ساعة) كاملة وتحدث حالات عنيفة من الهياج. لماذا يريدونه ضعيفاً منهكا محطماً ؟ هل هى السعادة أو اللذة أو المعرفة أو البحث عن الحقيقة ؟ إنها اليأس القاتل ، إنها القنوط . ولكن المسلم لا يصل إلى ذلك إلا إذا فقد إيمانه ، إن المسلم لا ييأس أبداً ولا يقنط من رحمة الله ولا يضل الطريق .

إن جماعات الوجوديين قد تحولت بالهيبية إلى جماعات الهروب من الواقع إلى السلبية والعنف . وطريقهم هى العقاقير المخدرة وأفكار جديدة تلقى إليهم كلها سلبية باسم الثيوصوفية من التراث الهندوسى القديم : براهما وبوذا وجينا .

والوثنيون الشرقيون يعبدون عدداً من الآلهة ، ويتخذون الانسحاب من الحياة طريقهم الوحيد إن الانتقال عبر الرحلة الطويلة من وثنية اليونان إلى وثنية الغنوصية لا يختلف كثيراً إلا فى الصورة ، ولكنه مادية أيضاً ، لأن الاعتقاد بأن الكون المادى هو الله سبحانه ، إنما يذهب إلى أقصى درجات المادية . وهذا هو مذهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد . ليس الله سبحانه فى الحقيقة هو هذه الحية أو هذه الجبال والبحار والأنهار ، ولكنه هو صانع هذا الوجود وهو منفصل عنه وقاهر له ، ومعنى هذا أن فعل الفلسفة المادية لم يرد الباحثين عن الحقيقة إلا مزيداً من الفشل حين اتجهوا إلى الفلسفة الغنوصية الشرقية من الإباحة المفرطة إلى الزهد المفرط ، ومن تعذيب النفس بالشهوات إلى تعذيب النفس بالحرمان ، وكلاهما يؤدى إلى الغربة والخوف والتشاؤم . إنهم يقولون : إن القلقين يعرون الآن عن طريق (بوذا — براهما — جينا) مندفعين كالقطيع وراء آخر دعوة تبشر بأمل لعلهم يجدون السعادة المفقودة ، لعلهم يجدون أنفسهم التائهة وإيمانهم الضائع ، ونحن نقول : ولا أمل ، بل مزيد من الغربة ، فليس هناك غير طريق واحد فليجربوه .

الإنسان فى ميزان الإسلام

(١) لا ريب أن الإنسان هو محيط الفلسفات ، والهدف المقصود من الدعوات الهدامة ، وهو موضع الامتحان من تجربة الحياة والموت كلها ، وهذه الدعوات تحاول أن تضع له منهجاً يخرجه عن فطرته وعن المنهج الذى قدمه له الدين الحق ، والمحاولة تتصل بأمور متعددة أهمها :

(الأول) محاولة القول بأن عقل الانسان كفيل بأن يهديه طريقه فى الحياة . والعقل البشرى جهاز قاصر ولا يستطيع بمفرده أن يهدى وإنما الهدى يتصل بالوحى . وهو العلم الربانى الذى لا ريب فيه ، ولا شبهة فى أنه يقدم للانسان الطريق الصحيح بينما الريب والشبهات تحيط كل هذه الدعوات والفلسفات ومن ورائها أهواء البشر ومطامعهم . ولا ريب أن إعداد الانسان بالعقل البشرى ليس كافياً وحده فى التبصير بطريق الحق ، والعقل البشرى ليس قادراً قدرة كاملة على معرفة كل شىء . وهو يستطيع أن ينفذ فى عالم المحسوس ولكنه يعجز عن النفاذ إلى عالم الغيب إلا بهدى الوحى .

(الثانى) محاولة دفع الانسان إلى خلع كل قيد من قيود الأخلاق ، أو الاندفاع فى الحياة لتحقيق أهوائه . ولا ريب أن الانسان بفطرته يعلم طريق الخير والشر وهو على هدى من الدين الحق يعرف أنه ممتحن فى الدنيا ومخير . ولقد اعترف الاسلام للانسان برغباته وغرائزه ، وأعطاه حق ممارستها فى إطار من الضوابط أهمها الاعتدال والمحافظة على الكيان الذاتى . وكشف له عن الخطر الذى يتعرض له من سلوك أسلوب التحرر المطلق .

(ثالثاً) محاولة إخضاع الإنسان للنظريات المادية والقوالب المادية . ولا ريب أن الانسان غير قابل للخضوع إلى هذه القوالب وأنه كإنسان مكون من روح وجسد . لابد أن يحكمه علم جديد مخالف للنظرية المادية التى تقوم على أساس النظرة المادية المجردة إلى الكون والحياة . لذلك فإن منهج دراسة الإنسان يجب أن يكون شاملا ومتكاملا على أساس أنه عقل وجسد وروح . ولا ريب أن النظرة إلى الانسان على أنه جسد ومادة (فقط) وتطبيق مناهج العلوم المادية أو التجارب التى أجريت على الحيوان من شأنها أن تستخرج نتائج غير حقيقية ومخالفته تماما لواقع الانسان .

(رابعاً) خطأ القول بأن الانسان كان وثنياً، ثم أصبح موحداً فإن الانسان بدأ موحداً أصلا ثم سقط فى خطأ الوثنية بالانحراف عن رسالات السماء ثم ظلت الأديان تعيده مرة ومرة إلى جادة التوحيد.

(خامساً) خطأ القول بالتطور المطلق ، ذلك أن التطور لا يحدث فى فراغ ، ولا بد من مرتكز ثابت للبشرية تستطيع أن تتحرك حوله ، ولا بد من فلك قائم على أسس الثبات ، ثم تأتى الحركة من خلاله وفى دائرته .

(سادساً) ليس الانسان حيواناً كما تقول الفلسفة المادية ، وليس الانسان خاطئاً بحكم ولادته كما تقول بعض العقائد ، وليس الانسان مجبور التناسخ كما تقول البوذية ، وليس الانسان عبداً للأهواء والشهوات ، بل هو قادر بتوجيه الدين إلى أن يجد طريقه إلى الخير والهدى : « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » . وغاية الاسلام هو إيجاد التوازن فى الفرد . فالإسلام لا يقر الرهبانية ولا الإباحة .

(٢) ولا ريب أن طبيعة الانسان فى حاجة إلى توجيه إلهى ، ذلك أن طبيعة الانسان لا تتخلف (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) والإنسان فى صميم طبيعته نزاع إلى الفرح والفخر إذا جاءه الخير ، ونزاع إلى اليأس إذا جاءه الشر . وقد وصفه القرآن بأنه خلق هلوعا . وأن علاجه فى الصلاة والاتصال بالله ، وهو علاج دائم متصل . وهو علاج متجدد مع كل إنسان وكل جيل ، ولن تستطيع البشرية مهما ارتقت مادياً أن تقول إنها أصبحت فى غير حاجة إلى وصاية الدين أو توجيه الله والطبيعة البشرية فى أصل تركيبها تنسى وتغفل . فهى فى حاجة دائمة إلى موقظ . وموقظها القرآن الذى يذكر ويقرع الآذان والقلوب . من الواضح تماما من أصول التشريع والأخلاق معاً أن الانسان فى حاجة إلى ضوابط تكفل له السير فى الطريق الأرشد ، وأنه لا يستطيع أن يجد هذا الطريق إلا إذا أرشدته إليه القوة العليا عن طريق الوحي المنزل .

فالتشريع فى مجموعه ضوابط من علاقات الفرد بالجماعة . والأخلاق فى مجموعها ضوابط من علاقات الفرد بالفرد . وفى التشريع لا يباح التأويل أو التحليل أو الخروج عن حدود الله إلا فى ضرورات قصوى ، وكذلك فى الأخلاق ومن هنا تبدو ضرورة وجود ظاهرتى « الضبط » و « الكظم » ، وهما غير ما يطلق عليه فى المصطلحات الحديثة « الكبت » ولو كانت الطبيعة البشرية بقدراتها التامة . تعجز عن التماس طريق المشقة المتمثل فى الامتناع عن حدود الله لما فرض عليها ما ليس فى استطاعتها ولولا أنها قادرة على معارضة اتجاه الأهواء والرغبات لما ألزمت به .

وهنا يبدو خبث الدعوة التى تقول بأن مثل هذا الامتناع له ضرورة بالنفس أو العقل . إن الضرر ماثل حقيقة فى منع المباحات وتحريم زينة الله ، أو معارضة طبيعة البشر . أو مناهضة الدوافع البشرية وهذا مالا يقره الاسلام أصلا ، بل هو ما يعترف الاسلام بوجوده ، ويدفع إلى ممارسته وتحقيقه فى نطاق ضوابطه وأطره وهذا هو ما حرمته بعض الأديان ، وما رأى بعض الأطباء أنه مؤد إلى المرض أما إقرار الاسلام له كحقيقة ، ثم النظر فى إمكان تحقيقه أو الانتظار بالصبر عليه ، وبالإعلاء . فذلك أمر آخر يختلف كل الاختلاف .

ولا ريب أن الإنسان خلق ليعمل ، ويسعى ويتحرك ويغالب ويقاوم ولا بد أن يجدد سعيه فى الأرض وأن يكون سعيه إيجابياً فى سبيل الهدف الذى استخلف من أجله فهو فى حاجة دائمة إلى التذكرة والتوجيه ، وفى حاجة دائمة إلى الاعتصام بالله وإسلام الوجه له وهذا هو التوكل : والتوكل هو التماس هدى الله فى العمل والحركة لا فى القعود والتوكل ومن هنا فان الإنسان بطبيعته وتركيبه (وهو أمر مستمر فى كل زمان وعصر) فى حاجة دائمة إلى الذكر والفكر وتجديد النفس بمعرفة الهدف وتحديده والتماس القوة التى تكفل له النجاح فى الحياة وهى قوة لا يجدها الانسان إلا فى الايمان بالله والخشية منه والأمل فيه .

ومن هنا فان القول بأن الانسانية ، قد أصبحت راشدة ، وليست فى حاجة إلى وصاية الدين هو من المخططات التلمودية المندفعة إلى غاياتها الخطيرة فلنحذرها ولنكن فى يقظة لكل ما يحيط بنا .

٣ — الموت

إن هذه الصيحة التى تستعلى خوفاً من الموت إنما تمثل أقصى ما وصلت إليه النظرية المادية من أثر فى نفوس الناس فقد انخلعت هذه النفوس هلعاً من الموت فهى تريد أن تعيش ، ومن عجب أن بعض العلماء يذهب إلى العمل من أجل إطالة الحياة والقضاء على الشيخوخة ، كمحاولة ضد سنن الحياة وطبائعها وتركيبها الذى هو من صميم وجودها . ولا ريب أن العلم لا يستطيع أن يهدى فى هذا المجال ، فالموت حقيقة قائمة ، وهو فى بعض مفاهيم العلم : غريزة ، والحياة لا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية والانسان محكوم بالولادة والموت . وفى ضوء الاسلام أن الموت ليس نهاية الحياة ولكنه مرحلة

من مراحلها وإنتقال إلى وضع آخر . فالإنسان قد جاء إلى الحياة ليؤدى رسالة استخلافه فى الأرض فهو يعيش التجربة حتى يتمها ، ثم تنتهى مهمته ، فينتقل إلى المرحلة الثانية : مرحلة الموت ، وهى مرحلة تنتهى بالبعث العام الشامل . كمقدمة للحساب والجزاء عن هذا العمل ثم هى مقدمة للخلود الدائم فى الجنة أو النار .

هذا الفهم قدمته لنا الأديان وقدمه لنا الوحى وقد أعطينا إياه لنعرف مهمتنا فى الحياة ولنعرف أن الحياة ليست صدفة ، والإقامة فيها ليست اعتباطاً وإنما هى تخطيط مسبق مدبر من لدن حكيم عليم وإن علينا أن نأخذ بمهمتنا فيها على النحو الذى يكفل لنا النجاة من العقاب وإن تكون الحياة بلا معنى وهدف ، وإن يكون العالم قد وجد بلا داع . أو أنه يمضى بغير غاية فذلك قول الماديين ، ولا دليل لهم عليه . وهو القول الذى أحال صيحاتهم صراخاً فى سبيل البقاء فى الحياة والخوف من الموت والماديين لا يتمنون الموت أبداً بما قدمت أيديهم . ويود أحدهم لو يعمر ألف سنة — كما أشار القرآن الكريم — لأنهم يخشون ما بعده .

ولا ريب أن الموت فى مفهوم الاسلام قوة دافعة غير سخيفة . فالمسلم لا يخشى الموت . بل يعد له وينتظره ويتمناه على أعلى مستوى : مستوى الشهادة فى سبيل الله . والموت فى مفهوم الفلسفات المادية نهاية . ولكنه فى الإسلام بدء مرحلة جديدة . والذين يقولون إن الموت نهاية . إنما يدفعون أبصارهم إلى الإسراع فى الشهوات واقتناص اللذات التى حرم الله . والخروج عن الضوابط التى رسمها الدين من أجل حماية الفرد وحماية المجتمع .

وعندما يصل الإنسان إلى الشك فى أمر البعث بعد الموت ، تتحطم حياته وتفسد لأن ذلك سيدفعه إلى الخضوع لأهوائه إلى آخر مدى ، وتبدو له القيم والفضائل . وكأنها أمور لا قيمة لها ومن هنا كانت دعوة الفلسفة المادية بكل فروعها وفنونها . (الدهرية والوجودية والفرويدية) وغيرها إلى هدم هذا الجدار الضخم الذى يحمى الشخصية الإنسانية . وهو جدار البعث حتى يذهب الإنسان كل مذهب وحتى ينفرط عقد التماسك الأخلاقى والنفسى وينهار الجسد وهى دعوة خطيرة لأنها تدفع البشرية إلى الدمار فى حين يدفعها الايمان بالبعث إلى القوة والتماسك فى سبيل بناء الحياة نفسها وإقامتها وحمايتها من العوادى .

ومن حكمة الله العليا . إخفاء ميعاد الموت ونهايته حتى يظل الانسان قادراً دوماً على التأهب والعمل والترقب فإذا آمن الانسان بالله حقاً ، وعرف أن الدنيا طريق إلى الآخرة لم يفزعه الموت ولا ريب أن الحياة الدنيا مرتبطة ارتباطاً جذرياً بالحياة الأخرى وهى ليست إلا وجهاً من وجوهها . ومرحلة من مراحل تجربة كاملة للانسان .

الباب الرابع

دعوات هدامة للفكر والثقافة

الفصل الأول : الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام
الفصل الثانى : الإسرائيليات . الفصل الثالث : التغريب . الإستشراق والتبشير
الفصل الرابع : إحياء الهلينية الفصل الخامس : الدعوة إلى العامية

الفصل الأول

(١) الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام

تجددت فى السنوات الأخيرة الدعوة إلى إحياء ما قبل الاسلام من مذاهب ونحل وجرى البحث حول تكثيل الجهود لإبراز معالم هذا التاريخ ، ومحاولة خلق تراث فكرى ، أو أدبى لهذه المحاولات . وقد جرى العمل لذلك فى كل أجواء العالم الاسلامى وأقطاره وركز فى كل قطر على تاريخ سابق للإسلام فى محاولة لرده إلى الحياة وانبعاثه ، وربطه بالحاضر عن طريق الفكر والثقافة والمعروف أن العالم الاسلامى قبل ظهور الاسلام ، قد عاش حضارات مختلفة ، أبرزها الفرعونية ، والفينيقية ، والفارسية واليونانية ، والهندية . وكلها حضارات استمدت مصادرها الأولى من الأديان المنزلة ، ثم انحرفت عنها وقد التمست مفاهيم قوامها السيطرة والاستعلاء ، والعدوان ، وعرفت فى محيطها الداخلى بنظام المفاصلة الكاملة بين طبقتين هما : السادة والعبيد .

وقد أبرزت فلسفات هذه الحضارات نظام العبودية وجعلته نبراساً لها فضلا عن العدوان والغدر للأمم المجاورة . وما تزال صورة الصراع بين الفرس والروم قبل الاسلام من أبرز الأمثلة على هذا النهج الذى عرفته هذه الحضارات ، وما اتصل بها من أنظمة وفلسفات ولقد كانت حملات البحث عن الآثار والكشف عنها فى البلاد العربية والاسلامية أداة خطيرة فى تشكيل قضية جديدة تطرح من خلال هذه الآثار عن الحضارات القديمة الوثنية التى حطمها الظلم وقضى عليها الانحراف عن منهج العدل والحق والتى اشتغلت بالعدوان والظلم والإباحة ، حتى جاءت نهايتها عبرة لدارسى قيام الامم وسقوطها . كما ارتبطت الدعوة إلى ما قبل الاسلام بالدعوة إلى القوميات الضعيفة والأقليات وقد برزت فى البلاد العربية دعوات الفرعونية والفينيقية والآشورية والبربرية وغيرها . وأحاطها دعاتها ، والعاملون من ورائها ، والقوى الاستعمارية الدافعة لها بكثير من عوامل التحريك

والإثارة غير أن هذه الدعوات لم تجد لها من القوة الذاتية ما يمكنها من الاستمرار فان التراث المحفوظ منها لم يكن قادراً على أن يشكل قاعدة يمكن التحرك منها ذلك أن الاسلام حين جاء منذ أربعة عشر قرناً ، قد أنهى الوجود الفكرى والاجتماعى ، للمجتمعات والأمم . وشكل لها وجوداً جديداً ما يزال حياً متجدداً . ولما كان هذا المنهج الاسلامى : هو منهج ربانى قائم على الفطرة ، ملتق بالنفس الإنسانية ، والعقل البشرى . فقد شكل فى المسلمين مزاجاً له طابعه الخاص الذى انغمس فى جذور بعيدة فلم يعد فى الإمكان إجتنابه .

لقد تجاوز المسلمون والعرب تاريخهم القديم كله بالإسلام مرتين . مرة من حيث أخرجهم الإسلام من مفاهيم الوثنية وعقائد الثنوية ، والتعدد وعبادة الأوثان وتقديس الفرد ، وتحويل البطل إلى إله ومرة أخرى حين استقطب الفكر البشرى كله . وامتص منه خير ما فيه من عصارة وتجاوز ما ليس متصلا بالأصول الأصلية له من التوحيد والعدل ، والإيمان بالغيب ، والمسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاق .

ولا ريب أن ما استقطبه الاسلام من ثقافات الامم وبلوره واستساغه إنما كان بمثابة ميراث الأديان ورسالات السماء وهو الجانب المضىء فى تراث البشرية والفكر البشرى أما ما تبق من الزيف والخلط مما ينحرف عن هذا الجوهر الخالص فقد رفضه الفكر الاسلامى واستبعده .

(٢) الوثنية

استهدفت هذه المذاهب الداعية إلى إحياء ما قبل الاسلام إحياء الوثنية والجاهلية . وهى ترى فى مجموعها إلى تهيئة النفس والعقل الإسلاميين ، لتقبل تعدد الآلهة والأصنام والنظر فى بساطة إلى أمور قطع الاسلام فيها بالرفض ونهى المسلمين عن الإعجاب بها ، أو التوقف عن معارضتها .

ويتصل بهذه الوثنية عادات وتقاليد ونظم ومثل وكلمات كلها مما لم يعد سائغاً أو متقبلا فى النفس العربية الاسلامية ، كالعادات الجنائزية وصلات الأحياء بالأموات . ثم العادات الاجتماعية فى الموالد والأفراح والمآتم ونحن نعلم أنه فى عصر ما من عصور ما بعد الاسلام . استشرت هذه الوثنيات ، وعادت إلى التشكل فى صور مهرجانات ، وأعياد ومواسم وخاصة فيما يتعلق بالنيل والحصاد والولادة والوفاة . وما تزال هذه العادات سائدة وهى تختلف اختلافاً واضحاً من إحياء ، طقوس ، لا يعرفها الإسلام ولا يقرها . وهو الذى حرر منها البشرية .

ولقد حرر الاسلام المسلمين من كل ما يتصل بالأحجار ، أو الحيوانات ، أو الأنهار ، ودعا إلى التوحيد المعارض للوثنية والشرك والتعدد جميعاً ، واتخاذ بعض الناس بعضهم أرباباً كما حرر البشرية من عبادة الطبيعة (الشمس والقمر) وأعلن أنها مسخرة بأمر الله لخدمة الانسان .

تطلق كلمة الوثنية على مختلف العقائد التى لا تفرد الله سبحانه بالتوحيد وتذهب الوثنية إلى الوثن

إلى عبادة الأحجار والأصنام . وقد وصف اليونان القدماء (الإغريق) بالوثنية ، كما وصف بها أهل الجزيرة العربية على اختلاف فى المدى والفهم . وكانت الوثنية اليونانية عريقة ، لها أيدلوجية كاملة ، ولها فلاسفة أمثال : أفلاطون وأرسطو ، وشعراء أمثال : أسخيلوس وسوفوكليس . والعقائد الوثنية متعددة منها تأليه الطبيعة أو جزء منها كالشمس والقمر أو بعض أنواع الحيوان أو تأليه البشر فرداً أو أسرة أو جماعة . وذلك كعبادة الملوك والأسر الحاكمة عند بعض الأمم القديمة كالمصريين القدماء أو الحديثة كاليابان والهنود . وكعبادة الأنبياء والأبطال والقديسين والأولياء . ولذلك فقد حرص الاسلام على الاقتصاد فى أى نوع من أنواع المبالغة فى تكريم الأبطال والصالحين حتى لا يتحول مع الزمن إلى مثل هذا النوع من العبادة .

وكان الإغريق يقولون بتعدد الآلهة ، فكان كل إله يمثل قوة طبيعية خاصة يديرها ويتولى أمرها ومن ذلك زيوس إله الجمال ، وأبولو إله الشمس ، ونبتون إله البحر وهكذا .

ولم يفرق اليونان بين طبيعة الآلهة وطبيعة البشر ، إذ يجوز على البشر من بغض وحقد وقسوة وشره وطمع وجبن وحب للانتقام . وكانت آلهتهم لا ترى بأساً من اغتصاب زوجات الآلهة الأخرى وتتصف بالأخلاق الشريرة . ومن العقائد الوثنية : الاعتقاد بألوهية بعض الكائنات الخفية وعبادتها . كالملائكة والجن والشياطين والأرواح . أو تأليه جزء من الانسان كالعقل ، وهناك العقائد السلبية ، والإلحادية القائمة على إنكار الله وعدوه وإنكار الحياة الآخرة .

(٣) الجـاهليـة

تختلف الوثنية فى الجزيرة العربية عن الوثنية الفارسية والإغريقية ذلك أن الوثنية فى الجزيرة العربية إنما كانت عرضاً تاريخياً ، جاء بعد دعوة التوحيد التى حمل لواءها إبراهيم وإسماعيل . فقد اعتنق معظم العرب دين إبراهيم ، ولكنهم مع تقدم الزمن ومع تفرقهم فى الأقطار كانوا يحملون معهم بعض حجارة الكعبة يتبركون بها ثم حولوا هذه الأحجار إلى أصنام وأوثان . ومن هنا اختفى التوحيد ، وبرزت عبادة التماثيل والأصنام وقدمت لها القرابين . هذه هى ما يطلق عليها المؤرخون جاهلية الفترة — ويقدرها بعضهم بنحو أربعمائة سنة فهى أقصر وثنيات العالم ، وهى تختلف عن الوثنيات العريقة أو جاهليات الفطرة بأنها لم تقم لها هياكل ولا أنظمة ولم تكن لها أساطير على النحو المعروف عن وثنيات الهند والصين والفراعنة واليونان . ولقد عرفت الجزيرة العربية الأديان : كاليهودية والمسيحية ولكنها لم تعتنقها ، وظلت بقايا حنيفية إبراهيم ممتدة إلى زمن البعثة المحمدية .

أما وثنية اليونان ، فقد كانت مثالا خطيراً للتعدد والشرك ، ولها فلسفة قائمة ومفاهيم خطيرة . ولذلك فقد كانت مفاهيمهم الخطيرة هى أبرز ما ركز عليه الإسلام وكشف زيفه وفى مقدمتها القول بقديم العالم وأن الله سبحانه لا يحيط علماً بالجزئيات وإنكار بعث الأجساد وتقديس العقل .

ومما طرحته الوثنيات الشرقية المتمثلة فى مفهوم الغنوصية : وحدة الوجود والحلول والاتحاد والثنائية والحدس والإشراق ورفع التكليف .

ولا ريب أن إحياء ما قبل الاسلام من شأنه أن يحيي هذه المذاهب والأفكار التي كشف الاسلام وجه الحق فيها . وأبان عن زيفها وفسادها .

لا ريب أن الدعوة إلى إحياء ما قبل الاسلام تستهدف إذاعة الفكر التلمودي الذي شكله اليهود؛ خروجاً عن مفهوم رسالة موسى واستهدافاً إلى تحقيق غاية معروفة هي الاستعلاء بالجنس والعنصر إلى امتياز معين ولقد سجل الباحثون أن الماسونية قد أعادت تشكيل الفكر البشري الوثني السابق للإسلام كله ، وأعادت صياغته من جديد ، واعتبرته تراثاً للبشرية تدعو إليه وتزدهي به وأن هذا العمل هو أسلوب من أساليب السيطرة الخفية . وفي عدد من كتبها التعليمية مثل كتاب الآداب العقيدة Morals and Dagms يبدو هذا العمل الخطير في إحياء الأساطير والوثنيات وخرافات قدماء المصريين والكلدانيين والهنود والفرس والعبرانيين واليونان ، وما يتصل بها من رموز كالخنفساء الذهبية والحية والسمكة والثور يحمل فوق قرنيه الشمس والثور المجنح وأبي الهول والأهرام والمثلثات والمربعات ، والدوائر والأعداد المقدسة كعدد ٣ — ٧ — ٩ ، وما يتصل بذلك من طقوس متحجرة ومراسم ، فضلا عن السحر . فإنه باب وحده وقد حرصت التلمودية كل الحرص على هذا التراث ، وعملت في كل العصور على تجديده وعلى بعثه في صورة أو أخرى وعلى تلقينه في الجمعيات السرية وخاصة ما يتصل بالمهابهارتا . والرمايانا . والواندفستا . والالياذة وتجيء التلمودية والمشنا على رأس الكتب ومفهومها القائم على العنصرية على رأس المفاهيم وتلك هي أخطر خلفية وراء إحياء ما قبل الاسلام .

عمد الاستعمار في محاولته الكبرى للتغريب ، وتمزيق وحدة الفكر والأمة إلى خلق وكاثر من الطائفية والقبلية . وذلك بالتركيز على عناصر معينة ، والحيلولة دون تنميتها ، أو إدماجها في المجتمعات وربما عمد إلى إثارتها ، وتعميق خلافاتها مع المجموعات . وكان هذا العمل من أخطر العوامل التي استعان بها النفوذ الأجنبي لتحطيم وحدة الرابطة الجامعة تمهيداً لبسط نفوذه على العالم الاسلامي ولقد كان للطوائف الأرمنية واليهودية كالدونمة في تركيا أبعد الأثر في تأريث المخططات الأجنبية في السيطرة ، ولم تكن الطائفية ، أو القبلية يوماً قضية وجود في محيط الاسلام ، بل كانت مختلف الطوائف تجد حريتها وانطلاقتها في المجتمع وقد وضعت الشريعة الاسلامية لها أنظمة حمايتها ورعايتها وتكريم أهل الكتاب وحماية المعابد . وقد وصل أبناء الطوائف المختلفة إلى أرقى المناصب في عصور الازدهار ، وكان لهم دورهم في الحضارة الاسلامية والثقافة العربية ولم يقع بينهم وبين الجماعة أي خلاف أو صراع إلا تحت نفوذ الاستعمار ، الذي أعلن أنه إنما جاء ليحمي هذه الطوائف .

وقد استطاعت الحركات الوطنية أن تفوت أهداف النفوذ الاستعماري بالترابط بين العناصر المختلفة في الأمة وأن تقضي على الدسائس الأجنبية ، والأهواء والخلافات القديمة التي حاول المستعمر تأريثها .

(٤) الإقليمية

وكانت الدعوة إلى الإقليمية واحدة من هذه الدعوات التي تستهدف التمزيق والتفرقة، لتأكيد سياسة النفوذ الأجنبي. ويبدو هذا الهدف واضحاً من خلف قضايا الدعوات الطورانية والفرعونية والفينيقية وغيرها، وكلمات الكيان الخاص وغيرها والمعروف أن العالم الاسلامي والأمة العربية لم تكن تعرف من قبل هذه المصطلحات المتعددة، وأنها كانت تعتبر «وحدة الفكر» أساس الوحدة، وكانت جامعة الفكر القائمة على المفاهيم المستمدة من الاسلام هي مصدر الترابط والقاء غير أن النفوذ الاستعماري ما كان يستطيع أن يقيم قواعد نفوذه، إلا على تقسيم الجماعة الواحدة إلى عناصر، يتبع بعضها العرق والجنس أو يتبع اللغة والدين وكان دوماً قادراً على إثارة الخلافات المذهبية بين أبناء الدين الواحد، والتعارض بين أصحـــاب الأديان المختلفة. وجاء مفهوم القومية الضيقة عاملا هاماً في هذا التحدى.

وجاء نقل مفهوم القومية الغربي الوافد إلى الأمة العربية حملا آثار البلبلة والاضطراب وأخرج مفهوم العلاقة بين العروبة والاسلام عن وضعه الأصيل.

وكانت المحاولة الأولى التي حاولها النفوذ الاستعماري أن تكون القومية بمثابة إقليمية ضيقة وأن تنحصر في مفهوم الوطنية والاستعلاء بالأرض والتاريخ الاقليمي فلما فشلت هذه المحاولة وبرز مفهوم «العروبة» جامعاً قوياً في مواجهة النفوذ الأجنبي عمدت محاولات التغريب إلى تفريغ هذا المفهوم من قيمته الحقيقية ومن إسمه الأصيل. فظهرت الدعوة إلى قومية منفصلة عن التراث والثقافة وبرزت الدعوة إلى قومية علمانية على النحو الذى عرفه الغرب دون تقدير كبير للفوارق البعيدة في الزمن والبيئة والجذور، وفي تجاهل خطير لحقيقة أكيدة هي أن الأمة العربية لا تستطيع أن تنفصل في حركتها الاجتماعية والفكرية عن قيمها الأساسية وأنها لا تستطيع أن تنعزل عن إمتدادها النفسي والروحي والثقافي مع العالم الإسلامي.

(٥) الفرعونية

كان اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في العقد الثاني من هذا القرن، وما وجد فيها من آثار عجيبة (وما تزال تتجدد عروض الآثار الفرعونية. ويتجدد معها الكلام عن الفراعنة) وقد اتخذ هذا العمل منطلقاً إلى إحياء ما قبل الاسلام من حيث بناء القبور والقصور على الأنماط الفرعونية والدعوة إلى لغة وأدب وتراث فرعوني. غير أن حملة هذه الدعوة لم يلبثوا أن أعلنوا فشلهم وعجزوا عن تحقيق وجود مثل هذا التراث ليكون نقطة بدء، ووجدوا أن الصلة قد انقطعت بين المصريين وبين الفرعونية انقطاعاً كاد يكون تاماً، انقطعت بالاسلام الذى غير النفسية العقلية والمزاج في الانسان تغييراً كاملا بعد أن أخرجه من الوثنية، ودفعه إلى منهج رباني. قوامه الفطرة وكان قبول المصريين له بالذات من معجزات الاسلام الكبرى بعد انقضاء آلف عام تقريباً بين وثنية الفراعنة واليونان والرومان.

وآية هذا الفشل الذريع ما يعترف به أكبر الدعاة إلى الفرعونية : الدكتور محمد حسين هيكل فى مقدمة كتابه (فى منزل الوحى) حيث يقول : وانقلبت التمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعنة موئلا لوحى هذا العصر ينشىء فيه نشأة جديدة فإذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من العهد من سبب قد يصلح لنهضة جديدة ورؤيت فرأيت أن تاريخنا الاسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر . ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو .

ويقول الأستاذ أحمد حسن الزيات : هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلثاً من التاريخ العربى . نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سوابغ الظلال . ارمقوا إن استطعتم هذه الروح واعجوا ولو بالفرض هذا الماضى ، ثم انظروا ماذا يبقى فى يد الزمان فى مصر وهل يبقى إلا أشلاء من بقايا السوط ، وأنضاء من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل (كتاب الأموات) وجباه ضارعة تسجد للصخور وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة .

لا تستطيع مصر الاسلامية إلا أن تكون فصلا من كتاب المجد العربى لأنها لا تجد مدداً لحيويتها ولا سنداً لقوتها ، ولا أساساً لثقافتها إلا فى رسالة العرب . انشروا ما ضمت القبور من رفات الفراعين واستقطروا من الصخور الصلاب أخبار الهالكين ، وغالبوا البلى على ما بقى فى يديه من أكفان الماضى الرميم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار ، وعظمة النيل ولكن أذكروا دائماً أن الروح التى تنفخونها فى مومياء فرعون هى روح (عمرو) وأن اللسان الذى تنشرون به مجد مصر هو لسان (مضر) وأن القيثار الذى توقعون عليه ألحان النيل هو قيثار (امرىء القيس) وأن آثار العرب المعنوية التى لا تزال تملأ الصدور وتملأ السطور وتغذى العالم ، هى أدعى إلى الفخر وأبقى على الدهر وأجدى على الناس ، من صفائح الذهب وجنادل الحجارة .

وغاية ما يقال فى معركة استمرت طويلا أنها وصلت إلى النتائج الآتية :

(أولا) أن الفرعونية لا تتمشى مع روح العصر ، وأنها لم تكن لها ثقافة ، وأنها توقفت منذ ظهور الاسلام وجمدت وفصل بيننا وبينها تاريخ إيجابى الفعالية قوامه اللغة العربية والاسلام .

(ثانياً) ثبت أن هدف المحاولة هو عزل الثقافة العربية عن الفكر الاسلامى ، وعزل الشخصية المصرية عن الرباط العربى ، غير أن المحاولة الضخمة فى الفصل بين المصريين وبين العروبة والاسلام كان أمراً بالغ اليأس وأن محاولة الارتباط بتراث فرعونى كان مستحيلا .

(ثالثاً) تبين من الدراسات التاريخية أن الفراعنة موجة جاءت من الجزيرة العربية ، وأن بين اللغة الهيروغليفية واللغة العربية آصرة ضخمة تؤكد أنهما من أصل واحد .

(رابعاً) كان هدف إعادة الفرعونية إدخال مفاهيم الوثنية الفرعونية المرتبطة بالوثنية اليونانية وغيرها . من تجديد عبادة البشر والابطال وصراع آلهتهم حول الغايات الحسية والمطامع الدنيا .

(خامساً) ثبت أن الفرعونية لم تكن نظاماً اجتماعياً ، ولا قوة دافعة إلى الحرية والمساواة . بل كانت نظاماً عبودياً ، وقيوداً من التخلف الفكرى والاجتماعى .

(٦) الفينيقيه

وكذلك كانت الفينيقية دعوة من الدعوات الهدامة التى أثارها النفوذ الاستعمارى لتقسيم وحدة الأمة ، ووحدة الفكر وتجديد التاريخ القديم بكل أخطائه وخطاياه فى سبيل القضاء على الواقع الحى الإيمانى وإعلاء شأن الإقليمية والعنصرية التى سيطرت على الأمم قبل أن يصهرها الاسلام فى بوتقته الموحدة التوحيدية .

وقد حملت الدعوة الفينيقية إلى لبنان الدعايات الاستعمارية . لعزل اللبنانيين عن العروبة وقد ارتكزت هذه الدعايات على أن اللبنانيين هم أحفاد الفينيقيين القدماء الذين كانوا سكان هذا الساحل قبل أن يأتى العرب ، وادعت بأنهم تاريخياً ليسوا عرباً . وإنما هم خليط من أبناء الفينيقيين وأحفاد الأمارات الصليبية .

وقد اتصل بالدعوة إلى الفينيقية دعوات إلى سوريا الطبيعية ، والأمة السورية ودعوات إلى البحر الأبيض . وجرت فى ظل هذه الدعوة الدعوات إلى العامية اللبنانية وكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، وإعلاء اللهجات المحلية .

وتعنى الفينيقية إعلاء الإقليمية فى مواجهة العروبة ، وإعلاء الثقافة الفرنسية فى مواجهة الفكر العربى الاسلامى وإعلاء اللهجات العامية ، واللغات الأجنبية فى مواجهة اللغة العربية ، وخلق كيانات ليس لها أساس من الواقع الذى تعيشه الأمة العربية منذ أربعة عشر قرناً .

وقد كشفت أبحاث الآثار والتاريخ المجردة من كل هوى استعمارى أو شعوبى أو دعوة للتغريب أن الفينيقية موجة من موجات الجزيرة العربية وأن شأنها فى ذلك شأن الفرعونية ومختلف الموجات الأخرى التى انفصلت عن المصدر الأم .

الفصل الثانى

الإسرائيليات

(١) من أخطر التحديات التى واجهت الاسلام والفكر الاسلامى والثقافة العربية ظاهرة الإسرائيليات وهى إضافات خطيرة ونظريات زائفة مستمدة من نصوص قديمة وثنية ومجوسية من خارج مفهوم الإسلام وذاتيته المتميزة عن الأديان والفلسفات تسربت مع الزمن وقصد خصوم الاسلام إلى إضافتها إلى الاسلام امزله عن جوهره الأصيل وتمييع طابعه الخاص وإخراجه عن بساطته ووضوحه ويسره وقد أضافت فى مجموعها تفاصيل كثيرة باطلة وتوسعات عديدة تتعارض أساساً مع مفهوم الاسلام القائم على التوحيد والمتصل اتصالا واضحاً بالإيمان بالغيب والبعث والجزاء ، والمستمد من قواعد القرآن ونهجه ومنطقه فى مواجهة مختلف القضايا والأمور . وخاصة فيما يتعلق بعالم الغيب وما وراء العالم المحسوس . وأبرز ما أصاب الفكر الاسلامى من الاسرائيليات ما أصاب كتب الملاحم والمغازى ، وقد تنبه علماء المسلمين وأئمتهم إلى هذا الخطر منذ وقت مبكر حتى أثر عن الامام أحمد بن حنبل قوله : ثلاثة لا أصل لهم : التفسير والملاحم والمغازى (أى أنها ليست ذات أسانيد صحيحة متصلة) ، ومن ذلك وضع الأحاديث ونسبتها إلى الرسول الكريم فى سبيل تأييد موقف أو جماعة أو بلد وكلها مما كشف المحققون عن زيفه . وكذلك ما وضعه كهان اليهود : أمثال كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وابن سلام وغيرهم من أخبار وأساطير .

ومما يكشف عن خطورة ظاهرة الوضع ما أثر من أنه كان على عهد الامام البخارى مائة ألف حديث لم يقبل البخارى منها سوى ٢٥١٣ حديثاً .

وتتصل ظاهرة الاسرائيليات اتصالا خطيراً بالتفسير ، فقد دسّت فى بعض التفاسير أساطير وأقاصيص غير عربية ، أو إسلامية من تراث اليونان ، والفرس ، والهند ، واليهود ، وهى مليئة بالأهواء المضللة .

(٢) يطلق المسلمون كلمة الاسرائيليات على جميع العقائد غير الاسلامية لا سيما تلك العقائد والأساطير التى دسها اليهود والنصارى فى الاسلام . وأبرز ما فى هذه الاسرائيليات مادة الكهانة والتنبؤات ، وخاصة ما يتعلق بفكرة المهدى المنتظر التى كان لها أثر سيء فى عصور الضعف والتخلف ، وتلك التفسيرات للآيات القرآنية ، والتوسع فى أوصاف الملائكة والجنة والنار والحشر ، وتصويرها تصويراً يخرج بها عن أصلها القرآنى .

وقد أشار المؤرخون والباحثون إلى أن هذه التكهنات وصلت إلى المسلمين على أيدى القسيسين والرهبان والقبط واليهود وغيرهم ممن حملوا لواء معارضة الاسلام، وإدخال الزيف إلى أصوله . وقد أضيف إلى الإسرائيليات مع ترجمة الفلسفة اليونانية والهندية والفارسية إضافات أخرى كونت حصيلة ضخمة استعملها الشعوبيون وأعداء العرب والاسلام فى القديم سلاحاً لتحويل الأبصار عن جوهر الاسلام وإخراجه من مضامينه وقيمه وإتاحة الفرصة لمفاهيم الوثنية والثنائية والتعدد لغزوه والتأثير فيه. وقد واجه المفكرون المسلمون هذه الدخائل الإسرائيلية الباطنية والمجوسية وغيرها وفندوها وكشفوا عنها وفى مقدمة من تولى ذلك : الجاحظ (البيان والتبيين) والقاضى ابن العربى (العواصم من القواصم) وابن الجوزى (تلبيس إبليس) ، كما واجه هذه القضايا : ابن حزم والغزالى وابن خلدون ، وعرضوا الآراء الباطنية والمجوسية والمزدكية والمانوية وغيرهم .

وفى عصر الضعف ومرحلة التخلف وفترة التجميع ، ظهرت كتب كثيرة لم يكتبها علماء محققون وجمعت أحاديث منحولة وأكاذيب ومفتريات مدسوسة على الدين . وفى مقدمة هذه المؤلفات بدائع الزهور ، والعرائس فى القصص والأخبار .

٣ — حفلت بعض كتب التفسير : أمثال الثعلبى والكسائى والخازن بأمثال هذه الروايات . كما جاء الطبرى فى تفسيره بأشتات منها . وكانت أمثال هذه الروايات متداولة ، ينقلها القصاص بين العامة وكان الخطأ فى رفعها إلى مقام التدوين ، مما ساعد على إشاعة الخرافات والأضاليل فى النفوس . ولم يتوقف أثر التداخل المتصل بالإسرائيليات فى الفكر الاسلامى ، فكان له فى العصر الحديث أسوأ أثر . بل لقد كان من العوامل الهامة فى مجال إثارة الشبهات والمفاهيم المغلوطة فى مجال الثقافة العربية . وفى مقدمة ذلك خطأ تفسير الخطيئة والخلاص والفداء . وكلها كلمات تسربت إلى الأبحاث العربية دون أن تحظى بتحقيق واضح لمضامينها وآثارها وموقف الإسلام منها . ولقد كان لعمل المستشرقين الخطر فى حشو مثل هذه الإسرائيليات إلى مادة دائرة المعارف وتركيز الاهتمام على اليهود أثره البعيد فى أن بدت الإسرائيليات ، وكأنها عناصر من الفكر الاسلامى . فإذا جاءت دائرة المعارف . وضمت إلى موادها مادة : رجعة ووصية ، واتحاد ، وحلول وغير ذلك : تسرب إلى ظن المسلمين أن هذه المواد من صميم مفاهيم الاسلام

٤ — وقد كان للمداخلات الغنوصية والهيلينية فى الفكر الاسلامى أثرها فى دخول كثير من الإسرائيليات ومن أمثلة الأحاديث المدخولة فى هذا الشأن ، تلك التى حاولت أن تعطى العقل مكاناً معيناً أو تصور الرسول بصورة لم ترد فى القرآن أو تنسب إلى الله سبحانه وتعالى ما لم ينزل به سلطاناً ، ومن هذه الأحاديث الزائفة قولهم : أول ما خلق الله العقل وقولهم : كنت نبياً وآدم بين الطين والماء وقولهم : كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف .

وقد هاجم الامام ابن تيمية ، هذه الأحاديث الموضوعة هجوماً عنيفاً وأثبت زيفها ووضعها وصلتها بمفاهيم الفلسفة اليونانية وتعارضها مع جوهر الاسلام كما عارض العلماء المسلمون ما يتصل بتجاوزات بعض العابدين كالتهام الثعابين ، والمشى على السيوف والرقص على نقرات الدفوف .

وقد وضع المحققون لهذه التجاوزات ضوابط ، فقـال أحدهم : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة . وقال الامام الغزالى فى هذا الصدد : لو رأيت إنساناً يطير فى الهواء ويمشى على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان .

٥ — وقد ذهب أغلب الباحثين إلى أن أكثر الأحاديث الموضوعة من الإسرائيليات إنما وضعت عن تدبير وتخطيط وخصومة وكيد وأنها من عوامل الحرب الفكرية والعقائدية الضارية التى شنها اليهود وغلاة النحل المبتدعة على الاسلام والمسلمين بكافة الوسائل من التخفى والتسلل والتمويه بقصد تمزيق وحدة المسلمين وتلهيتهم عن دينهم القويم وتشتيتهم عن صراطهم المستقيم ويصف بعض الباحثين هذه الظاهرة بأنها ليست إلا حرباً حقيقية لكتاب الله ، أرادوا بها صرف كل من يقرأ تفسيراً من التفاسير عما يريده الله فى كتابه من هداية البشر إلى حكايات وأعاجيب وأساطير تستهوى البسطاء . ثم نترا كم هذه الأساطير وتعترض حركة الإفهام السليمة ؟

الأساطير

١ — ويتصل الحديث عن الإسرائيليات بالحديث عن الأساطير . وقد جاء الاسلام معارضاً لها كاشفاً عن زيفها ، محرراً العقل والنفس الإسلامية من الخرافة . وقد ارتبطت الأساطير بالوثنية اليونانية والفارسية والهندية ارتباطاً وثيقاً وغلا بها الإغريق غلواً شديداً فقد كان لديهم قصص كثيرة يفسرون بها الحياة والطبيعة والخير والشر ، وكانوا يؤمنون بأن هذه الأمور بأيدى آلهة وإلاهات . ويربط الغربيون بين الأسطورة والدين ، بينما يعلن الاسلام التحرر الكامل من كل أسطورة أو خرافة أو صورة غامضة .

والعرب قبل الإسلام ، لم يكونوا يعرفون من الخرافة إلا قدراً قليلا ساذجاً ، وقد أسقطه الاسلام ومحاه ، وأحل محله قصصاً حقيقية من عبر التاريخ وأحداث الامم أما غير العرب من الفراعنة والفرس ، والهنود ، فقد كانت لهم أساطيرهم المشتركة الأصل الوثنية الطابع . وقد كشف كثير من الباحثين عن الأصل المشترك ، والالتقاء الجذرى لأساطير اليونان والمسيحية والفراعنة وما نقل إلى العربية من أساطير فى كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة وإنما هو تراث من أساطير ما قبل الاسلام الهندية ، والفارسية ، والفرعونية ، واليونانية ويحتوى العهد القديم عديداً من هذه القصص والنبوءات وقد استغل الأدباء ، ورجال الفقه والفن من الغربيين هذا التراث . أما القصص الشعبى فهو بقايا الأساطير التى سادت فى العصور الوسطى عن الحروب والغزوات واقد وضع القرآن كل هذا التراث القديم فى ميزان النقد ورد على كل ما فيه من زيف وكشف عن الحقيقة وأسقط الأساطير والأضاليل . وجلا الحقيقة فى مختلف ما يتصل بالعصور القديمة من أحداث ومواقف ويتصل بجوهر الدين ورسالة الأنبياء ونضالهم فى مواجهة معارضة الأمم والمتعنتين من المكذبين .

٢ — وقد قذف الغربيون الفكر الإسلامي، والأدب والثقافة العربية بقدر ضخم من هذه الأساطير في محاولة لتجديدها وإذاعتها، وعنى كثير من الكتاب والأدباء بترجمتها ومحاولة إغراق الأدب العربي بها، وجرى البحث حول الأساطير في الأدب العربي نفسه وكان من أهم هموم المستشرقين والمبشرين البحث عن الأساطير. وقال رينان: إن العرب ككل الأمم السامية ليس لها أساطير في شعرها، ولا في عقائدها ونسى أن اليهودية التلمودية هي مفرخ الأساطير البشرى الأكبر وأن كل ما عرف من أساطير بابلية وأشورية وغيرها، إنما تتصل بالوثنية والإباحية التي أذاعتها التلمودية. عمد البعض إلى بعث الأساطير العربية في عصر ماقبل الاسلام، وكان المفكرون المسلمون قد حرروا السيرة النبوية من كل ما يتصل بها من أساطير وزيوف وأقاموا منهجاً من التحقيق العلمي في الحديث وصف بأنه أعظم المناهج التي عرفها البحث العلمي ء غير أن بعض الكتاب جاء في العصور الأخيرة، فأعاد الأساطير إلى السيرة مرة أخرى. وخلطها بها وانتحل أساطير جديدة وقد بدا ذلك واضحاً في كتاب (على هامش السيرة).

وقد عارض الباحثون هذا الاتجاه ووصفوه بأنه اتجاه خطير بعد أن حرص المسلمون طوال العصور على تنقية سيرة الرسول من الروايات الخيالية والوهمية التي حاولت الإسرائيليات إلصاقها بها. ويتصل بهذا إذاعة أساطير في مجال السحر (Magic) وفنون السحر هي فنون اليهود القديمة التي برعوا فيها والتي ما زالوا يحضون عليها وهي عمل من أعمال الأساطير وجمع الخرافات وما يتصل بذلك من القول بقداسة الشجرة والجبل ويتصل هذا بالكهانة والعرافة، وذلك أن الكهانة في مفهومها هي محاولة استطلاع الغيب عن المستقبل بينما العرافة تعنى باسترجاع الماضي وهما محاولتان للتنبؤ. وقد رفع الاسلام كل هذا التراث بما فيه من خرافات وأوهام عن المسلمين وأسقطه نهائياً من دائرة فكرهم وأقام مفهومهم على اليقين والبرهان والدليل والاستقرار والتجربة وبمفهوم المسلمين جاوزت البشرية (عصر السحر والأساطير والنجوم وخرافات الطلاسم والرقى والقرابين التي كانت تقدم للاشجار والأصنام لتحميهم من شرها وخطرها، ولقد ارتبط السحر بالوثنية والإلحاد ارتباطاً واضحاً، والنفوس الوثنية والملحدة تفقد الأمل والرجاء في الخير كما تفقد طابع التفاؤل والبشرى، والمسلم المؤمن لا ييأس من روح الله ولا يخاف شيئاً، ومن هنا ارتبطت الوثنية بالخوف من العوالم الباطنة وأخطار الشياطين والجن والظلام ولقد حرر الاسلام البشرية من أن تصلى أو تتقرب إلى من كانت تطاق عليهم آلهة الخير من أجل الذرية والحصاد أو آلهة الشر من أجل حمايتهم من الشرور والأضرار ومنحت المسلمين نهجاً قائماً على التوحيد والايمان بالله ورجائه وحده، والخوف منه وحده، وأنه المرجع الأول والأخير في كل خير وضر، وهو الذي يرفع الضر ويمنح الخير: «إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فهو على كل شيء قدير».

الفصل الثالث

دعوة التغريب

وقوامها : (التبشير والاستشراق)

(١) قبل أن يصدر المستشرقون الخمسة كتابهم (وجهة الاسلام) فى أوائل الثلاثينات من هذا القرن لم تكن كلمة (التغريب) معروفة أو متداولة ، حتى ليمكن القول بأنه أول من طرح هذا المصطلح هو كبيرهم : هاملتون جيب . ويعنى به « القدر الذى أثرت به الثقافة الغربية فى الاسلام » يركز عوامل التغريب فى التربية والتعليم والصحافة وعملها وسلطانه فى سبيل إقامة الثقافة الحديثة . ويصل إلى الهدف حين يقول : إن التربية والصحافة ومقومات الحياة كانت أكثر ما ترمى إلى « التفرقة بين الحياة الزمنية والحياة الروحية الدينية » . ومعنى هذا أن الهدف هو إقامة هذه « الانشطارية » بين قيم الاسلام المتكاملة الجامعة بينه دنيا ومنهج حياة للوصول إلى أن يصبح الاسلام ديناً لاهوتياً فقط ويسقط الجانب الآخر منه وهو جانب النظام الاجتماعى ومنهج الحياة .

ويقرر جب أن الاسلام كدين لم يفقد إلا قليلا من قوته ، أما كنظام للحياة الاجتماعية فإنه قد نزل عن عرشه وقامت إلى جانبه أو من فوقه قوى جديدة لها من السلطان ما يتعارض فى بعض الأحيان مع تقاليده وتنظيماته الاجتماعية ويعنى بها غلبة المصرف القائم على نظام الربا وسيطرة القانون الوضعى. ويتحدث أرنولد توينبى فى كتابه : (العالم والغرب) عما أسماه الدور الذى لعبه ضباط تركيا فى حركة « التغريب » وكيف تسربت عدوى الأفكار الغربية إلى عقول الضباط . ويقول : « إن مسألة التغريب المتزايدة فى تركيا لا تحل الإباحية وسيلتين : « إما أن يدفع الأتراك يوماً ثمن خطأهم بانهيارهم تماماً . أن ينجوا من التصفية الشاملة بحصرهم قواهم كلها قلباً وعقلا فى التغريب » .

ويعقد جان بول رو فى كتابه « الاسلام فى الغرب » فصلا كاملا تحت عنوان « تغريب الاسلام » ويعرض للتغير فى حياة المرأة والتربية وخروجها عن منهج الاسلام والتبشير فى أفريقيا وتجربة النظام الابرالى السياسى . ولا ريب أن معالجة المستشرقين هذه الظاهرة بمثل هذه الجرأة والتوسع لتعد دليلا أكيداً وملموساً على ما يعتقد به المصلحون المسلمون من رجال حركة اليقظة ، بأن هناك مخططاً دقيقاً منظما ظل يعمل سنوات طويلة من خلال مناهج التبشير والارساليات ومعاهدها . تقوم بدعمه والتخطيط له وإعداد مادة الحرب من نظريات تحمل الشبهات والمغالطات والشكوك قوة كبرى هى هيئة الاستشراق .

وعن طريق المدارس والمعاهد التبشيرية والصحف تثار هذه الشبهات والشكوك ، وتنمو وتغرس

فى العقول والقلوب على النحو الذى يحقق هدف الاستعمار بصهر المسلمين والعرب فى بوتقة الثقافة العالمية الغربية .

ولم نكن فى حاجة إلى أن تقدم هذه النماذج لولا أن بعض المغرضين من خصوم العرب والاسلام يعلنون انزعاجهم فى كل مناسبة عند ما يكشف الأبرار عن هذه الخفايا ويفضحونها ويضعونها أمام الشباب المثقف لمعرفة أبعاد الأخطار التى تحيط به مما يطلق عليه الغزو الثقافى والتغريب .

ولا ريب أن معارضتهم هذه تكشف عن عمالتهم وتبعيتهم وحرصهم على التماس مصادر الرزق والجاه : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » .

والتغريب فى أبسط مفهوم هو : حمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب والتخلى عن الدعائم الأصيلة التى تفرض ذاتية خاصة وطابعاً مميزاً للاسلام وآثاره فى الثقافة والاجتماع والاقتصاد والتشريع والتربية . ونحن نعرف أن الغرب فى غزوه لعالم الاسلام فى العصر الحديث قد ابتكر أسلوبا جديداً يحقق عن طريقه ما عجز عنه فى الجولة السابقة : جولة الحروب الصليبية التى خرج فيها مهزوماً مدحوراً ومن هنا كانت خطته فى أن يتجنب الصدام وأن يعمل عن طريق التبشير والاستشراق لهدم مقومات القوة فى فكر المسلمين والعرب وبالتالى فى مجتمعهم .

وكانت فريضة الجهاد هى أخطر هذه المقومات ولذلك فقد وضعت مناهج التربية والتعليم على النحو الذى يكفل تجاوزها أو حجبها . وبلى هذا الهدف أهمية تجزئة مفهوم الاسلام ومحاولة رده إلى مفهوم عبادى لاهوتى ، رغبة فى القضاء على جانب التشريع الاسلامى وإحلال القوانين الوضعية بديلا عنه .

ولا ريب أن مظاهر التغريب ممثلة فى حركة التبشير قد كانت ولا تزال واضحة أمام أمتنا على النحو الذى لا سبيل إلى تجاوز تقدير خطره . ومن خلال مخططات التبشير وعمله انكشفت حقيقة التغريب حين قال دكتور زويمر : ليس الهدف من التبشير هو إدخال المسلم فى دين آخر ، ولكن الهدف هو إخراجه من الاسلام حتى يكون خصما له وعدواً ، فالهدف إذن هو توجيه الثقافة إلى مفهوم الإلحاد والإباحية التى تفتح الآفاق إلى الانتقاض على الدين والخلق جميعاً .

وهذا هو الغاية الكبرى للتعليم التبشيرى .

ولقد كشفت أفكار المستشرقين وآراءهم المسمومة الهدف من كتاباتهم وما فيها من تحريف وزيف .

وقد ركزت حملة التغريب على القيم والمقومات والتاريخ واللغة ، وأثارت حملات التشويه والتمويه والقطع بين الأصول والفروع وإفسادها .

وكانت المحاولة هى : إحلال النظرة الجزئية بدلا من النظرة الشاملة . وطرح مفاهيم القيم تختلف عن مفاهيمها الأصلية وانتزاع الطوابع المميزة للفكر الاسلامى والثقافة العربية كالتضليل عن الفوارق بين المعرفة والثقافة ، والخلط بين العلم والفلسفة والدعوة إلى مفهوم الغرب القائم على الفصل بين القيم فيما يتعلق بالأدب والسياسة ، فضلها عن الأخلاق .

(٢) وبالجملة فإن التغريب يستهدف إيجاد شعور بالنقص فى نفوس المسلمين الشرقيين عامة وذلك بإثارة الشبهات وتحريف التاريخ الإسلامى ومبادىء الإسلام وثقافته وإعطاء المعلومات الخاطئة عن أهله وانتقاص الدور الذى لعبه فى تاريخ الثقافة الإنسانية ومحاولة إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية التى تتمثل فى ماضى هذه الأمة ، مع توهين القيم الإسلامية والغض من مقدرة اللغة العربية وتقطيع أوصال الروابط بين العرب والمسلمين . ومن أخطر مخططات التغريب الحيلولة دون قيام (وحدة الفكر) التى هى مقدمة لوحدة الأمة وبلبلة العقول والنفوس بعشرات من المذاهب والدعوات وتعميق الفوارق الثقافية والاقتصادية فى الأمة الواحدة مما يحول دون قيام الوحدة .

وحركة التغريب (Westernaisin) دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائمها تخدمها مؤسسات مختلفة أهمها مؤسسة التبشير ومؤسسة الاستشراق . ويقول أصحاب هذه الدعوة إن للمسلمين والعرب قيما ومثلا وذاتية خاصة تحول بينهم وبين الاندماج فى الأمم الأخرى وتخلق فيهم قدرة قوية على مقاومة النفوذ الأجنبى والغاصب ، ولا سبيل للقضاء على هذه المقاومة إلا صهر هؤلاء فى بوتقة الفكر الغربى وإخراجهم من قيمهم لينصهروا فى قيم الغرب ، وذلك لخلق جو من الالتقاء معه والتقبل له ، والانضواء تحت لوائه .

(٣) يعتمد التبشير على المدرسة والمستشفى من خلال حالة الطفولة والتكوين الناشىء ومن خلال حالة المرض والضعف للمريض . وقد أجمعت خطط المبشرين ودراساتهم وأبحاث مؤتمراتهم على أن الهدف من « التبشير » : هو إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الإسلامى وإبعاد العناصر التى تمثل عن الإسلام عن مراكز التوجيه . وقد كانت خطة التبشير ـ ولا تزال موحدة شاملة وفات مراحل وحلقات ، وقد أشرف عليها رجال ذوى خبرة واقتدار وفهم عميق لمخططات التغريب فى خدمة الاستعمار ، وهى تتبع عادة وزارات الخارجية والمستعمرات فى الدول المستعمرة ، ولها ارتباط مع جماعة المستشرقين لاستخلاص المادة المتجددة للتشكيك وإثارة الشبهات .

وقد تأكد مدى التناسق بين هذه الهيئات جميعاً من التقارير التى نشرتها مؤتمرات المستشرقين : والتى تكشف عن أن وزارات المستعمرات تستخدم المبشرين فى العمل داخل البلاد العربية والإسلامية وتؤكد أهمية عملهم وخطورة دورهم فى أن يكونوا عنواناً لها وأداة لتحويل الأفكار على النحو الذى تريده . وقد أشار كثير من الساسة إلى أهمية الدور الذى يقوم به التبشير ، فقال لورد بلفور وزير الخارجية البريطانية :

« إن المبشرين فى نظر الاستعمار هم عيونه التى تقوم باطلاع الدول الغربية بالنواحى التى يهمهم معرفتها من عقائد المسلمين وآدابهم والثقافات التى يتأثرون بها » ويشير المؤتمر الاستعمارى المنعقد فى برلين عام ١٩١٠ إلى أن ارتقاء المسلمين يهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم وأن هذا يتطلب من الحكومات تيسير عمل التبشير وإفساح الطريق أمامه .

ومن مناهج التبشير وأنظمته تلك القاعدة التى تقول إن جميع الوسائل تستغل فى سبيل التبشير حتى أعمال البر ، وأن التطبيب والتعليم من أهم وسائل المبشرين . وتشير المخططات إلى أن يكون عمل التبشير مبنياً على قواعد التربية العقلية والتأثير على عقول المسلمين وقلوبهم وبث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأدبية ، وذلك عن طريق نشر اللغات الانجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية مما يمهد إلى إدخال تلك الأفكار وأن هذا يؤدى إلى « سقوط الأوضاع والخصائص الاجتماعية الاسلامية لتحل محلها الخصائص الغربية » .

(٤) ولما كان الاستشراق هو « المصنع » الأساسى لمخططات التغريب بينما التبشير هو أداته فإن أصدق تعريف للاستشراق هو : « استخدام العلم فى خدمة السياسة » . ومادة الاستشراق هى أعظم معطيات التبشير عن طريق المدرسة والصحيفة ، وفى مجال التعليم لدعم خططه وإثارة عوامل الخلاف وتأريث الشبهات . ذلك أن الاستشراق إنما يدرس القضايا بوجهة نظر مسبقة وبأحكام مقررة وبأهداف واضحة : أساسها خدمة النفوذ الاستعمارى وقوامها التعصب والاتهام للإسلام والعروبة واللغة ، وأعمال رجاله هى البحث بملقاط وتحت مجهر عن هفوات صغيرة وتكبيرها وجمعها وتضخيمها ، ومهما صبت كلماته فى أسلوب براق له مظهر علمى ، فإنها تنطوى على الحقد والتعصب مع عدم الخبرة ووضوح هدف الانحياز .

وقد عمل عدد كبير من رجال الاستشراق فى مجال التبشير ، وكانت كتاباتهم وقوداً خصباً فى أيدى المبشرين . ومن هؤلاء مرجليوث وماسنيون وهنرى لامنس ولويس سنجو وفنسنك وجولد زيهر . وهم أشد المستشرقين تعصباً على الإسلام واللغة العربية وتكشف أعمال المستشرقين على غير قليل من القصور فى الفهم أو الهوى فى القصد ، وأخطر ما يتصل بتاريخ الاستشراق : إن رجال الإرساليات التبشيرية قد خلعوا أثوابهم فى السنوات الأخيرة (بعد أن انكشف أمرهم وتخفوا وراء أستار الاستشراق) . ويتحدث الكثيرون بحسن نية وبساطة عن الدور الذى حققه الاستشراق فى بعث التراث العربى الإسلامى ، ومن يعرف أن مصدر اهتمام المستشرقين بالإسلام والعرب ليس مجرداً ولا خالصاً لوجه العلم والحق إنما يدركون كيف يفيدون من وراء هذه الدراسات تعرفاً إلى نفسية هذه الأمم ليكيفوا مواقفهم ومعاملاتهم ، وليكشفوا تطلعاتها ليحكموا الضربة ويحيطون بوسائل الإخضاع والسيطرة ، وهم يستهدفون من ذلك كله معرفة جوانب القوة للقضاء عليها وجوانب الضعف لتعميقها ، وذلك فى سبيل هدف واضح هو أن يبقى نفوذهم ويستمر ، وهم فى كل ما كتبوه قد عمدوا إلى وضع الإسلام والعرب واللغة العربية والتاريخ ، فى قفص الاتهام ، وأوقفوا كتاب العرب والمسلمين موقف الدفاع ورد السهام .

وإذا كان الاستشراق خالصاً لوجه العلم حتى يركز على الجوانب الضعيفة والروايات المدخولة ، والشبهات المشكوك فيها والنصوص المحتملة ، ويدع كل ما هو وثيق ومستكمل وواضح ، ولماذا يركز على الخلاف حين يدرس الشريعة ويركز على الباطنية حين يدرس الفلسفة ويركز على وحدة الوجود

حين يدرس التصوف ويركز على العامية حين يدرس اللغة . ولماذا يولى اهتمامه لبشار وأبي نواس في الأدب ، والحلاج والسهروردي في التصوف ، وأبو بكر الرازي والراوندي في الفلسفة ، ولماذا يهاجم المتنبي والغزالي وابن خلدون وابن تيمية وهم من أبرز أعلام الأدب والفكر الإسلامي ؟

ولماذا يدع ألف باب من أبواب الأصالة في الفكر الإسلامي ليركز على حواشي تتصل بالآثار الفارسية والهندية واليونانية ، ولماذا يبتعث من جديد الشبهات التي أثارتها الشعوبية قديماً ويطرحها من جديد ، ولماذا يعمد إلى البقاء حيث لاسبيل للبقاء : الفرعونية والفينيقية ، ويركز على الخلاف بين السنة والشيعة ويحاول إثارة الخلاف بين الأديان والأمم والمذاهب ويفتح باب الشكوك بين العرب والمسلمين . ولماذا الاهتمام بأخبار الزنج والقرامطة والمجوسية والادعاء بأنها ثورات إسلامية . ولماذا تكتب الأبحاث المطولة عن نبوة أبو مسيلمة الكذاب وإنكار وجود عبد الله بن سبأ .

إن نظرة شاملة إلى أعمال الاستشراق تكشف بوضوح عن أنه ركز على الأفكار الدخيلة والفلسفات الوافدة والمواقف المضطربة وحاول أن يضم ذلك كله إلى تراث الإسلام النقي الصافي .

(٥) ومن خلال مخططات التغريب برزت مجموعة من التوابع الذين شكلهم النفوذ الغربي في إرسالياته ومعاهده ، يحتقرون كل قيم العروبة والإسلام ويعارضون مقوماتها ويقفون موقف الاستهانة والغض من قدرها . وقد تشكل من خلال هذه المضامين المنحرفة ما يسمى بالشعوبية الحديثة . وهي مضامين تحمل معارضة صريحة للقيم الأساسية للفكر الإسلامي العربي ومفاهيمه في اللغة والقرآن والرسول والإسلام والتاريخ والتراث . وتقوم في أغلبها على انتقاص هذه المقدرات والغض من شأنها وإثارة الشبهات حولها . وهي في مجموعها تقوم على الأسس الآتية :

(١) الإقليمية وإعلاء شأن الدعوات القديمة كالفرعونية والفينيقية والجاهلية العربية والوثنية اليونانية وإحيائها في الأدب والتاريخ والمسرحية والرواية (٢) إنكار الروابط العربية الإسلامية الجامعة (٣) الغض من قدر اللغة العربية وإعلاء العاميات (٤) انتقاص التاريخ العربي الإسلامي (٥) محاولة وضع مصطلح القومية الوافد في مكان مفهوم العروبة الأصيل (٦) إنكار أثر الحضارة الإسلامية العربية في الحضارة البشرية (٧) تفريغ مفهوم العروبة من القيم الإسلامية والتاريخ والتراث . ويغلب على هذا الاتجاه طابع « العصرية » وغلاف « العلمانية » وإطار براق من النهج العلمي الخداع الذي يخفي وراءه أكبر مخاطر التعصب والحقد والتشكيك والانتقاص .

وتستهدف الشعوبية الحديثة إذابة العرب والمسلمين في مفهوم زائف وخطير هو مفهوم عالمية الثقافة أو منهج الفكر الحر وكلاهما من صياغة الدعوات الهدامة والتلمودية الصهيونية .

الفصل الرابع

إحياء الهلينية

(١) كان من أخطر المحاولات التى جرت فى ظل النفوذ الاستعمارى : إحياء الهلينية ، ومحاولة إغراق الفكر الاسلامى والثقافة العربية فى موج متلاطم من ترجمات اليونان والإغريق . وقد بدأت هذه الدعوة بترجمة مؤلفات أرسطو ، ثم بالتوسع فى ترجمة الأسطورة . واتسع نطاق هذا الاتجاه حين أدخل إلى الدراسات الجامعية : مادة اللغتين اليونانية واللاتينية القديمتين. ومن ثم نشأ تيار ضخم أعاد بعث هذا التراث وفرضه على الأدب العربى والفكر الاسلامى . ومن ثم أصبح له تأثيره فى مقومات الأدب وخصائص الفكر ، وهو أثر جاء أشد عنفاً من أثر الترجمة التى تمت فى العصر العباسى للفلسفة اليونانية . وقد جرت الدعوة إلى هذا المخطط تحت عنوان ضخم ووائف فى نفس الوقت هو القول بأن الثقافة اليونانية هى مصدر الثقافة الإنسانية .

وقد كشفت الأبحاث الجادة عن زيف الدعوى القائلة بأن مصادر كثيرة فى البلاغة أو النقد أو المنطق قد استمدها الأدب العربى من اليونان . فقد كان العرب قد أشكلوا بيانهم وبلاغتهم ونحوهم قبل أن يتصلوا بالإغريق. وكان لهم من القرآن منطلقاً أساسياً لبناء أدبهم وفكرهم ، وكانت اللغة العربية بماضيها الحافل واستقلالها الواضح قد خطت خطوات واسعة قبل الاسلام، وقبل نزول القرآن على نحو يكشف عن زيف دعوى التأثر العربى باليونان ، وهى دعوى أذاعها بعض الشعوبيين من أتباع الاستشراق والتبشير بهدف القول بأن تبعية العرب فى القديم لليونان لا تمنع تبعيتهم فى العصر الحديث لخلفاء اليونان من الأوربيين .

(٢) ومما كذبته الوقائع والأسانيد القول بأن عقلية مصر عقلية يونانية أو أن الفكر اليونانى قد أثر فى الأمم التى عاشت على شاطىء البحر الأبيض قبل الاسلام . ومهما يكن هذا التأثير فإن الاسلام قد جب كل ما قبله ، وأزال من العقول والنفوس كل آثار الأمم والأديان والمذاهب ، وأقام منهجاً جديداً مستمداً من القرآن ومرتبطاً بالدين الحق فى كل ما أنزل الله على نبى سابق ، وهو فى نفس الوقت متصل أقوى الاتصال بالنفس البشرية والفطرة الإنسانية .

ولقد أكد كثير من الباحثين أن ظهور الاسلام كان بمثابة فاصل فكرى وحاجز عقلى بين عنصر وعنصر ، وأن ركام الفكر البشرى الذى كان يتموج قبل الاسلام قد أصابه وهن كبير عند ماوقع تحت أضواء الفكر الربانى الموحى به ، والإنسانى الطابع ، والمحرر للبشرية من العبودية والوثنية والإلحاد

والإباحة ، ولا عبرة لما يتردد من أن الفلسفة الاسلامية لم تكن إلا فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية فقد اتخذ المسلمون منطلقهم العلمى ومنهجهم فى المعرفة من القرآن وبه شكلوا منهجاً خالصاً يختلف كل الاختلاف مع الفلسفات القديمة ويتعارض معها من ناحيتين : من ناحية نقطة البدء ، وهى التوحيد فى مواجهة الوثنية والتعدد . ومن ناحيـة نقطة التطبيق وهى المجتمع القائم على المساواة فى مواجهة نظام العبودية الخطير الذى كان قائماً فى مجتمعات الحضارات الثلاث الكبرى فى العالم (الفرعونية والفارسية والرومانية) .

ولقد كان لعلماء المسلمين موقفهم من آراء أرسطو ، ومن المنطق بصفة عامة .

(٣) وإذا كانت الفلسفة اليونانية التى ترجمت فى العصر العباسى قد جاءت باختيار المسلمين فإن الفلسفة اليونانية التى ترجمت فى العصر الحديث قد جاءت وإرادة المسلمين مسلوبة وقد فرضت عليهم فرضاً ، فلم يكن لهم دور فى اختيارها . ومن هنا فإن ماترجم من عناصر الأسطورة والمسرحية والمأساة ومفهومها ، ومحاولة إدخال ذلك فى الفكر العربى الاسلامى إنما جاء معارضاً الذاتية العربية والمزاج العربى الاسلامى الذى تشكل فى ضوء القرآن خلال أربعة عشر عاماً على نحو مختلف عن مفاهيم اليونان الوثنية القائمة على المادية والإباحية .

وإذا كانت المدرسة الهلينية الحديثة قد استطاعت أن تحقق انتصاراً خاطفاً ، فإن مدرسة الأصالة التى انبثقت من حركة اليقظة العربية الاسلامية قد استطاعت أن تكشف هذا الزيف وأن ترد الأمور إلى حقائقها ليس بالنسبة للترجمات المستحدثة فحسب ، بل بالنسبة لتقويم مترجمات الفلسفة اليونانية إلى الفكر العربى الاسلامى كلها ، فقد تكشفت حقائق كثيرة فى هذا المجال أهمها :

(أولا) إن الفلسفة التى ترجمت للمسلمين فى العصر العباسى لم تكن ثقافة إغريق صحيحة بل كانت صورة من عقائد النساطرة واليعاقبة الذين ترجموها والذين عمدوا إلى التبشير بمعتقداتهم النصرانية فى عالم الاسلام متخذين من ترجمة الفلسفة اليونانية سبيلا إلى ذلك . هذا فضلا عن أن عدداً من الكتب ترجم منسوباً إلى مؤلفين غير الذين ألفوه . ومن أخطر ذلك ما نسب إلى أفلاطون وهو من تأليف أرسطو مثلا . وقد اعتمد الفلاسفة الذين حملوا هذا اللواء أمثال الفارابى وغيره على هذه الزيوف ، فكان لها أسوأ الأثر فى أبحاثهم .

(ثانياً) تكشف بطلان الدعوى التى ادعاها بعض الشعوبيين من القول بتأثر العرب بالأدب اليونانى . وقد أفاض الباحثون فى تزييف الرأى القائل بالتأثر ومن هذا ما أثبته فخرى أبو السعود : السر فى ذلك راجع إلى سليقة العرب المطبوعة على البيان ، المفطورة على فصاحة اللسان . فإن العرب لم يكن لديهم سوى اللسان أداة التعبير ، ومن ثم تأصلت فيهم ملكة البلاغة وارتفعت فيهم مرتبة البلغاء ، وتوطدت لغتهم ونضج أدبهم وهم على بداوتهم وقلة حظهم فى الحضارة ولذلك لم يحاكوا شيئاً من من الفنون التى كانت حولهم فى اليونان والرومان والفرس والمصريين .

(ثالثاً) أمكن التنقيب فى النصوص القديمة والكشف عن زيف الادعاء بأن قواعد البلاغة العربية إنما أسست على ما وضع أرسطو ونقله العرب .

فقد كشف ابن الأثير فى « المثل السائر » خطأ هذا الاتهام — وكتاب المثل السائر من أشهر كتب البلاغة — وذلك فى قوله : « فإن قلت إن هؤلاء وقفوا على ماذكره علماء اليونان وتعلموا منه . قلت لك فى الجواب إن هذا شىء لم يكن » إلى أن قال : « وهذا باطل بى أنا . فإنى لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ، ومع هذا فانظر إلى كلامى » إلى أن قال » : ولقد فاوضنى بعض المتفلسفين فى هذا . وانساق الكلام إلى شىء ذكره لأبى على بن سينا فى الخطابة والشعر . وذكر ضرباً من ضروب الشعر اليونانى يسمى اللاغوذيا . وقام فأحضر كتاب الشفا لأبى على . فوقفنى على ما أذكره . فلما وقفت عليه استجهلته ، فإنه طول فيه وعرض كأنه يخاطب بعض اليونان ، وكل الذى ذكره لغو لا يستفيد منه صاحب الكلام العربى شيئاً » .

(رابعاً) انكشفت المحاولات الهدامة التى تهدف إلى ربط الفكر العربى الاسلامى الحديث بالهلينية كهدف من أهداف التغريب لإحياء الوثنية فى محيط الاسلام ، وربط هذا الاتجاه بتقبل سيطرة الفكر الاوربى الحديث على العرب والمسلمين وأن كل ذلك إنما يهدف إلى هدم قيم الأخلاق وإحياء الإباحيه.

يقول الدكتور زكى مبارك : « عاش اليونان فى جاهليتهم بعد ظهور الاسلام بأجيال طواله . وظلوا يتوارثون أوهام أسلافهم من عصر إلى عصر ، إلى أن جاء المتطرفون من شعراء الفرنسيس والانجليز فعكفوا على هذه الوثنية يعيدونها من جديد ، لأنها قامت على أساس براق هو التقديس لطموح الأهواء وطغيان الاحاسيس .

وإذا كان الرجل يعجب من سكوت العرب عن ترجمة ما كان عند اليونان من أسفار وأقاصيص ، فإن المسلمين الذين نهاهم دينهم عن إحياء الوثنية العربيه قد انتهوا بفضل الدين عن إحياء الوثنية اليونانيه .

(خامساً) عارض الباحثون هذه المغالاة فى القول بأن أرسطو هو معلم العرب الأول وأن اليونان هم أساتذة العالم ومثقفو الشعوب ودحضوا محاولات إبراز مكانة الخطابة فى اليونان ، وإهمالها عند العرب ومحاولة فرض مفكرى اليونان على أنهم قادة الفكر البشرى .

وقال الباحثون : إن هذه محاولة لإبعاد النفوس عن مجد اللغة العربية وسمو أدبها بحرمان الناشئين من معرفة الوسائل المؤدية إلى هذا السمو وهذا المجد .

(سادساً) وقف الفكر الاسلامى والثقافة العربية موقفاً معارضاً لكل القيم والمفاهيم التى حملتها الهلينية إلى العرب والمسلمين وحال إيمانهم العميق بالتوحيد دون الخضوع لكل ما تحمله الهلينية من وثنية وإباحية ومعارضة الفطرة.

وقد أشار أرنست رينان إلى هذا المعنى حين قال : إن التوحيد هو أهم خصائص العرب ، وهو الذى يلخص ويفسر جميع صفاتهم ، وقد كان دين إبراهيم خالياً من التعقيد . وأشار إلى حركة الوهابيين فى الجزيرة العربيه وقال : إنها تجديد لفكرة التوحيد باتجاهها إلى تخصيص العقيدة الاسلاميه من كل العناصر الغريبه التى دخلت إليها وأبعدتها عن فطرتها الأولى .

وإن هذا المفهوم من التوحيد هو الذى حال بينهم وبين الميثولوجيا التى عرفها اليونان .

(سابعاً) كشفت حركة اليقظة عن اختلاف مفهوم الفكر الاسلامى والفكر الهلينى حول الفقه والرواية والمسرح ، وأبانت كيف لم يكن العرب والمسلمون فى حاجة إلى هذا الفن لنصاعة فكرهم ووضوح دعوتهم وبساطة كلمة التوحيد وبعدها عن التعقيد الذى يحتاج إلى تفسير من خلال أساطير ومسرحيات ، وكذلك استبعاد المسلمين لفكرة عبادة البطل ومعارضتهم لفكرة الخطيئة الأولى مصدر المأساة . وكذلك إنكارهم لمفهوم الصراع بين الله والناس .

وقد علم القرآن المسلمين بالقصص الحق : كيف تكون المباشرة الصريحة والأسلوب الواضح الصريح بعيداً عن الإيحاء والرمز والظلال والغموض . هذا فضلا عما ألهم القرآن المسلمين من عفة المرأة وكرامتها فضلا عن طابع الرحمة والسماحة والكرم والأريحية وهو ما يتعارض كلياً مع القصص اليونانية الحافلة بالوحشية والظلم والفساد على النحو الذى عرف فى قصة الكترا ، وأوديب ملكا . ويرجع ذلك إلى طغيان الآلهة الإغريقية وميلها إلى الشر والانتقام .

(ثامناً) قاوم الفكر الاسلامى فى الحنيفية نظرة الإلحاد والثنائية والوثنية والإباحيه . وهى المظاهر التى ورثها الفكر الغربى والحضارة الأوربية التى يحاول دعاة التغريب فرضها من جديد على الفكر والمجتمع الاسلامى بإعادة ابتعاث المسرحيات اليونانية والأدب الإغريقى .

(تاسعاً) رفض الفكر الاسلامى مفهوم البطولة اليونانية القائم على الاجسام والتشكل المادى ، وأقر مفهومه الأصيل القائم على تقدير العمل وإحياء الدور الذى قام به البطل فى سبيل أمته ، كما رفض مفهوم التراجيديا اليونانية القائم على صراع الآلهة مع الإنسان ، أو عبادة الأبطال ، أو غير ذلك مما يتعارض مع أصول الفطرة الانسانية المتحررة من العبودية لغير الله تعالى .

الفصل الخامس

الدعوة إلى العامية

(١) من أخطر الدعوات التى طرحت فى نطاق مخططات الاستعمار والتغريب : محاولة فرض اللهجات العامية فى البلاد العربية بديلا للغة العربية الفصحى ، ولما كانت هذه اللهجات لا تحمل معها تراثاً ، ولا أدباً فقد جرت المحاولات لتجميع أزجال وأمثال ونكات من هنا وهناك فى محاولة لخلق تراث يمكن الاعتماد عليه فى خداع الأمم ، وتركز هذه الدعوى الباطلة على القول بأن العامية ليست لهجة من اللغة العربية ، ولكنها لغة مستقلة .

ولقد كان عمل دعاة العامية من المستشرقين الذين حملوا لواء الدعوة إلى ما يسمونه اللغة المحكية (سبيتا - ويلمور - ويلكوكس) جمع كلمات وأمثال - مما يدور فى الأحياء الوطنية ، وبين العامة - من أجل الادعاء بأنه تراث للعامية . بل لقد ذهب ويلكوكس إلى أبعد من هذا . حين ادعى بأن العامية لغة مستقلة عن العربية ، ولا صلة لها بها . وعمدت الصحف العاملة فى خدمة نفوذ الاستعمار والتغريب على تشجيع الإنتاج العامى كالأزجال والحكايات والخرافات من أجل دعم هذه الدعوى . وقد بدأت الحملة على اللغة العربية منذ أواخر القرن الماضى ، وامتدت وتبلورت فى دعوى لم يثبت لها دليل . وهى القول بأن العامية هى مصدر قوة الاختراع ، وأن تأخرالمصريين فى هذا المجال يرجع إلى اللغة الفصحى ولو أنهم اتخذوا لهم لغة إقليمية كما فعلت بريطانيا مثلا لاستطاعوا أن يتفوقوا وأن يخترعوا . وقد كانت هذه دعوى باطلة ومضللة وساذجة أيضاً ، ولكن هكذا جرت المحاولات لمهاجمة اللغة العربية ، ثم جاء ويلمور فدعا المصريين إلى العامية مكتوبة بالحروف اللاتينية .

وفى الغرب كان ماسنيون يدعو إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ، وتابعه كولان وغيره ، ثم لبثت هذه الدعوة ثانية بين خريجى معاهد الإرساليات الذين حملوا لواء هذه الدعوة فى بيروت ، وفى مصر جرت محاولات كثيرة أبرزها ما دعا إليه لطفى السيد وقاسم أمين وسلامه موسى وعبد العزيز فهمى . وكانت المحاولة التى خطط لها التغريب هى وضع اللغة العربية فى مقابلة تاريخية مع اللغة اللاتينية التى ماتت ودخلت المتحف ونشأت منها لغات متعددة .

وكان القول دائماً بأن اللغة يجب أن تتطور لتلبى حاجات الناس فى كل عصر ، وأن هذا يتطلب منها أن تجارى مستويات الناس . ولذلك فقد جرت المحاولات فى أوروبا فى العصر الحديث إلى إسقاط لغة الكتابة كل قرنين ، واعتماد لهجة الكلام لغة مستحدثة ، وكان هذا هو ما يراد باللغة العربية ، ولا ريب أن هدف هذا هو تحويل ذلك التراث الضخم ، وفى مقدمته القرآن والسنة ، والشريعة الإسلامية ، إلى شىء تاريخى لا يمكن دراسته إلا للمتخصصين ، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة

قواميس ومترجمات ، بعد أن يصبح معزولا تماماً عن اللغة المستحدثة ، ولقد تصدى كثيرون لدحض فكرة المقابلة بين اللغة العربية واللغة اللاتينية ، ذلك أن اللاتينية حين ماتت كلغة الشعب ، إنما كان ذلك نتيجة موت الأمة . أما الأمه العربيه الإسلاميه فإنها لم تمت بعد ، هذا فضلا عن أن اللغة اللاتينيه لم تكن اللغة الأصلية لكل أوربا ، وإنما كانت هناك الساليه والسكرته والجرمانيه الهندية ، فضلا عن أن اللاتينيه كانت لغة أرستقراطيه لا يمارسها ولا يحسنها إلا النخبة الممتازة ، ولم تتغلغل فى طبقات العوام .

(٢) لم تجد الدعوة إلى العامية تقبلا صريحاً ، حتى من خصوم العرب والإسلام الذين عجزوا عن الدفاع عن العامية ، وجرى التساؤل عن أى اللهجات العاميه يتخذ العرب ، أهى لهجة الشام ، أو لهجة مصر أو لهجة العراق ؟ وإذا كان المقصود هو أن يتخذ كل قطر لهجته لغة ، فأى اللهجات فى مصر مثلا : لهجة شمال الدلتا أو الصعيد أو القاهرة ؟ وكشفوا عن أن كل لغة فى العالم لها لهجة عاميه ولها لغة كتابة ، وأن الفرق بين لغة الكتابه ولهجة الكلام فى العربيه ضيقة المجال . وليست أكثر مما بين اللغة الإنجليزيه وعاميتها . وقد أحصى الباحثون حجم الخسارة التى تفقدها الأمة العربيه من إغفال الفصحى ، وخاصة ما يتعلق بتراث أربعة عشر قرناً من الفكر والأدب والعلم والشريعه ، وكشفوا عن أن السر فى صمود اللغة العربيه فى وجه غزو العاميه ، إنما هو القرآن الذى ارتبطت به العربيه منذ نزوله بها . وقد أحدث معجزة لا تعرفها لغات الأرض قاطبة . وهى أن العربى يستطيع أن يقرأ تراث القرون الماضيه كله دون حاجة إلى قاموس ، وأن واحداً من هؤلاء القدامى ، لو أنه بعث حياً اليوم لاستطاع أن يتحدث مع الناس .

وقد أشار الباحثون إلى ما تتميز به اللغة العربية من ثبات عجيب لا مثيل له ، إلى درجة أن أحد المستشرقين الألمان دعا الغربيين إلى استخدام اللغة العربية لتدوين الآثار الفكرية التى تبنى عليها الحضارة وتستحق الخلود ، ذلك أن المواطنين فى أى لغة من اللغات المعاصرة ، لا يتجاوز فهمهم أكثر من إنتاج مائتى عام من التراث ، أما ما عدا ذلك فإنهم لا يستطيعون دراسته إلا بواسطة قواميس وإن أقل مقارنة بين شكسبير مثلا فى الأدب الأوربى ، وبين المتنبى فى الأدب العربى تكشف عن هذا الفارق البعيد من حيث أن العربى يقرأ المتنبى اليوم ويفهمه وبينهما ألف عام بينما الانجليزى لا يقرأ شكسبير إلا من خلال دراسات تنقل أفكاره إلى لغة القرنين الأخيرين .

(٣) كشف الباحثون عن فساد اللهجات العامية وعجزها عن أن تحمل « اللغة » ذلك أن العامية لم تبلغ من النضج والضبط والإحكام مستوى اللغة العربية الفصيحة ، فهى بدائية خام بعيدة عن الصقل لم تمرن على النهوض بأعباء الحياة العلمية والفكرية ، بينما كانت الفصحى حاملة رسالة العلم والأدب والفلسفة قروناً طويلة ، مما أكسبها صقلا ومرونة وتجاوباً مع الفكر والشعور فى مظهرهما الرفيع . فالعامية أعجز من أن تقفز إلى المستوى الذى تحتله الفصحى منذ دهر طويل . زد على ذلك أن العامية لا مناص لها من الحصار فى بيئة ضيقة محلية ، فلن يتاح لها ما أتيح للعربيه من الرقى والنضوج فى

شيوعها، إذ أن شيوع العقيدة الإسلامية كان سبباً فى شيوع العربيه التى تحمل تلك العقيدة، فاشترك فى الإنتاج بلغتها أمم مختلفة، وهذا الشيوع القوى أدى إلى زيادة فى طواعية العربية ومرونتها للتعبير عن كل مطالب الفكر الإنسانى. هذا فضلا عن أن العامية لا يمكن أن تحقق التفاهم، الذى هو الغرض من اللغة، بل إنها تحول دون التفاهم مع أبناء الأقطار العربية، أو بين أبناء القطر الواحد. وليس فى اتخاذ العامية توفير الوقت والجهد كما يتوهمون، إذ يضطر الناس فى المستقبل إلى دراسة أطوار العامية لكى يفهموا النصوص المكتوبة فى عصر سابق كما سيضطرون إلى دراسة اللغات العامية المجاورة لهم، كما سيحل مكان دراسة قواعد اللغة الفصيحة الواحدة دراسة قواعد العاميات المتعددة. ولا تستطيع العامية أن تباهى بمثل تاريخ الفصحى وفضلها على الحضارة، ولا شك أن العامية ستؤدى إلى إضعاف أواصر الوحدة القوميه بين أجزاء الوطن العربى، كما ستؤدى إلى إضعاف أواصر الوحدة الفكرية بين أتباع العقيدة الإسلاميه وهدم العقيدة والقوميه هدماً يهدف إليه المبشرون والمستشرقون.

(٤) أما القرآن الكريم وأثره فى بناء اللغة العربيه، وأثره فى امتدادها على القرون والأزمان: فإنه قد وجد من الباحثين تقديراً واضحاً وفهماً عميقاً. فهو الكتاب الوحيد الذى احتفظ بلغته الأصيلة وحفظها على قيد الحياة وسيحفظها على مر الدهور، وستموت اللغات الحية المنتشرة اليوم فى العالم، كما ماتت قبلها لغات حية كثيرة فى سالف العصور، إلا العربية فستبقى بمنجاة من هذا الموت وستبقى حية فى كل زمان مخالفة لنواميس الطبيعه التى تسرى على سائر لغات البشر، ولا غرو فإنها متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية.

وقد أكد غير واحد من الباحثين بأنه لا لغة عربيه بغير القرآن، وأنه النموذج الخالد الذى سيبقى قمة البيان، وأن اللغة العربية لا ريب حافظت على وجودها بفضل القرآن.

(٥) ولا ريب أن اللغة العربية قد صاغت بالقرآن فكراً متميزاً، له معالمه الواضحة وطبيعته الخاصة. ومن هنا كانت اللغة العربية ضرورية لفهم هذا الفكر، وكانت هناك مطابقة واحدة بين أهل اللغة العربيه وبين القرآن والفكر الإسلامى، وهذا هو السر فى القول بالعجز عن ترجمة القرآن من حيث ارتباط الفكر باللغه ارتباطاً جذرياً، ومن حيث عجز كثير من المستشرقين عن فهم القرآن وفهم الاسلام لأنهم يعجزون عن فهم أسرار اللغه وبلاغتها وتركيبها.

ولما كان من العسير فصل كلمات اللغه عن ملابساتها الفكرية التى تشير إليها، فقد قام للغة جدار ضخم فى بناء الفكر لا سبيل إلى إنكاره أو تجاوزه. وفى هذا المعنى يقول العلامه صادق عنبر: لقد علمنا أن لكل أمة شيئاً من لغتها على ما فطرت عليه من دين ودون لها من تاريخ، وعرف عنها من نسب ومدنيه وفنون. ففقدان أمة لهذه الثروة المعنوية اعتراف منها بتفاهتها.

(٦) وإذا كان لنا أن نقيّم أهمية اللغه العربيه فإن ذلك يحتاج إلى موازين كثيرة: ومن ذلك أن عدد كلمات اللغه الفرنسيه ٢٥ ألفاً، وكلمات اللغه الإنجليزيه مائة ألف، أما العربيه فعدد موادها ٤٠٠ ألف مادة. ومعجم لسان العرب يحتوى على ٨٠ ألف مادة لا كلمه.

ويقول الخليل بن أحمد فى كتاب العين : إن عدد أبنية كلام العرب (١٢ مليون و ٣٠٥ ألف و ٤١٢ كلمة) ويقول الحسن الزبيدى : إن ما يستعمل من ألفاظها ٥٦٢٠ لفظاً . وعندما نزل بها القرآن أزاحت السريانية والكلدانية والنبطية والآرامية واليونانية والقبطية قبل أن ينقضى قرن واحد .

فلما بلغت القرن الثالث الهجرى تحولت الصلوات فى الكنائس إليها ، ثم كتبت بها اللغات التركية، والفارسية والأوردية والأفغانية والكردية والمغولية والسودانية والأنجية والساحلية . كما كتبت بها لغة أهل الملايو . وقد حدث هذا كله منذ ألف عام تقريباً . ثم دخلت اللغات الأوربية كالفرنسية والألمانية والانجليزية . وفى اللغة الانجليزية وحدها أكثر من ألف كلمة عربية : ومن الناحية العلمية : فهى تفوق أضخم اللغات ثروة وأصواتاً ومقاطع . إذ فيها ٢٨ حرفاً غير مكررة . بينما اللغة الانجليزية فيها ٢٦ حرفاً ومنها مكرر . وباللغة العربية ثراء فى الأسماء المضاعفة . فهناك ١٧٠ إسماً للماء و ٧٠ إسماً للمطر ومن خصائص اللغة العربية : أن جميع مشتقاتها تقبل التعريف ، وهذا يجعلها طوع أهلها أكثر من غيرها وأوفى بحاجة المتكلمين . وللفعل العربى صيغ متعددة تبلغ الإثنى عشر صيغه ، كل منها يمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلى وتمتاز بضروب فى النحو فى مجال الاشتقاق والمجاز والاستعارة والكناية . ومن أعاجيب العربيه التى لا تجد لها ضريباً أن كلمة (الوفاء) فى اللغة العربيه قد شغلت أربع صفحات من الجزء العشرين من لسان العرب من صفحة ٢٧٨ إلى صفحة ٢٨١ . وفى بعض اللغات لا توجد كلمة واحدة تدل على هذا المعنى .

(٧) هناك من دعاة التغريب من يقول : « ادعوا إلى قتل الفصاحه » . ولا ريب أن الدعوى هناك موجهة ضد القرآن نفسه ، ذلك أن الأمة العربيه إذا نزلت فى أساليبها إلى المستوى العامى فإنها ستفقد قدرتها على فهم القرآن وعلى الاتصال بمضامينه ، ولذلك فإن العربيه لا تزال قائمة على الفصاحه وأن أساليبها تبقى قائمة على مستوى القرآن دون أن تنزل عنه . وفى هذا يقول العلامه مصطفى صادق الرافعى : العربيه لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم . وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته إلا من لا يحفل به من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق . ثم إن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ولا يدنو الفهم منها إلا بالمران والمزاولة ، ودرس الأساليب الفصحى والاحتذاء لها ، وأحكام اللغة والبصر فى دقائقها وفنون بلاغتها ، والحرص على سلامة الذوق بها ، وكل هذا يجعل الترخيص فى هذه اللغة وأساليبها ضرباً من الفساد . والحال الخاصة فى فصاحة هذه اللغه : ليست فى ألفاظها . ومن هنا فإن دعوى قتل الفصاحة هى حرب يراد بها إبعاد مستوى المسلمين والعرب عن مستوى بلاغة القرآن ، ومن ثم يعجزون عن فهمه وينحرفون إلى مستويات العاميات .

ومن الحق أن اللغة العربيه ليست لغة العرب وحدهم كأمة ، وهم لذلك ليسوا مخيرين فى أن يتصرفوا بها ، ولكنها لغة فكر وثقافة وحضارة ودين يتزوه بها سبعمائة مليون من البشر . فهى لغة فكر مشترك بين العرب والمسلمين ، وبين المسلمين والمسيحيين، وبين مختلف العناصر والشعوب والأديان والمذاهب وهى لغة فكر الشرق بكل ثقافاته ، وهذه خاصية لم تعرفها لغة غير اللغة العربية ، ومن أجل ذلك فقد استعصت على القوانين والنظم التى حاول علم مقارنة اللغات أن يضعها أو يفرضها على ثقافات الأمم ولغاتها.

الاسلام فى مواجهة الفكر الوافد

(١) إن أكبر الأخطاء التى تواجه الاسلام من خصومه هى محاولاتهم تطبيق مفاهيم الأديان الأخرى عليه بينما يختلف الاسلام عن هذه العقائد التى قد أصابها التحريف والقصور عن شمول الاسلام وتكامله . إن معظم العقائد والنحل تتقارب وتتشابه وتلتقى فى كثير من مفاهيمها . لذلك فقد يجد الباحثون من الغربيين فى مفاهيم الاسلام شيئاً مخالفاً يعسر عليهم فهمه ، وربما بدا غريباً كل الغرابة ذلك أن الاسلام لم يكن مجرد دين ، بل هو طريقة فى الحياة ومنهج واضح عنى بكل ناحية من حياة الفرد منظما سلوكه الاجتماعى والخلقى والقانونى والدينى . وهو إلى ذلك منهج أخلاقى يربط الحياة الدنيا بالآخرة ، ويربط العقل بالقلب ، ويربط العلم بالعمل .

والتوحيد هو الأساس الأول للاسلام وهو أيضاً المحرك الأول للفكر الاسلامى وبوضوح فهمه منهجاً متكاملا جامعاً يلغى صور الخلاف والصراع التى تقوم بين العلم والدين ، والروحية والمادية ، والفردية والاجتماعية . وهو يعلى من شأن الانسان ويجعله مستخلفاً فى الأرض تحت إرادة الله .

وليس فى الاسلام خطيئة أصلية ولكن فيه مسئولية فردية وجزاء أخروى . فهو لا يقر مسئولية أحد من البشر عن شيء سوى ما فعله ، وهو يؤكد قيمة الانسان بصرف النظر عن لونه وديانته .

(٢) وقد رفض الاسلام مبدأ التقليد ومبدأ التبعية . فالتقليد يمنع الأصالة ، والتبعية لا تتيح معرفة حقيقية . والتقليد ينطبق على الوافد وعلى القديم جميعاً . كما دعا الاسلام إلى التفرقة بين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية ، ونادى بالاهتمام بالأولى والتركيز عليها . وعمل الاسلام على تحرير أتباعه من التأثير الأجنبى بكل أنواعه . ودعا المسلمين إلى اليقظة إزاء الحروب النفسية التى تهدف إلى تشويه المعالم الأصيلة لعقيدتهم وفكرهم ومزاجهم النفسى . ولقد كان أعداء الاسلام يعلمون أن الطريق الوحيد إلى ضرب الاسلام هو إثارة الشبهات وطرح الدعوات الهدامة فى طريقه وإدخال تفسيرات غريبة عليه . ولا ريب أن الطريق إلى حفظ وجودنا وكياننا ، وحماية العقائد والأصول التى تقوم على التوحيد والأخلاق من الشبه والشكوك التى قدمتها الفلسفة المادية هو طريق واحد إنه الاعتصام بالقرآن القادر على العطاء فى حل جميع المتناقضات .

إن الفكر الغربى اليوم لا يقدم للمسلمين عوامل بناءة أو إيجابية ، فهو حريص على أن يبقيهم داخل دائرة ضعفهم وتخلفهم إنما يقدم لهم صراع المذاهب الفكرية ليفتنهم عن قيمهم ويمنع عنهم العلوم التكنولوجية التى شاركوا فى صناعتها وهم فى حاجة إليها . إنهم يعطون ما لا يحتاجون إليه ويمنعون من حاجتهم الوحيدة فى حضارة الغرب . إن وحدة الثقافة العالمية عبارة خلابة ولكنها تخفى فى أعماقها التعصب والاحتقار للثقافات الانسانيه ، ومعناها الحقيقى هو سيادة الثقافة الغربية وتسيدها على حضارات الأمم ولا سيما الفكر الاسلامى والثقافه العربيه . لقد ظل كفاح المسلمين مستمراً على مدى

الأجيال فى سبيل تحرير الفكر الاسلامى من هيمنة الفلسفات الوافدة والنظريات المادية والوثنيه . ولم يستسلم الفكر الاسلامى طوال تاريخه للنظريات الوافدة وقاومها طويلا .

إن أخطر معطيات الفكر الغربى هى الانشطارية — هذه الانشطارية هى الفصل بين القيم عامة والأخلاق من ناحية ، وبين السياسة والتربيه والاجتماع من ناحية أخرى. وأخطر ما فى المناهج الغربيه الوافدة أنهـا تتوزع دون أن ترتبط فى تكامل مع الانسان نفسه وحاجاته ، فترى علماء يدرسون الأخلاق فى عالم المثل وعلماء يدرسون الانسان مجرداً عن الأخلاق . ويرى علماء أن هذا الفصل واجب ومفيد فى العلوم الطبيعيه ولكنه خطر ومستحيل فى علوم النفس والاجتماع ذلك أنه ما دام الناس يعيشون فى إطار مجتمع . وهذا المجتمع داخل فى نفس كل فرد كجزء أساسى منه فلا يمكن أن تنشأ قيم خلقية واجتماعية منفصلة عن الانسان .

(٣) لا ريب أن على المفكرين المسلمين والعرب أن يفكروا بلغتهم . ومن داخل إطار فكرهم لينطلقوا فى الطريق الوحيد الذى تضيئه أمامهم أضواء التوحيد والعدل ، وعلى المسلمين أن يعرفوا كيف حطم الاسلام قيد الإغريقية الثقيل . وحررهم من منهجها العبودى الوثنى ، وأن عليهم اليوم أن يحطموا قيد المادية فى العصر الحديث وعلى المسلمين أن يفرقوا بين الأصيل والبديل وأن يذكروا دائماً أن الدعوات الهدامة تعمل على تقديم البديل الزائف البراق فى مواجهة الأصيل الذى لا يجد طريقاً فى زحمة الباطل . إن تمجيد العقل واعتباره سبيلا واحداً فى البحث ليس منهجاً إسلامياً أصيلا . وعلى المسلمين أن يذكروا أن هناك ظاهرة انحلال واضحة فى الفكر الحديث كله فى الأدب والفلسفة والاجتماع لقد حرر الاسلام المسلمين من ركام الفكر القديم ووثنياته واضطرابه وأخطائه . فإذا كان فى الفكر القديم أى ضياء من نور ، فإنه إنما جاء من رسالات السماء . وقد أعاد الاسلام تشكيله من جديد على صورة مضيئة ربانية وما سوى ذلك فلا حاجة لنا به . ولا بد أن تكون هناك تفرقة واضحة بين مفهوم التخصص وبين مفهوم فصل القيم وتجزئتها .

إن التخصص هو إعطائه علم معين أو فن معين أكبر قدر من الاستيعاب والاستقصاء ، ولكن التخصص فى مفهوم الاسلام لا يتم إلا فى داخل نطاق التوسع فى الدرجة الأولى من الفكر كله والاهتداء بقوانينه وعلاماته . أما فصل الأخلاق عن السياسة ، أو عن التربية ، أو عزل الدين عن المجتمع ، أو الأدب عن الفكر ، أو العروبة عن الإسلام ، أو اللغة عن القرآن ، فذلك ليس تخصصاً ولكنه فصل مضيع لمفهوم التكامل الذى هو أبرز قواعد الفكر الاسلامى ، والذى هو بمثابة الجدار السميك الذى يصد الدعوات الهدامة والفكر الوافدة . فالمنهج الاسلامى فى المعرفة يقوم على الثبات ، والتطور على قاعدة الثبات وحركة التطور من داخله شأنه شأن كل شىء فى الكون له قاعدة يتحرك عليها ولا ينفصل عنها ، وفى الاسلام أهداف ثابتة ووسائل متغيرة . فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله .

إن الدعوة إلى التخصص على هذا النحو ليست إلا دعوة إلى تمزيق جهة واحدة ، وتفريق أصل

واحد. إن مسألة تجزئة المفاهيم فى الفكر الغربى لها طابعها وعواملها ومبرراتها. ذلك أن الأصول القديمة للفكر الغربى تقوم على الفصل بين القيم وأهمها بين الدين والمجتمع.

(٤) وبعد فماذا تعنى كلمة «العقائد الموروثة» التى يرددها بعض الكتاب ويلحون عليها؟ إنها كلمة يراد بها الغض من شأن الدين والقيم الاسلامية. ولا ريب أن العقائد الموروثة صنفان: أصيل وزائف، وهى فى إطلاقها دون تحديد نوعها، إنما تريد بالتمويه أن تخدع بعض الناس وأن تصور لهم أن العقائد الموروثة كلها زائفة، والحق أن العقائد الأصيلة غير العقائد الزائفة، وأن هناك عقائد زائفة جديدة هى فى ذاتها نتاج عقائد موروثة. ونحن نعلم أن الاسلام حين جاء بالحق إنما كان حجة على العقائد الموروثة الزائفة. وقد كشف عنها ودحضها فى قوة عن طريق أسلوب الإقناع القائم على العقل والقلب معاً. ونحن نعرف العقائد الأصيلة من العقائد الزائفة بوسائل كثيرة، فلا شك أن كل ما يقدمه لنا الأعداء والخصوم زائف مهما بدا بريقه، وكل ما يتعارض مع فطرتنا ومع روحنا ومع طابعنا ومع قيمنا الأصيلة هو زائف مرفوض. أما الإسلام وحقائقه من التوحيد والنبوة والقرآن والبعث والجزاء فلن تكون أبداً عقائد موروثة على النحو الذى يقصده دعاة التغريب.

(٥) هناك صيحة تقول أن البشرية بلغت رشدها. فهل البشرية بلغت رشدها حقاً؟ ولم تعد فى حاجة إلى وصاية الدين؟ هذه هى الصيحة التى تحملها الدعوات الهدامة فى العصر الحديث من أجل التحرر من القيم والمفاهيم التى ورثتها الانسانية من رسالات الأديان. والتى هدتها فى دياجير الظلمات وأمدتها بالقوة على معارضة الظلم والطغيان والفساد. ونحن نسأل عن القيم الجديدة التى أخذت البشرية عن هداية الدين ونبحث فلا نجد شيئاً. إن كل ما تقدمت به البشرية فى القرنين الأخيرين عما كان من قبل. لا يزيد عن هذه المعطيات المادية التى منحت الانسان بعض الرفاهية فى المسكن والملبس والطعام والشراب. ولكن هل قدمت الحضارة أو قدم العلم أى إضافة حقيقية فى مجال النفس والاجتماع والأخلاق؟ ثم نحن نعرف أن كل هذا التقدم المادى إنما جاء على حساب النفس البشرية، وضد ارتفاعها وتقدمها الأصيل الذى يقوم على الروح والمادة معاً، ومن خلال العقل والقلب جميعاً.

إن الإنسان قد أصبح بالتقدم المادى أكثر حاجة إلى هداية الدين، وأكثر بعداً عن الأصالة والإيمان. وقد كشفت لنا الدعوات الهدامة كالوجودية والهيبية مدى الأخطار التى تهدده وتدفعه إلى الغربة والتمزق. إن الانسان بطبيعة تركيبه (نفساً ومادة) فى حاجة إلى هداية من خارجه من كتاب الوجود الذى يكشف للنفس الانسانية الطريق إلى الحق. ومن كتاب الله الذى يهدى البشرية إلى النور والضياء.

(٦) ثم ماذا تعنى صيحة الصائحين إلى إعادة النظر فى كل المسلمات، وما اصطلح على أنه نهائى ومطلق؟ الحقيقة أن هذه كلمة حق يراد بها باطل. فقد أصبحت الوثنيات الآن هى المسلمات الجديدة أما المسلمات المقصودة من أصحاب الصيحة. فإنها لا تتعدى النظر إلى الدين على أنه نتاج عصر انتهى. ومن حق السائلين أن يقولوا لنا أى دين يقصدون؟ وهل اطلعوا على الإسلام حين عمموا القول بكلمة الدين؟

إن حملات ضخمة وجهت إلى أديان كثيرة ، وبعض ما فى هذه الحملات صحيح ، لأن هذه الأديان قد تجاوزت بالتأويل مجموعة من الحقائق الربانية لكن كل ما وجه إلى الأديان فى الغرب لا يمكن بحال أن يصدق على الإسلام الذى يختلف ويتميز فى معطياته وفى تاريخه وفى موقفه من الإنسان . ومن العلم ومن الحياة هذا الذى كان فى عطائه لقضايا العلم والإنسان والحياة أكثر إيجابية وتقدما ، والحق أنه ليست هناك مسلمات اصطلح الناس على أنها نهائية ومطلقة غير الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوآ أحد . وليس غير الإيمان بالدين الحق المنزل على الأنبياء رسالة بعد رسالة حتى أتمها الاسلام فكان خاتمها. وليس غير الإيمان بالقرآن كتاب الله المنزل وخاتم رسالاته وليس غير الإيمان بالملائكة والنبيين واليوم الآخر والبعث والجزاء ، فهل هذه المسلمات التى أقرتها الأديان نهائية ومطلقة . يمكن أن تكون موضع شك أو شبهة ، أو محاولة لإعادة النظر ؟

إن القائلين بهذه الصيحة إنما يريدون أن يعلنوا عن حقيقتهم . أما فيما سوى ذلك من حقائق فنحن ندعو إلى النظر فى المسلمات الباطلة التى يحاول خصوم الاسلام فرضها والدعوة إليها وتزيينها مثل : العلمانية والنظرية المادية والفرد الوجودية وغيرها — فتلك هى المسلمات الزائفة التى تحتاج إلى إعادة النظر .

آفاق البحث

لكى نعرف مدى الفوارق العميقة بين معطيات الاسلام وبين معطيات النظريات الفلسفية فى مجالات العقائد وعلوم النفس والاجتماع والأخلاق علينا أن نذكر الحقائق التالية :

(١) إن الاسلام هو الذى حرر العقل والنفس والانسانية من الوثنيات من عبادة غير الله ، وحرر الفكر والارادة والعمل ، ورفض استعلاء الوجدانيين والعقلانيين وقرر أن أبرز مفاهيمه هى المطابقة بين العقيدة والعمل والكلمة والسلوك .

(٢) اعترف الاسلام بميول وعواطف الانسان . فقرر ان فى الانسان ميولا وعواطف مختلفة وكلها فيه غريزية طبيعية أودعها فطرته لتكمل فى شخصه ونوعه . ولقد كانت الدعوة إلى الحرمان ، ووقف تيار هذه الميول بالرياضات قبل الاسلام سببا فى تعطيل قوى النفس الانسانيه . وقد أنكر الاسلام طريقين لتحرير الانسان : هما التقشف والاباحة ، ووضع الاسلام طرائق لتطهير النفس كالعبادات والصوم وتهذيب النفس أصل من أصول الحضارة الاسلامية . ذلك أن على الانسان أن يتحرر من ميول النفس ورغائبها وأهوائها وخضوعها لغير الله .

(٣) إن الاسلام لم يعرف روح النسك التى عرفتها بيئات الأديرة والصوامع ، ولم يكن فى الاسلام دعوة إلى الرهبانية ، بل كانت دعوته إلى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) . ولم يستسلم المسلمون . ولم يكن إيمانهم بالقضاء والقدر داعية استسلام ، بل داعية تحفز

وعمل وتضحية بالنفس فى سبيل الحق الذى آمنوا به واعتنقوه . أما المناضلة ضد الغيب بمفهوم كشف أسرار المادة وما يكمن فيها من تفاعل . فإنهم قد ذهبوا إلى أبعد شوط ولكنهم كانوا مؤمنين بالله ، فعفوا عن مثل ألفاظ مناضلة الغيب أو صراع القدر أو قهر الطبيعة . وهذه كلها عبارات لا يقرها الإسلام . والإسلام يؤمن بتذليل الطبيعة لا تحدى الطبيعة ويؤمن بلقاء الأجيال لا صراع الأجيال .

(٤) ولا يقر الاسلام نظرية تغير الأخلاق باختلاف البيئات والعصور ، ولا يقر نظرية التطور المطلق الذى يتحرك فى فراغ ولا يقر تقديس العقل ولا عبادة الباطل .

إن مفهوم الأخلاق : هو خلافنا الأساسى مع الفلسفات المادية ، وأن مفهوم التوحيد : هو تميزنا الأصيل عن الفلسفات الوثنيه .

(٥) فى الاسلام : ليس الإنسان شريراً على وجه الاطلاق، وليست عليه مسئولية خطيئة صادقة وليست الخطيئة متأصلة فى كيانه، هذه وجهة النظر المتشائمة لايقرها الاسلام وليس الانسان رد طبيعة صالحة خيرة على إطلاق القول ، والاسلام يرى أن فى الانسان طبيعة الخير والشر ، وأن إيمانه بالله هو الذى يرده عن الشر ، وليس الانسان عبداً لمواريثه أو لبيئته ، بل إنه قادر بالفهم لمهمته أن يحرر نفسه من كل الأخطاء وكل موروث يمكن تغييره ، ولا تصد المواريث أو البيئة النفس الانسانية عن التحرر والتغيير .

(٦) والأخلاق فى مفهوم الاسلام : قوانين أخلاقية ثابتة يميز بها الحسن والقبيح ، والحلال والحرام ، والخير والشر ، والمسلم يرى العمل حسنا حين يأمر به الله ، والمسلم يؤمن بأن إرادة الله وراء القوانين ، وهى التى تجعل الحسن حسناً ، والقبيح قبيحاً .

(٧) وإن أبرز مفاهيم الاسلام أنه لا انفصال بين الدين والحياة ، وبين الدنيا والآخرة ، وبين الروح والجسم ، وبين الواقع والمثال . فالاسلام يرفض تمزيق الجبهة الفكرية بين الاقتصاد والسياسة والاجتماع والدين ، ويؤكد بقاء كل العناصر فى اتجاه واحد قوامه وحدة النفس الانسانية ، وبذلك يقضى على كثير من الأخطار التى تواجه الفكر المعاصر والنفس الانسانية والتى هى مصدر أزمة الانسان الحديث . إن أزمة القلق التى يعانيها المثقف المسلم اليوم ، إنما تعود إلى أصل واحد ومصدر واحد هو أنه ترك مقوماته الاساسية وقيمه ، فى نفس الوقت الذى أخذ يواجه فيه النظريات والمذاهب العالمية ولو أنه التقى بالفكر الاسلامى وهو صادر من قيمه ومقيم على قاعدته لما وقع مثل هذا التمزق ، أو هذه الأزمة . ولعل أبرز مقومات الفكر الاسلامى الأساسية هى : تلك القدرة الدائمة على مقاومة كل عدوان ، وظهور القوة المدخرة وبروزها على نحو مذهل إبان التحدى ، وذلك حتى فى أشد فترات الضعف والقدرة الدائمة على مقاومة كل ما يضاد مفاهيمنا وقيمنا على مدى التاريخ كله ، والايمان بالذود عن مقوماتنا الأصيلة .

(٨) إن روح الاسلام ومنهجه الجامع بين الأخلاق والشريعة فى ظل عقيدة التوحيد لا يعارض سير الحضارة ، بل هو يدفعها دفعاً إلى الغايات العليا ، ولكنه يتعارض مع التجاوزات الاباحية التى

فرضها الإلحاد والتى ليست من مفهوم الحضارة بمعنى أنها دعوة إلى التقدم . ومن هنا فإن القول بأن الدين عامة ، أو الإسلام يعارض تقدم الحضارة هو قول مردود ، فالحقيقة أنه يعارض تقدم هذا الجانب من الإباحية والإلحاد والنظرية المادية ، وهى ليست الحضارة .

إن الحضارة بمفهوم العلم التكنولوجى والتقدم فى أساليب الحياة تجرى مع الاسلام ولكن الخلاف هو فى محاولة فرض منهج اجتماعى وأخلاقى على المجتمع لا يقوم على أساس الضوابط التى قدمها الدين الحق . وعلى أساس الأخلاق .

إن الخلاف حول نقطة أساسية : هل الأخلاق ثابتة أم متغيرة ؟ والاسلام يقول إنها ثابتة وترتبط بالانسان . وأن الانسان روح ومادة وليس مادة خالصة .

فإذا كان هذا هو مفهوم الحضارة فالاسلام يختلف فيه عن مفهوم الغرب ، ويرى أنه ليس المنهج الذى يدفع البشرية إلى التقدم بمعناه الحقيقى . والاسلام يرى أن كل حضارة لا ترتكز على الخير والعدل حضارة زائفة .

إن حضارة الإسلام تستهدف ترقية النفس وتحريرها من قيود الأهواء والشهوات بحيث تصبح ربانية الهدف إنسانية الطابع تعمل لله وتتجه بالخير إلى الناس جميعاً . وقد اعترف الاسلام بناموس الرق ، واعتبر الانسان مسوقاً لغايات من المدنية لم ينلها إلى اليوم .

(٩) قرر الاسلام أن للوجود الإنسانى سنناً لا تتبدل ولا تتحول ولا تزال عاملة على مقتضى نظامها المقرر لها .

(١٠) لا يقر الاسلام إقصاء الدين عن منطقة الحياة الاجتماعية ، بل يرى أنه ضرورى لها . والاسلام جامع بين العقيدة والشريعة والأخلاق ، فهو ينظم العلاقة بين الله والانسان كما ينظم العلاقة بين الانسان والمجتمع كله .

ومن هنا فقد أقام الاسلام منهجاً متكاملا للخطوط العامة التى يقوم عليها سلوك الانسان فى الحياة إزاء نفسه وإزاء باقى الجماعة وهو منهج مرن واسع سمح يقبل الاضطرار والاحتمال ، ويعفو عن الخطأ وهدفه من ضوابطه وحدوده حماية الانسان نفسه . واحتفاظه بقواه وشخصيته . وهو منهج متكامل جامع بين الروح والمادة والعقل والقلب ، يعترف بغرائز الانسان وحاجاته الطبيعية ويسمح له بممارستها فى حدود المحافظة على كيانه ودون العدوان على حقوق الآخرين . وليس مفهوم الاسلام فى الترابط بين الدين والمجتمع كمفهوم العقائد التى تفصل بينهما .

(١١) من طبيعة الاسلام قدرته على التوفيق فى براعة بين المتناقضات جميعاً دون أن يميل إلى جانب أو يغلب كفة على أخرى ، فهو يدعم الجماعية والفردية ، ويربط الروحية والمادية ، ويستوعب

النفس والعقل الإنسانى . ومن طبيعة الاسلام : الجمع بين الثبات والحركة ، وهو يقيم الحركة فى إطار الثبات وعلى قاعدته وهو فى نفس الوقت الذى لا يقر فيه التعصب والتزمت ، لا يقر الانطلاق والحرية غير المنضبطة ، وهو يفسح الرغبات والمطامح طريقها إلى التحقيق ولكنه يحيط الانسان بالضوابط التى تحميه من الفساد والإباحة . وهو يرفض الرهبانية والزهادة فى نفس الوقت الذى يرفض فيه الترف والتحلل . والإسلام يطالب المسلمين بالحركة ، وتغيير وسائلهم وأساليب معيشتهم ، والأخذ من كل جديد فى إطار قيمهم ومبادئهم ودون التضحية بها .

(١٢) لا بد من التفرقة بين العقيدة فى أصولها السمحة وبين عملية التطبيق فى المجتمع الاسلامى . وكذلك التفرقة بين مراحل القوة ومراحل الضعف . إن المبادىء الأساسية الإسلامية ستظل قابلة التطبيق ، لنها مثل أعلى فى الأصالة والواقعية والسماحة ومطابقة تماماً للفطرة وجارية مع الطبيعة البشرية طرداً وعكساً .

ولا ريب أن توقفها ، وتغلب مذاهب أخرى عليها فى هذا العصر ليس إلا عرضاً من أعراض ضعف المسلمين وعجزهم عن القيام على منهجهم ، وهو عرض زائل يمر بكل الأمم . ثم تكون اليقظة عاملا على تجاوزه ، وفى المبادىء الاسلامية من المرونة والسماحة ما يصلح المجتمع البشرى كله ، ويقدم له أصدق الحلول لمشاكله وقضاياه من خلال الإيمان بالله والأخلاق ، وقيام المسؤولية الفردية فى ظل الإيمان بالبعث والجزاء .

ولا ريب تنكشف يوماً بعد يوم أخطار الانحراف الذى أصاب البشرية وما تزال الصيحات تعلو حول ما أسموه « أزمة الإنسان الحديث » . فقد اعترفوا بالأزمة وعجزوا عن حلها ؛ وقدمت لهم طرق جديدة هى : متاهات جديدة وسوف لا يجدون بعد الجهد الجهيد إلا أسلوب الاسلام ، أسلوب الفطرة المنزل من عند الله .

(١٣) ولا ريب أن القول بأن (الإيمان بقضاء الله وقدره هو مدعاة للتواكل) ، هى دعوى منقوضة من أساسها ، فإن الإيمان بالقضاء والقدر كما جاءت به الأديان السماوية ، مفروض على المؤمنين فى النتائج لا فى الأسباب ، فهم مطالبون بالأسباب ، مفروض عليهم السعى والأخذ بهما ، مطالبون بعد ذلك بأن يتركوا النتائج لله مدبر الكون الواحد الأعظم ، ومن هنا كانت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر سر عظمة المسلمين الأولين ، لأنهم أخذوا فى الأسباب وبذلوا جهدهم فى استقصائها إنفاذاً لأمر الله ولم يأبهوا النتائج الضارة المؤلمة رضاء بقضاء الله ففازوا بالحسنيين . وكان أحدهم حين يخرج للجهاد فى سبيل الله لا يبالى أوقع على الموت ، أم وقع الموت عليه . وما ابتلى الناس بهذا التواكل إلا يوم آمنوا بعقيدة القضاء والقدر إيماناً معكوساً ، فأخذوا بها فى الأسباب فلم يستعدوا ونسوها فى النتائج فلم يرضوا .

ولا ريب أن الإيمان بالقضاء والقدر هو الذى دفع المسلمين إلى التقدم وجرأهم على المخاطر لتوسيع

رقعة الإسلام والدفاع عن حوزته على مر الأيام . والمعنى الحقيقي للإيمان بالقضاء والقدر هو أن يؤمن المرء بأن الله خلق عالما يسير وفق نظام دقيق ، وعلى المرء أن يعمل وفق طبيعة هذا العالم . فإن على من يؤمن بالقضاء والقدر أن يقوم بعمله بهمة وإيمان ، ولا عليه من النتائج التي هي من قدر الله وقضائه . ولقد كانت عقيدة خلود الروح من أقوى الدعائم التي دفعت المجاهدين المسلمين إلى الموت غير مكترثين ، واستصغار الدنيا وزخرفها .

(١٤) إن أثر الإسلام واضح في كل الثورات التي قامت على القيود التي تمنع العقل من التفكير . أو تفرض جماعة خاصة تحتفظ بالأسرار ، وإليها ترد الأمور . ومن الإسلام انطلقت الدعوة إلى تحرير الفكر البشري من الوثنية ، وانطلقت الدعوة إلى حق كل إنسان ، أن يفهم كتاب الله دون وسيط . وأن يتصل بالله دون وسيط ، وبالإسلام انطلقت الدعوة إلى التحرر من طغيان الظلم وعدم الخضوع لجور المستبدين . وباسم الإسلام انطلقت الدعوة إلى النظر في الكون والبحث عن الدليل وإنكار التبعية ورفض التقليد بالباطل والتحرر من عقائد الآباء إذا لم تكن قائمة على الحق الواضح الذي يقره العقل . ومن مفهوم القرآن تحررت البشرية حضارياً من مفهوم العبودية الذي سيطر على كل الحضارات القديمة (فرعونية - وفارسية - ورومانية) وجعل البشر رقيقاً لمجموعة قليلة من السادة . ومن مفهوم القرآن والإسلام انتقلت البشرية من منهج التأمل النظري إلى منهج التجريب وإخضاع الأمور للبحث العلمي . ومن مفهوم القرآن انطلقت الدعوة إلى مقاييس الإيمان بالله وإعلائها على مقاييس العصبية والعنصرية وخلق الجماعة التي تربطها رابطة الفكر والعقيدة بدلا من الدم والعنصر .

ومن منطق القرآن تحرر الإنسان من أخطار البحث عن الله والكون والموت والبعث ، فقد قدم له منهجاً متكاملا موحى به يعجز العقل عن الوصول إليه ، ولكنه لا يعجز عن إدراكه ، وبذلك حلت أعظم القضايا التي كانت مصدر الخلاف قروناً طويلة .

(١٥) لا يمكن تفسير التاريخ الإسلامي بالظروف المادية ، أو بتحديات الاقتصاد وحده . إن هناك عوامل مختلفة تحكم تاريخ الأمم . وبعضها غير مادي . وتاريخ الإسلام تحكمه عوامل كثيرة منها عوامل نفسية وروحية .

(١٦) لقد عجز العلم عن تقديم تفسير نهائي لكل الأشياء . وفي الإسلام ليس هناك تناقض بين العلم والإيمان ، والمسلم لا يجد في منجزات العلم ما يتعارض مع الإيمان . والفكر الغربي هو الذي فرق بين النظرة الدينية والنظرة العقلية والعلمية .

(١٧) إن النضالات الوطنية قد انطلقت تحت راية الجهاد في سبيل الله قبل أن تنطلق تحت راية الجهاد في سبيل الوطن ، ولقد كان الإسلام في أغلب هذه النضالات رمزاً للمقاومة الروحية ضد الاحتلال والاستبداد الاستعماري ، وكان الضمان لاستمرار وحدة اللغة والثقافة ، وكانت تتجسد فيه كل القيم النقية التي لم تكن متوفرة في ظل الاستعمار .

(١٨) الحركة قانون من قوانين هذا الكون، ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد، وليست حركة عشواء بلا ضابط ولا نظام، ولما كان لكل كوكب فلك ومدار ومحور، فإن الحياة البشرية كذلك لا بد لها من محور ثابت، ولا بد لها من فلك تدور فيه. وإلا انتهت إلى الفوضى.

(١٩) إن الفصل بين الدين والدولة: هو نتاج وافد غريب. وهو من معطيات العقائد الأوربية في تشكلها وصراعها خلال تاريخ طويل. ولكنه ليس من معطيات الإسلام، بل إن الاسلام في تكامله وترابط القيم فيه يقيم من الدين والدولة كلا متكاملا. فالإسلام دين ومنهج حياة وشريعة وخلق. وقد جاءت قضية الفصل بين الدين والدولة في الغرب هدفاً عميقاً من أهداف الايدلوجية التلمودية حيث كان الربط بين الكنيسة والحكومة حائلا بين اليهود وبين الاندماج في المجتمعات. فلما انكسر هذا القيد سيطروا على الأنظمة كلها، وفرضوا نفوذهم عليها.

والمسيحية بطبيعتها منهج يقوم على العبادة والوصايا الأخلاقية، وليست لها شريعة منفصلة لأنها لم تكن إلا إحدى رسالات بني إسرائيل مصدقة للتوراة جاءت مكملة للناموس وليست نافية إياه. ولقد اعترف المفكرون الغربيون جميعاً بحقيقة الإسلام نظاماً كاملا، وقدروا الفوارق العميقة بينه وبين الأديان والمعتقدات الأخرى. وعبارة هاملتون جب في هذا واضحة صريحة: «ليس الإسلام ديناً بالمعنى المجرد الخالص، بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية لأن ظروفه في أول الأمر أدت إلى ربط السياسة بالدين. وقد أكد هذه النزعة الأصيلة ما تلا ذلك من صوغ القانون الإسلامي والنظام الاجتماعي. والحق أن الاسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات: إنه أعظم من ذلك بكثير، فهو مدنية كاملة».

وميزة الاسلام التي خصته بأن يكون نظاماً كاملا، هو أنه قدم مبادىء عامة وأصولا ثابتة في مجال الشورى والعدالة والمساواة تصلح لإقامة مجتمع متماسك وتترك البشرية في تطورها واختلاف عصورها وبيئاتها القدرة على تقرير أسلوب مناسب في إطار هذه الأصول، وهو ما يحول دون الجمود ودون التعارض مع تطور المجتمعات، غير أن هذه الأصول واجبة الاقرار وأن مقرراتها ثابتة لا تتعرض للتطور أو التحول، وهي لا تخضع أبداً لتغير المجتمعات. ومن ذلك حدود الله في الزنا والربا والخمر والسرقة فتلك أصول أصيلة — وليست وصايا عامة — أو نصائح أخلاقية.

(٢٠) الحرية في مفهوم الاسلام أن لا يبقى الانسان عبداً لشهواته ولا عبداً لغير الله، وأن لا يخضع لسلطان غير سلطان الخالق. ويأنف أن يكون عبداً للإنسان. والحرية في الاسلام هي حرية جامعة شاملة تقوم على التحرر من قيود الجهل والخرافة والوثنية والتقليد. والاسلام أول من دعا إلى هذه الحرية، ولقد علم الاسلام الإنسان كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين.

ولقد استطاع الاسلام بهذا المفهوم أن يطلق العقل البشري من قيوده التي كانت تأسره حول

المعابد وبين ايدى الكهنة ، فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة . وإذا كانت صيحة أصحاب المذهب المادى إلى تحرير الفكر من كل التقاليد والأساطير الموروثة ، فإنها إنما كانت تعنى ذلك « الركام » الذى عاشته أوروبا فى خلال العصور الوسطى . أما الإسلام فقدكان هو صاحب الدعوة إلى مثل هذه الحرية ، ولن ما جاء به يرتفع فوق الأساطير والتقاليد ، لأنه الحق الصادق الذى تصدع به النفوس والعقول والفطرة البشرية السليمة .

وهو الذى ليس وراءه من حق أو قول : (قل ماذا بعد الحق إلا الضلال) . ولقد عرف الاسلام « الحق » عاماً شاملا بالنسبة المسلمين وغير المسلمين ، بينما عرف الغرب الحق على أنه شىء فى أوروبا . وشىء فى المستعمرات يختلف عنه بل ويتعارض معه . ومن هنا فقد كان موقف الفكر الغربى بالنسبة المسلمين والعرب والاسلام موقف الخصومة والعداء وتجاوز الحق وتجاهل كل ما ادعى أنه من المناهج العلمية للبحث والاستواء .

ولقد كان المسلمون صادقين فى تطبيق حرية الفكر على الناس جميعاً . وحافظوا على القاعدة الأساسية لا إكراه فى الدين ، ولم يسفكوا دم أحد عقاباً له لأنه قال رأى يخالف رأى الاسلام إلا إذا اتصل ذلك القائل بالخيانة السياسية .

وكما دعا الاسلام إلى تحرير الفكر دعا إلى تحرير الجسم ، فالاسلام هو الدين الذى جاء ناقضاً للرق هادماً للنظام العبودى فى امبراطوريات فارس والروم والفراعنة .

(٢١) إن أبرز معطيات الاسلام هى قدرته على معايشة الحضارات والثقافات المختلفة واستمراره فى مختلف الأزمنة والبيئات ، فهو قادر على إجراء حركة التصحيح من داخله ورد الشبهات ومقاومتها والمحافظة الدائمة على طابعه الانسانى وأصله الربانى . وللإسلام إلى ذلك قدرته على التوسع والانفتاح على الآفاق ، واقتحام مناطق جديدة من الأرض لنشر كلمته .

إن ميزة الاســـلام فى شموله وتكامله أنه جمع بين الحريات والضوابط ، وبين الفردية والجماعية وبين العلم والدين ، وبين العقلانية والوجدان ، وبين الروح والمادة ، وبين الوحى والعقل ، وبين الدنيا والآخرة ، وبين الغيب والشهادة وبين الثبات والتطور وبين الماضى والحاضر وبين المحافظة والتجدد ، وبين الاسلام والانسانية ، وتلك ميزة الاسلام وخاصيته التى تميز بها واختلف عن كل العقائد والأديان . وتلك هى مصدر قدرته الفائقة على مواجهة كل التحديات والأخطار . وعلة خلوده على الزمان .

المصادر والمراجع

(١) القرآن الكريم
(٢) الجامع الصحيح . للإمام البخارى
(٣) تبليس إبليس . لابن الجوزى
(٤) فضائح الباطنيه . للإمام الغزالى
(٥) الملل والنحل . للشهرستانى
(٦) العواصم من القواصم . للقاضى ابن العربى
(٧) تمهيد لتاريخ الفلسفه الإسلاميه . مصطفى عبد الرازق
(٨) النقد التحليلى لكتاب الشعر الجاهلى . محمد أحمد الغمراوى
(٩) دائرة معارف القرن العشرين . محمد فريد وجدى
(١٠) رسالة التوحيد . الشيخ محمد عبده
(١١) مناهج البحث عن مفكرى الإسلام . الدكتور على سامى النشار
(١٢) الإسلام والإيمان . الدكتور عبد الحليم محمود
(١٣) تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامه . محمد عبد الله عنان
(١٤) الإسرائيليات فى التفسير والحديث . محمد حسين الذهبى
(١٥) اتجاهات هدامة فى الفكر العربى . دكتور محمد محمد حسين
(١٦) الخطر اليهودى . محمد خليفه التونسى
(١٧) الفكر الاسلامى الحديث . دكتور محمد البهى
(١٨) الإسلام على مفترق الطرق . محمد اسد
(١٩) السر المصون فى شيعة الفرمسون
(٢٠) الفلسفة الماديه . بحث الدكتور أحمد حسن الرحيم

(٢١) الملل المعاصرة فى الدين اليهودى . الدكتور الفاروقى
(٢٢) رحلة الأدب العربى إلى أوربا . للشوباشى
(٢٣) تحت راية القرآن . الرافعى
(٢٤) الجمعيات السريه . على أدهم
(٢٥) أهداف إسرائيل التوسعيه . محمود شيت خطاب
(٢٦) اليهوديه العالميه . عباس محمود العقاد
(٢٧) الغارة على العالم الإسلامى . ترجمة السيد محب الدين الخطيب
(٢٨) التبشير والاستعمار . عمر فروخ وآخر
(٢٩) تاريخ الفكر العربى . عمر فروخ
(٣٠) بحث عن الحلول والاتحاد . محمود قاسم
(٣١) الرد على الدهريين . جمال الدين الأفغانى
(٣٢) التصور الاسلامى . سيد قطب
(٣٣) إله الإلحاد المعاصر . كوستى بندلى
(٣٤) إخوان الصفا . عمر الدسوقى
(٣٥) الفلسفه الإسلاميه . عبد الرحمن مرحبا
(٣٦) تاريخ الطبرى جـ ٣
(٣٧) الفرق بين الفرق . للبغدادى
(٣٨) التبصير بالدين . الاسفرايينى
(٣٩) رجال الفكر والدعوة . للندوى
(٤٠) ديانة الإسماعيليه ونظامها . للندوى
(٤١) الرسالة سنه ١٩٤٦
(٤٢) وفيات الأعيان . ابن خلكان ، ابن المقفع ، جـ ١
(٤٣) التفسير الإسلامى للفكر البشرى . أنور الجندى
(٤٤) حقيقه البابيه والبهائيه . محسن عبد الحميد
(٤٥) الروحيه الحديثه . محمد محمد حسين

موسوعة مقدمات العلوم والمناهج

المجلدات من السادس إلى العاشر

(تصدر على التوالى)

المجلد السادس :

المجتمع الاسلامى

ويضم أربع دراسات موسعة عن (١) النظام الاسلامى
(٢) التربية وبناء الأجيال
(٣) المجتمع الإسلامى وقضاياه : الشباب والمرأة
(٤) دراسة الأيدلوجيات المعاصرة

المجلد السابع

الحضارة والعلم والعلوم الإجتماعية

ويضم ثلاث دراسات موسعة عن :
(١) الإسلام والعلم
(٢) الإسلام والحضارة
(٣) مفاهيم العلوم الاجتماعية

المجلد الثامن

الاسلام وموقفه من الفلسفات والأديان

ويضم ثلاثة دراسات موسعة عن :
(١) الاسلام والنحل والمذاهب المختلفة
(٢) العلمانية وموقف الاسلام منها
(٣) الفلسفات القديمة وموقف الاسلام منها

المجلد التاسع

الشبهات والأخطاء الشائعة

ونضم دراسات عن :
(١) المنهج الغربى الوافد وأخطائه فى الأدب والاجتماع والاقتصاد
(٢) قضايا وشخصيات وكتب وردت فى التاريخ الحديث

المجلد العاشر

حركة اليقظة الاسلامية

ويضم دراسات عن تاريخ حركة اليقظة الاسلامية فى مواجهة عصر الاستعمار وعصر التغريب والغزو الثقافى من خلال مواجهات الرأسمالية والشيوعية والصهيونية

دراسات إسلامية للمؤلف

أولا : حركة اليقظة الاسلامية

١ ـ حركة اليقظة الإسلامية (فى مواجهة الغزو الغربى والصهيونية والشيوعية)

٢ ـ على مشارف القرن الخامس عشر الهجرى

٣ ـ إطار إسلامى للفكر البشرى

٤ ـ القرن الخامس عشر الهجرى : تحديات الدعوة الاسلامية والعالم الاسلامى

ثانياً : دراسات إسلامية :

١ ـ عالمية الاسلام

٢ ـ المثل الأعلى للشباب المسلم

٣ ـ جوهر الاسلام فى مرآة الفكر الانسانى

٤ ـ أصالة الفكر الاسلامى فى مواجهة الغزو الثقافى

٥ ـ الإسلام فى غزوة جديدة للفكر الانسانى

٦ ـ مشكلات الفكر فى ضوء الإسلام

٧ ـ قضايا العصر فى ضوء الاسلام

٨ ـ من منابع الفكر الاسلامى

٩ ـ الاسلام والثقافة العربية فى مواجهة الاستعمار

١٠ ـ شبهات فى الفكر الاسلامى

١١ ـ القيم الأساسية للفكر الاسلامى والثقافى العربية

١٢ ـ معالم الفكر الاسلامى المعاصر

١٣ ـ أحاديث إلى الشباب المسلم

ثالثاً : فى مجال الأدب

١ ـ الأدب العربى المعاصر (النثر العربى المعاصر)

٢ ـ على مشارف القرن الخامس عشر

٣ ـ المعارك الأدبية (طبعة جديدة)

٤ ـ المساجلات والمعارك الأدبية

٥ ـ صفحات مضيئة فى تاريخ الإسلام

رابعاً : الأعلام

عبدالعزيز جاويش ، أحمد زكى باشا، فريد وجدى ، طه حسين ، حسن البنا

مقدمات العلوم والمناهج

محاولة لبناء منهج إسلامى متكامل

بناء الفكر الإسلامى الممتد خلال أربعة عشر قرنًا تعرض على طوال المدى لمحاولات الغزو والتغريب وقد قاومتها حركة اليقظة حين أقامت منهج السنة والجماعه ثم واجه المسلمون حملات الفرقة والدعوات الهدامة وكشفوا زيفها وفى العصر الحديث توالت محاولات الاستعمار والصهيونية والشيوعية من خلال مؤسسات التغريب والغزو الثقافى عن طريق التبشير والاستشراق ، ومن هنا فقد ضمت هذه الموسوعة تلك المحاولة الضخمة كاشفة للتحديات التى واجهت الفكر الإسلامى واللغة والأدب والثقافة والحضارة والعلم والعلوم الاجتماعية وفيما يتصل بمقارنات الأديان والفلسفات وفى المجلد الأول يتناول البحث بناء الفكر الإسلامى فى مواجهة التغريب والغزو الفكرى كاشفًا عن المحاولات التى قامت بها الدعوات المختلفة القديمة المتجددة وما يتصل بالمناهج العلمية والدراسية وأخطاء المنهج الغربي الوافد فى مجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية .

وستواصل الدراسة هذه القضايا المركزة فى أربعين رسالة من خلال المجلدات العشر التى يتوالى صدورها كمحاولة لبناء منهج متكامل للفكر الإسلامى ✗

أسعد سيد أحمد

دار الأنصار للطبع والنشر